McGill University Libraries
3101389500X

McGill University Libraries
3 101 389 500 X

AP .M266
INSTITUTE
OF
ISLAMIC
STUDIES
22374 ★ v. 20-21
McGILL
UNIVERSITY

المنار

١٣١٥

مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤونه الاجتماع والعمران

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

ناظر مدرسة دار الدعوة والارشاد

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المجلد العشرون

سنة ١٣٣٥ — ١٣٣٦ هـ ق ١٢٩٥ — ١٢٩٦ هـ ش

قيمة الاشتراك عن سنة ثمانون قرشا صحيحا في مصر والسودان وسائر البلاد العربية و٢٤ فرنكا في الخارج و١٤ روبية في الهند و٩ روابل في روسية والدفع سلفا

الطبعة الاولى

حقوق إعادة الطبع والترجمة للكل أو البعض محفوظة لمنشئ المجلة

مطبعة المنار بمصر

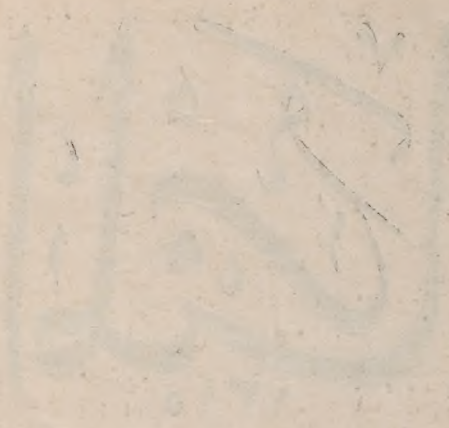

﴿ فهرس عام لجميع المواد التي وردت في المجلد العشرين ﴾

ما وضع بين قوسين فهو عنوان في الاصل

صفحة

آباء النبي ﷺ مسألة ايمانهم ٢٥٤
آثار الانبياء ، زيارتها ٣٥٣
الآخرة . النجاة فيها بالايمان والعمل دون الفدية والشفاعة ١٨٦ ، ٢٦١ و ٣٣١
آدم . دليل نبوته ورسالته ٣٨٧
آزر . اسمه وكفره ٢٥٢ و ٢٦٠
آلهة الكلدانيين وتأليههم ٣٠١
آل البيت . الصلاة عليهم ٣٩٦
« بعدهم عن الرياسة والحرب ٤٠٢
« مودتهم وموالاتهم ٣٩٤
آل ياسر . أصلهم وتعذيبهم ٤٠٠
الآيات . تفصيلها والغاية منه ١٤
« لاغراض عمن يخوض فيها ١٧٢
« في كتابة مقادير الخلق ٨٧
« في كفر آزر ٢٥٥ و ٢٦٣
آيات الانبياء ليست كسبية ٢٦٣
آيات الله . الفقه في تصريفها ١٣٥
ابراهيم . اتيانه باسماعيل وأمه الى وادي مكة ١٢٤
« استجابة دعائه لمكة ١٢٦
« اسمه واسم أبيه ولغته ٢٥٠
« تضليله لابيه وقومه وارائته الملكوت وبيانه للتوحيد ونشأته وعقائد قومه وحجته عليهم ٢٥٤ — ٢٦٩ و ٢٨٩ — ٣٠٦
ابطال كتب الانسان له ١٨٥
أبو طالب . موته والشفاعة له ٢٥٩ ، ٢٦٥
الاتحاديون ٣٥ و ٤٠ و ٤٥ و ١٦٦ و ٢٨٤ ، ٤٤٥
الاجماع . رفض المتفرجين له ٤٣٢
الاجر على الرسالة . نفي طلبه ٣٩٣
الاحاديث في التصوير والصور ٢٢١
أحاديث الحج (في مظانها)
احاديث الفتن ومستقبل المسلمين ١٣٧ — ١٤٣
(الاحرام بالحج وشد الرحال الى عرفات) ١٥٦
أحمد سفوت . دعوته الى ابطال أصول الشريعة ٤٠٥
الارحام . امكان العلم بما فيها من الحمل ٧٣ و ٨٥
الارمن ٤٦ و ٥١
الازهر . شيخه الجديد ١٦٥
الاسباب ١٣٠ ، ٣٣٢
الاستاذ الامام مابذه العلماء ٤١٣
استقلال الشعوب وأقوال الدول فيه ٤٨ — ٦٠ ، ١٩٩ و ٢٤٦
(استقلال ألبانية) ٥٨
استهواء الشياطين ٢١١
(الاسرائيلون وفلسطين) ٢٠٥
الاسرائيليات ٢٥٢
الاسلام والسكنة ٣٨٦ ، ٤٢٩
« اصلاحه في أحكام الرق ٢٠
« وعصبية الجنس ٤١
« ما امتاز به على الاديان ٤١٧
« هدى الله ٢١٧
« الولادة على فطرته ٣٩٢
« يسره ٢٧٥
اسماعيل واسحاق . في القرآن ٣٧٠
« نشأته بمكة ١٣٤
الاصلاح الاسلامي وادعياؤه ٣٤٠ و ٤٠٤
أصل التوحيد وأصل الوثنية ٢٦١
الاصنام . أصلها عند العرب ٢٦٢
الاغوال والسعالي ٢١١
(اقتراح عظيم في الاصلاح الاسلامي) ١٢٧

صفحة

الالمان . كسرهم للروس والرومان ١٢٨
« دعوتهم للصلح ٢٤٦
« هجومهم الاكبر ٤٤٤
الاله والرب . مسماها ٣٠٤
أمريكة والحرب ٤٨ و ٤٠
أم القرى . اطلاقه على مكة ٤٢٠
الامم . حريتها ٤٨ و ٦٠
الامة الاسلامية (راجع المسلمون)
الانبياء . ايتاؤهم الكتاب والحكم ٣٧٦
« . تمثيل قصصهم ٣١٢
« حصر وظيفتهم في التبليغ ٢٦١
« درجاتهم ومعرفتهم بالله ٣٣٨
« . كفر بعض أقاربهم ٢٦١
« . نسيانهم ونسبته الى الشيطان وعصمتهم ١٧٤
الانصار . نصرهم وفضلهم ٤٢٣
الانكليز . حربهم السياسية ٢٠٢
اردهم على اقتراح ولسن للصلح ١٩٩ غرضهم من الحرب وأولهم للقمم و عدده ٥٠ و ٥٥ ومسألة سورية وفلسطين ٥١ و ٢٠٥
أهل السنة من هم ٢٦٨
الاهواء والبدع ١٧٢
(أيام منى وليالها) ٣١٦
الايام المعدودات والمعلومات ٣١٦
ايطالية . غايتها من الحرب ٥٧ وحماية ألبانية ٥٨ تفسير وزيرها لاستقلال الشعوب ٢٤٧
الايمان بالرسل اجمالا وتفصيلا ٣٨٥
« حقيقته وبم يزول ٣٨٦
الايمان والخوف من غير الله ٣٣١ — ٣٣٧

ب — ث

البابا . دعوته الى الصلح ورد

صفحة

الدول عليها ١٩٩
بحرة بين جدة ومكة ١١٢ و٣٦٢
البدع. استحسانها ونوعاها ووسيلة
إبطالها ٢٥ـ٣٢، ٣٩٥ و١٠٣
البشر. اختلاف أفهامهم ١٣٩
« تفرقهم شيعا وتعاديهم ١٣٢
« حاجتهم الى الرسالة ٤١١
« شعورهم بالحاجة الى
الله عند تقطع الاسباب ١٣٠
البعث والجزاء ٨٨
بغداد. ماقيل فيها ١٦٦ و٢٠٦
البلاغة. تحصيل ملكتها ١٤٧

تأويل أهل الاهواء للآيات ١٧٢
تأويل القلم واللوح المحفوظ ٨٠
(التحول وميادين الحرب) ٤٤٤
التربية في المدارس الاجنبية ٣٦٨
الترك والعرب ٣٦ ـ ٤٧ و٦٠
١٦٦ و٢٨٣ و٤٤٥
الترمس أو الترموس ١٠٩
تصحيح غلط ٤٤٦
التصوير واتخاذ الصور وصنعها
وحكمها وفوائدها ٢٢٠ و٢٧٠
تعليم اللغة وطريق تحصيلها ١٤٧
التفرنج. علاج مفاسده ٤٣٦
« معناه وأنواعه ٣٤٠
التفسير (في أوائل الاجزاء)
التقليد. تأويل أهله للنصوص ١٧٢
« وكونه ليس بعذر ٣٣٠.
التقوى. معناها ٢١٧
التلبية في الحج. تأثيرها ١٢٠
التماثيل ٢٢٠ . و ٢٣٠ .
٢٦٢ و٢٧١
تماثيل اللعب والحلوى ٢٣٣
التمثيل وحكم اشتغال المسلمة به
وادخال قصص الانبياء فيه ٣١٠
(تنبيه غافل وتعليم جاهل) ١٣٩
التوبة والاصلاح سبب المغفرة ١٣
التوحيد الفطري ١٣
توجيه الوجه للفاطر ٢٩٩
التوحيد الخالص ٢٩٩ و٣١٦
التوراة. اخفاء بعضها ٤١٦
التوفي معناه اللغوي والاسلامي
٨٦ اسناده الى الله والى رسله
والى ملك الموت ٩٢

ج ـ خ

جبل الرحمة وصورته ١٩٦ و١٩٨
(جرجي زيدان) كتاب ٣٦٧
الجرح والجوارح ٨٧
الجمار. أصلها لغة ١٧٧
الجمعة. مايشترط من العدد لاقامتها
وفي مكان إقامتها ووقتها ١٠٥
جمعية الاتحاد والترقي (راجع
الاتحاديون)
« الشورى العثمانية ٤٠
الجن. أنواعها وعلاقتها بالناس ١٨٠
و ٢١٤ « وراجع الشيطان »

(الحالة الروحية في المسالك) ١١٩
(الحالة السياسية في الحجاز) ٢٧٨
الحج. عبادة روحية بدنية اجتماعية
وحكمة مناسكه ٩ ١١ و٣٣
الحجاز. استقلاله ٤٦
« حكومته وحالتها ٢٧٨
الحجر والصخر والحصى ١١٤
الحجر الاسود وحكمة استلامه ١٢٢
الحجة والتقليد ٣٣٠
الحديث. تربيته ملكة البلاغة ١٤٦
« معارضة القرآن له ٢٥٦
حديث أبي ذر في الرسل ٣٨٩.
« أصحابي كالنجوم ٨٤
« ارم فداك أبي وأمي ٤٢٦
« اعطيت خمسا ٣٨٨
« ألا ترضون ٤٢٥
« أنتم أعلم بأمور دنياكم ١٧٧
« ان أبي وأباك ٢٥٨
« ان الله أكرمني بالاولوية ٣٩٩
« ان الله خلق آدم وبنيه
حنفاء ٣٩٢

حديث صفحة
« ان الله ليؤيد هذا الدين } ٣٨٠
« « « الاسلام }
« انما هي توبة نبي ٣٨٥
« اني اعطي رجلا حديثي عهد
بكفر ٤٢٥
« تفسير الظلم بالشرك ٣٣٧
« جف القلم ٩٥
« خرافة ٢١٥
« خلق الله آدم على صورته ٠٨٣
« خياركم في الجاهلية الخ ٤٠٠
« دخلت النار امرأة ٨٩
« رفع عن أمتي الخطأ ١٨١
« زيارة النبي قبره ٢٥٨
« سجدها داود توبة ٣٨٥
« الشفاعة ٣٨٧
« عق النبي عن نفسه ٢٦
« كل مولود يولد ٣٩٢
« لا تجتمع أمتي على ضلالة
و ـ لن تجتمع أمتي ٤٣٢ ٠
« لولا الهجرة لكنت امرءا
من الانصار ٤٢٥
« موت أبي طالب ٤٠٠
« الناس تبع لقريش ٤٠٠
« يامعشر الانصار ٤٢٣
« يتعاقبون فيكم ٩٠
« يجمع الله الناس ٣٨٧
الحرب. أهم أحداثها ١٢٨
« . التحول فيها ٤٤٤
« غايتها واغراضهم منها ٤٨
« مصائبها ٣٦٤
« مصداق للقرآن ١٣٤
(الحرب والسلم) ١٩٩ ٢٤٦
(حسن جلال باشا) ترجمته ٤٣٧
(حكم تارك الصلاة) ١٨٨
« حكم التصوير وصنع الصور
والتماثيل واتخاذها » راجع التصوير
الحكم وحظ الانبياء منه ٣٧٦
حكمة أحاديث الفتن وضعف
الامة ١٤١

صفحة
(حكمة تحريم الدم المسفوح) ١٤٥
حكمة جعل الرسل ٣ أقسام ٣٧٢
حكمة كتابة المقادير ٩٥
حكمة مشروعية الحرب ٤٠٣
حكم مناسك الحج (راجع الحج)
(الحكومة العربية الجديدة) ٢٧٨
الخلفاء. واستقلال الامم ٤٨ـ٦٠
وغاياتهم من الحرب ٥٣و١٩٩
الحنيف والحنيفية ٣١٦

خاتمة المجلد العشرين ٤٤٧
«خطبتنا السياسية بمنى» ٢٨٢
خالد النقشبندي (الشيخ) ٣٦١
خلق المرأة (كتاب) ٣٦٧
الخلافة ومبايعة الشريف بها ٢٨١
الخوض في آيات الله ١٧٠

درجات الانبياء وغيرهم ٣٣٦
الدعاء في الضراء بنوعيه ١٣٠
دعاء غير الله ١٦
الدكرور. وصف حجاجهم ١١١
الدم المسفوح ١٤٥
الدولة العثمانية والعرب ٤٤
الدين. اتخاذه لعبا ولهوا ١٨٤
الدين. مداره على الحجة ٣٣٤

ذبائح التنسك ٢٧٧
الذكر بأسماء الله مفردة ٤١٨
ذكرى المولد النبوي. نقد ٣٤٥
« رد ٣٩٥و٤٢١
الذكورة والانوثة. سنة الله فيهما وامكان العلم بالحمل ٧٣

ر ـ ز

راية الغبي ص ٣٩٧
رؤيا غريبة في شأن الملة ٣٧٩
«رحلة الحجاج» ١٠٨و١٥٠ و١٩٢ و٢٣٦و٢٧٦و٣١٦ و٣٥٢
الرحمة. كتابة الله إياها على نفسه ١٢
(رد المنار على الناقد لذكرى المولد) ٣٩٥ و٤٢١
الرسل. الايمان بهم اجمالا وتفصيلا ٣١٥
الرقيق الابيض والاسود ١٩
روسيه. ثورتها وثلها عرش القياصرة ونفيها للقيصر وآله وانكسارها في الحرب ١٢٨ اقتراحها حرية الشعوب وعدم الضم والغرم ٤٨ و٢٠٦
الرياح. كونها لواقح للنبات ١٣٤
الرياضة البدنية في الحج ١١٩

الزكاة. تخصيصها بالاتقياء ١٢٧
زمزم. سبب تفجرها ١٢٥
الزهد. منافعه ومضاره ١٣٩
الزواوي «راجع عبد ويوسف»
زينب «السيدة» قبرها ١٦٤

س ـ ش

السؤال (الشحاذة) ٣٥٩
السكر الليموني في السفر ٣٦٣
السلام ومعانيه ١١
سلطان مسقط. ضيافته لنا ١١٧
السلف. أدبهم مع آل البيت ٢٦٧
« مذهبهم ٢٦٨
سليم البشري، ترجمته ١٦٠و٢٨٨
سنة الله في خلق الذكر والانثى ٧٣
« في المعاندين للرسل وفي المتفرقين في دينهم ١٣٦
السنة. هدايتها الاجتماعية ١٤١
«السنة الرابعة للحرب» ١٢٨
سورية. جلاء الترك عنها ٤٤٥
« مستقبلها ٥١ و٢٠٥
السيوطي. رسائله في الابوين الشريفين ٢٦٠

شرع من قبلنا ليس شرعا لنا ٣٨٣
الشرك. احباطه للاعمال ٣٧٥
صفحة
ك بدعاء غير الله ٢١٠
الشرك. تسميته ظلما ٠٣٣٥
الشرك في الرخاء والشدة ١٣١
الشريعة تحويلها الى قانون ٤٠٤
الشريعة. هدم المتفرنجين لها ٤٢٩
شريف مكة. حفاوته بنا ١١٦
شريف مكة. صفاته ٣٥٦
الشعر في المشاعر والمناسك ٣١٩
الشفاعة ١٨٦و٢٦١و٣٣١ و٣٨٧
شيخ الازهر ١٠٤ و١٦٠ و١٦٥و٢٨٨
الشيطان انساؤه ووسوسته وسلطانه عصمة الانبياء ١٧٤ـ١٨١
الشياطين واستهواؤها الناس ٢١١
الشياطين. تشبيههم بميكروبات الامراض ١٨٠

ص ـ ظ

الصالحون. تعظيم قبورهم وصورهم «راجع القبور»
الصبي ـ قصة ٣٦٧
صحف الاعمال ٠٩٠
الصدقات ومستحقوها ٢٥٩
الصلاة. لزومها وامدادها للايمان واستلزامها العمل الصالح ٤٢١
« فائدة اقامتها ٢١٧
« معنى كفر تاركها ١٨٩
الصلح. طلب دول التحالف الجرماني له ١٦٩و٤٧٦و٤٤٦
الصهيونيون ٣٠٥
الصور
« سبب عبادتها راجع التصوير
الصور والنفخ فيه ٢١٨
الصوفية غرورهم وتأويلهم ٣٠٧

الضلال. معناه ٢٨٩
الضم والغرم ٤٨ـ٥٧ و١٩٩ و٣٤٦

فهرس المجلد العشرين

صفحة

(حكمة تحريم الدم المسفوح) ١٤٥
حكمة جعل الرسل ٣ أقسام ٣٧٢
حكمة كتابة المقادير ٩٥
حكمة مشروعية الحرب ٤٠٣
حكم مناسك الحج (راجع الحج)
(الحكومة التركية الجديدة) ٢٧٨
الحلفاء واستقلال الامم ٤٨ — ٦٠
وغاياتهم من الحرب ١٩٩،٥٣
الحنيف والحنيفية ٣١٦

خاتمة المجلد العشرين ٤٤٧
«خطتنا السياسية بمنى» ٢٨٢
خالد النقشبندي (الشيخ) ٣٦١
خلق المرأة (كتاب) ٣٦٧
الخلافة ومبايعة الشريف بها ٢٨١
الخوض في آيات الله ١٧٠

درجات الانبياء وغيرهم ٣٣٦
الدعاء في الضراء بنوعيه ١٣٠
دعاء غير الله ١٦
الدكرور. وصف حجاجهم ١١١
الدم المسفوح ١٤٥
الدولة العثمانية والعرب ٤٤
الدين. اتخاذه لعبا ولهوا ١٨٤
الدين. مداره على الحجة ٣٣٤

ذبائح النفسك ٢٧٧
الذكر بأسماء الله مفردة ٤١٨
ذكرى المولد النبوي. نقد ٣٤٥
« رد ٣٩٥ و٤٢١
الذكورة والانوثة. سنة الله فيهما وامكان العلم بالحمل ٧٣

ر — ز

راية النبي ص ٣٩٧
رؤيا غريبة في شأن الملة ٣٧٩
«رحلة الحجاج» ١٠٨ و١٥٠ و١٩٢ و٢٣٦ و٢٧٦ و٣١٦ و٣٥٢
الرحمة. كتابة الله اياها على نفسه ١٢
(رد المنار على الناقد لذكرى المولد) ٣٩٥ و٤٢١
الرسل. الايمان بهم اجمالا وتفصيلا ٣٠٥
الرقيق الابيض والاسود ١٩
روسيه. ثورتها واثرها على القياصرة وفيها للغير وآله وانكسارها في الحرب ١٢٨ اقتراحها حرية الشعوب وعدم الضم والغرم ٤٨ و٢٠٦
الرياح. كونها لواقح للنبات ١٣٤
الرياضة البدنية في الحج ١١٩

الزكاة. تخصيصها بالاتقياء ١٢٧
زمزم. سبب تفجرها ١٢٥
الزهد. منافعه ومضاره ١٢٩
الزواوي «راجع عبد ويوسف»
زينب «السيدة» قبرها ١٦٤

س — ش

السؤال (الشحاذة) ٣٥٩
السكر الليموني في السفر ٣٦٣
السلام ومعانيه ١١
سلطان مسقط. ضيافته لنا ١١٧
السلف. أدبهم مع آل البيت ٢٦٧
« مذهبهم ٢٦٨
سليم البشري. ترجمته ١٦٠ و٢٨٨
سنة الله في خلق الذكر والانثى ٧٣
« في المماثلين للرسل وفي المتفرقين في دينهم ١٣٦
السنة. هدايتها الاجتماعية ١٤١
« السنة الرابعة للحرب ١٢٨
سورية. جلاء الترك عنها ٤٤٥
« مستقبلها ٥١ و٢٠٥
السيوطي. رسائله في الابوين الشريفين ٢٦٠

شرع من قبلنا الذي شرعنا لنا ٣٨٣
الشرك. احتياطه للاعمال ٣٧٥
عصمة الانبياء ١٧٤ — ١٨١
الشياطين واستهواؤها الناس ٢١١
الشياطين. تشبيههم بميكروبات الامراض ١٨٠

ص — ظ

الصالحون. تعظيم قبورهم وصورهم «راجع القبور»
الصبي — قصة ٣٦٧
صحف الاعمال ٥٩٠
الصدقات ومستحقوها ٢٥٩
الصلاة. لزومها وامدادها للايمان واستلزامها العمل الصالح ٤٢١
« فائدة اقامتها ٢١٧
« معنى كفر تاركها ١٨٩
الصلح. طلب دول التحالف الجرماني له ١٦٩ و٤٧٦ و٤٤٦
الصهيونيون ٣٠٥
الصور
« سبب عبادتها راجع التصوير
الصور والنفخ فيه ٢١٨
الصوفية غرورهم وتأويلهم ٣٠٧

الضلال. معناه ٢٨٩
الضم والغرم ٤٨ — ٥٧ و١٩٩ و٣٤٦

(الطعن في رئيس وزراء الانكليز) ٢٠٤
طلعت باشا، رؤيا غريبة ٣٧٩
الطواف والسعي ١١٨، ١٣١

الظل الوارد بمعنى الشرك ٣٣٥
ظلمات البر والبحر ١٣٠

ع — غ

العباسيون. التنويه بمجده ١٦٦
(الشيخ عبد الكريم سلمان) ترجمته ٤١٧
عبدالله الزواوي بمكة ١١٧
عبد المطلب. أولاده ٤٢١
(عبر التاريخ ـ ماقيا في فتح الانكليز بغداد) ١٦٦ و٢٠٦
العذاب. استعجال الكفار له وكونه عندالله لا عندالرسول ١٧
العذاب من فوق وتحت ولبس الناس شيعا ١٣٢
العرب والاستقلال ٥١، ٦٠ و١٦٨، ٢٨٦
العرب، حضارتهم وبغداد ١٦٦
« تكوين الترك لعصبيتهم ٤٣
« ضعفهم في لغتهم ١٤٨
« علاقتهم بالترك ٤٤ و٦٠
« والعصبية الجنسية وثورة الحجاز
« راجع المسألة العربية »
العرب في آخر الزمان ١٤٣
العربية لغة قدماء الكلدانيين والمصريين ٢٥٢
عرفات صفة الوقوف فيها ٢٣٥
« صفتها وخريطتها ١٩٦
(عرفات وحدودها) ١٩٢
عصمة الانبياء ١٧٥
العقاب راية قريش ٣٩٧
العلماء الالهيون والاجتماعيون أفضل من الفقهاء والمتكلمين ١٤٢
علم الله. احاطته والشفاعة ٣٣١
العلم الاستقلالي. علاج للكفر والتفريج ٤٣٦

صفحة
العلم. أعلاه العلم بالله وبسنته ١٤٢
علم الغيب ٦٦. و٧٢ و٧٦
العوام والخواص ٢٢

الغرامة الحربية ٤٨
« غاية الحلفاء من الحرب » ٥٣
الغلاء الفاحش بمصر ٣٦٤
الغلط. اصلاحه ٤٤٦
الغواصات الالمانية وجوانحها ٣٦٤
الغيب. الايمان به ٧٩

ف — ق

(فسخ النكاح بالعيب) ٩٧
فرنسة غايتها من الحرب ٤٨، ٥٣ و٥٩
الفعل المضارع بمعنى الماضي والشأن ١٠
الفهر ١٤٤

القاسم بن محمد بن أبي بكر ٢٣٤
(قاعدة اصلاح قانون الاحوال الشخصية) ٤٠٤
قانون المجمع اللغوي ٦١
القاوقجي الشيخ محمد الكبير) ٧٧
القبور. تعظيمها وعبادتها ١٦٤ و٢٣٠، ٣٣٥، ٢٧٢
القدر والاسباب ٣٣٠
قدر الله حق قدره ٤١٠
القرآن. أسباب النزول ٩
« استفادة بلاغته وهدايته بالنية ١٤٩
« والايمان بالبعث ٤٢٠
« امتيازه على الكتب ٤١٧
« أنباؤه الغيبية وصدقها ١٤٤
« ايجازه بالعطف على المحذوف ١٥
« بلاغته ٩٣، ١٣٣ ٢١٠ ؛ ٣٣٣، ٣٧٧ و٣٧٣
« بيانه للغيوب المستقبلة والحقائق العلمية ١٣٣ـ١٤٥
« تصدقه للكتب قبله ٤١٩
« تكذيبهم به وهو الحق ١٣٤
« تناسب آيه ٩، ١٦، ٦٦ ١٢٩، ١٣٣، ١٤٥، ١٧٠ و٢١٠، ١٢٩ و١٣٢ و١٤٥ و١٧٠
« تربيته ملكة البلاغة ١٤٦
« الخوض في آياته ١٧٠
« دلالة الآثار على صدقه ٣٤٠
« عموم ما نزل بسبب منه ١٣٥
« مشكلات تفسيره ٤١٤
« مصداقه في الحرب الاوربية ١٣٤
« مهيمن على الكتب ٣٨٤
« هدمه قواعد الشرك ٢٦٢
« هديه في معاملة الكفار ١٧٣
« هدايته الاجتماعية ١٤١
قريش معاداتهم للنبي والتعصب لهم ٣٤٦ و٣٩٩
القهر. معناه ووصفه تعالى ٨٩
القياس. رفض المتفرنجين له ٤٣١

ك — ل

الكتاب المبين وما بمعناه ٧٨
(الكتابة وطريق تحصيلها) ١٤٦
كتابة الملائكة الاعمال ٩٠
(كتابة الله مقادير الخلق) ٧٨
الكعبة تأثيرها ١٢١ دخولها والصلاة فيها ٣٥٤ مفتاحها وحجابتها ١٥٢
الكفار. اتخاذهم دينهم لعبا ولهوا ١٨٤
« أمر الرسول بتركهم ١٨٥
الكفر، حقيقته وشرط الردة ٣٨٦ و٤٣٠ سببه ٤١٨ نوعاه ١٩٠ و١٤٣
الكلاب. امتناع الملائكة من الدخول حيث هي ولعب الاطفال بها ٢٢٤ و٢٣٥
الكلدان. عقائدهم وآثارهم ٣٠١
الكواكب. ألوهيتها ٣٩٢

عب البنات راجع التماثيل والكلاب

اللغة . طريق تحصيلها ١٤٧
اللوح المحفوظ وما يمناه ٧٨

م

الماء . في السفر ١٠٨ و٣٦٣
«المبيت بمزدلفة الخ» . ٢٤٢
المتفرنجون والاصلاح الاسلامي) ٣٤٠ و ٤٠٤ و ٤٢٩
المتكلمون، آراؤهم في حجة ابراهيم ٢٩٥، ٣٠٦
المجلة السلفية ٢٠٨
(المجمع اللغوي المصري) ٦١
محمد أبو الفضل شيخ الازهر ١٦٦
محمد نجيب رفيقنا في الحجاز ٣٦١
محمود نشابه (علامة سورية) ٧٧
المزدلفة ١٩٣ و ٢٤٢
المساجد على القبور راجع القبور
(مسألة استقلال الشعوب) ٤٨
(المسألة العربية) وفيها بحث الجنسية والاسلام والخلاف بين العرب والترك والمانع من تأسيس دولة عربية والجمعيات العربية واستقلال الحجاز ٣٣
المسلمون اتباعهم سنن من قبلهم
« اختلاف فهمهم للنصوص والحكم باختلاف الاحوال الاجتماعية ١٣٩
« انحطاط خلفهم عن سلفهم ١٤٠
« البشارات في مستقبلهم ١٤٢
« تداعي الامم عليهم ١٣٨
« تقصيرهم في شرح ما في الآيات والاحاديث من القواعد الاجتماعية والسياسية ١٤١
حالتهم الى صباحة التصوير ٢٧٤
« زوال أكثر ملكهم وما على الباقي ١٣٨
« شكواهم من المتفرنجين ٣٤٤
« ضعفهم منذ ارتقاء الافرنج ٣٤١
« مصلحتهم في دولة عربية ٣٥
لمسيح . نحر ربة الشيطان له ١٨٠
المشركون، خوفهم وتخويفهم من غير الله ٣٣١
« شبههم على شركهم ٣٣٤
مشيئة الله لا يؤثر فيها تي ٣٣١
(مصائب الحرب) ٣٦٤
المعمرون، اسرافهم ٣٦٥
المغفرة، أثر التوبة والاصلاح ١٣
مفاتح الغيب. وكونها لا يعلمها الا الله وتفسيرها بالخمس التي في آخر لقمان . وما يرد عليه ٦٦
(مقدمة ذكرى المولد النبوي) ٣٢
مكة تسخير الله الناس لها ١٢٦
« مقامنا وحالنا فيها ١١٧ و ١٥٠
« وصف شوارعها ومداخلها ومخارجها والمسافة منها الى عرفة ١٥٧
الملائكة . لا تدخل بيتا فيه كلب أو صورة ٢٢٣، ٢٢٩
الملائكة الحفظة الكاتبون ٨٩
« الموكلون بالاعمال والتدبير ٩٦
الملك المقتدر . احتفاله بالمولد ٣٢
ملك الموت وأعوانه ٩٢
المنار، الانتقاد عليه ٤٢١ و ٤٤٨
« ذرية صاحبه ٤٠٨
« رأي الازهريين فيه ٥
« خاتمة المجلد العشرين ٤٤٧
« فاتحة سنته . واجمال دعوته ١
المناسك . الحالة الروحية فيها ١٢٠
منى . أيامها ولياليها وصورتها ٣١٦
« ومناسكنا وشؤوننا فيها ٢٤٥ و ٢٧٧ — ٢٨٠
المولد النبوي . حكم الاحتفال به وأمثاله من البدع ٢٣
المؤمن لا يخاف ويرجو غير الله ٣٣٤

ن ٥٠ و

النبات ذكر وأنثى ١٣٣
نبينا . الادب مع قرابته ٢٦٦
« اقتداؤه بهدى الرسل ٣٨٠
« اعطاؤه غنائم حنين للمكيين دون الانصار ٤٢٤
« ابداء قومه له ٤٢٢
« تعظيمه بالابتداء ٢٦٤، ٢٧٨
« تفضيله على الرسل ٣٣٩ و ٣٨٢
« ثباته في أحد وحنين ٤٢٣
« حكمة إخباره أمته بتفرقها وابتداعها بعده ١٤١
« دخوله الكعبة وصلاته فيها ٣٥٤
« دعاؤه لامته واستجابة بعضه ١٣٥
« راياته وألويته ٣٩٧
« زيارته قبر أمه ٢٥٨
« سؤال قريش اليهود عنه ٤١٥
« عموم بعثته ٤٢٠
« العقاب والحكم لله لا له ١٧
« قبره ٢٧٣
« كونه هاديا لا وكيلا ١٤٣
« لم يطلب أجرا على رسالته ٣٩٤
« ما ورد في أبويه — راجع آباء
« مدة اقامته بمكة ٤٢٨
« معاملته لاصناف الناس ١١
« موقفه بعرفة ١٩٧
« مودة آله ٩٣
« مولده نسبه ٢٥٤ و ٣٥٤
« نسيانه وسهوه واسلام شيطانه وكون رأيه وظنه في أمور الدنيا كغيره ورجوعه الى رأي غيره فيها ١٧٧
النبوة والرسالة مع الحكم ٣٧٢
ندوة قريش ٣٩٧
نصر الاسلام من وكلهم الله به ٣٧٨
النصوص والحكم . اختلاف الافهام فيها ١٣٩
النفر من منى ٣٥٢
(نقد ذكرى المولد النبوي) ٣٤٥
النكاح . فسخه بالعيب والداء ٩٨
نوح، أول الرسل ٣٨٧
النية . الاستفادة بحسبها ١٤٩

هاجر واسماعيل ١٣٨
هدي الرسل الذي يقتدى به ٣٨٠
هديل . اماتهم ١١٣
(الهماء آل رضا) ٤٠٨

الوثنية السافلة والراقية ٣٠٥
الوحي أثر لصفات الله ٤١١
والسن . مذكرته للروسية في المقاد من الحرب ٤٨
اليسع ٣٧٣ و ٣٨٦
يوسف الزواوي ١١٨
« ثم »

المنار

١٣١٥

يبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

١١ شوال ١٣٣٥ — ٧ الاسد (ص ٢) ١٢٩٥ هـ ش ٣٠ يوليو ١٩١٧

فاتحة السنة العشرين للمنار

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تعالى واشكر له توفيقه وتأييده، حمدا يوافي نعمه وشكرا يكافئ مزيده، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله، ورحمته العامة المرسلة وحجته القائمة على خلقه، محمد النبي الامي العربي الذي بعث في الاميين، ليعلمهم الكتاب والحكمة ويجعلهم الأئمة الوارثين، ويصلح بهم فساد الامم والشعوب المتعلمين وغير المتعلمين، وعلى عترته آل بيته الطاهرين، وأصحابه الذين نشروا دعوته بين العالمين، وعلى التابعين لهم في هدايتهم وهديهم الى يوم الدين

22374

اما بعد فقد دخل المنار في العام العشرين ، داعياً الى الاعتصام بحبل الله المتين ، والاهتداء بنوره المبين ، والاستمساك بسنة رسوله الامين ، والسير على منهج السلف الصالحين ، — ناهياً عن الأحداث والبدع ، وتقليد الاحزاب والشيع ؛ — مبيناً أن الخير كل الخير في اتباع من سلف ، وان الشر كل الشر في ابتداع من خلف ، لأن الله تعالى قد أكمل الدين فلا يقبل زيادة كمال ، فالزيادة فيه كالنقص منه خزي وضلال ، وانما الناقص الذي يحتاج دائما الى الاكمال والاصلاح ، ما كان من أوضاع البشر عرضة للنقص والفساد ؛ — مثبتاً أن ضعف الشعوب الاسلامية ، انما جاء من عملهم بعكس هذه القضية ، أعني الابتداع في الامور الدينية ، واتباع من قبلهم في الامور الدنيوية . فالأمم في ارتقاء دائم ، وهم في جمود ملازم ، غلب عليهم الجهل المركب فهم للعلم يدعون ، ورزئوا بالفقر المدقع وهم في الدنيا طامعون ، وخنعوا للضيم والذل وهم معجبون متكبرون ، وخضعوا لظلم المتغلبين وهم بالملك والسيادة مفتونون ، (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ)

خسروا أنفسهم فخسروا كل شيء ، وهل خسران النفس ، الا فقد استقلالها في الفهم والعلم والحكم ؟ وتقليد الآباء والاشياخ المتأخرين ، في جميع أمور الدنيا والدين ؟ فالتحقيق انهم مقلدون حتى في الابتداع ، لانهم فقدوا ملكة الاستنباط والاختراع ؛ وقد ساروا بحسب الظاهر على الطريقة الثابتة بالعقل والاختبار ، وهي كون علوم المتأخرين وفنونهم أجدر بالثقة والاعتبار ، سنة الله في التدريج والارتقاء ، على أنهم يعتقدون بحق أن متقدمي هذه الامة خير من متأخريها في جميع العلوم والاعمال ، لان

الخلف لم يسيروا على سنة السلف في الاجتهاد والاستقلال ؛ ولو ساروا عليها لفاقوهم في كل ماهو من كسب الناس . وهم انما يقلدون المتأخرين، لانهم لايرون أنفسهم أهلا لاتباع المتقدمين ، اذ يزعمون أن المتأخر أضعف من المتقدم عقلا وفهما، وربما اعتقدوا أنه أقل قوة وأنحف جسما، وأن هذا التفضيل منحة إلهية وهبية، لايمكن ادراكه بالاسباب الكسبية، غافلين عن سنة الله تعالى في سائر الامم والاجيال ، وسبق المتأخرين للمتقدمين فى جميع العلوم والاعمال ، حتى ان الله تعالى سخر لمراكبهم الهواء ، كما سخر لها الماء ، وسخر لها من البحار لججها وأعماقها، كما سخر لها متونها وأمواجها ، بل سخر الله تعالى لهم ما في السمٰوات وما في الارض ، فما كان مسخرا لغيرهم بالقوة صار مسخَّرا لهم بالفعل . فما بال جماهير المسلمين لايسمعون ولا يبصرون، ولا ينظرون ولا يتفكرون، (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؟ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

كل ما هو مسخر للبشر ، وكل ما هو من كسب البشر ، فهو قابل للارتقاء ، اذا لم يجمد الابناء فيه على ما ورثوه عن الآباء . وكل ما ينفع الناس من العلوم والفنون والاعمال ، فهو مما يتناوله كسبهم وتصرفهم بمقتضى الاستعداد الخاص والتسخير العام ، الا الدين الإلهي ، والوحي السماوي ، وقد أكمل الله لنا الدين، كما ثبت بنص الكتاب المبين ، فما بالنا قد ابتدعنا فيه كثيرا من الشعائر، كمواسم الايام الفاضلة والموالد، وكثيرا من العبادات التي لا أصل لها من السنة والكتاب ، كأذكار أهل الطرق وما استحدثوا من الاوراد والاحزاب ؛ بل ما بالنا نبني المساجد على ما

نشرّف من القبور ، ونوقد عليها السرج والشموع ؟ ونحن نعلم أن فاعلي ذلك ملعونون على لسان الرسول، بل ما بالنا نطوف بهذه القبور كما نطوف ببيت الله، وندعوها مع الله أو من دون الله ، ونحن نعلم من كتاب الله ومن سنة رسول الله ، ان هذا عبادة لها من دون الله؟ أنتبع في هذا عمل الآباء المتأخرين، ونحن نتلو ويُتلى علينا قول الله تعالى في المشركين، (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟)

إنا لندعو الناس الى عقيدة السلف ونحن بها موقنون ، ونرشد من بلغته الدعوة الى سيرتهم الدينية ونحن على طريقتها ان شاء الله مستقيمون؛ وانما نورد في باب التفسير وغيره من المنار، بعض تأويلات الخلف للآيات والاخبار، وما قد يخالف مذهبهم من الآراء العصرية ، وخاصة في مقام الدفاع عن القرآن والسنة النبوية ، لأن الضرورة ألجأت اليها ، بتوقف إقامة الحجة او دحض الشبهة عليها، فان المنار ليس خاصا بالمذعنين للكتاب والسنة من المؤمنين ، بل يكتب لهم ولغيرهم من المبتدعين والمنافقين والكافرين ، ومنهم المنكر الجاحد ، والمجادل المعاند، ومنهم المشتبه المغرور بشبهته ، والمرتاب المتردد في ريبته، وحسبنا من الفلج أن نقنع بتأويل الخلف ، من تعذر اقناعه بتفويض السلف ، وأن ندحض الشبهة برأي جديد ، اذا أعيا دحضها برأي تليد، اذ يكفي في صحة الايمان الجزم بأن كل ما جاء به الرسول عن ربه فهو حق ، وفي صحة الاذعان موافقة السلف في مسائل الاجماع العملية وما لا يحتمل التأويل من النص، ولا حرج في دين الفطرة فيما اقتضته الفطرة من تفاوت الافهام ، مع صحة

قواعد الايمان وإقامة أركان الاسلام ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقر أصحابه على مثل ذلك في مسائل الاحكام ، كتاركي الصلاة والمصلي بالتيمم للجنابة ، والمختلفين في صلاة العصر يوم بني قريظة.(١) ورب فهم جديد ، يؤيد دين الحق أعظم التأييد ، ومن مزايا القرآن انه لا تنتهي عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه ، وان من آياته ما يظهر في زمان دون زمان ، وهل يظهرها الا افهام أهل العرفان ، الذين هم حجة الله في أرضه ، على الجاهلين والجاحدين من خلقه ، ولن يخلو عنهم عصر من الاعصار ، وان خلت منهم بعض البلاد والامصار ، وكم من عالم ينتفع بعلمه الغائب البعيد ، ويحرم منه القريب العتيد (قُلْ فَلِلَّهِ الحجةُ البالغةُ فلو شاءَ لهداكم أجمعين)

تلك دعوة المنار ، التي رددت صداها الاقطار ، فكانت كالبرق المبشر بما يتلوه من المطر ، في نظر سليمي العقول صحيحي الفطر ، وكالصواعق المحرقة على أهل البدع ، ومتعصبي الاحزاب والشيع ، وقد آذانا لأجلها الظالمون فصبرنا لله بالله ، ولم نكن كمن أوذي في الله فجعل فتنة الناس كعذاب الله ، وجهل علينا بعض أحداث السياسة المغرورين ، وبعض أدعياء العلم الجامدين ، فقلنا « سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين » وكاد لنا أعداء الدعوة كيدا خفيا ، أضرّ بنا ضررا جليا ، اذ حجب المنار عن كثير من قرائه الاخيار ، وحرمنا بذلك وبغيره كثيرا من المال ، وحسبنا أن حمد الدعوة كل من عرفها من طلاب الاصلاح ، وأهل الروية والاستقلال ، وأما الازهريون خاصة ، فقد كانوا أزواجا ثلاثة ، فقليل من الشيوخ وكثير من الشبان ، يرون أن المنار من ضروريات الاسلام

(١) الاول في سنن النسائي والثاني في الصحيحين

في هذا الزمان، وكثير من الشيوخ والشبان يكرهون منه حمد الاستقلال وذم التقليد، ورمي جماهير علماء العصر بالجمود والتقصير، والسواد الاعظم منهم مشغولون بأمور معيشتهم، وبمطالعة دروسهم ومناقشات طلبتهم، عن النظر في مثل المنار لتقريظ او انتقاد، وعن كل ما يتجدد في الدنيا من إصلاح وإفساد؛ وقد دخل المنار في السنة العشرين، ولم ينتقده أحد من الازهريين؛ الا انه قام في هذا العام شاب متخرج في الازهر، فنشر في بعض الجرائد الساقطة مقالات سب فيها صاحب المنار وكفّر، بانيا ذلك على زعمه أنه أنكر كون آدم أبا لجميع البشر، على ان المنار قد صرح باثبات هذه الابوة تصريحات آخرها ما في الجزء الاول من المجلد التاسع عشر؛ وزعمه أنه فضل شبلي شميل على الخلفاء الراشدين، ويعلم كذب هذا الزعم مما نشرناه في شميل من ترجمة وتأبين، ومن لا يزعه هدي القرآن، عن السب والكذب والبهتان، قد يزعه عقاب السلطان، لهذا رفع أحد كبار المحامين عنا أمر هذا الطعن الى محكمة الجنايات، بعد ان أنذرنا بذلك كاتب المقالات، ونصحنا له بلسان بعض ذوي رحمه وصحبه، بأن يستحلنا تائبا من ذنبه، فلم يزده ذلك الا اصرارا على الذنب، وتماديا في الطعن والسب، ولكنه جنح في المحكمة للسلم، وطلب هو وصاحب الجريدة من رئيسها الصلح، على ان يعتذرا عما اتهما به من المطاعن الشخصية، ويعترفا باحترام عقيدة صاحب المنار وآرائه الدينية، وأمضيا عبارة في ذلك أثبتت في محضر القضية. وقد قبلنا ذلك منهما، وكان خيرا لهما لو فعلاه من تلقاء أنفسهما، على أنهما عادا الى هذيانهما، ولا قيمة عندي لمثل هذا الكلام، فانه مما يقال لصاحبه سلام، وانما ذكرناه في

فاتحة المنار، التي نشير فيها عادة الى ما تجدد في تاريخ الاصلاح، تمهيداً لذكر ما قيل انه ترتب على تلك القضية، من تأليف جمعية أزهرية، لاجل البحث عن أغلاط المنار الدينية والعلمية، وبيانها للناس وللحكومة المصرية؛ ذكرت ذلك الجريدةُ التي وقفت نفسها على الطعن في صاحب المنار، متوهمة انه سيترتب عليه ابطال المجلة أو اخراج صاحبها من هذه الديار، لان عند أعضاء هذه الجمعية من حقائق العلوم الازهرية، ما ليس عند صاحب المنار الذي تلقى العلم في البلاد السورية ؛... فنقول للواهمين، ولمن يمدونهم في غيهم من المغرورين: انا نعلم من كنه علم الازهر ما لا تعلمون، فاعملوا على مكانتكم إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون (٩ : ١٠٦ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

إننا ندعو الى الله على بصيرة، ونكتب ما نكتب عن علم وبينة، ولكننا كغيرنا عرضة للخطإ والغلط، كما هو شأن غير المعصومين من البشر، فلهذا ندعو قراء المنار في كل عام، الى أن يكتبوا الينا بما يرونه فيه من الاغلاط والاوهام، لننشره فيه، فيطلع عليه جماهير قارئيه، وانا لنتمنى أن تؤلف لجنة من علماء الازهر، تقرأ مجلدات المنار التسعة عشر، وتحصي ما تراه من الاغلاط المتفق عليها، بقدر ما يصل اليه علمها وفهمها، وان تتحرى في ذلك ما يليق بكرامة أهل العلم، من صحة النقل والتروي في الحكم، واجتناب الطعن والبذاء، والسخرية والاستهزاء، واننا نعدّ ذلك اذا سمت اليه همة بعض الازهريين، أعظم خدمة للمنار يخدم بها العلم والدين، ونعد بأن ننشر لهم ما يكتبونه فرحين مغبوطين ؛ مقرين إياهم

على ما نراه فيه من الصواب، مبينين ما نراه من الخطإ مع التزام الادب، وترديد عبارات الحمد والشكر، التي تبقى بقاء الدهر، ولثواب الله خير للذين يصلحون في الارض ولا يفسدون، والذين هم على البر والتقوى يتعاونون (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

وإننا على ضعف أملنا بتحقق تلك الأمنية، واحتقارنا لكل ما يكتب بجهالة وسوء نية، ليحزننا أن يقوم في الازهر بعض علمائه، ورئيس جمعية من جمعياته، ينتقم ممن يقاضي بعض أصحابه، بافتراء الكذب عليه،[1] ونسبة ما ينقله عن غيره اليه،[2] وتحريف آيات القرآن، استدلالا بها على ما رماه به من الكفر والفسوق والعصيان،[3] بذلك الكذب والبهتان، الذي زاد فيه على ما سبقه اليه ذلك الطعان، واننا لنكرم كلا من المنار والازهر بعدم ذكر اسمه، وعسى ان يثوب الى رشده ويتوب من إثمه، (٤٩ : ٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ — ١١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

كتبه منشىء المنار : السيد محمد رشيد رضا

---

(١) ادعى ان صاحب المنار قال ان آدم عليه السلام من سلالة القرود وانه ليس أبا لجميع البشر — وهذا كذب وافتراء — وادعى انه عضو في لجنة ألفت لنشر كتب شميل وهذا كذب مفترى أيضا (٢) عزا الى صاحب المنار أقوالا في خلق الانسان وفي تكفير من يحكم على السارق بغير الحد الشرعي وتلك الاقوال من منقول المنار لا من أقوال صاحبه بل مخالفة لها

(٣) استدل بآيات سورة الممتحنة في النهي عن موالاة أعداء الله على ضد ما تدل عليه وأهمل ما قيدته به السورة من كونهم قاتلونا في الدين الخ

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٥٤) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ

هاتان الآيتان متممتان للسياق فيما قبلهما بالجمع بين الارشاد السلبي والايجابي للرسول (ص) في سياسته للمؤمنين فبعد ان نهاه ربه عن طرد المستضعفين منهم من حضرته استمالة لكبراء المتكبرين من قومه وطمعا في اقبالهم عليه وسماعهم لدعوته وايمانهم به كما اقترح عليه بعضهم — أمره بأن يلقاهم كسائر المؤمنين بالتحية والسلام والتبشير برحمة الله ومغفرته على الوجه المبين في الآية الاولى من هاتين الآيتين. وقد تقدم في سبب نزول (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) من رواية عكرمة أن عمر بن الخطاب كان استحسن إجابة اشراف الكفار الى اقتراحهم وانه لما نزلت الآيات في ذلك أقبل فاعتذر فنزلت هذه الآية في قبول اعتذاره ، وتقدم ان الرواية ضعيفة وان هذه الزيادة فيها غير مقبولة وان روايات نزول الانعام دفعة واحدة أقوى منها وهي معارضة لها . والآن رأيت في التفسير الكبير للرازي استشكال هذا باتفاق الناس على نزول هذه السورة دفعة واحدة ، وقد تقدم التحقيق في مسألة نزول السورة دفعة واحدة وفي زيادة رواية عكرمة . ويعارضه أيضا ما أخرجه جل رواة التفسير المأثور عن ماهان قال أتى قوم الى النبي (ص) فقالوا إنا أصبنا ذنوبا عظاما فما رد عليهم شيئا فانصرفوا فأنزل الله (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) الآية فدعاهم فقرأها عليهم . ولكن الرواية من مراسيل ماهان لا يحتج بها وليست

صريحة كرواية عكرمة في معارضة نزول السورة دفعة واحدة اذ يجوز ان يكون النبي (ص) تلاها على من سألوه عن ذنوبهم عند نزولها في ضمن السورة ومثل هذا التعبير كثير في كلام رواة التفسير . والظاهر أن الآية نزلت في معاملة جميع المؤمنين لا في عمر وحده كما في رواية عكرمة ولا فيمن سألوه عن ذنوبهم كما في رواية ماهان — وان فرضنا صحة الروايتين — ولا فيمن نهي عن طردهم خاصة كما يقول بعض المفسرين ، بل في جماعة المؤمنين الذين كان أكثرهم من الفقراء المستضعفين الذين اقترح عليه (ص) طردهم فيدخلون فيها بمعونة السياق دخولا أوليا . وهذا ما تفهمه عبارتها وما سواه فمتكلف لتطبيقه على الروايات .

وبعد كتابة ما تقدم والتوجه الى بيان معنى الآية ومراجعة المصحف الشريف فيها وفيما قبلها كان أول ما تبادر الى ذهني ان المراد بالذين يؤمنون بالآيات هنا هم الذين كانوا يدخلون في الاسلام آنا بعد آن ، عن بينة وبرهان ، لا من آمنوا وأسلموا من قبل ممن نهي عن طردهم وغيرهم ، ذلك بأن الفعل المضارع « يؤمنون » يفيد وقوع الايمان في الحال أو الاستقبال ، ولا يعبر به عمن آمنوا في الماضي الا بضرب من التجوز في الاستعمال ، — كما يعبر بالماضي عن المستقبل أحيانا لنكتة تقتضي ذلك — كإرادة تصوير ما مضى كأنه واقع الآن ، أو إفادة ما يتلو ذلك الماضي من التجدد والاستمرار ، ولا يظهر شيء من ذلك في هذه الآية ظهورا بينا يرجح صرف الفعل عن أصل معناه ، ولكن قد يراد به التعبير عن الشأن فانه يكثر في الفعل المضارع ذ كان صلة للموصول ، [1] ولكن يرجح الاصل هنا تطبيق السياق على حال الناس في زمن نزول السورة والجملة الشرطية التي افتتحت بها الآية ، وانا نبين ذلك بما يظهر به التناسب بين الآيات أتم الظهور :

كان جمهور الناس كافرين إما كفر جحود وعناد ، وإما كفر جهل وتقليد

(١) مثال هذا قوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم) الآية أي الذين من شانهم ذلك ، ومنه اذا رأيت الذين يدسون الدسائس ويلقون الفتن بين الناس فاعرض عنهم ، وأمثلة الاولين كثيرة في كلام المفسرين وشراح الحديث وغيره

للآباء والاجداد ، وكان يدخل في الاسلام الافراد بعد الافراد، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء ، وكان النبي (ص) يكون تارة مع هؤلاء المؤمنين يعلمهم ويرشدهم ، وتارة يتوجه الى أولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم ، وكان المعاندون من كبرائهم يقترحون عليه الآيات الكونية للتعجيز ، وتارة يحقرون شأنه بوجوده في عامة أوقاته مع أولئك الفقراء والمساكين ، وقد اقترحوا عليه طردهم من حضرته ، ولعلهم كانوا يريدون بذلك ان ينفضوا من حوله ، وأن يكون منفرا لغيرهم عن الايمان به ، وكان (ص) حريصا على ايمان أولئك الكبراء لما تقدم بيانه ، فارشده ربه جلت حكمته في هذا السياق القولي الاخير من هذه السورة الى أن يبين لمقترحي الآيات الكونية من الكفار ان حقيقة الرسالة لا تقتضي ان تكون قدرة الرسول وعلمه كقدرة الله تعالى وعلمه ولا ان يكون ملكا من الملائكة حتى يقدر على ما لا يقدر عليه البشر من الآيات ، وبأن ينذر الذين يخشون ربهم من المؤمنين إنذارا خاصا بهم لانهم هم الذين يرجى ان ينتفعوا بكل انذار ، وبأن لا يطرد من حضرته منهم أولئك الذين يدعون ربهم بالعشي والابكار ، بباعث النية الصحيحة والاخلاص ، ويستلزم ذلك ان يستمر على معاملتهم الاولى التي أمره الله تعالى بها في قوله (١٨ : ٢٧ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) فبعد هذا الارشاد في شأن الكفار المعاندين والمؤمنين السابقين حسن ان يرشد الله رسوله (ص) الى شيء في شأن الفريق الثالث من الناس وهم الذين يجيئون الرسول آنا بعد آن مؤمنين بآيات الله المثبتة للتوحيد والرسالة فيدخلون في الاسلام مذعنين لأمر الله ورسوله — وهم الذين أراد رؤساء المشركين تنفيرهم وحاولوا صدهم — فأمره أن يبين لهم قبل كل شيء انهم صاروا في سلام وأمان من الله تعالى لان الله تعالى كتب على نفسه الرحمة فهو لا يؤاخذهم بما كان قبل الاسلام، ومن عمل بعده سوءا بجهالة فما عليه الا ان يمحو أثره بالتوبة والاصلاح، قال

﴿ واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ السلام والسلامة مصدران من الثلاثي يقال سلم فلان من المرض أو من البلاء سلاما وسلامة، ومعناهما

البراءة والعافية. والسلام والمسالمة مصدران من الرباعي أيضا يقال سالمه أي بارءه وتاركه ومنه ترك الحرب. والسلام من أسماء الله تعالى يدل على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من نقص وعجز وفناء وغير ذلك من عيوب الخلق وضعفهم . واستعمل السلام في المتاركة وفي التحية معرفة ونكرة ، يقال سلام عليكم والسلام عليكم، وهو بمعنى الدعاء بالسلامة من كل ما يسوء . ويفيد تأمين المسلم عليه من كل اذى يناله من المسلّم ، فهو آية المودة والصفاء، وثبت في التنزيل ان السلام تحية أهل الجنة يحييهم بها ربهم جل وعلا وملائكته الكرام ويحيي به بعضهم بعضا ، وهو تحية الاسلام الذي هو دين السلم والمسالمة (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) واختلفوا في هذا السلام هنا : أهو تحية أمر الله تعالى رسوله أن يبدأ بها الذين يؤمنون بآياته اذا جاؤه إكراما خاصا بهم مخالفا للاصل العام ، وهو كون القادم هو الذي يلقي السلام ، أم هو تحية منه تعالى أمر رسوله ان يبلغهم إياها عنه ، أم هو إخبار عنه تعالى بسلامتهم وأمنهم من عقابه، قفى عليه ببشارتهم بمغفرته ورحمته ؟ روي الاول عن عكرمة والثاني عن الحسن والثالث عن ابن عباس . ولا يتجه الاول الا اذا كانت الآية في جماعة معينة من المؤمنين وهو المروي عن عكرمة، والقول الثالث أظهر الاقوال ، والمراد بالآيات آيات القرآن ، المشتملة على حجج الله وآياته في الانفس والآفاق ، وهذه الآية معطوفة على آية النهي (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) الخ والآية التي بينهما معترضة بين فيها ابتلاء كبراء المشركين بضعفاء المؤمنين ورغبتهم في طردهم

وقوله تعالى ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ تقدم مثله في الآية الثانية عشرة من هذه السورة ، وكتابتها إيجابها على ذاته العلية وله أن يوجب على نفسه ما شاء ولا يوجب عليه أحد شيئا. فالرحمة من شؤون الربوبية اللازمة لها، وان في نظام الفطرة البشرية، وما سخر الله للبشر من أسباب المعيشة المادية ، وما آتاهم من وسائل العلوم الكسبية، ومن هداية الوحي الوهبية ، لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية ، وتربية عباده بها في حياتهم الجسدية والروحية . بل هي أعظم من ذلك، انها وسعت كل شيء ، ولكن كتابتها أمر آخر خص به بعض الخلق، وسيأتي بيان ذلك في تفسير سورة الاعراف وقد بين لنا سبحانه أصلا من أصول الدين، في هذه الرحمة المكتوبة للمؤمنين ، فقال

﴿ انه من عمل منكم سوءا بجهالة ﴾ الخ - قرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب «أنه» بفتح الهمزة وقرأه الباقون « إنه» بكسرها ، فاما قراءة الفتح فعلى البدل من الرحمة أي بدل البعض من الكل إذ ذكر من أنواع الرحمة المكتوبة ماهم أحوج الى معرفته بنص الوحي وهو حكم من يعمل السوء من المؤمنين وكيف يعامله الله تعالى، واما سائر أنواعها، وما هو احسان غير مكتوب منها، فيمكن ان يستدل عليهما بالنظر في الانفس والآفاق وهو ما أشرنا اليه في تفسير كتابتها . وأما قراءة الكسر فعلى الاستئناف النحوي أو البياني، كأنه قيل ماهذه الرحمة ؟ أوماحظنا منها في أعمالنا ؟ وهل من مقتضاها ان لانؤاخذ بذنب ، وان يغفر لنا كل سوء بلا شرط ولا قيد ؟ فجاء الجواب : انه -- أي الحال والشأن — من عمل منكم عملا تسوء عاقبته وتأثيره لضرره الذي حرمه الله لاجله حال كونه متلبسا بجهالة دفعتـه الى ذلك السوء كغضب شديد حمـله على السب أو الضرب ، أو شهوة مغتلمة قادته الى انتهاك عرض ، فالجهالة هنا هي السفه والخفة ، التي تقابلها الروية والحكمة والعفة ، وقيل إنها الجهل الذي يقابله العلم لان كل من يعمل السوء لا بد ان يكون جاهلا، فاما ان يجهل ما فيه من القبح والضرر، واما إن يجهل سوء عاقبته وقبح تأثيره في نفسه،وما يترتب على ذلك من سخط ربه وعقابه ، ذهابا مع الاماني واغترارا بتأول النصوص، ومن هنا قال الحسن البصري كل من عمل معصية فهو جاهل

﴿ ثم تاب من بعده وأصلح ﴾ أي ثم رجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعرا بقبحه ، نادما عليه خائفا من عاقبته، وأصلح عمله بأن أتبع ذلك العمل السيئ التأثير في النفس عملا يضاده ويذهب بأثره من قلبه، حتى يعود الى النفس زكاؤها وطهارتها وتصير كما كانت أهلا لنظر الرب وقربه ﴿ فانه غفور رحيم ﴾ أي فشأنه سبحانه في معاملته أنه واسع المغفرة والرحمة فيغفر له ما تاب عنه ويتغمده برحمته وإحسانه .

وهذه قاعدة من قواعد الدين وأس من آساسه أمر الله تعالى رسوله أن يبلغها لمن يدخلون فيه ليهتدوا بها، حتى لايغتروا بمغفرة الله ورحمته فيحملهم الغرور على التفريط في جنب الله والغفلة عن تزكية أنفسهم والمبادرة الى تطهيرها من افساد الذنوب لها، الى

ان تحيط بها خطيئتها، وقد بينا هذه القاعدة مرارا في تفسير الآيات المقررة لها؛ تارة بالايجاز وتارة بالاطناب وتارة بالتوسط بينهما . وكان أوسع ما كتبناه فيها تفسير قوله تعالى (٤ : ١٦ انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب — الى قوله — أليما) فيراجع في الجزء الرابع من التفسير من ص ٤٤٠ الى ٤٥٢ وندع أصحاب المذاهب الكلامية والفقهية من المفسرين يتجادلون في كون الآية مؤيدة لمذهب المعتزلة أو غير مؤيدة له فان هذه المجادلات تصرف المشتغلين بها عن الموعظة والحكمة التي أنزلها الله تعالى لبيانهما

وقد فتح همزة « فانه » في الآية من فتح همزة « انه » من القراء سوى نافع فانه قرأها بالكسر كباقي القراء . وأجاز الزجاج كسر الاولى وفتح الثانية وهي قراءة الاعرج والزهري وأبي عمرو الداني

﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾ أي ومثل ذلك التفصيل الواضح وعلى نحوه نفصل الآيات المنزلة في بيان الحقائق التي يهتدي بها أهل النظر الصحيح والفقه الدقيق لما فيها من العلم والحكمة، والموعظة والعبرة ، ﴿ ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ أي ولاجل ان يظهر بها طريق المجرمين، فيمتازوا بها عن جماعة المسلمين ، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو و يعقوب وحفص عن عاصم ولتستبين بالتاء وسبيل بالرفع أي ولتظهر سبيل المجرمين وتعرف — والسبيل يؤنثه أهل الحجاز و يذكره بنو تميم وجاء التنزيل باللغتين — وقرأ نافع بالتاء ونصب السبيل على أنه خطاب للنبي (ص) أي ولتتبين أيها الرسول طريق المجرمين فلا يخفى عليك شيء منها وقرأ الباقون وليستبين بالياء ورفع سبيل على لغة التذكير، ففائدة اختلاف القراءات هنا لفظية وهي تذكير السبيل وتأنيثها ومجيء فعل الاستبانة لازما ومتعديا، يقال بان الشيء واستبان بمعنى وضح وظهر و يقال استبنت الشيء بمعنى استوضحته وتبينته أي عرفته بينا. وأما فائدة الجمع بين الغيبة والخطاب فيها فهي ان تفصيل الآيات هو في نفسه موضح لسبيل المجرمين وأنه ينبغي للمخاطب بذلك أولا بالذات ثم لغيره أن يستبينه منها بتأملها وفهمها والاعتبار بها ، فكم من آية بينة في نفسها يغفل الناس عنها (وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) والعطف في قوله تعالى « ولتستبين » قيل انه عطف على علة

محذوفة لقوله « نفصل » لم يقصد تعليله بها بخصوصها وانما قصد الإشعار بان له فوائد جمة من جملتها ماذكر، أي وكذلك نفصل الآيات لما في تفصيلها من الاحكام والحكم، وبيان الحجج والمواعظ والعبر، ولاجل ان تستبين سبيل المجرمين، فيكون من عطف الخاص على العام. وقيل انه علة لفعل مقدر هو عين المذكور، أي ولاجل ان تستبين سبيل المجرمين نفصل الآيات، وذلك أنه بين سبيل المؤمنين فعلم منه أن ما خالفه هوسبيل المجرمين. لان الشيء يعرف بضده. بل بين قبله سبيل المجرمين من الكفار أيضا. وقال الزمخشري: ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين من هومطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف اذا سمع ذكر القيامة، ومن دخل في الاسلام الا انه لا يحفظ حدوده، ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب ان يعامل به فصلنا ذلك التفصيل. اه ويسرني ان هذا القول يؤيد ما قدمته في بيان أصناف الناس في زمن نزول السورة وما أرشدت اليه الآيات في معاملة كل صنف منهم وإن ماقلته خير مما قاله ولله الحمد. وفي الآية من محاسن إيجاز القرآن ما لا يخفى.

وسيأتي مثل هذا التعبير في قوله تعالى من هذه السورة (وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون) وقوله من سورة الاعراف (وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) ولا أذكر أن في القرآن غيرهما

---

(٥٦) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (٥٧) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ (٥٨) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ

بعد أن أرشد الله تعالى رسوله الى ماتقدم من سياسة المؤمنين، وتبليغهم ماذكر من أصول حكمة الدين، عاد الى تلقينه ما يحاج به المشركين، من بلاغ الوحي وناصع البراهين، فقال:

﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾ النهي الزجر عن الشيء بالقول — مثل لا تكذب واجتنب قول الزور — والكف عنه بالفعل ومنه قوله تعالى (ونهى النفس عن الهوى) والدعاء النداء وطلب ايصال الخير أو دفع الضر من الاعلى وانما يكون عبادة إذا كان في أمر وراء الاسباب المسخرة للعباد التي ينالونها بكسبهم لها واجتهادهم فيها وتعاونهم عليها فان ما نعجز عن نيله بالاسباب المسخرة لنا لا نطلبه الا من الخالق المسخر الاسباب — وقد بينا ذلك مرارا كثيرة — فالله تعالى يقول لرسوله هنا قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى إني نهيت أن أعبد الذين تدعونهم وتستغيثونهم من دون الله أي غير الله من الملائكة وعباد الله الصالحين بَلْهَ مادونهم من الاصنام والاوثان التي لا علم لها ولا عمل. وهذا النهي يصدق بنهي الله تعالى اياه عن ذلك في آيات القرآن الكثيرة فيها وأمره بضده وهو دعاء الله تعالى وحده، وبنهي العقل والفطرة السليمة فان النبي (ص) كان قبل البعثة موحدا، ولم يكن قط مشركا، ولاجل هذا قال نهيت بالبناء للمفعول

﴿ قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين ﴾ أي قل لهم لا أتبع أهواءكم في عبادتهم ولا في غيرها من أعمالكم التي تتبعون بها الهوى، ولستم في شيء منها على بينة ولا هدى، ولماذا؟ لانني ان اتبعتها فقد ضللت ضلالا أخرج به من جنس المهتدين فلا أكون منهم في شيء فان هذا الضلال لا يقاس بغيره لانه هو الضلال البعيد عن صراط الهدى

﴿ قل إني على بينة من ربي ﴾ أي قل لهم أيها الرسول أيضا إني فيما أخالفكم فيه على بينة من ربي هداني اليها بالوحي والعقل، والبينة كل ما يتبين به الحق، من الحجج والدلائل العقلية، والشواهد والآيات الحسية، ومنه تسمية شهادة الشهود بينة، والقرآن بينة مشتملة على أنواع كثيرة من البينات العقلية والكونية

فهو على كونه من عند الله تعالى للقطع — بعجز الرسول كغيره عن الاتيان بمثله — مؤيد بالحجج والبينات المثبتة لما فيه من قواعد العقائد وأصول الهداية ﴿ وكذبتم به ﴾ أي والحال انكم كذبتم به أي بالقرآن الذي هو بينتي من ربي، فكيف تكذبون أنتم ببينة البينات، على أظهر الحقائق وأبين الهدايات، ثم تطمعون ان اتبعكم على ضلال مبين، لا بينة لكم عليه الا محض التقليد، وما كان التقليد بينة من البينات، وإنما هو براءة من الاستدلال، ورضاء بجهل الآباء والاجداد.؟ فالكلام حجة مسكتة مبكتة على ما قبلها من نفي عبادته (ص) للذين يدعونهم من دون الله، وقيل ان المعنى وكذبتم بربي أي بآياته أو بدينه والا فان القوم كانوا يؤمنون بأن الله هو ربهم ورب السموات والارض وما بينهما والقرآن ناطق بذلك، وفسر بعضهم التكذيب بالرب باتخاذ شريك له، ولم يكن اتخاذهم الشركاء تكذيبا بالربوبية اذ لم يكونوا يقولون ان غيره تعالى يخلق معه أو يرزق، وانما كانوا يدعون غيره ليقربهم اليه ويشفع لهم عنده، وهذا الدعاء عبادة وشرك بالالهية، لا تكذيب بالربوبية.

ولما ذكر بينته وتكذيبهم به قفى عليه برد شبهة تخطر عند ذلك بالبال، ومن شأنها أن يقع عنها منهم السؤال، وهي ان القرآن أنذرهم عذابا يحل بهم، اذا أصروا على عنادهم وكفرهم، ووعد بأن ينصر رسوله عليهم، وقد استعجلوا النبي (ص) ذلك فكان عدم وقوعه شبهة لهم على صدق القرآن، لجهلهم بسنن الله تعالى في شؤون الانسان، فأمر الله تعالى رسوله أن يقول لهم ﴿ ماعندي ما تستعجلون به ﴾ أي ليس عندي ما تطلبون أن يعجل الله لكم من وعيده، ولم أقل لكم ان الله فوض أمره الي حتى تطالبوني به وتعدون عدم ايقاعه حجة على تكذيبه ﴿ ان الحكم الا لله ﴾ أي ما الحكم في ذلك وفي غيره من التصرف في شؤون الامم الا لله وحده وله في ذلك سنن حكيمة ومقادير منتظمة تجري عليها أفعاله وآجال مسماة تقع فيها فلا يتقدم شيء عن أجله ولا يتأخر (وكل شيء عنده بمقدار * ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) ﴿ يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وعاصم «يقص» من القصص وهو ذكر الخبر أو تتبع الاثر، أي يقص على رسوله القصص الحق في جميع أخباره ووعده

ووعيده ، أو يتتبع الحق ويصيبه في أقواله وأفعاله التي يتصرف بها في عباده، وقرأه الباقون « يقض » من القضاء وأصله يقضي بالياء فحذفت الياء في الخط كما حذفت في اللفظ لالتقاء الساكنين ، ولما كانت المصاحف غير منقوطة كانت الكلمة في المصحف الامام هكذا (يقص) فاحتملت القراءتين، وحذف حرف المد معهود في المصحف ومنه (وما تغن الآيات والنذر * سندع الزبانية) ومعناه يقضي في أمركم وغيره القضاء الحق أو ينفذ الامر ويفصله بالحق، وهو خير الفاصلين في كل أمر ، لانه الحكم العدل ، المحيط علمه والنافذ حكمه في كل شيء . وتقدم تحقيق معنى القضاء في تفسير الآية الثانية من هذه السورة

﴿ قل لو ان عندي ما تستعجلون به لقضي الامر بيني وبينكم ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يستعجلونك بالعذاب كقولهم (٨: ٣٢ اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب أليم): لو أن عندي ما تستعجلون به بأن كان مما جعله الله في مكنتي وتصرفي بقدرتي الكسبية أو بجعله آية خاصة بي لقضي الامر بيني وبينكم بإهلاكي للظالمين منكم الذين يصدونني عن تبليغ دعوة ربي ويصدون الناس عني، فان الانسان خلق من عجل وانما أستعجل لكم اهلاك الظالمين منكم ما وعدني ربي من نصر المؤمنين المصلحين المظلومين ، وخذلان الكافرين المفسدين الظالمين ، وهو استعجال للخير ، وأنتم انما تستعجلون الشر لانفسكم ، وتقطعون عليها طريق الهداية بامهال الله لكم ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ الذين تمكن الظلم من أنفسهم وأحاط بها فلا رجاء برجوعهم عنه الى الايمان والحق والعدل ، وبمن ألمّ بهم الظلم أو ألموا به ولكنه لم يمح نور الفطرة من أنفسهم ولم يذهب باستعدادهم للاهتداء إلى الحق الذي أدعوهم اليه . ولما كان سبحانه وتعالى أعلم بالظالمين لم يجعل أمر عقابهم اليّ فهو عنده لا عندي ، ولكل من عذاب الدنيا والآخرة أجل مسمى عنده يراه قريبا وترونه بعيدا ، وايامه تعالى في عالم التكوين وشؤون الامم ليست قصيرة كأيامنا بل طويلة (٢٢: ٢٥ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ٢٦ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها والي المصير) فهو لا يؤخر ما وعد به الى الاجل المسمى عنده الا لحكمة (٧: ٣٣ ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)

هذا ما ظهر لنا في قضاء الامر على تقدير كون ما يستعجلون به في مكنته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. وليس المراد به انه كان يهلكهم كلهم كما هلكت الامم التي كذبت الرسل من قبلهم، أي ليس المراد بما يقضي من الامر هنا عذاب الاستئصال ولا عذاب الآخرة وان كانوا قد استعجلوا كلا منهما بل نصر الرسول عليهم . وفي قوله (لقضي الامر) باسناد الفعل الى المفعول اشارة الى انه لو كان عنده (ص) وقضي لما قضي الا بمشيئة الله تعالى وقدرته

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بما شاء من الألقاب ان شاء . واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متأخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ الرقيق الابيض والاسود ﴾

(س ١) من صاحب الامضاء في قليوب

حضرة صاحب الفضيلة والارشاد وصاحب المنار المنير

تحية وسلاماً — وبعد أعرض على مسامع فضيلتكم المسألة الشرعية الآتية وأرجو نشرها في باب السؤال والجواب المفتوح في المنار المنير خدمة للشرع الشريف لاحرمنا الله منكم وها هي :

ما قولكم دام فضلكم في مسألة الرقيق الابيض والاسود ومسألة مشتراه في الزمن الماضي قبل مقاومة الحكومات لهذه العادة . وهل هذا البيع حرام أم حلال شرعاً — وما الفرق في الدين الاسلامي بين العبد والحر وما هي ميزة الحر على العبد في الدين . وهل سواد (العبد) من الاقليم القاطن فيه أو منحة إلهية للفرق بين الحر والعبد . وما يستحقه العبد في الميراث الشرعي اذا كان من والد حر وله أخوة

أحرار . وكيف كان البيع في زمن الجاهلية وزمن النبي صلى الله عليه وسلم وزمن الخلفاء الراشدين وما هي حجتهم في ذلك . نرجو الرد على هذه الاسئلة كما عودتمونا ذلك ولفضيلتكم الشكر سلفا وفي الختام أهدي فضيلتكم أزكى تحياتي وسلامي

كاتبه أحمد حسين قراج

بعيادة الدكتور محمد عبد الحميد بك الخصوصية بقليوب

(ج) الظاهر أن السائل يظن أن كل من كان أسود اللون فهو عبد رقيق وكل من كان أبيض اللون أو قريبا من الابيض — كالاصفر والاسمر — فهو حر وأن الرقيق الابيض عبارة عما هو معروف في القطر المصري من الاتجار بأعراض البنات اللواتي يحتويهن المشتغلون بهذه التجارة ومن صغيرات بضروب من الاغواء والحيل . والصواب أن الاصل الفطري أن يكون جميع البشر أحرارا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمرو بن العاص : منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ وانما الرق أمر عارض أحدثه تحكم الاقوياء في الضعفاء وكانوا يقتلون الاسرى ثم عطفوا عليهم فاستبدلوا الاسترقاق بالقتل ، وكان عاما لجميع أقطار الارض الآهلة بالبشر ، وقد أقرته الشرائع القديمة كلها حتى صار من شؤون العمران وضروريات الحياة الاجتماعية ، وقد جاء الاسلام وهو على هذه الحال فلم يكن من الحكمة أن يبطله دفعة واحدة كما أبطل الربا والفواحش والتبني اذ لو أبطله لتعطل كثير من أمور المعايش والاعمال فشرع الاحكام لازالة مفاسده كاذلال العبيد وإهانتهم وتحميلهم من العمل ما لا يطيقون حتى نهى الشارع أن يقول الرجل عبدي وأمتي ، وجعل العبيد اخوانا لسادتهم وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون وأوجب عتقهم في الكفارات وغير الكفارات من الاسباب المعروفة في كتب السنة والفقه ، وجعل العتق من غير سبب قربة من أفضل القربات حتى ان من العتق ما يوجبه الشرع بغير اختيار المالك ومنه أن من مثل بعبده بقطع عضو أو تشويه أعتق عليه قال (ص) « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه » رواه مسلم وأبو داود من حديث ابن عمر وقد عمل به ابن عمر . ورويا هما والترمذي عن سويد ابن مقرن قال كنا بني مقرن ليس لنا على عهد رسول الله (ص) الا خادم واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك النبي (ص) فقال « أعتقوها » قالوا ليس لهم خادم غيرها

قال « فليستخدموها فاذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها » وانما أبقى أصل استرقاق الاسرى والسبي من الكفار في الحرب الدينيـة مباحا لانه قد تقتضيه المصلحة حتى مصلحة السبي نفسه أحيانا . مثال ذلك أن تقتل رجال قبيلة في الحرب ولا يبقى منهم أحد يستطيع أن يقوم بأمر النساء والذراري، اذ لم تكن الشعوب والقبائل في الازمنة الماضية ولا هي الآن كلها أيضا ذات دول غنية كدول أوربة وما يشبهها في النظام الاجتماعي، فاذا أخذ الغالبون السبي في مثل تلك الحالة وربوه على ما يوجبه الاسلام من الرفق والتكريم وتسروا النساء حتى صرن أمهـات أولاد لهم يعتقن بمجرد موتهم - فلا شك ان هذا قد يكون خيرا لهم من تركهم هائمين على وجوههم. على ان الاسلام لم يوجب ذلك بل شرع لنا ان نمنّ عليهم باطلاقهم بلا مقابل كرما واحسانا وأن نفدي بهم أسرانا ان كان لنا أسرى عند قومهم، كما قال في سورة القتال (حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعد واما فداء)

واذا عرفت أصل الرق الشرعي علمت أن ما اشتهر عن النخاسين من شرائهم بعض بنات الشركس من آبائهن الفقراء ليبيعهن في الآستانة وغيرها ومن شرائهم أو خطفهم لاولاد السودانيين أيضا — كله باطل ، فالاب لا يملك بيع أولاده. ومن دونه من الاقارب أولى بأن لا يجوز له ذلك، والمشتري لامثال هؤلاء لا يملكهم شرعا، ويجب على الحكام ابطال مثل هذا الرق قطعا ، لما يترتب عليه من مفاسد التسري والتوارث وغير ذلك من الاحكام الباطلة

وأما سواد السود من الناس فهو من تأثير الاقليم كما هو مشهور وقد سكن كثير من العرب الذين يغلب عليهم اللون القمحي في البلاد الاستوائية وما يقرب منهـا فأثر ذلك في جلودهم حتى صاروا أقرب الى الزنوج منهم الى البيض ، وسكن كثير منهم في البلاد الشمالية الباردة وما يقرب منها فصار بياضهم كبياض أهلها

وأما الفرق بين الحر والعبد في الدين الاسلامي فهو انه لا فرق بينهما في الإيمان وتقوى الله تعالى والعمل الصالح وفضائل الدين وآدابه والجزاء عند الله تعـالى وكم من عبد مملوك تقي خير عند الله من الف حر ، ولكن المملوك لما كان لا يملك المال عند الجماهير ولا يملك التصرف في نفسه لتقيـده بخدمة مالكه كان له بذلك أحكام

خاصة لا يحتاج السائل الى معرفتها كلها ، فمنها ماهو تخفيف عليه ككونه لاتجب عليه الجمعة عند الجمهور خلافا للظاهرية وتصح منه اجماعا ولا الجهاد ولا الحج ، واذا حج باذن سيده أو معه صح منه ذلك وأثيب بقدر اخلاصه وقيامه بالمناسك على وجهها ولا تجب عليه الزكاة لانه لا يملك المال ، ويترتب على عدم ملكه امال انه لا يرث ولا يورث ، وحده نصف حد الحر ، ويترتب على عدم ملكه التصرف بنفسه انه لا يلي الولايات العامة كالقضاء ولا الخاصة كالنكاح والوصاية على اليتيم ، وكل مسألة من هذه المسائل وأشباهها مفصلة في كتبها وأبوابها من كتب الفقه . وفي بعضها خلاف بين الفقهاء . وأما بيع الرقيق فكبيع غيره مما يملك ، وحسب السائل هذا البيان المختصر .

﴿ العوام والخواص ﴾

(س ٢) من الحاج عبد العزيز . ن و . في بلد جكجاكرتا (بجاوه)

« نرجو من فضلكم ان ترشدونا في تعريف العام والخاص هل العام من لم يعرف اللغة العربية في فصاحتها وبلاغتها ، والخاص من يعرفها ؟ أو من هم ؟

هذا — فالمرجو من فضلكم أن لا تؤاخذوا بسؤالنا هذا ، لانه من مشكلات أهلنا « الجاوا » اه بنصه

(ج) العامّ اسم فاعل من العموم وهو الاحاطة والشمول والخاص اسم فاعل من الخصوص وهو اصابة بعض الشيء أو الافراد دون بعض . يقال نزل المطر فعم الارض فهو عام أو خص بلد كذا فهو خاص . والسائل لا يسأل عن هذا وانما يسأل عن معنى العامي والخاصي واحد العامة والخاصة . فالعامي هو المنسوب الى عامة الناس أي سوادهم الذين لاخصوصية لهم فيهم ويقال لجماعتهم العوام ، والخاصي المنسوب الى خاصة الناس وهم كبراؤهم وزعماؤهم كالعلماء الاعلام وكبار الحكام وأهل الفضل والجاه ويقال لجماعتهم الخواص . وعلماء اللغة العربية في جاوه يصح ان يكونوا من خواص أهلها وأما كونهم هم الخواص وحدهم فلا يتحقق الا اذا كان أهل البلاد يخصونهم بالاحترام والتكريم ويفضلونهم على سائر الناس ويعدون من عداهم سواسية لا فضل لاحد منهم على أحد ولا كرامة .

مقدمة لذكرى المولد النبوي

فيها بيانه تاريخ الاحتفال بالمولد وحكمه شرعا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه

أما بعد فان الاحتفال بالمولد النبوي الشريف قد صار عادة عامة ، وقد اختلف في كونها بدعة حسنة أو بدعة سيئة كما سيأتي، والمشهور أن المحدث لها هو أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي بن بكتكين التركماني الجنس الملقب الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل[1] أحدثها في أوائل القرن السابع أو أواخر القرن السادس فان السلطان صلاح الدين ولاه على إربل في ذي الحجة سنة ٥٨٦ وتوفي سنة ٦٣٠. وقد كان سخيا متلافا صاحب خيرات كثيرة، وكان ينفق على الاحتفال بالمولد ألوفا كثيرة، ففي تاريخ ابن خلكان انه كان ينصب له مقدار عشرين قبة من الخشب كل قبة منها أربع طبقات أو خمس طبقات له قبة منها والباقي للامراء وأعيان دولته، وكانوا يزينون هذه القباب في أول شهر صفر بأنواع الزينة الفاخرة، وكان يكون في كل قبة جوق من الاغاني وجوق من أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي ، بل كانوا لا يتركون طبقة من الطبقات بغير جوق من تلك الاجواق . وكان الناس يتركون كل عمل في تلك الايام فلا يبقى لهم شغل الا التفرج والدوران على القباب

قال ابن خلكان فاذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الابل والبقر والغنم شيئا كثيرا زائدا عن الوصف وزفها بجميع ماعنده من الطبول والاغاني والملاهي حتى يأتي بها الى الميدان ثم يشرعون في نحرها وينصبون القدور ويطبخون الالوان المختلفة

(١) إربل بوزن إثمد وضبط في المتن بفتح الباء غلطا

فاذا كانت ليلة المولد (١) عمل السماعات بعد أن يصلي المغرب في القلعة ثم ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيء كثير وفي جملتها شمعتان أو أربع — أشك في ذلك — من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل ومن ورائها رجل يسندها وهي مربوطة على ظهر البغل . فاذا كانت صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة الى الخانقاه على أيدي الصوفية على يد كل شخص منهم بقجة وهم متتابعون كل منهم وراء الآخر فينزل من ذلك شيء كثير لا أتحقق عدده ،

ثم ذكر عرضه الجند وتوزيعه تلك الخلع بعد ذلك على الفقهاء والوعاظ والقراء والشعراء ومد السماط . وكان قد ذكر قبل ذلك أن الناس كانوا يأتون هذا الموسم في اربل من بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين و بلاد العجم وتلك النواحي فلا يزالون يتواصلون من شهر المحرم الى أوائل شهر ربيع الاول

لخصت هذا من تاريخ ابن خلكان الذي وصف ماراًه بعينيه لان ما يعمل بمصر الآن يشبه ما كان يعمل في اربل الا أنه دونه عظمة ونفقة، فههنا تنصب قباب أوخيام النسيج الجميلة لعزيز مصر ولوزارات حكومته ولبعض الوجهاء في دائرة واسعة ويختلف اليها الناس من أول شهر ربيع الاول يسمعون في بعضها وعظ الوعاظ وذكر أرباب الطرق المعروفة . ويرأس الاحتفال هنا شيخ مشايخ طرق الصوفية ، ويقيم بجانب خيمته مأدبة فاخرة في مساء اليوم الحادي عشر من الشهر يحضرها كبار العلماء وكثير من الوجهاء، ويكون الاحتفال الاكبر في الليلة الثانية عشرة في خيمته فيجتمع فيها من حضر المأدبة ويؤمها الامراء والوزراء حتى اذا ما انتظم جمعهم حضر عزيز مصر بحاشيته وتقرأ بين يديه قصة المولد فيخلع على من يقرأها خلعة سنية، وتدار بعد قراءتها كؤوس الشراب المحلى وصواني الحلوى الجافة . ثم ينصرف العزيز الى خيمته وهي بجانب قبة شيخ الشيوخ فيمكث فيها ساعة زمانية، يشاهد في أثنائها زينة الالعاب النارية، ثم ينصرف وينصرف الامراء والوزراء، ويظل الناس يطوفون على

(١) هي الليلة التاسعة من ربيع الاول على المختار عند المحدثين او ليلة ١٢ منه على المشهور عند الجمهور وكان مظفر الدين يراعي الخلاف فيجعلها ليلة تسع في سنة وليلة ١٢ في اخرى

تلك الخيام المزينة بالانوار الكهربائية وغير الكهربائية عامة ليلتهم . وفي ضحوة ذلك اليوم يحضر نائب العزيزقبة شيخ الشيوخ فتعرض عليه مواكب الطرق الصوفية يتقدم كل طريقة شيخها وهم يهللون أو يتلون الاوراد و يقف كل منهم امام شيخ الشيوخ قليلا فيحييه ثم ينصرف

وقد استحسن جماهير المسلمين الاحتفال بالمولد في مشارق الارض ومغاربها ويجتمعون لقراءة قصته في المساجد ومنهم من يجعل لها دعوة خاصة في البيوت ، وهذه لا تتقيد بجعلها في تاريخ الميلاد النبوي ولكن أنكر هذا الاحتفال بعض العلماء وعده بدعة مذمومة لانه عد موسما وشعارا دينيا وعبادة غير مشروعة يظن العوام أنها مشروعة ولما يقترن به من المنكرات الاخرى . وقال بعضهم انه بدعة حسنة لانه عبارة عن الشكر لله تعالى على وجود خاتم أنبيائه وأفضل رسله باظهار السرور في مثل اليوم الذي ولد فيه و بما يكون فيه من الصدقات والاذكار ، وقد ألف الجلال السيوطي رسالة في عده بدعة حسنة في جواب من سأل عن حكمه شرعا وعرفه بقوله : هو اجتماع الناس وقراءة ما تيسر من القرآن ورواية الاخبار الواردة في مبدإ أمر النبي (ص) وما وقع في مولده من الآيات ثم يمد لهم سماط فيأكلون و ينصرفون من غير زيادة على ذلك . وذكر أن الحافظ ابن حجر سئل عنه فأجاب بقوله : أصل عمل المولد بدعة لم تنقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة ولكنها مع ذلك قد اشتملت على محاسن وضدها فمن جرد في عمله المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة ومن لا فلا

ثم بين ان الحافظ خرجه على حديث الصحيحين في صيام عاشوراء شكرا لله تعالى على انجائه فيه موسى نبيه واغراق فرعون عدوه، قال: فيستفاد منه الشكر لله على ما منّ به في يوم معين من اسداء نعمة أو دفع نقمة ويعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة ، والشكر لله يحصل بأنواع العبادة كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة ، وأي نعمة أعظم من بروز هذا النبي نبي الرحمة في ذلك اليوم ؟ وعلى هذا فينبغي ان يتحرى اليوم بعينه حتى يطابق قصة موسى في يوم عاشوراء ومن لم يلاحظ ذلك لا يبالي بعمل المولد في أي يوم من الشهر، وتوسع قوم فنقلوه الى أي يوم من السنة،

وفيه ما فيه . فهذا ما تعلق بأصل عمله . وأما ما يعمل فيه فينبغي ان يقتصر فيه على ما يفهم الشكر لله تعالى من نحو ما تقدم ذكره من الاطعام وانشاد شيء من المدائح النبوية والزهدية المحركة للقلوب الى فعل الخير والعمل للآخرة ، واما ما يتبع ذلك من السماع واللهو وغير ذلك فينبغي ان ما كان من ذلك مباحا بحيث يتعين للسرور بذلك اليوم لا بأس بالحاقه به وما كان حراما أو مكروها فيمنع وكذا ما كان خلاف الاولى اه .

وقد يقال لماذا لم يقم بهذا الشكر أحد من الصحابة والتابعين ولا الائمة المجتهدين ولا أهل القرون الثلاثة الذين شهد الشارع لهم بالخيرية ؟ فهل كان صاحب اربل التركماني ومن تبعه أعلم وأهدى منهم وأعظم شكرا لله تعالى ؟ ويقال مثل هذا في تخريج الحافظ ابن رجب اياه على تعليل صيام يوم الاثنين بأنه يوم ولد فيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وسيأتي مزيد بيان لحجة المخالف

وخرجه السيوطي على أصل آخر استنبطه من تخريج شيخه الحافظ وهو ماورواه البيهقي من ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عق عن نفسه بعد النبوة (قال) مع انه قد ورد ان جده عبد المطلب عق عنه والعقيقة لا تعاد مرة ثانية فيحمل ذلك على ان الذي فعله النبي (ص) إظهار للشكر على إيجاد الله إياه رحمة للعالمين وتشريع لأمته كما كان يصلي على نفسه لذلك فيستحب لنا أيضا اظهار الشكر بمولده بالاجتماع وإطعام الطعام ونحو ذلك من وجوه الآيات واظهار المسرات اه

وهذا التخريج ضعيف من وجوه (أحدها) ان هذا الحديث منكر كما قال راويه البيهقي بل باطل كما قال النووي في شرح المهذب (ثانيها) انه لو صح لكان دليلا على استحباب عق الانسان عن نفسه ولم يقل بهذا أحد (ثالثها) جعل قولهم ان العقيقة لا تعاد حجة على الحديث على تقدير صحته مع كون عبد المطلب عق عنه (ص) (رابعها) انه لو كان تشريعا العمل به الصحابة وغيرهم وقال به أئمة الفقهاء أو من بلغه منهم (خامسها) ان يوم البعثة كان أولى بهذا الشكر من يوم الولادة لان النعمة والرحمة انما كانت برسالته (ص) بنص قوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين)

وحجة المنكرين في هذا الباب أن كل بدعة دينية تعد من العبادات المحضة أو

تجعل من شعائر الدين فهي محظورة لأن الله تعالى أكمل الدين وأجمعت الامة على أن أهل الصدر الاول أكمل الناس ايماناواسلاما، وان كل بدعة ليست من هذا القبيل كالمنافع الدنيوية والوسائل التي يقوى بها أمر الدين ولدنيا كالمدارس والمستشفيات والملاجئ الخيرية التي يثاب صاحبها بحسن نيته فيها فانها تعد بدعة حسنة، والتحقيق ان هذه لاتسمى بدعة شرعية وانما يطلق عليها اسم البدعة لغة فلا تدخل في عموم قوله صلى الله عليه وآله وسلم من الحديث الصحيح عند مسلم « وشر الامور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » لان موضوع الحديث المحدثات في أمر الدين ، ولكنها تعد من السنن الحسنة في قوله صلى الله عليه وآله وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » — الحديث (وهو في صحيح مسلم أيضا) فقد رغب أمته بهذا الحديث في الاختراع النافع لها في دينها ودنياها ولكن ليس لاحد ان يخترع في الدين نفسه شيئا .

ثم ان البدعة الدينية إما ان تكون اختراع عبادة أو شعار ديني لا أصل لهما وإما ان تكون تخصيصا لعبادة مشروعة بزمان معين أو مكان معين أو هيئة معينة لم يخصصها بها الشارع . ومن هذا النوع عد الفقهاء صلاة الرغائب في رجب وصلاة ليلة النصف من شعبان من البدع المذمومة . قال النووي في المنهاج : وصلاة رجب وشعبان بدعتان قبيحتان مذمومتان. وقد سمى الشاطبي هذا النوع بالبدع الاضافية وسمى النوع الاول البدع الحقيقية . وأطال في بيان ذلك في كتابه الاعتصام وفصله تفصيلا

هذا وان ما يعهد من الاحتفال بالمولد ليس عبادة مأثورة عن الشارع يؤتى بها على الوجه المشروع ولا هو عمل دنيوي محض بل يجمعون فيه بين عبادات يأتون بها أو ببعضها على وجه غير مشروع ، وبين لعب ولهو بعضه مباح وبعضه محظور ، وقد كان يكون في احتفال القاهرة خيام يرقص فيها النساء المتهتكات مكشوفات الصدور والبطون كما يحصل دائما في غيره من احتفالات الموالد — كالمولد الحسيني والمولد البدوي — وما هو شر من ذلك ، ولكن قد أبطل هذا كله من الاحتفال الذي يكون في القاهرة ولله الحمد

وقد حاول من ذكرنا من العلماء تخريجه على أصل شرعي بابطال ما يكون فيه من اللهو والاقتصار فيه على عمل الخير ، ولولا تخصيص تلك العبادة بالزمان والمكان والصفات المخصوصة التي تشبه بها الشعائر والعبادات المشروعة وتلتبس بها لما احتيج في تخريجه الى ما تكلفوه .

وأما اجتماع الناس في مثل القباب والخيام التي تنصب في العباسية ، وتزين بالمصابيح والانوار الكهربائية ، واظهار البهجة والسرور ، بذكرى مولد ذي الضياء المعنوي والنور ، وذكر اخراج الله الخلق بهديه من الظلمات ، وما آتاه من الهدى والآيات ، فهو في نفسه من المباحات ، المقرونة بالمستحبات والمندوبات ، بشرط ان يخلو من البدع والمنكرات ، وأن لا يعد من الشعائر الدينية ولا من العبادات ، فاذا كان بحيث يظن العامة انه مطلوب شرعا ، حرم فعله قطعا ، بل كان بعض الصحابة يتركون بعض المسنونات ، لئلا تظن العامة انها من الواجبات ، ومن هنا صرح الشاطبي في الاعتصام[1] بكون اتخاذ يوم ولادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عيدا من البدع . وأفتى ابن حجر المكي بأن القيام عند ذكر ولادته صلى الله عليه وسلم بدعة وذكر ان الناس يفعلونه تعظيما وقال « فالعوام معذورون لذلك بخلاف الخواص »[2] وقد علل فتواه بأن القيام يوهم العامة انه مندوب ، ويزاد عليه ان بعضهم يظن انه واجب ، وقد يعلل أيضا بأنه يفعل بهيئة العبادة لما يكون من الصلاة المخصوصة المعينة بالعدد في أثنائه . ولكن لم يأخذ أحد بهذه الفتوى ، فما زال العلماء يقومون كغيرهم ولم نر لهم ردا للفتوى بدليل أرجح من دليلها ، ولعل أكثر العوام يعتقدون وجوب هذا القيام لا لتزام العلماء وسائر الناس له ، ولو فطنوا لترك أحد له لعدوه فاسقا متهاونا بالدين أو كافرا مارقا منه ، ولعلك لو اقترحت على جماعة العلماء الذين يحضرون قراءة قصة المولد تركه في بعض الاوقات ليعلم العامة أنه غير واجب لما تجرؤا على ذلك . والحق ان قصد التعظيم هو الذي زين للعوام والخواص أمثال هذه البدع . فان من طباع البشر ان يبالغوا في مظاهر تعظيم أئمة الدين أو الدنيا في طور ضعفهم في أمر الدين أو الدنيا . لان هذا التعظيم لا مشقة فيه على

(١) ص ٣٤ من الجزء الأول (٢) ص ٦٠ الفتاوى الحديثية له

النفس فيجعلونه بدلا مما يجب عليهم من الاعمال الشاقة التي يقوم بها أمر الدين أو الدنيا وانما التعظيم الحقيقي بطاعة المعظم والنصح له والقيام بالاعمال التي يقوم بها أمره ويعتز دينه ان كان رسولا، وملكه ان كان ملكا. وقد كان السلف الصالح أشد ممن بعدهم تعظيما للنبي (ص) ثم للخلفاء، وناهيك ببذل أموالهم وأنفسهم في هذه السبيل. ولكنهم دون أهل هذه القرون التي ضاع فيها الدين في مظاهر التعظيم اللساني. ولا شك ان الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم أحق الخلق بكل تعظيم، وليس من التعظيم الحق له ان نبتدع في دينه بزيادة أو نقص أو تغيير أو تبديل لاجل تعظيمه به، وحسن النية لا يبيح الابتداع في الدين فقد كان جل ما أحدث أهل الملل قبلنا من التغيير في دينهم عن حسن نية، وما زالوا يبتدعون بقصد التعظيم وبحسن النية حتى صارت أديانهم غير ما جاءت به رسلهم، ولو تساهل سلفنا الصالح كما تساهلوا وكما تساهل خلفنا الذين اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع لضاع أصل ديننا أيضا، ولكن السلف الصالح حفظوا لنا الاصل فالواجب علينا أن نرجع اليه ونعض عليه بالنواجذ، ويجب على العلماء ان يبينوا للناس الاحداث والبدع محذرين منها، كما يجب عليهم ان يبينوا لهم الفرائض والسنن مرغبين فيها، والبيان يحصل بالقول والفعل والاقرار والترك كما ان التشريع حصل بذلك فقد كان (ص) يترك بعض سننه لئلا تفرض

قال الامام الشاطبي في الاعتصام[1]: وقد ثبت في الاصول ان العالم في الناس قائم مقام النبي صلى الله عليه وسلم، والعلماء ورثة الانبياء فكما ان النبي صلى الله عليه وسلم يدل على الاحكام بقوله وفعله واقراره كذلك وارثه يدل على الاحكام بقوله وفعله واقراره، واعتبر ذلك ببعض ما أحدث في المساجد من الامور المنهي عنها فلم ينكرها العلماء أو عملوا بها فصارت تعد سننا ومشروعات كزيادتهم مع الاذان «أصبح ولله الحمد» الخ وقد أطال في هذه المسألة وبين مفاسد السكوت قبل هذه العبارة وبعدها ولاسيما عمل «الخواص من الناس بالبدعة عموما وخاصة العلماء خصوصا» وذكر في هذا السياق ان علماء الصحابة كانوا يتركون بعض السنن لئلا يظن الناس انها واجبة، ومن ذلك ان أبا بكر وعمر وابن عباس تركوا التضحية في عيد النحر لئلا يظن الناس انها واجبة[2] — على

(١) ص ٢٦٩ ج ٢ (٢) ص ٢٧٦ ج ٢ من الاعتصام

ان بعض الفقهاء بعدهم قال بوجوبها — ونقل عن الامام مالك انه قال في الموطأ في صيام ستة أيام بعد الفطر من رمضان انه لم ير أحدا من أهل العلم والفقه يصومها — قال — ولم يبلغني ذلك عن أحد من السلف وان أهل العلم يكرهون ذلك ويخافون بدعته وان يُلحق أهل الجهالة والجفاء برمضان ما ليس منه لو رأوا رخصة من أهل العلم ورأوهم يفعلون ذلك اه وقد كان الامام مالك يعرف الحديث في صيامها وكلامه يدل على ذلك كما قال الشاطبي ولكن سد ذرائع البدع اقتضى ترك هذا المستحب، ومالك من أشد الائمة تشديدا في ذلك . ومما نقله عنه الشاطبي وغيره قوله : « من أحدث في هذه الامة شيئا لم يكن عليه سلفها فقد زعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خان الرسالة لان الله يقول (اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) فما لم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم دينا اه [1] وقوله عندما سئل عن القراءة في المساجد « لم يكن بالامر القديم وانما هو شيء أحدث ولم يأت آخر هذه الامة بأهدى مما كان عليه أولها ، والقرآن حسن » اه [2]

وجملة القول ان خلط العبادات الدينية باحتفالات لزينة واللهو وجعل ذلك عملا واحدا عن باعث ديني هو الذي يجعل مجموع تلك الاعمال من قبيل الشعائر الدينية ويوهم العوام ان تلك العادات — وكذا العبادات المبتدعة في هيئتها وتوقيتها وعددها — من أمور الدين المشروعة بهذه الصفة ندبا أو وجوبا كما قال الفقيه ابن حجر في مسألة القيام عند ذكر ولادته عليه أفضل الصلاة والسلام وما يكون فيه من الصلاة المخصوصة كما قلنا

وأما قراءة قصة المولد فهي عبارة عن قراءة شيء من الحديث والسيرة النبوية كما قال السيوطي ، ولكن كثيرا من الناس كتبوا (موالد) حشوها بالاحاديث الموضوعة والمنكرة وفي بعضها وصف النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يليق كالتغزل بجماله . وكنت منذ سنين أتمنى لو يوجد بين أيدي الناس رسائل في هذا الموضوع يتحرى فيها الصحيح المفيد ، عسى أن يستبدل بها بعض ذلك الضارّ السيئ التأثير ، بيد أني كنت أتحامى أن أكتب في ذلك شيئا باسم المولد لئلا أكون محدثا أو مساعدا أو مقرا لما لم يفعله السلف الصالح

(١) ص ١٤٩ و ١٥٠ ج ٢ (٢) ص ١٦٨ ج ٢ من الاعتصام

ثم كان أن دعاني في غرة ربيع الاول من عام ١٣٣٤ شيخ مشايخ طرق الصوفية بمصر السيد عبد الحميد البكري[1] الى مأدبة أعدها في داره وسماع قصة المولد بعدها فأجبت الدعوة، وتوسلت بها الى تنفيذ تلك الفكرة، اذ كنت علمت من أحاديث جرت بيني وبينه انه من محبي الاصلاح لطرق الصوفية وغيرها، وهنالك كلمته في قصص الموالد المشهورة ووجوب تغييرها فاستحسن ذلك، فقلت له أرأيت اذا كتبتُ شيئا في هذا الموضوع أتستبدل به ما يقرأ عندك في الاحتفال الرسمي وغيره؟ قال نعم. فانتهزت هذه الفرصة لبيان الحق في هذه المسألة شكلا وموضوعا، ثم شرعت في كتابة شيء من ذلك في ساعات المساء من النهار فأتممته في بضعة أيام متفرقة لم تتم أسبوعا، وكتبت أكثره في دار البكري وكنت أطلعه على ما أكتب فيسر به، ولكنه جاء طويلا لا يمكن ان يقرأ في الحفلة الرسمية كله، فاختصرنا منه نسخة قرئت في الحفلة الرسمية، فكانت موضع اعجاب أهل الفهم والذكاء من الوزراء والكبراء وغيرهم من أهل الروية

ثم اطلع على ما كتبت كله بعض أهل العلم ومحبي الاصلاح فرغبوا الي في طبعه ونشره، ورأوا انه من أحسن ما ينشر في هذا العصر لبيان حقيقة دعوة الاسلام وكليات الدين وخلاصة السيرة النبوية، فشرعت في طبعه وزدت فيه عند الطبع حديث البعثة وقصة الهجرة وما تلاها من الخاتمة ومسائل أخرى في أثناء الكلام. طبعته في المنار ثم جردته منه وطبعته على حدته، وحذفت مما طبع في المنار جملة وجيزة اقتبستها من (رسالة التوحيد) وزدت مسائل أخرى قليلة. فكان فوق ما كنت أقدر وأتوخى في هذا المقام، الذي اعتيد فيه الاختصار، فجاء كتابا وجيزا حاويا لخلاصة الحقائق المتفرقة في أسفار التاريخ والسيرة النبوية، وكتب التفسير والحديث والعقائد الاسلامية، مبينا لكنه الاسلام وحقيقته، وكليات أحكامه وحكمته، بعبارة يسهل على الناس فهمها، ويتيسر لمريد الحفظ حفظها، وحروف مضبوطة بالحركات، وأسجاع غير متكلفات، فهو جدير بأن يُقرأ في البيوت وفي المحافل، وبأن يلقن لطلاب العلوم الدينية والدنيوية في المدارس، واذا اكتفى سامعوه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ذكره فرادى ولم يرفعوا أصواتهم بصيغة مخصوصة في

(١) بيت البكري من أشهر بيوتات مصر ينتسبون الى الصديق (رض) ويلقبهم الجمهور بلقب السيد كالعلويين

أوقات معينة لا يكون في قراءتهم ولا سماعهم له شبهة على الابتداع الحقيقي ولا الاضافي

طريقة اختصاره في القراءة

هذا — وان لمن يقرأه على الناس في وقت ضيق ان يختصر منه بعض الفصول كفصل الهجرة بطوله من منتصف الصفحة ٣٠ الى فصل أخلاقه وسيرته (ص) في الصفحة ٣٦ و يمكن ترك هـذا الفصل أيضا الى الخاتمة في ص ٤١ واذا كان المقروء عليهم من العوام فللقارئ ان يحذف مما يقرأ لهم بحث اصطفاء الله لقومه وقبيله وآل بيته (ص) من أول الصفحة ٤ الى نهاية ص ١٠ لان هذا البحث لا يفهمه حق الفهم ، الا الخواص من أهل العلم ، وما زال كثير من الناس يستشكل ما ورد في الحـديث الصحيح من اصطفاء الله تعالى كنانة وقريشا و بني هاشم ، وحكمة جعل دين العلم والمدنية ، على لسان نبي أمي بعث في أمـة أمية ، ولم أر أحدا سبقني الى بيان مزايا العرب التي أعدهم الله بها لهذه المنقبة العظيمة ، ولله الحمد والمنة (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين) وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وآله وصحبه ومن تبعهم في هديهم الى يوم الدين . وكتب هذا في ٥ رمضان سنة ١٣٣٥

محمد رشيد رضا

أغلاط طبعية في الشكل ينبغي تصحيحها بالقلم

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	٩	إرَبل	إربِل	١٣	١٨	الثانيةِ عشرة	الثانيةَ عشرة
٦	١٥	وَخرافات	وخُرافات	٢٠	٨	الوحيَ	الوحيُ
٧	٣	كان يعدّ	يُعدّ	٢٤	١٦	أقرب	أقربَ

﴿ استدراك على الحواشي ﴾

شاعر الانصار صاحب الابيات المذكور بعضها في قصة الهجرة هو أبو قيس صرمة ابن أبي أنس كان قد ترهب وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة وهمّ بالنصرانية فلما جاء الاسلام اسلم وهو شيخ كبير وله شعر كثير وعاش نحوا من ١٢٠

المسألة العربية

﴿ مقالة للتاريخ ﴾

الاسلام والجنسية العربية . ابراهيم الخليل عربي . الاخوتان الدينية والجنسية. اتفاق الاسلام والجنسية العربية . مصلحة المسلمين وغيرهم من العرب في تجديد الدولة العربية واحدة . مصلحة المسلمين الاعاجم ورأيهم في ذلك . استقلال لبنان لم تكن عقبة في طلب العرب للاستقلال . لم ينهض العرب للاستقلال في عهد عبد الحميد . انهام الخديو والانكليز بالميل الى استقلال العرب. حال أمراء الجزيرة وزيدية اليمن وزعماء الولايات العربية في ذلك . الخلافة عند أهل الزيدية وأهل السنة . السبب الحقيقي لتكون العرب وسكوتهم هو الاسلام وأوربة . ازالة الاسلام للعصبية الجنسية . اجماع العرب على المحافظة على الدولة . يأسهم منها . استقلال الحجاز . اتفاق الحلفاء على استقلال الشعوت أو تفويض أمر حكمها اليها

إنني عربي مسلم أو مسلم عربي، فانا قرشي علوي، من ذرية محمد النبي العربي، الذي ينتهي نسبه الشريف الى اسماعيل بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام . وملته الحنيفية هي ملة جده إبراهيم ، أساسها التوحيد الخالص واسلام الوجه لله تعالى وحده، (٢: ٢٩ ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه — اقرأ الآيات الى قوله — ونحن له مسلمون) فاسلامي مقارن في التاريخ لعربيتي — وان من الناس من هو أقدم نسبا في الاسلام، ومن هو أقدم نسبا في العربية، وهم من عدا الاسماعيليين من متقدمي العرب ومتأخريهم، وأما الاسماعيليون منهم فتاريخ عربيتهم واسلامهم واحد اذ كان أول أب لهم في العرب مسلما ؛ وقد يقال ان اسلامهم أقدم اذا كان ابراهيم (ص) غير معدود من العرب على ما هو المشهور في كتب التاريخ من أن أول العرب المستعربة اسماعيل (ص) وكأنهم عدوه كذلك لانه ولد في بلاد العرب ونشأ فيها فلم يكن له لسان غير اللسان العربي . ولكن التاريخ يثبت لنا ان أباه ابراهيم (ص) كان يتكلم باللغة العربية ، كما يؤخذ من التاريخ العربي والتاريخ المستنبط من الآثار القديمة ، أما مأخذ ذلك من التاريخ العربي فهو انه أقام في بلاد العرب زمنا أقام فيه الدين وبنى البيت العتيق الذي هو أقدم بيت وضع لعبادة الله وحده في الارض، فمن البديهي انه كان يعلمهم الدين بلسانهم ويخاطبهم به ، وأما مأخذ ذلك من

الآثار القديمة المكتشفة في هذا العصر موضحة للتاريخ للقديم فهي أن علماء الآثار بينوا لنا ان مدنية الكلدان كانت عربية وان (حمورابي) الذي كان ملكهم وصاحب شريعتهم في عهد ابراهيم (ص) كان عربيا، وقد اكتشفت شريعته في بلاد العراق منقوشة على عمود من الحجر الاصم فكانت باللغة العربية لذلك الزمان. وقد جاء في سفر التكوين أول أسفار العهد القديم عند أهل الكتاب ان حمورابي هذا كان في زمن ابراهيم، وانه كان يدعى ملك السلام وكاهن الله العليّ؛ وأنه بارك ابراهيم وان ابراهيم أعطاه عشرا من كل شيء (راجع تك ١٤ : ١٨)

قلت إنني عربي مسلم. فأنا أخ في الدين لألوف الألوف من المسلمين من العرب وغير العرب، وأخ في الجنس لألوف الالوف من العرب المسلمين وغير المسلمين. أما دليل الاخوة الدينية فقوله تعالى (إنما المؤمنون اخوة) وأما دليل الاخوة الجنسية فالآيات المتعددة في سورة الاعراف والشعراء المصرحة بكون الانبياء المرسلين أخوة لأقوامهم المشركين، ولما كان شعيب عليه السلام قد أرسل الى قومه أهل مدين والى أصحاب لايكة من غير قومه اختلف التعبير عنه فقد قال تعالى في سورة الاعراف (٧: ٨٤ والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أي وأرسلنا الى مدين أخاهم في النسب شعيبا الخ. وقال في سورة الشعراء (٢٦: ١٧٦ كذب أصحاب الايكة المرسلين ١٧٧ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ١٧٨ اني لكم رسول أمين) ولم يقل أخوهم شعيب كما قال في عاد (أخوهم هود) وفي ثمود (أخوهم صالح) — مثلا — لانه لم يكن من جنسهم

وانني احمد الله عز وجل أن جعل مصلحة العرب السياسية في عصرنا موافقة لمصلحة المسلمين السياسية كما أبينه في هذه المقالة، ولو تعارضتا لقدمت ما يوجبه عليّ ديني، على ما تقتضيه مصلحة أبناء جنسي، لانني أرجو بديني سعادة الدنيا والآخرة، وأنا موقن بذلك، ولا أرجو بخدمة جنسي وحده الا الدنيا وحدها، وما أنا على يقين من إدراكها، على انني راض بما آتاني الله منها، أما وقد اتحدتا فخدمة جنسي خدمة لديني ينفعني في الآخرة ان لم ينفعني في الدنيا، وأنا مؤمن بهذا وان كان يخفى على كثير من اخواني المسلمين

مصلحة العرب والمسلمين في الدولة العربية

إنما مصلحة العرب السياسية ان يكون لهم دولة مستقلة ، وهذا أمر بديهي لا يختلف فيه عاقلان ، فالعرب أمة من أقدم أمم الارض وأعرقها في الاستقلال ، ذات مجد عظيم، ومدنية عالية في التاريخ القديم والحديث، ولغة ممتازة في لغات العلم والادب، وشريعة هي أعدل الشرائع المنزلة للبشر ، وقد ضعفت هذه الامة الكريمة وضعفت مزاياها ولغتها، وأهمل نظر شريعتها وكادت تفنى بفنائها ، كل ذلك لعدم وجود دولة مستقلة لها ، اذ يستحيل ان ترتقي أمة بغير دولة .

ان السواد الاعظم من العرب يدينون دين الاسلام واللغة العربية هي لغة هذا الدين فلا تصح لمسلم عبادة بغير هذه اللغة . فبالدولة العربية تحيا لغة القرآن ، وتحيا بحياتها شريعة الاسلام . فمن البديهي اذاً ان يكون الخير كل الخير للمسلمين في هذه الدولة اذا وجدت ، وان عقلاء المسلمين من غير العرب يعلمون هذا ولكنهم يرونه الآن متعذرا أو متعسرا ، ويخشون كما كان يخشى مسلمو العرب ان يكون السعي له مفضيا الى إضعاف الدولة العثمانية التي لم يبق للمسلمين دولة غيرها فيكون مثل الساعين كمثل من له دار تكنه فهدمها ليبني خيرا منها فعجز عن البناء وأمسى في العراء معرضا لما يجني على حياته ، ولكن جمعية الاغرار المغرورين (جمعية الاتحاد والترقي) ما زالت تهدم من آمال العرب في بقاء الدولة وفي كون بقائها خيراً للاسلام والمسلمين حتى دعتهم بل دعتهم[1] الى طلب الاصلاح في الجملة ثم الى طلب اللامركزية ثم الى استقلال الحجاز، ولا يعلم غير الله ما تكون عاقبة ذلك، لان العالم كله في طور تغير وانقلاب مجهول ، ولكن المعلوم قطعا ان ما حصل في بلاد العرب هو نتيجة طبيعية لسيرة الاتحاديين لم يكن في استطاعة أحد دفعه كما يعلم مما يأتي

وأما غير المسلمين من العرب فهم الآن كالمسلمين ليس لهم دولة ، ولأن يكون لأبناء جنسهم دولة خير لهم من ان يكونوا تابعين لدولة أعجمية لا يشاركونها في النسب ولا في اللغة ولا في العادات والتقاليد ولا في الوطن الجغرافي[2] ولا في الدين، ولا الدولة

(١) دعتهم بتشديد العين دفعتهم بعنف

(٢) هذا الوصف احتراز من الوطن السياسي

أعجمية يشاركها بعضهم في الدين والمذهب أو في الدين دون المذهب دون سائر مقومات الامم ومشخصاتها وهم يعلمون أن الدين أو المذهب لا يحملها على جعلهم مساوين لابناء جنسها ووطنها وان كانوا من غير أبناء دينها ومذهبها، ولا يضرهم أن تكون العربية في هذه الدولة الاغلبية للمسلمين من أبناء جنسهم، فان أفراد البشر وجمعياتهم يتآلفون و يتعاونون على مصالحهم بكثرة ما يشتركون فيه من مقومات الامم ومشخصاتها، وما يشترك فيه المسلمون وغيرهم من العرب من المقومات والمشخصات كاللغة والعادات والآداب والمصالح والمرافق الوطنية أكثر مما يشترك فيه غير المسلمين من العرب مع الافرنج الموافقين لهم في الدين، بلهَ الترك المخالفين لهم حتى في الدين، ودين الاسلام دين مساواة في الحقوق وحرية تامة في العقائد، وقد ارتقى غير المسلمين في أرقى دول العرب الاسلامية مدنية الى أعلى المناصب، حتى كان وزراؤهم وأطباؤهم يزاحمون الخلفاء العباسيين بالمناكب، واذا كان لغير المسلمين أغلبية في بقعة من البلاد العربية (كجبل لبنان) فانه يمكنهم ان يكونوا مستقلين مع ارتباطهم واتحادهم بالمملكة العربية فيها استقلالا اداريا واسعا خيرا من الاستقلال الذي نالوه منذ نصف قرن

لو نهض زعماء العرب الى السعي للاستقلال لما تعذر عليهم ارضاء اللبنانيين منهم بذلك وازالة جميع ما في البلاد من اسباب الخلاف. ولو تعذر عليهم ارضاء اللبنانيين في اوائل العهد بالسعي لما كان ذلك موجبا لتركه واليأس منه. ولا اطيل في بيان هذا وكشف غواشي الاوهام عنه لأنه يخرج بي عن المقصد من هذا المقال، واكتفي منه بتذكير الملم بتاريخ سورية الحديث بتلك الحركة العربية التي حدثت في سورية أيام كان مدحت باشا زعيم الترك الاكبر واليا عليها فانهم يتذكرون ان اللبنانيين كانوا في طليعة العاملين، وبرهاننا على هذا قصيدتا اليازجي البائية والسينية

لاجل هذا كان سكون العرب العثمانيين وسكوتهم في الاجيال الاخيرة التي تحركت فيها عصبيات الاجناس وهبت لطلب الاستقلال مثارا لعجب من لم يعرف سبب ذلك السكون من العقلاء.

اتهام الترك للعرب

كان الترك يتهمون العرب بالميل الى الاستقلال دونهم والسعي لذلك وانه

لا يمنعهم منه الا ضعفهم وعجزهم أمام قوة الترك . وقد ذكرت في مقالات (العرب والترك) التي كتبتها في الآستانة ونشرتها في جرائدها ثم في المنار التي لا أعرف لهذه التهمة أصلا الا ماكان من افتراء جواسيس السلطان عبدالحميد وطلاب المنافع عنده أو استغلال أوهامه ، بل أقول ان هذه التهمة لم تكن معقولة في عهد السلطان عبد الحميد لان النهوض بأمر الاستقلال اما ان يكون من جانب الامة بما تتوسل به اليه من الجمعيات السياسية والعصابات المسلحة ، ولم تتصد الامة العربية لذلك البتة ـ واما ان يكون من جانب الامراء المستقلين بالادارة في بعض الاقطار أومن دونهم من الزعماء أصحاب العصبية، ولم نعلم ان أحدا من أمراء جزيرة العرب أو من الزعماء في الولايات العربية العثمانية كان مظنة أو موضعا لهذه التهمة اذ لاتوجد شبهة يعتمد عليها في ذلك. الا ان المفسدين كانوا يتهمون خديو مصر عباس حلمي باشا بذلك فكان يُسمع لهم لان مصر بلاد عربية غنية بالمال والرجال وقد تصدى رأس حكومتها الاخيرة (محمد علي باشا) لحرب الدولة العثمانية فقهرها واستولى على سورية والحجاز وتوغل في الاناضول ولولا الدولة الانكليزية لاستولى على سائر مملكتها، ولكن عباس حلمي باشا لم يكن ليطمع بمثل ماطمع به جده الاعلى، بل ولا بمثل ماكان يطمع به جده الادنى (اسماعيل باشا) من الاستقلال السياسي بمصر والسودان فقط لمكان الاحتلال الانكليزي الذي جعل السلطة الفعلية في مصر بيد انكلترة دونه ، ولهذا كان الموسوسون والجواسيس يزعمون أنه على اتفاق مع الانكليز في هذا الامر ، وكان كثير من المصريين وغيرهم يصدق ذلك ، ومنهم من لم يرجع عن هذا التصديق الا بعد نشر كتاب (عباس حلمي الثاني) لاورد كرومر اذ صرح فيه بأن حياة عباس مع الاحتلال كانت حياة خلاف وشقاق لا يرجى معه اتفاق .

ان المطلعين على الحقائق يعلمون علم اليقين ان عباس حلمي باشا ماكان يسعى لهذا الامر ولا يرجوه، على انه كان يعلم انه لا سبيل له اليه لو تصدى له ، ويعلمون ان من سياسة انكلترة التقليدية بقاء ما للترك من السلطان والسيادة على بلاد العرب وترجيح ذلك على تأسيس دولة عربية جديدة ، وهي لم تجنح الى سياسة العطف على العرب واظهار الميل لمساعدتهم على الاستقلال الا بعد وقوع الحرب بينها وبين الترك بمدة طويلة،

أما امراء جزيرة العرب فقد كان كل منهم راضيا بحاله ولم يكن يخطر ببال أحد منهم أن يعتدي على الدولة فيما وراء حدود امارته ولا أن يسعى لذلك بالاتحاد مع غيره، كما انه لم يكن يسهل على أحد منهم أن تعتدي الدولة على استقلاله أو تحدث في بلاده حدثا ما، لما استقر في أنفسهم من غريزة الاستقلال الموروثة في الامة العربية مع عدم ثقة أحدمنهم بأن الدولة تقيم شرع الله في بلادهم، على ان للزيدية دولة أقدم من الدولة العثمانية مازالت تنصب الأئمة من قريش عليها ويعتقدون ان الترك من البغاة الخوارج على الامام الحق. وأهون اعتقاد سائر عرب الجزيرة في حكام الترك انهم ظلمة فسقة مبغضون للعرب. ولكنهم مع ذلك يحبون بقاء الدولة ويتمنون لها القوة والعظمة لاجل صد الافرنج عن البلاد الاسلامية. وقد كان رجال الدولة في العهد الاخير يعتقدون أن الشيخ مبارك الصباح من أشد العرب عداوة للدولة ولكنني لما لقيته سنة ١٣٣٠ منصرفي من الهند أخبرني بما لقيه من عدوان الدولة عليه وتصديها لنفيه من الكويت وان انكلترة منعتها من ذلك بدون طلب منه وانه مع ذلك محافظ على نسبته اليها ورافع لعلمها باختياره ولو شاء لاستبدل به غيره، ومن كلامه في الترك والعرب « نحبهم ولا يحبوننا »

وأما كبراء العرب في ولايات سورية والعراق من العلماء والوجهاء فقد كانوا أشد تعصبا للترك من الترك أنفسهم حتى كانوا يفضلونهم على العرب ويسترون ما يعرفون من سيئاتهم، ويكبرون الصغير من حسناتهم، بل يذكرون لهم فضائل ومناقب لا يعرف لها أصل، منها انهم يعدون بعض ملوكهم من الاولياء ومؤرخو الترك يعدونهم من الفساق. ومما كانوا يذيعونه بين العامة أن الشيخ محيي الدين بن العربي والشيخ عبد الغني النابلسي قد علما بالكشف أن ملكهم يبقى الى قيام الساعة.

تلك حال كبراء البلاد وخاصتها والعامة تبع لهم، لم يسمع لاحد منهم نبأة ظاهرة ولا دعوة خفية الى عداوة الترك أو القيام عليهم أو الاستعداد لتأسيس حكومة عربية تستقل في البلاد، اللهم الا ما كان قد قيل من أن شيعة الماسون كانت تسعى لجعل الامير عبد القادر خديويا لسورية، وما قيل في عهد ولاية مدحت باشا على سورية من انه كان هو الذي يسعى لجمع كلمة المسلمين وغيرهم للاتفاق على

تأسيس امارة عربية في سورية كالامارة المصرية يكون هو الخديو عليها ، ومن أن رستم باشا متصرف لبنان الاجنبي الاصل كان هو الذي كشف للدولة دسيسة شيخ أحرار الترك وزعيمهم الاكبر ، وترتب على ذلك اخراج السلطان عبد الحميد لمدحت باشا من سورية ، وقيل ان تلك الحركة كانت مدبرة بدسائس الاستانة ليتوسل السلطان بها الى نفي مدحت باشا ثم الفتك به . وفي تلك الاثناء نشرت قصيدتا الشيخ ابراهيم اليازجي السينية والبائية (راجع ص ٨٣١ م ١٢)

ولما كنت أنشر في الاستانة مقالات (العرب والترك) وأشرت فيها الى هذه المسألة جرى بيني وبين الصدر الاعظم حسين حلمي باشا حديث في هذا الموضوع قال لي في أثنائه انه أقام في سورية عدة سنين أيقن في أثنائها بأنه لا يوجد فيها أحد من وجهاء المسلمين يكره الدولة الا بعض الافراد من بيت المؤيد ومن بيت الصلح، وسائر الوجهاء مخلصون للدولة كغيرهم . ولا أدري من عنى بقوله ذاك . ولم أعلم عن أحد من المعاصرين لنا من أهل هذين البيتين شيئا يبين المراد لنا من قوله، الا أن أحد أفراد البيت الاول كان قد جاء مصر في أوائل عهد مجيئي اليها وأسس جمعية دينية يشترط في أعضائها ترك المحرمات والمحافظة على أداء الفرائض وقد ساعدته على ذلك ولم أكن أسمع منه كلمة تشعر بأن له غرضا سياسيا منها وقد أفادت الجمعية فائدة دينية ظاهرة ، ثم انشق عنها عضو مصري تركي الاصل زاعما ان للمؤسس غرضا سياسيا منها وتبعه على هذا جماعة من أعضائها في القاهرة صاروا يلغطون بذلك. ثم ان المؤسس سافر الى الآستانة ثم عاد الى سورية وأقام فيها. ولو صدق السلطان عبد الحميد انه كان يسعى الى تلك الغرض السياسي لما أفلت من قبضة انتقامه. وانما اتهمه بعض الناس بأنه تعمد القاء كلام لاولئك اللاغطين ليشتهر ويوصله الجواسيس الى السلطان

هذا كل ما نعلم عن سورية في هذا الامر . وأما العراق فقد قيل ان السيد سلمان القادري نقيب بغداد كان يسعى الى تأسيس حكومة عربية وان طلب السلطان عبد الحميد اياه الى الآستانة قد كان لأجل الانتقام منه قتلا بالسم كعادة ملوك العثمانيين القديمة أو ابقائه في الآستانة منفيا الى أن يموت ، وقيل ان السيد سلمان

لم يطعم في القصر السلطاني ولا عند أحد في الآستانة شربة ماء ولا فنجان قهوة ولا غير ذلك، وكان يعتذر بأنه مريض لا يذوق شيئا الا بأمر طبيبه الخاص. ولكن اشتهر أن السلطان أكرم مثواه وقلده نوطا ذهبيا كتب عليه « شيخنا سلمان » وأعاده الى بغداد عزيزا كريما، ومما كان يقال في ذلك الوقت ان السيد سلمان أعداء سعوا به الى السلطان ، وسمعت والدي رحمه الله تعالى يقول كان السيد سلمان ذا نفوذ عظيم في قبائل العراق وكان يوجد مئة الف مسلح بالمرتين منهم طوع أمره، وانه بلغه ان سبب نجاته من فتك السلطان عبد الحميد ان بعض العقلاء من كبراء الاستانة قالوا ان من مصلحة المسلمين أن يدخر مثل هذا الزعيم لانه قد يحتاج اليه اذا طرأ على الدولة ما تخشى عاقبته على بلاد العراق أو ما هو أعظم من ذلك، فلهذه الفكرة أقنعوا السلطان بوجوب تكريمه (أو تلطيفه كما يقولون) واعادته الى بلاده . ولا أدري من أين وصل الى والدي هذا الخبر وكنت اذ سمعته منه صغيرا لا أحفل بالبحث عن أمثال هذه المسائل .

تعاون جمعيات الترك والعرب

هذا ما يصح أن يذكر من تاريخ هذه المسألة ولا نعلم وراءه شيئا الا ما كان يكتبه في بعض الجرائد والمنشورات من يقصدون استغلال وسوسة السلطان عبد الحميد كما تقدم . ولكن أهل الرأي وحملة الاقلام من العرب لم يقصروا في التعاون مع أمثالهم من الترك على السعي لاصلاح حال الدولة والقضاء على الاستبداد الحميدي، فلما أسس شبان الترك جمعية الاتحاد والترقي ونشروها في الولايات دخل فيها كثيرون من شبان العرب وكانت شعبها في سورية أعظم منها في غيرها، وأسس بعض العرب جمعية أخرى كجمعية الاتحاد بعد ضعف شأن هذه في مصر وسورية وهي جمعية الشورى العثمانية وأدخلوا في لجنتها المركزية أشهر رجال الاتحاديين الذين كانوا في مصر وغيرهم من العثمانيين . فكان هم طلاب الاصلاح من العرب في عهد عبد الحميد هو هم طلاب الاصلاح من الترك وكانوا يشتغلون متعاونين والمواصلات بين جمعياتهم لا تنقطع ولا سيما جمعية الاتحاد والترقي في أوربة وجمعية الشورى العثمانية بمصر . ظلوا على ذلك الى أن ظفروا باعادة الدستور فظن العرب كما ظن غيرهم

من الاجناس الذين تتألف منهم المملكة العثمانية انهم فازوا بمجاهدوا في سبيله الى أن قلب لهم المتغلبون على جمعية الاتحاد وعلى الدولة ظهر المجن وأوقعوهم في هوة اليأس من الدولة

السبب الصحيح

تبين مما شرحناه من الحقائق أن عدم تصدي العرب لانشاء دولة جديدة لم يكن سببه الخوف من قوة الدولة كما كان يتوهم الترك فان العرب أقوى من اليونان والبلغار وغيرهما من الشعوب التي انفصلت من السلطنة العثمانية وصارت دولا مستقلة، ولم يكن سببه تفرق العرب وتعذر اتفاق امرائهم وزعمائهم كما يتوهم الكثيرون منهم ومن غيرهم فلو وجد هذا القصد لكان هو الجامع لهم، ولا الجهل الضارب بجرانه في البلاد العربيه فان محمد علي الكبير لما غزا الدولة وكاد يفتحها كلها لم يكن من علماء السياسة والاجتماع ولم يكن الشعب المصري على درجة عالية من العلوم والفنون التي تدفع الشعوب الى الفتح والاستعمار

وانما كان السبب الصحيح لسكوت العرب وسكوتهم عنه طلب استقلالهم وتجديد دولة لهم هو الاسلام وأوربة

دين الاسلام وسياسة دول أوربة سببان مستقلان أو سبب واحد مركب لكل من جزئيه تأثير خاص في صرف العرب العثمانيين عن السعي للاستقلال، ولعله لو انفرد أي منهما لما صرفهم كلهم عن كل سعي واستعداد لذلك

أما الاسلام فقد أزال من أنفس العرب عصبية الجنسية الا من غلبت عليهم البداوة فانهم بما توارثوه من الغرائز والاخلاق لا يخضعون الا لسلطة رؤسائهم الذين من أبناء جنسهم بل من رؤساء عشائرهم . وأما من غلبت عليهم الحضارة فما زالوا يألفون سلطة الاعاجم من الملوك والسلاطين الذين يتولون أمرهم من قبل الخلفاء العباسيين ويحكمون بشريعتهم ويؤيدون لغتهم ويتركون لغاتهم اليها الى ان هان عليهم الخضوع لسلطة الاعاجم المصرّين على أعجميتهم الذين لا يستمدون سلطتهم من خليفة قرشي عربي وهم الترك، بل هان عليهم ادعاء هؤلاء الاعاجم الخلافة

النبوية ورضوا بذلك واطمأنوا له لانه مع اشرافه على مجموعهم المتفرق من شاهق القوة العسكرية، قد أطل على قلوبهم من سماء الفتاوى الشرعية، وتسرب الى أفكارهم من باب المصلحة الاسلامية، ذلك بأن أكثرهم من المنتمين الى مذاهب علماء السنة الذين يوجبون طاعة المتغلب بالقوة، وان لم يكن حائزا لغير الاسلام من شروط الخلافة الشرعية، ومنها النسب القرشي باجماعهم، ومستندهم في ذلك رعاية المصلحة الراجحة وخوف الفتنة. على انهم مختلفون في عد رعاية المصلحة حجة، أو داخلة فيما ذكروه للقياس من مسالك العلة، ومختلفون في سد الذرائع أيضا. ولما كانت الزيدية لا تقول بطاعة المتغلبين، ولا بمصلحة تبيح ترك اشتراط النسب القرشي العلوي وشرط العلم الديني في أئمة المسلمين، (أي الخلفاء) لم يخضعوا لسلطان الترك ولا دانوا لحكمهم، بل ظلوا ينصبون الائمة الحائزين للشروط الشرعية في مذهبهم، ويقاتلون الترك الذين يتصدون لفتح بلادهم، ولم تستطع الترك ان تغلب أئمة اليمن على أمرهم، بل صالحوا إمامهم الامام يحيى منذ سنين قليلة وأقروه على امامته في قومه ووطنه بعد أن حاربوه وحاربوا سلفه أربع مئة سنة، على ان الامامة لا تتجزأ ولا تتعدد. والحق ان الباعث الاخير لاعتراف أكثر المسلمين بخلافة سلاطين الترك هو كونهم أمسوا حصنا لبقية البلاد الاسلامية في وجه أوربة

وليس من غرضنا هنا أن نبحث في الخلافة وشروطها وانما بحثنا هذا تاريخي اذا ذكرت فيه مسألة شرعية فانما تذكر على سبيل الاستطراد مختصرة بقدر الضرورة، ولم تكن مسألة الخلافة من مواضع بحث طلاب الاصلاح من العرب في السنين الاخيرة خلافا لاوهام الواهمين التي أثرها في مخيلاتهم لغط بعض الكتاب بها في عهد السلطان عبد الحميد لاجل استغلال وساوسه كما تقدم حتى صارت حكومته تمنع نشر كل كتاب من كتب الكلام والعقائد والحديث والتفسير تذكر فيه هذه المسألة. ومن أثر ذلك انه لما طبع كتاب المسايرة للكمال ابن الهمام وهو من أهم كتب العقائد عند الحنفية وكثير لرواج في الاستانة اضطر طابعه بمصر ان يطبع منه نسخا حذف منها بحث الامامة (الخلافة) لاجل بيعها في الآستانة وسائر البلاد العثمانية. وصار بعض الجاهلين في مصر يظن أن ذكر الشروط الشرعية للخلافة ولاسيما شرط النسب القرشي لا يصدر الا من عدو

للدولة والاسلام أيضا. على أن هذا الشرط مذكور في الكتب العربية والتركية التي طبعت في الاستانة قبل تشديد الحكومة الحميدية في مراقبة المطبوعات وقد ذكر في بعض الكتب العصرية التي طبعت بعد الدستور ومنها كتاب لاسماعيل حقي بك بابان الاتحادي الذي كان مدرسا في مكتب الحقوق وصار ناظرا للمعارف

تكوين الترك للعصبية العربية

فهذا وجه صد الاسلام للعرب عن محاولة الاستقلال دون الترك ، وقد قلت مرارا انه لا يقدر أحد على اعادة هذه العصبية الى العرب أو اعادتهم اليها بعد ان أبعدهم الاسلام عنها الا الآستانة أو تحامل الترك عليهم يبعث العصبية التركية. (١) وقد صدق الزمان هذا القول . واسس الاتحاديون بعصبيتهم التركية واضطهادهم للعرب بناء العصبية العربية أو أحيوها بعد موتها . فان هؤلاء الاتحاديين قد تمرسوا برجالات العرب وشبانهم في الآستانة وغيرها فعلموا من أقوالهم وأفعالهم في دُور الحكومة لرسمية ومدارسها وأندية الجمعية في البلاد العربية أن عزمهم على تتريك العرب كغيرهم بالقوة عزم ثابت لا يرجعون عنه وأنهم جازمون بسهولة تتريك بلاد سورية والعراق في سنين معدودة وما يعسر تتريكه الآن من جزيرة العرب يعد من المستعمرات يوضع له قانون خاص لادارته ولا يكون لاهله ما لسائر العثمانيين من الحقوق المنصوصة في القانون الاساسي . وقد أرسلوا طائفة من طلبة الترك الى أوربة لاجل درس قوانين الاستعمار

بهذا علم نبهاء العرب أن أمتهم ولغتهم عرضة للزوال من المملكة العثمانية — ولا يجهل أحد ان الدين الاسلامي يقوى بقوة لغته العربية ويضعف بضعفها ولا نقول أكثر من ذلك — فتوجهت قلوب كثير منهم لتدارك الخطب وألفوا بعض الجمعيات لذلك ورأى الذين يتحرون هدي الاسلام في أعمالهم أن ما كان مانعا من إحياء الجنسية العربية قد زال وخلفه المقتضي لاحيائها، فقد كان المانع من ذلك اتقاء الشقاق

(١) أذكر أنني كتبت هذا غير مرة في المنار ولكنني لا أتذكر من مواضعها الا ما في ص٢٥٢ و٢٥٣ من المجلد الثالث عشر والعبارة فيه تدل على أنها مسبوقة، والا ما في ص٨٠ من المجلد التاسع عشر

بين العرب والترك وافضاء ذلك الى زوال الدولة واستيلاء الاجانب على بلادها، وقد وقع ذلك من قبل الاتحاديين أي من قبل الدولة نفسها لانها في قبضتهم فلا معنى لاتقائه وقد حصل ، وخلفه المقتضي لاحياء هذه الجنسية وهو وجوب المحافظة على اللغة العربية والامة العربية شرعا . ولكن هذا قد يحصل بما دون استقلال العرب بأنفسهم دون الترك وان كان حصولا ضعيفا فلم يكن باعثا على السعي الى تأليف دولة عربية بل الى طلب اصلاح اضطرب في تحديده أفرادهم وجماعاتهم وكان حزب اللامركزية أقصدها وأشدها اعتدالا

وما كان يخفى على أحد من هؤلاء أن مطالبهم معلقة بين الرجاء واليأس وان الحياة إنما هي حياة الاستقلال لاتحيا اللغة ولا ترتقي الامة بدونها، ولكن دونها خرط القتاد، اذ لا تحصل الا بثورة يصطدم بها الترك والعرب اصطداما يخشى أن يضعف الفريقين وينتهي بزوال الدولة واقتسام أوربة لبلادهما . ومن ذا الذي يقدم على حمل هذه التبعة الثقيلة التي تئط من حملها الجبال الرواسي ؟ أيجهل أحد من طلاب الاصلاح للعرب أن هدم آخر سلطنة اسلامية مهما يكن سببه الحامل عليه لا يعقب الساعي اليه والقائم به الا لعن مئات الملايين من المسلمين الى يوم الدين ؟

لهذا أجمع طلاب الاصلاح من العرب الذين يعتد برأيهم ، ويرجى تأثير عملهم ، على ان لا يكونوا سببا لسقوط الدولة وزوالها. ولا يسعوا الى ضررها ولا الى اضعافها ، وعلى أن يجعلوا همهم في اصلاح أنفسهم ، وعمارة بلادهم ، مع النصح للدولة والاخلاص لها ، وطلب حقوقهم التي أثبتها لهم القانون الاساسي فيها ، ليرتقوا ويعتزوا بأنفسهم فلا يسقطوا مع الدولة ان سقطت، وتعتز الدولة وترتقي بارتقائهم ان بقيت، وأن يكون جل سعيهم الى ذلك في مجلس الامة بواسطة مبعوثيهم

ثم طرأ على بعضهم اليأس من بقاء الدولة وقوي ذلك وكثر التفكر في عواقبه عند ماغلب البلقانيون الدولة في الحرب وكادت دولة البلغار التي تم لها استقلالها في عهد الدستور تستولي على الآستانة ، وتحدثت جرائد أوربة بحقوق بعض الدول الكبرى في بلاد الدولة وخص بالذكر بعض الولايات العربية، وطفق المفكرون يناجي بعضهم بعضا : ماحيلتنا اذا أقدمت دولة قوية على الاستيلاء على بلادنا كما استولت

ايطالية على طرابلس الغرب وبرقة وليس فيها شيء من أسباب الدفاع ولا يمكن الدولة ولا مصر أن تساعدها على مقاومة المحتلين كما ساعدتهما ،

صدعهم هذا اليأس بعد ان قوي رجاؤهم في الدولة بانتصار حزب الحرية والائتلاف على حزب الاتحاد والترقي وانتزاعه السلطة التنفيذية من يده ، ثم قوي ذلك اليأس واشتد بثورة الاتحاديين على وزارة كامل باشا وقتلهم لناظر الحربية في الباب العالي وتأليف وزارة جديدة منهم بقوة الثورة ، ولولا ان زعماء العرب كانوا مجمعين على المحافظة على الدولة مهما تكن حالها ، لبادروا عند ذلك اليأس الشديد الى اضرام نار الثورة على الدولة والجهر بالاستقلال دونها، لعلمهم بأنه لم يبق عندها في ذلك الوقت سلاح ولا ذخيرة تدافع بهما عن عاصمتها، فكيف تقدر على تجريد عسكر يخمد نيران الثورة في البلاد البعيدة عنها ؟ ولكنهم لم يفعلوا ، ولم يكن الاسلام هو المانع لهم من التصدي لتأسيس دولة عربية وهم يائسون من بقاء الدولة التركية ومن اقامتها للاسلام ان بقيت والاتحاديون غالبون على أمرها، فان افتاء مذاهبهم بوجوب طاعة المتغلب خوف الفتنة التي ترجح مفسدتها على المصلحة لم يعد ينطبق على حالتهم مع الدولة ، ولكن المانع الحقيقي هو الخوف من أوربة أن تغتنم الفرصة وتستولي على البلاد

فتبين بهذا ان ماكان يصد زعماء العرب من المسلمين عن التصدي لتأسيس دولة عربية أمران : الاسلام والخوف من أوربة، وكان الرجحان في بعض الاحوال للاول وفي بعضها للثاني ، ولكنهما كانا في عامة الاحوال والاوقات مانعا واحدا أو سببا واحدا مركبا من أمرين كل منهما يقوي الآخر

وبعد حرب البلقان أقدمت الحكومة الاتحادية على عقد الاتفاق بينها وبين الدول الكبرى على الاعتراف لهن بالنفوذ الاقتصادي في أعظم الولايات العربية ليقرضنها عشرات الملايين من الجنيهات، وصرح بعض كبار السياسيين في جرائد أوربة بأن مناطق النفوذ الاقتصادي تتحول الى مناطق نفوذ سياسي عند سنوح أول فرصة لذلك، فثبت عند زعماء العرب ان الاتحاديين شرعوا في تنفيذ ماهددوهم به من بيع بلادهم وترقية الترك بثمنها كما فعلوا ببيع طرابلس الغرب وبرقة، فاشتدت عزيمتهم على طلب الاصلاح وعقدوا المؤتمر العربي في باريس لذلك فذعرت الحكومة

الاتحادية ولجأت الى الحيلة والخداع لضعفها في ذلك الوقت وكان من أمر نتيجة المؤتمر ما هو معلوم من اعتراف جمعية الاتحاد ثم حكومتها ببعض حقوق العرب في الدولة ووعدها باعطائهم تلك الحقوق بالتدريج وخداعها للسيد عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر وتصديقه إياها بما وعدت به

الحرب الأوربية واستقلال الحجاز

ثم ظهرت بوادر الحرب الاوربية وعزم الدولة على الدخول فيها فبادرتُ الى كتابة مقالة نصحت فيها لاخواني العرب بالكف عن طلب الاصلاح في حال الحرب وتأييد دولتهم بالاجماع فكان لها تأثير عظيم. ولكن الاتحاديين لما دخلوا في الحرب وجعلوا الاحكام في المملكة عسكرية عرفية جعلوا ذلك وسيلة للتنكيل بالعرب والارمن حسب خطتهم المقررة منذ سنين فصلبوا في سورية جميع من عرفوا من المطالبين بالاصلاح من نابغي العرب ونفوا من البلاد أرباب البيوتات والثروة الكبيرة وصادروا أموال الناس وغلات أرضهم، وفعلوا مثل ذلك في العراق، ثم تحرشوا بالحجاز، فبادر الشريف أمير مكة المكرمة الى اعلان استقلال الحجاز بعد النصح لجمال باشا الحاكم العسكري الاتحادي المطلق في سورية ولحكومة الآستانة بالكف عن الفظائع في سورية والعراق فلم يقبل نصحه، وانتهى أمر الشريف باعتراف دول الحلفاء باستقلاله التام وبما بايعه به أهل البلاد من جعله ملكا عليهم

وقد نشر الشريف قبل المبايعة منشورا بين فيه سبب قيامه مع الحجازيين بما قاموا به ففهمنا منه انه كان موافقا لما أجمع عليه من دونه من زعماء العرب من الرغبة في المحافظة على بقاء الدولة واتقاء ان يكون زوالها أو ضعفها من قبل العرب، فان استقلال الحجاز الذي أنتجته الضرورات لا يمكن ان يكون سببا لزوال الدولة وهي داخلة في أحد الحلفين اللذين انقسمت اليهما دول أوربة الكبرى، فان النصر لأحد الحلفين على الآخر انما يكون بانتصاره عليه في أوربة، واستقلال الحجاز لا يقدم في ذلك ولا يؤخر، ولكنه افاد العرب فوائد عظيمة فصدق عليه قولنا إما ان ينفع نفعا كبيرا أو صغيرا واما ان لا يضر. وقد ثبت عندنا ان استقلال الحجاز كان سببا لكف الاتحاديين عن محاولة ابادة العرب من سورية والعراق الآن وتخفيف ما كانوا شرعوا

فيه من المذابح والفظائع وكان هذا من أجلّ منافعه التي تربي على ماترتب عليه من سفك الدم الذي اجتهدت الحكومة العربية الحجازية في اجتنابه بقدر الطاقة

عاقبة العرب استقلال الشعوب

ثم طرأ بعد استقلال الحجاز أن أعلن دول الاحلاف أنهن قد اتفقن على حرية الشعوب واستقلالها في أمر حكومتها وذكروا العرب والارمن منها. وهذه قاعدة عادلة عظيمة الشأن اذا نفذت على وجهها الصحيح وكانت الدول كلها متضامنة في حفظها بما يتعاهدن عليه في مؤتمر الصلح، وأولها بعضهم بمعنى أن لا يحكم شعب الا بالطريقة التي يختارها لنفسه ، ولكن الوقوف على آراء الشعوب المغلوبة على حريتها متعذر في هذه الاوقات التي تخضع فيه للاحكام العسكرية، وقد علمنا ممن فر من سورية والعراق الى مصر والحجاز ومن أسراهم بمصر ان العداء بين العرب والترك قد عم وتمكن فلا مطمع في زواله ولم يبق في العرب من لا يرغب في الاستقلال دون الترك . ومن البديهي انه لا يوجد شعب في الدنيا يختار على الحرية والاستقلال شيئا إذا تيسرا له ، ولكن يوجد في كل أمة أفراد من عبيد المال ، ومن الجاهلين الذين يخدعون بزخرف الاقوال، فيمكن أن يستخدم من هؤلاء وأولئك بالترغيب والترهيب طائفة تقول ماتؤمر أن تقوله، ولا يمكن أن يكون اختيار هؤلاء للعبودية بتسميتها بغير اسمها حجة على الشعب، ولكن القوة تحتج على الضعف بما تشاء ، وانما يعرف رأي الشعوب في بلاد الحضارة من قبل أحزابها السياسية ، وليس للشعب العربي العثماني حزب سياسي عامّ لا (حزب اللامركزية) ويمكنه أن يبين رأي الشعب ان استطاع زعماؤه أن يعربوا عن آرائهم، وله جمعيات موضعية خاصة كجمعية الاتحاد اللبناني بمصر وأمريكة والنهضة اللبنانية في أمريكة فهي تمثل آراء جمهور اللبنانيين. والدول اذا أخلصت في تنفيذ هذه القاعدة تقررها وعند مايجتمع زعماء كل أمة تنال استقلالا جديدا لتأسيس حكومتها العليا يعرف رأيهم في شكلها ، ولا يعرف معرفة صحيحة بغير ذلك . فاذا انتهت الحرب بذلك كانت عاقبتها على البشر خير العواقب . والله الموفق

مسألة استقلال الشعوب

نشر المقطم في العدد الذي صدر منه في ٢٣ شعبان (١٣ يونيو) مقالة عنوانها (الصلح الدائم وكيف ينال) قال فيها ما نصه :

وضعت روسية الدمقراطية على بساط البحث مسألة الغرض من الحرب الحاضرة في أواسط الشهر الماضي فحملت الدول المتحاربة على اعلان قصدها وغايتها، وحثت الامم الكبيرة والصغيرة على بسط آمالها وأمانيها، وكانت روسية أولى الدول التي أعلنت غايتها من الحرب فقالت انها لا تتوخى ضم الاملاك وتقاضي الغرامات الحربية وان غرضها الاساسي الوحيد انما هو إبرام صلح وطيد الاركان على أساس استقلال الامم الكبيرة والصغيرة وتحقيق آمالها القومية العادلة وتخويلها حقاً من أقدس حقوقها وهو ان تحكم نفسها بنفسها وتختار شكل الحكومة التي تلائم أخلاقها وعاداتها . وقام المسيو ريبو بعد ذلك فأعلن رغبة فرنسة في ابرام صلح عادل أساسه استقلال العناصر. ثم وقف في مجلس النواب الفرنسوي وتفته التاريخية المشهورة فجاهر في جلسة ٤ يونيو الحالي بأن فرنسة لا ترمي من هذه الحرب الاّ الى استرجاع الالزاس واللورين اللتين سلختا عنها سنة ١٨٧١ رغم ادارة سكانهما ومنح الامم الكبيرة والصغيرة الاستقلال التام . ووافقت بريطانيا العظمى على قرار حليفتيها العظيمتين اذا كان مبدأ عدم ضم الاملاك وتقاضي الغرامات الحربية يعني رد المسلوب والتعويض من الخسارة التي نزلت بالامم التي اعتدي عليها

وقد وافانا روتر أمس بنص المذكرة الكبيرة الشأن التي أرسلها الدكتور ولسن رئيس الولايات المتحدة الى روسية و بين فيها أغراض أميركا من هذه الحرب فقال « انها لا ترمي الربح المادي ولا التوسع ولا تقاتل لجر مغنم وانما تحارب لتحرير الشعوب في كل مكان ومساعدتها على النهوض والارتقاء في ظل الاستقلال من غير تسلط متسلط عليها، وان المشاكل الحاضرة يجب ان تسوى طبقاً لمبدإ واضح جلي وهو انه لا يصح اجبار شعب من الشعوب على ان يعيش في ظل حكم لا يريده ولا إجراء تعديل في الكون الا في ما يؤدي الى توطيد أركان السلام وسعادة الامم فيصير

اخاء البشر حينئذ حقيقة واضحة وقوة فعالة لصون الحياة من اعتداء المستبدين وطمع الطامعين »

هذه غاية الولايات المتحدة من الحرب وذلك هو الغرض الوحيد الذي وضعه الحلفاء كلهم نصب عيونهم وأعلنوا غير مرة عزمهم الاكيد على الوصول اليه مهما كلفهم الامر و بديهي أن الولايات المتحدة لم تخض غمار الحرب الحاضرة الا بعد ما اتفقت مع الحلفاء على تحقيق هذا المبدإ الشريف العادل فان المسيو بريان رئيس الوزارة الفرنسوية سابقا أرسل اليها باسم الحلفاء جميعهم مذكرة مسهبة في ٣ ديسمبر الماضي قال فيها أن للحرب الحاضرة ثلاثة أغراض (أولها) اعطاء الامم الكبيرة والصغيرة حريتها واستقلالها (وثانيها) نيل التعويض من الخسارة التي نشأت عن اعتداء ألمانية الفظيع (وثالثها) الحصول على ضمان واف لمنع وقوع الحرب في المستقبل

على هذا الاساس تم الاتفاق بين الحلفاء والولايات المتحدة ومن أجل هذه الغاية الشريفة فقط بذلت أمريكة رفاهية شعبها والاموال الطائلة التي كانت تنهال عليها من أوربة . فالمجد لها والفخر لرئيسها العظيم نصير الانسانية وحامل لواء الحرية والعدل في العالم اه

وجاء في المقطم الذي صدر في ٢٤ شعبان (١٤ يونيو) مانصه :

خطة روسية

دعا وزير خارجية روسية مندوبي الصحف الى مقابلته و بسط لهم خطة روسية الحاضرة وقال ما خلاصته :

ترمي روسية الجديدة الحرة الى ابرام الصلح العام في أقرب آن على أساس تحرير الامم وتخويلها حق انتقاء شكل حكوماتها وعدم ضم الاملاك وتقاضي الغرامات الحربية من الاعداء ، وهي تتوخى من مواصلة الحرب أمرين (أولها) الحصول على صلح شريف يزيل الضغائن والاحقاد من بين الامم المتحاربة (وثانيهما) استقلال الشعوب استقلالا تاما وجعلها قوة عظيمة لصون الحرية ومنع اعتداء المعتدين في المستقبل.

ان الخطأ الذي ارتكب في حرب السبعين لايجوز أن نرتكب مثله اليوم، فسكان الالزاس واللورين الذين سلخوا عن فرنسا رغم ارادتهم لم ينسوا وطنهم الاصلي الى

الآن وكانت مسألتهم من أهم اسباب الحرب الحاضرة لان الظلم لاينسى مهما تقادم عهده . لذلك ترى روسية الحرة أن تشيد الصلح المقبل على أساس العدل وحرية الشعوب الكبيرة والصغيرة

لاانكر ان الحكم السابق ارتبط بمعاهدات سرية مع بعض الدول وأن هذه المعاهدات أقلقت الديموقراطيين الروس لاعتقادهم بأنها ترمي الى التوسع وضم الاملاك فألحوا على الحكومة الموقتة في نشرها في الحال خوفاً من وقوع الشقاق بين أحزاب الامة ولكن هذا الطلب لا يتفق مع مصلحة روسية لانه يؤدي الى قطع صلاتها بحلفائها واكراهها على ابرام صلح منفرد مع عاهما أن الصلح الوحيد الذي يلائم مبادئها هو الصلح العام على أساس استقلال الامم الكبيرة والصغيرة استقلالا تاماً ، فالواجب على روسيا في هذه الحال أن تنسى الماضي وتنظر الى المستقبل فقط بعد الانقلابات العظيمة التي طرأت على الكون كالثورة الروسية ودخول الجمهورية الاميركية العظمى في الحرب . وهذه الانقلابات ستؤثر أعظم تأثير في دمقراطية الامم المتحالفة ولا سيما ان صلاتها بممثلي تلك الدمقراطية على أحسن مايرام . و بديهي أن مهمتي الاساسية في وزارة الخارجية هي التوفيق بين الدمقراطية الروسية ودمقراطية الامم الغربية على أساس يكفل السلم للعالم . ولكن تحقيق هذه المهمة يتعذر علينا اذا أحجمنا عن القيام بالعهود التي قطعناها لحلفائنا

أما مسألة ضم الاملاك فلا تخطر على بال أحد منا وليست المعارك التي نخوض غمارها الآن الا معارك دفاعية ترمي الى طرد العدو من البلاد التي احتلها في روسية والبلجيك وفرنسة وسربية ورومانية ونيل الامم الكبيرة والصغيرة حريتها واستقلالها

هذا كل ما أستطيع أن أقول الآن عن غرض روسية والخطة التي تنهجها لتحقيق آمالها وأمانيها ، انتهى

وجاء في المقطم الذي صدر في يوم السبت ١٨ رجب (١٩ مايو)

غرض بريطانية العظمى من الحرب

لندن في ١٧ مايو

ان الخطبة التي خطبها اللورد روبرت سسل في مجلس النواب في الليلة البارحة

تعد هنا وفي سائر بلدان الحلفاء من أهم ما قيل في بيان غرض بريطانية العظمى من الحرب

فتح المستر سنودن باب المناقشة ورد اللورد روبرت سسل عليه فقال ان عبارة « عدم الضم » راجت كثيراً وتناقلتها الافواه . ثم شرح بطرق أبواب هذا الموضوع باباً فبابا واستهل البحث بذكر بلاد العرب فقال ليس في الدنيا رجل يشير علينا بأن نبذل نفوذنا لرد بلاد العرب الى تحت سلطة الاتراك (هتاف) ثم ان أعظم ضم لارمينية بأوسع معنى السيادة والامبراطورية يفيد شعبها الذي عانى الويلات والنكبات بما اقترفه الاتراك به من الجرائم وما يقال عن أرمينية يقال مثله عن سورية وفلسطين

ثم انتقل الى الكلام عن مستعمرات ألمانية في أفريقية فقال اننا لم نهجم على تلك المستعمرات لننقذ أهلها الاصليين من سوء الحكم ولكن أتريدون ان نعيدهم الى ألمانية بعد ما أنقذناهم منها ؟ فهتف المجلس له هتافا شديدا لما قال: ان بدني يقشعر اذا فكرنا في رد أولئك الوطنيين الى حكم الحكومة التي ارتكبت بهم ضروب القسوة

وماذا أقول عن بولندا وهل فيكم من يعترض على إنشاء مملكة بولندية مستقلة. وماذا أقول عن الالزاس واللورين وهل من يقول(؟) ان ألمانية بعد ما أخذت ولايتين من فرنسة لا يجب ان تردهما اليهما (هتاف) . وعندنا أيضا الولايات الايطالية الداخلة في حكم النمسا فهل توافق الحكومة البريطانية على عدم رد هذه الولايات الى ايطالية وسكانها من الايطاليين

ثم طرق اللورد روبرت باباً آخر من أبواب الموضوع وأشار الى عبارة « عدم عقد الصلح مع آل هوهنزلرن » فقال ان في هذه العبارة كثيرا مما يستصوب وهي مقبولة عند عامة البريطانيين ولكن الفطنة قد تقتضي بعدم اتخاذها قاعدة لتعريف سياستنا الوطنية .

قال وقد سمعنا البعض يقولون «لاغرامة حربية» فهل يراد ان لانعطى البلجيك غرامة؟ وماذا يكون نصيب سربيا وولايات فرنسة الشمالية؟ وهل يسعنا ان نغضي عن تعويض ما دمر من البواخر التجارية ؟ أما أنا فلست مستعداً للموافقة على ذلك

وعقبه المستر اسكويث فخطب خطبة كان لها وقع عظيم فقال ان عبارة « عدم الضم » التي وردت في بعض التصريحات الروسية لم تفهم تماماً لعدم وجود معجم واف للغة السياسة الدولية ولكني لا أعتقد أن زعماء روسية وحكامها المسؤولين استعملوها بغير المعنى الذي نسلم به نحن .

ولكن لضم البلدان أربعة معان مختلفة يمكن استعمالها لها (فالمعنى الاول) ان هذه الحرب اذا أريد ان تؤدي الى صلح وطيد الاركان فيجب ان تسفر عن ضم بعض البلدان لتحرير الشعوب الراسفة في قيود الظلم واغلال الاستبداد (هتاف) وهذا أمر مشروع والا فان الاغراض التي امتشقنا لاجلها الحسام في هذه الحرب لا تنال أو ينال جانب منها فقط الا اذا قام الحلفاء حق القيام بعمل هذا التحرير بضم البلدان (هتاف) قال وإني واثق ان رجال حكومة روسية الجديدة لايحتجون على ضم البلدان اذا كان هذا هو الغرض منه

(والمعنى الثاني) يسري على البلدان التي تحوي جنسيات فصلت عن أصولها مثال ذلك بلاد الترنتينو فضمها (الى ايطالية) ضروري لراحة ضمير العالم المتمدن (هتاف)

ثالثا (كذا) ان الضم قد يكون من الامور المطلوبة لنقل ملك أو أرض لاجل الاحتفاظ بمواقع حربية تكون ضرورية لا للهجوم بل للدفاع ووقاية البلاد من هجوم في المستقبل

و يبقى (الوجه الرابع) أي الضم بمعنى فتح البلدان للتوسع والتبسط للسؤدد السياسي بالربح الاقتصادي وهذا أمر لا يلقى شيئا من التأييد في البرلمان البريطاني ولا في بريطانية العظمى ولا بين حلفائها (هتاف)

ومتى جلونا هذا الابهام فهل يبقى خلاف بيننا و بين أصدقائنا ديمقراطي روسية على القواعد العامة التي يجب مراعاتها في الكلام عن الصلح ؟

أما أنا فلا أعتقد بوجود شيء من الفرق (اسمعوا اسمعوا) روتر

وجاء في المقطم الذي صدر في ٢١ رمضان (١٠ يوليو) ما نصه :

غاية الحلفاء من الحرب

رد فرنسة وانكلترة على المذكرة الروسية

أرسلت الحكومة الروسية الموقتة في شهر ابريل الماضي مذكرة خطيرة الشأن الى دول الحلفاء بسطت فيها غايتها من الحرب وألحت عليهم في اعلان أغراضهم الحقيقية منها . وقد نشرنا المذكرة الروسية في حينه ورأينا الآن أن نوافي القراء برد فرنسة وانكلترة عليها لما فيه من الدلالة على حسن نيات الحلفاء وسمو مبادئهم ونبل مقاصدهم وهو الجواب الذي وصل الى بتروغراد في أواخر شهر يونيو الماضي . قالت فرنسة في مذكرتها :

جواب فرنسة عن مذكرة روسية

« اطلعت حكومة الجمهورية الفرنسوية بارتياح عظيم على المذكرة التي سلمها اليها سفير روسية في باريس باسم الحكومة الموقتة وشاركتها في الثقة التامة بكل ما يتعلق بتحسين موارد روسية الاقتصادية وزيادة قوتها الحربية أو السياسية ثم رأت أن تعلن ما يأتي :

« ان فرنسة لم تفكر في استعباد شعب من الشعوب حتى أعدائها الحاليين ، ولكنها تريد أن يزول الخطر الذي يهدد العالم وأن يعاقب المجرمون الذين أضرموا نار هذه الحرب الهائلة وكانوا عارا على أعدائنا أنفسهم، وهي تترك لاعدائها عواطف الطمع التي امتازوا بها في الحرب والسلم ولا تطلب من البلاد الا ماهو لها شرعا

« لقد ذهبت مساعيها السلمية أدراج الرياح واضطرت الى امتشاق الحسام دفاعا عن حريتها واستقلالها ورغبة في اكراه العدو على احترام استقلال الامم . فكما ان روسية أعلنت احياء مملكة بولندة القديمة المستقبلة هكذا فرنسة تحيي بسرور عظيم كل المساعي الحرة التي تبذلها الامم المستعبدة

« ولا ترمي فرنسة في هذه الحرب الا الى غاية واحدة وهي انتصار الحق والعدل سواء قامت الامم لاعلان استقلالها ووحدتها واعادة سالف مجدها ومدنيتها أو لخلع نير العبودية عن عاتقها وهو النير الذي كان يهدد جميع الامم التي لم تبلغ منزلة الجرمان من الارتقاء الظاهري

« ولا تطالب فرنسة لنفسها الا تحرير الولايتين الفرنسويتين اللتين سلختاعنها بالقوة وهما الالزاس واللورين ولكنها تحارب مع حلفائها الى النصر الذي يعيد اليهم حقوقهم واستقلالهم السياسي والاقتصادي ويعيضهم من الخسارة التي نزلت بهم ويكفل لهم منع كل اعتداء يقع عليهم في المستقبل

« وتعتقد حكومة الجمهورية اعتقادا تاما كاعتقاد الامة الروسية ان هذه المبادئ العادلة هي المبادئ الوحيدة التي يجب أن يضعها الخلق نصب عيونهم لابرام صلح دائم على أساسي العدل والحق

« فعلى الحكومة الموقتة أن تثق ثقة تامة بمبادىء الحكومة الفرنسوية وتعلم انها مستعدة للاتفاق معها ليس فقط على التدابير اللازمة لمواصلة الحرب بل على طرق الانتهاء منها أيضا بشكل يتفق مع الغاية التي خضنا غمار الحرب من أجلها» انتهى.

قرار مجلس نواب فرنسا

ثم شفعت الحكومة الفرنسوية هذه المذكرة بالقرار الخطير الشان الذي أصدره مجلس نواب فرنسة في جلسته التاريخية في ٥ يونيو ونقلته الينا التلغرافات الخصوصية والعمومية في حينه [المنار وهذه ترجمته :]

باريس في ٥ يونيو

هذا نص قرار الثقة بالحكومة الذي وضعه مجلس النواب الفرنسوي : —

ان مجلس النواب الذي يعبر رأساً عن سلطة الشعب الفرنسوي يرسل الى الدمقراطية الروسية وسائر دمقراطيات الحلفاء التحية والسلام

ان مجلس النواب يؤيد الاحتجاج الاجماعي الذي قدمه مندوبو الالزاس واللورين المسلوختين عن فرنسة الى الجمعية الوطنية في سنة ١٨٧١ ويجاهر بأنه ينتظر ان هذه الحرب التي أكرهت ألمانية المحبة للفتح سائر بلدان أوربة على خوض غمارها لا تؤدي الى تحرير الولايات التي اكتسحها الالمان فقط بل الى رد الزاس واللورين الى وطنهما الاصلي وتعويض فرنسة مما أصابها من الضرر والخسارة

ان مجلس نواب فرنسة لا يفكر في فتح البلدان واخضاع شعوب أخرى ولكنه

ينتظر ان يؤدي جهاد جيوش الجمهورية الفرنسوية وجيوش حلفائها الى سحق الروح العسكري البروسي والحصول على ضمان وطيد لاستقلال الشعوب الكبيرة والشعوب الصغيرة

والمجلس واثق بأن الحكومة تكفل احراز هذه النتائج بالتعاون العسكري والسياسي مع حلفائنا — روتر

جواب انكلترة عن مذكرة روسية

وأرسلت الحكومة البريطانية المذكرة التالية الى حكومة روسيا وهي : —

« تلقت الحكومة البريطانية المذكرة التي سلمها اليها معتمد روسية في لندن وتضمنت أغراض روسية من الحرب الحاضرة

« وقد ورد في المنشور الذي أعلن على الشعب الروسي ووصل الينا مع المذكرة أن روسية لاتتوخى سيادة الامم الاخرى والاعتداء على أملاكها القومية واحتلال بلادها بالقوة فالحكومة البريطانية تشارك الحكومة الموقتة في مبادئها وتعلن أنها لم تخض غمار الحرب من أجل التوسع والفتح وانما خاضت غمارها في بدء الامر دفاعا عن كيانها ورغبة في اكراه المعتدين على احترام المعاهدات الدولية . أما الآن فقد صار لها غاية أخرى وهي تحرير الامم التي تئن من جور الاستبداد الاجنبي

« وقد قابلت الحكومة البريطانية بسرور عظيم عزم روسية على تحرير بولندا التي تحت حكمتها الاتقراطية الروسية و بولندا التي تئن من جور الاستعباد الجرماني فالدمقراطية البريطانية تحيي روسية وتتمنى لها النجاح في هذه المهمة من صميم فؤادها

« ويهمنا قبل كل شيء أن نجد طريقة حسنة لحل المشاكل الحاضرة حلا يكفل للامم سعادتها وهناءها و يستأصل جراثيم الحروب المقبلة من العالم

« والحكومة البريطانية تنضم الى حلفائها الروسيين من صميم فؤادها وتقبل معهم المبادىء السامية التي أعلنها الرئيس ولسن في خطبته الشهيرة في مجلس الامة الاميركية

« هذه هي الغاية التي تحارب الامم البريطانية من أجلها وتلك هي المبادىء التي تسير عليها في سياستها التي لها صلة بالحرب

« وتعتقد الحكومة البريطانية ان الاتفاقات التي أبرمتها مع حلفائها فى الماضي

لا تناقض هذه المبادىء ومع ذلك فانها تقبل أن تعيد النظر فيها اذا شاءت الحكومة الروسية ذلك وأن تعدل بعض موادها اذا اقتضت الحال » انتهى

وجاء في المقطم الذي صدر في ١٨ رمضان (٧ يوليو)

﴿ الحلفاء واستقلال الامم ﴾

أرسلت الحكومة الروسية مذكرة الى دول الحلفاء بسطت فيها غايتها الحقيقية من الحرب وطلبت منهم أن تعرف الغاية التي يتوخونها هم أيضا فأجابتها فرنسة بمذكرة طويلة قالت فيها انها لاترمي الا الى استرجاع الالزاس واللورين ومنح الامم الكبيرة والصغيرة استقلالها التام ثم شفعت هذه المذكرة بالقرار الذي أصدره مجلس نواب فرنسا في ٥ يونيو الماضي

وقالت انكلترة في ردها على المذكرة الروسية انها خاضت غمار هـذه الحرب دفاعا عن كيانها ورغبة في اكراه الآخرين على احترام المعاهدات الدولية . أما اليوم فصارت ترمي الى غاية ثالثة وهي تحرير الامم التي تئن من جور الاستعباد الاجنبي فانكلترا في هذه الحال توافق على المبادئ السامية التي جاهر بهـا الدكتور ولسن وأعلنتها الدمقراطية الروسية وهي مستعدة لاعادة النظر في المعاهدات التي أبرمتهـا مع روسية وسائر حلفائها

وقد قابلت الصحف الروسية هاتين المذكرتين بارتياح عظيم اذا استثنينا الصحف الثورية والمتطرفة والداعية الى الصلح . فقالت جريدة نوفوفريميا ما خلاصته : —

لا يمكننا ان نزيد حرفاً واحداً على جواب الحلفاء عن مذكرتنا فهو في غاية الوضوح في ما يتعلق بخطة الفتح الذي يتهمهم أعداؤنا بها

وقد أعلن حلفاؤنا غايتهم الحقيقية من الحرب فاذا هي غاية روسيا وغاية اميركا حليفتنا الجديدة . انتهى

وقالت « البورص غازت » ان جواب الحلفاء أرضى روسية الدمقراطية وأكد لها أن دمقراطيات العالم كله متفقة على الدفاع عن استقلال الامم وسحق الاستبداد البروسي

﴿ جواب ايطالية عن مذكرة روسية ﴾

جاء في عدد المقطم الذي صدر في ١٧ رمضان (١١ يوليو) مانصه : —

نشرنا في مقطم أمس رد الحكومتين الفرنسوية والبريطانية على المذكرة الروسية التي تضمنت اغراض روسية من الحرب وعثرنا اليوم على المذكرة الجوابية التي أرسلها ناظر خارجية ايطاليا الى حكومة بتروغراد فآثرنا ترجمتها في ما يلي : —

« اطلعت على مذكرة سعادتكم وعلى المنشور الذي أصدرته الحكومة الموقتة على الامة وأعلنت فيه أغراض روسيا الحرة من الحرب الحاضرة . وقد وقع تصريح الحكومة الروسية أحسن وقع في الحكومة الملكية الايطالية وجاء دليلا جديدا على عزمها الاكيد على مواصلة الحرب الى النصر التام

«لقد قابلت الحكومة الملكية بأشد ارتياح رغبة روسيا الاكيدة في أن تضاعف جهدها لتحرير بلادها المحتلة واعادة بولندا الى وحدتها واستقلالها لان في هذه الرغبة الصادقة قضاء مبرماً على المساعي التي يبذلها العدو لاساءة سمعة روسية وحمل الحلفاء على الارتياب في نياتها

« ان اتفاق روسيا مع حلفائها على أساس اشد اخلاصاً وامتن بنياناً لمن الامور التي تكفل لها مستقبلا مجيداً وتمكنها بالاشتراك مع دمقراطيات العالم الحرة من احراز الغاية التي وضعتها نصب عينها لابرام صلح دائم على أساس الحرية والعدل بين البشر

«أما ايطاليا فقد خاضت غمار الحرب عن طيبة خاطر لتحرير الامم المستعبدة والدفاع عن استقلالها . هذه كل أغراض ايطاليا من الحرب وهذا كل ماتتوخاه لان فكرة الفتح والاستعمار لا أثر لها في بيانها السياسي

« فايطاليا التي أسست دستورها على المبادئ الدمقراطية تتلقى بسرور عظيم المذكرة التي كلفتكم الحكومة الموقتة تسليمها الي وتعرب لكم بلساني عن ثقتها الاكيدة بالنصر النهائي التام . انتهى

(المنار) حدث في هذه الاثناء ان ايطالية أعلنت استقلال ألبانية تحت حمايتها فهي اذاً لاتعد الحماية من الفتح والاستعمار أو تستثني من الاستعمار ماحسنت فيه النية عملا بتأويل المستراسكويت الذي تقدم . وهذا نص برقيتين وردتا في المسألة من ترجمة المقطم

﴿ استقلال ألبانيا ﴾

رومية في ٤ يونيو — صدر منشور في ارجيرو كسترو يوم ٣ يونيو باستقلال البانيا وتوحيدها كلها تحت حماية ايطاليا — روتر

رومية في ٤ يونيو

هذا بعض نص المنشور باعلان الحماية الايطالية على البانيا وهو بامضاء الجنرال فريرو :

« أيها الالبانيون انكم بهذا القرار سيصير لكم معاهد حرة وجنود ومحاكم ومدارس يديرها أبناء قومكم ويتيسر لكم ان تدبروا أملاككم وتجنوا ثمرة تعبكم لانفسكم ولزيادة خير بلادكم وإسعادها

« أيها الالبانيون انكم أينما كنتم سواء في بلادكم الحرة الآن أو فارين في سواها من البلدان أو كنتم خاضعين لحكم أجنبي يمتن عليكم بالمواعيد الكثيرة ولكنه في الحقيقة يسلبكم ويعاملكم بالشدة أنتم سلالة جنس عريق نبيل تربطكم عدة قرون من التقاليد القديمة بحضارة رومية والبندقية . انكم لا تجهلون اشتراك المصلحة بين الايطاليين والالبانيين في البحار التي تفصل بيننا والتي وحدت بيننا أيضا، انكم لحسنو النية واليقين تعتقدون بحسن مصير وطنكم المحبوب فأنتم تقفون الآن في ظل راية ايطاليا والبانيا وتحلفون يمين الاخلاص الابدي لالبانيا المستقلة التي تنادي بها اليوم باسم ايطاليا وتتمتعون بصداقة ايطاليا »

وقد تلي هذا المنشور على جمهور كبير من ألباني ارجيرو كسترو فقابلوه بالحماسة ونشر في سواها من الجهات التي تحت ادارة الايطاليين والقى الطيارون نسخا منه في البلاد الواقعة وراء فوجوزا — روتر

(المنار) هذا وان البرقيات العامة نقلت الينا أن روسية الحرة لم تعترف بهذا الاستقلال بل صرحت بأن مؤتمر الصلح هو الذي يفصل في أمرها

ومن تأمل أجوبة الحلفاء كلها رأى ان جواب فرنسة أبعدها عن مظان التأويل وأقربها الى مقصد المذكرة الروسية ، ولما كان المعهود في السياسة ان يكون لكل كلام ظاهر وباطن وان يكون ظاهره محتملا للتأويل كتب أحد كتاب فرنسة الاحرار (المسيو اولار) مقالة في الموضوع الذي نبحث فيه لخصتها جريدة المقطم في العدد الذي صدر منها يوم الجمعة ١٣ يوليو (٢٤ رمضان) بما يأتي :

غرض فرنسا من الحرب

من مقالة للمسيو اولار

انشأ المسيو اولار الكاتب الفرنسوي الشهير مقالة شائقة في جريدة « البابي » (الوطن) الباريسية بسط فيها غاية فرنسة من الحرب والاغراض الحقيقية التي ترمي اليها . والمسيو اولار من أعظم الكتاب الفرنسويين وأشدهم تأثيرا في الرأي العام وأكثرهم خبرة بشؤون الشرق الادنى ولا سيما سورية التي زارها لآخر مرة سنة ١٩٠٧ واسس فيها مدرسة بيروت العلمانيـة ومدرسة دمشق للبنات . وهو استاذ التاريخ في جامعة السوربون وصاحب المؤلفات العديدة عن الثورة الفرنسوية ومن زعماء الماسون والرئيس الاكبر لجمعيات التعليم العلماني في فرنسا لذلك رأينا ان نلخص مقالته للقراء لما فيها من الدلالة على اغراض الامة الفرنسوية من هذه الحرب وسمو مبادئها ونبل مقاصدها ورغبتها الاكيدة في مواصلة الحرب الى النصر قال :

« خاضت الولايات المتحدة غمار الحرب ودخلت الثورة الروسية في دور جديد في الاسابيع الاخيرة فأحدث ذلك تأثيرا عظيما في العالم ظهرت نتائجه الاولى في انقشاع الغيوم المتلبدة في جو سياسة الحلفاء

« وقد وقعت هذه الايام حوادث سياسية لها مغزى عظيم واضح فأعلن المسيو ريبو رئيس الوزارة الفرنسوية في مجلس النواب بعد اتفاقه مع الحكومات المتحالفة [انه لا يمكن ان تكون لنا خطة سرية غير الخطة الصريحة التي يعرفها العالم كله وان في التلاعب بالوجدان الوطني خطرا عظيما يؤدي الى أعظم النكبات] فالمسيو ريبو انس من نفسه هذه الجرأة الادبية التي حملته على هذا التصريح الخطير الشان بعد ما أبدت الدمقراطيتان الاميركية والروسية آراءهما في الامر واعربتا عن عدم رضائهما عن السياسة السرية

« هذا واننا نرى من جهة أخرى ان الجنود الفرنسويين الذين يقاسون ضروب الشقاء ويريقون دماءهم الزكية في الخنادق دفاعاً عن الوطن العزيز يريدون ان يعلموا الغاية الحقيقية التي يقاسون الشقاء ويقتحمون الاخطار للوصول اليها . لا مشاحة في انهم يعلمون ان غرضهم الوحيد من الحرب الحاضرة طرد العدو من البـلاد التي

اجتماعها وتحرير العناصر من ربقة الاستعباد ولكنهم يخشون ان تكون هنالك سياسة سرية وراءها مقاصد فتح ومطامع استعمار تحت ستار العدل والحق وان يتخذ ذلك حجة لتحقيق الاحلام القديمة التي منشأها الغرور وغاياتها استعباد الامم

ان الفرنسويين قاطبة يحاربون الى النهاية من أجل فرنسا والالزاس واللورين ويريقون آخر نقطة من دمهم لانقاذ البلجيك التاعسة من مخالب العدو ولكنهم لا يقبلون بوجه من الوجوه ان تكون غايتهم من الحرب فتح آسيا الصغرى وتحقيق مشروع استعماري بعيد تخفيه الحكومات اه

[المنار] ان الذكي الفطن يفهم من هذا التلخيص ما وراءه فعسى ان تنتهي هذه الحرب بما يحبه — مثلنا — هـذا الكاتب الحر بتحقيق آمال المستضعفين وتحرير الشعوب أجمعين ،

الترك والعرب . وهل يكونان كالنمسة والمجر

نشر المقطم في ٥ شوال مقالة أرسلها اليه ابراهيم افندي النجار من باريس شرح فيها ما أحدثته الثورة الروسية ودخول الولايات المتحدة في الحرب من الروح الجديدة في سياسة العالم وأشار فيها الى ما بين قاعدة أحرار الروس ومرامي الرئيس ولسون وبين تنفيذ فكرتهما من العقبات وذكر تأثير ذلك في الدولة العثمانية فقال ما نصه :

« وقد اتصل بي هذين اليومين خبر كبير الاهمية اذا صدقت الرواية وصدق راويها وهو ان هذه الفكرة التي سبقت الاشارة اليها مشت شرقاً ووقفت في فروق (الآستانة) ففكر أصحاب الحل والعقد فيها في انشاء السلطنة العثمانية على الاساس الثنائي من الترك والعرب كما قامت امبراطورية النمسا على أساس سلطة النمسويين والمجريين . وان الحكومة شارعة في تعديل القانون الاساسي على هذا المبدأ. قرأت هذا الخبر الذي رواه لي مخبري في سويسرا ووقفت عنده وقفة الحائر في نقضه وتصديقه. الاول لانه لا ينطبق على سياسة غلاة الترك العنصرية والله أعلم بما أعرف من خبايا نياتهم وبما يضمرون . والثاني لان القوم ضاقوا ذرعاً في هذه الحرب وعلموا ان عاقبتها ستكون وبالا عليهم وان نهايتها ستكون على حسابهم وعرفوا مبادىء الثورة

الروسية والرئيس ولسن كما عرفها الخاص والعام وسمعوا آراء رجال الحل والعقد في برلين وفينا في النصح لهم بالتخفيف من غلوائهم فرأوا من الحكمة أن يفعلوا مختارين ما تحملهم القوة القاهرة على قبوله واقراره . والذي يعلم كيف أعلن مدحت باشا القانون الاساسي الاول يوم كان سفراء الدول مجتمعين في الطوبخانة في لاستانة لتبادل الرأي في كيفية حمل الدولة على الاصلاح يعرف مسالك الترك في هذه المآزق ويتبين له وجه الشبه التام بين اليوم والبارحة. لهذا السبب ملت لي تصديق الرواية وان كنت لا أجزم بصحتها » اه

المجمع اللغوي المصري (*)

لقد تم تأليف هذا المجمع في دار الكتب السلطانية وهذا هو القانون الذي وضعه لبيان أعماله اللغوية وأنظمته الداخلية

عملاً بالمادة الثانية من القانون المتضمنة تأليف لجان لوضع مصطلح كل علم أو فن قد قرر المجمع في جلسته المنعقدة يوم أول يونيو سنة ١٩١٧ تأليف اللجان الآتية والفت فعلا وهذه هي أسماؤها

١ لجنة الجغرافيا والتاريخ والآثار والملابس والاواني والملاحة والتجارة

٢ لجنة الطب والعلوم الطبيعية عدا علم النبات

٣ لجنة المنطق والفلسفة والعلوم الاجتماعية

٤ لجنة الفقه والقانون

٥ لجنة العلوم الرياضية والفنون الجميلة والصناعة والزراعة وعلم النبات

٦ لجنة اصطلاحات الدواوين

أما أعضاء المجمع فهم الآتية أسماؤهم وقد رتبت بحسب الترتيب الابجدي بالحروف الاولى فيها

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الازهر رئيس المجمع وحضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية وكيل وحضرات

---

*) هذا ما نشره كاتب سر المجمع في الصحف وقد بين المنار سبب تأليف هذا المجمع في المجلد ١٩

احمد لطفي السيد بك مدير دار الكتب السلطانية كاتب السر والسيد محمد البلاوي وكيل ... الكتب مساعد كاتب السر وحضرات الشيخ أحمد ابراهيم والشيخ أحمد الاسكندري ... أحمد براده بك وأحمد تيمور بك وصاحب السعادة أحمد زكي باشا وأحمد سليمان بك ... الدكتور أحمد عيسى بك وأحمد كمال بك واسماعيل رأفت بك وحفني ناصف بك ... الحميد فتحي بك وعبد الحميد مصطفى بك وصاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن ... وعثمان فهمي بك والدكتور فارس نمر ومحمد أمين واصف بك والشيخ محمد رشيد ... والشيخ محمد شريف سليم ومحمد عاطف بركات بك والشيخ مصطفى العناني ... الدكتور يعقوب صروف وهذه صورة قانون المجمع

الفصل الاول — في غرض المجمع

المادة الاولى — غرض هذا المجمع خدمة اللغة العربية وخصوصا وضع معجم ... وف بحاجة الزمن شامل اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات

المادة الثانية — يكلف المجمع لجاناً أو أفرادا جمع مصطلح كل علم أو فن ... داده ولكل لجنة أوفرد ان يطلب من المجمع ان يدعو الى الانضمام اليه من يرى ... يوته من الاختصاصيين و يعرض ما تم من ذلك على المجمع لبحثه وتقرير ما يراه ... تم جزء صالح للنشر جاز نشره على حدة قبل اتمام المعجم

المادة الثالثة — للمجمع ان يزيد في اللغة للضرورة و يراعي في الزيادة دفع الحرج

المادة الرابعة — يستبدل بالكلمة العامية أوالاعجمية التي لم تعرب من قبل غيرها من ... ط العربية الموضوعة للدلالة على معناها فاذا لم يهتد المجمع الى كلمة عربية وضع كلمة ... عربية للدلالة عليها أو أقر الكلمة العامية أوعرب الكلمة الاعجمية مع مراعاة المادة الثالثة

المادة الخامسة — يكون وضع الكلمات بطريق المجاز أوالاشتقاق أو النحت أو غير ذلك ... مما يقع اجماع على منعه و يفضل الاخذ من الكلمات المهجورة تقليلا للاشتراك المستعمل

المادة السادسة — تذكر الكلمات من المعجم بمعانيها القديمة ويضاف اليها ... استعمالها في المعاني الجديدة التي يقرها المجمع وينبه على ما كان من وضع المجمع

الفصل الثاني — في أعضاء المجمع

المادة السابعة — يؤلف المجمع من ثمانية وعشرين عضواً منهم ثلاثة يعرف أحدهم

اللغة العبرية والثاني الفارسية والثالث السريانية زيادة على معرفة كل منهم للغة العر

المادة الثامنة — متى خلا مركز أحد الاعضاء فلكل عضوين ان يرشحا وتعرض أسماء المرشحين ثم يدور عليهم الانتخاب على حسب المادة الثالثة عشر ويشترط في قبول المرشح ان ينال انتخاب ثلثي الاعضاء الحاضرين على الاقل

المادة التاسعة — للمجمع ان ينتخب أعضاء مراسلين بالطريقة التي ينتخب بها الاعضاء ويكون لهم حضور الجلسات وليس لهم أصوات في القرارات

المادة العاشرة — من اعان المجمع من أعضائه المراسلين أو غيرهم اعانة علمية يعتدبها ذكر اسمه في ثبت واضعي المعجم

الفصل الثالث — في ادارة أعمال المجمع

المادة الحادية عشرة — تقوم بالاعمال الادارية للمجمع لجنة مؤلفة من الرئيس والوكيل وكاتب السر ومساعده

المادة الثانية عشرة — ينتخب أعضاء اللجنة من بين أعضاء المجمع لمدة سنة ويجوز اعادة انتخابهم

المادة الثالثة عشرة — يكون الانتخاب بالاقتراع السري وبالاغلبية المطلقة للاعضاء الحاضرين في جمعية عمومية يحضرها ثلثا الاعضاء على الاقل فان لم يحضر ثلثا الاعضاء تم الانتخاب في الجلسة التالية مهما كان عدد الاعضاء فيها

المادة الرابعة عشرة — يدير الرئيس أعمال المجمع ويدعو لجانه ويقدم لها موضوعات البحث ويهيمن على تنفيذ قرارات المجمع . وهو عضو بالقانون في كل لجنة من لجان المجمع يشترك مع أيها شاء

المادة الخامسة عشرة — يقوم الوكيل مقام الرئيس عند غيابه في كل ماله من الحقوق وعليه من الواجبات

المادة السادسة عشرة — على كاتب السر ومساعده تحرير محاضر الجلسات وتسجيلها في سجل خاص بعد التصديق عليها وهما مكلفان بمراسلات المجمع وحفظ أوراقه ونشر أعماله التي يتقرر نشرها

الفصل الرابع — في نظام الجلسات

المادة السابعة عشرة — ينعقد المجمع مرتين في كل شهر على الاقل ويجتمع فوق العادة بناء على طلب يكتبه خمسة من أعضائه أو بناء على طلب الرئيس

المادة الثامنة عشرة — يعين المجمع في شهر اكتوبر من كل سنة الايام التي ينعقد فيها كل شهر الى نهاية شهر مايو

المادة التاسعة عشرة — اذا لم يستطع أحد الاعضاء حضور جلسة وجب ان يعتذر وتتلى الاعتذارات عند افتتاح الجلسة

المادة العشرون — كل عضو غاب أكثر من ست جلسات متواليات من غير عذر يقبله المجمع يعتبر مستقيلا ويستبدل به غيره بالانتخاب

المادة الحادية والعشرون — في غير الاحوال المنصوص عليها يكون الاجتماع صحيحا متى حضره ربع الاعضاء

المادة الثانية والعشرون — للمجمع ان يستعين باختصاصيين يدعوهم لحضور جلساته عند النظر في البحوث المتعلقة بمعارفهم الخاصة

المادة الثالثة والعشرون — تعقد الجلسات برئاسة الرئيس أو الوكيل عند غيابه واذا غاب كلاهما انعقدت الجلسة برئاسة أكبر الحاضرين سناً

المادة الرابعة والعشرون — في غير الاحوال المنصوصة في القانون تكون قرارات المجمع بالاغلبية النسبية

المادة الخامسة والعشرون — للمجمع ان يعيد المناقشة في قرار سابق اذا طلب ذلك ثمانية من الاعضاء

الفصل الخامس — أحكام تكميلية

المادة السادسة والعشرون — لا يجوز تغيير مادة من هذا القانون الا بطلب مكتوب يقدمه خمسة من الاعضاء مبينة فيه أسباب التغيير يقرأ في المجمع ثم ينظر في جلسة تالية ولا يكون التغيير صحيحا الا اذا اتفق عليه سبعة عشر عضواً

المادة السابعة والعشرون — كل خلاف يقع في تفسير مادة من مواد القانون يعرض على المجمع لتقرير ما يتبع في ذلك

« تنبيه » مقالة المسألة العربية كتبت في العام الماضي وأشير اليها في تقريظ جريدة القبلة ج٦ ١٩٠ الذي صدر في ٣٠ المحرم سنة ١٣٣٥ ثم حذف منها وزدنا في آخرها ذكر استقلال الشعوب

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٣٠ شوال ١٣٣٥ — ٢٥ الاسد (ص٢) ١٢٩٥ هـ ش ١٨ أغسطس ١٩١٧

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٥٩) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتٰبٍ مُبِينٍ (٦٠) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفّٰكُمْ بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضٰى أَجَلٌ مُسَمًّى، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦١) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦٢) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى ٱللهِ مَوْلٰىهُمُ ٱلْحَقِّ، أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحٰسِبِينَ

لما أمر الله تعالى رسوله (ص) أن يبين للمشركين انه على بينة من ربه فيما بلغهم اياه من رسالته، وان ما يستعجلون به من عذاب الله ونصره عليهم تعجيزا أو تهكما ليس عنده، وانما هو عند الله الذي قضت سنته أن يكون لكل شيء أجل وموعد لا يتقدم ولا يتأخر عنه، وانه تعالى هو الذي يقضي الحق ويقصه على رسوله، وبيده تنفيذ وعده ووعيده، — قفى على ذلك ببيان كون مفاتح الغيب عنده، وكون التصرف في الخلق بيده وكونه هو القاهر فوق عباده، لا يشاركه أحد من رسله ولا غيرهم في ذلك حتى يصح أن يطالبوا به، فقال عز وجل :

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ﴾ المفاتح جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن وبكسرها وهو المفتاح الذي تفتح به الاقفال وقرئ في الشواذ « مفاتيح الغيب » ويؤيد هذه القراءة حديث ابن عمر الآتي في تفسير الآية. ويجوز استعمال اللفظ في معنييه أي ان خزائن الغيب وهو ما غاب علمه عن الخلق هي عند الله تعالى وفي تصرفه وحده، وان المفاتيح أي الوسائل التي يتوصل بها الى علم الغيب هي عنده أيضا لا يعلمها علما ذاتيا الا هو فهو الذي يحيط بها علما وسواه جاهل بذاته لا يمكن أن يحيط علما بها ولا أن يعلم شيئا منها الا باعلامه عز وجل، واذا كان الامر كذلك فالواجب أن يفوض اليه انجاز وعده لرسوله بالنصر، ووعيده لاعدائه بالعذاب والقهر، مع القطع بأنه لا يخلف وعده رسله، وانما يؤخر انجازه الى الاجل الذي اقتضته حكمته، وقد تقدم في تفسير هذه السورة بيان حقيقة الغيب واستئثار الله تعالى بعلمه وما يعلمه بعض خلقه من الحقيقي أو الاضافي منه[1] وسنزيد ذلك بيانا ﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ قال الراغب : أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير. وقيل ان أصله الماء الملح وأطلق على الانهار بالتوسع أو التغليب. والبر ما يقابله من الارض، وهو ما يسميه علماء خرت الارض باليابسة. وعلمه تعالى بما في البر والبحر من علم الشهادة المقابل لعلم الغيب، على ان أكثر ما في خفايا البر والبحر غائب عن علم أكثر الخلق وان كان في نفسه موجودا يمكن أن يعلمه الباحث منهم عنه، وقدم ذكر البر على

١) راجع تفسير الآية التاسعة والآية الخمسين

البحر على طريقة الترقي من الادنى الى ماهو أعظم منه فان قسم البحر من الارض أعظم من قسم البر وخفاياه أكثر وأعظم ، ﴿ وما تسقط من ورقة الا يعلمها ﴾ أي وما تسقط ورقة ما من نجم أو شجر ما الا يعلمها، لاحاطة علمه بالجزئيات كلها ﴿ ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ﴾ أي وما تسقط من حبة بفعل فاعل مختار في ظلمات الارض كالحب الذي يلقيه الزراع في بطون الارض يسترونه بالتراب فيحتجب عن نور النهار والذي تذهب به النمل وغيرها من الحشرات في قراها وجحورها في باطن الارض — أو بغير فعل فاعل ، كالذي يسقط من النبات في شقوق الارض ، وما يسقط من رطب ولا يابس من الثمار ونحوها — الا كائن في كتاب مبين ، وهو علم الله تعالى أو كتابه الذي كتب فيه مقادير الخلق كما ورد في الحديث الصحيح وسيأتي ذكره ، وهو بمعنى قوله فيما قبله « إلا يعلمها » ولذلك قيل انه تكرير له بالمعنى ، وقيل بدل كل أو بدل اشتمال منه .

فان قيل ما حكمة تخصيص هذه الاشياء بالذكر ؟ قلنا ان المعلوم — أو مايتعلق به العلم — إما موجود وإما معدوم ، والموجود إما حاضر مشهود ، وإما غائب في حكم المعدوم ، وليس في الوجود شيء غائب عن الله تعالى . فعلمه تعالى بالاشياء إما علم غيب وهو علمه بالمعدوم ، واما علم شهادة وهو علمه بالموجود ، وأما أهل العلم من الخلق فمن الموجودات ماهو حاضر مشهود لديهم ، ومنها ماهو حاضر غير مشهود لانه لم يخلق لهم آلة للعلم به كعالم الجن والملائكة ، ومنها ما هو غائب عن شهودهم وهم مستعدون لادراكه لو كان حاضرا ، وما هو غائب وهم غير مستعدين لادراكه لو حضر ، فكل ما خلقوا غير مستعدين لادراكه من موجود ومعدوم فهو غيب حقيقي بالنسبة اليهم ، وكل ما خلقوا مستعدين لادراكه دائما أو في بعض الاحوال فهو ان غاب عنهم غيب اضافي . وقد بين الله تعالى لنا في هذه الآية ان خزائن علم الغيب كلها عنده وعنده مفاتيحها وأسبابها الموصلة اليها ، وان عنده من علم الشهادة ما ليس عند غيره ، وذكر على سبيل المثل علمه بكل ما في البر والبحر من ظاهر وخفي ، ثم خص بالذكر ثلاثة أشياء مما في البر — احاطة علمه بكل ورقة تسقط

من نبتة وكل حبة تسقط في ظلمات الارض وكل رطب و يابس ، فأما الورق الذي يسقط فهو ماكان حيا رطبا من النبات فأشرف على اليبس وفقد الحياة النباتية واللحاق بمواد الارض الميتة، وقد يتغذى به حيوان بعد يبسه أو قبله أو يتحلل في الارض بعد سقوطه و يتغذى به نبات آخر فيدخل في عالم الاحياء بطور آخر، وأما الحب فهو أصل تكوين النبات الحي يسقط في ظلمات الارض فمنه ماينبت و يكون نجما أو شجرا، ومنه ماتتغذى به بعض الاحياء من الحيوان كالطير والحشرات فيدخل في بنيتها كما قلنا فيما قبله وأما ذكر الرطب واليابس فهو تعميم بعد تخصيص في هذا الباب. - فهذه الاشياء من عالم الشهادة تدخل في عالم الغيب ثم تبرز في عالم الشهادة . وعلم الله تعالى محيط بكل شيء منها على كثرتها ودقة بعضها وصغره وتنقله في أطوار الخلق والتكوين وما يتبعها من الصور والمظاهر وحسبك هذا الايماء من حكمة تخصيصها بالذكر

وفي هذه الآية معارك الانظار ، وجولات للنظار ، نذكر المهم منها في فصول :

﴿ فهم علماء المعقول للآية ﴾

قال الامام الرازي في تفسيره الكبير الذي سماه (مفاتح الغيب) ما نصه :

« اعلم أنه تعالى قال في الآية الاولى (والله أعلم بالظالمين) يعني أنه سبحانه هو العالم بكل شيء فهو يعجل ما تعجيله أصلح و يؤخر ما تأخيره أصلح وفي الآية مسائل

« (المسألة الاولى) المفاتح جمع مفتح ومفتح والمفتح بالكسر المفتاح الذي يفتح به والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الاشياء فهو مفتح قال الفراء في قوله تعالى (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة) يعني خزائنه فلفظ المفتح يمكن أن يكون المراد منه المفاتيح و يمكن أن يراد منه الخزائن . أما على التقدير الاول فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لان المفاتيح يتوصل بها الى ما في الخزائن المستوثق منها بالاغلاق والاقفال فالعالم بتلك المفاتيح وكيفية استعمالها في فتح تلك الاغلاق والاقفال يمكنه أن يتوصل بتلك المفاتيح الى ما في تلك الخزائن فكذلك ههنا الحق سبحانه لما كان عالما بجميع المعلومات عبر عن هذا المعنى بالعبارة المذكورة وقرئ مفاتيح . وأما على التقدير الثاني فالمعنى وعنده خزائن الغيب، فعلى التقدير

الاول يكون المراد العلم بالغيب وعلى التقدير الثاني المراد منه القدرة على كل الممكنات كما في قوله (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم)

« وللحكماء في تفسير هذه الآية كلام عجيب مفرع على أصولهم فانهم قالوا ثبت أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول وأن العلم بالمعلول لا يكون علة للعلم بالعلة. قلوا واذا ثبت هذا فنقول الموجود اما أن يكون واجبا لذاته واما أن يكون ممكنا لذاته، والواجب لذاته ليس الا الله سبحانه وتعالى وكل ماسواه فهو ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يوجد الا بتأثير الواجب لذاته، وكل ما سوى الحق سبحانه فهو موجود بايجاده كائن بتكوينه واقع بايقاعه، اما بغير واسطة واما بواسطة واحدة واما بوسائط كثيرة على الترتيب النازل من عنده طولا وعرضا، اذا ثبت هذا فنقول علمه بذاته يوجب علمه بالاثر الاول الصادر منه، ثم علمه بذلك الاثر الاول يوجب علمه بالاثر الثاني لان الاثر الاول علة قريبة للاثر الثاني، وقد ذكرنا أن العلم بالعلة يوجب العلم بالمعلول فبهذا علم الغيب ليس الا علم الحق بذاته المخصوصة ثم يحصل له من علمه بذاته علمه بالآثار الصادرة عنه على ترتيبها المعتبر، ولما كان علمه بذاته لم يحصل الا لذاته لاجرم صح أن يقال (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) فهذا هو طريقة هؤلاء الفرقة الذين فسروا هذه الآية بناء على هذه الطريقة

« ثم اعلم أن ههنا دقيقة أخرى وهي أن القضايا العقلية المحضة يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام والكمال الا للعقلاء الكاملين الذين تعودوا الاعراض عن قضايا الحس والخيال وألفوا استحضار المعقولات المجردة ومثل هذا الانسان يكون كالنادر وقوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) قضية عقلية محضة مجردة فالانسان الذي يقوى عقله على الاحاطة بمعنى هذه القضية نادر جدا . والقرآن انما أنزل لينتفع به جميع الخلق فههنا طريق آخر وهو أن من ذكر القضية العقلية المحضة المجردة . فاذا أراد ايصالها الى عقل كل أحد ذكر لها مثالا من الامور المحسوسة الداخلة تحت القضية العقلية الكلية ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس مفهوما لكل أحد والامر في هذه الآية ورد على هذا القانون لانه قال أولا (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) ثم أكد هذا المعقول الكلي المجرد بجزئي محسوس

فقال (و يعلم ما في البر والبحر) وذلك لان أحد أقسام معلومات الله هو جميع دواب البر والبحر والحس والخيال قد وقف على عظمة أحوال البر والبحر فذكر هذا المحسوس يكشف عن حقيقة عظمة ذلك المعقول. وفيه دقيقة أخرى وهي انه تعالى قدم ذكر البر لان الانسان قد شاهد أحوال البر وكثرة ما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات والمعادن . وأما البحر فاحاطة العقل بأحواله أقل الا ان الحس يدل على ان عجائب البحار في الجملة أكثر، وطولها وعرضها أعظم، وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب، فاذا استحضر الخيال صورة البحر والبر على هذه الوجوه ثم عرف ان مجموعها قسم حقير من الاقسام الداخلة تحت قوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) فيصير هذا المثال المحسوس مقويا ومكملا للعظمة الحاصلة تحت قوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) ثم انه تعالى كما كشف عن عظمة قوله (وعنده مفاتح الغيب) بذكر البر والبحر كشف عن عظمة البر والبحر بقوله (وما تسقط من ورقة الا يعلمها) وذلك لان العقل يستحضر جميع ما في وجه الارض من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال، ثم يستحضر كم فيها من النجم والشجر، ثم يستحضر أنه لا يتغير حال ورقة الا والحق سبحانه يعلمها، ثم يتجاوز من هذا المثال الى مثال آخر أشد هيبة منه وهو قوله (ولا حبة في ظلمات الارض) وذلك لان الحبة في غاية الصغر وظلمات الارض مواضع يبقى أكبر الاجسام وأعظمها مخفيا فيها، فاذا سمع أن تلك الحبة الصغيرة الملقاة في ظلمات الارض على اتساعها وعظمتها لا تخرج من علم الله تعالى البتة صارت هذه الامثلة منبهة على عظمة عظيمة وجلالة عالية من المعنى المشار اليها بقوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) بحيث تتحير العقول فيها، وتتقاصر الافكار والالباب عن الوصول الى مباديها؛ ثم انه تعالى لما قوى أمر ذلك المعقول المحض المجرد بذكر هذه الجزئيات المحسوسة فبعد ذكرها عاد الى ذكر تلك القضية العقلية المحضة المجردة بعبارة أخرى فقال (ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) وهو عين المذكور في قوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) فهذا ما عقلناه في تفسير هذه الآية الشريفة العالية ومن الله التوفيق

«(المسألة الثانية) المتكلمون قالوا انه تعالى فاعل العالم بجواهره وأعراضه على سبيل الإحكام والاتقان ومن كان كذلك كان عالما بها فوجب كونه تعالى عالما بها . والحكماء قالوا انه تعالى مبدأ لجميع الممكنات والعلم بالمبدإ يوجب العلم بالاثر فوجب كونه تعالى عالما بكلها . واعلم أن هذا الكلام من أدل الدلائل على كونه تعالى عالما بجميع الجزئيات الزمانية وذلك لانه لما ثبت أنه تعالى مبدأ لكل ماسواه وجب كونه مبدأ لهذه الجزئيات بالاثر فوجب كونه تعالى عالما بهذه التغيرات والزمانيات من حيث انها متغيرة وزمانية وذلك هو المطلوب

« (المسألة الثالثة) قوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) يدل على كونه تعالى منزها عن الضد والند وتقريره ان قوله (وعنده مفاتح الغيب) يفيد الحصر أي عنده لاعند غيره ، ولو حصل موجود آخر واجب الوجود لكان مفاتح الغيب حاصلة أيضا عند ذلك الآخر وحينئذ يبطل الحصر ، وأيضا فكما ان لفظ الآية يدل على هذا التوحيد فكذلك البرهان العقلي يساعد عليه، وتقريره أن المبدأ لحصول العلم بالآثار والنتائج والصنائع هو العلم بالمؤثر والمؤثر الاول في كل الممكنات هو الحق سبحانه ، فالمفتح الاول للعلم بجميع المعلومات هو العلم به سبحانه لكن العلم به ليس الا له لان ماسواه أثر والعلم بالاثر لا يفيد العلم بالمؤثر ، فظهر بهذا البرهان ان مفاتح الغيب ليست الا عند الحق سبحانه والله أعلم

«(المسألة الرابعة) قرئ ولا حبةٌ ولا رطبٌ ولا يابسٌ بالرفع وفيه وجهان (الاول) أن يكون عطفا على محل من ورقة وأن يكون رفعا على الابتداء وخبره الا في كتاب مبين كقولك : لارجل منهم ولا امرأة الا في الدار

(المسألة الخامسة) قوله (الا في كتاب مبين) فيه قولان (الاول) أن ذلك الكتاب المبين هو علم الله تعالى لاغير وهذا هو الاصوب (والثاني) قال الزجاج : يجوز أن الله جل ثناؤه أثبت كيفية المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق كما قال عز وجل (ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها) وفائدة هذا الكتاب أمور (أحدها) انه تعالى انما كتب هذه الاحوال في اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى في المعلومات ،وأنه

لا يغيب عنه مما في السموات والارض شيء، فيكون في ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لانهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقا له (وثانيها) يجوز أن يقال انه تعالى ذكر ما ذكر من الورقة والحبة تنبيها للمكلفين على أمر الحساب واعلاما بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون في الدنيا شيء لانه اذا كان لا يهمل الاحوال التي ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف فبأن لا يهمل الاحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى (وثالثها) أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم والا لزم الجهل فاذا كتب أحوال جميع الموجودات في ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع أيضا تغييرها والا لزم الكذب فتصير كتبة جملة الاحوال في ذلك الكتاب موجبا تاما وسببا كاملا في انه يمتنع تقدم ما تأخر وتأخر ما تقدم كما قال صلوات الله عليه « جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة » والله أعلم اه

هذا ما أورده الرازي في تفسير الآية وما نقله عن الحكماء يريد به إثبات علم الغيب لله تعالى على طريقتهم ولا يقتضي ذلك اقرار تلك الطريقة وما قالوه في المعلول والعلة .

﴿ التفسير المرفوع لمفاتح الغيب ﴾

هذا وان في تفسير مفاتح الغيب حديثا صحيحا فيه مباحث دقيقة فقد روى البخاري في تفسير سورة الانعام عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتيح الغيب خمس : [إن اللهَ عندَه علمُ الساعةِ وينزّلُ الغيثَ ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ، ان الله عليم خبير] » وهذه الآية خاتمة سورة لقمان وقد روى البخاري في تفسيرها هذا الحديث عن عبد الله بن عمر مرفوعا بلفظ « مفاتيح الغيب خمس » ثم قرأ [ان الله عنده علم الساعة] (ورواه بلفظ مفاتيح في كتاب التوحيد أيضا وبلفظ مفاتح في تفسير المائدة والرعد، وبلفظ مفتاح في أبواب الاستسقاء) وروى أحمد والبزار وصححه ابن حبان والحاكم من حديث بريدة رفعه قال « خمس لا يعلمهن الا الله : [ان الله

عنده علم الساعة] الآية. وذكر العلماء في تفسير الآية والحديث قول عيسى عليه السلام الذي حكاه الله تعالى عنه في سورة آل عمران (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) وقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن الذي حكاه الله عنه في سورته (لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) وأجابوا عنه بأنه داخل فيما يظهر الله عليه رسله من علم الغيب فقد قال في سورة الجن (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول) وأدخلوا فيه ما نقل كثيرا عن الاولياء من الكشف المشتمل على مثل هذه الحوادث من كسب الناس والاخبار بما في الارحام وبموت بعض الناس قبل وقوعه ووجهوه بأن الولي لما حصل هذا الكشف باتباعه للرسول كان الكشف للرسول بالاصالة وله بالتبع وقد أشار الى ذلك صاحب الهمزية بقوله :

والكرامات منهم معجزات حازها من نوالك الاولياء

ولكن ظاهر الحصر في الآية ينافي هذا الرأي. والصواب في هذا الباب ما حققناه في تفسير الآية التاسعة والآية الخمسين من هذه السورة (الانعام) فمنه يعلم أن أمثال هذه المكاشفات ليست من علم الغيب الحقيقي الذي استأثر الله به، وان ما يظهر الله عليه الرسل من الغيب الحقيقي لا يقتضي أن يكون ذلك من علمهم الكسبي الذي يصح أن يسند اليهم على سبيل الحقيقة

سبب الذكورة والانوثة في الحمل

ومما قد يستشكله في هذا المقام من لم يقف على حقيقة علم الغيب التي حررناها هنا وفي تفسير الآية التاسعة والآية الخمسين من هذه السورة ما اكتشفه بعض الاطباء من سنة الله تعالى في سبب الذكورة والانوثة في الحمل، وملخصه ان البيوض التي يحصل الحمل بتلقيحها بماء الذكر منها ما يخلقه الله تعالى في جانب الرحم الايمن ومنه يتكون الذكور، ومنها ما يخلقه في جانب الرحم الايسر ومنه يتولد الاناث، — وان هذه البيوض توجد بالتناوب في أثناء حيض المرأة فحيضة تنتهي بخلق بيوض الذكور في الجانب الايمن فاذا حصل التلقيح عقبها كان الجنين ذكرا، وحيضة تنتهي بضد ذلك فاذا حصل التلقيح عقبها كان الجنين أنثى. وقد ألفوا في بيان هذه السنة الالهية كتبا منها (كتاب تعليل النوع) من تأليف الطبيب (رملي دوسون) الانكليزي وقد

ترجمه بالعربية الطبيب محمد عبد الحميد المصري . ومن علم أشهر ولادة امرأة سهل عليه أن يعرف بمقتضى هذه السنة نوع الجنين في الحمل الثاني ويتسلسل ذلك فيما بعده اذا كان الحمل منتظما والوضع فى موعده ، ولكن لا يمكن أن يكون العلم بذلك مطردا فى كل أنثى لاسباب تحول دون ذلك بينها الباحثون فى هذه المسألة . قال صاحب كتاب تعليل النوع في أول الفصل الخامس والعشرين الذي عنوانه (التنبؤ بنوع الطفل الآتي) ما ترجمته :

« بعد معرفة ان تكوين البيض يحدث بالتناوب ، مرة من المبيض الأيمن أو الذكر ، ومرة من المبيض الأيسر أو الانثى ، تمكنت من التنبؤ بمعرفة نوع الطفل الآتي في النساء الحوامل من مرضاي وغيرهن ممن لم تسبق لي رؤيتهن . وأذكر اني نجحت في ٩٧ في المئة واما الفشل في الثلاثة الاحوال الباقية من المئة فتابع لعدم استطاعة الأم ان تخبرني بالدقة عن شهر الولادة . فمثلا اذا أخبرتني مريضة انها ستضع في يونيو وتنبأت ان طفلها انثى ، ثم هي وضعت طفلا ذكراً كامل العدة في مايو أو يوليو يكون النبأ خطأ ، ولو انها أخبرتني ان الولادة ستحدث في مايو أو يوليو لتنبأت لها بأن الطفل ذكر

« والتنبؤ بنوع الطفل لابد ان يكون عن الاطفال التي تولد في ميعادها تماماً لان الاطفال التي تولد قبل الميعاد قد تجعل النبأ خطأ لان الطفل اذا ولد قبل الميعاد بشهرين يكون النبأ صحيحاً وأما اذا ولد قبل الميعاد ببضعة أيام لشهر يكون النبأ كاذبا . ومثل الاطفال المولودة قبل الميعاد أحوال الاجهاض وكلها تختلف في عمل الحساب في الحمل السالف

« ونشأ الفشل في أحوال أخرى من تكوين بيض تكوينا غير قياسي فبدلا من ان يحدث البيض كل ٢٨ يوم مرة بانتظام يحدث كل ٢١ يوما أو ٣٠ يوماً . وينشأ الخطأ أيضا بعدم الانتظام في الدورة البيضية (Ovulation Rhythm) لحدوث البيض في المبيضين في وقت واحد كما يتضح من ولادة توأمين مختلفي النوع في وقت واحد

«وكذا اذا حدث الحمل أثناء الرضاعة ومدة غياب الحيض فوقتئذ يصعب معرفة أي مبيض هيأ البويضة التي تلقحت

«فاذا فرضنا ان متوسط نوبة الحيض هي ٢٨ يوما أو أربعة أسابيع (والحيض العلامة الظاهرية على البيض) تتكرر ظاهرة تكوين البيض ١٣ مرة في أسابيع السنة وهي ٥٢ أسبوعا. وأما اذا حدث البيض في كل ٢١ يوما فتزداد المرات واذا حدث كل ٣٠ يوما فالعدد ينقص الى ١٢ مرة مع زيادة مرة كل ست سنوات

«ويشترط معرفة كل هذه الخواص في النساء عند التنبؤ بالنوع، ويمكن الطبيب بعد معرفة القواعد والامثلة الآتية ان يتنبأ بنوع الطفل في المرأة الحامل اذا كان هو طبيبها كما يمكن أن يخبر النساء عن الشهور التي يجب الامتناع فيها اذا أريد الحصول على نوع مخصوص

«يمكن عمل ذلك بالتقريب بواسطة جدول الولادة الاعتيادي، لاننا اذا عرفنا نوع الطفل الاخير ويوم ميلاده نعرف شهر تكوين البيض (وبالطبع نوع البويضة المخصوصة) بكل سهولة من الجداول. ولكني رأيت ان الاسهل استخراج ذلك بواسطة طريقة الاربعين أسبوعا التي أذكرها هنا

«يجب الحصول على الاشياء الآتية من المريضة أو الحامل حتى يمكن التنبؤ بنوع الطفل: كم مرة يحدث الحيض عندك؟ كم يوما يمكث الحيض في كل مرة؟ هل الحيض منتظم؟ في أي يوم كان ميلاد الطفل الاخير؟ (يذكر اليوم والشهر والسنة) أنوع الطفل ذكر أم أنثى؟ مامدة رضاعتك للطفل اذا كنت أنتِ التي ترضعينهُ؟ متى يرجع الحيض بعد الولادة؟ هل حدث اجهاض منذ الولادة الاخيرة؟

«مدة الحمل الاعتيادية للمرأة ٢٨٠ يوماً أو عشرة أشهر كل شهر أربعة أسابيع — أي أربعون أسبوعا في سبعة أيام. ولابدّ من هجر الاصطلاح «تسعة أشهر الحمل»

«فاذا عرفنا يوم ميلاد الطفل الاخير نرجع أربعين أسبوعا حتى نعرف شهر تكوين البيض أو الشهر الذي تلقحت فيه البويضة التي تكوّن منها الطفل. فاذا عرفنا نوع الطفل نتقدم من هذا الشهر بالتناوب حتى نصل الى مرة تكوين البيض العاشرة قبل شهر الولادة المنتظر فيه ولادة الطفل الحديث مع حساب نوبة تكوين بيض اضافية بين شهري ديسمبر ويناير لكل سنة تالية. وبذلك نعرف نوع البويضة.

التي تلقحت والتي تكون المرأة حاملا بها و بذلك تتمكن من معرفة نوع الطفل الآتي

« ولوجود ١٣ مرة تكوين بيض في السنة نرى ان تكوين البويضة الملقحة في اكتوبر من سنة يجعل البيض الثاني في أكتوبر من النوع المضاد بسبب زيادة الشهر الثالث عشر أو النوبة الثالثة عشرة التي يلزم اضافتها بين شهري اكتوبر فمثلا اذا ولدت المرأة طفلا في شهر من سنة وطفلا آخر في نفس الشهر من السنة التالية يكون الطفلان مختلفي النوع » اه المراد من هذا الفصل وقد ذكر المؤلف أمثلة كثيرة لقاعدته

فمعرفة نوع الحمل في الرحم بهذه الطريقة يعد من علوم البشر الكسبية اذ هو معرفة المسبب بسببه وهو لا يعارض كون علم الله تعالى بما في الارحام من مفاتح علم الغيب التي لا يعلمها الا هو فان معنى هذا الحصر ان ما سيحدث في عالم الحيوان من التكوين في المستقبل هو من خزائن الغيب التي لا يحيط بما فيها الا الله ومفتاح العلم بأي شيء منها عنده فاذا هدي بعض عباده الى سنة من سننه التي هي مفتاح موصل الى الاطلاع على بعض ما تحويه هذه الخزانة فذلك لا ينفي ما ذكر

وجه تفسير مفاتح الغيب بهذه الخمس

لم أر لأحد كلاما في وجه تفسير مفاتح الغيب بالخمس المذكورة في آخر سورة لقمان وكنت قد فكرت في ذلك في أيام طلبي للعلم فظهر لي ان علم الله تعالى بجميع الموجودات علم شهادة وأن مالم يوجد فخزائنه أو مفاتيح خزائنه التي يستفيد الناس من بيانها هي تلك الخمس ، وهي لم تذكر بصيغة الحصر، وقد بينت ذلك في كتابي (الحكمة الشرعية) الذي ألفته في عهد الطلب بعد بحث في الكشف وذكر الآية والحديث في تفسيرها ؛ فقلت ما نصه :

« ثم انه لا يخفى ان معلومات الله تعالى الغيبية لا تدخل تحت الحصر فما معنى تخصيص هذه الخمس بالذكر مع كونها مما قد يطلع عليه بعض عباده وما معنى كونها مفاتح الغيب؟ وأجيب بأن هذه الخمس هي التي كانوا يدعون علمها والعدد لا مفهوم له على الراجح فلا ينفي زائدا على المذكور (قلت) وهذا لا يدل على كونها مفاتح الغيب وقد فتح الله عز وجل علي بفهم معنى لطيف في معنى كون هذه الخمس مفاتح أو مفاتيح

وعرضته على مشايخي كالاستاذ القاوقجي والعلامة الشيخ محمود نشابه[1] وغيرهما فأعجبوا به، وهو ان المفاتح جمع مفتح بفتح الميم أو كسرها بمعنى الخزائن أو المفاتيح والغيب ما غاب عن الوجود وهو عالم البرزخ وعالم الآخرة وبعض عالم الدنيا وهو النبات الذي لم يوجد والحيوان الذي لم يولد وكسب الانفس الذي يحصل في المستقبل . وفي قوله تعالى (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير) اشارة الى جميع ذلك: فالساعة مفتاح عالم الآخرة والغيث مفتاح عالم النبات وما في الارحام مفتاح عالم الحيوان وقوله (وماتدري نفس) ظاهر في مفتح الكسب والاعمال وقوله تعالى (وما تدري نفس بأي أرض تموت) أي كما لا تدري بأي وقت إشارة بالموت الى عالم البرزخ . وبعبارة اخرى : العوالم ثلاثة الاول القريب الدائي الذي نقيم فيه قبل الموت والآخر الذي نقيم فيه بعد الموت الى مالانهاية والثالث الوسط بينهما وهو مانقيم فيه بين العالمين حتى يتم جمعنا بانتهاء الدنيا ونفد على الله تعالى جميعا؛ فالثاني والثالث من الغيب الذي ليس مشهودا لنا ومفتحهما الساعة والموت وأما الاول فمنه ما هو مشهود لنا ولا يحصل فيه زيادة يبرزها الله تعالى من العدم كالاحجار والمعادن ونحوها من الموجودات التي وجدت في الكون تدريجا أو دفعة واحدة ومنه ما هو غيب ما يتجدد بصور مخصوصة لم تكن مشهودة وهو النبات ومفتحه الغيث والحيوان ومفتحه الارحام غالبا وكسب الحيوان وعمله وهو مفتح وخزانة من خزائن الغيب » اه ثم ذكرت هنالك مايرد على حصر المفاتح بهذه الخمس أو تخصيصها بالذكر وأجبت عنه وفي العبارة شيء من الضعف وهي من القسم الذي لا يزال مسودة من ذلك الكتاب الذي كان أول تمرين لنا على التأليف والانشاء فاننا لم نتعلم الانشاء تعلما. وفي هامشها تعليق على كلمة « ومفتحه الارحام غالبا» وجعل نحو دود الفاكهة والخل من غير الغالب بينا فيه ما ثبت عند المتأخرين من كون الحي لا يولد الا من حي مثله

---

(١) كنت أتلقى عن الاول ماروواه من الاحاديث المسلسلة وكتابه المعجم الوجيز في الحديث وعن الثاني صحيحي البخاري ومسلم وفقه الشافعية وكان علامة الزمان في العلوم الازهرية وهو شيخ مشايخنا وشيخ الوالد رحمهم الله أجمعين

﴿ كتابة الله مقادير الخلق في كتاب مبين ﴾

﴿ وهو الامام المبين وأم الكتاب والذكر والزبر واللوح المحفوظ ﴾

ورد في معنى الآية التي نفسرها آيات ففي سورة يونس ١٠ : ٢١ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه ، وما يعزُبُ عن ربكَ من مِثقال ذرّة في الارض ولا في السماء ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ الا في كتاب مبين) وفي سورة هود بعد بيان علمه بما يسرون وما يعلنون وما في الصدور (١١ : ٦ وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلٌّ في كتاب مبين) وفي سورة النمل (٢٧ : ٧٦ وان ربك ليعلم ما تُكنُّ صدورهم وما يُعلنون ٧٧ وما من غائبة في السماء والارض الا في كتاب مبين) وفي سبأ (٣٤ : ٣ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالِم الغيب لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرّة في السموات ولا في الارض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين) وفي سورة الحديد (٥٧ : ٢٠ ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها) وفي سورة يس (٣٦ : ١١ انا نحن نحيي الموتى ونكتبُ ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبين) وفي سورة الرعد (١٣ : ٣٩ لكل أجل كتاب ٤٠ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وفي سورة الزخرف ٤٣ : ١ حم ٢ والكتاب المبين ٣ انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ٤ وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) وفي سورة الانبياء (٢١ : ١٠٤ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون) ورد الذكر كثيرا بمعنى القرآن وفي هذه الآية يحتمل المعنى الذي نحن بصدد بيانه. وفي سورة القمر (٥٤ : ٥٢ وكلُّ شيء فعلوه في الزبر ٥٣ وكل صغير وكبير مستطر) وفي سورة البروج (٨٥ : ٢١ بل هو قرآن مجيد ٢٢ في لوح محفوظ) — جمهور علماء الاسلام على أن هذه الآيات كلها في معنى واحد فسرته الاحاديث التي نورد أشهرها

روى البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعا وغيره « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه - فهو عنده فوق العرش — ان رحمتي غلبت غضبي » وروى البخاري

في صحيحه من حديث عمران بن حصين مرفوعا « كان الله ولم يكن شيء عنده وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والارض » هذا لفظ البخاري في أول بدء الخلق ورواه في كتاب التوحيد بلفظ «ولم يكن شيء قبله» وفيها « ثم خلق السموات والارض » وروى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص مرفوعا « ان الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة — قال — وكان عرشه على الماء» قال شراح البخاري في قوله (ص) «كان الله» الخ ان المراد بكان في الاول الازلية وفي الثاني الحدوث بعد العدم، وانه يدل على أن العرش والماء كانا مبدأ هذا العالم، أي عالم السموات والارض، كأنهم يعنون أن الماء أصل مادته والعرش مركز التقدير والتدبير له. ولكن الله تعالى بين لنا في سورة [حم فصلت] أنه خلق السموات والارض من دخان، ويمكن أن يقال ان الماء في حالته البخارية يكون دخانا، أو ان تلك المادة الدخانية معظمها بخار مائي. وروى أحمد والترمذي وصححه من حديث عبادة بن الصامت مرفوعا « أول ما خلق الله القلم ثم قال اكتب فجرى بما هو كائن الى يوم القيامة » ورواه غيرهما عن غيره بمعناه، قال بعض العلماء ان أولية خلق القلم نسبية والعرش خلق قبله وكذا الماء وقال بعضهم بل هو الاول وكذا اللوح الذي كتب فيه. ولم يرد في خلق اللوح المحفوظ حديث مرفوع صحيح بل ورد فيه آثار عن ابن عباس وغيره من علماء التفسير

فلهذه الاحاديث والآثار اتفق علماء التفسير المأثور على تفسير الكتاب المبين والامام المبين وأم الكتاب والذكر في الآيات التي سردناها بذلك الكتاب المسمى باللوح المحفوظ. ومن التكلف الظاهر أن يقال ان المراد بها العلم الالهي كما قال الرازي هنا، ومذهب السلف أن نؤمن بالقلم الإلهي واللوح المحفوظ وما كتب القلم في اللوح من مقادير الخلق واحصائه جميع ما كان ويكون في هذا العالم من بدء تكوينه الى يوم القيامة من غير أن نحكم آراءنا وأقيستنا في كيفية شيء من ذلك ولا نقبل قول أحد غير المعصوم فيما يزعمه من وصف اللوح أو القلم أو تلك الكتابة ومن الجهل الفاضح أن نشبه ذلك بما نعهده من كتابتنا ونحن نرى البشر قد اخترعوا

لتدوين الكلام طرقاً يتلقاها بعضهم عن بعض على مسافة ألوف من الاميال والفراسخ في البر والبحر واسطة الكهرباء الذي تسخر لذلك بأسلاك و بغير أسلاك فيكتب أحدهم في لوح الجو ما شاء أن يكتب فيتكيف به الهواء في هـذا الجو الواسع كله و يتلقاه آخرون بآلات عنـدهم ترسم لهم ما رسم في الهواء فيقرؤنه و يدونونه لمن يريدون أن ينتفع به

والذين يؤولون ما ورد في اللوح والقلم والعرش ليسو أبعد عن مذهب السلف ممن يشبهون هذه العوالم الغيبية بما يعهدون من صنع البشر في هذا العالم المتغير وهم يرون أن هذه المصنوعات تتغـير كلما ترقى الناس في الصناعات ، حتى ان الشيخ الشعراني صور الميزان الإلهي الذي يزن به أعمال العباد المعنوية كلها في وقت واحد قصير — وهو أسرع الحاسبين — بصورة أحقر الموازين البشرية التي اخترعوها في طور البداوة والجهل بفنون الصناعة ونحن نرى البشر قد اخترعوا في هذا العصر أنواعا من الموازين الدقيقة للاثقال المادية وللامور المعنوية كالرطوبة والحرارة والبرودة والسرعة حتى ان ركاب السفينة الغواصة ليعلمون وهم في لجة البحر ما يكون حولهم الى أبعاد عظيمـة من أحوال المراكب التي على ظهر البحر و بعض ما يتحرك في البر أيضا

هذا وان من التشبيه ما هو فتنة منفرة ، ومن التأويل ما يزيل بعض الشبهات المضلة أو المكفرة ، ولذلك نذكر بعض تأويلات الخلف ، مع استمساكنا بتفويض السلف ، وعلى هذه الطريقة كان شيخنا الاستاذ الامام اذ قال في تفسير اللوح المحفوظ في آخر سورة البروج ما نصه :

« واللوح المحفوظ شيء أخبر الله به ، وانه أودعه كتابه ، ولم يعرفنا حقيقته ، فعلينا أن نؤمن بأنه شيء موجود ، وان الله قد حفظ فيه كتابه ايمانا بالغيب . وأما دعوى انه جرم مخصوص في سماء معينة ، ووصفه بما جاء في روايات مختلفـة ، فهو مما لم يثبت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم بالتواتر فلا ينبغي أن يدخل في عقائد أهل اليقين من المؤمنين

« وما أجدرنا لو أردنا التأويل بأن نأخذ بما قيـل من أن اللوح المحفوظ هو

لوح الوجود الحق ، ومعاني القرآن وقضاياه الشريفة لما كانت لا يأتيها الباطل ولا دانيها الخطأ كانت ثابتة في لوح الواقع المحفوظ ، الذي لاحقّ الا ماوافقه، ولا باطل الا ماخلفه ، ولا باقي الا مارسم فيه ، ولا ضائع الا ما لم ينطبق عليه » اه

ونقول ان تلك الروايات التي أشار اليها لم تثبت عن المعصوم بالتواتر ولا بغير التواتر من أحاديث الآحاد الصحيحة. وماذكره من التأويل قريب مما فصله الامام الغزالي في كتاب التوحيد والتوكل من الاحياء وكلاهما مما يمكن الجمع بينه وبين الايمان بأن اللوح والقلم والعرش أشياء موجودة هي مظهر العلم الالهي والتدبير الرباني الذي قام به نظام الكون لا تشبه أقلام البشر وألواحهم ودفاترهم التي يدونون بها نظام دولهم ومصالحهم ولا عروش ملوكهم وأمرائهم . ولكن الانسان شديد الغرور بعلمه ومألوفه فالأمي والصبي وقليل الاشتغال بالعلم من أفراده أشد غرورا من العلماء واسعي العلم والاطلاع ؛ كل منهم يتخذ ما عنده من علم قليل معيارا أوقالبا لما لا يعلمه وهو كثير ، — ومهما يتسع علم المرء بالنسبة الى غيره فماعلمه بالنسبة الى مامن شأنه أن يعلمه الاقليل فما القول بما ليس من شأنه ان يعلمه (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) وان لنا في دماغ الانسان لعبرة في هذا المقام فهو كلوح ترسم فيه أقلام المعلومات الحسية والعقلية والنفسية في كل آن علما جديدا يمكنه أن يرجع اليه في المستقبل فيقرأ ما خطه فيه الزمن الماضي كما يراجع مايكتب في القراطيس ويدون في الاسفار . ويشير الى هذا المعنى تأويل الغزالي الذي أشرنا اليه آنفا فانه ضرب مثلا للمغرورين بالاسباب القريبة للحوادث الذين لاترتقي أنظارهم في سلسلة الاسباب الى أن ينتهوا منها الى خالق الاسباب وجاعلها أسبابا — ضرب لهم مثلا نملة واقفة على قرطاس تبصر رأس القلم يجري عليه فيسخمه بالسواد فتنسب هذا الفعل اليه اذ لا يمتد نظرها الى اليد المحركة له دع صاحب اليد الكاتب به أو المستخدم له في الكتابة الذي لولاه لم يكتب

وقد شرح الغزالي هذا المثل بعبارة طويلة من أبلغ ما كتب قلمه السيال جعلها محاورة بين أحد الناظرين عن مشكاة نور الله وبين القلم واليد من جوارح البشر ثم بين القدرة والارادة والعلم من صفات البشر ثم انتقل من ذلك الى القلم الإلهي

والصفات الالهية : عاتب القلم الذي سود القرطاس فأحاله على اليد المحركة له وهي أحالته على القدرة التي صرفتها في قطع القلم وبريه والكتابة به، فلما سألها عن سبب ذلك أحالته على الارادة المسخرة لها ، وكونها لا تستطيع مخالفة أمرها، وهذه أحالته على العلم والعقل الذي هو مرشدها وصاحب السلطان عليها لا تنبعث الا اذا بعثها ، فلما رجع الى العلم وسأله عن سبب بعثه الارادات الى تسخير القُدَر في استخدام الجوارح اجابه انه خط رسمه القلم الالهي في لوح القلب وقال له فسل القلم عني ، وذكر له ان هذا القلم من عالم الملكوت الذي لا يدرك بالحس وان في طريق وصوله اليه المهامه الفيح والجبال الشاهقة . ثم قال بعد حوار طويل :

« فقال السالك السائل قد تحيرت في أمري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطيق قطع هذه المهامة التي وصفتها أم لا فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوي فان ظهر لك القلم الذي به انكتبت في لوح القلب فيشبه ان تكون أهلا لهذا الطريق فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم، أما ترى ان النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم اذ أنزل عليه (اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم) فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ولا أعلم قلما الا كذلك، فقال القلم لقد أبعدت النجعة اما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت؟ أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلمه الاقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت فليس لله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الايدي، ولا قلمه من قصب ولا لوحه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وعفص، فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك الا مخنثا بين فحولة التنزيه وانوثة التشبيه، مذبذبا بين هذا وذا، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء، فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الاجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن معاني الحروف والاصوات وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه ؟ فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله

عليه وسلم «ان الله خلق آدم على صورته»[1] الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبها مطلقا كما يقال: كن يهوديا صرف والا فلا تلعب بالتوراة. وان فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالابصار فكن منزها صرفا ومقدسا فخلا، واطوِ الطريق فأنت بالواد المقدس طوى، واستمع بسر قلبك لما يوحى، فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى (اني أنا ربك) فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وانه مخنث بين التشبيه والتنزيه، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص، ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فأصبح نورا على نور. فقال له العلم اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي فاذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ما هو من خشب ولا قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم، وكأن له في كل قلب رأسا ولا رأس له، فقضى منه العجب، وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله عني خيراً اذ الآن ظهر لي صدق انبائه عن أوصاف القلم فاني أراه قلما لا كالاقلام

«فعند هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامي عندك ومرادتي لك وأنا عازم على أن أسافر الى حضرة القلم وأسأله عن شأنه، فسافر اليه وقال له ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات الى إشخاص القُدَر وصرفها الى المقدورات؟ فقال أو قد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم اذ سألته فأحالك على اليد؟ قال لم أنس ذلك، قال فجوابي مثل جوابه، قال كيف وأنت لا تشبه قال القلم أما سمعت ان الله تعالى خلق آدم على صورته؟ قال نعم، قال فسل عن شأني الملقب بيمين الملك فاني في قبضته وهو الذي يرددني وأنا مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الالهي وقلم الآدمي في معنى التسخير وانما الفرق في ظاهر الصورة، فقال: فمن يمين الملك؟ فقال القلم: أما سمعت قوله

(١) رواه احمد والشيخان من حديث ابي هريرة بلفظ «خلق الله آدم على صورته» قيل ان الضمير في صورته لآدم أي صورته المعهودة لم يتغير من طور الى آخر وقيل انه قاله لمن ضرب عبده فالضمير للعبد ولكن ورد في رواية أخرى «على صورة الرحمن».

تعالى (والسموات مطويات بيمينه) قال نعم والاقلام أيضا في قبضة يمينه هو الذي يرددها فسافر السالك من عنده الى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه، والجملة فيه انه يمين لا كالايمان ويد لا كالايدي وأصبع لا كالاصابع، فرأى القلم محركا في قبضته، فظهر له عذر القلم، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم، فقال جوابي مثل ماسمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة اذ اليد لا حكم لها في نفسها وانما محركها القدرة لا محالة، فسافر السالك الى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ماقبله، وسألها عن تحريك اليمين، فقالت انما أنا صفة فاسأل القادر اذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال، فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) فغشيته هيبة الحضرة فخرصعقا يضطرب في غشيته ، فلما أفاق قال: سبحانك ماأعظم شأنك تبت اليك وتوكلت عليك، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلاأخاف غيرك ولاأرجو سواك، ولاأعوذ الا بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك، وما لي الا أن أسألك وأتضرع اليك وأبتهل بين يديك فأقول اشرح لي صدري لأعرفك، واحلل عقدة من لساني لاثني عليك، فنودي من وراء الحجاب : اياك أن تطمع في الثناء، وتزيد على سيد الانبياء، بل ارجع اليه فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه، وماقاله فقله، فانه مازاد في هذه الحضرة على أن قال «سبحانك لا أحصي ثناء عليك كما اثنيت على نفسك » فقال إلهي ان لم يكن لسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك ؟ فنودي اياك ان تتخطى رقاب الصديقين فارجع الى الصديق الاكبر فاقتد به فان أصحاب سيد الانبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم،[1] أما سمعته يقول : العجز عن درك الادراك ادراك [2] . فيكفيك نصيبا من حضرتنا ان تعرف انك

(١) يشير الى مارواه عبد بن حميد من حديث ابن عمر « اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ورواه غيره عن أبي هريرة وأسانيده ضعيفة قال أحمد لا يصح وقال البزار منكر

(٢) هذه العبارة مأثورة عن أبي بكر (رض) ولا أذكر من رواها عنه وقد قال بمعناها أشهر فلاسفة هذا العصر لسبنسر وغيره

محروم عن حضرتنا ، عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا » اه المراد منه

ولا ندري لم وقف الغزالي هنا عند صفة القدرة الالهية ولم يتم تطبيق المثل ، ومن المعلوم المقرر عند أهل العلم الالهي من المتكلمين والصوفية وكذا الفلاسفة ان قدرة الله تعالى انما تجري بما خصصته ارادته واقتضته مشيئته، وان تخصيص الارادة للممكن ببعض ما يجوز عليه دون بعض انما يكون بحسب العلم والحكمة. والعلم بوجوه المصالح والمفاسد والنظام والخلل والكمال والنقص وغير ذلك من الامور المتقابلة اذا كان تاما كاملا يترتب عليه من الاعمال الارادية ما هو عين الحكمة، فلو أن السائل سأل الارادة الالهية عما تجري به القدرة بتخصيصها في عالم التكوين لأجابته الآيات البينات بأن ذلك هو ما اقتضاه العلم الإلهي المحيط بالغيب والشهادة فهو عين الحكمة وغاية النظام، ليس فيه خال ولا جزاف، ولا هو بالامر الانف الذي يكون بمحض الاستبداد ، (وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) وكتابة مقادير الخلق الذي أرشدت اليه الآية التي نحن بصدد تفسيرها تثبت هذا ، وكلما اتسع علم الانسان بالنظام والقدر الالهي في هذا الكون رسخ ايمانه بذلك وقلت حيرته. وأما قوله تعالى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) فليس معناه ان في أفعاله شيئا عبثا أو سدى أو جزافا جاء أنفا بمحض المشيئة ، عاريا عن النظام والتقدير الذي اقتضته الحكمة ، كلا ! انما معناه ان سلطانه تعالى فوق كل سلطان فليس لموجود سلطان عليه فيسأله عما يفعل يحاسبه عليه أو يلقي عليه تبعته ان فرض أنه يرى ذلك، فلا حجة في هذه الآية للجبري في الظاهر والباطن ، ولا للمذبذب الجبري في الباطن السني في الظاهر .

﴿ استدراك على مسألة العلم بما في الارحام ﴾

بعد ان كتبت ما تقدم في هذه المسألة وطبع في المنار بقي في نفسي شيء منه فتفكرت فيه عند النوم فظهر لي أن العلم بسنة الله تعالى في سبب الذكورة والانوثة لم يترتب عليه علم أحد علما قطعيا بما في رحم امرأة بعينها حتى مع العلم بالشروط التي اشترطوها للعلم بذلك — دع العلم بجميع ما في أرحام جميع الاناث من أنواع الحيوان كلها —

وانما ترتب عليه الظن الغالب في حال العلم بالشروط والجهل التام في حال عدم العلم بها ، والعلم الصحيح بما في الرحم هو الذي لا يتوقف على صدق الحامل فيما أخبرت به من تحديد شهر الولادة ولا على خلو الرحم من بيض تكوّن على خلاف القاعدة التي ذكروها من كون الاصل فيه ان يكون مرة في كل أربعة أسابيع فانهم جزموا بأن هذه القاعدة غير مطردة — ولا على تكوّن البيض في جانبي الرحم في وقت واحد وهو الذي يكون سبب الحمل بالتوأمين المختلفين، فاحتمال وقوع هذه الاحوال في كل حمل وان كان قليلا ينفي العلم القطعي بما في رحم أي امرأة بعينها فما القول بالعلم بما في الارحام كلها ؟

خطر لي هذا المعنى في الفراش وانتقل ذهني منه الى قوله تعالى في سورة الرعد (١٣ : ٩ الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ١٠ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) فهو وحده الذي يعلم حمل كل انثى أذكر هو أم انثى ؟ وما تغيض الارحام من نقص الحمل أو فساده بعد العلوق وما تزداد من الحمل كالحمل بالتوأمين أو أكثر ، وقد روى الشافعي عن شيخ يمني أن امرأته ولدت له بطونا في كل منها خمسة أولاد ، فأنى يهتدي للعلم بمثل هذه النوادر الاطباء ؟ وسنزيد هذا البحث إيضاحا في سورة الرعد اذا أطال الله عمرنا ووفقنا لتفسيرها .

﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ التوفي أخذ الشيء وافيا أي تاما كاملا يقابله التوفية وهو اعطاء الشيء تاما كاملا، يقال وفاه حقه فتوفاه منه واستوفاه، ومنه (ووجد الله عنده فوفاه حسابه) ويقال توفاه واستوفاه بمعنى أحصى عدده، نطقت العرب بالمعنيين. وأطلق التوفي على الموت لان الارواح تقبض وتؤخذ أخذا تاما حتى لا يبقى لها تصرف في الابدان ، وأطلق على النوم في هذه الآية وفي آية الزمر التي نذكرها قريبا ، فقال العلماء انه اطلاق مجازي مبني على تشبيه النوم بالموت لما بينهما من المشاركة في زوال إحساس الحواس والتميز ، وانما جعلوه استعارة في النوم، بناء على جعله حقيقة في الموت ، وهو كذلك في العرف العام لا في أصل اللغة ، يقولون توفي فلان — بالبناء للمفعول — بمعنى مات وتوفاه الله بمعنى أماته . وما أعلم ان العرب

استعملت التوفي في الموت وانما هو استعمال اسلامي مبني على ان الموت يحصل بقبض الانفس التي تحيا بها الناس كما قال تعالى في سورة الزمر (٣٩ : ٣٩ الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فهذه الآية نص في كون التوفي أعم من الموت وانه ليس مرادفا له ، فقد صرحت بأن الانفس التي تتوفى في منامها غير ميتة .

فقوله تعالى « يتوفاكم بالليل » معناه يتوفى أنفسكم في حالة نومكم بالليل ، ومثله النوم في النهار وانما اقتصر على ذكر الليل لان الواجب في الفطرة والغالب في العادة أن يكون النوم فيه ، فلا يعتد بما يقع منه في النهار ، أطلق التوفي في المنام على ازالة الاحساس ، والمنع من تصرف الانفس في الابدان ، على ماهو المعروف عند العلماء ، ولكن بعض فلاسفة الغرب المتأخرين يرى أن للانسان نفسين تفارقه احداهما عند النوم وتفارقه كلتاهما بالموت ، فاذا صح هذا يكون التوفي حقيقة في المنام وفي الموت لان الاول يحصل بقبض تام لاحد النفسين والثاني بقبض تامّ لكلتيهما ، وهو يوافق ظاهر آية الزمر .

ثم قال عز وجل ﴿ ويعلم ماجرحتم بالنهار ﴾ الجرح العمل والكسب بالجوارح وهي الاعضاء العاملة والتأثير الدامي من السلاح وما في معناه كالبراثن والاظفار والانياب من سباع الطير والوحش ، قيل ان هذا هو الحقيقة والاول مجاز وان عوامل الانسان ما سميت جوارح الا تشبيها لها بجوارح السباع ، وان هذه ما سميت جوارح الا لأنها تجرح ما تصيده وما تفترسه ، وظاهر كلام اللسان ان الجرح حقيقة في الكسب وان جوارح الصيد سميت بذلك لكسبها لنفسها أو لمعلمها الذي يصيد بها وان الخيل والانعام المنتجة تسمى جوارح أيضا لان نتاجها كسبها ؛ فالجرح كالكسب يطلق على الخير والشر منه ، وقد نقل ذلك اللسان عن الازهري ، وظاهر كلام الزمخشري انه فعل الشر وبذلك فسر الآية في الكشاف كما سيأتي ، وقد استعمل الاجتراح بمعنى فعل الشر خاصة في قوله تعالى في سورة الجاثية (٤٥ : ٢٠ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات)

— الآية — ولم يذكر الجرح والاجتراح في القرآن الا في هاتين الآيتين ، وقد يكون التخصيص بعمل السيئات لصيغة الافتعال كما ورد كثيرا في الاكتساب كقوله تعالى في آخر سورة البقرة (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وهو غير مطرد في ذلك ، فكل من الكسب والاكتساب يستعمل في الخير والشر . فمعنى قوله تعالى ﴿ ويعلم ماجرحتم بالنهار ﴾ يعلم جميع عملكم وكسبكم في وقت اليقظة الذي يكون معظمه في النهار خيرا كان أو شرا ، قبل ان الماضي هنا بمعنى المستقبل أي ويعلم ما تجرحون في النهار الذي يلي الليل عبر به لتحقق وقوعه ، وقيل بل هو على أصله ويراد به النهار السابق على الليل الذي يتوفاكم فيه . أو المراد يتوفاكم في جنس الليل ويعلم ما جرحتم في جنس النهار ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ أي ثم انه بعد توفيكم بالنوم يثيركم ويرسلكم منه في النهار ، فالبعث كما قال الراغب إثارة الشيء وتوجيهه يقال بعثت البعير أي أثرته من بركه وسيرته . فاطلاق البعث على الايقاظ من النوم حقيقة لغوية ومن جعله مجازا نظر الى الفرق الشرعي. فان قيل كان الظاهر ان يقال : وهو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ماجرحتم فيه ، فما نكتة هذا التقديم والتأخير في الآية ؟ قلت الظاهر المتبادر أن تأخير ذكر البعث لاجل ان تتصل به علته المقصودة بالذكر في هذا السياق وهي قوله تعالى ﴿ ليقضى أجل مسمى ﴾ الخ أي يوقظكم ويرسلكم في أعمالكم لاجل ان يقضى وينفذ الاجل المسمى في علمه تعالى لكل فرد منكم فان لاعماركم آجالا مقدرة مكتوبة لا بد من قضائها واتمامها ﴿ ثم اليه مرجعكم ﴾ ثم اليه وحده يكون رجوعكم اذا انتهت آجالكم ومتم ﴿ ثم ينبئكم بما كنتم تعلمون ﴾ اذ يبعثكم من مراقد الموت كما كان يبعثكم من مضاجع النوم، لانه عالم بتلك الاعمال كلها فيذكركم بها، ويحاسبكم عليها ويجزيكم بها، ان خيرا فخير وان شرا فشر . وفيه تنبيه على ان القادر على البعث من توفي النوم قادر على البعث من توفي الموت

وقد خالف الزمخشري الجمهور في تفسير الآية فجعلها خطابا للكفار خاصة اذ جعل الجرح خاصا بعمل السوء فجعل الغرض من ذكر توفيهم في الليل انهم يكونون

منسدحين فيه كالجيف ومن الجرح بالنهار عمل الآثام فيه، وجعل البعث على معناه الشرعي وفي للتعليل أو الشأن كحديث « دخلت امرأة النار في هرة » [1] وقال في بيان هذا : ثم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ومن أجله كقولك : فيم دعوتني ؟ فتقول : في أمر كذا . وفسر الاجل المسمى بما ضرب به الله لبعث الموتى وجزائهم ، والمرجع بالرجوع الى موقف الحساب . وفيه تكلف لا يدفعه الا نص في نزول الآية في الكفار وحدهم وكون الجرح بمعنى فعل الآثام ، وكلاهما لا يثبت

وفي ذكر الاجل المسمى في الآية والرجوع الى الله تعالى لاجل الحساب والجزاء تأييد لما تقدم من حكمة تأخير ما كان مشركو مكة يستعجلون به من وعيد الله لهم ووعده لرسوله بالنصر عليهم وبيان عذاب الآخرة وراء ما أنذروا من عذاب الدنيا فمن لم يدركه الاول لموته قبل وقوعه لم يفلت من الآخر

ثم انه تعالى بين ما في هذه الآية من الاجمال في أمر الموت والرجوع الى الى الله للحساب والجزاء مبتدئا ذلك بذكر قهره لعباده واستعلائه عليهم وارساله الحفظة لإحصاء أعمالهم وكتابتها عليهم فقال ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ﴾ بينا معنى الجملة الاولى بنصها في تفسير الآية التاسعة عشرة من هذه السورة . وكلمة فوق تستعمل — كما قال الراغب — في المكان والزمان والجسم والعدد والمنزلة ، وذلك اضرب ضرب لها الراغب الامثلة، ففوق العلو يقابله تحت ، وفوق الصعود يقابله في الحدور الاسفل . وفوق العدد يقابله القليل أو الاقل منه ، وفوق الحجم يقابله الصغير أو الاصغر منه، وفوق المنزلة يكون بمعنى الفضيلة كقوله تعالى (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) وبمعنى القهر والغلبة كقوله تعالى حكاية عن فرعون (وإنا فوقهم قاهرون) وبه فسروا هذه الآية وما قبلها .

وأما ارسال الحفظة على الناس فمعناه ارسالهم مراقبين عليهم من حيث

(١) تتمته « ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الارض حتى ماتت » رواه احمد والشيخان وابن ماجه عن أبي هريرة

لا يشعرون (كمراقبة رجال البوليس السري في حكومات عصرنا) محصين لاعمالهم بكتابتها وحفظها في الصحف التي تنشر يوم الحساب ، وهي المرادة بقوله تعالى (٨١: ١٠ واذا الصحف نشرت) وهؤلاء الحفظة هم الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم (٨٢ : ١٠ وان عليكم لحافظين ١١ كراما كاتبين ١٢ يعلمون ما تفعلون) ولم يرد في كلام الله وكلام رسوله (ص) بيان تفصيلي لصفة هذه الكتابة فنؤمن بها كما نؤمن بكتابة الله تعالى لمقادير السموات والارض ولا نتحكم فيها بآرائنا ، وأمثل ماأولت به أنها عبارة عن تأثير الاعمال في النفس وانه يكون بفعل الملائكة . وقيل ان الحفظة من الملائكة غير الكاتبين للاعمال وهم المعقبات في قوله تعالى من سورة الرعد (١٣ : ١٢ لهُ معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) قيل انهم ملائكة يحفظونه من الجن والشياطين وقيل من كل ضرر يكون عرضة له لم يكن مقدرا ان يصيبه فاذا جاء القدر تخلوا عنه ، ولكن لم يصح في ذلك شيء يعتد به ، وفي هذه الآية أقوال أخرى لاهل التفسير المأثور منها انها خاصة بالنبي (ص) وانها نزلت حين أراد أربد بن قيس وعامر بن الطفيل قتله على ان يلهيه الثاني بالحديث فيقتله الاول فلما وضع يده على السيف يبست على قائمته فلم يستطع سلّه. ومنها انها في الكرام الكاتبين . ومنها أنها في الامراء والملوك الذين يتخذون الحرس والجلاوزة يحفظونهم ممن يريد قتلهم: روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (رض) أنه قال في الآية : الملوك يتخذون الحرس يحفظونه [1] من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وشماله يحفظونه من القتل ، ألم تسمع أن الله تعالى يقول (واذا أراد الله بقوم سوءا) لم يغن الحرس عنه شيئا . وهذا المعنى هو الذي يناسب قوله تعالى قبل هذه الآية (١١ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ١٢ له معقبات) - الآية - وسيأتي تفصيل ذلك في محله ان شاء الله تعالى

وليس عندنا من الاحاديث الصحاح في هذه المسألة الا حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما مرفوعا « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار

(١) هكذا في الدر المنثور باختلاف الضمائر

يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون » وروي بلفظ « والملائكة يتعاقبون فيكم » بواو وبغير واو [1] لكن لم يرد ذلك في تفسير آية الرعد . فاذا كان هؤلاء الملائكة هم الحفظة الكاتبين فلا محل لاختلاف العلماء في تجددهم وتعاقبهم

وذكروا من الحكمة في كتابة الاعمال وحفظها على العاملين ان المكلف اذا علم ان أعماله تحفظ عليه وتعرض على رءوس الاشهاد كان ذلك أزجر له عن الفواحش والمنكرات ، وأبعث له على التزام الاعمال الصالحات ، فان من لم يصل الى مقام العلم الراسخ الذي يثمر الخشية لله عز وجل والمعرفة الكاملة التي تثمر الحياء منه سبحانه والمراقبة له يغلب عليهم الغرور بالكرم الالهي والرجاء في مغفرته ورحمته تعالى فلا يكون لديهم من خشيته والحياء منه ما يزجرهم عن معصيته كما يزجرهم توقع الفضيحة في موقف الحساب على أعين الخلائق واسماعهم . وزاد الرازي احتمال ان تكون فائدتها ان توزن تلك الصحف لان وزنها ممكن ووزن الاعمال غير ممكن . كذا قال وهو احتمال ضعيف بل لا قيمة له لانه مبني على تشبيه وزن الله للامور المعنوية بوزن البشر للاثقال الجسمية

أما بيان هـذه الحكمة على الطريقـة التي جرينا عليها في بيان حكمة مقادير الخلق فتعلم مما مر هنالك ، [2] واما على طريقة من يقولون ان المراد بكتابة الاعمال حفظ صورها وآثارها في النفس فهي انها تكون هي المظهر الاتم الاجلى لحجة الله البالغة — فاذا وضع كتاب كل أحد يوم الحساب ونشرت صحفه المطوية في سريرة نفسه تعرض عليه أعماله فيها بصورها ومعانيها فتتمثل لذاكرته ولحسه الظاهر والباطن كما عملها في الدنيا لا يفوته شيء من صفاتها الحسية ولا المعنوية — كاللذة والألم — فيكون حسيبا على نفسه ، وعلى عين اليقين من عدل الله وفضله ، (١٧ : ١٣ وكلَّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه

---

(١) قيل ان الرواية الاولى مختصرة من هذه وقيل انها وردت بلغة بني الحارث التي يعبر عنها النحاة بلغة « أكلوني البراغيث » اضافة الى هذه الجملة التي سمعت عن بعضهم

(٢) هو ما يذكر استدراكا بعد تفسير الآيات وقد طبع في محله من التفسير وكان ينبغي ان يوضع قبل الاستدراك الذي تقدم في ص ٨٥ لولا انه كان منسيا في المطبعة

ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ (١٨ : ٤٧ ووُضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)

﴿ حتى اذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ قرأ حمزة « توفاه » بألف ممالة بعد الفاء والباقون « توفته » بالتاء بعد الفاء ورسمهما في المصحف الامام واحد هكذا (توفه) لان الالف رسمت ياء كأصلها والمعنى انه تعالى يرسل عليكم حفظة من الملائكة يراقبونكم ويحصون عليكم أعمالكم مدة حياتكم حتى اذا جاء أحدكم الموت وانتهى عملهم توفته أي قبضت روحه رسلنا الموكلون بذلك من الملائكة ، وهؤلاء الرسل هم أعوان ملك الموت الذي قال الله فيه (٣٢ : ١١ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكل بكم ثم الى ربكم ترجعون) فالارواح أصناف كثيرة لكل منها مستقر في البرزخ يليق به ، وللموت أسباب كثيرة لكل منها سنن ونظام في الحياة خاص به ، فقبض الالوف من الارواح في كل لحظة ووضعها في المواضع اللائقة بها عمل عظيم واسع النطاق يقوم بادارته ونظامه رسل كثيرون ، وكل عمل منظم لابد أن تكون له جهة وحدة هي مكان الرياسة منه ، روى ابن جرير وابو الشيخ عن الربيع بن أنس انه سئل عن ملك الموت أهو وحده الذي يقبض الارواح ؟ قال هو الذي يلي أمر الارواح وله أعوان على ذلك — وقرأ الآية ثم قال — غير ان ملك الموت هو الرئيس . الخ وروي عن ابراهيم النخعي ومجاهد وقتادة ان الاعوان يقبضون الارواح من الابدان ثم يدفعونها الى ملك الموت ، فكل منهما متوف ، وعن الكلبي ان ملك الموت هو الذي يتولى القبض بنفسه ويدفعها الى الاعوان فان كان الميت مؤمنا دفعها الى ملائكة الرحمة وان كان كافرا دفعها الى ملائكة العذاب . أي وهم يذهبون بالارواح الى حيث يوجههم بأمر الله تعالى ،

وقد أسند التوفي الى الله تعالى في آية الزمر التي ذكرناها في أول تفسير الآية إما على انه هو الآمر لملك الموت ولأعوانه جميعا بذلك — وهو ما صرحوا به — وإما على أنه هو الفاعل الحقيقي والمسخر لملك الموت وأعوانه ، فهم بأمره يعملون ؛

وبتسخيره يتصرفون ، لا يعتدون في تنفيذ ارادته ولا يفرطون ، والتفريط التقصير ، بنحو التواني أو التأخير (وتقدم تحقيق معناه في تفسير « ٨ ـ ما فرطنا في الكتاب من شيء ») وقرأ الاعرج يفرطون من الافراط المقابل للتفريط أي لا يتجاوزون ولا يعتدون فيه . ومعناه صحيح ولكن الحاجة الى نفي الافراط غير قوية ، والآية تدل على عصمة الملائكة كما قال المفسرون

﴿ ثم رُدوا الى الله مولاهم الحق ﴾ الظاهر المتبادر أن المعنى ثم يرد أولئك الذين تتوفاهم الرسل الى الله الذي هو مولاهم الحق ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم ، فيكون بمعنى آية ألم السجدة (٣٢ : ١١) التي تقدمت آنفا ، وقيل ان المعنى ثم يرد أولئك الرسل الى ربهم بعد إتمام ما وكل اليهم بموت جميع الناس فيموتون هم أيضا ، ذكره الرازي وهو ضعيف من وجوه منها مخالفته لآية السجدة ومنها ان الكلام في البشر وبيان الدين لهم واقامة حجته عليهم ومنها ان الحساب الذي ختمت بذكره الآية حساب البشر لا حساب ملك الموت وأعوانه.

وفي الجملة مباحث لفظية ومعنوية يتضح بها ما فيها من البلاغة

(الاول) ان في الكلام التفاتا من الخطاب الى الغيبة لان ما قبله خطاب منه سبحانه للمكلفين ، والتفاتا من التكلم الى الغيبة والا لقال ثم رددناكم أو رددناهم — على الالتفات — الخ ونكتة الالتفات تفهم من المباحث الاخرى

(الثاني) انه جعل فعل الرد مبنيا للمفعول للدلالة على ان له تعالى رسلا أخرى — والظاهر أنهم غير رسل الموت ورسل الحفظ — يردون العباد اليه بعد البعث عند ما يحشرونهم بأمره للحساب والجزاء ، وهذه أظهر نكت الالتفات

(الثالث) ذهب بعض المفسرين الى ان الضمير في قوله « ردوا » للكل المدلول عليه بأحد من قوله « اذا جاء أحدكم الموت » وان هذا هو السر في مجيئه بطريق الالتفات والافراد أولا والجمع آخرا ، لوقوع التوفي على الافراد والرد على الجملة والمجموع . ونحن نرى أنه لا حاجة الى تكلف القول برجوعه الى الكل المدلول عليه بأحد ، والالتفات عبارة عن جعل ضمير الخطاب الذي للجماعة ضمير غيبة لهم.

(الرابع) ان هذا الرد يكون بعد البعث فكان الاصل ان يعبر عنه بفعل

الاستقبال كما قال في آية السجدة (ثم تردون) وعبر هنا بالماضي لإفادة تحقق الوقوع حتى كأنه وقع وانقضى

(الخامس) من فوائد الالتفات من التكلم الى الغيبة ذكر اسم الجلالة ووصفه بما وصف به ولا يخفى ان تأثيره في النفس هنا أعظم من تأثير ضمير التكلم

(السادس) قالوا ان الرد الى الله هو الرد الى حكمه وقضائه ، وحسابه وجزائه ، أو الى موقف الحساب ، ومكان العرض والسؤال ، لان الرد الى ذاته غير معقول وغير ممكن ، وهذا التعليل لا يحتاج اليه العربي القح لفهم ما ذكر من الآية ، ولا الدخيل في العربية الا من كان مطلعا على مذهب غلاة أهل الوحدة ، ولو صح مذهبهم لكان سياق الكلام مانعا ان يكون مرادا من العبارة كما يمنعه أسلوبه من وصف اسم الذات بما وصف به وما ختمت به الآية

(السابع) ان وصف الاسم الكريم بمولاهم الحق يدل على ان ردهم اليه حتم لانه هو سيدهم الحق الذي يتولى أمورهم ويحكم بينهم بالحق . والحق في اللغة هو الثابت المتحقق ، وهذا الوصف لا يتحلى به أحد من الخلق الا على سبيل العارية الموقتة ، فما كان من تولي بعض العباد أمور بعض بملك الرقبة ، أو ملك التصرف والسياسة ، فمنه ما هو باطل من كل وجه ، ومنه ما هو باطل من حيث انه موقوت لا ثبات له ولا بقاء ، وحق من حيث ان مولاهم الحق أقره في سننه الاجتماعية أو شرائعه المنزلة لمصلحة العباد العارضة مدة حياتهم الدنيا ، فثبت بذلك ان الله عز وجل هو مولاهم الحق وحده ، وما كان من ولاية غيره الباطلة من كل وجه ، أو الباطلة في ذاتها دون صورتها الموقتة ، فقد زال كل ذلك بزوال عالم الدنيا وبقي المولى الحق وحده ، كما زال كل مُلك ومِلك صوريين كانا للخلق في ذلك العالم وصاروا الى يوم لا تملك فيه نفس لنفس شيئا (٨٣ : ١٩) وظهر ان الملك الصوري والحقيقي لله الواحد القهار (٤٠ : ١٥)

﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ ألا حرف استفتاح يذكر في أول الكلام لتنبيه المخاطب لما بعده اذا كان مهما لئلا يفوته منه شيء ، وقوله « له الحكم » يفيد الحصر ، أي له الحكم وحده ليس لغيره منه شيء في ذلك اليوم ، لا على سبيل

الصورة والاضافة الموقتة ولا على سبيل الحقيقة (٢٧ : ٨٠ إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم — ٤٢ : ٨ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله — ٣٩ : ٤٣ قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) والآيات في هذا المعنى كثيرة. وفسر كونه تعالى أسرع الحاسبين بأنه يحاسب العباد كلهم في أسرع زمن وأقصره لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره لانه لا يشغله شأن عن شأن ، فاسم التفضيل فيه على غير بابه اذ لا محاسب هنالك غيره ، أو هو بالنسبة الى المحاسبين أو الحاسبين في غير الآخرة ، ولفظ الحاسبين اسم فاعل من حسب الثلاثي لا من حاسب ، والحساب مصدر لكل منهما ، يقال حسبه حسبا وحسابا وحاسبه محاسبة وحسابا . والمحاسبة أو الحساب في المعاملة مبني على الحسب والحساب الذي هو العدد والاحصاء لان المحاسب يحصي على من يحاسبه العدد في المال أو ما نيط به من الاعمال . والمراد هنا انه أسرع الحاسبين احصاء للاعمال ومحاسبة عليها ، وقد تقدم تفسير (والله سريع الحساب) فيراجع في ص ٢٣٦ ج ٢ من التفسير

﴿ استدراك آخر على تفسير الآية الاولى — حكمة كتابة مقادير الخلق [1] ﴾

روي عن الحسن ان حكمة كتابة الله تعالى لمقادير الخلق تنبيه المكلفين على عدم اهمال احوالهم المشتملة على الثواب والعقاب حيث ذكر ان الورقة والحبة في الكتاب . وزاد بعضهم حكمتين أخريين احداهما اعتبار الملائكة عليهم السلام موافقة المحدثات للمعلومات الالهية والثانية عدم تغير الموجودات عن الترتيب السابق في الكتاب ولذا جاء « جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة » — ذكر ذلك الآلوسي وجعل قول الحسن هو الثاني في الترتيب . والعبارة الاخيرة حديث من الاحاديث المشتهرة على الالسنة باللفظ الذي ذكره الآلوسي ولا نعرفه مرويا بهذا اللفظ ولكن ورد في حديث عبد الله بن جعفر عند الطبراني « واعلم ان القلم قد جف بما هو كائن » وفي حديث أبي هريرة عند البخاري « جف القلم بما أنت لاق » وورد جف القلم وجفت

(١) تقدم بيان موضعه في ص ٩١

الاقلام في أثناء أحاديث أخرى

وهذا الذي قالوه في حكمة الكتابة ضعيف وحكمة الله البالغة فيه فوق ذلك ويتوقف تلمح شيء من جلالها وجمالها على تدبر النظام العام الذي قامت به السموات والارض والانظمة الخاصة بكل نوع من أنواع المخلوقات فيهما ، وعلى كون تلك الانظمة التي يعبر عنها في عرفنا بالسنن وبالاقدار الالهية ، وفي عرف بعض العلماء بالنواميس أو القوى الطبيعية ، انما ينفذها أصناف من الملائكة ذكر في الآية التي بعد هذه صنف الحفظة ورسل الموت منهم ، وورد في بعض التفسير المأثور ان (والمرسلات عرفا) وما عطف عليها (والنازعات غرقا) وما عطف عليها الى قوله (والمدبرات أمرا) اصناف منهم وهم الملائكة الموكلون بتدبير امر الخلق من عند الله عز وجل . ويؤيد ذلك ما جاء في أحاديث منها الصحاح والحسان والضعاف يدل مجموعها على ان الله تعالى قد وكل بكل نوع من أنواع الخلق ملائكة هم أرواح النظام له ، فاذا كان الخالق العليم الحكيم قد جعل لكل شيء قدرا [1] وجعل لكل شيء من اسباب المعايش كالرياح والامطار وغيرها خزائن لا ينزلها الا بقدر معلوم [2] واذا كان من حكمته ان جعل لهذا الملك العظيم ، الذي يدار بأعلى درجة من التقدير والتنظيم ، عرشا عظيما هو مصدر التدبير [3] أفلا يكون من كمال الحكمة والاتقان ان يكون لذلك كتاب مبين هو مظهر ذلك النظام والتقدير ، كما يعهد للممالك المنظمة من كتب الانظمة والقوانين ؟ بلى ، ولله المثل الاعلى ، وان لنا فيما نرى في خلقه من نظام وكمال في التكوين آيات على كمال علمه وحكمته ، ونفوذ ارادته وقدرته ، وفيما نرى من كسب البشر من نقص وعجز ، دلائل على تنزيهه عن مشابهة الخلق ، وعلى ان ملائكته اكمل من البشر في تنفيذ ما قدر وما أمر ، (٢١ : ٢٧ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون — ٦٦ : ٦ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ونكتفي بهذا التلميح الآن فقد طال الكلام في تفسير هذه الآية كما طال في تفسير ما تقدم من هذا الجزء ولعلنا نعود الى هذه المسألة

---

(١) سورة الطلاق ٦٥ : ٣ (٢) سورة الحجر ١٥ : ٢١ (٣) سورة يونس ١٠ : ٣

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بما شاء من الألقاب ان شاء . واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متأخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ فسخ عقد النكاح بالعيب في احد الزوجين ﴾

(س٣) من صاحب الامضاء في العلاقة بالشرقية

بسم الله الرحمن الرحيم و به نستعين

الى القائم بأمر ربه المعتضد بحجة الله البالغة صاحب مجلة المنار

ارفعه مستفتيا فضيلتكم بعد حمد الله حق حمده والصلاة والسلام على خير عباده سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعه وتحية الله وسلامه عليكم : أيها الاستاذ النبيل السيد السند :

ياصاحب الفضيلة بينما نقرأ ما يتعلق بالمرء وزوجه من بقاء النكاح وفسخه في الكتب التي للائمة الثلاثة الشافعي ومالك وأبي حنيفة رضى الله عنهم : اذ رأينا فيها أنه ليس لاحد الزوجين أن يفسخ النكاح لعيب بالآخر الا بالجنون والجزام والبرص ويسميها الائمة ومن تبعهم العيوب المشتركة فتوقفنا في حصر العيوب المشتركة التى يفسخ بها النكاح في الثلاثة الآنفة الذكر مع وجود ما يماثلها فى الضرر بل ربما كان أشد وأولى مما ذكروا بالفسخ كالسل والزهري وغيرهما من الادواء المستحدثة وبعد البحث والتنقيب لم نعثر على قول لافى الكتب التى بأيدينا ولا ممن سألناهم ممن يظن فيهم انهم لا يتقيدون بما تقع عليه أبصارهم من المنصوص فبعثنا اليكم بتلك الرسالة مستفتين : هل تجري الادواء المستحدثة مجرى ما نصوا عليه لمشاركتها له فى

علة الحكم فتكون مقيسة عليه فيفسخ بها النكاح أو يقف الأمر عند حد المنصوص وهنا تساءل أيّ فرق بينها وبينه ؟ واذا كان مانص عليه الفقهاء مأخوذا من دليل فما هو ؟ هذا مانرجو أن تجيبوا عنه بفصل القول الذى نعهده فيكم ويعهده العقلاء أجمع أمدكم الله بالعلم النافع وهدانا الله وايا كم الى مايوصلنا الى مرضاته وسلوك سبيله القويم أنه سميع قريب عليم

احمد عطية قوره من العلاقمه

(ج) ليس في هذه المسألة نص صريح فى الكتاب ولا في السنة الصحيحة وحديث زيد بن كعب بن عجرة الآتي فيه مقال وليس فيه تصريح بالفسخ لاجل البرص . ولكن فيها آثارا عن بعض الصحابة والتابعين مستندة الى اصول الشريعة الثابتة من منع الغش ونفي الضرر والضرار وحينئذ لاوجه لحصر العيوب فيما ورد في تلك الآثار اذ لادليل على الحصر وان ورد عن بعضهم عبارة فيه فتلك العبارة ليست مما يحتج به من ذكرتم من الفقهاء كما يعلم من أصولهم ، ومذاهبهم ليست متفقة كما ادعيتم . وقد حرر المسألة العلامة المحقق ابن القيم فى كتابه زاد المعاد في فصل مستقل قال :

﴿ فصل ﴾

في حكمه صلى الله عليه وسلم وخلفائه في أحد الزوجين يجد بصاحبه برصا أو جنوناً أو جذاما أو يكون الزوج عنّينا

في مسند أحمد من حديث يزيد بن كعب بن عجرة [1] رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة من بنى غفار فلما دخل عليها فوضع [2] ثوبه وقعد على الفراش أبصر بكشحها بياضا فانحاز [3] عن الفراش ثم قال « خذي عليك ثيابك » ولم يأخذ مما آتاها شيئا . وفي الموطإ عن عمر رضي الله عنه : أنه قال أيما امرأة غرّ بها رجل بها جنون أو جذام أو برص فلها المهر بما أصاب منها وصداق

(١) كذا في نسخة الكتاب المطبوعة بمصر الكثيرة الغلط وهو غلط صوابه زيد بن كعب ابن عجرة كما في سنن سعيد بن منصور وقد شك في المسند فقال عن جميل بن زيد قال حدثني رجل من الانصار ذكر انه كان له صحبة يقال له كعب بن زيد أو زيد بن كعب . ومثله عند ابن عدي والبيهقي . ورواه الحاكم المستدرك من حديث كعب ابن عجرة ولم يشك . وجميل ابن زيد ضعيف وقد اضطرب في هذا الحديث وقال الحافظ ابن حجر مجهول (٢) في النسخة المذكورة وضع (٣) وفيها فأماز

الرجل على من غره [١] وفي لفظ آخر قضى عمر رضي الله عنه في البرصاء والجذماء والمجنونة اذا دخل بها فرق بينهما والصداق لها بمسيسه اياها وهو له على وليها . وفي سنن أبي داود من حديث عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما طلق عبديزيد أبو ركانة [٢] زوجته أم ركانة ونكح امرأة من مزينة فجاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ما يغني عني الا كما تغني هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها ففرق بيني و بينه ، فأخذت النبي صلى الله عليه وسلم حمية فذكر الحديث وفيه انه صلى الله عليه وسلم قال له «طلقها ففعل قال «راجع امرأتك ام ركانة واخوته» فقال اني طلقتها ثلاثًا يارسول الله قال «قد علمت راجعها» وتلا (يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) ولا علة لهذا الحديث الا رواية ابن جريج له عن بعض بني أبي رافع وهو مجهول ولكن هو تابعي وابن جريج من الائمة الثقات العدول ورواية العدل عن غيره تعديل له مالم يعلم فيه جرح، ولم يكن الكذب ظاهرا في التابعين ولاسيما التابعين من أهل المدينة ولا سيما موالي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاسيما مثل هذه السنة التي اشتدت حاجة الناس اليها ، لا يظن بابن جريج انه حملها عن كذاب ولا عن غير ثقة عنده ولم يبين حاله

«وجاء التفريق بالعنّة عن عمر وعثمان رضي الله عنهما وعبد الله ابن مسعود وسمرة بن جندب ومعاوية بن أبي سفيان والحرث بن عبدالله بن أبي ربيعة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم لكن عمر وابن مسعود والمغيرة رضي الله عنهم أجلوه سنة وعثمان ومعاوية وسمرة رضي الله عنهم لم يؤجلوه والحرث بن عبد الله رضي الله عنه أجله عشرة أشهر. وذكر سعيد بن منصور حدثنا هشيم أنبأنا عبد الله ابن عوف عن ابن سيرين ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث رجلا على بعض السعاية فتزوج امرأة وكان عقيما فقال له عمر رضي الله عنه : أعلمتها انك عقيم ؟قال لا . قال فانطلق فاعلمها ثم خيرها ،وأجل مجنونا سنة فان أفاق والافرق بينه و بين امرأته «فاختلف الفقهاء في ذلك فقال داود وابن حزم ومن وافقهما لا يفسخ النكاح

(١) عزاه الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام الى سعيد بن منصور ومالك وابن أبي شيبة ثم قال ورجاله ثقات وروى سعيد أيضا عن علي نحوه وزاد : وبها قرن فزوجها بالخيار فان مسها فله المهر بما استحل من فرجها (وسيأتي) (٢) في السنن زيادة واخوته أي وأبو اخوة ركانة

بعيب البتة ، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه لا يفسخ الا بالجب والعنة خاصة ، وقال الشافعي ومالك يفسخ بالجنون والبرص والجذام والقرن والجب والعنة خاصة . وزاد الامام احمد عليهما أن تكون المرأة فتقاء منخرقة ما بين السبيلين ، ولاصحابه في نتن الفرج والفم وانخراق مجرى البول والمني في الفرج والقروح السيالة فيه والبواسير والناصور والاستحاضة واستطلاق البول والنجو والخصي وهو قطع البيضتين والسل وهو سل البيضتين والوجء وهو رضهما وكون أحدهما خنثى مشكلا والعيب الذي بصاحبه مثله من العيوب السبعة والعيب الحادث بعد العقد وجهان . وذهب بعض أصحاب الشافعي الى رد المرأة بكل عيب ترد به الجارية في البيع ، وأكثرهم لا يعرف هذا الوجه ولا مظنته ولا من قاله وممن حكاه أبو عاصم العبادي في كتاب طبقات أصحاب الشافعي ؛ وهذا القول هو القياس أو قول ابن حزم ومن وافقه . وأما الاقتصار على عيبين أو ستة أو سبعة أو ثمانية دون ماهو أولى منها أو مساولها فلا وجه له ، فالعمى والخرس والطرش وكونها مقطوعة اليدين أو الرجلين أو إحداهما أو كون الرجل كذلك من أعظم المنفرات والسكوت عنه من أقبح التدليس والغش وهو مناف للدين ، والاطلاق انما ينصرف الى السلامة فهو كالمشروط عرفا وقد قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لمن تزوج امرأة وهو لا يولد له أخبرها انك عقيم وخيرها فماذا يقول رضي الله عنه في العيوب التي هذا عندها كمال بلا نقص

«والقياس ان كل عيب ينفر الزوج الآخر منه ولا يحصل به مقصود النكاح من الرحمة والمودة يوجب الخيار وهو أولى من البيع كما أن الشروط المشروطة في النكاح أولى بالوفاء من شروط البيع وما ألزم الله ورسوله مغرورا قط ولا مغبونا بما غر به وغبن به . ومن تدبر مقاصد الشرع في مصادره وموارده وعدله وحكمته وما اشتمل عليه من المصالح لم يخف عليه رجحان هذا القول وقربه من قواعد الشريعة

«وقد روى يحيى بن سعيد الانصاري عن ابن المسيب رضي الله عنه قال قال عمر رضي الله عنه أيما امرأة تزوجت وبها جنون أو جذام أو برص فدخل بها ثم اطلع على ذلك فلها مهرها بمسيسه اياها وعلى الولي الصداق بما دلس كما غره . ورد هذا بأن ابن المسيب لم يسمع من عمر رضي الله عنه من باب الهذيان البارد المخالف

لاجماع أهل الحديث قاطبة، قال الامام أحمد اذا لم يقبل سعيد بن المسيب عن عمر رضي الله عنه فمن يقبل ؟ وأئمة الاسلام جمهورهم يحتجون بقول سعيد بن المسيب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — فكيف بروايته عن عمر رضي الله عنه ؟ وكان عبد الله ابن عمر رضي الله عنه يرسل الى سعيد يسأله عن قضايا عمر رضي الله عنه فيفتي بها ، ولم يطعن أحد قط من أهل عصره ولا من بعدهم ممن له في الاسلام قول معتبر في رواية سعيد بن المسيب عن عمر رضي الله عنه ولا عبرة بغيرهم

«وروى الشعبي عن علي كرم الله وجهه : أيما امرأة نكحت وبها برص أو جنون أو جذام أو قرن فزوجها بالخيار ما لم يمسها ان شاء أمسك وان شاء طلق وان مسها فلها المهر بما استحل من فرجها . وقال وكيع عن سفيان الثوري عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب عن عمر رضي الله عنهم قال : اذا تزوجها برصاء أو عمياء فدخل بها فلها الصداق ويرجع به على من غره . وهذا يدل على ان عمر رضي الله عنه لم يذكر تلك العيوب المتقدمة على وجه الاختصاص والحصر دون ماعداها ، وكذلك حكم قاضي الاسلام حقا الذي يضرب المثل بعلمه ودينه وحكمه شريح رضي الله عنه ، قال عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين رضي الله عنه : خاصم رجل الى شريح فقال ان هؤلاء قالوا لي إنا نزوجك أحسن الناس فجاؤني بامرأة عمياء ، فقال شريح ان كان داس لك بعيب لم يجز . فتأمل هذا القضاء وقوله ان كان داس لك بعيب كيف يقتضي ان كل عيب دلست به المرأة فللزوج الرد به .

«وقال الزهري رضي الله عنه يرد النكاح من كل داء عضال . ومن تأمل فتاوى الصحابة والسلف علم انهم لم يخصوا الرد بعيب دون عيب الا رواية رويت عن عمر رضي الله عنه لا ترد النساء الا من العيوب الاربعة الجنون والجذام والبرص والداء في الفرج ، وهذه الرواية لا نعلم لها اسنادا أكثر من أصبغ وابن وهب عن عمر وعلي رضي الله عنهما وقد روي عن ابن عباس ذلك باسناد متصل ذكره سفيان عن عمرو ابن دينار عنه

« هذا كله اذا أطلق الزوج وأما اذا اشترط السلامة أو شرط الجمال فبانت شوهاء ، أو شرطها شابة حديثة السن فبانت عجوزا شمطاء ، أو شرطها بيضاء فبانت

سوداء، أو بكرا فبانت ثيبا، فله الفسخ في ذلك كله، فان كان قبل الدخول فلا مهر وان كان بعده فلها المهر وهو غرم على وليها ان كان غره، وان كانت هي الغارة سقط مهرها أو رجع عليها به ان كانت قبضته. ونص على هـذا أحمد في احدى الروايتين عنه وهو أقيسهما وأولاهما بأصوله فيما (اذا) كان الزوج هو المشترط، وقال أصحابه اذا شرطت فيه صفة فبان بخلافها فلا خيار لها الا في شرط الحرية اذا بان عبدا فلها الخيار، وفي شرط النسب اذا بان بخلافه وجهان. والذي يقتضيه مذهبه وقواعده انه لا فرق بين اشتراطه واشتراطها بل اثبات الخيار لها اذا فات ما اشترطته أولى لانه لا تمكن من المفارقة بالطلاق، فاذا جاز له الفسخ مع تمكنه من الفراق بغيره فلأن يجوز لها الفسخ مع عدم تمكنها أولى، واذا جاز لها ان تفسخ اذا ظهر الزوج ذا صناعة دنيئة لا تشينه في دينه ولا في عرضه وانما تمنع كمال لذتها واستمتاعها به فاذا شرطته شابا جميلا صحيحا فبان شيخا مشوها أعمى أطرش أخرس أسود فكيف تلزم به وتمنع من الفسخ؟ هذا في غاية الامتناع والتناقض والبعد عن القياس وقواعد الشرع و بالله التوفيق

«وكيف يمكن احد الزوجين من الفسخ بقدر العدسة من البرص ولا يمكن منه بالجرب المستحكم المتمكن وهو أشد إعداء من ذلك البرص اليسير وكذلك غيره من أنواع الداء العضال[1] واذا كان النبي صلى الله عليه وسلم حرم على البائع كتمان عيب سلعته وحرم على من علمه ان يكتمه من المشتري فكيف بالعيوب في النكاح وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس حين استشارته في نكاح معاوية رضي الله عنه أو أبي جهم رضي الله عنه «أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه» فعلم ان بيان العيب في النكاح أولى وأوجب فكيف يكون كتمانه وتدليسه والغش الحرام به سببا للزومه، وجعل ذا العيب غلا لازما في عنق صاحبه مع شدة نفرته عنه ولا سيما مع شرط السلامة منه وشرط خلافه؟ وهذا مما يعلم يقينا ان التصرفات (في) الشريعة وقواعدها وأحكامها تأباه والله أعلم

«وقد ذهب أبو محمد بن حزم الى أن الزوج اذا شرط السلامة من العيوب

(١) ومنه داء السل وداء الزهري

فوجد أي عيب كان فالنكاح باطل ، من أصله غير منعقد ولا خيار له فيه ولا اجازة ولا نفقة ولا ميراث، قال ان التي أدخلت عليه غير التي تزوج اذ السالمة غير المعيبة بلا شك فاذا لم يتزوجها فلا زوجية بينهما » اه

﴿ الاصرار على البدع ، وما يشترط في مكان الجمعة وزمانها وعدد جماعتها ﴾

(٤ — ٧) من الشيخ يوسف أحمد سليمان الطالب بمشيخة الاسكندرية . من (طملاي) بمركز منوف

فضيلتو الاستاذ مفتي المنار

سأل عبد الرحمن أحمد الصعيدي من طملاي عن حكم فعل البدع التي كثيرا ما نهينا أئمة البلد عنها ولله الحمد فأجبتم اجابة كافية شافية في الجزء التاسع الذي صدر في ٣٠ ربيع سنة ١٣٣٥ (صحيفة ٥٣٨) وعرضنا الجواب على علماء الناحية لافرق بين مدرس في الازهر وغير مدرس فقرءوه وفهموه ، والتمسنا العمل بما علموه فامتنعوا وقالوا إن ترك العمل غير جائز والعمل بالبدع جائز وهو أحسن ! ولذا لم يتركوا حتى ولا واحدة بل زادوا الطبل والرايات أمام الجنازة اذا شخص منهم مات وعضوا عليها بالنواجذ. وقد رأينا في كتاب فتاوى أئمة المسلمين للشيخ محمود صحيفة ٥٠ : سئل الشيخ أحمد الرفاعي عن الذي لم يرض بسنة النبي في الصلاة أو الدفن فهل تصح الصلاة خلفه و يصح ان يجعل من عدد الجمعة ؟ فأجاب بأن الصلاة خلفه باطلة واذا جعل من عدد الجمعة بطلت صلاة الجمعة على جميع المسلمين . وسئل الشيخ سليم البشري عن رجل يقول بعدم جواز ترك البدع المجمع على بدعيتها كالترقية الخ واذا قيل له سنة النبي صلى الله عليه وسلم ترك هذه الامور لا يقبل النصيحة وهذا الرجل امام راتب في مسجد فهل يصلون جماعة في المسجد قبله أو معه أو بعده ؟ فاجاب بأن هذا الامام مبتدع فلا يكون اماما للمسلمين وعليهم ان يجتهدوا في منعه من الامامة ولو بواسطة الافراد

فعلى هذا

هل الشرع الذي شرعه لنا رسول الله يرى لنا رخصة في كوننا نصلي الجمعة

في الغيط أو في البيت أو في المسجد بعدد أقله ثلاثة غير الامام الخاطب من وقت صلاة العيد الى الاصفرار هل ذلك يجزئ أم لا وما هي التي تجزئ أشفنا بالجواب رفعك الملك الوهاب

الجواب في مسألة البدع

البدع منها مايكون كفرا أو وسيلة الى الكفر ومنها ماهو حرام وماهو مكروه ، وليس في البدع الشرعية شيء جائز كان يكون مباحا ، لانها لا تكون الا ضلالة كما ورد في الحديث ، وقد صرح بهذا الفقيه ابن حجر المكي في الفتاوى الحديثية (ص ٢٠٦) وأما البدعة غير الشرعية فهي التي قالوا انها تنقسم الى الاحكام الخمسة كما بينه ابن حجر في ص ١١٢ من الفتاوى الحديثية أيضا ولكنه أخطأ في بعض الامثلة ، وعبر عن هذه البدعة بالبدعة اللغوية وقد فصل العلامة الشاطبي هذا البحث تفصيلا تاما في كتابه الاعتصام ، وسبق لنا نقل كثير من فصوله . ولم يبلغنا قبل اليوم أن الجهل بلغ من أحد ينسب الى الاسلام مبلغا حمله على القول بان العمل بالبدعة الشرعية جائز وانه خير من تركها . وما نقله السائل عن الشيخ أحمد الرفاعي فيه مبالغة لانعرف لها وجها بذلك الاطلاق ، وما أفتى به الشيخ سليم البشري حق ظاهر والشيخ أقدر من كل أحد في مصر على مقاومة البدع وابطال كثير منها وذلك لا يكون بفتوى منه فانه يقل في هذا القطر من يترك شيئا تعوده لفتوى عالم ، ولكن لدى الشيخ وسائل أخرى كل منها يؤثر مالا تؤثر الفتاوى الفردية

يسهل على الشيخ وهو رئيس العلماء — أن يؤلف لجنة من كبار علماء المذاهب الاربعة في الازهر ويأمرها باحصاء البدع الفاشية في المساجد والاضرحة والموالد وغيرها وتأليف رسائل في التغير عنها تطبع ويذكر فيها أسماء عشرات من العلماء الذين ألفوها وأقروها ، وأن يعهد الى علماء جميع المعاهد الدينية وطلابها بنشرها وقراءتها على الناس في المساجد بنظام متبع ، وكذا في غير المساجد بشرط أن يكونوا أول العاملين بها والمنكرين على كل من يخالفها ، ويمكن طبع الالوف من هذه الرسائل على نفقة الاوقاف الخيرية المطلقة وتوزيعها بغير ثمن — وأن يعهد الى بعض المفتشين المجيدين

بانشاء خطب فى ذلك توزعها وزارة الاوقاف على خطباء جميع المساجد ليخطبوا بها ، وأن يقترح على الشعراء المجيدين أن ينظموا ذلك في قصائدوموشحات تزجر الناس عن تلك البدع . ويسهل عليه أيضا ان يتوسل بالحكومة الى ابطال كثير من تلك البدع ولاسيما بدع المواسم والاحتفالات التي للحكومة يد فيها . فعسى الله أن يوفق الشيخ الى هذا العمل الذي لا يقدر عليه غيره فيكون ذخرا له عند الله تعالى وموجبا لثناء الناس كلهم بحق

الجواب عن مسألة العدد في الجمعة

اختلف العلماء في العدد الذي تنعقد به الجمعة على خمسة عشر قولا نقلها الشوكاني عن الحافظ ابن حجر أضعفها القول بأنها تصح من الواحد فلا يشترط فيها عدد — وقد نقل الاجماع على خلافه — ثم القول بأنها لا تنعقد بأقل من ثمانين وهو أكثر ماقيل فيها . وأوسطها القول بأنها تصح من اثني عشر غير الامام وهو العدد الذي بقي مع النبي (ص) فجمَّع بهم حين انفض الناس الى التجارة وهم الذين نزل في شأنهم آخر سورة الجمعة ، فظاهر حديث جابر في المسألة عند أحمد والشيخين انه صلى بهم وان لم يصرح بذلك وصح عند الطبراني وابن أبي حاتم أنه (ص) سألهم عن عددهم فكانوا ١٢ رجلا وامرأة فلولا اعتبار العدد الذي لا يعرف الا بالعد دون مجرد النظر لم يسألهم وفيه ان ذلك لا ينفي صحتها بأقل من هذا العدد لان هذه واقعة عين لا تدل على العموم، وإنما وجه الاستدلال به أن يقال فيه ماقيل في خبر انعقادها بالاربعين وهو ان الامة أجمعت على اشتراط العدد في الجمعة وقد ثبت جوازها بهذا العدد فلا يجوز بأقل منه ولاسيما في الابتداء الا بدليل ولم نر دليلا صحيحا لاحد ممن قالوا بانعقادها بأقل من ذلك فأقل مايقال فيه ان انعقادها بما دون هذا العدد مشكوك في صحته ولا يزيل هذا الشك قياسها على الجماعة الذي استدل به من قال بانعقادها باثنين أو ثلاثة مع الامام أو بدونه لانه معارض لما دل عليه سؤال النبي (ص) عن عدد من بقي يوم انفض الناس من حوله ولان مخالفة الجمعة لغيرها من الصلوات الخمس في بعض الاحكام فارق يبطل صحة القياس ، ولو كان صحيحا لما خفي على الصدر الاول ولم ينقل عنهم التجميع بثلاثة ولا أربعة ولكن في الاربعة حديثا لا يصح . هذا ماأراه أقوى

الاقوال في المسألة . وقال الحافظ عند ذكر القول الخامس عشر وهو اشتراط جمع كثير بغير قيد : ولعل هذا الاخير أرجحها من حيث الدليل اه وفيه ان الاثنى عشر اذا لم يكونوا جمعا كثيرا فما حد الكثرة عنده وهي من الامور النسبية وما الدليل عليها ؟

الجواب عن مسألة مكان الجمعة

اشترط بعض الفقهاء أن تقام الجمعة في مصر جامع أي مدينة ولم يجيزوا إقامتها في القرى بمعناها العرفي أي الضياع أي البليدات القليلة السكان . وروي ذلك عن علي كرم الله وجهه مرفوعا وموقوفا وقد ضعف أحمد رفعه وصحح ابن حزم وقفه وعليه زيد بن علي والباقر والمؤيد بالله من أئمة العترة وأبو حنيفة وأصحابه . والجمهور يجيزون التجميع في القرى بالمعنى العرفي المذكور ومن حججهم ماروا البخاري وأبو داود عن ابن عباس (رض): أول جمعة جمعت بعد جمعة جمعت في مسجد رسول الله (ص) في مسجد بجواثي من البحرين — هذا لفظ البخاري ولفظ أبي داود : بجواثي قرية من قرى البحرين. وزاد أيضا «في الاسلام» - بعد قوله : أول جمعت جمعت . قالوا وصلاة الجمعة في ذلك الوقت مما لا يفعله الصحابة باجتهادهم بل بأمر النبي (ص) أي وان فرض فعلها باجتهادهم فلا يعقل أن يخفى عليه فاذا لا يكون الا بأمره وهو الراجح أو باقراره اذ لو أنكره عليهم لتوفرت الدواعي على نقله . وكتب عمر الى أهل البحرين أن جمعوا حيثما كنتم وصححه ابن خزيمة عنه . وروى عبد الرزاق عن ابن عمر باسناد صحيح انه كان يرى أهل المياه بين مكة والمدينة يجمعون فلا يعتب عليهم . أقول ولا حجة فيما هو آثار عن الصحابة مختلفة والقرية في حديث ابن عباس الذي في معني المرفوع هي المصر . ويمكن الجمع بأنها تصح من أهل الضياع والمزارع ولا تجب عليهم بل على أهل المدن . ونص حديث علي المشار اليه آنفا « لاجمعة ولا تشريق الا في مصر جامع »

والقرية والمدينة والمصر والبلد تتوارد على معنى واحد في اللغة وان كان بينها فروق دقيقة في موادها فقد أطلق في القرآن اسم القرية والبلد على مكة وهي أيضا مدينة ومصر بلا خلاف ، وأطلق اسم القرية في سورة يوسف على مصر (١٢ : ٨٢) وقال علماء اللغة : القرية — بالفتح والكسر — المصر الجامع . ولا ندري متى جعل

المولدون لفظ القرية اسما للبليدة الصغيرة وفسر أهل اللغة المصر بالكورة والصقع ، والكورة بالمدينة ، وقالوا ان الكورة والخلاف والرستاق والجند واحد ، وهو مجموع القرى والمزارع ، فكأن المصر البلد الذي يتبعه عدة مزارع وضياع وهو كالبندر في عرف مصر ، وقال الراغب المصر اسم لكل بلد ممصور أي محدود يقال مصرت مصرا — أي بنيته ، والمصر الحد . اه وقول الليث انه عندهم الكورة التي تقام فيها الحدود و يقسم الفيء والصدقات — من غير مؤامرة الخليفة اصطلاح اسلامي

واشترط بعض العلماء اقامة الجمعة في مسجد مستدلا بعمل الناس في الصدر الاول وما بعده، والعمل وحده لا يعدونه دليلا ، وروى أهل السير انه (ص) صلى الجمعة بالناس في بطن الوادي قبل وصوله الى المدينة ، وصرح ابن القيم بأنه صلاها هنالك في مسجد ، والجمهور لا يشترطون المسجد ، وثبت عن الصحابة اقامة الجمعة في مصلى العيد خارج البلد

الجواب عن مسألة وقت الجمعة

ورد في الاحاديث الصحيحة التصريح بان النبي (ص) كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس أي عند الزوال بأنهم كانوا يصلون معه ثم يرجعون الى القائلة فيقيلون — روى المعنيين أحمد والبخاري من حديث أنس ، والقائلة الظهيرة أي منتصف النهار والقيلولة وهي النوم في الظهيرة أو الاستراحة فيها وان لم ينم وفى حديث سهل بن سعد الذي اتفق عليه الجماعة : ما كنا نقيل ولا نتغدى الا بعد الجمعة . أي في عهد النبي (ص) كما صرح به في رواية مسلم والترمذي. وعن ابن قتيبة لا يسمى غداء ولا قائلة بعد الزوال، وهنالك أحاديث أخرى بهذا المعنى أخذ بها الامام أحمد فقال بصحة الجمعة قبل الزوال وتكلف الجمهور تأويلها وذهب بعض أصحاب أحمد الى أن وقتها وقت العيد و بعضهم الى أنها لا تقدم على الساعة السادسة أي التي تنتهي بالزوال والجمهور منهم كغيرهم فالمعروف في فقههم ان وقتها وقت الظهر ولا دليل على صحتها في وقت العصر ، والتجميع قبل الزوال مختلف فيه وموجب للافتراق والقيل والقال بلا فائدة، فلا ينبغي الاقدام عليه

رحلة الحجاز (*)

٤

السفر الى مكة المكرمة

في صبيحة يوم السبت سافر ركب المحمل المصري من جده قبل شروق الشمس وفي ضحوته سافرت الوالدة والشقيقة ومعهما الصديق الكريم الشيخ خالد النقشبندي والصهر الحميم محمد نجيب أفندي وقد استأجرنا لهم أربعة جمال بجنيهين اثنان للركوب واثنان لحمل المتاع (العفش) وأرسلت حكومة جدة معهم جنديان عربيان من جنود الشريف الهجانة للخفارة وزودهم صديقنا ومضيفنا الشيخ محمد نصيف بأنفس الزاد الكافي . وتأخرت عنهم لاتمام ما كنت بدأت به من كتابة نبذة من التفسير للمنار لارسالها مع البريد من جدة مع كتابة مالا بد من كتابته الى مصر . ثم سافرت بعد صلاة العصر من هذا اليوم على حمار استأجرته بمئة قرش عثماني ولم أكد أظفر به لولا مساعدة الاصدقاء لان المغاربة والمصريين قد سبقوا الى استئجار جميع حمير البلد أو أكثرها . وسافر معي جنديان من هجانة العرب بأمر الحكومة لاجل التكريم لا الحفظ فانها واثقة بامن الطريق ، وركب معي الشيخ محمد نصيف والشيخ مساعد اليافي مدير الشرطة في جدة و بعض الاصدقاء مشيعين مودعين ثم عادوا عند غروب الشمس الى جدة وقد زودني الصديق المضيف بالزاد النفيس الكافي كما زود الآل والصحب واختار لي شابا نشيطا من أهل جدة للخدمة في الطريق وأخذ الحمار في مكة وأدركنا في الطريق أحد الحجاج المصريين على حمار فرافقنا .

العناية بامر الماء في السفر

ولم أهتم لنفسي الا بملء إبريقي المعدني الذي يحفظ مايودع فيه من بارد وحار زمنا طويلا بقطع الثلج وملء قربة من الماء النقي . ذلك بأني أعنى بأمر الماء مالا أعنى بأمر الطعام ولا سيما في السفر ، ولا يشق علي فقد شيء من طيبات الدنيا

(*) تأخر نشره بغير تعمد

التي اعتدتها الا الماء البارد النقي . وهذا الابريق من نوع الروايا أو المزاود (أوعية الماء للسفر) الافرنجية التي يسمون واحدها (ترموس) وأكثر هذا النوع عمودي الشكل وهو يحفظ مايودع فيه من بارد وحارّ يوما وليلة بالتقريب، وأبريقي الذي ذكرت يخالفها في الشكل والجودة فهو نوع جيد يحفظ الثلج أو الجليد عدة أيام لايذوب منه الا القليل وقد ملأته بالثلج مرة في طرابلس الشام وسافرت قاصدا مصر فبت في بيروت ليلتين وفي البحر ليلتين بعدها لم أحتج فيها اليه لانني أعده لشرب الليل والماء المثلوج متيسر في الباخرة عامة النهار وناشئة الليل، وقد اتفق ان كان منزلي (القمرة) من الدرجة الاولى بجانب مستودع الماء المثلوج للباخرة ، وفي ضحوة اليوم الخامس نزلنا في محجر الاسكندرية الصحي فتعاهدت الابريق فاذا بالثلج فيه لم يذب الا بعضه . وقد كان هذا الابريق هدية من سلطان مسقط السابق السيد فيصل رحمه الله تعالى — ولم أر هذا النوع الا عنده أهداه الي عند سفري من مسقط سنة ١٣٣٠ اذ رأى أنني حين كنت في ضيافته لم أسأل عن شيء الا عن الماء المثلوج . وكان عنده آلة لصنع الثلج ولكنها كانت معطلة في فصل الشتاء وكان وصولي الى مسقط في أول فصل الربيع والشمس في برج الحمل (شهر ابريل — نيسان) فأمر باصلاح الآلة واستعمالها قبل الموعد المعتاد عندهم لاجلي ، ووضع عندي في دار الضيافة إبريقا من هذا النوع الذي نتكلم عنه ليتيسر وجود الثلج عندي في كل ساعة من الليل والنهار ، ولما سافرت وجدت مع متاعي في الباخرة إبريقا آخر منه جديدا لم يستعمل من قبل، فاستفدت منه في سفري ذاك ، وكان أكبر نفعه في السفر من البصرة الى بغداد في شط العرب ودجلة اذ قل الثلج في الباخرة بين العمارة وبغداد ثم نفد، ثم في السفر من بغداد الى حلب، ولا يوجد الثلج بينهما الا في مدينة دير الزور وهي بين العراق وسورية ، وكان شأننا في تدبير ماء الشرب في ذلك الطريق — الذي قطعناه في ١٨ ليلة في مركبات (عربات) سفرية تسير على ضفاف الفرات لاتبعد عنه في بعض الاحيان الا قليلا — اننا كنا كلما نزلنا منزلا في المساء نبادر الى تقطير الماء في قدور من الفخار ثم نبرده بهواء الليل الجاف البارد في أكواز (قلل) الماء البغدادية وفي قلة معدنية مغشاة بقماش يبلل بالماء فيبرد المعدن بضرب الهواء له ويبرد الماء

ببرده ، — وهذه القلة أهداها الي الطبيب النطاسي محمد عبد الولي في مدينة لكهنو بالهند — وكنت قبل الادلاج في آخر الليل املأ الابريق المعهود من هذا الماء وترمسا آخر عموديا من النوع المعروف لكثرته في هذه البلاد كان أهداه الي صديقي السيد يوسف الزواوي أكبر سروات مسقط بعد بيت السلطان فيها ، فكنت أشرب في بكرة النهار من هذا وأدخر ذاك الى العشي لانه أحفظ والتغير فيه أبطأ ، وقد انكسر العمودي معي في حماه ، ولا أسف عليه لان مثله كثير ، الا أنه أثر من صديق ، ثم انكسر الاول فى مصر فآلمني كسره لطرافته وفائدته ولكونه أثرا من ذلك السلطان الكريم سقى الله لحده ، ولكن نجله البر الوفي صديقي السيد نادر قائد الجيش الاول لسلطنة مسقط أهداه الي أبريقا آخر عوضا عنه ، وهو الذي كان معي فى الحجاز وكان ماحملت فيه من الثلج كافيا لي بين جدة ومكة الآن ماء قربة الجلد تغير في الطريق لانها كانت بعيدة العهد بالاستعمال

وسبب حفظ الترمس لما يودع فيه مدة طويلة هو انه مؤلف من أنائين أحدهما وهو الظاهر معدني وثانيهما زجاجي باطنه كالمرآة وظاهره مغشى بمادة من المواد البطيئة التوصيل للحرارة والبرودة ويوضع الزجاجي في باطن المعدني منفصلا عنه ويكون الاتصال بينهما من أعلى الفوهة ولهذه الفوهة صمام (سداد) من الفلين على رأسه قطعة من معدنه الابيض ويكون فوقها غطاؤه المعدني المتصل به ، فاذا رفع الصمام قليلا أمكن صب الماء من بليل الابريق

أطلت في مسألة الماء ليستفيد مما كتبت من يعنون بأمر صحتهم ورفاهتهم في السفر . والعناية بأمر الماء محمودة بل ضرورية ، فالماء الرديء يكون سببا لامراض كثيرة ، إذ الماء يحمل من جراثيم الامراض والاوبئة مالا يحمل غيره . وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأكل ماوجد ولا يذم طعاما ولكنه لم يكن يشرب من كل ماء يوجد بل كان يستعذب له الماء من آبار السقيا وهي على مسافة يوم من المدينة أو أكثر ، وكان أحب الشراب اليه العذب البارد . والماء الذي يوجد بين جدة ومكة في القهاوي — أي الاكواخ التى يأوي اليها المسافرون للاستراحة وشرب القهوة والشاي — كله قذر فلا أصله جيد ولا أوانيه نظيفة ، وماء (بحرة) التي ينزل فيها

جميع الحجاج للاستراحة رديء غير عذب . ويقال ان بالقرب منها بئرا لا بأس بمائها ولكن لا يسهل الا على الاقلين الوصول الى شيء منها . فمن الضروري للمسافر الذي يعنى بصحته ان يحمل مايكفيه من الماء بين جدة ومكة في سفره من كل منهما الى الاخرى . وللشقادف قلل من الفخار يربطونها في مؤخرتها فيكون ماؤها مقبولا ولا سيما في الليل

القهوات في طريق مكة والدكرور

نزلنا بعد المغرب في أول قهوة من القهوات التي أشرنا اليها آنفا فأذنت وصليت المغرب والعشاء جمعا وقصرا وصلى معي الرفاق وشربت الماء المثلوج وشرب الرفاق القهوة وبعد أن استرحنا قليلا أعطيت صاحب القهوة عنهم أضعاف المعتاد فدعا لنا ، وركبنا حمرنا وركب الجنديان هجانهما وسرينا لا نرى من الحجاج في الطريق الا سودان الدكرور مشاة على أرجلهم رجالا ونساء وأطفالا يحمل الرجال حرابهم والنساء أطفالهن على ظهورهن وما لديهن من المتاع والزاد على رؤسهن ، وكنا نرى بعضهم نياما على جانبي الطريق ، فهم ينامون اذا تعبوا فاذا استيقظوا في أي ساعة في ليل أو نهار مشوا لا يخافون اللصوص ولا قطاع الطريق ، وقد قيل لنا انه لا يتعرض لهم أحد بسوء ، لانه لا يكاد يوجد معهم شيء له قيمة ينتفع به اللصوص من الاعراب هنالك فأكثرهم عراة لا يملكون من اللباس مايزيد على ستر العورة ولباس جميع رجالهم ونسائهم الابيض وهم مع ذلك يدافعون عن أنفسهم دفاع الابطال بحرابهم السودانية فلا يستهان بهم مع كثرتهم ، فانهم منتشرون طول الطريق لا تبعد ثلة منهم عن أخرى الا قليلا ، واللصوص قلما يكونون كثيرين الا اذا كانوا يقصدون سلب القوافل الكبيرة

أمن الطريق وحادثة اعتداء

وقد كان الطريق في هذا الموسم آمنا مطمئنا لم يبلغنا أنه وقع فيه اعتداء على أحد الا ما حدث بالقرب منا فاننا سمعنا قبل انتهاء الثلث الاول من الليل صوت طلق رصاص استفز الحارسين اللذين معنا فسألتهما ماهذا ؟ قالا « قوم » وهم يعنون بكلمة القوم اللصوص وقطاع الطريق ، وأشارا علينا بأن نسرع في السير ما استطعنا

ونقصد قهوة كنا نرى ضوءها فننزل فيها ، وتركانا مسرعين بهجانهما الى الجهة التي سمع منها صوت الرصاص، وطفقنا نحن نلكز حمرنا مسرعين بها الى تلك القهوة فبلغناها بعد جهد وعناء فاسترحنا فيها ساعة وشرب رفيقاي الجندي والمصري الذي الفيناه في الطريق الشاي ورأينا هناك أناسا من الفقراء يطلبون من القهوة طعاما . ثم جاء الجنديان مع رجل آخر . فأخبرا أن القوم (قطاع الطريق) الذين سمعنا صوت رصاصهم قد شرّدوا بعيرين للرجل الذي عاد معهما ولرفيق له وكانا عائدين من جده بعد بيع ما كانا حملاه اليها وان خفراء الطريق ما زالوا يقتفون أثرهم ، وقال الرجل انه لم ير هو ورفيقه الا لصا واحدا ولكنه مسلح وهما أعزلان

النزول ببحرة

و بعد استراحة الجنديين وشربهما الشاي أكرمت صاحب القهوة واستأنفنا السرى فبلغنا (بحرة) في منتصف الليل تقريبا ورأينا أنوار ركب المحمل المصري بالقرب من الخصاص التي يأوي اليها الحجاج وغيرهم من المسافرين. والخصاص جمع خص وهي البيوت من عيدان الاشجار أو القصب أو غيره من النبات، وهي هنالك كثيرة تسع الالوف الكثيرة من الناس وعلى جانبي الطريق سوق منها فيه الحوانيت والقهوات وان شئت قلت الخانات أو الفنادق لايواء المسافرين فيجد المسافرون فيها الماء والخبز واللحم والبيض وأنواعا أخرى من الاغذية وقهوة البن والشاي ، والموسرون من المسافرين قلما يحتاجون الى شيء منها لانهم يحملون زادهم من جدة أو مكة لعلمهم بأن مايوجد هنالك غير نظيف ولا جيد . والخصاص التي وراء هذه السوق التي في الطريق العام عبارة عن دور يتألف كل منها من عدة بيوت يمكن ان يجعل بعضها للنساء و بعضها للرجال ولها مراحيض وراء المساكن . وقد نزلنا في قهوة كبيرة كنا أوصينا بالنزول فيها فاسترحنا فيها ساعتين كاملتين وكنا قد جعنا فأكلنا مما نحمل من لحوم الضأن والدجاج والسمك والخضر والحلوى والفاكهة وشربت الماء المثلوج وحمدت الله تعالى حمدا كثيرا . وأحببت أن أعرف أين نزل جماعتنا فتعذر علي ذلك

السرى من بحرة ومسالة أمن الطريق

ولما اردنا استئناف السرى استأذنني الجنديان في البقاء ببحرة لانهما يريدان

العودة صباحاً الى جدة ، وجاءاني بجنديين عربيين من المشاة فقالا هذان من جنود سيدنا الموكلين بحراسة الطريق وهما يقومان مقامناء فسرينا ومشيا امامنا يحمل كل منهما بندقية من الماوزر على كتفه شادا منطقة من رصاصها المنضود في وسطه وهو حافي القدمين ليس عليه الا قميص قصير فسألت أحدهما عن أمن الطريق فقال ان الامن تام ولا خوف عليكم في الطريق ، قلت أرأيت اذا هجم علينا قوم كثيرون فماذا تغني عني أنت وصاحبك ؟ قال ان القوم الكثيرين لا يعتدون على الافراد أو الجماعة القليلة من المسافرين وانما يقصدون القوافل الكبيرة التي تحمل مايحتاجون اليه من الطعام ونحوه ، والقوم القليلون لايتجرءون على جنود سيدنا وان كانوا أقل منهم ، وفي الطريق على طوله مخافر متقاربة يمكن ايصال أنباء الاعتداء من بعضها الى بعض بسهولة . وحقا ما قال فانا كنا بعد مفارقة جدة بقليل نرى تلك المخافر على جانبي الطريق وكثير منها في الروابي والهضاب وهي كثيرة متقاربة ، وكان هذان الجنديان كلما أبصرا أحدا في الطريق على مقربة منا أسرعا اليه قبل وصوله الينا وعرفا حاله . وقد رأينا في طريقنا قبل بحرة و بعدها كثيرا من القوافل قاصدة جدة اما من مكة واما من الطائف وهي التي تحمل الفاكهة كالرمان والعنب والسفرجل ، ورأينا ايضا كثيرا من الافراد والجماعات يقصدون جدة . وفي أثناء الساعة الثانية وصلنا الى قهوة استرحنا فيها قليلا واستأذنتي الجنديان بالتخلف وأوصيا جنديا كان هنالك بان يصحبني الى مكة ، وكانت المسافة قد قربت وعلمت منهما انهما جائعان وليس معهما شيء فأعطيتهما ما تيسر من الدراهم

ثم أدلجنا وسألت الجندي عن حال الامن في تلك البقعة فقال ان هذه الارض أرض هذيل الذين أنا منهم وهم لايسرقون ولا يعتدون على أحد وان ماتوا جوعاً بل يعيشون بمواشيهم وانما اللصوص وقطاع الطريق هم عرب الشمال . و بعد ان أصبحنا وصلنا الى مكان فذكر لي حادثة من الحوادث المثبتة لامانتهم قال مات في هذا المكان رجل من حجاج المغاربة يظهر انه كان مريضا فتعب في الطريق فتحول عنه الى هذا المكان الاستراحة فمات فيه وكان له ولد منفرد عنه وصل مكة فلم يجد والده فعاد ينشده في الطريق وكان بعض عربنا قد رأوا الميت ووجدوا معه كيسا

كبيرا فيه نقود كثيرة فحفظوه ولما رأوا لولد دلوه على والده وأعطوه نقوده وأعانوه على دفنه ولم يأخذوا من الكيس شيئا ولو شاءوا لاخذوه كله

وجملة القول ان العناية بحفظ الامن في هذا الموسم كانت كبيرة وانني لم أسمع من أحد من الحجاج شكوى اعتداء على نفس ولا مال، ولكن حدثتني الوالدة بعد الوصول الى مكة المكرمة انه عرض لهم في الليل رجل ادعى أنه من الحجاج المصريين من المنصورة وأنه فقير لم يجد ما يركبه وكان يحاول أن يركب البعير الذي عليه اسفاطنا وصناديقنا فينهره أحد الجنديين اللذين معهم بالكلام فيتحول قليلا ثم يعود، ولم ينصرف حتى هدده بالضرب واتهمه بأنه يريد ان يركب البعير ليشرده ويذهب به وأنه لابد أن يكون له رفاق ينتظرونه . ويجوز ان يكون الرجل صادقا ولكن اساءة الظن في هذا المقام من الفطنة . والفضل الاول في هذا الامن الذي لم يسمع بمثله منذ قرون لشخص الشريف الحسين بن علي . (١) وقد كان السيد الزواوي قال لي منذ بضع سنين أنه لم ير أقدر من هذا الامير على حفظ الامن في الحجاز كله وسياسة العرب فيه

بحث لغوي في الحجر والفهر والصخر

لم أستفد من حديث هذا الاعرابي الجندي ولا من حديث من قبله فائدة لغوية تذكر على اني اكثرت من الكلام مع هذا ما لم أكثر مع الآخرين ورأيته أفصح منهم وذكرت له أبياتاً من الشعر العربي فرأيته لا يفهم جميع مفرداتها، ولكنه امتحنني بالسؤال عن شيء أبيض في الجبل — ولون الجبل أسود بل أصهب — قلت أي شيء هو ؟ قال ماهو مثل الشاة ؟ — والغنم هناك أبيض اللون — قلت نعم . قال هذا فِهر . وأقول إن المشهور في كتب اللغة ان الفهر الحجر الصغير الذي يؤخذ باليد ويدق به الجوز ونحوه ، وقال بعضهم الذي يملأ الكف ، وذلك الحجر كبير لا يمكن رفعه بيد واحدة ولذلك رجعت الى معاجم اللغة فرأيت في لسان العرب بعد تعريفه بما ذكرت آنفا « وقيل هو الحجر مطلقا » ومن العجيب انه قد فسر هو والفيروزبادي الحجر بالصخرة ، والصخرة بالحجر العظيم الصلب . وهو تساهل أو تقصير في تحديد المعاني . والصواب ان الحجر اسم جنس لهذه الاجسام المعروفة

(١) نبهنا قبل على ان حوادث الرحلة حدثت قبل المبايعة بالملك فبقي التعبير فيها على ما كان عند وقوعها

يطلق على صغيرها وكبيرها وعلى الصلب الشديد اليبوسة منها وغيره . وقالت العرب : استحجر الطين أي يبس فصار حجرا . والصخر ماعظم من الحجارة واحدته صخرة ، والحصى صغار الحجر واحدتها حصاة وجمعها حصيات وحُصيّ . قالها ابن سيده في المخصص ، وهذا ما يفهمه جميع الناطقين بالضاد من معنى الحجر والصخر والحصى. وقول اللسان في الفهر « وقيل الحجر مطلقا » على ضعفه لا يؤخذ على اطلاقه والذي ظهر لي من نقول أهل اللغة ومن كلمة الاعرابي الهذيلي ان أكثر العرب كانت تطلق الفهر على الحجر الذي يؤخذ باليد الواحدة للدق به والكسر أو الحذف والرجم، وقليل منهم أطلقه على ما يؤخذ بكلتا اليدين لدق شيء أو ضربه ، وأكثر العرب تؤنث الفهر ، وورد تذكيره في حديث حملة الحطب فانها أخذت فهرا وجاءت لتضرب به النبي (ص) فلم تره فقالت لابي بكر (رض) — وهو معه — : لو وجدت صاحبك لشدخت رأسه بهذا الفهر . نقله شارح القاموس بهذا اللفظ عن الروض. قال صاحب الهمزية :

وأعدّت حمالة الحطب الفهـ　　ـر وجاءت كأنها الورقاء
يوم جاءت غضبى تقول أفي مثـ　　ـلي من احمد يقال الهجاء
وتولت وما رأته ومن أيـ　　ـن ترى الشمس مقلة عمياء

قهوة سالم

وقد بلغنا قهوة سالم مصبحين وهي في حدود الحرم على مقربة من مكة — وكنا مررنا ليلا بالعلمين المنصوبين لحدوده فصلينا فيها صلاة الفجر ثم لم أملك نفسي من التعب والنعاس ان اضطجعت فنمت حتى طلعت الشمس . وكنت عازما على الاغتسال في هذه القهوة لدخول مكة محلا بالسنة وسألت في جدة وفي الطريق عن مكان يمكنني أن اغتسل فيه فقيل لي قهوة سالم ، ولكني خشيت على نفسي المرض من الاغتسال وقتئذ بالماء البارد مع شدة الاعياء فاكتفيت بالوضوء. ورأيت أن أمشي ميلا أو ميلين لتلين عروق رجلي وورکيّ وأعصابهما المتيبسة من طول الركوب الذي طال عليّ عهده ففعلت وضايقني دخول الرمل في نعلي فمشيت حافيا ضاحيا (أي بارزاً للشمس) كسودان الدكرور الذين كنت أراهم أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي من منذ خرجت من جدة الى ان دخلت مكة .

اسرى الترك

ولما قربنا من مكة وظهرت لنا ضواحيها رأينا أسرى الترك الذين أسرهم العرب في الطائف خارجين منها مشاة في الطريق اليسرى مرسلين الى جدة يحفرهم قليل من الجنود الاعراب ، وفي اليوم الثاني من دخولنا مكة رأينا فيها ضباطهم ركوباً على الابل متلفعين لاترى الا أعينهم وأنوفهم وهم مرسلون الى جدة يحفرهم قليل من جنود الاعراب الهجانة وكان قد بلغنا في جدة خبر فتح الشريف لامير عبد الله للطائف بعد ان حاصرها عدة أشهر وتسليم قائد الحامية التركية غالب باشا الذى كان والي الحجاز له

وفد الامير لاستقبال العبد الفقير

ولما بلغنا قهوة لمعلم وهي آخر قهوة بين جدة ومكة رأيت صديقنا الاستاذ الكبير السيد عبد الله الزواوي مفتي الشافعية بمكة المكرمة مع بعض ولده و بعض المكيين فأقبل لاستقبالي ونزلت عن دابتي فتعانقنا وتصافحنا وجلسنا للاستراحة و بعد السلام قال لي ان هذا الوقت هو وقت دخول سيدنا الشريف عبد الله نجل سيدنا الامير مكة قادما من الطائف بعد ان تم فتحها على يديه وقد أعد له احتفال كبير وخرج سيدنا بجميع الشرفاء والوجهاء ورجال الحكومة الى خارج البلد لاستقباله، ولما علم بأن قدومك يتفق في هذا الوقت أوفدني من قبله لاجل استقبالك وأرسل اليك بغلته هذه مع من ترى من حجاب سيادته لتدخل عليها مكة - وأشار الى بغلة دهماء مشدودة مع حاجبين أبيضي اللون بثياب حمر كالثياب التي يلبسها قواسة وكلاء الدول - ولو جئت قبل هذا الموعد لرأيت من العناية باستقبالك مايسرك ولكنت معنا الآن في استقبال صديقك سيدنا الشريف عبد الله ، ولدخلت بك مكة من الطريق التي دخل منها سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقابلت هذه العناية الهاشمية بالشكر والثناء وخالص الدعاء

هذا وانني كنت عازما عند الوصول الى جدة ان أكتب الى هذا الصديق الوفي أكلفه أن يستأجر لي ولمن معي داراً ننزل فيها ولكنه كلمني بالمسرة (التلفون) من مكة فقال ان سيدنا الامير أعزه الله قد أمر باعداد منزل لك مؤلف من دائرتين احداهما للرجال والاخرى للنساء وفيه جميع ما يحتاج اليه من الاثاث والماعون والخدم وهو بقرب الحرم الشريف . وعلمت من هذا الصديق انه كان يتمنى أن ننزل في داره

ضيوفا عليه لو لم يتفضل (سيد الجميع) بتشريفنا بضيافته السنية الهاشمية

وقد تذكرت الآن — والشيء بالشيء يذكر — ان صديقي السيد يوسف الزواوي كبير تجار مسقط وسرواتها — الذي مر ذكره في هذه الرحلة وهو من آل هذا البيت — كان قد كتب الي وأنا في بمباي ثغر الهند الاول سنة ١٣٣٠ يقول انه بلغه انني عازم على زيارة مسقط ويدعوني الى النزول في داره ولم يكن يعلم أن سموّ سلطانها السيد فيصل رحمه الله وطيب ثراه قد أمر مندوبه في بمباي بدعوتي الى ضيافته وبأن يخبره عن يوم سفري بالبرق (التلغراف) فلما جئت مسقط ونزل السيد الى الباخرة مع من نزل من ولد السلطان وحاشيته في زورقه البخاري لاستقبالي فيها أخبرني بما كان تمناه واستعدله من حسن الضيافة لولا ان سمو السلطان نفس عليه بذلك وقال له أنت تنتظر مثل قدوم فلان على بلادنا وتريد ان تستأثر بضيافته من دوننا ؟ ولكن السيد يوسف أحسن الله اليه أدب لي مأدبة عظيمة في نفس مسقط دعا اليها جميع كبرائها ووجهائها ومأدبة أعظم وأفخم منها في دار له بمزرعة في ضواحي مسقط دعا اليها كبراء مسقط ووجهاء البلاد المجاورة لها حضرها عشرات منهم فقضينا معهم يوما كاملا من أطيب أيام الحياة ذكرناهم فيه بآيات الله فألفينا آذانا صاغية وقلوبا واعية . وكذلك الاستاذ السيد عبد الله حياه الله تعالى فانه أدب لنا عدة مآدب فخمة ، حضر بعضها أهل العلم والوجاهة من حجاج المغاربة ، وسيجيء ذكر هؤلاء المغاربة في هذه الرحلة

﴿ دخول مكة المكرمة والطواف والسعي ﴾

بعد ان استرحنا قليلا ركبت البغلة التي تفضل بارسالها الي سيدنا الامير ، ومشى أمامي حاجباه وركب السيد الزواوي فرسه اللينة السير ونجله السيد عبد الرحمن دابته وسارا الى جانبي ، وركب مطوّف بلدنا (طرابلس الشام) الشيخ محمد الحريري ونجله دوابهما وسارا وراءنا ، فلما دخلنا مكة ومررنا في أسواقها جعل الناس يقومون على الجانبين تكريما لمن كرّم أميرهم ومنقذهم من الهلكة ، وان كانوا لا يعرفون شخصه ولا صفته ، حتى اذا ما بلغ السير بنا بيت الله الحرام ، دخلناه ومررنا فيه من باب

بني شيبة (١) حيث دخله سيد الرسل عليه أفضل الصلاة والسلام ، فلما وقعت العين على الكعبة المعظمة ، التي كساها الله تعالى حلل المهابة والعظمة ، قلت كما كان يقول عمر بن الخطاب عليه الرضوان : اللهم انت السلام ومنك السلام ، فحينا ربنا بالسلام . وقفيت على ذلك بالدعاء الذي ورد ، وان لم يصح به السند ، : اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفا وتعظيما وتكريما وبرا .

وطفت طواف القدوم والعمرة سبعة اشواط ، وطاف معي مطوف نار افعا صوتا بما يحفظه من الثناء والدعاء — وهو ما اعتاد المطوفون تلقينه للحجاج — وأنا أدعو واثني بما أعلم وما ألهم . وقد ذكرني المطوّف بما كدت اذهل عنه من الرمل في هذا الطواف ، وما يسن فيه من كشف المنكب الذي يكون بالاضطباع ، وبعد الطواف صليت ركعتين وشربت من ماء زمزم ، ثم خرجت من باب الصفا لاجل السعي بين الصفا والمروة ،

كنت أحب أن أطّوّف بالصفا والمروة ماشيا ولكن السعي بينهما سبع مرات عبارة عن قطع ثلاثة كيلو مترات مشيا وذلك ما كنت أعجز عنه في ذلك الوقت لما عرض لوركي من التعب والالم من الركوب عامة الليل على حمار غير فاره لولا الإشناق له طول الطريق لخرّ بي مرارا ، وكم ثنى ركبتيه للركوع ، ومنعه جذبي الرسن من السجود ، فسعيت راكبا على البغلة وهو جائز ورملت بها في موضع الرمل وهو ما بين الميلين (العمودين) الاخضرين الناتئين من جدار الحرم . وقد بينت في المناسك ان جميع مناسك الحج قد شرعها الله تعالى على لسان ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام الا الرمل في الطواف والسعي فانه من آثار نبينا صلى الله عليه وسلم فعله مع الاضطباع وهو عبارة عن كشف المنكب الايمن واظهاره ليظهر قوة المسلمين للمشركين في عمرة القضاء ، اذ كان بلغه انهم قالوا ان محمد وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزال ، وكان بلغه عنهم في الحديبية انهم قالوا

---

(١) هو الآن في صحن الحرم كأنه قوس منصوب ويقابله في جدار الحرم الشرقي بابان يسمى أحدهما باب العباس والثاني باب علي وفي وسط هذا الجدار الباب الذي يسمونه باب النبي (ص) يليه في الجانب الشمالي باب السلام الذي يدخل منه أكثر الحجاج

في المؤمنين : أوهنتهم حمى يثرب

وبعد السعي عدت الى دار السيد الزواوي إجابة لدعوته فمروا بي من طريق آخر وحجاب الامير أمامي والكثيرون من الناس يقفون في دكاكينهم وفي الطريق من الجانبين فأحييهم بالسلام وبالاشارة حتى اذا ماجئت الدار أعد لي ماء للاستحمام فاغتسلت وتغديت مع السيد وولده ونمت وكان الحر قد اشتد فلم أنم الا قليلا . وقد سألني السيد متى تحب أن أذهب بك لزيارة سيدنا الامير ؟ فقلت له انني كنت محرما بالعمرة وقد أديت طوافها وسعيها وسأقصر شعري واتحلل منها ، ولكن ثيابي مع الوالدة والرفاق فمتى وصلوا ألبس ونذهب ، ورغبت اليه في الذهاب الى الدار المعدة لنا لاجل انتظارهم فيها ، ولما جئت الدار وجدتها على الشارع العام بجوار باب الحرم الغربي الكبير المسمى بباب ابراهيم ، وقد تأخر وصول الجماعة الى قرب المغرب فلم نتشرف بتلك الزيارة الا ليلا ، وسأذكر لقاء الامير وشمائله في فصل آخر ،

﴿ الحالة الروحية عند أداء المناسك ﴾

وحكم التلبية والطواف والسعي

الحج عبادة روحية جسدية اجتماعية فهو تربية عالية للانسان منفردا ومجتمعا . أي تربية كاملة له ، فان الانسان مركب من جسد وروح ، وقد خلق ليعيش مجتمعا ، وفي الحج تقوية لجسده ولروحه ولروابطه الاجتماعية

أما كونه رياضة بدنية مقوية للجسد فظاهر في جميع المناسك فالاحرام ضرب من الرياضة والسفر كذلك قد وصفت لك أيها القارئ سفري من جدة الى مكة ، وعلمت بالاجمال ما قاسيت فيه من المشقة ، مع استكمال أسباب الراحة وقرب الشقة . وفي الطواف والسعي رياضة المشي التي يصف الاطباء نفعها ويوصون بها ، فدائرة المطاف حول الكعبة المعظمة لا يقل متوسطها عن مئة متر وأقل الطواف سبعة أشواط (مرات) ومن الناس من يطوف في اليوم والليلة أسابيع كثيرة متصلة ومنفصلة ، أما أنا فلم أستطع أن أزيد على سبعة أسابيع في أمثل الاوقات وأعدلها وهو وقت

السحر ، لما كنت عليه من ضعف البدن ، وكان رفيقي وأخي في الله الشيخ خالد يطوف ضعفي ذلك أو يزيد . واذا كان أقل الطواف وهو أسبوع عبارة عن مشي ثلاثة أرباع الكيلو فان السعي بين الصفا والمروة سبع مرات يقرب من مشي ٣ كيلو

وأما كونه مقويا للروابط الاجتماعية فلما فيه من التعارف والتآلف بين الشعوب المختلفة في أفضل بقاع الارض وفي أحسن الاحوال التي يكون عليها الانسان في هذه الحياة وهي التجرد من شواغل الدنيا والتوبة الى الله تعالى من جميع المعاصي والآثام

وأما كونه عبادة روحية مهذبة للنفس بتقوية شعور الايمان فهو المقصود بالذات الذي يجب ان يتحرى وينوى ويلاحظ عند كل عمل من أعمال المناسك ، وهاك خلاصة وجيزة من العلم والاختبار في ذلك :

الحالة الروحية في طريق مكة . وتأثير التلبية

كنت قبل عودة المشيعين لي من جدة ألبي في السر قليلا ، وأتكلم معهم كثيرا ، فلما عادوا وولى النهار بأنسه وبهائه ، وأقبل الليل بوحشته وظلمائه ، هدأت المشاعر ، وقرت النواظر ، وخشعت السرائر ، وتزاحمت الخواطر ، فكان الغالب منها على الفكر والقلب ، ما يثيره تأثير الزمان والمكان وزي الاحرام في النفس ؛ فأما الزمان فهو شهر ذي الحجة الحرام ، وأما المكان فهو الطريق الى بيت الله الحرام ، وأما زي الاحرام ، فهو الذي كان يتزيا به ابراهيم خليل الله ، واسماعيل ذبيح الله ، ومحمد خاتم رسل الله ، وغيرهم من رسل الله الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، وكل من حج البيت أو اعتمر ، من أصحابهم وأتباعهم هداة البشر ، فيالها من ذكرى لذي اللب ، يخشع لها القلب ، ويرجى بها رضوان الرب ، بما تثمره من قوة الايمان ، وطهارة الوجدان ؛ وخلوص السر والاعلان ، ولو لم يقترن بها ذكر لسان ، ولا عمل أركان ، فكيف اذا صحبها تكرار التلبية ، التي تزيد حرارتها تذكية ؛ واخلاصها تزكية : لبيك اللهم لبيك لبيك ، لاشريك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

تأملت نفسي في تلك الليلة الليلاء ، والطريق الجرداء ، فرأيتني حاسرا حافيا في ازار ورداء ، غير مبال بما يكون من تأثير الهواء ، وهي حال لم أعهدها في سالف

الايام ، الا بين جُدُر الحمام ، وقد كان الهواء عند خروجنا من جدة حارا رطبا ، وكانت الدابة وهي في أول السير تنهب الارض نهبا ، وهذه ثلاثة أسباب ، يتفصد بها العرق من الإهاب ، ثم كنا كلما أوغلنا في السرى وتغلغلنا في البيداء ، نشعر بجفاف الجوّ وبرد الهواء ، حتى اضطررت الى اخراج سجادة صلاة كانت تحتي ، فوضعتها على عاتقي فلم تغن عني ، فأخرجت العباءة فتلفعت بها ، جاعلا لاجل الاحرام أعلاها أسفلها ، ولم أخف من أذى يصيبني من برد الليل ولا ضرر ، ولم يعرض لي سأم من طول السُّرى ولا ضجر ، فان مسني طائف من شيطان الوسوسة ، ذكرت الله تعالى فطردته بالتلبية : لبيك اللهم لبيك لبيك ، لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك .

ويالله ما أحلى التلبية في تلك الفلوات ، وما أعظم الانس بها في حنادس الظلمات ، اذا خشعت بها الاصوات ، واستمطرت بها العبرات ، ومن دقائق حكم الشرع استحبابه رفع الصوت بها للرجال ، وتجديدها بتجدد المناظر واختلاف الاحوال ، فرفع الصوت بها ينفي الوسواس ، واذا كان في الليل يطرد النعاس ، وهو أجلب للخشوع ، واذرف للدموع ، واستئنافها عند اختلاف الاحوال وتجدد المناظر ، أدعى الى دوام الذكر وعدم تفرق الخواطر ، فكنت كلما علونا نجداً ، أو هبطنا غورا ، أو نزلنا مكانا ، أو استأنفنا سرانا ، أو لقينا مشاة أو ركبانا ، جأرت الى الله تعالى : لبيك اللهم لبيك لبيك ، لاشريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك.

تأثير رؤية الكعبة والطواف بها

تلك التلبية تملأ قلب متدبرها إيمانا وتوحيدا ، وتجرده من الحظوظ والاهواء تجريدا ، وتعده لزيارة بيت الله والطواف ، وهو في أحسن حال وأتم استعداد ، حتى إذا اكتحلت عينه برؤية الكعبة المعظمة ، وراع القلب ما جللها من المهابة والعظمة ، تذكر أنها أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين ، وخصه الله بالآيات البينات الباقية على بقاء الايام والسنين ، ورأى أمامها مقام ابراهيم عليه وعلى نبينا وآلهما الصلاة والسلام ، ووجد نفسه حيث كان بدء دين الله الاسلام وحيث الختام ، فاذا دنا من مهبط الروح الامين ، ومطاف الملائكة والنبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين —

فلا تسل ثَمَّ عن الدموع كيف تنسكب ، وعن الضلوع كيف تضطرب ، وعن الاعناق كيف تخضع ، وعن القلوب كيف تخشع ، ولا عن وجدان الايمان، كيف يتألق نوره في الجنان ، ويفيض بيانه على اللسان ، فيحركه بما يلهم من الثناء ، وما يشعر بالحاجة اليه من الدعاء ، وما يذكره أو يُذكّر به من المأثور ، من مرفوع أو موقوف ، لا تسل أيها القارئ عن شيء من ذلك ، ولا عن غيره مما يكون عند أداء المناسك ، فمن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف

على هذه الحال تدخل الحرم المقدس ، طاهر القلب والبدن من الحدث والدنس، فتأتي الركن الاسود، حيث العظمة والسؤدد، فتقول بسم الله الله أكبر، فيصغر في قلبك كل شؤون البشر ، ثم تبدأ الطواف، مع النية والاخلاص، بلمس الحجر وتقبيله ان قدرت، و بالاشارة اليه ان أنت عجزت، ولا بأس بأن تتذكر ماروي من انه رمز الى يمين الله التي لاتشبه الايمان ، وان استلامه وتقبيله في معنى تحية رب البيت ومبايعته على الايمان والاسلام والاحسان ، ومن أنه يشهد لمستلمه يوم القيامة كما تشهد الاعضاء — وبأن تقول بلسانك أوقلبك ، كما قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب من قبلك : انني أعلم انك حجر لاتضر ولا تنفع ، ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلك [1] لم قبلتك ، فتقبيلك ليس لذاتك الحجرية ، ولا لمنفعة فيك مرجوة أو مضرة مخشية ، ولا هذا الطواف الذي بك يبتدأ وعندك يختتم ، في معنى عبادة الوثن وتعظيم الصنم ، وانما هو خضوع لامر الله ، واقتداء برسل الله ، وتعظيم لما عظم الله ، وأنس بالقرب مما نسب الى الله ، يكمل به توحيد الله ، وتنمي به محبة الله ، فمن شأن المحبين الانس بكل ما ينسب الى المحبوب، ولاسيما اذا تعذر اللقاء وعز الوصول، وكم نظموا من الاشعار ،في الوقوف بالاطلال والطواف بالآثار

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

ولما كان الرب العلي العظيم ، الجدير بأعلى مراتب الحب والتعظيم، لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار، ولا يراه عباده في هذه الدار ، كان من رحمته بالمؤمنين المحبين،

(١) عبارة عمر ولولا اني رأيت رسول الله (ص) يقبلك الخ رواه الجماعة كلهم

أن وضع هذا البيت للطائفين منهم والعاكفين ، ونسبه اليه ، ليكون تعظيمه تعظيما له ، فاذا مضيت في الطواف يمينا مصاحبا لهذه الذكرى ، جاعلا البيت من الجهة اليسرى ، فاشغله بالثناء على الله والدعاء لنفسك . ولآلك وصحبك ، ولأمتك وأولي أمرك ، فاذا بلغت الركن اليماني ، وهو الجنوبي الغربي ، فاستلمه إن سهل عليك فانه على قواعد ابراهيم ، التي ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم ، ومتى انتهيت الى مقابله وهو الركن الاسود ، فقد أتممت من طوافك الشوط الاول ، وبقية الاشواط مثله في الشروط والآداب ، كالخشوع والتذكر وترك غير الضروري من الكلام ، وعدم التهافت على استلام الركن والحجر عند الزحام ، فاذا أتممت السبعة الاشواط ، فاختم دعاءك بين الركنين بقوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ثم صل ركعتين سنة الطواف ، والافضل ان تصليهما وراء المقام ،

تأثير السعي وحكمته

السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة ، وليس له نفل فلا يفعل في كل منهما اكثر من مرة ، ويجب ان يكون بعد الطواف ، ولا يشترط فيه شروط الصلاة . فاذا جئت الصفا ، فاقرأ كما قرأ الرسول (ان الصفا والمروة من شعائر الله) وقل كما قال « نبدأ بما بدأ الله » ثم اصعد درجة أو أكثر واستقبل البيت الحرام ، فاذا رأيته فقل كما كان يقول عليه الصلاة والسلام : « لا إله الا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله الا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده » وادع الله تعالى مكررا ذلك ثلاث مرات .

وتذكر عند السعي أنه ذكرى سعي جدتنا السيدة هاجر عليها الرضوان ، أم أبينا اسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وعلى أبيه ، وصفوة بنيه . ويالها من ذكرى لمجد العرب الكرام ، ومعجزات الاسلام ، مثبتة لحفظ الله تعالى لهذه الملة ، وعنايته بهذه الامة ، حفظتها العرب بالعمل المتواتر ، وكم حفظت ما هو دونها من المآثر . وما يحفظ بالتمثيل والمحاكاة ، يكون أثبت مما يحفظ بالتلقين والروايات ، ولكنهم مزجوا مناسك الحنيفية ، بخرافات الوثنية ، فان كانوا قد وضعوا صنمين على الصفا والمروة ، فقد وضعوا ٣٦٠ صنما على الكعبة ، ثم طهر الله تعالى هذه البقاع بالاسلام ،

وأعادها الى ما كانت عليه في عهد ابراهيم واسماعيل عليهما وآلهما الصلاة والسلام ، روى البخاري وغيره من طريقين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما كان بين ابراهيم وبين أهله ما كان(١) خرج باسمعيل وأم اسمعيل ومعهم شنة (٢) فيها ماء ، فجعلت أم اسمعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة — زاد في الرواية الاخرى فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ولا بها ماء ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء — ثم رجع ابراهيم الى أهله فاتبعته أم اسمعيل حتى لما بلغوا كَداء نادته من ورائه يا ابراهيم الى من تتركنا ؟ قال الى الله ، قالت رضيت بالله — وفي الرواية الاخرى أنها قالت اذاً لا يضيعنا ، وفيها أنه لما كان عند الثنية أي ثنية كداء حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) قال فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدرّ لبنها على صبيها حتى لما فني الماء قالت لو ذهبتُ فنظرت لعلي أحس أحدا — زاد في الرواية الاخرى حتى اذا نفد ما في السقاء (أي الشنة) عطشت وعطش ابنها فجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه — (قال) فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحدا فلم تحس أحدا ، فلما بلغت الوادي سعت وأتت المروة ففعلت ذلك أشواطا ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل تعني الصبي فذهبت فنظرت فاذا هو على حاله كانه ينشغ(٣) للموت فلم تقرها نفسها فقالت لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا ، فذهبت فصعدت

(١) أهله امرأته سارة غارت من هاجر لما ولدت وحملته على طردها مع طفلها اسماعيل . وفي الفصل ٢١ من سفر التكوين (التوراة) ان ابراهيم استاء من كلامها فأمره الله تعالى باخراجهما ووعده بأن يجعل اسماعيل ابنه أمة ، وفيه انه زودها جر بخبز وقربة ماء واعطاها ابنها فتاهت في برية بئر سبع وانه لما نفد ماؤها وتوهمت أن يموت ولدها ، ناداها ملاك الرب وأراها الماء ووعدها بجعل ابنها أمة عظيمة . وان الله كان مع الغلام وانه سكن برية فاران . أقول وفاران من أسماء مكة كما في معجم البلدان وما يخالف هذه الرواية مما هنالك نعده تحريفاً . وقالوا ان ابراهيم جاء مكة على البراق

(٢) بفتح الشين والنون المشددة القربة الياسة (٣) بوزن يفتح معناه يشهق من صدره

الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى أتمت سبعا — زاد في الرواية الاخرى قال ابن عباس قال النبي (ص) « فذلك سعي الناس بينهما » ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل فاذا هي بصوت فقالت أغث ان كان عندك خير فاذا جبريل — وفي الرواية الاخرى فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث، فاذا هي بالملك عند زمزم — قال فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الارض قال فانبثق الماء فدهشت أم اسمعيل (١) فجعلت تحفر (قال) فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم « لو تركته كان الماء ظاهرا » — ولفظ الرواية الاخرى « يرحم الله ام اسماعيل لو تركت أو قال لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عينا معينا » أي جاريا على وجه الارض — (قال) فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها قال فمر ناس من جُرهم ببطن الوادي فاذا هم بطير — وفي الرواية الاخرى : فرأوا طائرا عائفا أي يحوم على الماء — كانهم أنكروا ذلك وقالوا ما يكون الطير الا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فاذا هم بالماء فأتاهم فأخبرهم فأتوا اليها فقالوا يا أم اسمعيل أتأذنين لنا أن نكون معك أو نسكن معك — وزاد في الرواية الاخرى فقالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء ،قالوا نعم ثم قال مصرحا بالرفع « فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ». اه المراد منه ويليه ذكر عودة إبراهيم الى مكة لتفقد تركته أي ما تركه فيها وخبر بنائه البيت .وجرهم كقنفذ هو ابن قحطان ولكن رجح الحافظ ان قحطان نفسه من ذرية اسماعيل

فهذا حديث صرح فيه ابن عباس بما يدل على رفعه كله وان لم يسنده الى النبي (ص) في أوله ، وفيه نص صريح في بيان حكمة جعل الصفا والمروة من شعائر الله التي يحيا شعور الايمان بها ، ووجوب التطوف بهما والسعي بينهما . فانه تمثيل يذكر بتلك الواقعة التي هي من أكبر آيات الله ومظاهر قدرته ، وعنايته بتلك السيدة العظيمة القوية الايمان به والاتكال عليه والثقة به، وبولدها الذي أراد سبحانه ان يباركه ويجعله أمة عظيمة، كما هو منصوص في سفر التكوين من أسفار التوراة القديمة، وأي شيء أجدر بأن نتذكره هنالك ونمثله كما وقع لاجل الاعتبار به، واحياء شعور الايمان بتصوره، من رضاء

(١) قوله فقال بعقبه هكذا أي فعل. وقوله ودهشت بفتح الهاء والدال ولأبي ذر بكسر الهاء

أم مرضع بأن تقيم مع طفلها منفردين بعيدين عن العمران، في واد غير ذي زرع ولا ماء ، لان الله تعالى قد أمر بذلك أبا ولدها الذي لقنها الايمان ، ورأت ما أيده الله به من الآيات البينات، وكيف نصره وحده على قومه المشركين الظالمين الاقوياء ؟

أليس تمثيل حال تلك الام جائعة ظامئة، والهة حائرة، تشاهد طفلها يتلوّى ويتمرغ، من شدة الجوع والظمأ، ويضرب بنفسه الارض كالمصاب بالصرع، وينشغ أي يشهق من صدره للموت في ذلك القفر ، فيسوقها ذلك الالم الى الفرار من رؤيته بتلك الحال ، والسعي بين ذينك الجبلين القريبين من ذلك المكان ، تصعد هذه مرة وتلك أخرى، ضارعة الى الله راجية ان تجد من عنده غوثا، حتى اذا ما انتهت من الشوط السابع أرسل الله تعالى روحه الامين الذي يؤيد به الانبياء ، فأنبع لها ذلك الماء ، وجعل فيه الري والغذاء ، ثم ساق ذلك الركب من جرهم اليها ، وسخرهم للاقامة عندها ، ليتربى فيهم ويتذرّاهم ولدها، ثم يجعله أصلا لهذه الامة الكريمة، ويجعل ذلك الوادي القاحل صدفة لدرة الكعبة اليتيمة، اذ جعله بلدا يحفظ بيته الذي جعله مثابة للناس وامنا، وجعل قلوب الناس تهوي اليه من جميع الاقطار إيمانا ونسكا، ورزق أهله من الثمرات ، وسخرلهم البشر في كل زمان، ألسنا نرى في هذا العام معجزة من معجزات هذا التسخير ؟ بلى وقد ابتلى في هذا العام وما قبله الامم الغنية القوية ، المتصرفة في البلاد العامرة الخصبة الغنية، بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، بهذه الحرب الاوربية التي تقطعت بها الروابط وقلت المواصلات ، واقتضى دخول الدولة العثمانية في غمراتها ، ان تضرب الدول المحاربة لها حجرا بحريا على جميع سواحلها ، فكان الضيق على سكان حرم الله تعالى أليما شديدا ، حتى اذا ما أوشك أن يفتك بهم الموت جوعا ، سخر الله تعالى لهم تلك الدول تحمل اليهم الاقوات والاموال ، وتنقل اليهم وفود الحجاج ، وأراهم بهذه الاغاثة العامة ، مثالا لتلك الاغاثة الخاصة ، اعني اغاثة هاجر واسماعيل ، استجابة لدعاء الخليل ، (فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات) وكثيرا ما ذكرت الناس بذلك ، في أثناء أداء المناسك ،

فمن سعى بين الصفا والمروة عالما بما ذكر متذكرا له معتبرا به ، فانه يشعر في قلبه بنماء الايمان بالله وبرسل الله، ويفهم سر قوله تعالى (ان الصفا والمروة من شعائر الله)

باب الاخبار والآراء

﴿ اقتراح عظيم في الاصلاح الاسلامي ﴾

يود بعض الموسرين من المستمسكين بعروة الكتاب والسنة ، لو يعرفون أمثالهم من الفقراء والمساكين المتجنبين للمعاصي والبدع ، المحافظين على الفرائض والسنن ، ليؤدوا اليهم مايجب من زكاة المال وزكاة الفطر وغيرهما من الصدقات ، إذ لا تطيب أنفسهم لصرفها الى فاسق ولا مبتدع ولا مجهول الحال ، لما يعلمون من فشوّ البدع والضلال ، وكثرة المعاصي والنفاق ، دع المجاهرة بالكفر والالحاد ، فالصدقات المفروضة التي يتقرب بها الى الله تعالى لاقامة دينه ، يتحرى صرفها الى من ينفقها في طاعته ، أوفيما أباحه لعباده من الطيبات ، لافي المعاصي والمحرمات ، ولا في البدع والخرافات ، فاذا كانت صدقة التطوع يجوز بذلها لكل مؤمن وكافر ، من ذمي أو مستأمن أو معاهد ، فصدقة الفرض ليست كذلك . لذلك اقترح علينا بعض هؤلاء الموسرين أن نحصي من نعرف ومن يتيسر لنا أن نعرفهم من المؤمنين المذعنين المعتصمين ، من فريق الموسرين وفريق المستحقين للزكاة من الفقراء والمساكين ، والمؤلفة قلوبهم والغارمين ، ومن يلمّ بادارة المنار من أبناء السبيل ، وأن نكون واسطة التعارف والتعاون بين الفريقين ، لان وقوف كل فرد من الموسرين على هؤلاء المستحقين متعذر ، وان منهم من تعدد تأخيرهم الزكاة عن وقتها زمنا طويلا أو قصيرا لاجل ذلك . ولعمري ان هذا اقتراح جليل ، ولكن القيام به على حقه عسير غير يسير ، وإذا علم الناس ان بعض الناس يعطون صدقاتهم لمجتنب كبائر المعاصي والبدع ، المحافظين على الفرائض والسنن ، يكثر المدعون لذلك وحاملو الشهادات من العلماء والوجهاء على صحة دعواهم ، وأخذ الشهادات على هذا سهل على أكثر الناس في هذا العصر ، فان كثيرا من محبي الصدق يستحلون أن يشهدوا لمن يدعي مثل هذه الدعوى اذا كانوا لم يروا منه مايصدقها ولا مايكذبها ، وأما غيرهم فلا يتحامى شهادة الزور وقول الباطل في ذلك ، ومنهم من يرى أنه يتقرب به الى الله تعالى بمساعدة الفقير على تحصيل قوته . واننا على مانعلم من العسر في ذلك سننظر فيه ونجتهد في القيام به بقدر الطاقة ، ونرجو من اخواننا الصادقين إعانتنا على ذلك .

السنة الرابعة للحرب

دخلت الحرب في السنة الرابعة من عمرها فشاب لاهوالها الولدان وهي لم تزدد الا شبابا ، وخمدت بها نار حياة الامم ولم تزدد نيرانها الا شبوبا ، وكان أهم احداث عامها الثالث في الميادين الشرقية ، ثورة الروس على حكومتهم القيصرية ، واسقاط القيصر نقولا عن عرشه، واعتقاله مع زوجه وولده، ثم نفيهم الى سيبرية حيث كانت حكومته المستبدة تنفي الالوف من أحرار السياسيين، والعلماء والكتاب النابغين، واكبر العبر في هذا الانقلاب العظيم أن طلاب حكومة الشعب الشورية من الروس عجزوا عن جمع كلمة أحزابهم على شكل آخر لحكومتهم ، فانشقت العصا وتفرقت الشيع، وتعددت الثورات والفتن الداخلية حتى في الجند ، وقد كانت الحكومة الجديدة الموقتة امسكت عن الحرب عقب الثورة وامسك عنها اعداؤها حتى ظن ان هنالك هدنة، ثم هجمت في هذا الصيف على النمسة، فشدد الالمان الهجوم عليها، واستولوا على كثير من ولاياتها، واعظم ما استولوا عليه قيمة عندهم ريغا

يلي هذا ما حدث قبله من دخول دولة رومانية في الحرب واستيلاء الجرمان على عاصمتها وقسم كبير من بلادها وخروج الملك والحكومة منها واقامتهم في روسية، ويليه استيلاء الانكليز في الربيع الماضي على مدينة بغداد عاصمة المدنية العربية في الشرق ، وتهنئة الملوك ورؤساء حكومات الاحلاف للملكهم بهذا الظفر ،

واما الميدان الغربي الاعظم فاهم احداثه أن الانكليز والفرنسيس مازالوا يكاثرون الالمان في المدافع والذخيرة وغيرهما حتى كثروهم فيها كما كثروهم في عدد الجيوش، وان الالمان قد جلوا عن قسم عظيم من أرض فرنسة وامتنعوا وراءه في خط أقصر من الخط الاول سموه خط هندنبرج نسبة الى قائدهم العام، وقد استولى الحلفاء على ذلك القسم، بعد أن صار معظمه خرابا يبابا كما توقعنا من قبل، وحاربوا الالمان عند انسحابهم منه حربا عوانا ، ربحوا فيها كثيرا من الاسرى والمدافع ولا تزال الحرب في هذا الميدان سجالا.

تاريخ هذا الجزء

صدر الجزء الاول من هذا المجلد في شوال فوجب ان يكون الثاني جزء ذي القعدة وكان جعل تاريخه سلخ شوال خطأ

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله أولئك هم أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٣٠ ذي الحجة ١٣٣٥ — ٢٤ الميزان (خ١) ١٢٩٦ م ش ١٧ اكتوبر ١٩١٧

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٦٣) قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٤) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ

أمر الله تعالى رسوله في الآيات السابقة أن يبين لعباده إحاطة علمه وشمول قدرته، واستعلاءه عليهم بالقهر، وحفظه أعمالهم عليهم، وكونه هو مولاهم الحق الذي يحاسبهم ويجازيهم عليها بعد أن يميتهم ثم يبعثهم . ثم أمره بهذا القول أن يذكرهم بشيء يجدونه في أنفسهم ويقولونه بأفواههم، ويغفلون عما يستلزمه من كون الله تعالى هو مولاهم الحق الذي يجب توحيده وافراده بالعبادة، ولاسيما مظهرها الأعلى وهو الدعاء في الرخاء كالدعاء في الشدة، فقال

﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية ﴾ ظلمات البر والبحر قسمان ظلمات حسية كظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر، وظلمات معنوية كظلمة الجهل بالطرق والمسالك ، وظلمة فقد الصوى والمنار ، أو اشتباه الاعلام والآثار ، وظلمة الشدائد والاخطار، كالعواصف والاعاصير وهياج البحار، أو مساورة الافاعي والسباع ، أو مكافحة العدد الكثير من الاعداء ، وتسمية هذه الامور المعنوية ظلمات من المجاز كتسمية الجهل والكفر والضلال بذلك — وهو كثير في التنزيل — ونقلوا انه قيل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب . وأقول لا يصح إطلاق الظلمة على كل شدة ، بل على الشدة التي لها عاقبة سيئة مجهولة تخشى ولا تعلم ، فهو يرجع الى معنى الجهل . والتضرع المبالغة في الضراعة وهي الذل والخضوع ، وقال الراغب هو اظهار الضراعة بعد ان فسرها بالضعف والذل ، والاظهار قد يكون اظهار ما هو واقع وقد يكون اظهار ما هو غير واقع على سبيل الرياء ، والمراد بالتضرع هنا ما هو صادر عن الاخلاص الذي يثيره الايمان الفطري المطوي في أنفس البشر . والخفية بالضم والكسر الخفاء والاستتار ، فاذا كان التضرع إظهار الحاجة الى الله تعالى والتذلل له بالجهر بالدعاء ، ورفع الصوت به مع البكاء ، فالخفية في الدعاء عبارة عن إسراره هربا من الرياء ، وهاتان حالتان تعرضان للانسان عند شعوره بالحاجة الى الله تعالى ويأسه من الاسباب ، تارة يجأر بالدعاء رافعا صوته متضرعا مبتهلا ، وتارة يسر الدعاء ويخفيه مخلصا محتسبا ، ويتحرى أن لا تسمعه اذن ، ولا يعلم به أحد ، ويرى أنه يكون بذلك أجدر بالقبول ، وأرجى لنيل السول ، والمعنى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الغافلين عن أنفسهم ، وما أودع من آيات التوحيد في أعماق فطرتهم ، : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر الحسية والمعنوية عندما تغشاكم في أسفاركم حال كونكم تدعونه عند وقوعكم في كل ظلمة منها دعاء تضرع ودعاء خفية قائلين ﴿ لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ أي مقسمين هذا القسم في دعائكم : لئن أنجانا من هذه الظلمة أو الداهية المظلمة لنكونن من المتصفين بالشكر الدائم له ، المنتظمين في سلك أهله ، وفي قراءة (لئن أنجيتنا) بالخطاب وستأتي

﴿ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾ الكرب الغم الشديد مأخوذ من كرب الارض وهو إثارتها وقلبها بالحفر إذ الغم يثير النفس كذلك ، أو من الكرب (بالتحريك) وهو العقد الغليظ في رشاء الدلو (حبله) وقد يوصف الغم بأنه عقدة على القلب أي لما يشعر به المغموم من الضغط على قلبه والضيق في صدره ، أو من أكربت الدلو اذا ملأته ، أفاده الراغب . والمعنى ان الله ينجيكم المرة بعد المرة من تلك الظلمات ومن كل كرب يعرض لكم ، ثم أنتم تشركون به غيره بعد النجاة أقبح الشرك ، مخلفي وعدكم له بالشكر ، حانثين بما وكدتموه به من اليمين ، مواظبين على هذا الشرك مستمرين ، لا تكادون تنسونه الا عند ظلمة الخطب ، وشدة الكرب ، وأجلى شرككم أنكم تدعون أولياء من دون الله ، وتسندون اليهم الاعمال ان لم يكن بالاستقلال فبالشفاعة عند الله ، حتى إنكم لا تستثنون منها تلك النجاة . وهذه الحجة من أبلغ الحجج لمن تأملها ، ولذلك تكرر في التنزيل ذكرها ، وطالما ذكرناها في آيات التوحيد ودلائله ، وأقرب بسط لها ما أوردناه في تفسير الآيتين ٤٠ و ٤١ من هذه السورة فليراجع (في ص ٤٠٧ — ٤١١ ج ٧) وفيه شواهد بمعنى هاتين الآيتين

قرأ عاصم وحمزة والكسائي (ينجيكم) بالتشديد في الموضعين من التنجية والباقون بالتخفيف فيهما من الإنجاء وهما لغتان في تعدية نجا ينجو ؛ يقال نجاه وأنجاه ونطق بهما القرآن في غير هاتين الآيتين أيضا ، ولكن في التشديد من المبالغة والدلالة على التكرار ما ليس في التخفيف . وقرأ عاصم في رواية أبي بكر (خفية) بكسر الخاء والباقون بضمها وهما لغتان كما تقدم . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي (أنجانا) على الغيبة فعاصم فخمها والآخرون قرأوها بالامالة ، وقرأ الباقون (أنجيتنا) على الخطاب . وهي مرسومة في المصحف الامام هكذا (انجىنا) وقراءة الغيبة أقوى مناسبة للفظ ، والخطاب أشد تأثيرا في النفس ،

(٦٥) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ

بَعْضٍ ، ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٦) وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٧) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

ذكر الله تعالى الناس هؤلاء الناس في الآيتين السابقتين ببعض آياته في أنفسهم ، ومنته عليهم في وقائع أحوالهم ، التي يشعر بها كل من وقعت له منهم ، وكونه هو الذي ينجيهم من الظلمات والكروب ، والاهوال والخطوب ، إما بتسخير الاسباب ، وإما بدقائق اللطف والالهام ، ثم قال

﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ فهذا تذكير بقدرته على تعذيبهم ، إثر التذكير بقدرته على تنجيتهم ، لا فرق فيه بين أفرادهم وبين مجموعهم وجملتهم ، وإنذار بأن عاقبة كفر النعم ، أن تزول وتحل محلها النقم ، والمعنى قل أيها الرسول لقومك ومن وراءهم من الكافرين بنعم الله ، الذين يشركون به سواه ، ولا يشكرون له ما من به من النعم وأسداه ، ومن الذين يتنكبون سنن الله ، ويختلفون في الكتاب بعد ان هداهم به الله : هو الله القادر على ان يثير ويرسل عليكم عذابا تجهلون كنهه فيصبه عليكم من فوقكم ، أو يثيره من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم ويخلطكم فرقا وشيعا ، مختلفين على أهواء شتى ، كل فرقة منكم تشايع إماما في الدين ، أو تتعصب لملك أو رئيس ، ويذيق بعضكم بأس بعض ، وهو ما عنده من الشدة والمكروه في السلم والحرب ، وقال صاحب الكشاف بعد تفسير اللبس بالخلط : ومعنى خلطهم ان ينشب القتال بينهم فيختلطوا و يشتبكوا في ملاحم القتال من قوله :

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى اذا التبست نفضت لها يدي

أقول وأصل معنى اللبس التغطية كاللباس ، وهذا التفرق والاختلاف بين الشيع كالغطاء يستر عن كل شيعة ما عليه الاخرى من الحق ، وما في الاتفاق معها من المصلحة والخير . ولمادة ش ي ع ثلاث معاني أصلية في اللغة (أحدها) الانتشار والتفرق ومنه شاع

وأشاع الاخبار (ثانيها) الاتباع والدعوة اليه ، ومن الاول تشييع المسافر وتشييع الجنازة ، ومن الثاني قولهم أشاع بالابل أي دعاها اذا استأخر بعضها ليتبع بعضها بعضا (ثالثها) التقوية والتهييج ومنه قولهم شيع النار اذا ألقى عليها حطبا يذكيها به ، والشياع (بالفتح والكسر) ما تضرم به النار . وكل هذه المعاني ظاهرة في الشيع والاحزاب المتفرقة بالخلاف في الدين أو السياسة . وفسر ابن عباس الشيع بالاهواء المختلفة أي أصحابها

وقد ورد في المأثور تفسير العذاب من فوق بالرجم من السماء أي من جهة العلو — وكذا بالطوفان — كما وقع لبعض الامم القديمة ، والعذاب من تحت الارجل بالخسف والزلازل المعهودة في القديم والحديث ، وروي عن ابن عباس ان المراد بالفوق أئمة السوء — أي الحكام والرؤساء — و بالتحت خدم السوء ، وفي رواية : (من فوقكم) يعني أمراءكم (أومن تحت أرجلكم) يعني عبيدكم وسفلتكم . وهذا معنى صحيح في نفسه ولعل مراد الحبر منه أنه يدخل في عموم مانرشد اليه الآية . وقيل المراد بالفوق حبس المطر و بالتحت منع الثمرات . وهذا تفسير سلبي والتعبير عنه بالارسال تعبير عن الشيء بضده فان الارسال ضد المنع والامساك والحبس ، ومنه قوله تعالى (٣٥ : ٢ ومايمسك فلا مرسل له من بعده) ولما كان لفظ العذاب في الآية نكرة جاز حمله على كل عذاب يأتي من فوق الرءوس ومن تحت الارجل أو من رؤساء الناس وتحوتهم ، ولولا ان هذا الابهام مراد لاجل هذا الشمول لصرح بالمراد كما صرح به في مثل قوله تعالى (٦٧ : ٦ أ أمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض فاذا هي تمور ٧ أم أمنتم من في السماء ان يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) وحكمة مثل هذا الابهام في القرآن ان ينطبق معنى اللفظ على مايدل عليه مما يحدث في المستقبل او ينكشف للناس فيه مما كان خفيا عنهم ، اذ ورد في وصف القرآن انه لاتنتهي عجائبه ، وان فيه نبأ من قبل الذين نزل في زمنهم ومن كان معهم ومن يجيء بعدهم

مثال ماعبر القرآن عنه ولم ينكشف لجمهور الناس انكشافا تاما الا بعد نزوله بقرون كون الثمار وغيرها أزواجا منها الذكر والانثى قال تعالى (١٣ : ٣ ومن كل الثمرات

جعل فيها زوجين اثنين) وقال (٥١ : ٤٩ ومن كل شيء خلقنا زوجين) وكانوا يحملون الآيات في ذلك على المجاز — وكون الرياح تلقح النبات كما هو صريح قوله تعالى (١٥ : ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) وقد جعله بعض مفسري السلف تلقيحاً مجازيا كقول ابن مسعود (رض) انها تلقح السحاب فيدر كما تدر اللقحة [١] نعم قال ابن عباس (رض) وكذا الحسن : تلقح الشجر وتمري السحاب ، ولكن هذا القول المقتبس من التنزيل بنور الفهم الصحيح ، لم يزل خفيا في تفصيله حتى عن العرب الذين كانوا يلقحون النخيل — الى ان اكتشف الناس أعضاء الذكورة والانوثة في النبات وكونها تثمر بالتلقيح ، وكون الرياح تنقل مادة الذكورة من ذكرها الى أنثاها فتلقحها به ، ولما علم الافرنج بهذا قال بعض المطلعين على القرآن المجيد من المستشرقين منهم : ان أصحاب الابل — يعني العرب — قد عرفوا ان الريح تلقح الاشجار والثمار قبل ان يعرفها أهل أوربة بثلاثة عشر قرنا [٢]

ومثال ماعبر القرآن عنه مما يشمل مالم يكن في زمن تنزيله ولا فيما قبله بحسب ما يعلم البشر هذه الآية التي ظهر تفسيرها في هذا الزمان بهذه الحرب الاوربية التي لم يسبق لها نظير ، فقد أرسل الله على الامم عذابا من فوقها بما تقذفه الطيارات والمناطيد من المقذوفات النارية التي لم تعرف قبل هذه الحرب فوق مقذوفات المدافع وغيرها مما كان معروفا قبلها وبعد تنزيل الآية — وعذابا من تحتها بما يتفجر من الألغام النارية وبما ترسله المراكب الغواصة في البحر ، التي اخترعت في هذا العصر ، ولبسها شيعا وأذاق بعضها بأس بعض ، فحل بها من التقتيل والتخريب مالم يعهد له نظير في الارض ، وقد شرحنا هذا في مقالة نشرناها في المنار . ولا شك في أن دلالة الآية على هذه المخترعات مراد ، لان الله تعالى منزل القرآن هو علام الغيوب . وفي الحديث المرفوع مايشير الى ذلك ، فقد روى أحمد والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص قال : سئل رسول الله (ص) عن هذه الآية (قل هو القادر — الى آخرها) فقال « أما انها كائنة ولم يأت تأويلها بعد » ويقويه ماورد

(١) اللقحة بالفتح الناقة ذات اللبن (٢) نقل ذلك السيد محمد بيرم الخامس في مقدمة صفوة الاعتبار عن مستر اجتيري الانكليزي معلم العربية في مدرسة اكسفورد الجامعة

في تطبيقها على أمتنا لانه سنة الله في أهل الكتاب من قبلنا كما يأتي قريبا

﴿ انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾ أي انظر بعين عقلك أيها الرسول – ومثله في هذا كل مخاطب بالقرآن – كيف نصرّف الآيات والدلائل فنجعلها على أنحاء شتى ، منها ما طريقه الحسّ ، ومنها ما طريقه العقل ، ومنها ما طريقه خرق العادة ، لعلهم يفقهون الحق ، ويدركون كنه الامر ، فان الفقه هو فهم الشيء بدليله وعلته ، المفضي الى الاعتبار والعمل به ، وانما يرجى تحصيله بتصريف الآيات ، وتنويع البينات .

فعلم مما تقدم أن هذه الآية عامة وان نزلت في سياق انذار مشركي مكة واقامة الحجة عليهم ، فالعبرة فيها كغيرها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب أو مقتضى السياق كما تقرر في الاصول ، وقد جهل هذا بعض المعممين فأنكروا علينا منذ أول العهد بانشاء (المنار) ما كنا نورده في سياق تذكير المسلمين ، من الآيات التي نزلت في المشركين والمنافقين ، ومما يؤيد مسلكنا هذا ما رواه البخاري والنسائي في تفسير هذه الآية من حديث جابر قال : لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال رسول الله (ص) « أعوذ بوجهك » قال (أو من تحت أرجلكم) قال « أعوذ بوجهك » (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) قال رسول الله (ص) « هذا أهون أو هذا أيسر » هذا لفظ البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ، ووقع في كتاب الاعتصام منه « هاتان أهون أو أيسر » — والشك من الراوي — وانما كانت خصلتا اللبس واذاقة البأس أهون أو أيسر لان المستعاذ منه قبلها هو عذاب الاستئصال باحدى الخصلتين الاوليين بأن لا يبقى من الامة أحد . ويدل على ذلك أحاديث متعددة منها حديث ابن عباس عند أبي بكر ابن مردويه عن النبي (ص) قال « دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعا فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الارض وأن لا يلبسهم شيعا ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع عنهم الخسف والرجم وأبى أن يرفع الآخرين » وفي رواية أخرى عنده عنه — أي ابن عباس — قال : لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر ...) قام النبي (ص) فتوضأ ثم قال « اللهم لا ترسل على أمتي

عـذابا من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ولا تلبسهم شيعاً ولا تذق بعضهم بأس بعض » قال فأتاه جبريل فقال : يامحمد قد أجار الله أمتك أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم . أي ولم يجرهم من العذابين الآخرين لانه لا بد ان يتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب ، ويحل ما حل بهم من عـذاب التفرق والخلاف . وذلك مقتضى سنته تعالى في عقاب أتباع الرسل يختلفون في الدين الجامع لكلمتهم فيكونون مذاهب وشيعا ، ويتبع ذلك اختلافهم في السلطة والسياسة أو يتقدمه ، ويترتب عليه التخاصم والاقتتال الذي نعهده ، وهذا معنى قضاء الله في حديث ثوبان الذي يأتي قريبا

وروى أبو الشيخ عن مجاهد في تفسير الآية أن هذا العذاب عذاب أهل الاقرار وان العذاب الاول عـذاب أهل التكذيب . وأوضح منـه ما رواه ابن جرير عن الحسن قال لمـا نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا) قام رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فتوضأ فسأل ربه أن لا يرسل عليهم عذابا من فوقهم أومن تحت أرجلهم ولا يلبس أمته شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض كما أذاق بني اسرائيل فهبط اليـه جـبريل فقال : يامحمد انك سألت ربك أربعا فاعطاك اثنتين ومنعك اثنتين، لن يأتيهم عذاب من فوقهم ولا من تحت أرجلهم يستأصلهم فانهما عذابان لكل أمة اجتمعت على تكذيب نبيها ورد كتاب ربها ، ولكنهم يلبسهم شيعا ويذيق بعضهـم بأس بعض وهذان عذابان لاهل الاقرار بالكتب والتصديق بالانبياء ولكن يعذبون بذنوبهم . وأوحى الله اليه (فإما نذهبن بك فانا منهم منتقمون) يقول من أمتك (أو نرينك الذي وعدناهم) من العذاب وأنت حي (فانا عليهم مقتدرون) فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم فراجع ربه فقال « أي مصيبة أشد من ان أرى أمتي يعذب بعضها بعضا » وأوحي اليه (الم أحسب الناس أن يتركوا) الآيتين فاعلمه ان أمتـه لم تخص دون الامم بالفتن وانها ستبتلى كما ابتليت الامم ، ثم أنزل عليه (قل رب اما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين) فتعوذ نبي الله فاعاذه الله، لم ير من أمته الا الجماعة والالفة والطاعة، ثم أنزل عليه آية حذر فيها أصحاب الفتنة فاخبره انه انما يخص بها ناس منهم دون

ناس فقال (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب) فخص بها أقواما من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بعده وعصم بها أقواما اه

وقد وفى الحسن رحمه الله المسألة حقها من البيان بذكر ما يتعلق بها وان نزل بعدها بسنين كآية الانفال الاخيرة ولكنه لم يبين معنى هذه وهو بيان سنته تعالى في الفتن تصاب بها الامم لاتصيب الذين ظلموا منهم وكانوا سبب العذاب المترتب عليها خاصة بل تحل بهم وبمن لم يمنعهم من الظلم ولو عجزا ، بل ظاهر الرواية مخالف لظاهر الآية في هذا ولعله محرف

وأعلم أنه ورد في هذا المعنى أحاديث أخرى منها انه (ص) دعا ربه أن لا يهلك أمته بتسليط عدو عليهم من غير أنفسهم ولا بالسنة العامة أي المجاعة والقحط ولا بالغرق ولا بما عذب به الامم قبلهم كالريح والصيحة والرجفة . وقد أورد هذه الاحاديث الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية والسيوطي في الدر المنثور

وقد استشكل هذه الاحاديث العلماء بما ورد من الاحاديث المتعددة من الطرق المختلفة في اثبات وقوع الخسف والمسخ والقذف في هذه الامة ، وأمثل ما أجابوا به عنها هو أن مادعا به النبي (ص) انما هو عدم هلاك أمته كلها بما ذكر كما هلكت عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ، ووقوع شيء من ذلك في بعض الامة لاينافي استجابة الدعاء ، فان منه الموت غرقا أو جوعا وقد وقع لكثير من الامة حتما .

ثم حدث لهذه الامة في الاجيال الاخيرة ماهو أولى بالاشكال ، وأحوج الى مثل هذا الجواب ، وهو تسليط الاعداء عليها المعارض لما ورد في هذا الباب ، وأصحه ماروا مسلم من حديث ثوبان قال قال رسول الله (ص) « ان الله زوى لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها [1] وان أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها ، وأعطيت الكنزين الاحمر والابيض ، واني سألت ربي لامتي أن لا يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم [2] وان ربي قال يا محمد اني اذا قضيت قضاء فانه لايرد . وإني أعطيتك لامتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط

(١) زوى الشيء يزويه قبضه وجمعه والمعنى انه كشفها له واطلعه عليها (٢) يكنى بالبيضة عن موضع سلطة القوم وملكهم وعن عزهم ومستقر قوتهم وما يحمون من حقيقتهم

عليهم عـدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها — أو قال من بين أقطارها — حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا » ورواه أحمد وأصحاب السنن الا النسائي وغيرهم بزيادة عما هنا. وقد ظهر صدق الرسول (ص) في بلوغ ملك أمته مشارق الارض ومغاربها وفي وقوع بأسهم بينهم، وما زال ملكهم عن أكثر تلك الممالك الا بتفرقهم، ثم بمساعدتهم للاجانب على أنفسهم، وكم تألبت عليهم الامم فلم ينالوا منهم بدون ذلك منالا، وما بقي لهم الآن قليل ضعيف يتوقع الطامعون الاستيلاء عليه قريبا، ونحن نرجو خذلان الطامعين، وإقامة قواعد استقلالنا على أساس متين، يضنه تكافل الامم وحفظها للسلم ولو عشرات من السنين، لعلنا نصير في فرصتها من العالمين العاملين، الذين يحفظون حقيقتهم بأنفسهم، ولا يتكلون على تنازع الطامعين فيهم، فان هذا اتكال على أمر سلبي لا يدوم لنا، وان كان هو الذي أبقى لنا هذا القليل الذي ذكرنا، وبقاؤه هو مصداق الحديث على الطريقة المعتمدة في الجواب عن الدعاء برفع الخسف والقحط والغرق وغيرها في الاحاديث الاخرى

ويمكن أن يجاب عن حديث ثوبان هذا بجواب آخر غير الذي يؤخذ من جوابهم عن غيره، وغير ما أشرنا اليه آنفا في بيان صدقه، وهو ان الله تعالى لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ما داموا مستمسكين بعروة الايمان الوثقى وقائمين بحقوقه ومنها الاسباب التي وعدهم الله تعالى النصر ما داموا مستمسكين بها، وقد بينها لهم في كتابه وتقدم كثير منها فيما مر من التفسير[1] ويؤيد ذلك حديث آخر عن ثوبان نفسه قال قال رسول الله (ص) « يوشك أن تداعي عليكم الامم كما تداعى الاكلة الى قصعتها — فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال — بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن — قال قائل: يارسول الله وما الوهن — قال حب الدنيا وكراهية الموت » رواه أبو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة.[2]

---

(١) انظر كلمة نصر في فهارس أجزاء التفسير وراجع ما تشير اليه أرقامها

(٢) في سنده أبو عبد السلام صالح بن رستم الهاشمي قال أبو حاتم فيه مجهول وقال الذهبي روى عنه ثقتان فخفت جهالته. ويوشك معناه يقرب. وتداعى أصله تتداعى اي تجتمع أو تتابع واصل معناه يدعو بعضها بعضاً. والاكلة كهمزة جمع آكل وروى بصيغة اسم الفاعل أي الجماعة =

﴿ تنبيه غافل ، وتعليم جاهل ﴾

يسيء كثير من المسلمين تأويل حديثي ثوبان وغيرهما من أحاديث الفتن ويحملونها على ما يضرهم ، وهو مالم يرده الرسول (ص) ولا يرضاه لهم ، فوجب ان نبين الحق في ذلك فنقول

إن لاحوال الامم العامة تأثيرا عظيما في أفهام أفرادها لنصوص الدين وغيرها من أقوال الحكماء والشعراء ، فهي في حال من ارتقائها بالعلم والحكمة ، وما يثمران من العزة والقوة ، تكون أصح افهاما ، وأصوب أحكاما ، وأكثر اعتبارا وادكارا ، وأحسن استفادة واستبصارا ؛ وفي حال فشو الغباوة والجهل ، ومايتتجان من الضعف والذل ، تكون بالضد من ذلك ، وأضرب مثلا لذلك النصوص والحكم المنظومة والمنثورة في ذم الطمع والحرص على المال وزينة الدنيا وما يقابلها من تعظيم أمر الآخرة والترغيب في معالي الامور وبذل المال في سبيل الحق — لم تكن تلك النصوص والحكم والاشعار والامثال بصادّة للامة في طور حياتها وارتقائها عن الفتح والكسب ؛ واحراز قصب السبق ، في جميع ميادين التنازع على السيادة وموارد الرزق ، بل كانت هي الحافزة لها الى ذلك بقصد اعزاز الملة ، ورفع شأن الامة ، لذلك كانوا يبذلون تلك الاموال بمنتهى السخاء في سبيل البر وأعمال الخير ، ولو حفظ المتأخرون منا ماحبسه من قبلهم من الاوقاف على جميع المصالح العامة وأنواع البر لوجدوا أن جميع ما ملكوه من الارض كان وقفا بل وقف مرارا ، لان الخلف الطالح صار يحول أوقاف السلف الصالح الى ملك ، حتى كان عم والدي الشيخ النقاد الخبير السيد أحمد أبو الكمال يقول على سبيل المبالغة في هذا المعنى : في كل مئة سنة يتحول كل وقف في طرابلس الشام ملكا وكل ملك وقفا

كانت تلك النصوص والحكم للامة في تلك الحياة كالغذاء الصالح للجسم السليم يزيده قوة ويحفظ له حياته ويعوضه عن كل ماينحل منه من الدقائق الميتة

= الآكلة : والغثاء بالفم ماتحمله السيل ويلقيه من الزبد والعيدان ونحوها ، والوهن الضعف أوشدته ، والسؤال عن سببه وانما سببه حب الحياة الدنيا ولذتها وايثارها على الجهاد في الدفاع عن الحقيقة وكراهة الموت ولو في سبيل الحق حرصاً على هذه الحياة الحسيسة . وأجدر بهذا الحديث أن يعد من أعلام النبوة كالذي قبله

مادة حية خيرا منها ، ثم صارت في طور الضعف كالغذاء الثقيل في الجسم العليل لا يزيده الا ضعفا وانحلالا ، اذ صاروا يفهمون منها أن الكسل والخمول والتوا كل والفقر والذل من مقاصد الدين ، فصاروا لا يستفيدون منها الا ضعفا وعجزا ، ولا يزدادون مع ذلك الا حرصا ودناءة وبخلا ،

اذا تدبرت هـذا المثال فاجعله مرآة لما ورد في الاحاديث النبوية ، من أنباء مستقبل الامة الاسلامية ؛ كسعة ملكها في مشارق الارض ومغاربها ، (أي بالنسبة الى الحجاز) ثم تداعي الامم عليها كما تتداعى الاكلة الى قصعتها ، ومن تفرقها شيعا ووقوع بأسها بينها ، وغير ذلك من أنباء الفتن ، وما يكون قبل قيام الساعة من الاحداث والبدع . واعلم ان ما أصاب الامة الاسلامية بسوء فهمها لهذه الاحاديث بعد فشو الجهل فيها هو نحو ما أصابها بسوء فهمها لتلك النصوص والحكم التي أشرنا اليها في المثال : وطن جماهير المسلمين أنفسهم منذ قرون على الرضاء بجميع الفتن والشرور التي أنبأت الاحاديث بوقوعها في المستقبل ، فقعدت هممهم عن القيام بما أمر الله تعالى به من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ودفع المكروه والدفاع عن الحق بقدر الاستطاعة ، معتذرين لانفسهم بأن ذلك قدر ، قد ورد بوقوعه الخبر ، فلا مهرب منه ولا مفر ، كما يعتذرون لانفسهم عن ترك مجاراة الامم العزيزة في أسباب العزة وطرق الثروة ؛ بالنصوص والحكم التي وردت في التنفير عن الطمع والجشع وتهوين أمر شهوات الدنيا ، والترغيب في معالي الامور وإيثار الحياة الباقية — ولا حجة لهم في شيء من ذلك بل لله الحجة البالغة عليهم ، وقد بسطنا ذلك مرارا في التفسير وفي غير التفسير .

وتراهم مع هذا قد تركوا السعي والعمل لما وعدوا به في الآيات والاحاديث من الخير والسيادة كما كان يسعى ويعمل له سلفهم ، ومن تلك الوعود ما لم يأت تأويله ولا بد من إتيانه ، لان وعد الله مفعول لا بد منه ، كما تركوا العمل بالنصوص الآمرة بالبذل في سبيل الله ، مع ادعائهم الاخذ بما ورد في إيثار الآخرة على الدنيا أو احتجاجهم به ،

وحقيقة الامر أنهم رزئوا بالجهل والخمول والكسل وسقوط الهمة ، فهم بجهلهم يتعبون ويشقون في اتباع أهوائهم والسعي لحظوظهم الشخصية الدنيئة ، ولا يفكرون في

المصالح العامة ولا يعقلون وجه ارتباط المنافع الخاصة بها ، بل يتركونها زاعمين أنهم قد وكلوا أمرها الى الله وعملوا بهدي دينه فيها ، بل لا يخطر في بال أحد منهم هذا الزعم الا اذا عذله عاذل أو وبخه موبخ على تفريطه في حقوق أمته، وما يجب عليه لملته ، فحينئذ يعتذرون بالاقدار ، أو بأن الآخرة لهم والدنيا للكفار ، وقد ذكرناهم بفساد شبهتهم هذه مرارا [1] و(إنما يتذكر من ينيب)

إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يخبر أمته بما سيقع فيها من التفرق والشيع ، وركوب سنن أهل الكتاب في الاحداث والبدع ، وبغير ذلك من أخبار الفتن ، الخاصة بهم والمشتركة بينهم وبين الامم ، الا لاجل ان يكونوا على بصيرة في مقاومة ضرها ، واتقاء تفاقم شرها ، لا لأجل ان يتعمدوا إثارة تلك الفتن والاصطلاء بنارها ، والاقتراف لاوزارها ، فمثله (ص) في ذلك كمثل الطبيب الذي يخبر المسافرين الى أرض مجهولة لهم بما فيها من الامراض لاجل ان يبذلوا جهدهم في اتقاء وقوعها بهم، ثم في مداواة من يصاب بها منهم، لا لاجل ان يجعلوا أنفسهم عرضة لها باتيان أسبابها ، وتوطين النفس على الهلاك بترك التداوي منها . وقد كان أهل الصدر الاول يفهمون ذلك من النصوص كما صرحت به عائشة في حديث لعن أهل الكتاب لاتخاذ قبور أنبيائهم مساجد فانها علله بقولها : يحذّر ما صنعوا . وقد صرحت النصوص بالنهي عن التفرق والاختلاف ، الذي تدهور في تيهوره أهل الكتاب ، حتى لا نقع فيه على غرارة وجهالة فيكون شره مستطيرا ، ولا نهتدي الى تخفيفه سبيلا ، (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ انما يتذكر أولو الالباب) ولو أن علماء الصحابة أو التابعين كتبوا في التفسير وشرح الحديث ليبينوا لنا ذلك.

ولم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى اليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الامم والجمع بين النصوص في ذلك والحث على الاعتبار بها ، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الاحكام ، وقواعد الكلام ، لأفادوا الامة ما تحفظ به دينها ودنياها ، وهو

(١) أولها مانشرناه في العدد الثاني من سنة المنار الاولى في مقالة عنوانها (القول الفصل في محاورة في سعادة الامة) وقد صدر ذلك العدد في ٢٩ شوال سنة ١٣١٥

مالا يغني عنه التوسع في دقائق مسائل النجاسة والطهارة ، والسلم والاجارة ، فان العلم بسنن الله تعالى في عباده ، لا يعلوه الا العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله ، بل هو منه أو من طرقه ووسائله . وقد فطن لهذا بعض حكماء العلماء فقال أبو حامد الغزالي في بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة من كتاب العلم في الإحياء : وأما القسم المحمود الى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى و بصفاته وأفعاله ، وسنته في خلقه ، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا ، فان هذا علم مطلوب لذاته . ثم فضل أهل هذا العلم على جميع العلماء كالمتكلمين والفقهاء ، وأيده في ذلك العز بن عبد السلام اذ استفتي في ذلك فأفتى بصحته . و بين الغزالي في غير هذا الفصل من فصول الباب الثاني من أبواب العلم ان هذا العلم هو الذي امتاز به عظماء الصحابة رضي الله عنهم وانه هو العلم الذي عناه عبدالله بن مسعود لما مات عمر بن الخطاب (رض) بقوله مات تسعة أعشار العلم (ورواه أبو خيثمة في كتاب العلم بلفظ : إني لاحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم)

أقول أما العلم بالله تعالى و بصفاته وأفعاله فهو معراج الكمال الانساني ، وأما العلم بسننه تعالى في خلقه فهو وسيلة ومقصد — أو أعظم الوسائل لكمال العلم الذي قبله ومن أقرب الطرق اليه ، وأقوى الآيات الدالة عليه ، وهو أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء ، وانما يرجى بلوغ كمال الاستفادة منه اذا نظر فيه الى الوجه الرباني والوجه الانساني جميعا ، وهو ما كان عمر ينظر فيه بنور الله في فطرته وهداية كتابه ، وأما أبو حامد فقد لاحظ الوجه الرباني فقط . وان في سياسة عمر وفي كلامه لدلائل كثيرة على ماذكرنا من بصيرته في هذا العلم . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهله وان يجعله وسيلة لنا لتكميل أنفسنا ، واصلاح ما فسد من أمر أمتنا ، آمين

اذا تدبرت هذا أيها القارئ فاعلم ان الاستدلال بما ورد من الاخبار والآثار في تفسير هذه الآية لا يدل هو ولا غيره من أحاديث الفتن والساعة على ان الامة الاسلامية قد قضي عليها بدوام ما هي عليه الآن من الضعف والجهل ولوازمهما كما يزعم الجاهلون بسنن الله ، اليائسون من روح الله ، بل توجد نصوص أخرى تدل على ان

لجوادها نهضة من هذه الكبوة ، وان لسهمها قرطسة بعد هذه النبوة ، كالآية الناطقة باستخلافهم في الارض ، فان عمومها لم يتم بعد ، وكخبر « لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف الا ضلال الطريق » رواه أحمد والشطر الاول منه لم يتحقق بعد ، ويؤيده ويوضح معناه ما صح عند مسلم من أن مساحة المدينة سوف تبلغ الموضع الذي يقال له إهاب ، أي ان مساحتها ستكون عدة أميال ، فكونوا ياقوم من المبشرين لا من المنفرين ، (ولتعلمن نبأه بعد حين)

﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾ الخطاب للرسول (ص) أي وكذب جمهور قومك — وهم قريش — بالعذاب . أو بالقرآن على ما صرفنا فيه من الآيات الجاذبة الى فقه الايمان ، بجعلها حججا يثبتها الحس والعقل والوجدان ، في أعلى أساليب البلاغة وحسن البيان ، والحال انه هو الحق الثابت في نفسه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وما سبب ذلك الا الكبر والعناد ، والجمود على تقليد الآباء والاجداد ، ﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾ أي قل لهم أيها الرسول انني لست بوكيل مسيطر عليكم ، وانما أنا رسول لكم ، فالوكيل هو الذي توكل اليه الامور ، وفي الوكالة معنى السيطرة والتصرف ، فمن جعله السلطان أو المالك وكيلا له على بلاده أو مزارعه يكون مأذونا بالتصرف عنه فيها والسيطرة على أهلها . والرسول مبلغ عن الله تعالى يذكر الناس ويعلمهم ، ويبشرهم وينذرهم ، ويقيم دين الله فيهم ، هذه وظيفته . وليس وكيلا عن ربه ومرسله ، ولا يعطى القدرة على التصرف في عباده ، حتى يجبرهم على الايمان إجبارا ، ويكرههم عليه اكراها (٢ : ٢٥٦ لا إكراه في الدين — ٨٨ : ٢١ فذكر انما أنت مذكر ٢٢ لست عليهم بمسيطر — ٥٠ : ٤٥ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد — ٢ : ٢٧٢ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) وراجع تفسير (٦ : ٥٠ ص ٤٢١ — ٤٣٠ ج ٧ تفسير) وقيل الوكيل الحفيظ المجازي

وروي عن ابن عباس (رض) ان هذه الآية نسخت بآية القتال وتمسك بهذه الرواية كثير من المفسرين المغرمين بتكثير الآيات المنسوخة . قال الفخر الرازي : وهو بعيد ، وهو في قوله المصيب ، فان الاذن بالقتال للدفاع عن الحق

والحقيقة ، وحماية الدعوة والبيضة ، لم يخرج الرسول عن كونه رسولا ، أي عبدًا لله مبلغًا عنه لا شريكا له ولا وكيلا ، وما أرى الرواية تصح عن ابن عباس ، ولو صحت لكان الوجه في مراده منها ان آية القتال أزالت ما كان من لوازم هذه الآية وأمثالها من ارشاد الرسول (ص) الى السكوت للمشركين على ما كان من تكذيبهم لما جاء به ، ذلك التكذيب القولي العملي الذي أبرزوه بالصد عنه ، ومنعه من تبليغ دعوة ربه ، وإيذائه وايذاء من آمن به ، فان الصحابة كانوا يريدون من النسخ معنى أعم من المعنى الذي قرره علماء الاصول وهو الذي يجري عليه المفسرون . ومن هنا قال الزجاج في تفسير العبارة : أي اني لم أومر بحربكم ومنعكم عن التكذيب اه و بناء على هذا قال كثيرون بنسخ الآيات الكثيرة التي أمر بها النبي (ص) بالصبر والعفو وحسن المعاملة وهي هي الفضائل كان (ص) متحليا بها طول عمره ، مع وضعه كل شيء في موضعه ،

ووضع الندى في موضع السيف في العلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

﴿ لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون ﴾ هذا تمام ما أمر الله تعالى رسوله أن يقوله لقومه المكذبين . والنبأ الخبر كما قيل او الخبر الذي له شأن يهتم به ، وقال الراغب خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الاشياء الثلاثة . اه ويراد به المعنى المصدري أو مدلوله الذي يقع مصدقا له . والمستقر مصدر ميمي بمعنى الاستقرار وهو الثبات الذي لا تحوّل فيه واسم زمان ومكان له ، وارادة الزمان هنا أظهر و يستلزم غيره معه . والمعنى لكل شيء ينبأ عنه مستقر تظهر فيه حقيقته ويتميز حقه من باطله فلا يبقى محال للاختلاف فيه وسوف تعلمون مستقر ما أنبأ به القرآن الذي كذبتم به من وعد ووعيد — أو لكل نبأ من أنباء القرآن الحق الذي كذبوا به زمان يحصل فيه مضمونه فيكون قارًا ثابتا فيه . ومن هذه الانباء ما وعد الله الرسول من نصره عليهم وما أوعدهم من الخزي والعذاب في الدنيا والآخرة (٣٩ : ٢٤ كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ٢٥ فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون — ٣٧ قل ياقوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه

عذاب مقيم — ٣٨ انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل) وسوف تعلمون ذلك عند وقوعه . وحسبك هذه الشواهد فهي مطابقة لما هنا أتم المطابقة . واذا جعل المستقبر بمعنى الاستقرار كان معناه لكل نبإ من أنباء القرآن استقرار أي وقوع ثابت لا بد منه . ومن أنباء القرآن ما هو خاص بأولئك القوم ومنه ما هو في غيرهم ، ومنه ما هو نبأ عن أهل ذلك العصر ومنه ما هو نبأ عمن بعدهم . ومنه ما هو عام يشمل أمورا تأتي في أزمنة مختلفة فيحصل في كل زمن منه ما يظهر لمن فقه حقية القرآن (٤١ : ٥١ قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ٥٢ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) واذا أردت أن تزداد فهما بوجوه الاتصال والتناسب بين الآيات في هذا السياق ، فارجع الى ما ذكرناه (في ص ٤٥٥ وأوائل ص ٤٥٧ ج ٧) من الكلام في مسألة استعجالهم العذاب ، وأجله الذي لا يتعداه ، والحمد لله

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بما شاء من الألقاب ان شاء . واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متأخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه ، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ حكمة تحريم الدم المسفوح ﴾

(س ٨) من صاحب الامضاء بمصر

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ رشيد رضا

ما قولكم دام فضلكم في الدم المنصوص على تحريمه في القرآن الشريف مقيدا بالمسفوح مرة وغير مقيد مرارا وما الحكمة في تحريمه . أفيدوا الجواب ولكم الثواب

طبيب جمعية الرفق بالحيوان

حسن ذهني

(ج) الدم المسفوح هو الذي حرم الله شربه وأكله وهو الذي يراق من الحيوان بذبح أو جرح أو غيرهما ، وتقييده بالمسفوح هو الذي نزل أولا في سورة الانعام وما نزل بعده مطلقا فهو محمول على ذلك المقيد ومقيد بقيده . واحترز بالقيد عن الجامد كالطحال ، وعما يخالط اللحم من المائع القليل فانه لا يسفح . وقد بينا في تفسير آية محرمات الطعام من سورة المائدة أن حكمة تحريمه أمران أحدهما أنه خبث تستقذره الطباع السليمة فوجب التنزه عن جعله غذاء للمؤمنين الطيبين الذين لا يليق بهم الا الطيبات، وثانيهما أنه ضار لانه عسر الهضم و يشتمل على كثير من الفضلات العفنة ، وكثيرا مايشتمل على جراثيم الامراض والادواء الخطرة . فان سهل على بعض البارعين في العلوم الطبية معرفة مثل هذا واتقاء ضرره فهو لا يسهل على جميع البشر من البدو والحضر المخاطبين بهذا الدين العام . وتتمة الكلام على ذلك في ص ١٣٤ و١٣٥ من جزء التفسير السادس

(الكتابة وطريق تحصيلها ومكان القرآن والحديث منها)

(من ٩) من صاحب الامضاء بمصر

استاذي الفاضل الشيخ رشيد رضا

السلام عليكم ورحمة الله و بعد فانا نعلم مكانتكم من العلم في هذا البلد لذلك نرجو الاجابة على مايأتي

ان فن الكتابة والتحرير الذي أحياه فينا الاستاذ الامام مازال يتصعد درجات الكمال حتى إنه ليخيل للناظر في كتابات هذا العصر أنه بين أولئكم الاعراب البائدين أو العباسيين المتحضرين حسب اختلاف درجات الكتاب . وقد توافقت آراء الكاتبين على أن أقوم طريق الى الكتابة النظر في كلام العرب وحفظ الجيد منه والنسج على منواله . وإنا نجد أحسن كلام في جزالة الالفاظ ومتانة الاسلوب وعلو المعنى كتاب الله تعالى وحديث رسوله وانا نحفظ الكتاب و كثيرا من السنة ومع ذلك أرانا لانجيد شيئا من الكتابة بل لم نصل فيها الى الدرجة الوسطى من ذلك . وقد بلغنا أن بعض النصارى كان يحفظ القرآن لهذا الغرض

وينتفع به فبأي عين نظر اليه ذلك النصراني حتى انتفع به وما بالنا ضللنا هذا الطريق في حين أننا أولى به؟ وكم من رجل ماحفظ شيئا من القرآن ولا عرف شيئا من السنة غير أنه زاول كثيرا من اللغة العربية هو قليل بالنسبة لكتاب الله وسنة رسوله و بهذا طال باعه فيها وذهب فيها مذاهب آبائها الاولين . فاللهم هيء لنا مايرشدنا الى الصواب . وإنا نرجو الاهتداء بهديك والاستنارة بمنارك ان شاء الله فأجبنا عن ذلك وما السبب فيه على صفحات المجلة لفائدة القراء ولكم الشكر

محمد أحمد عليوه

(ج) كان الناس في أول العهد بالنهضة العلمية والادبية التي جددها الاسلام للعرب يطلبون اللغة العربية من أهلها بالتلقي والمشافهة ، ولما سرت العجمة الى الامصار العربية بكثرة مخالطة العرب للعجم فيها صار أبناء العرب ومواليهم من العجم يرحلون الى الاعراب في البوادي فيقيمون عندهم زمنا طويلا يتلقون عنهم العربية الخالصة من شوائب العجمة، ويحفظون أشعارهم ويروونها كما يحفظون ويروون الكتاب والسنة ، فيتلقاها عنهم طلاب العلم والآداب في الامصار ، بالرواية والدراية والاستظهار ، ولما استنبطوا منها الفنون لاجل ضبطها وفهمها ، و بيان أسرارها وفلسفتها ، صاروا يتدارسون هذه الفنون في المساجد والدور والقصور مع تطبيق قواعدها على الشواهد من الكتاب العزيز والسنة ، وأقوال العرب وأشعارهم المحفوظة ، فيجمعون بين ملكة اللغة وذوقها ، و بين فنونها وفلسفتها، ومنهم من كان يضم الى ذلك العلوم الشرعية ، والعلوم العقلية والكونية ، ولا يحول رسوخ ملكاتهم في العلوم والفنون، دون رسوخ ملكة اللغة في منثور ولا منظوم ، وقد انسلخ القرن الخامس للهجرة والعلماء البلغاء كثيرون، حتى اذا ماتغير منهج التعليم ، وأسلوب التأليف، وقل الحفظ والحفاظ، وكثر الاختصار في الكتب وما اقتضاه من البحث في الالفاظ، ضعفت ملكة اللسان ، وسقطت مكانة البيان ، وصار جهابذة علماء الشرع واللغة ، والمصنفون في فنون الفصاحة والبلاغة ، لايستطيعون التفلت من عقل اصطلاحات علومهم وفنونهم البعيدة عن الاسلوب العربي، الا الى اسجاع متكلفة ، أوعجمة أو عجرفة ، ومن شاء قايس بين عبارة الزمخشري في الكشاف وعبارة الفخر الرازي

في التفسير الكبير ، و بين عبارة عبد القاهر في أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز، وعبارة السعد التفتازاني في المطول والمختصر ، فاذا كانت عبارة العلامة التفتازاني في دقتها وتحريرها ، ناشئة عن براعة عبارة الامام الجرجاني في فصاحتها ورشاقة أسلوبها ، واذا كانت عبارة الامام الرازي على بسطها وايضاحها ، تكاد تعد ركاكة عامية في جنب عبارة العلامة الزمخشري في متانتها وعلو أسلوبها ، فما القول في المتأخرين الذين يعدون منتهى العلم الاستعداد لفهم كلام مثل الرازي والتفتازاني ، بل القدرة على المناقشة فيه ، وايراد الاحتمالات والاجوبة في معانيه ؟

أتى على الامة العربية بضعة قرون وهي في تدلّ وضعف في اللغة، لا يمضي عليهم قرن ولا عام الا والذي بعده شر منه ، وما سببه الا تنكب سبيل الاولين في حفظ الكثير من الكلام العربي الحر الفصيح وفهمه ، ومعارضة أسلوبه في نثره ونظمه ، فكان اذا اتفق لاحد منهم ذلك بإلهام الفطرة ، أو إرشاد أحد من بقية أهل المعرفة ، فصار كاتبا بليغا ، أو خطيبا مفوّها ، أوشاعرا مجيدا ، أحال الباحثون ذلك على ندور في الاستعداد ، يكاد ينتظم في سلك خوارق العادات ، حتى إن ذلك النابغ نفسه يظل غافلا عن السبب ، دع من كان بعيداً عنه أو كان منه على كثب

بلغ الجهل من أكثر أهل هذه القرون بهذه المسألة كل هذا ولم تكشفه عنهم سيرة سلفهم ، ولا ما يؤثر من العلم وطريقة التعليم عنهم ، ولا ماشرحه الحكيم عبد الرحمن بن خلدون في القرن الثامن في ذلك وفي هذه المسألة بخصوصها عند الكلام على اللغة العربية وفنونها وآدابها ، وتحصيل ملكة البيان فيها ، فقد وفاها حقها في اثني عشر فصلا من مقدمته المشهورة وهي الفصل السابع والثلاثون وما بعده الى الخمسين، ذلك بأنه كتب ما كتب والامة في طور يقل فيها من يقرأ مقدمته فيفقه و يعتبر، ولم يكن كل من يفقه بالذي يقدر على تلافي الخطب، والسير بالامة في الطريق القصد ، وقد استبد بأمر الامة الاعاجم الجاهلون ، وقل العلماء المستقلون وساد المقلدون .

أما هذه النهضة الاخيرة فقد كان حكيمنا السيد جمال الدين مقتدح زنادها ، وشيخنا الاستاذ الامام قائد جيادها ، ولكن السائل بالغ في اطراء المعاصرين من كتابها ، فنظمهم في سلك الاولين ، من الفحول المقرمين ، وما هم عيال على بعض

المولدين ، على قلة ما يحفظون من المفردات ، وكثرة ما يخطئون في المركبات :

وأما سؤاله عمن حفظ القرآن من النصارى استعانة به على تحصيل ملكة البلاغة — وهم ثلة من المتقدمين ، وأفراد من المتأخرين ، — بأي عين نظروا اليه وكيف صار بعضهم بليغاً دون كثير ممن حفظه من المسلمين وأضاف اليه شيئاً من الاحاديث ؟ فجوابه أنهم نظروا اليه بعين طالب الفصاحة والبلاغة ، لا بعين طالب الدين والهداية ، والامور بمقاصدها ، وانما يستفيد كل أمرئ من كل شيء مفيد بقدر ماتتوجه اليه ارادته من فوائده ، وتحصيل ملكة البيان في العربية لاتتوقف على حفظ القرآن الكريم ، ولكن حفظه يكون مزيد كمال فيها لمن حفظه وقصد منه ذلك ، لانه أبلغ الكلام العربي وأعلاه أسلوبا ، وان كان أسلوبه معجزا لايمكن أن يحتذى مثاله ، ومن حفظه لا يقصد ذلك منه لا يستفيد شيئا من بلاغته ، كما انه اذا لم يقصد الاهتداء به لا يستفيد من هدايته ، ومن هنا تعلم أن حفظه وحده لا يكفي في تحصيل ملكة البيان في اللغة العربية ، بل يتوقف ذلك على ممارسة الكثير من كلام بلغاء العرب في العهدين الجاهلي والاسلامي أو العهد الثاني فقط ، وان هذه الممارسة هي الاصل في تحصيل ملكة البيان لانها هي التي تحتذى وقدر القرآن الكريم أو ضعفه لا يكفي خلافا لما تظهره عبارة السائل وماقيل في القرآن يقال مثله في الاحاديث النبوية وان كان أسلوبها غير معجز ، وذلك ان المحفوظ منها قليل ، واكثرها جمل مختصرة ، فلا تنطبع في نفس حافظها ملكة التصرف في جميع الاغراض والمعاني .

ومن لم يقصد استفادة البلاغة منهما لم يستفد منها شيئا . وان من حفاظ القرآن عندنا من لاقصد لهم من حفظه الا تجويد ألفاظه وتوقيع آياته على الانغام الموسيقية ليعجبوا أو يطربوا من يستأجرونهم لقراءته في المآتم أو ليالي رمضان ، ومن الناس ممن لاينظر فيه الا بقصد البحث عن آية يمكن التشكيك فيها ، بحملها على غير ماأريد منها ، ولا يعجزه أن يجد ذلك ، وقد ذم بعض الشعراء وجها أبيض أزهر فشبهه بوجه الحيوان ، وذم ابن الرومي الورد فشبهه بما تنزه عنه هذا الكلام . « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى »

رحلة الحجاز

٥

مقامنا بمكة قبل الحج

تقدم انني دخلت مكة ضحوة يوم الاحد (وهو الثالث من أيام ذي الحجة بحسب تقاويم مصر وهو ما ثبت لدى حكومة مكة بعد وكانوا يعدونه الرابع في تقاويمها) وانني كنت متمتعا بالعمرة الى الحج ، وانني لم أتجاوز يوم الاحد دار السيد الزواوي التي جئتها بعد الطواف والسعي الا مساء اذ جئت المنزل الذي أعد لي من قبل الامير أحسن الله كرامته ، وانني لم أخرج منه الا ليلا بعد وصول السيدة الوالدة والرفاق الى قصر الامير للتشرف بزيارته . ولقيت في القصر نجله النجيب صديقي الشريف عبدالله ، وليس في مكة من أنجاله النجباء سواه ، اذ كان قد وجه الامراء الثلاثة عليا وفيصلا وزيدا الى فتح المدينة المنورة والامير عبدالله الى فتح الطائف — وتقدم ان فتح الطائف قد تم على يديه قبيل قدومنا ، وانه دخل مكة منصرفا عنها في وقت دخولنا

وفي اليوم الثاني وهو يوم الاثنين رابع ذي الحجة علم الناس بوصولي الى مكة مع الحجاج المصريين ، وذكرته جريدة القبلة في عددها الخامس عشر الذي صدر فيه ، فأقبل الكثيرون من الشرفاء والعلماء والوجهاء لزيارتنا وفي مقدمتهم الامير الشريف عبدالله وبعض من يشار اليهم بعد ، وبقينا الى يوم التروية وهو يوم الجمعة ثامن ذي الحجة لا عمل لنا الا عبادة الله تعالى وأخصها التطوف ببيته، والا لقاء الناس في الدار وفي الحرم والاستفادة من مذاكراتهم .

وقد كنت مدة إقامتي بمكة ضعيف البدن بنزف دم كان قد عرض لي لم يسبق لي مثله، فكنت لا أستطيع الطواف الا في وقت الاصيل ووقت السحر، وثقل علي الحر على أنه لم يكد يتجاوز الدرجة ٣٥ من ميزان سنتكراد الا قليلا ، ولم اكن أجد راحة في جسمي الا حيث كانت راحة روحي، وما ذاك الا في الحرم الشريف . ولا يوجد في بطن مكة مكان كالحرم يتخلله الهواء لسعته وكثرة الفجاج الموصلة اليه من

الجهات الاربع . ولولا أن وصفه مبين بالتفصيل في كتب المتقدمين والمتأخرين من المؤرخين والرحالين لوصفته في هذه الرحلة الوجيزة . وكنت أصلي الفجر كل يوم بجانب مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام وعلى آله الكرام ، وأصلي المغرب والعشاء في الجانب الشرقي من الحرم مع صديقنا الشريف أبي نمي الذي يعشق فضله وأخلاقه كثير من فضلاء المصريين ، اذ عرفوه باقامته في القاهرة عدة سنين ، وكانت داره في مصر بجوار دارنا من شارع درب الجماميز ، واتفق ان زاويته في جدار الحرم الشرقي بالقرب من باب ابراهيم — وكذا داره — فهي بجوار المنزل الذي أنزلنا فيه كما علم مما تقدم . وكان خدمه يفرشون له في كل أصيل سجادة أو سجادتين تجاه زاويته حيث يصلي مع بعض أصحابه وكنت أنا والسيد الزواوي منهم ، وكنا نجيئه في الاصيل ونخرج بعد صلاة العشاء

لم أجد قوة على رد الزيارة على كل من زارني ولم أتمكن من احصائهم ، فنويت ان أرجئ النظر في ذلك الى ما بعد الانتهاء من أعمال النسك ، ولكنني زرت فوزي بك البكري من سروات دمشق الشام في داره وعبد العزيز بك المصري في منزله وكلا من الشيخ كامل قصاب أحد علماء الشام ومحب الدين افندي الخطيب وفؤاد افندي الخطيب في ادارة جريدة القبلة وكلهم يعملون فيها ، وكثر التلاقي بيني وبين هؤلاء والحديث معهم في الشؤون السياسية الحاضرة ، وتعرف أخبار الحجاز منهم .

ولم أدخل دار أحد من المكيين زائرا الا زاوية الشريف أبي نمي ودار الشيخ محمد صالح الشيبي فاتح بيت الله الحرام (ورئيس مجلس الشيوخ في الحكومة الجديدة كما يأتي) ثم لم يتيسر لي بعد الحج زيارة أحد ممن زارني كما يعلم مما يأتي الا نائب الشرع الشريف الشيخ يونس افندي فانني زرته في المحكمة الشرعية وكنت عرفته مجاورا في رواق الشوام بالازهر إذ كان يحضر دروس الاستاذ الامام ، وزرت الشيخ عبد الملك الخطيب من أدباء مكة قبل السفر منها بيوم واحد . وكنت أود أن أزور الشيخ عبدالله سراج قاضي القضاة ووكيل رئيس النظار في الحكومة الجديدة وأخلو به في داره ساعة للمذاكرة في الشؤون الحجازية فلم أجد فرصة لذلك ، وكان قد تفضل بزيارتي في دار الضيافة الهاشمية وأثنى لي على تفسير المنار وطلب

مني جميع ماطبع منه . وقد رأيت أنه فى أقرب منزلة من ثقة الامير وقلما جئت قصر الامارة الا ورأيته معه أو منتظرا لقاءه

وأما الشيخ الشيبي فهو كبير بني شيبة حَجبة الكعبة المعظمة ووارثي مفتاحها في الجاهلية والاسلام ، وبيتهم من أكبر بيوت قريش بعد بيوتات الهاشميين عامة والعلويين منهم خاصة ، وهم ينسبون الى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ، وهو ابن عم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة الصحابي الذي فتح باب الكعبة للنبي (ص) يوم الفتح ودخلها معه كما في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة والسير والتاريخ . وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر قال : أقبل رسول الله (ص) عام الفتح على ناقة لأسامة بن زيد حتى أناخ بفناء الكعبة ثم دعا عثمان بن طلحة فقال « ائتني بالمفتاح » فذهب الى أمه فأبت أن تعطيه فقال : والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبي (يعني أنه يقتل نفسه بطعن بطنه به حتى ينفذ من ظهره) قال فأعطته إياه فجاء به الى النبي (ص) فدفعه اليه ففتح الباب . وظاهر هذه الرواية ان النبي (ص) هو الذي فتح الباب ، وورد التصريح بذلك في رواية عنه أيضا سندها ضعيف في تاريخ مكة للفاكهي قال (أي ابن عمر) كان بنو أبي طلحة يزعمون أنه لا يستطيع أحد فتح الكعبة غيرهم فأخذ رسول الله (ص) المفتاح ففتحها بيده . ولكن روى عنه البخاري من طريق فليح انه قال : وقال لعثمان « ائتنا بالمفتاح » فجاءه بالمفتاح ففتح له الباب فدخل . وفي هذه الرواية أيضا انه كان مردفا لاسامة على القصواء وهي ناقته (ص) وفي رواية أخرى للبخاري وغيره انه (ص) أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفا أسامة بن زيد الحديث. وقال الحافظ في الفتح : روى عبد الرزاق والطبراني من جهته من مرسل الزهري ان النبي (ص) قال لعثمان يوم الفتح « ائتني بمفتاح الكعبة » فأبطأ عليه ورسول الله (ص) ينتظره حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ويقول « ما يحبسه ! » فسعى اليه رجل وجعلت المرأة التي عندها المفتاح وهي أم عثمان واسمها سُلافة بنت سعيد تقول ان أخذه منكم لا يعطيكموه أبدا ، فلم يزل بها حتى أعطت المفتاح فجاء به ففتح ثم دخل البيت ثم خرج منه فجلس عند السقاية. فقال عليّ إنا (يعني بني هاشم) أعطينا النبوة والسقاية والحجابة ، ما قوم بأعظم نصيبا

منا . فكره النبي (ص) مقالته ، ثم دعا عثمان بن طلحة فدفع المفتاح اليه . ثم قال الحافظ : وروى ابن عائذ من مرسل عبد الرحمن بن سابط (وهو ثقة) ان النبي (ص) دفع مفتاح الكعبة الى عثمان فقال « خذها خالدة مخلدة ، اني لم أدفعها اليكم ولكن الله دفعها اليكم لا ينزعها منكم الا ظالم » ومن طريق ابن جريج ان عليا قال للنبي (ص) أجمع لنا الحجابة والسقاية فنزلت (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها) فدعا عثمان فقال « خذوها يابني شيبة خالدة تالدة لا ينزعها منكم الا ظالم » ومن طريق علي بن أبي طلحة ان النبي (ص) قال « يابني شيبة كلوا مما يصل اليكم من هذا البيت بالمعروف » اه

والظاهر ان ذكر بني شيبة ههنا غلط من النساخ صوابه يابني أبي طلحة ، فان عثمان بن طلحة هذا هو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة كما تقدم وكانوا كلهم يدعون بني أبي طلحة نسبة الى جدهم أبي طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عثمان ابن عبدالدار بن قصي . وقد ذكر الحافظ في ترجمة كل من عثمان بن طلحة وابن عمه شيبة بن عثمان من تهذيب التهذيب من عبارة الاصل عن مصعب الزبيري ان النبي (ص) دفع المفتاح اليهما معا وقال « خذوها يابني أبي طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم الا ظالم » وذكر عن ابن سعد عن هوذة بن خليفة عن عوف عن رجل من أهل المدينة : دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عام الفتح شيبة بن عثمان فأعطاه المفتاح وقال « دونك هذا فأنت أمين الله على بيته » وذكر الحافظ هذين الحديثين في ترجمة شيبة من الاصابة أيضا ثم قال : وذكر الواقدي ان النبي (ص) أعطاها يوم الفتح لعثمان وان عثمان ولي الحجابة الى ان مات فوليها شيبة واستمرت في ولده اهـ وهذا هو الصواب ، وقد استمرت في ولده الى اليوم وبهذا حفظ نسبهم ، وعظم حسبهم ، وقد نزعها منهم بعض أمراء مكة ثم عادت اليهم كما يؤخذ من بعض كتب التاريخ

أقول ولاهل هذا البيت أن يفخروا على جميع الناس بهذه الوظيفة القديمة الثابتة من قبل الاسلام ، التي أقرها الله تعالى ورسوله لهم في محكم القرآن ، وبأن اقرارها لهم كان سبب نزول تلك الآية العظيمة التي هي قاعدة أصول الاحكام ، وعليها مدار اصلاح الانام ، وهي قوله تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها

واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) كما تقدم آنفاً

وذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور من تخريج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج ، بمعنى ما تقدم وفيه أنه قال وقال عمر بن الخطاب : لما خرج رسول الله (ص) من الكعبة وهو يتلو هذه الآية فداؤه أبي وأمي ماسمعته يتلوها قبل ذلك . وذكر هو والحافظ ابن كثير رواية طويلة في هذا المعنى عن ابن عباس أخرجها ابن مردويه عنه من طريق الكلبي عن أبي صالح وفيها ان العباس (رض) حاول أخذ المفتاح وطلب من النبي (ص) أن يجعل له الحجابة مع السقاية فأنزل الله الآية في ذلك . قال الحافظ ابن كثير بعد ذكر هذه الرواية : وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك ، وسواء كانت في ذلك أولا فحكمها عام اه وذكر علماء الحديث والسير أن عثمان بن طلحة أسلم في هدنة الحديبية هو وخالد بن الوليد وهاجرا وان شيبة أسلم عام الفتح

الشيخ محمد صالح الشيبي

هذا وانني لم أر فيمن رأيت رجلا تمثل رؤيته فصلا من تاريخ قريش في الجاهلية والاسلام وتاريخ بيت الله الحرام الا كبير الشيبيين الشيخ محمد صالح . وهو رجل جليل المنظر لطيف المعاشرة ، حسن المفاكهة ، له مشاركة في العلوم الاسلامية ، والآداب العربية ، وحظ من المدنية العصرية ، ورأيته على مشربي في العناية بأمر الماء النقي البارد ، فهو لا يشرب من ماء عين زبيدة التي يشرب منها أهل مكة بل يستعذب له الماء من بئر في ضواحيها — كما كان يستعذب الماء من آبار السقيا للرسول الاعظم ، صلى الله عليه وعلى اله وسلم ، — ويثلج له الماء في داره ، وعنده روايا افرنجية من نوع الترمس الاسطواني المشهور يحمل له فيها الماء المثلوج مع قطع من الجليد المصنوع اذا خرج هو منها الى سفر قريب كعرفة أو جدة . وقد أقام في الاستانة زمنا وهو يعرف اللغة التركية

رخاء المعيشة بمكة

وعلى ذكر الثلج أذكر من خبر رخاء المعيشة في مكة المكرمة ان أهل هذا البلد الامين يتمتعون أبدا بدعاء ابراهيم صلى الله عليه وآله وسلم الذي حكاه الله عنه في قوله (وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) ودعائه ان يبارك الله لهم في اللحم عند مازار بيت

اسماعيل بمكة بعد زواجه الثاني كما ثبت في حديث ابن عباس عند البخاري الذي ذكرنا القسم الاول منه في بيان حكمة السعي بين الصفا والمروة من هذه الرحلة . فاللحم في مكة كثير رخيص وهو جيد شديد السمن، والثمرات والخضر فيها كثيرة رخيصة أيضاً على أنهم يرفعون أثمان كل شيء في موسم الحج . وقد كنا في دار الضيافة الهاشمية تستطاب لنا ألوان اللحم والخضر في كل غداء وعشاء ، ولكن كان يغلب عليّ وعلى الوالدة والشقيقة الإقواء، [1] فرغبتنا في الطعام كانت ضعيفة ، ولولا عنب الطائف ورمانها الجيدان لما طابت لنا المعيشة ، وكان لدينا طاه يحسن الطبخ على الطريقتين المكية والتركية ، ثم استحسنت الوالدة أن تتولى الطبخ لنا احدى الجاريتين اللتين خصصتا للخدمة المنزلية ، وأما الثلج أو الجليد فقد قيل لنا انه كان له معمل في مكة وقد كسر وتعطل . ووجدنا بعض الهنود هنالك يعملون قطعا صغيرة من الجليد يجمدونها في قوالب من الزنك و يبيعونها بأثمان غالية جدا لمعتادي شرب الماء المثلوج كالشيخ الشيبي فكنت أشتري منهم كل يوم، اذ لم أجد ماء كبزان الفخار مقبولا وان كنا في شهر الميزان ، خلافا للمثل الحجازي القائل : اذا دخلت الشمس في الميزان، يبرد الماء في الكيزان .

وقد ذكر الرحالة محمد بن جبير الاندلسي في رحلته ما وجد في مكة من الثمرات والبقول كما ذكر غير ذلك من خيراتها وتحفها ، قال : وأما الارزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن ان الاندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل ، والخوخ والاترج والجوز والمقل ... الخ ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل وكل فواكهها عجب لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة ، وذلك لان رائحته من أعطر الروائح وأطيبها ، يدخل به الداخل عليك ، فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك ، فيكاد بشغلك الاستمتاع بطيب رياه ، عن أكلك إياه ، حتى اذا ذقته خيل اليك انه شابه بسكر مذاب ، أو بجنى النحل اللباب، الخ واطنب في وصف جودة اللحم وسمنه ولينه وسهولة هضمه ، وهو كما قال ، ونحن لم

(١) الاقواء فقد شهوة الطعام

ندرك كل ما أدرك من الثمرات فانه جاء مكة في قلب الصيف من سنة ٥٧٩ وبقي فيها الى أواخر الشتاء . والبطيخ الاصفر الذي أدركناه دون النوع الجيد منه في مصر المعروف بالشمام

﴿ الاحرام بالحج وشد الرحال الى عرفات ﴾

صلينا الجمعة يوم التروية وهو ثامن ذي الحجة[1] في الحرم الشريف وفي ليلة السبت شددنا الرحال الى عرفات محرمين بالحج ، وقد قال لي صديقنا السيد الزواوي في صبيحة ذلك اليوم : ان سيدنا الامير أيده الله تعالى قد كان استحسن أن نخرج معه الى عرفة وتكون في صحبته هنالك وفي منى الى أن تعودوا الى مكة، ولما ذكر لي ذلك مستشيرا فيه ذكرته بوجود والدتكم معكم، وقلت لعل الاولى أن يخرج في خدمتها لان ذلك آنس لها وأقر لعينها ومزيد ثواب له، فاستحسن ذلك ، وأمرني بتجهيز الرواحل والمؤنة وسائر مايلزم وأمر بصرف عشرين جنيها لنفقة عرفة خاصة ، وقد عهدت الى ابراهيم (هو وكيل الخرج والمتولي أمر خدمتنا) باختيار جمال قوية جيدة لكم والجمال في هذه العام قليلة جدا لكثرة مامات منها قبل الثورة لقلة العلف، ولو كان الحاج كثيرا كالعادة لما وجد من الجمال مايكفيه ، وقد وصلت أجرة الجمل الواحد الى عرفة ذهابا وإيابا الى عشرين ريالا مجيديا ، ولولا ان سيدنا الامير حفظه الله أمر عسكر البيشة بجلب الجمال من الاعراب ولو بالقوة لتعذر على بعض الحجاج أن يجدوها الا باجرة فاحشة

هذا ملخص ماقاله السيد الزواوي ، فشكرت لسيدنا الامير كرمه وفضله ودعوت له بالتوفيق والتأييد ، ثم للسيد عنايته بنا هو ونجله السيد عبد الرحمن ، وتعاهدهما ايانا بكل مانحتاج اليه في كل يوم بل في كل آن ، وكانت هذه العناية على أتمها عند الحل والترحال ، ففي أصيل هذا اليوم — يوم التروية — جيء بالرواحل الى حوش الدار ، وتولى وكيل الخرج ووالده شد الشقادف وفرشها بنظر السيد عبد الرحمن وارشاده، ثم ركبنا في وقت العشاء، فكانت السيدتان الوالدة والشقيقة

(١) سمي بذلك لانهم كانوا يروون فيه ابلهم ويحملونها الماء الكثير لعدم وجوده في عرفة

في أحسن الهوادج ومعهما غزلان الجارية جلست بينهما لخدمتهما ، وركبت أنا ومحمد نجيب أفندي في شقدف ، وركب وكيل الخرج مع الاستاذ الشيخ خالد في شقدف ، وركب والد وكيل الخرج الجمل الذي يحمل الخيام والاثاث والماعون والمؤنة ، وركب السيد عبد الرحمن دابة فارهة، وسرنا الهوينا في أسواق مكة قاصدين عرفة بعد أن أحرمنا جميعا وأهللنا بالحج من منزلنا ، إلا الذي ذهب بالخيام والماعون فانه سبقنا ، وتأخر عنا السيد الزواوي الكبير ثم أدركنا ، وبعد سرى نحو من ست ساعات ، وصلنا الى حيث ضربت خيامنا من عرفات ، وذلك بالقرب من موقف النبي (ص) حيث مسجد الصخرات ، (وسيأتي قريبا بيان هذا الموقف) ولم يكن في استطاعتنا ان نتبع سنته (ص) في السير بأصحابه الى عرفة

كان من لم يسق الهدي من الصحابة الذين كانوا مع النبي (ص) في حجة الوداع قد قلبوا حجهم الى عمرة بأمره (ص) وبعد طواف العمرة وسعيها قصروا شعورهم وتمتعوا الى يوم التروية . وكانوا نازلين في خارج مكة ، فلما خرجوا معه (ص) فيه الى منى أهلوا بالحج من الابطح — وهو ما انبطح من الارض في أول طريق منى ما بين الجبلين الى مقبرة مكة (المعلى) ويسمى البطحاء والمحصب — وقد صلى النبي (ص) الظهر والعصر يوم التروية بمنى وبات فيها ليلة عرفة وانما رحل منها بعد طلوع الشمس ففي ذلك عدة سنن لم تتيسر لنا . والخروج في كل وقت من يوم التروية مباح ، وكره مالك التقدم اليها قبله والتأخر عنه الا أن أدركه وقت الجمعة بمكة فيصليها فيها كما فعلنا . وروى ابن المنذر أن عائشة لم تخرج من مكة يوم التروية حتى دخل الليل وذهب ثلثه . اه من نيل الاوطار

صفة الطريق مكة الى عرفات

خرجنا من الدار وهي غربي الحرم بقرب بابه المعروف بباب ابراهيم [1] فسرنا في الشارع الكبير ، مائلين يمينا الى جهة الجنوب الشرقي حيث يكون الحرم الشريف عن يسارنا ويسمى ذلك الموقع بالسوق الصغير ، ويليه من الشارع جياد وفيه معاهد الحكومة

(١) ابراهيم الذي أضيف اليه هذا الباب مزين كان هناك ويظن بعض الناس أن المراد ابراهيم الخليل (ص) وممن اغتر بظاهر التسمية الرحالة ابن جبير فظن ذلك

والمطبعة والتكية المصرية ، ويليه شارع المسعى حيث يكون السعي بين الصفا والمروة ، فالقشيشية فسوق الليل الذي كان فيه ميلاد النبي الاعظم، صلى الله عليه وآله وسلم ، وهنالك يتحول السائر في الطريق الى جهة الشمال فيمر بالغزة وفيها قصر الامارة عن يمينه ، فالنقا فالسليمانية عن يساره ، وهذا القسم الشمالي من مكة واقع بين جبل أبي قبيس من جهة الشرق وجبل قعيقعان وجبل الهندي من جهة الغرب، ودونهما جبل لعلع الصغير عند النقا

ومتى جاوز الخارج من مكة عمرانها من هذا القسم يرى عن يساره مقبرتها المعلاة أو المعلى وفيها قبر السيدة خديجة أم المؤمنين ، وجدة آل البيت الطاهرين ، عليها وعليهم السلام ، وهذه الجهة هي أعلى مكة وتسمى الحجون (بفتح الحاء المهملة) التي قال فيها الحارث بن مُضاض الجرهمي :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العوائر

ويدخل فيها من ثنية كداء [1] التي دخل منها رسول الله (ص) مكة عام الفتح وفي حجة الوداع وهي في أعلى الجبل الذي على يسار المار الى المقبرة، ويقال لثنية كداء الثنية العليا ، وللثنية الاخرى التي دخلنا منها الثنية السفلى وتسمى كدى (بالضم والقصر) ومنها خرج النبي (ص) من مكة ، وهي بقرب شعب الشاميين من ناحية جبل قعيقعان . وهناك باب الشبيكة المشهور بعد جرول .

ووراء المعلى في طريق منى مكان يسمى البياضية مطلق الهواء، فيه قصور لبعض الشرفاء . ومن هناك يتحول طريق منى الى الشرق ، وهو واد يختلف عرضه من مئتي ذراع بذراع الآدمي الى ألف ذراع بالتقريب ، وتختلف أسماؤه باختلاف المواقع ، وأشهرها وادي المنحنى الذي قال فيه ابن الفارض

مابين ضال المنحنى وظلاله ضل المتيم واهتدى بضلاله

ويليه وادي السلم بفتح السين واللام ويذكر كثيرا في أشعارهم . والضال هو

(١) الثنية بوزن قضية الطريق في العقبة أو العقبة المسلوكة . وقال الراغب الثنية من الجبل مايحتاج في قطعه الى صعود وحدور، والعقبة الطريق الوعر في الجبل . وكداء بفتح الكاف والمد .

البري من شجر السدر وهو ذو شوك ونبقه صغير ، والسلم الشجر الذى يسمى ورقه القرظ ويدبغ به ، وهما من أشجار تلك البلاد.

وأول منى العقبة التى فيها الجمرة المنسوبة اليها وسيأتى ذكرها . والمسافة بين مكة ومنى فرسخ واحد أي ثلاثة أميال كما قالوا ، ففى معجم البلدان لياقوت : منى بالكسر والتنوين في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار يسمى بذلك لما يمنى فيه أي يراق من الدماء — أي دماء الانعام للنسك — الى أن قال : وهي بليدة على فرسخ من مكة طولها ميلان تعمّر أيام الموسم وتخلو بقية السنة الا ممن يحفظها ، وقلّ أن يكون للاسلام بلد مذكور الا ولاهله بمنى مضرب اه والمراد بالمضرب المكان الذي تضرب فيه خيام الحاج . وهذه الطريق يقطعها راكبو الخيل وكذا الحمير في ساعة واحدة وراكبو الابل في ساعتين . وحد منى من العقبة التي فيها جمرة العقبة الى بطن محسر (بكسر السين المشددة) كما سيأتي . والغالب فيها التذكير والصرف ، وقد تؤنث على الاصل في أسماء البقاع وتمنع من الصرف

والوادي بين منى والمزدلفة يسمى وادي المنار ، وتسمى المزدلفة جمعا أيضا ويكثر هذا الاسم في الاخبار والآثار والاشعار ، وهي المشعر الحرام عند الجمهور أو هو جبل قزح فيها ، قال تعالى (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) أي في المزدلفة فهي عند الجبل . والمسافة بينها وبين منى من نهاية حدها الشرقي نصف ساعة لركاب الخيل أو الحمير الفارهة وساعة أو ساعة وربع لراكبي الابل . وسميت جمعا لجمعها الناس في ليلة النحر ، والمزدلفة من الازدلاف وهو الاقتراب اما للتقرب الى الله بذكره فيها أو للازدلاف اليها من منى بعد الافاضة من عرفات . وقيل ان آدم وحواء تعارفا في عرفة واجتمعا في المزدلفة وسيأتي الكلام على المبيت فيها للنسك .

والمسافة بين المزدلفة وعرفات ساعة ونصف على الدواب ويمكن قطعها بأقل من ذلك ، وثلاث ساعات للابل . وبين المزدلفة وعرفة مضيق الاخشبين ووادي نمرة وبطن عرنة . وقال العلماء ان المسافة بين مكة وعرفة تسعة أميال تقريبا ، نقله الزبيدي شارح القاموس والاحياء ، ولكنه ذكر عند الكلام على نمرة أنها على مسافة أحد عشر ميلا

وفاة الشيخ سليم البشري

شيخ الازهر

في الضحوة الكبرى من يوم الجمعة لاربع خلون من شهر ذي الحجة الحرام توفى الاستاذ الاكبر الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الازهر عن عمر ناهز المئة سنة وقيل جاوزها ، وكان قبل يومين من وفاته سليما معافى، وقد نعته ادارة المعاهد العلمية في الازهر الى رؤساء الحكومة والجرائد اليومية بما نصه :

« أصيب المسلمون في مصر بفقد شيخ المسلمين وكبير علماء الدين حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الازهر ورئيس المجلس الاعلى للمعاهد العلمية والدينية الاسلامية »

« توفى الى رحمة الله قبيل ظهر اليوم (الجمعة ٢١ سبتمبر سنة ١٩١٧) بعد مالزم الفراش يومين كان من قبلهما ينهض باعباء المعاهد الدينية ويلقي دروسه العالية في الازهر بعزم قوي لاتنال منه الشيخوخة ولا يدركه هرم

«وستشيع جنازة الفقيد غدا السبت ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٧ الساعة ١١ صباحا من محطة كبري الليمون مارة بشارع كامل فشارع الموسكي الى الجامع الازهر حيث يجتمع وفود المشيعين من العلماء والطلاب وغيرهم للصلاة عليه . ثم تسير الجنازة الى مدافن السادات المسالكية بقرافة الامام مارة بشارع الغورية فشارع المغربلين فشارع محمد علي ويلقي صاحب العزة حافظ ابراهيم بك على قبر الفقيد مرثاة من نظمه .

« أحسن الله عزاء المسلمين في فقيدهم الجليل وتولاه برضوانه ورحمته »

كانت وفاته في داره بالحلمية من ضواحي مصر وبدىء الاحتفال بتشييع جنازته في الوقت الذي ذكر في النعي وقد وصفت ذلك جريدتا الاهرام والمقطم بالتفصيل ، قالت الاهرام :

« فجيء بالجثة من الحلمية الى كبري الليمون بقطار خاص يصحبها أنجال الفقيد وأحفاده وآله وجمهور من العلماء والاعيان . وكان في انتظارها في محطة كبري الليمون نفسها من الداخل جمهور عظيم من كبار العلماء والموظفين الملكيين والعسكريين

والاعيان والتجار والمحامين يتقدمهم حضرة صاحب السعادة حسن عبد الرازق باشا وكيل الديوان العالي السلطاني بالنيابة عن صاحب العظمة السلطانية والكولونل ر.ف هربرت بالنيابة عن القومسير العالي البريطاني وحضرة صاحب المعالي ابراهيم فتحي باشا وزير الاوقاف العمومية بالنيابة عن رئيس الوزراء والميجر هـ . م جريفس أحد أركان الحرب في الجيش البريطاني بالنيابة عن القائد العام فاللواء السيد علي باشا مساعد الادجوتانت الجنرال بالنيابة عن وزير الحربية فالقائمقام ادواردس بك بالنيابة عن سردار الجيش فحضرة صاحب المعالي محمود شكري باشا رئيس الديوان العالي السلطاني فحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية»

(ثم ذكرت وكلاء الوزارات باسمائهم وكبار الموظفين والوجهاء بالاجمال وخيالة البوليس فجمهور الطلاب الازهريين وطلبة مدرسة القضاء الشرعي ومدرسة ماهر باشا)

ثم وصفت الجريدة السير بالجنازة الى الازهر والصلاة عليها فيه وتأبين الفقيد كما بلغت ، ومنه ان المؤذنين كانوا يرتلون في المآذن التي مرت فيها الجنازة — وكذا في صحن الازهر — آيات الابرار أي الآيات التي وردت في وصفهم من سورة الانسان وهي قوله تعالى (ان الابرار يشربون من كاس كان مزاجها كافورا) الخ

وأقول ان هذا من البدع الخاصة بكبار رجال العلم الديني ومن ينزلونه منزلتهم ولذلك يظن الكثير من غير المسلمين ومن المسلمين الجاهلين الذين لا يعرفون السنن والبدع أنه من شعائر الدين . وللمؤذنين في قراءة هذه الآيات طريقة رديئة لو لم تكن قراءتها والاجتماع لها في المآذن والمساجد بدعا لكانت هذه الطريقة في التلاوة كافية في وجوب الانكار عليهم ووجوب منعهم من ذلك على القادر . ذلك أن يقطعون الآيات قطعا يقرأ بعضهم كلما منها يسكت في غير مواضع الوقف منها فيتم بعض آخر ما بدأ كما يفعل الممثلون للقصص في الملاهي ، فيفصلون بين الصفة والموصوف ، والعامل والمعمول ، يقول بعضهم (ان الابرار يشربون من كاس) فيقول آخرون (كان مزاجها كافورا) ثم يقول بعضهم (عينا يشرب بها عباد الله) فيقول آخرون (يفجرونها تفجيرا) وهكذا يفرقون في قوله تعالى (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا) بين يوما وما وصف به ، ولو تدبروا الآية لخافوا ان يعذبهم الله تعالى في ذلك اليوم على هذا التمزيق في قراءة كتابه . ومن غريب الاتفاق

اننا اقترحنا في جزء المنار الماضي على شيخ الازهر أن يسعى لابطال البدع من المساجد ولم يكد نوزع الجزء الا وقد قضي الشيخ نحبه ، فعسى أن يقوم بذلك خلفه

ثم قالت الاهرام : وكان الناس من وطنيين وأجانب وقوفا بالعشرات والمئات على جانبي الطريق يحيون الفقيد في مشهده و يترحمون عليه . ثم ذكرت وصول الجنازة الى الجامع الازهر في منتصف الساعة الاولى بعد الظهر والصلاة عليها وقراءة الشيخ محمد الحملاوي قصيدة من نظمه في رثاء الفقيد . وتلاه الشيخ محمد أبو العيون بتأبين منثور أشير اليه بأن يختصره لاجل التعجيل بالدفن المطلوب شرعا ففعل .

ثم حملت الجنازة من الازهر والمؤذنون يكررون الآيات التي تقدم الكلام عليها الى مقابر المالكية من قرافة الامام الشافعي رضي الله عنه ، و بعد مواراتها التراب أنشد محمد حافظ بك ابراهيم مرثيته وتلاه الشيخ محمد فراج المنياوي بتأبين نثري أساء فيه الاطراء فجعل فيه الفقيد من الخلفاء الراشدين بل فضله عليهم في التعبير . ثم عزى جمهور المشيعين أبناء الفقيد وانصرفوا

﴿ مرثية محمد حافظ بك ابراهيم ﴾

أيدري المسلمون بمن أصيبوا ... وقد واروا سليما في التراب
هوى ركن الحديث فأي خطب ... لطلاب الحقيقة والصواب
موطأ مالك عزى البخاري ... ودع لله تعزية الكتاب
فما في الناطقين فم يوفي ... عزاء الدين في هذا المصاب
قضى الشيخ المحدث وهو يملي ... على طلابه فصل الخطاب
ولم تنقص له التسعون عزما ... ولا صدته عن درك الطلاب
وما غالت قريحته الليالي ... ولا خانته ذاكرة الشباب
أشيخ المسلمين نأيت عنا ... عظيم الاجر موفور الثواب
لقد سبقت لك الحسنى فطوبى ... لموقف شيخنا يوم الحساب
اذا ألقى السؤال عليك ملق ... تصدى عنك برك للجواب
ونادى العدل والاحسان انا ... نزكي مايقول ولا نحابي
قفوا يا أيها العلماء وابكوا ... ورووا لحده قبل الحساب

فهذا يومنا ولنحن أولى ببذل الدمع من ذات الخضاب
عليك تحية الاسلام وقفا وأهليه الى يوم المآب

التعازي

ونشرت جريدتا الاهرام والمقطم تعزية برقية من نائب الملك لمدير المعاهد الدينية وأخرى للشيخ طه البشري أكبر أبناء الفقيد صرح فيهما بأن نعيّ الفقيد قد شق عليه كثيرا ودعا له بالرحمة والرضوان — و برقيتان أخريان بمعناهما من كبير الوزراء صرح فيهما بأنه أسف جدا لعدم إمكان تشييعه الجنازة بشخصه .

وقد تألف وفد من أنجال الفقيد ومراقب الازهر رأسه المدير العام للمعاهد الدينية الشيخ عبد الرحمن قراعة لاداء الشكر لرؤساء الحكومة وكبراء البريطانيين الذين اشتركوا في تشييع الجنازة بالذات أو بإنابة الوكلاء عنهم والمعزين فبدؤا بقصر عابدين وسجلوا أسماءهم في (دفتر التشريفات) ثم نائب وزير الحربية وادورودس بك لشكر السردار ثم الجنرال كليتون لشكر القائد العام للقوات البريطانية بمصر على ارساله مندوبا لتشييع الجنازة ثم وكيل الاوقاف لشكره وشكر الوزير وأرسلوا برقيات شكر الى نائب الملك ورئيس الوزراء وقومندان المحروسة ومحافظ العاصمة وحكمدارها

﴿ ترجمة الفقيد ﴾

نشرت جريدة الاهرام ترجمة وجيزة للفقيد قيل انها مستمدة من أهل بيته ملخصها : انه «ولد حوالي سنة ١٢٤٣ أو ١٢٤٤ في محلة بشر بمركز شبراخيت والماشب حضر الى مصر لتلقي العلم وأقام تحت رعاية شيخه الشيخ بسيوني البشري من شيوخ المسجد الزينبي ، وانه تعب في طلب العلم تعبا شديدا ولقي من الدهر فيه مقاومات عظيمة، وانه كان يتعبد في المسجد الزينبي ليلا ويذهب الى الازهر نهارا لتلقي الدروس ، وان خاله عين أمينا لكساوي المحمل في أول ولاية سعيد باشا فخرج معه الى الحجاز حاجا « و بعد ان أدى فريضة الحج عاد الى مصر وبقي يشتغل بالتدريس حتى سنة ١٢٧٣ تقريبا »

= وأن أول عهده بالوظائف أن « عين إماما لمسجد إينال بمرتب ٩٠ فضه في الشهر» «وفي سنة ١٢٩١ مات الشيخ علي العدوي فنيط به التدريس في المسجد الزينبي بدلا منه بمرتب مئة قرش في الشهر وعين وكيلا عن شيخ المسجد الزينبي لحداثة سنه

وهو الشيخ أحمد الصفتي الشيخ الحالي و بقي كذلك الى آخر ولاية اسماعيل باشا » ثم عين إماما وخطيبا لمسجد زين العابدين ثم شيخا للمالكية بعد وفاة الشيخ عليش ثم شيخا للازهر لاول مرة في سنة ١٩٠١ وكانت مدتها أربع سنين . وذكر من حبه للعلم وايثاره له أن تلميذه قدري باشا عرض عليه وظيفة بثلاثين جنيها فأبى مفضلا الانقطاع الى تعليم العلم . ولم يذكر تلك الوظيفة فالظاهر انه لم يكن يمكن الجمع بينها و بين التعليم .

وذكر مسألتين من خلائقه احداهما انه كان اختار الشيخ أحمد المنصورى شيخا الرواق الصعايدة فأبى قاضي مصر إقامته ناظرا على أوقاف الرواق فأصر صاحب الترجمة على تعيينه دون غيره « ورأى في العدول اهدارا لرأيه و بالغ في التشبث برأيه حتى فضل ترك المشيخة على التجاوز عن حقه المفروض بحكم القانون » والثانية أنه لما جدد المسجد الزينبي رأى رئيس مهندسي الاوقاف ان ينقل القبر المنسوب الى السيدة زينب بمافيه فعارضه الشيخ وأعلمه أن ذلك مخالف للشرع من وجوه عديدة، وانتهى الخبر الى الخديو محمد توفيق باشا فأمر ببقاء القبر في مكانه وترضى الشيخ فتم له ما أراد . ولما كانت نشأة الشيخ الدينية قد كانت في جوار ذلك الضريح وصار قيما له عدة سنين ظل محافظا على تكريمه طول عمره ، ولا ندري أكان يعتقد أن السيدة زينب مدفونة في هذا المكان كما يظن عامة المصريين أم كان يرى ان نسبة القبر اليها كدفنها فيه ؟؟

وفي هذه الترجمة أغلاط وقصور . وقد علمنا من عالم من أكبر تلاميذ الفقيد وأعلمهم بترجمته انه سمع منه انه ولد في سنة ١٢٣٧ وانه جاء مصر في سنة ١٢٤٥ أو ١٢٤٧ وأقام عند خاله الشيخ بسيوني شلتوت المؤذن في مسجد السيدة زينب . ثم قضت الحال أن أرسله الخال الى الازهر

وقد رأينا في جريدة وادي النيل التي تصدر في الاسكندرية — وهي أرقى جريدة للمسلمين في هذا القطر — نعيا للفقيد وشيئا من حاله يبلغ زهاء نصف عمود بدأه بقوله : « نعت العاصمة الاستاذ الشيخ سليما البشري شيخ الجامع الازهر عن عمر طويل قضى شطره الاكبر في خدمة العلم وقضى أواخره في ولاية المشيخة الازهرية غير مرة . وكان رحمه الله في ولاية المشيخة ذا أنصار يحفون من حوله وخصوم

كثيرين يأخذونه بأمور ليس من المناسب ذكرها » ثم ذكر ان علماء الازهر متفقون على أنه أعلمهم بالحديث وان طريقته في قراءته انه كان يقرأ الحديث أولا على سبيل التبرك ثم يقرأه أحد الطلبة بصوت جهوري ثم يشرحه الشيخ بما شاء الله من علمه .

أقول وهذه المزية له مشهورة سمعتها من كثيرين وعليها بنى حافظ مرثيته ، وهي أعظم مزية تذكر له في هذا العصر الذي أهمل الازهر يون فيه العناية بعلم السنة رواية ودراية حتى صار طلبة العلوم الدينية في ديوبند وغيرها من بلاد الهند يفضلون أكبر شيوخ الازهر في علوم الحديث . وانما كان الشيخ سليم البشري على حظ من علم الحديث لانه طلب العلم قبل هذا الجيل بجيلين وكانت كتب السنة لاتزال تدرس فى الازهر . وقد أدركنا من أقران الشيخ فى الطلب شيخ شيوخنا الشيخ محمود نشابه فألفيناه منفردا بعلوم الحديث، وقد كنت أقرأ عليه صحيح مسلم فيصحح لي أسماء الرواة وغريب الحديث ويجيبني عن كل ماأسأله عنه من المشكلات على البداهة من غير مراجعة شرح ولا كتاب آخر . فاذا رجعت الى تلك الكتب رأيت ماقاله هو الصواب . ولكن صاحب الترجمة لم يعمل شيئا لاحياء ماالدرس من علوم الحديث في الازهر في أيام رياسته ومشيخته

وعندنا ان أعظم مايذكر في تاريخ مشيخته للازهر قبوله للقانون الذى وضعته الحكومة له ولمعاهد التعليم الدينى التابعة له وتنفيذه اياه ، وقد بينا رأينا فيه في المجلد الرابع عشر من المنار ، ولا مجال لبيان ذلك ولا لما كان بين المترجم وبين الاستاذ الامام من الوفاق والخلاف في ادارة الازهر ، وانما أقول ان المترجم كان حريصا على نيل رضاء السلطة العليا في كل وقت ، وقد فصلنا ذلك بعض التفصيل في تاريخ الاستاذ الامام

(للترجمة بقية)

﴿ شيخ الازهر الجديد ﴾

لما توفي الشيخ البشري كثر القيل والقال في الازهر في ترشيح خلف له وسرى ذلك الى سائر معاهد العلم الديني التابعة للازهر والى غيرها واشتهر أن الازهريين رشحوا أربعة أشياخ كل منهم له حزب رشحه ، وسعى له سعيه ، وقد كتب بعضهم مقالات الى الجرائد يطعن فيها ببعض ، منها ما نشر ومنها ما لم ينشر ، واتسع الوقت للخوض في ذلك

بأن البشري توفي قبيل عطلة عيد الاضحى ولم يتعين الخلف له الا بعد انتهائها فقد صدرت الارادة بتعيين الشيخ محمد أبي الفضل الجيزاوي شيخ معهد الاسكندرية شيخا للازهر ورئيسا لمجلس المعاهد الدينية الاعلى في يوم الاثنين لاربع عشرة خلت من شهر ذي الحجة الحرام ، وهو أكبر علماء المالكية بعد البشري سنا ومن أشهر علماء الازهر في العلم والمحافظة على آداب الشيوخ وشمائلهم، ويقال انه في العقد الثامن من العمر ، وقد سبق له الاشتغال بادارة الازهر إذ كان أحد أعضاء مجلس ادارته في مشيخة الشيخ حسونه النواوي ثم عين وكيلا للازهر وبعد قليل من الزمن عين شيخا لمعهد الاسكندرية. فنهنئه بأكبر منصب يرتقي اليه شيوخ العلم الديني بمصر ونسأل الله تعالى ان يوفقه ويسدده فيه ويجعل لاحياء علم السنة ومقاومة البدع أفضل حظ من عنايته

عبر التاريخ

ما قيل في فتح الانكليز لبغداد

قالت جريدة المقطم في فاتحة مقالة طويلة نشرت في صدر العدد الذي صدر في ١٩ جمادى الاولى سنة ١٣٣٥ — ١٣ مارس سنة ١٩١٧

«قضي الامر في العراق وسقطت بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين ومباءة مجدهم وعنوان فخرهم، واستولى البريطانيون على منبت أثلة المنصور والمهدي وهرون الرشيد والمأمون ومواثل العلماء والشعراء والادباء في عصر الشرق الذهبي الحديث. أي ذكرى تهيج في خاطر العربي اذا ذكر اسم بغداد والزوراء ودار السلام ؟ بل أي مجد يتحلى لعينيه عند سماع اسمها من دولة عظيمة الاركان، متينة البنيان، قامت على العدل والنظام والعلم والامان ، وشعب ناهض ناشط لطلب العلم واتقان الصناعة وترويج التجارة، وتوسيع نطاق الزراعة وبسط السيادة ، واضاءة مصباح العلم لتمزيق دياجير الظلام . بغداد دار العلم والمجد وبغداد مقر العظمة والثروة وبغداد عاصمة العرب وقاعدة الشرق

«هذا ارث مجيد ظل بيد الشرقيين اثني عشر قرنا شاهداً ناطقاً بعظمة أسلافهم يناوح خرائب بابل وآثار نينوى حتى صار أمره الى الاتحاديين فضاع منهم كما ضاع سواه ، وصارت بغداد في يد من يعرف قيمتها ويقدرها حق قدرها

هذا ميراث العرب الكرام أخذه الاتحاديون كما يأخذ الصبي الكرة وقذفوا به كما يقذف بها فأفلت من يدهم وهم يسيرون الجيوش الى بلدان أوربة فاتحين وثغور تركيا وكبار مدنها تسقط الواحدة بعد الاخرى . هذه سنة الله في خلقه وقد سخر الاتحاديين لانفاذ مشيئته وانزال قضائه »

ثم قال في فاتحة العدد الذي صدر في ٢٢ جمادى الاولى بعد كلام علل فيه تسمية الجرائد الانكليزية بغداد مدينة الشعر والخيال بأنهم أخذوا ذلك من كتاب الف ليلة وليلة الذى هو أشهر كتاب عند الانكليز بعد التوراة والانجيل :

« أما العرب فينظرون الى بغداد من وجهة أخرى وان لم يغفلوا وجهة الشعر والخيال فالعرب في مقدمة الامم التي تجل الشعر والشعراء، ولكن العرب يرون في بغداد القديمة عنوان مجد جنسهم، ورمزاً الى أكبر شأو بلغته حضارتهم، ويذكرون ان عصرها الاول كان عصرهم الذهبي إذ منها انبلج صبح العلم في العصور الحديثة فأضاء الشرق والغرب

« ان العرب يرون في بغداد الاولى مقر العلم والحكمة، وخزانة معارف الشرق، ومدرسته التي نبغ فيها العلماء والاطباء والفلاسفة والفلكيون والكيماويون والشعراء والكتاب واللغويون والمهندسون برعاية العباسيين وعناية أفاضل خلفائهم ولا سيما المأمون الذي كان عضد العلم وسند العلماء

« قال السر هنري رولنصن المؤرخ الشهير في كلامه عن بغداد ما نصه: [وقد نافست بغداد قرطبة في الآداب والعلم والصناعة والفنون فكان لهاتين المدينتين سيادة العالم من هذا القبيل . أما في التجارة والثروة فان قرطبة لم تبلغ شأو بغداد . وكانت بغداد عاصمة الاسلام الدينية والعاصمة السياسية لمعظم بلدانه لما كان الاسلام ركن حضارة الدنيا]

« هذه هي بغداد كما يراها العرب الذين يعرفون تاريخ قومهم، ويحفظون ذكر عظمة جنسهم ، ويتحسرون على أيام الرشيد والمأمون، ويتمنون لو اتيح للعرب ان ينهضوا مثل نهضتهم في ذلك العصر السعيد ، ويتعاونوا على رفع شأنهم باتقان العلم وتنشيط الصناعة والتفاني في تأييد المجموع

« كانت بغداد لسلطنة العرب كلندن اليوم لسلطنة البريطانيين ، فكانت مركز قوتهم، ومجمع علمهم، وركن صناعتهم، وسوق تجارتهم، ومجلس حكومتهم، وكان خلفاؤها

ينظرون في الجهات الاربع ويعلمون ان الرياح كيفما هبت فانها تهب عليهم من ولاياتهم ومما لكهم حتى لقد قال الرشيد يخاطب السحابة « امطري حيث شئت فان خيرك يأتيني »

« ان بغداد صارت الآن للعرب مدينة الشعر والخيال اذ لا سبيل الا بهما الى تمثل عظمتها الماضية . أما في عصر العرب الذهبي فقد كانت بغداد جامعة لابهة الملك وشرف العلم ومجد الصناعة وعظمة التجارة واتقان الفنون وبراعة النظام، فكان الخيال والشعر فيها تفكهة يلطفان من أخلاق أهلها وهم في طلب العلى جادون ، والى التقدم والارتقاء والنجاح ناشطون ، وفي ذلك يقول أحد شعرائهم :

بغداد أيتها الجياد فانها أنجى وأقرب للشؤون وأنجح

«ولله در ذلك المستشرق القائل[1] : [في بلاد سكانها من صميم العرب الذين عرفوا بالعزة والانفة والشمم ودانت لهم الاقطار، ففتحوا الممالك ودوخوا الامصار في غابر الاعصار ،وأنشأوا لهم في التاريخ مجداً خالداً، وذكراً باقياً، فذاع فضلهم، وطارت شهرتهم ، وتناقلت الركبان أخبارهم .... هناك جنة عدن وهناك جنات النعيم، كانت رافلة في حلل الهناء والرخاء أيام كانت انكلترة والمانية فيافي وقفاراً، وكان أهلهما غارقين في بحار الجهل يتخبطون في دياجي الظلام . بلادكم أيها العرب هي البلاد التي أزهرت فيها الحضارة وأينعت الفنون وأثمر الادب وعمرت دور العلم والفلسفة وهي البلاد التي انبعث منها نور الدين وألبست العالم ثوب الرفاهية والسعادة]

« ترى هل يكون للعرب نصيب من يقظة العالم بعد الحرب ويد في نهضته القادمة فيحل الجد محل الخيال، وتطلق العقول والقلوب مما أصابها من الفتور، وتنزل هذه الامة المنزلة التي تجدر بها في مجالس الشعوب؟ أو تظل تعود ببصرها القهقرى الى عصور مضت، وأيام انقضت، تتغذى بالذكرى، وتصعد الانفاس الحرّى »اه

(١) أي في مقالة نشرت مترجمة في المقتطم بتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١٦

حجم المنار

اضطرنا انقطاع ورود الورق وغلاؤه المضاعف الفاحش الى تصغير حجمه رجاء الزيادة في أجزائه وهو ضرورة تتقدر بقدرها ، وعسى أن لا يطول أجلها .

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله أولئك هم أولو الالباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٢٩ المحرم ١٣٣٦ — ٢٢ العقرب (خ٢) ١٢٩٦ م ش ١٥ نوفمبر ١٩١٧

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٦٨) وإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٦٩) وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٧٠) وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ، أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

أنذر الله تعالى في الآيات السابقة هذه الامة — أمة الدعوة — مثل العذاب الذي بعثه على مكذبي الرسل من الاولين وعلى المتفرقين المختلفين في دينهم من أهل الكتاب ، وجعل ذلك مع ما قبله من حجج القرآن وآياته المثبتة لكونه من عند الله لا من عند رسوله الامي الذي لم يكن يعلم شيئاً من أخبار الامم ولا من سنن الله في مكذبي الرسل ومتبعيهم ، تلك الآيات التي يرجى لمن تدبرها فقه الامور وادراك حقائق العلم . وذكر بعد هذا الانذار والبيان تكذيب قريش بالقرآن ، وكون الرسول ليس وكيلا عليهم وانما عليه البلاغ والبيان ، وإحالتهم في ظهور صدق انبائه على الزمان . ثم بين في هذه الآيات كيف يعامل الذين يخوضون في آيات الله بالباطل من هذه الامة — أعني أمة الدعوة — والذين اتخذوا دينهم هزؤا ولعبا من كفارها الذين لم يجيبوا دعوتها ، بما يعلم منه حكم من يدخل في عموم ذلك ممن أجابوها ، على نحو ما تقدم في الآيات التي قبلها ، فقال

﴿ واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ روي عن أبي مالك وسعيد بن جبير وابن جريج وقتادة ومقاتل والسدي ومجاهد في احدى الروايتين عنه ان هذه الآية في المشركين المكذبين الذين كانوا يستهزءون بالقرآن والنبي (ص) وروي عن ابن عباس وأبي جعفر ومحمد بن علي ومحمد ابن سيرين انها في أهل الاهواء من المسلمين . وهذا الخلاف مبني على ماتقدم فيما قبلها من كونه يشمل المشركين وغيرهم . فمن قال ان هذه في المشركين فقط فانما رجح ذلك بمعونة السياق والوقت الذي نزلت فيه الآيات بل السورة كلها في أوائل البعثة ، ومن قال انها في أهل الاهواء فانما رجح ذلك بما ورد من الاحاديث المرفوعة في كون الانذار بالعذاب موجها الى هذه الامة بجملتها — من أجاب دعوتها ومن لم يجب — وكون تفرقها شيعا يذوق بعضهم بأس بعض أمرا مقضيا مضت به سنة الله تعالى فلا مرد له ، والخطاب على الاول للنبي ﴿ ص ﴾ ويشاركه في حكمه كل من بلغه ، وعلى الثاني لكل من يقرأ الآية ويسمعها . والرواية الثانية عن مجاهد انها في أهل الكتاب وهو بعيد اذ لا وجه لتخصيصهم لا من السياق — والسورة مكية — ولا من الاخبار المرفوعة في معناها ، ولكن الخائضين منهم يدخلون في عمومها

وأصل الخوض وحقيقته الدخول في الماء والمرور فيه مشيا أو سباحة وجدح السويق

أي لتّ الدقيق باللبن، و يستعار لمرور الابل في السراب، ووميض البرق في السحاب، وللاندفاع في الحديث والاسترسال فيه، وللدخول في الباطل مع أهله، وبهذين المعنيين استعمل في القرآن، وفسر الخوض هنا على القول الاول بالكفر بالآيات والاستهزاء بها . قال ابن جريج كان المشركون يجلسون الى النبي (ص) يحبون ان يسمعوا منه فاذا سمعوا استهزؤا فنزلت (واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم) الآية — قال فجعل اذا استهزؤا قام فحذروا وقالوا لا تستهزؤا فيقوم الخ وقال السدي : كان المشركون اذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي (ص) والقرآن فسبوه واستهزؤا به فأمرهم الله بأن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره . وقال مقاتل كان المشركون بمكة اذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي (ص) خاضوا واستهزؤا فقال المسلمون لا يصلح لنا مجالستهم نخاف ان نحرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم؛ فأنزل الله في ذلك (واذا رأيت) أي انزل في اثناء هذه السورة ، وهذا مراد ابن جريج أيضا . وقولهم « نحرج » معناه نقع في الحرج والإثم

وفسر الخوض في الآيات على القول الآخر لمفسري السلف بالمراء والجدل والخصومة فيها اتباعا للاهواء ، وانتصارا للمذاهب والاحزاب ، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) ونحو هذا في القرآن قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم انما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله . وروى عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر قال : لا تجالسوا أهل الاهواء فانهم الذين يخوضون في آيات الله .

والصواب من القول في الآية أنها عامة وان المخاطب بها أولا بالذات سيدنا الرسول (ص) وكل من كان معه من المؤمنين ، فكل ما ورد عن السلف في تفسيرها صحيح . والمعنى العام الجامع المخاطب به كل مؤمن في كل زمن : « واذا رأيت » أيها المؤمن « الذين يخوضون في آياتنا » المنزلة، من الكفار المكذبين ، أو من أهل الاهواء المفرقين، فأعرض عنهم أي انصرف عنهم وأرهم عرض ظهرك ، بدلا من القعود معهم أو الاقبال عليهم بوجهك ، « حتى يخوضوا في حديث غيره »

أي غير ذلك الحديث الذي موضوعه الكفر بآيات الله والاستهزاء به من الكفار ، أو تأويلها بالباطل من قبل أهل الاهواء ، لتأييد ما استحدثوا من المذاهب والآراء ، وتفنيد أقوال خصومهم بالجدل والمراء ، فلا بأس بالقعود معهم ، وقيل ان الضمير في « غيره » للقرآن لانه هو المراد بالآيات فأعيد الضمير عليها بحسب المعنى

وسبب هذا النهي ان الاقبال على الخائضين والقعود معهم أقل ما فيه انه إقرار لهم عليه ، وإغراء بالتمادي فيه ، وأكبره انه رضاء به ومشاركة فيه ، والمشاركة في الكفر والاستهزاء كفر ظاهر ، لايقترفه باختياره الا منافق مراء اوكافر مجاهر ، وفي التأويل لنصر المذاهب أو الآراء ، مزلقة في البدع واتباع الاهواء ، وفتنته أشد من فتنة الاول ، فان أكثر الذين يخوضون في الجدل والمراء من أهل البدع وغيرهم تغشهم أنفسهم بأنهم ينصرون الحق ، ويخدمون الشرع ، ويؤيدون الائمة المهتدين ، ويخذلون المبتدعين المضلين ، ولذلك حذر السلف الصالحون من مجالسة أهل الاهواء ، أشد مما حذروا من مجالسة الكفار ، اذ لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر ما يخشى عليه من فتنة المبتدع ، لانه يحذر من الاول على ضعف شبهته ، ما لا يحذر من الثاني وهو يجيئه من مأمنه ، ولا يعقل ان يقعد المؤمن باختياره مع الكفار في حال استهزائهم بآيات الله وتكذيبهم بها وطعنهم فيها ، كما يقعد مختارا مع المجادلين فيها المتأولين لها ، وانما يتصور قعود المؤمن مع الكافر المستهزئ في حال الاكراه وما يقرب منها ، كشدة الضعف ، ولا سيما اذا كان في دار الحرب ، ولم تكن مكة دار إسلام عند نزول هذه الآيات ، ويدخل في أهل الاهواء المقلدون الجامدون الذين يحاولون تطبيق آيات الله وسنن رسوله على آراء مقلديهم بالتكلف ، أو يردونها ويحرّمون العمل بها بدعوى احتمال النسخ أو وجود معارض آخر ، وقد نقلنا كلاما في هذا المعنى عن فتح البيان في تفسير آية سورة النساء التي بمعنى هذه الآية وهي قوله تعالى (٤ : ١٣٩ وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم اذا مثلهم ، ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا)

ومن الناس من يحرف آيات الله عن مواضعها بهواه لأجل ان يكفر بها مسلما ، أو يضلل بها مهتديا ، بغيا عليه وحسدا له ، كما فعل بعض أدعياء العلم بمصر في هاتين

الآيتين وفيما ورد في النهي عن تولي أعداء الله وأعداء المؤمنين من الكفار بنحو اعانتهم على المسلمين في الحرب كقوله تعالى في أول سورة الممتحنة — (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) — زعم المحرف أن هذه الآيات تنطبق على من حضر من المسلمين ناديا للنصارى أبنوا فيه طبيبا منهم لم يكفروا فيه بآيات الله ولم يستهزؤا بها ولم تكن من موضوع حديثهم، وليسوا محاربين للمسلمين. ومثل هذا التحريف أولى بالدخول في عموم آيتي الانعام والنساء من تأويل أصحاب المذاهب والشيع الذي نقلنا عن بعض المفسرين إدخاله فيه أو تفسيره به. وأما تحريف آية الممتحنة وما في معناها من سورة المائدة فبرده تقييد النهي باخراج الرسول والمؤمنين من وطنهم لاجل إيمانهم ثم تأييد هذا التقييد بما ينفي عموم النهي وذلك صريح قوله تعالى في سورة الممتحنة بعده (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم — الى قوله — الظالمون)

وقد بينا في تفسير آية النساء من الجزء الخامس أن المنافقين كانوا يقعدون في المدينة مع الكفار الذين يخوضون في آيات الله بما ذكر كما فعل بعض ضعفاء المؤمنين في مكة، فأنزل الله فيهم هذه الآية، كما أنزل آية الانعام في اولئك الضعفاء، على ما ورد في بعض الروايات، ولذلك كان التشديد في آية النساء أعظم منه في آية الانعام، اذ كان لضعفاء المؤمنين في أول الاسلام بعض العذر، وليس لمنافقي المدينة عذر الا اخفاء الكفر، على أن آية الانعام أول ما نزل في هذا النهي فعمل بها المؤمنون وانتهوا عما قيل انه كان قد وقع منهم، فما عذر المنافقين في القعود مع المستهزئين بعد النهي وهم يتلونه أو يتلى عليهم؟ لهذا شدد الله في آية النساء وقال في الذين يقعدون معهم «انكم اذاً مثلهم» وأما أولئك فعذرهم بنسيان النهي في قوله

﴿ وإما ينسيك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ أي وان فرض أن أنساك الشيطان النهي مرة ما وقعدت معهم في تلك الحال ثم ذكرته فلا تقعد بعد التذكر مع القوم الظالمين لانفسهم بتكذيب آيات ربهم والاستهزاء بها، بدلا من الاحسان اليها بالايمان والاهتداء بها، وقرأ ابن عامر (ينسينك) بتشديد السين وهو يفيد ان النسيان عذر وان تكرر لأن في التنسية معنى التكرار.

وهل الخطاب في هذه الآية للرسول والمراد غيره كما قيل في آيات كثيرة غيرها على حد المثل : إياك أعني واسمعي ياجارة ! وهو كثير في كلام العرب ؟ أم للرسول بالذات ولغيره بالتبع كما هو الشأن في غير الاحكام الخاصة به (ص) ؟ أم لكل من بلغه كما قيل في آيات أخرى ؟ أقوال ظاهر ما نقلناه عن السدي ومقاتل اختيار الاول منها

وقد استشكل إنساء الشيطان له (ص) على القول بأن الخطاب في الآية له . وقد ثبت في نص القرآن ان الشيطان ليس له سلطان على عباد الله المخلصين ، وخاتم النبيين والمرسلين (ص) أخلصهم وأفضلهم وأكملهم ، بل ورد في سورة النحل (١٦ : ٩٩ انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ١٠٠ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) ولكن إنساء الشيطان بعض الامور للانسان ، ليس من قبيل التصرف والسلطان ، وإلا لم يقع الا لأوليائه المشركين. وقد قال تعالى حكاية عن فتى موسى حين نسي الحوت (وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره) وإنما كان فتاه — أي خادمه لا عبده — يوشع بن نون كما في البخاري والمشهور أنه نبي . وروي عن مجاهد في تفسير (فأنساه الشيطان ذكر ربه) الآية — ان يوسف (عليه السلام) أنساه الشيطان ذكر ربه وأمره بذكر الملك وابتغاء الفرج من عنده (فلبث في السجن بضع سنين) عقوبة له . بل ذكر أهل التفسير المأثور حديثا مرفوعا في ذلك رووه مرسلا وموصولا وهو « لو لم يقل يوسف عليه السلام الكلمة التي قال مالبث في السجن طول مالبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله تعالى » هذه رواية ابن عباس رفعها أخرجها عنه ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات وابن جرير والطبراني وابن مردويه . فثبت بهذا أن نسيان الشيء الحسن الذي يسند الى الشيطان لكونه ضارا أو مفوتا لبعض المنافع أو لكونه حصل بوسوسته ولو باشغالها القلب ببعض المباحات - لا يصح أن يعد من سلطان الشيطان على الناسي واستحواذه عليه بالاغواء والاضلال الذي نفاه الله عن عباده المخلصين ، ولهذا قال بعض كبار مفسري السلف بان الخطاب في الآية للنبي (ص) مع العلم بأن الله تعالى فضله على سائر عباده المخلصين المعصومين باعانته على شيطانه حتى أسلم فلا يأمر الا بخير كما ورد في الحديث الصحيح . وقد ينسى الانسان خيرا باشتغال فكره بخير

آخر . قال مجاهد : نهي محمد صلى الله عليه وسلم أن يقعد معهم الا أن ينسى فاذا ذكر فليقم الخ رواه عنه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

وأما وقوع النسيان من الانبياء بغير وسوسة من الشيطان فلا وجه للخلاف في جوازه ، قال تعالى لخاتم رسله (١٨ : ٢٣ واذكر ربك اذا نسيت) بل ثبت في هذه السورة (الكهف) وقوعه من موسى عليه السلام (١٨ : ٧١ قال لا تؤاخذني بما نسيت) وانما يقوم الدليل على عصمتهم من نسيان شيء مما أمرهم الله تعالى بتبليغه . وهذا محل اجماع ، ومثله النسيان الذي يترتب عليه إخلال بالدين كإضاعة فريضة أو تحريم حلال أو تحليل حرام، وقد جزم الاستاذ الامام في تفسير (ما ننسخ من آية او ننسها) ببطلان ما ذكره السيوطي في أسباب النزول من رواية ابن أبي حاتم عن ابن عباس : كان ربما نزل على النبي (ص) الوحي بالليل ونسيه بالنهار فأنزل الله (ما ننسخ الآية)لان ذلك مخالف للقاعدة القطعية المجمع عليها . وقد ورد في الصحيح اسناد النسيان الى النبي (ص) كقوله في حديث ليلة القدر « فنسيت » وهو في صحيح مسلم وفي رواية « فأنسيتها »وثبت في الصحيحين والسنن سهو النبي (ص) في الصلاة وقوله في بعض الروايات عندهم(ماعدا الترمذي) « انما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فاذا نسيت فذكروني » الخ وهو في باب التوجه نحو القبلة من البخاري عن ابن مسعود . قال الحافظ في شرحه له من الفتح : وفيه دليل على وقوع السهو من الانبياء عليهم الصلاة والسلام في الافعال . قال ابن دقيق العيد وهو قول عامة العلماء والنظار ، وشذت طائفة فقالت لا يجوز على النبي السهو ، وهذا الحديث يرد عليهم اه

وقال النووي في شرحه للحديث في صحيح مسلم ما نصه « فيه دليل على جواز النسيان عليه صلى الله عليه وسلم في أحكام الشرع وهو مذهب جمهور العلماء وهو ظاهر القرآن والحديث . واتفقوا على انه صلى الله عليه وسلم لا يقر عليه بل يعلمه الله تعالى به . ثم قال الاكثرون شرطه تنبهه صلى الله عليه وسلم على الفور متصلا بالحادثة ولا يقع فيه تأخير ، وجوزت طائفة تأخيره مدة حياته صلى الله عليه وسلم واختاره امام الحرمين ، ومنعت طائفة من العلماء السهو عليه صلى الله عليه وسلم في الافعال البلاغية والعبادات كما أجمعوا على منعه واستحالته عليه صلى الله عليه وسلم في الاقوال البلاغية.

وأجابوا عن الظواهر الواردة في ذلك، واليه مال الاستاذ أبو اسحق الاسفرايني، والصحيح الاول فان السهو لا يناقض النبوة، واذا لم يقرّ عليه لم تحصل منه مفسدة بل تحصل فيه فائدة وهو بيان أحكام الناسي وتقرير الاحكام

« قال القاضي واختلفوا في جواز السهو عليه صلى الله عليه وسلم في الامور التي لا تتعلق بالبلاغ وبيان أحكام الشرع من أفعاله وعاداته واذ كار قلبه فجوزه الجمهور، وأما السهو في الاقوال البلاغية فأجمعوا على منعه كما أجمعوا على امتناع تعمده، وأما السهو في الاقوال الدنيوية وفيما ليس سبيله البلاغ من الكلام الذي لا يتعلق بالاحكام ولا أخبار القيامة وما يتعلق بها ولا يضاف الى وحي فجوزه قوم اذ لا مفسدة فيه

« قال القاضي رحمه الله تعالى والحق الذي لا شك فيه ترجيح قول من منع ذلك على الانبياء في كل خبر من الاخبار كما لا يجوز عليهم خلف في خبر لا عمداً ولا سهواً لا في صحة ولا في مرض ولا رضا ولا غضب، وحسبك في ذلك ان سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم وكلامه مجموعة معتنى بها على مر الزمان يتداولها الموافق والمخالف والمؤمن والمرتاب فلم يأت في شيء منها استدراك غلط في قول ولا اعتراف بوهم في كلمة ولو كان لنقل كما نقل سهوه في الصلاة ونومه عنها واستدركه رأيه في تلقيح النخل وفي نزوله بأدنى مياه بدر وقوله صلى الله عليه وسلم «والله لأحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها الا فعلت الذي هو خير وكفرت عن يميني» وغير ذلك. وأما جواز السهو في الاعتقادات في أمور الدنيا فغير ممتنع والله أعلم » اه (*

(*) نقل الآلوسي عبارة النووي هذه في روح المعاني ولم يعزها اليه بل بدأ الكلام بقوله في المسألة : وتفصيل الكلام في ذلك على ما في معتبرات كتبنا ان مذهب جمهور العلماء جواز النسيان عليه (ص) الخ ولكنه عند ما بلغ قوله « والصحيح الاول » قال « وصحح النووي الاول » ثم ذكر بقية عبارته كأنها من كلامه الذي فصله مستمدا له من معتبرات الكتب ولم يتصرف فيها الا تصرفا يسيرا كقوله « وذكر القاضي انهم اختلفوا » بدل قول النووي « قال القاضي اختلفوا » وقوله « وغير ذلك » بدل حديث كفارة اليمين . ولما انتهى الى قوله « فغير ممتنع » وصله بقوله هو : وسيأتي ان شاء الله تعالى تتمة الكلام على هذا المبحث الخ وانى أنتقد مثل هذا النقل من مثل هذا العالم الجليل — وهو في الكتب كثير — وأذكر من اخلاله بالفائدة ان من لم يعرف مأخذ الآلوسي لا يعرف القاضي الذي ينقل عنه أي القضاة هو فان هذا اللقب يطلقه بعضهم على غير من يطلقه عليهم الآخرون ويطلقه حتى المؤلف الواحد في بعض الكتب على غير من يطلقه عليه في بعض آخر، والمراد به في شرح النووي لمسلم القاضي عياض.

أما حديث تلقيح النخل الذي أشار اليه القاضي (عياض) فهو ما أخرجه مسلم في صحيحه عن موسى بن طلحة عن أبيه قال مررت مع رسول الله (ص) بقوم على رءوس النخل فقال « ما يصنع هؤلاء ؟ قلت يلقحونه يجعلون الذكر في الانثى فتلقح[1] فقال رسول الله (ص) « ما أظن ذلك يغني شيئا » قال فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر رسول الله (ص) بذلك فقال « ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فاني انما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن اكذب على الله عز وجل » ورواه من حديث رافع بن خديج قال: قدم النبي (ص) المدينة وهم يأبرون النخل — يقول يلقحون النخل — فقال « ما تصنعون؟ » قالوا كنا نصنعه ، قال « لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا » فتركوه فنفضت — أو قال فنقصت — قال فذكروا ذلك له فقال « انما انا بشر اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » قال عكرمة أو نحو هذا . قال المعقري[2] « فنفضت » ولم يشك . ورواه أيضا عن عائشة وأنس معا بلفظ : مرّ بقوم يلقحون فقال « لو لم تفعلوا لصلح » قال فخرج شيصا، فمر بهم فقال « ما لنخلكم ؟ » قالوا قلت كذا وكذا . قال « أنتم اعلم بأمر دنياكم » اه والشيص البسر الرديء اذا يبس صار حشفا .

قال النووي في شرح الحديث : قال العلماء ولم يكن هذا القول خبرا وانما كان ظنا كما بينه في هذه الروايات ، قالوا ورأيه (ص) في أمور المعايش وظنه كغيره فلا يمتنع وقوع مثل هذا ، ولا نقص في ذلك وسببه تعلق هممهم بالآخرة ومعارفها والله أعلم اه

وأما مسألة ماء بدر فهي مارواه أهل السير عن النبي (ص) انه لما خرج للقاء المشركين في غزوة بدر نزل عند أدنى ماء من بدر أي أقربه، فقال له الحباب بن المنذر: يارسول الله أرأيت هـذا المنزل أمنزل أنزلكه الله تعالى ليس لنا ان نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » قل يارسول الله ان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم

(١) يقال لقح النخلة وأبرها (كضرب ونصر فلقحت) بضم اللام للمفعول وفتحها للفاعل من باب فرح . والتلقيح والتأبير مبالغة منه (٢) هو أحمد بن جعفر المعقري (بفتح الميم وسكون العين وكسر القاف نسبة الى معقر ناحية من اليمن) من شيوخ مسلم . وقوله فنفضت النخل أي أسقطت ولم يشك كما شك غيره فقال أو فنقصت .

(أي قريش) فاني أعرف غزارة مائه وكثرته بحيث لا ينزح فننزله ثم نغوّر ماعداه من القلب (جمع قليب كقتيل وهو مالم يبن من الآبار) ثم نبني عليه حوضا فنملأه ماءً فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله (ص) « لقد أشرت بالرأي »

هذا وان كثيرا من المؤلفين من المتأخرين يبالغون في تعظيم الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم وتعظيم من دونهم بالاقوال كالشعراء من غير التزام ما جاؤا به عن الله تعالى وما ثبت في سيرتهم، والقاضي عياض — أحسن الله جزاءه — كان من الميالين الى المبالغة في التعظيم ، وقياسه جميع الانبياء على خاتمهم الذي أكمل الله به دينهم وتمم به مكارم الاخلاق وشهد له بالخلق العظيم لا يصح (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) وانما يظهر الحق في مسألة نسيان الانبياء والرسل (ص) بما ذكرنا من الآيات القرآنية والاخبار النبوية وما في معناها كقوله تعالى في أواخر سورة الاعراف (٧: ٢٠٠ وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ٢٠١ ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ٢٠٢ واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) فظاهر السياق ان الخطاب هنا للنبي (ص) وان كان يأتي فيه الوجوه التي ذكرناها في أول تفسير الآية التي نحن بصدد تفسيرها. وروى ابن جرير عن أبي زيد قال لما نزلت (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) قال (ص) « يارب كيف والغضب » فنزل (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) الآية، ولحديث عائشة وابن مسعود عند مسلم « ما منكم أحد الا وقد وكل الله به قرينه من الجن — قالوا وإياك يارسول الله ؟ قال — وإياي ، الا ان الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني الا بخير »

فمن تأمل هذه النصوص جزم بأن سلطان الشيطان على الانسان عبارة عن تمكنه من إغوائه واضلاله ، وأن مجرد الوسوسة ليس سلطانا ، ولاسيما أدناها ومبدأها المعبر عنه في آيتي الاعراف بالنزغ والمس [1] على أن ذلك السلطان مجازي لا حقيقي ، لانه لا يقدر على اكراه إنسان على شيء ولكن سميت طاعة وسوسته سلطاناً تشبيها بطاعة الملوك والقواد الذين يجبرون أتباعهم على ما يأمرونهم به فيأتونه

(١) فسر النزغ بين الناس بالاغراء وأصله في اللغة الوخز وهو الطعن غير النافذ والنخس وهو غمز الدابة بعود ونحوه لتسرع . والمس اللمس

كرها ، يدل على هذا قوله تعالى (١٤ : ٢٥ وقال الشيطان لما قضي الامر : ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) الآية . وقوله «قضي الامر» معناه أمر الحساب في الآخرة . فمن وسوس اليه الشيطان فأمره بمنكر فلم يطعه كان محفوظا من إغوائه ليس له سلطان عليه لا حقيقة ولا مجازا ويكون له مزية على من لم يوسوس اليه ولم يزين له المعاصي اذا صح ما قالوا في تفضيل الانبياء على الملائكة من كونهم قد ركبت فيهم الشهوات الداعية الى المعاصي فقاوموها والتزموا الطاعة ، وفيه بحث ندعه الى مكان آخر هربا من التطويل ، وقد ثبت ان المتقين قد يمسهم طائف من الشيطان -- وهو الوسوسة أو مبدأها — ولكنه اذا مسهم تذكروا فاذا هم مبصرون فلا يقعون في فخ طاعته ، بل ينبههم طائفه من الغفلة فيكونون بعد مسه أشد اتقاء لما لا ينبغي واجتهادا فيما ينبغي ، والانبياء المرسلون وغير المرسلين ، هم سادات المتقين ، فهم لا يغفلون عن وسوسة الشيطان ، فأنى يكون له عليهم أدنى سلطان ،

وأما النسيان الذي تكون الوسوسة سببه فليس طاعة للشيطان فيكون من سلطانه المجازي على الناسي ، ولكنه اذا كان نسيان واجب أدى الى تركه حتى فات وقته ، أو نسيان نهي أدى الى فعل المنهي عنه كان وقوعه من الانبياء عليهم السلام مشكلا ، وليس منه نسيان يوسف لذكر ربه عند كلامه مع أحد صاحبي السجن ولا نسيان فتى موسى للحوت ؛ ونبينا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم لم يقع منه نسيان أدى الى مخالفة الامر بالاعراض عن الذين يخوضون في آيات الله كقعوده معهم ناسيا ولو وقع ذلك -- معاذ الله — لم يكن منه معصية كمعصية آدم لان الله رفع عنه وعن أمته الخطأ والنسيان كما تدل عليه الآية والحديث الذي يأتي قريبا

وقد ثبت في التنزيل أن آدم عليه السلام عهد الله تعالى اليه فنسي ، وانه عصى ربه فغوى ، وما زال العلماء يعدون الجواب عن هذه المسألة أعقد المشكلات في باب القول بعصمة الرسل (ع م) مع الجزم بأن آدم لم يكن وقت الامتحان بالنهي عن الاكل من الشجرة نبيا رسولا ، ولم يكن في دار التكليف على ما عليه الجمهور ، وهم لا يقولون بعصمة الانبياء قبل البعثة من كل ذنب . وانما منعوا صدور

الكبائر عنهم عمدا . قال في المواقف : واما سهوا فجوزه الاكثرون واما الصغائر عمدا فجوزه الجمهور الا الجبائي واما سهوا فهو جائز اتفاقا الاالصغائر الخسية كسرقة حبة أو لقمة اه المراد منه . ولم تكن معصية آدم الا عن نسيان ، وحكمتها انها مظهر استعداد نوع الانسان ، ولم تكن لسوء قدوة ، ولا معارضة لما قيل في برهان العصمة .

ومن الغريب ان انجيل متى روى ان ابليس حاول فتنة (أي تجربة) سيدنا عيسى (ع م) بعدة أمور ثم قال (٤ : ٨ ثم أخذه أيضا الى جبل عال جدا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها ٩ وقال له أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي ١٠ حينئذ قال له يسوع اذهب ياشيطان لانه مكتوب للرب إلهك تسجد ، وإياه تعبد » وعندنا ان الله تعالى قد أعاذ عيسى وامه من الشيطان ، وأنه لم يمسه حين ولد كما يمس الولدان ، وليست وسوسة الشيطان لأي إنسان وأمره اياه بالشر ونهيه عن الخير بنقيصة ، وانما النقيصة طاعته لعنه الله ، وقد عصم الله تعالى منها رسله وحفظ من دونهم من عباده المخلصين

فمثل قرناء السوء من جنة الشياطين كمثل ميكروبات الامراض من جنة الحشرات ، فهذه تمس كل أحد من الناس فمن كان قوي المزاج معتدل المعيشة متقيا لها بما يرشد اليه العلب من النظافة واستعمال المطهرات القاتلة لها فانها قلما تصيبه واذا أصابته فلا تضره ، بل قد تنفعه بتعويد مزاجه على المقاومة ، ومن كان ضعيف المزاج مسرفا في المعيشة غير متق لها بمثل ما ذكر فانها تؤذيه ويحدث له بسببها من الامراض والادواء ما يكون به حرضا أو يكون من الهالكين ، والنفس الزكية الفطرة ، المتقية لله تعالى بهداية الكتاب والسنة ، لا يكاد الشيطان يمسها ، واذا طاف بها طائف من وسوسته في حال الغفلة كان هو المذكر لها ، فاذا هي مبصرة قائمة بما يجب عليها . فمثلها في عدم تأثير الوسوسة فيها او عدم افسادها لها كمثل البدن القوي في عدم استعداده لفتك جراثيم الامراض به ، كما ان النفس الفاسدة الفطرة بالشرك أو النفاق ، والمعاصي وسوء الاخلاق ، تكون مستعدة لطاعة الشيطان ، كاستعداد البدن الضعيف والمزاج الفاسد لتأثير ميكروبات الامراض ، ومن الارواح والابدان ما ليس في منتهى القوة ولا غاية الضعف ، فكل منها يتأثر بقدر استعداده وتكون

عاقبته السلامة ان كان أقرب الى الصحة، والقوة والهلاك ان كان بضد ذلك

علم مما تقدم أن الآية لا تدل على أن الشيطان ينسي النبي الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم ماذكر، إما لان الخطاب فيها لغيره ابتداء — واما لان المراد به غيره وان وجه اليه على حد (لئن أشركت ليحبطن عملك) وفائدة مثله مبالغة المؤمنين في الحذر من وسوسة الشيطان المؤدية الى الوقوع في النهي ، وكون الانبياء معصومين من الشرك من المسائل القطعية التي لانزاع فيها ، فان علمهم بالتوحيد برهاني وجداني عياني وهو المعبر عنه بحق اليقين وعين اليقين، وقد رجح هذا الوجه بهذا المثل كما ترجحه الآية الآتية بجعلها موضوع المسألة في جماعة المتقين — واما لان الخطاب له على سبيل الفرض، لاجل المبالغة في الزجر ، ويمكن الجمع بين هذا الوجه وماقبله ، ومن المعهود في التخاطب انما يقال على سبيل الفرض يدخل فيه المحال، فهو لا يقتضي جواز الوقوع بل احتماله وذلك هو الاصل في الجملة الشرطية المبدوءة بإن فقد قالوا انها للشك ، وانما يأتي مثله في كلام الله بحسب الاسلوب العربي لبيان المراد في نفسه بصرف النظر عن القائل وفائدته هنا بيان كون النسيان عذرا فان لم يقع من المخاطب فقد يقع من غيره فيكون معذورا

وذهب الزمخشري مذهبا آخر في تنزيهه (ص) عن هذا النسيان بايراد احتمال آخر في الجملة قال : ويجوز ان يراد وان كان الشيطان ينسينك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين لانهما مما تنكره العقول فلا تقعد بعد الذكرى — بعد ان ذكرناك قبحها ونبهناك عليه معهم اه وقد ردوا عليه هذا الوجه لانه بناه على قاعدة المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين؛ وبناؤه عليها غير متعين، ولا ينكر الاشاعرة ولاغيرهم ان عقل المؤمن يجزم بقبح القعود مع المستهزئين بآيات الله وان لم يكن العقل مستقلا بالتحليل والتحريم ، فيمكن توجيه هذا الجواز مع رد تلك القاعدة ، الا ان يمنع منه التعبير بفعل الاستقبال وهو ما اعترض به ابن المنير، ولكن كيف يخفى مثله على هذا اللغوي النحرير ؟

واستنبط العلماء من الآية ان الإنسان غير مؤاخذ بما يفعله في حال النسيان بمعنى انه لا يعاقب عليه ، واذا أكل في رمضان ناسيا لا يبطل صيامه ، لا بمعنى ان الحقوق تسقط به ، ويستدل الاصوليون والفقهاء على هذه المسألة بحديث « رفع عن

أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وقد اشتهر الحديث بهذا اللفظ في كتبهم وفيه مقال للمحدثين معروف ، وقد أنكره الامام أحمد رواية ودراية فقال لا يصح ولا يثبت اسناده، وقال : من زعم ان الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف كتاب الله وسنة رسوله (ص) فان الله أوجب في قتل النفس في الخطإ الكفارة . وقد يجاب عن هذا بما ذكرناه آنفا من ان رفع النسيان عبارة عن رفع الاثم لا رفع الحقوق، فمن نسي الصلاة أعادها ، وحقوق العباد أولى بأن لا تسقط بنسيان ولا خطإ . وأما اسناده فقد رواه ابن ماجه في باب طلاق المكره والناسي من حديث ابن عباس مرفوعا بلفظ « ان الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » قال في الزوائد اسناده صحيح ان سلم من الانقطاع ولكن رجح انه منقطع، وقال الديبع في الاحاديث المشتهرة : وقد رواه ابن ماجه وابن أبي عاصم بلفظ « ان الله وضع عن هذه الامة ثلاثا الخطأ والنسيان والامر يكرهون عليه » ورواته ثقات وكذا صححه ابن حبان .

﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ أي وما على الذين يتقون الله من حساب الخائضين في آياته شيء ما فلا يحاسبون على شيء من خوضهم ولا على غيره من أعمالهم التي يحاسبهم الله تعالى عليها اذا هم تجنبوهم وأعرضوا عنهم كما أمروا، وقد روي هذا المعنى عن سعيد بن جبير قال : ما عليك أن يخوضوا في آيات الله اذا تجنبتهم وأعرضت عنهم ، وقيل هو رخصة ومعناه ما عليهم من حسابهم من شيء ان قعدوا معهم ، وأنه منسوخ بآية سورة النساء إذ قال فيها (انكم اذا مثلهم) وروي عن مجاهد والسدي وابن جريج، وهو بعيد جدا لانه لا يصح أن يتصل بالنهي ما يبطله وهو قد نزل معه كما هنا . قال الآلوسي : وفي الطود الراسخ في المنسوخ والناسخ إنه لا نسخ عند أهل التحقيق فذلك لان قوله سبحانه « وما على الذين الخ خبر ولا نسخ في الاخبار فافهم » اه وأقول هذا تعليل باطل فالجملة إنشائية المعنى فهي حكم شرعي لا خبر من الاخبار التي قالوا انها لا تنسخ ، والعمدة في رد القول بنسخها ما ذكرآنفا فتعين تقدير الشرط الذي ذكره سعيد بن جبير، أو ان يقال في التقدير: وما على الذين يتقون الله من حساب الخائضين من شيء اذ كانوا يقعدون معهم قبل النهي كارهين لخوضهم وباطلهم، وكان يشق عليهم تجنبهم والاعراض عنهم ، فليس سبب النهي انهم كانوا

يحملون من أوزارهم شيئا لو لم ينهوا فانه تعالى ما أخر النهي الا الى وقته المناسب له، ولا يؤاخذهم بما كان منهم قبله، فهو كقوله تعالى بعد تحريم محرمات النكاح (الا ما قد سلف)

﴿ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ أي ولكن جعل النهي موعظة وذكرى لعل هؤلاء المؤمنين بالله تعالى يتقون أيضا كل ما لا ينبغي لهم من سماع الخوض في آيات الله بالباطل ، فهذه التقوى المرجوة هي تقوى خاصة ، وتلك التقوى هي الكلية العامة . هذا هو الوجه عندنا، والذكرى هنا بمعنى التذكير وفي الآية السابقة بمعنى التذكر كما تقدم . وقيل ان المعنى ما عليهم من حسابهم من شيء ان أعرضوا أو قعدوا معهم ولكن عليهم أن يذكروهم وينكروا عليهم في تلك الحال لعلهم يتقون الخوض ولو في حضرتهم .

ذكر هذا المعنى للذكرى على كل من التقديرين المتضادين . قال ابن جبير : ذكروهم ذلك وأخبروهم انه يشق عليكم فيتقون مساءتكم . وكأنه نسي أن السورة نزلت في الوقت الذي كان المشركون يضطهدون المؤمنين أشد الاضطهاد ويتحرون مساءتهم ويكرهون مسرتهم . وقد يتجه جعل التذكير لهم على تقدير القعود معهم اذا صح ما ذكره الرازي وغيره عن ابن عباس قال : قال المسلمون لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن وخاضوا فيه قمنا عنهم لما قدرنا أن نجلس في المسجد الحرام وان نطوف بالبيت، فنزلت هذه الآية وحصلت الرخصة فيها للمؤمنين بأن يقعدوا معهم ويذكروهم ويفهموهم اه وهو معارض بنزول السورة دفعة واحدة الا ما استثني وليس هذا منه ، ومن البديهي ان الطواف بالبيت لا يستلزم القعود مع المستهزئين ولا الاقبال عليهم ، وأما القعود بالبيت فلا ضرر في تركه اذا استلزم أن يكون مع المستهزئين . ومن الغريب ان الرازي اكتفى بهذا الوجه الضعيف في تفسير الآية ولم يذكر غيره لا نقلا ولا من عند نفسه

وقد أشرنا في تفسير الآية السابقة الى ان جعل هذه الآية في جماعة المتقين تدل على أنهم هم المرادون فيما قبلها بخطاب الرسول (ص) ويؤكده الرجوع الى الخطاب في قوله :

﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ أي ودع أيها الرسول ومثله فيه من تبعه من المؤمنين — الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا من هؤلاء

المشركين وهم المقصودون أولا و بالذات، ومن كل من على شاكلتهم من المؤمنين وأهل الكتاب ، وغرتهم الحياة الدنيا الفانية ، فآثروها على الحياة الآخرة الباقية . أما اتخاذهم دينهم لعبا ولهوا ففيه وجوه : المتبادر منها ان أعمال الدين التي يعملونها لما لم تكن مزكية للانفس ولا مهذبة للاخلاق ، على الوجه الذي يرضي الرحمن ، و يعد المرء للقائه في دار الكرامة والرضوان ، ولا مصلحة لشؤون الاجتماع والعمران ، كانت اما صرفا للوقت فيما لا فائدة فيه وهو معنى اللعب ، واما شاغلة عن بعض الهموم والشؤون وهو اللهو . ويظهر اللهو في أعمال الدين الاجتماعية كالمواسم والاعياد ، وقد روي القول به عن ابن عباس ، قال : جعل الله لكل قوم عيدا يعظمونه ، ويصلون فيه و يعمرونه بذكر الله تعالى ، ثم ان الناس أكثرهم من المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لهوا ولعبا غير المسلمين فانهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله تعالى اه وهو يريد أن هذا مما تدل عليه الآية لا انه كل المعنى المراد منها ، هذا أحد وجوه خمسة ذكرها الرازي في الآية وجعله الرابع

وأما الوجوه الاخرى فأولها انهم اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا اليه — وهو دين الاسلام — لعبا ولهوا حيث سخروا به واستهزؤا به (الثاني) اتخذوا ماهو لعب ولهو من عبادة الاصنام دينا لهم (الثالث) ان الكفار كانوا يحكمون في دين الله بمجرد التشهي والتمني مثل تحريم السوائب والبحائر ، وما كانوا يحتاطون في أمر الدين البتة و يكتفون فيه بمجرد التقليد فعبر الله عن ذلك بأنهم اتخذوا دينهم لعبا ولهوا (الخامس) قال — وهو الاقرب — ان المحقق في الدين هو الذي ينصر الدين لاجل أنه قام الدليل على انه حق وصدق و صواب ، فاما الذين ينصرونه ليتوسلوا به الى أخذ المناصب والرياسة وغلبة الخصم وجمع الاموال فهم الذين نصروا الدين للدنيا ، وقد حكم الله على الدنيا في سائر الآيات بأنها لعب ولهو ، فالمراد من قوله (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) هو الاشارة الى من يتوسل بدينه الى دنياه ، واذا تأملت في حال أكثر الخلق وجدتهم موصوفين بهذه الصفة ، وداخلين تحت هذه الحالة ، والله أعلم اه

أقول كان ينبغي أن يذكر نحوا من هذا في تفسير (وغرتهم الحياة الدنيا)

وقد جعل هو هذه الجملة مؤيدة له وجعله هو المراد من اللعب واللهو ، ذاهلا عن كونه لا يظهر في كفار قريش الذين قصدوا به أولا وبالذات . والوجه الاول اعتمده المتأخرون وفيه أنه مخالف لقوله تعالى (لكم دينكم ولي دين) وقوله (٥ : ٦٠ الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً) فالله تعالى لا يضيف دين الاسلام الى الكفار . ومعنى غرهم الحياة الدنيا أنها خدعتهم وأغفلتهم عن أنفسهم وما هي مستعدة له من الكمال ، وعن كون البعث حقا والعدم المحض من المحال ، فاشتغلوا بلذاتها الحقيرة الفانية المشوبة بالمنغصات ، عما جاءهم من الحق مؤيدا بالحجج القيمة والآيات البينات ؛ واستبدلوا الخوض فيها ، بما كان يجب من فقهها وتدبرها ؛ وهو وسيلة الاهتداء بها

وهذا الامر بترك هؤلاء المغرورين قد جاء على سبيل التهديد كقوله (١٥ : ٣ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون) وهو تهديد بعذاب الدنيا بدليل قوله بعده (٤ وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم ٥ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) وورد مثله بعذاب الآخرة (٤٣ : ٨٣ و ٧٠ : ٤٢) وقيل المراد به الامر بالكف عنهم وترك التعرض لهم وانه نسخ بآية القتال ، روي عن قتادة وضعفه المحققون . واذا لم يتضمن معنى التهديد كان معناه ذرهم ولا تهتم بخوضهم ولا تكذيبهم وعليك ما كلفته وحملته من تبليغ دعوة ربك ، وذلك قوله عز وجل

﴿ وذكر به ان تبسل نفس بما كسبت ﴾ البسل مصدر بسله يطلق بمعنى حبس الشيء ومنعه القهر وبمعنى الرهن والاباحة ومنه أسد باسل ورجل باسل أي شجاع ممتنع على أقرانه أو مانع لما يريد حفظه أن ينال ، وأبسل الشيء كبسله أسلمه للهلاك . والضمير في قوله « به » للقرآن المعلوم بقرينة الحال لانه هو الذكر الذي بعث به الرسول المذكر ، وبقرينة المقال كقوله تعالى في آخر سورة ق (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) والقرآن يفسر بعضه بعضا كما قالوا . وروي عن ابن عباس ثلاثة أقوال في معنى الابسال — الفضيحة والاسلام للهلاك والحبس في النار ،

والمعنى وذكر الناس وعظهم بالقرآن اتقاء ان تبسل كل نفس بما كسبت في الآخرة أي اتقاء حبسها أو رهنها في العذاب أو اسلامها اليه أو منعها من نعيم الجنة وتفاديا من ذلك بما بينه الذكر الحكيم من أسباب النجاة والسعادة ، ويؤيد التقدير

الاول قوله تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين) الآية – وقدر بعض مخافة أو كراهة أن تبسل، وبعضهم لئلا تبسل . وهو دليل على مؤاخذة الكفار بكسبهم قبل البعثة وان من لم تبلغهم الدعوة لا يكونون في الآخرة سواء (١)

ثم وصف تعالى النفس المبسلة أو علل إبسالها بقوله ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ أي ليس لها من غير الله ولي أي ناصر ينصرها ، أو قريب يتولى أمرها ، ولا شفيع يشفع لها عند الله تعالى (٤٠ : ١٨ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) في يوم وصفه تعالى بقوله (٢ : ٢٥٣ لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) والامر فيه لله وحده (٣٩ : ٤٥ قل لله الشفاعة جميعا — ٢ : ٢٥٤ من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟ — ٣٤ : ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له — ٢١ : ٢٨ ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) فكل نفس تأتيه في ذلك اليوم وهو تعالى غير راض عنها، فهي مبسلة بما كسبت من سيء عملها ،

﴿وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ العدل بالفتح ماعادل الشيء وساواه من غير جنسه كما تقدم في تفسير (٥ : ٩٨ أو عدل ذلك صياما) وهو هنا بمعنى الفداء لان الفادي يعدل المفديّ بمثله كما قال الزمخشري ، وفعله يتعدى الى المفعول به بالباء كما قال في أول هذه السورة (بربهم يعدلون) فكلّ عدل منصوب هنا على المصدرية لا المفعولية . والمعنى : وان تفد النفس المبسلة كل نوع من أنواع الفداء لا يؤخذ منها – أي لا يقع الاخذ منها ولا يحصل – فهو على حد أُكل من القصعة، وسير من البلد – لان العدل – وهو مصدر – لا يؤخذ أخذا، ويجوز أن يضمن الاخذ معنى القبول، وان يعاد الضمير على العدل وهو الفداء بمعنى المفديّ به وان عد هنا من قبيل الاستخدام . وقد استعمل العدل في سورة البقرة بمعنى المعدول به أي الفدية وأسند الى الاخذ والى القبول ، قال (٢ : ٤٧ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) وقال (٢ : ١٢٢ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون)

(١) راجع تفصيل ذلك في ص ٧٢ — ٧٥ ج ٦ تفسير

والمراد من هذه الآيات ومافي معناها إبطال أصل من أصول الوثنية وهو تعليق النجاة في الآخرة (كنيل كثير من المقاصد في الدنيا) بتقديم الفدية أو بشفاء الشافعين ، وتقرير أصل الدين الالهي وهو أن النجاة في الآخرة ورضوان الله والقرب منه لاتنال الا بما شرعه الله على ألسنة رسله من الايمان والاسلام — وبعبارة أخرى بالعمل الصالح الذي تتزكى به الانفس مع الايمان الاذعاني بالله وبرسله وما جاؤا به، ومن أبسلهم كسبهم للسيئات والخطايا واتخاذهم الدين لعبا ولهوا وغرورهم بالحياة الدنيا فلا تنفعهم شفاعة ولا تقبل منهم فدية

﴿ أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ﴾ أي اولئك الموصوفون بما ذكرهم الذين أسلموا للهلكة وارتهنوا وحبسوا عن دار السعادة بسبب ما كسبوا من الاوزار والآثام حتى أحاطت بهم خطاياهم ولم يكن لهم من دينهم الذى اتخذوه لعباً ولهواً ما يزجرهم عنها . وماذا يكون جزاؤهم بعد الابسال ؟ ﴿ لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ أى لهم شراب من ماء حميم وهو الشديد الحرارة — ويطلق على الشديد البرودة أيضاً — وعذاب شديد الالم بسبب كفرهم ، الذى ظلوا مستمرين عليهم طول حياتهم ، حتى صرفهم عما جعله الله تعالى — لو اتبعوه — سبب نجاتهم ، أو التقدير : أولئك المبسلون بكسبهم لهم شراب من حميم وعذاب اليم باستمرارهم على كفرهم ، وبهذا ظهر الفرق بين التعليل الاول بالكسب والتعليل الثاني بالكفر ، فالاول ذكر بصيغة الماضي والثاني بصيغة المستقبل الدال على الاستمرار . فلولا رسوخهم في الكفر الذي أفسد فطرتهم حتى أصروا عليه إصرارا دائما دل على انه لم يبق فيهم استعداد للحق والخير لما كان مجرد كسب بعض السيئات المنقطعة ينهض سببا لهلاكهم ووقوعهم في هذا العذاب كله . وفي الآية أكبر العبر لمن يفقه الكلام ، ولا يغتر بلقب الاسلام ، فانما المسلم من اتخذ أمامه القرآن ، وسنة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، لا من اغتر بالاماني والاوهام ، وانخدع بالرؤى والاحلام ،

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بما شاء من الألقاب ان شاء . واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متأخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ حكم تارك الصلاة ﴾

(س ٨) من صاحب الامضاء بمصر

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الفاضل السيد رشيد رضا المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . و بعد فأرجوكم تعريفنا على صفحات المنار الأغر عن حكم تارك الصلاة بغير عذر في نظر الشرع وهل الاحاديث التي وردت بخصوص ترك الصلاة تؤخذ على ظاهرها أو فيها مايحتمل التأويل كما يقال ؟ اماما أعلم من الاحاديث الواردة في تارك الصلاة أو المتخلف عنها فهو الموضح بعدُ فان كان هناك أخرى أرجو التفصيل بايضاحها في الاجابة . قال صلى الله عليه وسلم :—

١ « بين العبد والكفر — وفي رواية الشرك — ترك الصلاة فاذا تركها فقد أشرك . وحوضي كما بين أيلة الى مكة أبار يقه كعدد نجوم السماء له ميزابان من الجنة كلما نضب أمداه ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا وسيرده أقوام ذابلة شفاههم فلا يطعمون منه قطرة واحدة من كذب به اليوم لم يصب منه الشراب يومئذ »

٢ « العهد الذي بيننا و بينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » (يريد طبعا العهد الذي بيننا و بين الكفار)

٣ « من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله »

٤ « الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله »

٥ « والذي نفسي بيده لقد هممت ان آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف الى رجال فاحرق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم انه يجب عرقا سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء»

فأرجو بعد النظر في هذه الاحاديث التكرم بتفهيمنا درجة صحتها وعما اذا كان في ظاهرها شيء يحتمل التأويل خصوصا في لفظة الكفر أو الشرك

هذا والسبب الذي أجأني الى عرض سؤالي هذا على فضيلتكم هو ذلك التهاون الغريب في أمر الصلاة بين من يسمون أنفسهم مسلمين الآن وظنهم ان تاركها لايخرج عن كونه عاصيا بسيطا مثل باقي العصاة مفتوحة له أبواب التوبة في أي وقت شاء فيه الصلاة وذلك بالرغم مما ورد في أمرها في القرآن الكريم والاحاديث الشريفة من التشديد والوعيد . لذلك أرجو أن تكون الاجابة مفصلة الشرح لعلها تكون فصل الخطاب فيما عليه شبابنا المسلمون المتفرنجون من الحيرة في حكم تارك الصلاة بغير عذر والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته　　الداعي

علي مهيب

بتفتيش عموم التلغرافات

(ج) يجد السائل في المجلد الثامن عشر من المنار مايغنيه عن تفصيل القول في هذه المسألة وهو رسالة للشيخ محمد أبي زيد من طلبة دار الدعوة والارشاد اسمها (البرهان على خروج تارك الصلاة ومانع الزكاة من الايمان) نشرت في ص ٥٠٥ و ٥٦٢ و ٥٨٦ وما بعدها أورد فيها كثيرا من الآيات التي استدل بها على كفر من ذكر وبعض الاحاديث المؤيدة لدلالتها على ذلك ، وذكرنا فيما علقناه في حواشيها وما ذيلناها خلاف العلماء في المسألة والجمع بين الاقوال . وان أدري أيريد السائل الآن أن أتوسع في شرح المسألة واستيفاء ماورد فيها من النصوص لزيادة الايضاح وتكرار تذكير التاركين لهذه الفريضة التي هي عماد الاسلام ؟ أم لم يقرأ تلك الرسالة وما علقناه عليها ؟ وقد يستدل بما أورده من الاحاديث وسؤاله عن غيرها انه لم يقرأ الرسالة ، على أنه من أشد قراء المنار عناية بهذه المسائل كما نظن ، فنحثه أولا على مراجعتها وقراءتها ونرشده الى كتابين جليلين في المسألة أحدهما

(كتاب الصلاة) لامام السنة أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، (وكتاب الصلاة وأحكام تاركها) لناصر السنة ابن القيم رحمه تعالى ، والكتابان مطبوعان معا . فاذا أشكل عليه بعد الاطلاع على ماذكر أمر فليسأل عنه

أما الحديث الاول مما أورده في السؤال فصدره الخاص بالصلاة في صحيح مسلم وأكثر كتب السنن والثاني رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي والنسائي والثالث والرابع والخامس في الصحيحين وغيرهما الا الثالث فقد رواه البخاري دون مسلم، ومما قيل في السادس انه في تهديد جماعة من المنافقين وأنه في صلاة الجمعة خاصة أو الجماعة مطلقا فالاحاديث التي أوردها في الموضوع كلها صحيحة . وقد ورد في معناها أحاديث أخرى

وانني أذكر كلمة وجيزة في المسألة تفيد السائل فضل فائدة في المسألة وان كان يمكنه مراجعة المجلد الثامن عشر من المنار ولا كتفاء بما فيه لانه من قدماء المشتركين الذين يحفظون المنار، وقد تكون ضرورية للذين اشتركوا في المجلد التاسع عشر والمجلد العشرين ومن يتعذر عليه مراجعة ما أحلنا السائل على مراجعته :

ان الكفر والظلم والفسق وما اشتق منها قد استعملت في لغة الكتاب والسنة استعمالا أعم وأوسع من الاستعمال لاصطلاحي الذي جرى عليه المتكلمون والفقهاء . فهؤلاء قد جعلوا الكفر مقابلا للايمان والاسلام فالمسلم الصحيح الايمان قد يكون عندهم فاسقا وظالما ويطلق عليه هذان اللقبان ولكن لا يطلق عليه لقب كافر . وفي لغة الكتاب والسنة تطلق هذه الالفاظ على ما يقابل الايمان والاسلام وعلى بعض كبائر المعاصي التي اختلف أئمة الفقهاء والمتكلمين في كفر مرتكبها بمعنى خروجه من ملة الاسلام كالصلاة، وكذا على ما أجمعوا على انه غير كفر بهذا المعنى كالنياحة على الميت . ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعا «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت » وأهل الاثر يتبعون النصوص في ذلك ويقولون بكفر كل من أسند اليه الكفر أو وصف به في الكتاب أو السنة وما كل كفر عندهم خروج من الملة، بل هنالك كفر دون كفر ، وهم ثلة من الاولين وقليل من الآخرين . وأهل المذاهب يتبعون مذاهبهم في كل مسألة فيفرقون بين النصوص

يؤولون بعضها ويأخذون ببعض اتباعا لمن قلدوهم لا للنصوص

والتحقيق الجامع بين النصوص ان من كان مؤمنا صحيح الايمان مسلما صادق الاسلام لا يخرجه عن ملة الاسلام تركه الصلاة كسلا أو ارتكابه لكبيرة من المنهيات بجهالة يتوب منها ولكن الايمان الصحيح هو إيمان الاذعان والخضوع الفعلي لاوامر الله ونواهيه الذي به يكون المؤمن مسلما . وقد يكون المرء مؤمنا غير مذعن كابليس ومن قال الله تعالى فيهم من أئمة الكفر (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) ومن قال فيهم (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وغير هؤلاء ، وهل يعقل أحد ينصف من نفسه ان يكون من أولئك المؤمنين المذعنين من يترك عماد الدين وأعظم أركان الاسلام بغير مبالاة ويصر على ذلك غير مكترث للآيات والاحاديث الكثيرة في الامر بها والترغيب فيها والبيان لفوائدها ومكانتها العليا من الدين والترهيب والزجر عن تركها والوعيد الشديد عليه وتسميته كفرا في أحاديث صحيحة ظاهرها ان المراد به كفر الاعتقاد لا كفر النعمة أو كفر العمل كما قيل ؟

وممن قال بكفر تارك الصلاة من أئمة السلف إمام الائمة علي كرم الله وجهه

وقد أول الجمهور الاحاديث الواردة في ذلك بما أشرنا الى بعضه آنفا وحملها بعضهم على الاستحلال ولا خلاف في كفر من استحل حراما مجمعا على تحريمه معلوما من الدين بالضرورة كترك الصلاة والزكاة من الفرائض وكفعل الزنا وشرب الخمر من المحظورات . واستحلال الشيء هو عده حلالا كما قال ابن منظور في لسان العرب . فاذا كان المراد به الاستحلال بالفعل وهو أن يكون المحرم عند مرتكبه كالحلال في عدم تحرجه من فعله ولا احترامه لامر الله ونهيه حتى كانه لم يفعل شيئا فهذا هو الذي لا يعقل أن يصدر من مؤمن . وإن كان المراد اعتقاد أن الشرع أحله فهذا محال على نشأ بين المسلمين . ولا أعرف لإمكان الجمع بين الايمان بما جاء به محمد (ص) وبين ترك فريضة منه أو ارتكاب محرم الا صورة واحدة وهي الغرور بالاماني كالمغفرة والشفاعة وجعل الفاسق ذلك كالمقطوع به ، وقد كشفنا الشبهة عن وجه هذا الغرور مرارا في التفسير وغيره التفسير والله أعلم

رحلة الحجاز

٥

عرفات وحدودها

كل من عرفة وعرفات (بفتح العين والراء فيهما) اسم لتلك البقعة الشريفة من الارض، التي هي من أشهر البقاع عند ألوف الالوف من البشر . وعرفات اسم مفرد ينون كأذرعات وليس جمعا لعرفة، وجوز ان يكون أشير بصيغة الجمع الى كون كل مكان أوقسم من تلك البقعة يتحقق فيه معنى التعارف أو التعرف الذي علت به التسمية كما يأتي قريبا . ويحتمل ان يكون بعض قدماء العرب مدّ فتحة الفاء وأشبعها في الشعر ثم كثر فصار اسما مستقلا ، ونظيره قول الشاعر في عرنة (بضم العين وفتح الراء والنون)

أبكاك دون الشعب من عرفات ... بمدفع آيات الى عرنات

وقول عمر بن أبي الكنات الحكمي المُغَنِّي

عفت الدار بالهضاب اللواتي ... بين توز فملتقى عرنات

وظاهر عبارة لسان العرب انهما موضعان قال : وعرونة وعرنة موضعان وعرنات موضع دون عرفات الى أنصاب الحرم ، قال لبيد :

والفيل يوم عرنات كعكما ... اذ أزمع العجم به ما أزمعا اهـ

وأقول : ليس دون عرفة موضع يسمى عرنات غير بطن عرنة الذي يذكره جميع العلماء . وأخطأ من قال ان عرفة مولد ليس بعربي صحيح ومن قال انه اسم لليوم التاسع من ذي الحجة ، وانما يقال انه يوم عرفة بمعنى انه يوم الوقوف بها كما يقال يوم التروية وليس كيوم عاشوراء . وقد ورد اسم عرفة في الاحاديث الصحيحة علما للبقعة وكذا في كلام الصحابة وسيأتي شيء منها ، وعليه جرى العلماء والفقهاء فكلهم يطلقون اسم عرفة على تلك البقعة الشريفة، فلا يغترن أحد بعبارة القاموس الموهمة ولا يقول من توهم ذلك من المتأخرين وزعم انه مقتضى كلام الراغب ، وانما قال الراغب « ويوم عرفة يوم الوقوف بها » أي بالبقعة المخصوصة التي اسمها عرفة وعرفات . قيل انها سميت بذلك لان آدم وحواء تعارفا بها بعد هبوطهما من الجنة، وقيل لقول جبريل لابراهيم عليهما السلام لما علمه المناسك وأراه المشاهد : أعرفت

أعرفت ؟ قال عرفت عرفت . وقيل لانها مقدسة معظمة كأنها عرّفت أي طيبت بالعطر . وقيل لان الناس يتعارفون فيها ، وقيل لتعرّف العباد فيها الى الله تعالى بالعبادة والدعاء . والقولان الاولان يتوقفان على نقل صحيح ، والاخيران أظهر معنى ، ويعدون تعارف الناس هنالك من حكم الحج التي شرع لاجلها ، والواقع ان التعارف بين الحجاج لا يتيسر في عرفة كما يتيسر في منى لان وقت عرفة قصير فان المجمع عليه منه يمتد من وقت الظهر الى وقت المغرب ولا يجزئ الوقوف قبل الزوال عند أحد من العلماء الا ماروي عن الامام أحمد من ان وقت عرفة من فجر يومها . ويجوز الوقوف في ليلة العاشر عند غير الشافعية ، فانى يتيسر التعارف بين أفراد ذلك الجمع الكبير ، في ذلك الوقت القصير ، مع ما يشرع فيه من ذكر الله تعالى ودعائه ، المقصود في هذه المعاهد لذاته . وستأتي للبحث تتمة

وحدود عرفة معروفة للناس بما يتناقلونه بالتواتر عن المواضع التي يحصل الفرض بالوقوف فيها . وذكر العلماء المتقدمون لها حدودا منها قول بعضهم : الحد الاول ينتهي الى جادة طريق المشرق ، والثاني ينتهي الى حافات الجبل الذي وراء أرضها ، والثالث ينتهي الى الحوائط (أي البساتين) التي تلي قرية عرنة وهذه القرية على يسار مستقبل القبلة في عرفة ، والرابع الى وادي عرنة بضم العين وفتح الراء والنون ، وعرنة ونمرة (بفتح فكسر) ليستا من عرفة ولا من أرض الحرم والمالكية يجيزون الوقوف بعرنة ويحتج عليهم الجمهور بحديث « عرفة كلها موقف وارفعوا عن بطن عرنة ، ومزدلفة كلها موقف وارفعوا عن بطن محسر ، ومنى كلها منحر » رواه مسلم وغيره . ومحسر (بكسر السين المهملة مشددة) و بطن محسر وعرنة كل منهما واد فاصل بين ما قبله وما بعده من المشاعر ، فوادي عرنة فاصل بين عرفات ومزدلفة ، ووادي محسر فاصل بين المزدلفة ومنى .

وقالوا : حد الحرم من المأزمين (بكسر الزاي) وهو مضيق بين عرفة ومزدلفة وهنالك علمان مبنيان في أول حدود عرفة جعلا علامة على حد الحرم فما كان شرقيهما من عرفة وما وراءها فهو من الحل ، وما كان قبلهما من جهة الغرب من بطن عرنة ومزدلفة ومنى فهو من الحرم ، ويوجد ميلان آخران في أول حد مزدلفة من جهة الغرب ، فما بين العلمين والميلين هو وادي عرنة .

وفي الجانب الجنوبي من العلمين مسجد نمرة المعروف بمسجد ابراهيم بقرب الطريق الممتد من منى الى الطائف ويسمى أيضا مسجد نمرة ومسجد عرنة . قال الغزالي : ونمرة هي بطن عرنة دون الموقف ودون عرفة اه وظاهر حديث نزول النبي (ص) بنمرة أنها أدنى عرنة لا كلها . وفي كتب اللغة أن نمرة هي الجبل الذي عليه أنصاب الحرم عن يمينك اذا خرجت من المأزمين تريد الموقف ، قال شارح القاموس: كذا في التكملة . وقيل: الحرم من طريق الطائف على طرف عرفة من نمرة على احد عشر ميلا اه وقد نقل هذا في معجم البلدان وفيه بعده : وقيل نمرة على احد عشر ميلا اه أي من مكة . فالتحقيق الذي عليه الجمهور ان المسجد لم يكن من عرفة ، وقول بعض الناس فيه « مسجد عرفة » بالفاء من باب ما جاور الشيء أعطي حكمه أو نسب اليه، ولذلك نسب بعضهم عرفة لى مكة وبعضهم الى منى . وقال بعضهم إن بعضه من عرفة وبعضه من عرنة ، وذلك بعد ان زيد فيه كما سيأتي

وقال شيخ الاسلام أحمد بن تيمية في مناسك الحج بعد ذكر استحباب المبيت بمنى ليلة عرفة كما فعل النبي (ص) ما نصه : ويسيرون منها الى نمرة عن طريق ضب من يمين الطريق. ونمرة كانت قرية خارجة عن عرفات (أي فخربت كما صرح غيره) من جهة اليمين فيقيمون بها الى الزوال كما فعل النبي (ص) ثم يسيرون منها لى بطن الوادي وهو موضع النبي (ص) الذي صلى فيه الظهر والعصر وخطب ، وهو في حدود عرفة ببطن عرنة . وهناك مسجد يقال له مسجد ابراهيم وإنما بني في أول دولة بني العباس اه المراد منه هنا

وقال الغزالي : في الاحياء وأما مسجد ابراهيم عليه السلام فصدره في الوادي وأخريات من عرفة فمن وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة . ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت هناك اه

قال الزبيدي عند شرح أول هذه العبارة من شرح الاحياء : وجدت بخط الامام الفقيه الشيخ شمس الدين بن الحريري ما نصه « قد وقع للفقهاء في نسبة هذا المسجد لابراهيم الخليل عليه السلام كلام وقد نسبه اليه جماعة منهم ابن كج وابن سراقة والبغوي والقاضي حسين والازرقي وتبعهم الشيخ النووي وجماعة من المتأخرين، وادعى الاسنوي انه خطأ وانما هو شخص اسمه ابراهيم من رءوس الدولة المتقدمة كما قاله

غير الاسنوي فالتبس بالخليل عليه السلام . ورد الاذرعي هذا بأن الازرقي من أعلم الناس بهذا وقد نسبه الى الخليل عليه السلام، قال وعلى تسليم أن يكون قد بناه من ذكر فلا يمتنع أن يكون منسوبا من أصله الى الخليل عليه السلام إما لانه صلى هناك أو اتخذ مصلى للناس فنسب اليه » اه وأقول : نعم لا يمتنع ذلك عقلا ولكننا لا نثبته الا بنقل صحيح فأين هو ؟

وقال لز بيدي عند شرح آخر تلك العبارة : قال النووي في زوائد الروضة : الصواب ان نمرة ليست من عرفات وأما مسجد ابراهيم (ع م) فقد قال الشافعي رحمه الله انه ليس من عرفة فلعله زيد بعده في آخره ، و بين هذا المسجد و بين موقف النبي (ص) بالصخرات نحو ميل . قال إمام الحرمين وتطيف بمنعرجات عرفات جبال وجوهها المقبلة من عرفة اه

وقال صديقنا محمد لبيب بك البتانوني في الرحلة الحجازية التي ألفها في سنة ١٣٢٨ بعد وصفه لمنى وانتقاله الى وصف الطريق منها الى المزدلفة فعرفة ما نصه: ومن ثم يضيق الوادي و يسمى بوادي محسر حتى اذا وصل الى المزدلفة وهي على مسافة ساعتين من منى (؟) أخذ في الانساع مرة أخرى . وهناك ترى على يمينك المشعر الحرام الذي يجب الوقوف عنده في النزول من عرفة . وفي هذه الجهة مسجد على جبل قزح عمره السلطان قايتباي . ومن هناك يضيق الوادي ثانيا و يسمى بوادي عرنة (بضم العين وفتح الراء والنون) حتى اذا قرب من مسجد نمرة (و يسمى مسجد عرفة أو مسجد ابراهيم) انفتحت ارجاؤه الى الشمال والجنوب .وهذا المسجد كبير قد أحاطت به البواكي [يعني الاروقة] في جهاته الاربع من داخله ، وعمره قايتباي عمارة تشكر ، ونصفه الغربي (الذي الى مكة)في الحرم والصف الآخر في الحل وبوسطه مجرى ماء يسير اليه زمن الحج من مجرى عين زبيدة . وفي شمال هذا المسجد بقليل الى الشرق ترى العلمين وهما عمودان من البناء بعيدان عن بعضهما [أي أحدهما بعيد عن الآخر] بارتفاع خمسة أمتار في عرض نحو ثلاثة قد أقيما في فضاء الوادي للدلالة على حدود عرفة من الغرب وهنالك تجد الجبل قد حلق على الوادي وقفله امامك من الشرق [أقفله أي سده] بشكل قوس كبير وهو ما يسمونه جبل عرفة . وعلى طرف القوس من جهة الجنوب الطريق الى الطائف على كرا . وفي طرفه من جهة الشمال لسان يبرز الى الغرب يسمونه جبل الرحمة ، وسفحه الجنوبي هو حد عرفة من الشمال . اه

صفة جبل الرحمة بعرفات

قال ابن جبير الاندلسي في رحلته : « وعرفات بسيط من الارض مد البصر لو كان محشر الخلائق لوسعهم ، يحدق بذلك البسيط الافيح جبال كثيرة . وفي آخر ذلك البسيط جبل الرحمة وفيه وحوله موقف الناس ، والعلمان قبله بنحو الميلين فما أمام العلمين الى عرفات حل وما دونهما حرم ، وبمقربة منهما مما يلي عرفات بطن عرنة الذي أمر النبي (ص) بالارتفاع عنه — ثم قال - «وجبل لرحمة المذكور منقطع عن الجبال قائم وسط البسيط وهو كله حجارة منقطعة بعضها عن بعض . وكان صعب المرتقى فأحدث فيه جمال الدين(* المذكورة مآثره في هذا التقييد أدراجا وطيئة من أربع جهاته يصعد فيها بالدواب الموقورة وأنفق فيها مالا عظيما . وفي أعلى الجبل قبة تنسب الى أم سلمة (رض) ولا يعرف صحة ذلك وفي وسط القبة مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه . وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدق به فسيح الساحة جميل المنظر يشرف منه على بسيط عرفات . وفي جهة القبلة منه جدار وقد نصبت فيه محاريب يصلي الناس فيها . وفي أسفل هذا الجبل المقدس عن يسار المستقبل للقبلة دار عتيقة البنيان في أعلاها غرف (وفي نسخة غرفة) لها طيقان تنسب الى آدم (ص) وعن يسار هذه الدار في استقبال القبلة الصخرة التي كان عندها موقف النبي (ص) وهي في جبل متطأمن »

أقول هذا الجبل هو جبل إلال (بوزن هلال) قال ابن دريد في وصف الحاج

ينوي التي فضلها رب العلى ... لما دحا تربتها على البنى (١)
حتى اذا قابلها استعبر لا ... يملك دمع العين من حيث جرى (٢)
ثمت طاف واثنى مستلما ... ثمت جاء المروتين فسعى (٣)
ثمت راح في الملبين الى ... حيث تحجى المأزمين ومنى (٤)
ثم أتى التعريف يقرو مخبتاً ... منازلا بين إلال فالنقا (٥)

(* هو جمال الدين محمد الجواد الموصلي كان وزير صاحب الموصل وله في الحرمين والمشاعر عمارات عظيمة (١) البنى جمع بنية يشير الى أثر « دحا الله الارض دحواً من تحت الكعبة » وهو مروي عن عطاء وليس حديثا كما توهم ودحا الشيء رماه وكشفه ونحاه قيل وبسطه (٢) استعبر جرت عبرته أي دمعته (٣) المروتان الصفا والمروة تغليب (٤) تحجى تقصد وتعمد (٥) التعريف الوقوف بعرفة أي أتى مكان التعريف ويقرو يستقري ويتتبع منزلا بعد منزل ، ومخبتا خاضعا خاشعا ، والال الجبل ، والنقا تلال الرمل

هذه الصورة رسمت لرحلة البتانوني

موقف النبي (ص) بعرفة

اتفق الرواة على انه (ص) صلى الصبح يوم عرفة بمنى ورحل منها بعد طلوع الشمس حتى جاء نمرة فأقام بها الى وقت الزوال ثم جاء بطن الوادي فجمع بين الظهر والعصر ثم خطب الناس ثم راح فوقف على الموقف من عرفة ، وعلى أن المكان الذي وقف فيه وأشار اليه في الحديث هو المكان المعروف عند الصخرات . وقال « وقفت ههنا وعرفة كلها موقف » والمراد أنه لم يقف هنالك لمزية لذلك المكان على غيره في أداء النسك بل يصح الوقوف في كل موضع من عرفة . ولكن صار لذلك المكان مزية بوقوفه فيه فصار موقف الائمة ونوابهم الذين يحجون بالناس . وقد نقل الزبيدي في شرح الاحياء كلاما منصلا للمحب الطبري في ذلك المكان وفي جبل الرحمة قال

« وقد روى أبو الوليد الازرقي باسناده عن ابن عباس ان موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بين الأجبل الثلاثة النبعة والنبيعة والنابت ، وموقفه صلى الله عليه وسلم منها على النابت قال والنابت على النشزة التي خلف موقف الامام . وموقفه صلى الله عليه وسلم على ضرس من الجبل النابت مضرس بين أحجار هناك نابتة من الجبل الذي يقال له إلال ككتاب = (قال المحب الطبري) وعلى هذا يكون موقفه صلى الله عليه وسلم على الصخرات الكبار المفترشة في طرف الجبيلات الصغار التي كأنها الروابي عند الجبل الذي يعتني الناس بصعوده ويسمونه جبل الرحمة واسمه عند العرب إلال بالكسر ، وذكر الجوهري فيه الفتح والمحفوظ خلافه ، وهذا يرجح ضبط من ضبط قول جابر في حديثه الطويل « وجعل جبل المشاة بين يديه » بالجيم فان الواقف كما وصفناه يكون هذا الجبل أعني إلالا بين يديه وهو جبل المشاة ، وذكر ابن حبيب ان إلالا حبل من الرمل يقف الناس به بعرفات عن يمين الامام ، حكاه عنه أبو عمرو عثمان بن علي الأنصاري في تعاليقه على الجوهري ، وذكر ابن ابي الصيف في بعض تعاليقه على الجوهري ان اسم جبل الرحمة الذي يقال له جبل المشاة كبكب

= (قال المحب الطبري) والمشهور في كبكب أنه اسم جبل بأعلى نعمان بقرب الثنايا عنده قوم يدعون الكباكبة نسبة اليه ، والمشهور في جبل الرحمة ما ذكرناه . اذا تقرر هذا فمن كان راكباً ينبغي أن يلابس بدابته الصخرات المذكورة كما روي عنه صلى الله عليه وسلم ، ومن كان راجلا وقف عليها أو عندها بحسب ما يتمكن من غير

ايذاء أحد ،ولا يثبت في الجبل الذي يعتني الناس بصعوده خبر ولا أثر (قال) وذكر شيخنا أبو عمرو ابن الصلاح في منسكه عن صاحب الحاوي أنه يقصد الجبل الذي يقال له جبل الدعاء وهو موقف الانبياء عليهم السلام، وعن محمد بن جرير الطبري أنه يستحب الوقوف على الجبل الذي عن يمين الامام يعني جبل الرحمة، والذي ذكره صاحب الحاوي لا دلالة فيه على إثبات فضل لهذا الجبل فانه قال والذي نختار في الموقف أن يقصد نحو الجبل الذي عند الصخرات السود وهو الجبل الذي يقال له جبل الدعاء وهو موقف الانبياء عليهم السلام والموقف الذي وقف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من الاجبل الثلاثة على النابت. ثم ساق ما أوردناه سابقا ثم قال وهذا أحب المواقف الينا للامام والناس

(قال المحب الطبري) وهذا صريح في أنه أراد بجبل الدعاء النابت الذي وقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تعرض في كلامه لجبل الرحمة بنفي ولا اثبات . وما فهمه رحمه الله انه جبل الرحمة غير مطابق وقوله وهو الجبل أراد سهله وهو من الاضداد يطلق على المكان المرتفع والمنخفض والنبي صلى الله عليه وسلم انما وقف عليه لكونه موقف الانبياء عليهم السلام، وكلام ابن جرير ظاهر الدلالة أنه اراد بالجبل الذى عن يمين الامام الجبل الذى وقف عليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو النابت كما تقدم بيانه والظاهر انهما أراداه بقولهما فيكونان قد أثبتا له شيئا من الفضل، ولا نعلم من اين اخذا ذلك اذ لم يثبت في فضله خبر ولو ثبت له فضل فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل منه وهو الذي خصه العلماء بالذكر والفضل

ثم قال الطبري نقلا عن صاحب النهاية : في وسط عرفة جبل يقال له جبل الرحمة : ولا نسك في الرقي عليه وان كان يعتاده الناس. وقال غيره قد افتتنت العامة بهذا الجبل في زماننا واخطؤا في اشياء، منها (أنهم) جعلوا الجبل هو الاصل في الوقوف فهم يذكرونه لهجون، وعليه دون غيره معرجون ، حتى ربما اعتقد بعض العامة ان الوقوف لا يصح بدون الرقي (فيه) ومنها احتفالهم بالوقوف عليه قبل وقت الوقوف ، ومنها ايقادهم النيران عليه ليلة عرفة واهتمامهم لذلك باستصحاب الشموع من بلادهم واختلاط النساء بالرجال هنالك صعودا وهبوطا بالشمع الكثير الموقد، وانما حدث ذلك بعد انقراض السلف الصالح ، ومن كان متبعا آثار النبوة فلا يحصل بعرفة قبل دخول وقت الوقوف يأمر بذلك وينهى عن مخالفته اهـ ما نقله الزبيدي

انجاخ على جبل الرحمة بغرفاية

هذه الصورة رسمت لرحالة البنانوني

الحرب والصلح

كثر الخوض في حديث الصلح في السنة الماضية ، وقد كانت دول التحالف الجرماني هي التي بدأت بطلب فتح باب المفاوضة في الصلح وكلفت ألمانية الدكتور ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية قبل انضمامه الى محاربيها أن يتوسط بين المتقاتلين في الصلح فكتب مذكرة في ذلك ردت عليها انكلترة أشد الرد ، ورفضتها كل الرفض ، وتبعها حلفاؤها بالطبع . ثم ان البابا أرسل رسالة الى جميع الدول المتقاتلة من الفريقين دعاهم فيها الى المبادرة الى حقن الدماء وعقد الصلح على قاعدة جعل قوة الحق الادبية بدلا من قوة الجيش المادية ، وتحديد التسليح البري والبحري والجوي ، وحرية البحار وحقوق الشعوب وعدم ضم شيء من أملاك بعضها الى بعض وعدم أخذ غرامة حربية وجعل التعويض عن الخراب بالتعاون — وقاعدة التحكيم الاجباري فيما يقع بين الدول من المسائل الخلافية . فلم يستحسن هذه المذكرة من دول التحالف البريطاني الا حكومة روسية المؤقتة التي سبقت الى اقتراح قاعدة « لاضمّ ولا غرامة » وقد رد الدكتور ولسن على المذكرة ردا طويلا وافقه عليه سائر الحلفاء أهم مافيه ان حكومة ألمانية الحاضرة حكومة أتقراطية لاتثق الحلفاء بعهودها فيعقدوا معها صلحا فالاساس الاول لقواعد الصلح عندهم تحويل هذه الحكومة الى دمقراطية تنطق باسم الشعب فان لم يبادر الالمان أنفسهم الى قلب حكومتهم وثل عرش آل هوهنزلرن المؤيد بالقوة العسكرية والاستعاضة عنها بحكومة دمقراطية فان الحلفاء هم الذين يفعلون ذلك بالقوة القاهرة ، وحينئذ يتم الصلح الحقيقي الذي يستريح به البشر من مصائب الحرب . وقد أيدت الحلفاء الرئيس في رده وأثنت جرائدها عليه[1] الا أن بعض الجرائد الانكليزية كالتيمس أنكرت منها تفرقة الرئيس بين الحكومة الالمانية والشعب الالماني اذ جعل وزر الحرب على الحكومة وحدها قالت « ولكن الشعب الالماني قابل الحرب بحماسة عظيمة وان لم يكن هو الذي أعلنها وقد وافق

(١) نشر رد الرئيس ولسن في مقطم ٣ ذي الحجة الماضي (٢١ سبتمبر) ونشرت نبذ من الجرائد الامريكية والانكليزية والفرنسية والطليانية في تأييده في ٤ ذي الحجة

نوابه على جميع الاعتمادات الحربية وقابلت صحافته الفظائع الجرمانية بهتاف شديد»

ونقول ان الظاهر لنا أن الرئيس ولسون يرمي بتبرئة الشعب الالماني من تبعة الحرب واظهاره الا كتفاء باسقاط حكومته الامبراطورية الى إغرائه بثورة داخلية على حكومته الممتازة بكونها جهة الوحدة لقوتها وقوة أحلافها فان تم هذا تنتهي الحرب في أقرب زمن بأقل خسارة

أما دول التحالف الجرماني فقد قابلت مذكرة البابا بالابتهاج فأما ألمانية فقد أرسل وزير امبراطوريتها رداجميلا الى وزير خارجية الفاتيكان بأمر مولاه الامبراطور بدأه بقوله « ان جلالته ينظر بعين الاحترام والشكر والسرور الى المساعي التي يبذلها قداسة البابا لتقصير أجل الحرب وتخفيف وطأتها» الخ وتبجح بأن مولاه مازال نصير السلم منذ تبوأ العرش و بأنه يوافق على ان الشروط التي قالها قداسته من الامور التي يجب أن تظهر في المفاوضات المقبلة و بأنه « ليس فى العالم شعب يتمنى الصلح على أساس اصلاح ذات البين بين الامم و إحلال الاخاء والمساواة محل البغض أكثر من الشعب الالماني. (قال) فاذا أدركت الامم المشربة بهذه المبادىء ان الاتفاق خير من الشقاق فانها تستطيع أن تسوي جميع المشاكل الحاضرة وتمنع وقوع الحروب في المستقبل بإنالة جميع الشعوب مايلزم لحياتها وسعادتها ، فعلى هذا الاساس وحده يحتمل أن يبرم الصلح الدائم الذي يقرب بين الامم و ينهض بالبشرية نهضة كبيرة من الوجهتين المعنوية والاقتصادية . وهذه الثقة هي تحملنا على الاعتقاد بأن أعداءنا يجدون في المبادي التي أعرب عنها قداسة البابا أساسا تمهيديا للصلح المقبل بشروط تلائم روح العدل وموقف أوروبا الحالي» اه بنص ترجمة المقطم (في ٩ ذي الحجة الماضي)

ورد امبراطور النمسة الجديد (كرلوس) بنفسه ردا مشربا بمنتهى التعظيم والاحترام والقبول لانه هو الامبراطور الكاثوليكي الوحيد ولكنه لم يفه بكلمة ما تدل على اعترافه بحقوق الامم والشعوب

وكذلك كان رد الدولة العثمانية على المذكرة بامضاء السلطان محمد رشاد رد مشربا بالتعظيم و لاحترام وصرح فيه بالموافقة على القواعد الاساسية التي اقترح ان يبني عليها الصلح والاستعداد لدرس الطرق التي تؤدي الى تسوية المشاكل الدولية

في إبان مفاوضات الصلح (قال) « وانا نصرح بذلك وامام انظارنا الضمان الكافي على استقلال الامم وحريتها وارتقائها لاننا رأينا في اقتراح قداستكم أساسا متينا للصلح العمومي الدائم وطريقة حسنة لحقن الدماء »

وقال قبل ذلك « لقد أكرهنا على خوض غمار الحرب دفاعا عن حريتنا وارتقاء بلادنا . وهذه الغاية الشريفة هي الغاية الوحيدة التي نحارب الآن من أجلها والتي تكفل لنا المحافظة على حقوقنا واستقلالنا التام المطلق في بلادنا وعلى حدودنا القومية » اه من ترجمة المقطم التي نشرت في عدد ٨ المحرم — ٢٥ اكتوبر الماضي

وقد جزم ساسة الحلفاء بأن البابا لم يسع هذا السعي الى الصلح الى بتوسل ألمانية والنمسة اليه وان سبب ذلك الشعور بالضعف والعجز عن الاستمرار على القتال ، وان الغرض منه إغراء الميالين الى الصلح في بلاد أعدائهم من الاشتراكيين وغيرهم بحمل حكوماتهم على عقد الصلح، فما من أمة محاربة الا وفيها كثير من محبي السلم ودعاته. أما رأي هؤلاء الاحلاف في مسألة الامم والشعوب فقد بيناه في الجزء الاول، وأما مسألة الغرامة فقد صرحت جرائدهم ناقلة عن أقطاب ساستهم ان من أهم شروط الصلح عندهم أن يؤخذ من الجرمان عوض عن البلاد التي خربوها في بلجيكة وفرنسة والبلقان ، بعد جلائهم عن هذه البلاد كلها ، ومنها رد الالزاس واللورين الى فرنسة

وقد جاءت برقيات روتر في ٥ المحرم (٢٢ اكتوبر) بنص خطبة طويلة بليغة من خطب لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ألقاها على ملأ عظيم في لندن كان غرضه الاول منها الحث على الاقتصاد في جميع النفقات واستطرد فيها الى الكلام في مسألة الصلح فقال بعد التصريح بأنه لا يرى في جوّ السياسة شروطا تؤدي الى صلح وطيد الاركان « ولكن الشروط الوحيدة المحتملة الآن تؤدي الى هدنة مسلحة تفضي الى حرب أشد هولا من هذه . ان هذه الحرب مخيفة ولكن ما كشفته من الرزايا التي يحتمل وقوعها في البر والبحر والجو أشد هولا وأعظم رعبا ، فلهذا أطلب من الذين يلحون في عقد صلح مبتسر — اذا صح ان هنالك من يلح فيه — ان ينعموا النظر فيما يحتمل وقوعه اذا وقع صلح غير مرض » ثم قال :

« يجب علينا في أثناء البحث في شروط الصلح ان نضع نصب عيوننا الغرض .

العظيم من هذه الحرب فان المسألة ليست مسألة تعديل حدود أملاك الا حيث تقتضي حقوق القوميات هذا التعديل، ولا هي مسألة غرامات الا حيث تكون الغرامات للتعويض من ضرر، ولكنها في الدرجة الاولى مسألة القضاء على مبدإ فاسد باطل استعبد أوربة وأوقع الخوف في قلوب أهلها أو كاد لو أتيح له الفوز (هتاف)

« ان العدو الحقيقي هو روح الحرب الذي نشأ وترعرع في بروسيا، هذا الروح الذى يرمي الى جعل العالم مكاناً تتسلط فيه القوة البهيمية تسلطاً لاينازع فيه أحد، بدلا من عالم تسكنه دمقراطيات حرة مرتبطة معاً بعرى السلم الشريفة ، وقد أقيم لهذا الروح هيكل يعبد فيه في بتسدام[1] فلاسلم في العالم ولا حرية الا اذا دكّ هذا الهيكل وشتت شمل كهنته وألبسوا ثوب العار الى الابد (هتاف)

«وعلقت الرجاء باننا نتمكن في السنة الحالية من القضاء على هذه القوة الهائلة وكنا جميعاً ننتظر حركة حربية عظيمة من جميع الجهات تتجه الى العدو وتنيلنا هذه الامنية . ولكن تضعضع قوة روسيا الحربية الموقت — لاأقول انه خيب الآمال ولكنه أجل تحقق الرجاء على أن الزمان في جانبنا » اه المراد منه

[المنار] ان الحرب السياسية من قولية وعملية، أعظم من الحرب الآلية من برية وبحرية ، وقد ظهر من براعة البشر في الحرب القلمية، ماهو أدل على الحذق والذكاء من براعتهم في اختراع الآلات والاساليب الحربية ،ومن براعة الانكليز المعهودة في السياسة أن قذفوا الالمان بالدول والامم ، بازاء قذف غواصات الالمان لبواخرهم بالحمم ، حتى صار أعظم دول أمريكة الشمالية وأمريكة الجنوبية حربا لهم ، بل آذنتهم دول الصين بالحرب أيضا ، فصار عدد نفوس الامم المحاربة لهم بالذات و بالتبع زهاء ألف وخمسمائة مليون ، وهم لايزيدون مع أحلافهم على مئة وخمسين مليونا ، وقد صرحت الجرائد بأن الجيش البريطاني المقاتل في الميدان الغربي وحده لايقل عن ثلاثة ملايين ، وان الجيش الالماني المقاتل بالفعل لايكاد يتجاوز أربعة ملايين . وصرحت مرارا بأن الانكليز وأحلافهم متفوقون على الجرمان في السلاح والذخائر وجميع مواد الحرب أضعافا كثيرة ، بل جاء في برقية لمكاتب

(١) المنار يعني الوزير بهذا الهيكل عرش ملك بروسية امبراطور الالمان

المقطم بباريس في ٣٠ مايو الماضي ان الجنرال ز .. لندن قال في مقالة له « يظهر ان النمسة وبلغارية وتركية استنفدت جميع قواتها وصارت على آخر رمق ، وان هذه الدول الثلاث ما كانت لتثبت لولا همة ألمانية ونشاطها ، ولكنها سفتلاشى بنفاد قوتها وتطرد الوهن اليها » وقال عن الجيش الالماني « ان عدد فرقه كان في شهر ابريل الماضي مئتين وتسع فرق من المشاة وهذا العدد يساوي عدد المشاة من البريطانيين في ميدان فرنسة فللفرنسويين والانكليز التفوق على ألمانية » اه

نعم انهم خسروا قوة روسية ولكن يقابلها انضمام الولايات المتحدة اليهم، وهذه الدولة أغنى دول الارض الآن ، وهي تقرض الحلفاء المال بمئات الملايين في كل شهر ، وتقدم لهم من الذخائر والاغذية والمواد الضرورية للحرب ما خف به الحمل الثقيل عن عاتق الانكليز . ففي مقطم ٢١ المحرم (٧ نوفمبر) مقالة افتتاحية قال فيها : ان الحكومة البريطانية أقرضت حلفاءها ألفا ومئتي مليون من الجنيهات ، وهي تجود عليهم بالبواخر والفحم والصوف والقطن والزيت والفولاذ وغير ذلك من المواد الخام التي تكثر في بلادها وفي مستعمراتها . ثم ذكر ان لها في الميدان الغربي نحوا من ثلاثة ملايين مقاتل

هذا وان الاخلاق ركن من أعظم أركان الحرب لأن جميع أعمال البشر من آثار أخلاقهم ، فالصبر والثبات في الحرب واجتماع الكلمة خير من كثرة الجيوش، فتأمل تعليل النصر في النص الكريم (٢ : ٢٤٤ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) وقوله تعالى (٨ : إذا لقيتم فئة فاثبتوا — الى قوله — ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) ومعنى كونه تعالى مع الصابرين ان سنته في خلقه قد جرت بجعل الصبر من أعظم أسباب الغلب والنصر ، ولا سيما اذا صحبه الايمان بالله عز وجل والثقة به والتوكل عليه ، وبمجموع ذلك فاز المسلمون من قبل فغلبوا الامم الكثيرة بالفئات القليلة

والصبر والثبات والتعاون من الاخلاق التي امتازت بها الامة الانكليزية على كثير من الامم منذ أجيال، لذلك كانت أخلاقهم ، أنفع لاحلافهم من أموالهم ومتاعهم ، فلولاهم لم يثبت على حرب الالمان أحد ، وهؤلاء الالمان أقران لهم وأقتال في ذلك ، فحرب الاخلاق بينهما هي الجهاد الاكبر ، وعليه المعول الاخير في النصر والظفر .

مختارات من الجرائد

﴿ الطعن في رئيس وزراء الانكليز ﴾

الطعن في العظماء والمصلحين في الامم سنة من سنن الاجتماع حوادثها كثيرة في التاريخ ، وقد اتهمت جريدتان من الجرائد الانكليزية مستر لويد جورج رئيس وزرائهم الذي أظهرت الحرب كفاءته وتفوقه على الاقران فزعمت انه فر من لندن الى فرنسة عند علمه باحدى غارات الطيارات الالمانية على العاصمة وقد كذبت الحكومة الجريدتين فلم تعتذرا عن كذبهما فرفع الوزير عليهما دعوى لسوء تأثير طعنهما في العامة. وقد عجبنا مما أظهرته الدعوى من كثرة ما سبق من الطعن في الوزير ، وهو موضع العبرة التي أردنا ضمها الى أمثالها من حوادث التاريخ . فقد جاء في مقطم ٢٤ المحرم ١٠ نوفمبر — من مقالة في شرح هذه القضية ما نصه :

« ولما عرضت القضية على المحكمة قال المحامي عن المستر لويد جورج ان موكله يقول انه لو كان ما عزته الجريدتان والشركة اليه طعنا شخصيا في شخصه فقط لرأى ان كرامته ومقامه كرئيس وزراء بريطانيا العظمى يقضيان عليه بأن يتغاضى عنه ويكتفي بتكذيبه في الصحف التي نشرته فان المستر لويد جورج استهدف في حياته السياسية لما لم يستهدف له سياسي آخر من الحملات والمطاعن الشخصية والسياسية فقابلها كما يجب على الساسة ان يقابلوها ، أي انه عدها من الامور التي لا مناص للسياسي من الاستهداف لها في حياته السياسية . قال المحامي والمستر لويد جورج يعذرني اذا قلت ان خصومه ما كانوا يخرجون من مناضلته فائزين . على ان الذي يهم رئيس الوزارة في قضيتنا هذه هو سوء الوقع الذي يقع في نفوس الجمهور من اتهامه كذبا بالجبن ، فقد بلغه ان الناس ولا سيما في القسم الشرقي من لندن ساءهم خبر مغادرة كبير وزرائهم للندن للتخلص مما تعرضوا له ، ولما كانت هذه التهمة كاذبة لجأ الرئيس الى المحاكم لينفي فيها على رءوس الاشهاد هذه التهمة الباطلة ويطلع مواطنيه على الحقيقة »

ثم ذكر المقطم ان الوزير لما حضر المحكمة وحلف اليمين ألقى عليه المحامي أسئلة أجاب عنها ، منها السؤال الآتي مع جوابه :

س : ألم أفهم منك انه لو كان الطعن شخصيا موجها الى شخصك فقط لما رفعت هذه القضية؟

ج : كنت أكتفي بنفي الخبر الذي روته الجريدتان لاني لو سرت على قاعدة رفع القضايا على كل من يطعن فيّ لما أتيح لي ان أفعل شيئا آخر »

﴿ الاسرائيليون وفلسطين ﴾

ترجمة برقية خصوصية للمقطم من مكاتبه بلندن أيدتها برقيات روتر

لندن الجمعة في ٩ نوفمبر الساعة ٣ بعد الظهر

ذكرت جريدة « جويش كرونكل » ان المستر بلفور وزير الخارجية البريطانية كتب الى اللورد رتشلد يقول ما نصه : —

« يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك انها تنظر بعين الرضى والارتياح الى المشروع الذي يراد به ان ينشأ في فلسطين وطن قومي لشعب اليهود وتفرغ خبر مساعيها لتسهيل ادراك هذا الغرض . ولكن ليكن معلوما انه لا يسمح باجراء شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين الآن أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلدان لاخرى وبمركزهم السياسي فيها » مكاتبكم بلندن

﴿ مظاهرة الصهيونيين لتحقيق أمانيهم في فلسطين ﴾

جاء في مقطم ٢٦ المحرم — ١٣ نوفمبر ما نصه :

« قال وكيلنا الاسكندري أمس : أقام الاسرائيليون ولا سيما الصهيونيين منهم احتفالا كبيراً أمس في حديقة رشيد بالاسكندرية على إثر البيان الذي أبلغه المستر بلفور الى اللورد روتشلد في شأن تحقيق أماني الاسرائيليين بجعل فلسطين وطناً قومياً لهم . وقد ألقى بعض خطبائهم في هذا الاحتفال خطبا تناسب المقام فشكروا للحلفاء عامة ولبريطانيا خاصة هذا الوعد الشريف آملين تحقيقه في القريب العاجل

ثم طاف المحتفلون وهم في أحسن نظام في شوارع المدينة الكبرى تتقدمهم الموسيقى وفرقة الكشافة الاسرائيلية وهم فرحون جذلون بتلك البشرى السارة هاتفون للحلفاء ولبريطانية العظمى بدوام النصر والظفر » اهـ

﴿ معركة غزة ونتائجها ﴾

نشر المقطم تحت هذا العنوان البرقية الآتية : باريس في ٨ نوفمبر

ان سقوط غزة من الحوادث التي يمكن أن تنشأ عنها نتائج عظيمة جدا والتي تعد مقدمة لافول نجم تركيا في الاماكن المقدسة وتحرير البلاد التي هي مهد الديانة المسيحية . وقد قطعت المواصلات التركية تماما مع القوات التي تحارب في بلاد العرب وصار مصير « المدينة » معروفا من الآن . وقد احتلت انكلترا حليفة ملك الحجاز كل العراق تقريباً وجنوبي بلاد فلسطين (هافاس)

عبر التاريخ

٢

ماقيل في سقوط بغداد

نشر المقطم في عدد ٢٨ جماد الاولى سنة ١٣٣٥ - ٢٢ مارس ١٩١٧ ترجمة منشور الجنرال مود الذي خاطب به أهل بغداد عقب دخولها فاتحا باسم ملكه واسم الشعوب التي يحكمها وقد بدأه ببيان أن غرضهم من الحرب كسر العدو واخراجه من البلاد فمجيء جيوشهم العراق لذلك لا « كما يأتي الغازي الفاتح والعدو الطامع » ثم ثنى بذكر تخريب الاجانب للبلاد من عهد هولاكو واستبدادهم فيها ثم قال :

« ان جلالة ملكي وشعبه والامم العظيمة المحالفة له يرومون لكم السعادة والرخاء واحياء العصر القديم لما كان الخصب منتشرا في دياركم تضيء العالم بنبراس الآداب والعلم والفنون ولما كانت بغداد احدى عجائب الدنيا

« ان بين شعبكم واملاك ملكي علاقات مصلحية وثيقة فقد تعامل تجار بغداد وتجار بريطانيا العظمى منذ مئتي سنة بتمام المودة والصداقة وجنى الفريقان الربح أما الالمان والترك الذين نهبوكم فقد اتخذوا بغداد منذ ٢٠ سنة مقرا لمهاجمة قوة بريطانيا العظمى وحلفائها في ايران وجزيرة العرب، فلم يسع الحكومة البريطانية الا أن تكثرث لما يقع في بلادكم الآن وفي مستقبل الايام، فان الواجب والمصلحة للشعب البريطاني وحلفائه يقضيان على الحكومة أن لا تسمح بان يتكرر في بغداد ما فعله الترك والالمان في إبان الحرب »

ثم خاطب أهل بغداد خاصة فذكر لهم أن حكومته يهمها يسرهم التجاري وسلامتهم من الظلم والجور مؤمنا اياهم من ارهاقها لهم بأحكام أجنبية عنهم قال: « بل هي ترجو أن تحقق آمال فلاسفتكم وحكمائكم وكتابكم فتزهو بغداد وتزهر وينشط أهلها ويتمتعون بثروتهم ومقتنياتهم في ظل النظام الذي يطابق شرائعكم المقدسة وأمانيكم القومية » وذكرهم ثانية بظلم الاجانب واستقلال الحجاز . وختم المنشور بدعوتهم الى الاشتراك في ادارة شؤونهم الملكية مع مندوبي بريطانيا العظمى الذين يصحبون الجيش البريطاني (قال) فتتحدوا مع بني جنسكم في الشمال الشرقي والجنوب والغرب على تحقيق آمال العرب

ثم نشر المقطم مقالة في عدد ٢٩ جمادى افتتحه بعبارة طويلة من مقالة لمستشرق بريطاني دعا العرب فيها الى اليقظة وطلب الحرية والاستقلال (هي المقالة التي نشرها المقطم في شهر سبتمبر من العام الماضي وأشار اليها في المقالة التي نقلنا عنه معظمها في آخر الجزء الماضي) هذا نصها :

« هل انحط العرب اليوم أو فسدت احسابهم وضعفت همتهم ؟ — كلا لا هذا ولا ذاك فهمتهم لا تزال كبيرة، واحسابهم لا تزال صحيحة، وهم حافظون لانسابهم وقد صانوا مازانهم به الله من قوة وبأس وهمة ونشاط ومضاء عقل واصالة رأي وشجاعة وقدام وأخلاق كريمة وسماحة وجود واحسان ، ولكني رأيتهم غارقين في بحور الفاقة ، وقد تولاهم التفرق واشتد بهم الانقسام فدانوا لسواهم وخضعوا . وبعدما كانوا سادة صاروا مسودين ، فهل يبقون بعد ان تضع الحرب أوزارها، كما كانوا لما أضرم أوارها

« تشتت شمل العرب ودالت دولتهم منذ عصفت في بلادهم عاصفة هولاكو المغولي واجتاحها السلجوقيون زعاة طور أن فضاع استقلال العرب وباتوا رعية لسواهم، فذلوا بعد العز وافتقروا بعد الغنى وخيم الجهل على بلادهم بعد ما كانت مطلع شموس العلم والعرفان حتى طلع صبح اليوم الذي تفك فيه قيود الامم المقهورة، فهل يعتبر العرب بما يقع الآن في انحاء الدنيا ويجمعون كلمتهم ويبتغون الوحدة القومية لهم ولأبنائهم بعدهم

« لقد كان العرب أعداء أنفسهم، فأوسعوا مجال الانقسام بينهم ولولا ذلك لما تسلط عليهم شعب أدنى منهم وأحط، فالعرب لا تعوزهم الشجاعة ولا تنقصهم الاخلاق

الكريمة، وقد امتد ملكهم من بحر الروم الى سور الصين فضربت الامثال بنجدتهم، وتحدثت الامم ببأسهم وشدتهم، ولا يزالون كما كانوا من أشد الناس نخوة وأعظمهم حمية، وهم كرمل البحر في الكثرة، فكيف يرضون بالذل ولا يطمعون بالاستقلال ومساواة الشعوب العظيمة والتمتع بأطايب الحياة ورغد العيش والهناء

«لست أدعو العرب لان يكونوا سفاحين كالالمان ولا ظالمين كالترك، ولكنني أتمنى لهم ان يكونوا أحراراً في بلادهم، وان يطيبوا نفساً وعيشاً ويعودوا الى سابق عهدهم، فينيروا العالم بأنوار حكمتهم وعلمهم، وفلسفتهم وصناعتهم، كما فعل أسلافهم الكرام من قبلهم

« اني أسمع صوتاً ينادي من السماء ويقول: انهضوا يا أبناء عدنان، ويا سلالة قحطان، وافيقوا من سنة النوم فقد غلبت عليكم الف عام »

ثم قفى المقطم على هذه النبذة بالتنويه بمنشور الجنرل مود والثناء عليه، ولكنه هفا هفوة كبيرة في المقابلة بينه وبين ما خاطب به الحجاج أهل العراق، اذ وصفهم بالنفاق والشقاق، والفرق بين الحالين عظيم

﴿ ترجمة الشيخ سليم البشري ﴾

أرجأنا بقية هذه الترجمة الى جزء آخر

﴿ المطبوعات الجديدة ﴾

لدينا كثير من مطبوعات السنتين الماضيتين — على قلة المطبوعات في هذا الزمن — لم نفرغ للنظر في شيء منها لنبين مزيته، أما وقد طال الأمد فسنذكرها بالاختصار، وأقل حقوق أصحابها الاعلان، ونبدأ بذكر صحيفتين مصريتين:

﴿ المجلة السلفية ﴾ « علمية أدبية اخلاقية تاريخية اجتماعية تصدر مرة في كل شهر، صاحبها ومديرها عبد الفتاح (افندي) قتلان » سنتها عشرة أشهر وقيمة الاشتراك فيها ٢٠ قرشاً في القطر المصري و٨ فرنكات في الخارج تدفع مقدما. وقد تمت سنتها الاولى فكانت ٢١٦ صفحة وأكثر ما نشر فيها مختارات من الكتب العربية للشيخ طاهر الجزائري. وهذا وجه تسميتها بالمجلة السلفية

﴿ الحال ﴾ جريدة اخبارية اقتصادية قضائية تاريخية تصدر ثلاث مرات في الاسبوع. صاحبها ومديرها خليل بك صادق وقيمة الاشتراك فيها مائة قرش في السنة. وفاته ان يذكر في صفتها انها فكاهية فروح فكاهة صاحبها تتجلى في كل ما ينشر فيها.

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله أولئك هم أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٣٠ ربيع الاول ١٣٣٦ — ٢٢ الجدي (ش ١) ١٢٩٦ ه‍ ش ١٣ يناير ١٩١٨

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٧١) قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ مَالاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا ٱللهُ كَالَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا. قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللهِ هُوَ الْهُدَىٰ، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٢) وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَٱتَّقُوهُ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالارْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ (٧٤) قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي ٱلصُّورِ، عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

ضرب الله تعالى في الآية الاولى من هذه الآيات مثلا يتضح لمن عقله

من المشركين ما تقرر فيها وفي الآيات قبلها من بينات التوحيد ودلائله، ويظهر لهم سوء حالهم وقبح مآلهم في شركهم، ويعلل لهم ما بدئ به سياق الآيات الأخيرة فيه (أي التوحيد) من النهي عن دعاء غير الله وعن اتباع أهوائهم، ويشرح لهم مفهومه، ويفصل لهم مضمونه، ويبين لهم مقابله، [وأعني بهذا السياق ما في حيز قوله تعالى (٥٦ قل اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) الخ وحيز قوله (٦٣ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) وما يليه من الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة] وختم الآية بالأمر بالاسلام المقابل لطريق الضلال والهوى. و بدأ الآية الثانية ببيان اعظم أعمال طريق الهدى، والآيتان بعدها في التذكير بدلائل ذلك وعاقبته، وصدق وعيده تعالى وعلمه وحكمته فيه. قال

﴿ قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ﴾ روي عن السدي ان المشركين قالوا للمؤمنين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد، فقال الله (قل أندعو) الآية. وعن قتادة انه قال في الآية: خصومة علمها الله محمدا (ص) وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة. ولعل هذا مراد السدي اذ لا يظهر ان مراده ان المشركين قالوا ذلك مرة واحدة لبعض المؤمنين أو لجميعهم. بل كانوا يفتنون المسلمين دائما ويدعونهم الى العود الى الكفر ومنه ماروي من دعوة عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما لابيه الى الشرك — فنزلت الآية ردا عليهم، فلقنهم الله تعالى هذه الحجة المؤثرة بما فيها من المثل الجلي الواضح لحالي الشرك وضلاله والتوحيد وهدايته، في سياق حجج الحق الكثيرة في هذه السورة التي نزلت دفعة واحدة كما تقدم. والاستفهام للانكار والتعجب، والمعنى قل أندعو — متجاوزين دعاء الله القادر على استجابة دعائنا — مالا يضرنا ولا ينفعنا كالاصنام وسائر ما عبد من دون الله، ونرد على أعقابنا بالعود الى ضلالة الشرك الفاضحة بعد إذ هدانا الله الى الاسلام؟

ومن بلاغة هذه العبارة انها بينت علة الانكار والتعجب في الاستفهام من خمسة أوجه (أحدها) ان دعاء غير الله تعالى تحوّل وارتداد عن دعاء القادر على كل شيء الذي يكشف ما يدعى اليه ان شاء، الى دعاء العاجز الذي لا يقدر على نفع ولا ضر (ثانيها) أنه نكوص على الاعقاب وتقهقر الى الوراء، والعرب تقول فيمن عجز بعد قدرة، أو سفل بعد رفعة، أو أحجم بعد إقدام على محمدة: نكص على عقبيه،

وارتد على عقبيه ، ورجع القهقرى . والاصل فيه رجوع الهزيمة أو الخيبة والعجز عن السير المحمود ، ثم صار يطلق على كل تحول مذموم ، (ثالثها) التعبير بنرد المبني للمجهول بدل التعبير بنرتد أو نرجع ، والنكتة فيه ان هذا التحول المذموم ليس من شأنه ان يقع من عاقل ، لان العاقل اذا وصل الى مرتبة عالية من العلم والكمال فانه لا يختار الرجوع عنها ، واستبدال الذي هو أدنى ، بالذي هو خير وأعلى ، فاذا كانت فطرته وعقله يأبيان عليه هذه الردة والنكوص فكيف يُرد وهو لا يرتد ؟ (رابعها) ان من أنقذه الله القدير العزيز الرحيم من الضلالة ، وهداه الى صراط السعادة ، بما أراه من آياته في الانفس والآفاق ، وما شرح به صدره للاسلام ، فمن يقدر ان يضله بعد إذ هداه الله ؟ (ومن يهد الله فما له من مضل ، أليس الله بعزيز ذي انتقام)

(خامسها) المثل الذي يصور المرتد في أقبح حالة كانت تتصورها العرب ، وذلك قوله تعالى

﴿ كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا ﴾ قرأ حمزة استهواه بألف ممالة وكانوا يرسمونها ياء كاصلها وان لم تكن طرفا ورسمها في المصحف الامام هكذا (اسهو به) وهو يحتمل القراءتين . وتقدير التشبيه في الكلام : أنرد على أعقابنا بعد تلك الهداية مثل رد الذي استهوته الشياطين في الارض ، أو مشبهين بالذي استهوته الشياطين ـ الخ . قال أهل اللغة : استهوته الشياطين ذهبت بهواه وعقله ، وقيل استهامته وحيرته ، وقيل زينت له هواه ، ويقال للمستهام الذي استهامته الجن : استهوته الشياطين . القتيبي : استهوته الشياطين — هوت به وأذهبته . جعله من هوَى يهوي . وجعله الزجاج من هوِي يهوَي ، أي زينت له هواه . كذا في لسان العرب وغيره . والمستهام هو الذي جعله العشق أو الجنون هائما أي يسير على وجهه لا يقصد غاية معينة ، وكانت العرب في الجاهلية تزعم ان الجنون كله من تأثير الجن ، والاصل في قولهم : جنّ فلان — مسته الجن فذهبت بعقله . وكانوا يقولون ان الجن تظهر لهم في البراري والمهامه وتتلون لهم بألوان مختلفة فتذهب بلب من يراها فيهيم على وجهه لا يدري أين يذهب حتى يهلك . والشياطين التي تتلون هي التي يسمونها الغيلان والاغوال والسعالي (بوزن الصحارى) . وروى مسلم في صحيحه من حديث جابر أن رسول الله (ص) قال « لا عدوى ولا طيرة ولا غول » قال النووي في شرحه : قال

جمهور العلماء كانت العرب تزعم ان الغيلان في الفلوات وهي من جنس الشياطين تتراءى للناس وتتغول تغولا أي تتلون تلونا فتضلهم عن الطريق فتهلكهم فأبطل النبي (ص) ذلك . وقال آخرون ليس المراد نفي وجود الغول وانما معناه ابطال ماتزعمه العرب من تلوّن الغول بالصور المختلفة واغتيالها . قالوا ومعنى « لاغول » لاتستطيع أن تضل أحدا . ويشهد له حديث آخر « لاغول ولكن السعالى » قال العلماء : السعالى بالسين المفتوحة والعين المهملتين هم سحرة الجن . أي ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل ، وفي الحديث الآخر « اذا تغولت الغيلان فنادوا بالاذان » أي ادفعوا شرها بذكر الله تعالى . وهذا دليل على انه ليس المراد نفي أصل وجودها . وفي حديث أبي أيوب : كان لي تمر في سهوة وكانت الغول تجيء فتأكل منه . اه

أقول ان هذا الشرح مأخوذ من النهاية لابن الاثير ليس للنووي من التصرف فيه الا عزو نفي وجود الغول الى جمهور العلماء وهو القول الذي قدمه ابن الاثير وقد نقل عبارته ابن منظور في لسان العرب وغيره من العلماء . وماعزاه النووي الى الجمهور هو المتبادر من لفظ الحديث فان كلمة « لاغول » نافية لجنس الغول كما هو المتبادر ، وقد ورد هذا اللفظ وحده في حديث لابي هريرة عند أبي داود . وما أيد به قول غير الجمهور لايحتج بشيء منه ولذلك لم يعرج الجمهور عليه ، ولكن روى ابن أبي شيبة باسناد صحيح أن الغيلان ذكروا عند عمر فقال « ان أحدا لا يستطيع أن يتحول عن صورته التي خلقه الله عليها ولكن لهم سحرة كسحرتكم فاذا رأيتم ذلك فأذنوا . وهذا رأي لعمر (رض) فيما كانوا يرونه وهو انه تخييل باطل من سحر الجن . والجمهور على ان الجن تتشكل وهو لا يقتضي اثبات الغول ، وقد اشتهر ان الغول اسم ليس له مسمى في الحقيقة . قال ابن هشام في قول كعب بن زهير

فما تدوم على حال تكون بها كما تلوّنُ في أثوابها الغول

من شرحه لقصيدته (بانت سعاد) : والغول بالضم كل شيء اغتال الانسان فأهلكه والمراد هنا الواحدة من السعالى وهي أناث الشياطين سميت بذلك لانها فيما زعموا تغتالهم أولانها تتلون كل وقت من قولهم : تغولت علي البلاد — اذا اختلفت . وللعرب أمور تزعمها لا حقيقة لها ، منها ان الغول تتراءى وتتلون لهم

وتضلهم عن الطريق . وذكر أشياء أخرى من خرافاتهم ثم ذكر حديث مسلم في نفي الغول والطيرة وقول بعض الشعراء :

الجود والغول والعنقاء ثالثة أسماء أشياء لم تخلق ولم تكن

وما فسر به ابن هشام الغول هو المعتمد المشهور . قال في اللسان : والسعلاة والسعلاء الغول . وقيل هي ساحرة الجن . فجعل هـذا قولا ضعيفا ثم ذكر قولين آخرين مثله أحدهما أنها أخبث الغيلان وثانيهما انها أنثى الغيلان . ويشبهون المرأة القبيحة الوجه السيئة الخلق بالسعلاة . وشبهوا بها الخيل أيضا . والظاهر أن بعضهم كان يخيل اليه الخوف في البراري لمنقطعة شيئا يتلون فيهيم على وجهه خوفا منه لاعتقاده انه من الجن . ويحتمل أن يكون بعضهم رأى بعض القردة الراقية التي تشبه العجوز القبيحة الوجه فسموها السعلاة وان تكون السعلاة التي أكلت من التمر في حديث أبي أيوب منها ان صح ماروي وكان عن مشاهدة ، والا كان مبنيا على ماتوارثوه قبل نفي النبي (ص) له أو قبل العلم بهذا النفي . وقد قال الله تعالى في الشيطان (انه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم) وقال ابن عباس ان النبي (ص) لم ير الجن حين استمعوا القرآن منه بل علم ذلك بالوحي لقوله تعالى (قل اوحي الي انه استمع نفر من الجن) ولكن في حديث ابن مسعود وكان معه انه رأى اسودة تشبه السحاب وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه . وروى البيهقي في مناقب الشافعي باسناده عن الربيع : سمعت الشافعي يقول : من زعم انه يرى الجن أبطلنا شهادته الا أن يكون نبيا . انتهى . وقد حملوه كما حملوا الآية على من يدعي رؤيتهم بصورتهم التي خلقهم الله عليها دون الصور التي يتمثلون بها

على اننا نقول ان ما اشتهر عن العرب في مسألة الاغوال واستهوائها بعض الناس في الفلوات حتى يضلوا الطرق لابد أن يكون له أصل عندهم ، والراجح المعقول فيه ماذكرناه عن سيدنا عمر وصرح به بعض المتكلمين من أنه تخيل لاحقيقة له في الخارج ، وقد يكون منه رؤية حيوان غريب كبعض القردة . والعرب تطلق اسم الشيطان على العاتي المتمرد من الانس والجن وعلى بعض الحيوان والحشرات وعلى كل قبيح الصورة . قال تعالى في شجرة الزقوم (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) قيل هو نبات قبيح وقيل شبهها

بالعارم من الجن. قال في التاج وقال الزجاج في تفسيره: وجهه ان الشيء اذا استقبح شبه بالشياطين فيقال كأنه وجه شيطان وكأنه رأس شيطان، والشيطان لا يرى ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الاشياء ولو رؤي لرؤي في أقبح صورة. وقيل كأنه رؤس حيات، فان العرب تسمي بعض الحيات شيطانا. وأورد شاهدا من الشعر على ذلك. وورد في بعض الاخبار ان حيات البيوت من الجن. وفي حديث أبي ثعلبة الخشني عند ابن حبان والحاكم وغيرهما، « الجن على ثلاثة اصناف صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء وصنف حيات وعقارب وصنف يحلون ويظعنون » قال السهيلي هذا الاخير هم السعالى. وعن وهب بن منبه أنهم اجناس خالصهم ريح (أي كالريح) لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون ولا يموتون ومنهم من يأكلون الخ والحاصل أن اسم الجن والشياطين يطلق عند العرب على بعض الحشرات والحيوانات الضارة أو القبيحة وعلى ما يؤثر عن أهل الكتاب وغيرهم من العالم الروحي الغيبي الذي يوسوس للناس فيزين لهم الشر، ويلابس بعضهم أحيانا فيصابون بالصرع أو الجنون ويتمثل للكهان وغيرهم، ويراه الانبياء وبعض الصالحين من باب الكرامة الخاصة. والاكاذيب عن جميع الامم في ذلك كثيرة، والشبهات فيها غير قليلة، ولكن قل المصدقون بها في بلاد العلم والمدنية.

بعد هذا الشرح نقول ان للمفسرين قولين في تفسير (كالذي استهوته الشياطين) أشرنا اليهما في تفسير الاستهواء (الاول) أنه تشبيه لمن يرتد مشركا بعد الايمان بالمستهام الذي يضل في الفلوات حيران لا يهتدي تاركا رفاقه على الجادة ينادونه: ائتنا، عد الينا، فلا يستجيب لهم لانجذابه وراء ما تراءى له من الغيلان بغير عقل ولا بصيرة. وهذا التفسير مروي عن السدي وهو احدى روايتين عن ابن عباس. قال السدي بعد بيان التشبيه: فذلك مثل من تبعكم بعد المعرفة لمحمد، ومحمد الذي يدعو الى الطريق والطريق هو الاسلام. ومما جاء عن ابن عباس في هذه الرواية ان الغول « تدعوه باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها ويرى انه في شيء فيصبح وقد ألقته في هلكة وربما أكلته، أو تلقيه في مضلة من الارض يهلك فيها عطشا » ومن المفسرين من يرى ان هذا التشبيه مثبت للغول الذي نفاه الحديث الصحيح الذي أخذ به جمهور العلماء كما تقدم، ومنهم من يرى انه لا يقتضي إثباته لان التشبيه قد

يبنى على المتعارف لاجل التأثير ، وقد أشار الزمخشري الى ذلك بقوله : وهذا مبني على ما كانت تزعمه العرب وتعتقده من ان الجن تستهوي الانسان والغيلان تستولي عليه كقوله (كالذي يتخبطه الشيطان من المس) اه وقد شنع عليه ابن المنير في هذا إذ جعله من إنكار الجن — وهو لا ينكرهم — وتبعه الآلوسي فقال : وليس هذا مبنيا على زعمات العرب كما زعم من استهوته الشياطين اه وما هذا التشنيع الا من تعصب المذاهب ، ولولاه لما وقع أمثال هؤلاء الاذكياء في هذه الغياهب ، وقد علمت أنه لادليل على كون ماكانت تزعمه العرب في الجاهلية من شياطين الجن ، وأن النبي (ص) كذبهم في دعوى الغول ، وان جمهور العلماء أخذوا بهذا التكذيب ولم يؤولوه ، وأن من أوله بانكار تغول الغيلان واضلالهم للناس مكذب للعرب في زعمها ذاك ، وانما بني التشبيه على ما قيل من استهوائهم واضلالهم بتغولهم ، لا على مجرد وجودهم ، واذا كان الاستهواء بتخيلات لا حقيقة لهـا ، يكون التشبيه أبلغ وأقوى ، وخلاصته ان من يتبع داعي الشرك كالمستهوى بما لاحقيقة له من الاوهام الضارة الشيطانية ، التي تنسب الى الاغوال الخياليـة . ولا يقتضي ذلك انكار الجن والشياطين ، وما كان الزمخشري ولا شيعته من المنكرين ، وانما الجن من عالم الغيب ، لانصدق من خبرهم الا ما أثبته الشرع ، أوما هو في قوته من دليل الحس أو العقل ، ولم يثبت شرعا ولا عقلا ولا اختبارا ان شياطين الجن تأكل الناس ، ولا أنها تظهر لهم في الفيافي والقفار ، كما كانت تزعم العرب وغير العرب في طور الجهل والخرافات . واما حديث خرافة فقد رواه الترمذي في جامعه وفي الشمائل من طريق ابي عقيل عبد الله ابن عقيل الثقفي وأبو عقيـل مختلف فيـه وثقـه احمـد وأبو داود وروي عن ابن معين أنه منكر الحديث ، والظاهر أنه قد ذكر على سبيل الحكاية ، فهو نحو مما نقله الكلبي عن العرب من انه رجل من بني عذرة أسرته الجن في الجاهلية فأقام فيهم زمنا ثم أعادوه الى الانس فكان يحدث بما رأى فيهم من العجائب ، فصار الناس يقولون «حديث خرافة» لكل حديث مستملح يكذبونه . على أن ماعساه يثبت لبعض الافراد على خلاف الاصل لا يتخذ دليلا على صدق ماكذبه الحديث الصحيح من أخبار الاغوال ونحوها ، والآية غير معارضة للحديث حتى على هذا القول في التشبيه ،

لجواز أن يسمى ما كان يتراءى لهم بالشيطان لقبحه وضرره ، وان كان كالسراب لاحقيقة له في نفسه ، أو يكون حيوانا مفترسا تمثله الاهوام بأشكال مختلفة ، وراجع ما يقرب ذلك لك في تفسير (ولكن شبه لهم) — ٤٧ ج تفسير —

فان فرضنا وقوع التعارض على هذا القول نمنعه بترجيح (القول الثاني) عليه وهو ان الذي استهوته الشياطين في الارض هو الذي أضلته بوسوستها ، وحملته على اتباع هواه فاتخذ دينه لعبا ولهوا . وغرته الحياة الدنيا فآثرها على الآخرة لإنكاره إياها ، أو عدم إيمانه بوعد الله ووعيده فيها . هذا في معنى الرواية الاخرى عن ابن عباس قال : هو الرجل الذي لا يستجيب لهدى الله وهو رجل أطاع الشيطان وعمل في الارض بالمعصية وجار عن الحق وضل عنه . الا أن في هذه الرواية ان أصحاب المستهوى الذين يدعونه الى الهدى ، هم الضالون المتبعون للهوى ، وانما يصحب الانسان أمثاله ، فالمراد يدعونه الى ما يزعمون أنه هدى كما هو شأن كل داع الى ضلالة ، فكلمة الهدى ذكرت بطريق الحكاية ، أو المراد بها الطريق الجادة ؛ وقد روى ابو الشيخ عن مجاهد قال : في قراءة ابن مسعود (يدعونه الى الهدى بينا) قال الهدى الطريق انه بين . والكلام بعدها رد من الله تعالى لهذا الزعم ، ومعناه ان الهدى صراط الله المستقيم لا ماهم عليه من طرق الوهم . وأنكر ابن جرير هـذه الرواية ، بناء على أن الجملة لم ترد على سبيل الحكاية ، وانما هي من كلام الله تعالى ، والله تعالى لا يسمى الضلالة هدى ، وسواء أصح ما أنكره ابن جرير أم لا ، فان المعنى الثاني لا يتوقف عليه ، بل يصح ان يقال ان ذلك الذي استهوته الشياطين بوسوستها حال كونه حيران ، له أصحاب يدعونه الى الهدى والخروج من ذلك الضلال ، تتنازعه وسوسة شياطينه ، ودعوة أصحابه ، فلا يستطيع التفلت من الاولى فيكون من المهتدين ، ولا البت برد الاخرى فيكون من الاخسرين ، بل يظل هائما في حيرته ، مضطربا في أمره ، وانما جعل دعاة الهدى أصحابا له ، باعتبار ما كانوا عليه قبل إضلال الشياطين له . ومثل هذا لا يستقر على حال من القلق . والتشبيه يدل بهذا التوجيه على ان المرتد عن الاسلام لا يمكن ان يعود مطمئنا بالشرك ، ووجه الاستفهام الانكاري في أول الآية على هذا الوجه : أيعقل أن نختار هذه الحال السوءى التي لا بد منها لمن يرتد عن الايمان ، وهي أسوأ

حال يمكن ان يكون عليها الانسان ؟

﴿ قل ان هدى الله هو الهدى ﴾ أعاد الامر من القول هنا كما أعاده فيما تقدم قريبا بمعنى ماهنا من التبرؤ من الشرك والضلالة، والاعتصام بما أنزل الله من الهداية ، وهو قوله (٥٦ قل اني نهيت — الى قوله — قل لاأتبع أهواءكم) الخ وفي ذلك ما فيه من العناية بكل من البراءة والاعتصام في النهي والامر ، و يعبرون عنهما بالتخلي والتحلي . أي قل ان هدى الله الذي أنزل به آياته ، وأقام عليه حججه و بيناته ، هو الهدى الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا ماتدعون اليه من أهوائكم ، اتباعا لما ألفيتم عليه آباءكم، وهذا الهدى المعقول هو الذي دعينا اليه فأجبنا ، وأمرنا به فأطعنا ، ﴿ وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ فأسلمنا ، واللام في « لنسلم » فيها وجهان (أحدهما) أنها للتعليل ، والتقدير وأمرنا بهذا الهدى لاجل ان نسلم قلو بنا ونوجهها لرب العالمين وحده، بالاذعان والخضوع لدينه، والاخلاص في عبادته ، اذ لا يستحق العبادة من العباد الا ربهم الذي خلقهم وغذاهم بنعمه ، (وثانيهما) أنها المصدرية أي وأمرنا بأن نسلم لله رب العالمين . وقد روي القول بتأويل الفعل بالمصدر هنا وفي مثل « يريد الله ليبين لكم — ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج » الخ عن الخليل وسيبويه ومن تابعهما ، وصرح الكسائي والفراء بأن اللام تكون حرفا مصدريا بعد الفعل من الامر والارادة خاصة . وهذا الوجه أوجه وأظهر

﴿ وان أقيموا الصلاة واتقوه ﴾ أي أمرنا بأن نسلم لرب العالمين ، و بأن أقيموا الصلاة واتقوه ، أي قيل لنا ذلك، وقدر بعضهم : أمرنا بالاسلام و باقامة الصلاة والتقوى ، وإقامة الصلاة الاتيان بها على الوجه الذي شرعت لاجله وهو كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتزكي النفس بمناجاة الله وذكره ولذكر الله أكبر، ولم يكن شروع عند نزول السورة زكاة ولاصيام ولا حج ، والتقوى اتقاء ما يترتب على مخالفة دين الله وشرعه وتنكب سننه في خلقه من ضرر وفساد ، فهي أوسع معنى من تفسيرها بامتثال الامر واجتناب النهي . ﴿ وهو الذي اليه تحشرون ﴾ أي تجمعون وتساقون الى لقائه يوم القيامة دون غيره فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها . واذا كان

الحشر اليه وحده والجزاء بيده وحده، فمن الجنون ان يعبد غيره ويدعى، أو يخاف أو يرجى،

﴿وهو الذي خلق السماوات والارض بالحق﴾ أي خلقهما بالامر الثابت المتحقق وهو آياته القائمة بالسنن المطردة، المشتملة على الحكمة البالغة، الدالة على وجوده وصفاته الكاملة، فلم يخلقهما باطلا ولا عبثا، فاذاً لا يترك الناس سدى،

﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ وقوله هو الحق يوم يقول للشيء كن فيكون، أي وقت الايجاد والتكوين للسموات والارض ولسائر الاشياء، فلا مردّ لامره التكويني ولا تخلف، فكذلك يجب الاسلام لامره التكليفي بلا حرج في النفس ولا تكلف،

﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ ويبعث من في القبور، فاذا كان لغيره ملك مّا في الدنيا بمقتضى سننه وشريعته المقررة، فلا تملك يومئذ نفس مّا مهما تكن مكرّمة، لنفس ما مهما تكن قريبة أو مقرّبة، شيئا ما من خير أو شر، أو نفع أو ضر، فكيف يدعو غيره من دونه، من هداه الى هذه الحقائق من خلقه، فيردّ على عقبيه، ويرجع الى شر حاليه؟

والصور في اللغة القرن واستشهد له في اللسان بقول الراجز

لقد نطحناهم غداة الجمعين نطحا شديداً لا كنطح الصورين

وقد ثقب الناس قرون الوعول والظباء وغيرها فجعلوا منها أبواقا ينفخون فيها فيكون لها صوت شديد يدعى به الناس الى الاجتماع، ويعزفون به كغيره من آلات السماع. وقد ورد ذكره في سفر الايام لاول من كتب العهد العتيق قال (١٥: ٢٨ فكان جميع اسرائيل يصعدون تابوت عهد الرب بهتاف وبصوت الاصوار والابواق والصنوج يصوتون بالرباب والعيدان) وقال بعض المفسرين ان الصور جمع صورة كبسر وبسرة وصوف وصوفة وقيل في سور المدنية أيضا انه جمع سورة. ونقلوا هذا التفسير عن أبي عبيدة من رواة اللغة. وقد رده جمهور المفسرين بأنه لا يظهر معناه في قوله تعالى (٣٦: ٥١ ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون) وقوله (٣٩: ٦٨ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله) وهذه هي النفخة الاولى ولا يظهر معنى لكونها في صور المخلوقات وانما يظهر ذلك في النفخة

الاخرى التي يبعث الله بها العباد وهي قوله في تتمة الآية ثم ينفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) وبأنه مخالف لما ورد في الاخبار والآثار من تفسيره بالقرن والبوق أو بما يشبههما . وفي بعض الآثار الاسرائيلية انه مستقر أرواح الخلق فاذا نفخ فيه نفخة البعث تصيب النفخة تلك الارواح فتذهب الى اجسادها ، بعد ان يكون الله قد اعادها كما بدأها . وردوه اللغويون أيضا بأن المقيس في كلام العرب ان ما كان على وزن فعلة بضم الفاء يجمع على فعل بضم الفاء وفتح العين كغرفة وغرف وصورة وصور ، وقد أجمع القراء على فتح الواو في قوله تعالى (وصوركم فأحسن صوركم) وأما ما جاء من جمعه بضم فسكون كبسر وصوف فهو خاص بما سبق استعمال الجمع فيه على استعمال الواحد . روى الازهري هذا الرد بسنده عن أبي الهيثم ، ويراجع في مادتي سور وصور من لسان العرب فقد أطال الكلام في المسألة فيهما

وأما الاخبار المرفوعة في الصور فقد أخرجها أصحاب السنن والتفسير المأثور وغيرهم بأسانيد لم يصح منها شيء على شرط الشيخين ولذلك لم يخرجا منها شيئا . وأقواها ما رواه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وغيرهم وصححه الحاكم من حديث عبدالله بن عمر قال : سئل النبي (ص) عن الصور فقال « هو قرن ينفخ فيه » وروي عن ابن مسعود انه قال : الصور كهيئة القرن ينفخ فيه . وورد في روايات يقوي بعضها وصحح بعضها الحاكم ان الملك الموكل بالصور مستعد للنفخ فيه ينتظر متى يؤمر ، وفي بعضها انه وكل به ملكان . وورد في وصف ملك الصور وفي صفة الصور والنفخ وتأثيره وما يتعلق به وما يكون يومئذ روايات منكرة بعضها مأخوذ من الاسرائيليات عن كعب الاحبار ووهب بن منبه و بعضها ملفق من أخبار كثيرة وممزوج بالآيات الواردة في قيام الساعة كحديث أبي هريرة الطويل الذي رواه عنه الطبراني من طريق إسماعيل بن رافع قاضي المدينة وقد ذكر منه ابن كثير ما يملأ عدة صفحات وذكر انه غريب جدا وان اسماعيل تفرد به وأنه اختلف عليه في اسناده على وجوه كثيرة وذكر الخلاف في توثيق اسماعيل وتضعيفه ومنه انه نص على نكارة حديثه غير واحد من الائمة كاحمد وأبي حاتم ومنهم من قال إنه متروك . وسنعود الى الكلام على الصور وحكمة النفخ فيه في تفسير سورتي الانبياء والزمر ان أحيانا الله تعالى

﴿ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ فسر ابن عباس الغيب والشهادة هنا بالسر والعلانية . وقال الحسن : الشهادة ماقد رأيتم خلقه والغيب ماغاب عنكم مما لم تروه . وتقدم القول في علم الغيب في غير موضعين من تفسير هذه السورة مفصلا تفصيلا . والمعنى ان الذي خلق الخلق بالحق والذي قوله الحق في التكوين والتكليف والذى له الملك وحده يوم ينفخ في الصور و يحشر الخلق هو عالم الغيب والشهادة، وهو الحكيم الذى يضع كل شيء في موضعه، الخبير بدقائق الامور وخفاياها، فلا يشذ عن علمه وحكمته شيء منها ،فلا يليق بعاقل ان يدعو غيره ولو بقصد التوسل والتقريب اليه زلفى ، (فلا تدعوا مع الله أحدا * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء) ففي هذا التذييل تقرير لمضمون الآية وفذلكة للسياق الوارد في انكار دعاء غير الله تعالى

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بما شاء من الألقاب ان شاء . واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متاخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ حكم التصوير وصنع الصور والتماثيل واتخاذها ﴾

(س ٩) من صاحب الامضاء الرمزي في سنغافوره

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله

ماقول الاستاذ المرشد مولانا السيد محمد رشيد رضا أرشده الله ورضي عنه في حكم عمل الصور من الجص والاحجار والمعادن مجسمة -- وفي حكم عملها بالحفر

أو القلم أو بآلة حبس الظل (الفوتغراف) غير مجسمة، هل هو جائز مطلقا أو في بعض الصور وما الدليل على ذلك ؟

وهل تقولون بحرمة ماصنع للعبادة والتعظيم فقط أم تذهبون الى كون التحريم خاصا بالزمن المتقدم خوفا من ان يكون ذريعة الى عبادة الصور اما الآن فلا يحرم لانسداد الذريعة ؟ وهل يدل على ذلك ترك الصحابة ماوجدوه في ايوان كسرى من الصور مع صلاتهم فيه لانها لمحض الزينة ام لا ؟ وما حكم لاقتنائها ولو لحاجة والنظر ولو لضرورة عسر الاحتراز او لكونها عند من لا يحرمها ؟

افتونا على صفحات منارکم مأجورين ، ولا زلتم قبلة الافادة والصواب موفقين، وبامداد الله معانين . — حرره في ستفوره — د ه ن

(ج) سبق لنا قول وجيز في هذه المسألة واقتضت الحال الآن بسط المسألة بالتفصيل وهو يتوقف على ايراد الاحاديث الصحيحة الواردة فيها وملخص ما فهمه العلماء المشهورون منها . وقد استوفى الامام البخاري جل ذلك في كتاب اللباس من صحيحه فنعتمد في النقل على ما ورد فيه فنذكره بغير عزو اليه غالبا ونعزو ما ننقله عن غيره لزيادة فائدة فيه ونعتمد في تلخيص أقوال العلماء على ما أورده الحافظ ابن حجر في الفتح فانه أجمع الكتب التي نعرفها لذلك ولا مثاله، وان نقلنا شيئا عن كتاب آخر نعزوه اليه

﴿ الاحاديث الصحيحة في التصاوير والمصورين ﴾

١ — عن مسلم (هو ابن صبيح أبو الضحى واشتهر بكنيته) قال كنا مع مسروق في دار يسار بن نمير (هو مولى عمر بن الخطاب وروى عنه) فرأى في صفته (*) تماثيل فقال سمعت عبدالله (هو ابن مسعود) قال سمعت النبي (ص) يقول « ان أشد الناس عذابا عند الله المصورون » وفي رواية مسلم : كنت مع مسروق في بيت فيه تماثيل فقال مسروق هذه تماثيل كسرى فقلت لا هذا تماثيل مريم . ثم ذكر الحديث

*) الصفة بضم الصاد وتشديد الفاء كالظلة وزنا ومعنى وتطلق على المكان المظلل بفناء الدار أو المسجد وعن الليث انها مكان كالبهو مظلل مستطيل

٢ — عن ابن عمر (رض) ان رسول الله (ص) قال « ان الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم »

٣ — عن ابن عباس انه جاءه رجل فقال إني أصور هذه الصور فأفتني فيها فقال سمعت رسول الله (ص) يقول « كل مصوّر في النار . يجعل له بكل صورة نفسا فتعذبه في جهنم » وقال فان كنت لا بد فاعلا فاصنع الشجر ومالا نفس له . ورواه مسلم وأحمد وفي بعض الروايات ان السائل رجل من أهل العراق أراه نجارا . وفي بعضها انه قال له انما معيشتي من صنعة يدي، وانه عندما ذكر له الحديث انتفخ غيظا فرخص له بما ذكر . ونص المرفوع في رواية أخرى « من صور صورة في الدنيا كلف يوم القيامة ان ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » قال الحافظ ابن حجر وفي رواية أبي سعيد ابن أبي الحسن « فان الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبدا » وستعمال حتى هنا نظير استعمالها في قوله تعالى (حتى يلج الجمل في سم الخياط) وكذا قولهم لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب . ثم ذكر ان هذا أمر تعجيز لا من تكليف مالا يطاق . وانه استشكل في حق المسلم لانه يدل على الخلود وانه يتعين تأويله بارادة لزجر الشديد وأن ظاهره غير مراد . اه ماذكره الحافظ ملخصا . وقول الاولى ان يحمل على المشركين الذين يصنعون ما يعبد لعبادته كما يعلم مما يأتي

٤ — عن عمران بن حطان ان عائشة (رض) أخبرته ان النبي (ص) لم يكن يترك في بيته شيئا فيه تصاليب الا نقضه

التصاليب جمع تصليب وهو مصدر سمي به ماكان فيه صورة الصليب من ثوب أو غيره، ونقضه أزاله ،والازالة تكون بنحو الطمس والحك والطخ والقطع . وقد ذكر البخاري هذا الحديث في (باب نقض الصور) وذكر الحافظ في وجه مطابقة الحديث للترجمة انه استنبط من نقض الصليب نقض الصورة التي تشترك مع الصليب في المعنى الذي هو سبب التحريم وهو عبادتهما من دون الله

٥ — عن أبي زرعة قال دخلت مع أبي هريرة دارا بالمدينة فرأى في أعلاها مصورا يصور فقال سمعت رسول الله (ص) يقول « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة »

في هذه الرواية حذف علم من رواية أخرى وهو « قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق » الخ رواها مسلم . وفيها ان الدار دار مروان وفي رواية له : تبنى لسعيد أو لمروان . قال ابن بطال فهم أبو هريرة ان التصوير يتناول ماله ظل وما ليس له ظل فلهذا أنكر ما ينقش في الحيطان . يعني ابن بطال ان هذا الفهم غير صحيح من حيث ان التشبيه في الحديث القدسي لا ينطبق عليه فان الله تعالى خلق ذوات ماثلة لا نقوشا في الحيطان ونحوها . ويمكن ان يقال أيضا إن صنع تماثيل ذات الظل التي شددوا فيها لا تعد من هذا الظلم الا اذا قصد صانعها أن يخلق كخلق الله ، وقد فسروا « ذهب يخلق » بقصد وهو رواية حديث ابن فضيل . ويؤيده حديث عائشة الآتي (وهو التاسع) اذ قال : يضاهون بخلق الله ، وفي رواية مسلم : يشبهون بخلق الله . وانما يكون هذا بالقصد .

٦ — عن ابن عباس عن أبي طلحة (رض) قال قال رسول الله (ص) « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تصاوير »

٧ — عن عبد الله بن عمر قال : وعد جبريل النبي (ص) فراث (أي أبطأ) عليه حتى اشتد على النبي (ص) فخرج فلقيه فشكا اليه ما وجد فقال « إنا لا ندخل بيتا فيه صورة ولا كلب » هكذا أخرجه البخاري مختصرا . وهو عند مسلم من حديثي عائشة وميمونة أوضح وفي الاول ثم التفت فاذا جرو كلب تحت سريره فقال « يا عائشة متى دخل هذا الكلب ههنا ؟ فقالت والله ما دريت به ، فأمر به فأخرج فجاء جبريل الخ وفي الثاني : ثم وقع في نفسه جرو كلب تحت فسطاط لنا فأمر به فأخرج ثم أخذ بيده ماء فنضح مكانه فلما أمسى لقيه جبريل الخ وظاهر الحديثين ان امتناع جبريل كان بسبب وجود الكلب اذ ليس فيهما ذكر للصور ، وفي الاول انه رأى الكلب عرضا ولم يكن عالما بوجوده وفي الثاني انه كان عالما به وتذكره بعده إبطاء جبريل . وفيهما الخلاف بين السرير والفسطاط والاول معروف والثاني بيت من شعر دون السرادق وقال النووي أصله عمود الاخبية والمراد به في الحديث بعض حجال البيت فيطابق حديث عائشة اه بالمعنى . وفي القصة حديث أبي هريرة عند أحمد وأبي داود والنسائي والترمذي وصححه كابن حبان والحاكم وهو :

« أتاني جبريل فقال أتيتك البارحة فلم يمنعني أن أكون دخلت الا أنه كان على الباب تماثيل وكان في البيت قرام ستر فيه تماثيل ، وكان في البيت كلب . فمر برأس التمثال الذي على باب البيت يقطع فيصير كهيئة الشجرة ، ومر بالستر فليقطع فليجعل منه وسادتان منبوذتان توطآن ، ومر بالكلب فليخرج » ففعل رسول الله (ص) واذا الكلب جرو كان للحسن والحسين تحت نضد لهم . وفي رواية النسائي « إما ان تقطع رءوسها وما ان تجعل بسطا توطأ » والنضد بفتحتين ما ينضد من متاع البيت يجعل بعضه فوق بعض وما ينضد عليه ذلك المتاع من سرير وغيره فهو يطابق حديث عائشة من هذا الوجه

ظاهر هذا الحديث ان الواقعة كانت في بيت علي وفاطمة وظاهر حديث كل من عائشة وحفصة انها كانت في بيتها .

ومن الاضطراب في هذه الروايات ان حديث ابن عمر صريح في ان النبي (ص) خرج فلقي جبريل خارج البيت وظاهر حديث عائشة ان جبريل دخل البيت بعد اخراج الكلاب ، وصرحت عائشة وحفصة بأنه (ص) أمر باخراج الكلاب قبل لقاء جبريل بعد رؤيته أو تذكره وصرح أبو هريرة بأن جبريل هو الذي أخبره به واقترح عليه اخراجه ، وعادة العلماء ان يجمعوا بين أمثال هذه الروايات المتعارضة بتعدد الوقائع ، وعليه يترجح أن يكون ما رواه أبو هريرة وقع أولا فعلم منه النبي (ص) ان جبريل لا يدخل مكانا فيه كلب ولذلك أمر باخراج الكلاب بعد ذلك لما رآه أو تذكره لعلمه مما سبق انه هو سبب تأخر جبريل ولكن في حديثي عائشة وحفصة عند مسلم أن النبي (ص) لم يكن يعلم سبب تأخر جبريل عليه السلام لانه سأله عنه فقال في حديث عائشة « منعني الكلب الذي كان في بيتك إنا لا ندخل الخ

وذكر النووي في سبب الامتناع أربع علل (١) كثرة أكل الكلاب للنجاسات (٢) قبح رائحتها أي رائحة بعضها (٣) ان بعضها يسمى شيطانا وهو الاسود القبيح المنظر (٤) النهي عن اتخاذها ، ولهذا الاخير قال الخطابي ان الامتناع خاص بما نهي عنه دون المأذون فيه ككلب الماشية والزرع والصيد ، وخالفه النووي فقال بالتعميم في الكلاب ولكنه خص الملائكة بملائكة الرحمة

٨ — عن أنس (رض) قال كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها فقال لها النبي (ص) «أميطي عني فانه لاتزال تصاويره تعرض لي في صلاتي» أميطي أي نحي وازيلي وفيه حذف المفعول ورواية مسلم « أزيليه »

٩ — عن عائشة (رض) قالت : قدم رسول الله (ص) من سفر وقد سترت بقرام لي على سهوة لي فيه تماثيل فلما رآه رسول الله (ص) هتكه وقال « أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » قالت فجعلناه وسادة أو سادتين

وفي رواية للبخاري في المظالم قالت فاتخذت منه نمرقتين فكانتا في البيت يجلس عليهما. وفي رواية لمسلم فجعلته مرفقتين فكان يرتفق بهما في البيت . وفي لفظ أحمد : فقطعته مرفقتين فلقد رأيته متكئا على إحداها وفيها صورة . والنمرقة والمرفقة الوسادة كما سيأتي

١٠ — وعنها انها اشترت نمرقة فيها تصاوير فقام النبي (ص) بالباب فلم يدخل (قالت) فقلت أتوب الى الله مما أذنبت . قال « ماهذه النمرقة ؟ قلت لتجلس عليها وتوسدها، قال « ان أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم ، وان الملائكة لاتدخل بيتا فيه الصور » وفي رواية مسلم « اشتريتها لك تقعد عليها وتوسدها . والفقرة المرفوعة منه « ان البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة »

١١ — وعنها قالت : قدم النبي (ص) من سفر وعلقت درنوكا فيه تماثيل فأمرني أن أنزعه فنزعته ، هذا لفظ البخارى . ولفظ مسلم : وقد سترت على بابي درنوكا فيه الخيل ذات الاجنحة. وفي لفظ آخر عنده : دخل النبي (ص) علي وقد سترت نمطا فيه تصاوير فنحاه فاتخذت منه وسادتين. وستور الدرنوك ولنمط جنس واحد كما سيأتي

١٢ — عن بشر بن سعيد عن زيد بن خالد (الجهني الصحابي) عن ابي طلحة (زيد بن سهل الانصاري) صاحب رسول الله (ص) قال ان رسول الله (ص) قال « ان الملائكة لاتدخل بيتا فيه الصورة » (وفي نسخة الصور وفي أخرى صور) قال بشر ثم اشتكى زيد (أي ابن خالد) فعدناه فاذا على بابه ستر فيه صورة (وفي نسخة صور) فقلت لعبيد الله الخولاني ربيب ميمونة زوج النبي (ص) (وكان مع بشر) : ألم يخبرنا زيد عن الصور يوم الاول ؟ (وفى نسخة يوم أول) فقال عبيد الله : ألم تسمعه حين قال « الا رقما في ثوب» قال الحافظ :في رواية عمرو بن الحارث:

فقال انه قال «الا رقما في ثوب» الاسمعته ؟ قلت لا، قال بلى قد ذكره . وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي

١٣ — وروى مسلم وأبوداود عن زيدبن خالد عن أبي طلحة الانصاري قال سمعت رسول الله (ص) يقول « لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تماثيل » قال فأتيت عائشة فقلت ان هذا يخبرني ان النبي (ص) قال لاتدخل الملائكة... » الخ فهل سمعت رسول الله (ص) ذكر ذلك؟ فقالت لا ولكن سأحدثكم مارأيته فعل — رأيته خرج في غزاة فأخذت نمطا فسترته على الباب ، فلما قدم فرأى النمط عرفت الكراهية في وجهه ، فجذبه حتى هتكه أوقطعه وقال « ان الله لم يأمرنا ان نكسو الحجارة والطين » قالت فقطعنا منه وسادتين وحشوتهما ليفا فلم يعب ذلك علي

قالوا ان هذا النمط هو الذي فيه الخيل ذات الاجنحة كما تقدم آنفا من رواية أخرى عند مسلم وذكر النووي ان العلماء استدلوا به على منع ستر الحيطان وتنجيد البيوت بالثياب وهو منع كراهة تنزيه لا تحريم ، هذا هو الصحيح . ثم رد على من حرمه

وأقول : الظاهر أن هذا الحديث معارض لتلك الاحاديث اذ ليس فيه أنه أنكر الصور التي في النمط ويمكن ان يقال ان هذا وقع قبل امتناع جبريل من دخول البيت لوجود التماثيل والكلب فيه ، الا ان عائشة حدثت بهذا و بغيره بعد رسول الله (ص) فالمسألة مشكلة من هذا الوجه . ومثله حديث أنس عند البخاري (وهو الثامن مما أوردنا) ففيه أنه (ص) أمرها بإماطة القرام لان تصاويره تعرض له في صلاته ، فعلة الامر بازالته أنه يشغل نظر المصلي اليه، وجماهير الفقهاء متفقون على كراهة الصلاة الى مايشغل المصلي، ولا دليل فيه على انكار الصور أو تحريم اتخاذها . ومثله حديثها في النمرنوك (وهو الحادي عشر) ولكن ليس فيه تصريح بالعلة . ومثله حديثها عند مسلم في الثوب الممدود الى السهوة . وأما حديثها في القرام (وهو التاسع) وحديثها في النمرقة (وهو العاشر) فهما صريحان في إنكار اتخاذ الصور بتلك الهيئة . وقد استشكل ذلك العلماء وأجاب بعضهم عنه بتعدد الوقائع و بأن الصور في بعضها من غير ذوات الارواح وهي التي لم ينكرها وفي بعضها من ذوات الارواح كالطير والخيل وهي التي أنكرها . ويقال هنا أيضا ما قلناه في حديث زيد بن خالد عن أبي طلحة ، وهو

أن عائشة كانت تحدث بذلك بعد رسول الله (ص) فلماذا كانت تذكر كل واقعة وحدها ولم تبين لكل سائل أو محدث كل ما علمته في المسألة ؟ وهل يعقل ان ينكر النبي (ص) على عائشة عملا عملته في بيته فتزيله بأمره ثم تعود الى فعله ؟ كلا ان الروايات في هذه المسألة مضطربة ولم نر لاحد من العلماء قولا شافيا فيها

والذي نراه أقرب الى الوقوع ان عائشة كانت علقت على الجدار سترا فيه تصاوير للزينة فأنكر النبي (ص) ذلك من باب الارشاد الى ما يستحسن في تدبير المنزل وهو عدم إضاعة الثوب بوضعه على الجدار وضعا لا فائدة فيه لان الثياب لستر الابدان وزينتها لا لستر الحجر والطين . ويحتمل ان يكون هذا هو الذي وقع أمامه في صلاته وأنه علل أمره بازالته بكونه يشغل النظر في وقت الصلاة وبكونه اسرافا واضاعة للثوب وان عائشة ذكرت كل تعليل مرة في سياق كلام اقتضاه ، أو ذكرتهما معا وذكر الرواة كلا منهما في سياق اقتضاه ، ويحتمل ان يكون الحديثان في واقعتين علل الانكار في الاولى منهما بشغل النظر في الصلاة وان الستر كان في الثانية بحيث لا يراه في الصلاة ، وكل حديث في هذا الباب لم تنكر أو لم تذكر فيه التصاوير فهو محمول على تلك الواقعة أو الوقعتين . وأما الروايات التي فيها التصريح بانكار اتخاذ التصاوير بتلك الصفة فالاقرب انها في واقعة واحدة كانت بعد ما تقدم ، وانها علقت النمرقة في غيبته اذ كان مسافرا فلما عاد ورآها أنكر عليها وامتنع من دخول البيت حتى تنزعها فلما تابت دخل وهتكها بيده أي أزالها الا ان الإخبار بها كان في أوقات مختلفة فاختلف التعبير باللفظ والمعنى . ومن الاول القرام والنمط والدرنوك والنمرقة والوسادة والمرفقة (* ويدل على هذا الجمع قولها : أتوب الى الله

(*) القرام بالكسر ستر فيه نقوش وتصاوير . وقيل ثوب من صوف ملون يفرش في الهودج أو يغطى به . والنمط قال النووي في شرح مسلم المراد به هنا بساط ليف له خمل . والدرنوك بالضم كصفد ، ثوب غليظ له خمل اذا فرش فهو بساط واذا علق فهو ستر . والنمرقة بضم النون والراء — وكسرهما لغة كلب — الوسادة يجلس عليها وتوضع على الرحل تحت الراكب لليونها وتتوسد أيضا فتسمى وسادة والوسادة بتثليث الواو المخدة التي تتوسد في النوم أي يوضع عليها الرأس وتسمى مخدة بكسر الميم لانها يوضع عليها الخد عند النوم . وتسمى مرفقة ومرفقا بكسر الميم وفتح الفاء لانها يوضع عليها المرفق عند الاتكاء عليها فاختلاف الاسماء لاختلاف الاستعمال =

مما أذنبت . فلولا النهي السابق لم يكن تعليقها النمرقة ذنبا تتوب منه . ولكن في بعض روايات الصحيح انها قالت : فما أذنبت . ولعل هذا غلط من بعض الرواة

١٤ — عن عائشة (رض) قالت : كنت ألعب بالبنات عند النبي (ص) وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله (ص) اذا دخل يتقمعن منه (أي يستترن) فيسرّبهن (أي يرسلهن) اليّ فيلعبن معي . أخرجه البخاري في كتاب الادب من الصحيح

وقد حرف بعض المشددين في مسألة الصور هذا الحديث فزعم ان معنى قولها كنت ألعب بالبنات — كنت ألعب مع البنات . قال الحافظ في شرح الحديث : حكاه ابن التين عن الداودي ورده (قلت) ويرده ما أخرجه ابن عيينة في الجامع من رواية سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عنه عن هشام بن عروة في هذا الحديث : وكن جواري يأتين فيلعبن معي . وفي رواية جرير عن هشام : كنت ألعب بالبنات وهن اللعب . أخرجه أبو عوانة وغيره . وأخرج أبو داود والنسائي من وجه آخر عن عائشة قالت : قدم رسول الله (ص) من غزوة تبوك أو خيبر — فذكر الحديث في هتكه الستر الذي نصبته على بابها قالت : فكشف ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب فقال « ماهذا ياعائشة ؟ — قالت بناتي ، ورأى فيها فرسا مربوطا له جناحان فقال « ما هذا ؟ قلت فرس ، قال « فرس له جناحان ! » قلت ألم تسمع انه كان لسليمان خيل لها أجنحة ؟ فضحك . فهذا صريح في ان المراد باللعب غير الآدميات اه

١٥ — عن عائشة (رض) قالت لما اشتكى النبي (ص) — أي مرض مرض الموت — ذكر بعض نسائه كنيسة يقال لها مارية وكانت أم سلمة وأم حبيبة أتيا أرض الحبشة فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها فرفع رأسه فقال « أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله » أخرجه البخاري في أبواب المساجد وفي الجنائز وأخرجه مسلم في المساجد

= وقد كان يختلف المسمى بالكبر والصغر كما يختلف الآن وهو جنس واحد تحديد معناه أنه شبه كيس من نسيج يوضع فيه نحو قطن أو صوف أو ليف ويخاط عليه . ومنه مايصنع أولا وبالذات للنوم ومنه مايصنع للاتكاء أو الجلوس ، ثم يستعمل لغير ذلك عند الحاجة

﴿ أقوال العلماء في فقه هذه الاحاديث ﴾

(١) قال الحافظ عقب ذكر حديث أبي هريرة المتقدم عن أحمد وأصحاب السنن مانصه : وفي هذا الحديث ترجيح قول من ذهب الى ان الصورة التي تمتنع الملائكة من دخول المكان التي تكون فيه هي ماتكون على هيئتها مرتفعة غير ممتهنة . فأما لو كانت ممتهنة أو غير ممتهنة لكنها غيرت عن هيئتها إما بقطعها من نصفها أو بقطع رأسها فلا امتناع

(٢) ثم قال الحافظ في إثر ما تقدم : وقال القرطبي ظاهر حديث زيد بن خالد عن أبي طلحة الماضي قبل (وهو التاسع مما نقلناه عن البخاري) أن الملائكة لا تمتنع من دخول البيت الذي فيه صورة ان كانت رقما في الثوب ، وظاهر حديث عائشة المنع . ويجمع بينهما بأن يحمل حديث عائشة على الكراهة وحديث أبي طلحة على مطلق الجواز وهو لا ينافي الكراهة . (قال الحافظ) قلت وهو جمع حسن لكن الجمع الذي دل عليه حديث أبي هريرة أولى منه والله أعلم

(٣) قال الحافظ عند الكلام على حديث النمرقة : قال الرافعي وفي دخول البيت الذي فيه الصورة وجهان قال الاكثر يكره وقال أبو محمد يحرم . فلو كانت الصورة في ممر الدار لا داخل الدار كما في ظاهر الحمام أو دهليزها لا يمتنع الدخول . قال وكأن السبب فيه ان الصورة في الممر ممتهنة وفي المجلس مكرمة . (قلت) وقضية إطلاق نص المختصر وكلام الماوردي وابن الصباغ وغيرهما لافرق اه

(٤) اختلفوا في الملائكة التي لا تدخل بيتا فيه صورة ولا كلب فقيل هو على العموم وقيل هو خاص بملائكة الرحمة ونقله عن النووي وصرح هؤلاء بأنه يستثني منه الحفظة ، وقيل من نزل بالوحي خاصة كجبريل (قال الحافظ) وهذا نقل عن ابن وضاح والداودي وغيرهما وهو يستلزم اختصاص النهي بعهد النبي (ص) لان الوحي انقطع بعده وبانقطاعه انقطع نزولهم . وقيل التخصيص في الصنعة أي لا تدخله الملائكة دخولهم بيت من لا كلب فيه

(٥) قال الحافظ : وأغرب ابن حبان فادعى ان هذا الحكم خاص بالنبي (ص)

قال وهو نظير الحديث الآخر « لا تصحب الملائكة رفقة فيها جرس » — قال — فانه محمول على رفقة فيها رسول الله (ص) اذ محال ان يخرج الحاج والمعتمر لقصد بيت الله عز وجل على رواحل لا تصحبها الملائكة وهم وفد الله انتهى وقد استبعد الحافظ هذا التأويل وقال انه لم يره لغيره

(٦) قال : وقد استشكل كون الملائكة لا تدخل المكان الذي فيه التصاوير مع قوله سبحانه وتعالى عند ذكر سليمان عليه السلام (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل) وقد قال مجاهد كانت صورا من نحاس أخرجه الطبري . وقال قتادة كانت من خشب ومن زجاج . أخرجه عبد لرزق . والجواب ان ذلك كان جائزا في تلك الشريعة وكانوا يعملون أشكال الانبياء والصالحين منهم على هيئتهم في العبادة ليتعبدوا كعبادتهم ، وقد قال أبو العالية لم يكن ذلك في شريعتهم حراما ثم جاء شرعنا بالنهي عنه . ويحتمل ان يقال ان التماثيل كانت على صورة النقوش لغير ذات الارواح ، واذا كان اللفظ محتملا لم يتعين الحمل على المعنى المشكل ، وقد ثبت في الصحيحين حديث عائشة في قصة الكنيسة التي كانت بأرض الحبشة وما فيها من التصاوير وانه (ص) قال « كانوا اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله » فان ذلك يشعر بأنه لو كان جائزا في ذلك الشرع ما أطلق عليه (ص) ان الذي فعله شر الخلق ، فدل على ان فعل صور الحيوان فعل محدث أحدثه عباد الصور والله أعلم اه

أقول: لم يأت الحافظ رحمه الله بشيء يشفي في هذه المسألة والذي يظهر في حل الاشكال أن وجود التصاوير في مكان ليس ما نعا ذاتيا لدخول الملائكة فيه ، اذ لو كان كذلك لم يختلف فيه حكم شرائع الانبياء عليهم السلام وأصل دين الله فيهم واحد وانما اختلفت شرائعهم بما يختلف ضره ونفعه وفساده وصلاحه باختلاف الزمان والمكان . وما ذكره الله تعالى من منته على نبيه سليمان عليه السلام في هذه المسألة دليل على ان عمل التماثيل له واتخاذه إياها في مبانيه لم يكن فيه مظنة عبادة ولا تشبه بالمشركين مذكر بعبادتهم مؤنس للمؤمن بها .

ومن العجيب أن يذكر الحافظ في تعليل ما كان يعمل لسليمان انه كان يعمل

له صور الانبياء والصالحين الخ وهذا هو أصل البلاء في عبادة الصور والتماثيل فقد روى البخاري وغيره ان أصنام قوم نوح وأوثانهم المذكورة في سورة نوح صارت الى العرب وان أسماءها كانت أسماء رجال صالحين فلما ماتوا أوحى الشيطان الى قومهم ان انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون اليها انصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت . ويؤيد هذا حديث عائشة في قصة الكنيسة وقد تقدم ، فالنصارى قد اتبعوا سنن سلفهم من الروم واليونان في اتخاذ الصور والتماثيل فكانوا يجعلون صور الانبياء والصالحين في المعابد وغيرها وهي التي ذمهم الرسول (ص) بها ولم يذمهم على اتخاذ صور الملوك والقوادوالوالدين والاولاد وغيرهم مما لا شبهة فيه على العبادة ولا دخل له في الدين . فمن العجيب ان يغفل المستنبط عن علة الشيء الصريحة ويتخذ له علة أخرى يفسرها النصوص ليجمع بينها فيحمل الشيء على ضد المراد . على ان الحافظ ذكر حديث الكنيسة المصرح بالعلة الصحيحة ولكنه لم يرد به ماذكره قبله

وقد وقع مثل هـذا لبعض المؤلفين المقلدين في تشريف القبور بالبناء ووضع الستور عليها فحمل النهي عن ذلك في الاحاديث على مالم يقصد به تعظيم الميت الصالح أي لانه اضاعة للمال وأباح ما اتبع به الخلف الصالح سنن من قبلهم من بناء القبور الصالحين ووضع الستور عليها اذا كان المراد به تعظيمها قياسا على أستار الكعبة!! وهو قياس مصادم للنص مبطل له ناقض لعلته ذاهب بحكمته ، فان الخطر على أصل الدين وهو التوحيد انما هو في تعظيم قبور الصالحين لانه أدى عبادتها بالتعظيم والطواف والتمسح ودعاء الموتى ، و « الدعاء هو العبادة » كما ثبت في الحديث عند أحمد وأصحاب السنن وغيرهم . وقد بسطنا الكلام في هذه المسألة مرارا

(٧) نقل الحافظ في شرح حديث عبدالله بن مسعود — وهو الاول مما أوردنا — عن الخطابي أقدم شراح البخاري انه قال فيه : إنما عظمت عقوبة المصور لان الصور كانت تعبد من دون الله ، ولان النظر اليها يفتن و بعض النفوس اليها تميل ، قال والمراد بالصور هنا التماثيل التي لها روح اه

أقول : التعليل الاول هو الصحيح الذي يؤخذ من مجموع النصوص واقتصر عليه

المحققون، وأما دعوى الافتتان بجمالها وهذا لا يقع الا نادرا فلا يبنى عليه مثل هذا الوعيد الشديد، وانما يظهر وجهه اذا أريد به الافتتان الديني الذي كان عليه الكفار وهو يرجع الى التعليل الاول. ومن العجيب أن يجعل الميل والاستحسان لبعض خلق الله والسرور به مذموما شرعا ومقتضيا لتحريم الاستمتاع به وان لم يترتب عليه ترك فريضة ولا ارتكاب معصية. فليحرموا اذا النظر والتأمل في زينة الكواكب النيرات، والجنات معروشات وغير معروشات، وجمال رياض الازهار، ومحاسن حدائق الاشجار، وسماع خرير المياه ونغمات الاطيار، وغير ذلك من صنع الله (الذي أتقن كل شيء * الذي أحسن كل شيء خلقه) وماذا يفعلون بقول الرسول عليه الصلاة والسلام، لمن سأله عن حب الزينة في اللباس (ان الله جميل يحب الجمال)؟ رواه مسلم والترمذي من حديث ابن مسعود وغيرهما عن غيره أيضا

(٨) ثم قال بعد نقل ما تقدم عن الخطابي: وقيل يفرق بين العذاب والعقاب فالعذاب يطلق على ما يؤلم من قول أو فعل كالعتب والانكار والعقاب يختص بالفعل. فلا يلزم من كون المصور أشد الناس عذابا أن يكون أشد الناس عقوبة. هكذا ذكر الشريف المرتضى في الغرور وتعقب بالآية المشار اليها وعليها انبنى الاشكال ولم يكن هو عرج عليها فلهذا ارتضى التفرقة والله أعلم

(قال) واستدل به أبو علي الفارسي في التذكرة على تكفير المشبهة فحمل الحديث عليهم وأنهم المراد بقوله «المصورون» أي الذين يعتقدون ان لله صورة. وتعقب بالحديث الذي بعده في الباب بلفظ «ان الذين يصنعون هذه الصور يعذبون» وبحديث عائشة الآتي بعد بابين بلفظ «ان أصحاب هذه الصور يعذبون» وغير ذلك، ولو سلم له استدلاله لم يرد عليه الاشكال المقدم ذكره — أي معارضة الآية للحديث — اه وحديث الباب الذي أشار اليه هو الثاني مما أوردنا

وأقول: كان يمكن لابي علي أن يجيب عن هذا لو أورد عليه بجعل حديث «ان أشد الناس عذابا عند الله المصورون» في الذين يجعلون لله تعالى صورة مماثلة لصور بعض المخلوقات، ويجيب عن معارضة الآية بتقدير «من أشد» ويتفصى بذلك من جعل التصوير ككفر آل فرعون مشاركا له في مثل عقابه، ومعلوم من أصول الشريعة

المجمع عليها أن ماورد النص بتسميته أكبر الكبائر هو دون أشد الكفر بالشرك بالله ومعاندة رسله ككفر آل فرعون ، اذ كل كبيرة من هذه الكبائر التي هي أعظم جرما من التصوير المحرم يجوز أن تغفر ولا يعذب صاحبها أصلا ، فكيف يجزم بأن المصورين أشد الناس أو من أشدهم عذابا كآل فرعون . وأما كونهم يعذبون فلا مرية فيه دون ذلك ، ولا سيما على قول من فرق بين العذاب والعقاب فلم يجعل كل عذاب عقابا

(٩) من أشد الفقهاء تشديدا في التصوير واتخاذ الصور أبو بكر بن العربي من المالكية والنووي من الشافعية . وقد جزما بتحريم التصوير مطلقا لخص الاول الاقوال في اتخاذ الصور فقال : حاصل مافي اتخاذ الصور انها ان كانت ذات أجسام حرم بالاجماع وان كانت رقما فأربعة أقوال الاول يجوز مطلقا على ظاهر قوله في الحديث « الا رقما في ثوب » الثاني المنع مطلقا حتى الرقم الثالث ان كانت الصورة باقية الهيئة قائمة الشكل حرم وان قطعت الرأس أو تفرقت الاجزاء جاز — قال وهذا هو الاصح — الرابع ان كان مما يمتهن جاز وان كان معلقا لم يجز اه ونوزع في دعوى الاجماع فيما له ظل واستثنى الجمهور لعب البنات كما تقدم وفيه بحث سيأتي قريبا

(١٠) قال الحافظ في شرح حديث الدرنوك : واستدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ الصور اذا كانت مما لا ظل له وهي مع ذلك مما يوطأ ويداس أو يمتهن بالاستعمال كالمخاد ولوسائد قال النووي : وهو قول جمهور العلماء من الصحابة والتابعين . وهو قول الثوري ومالك وأبي حنيفة والشافعي . ولا فرق في ذلك بين ما له ظل وما لا ظل له ، فان كان معلقا على حائط أو ملبوسا أو عمامة أو نحو ذلك مما لا يعد ممتهنا فهو حرام . ثم ذكر الحافظ مؤاخذات فيما نقله النووي (منها) حكاية ابن العربي تحريم ماله ظل بالاجماع ، وقال ان محله في غير لعب البنات ، وان القرطبي حكى فيما لا يتخذ للابقاء كالفخار قولين أظهرهما المنع ، وجعل إلحاق ما يصنع من الحلوى بالفخار و بلعب البنات محل تأمل (ومنها) ن مذهب الحنابلة جوز الصورة في الثوب ولو كان معلقا الا ان يكون على جدار فيمنع . أي عملا بحديث « ان الله لم يأمرنا ان نكسو الحجارة والطين »

(١١) قال النووي : وذهب بعض السلف الى ان الممنوع ما كان له ظل وأما لا ظل له فلا بأس باتخاذه مطلقا ، وهو مذهب باطل فان الستر الذي أنكره النبي (ص) كانت الصورة فيه بلا ظل بغير شك ومع ذلك فأمر بنزعه (قال الحافظ متعقبا للنووي) قلت المذهب المذكور نقله ابن أبي شيبة عن القاسم بن محمد بسند صحيح ولفظه عن ابن عون قال : دخلت على القاسم وهو بأعلى مكة في بيته فرأيت في بيته حجلة فيها تصاوير القندس والعقاء . ففي اطلاق كونه مذهبا باطلا نظر اذ يحتمل انه تمسك في ذلك بعموم قوله « الا رقما في ثوب » فأنه أعم من أن يكون معلقا أو مفروشا، وكأنه جعل انكار النبي (ص) على عائشة تعليق الستر المذكور مركبا من كونه مصورا ومن كونه ساترا للجدار . ويؤيده ماورد في بعض طرقه عند مسلم — وذكر تعليل الحديث المتقدم في ذلك وقال — فهذا يدل على انه كره ستر الجدار بالثوب المصور فلا يساويه الثوب الممتهن ولو كانت فيه صورة وكذلك الثوب الذي لا يستر به الجدار ، والقاسم بن محمد أحد فقهاء المدينة وكان من أفضل أهل زمانه، وهو الذي روى حديث النمرقة فلولا أنه فهم الرخصة في مثل الحجلة ما استجاز استعمالها .

ثم رجح الحافظ ان الرخصة فيما يمتهن لا فيما كان منصوبا ونقل عن جماعة من علماء السلف القول بذلك ، منها ماروى عن عكرمة : كانوا يكرهون ما نصب من التماثيل نصبا ولا يرون بأسا بما وطئته الاقدام ، وما روي من طريق عروة انه كان يتكئ على المرافق فيها تماثيل الطير والرجال اه

[المنار] القاسم بن محمد هو ابن محمد بن أبي بكر الصديق (رض) أحد أئمة التابعين تربى في حجر عمته عائشة وتفقه بها وروى عن غيرها من الصحابة أيضا وممن أخذ عنه الزهري وربيعة شيخ الامام مالك وكثيرون . قال يحيى بن سعيد الانصاري : ما أدركنا بالمدينة أحدا نفضله على القاسم ، وعن أبي الزناد قال : ما رأيت فقيها أعلم من القاسم ، وما رأيت أحدا أعلم بالسنة منه ، وقال سفيان بن عيينة : كان القاسم أعلم أهل زمانه ؛ وقال ابن سعيد : كان اماما فقيها ثقة رفيعا ورعا كثير الحديث ، قال أيوب السختياني : ما رأيت أحدا أفضل من القاسم . انتهى ملخصا من تذكرة الحفاظ .

(١٢) قال الخطابي في شرح حديث اللعب : ان اللعب بالبنات ليس كالتلهي بسائر الصور التي جاء فيها الوعيد وانما أرخص لعائشة فيها لأنها إذ ذاك كانت غير بالغ . قال الحافظ عقب نقله : وفي الجزم به نظر لكنه محتمل لان عائشة كانت في غزوة خيبر بنت أربع عشرة سنة إما أكملتها أو جاوزتها أو قاربتها وأما في غزوة تبوك فكانت قد بلغت قطعا فيترجح رواية من قال في خيبر ويجمع بما قال الخطابي لان ذلك أولى من التعارض . اه

وأقول : ان هذا ليس بجمع اذ لو كانت لعب البنات محرمة لما أقر النبي (ص) عائشة وصواحبها على اللعب بها وان كنّ غير بالغات ولما تركها في بيته . والصواب أن هذه اللعب لا تدخل في عموم ما أنكره من الصور المعلقة بل هي أشبه بما أقره من الصور في الوسائد والمرافق في أن كلا منهما لا يشبه ما كان يعبد من الصور والتماثيل

(١٣) بعد كتابة ما تقدم كله راجعت ما كتبه الحافظ في شرح حديث كنيسة مارية في الحبشة المقارن في البخاري لحديث لعن أهل الكتاب لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد فاذا هو يقول في شرح الاول في باب هل تنبش قبور المشركين : وانما فعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ثم خلف من بعدهم خلوف جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان ان أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فاعبدوها . فحذر النبي (ص) عن مثل ذلك سدا للذريعة المؤدية الى ذلك ، وفي الحديث دليل على تحريم التصوير وحمل بعضهم الوعيد على من كان في ذلك الزمان لقرب العهد بعبادة الاوثان وأما الآن فلا . وقد أطنب ابن دقيق العيد في رد ذلك كما سيأتي في كتاب اللباس اه

ثم قال في شرح الحديث الثاني في باب بناء المسجد على القبر : وقد تقدم ان المنع من ذلك إنما هو في حال خشية ان يصنع بالقبر ما صنع أولئك الذين لعنوا ، وأما اذا أمن ذلك فلا امتناع . وقد يقول بالمنع مطلقا من يرى سد الذريعة وهو هنا متجه قوي اه

ويعني بما تقدم قوله في الكلام على ترجمة الباب السابق : ان الوعيد على ذلك يتناول من اتخذ قبورهم مساجد تعظيما ومغالاة كما صنع أهل الجاهلية وجرهم ذلك الى عبادتهم اه

(للفتوى بقية) .

رحلة الحجاز

٦

صفة الوقوف بعرفات

بلغنا عرفات في وقت السحر فألفينا الخيام قد ضربت لنا وفرشت فنزلنا فيها ولما طلع النهار وجدنا أنفسنا بالقرب من مسجد الصخرات حيث كان موقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ورأينا أكثر الحجاج في هذا الجانب من بسيط عرفات وسائر الجوانب والاجواز خاليـة وفي بعضها قليـل من الحجاج ، ولبعض حجاج الاقطار مواضع خاصـة يقفون فيها كل عام كما يرى القارئ في صورة الموقف من الفصل السابق . ويقف كثير من عرب الجزيرة في جبـل الرحمة ويصـعده كثير من حجاج الاقطار الاخرى كما علم ممـا تقدم . وكانت خيام الشريف في موضعها المعتاد من وسط ذلك البسيط وكان السبب في بعدها عن مسجد الصخرات وموقف الامام أن يسهل على أي فريق من الحجاج الوصول اليه للزيارة أو الشكوى في زمن قصير

وانني بعـد كتابة ماتقدم من وصف عرفات اطلعت على كتاب دليل الحج لمحمد باشا صادق المصري المهندس أحد ضباط أركان الحرب الذي طبع سنة ١٣١٣ فاذا فيه أن مساحة سطح البقعة المستوية من عرفات « كيلو متر مربع » أي نحو ألفي ذراع بذراع الآدمي – وهو من رؤس الاصابع الى المرفق – ولذي يتراءى للنظر انه أوسع من ذلك وهـذا المكان لايسع مئات الالوف من الحجاج ولكن كثيرا منهم يقفون في جبل الرحمة وفي غيره مما الى ذلك البسيط من الجبال، وجبل الرحمة يرى في المساء مكتظا بالحجاج من سفحه الى قنته . وارتفاعه نحو من ستين ذراعا (٣٠ متر) وطوله قريب من ستمائة ذراع (٣٠٠ متر) كما قال محمد صادق باشا . قال : وأعلى هذا الجبل سطح مستو مبلط بالحجر مربع في نحو عشرين مترا وفي وسطه مصطبة طولها سبعة أمتار في (عرض) سبعة وارتفاعها متر ونصف ، وفي ركنها الغربي عمود مربع ارتفاعه أربعة أمتار في عرض مترين يرى من أسفل الجبل

كمنار للطريق اه وأقول ان هذا منار لا كالمنار ولا يشترط في مسمى المنار لغة أن يوضع في أعلاه أو أثنائه نور وانما هو العلم الذي يهتدى به ، وهذا المنار يراه حجاج الآفاق من الجهات المختلفة

قد فاتنا لقلة الحجاج رؤية منظر من أعظم المناظر المؤثرة في النفس، المحركة لشعور الخشوع والعبودية في القلب، وهو رؤية تلك البقعة الشريفة غاصة بالشعوب الوافدة من جميع أقطار الارض، ملبين داعين، باكين خاشعين، يجأرون الى الله عز وجل على اختلاف لهجاتهم ، الناشئة عن اختلاف لغاتهم، يرددون الاذكار المأثورة بالعربية ، ويدعون الله ماشاؤا بلغاتهم المختلفة.

قال صديقنا محمد لبيب لك في رحلته بعد وصف عرفات والكلام على الوقوف : عند وصول الحجاج الى هذا الوادي ينزل ركب المحملين (أي المصري والشامي) بخيامهم قريبا من جبل الرحمة، يليهما مضارب الحجاج على اختلاف أجناسهم، وعلى سفح عرفة من عاليه الى جبل الرحمة ترى حجيج الاعراب محتشدين الى جوف الجبل بعضهم فوق بعض كالبنيان المرصوص . أما باقي الحجيج فانه ينصب الخيام في بطن الوادي الذي يزدحم اليه الناس حتى لاتكاد ترى فيه مكانا خاليا من واقف وقاعد وجمالهم وحميرهم مربوطة بجوارهم ، وترى الكل في صعيد واحد حتى يتعذر على الانسان السير الى أي جهة أراد ولو لضرورة في نفسه ، ولو كان مولانا الشريف يأمر بتقسيم وادي عرفة الى أحذية أفقية [أي أمكنة متحاذية كالصفوف] يقسمها شارع رأسي ويخصص كل حذاء لسكنى جماعة من الحجيج وجمالهم من ورائهم . وتوضع لذلك علامات من البناء لايتجاوزها الحجاج في وضع مضاربهم ، ولا الجمالة في ربط جمالهم ، ويعين لهذا النظام من يحفظه مع الدقة ، — لكان له شكر الله و للملائكة والناس أجمعين . وفي سعة الوادي مايضمن لدولته إقامة الكل على الراحة التامة ، لان هذا التزاحم انما سببه التقرب من مجرى الماء ومن السوق الذي تراه بجوار مسجد الصخرات (ويباع فيه بعض الاغذية الضرورية) وربما كان لتزاحمهم سبب آخر وهو خوفهم من الاعراب الذين يكون لهم من ذلك الرحاب عون على النهب والسلب ، وبسبب هذا التزاحم يضل الناس عن أمكنتهم

اذا تركوها لامر مهمّا ، ولذلك تراهم ينادون بعضهم [أي أنفسهم] إما بأسمائهم أو بألفاظ اصطلح عليها أهل كل جهة حتى اذا سمعها واحد منهم أجابه بصوت عال وقصد مصدر الصوت . وهذه الحركة لاتكاد تنقطع مدة الاقامة بعرفة . اه وأقول، اننا لم نشاهد شيئا من ذلك لقلة الحجاج ، وهذا يؤيد ماقلنا من قبل ان التعارف بين الشعوب في عرفة لا يتيسر

وذكر ابن جبير الاندلسي في رحلته ان الجمع الذي كان في عرفات في سنة حجه – وهي سنة ٥٧٩ — لاشبيه له الا الحشر، وان المحققين من الاشياخ المجاورين زعموا « أنهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعا أحفل منه ، وانه مارؤي من عهد الرشيد الذي هو آخر من حج من الخلفاء جمع في الاسلام مثله . ثم قال : « فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور وقف الناس خاشعين باكين ، والى الله عزوجل في الرحمة متضرعين، والتكبير قد علا، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع، فما رُئِيَ يوم أكثر مدامع ، ولا قلوبا خواشع ، ولا أعناقا لهيبة الله خوانع خواضع، من ذلك اليوم . فما زال الناس على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم الى أن سقط قرصها وتمكن وقت المغرب وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين ووقفوا بمقربة من الصخرات عند المسجد الصغير المذكور وأخذ السّر و اليمنيون مواقفهم بمنازلهم المعلومة لهم في جبال عرفات المتوارثة عن جدّ فجدّ من عهد النبي صلى الله عليه وسلم لاتتعدى قبيلة على منزل أخرى، وكان المجتمع منهم في هذا العام عددا لم يجتمع قط مثله، وكذلك وصل الامير العراقي في جمع لم يصل قط مثله، ووصل معه من أمراء الاعاجم الخراسانيين، ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين (واحدتهن خاتون) ومن السيدات بنات الامراء كثير ومن سائر العجم عدد لايحصى، فوقف الجميع وقد جعلوا قدوتهم في النفر الامام المالكي لان مذهب مالك رضي الله عنه يقتضي أن لاينفر حتى يتمكن سقوط القرصة ويحين وقت المغرب، ومن السر و اليمنيين من نفر قبل ذلك . فلما أن حان الوقت أشار الامام المالكي بيديه ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعا ارتجت له الارض ورجفت الجبال، فياله موقفا ما أهول مرآه، وأرجى في النفوس عقباه ، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه، وتغمده بنعماه، انه منعم كريم حنان منان » اه المراد منه

وقوفنا بعرفة وتأويل رؤيا صادقة

زرت في أثناء النهار الامير الشريف مع بعض الاخوان فجئت سرادقه راكبا فرسا لبعده عن موقفنا . ورأيت سوق عرفة وهي بقرب مجرى عين زبيدة كما يعلم من الصورة التي نشرناها . ولما رأيت مجرى عين زبيدة هنالك ووجدتها تنحدر بقوة في مجاريها الواسعة المبنية تذكرت رؤيا كنت رأيتها بمصر قبل ثورة الحجاز وكتبتها وذكرتها لكثير من الناس: رأيت في جمادى الاولى سنة ١٣٣٤ انني في مكة المكرمة ومعي رفيق لي فدخلنا المسجد الحرام ثم أردنا أن نخرج لحاجة لنا فسمعنا أذان العصر فقلت لرفيقي لا ينبغي لنا أن نخرج وقد أدركتنا الصلاة الا بعد أدائها في المسجد ، وبينا أنا جالس في المصلى بالقرب من الكعبة المعظمة رأيت الشريف حسينا أمير مكة جالسا أمامي من جهة يميني قريبا مني واعتقدت انه جاء ليصلي بالناس إماما ، فالتفت الي من جهة يساره وقال لي أبطأت علينا إننا منذ زمن ننتظر قدومك الينا . وبعد أن خرجنا — ولم أره صلى ولا اننا صلينا معه — رأيت معي بعض رجاله واننا ذاهبون بأمره الى أحد دوره — أي غير دار الامارة — لأكون فيها ضيفا عليه ، وبينا نحن نسير غربا جنوبيا رأيت في شارع واسع ممتد من الجنوب الى الشمال ماء غزيرا صافيا مندفعا بقوة في مجرى واسع مبني بالحجارة وله فرع الى الغرب وفرع الى الشرق ، فوقفت متعجبا من قوة جريان ذلك الماء وقلت في نفسي : اهذا ماء عين زبيدة ؟ ما سمعنا أحدا من الحجاج ذكره بهذا الوصف ، وهذه القوة في الجريان لا تكون الا بقوة دافعة كالكهربائية أو البخارية . ورأيت في الطريق داراً جديدة ممتازة بين دور مكة ببياضها من الخارج علمت انها خاصة بنساء الشريف . وخطر في بالي ان دار الضيافة التي خصصت لي سأكون فيها مع الشريف عبد الله أحد أنجال الامير

هذا ما رأيته في نومي قبل ثورة الحجاز بمدة أشهر ولما حدثت الثورة وأعلن الاستقلال خطر في بالي أنه ربما كان تأويل رؤياي إصلاح جديد تحيا به مكة وتمتد الى سائر الجهات كامتداد ذلك الماء الذي رأيته فإن الله تعالى يقول (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ولما جئت مكة حاجا ظهر لي من تأويل الرؤيا أنه كان معي رفيق ، وأنني كنت ضيفا للامير ، وانه رحب بي أحسن ترحيب وكان ينتظر مجيئي ،

وان دار الضيافة كانت في الجهة الغربية من الحرم الشريف ، وان الشريف عبد الله زارني في هذه الدار ، وانني رأيت دارا بيضاء قيل لي انها دار حرم الامير الخاص ، وان الناس تحدثوا بأنه سيبايع بالخلافة - والامامة الخاصة ، قد تؤول بالامامة العامة ، وكل منهما كان متوقعا ولم يقع وأما صدق الرؤيا في مسألة الماء فلم أشاهده في اليقظة على نحو مارأيته في النوم الا في عرفات ، فالمجرى المبني وطوله وامتداده يشبه الذي رأيت الا ان سرعة اندفاع الماء وقوته كانتا دون مارأيت في النوم ؛ والفرق يسير . فهذه الرؤيامن أوضح الرؤى وأجلاها تأويلا ، وهي حجة على الذين ينكرون الرؤى الصادقة

الحالة الروحية في الوقوف والنفر

ان الحالة الروحية لا تبلغ الكمال في عرفات ظاهرا و باطنا الا في أصيل ذلك اليوم العظيم ، ففي أول النهار يعرض لاكثر الناس شو غل تشغل حواسهم وجوارحهم وأفكارهم ، منها ضروريات الاكل والشرب ، ومنها رؤية المناظر الجديدة من تلك البقعة الجامعة لشعوب كثيرة وما يحيط بها من الجبال . فهذه المناظر تشغل كثيرا من الناس بصورتها وشكلها في أول العهد برؤيتها ، عن معناها وحكمة كون السير اليها والوقوف فيها عبادة لله تعالى ، وفي أثناء النهار يأكل الناس طعامهم ويستريح أكثرهم في خيامهم ومضاربهم أو في ظلال الجبال ولا سيما اذا كان الحر شديدا ، فاذا جاء وقت العصر جمعوا متاعهم وشدوا رحالهم وفرغوا قلوبهم للذكر والدعاء واذهبوا عند موقف الخطيب من جبل الرحمة ، حرصا على سماع الخطبة ، أو لاشتراك مع الالوف من اخوانهم في التكبير والتلبية ، وقد بينا في المناسك ان الشرع لم يجعل لعرفة ذكرا ولا دعاء خاصا بل ترك ذلك للافراد ، ولم يرد ان النبي (ص) كان يلبي بعرفة في الخطبة ولا في غير الخطبة ولكن صح انه كان يلبي بين المشاعر ذهابا وإيابا وهي منى ومزدلفة وعرفة . ودعا على ناقته بعرفة رافعا يديه ولم يرد في الصحاح نص ذكره ولا دعائه واستحسن العلماء ذكر ماورد في الضعاف كقول « لا اله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير » روي عن عدة من الصحابة مرفوعا وانه خير مايقال

قضينا جل نهار عرفة بذكر الله والدعاء وتيسر لي والحمد لله الاغتسال فيه . وصلينا الظهر والعصر جميعا في مسجد الصخرات ، ورأينا هنالك خطيب عرفة وهو نائب الشرع بمكة وقد صعد بناقته فستوى على تلك الصخرة من جبل الرحمة ذات التاريخ الاسلامي العظيم وقد أحاط به الناس وازدحموا من حوله يسمعون منه أحكام المناسك، ومن دونه ومن فوقه في الجبل ألوف من الناس يشاهد بعضهم بعضا ويراهم من في السفح ، من في بسيط عرفات كلها لأن الجبل مدرَّج يشبه ما يتخذ في بعض المدارس الكبرى من المقاعد ذات الدرج المقوّسة التي تسميها الفرنجة (انفيتاترو) وكلما لبى وكبر الخطيب لبى من حوله وكبروا وأشاروا بأطراف أرديتهم البيضاء أو مناديلهم ويتبعهم في التلبية والاشارة كل من هنالك من قمة الجبل الى سفحه، فيلبي سائر الناس ويكبرون، فيتموج بأصواتهم الهواء ، وترتج الجواء ، حتى تصل الى عنان السماء، بل تخترقها حاملة ذلك الذكر والثناء، والضراعة والدعاء، الى من استوى الى عرشه المجيد، وهو أقرب الى عبده من حبل الوريد . فيالله من موقف ما أعظمه، وما أصدق من شبهه بيوم القيامة ، وقد يكون التشبيه على أكمله في ذلك المساء ، فانه وقت يكون فيه لكل مؤمن من الشغل بنفسه والتوجه الى ربه ما لا يعهد مثله في وقت من أوقات حياته، يشعر — والناس محيطون به من كل جانب — بأنه في خلوة لا يشغله فيها عن ربه شاغل، ولا يشوب خشوعه له وبكاءه من خشيته وسروره بمناجاته رياء ولا سمعة، بل لا يكاد يخطر بباله أن أحدا هنالك يرى أحدا . فما أعجب شأن هذا الاجتماع العظيم الذي يجمع كل من شهده بايمان وعرفان ، بين مزايا عبادة الخلوة وعبادة شعائر الاجتماع ، بل أقول ان له مزية على سائر الشعائر لا يعرفها لا من ذاقها

وقبيل الغروب أقبل الشريف أمير مكة بموكبه الحافل حتى صعد أدنى جبل الرحمة فكان قريبا من موقف الخطيب وتلاه ركب المحمل المصري . وحينئذ أطلقت المدافع ، وعزفت المعازف، (الموسيقى) واستعد الناس للدفع من عرفة، لاجل مبيت تلك الليلة بمزدلفة ، وبدأ الدفع بعد الغروب . فركبت السيدتان هودجهما ، وسار الرفيقان الكريمان والخدم معهما، وتفضل السيد الوزوي بارسال نجله السيد عبد الرحمن معهم وعهد نا اليه أن يذهب بهم الى منى ليلا بعد أداء أدنى ما يجب من المقام بمزدلفة

ويعبر عنه بالمبيت ، ورافقني هو فدفعنا معا على دابتين فقطعنا ذلك الطريق في ذلك الوقت المعتدل اللطيف، ونحن نجأر الى الله تعالى بالتلبية والتكبير ، ولقد وصفنا تأثير التلبية في الطريق بين جدة ومكة ، وأين تأثير طريق مكة من تأثير عرفة ؟ وما أبعد الفرق بين حال المبتدئ بهذه العبادة — عبادة المناسك — الذي لم يذق منها الا طعم الاحرام والتلبية، وبين من شاهد بيت الله عز وجل وطاف به كثيرا وسعى بين الصفا والمروة متذكرا تلك الآيات البينات ، ثم أقام ركن الحج الاكبر وهو الوقوف بعرفة فامتلأ قلبه إيمانا وعرفانا ، وانثنى بين الالوف من الموحدين يكبر الله على هدايته تكبيرا ، ويكرر التلبية له تكريرا ؟

﴿ المبيت بمزدلفة . قصر الصلاة وجمعها ﴾

الا لمام بمزدلفة ليلة النحر وذكر الله عند المشعر الحرام (أي فيها) واجب وجعله بعض علماء الاثر ركنا ، وقد ثبت في السنة التعجل بالضعفة كالنساء والصبيان بالافاضة من مزدلفة الى منى بعد غياب القمر . وأدنى الواجب الوقوف فيها ليلا لذكر الله تعالى وأما المبيت الى الصباح فهو سنة كما بينا في المناسك

نزلت مع السيد الزواوي بفناء مسجد المزدلفة فصليت هنالك المغرب والعشاء قصرا وجمعا . والسيد لا يقصر في عرفة ومزدلفة ولا يجمع لانه مكي شافعي ، والشافعية لا يجيزون القصر والجمع الا في السفر الطويل ، والحنفية يوجبون الجمع في المزدلفة لاجل النسك ، والتحقيق عند أهل الحديث ان القصر عزيمة والجمع رخصة في كل سفر طويل أو قصير ، وان الجمع في المشاعر أفضل للاتباع ، وناهيك باتباعه صلى الله عليه وآله وسلم في أعمال حجة الوداع ، التي علم فيها الالوف المناسك وغير المناسك ، وأمر أن يبلغ الشاهد منهم الغائب.

قال الحافظ ابن المنذر : أجمع أهل العلم على ان الامام يجمع بين الظهر والعصر بعرفة وكذلك من صلى مع الامام ، وذكر أصحاب الشافعي انه لا يجوز الجمع الا لمن بينه و بين وطنه ستة عشر فرسخا إلحاقا له بالقصر (قل) وليس بصحيح فان النبي (ص) جمع فجمع معه من حضره من المكيين وغيرهم ، ولم يأمرهم بترك الجمع

كما أمرهم بترك القصر فقال « أتموا فانا سفر » (١) ولو حرم الجمع لبينه لهم اذ لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة . قال ولم يبلغنا عن أحد من المتقدمين خلاف في الجمع بعرفة والمزدلفة بل وافق عليه من لا يرى الجمع في غيره اه

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في مناسك الحج بعد ان ذكر صلاة النبي (ص) الظهر والعصر جمع تقديم ببطن عرنة في حدود عرفة وخطبته هناك مانصه : ويصلي بعرفة والمزدلفة ومنى قصرا ، ويقصر أهل مكة وغير أهل مكة وكذلك يجمعون الصلاة بعرفة ومزدلفة ومنى كما كان أهل مكة يفعلون خلف النبي (ص) وأبي بكر وعمر (رض) ولم يأمر النبي (ص) ولا خلفاؤه أحدا من أهل مكة أن يتموا الصلاة ولا قالوا لهم بعرفة ومزدلفة ومنى «أتموا صلاتكم فانا قوم سفر» ومن حكى ذلك عنهم فقد أخطأ. ولكن المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ذلك في غزوة الفتح لما صلى بهم بمكة . وأما في حجه فانه لم ينزل بمكة ولكن كان نازلا خارجا من مكة وهناك كان يصلي بأصحابه، ثم لما خرج الى منى وعرفة خرج معه أهل مكة وغيرهم، ولما رجع من عرفة رجعوا معه، ولما صلى بمنى أيام منى صلوا معه ولم يقل لهم أتموا صلاتكم فانا قوم سفر (١) ولم يحد النبي صلى الله عليه وسلم السفر لا بمسافة ولا بزمان، ولم يكن بمنى أحد سا كنا في زمنه ولهذا قال «منى مناخ من سبق» ولكن قيل انها سكنت في خلافة عثمان وانه بسبب ذلك أتم عثمان الصلاة لانه كان يرى ان المسافر من يحمل الزاد والمزاد اه

وذكر المحقق ابن القيم في الهدي النبوي مثل ما تقدم عن المناسك مختصرا وزادا نه ليس على المسافر جمعة لان النبي (ص) لم يصلها يوم عرفة ولا في سفر آخر. وأقول ان عدم أمر النبي (ص) لاهل مكة بالاتمام في منى وما بعدها ينطبق على حديث أنس « كان رسول الله (ص) اذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين » رواه أحمد ومسلم وأبو داود وصرحوا ان الشاك في الاميال والفراسخ شعبة لا أنس . وقال الحافظ في الفتح ان هذا أصح حديث وأصرحه في المسألة

مكث السيد الزواوي معي قليلا في المزدلفة ثم ذهب الى منى وأوصى الخادم

(١) السفر بفتح السين وسكون الفاء جماعة المسافرين كالشرب جماعة الشاربين

باحضار دابتي في الصباح فنمت ساعات واستيقظت في وقت السحر. وقد سخر الله تعالى لي رفاقا من خير الناس بت بجوارهم وقد عرف الزواوي منهم رجلا مكيا اسمه الشيخ علي مؤمنة، فلما استيقظت وجدتهم أيقاظا فطلبت منهم ماء فتوضأت وصليت الوتر احدى عشرة ركعة فلما أتممت صلاتي وجدتهم قد أحضروا الشاي وخصني كبيرهم بإبريق نظيف من نوع جيد منه وقدم لي معه صحنا فيه لوز مقشور وصحن فيه هشة من الكعك المعروف بالقراقيش فأصبت من ذلك كله شاكر لهم. وطفق كبيرهم يسألني أسئلة في السنة والاتباع والابتداع واختلاف العلماء والصوفية ويتلقى أجوبتي عنها بالقبول مسرورا بما جليتها به من الشرح والتفصيل. وهذا الرجل بخاري الاصل يعرف العربية وكنت توهمت انه داغستاني وقد ساح في كثير من البلاد، وقد فهمت انه جاور في مكة المكرمة وأنه يخرج كل سنة منها الى عرفة ببعض أصحابه في الموسم مشاة ويعودون مشاة. وقد اختلف العلماء في أي الامرين أفضل في المناسك المشي أم الركوب فقيل المشي لانه أقرب الى التواضع وأعون على الدعاء، وقيل بل الركوب تأسيا بالنبي (ص) فانه لم يفعل الا الافضل والاكمل، ويمكن أن يقال ان الافضل لاهل الآفاق وللضعفاء من أهل مكة لركوب وأن الاقوياء من المقيمين بمكة قد يكون المشي أفضل لهم من عدة وجوه منها مشاركة أهل الآفاق ببعض مشقة السفر وان ذلك لا ينافي الاتباع

وقد سألت السيد الزواوي عن هذا الشيخ وعن رفيقه الخاص الشيخ علي مؤمنه وكلفته بعد عودتي أن يسأل عنهما فكتب الي إن الثاني نشأ من صغره محبا للعزلة والبعد عن كبراء الدنيا وهو على الدوام يخدم العلماء وأهل الطريق من الغرباء ومنهم الشيخ حسام الدين البخاري صاحبكم في المزدلفة: ويقول تلميذه الشيخ علي مؤمنة انه أقام في مصر مدة طويلة وخرج منها في العام الماضي مأمورا عليه (كذا) بالوصول الى مكة والاقامة بها هذا العام وهو الآن موجود في أحد اربطة البخاريين بحارة جياد لا يخالط أحدا، لا يعرف ولا يعرف، مواظبا على الجمعة والجماعة كتلميذه الشيخ علي

ولما طلع الفجر صلينا مع الجماعة ثم ذهبنا حول المسجد نجمع الحصا لرمي الجمار فلما جمعناها ركبت دابتي وسرت وسار أصحابي مشاة قاصدين منى

﴿ الافاضة الى منى ورمي جمرة العقبة ﴾

أفضنا من مزدلفة ملبين مكبرين قبل طلوع الشمس عملا بالسنة، ومخالفة لما كان عليه عمل الجاهلية من تأخير الافاضة منها الى طلوعها . ومن السنة المبنية على سبب تاريخي هذلك الاسراع المعتدل في السير في بطن محسر لا فرق في ذلك من الماشي والراكب. وتقدم ان بطن محسر بتشديد الباء المكسورة هو الوادي الفاصل بين منى ومزدلفة . قال بعض العلماء ان حكمة الايضاع فيه ان أهل الجاهلية كانوا يقفون فيه ويذكرون مفاخر آبائهم ، ففي الاسراع فيه إظهار البراءة من ذلك . وقال بعضهم ان هذا المكان هو الذي أهلك الله تعالى فيه أصحاب الفيل الذين جاؤا من طريق اليمن لهدم بيته المحرم فاستحب الاسراع في الخروج منه لانه كان موضع سخط الله تعالى وعذابه لاولئك الظالمين المعتدين ، ويستحب مثل ذلك في كل مكان مثله كديار ثمود

ولما وصلنا الى منى قصدنا الجمرة الكبرى جمرة العقبة وكانت الشمس قد ارتفعت فرميناها بسبع حصيات نكبر مع كل حصاة. وفي مثل هذا الوقت رماها النبي صلى الله عليه وآله وسلم راكبا ، وقد صح انه (ص) جعل البيت عن يمينه ومنى عن يساره ورمى . وانه كان يكبر مع كل حصاة ، وانه قال « اللهم اجعله حجا مبرورا وذنبا مغفورا »

وبعد الرمي جئت الدار المعدة لنزولنا فيها فاذا هي من أعظم دور منى حسنا وسعة وهي لصديقنا الشيخ محمد نصيف ، فرأيت السيدتين في قسم النساء منها ، والرفيقين في قسم الرجال ، والجميع كما أحب ، وأعطيت الوكيل الخرج دراهم ووكلته بشراء النسك والذبح عني . وقد قصصت قليلا من شعر رأسي بيدي ، ولم يتيسر لي الاتيان بحلاق الى الدار لانني أريد الافاضة الى مكة لاجل طواف الركن . وفي حديث أنس عند مسلم انه (ص) أتى منى فأتى الجمرة فرماها ثم أتى منزله بمنى ونحر ثم قال للحلاق « خذ » وأشار الى جانبه الايمن ثم الايسر ثم جعل يعطيه الناس

ومتى شرع الحاج في رمي جمرة العقبة مكبرا تنقطع التلبية التي هي شعار الحج. ويستبدل بها التكبير الذي هو ذكر الله في العيد ، ومتى رماها وحلق شعر رأسه أو قصره حل له كل ما كان محرما في النسك الا ملامسة النساء فانها لا تحل الا بالتحلل الاخير بطواف الافاضة .

الحرب والصلح

عقدت الهدنة بين الروس وأعدائهم وألف الفريقان لجنة من مندوبي كل دولة منهما للبحث في شروط عقد الصلح، وفي عدد جريدة الاهرام الذي صدر في ١١ ربيع الاول ان وزير خارجية الالمان الذي رأس الجلسة الاولى جعل الغرض من الاجتماع اعادة الصلات الاقتصادية والادبية الى ما كانت عليه قبل الحرب وان الوزير الروسي (كامنف) تلا برنامج حكومة الروس المعروف الذي تقترح جعله أساسا للصلح العام « وخلاصته ان يكون الصلح بلا ضم ولا غرامة. وان يعطى كل شعب تحكمه أمة أخرى الحرية والاستقلال اما بالاعتماد على رأيه بعد سحب القوة الغاصبة من بلاده. واما بالاعتماد على الرأي الذي أظهرته صحافة ذلك الشعب وجمعياته. وتعد حكومة روسية مواصلة القتال لتقتسم الشعوب الغنية الشعوب الصغيرة الفقيرة جريمة لا تغتفر »

ثم قالت الاهرام: « وقد جاءنا اليوم بيان أتم عن مطالب الروس (١) العدول عن كل ضم وفتح بالقوة (٢) اعادة استقلال البلاد التي اجتيحت (٣) منح كل عنصر الحق بان يختار الحكم الذي يريده (٤) التفادي عن ضرب الغرامة الحربية وتقرير التعويض على الافراد (٥) انشاء صندوق دولي من أموال الجميع لدفع التعويضات »

ثم ذكرت أمرا ثالثا أعلن في الجلسة وهو « رغبة الالمان بان يشترك جميع المتحاربين بمفاوضات الصلح حتى تقررت دعوة مندوبي فرنسا وانكلترة وايطالية والولايات المتحدة الى المفاوضات »

ومن الناس من يرتاب في اخلاص الدولة الالمانية في اظهار ارتياحها الى دخول جميع الحلفاء في مؤتمر الصلح ولا يرتابون في اخلاص النمسة، ويرى هؤلاء ان ايعاز الاولى الى حكومة [البولشفيك] الروسية التي لم يعترف بها الحلفاء بأن تدعوهم الى الاشتراك معها في مفاوضات هذا الصلح في بلادها يراد به اضطرار الحلفاء الى الإباء والرفض ويؤيد ذلك ماقاله السنيور [أورلندو] رئيس وزارة ايطالية في خطابه بمجلس الشيوخ وهو: « انه قد حان الوقت لكشف الغطاء عن الاعيب دولتي الوسط اللتين تبذلان كل وسيلة لشد عزائم شعوبهما ولتسويد صفحة خصومهما

بادعائهما انهما تريدان الصلح وان الحلفاء يرفضونه . فالحلفاء هم الذين يريدون الصلح وهم وحدهم يريدونه ولكنهم يريدونه على شكله الممكن ان يجعله صلحا عادلا شريفا دائما باتفاقات جلية صادقة . أما امبراطوريتا الوسط فانهما تتبعان خطة غريبة تطلبان بها من الحلفاء أن يعودوا الى مواصلتهما على يد حكومة لم يعترف بها الحلفاء لانها حكومة وقتية الى أن تجتمع الجمعية لدستورية ولان شطرا كبيراً من روسيا لم يعترف بها .

« هذا من حيث الشكل وأما من وجهة الجوهر في مقترح الصلح فان مندوب البولشفيك يظن أن باستطاعته أن يقول ان الشطرين الاولين من مقترحات الصلح مقبولان وهما أولا – اعادة الممالك التي فقدت استقلالها من جراء الحرب وثانيا — الجلاء عن الاراضي التي احتلت مع العدول عن الضم وانكم لترون ان في هذا القول ضلالا ففي الحقيقة ان الشطر الثالث المتعلق بالشعوب الخاضعة لامم ليست منها لم يقبله الالمان والنمسويون . (وضرب لذلك مثل أمانيهم القومية والالزاس واللورين)

« ثم رغب الخطيب في بيان ضرر العودة الى الحالة القديمة لانه ليس في هذا القول ضمانة اذا ما قبل الشرطان اللذان قال بهما البولشفيك أولا لان امبراطوريتي الوسط أعلنتا أنهما لاتنويان ازالة الاستقلال السياسي من البلاد التي احتلتاها فلفظة « الاستقلال السياسي » لاتنفي الاعتداء على الاستقلال الآخر كالاستقلال الاقتصادي مثلا . ولانها لاتتضمن أيضا عودة المملكة المستقلة الى جميع أراضيها كاملة . أضف الى ماتقدم ان لفظة « استقلال الشعوب » هي لفظة مبهمة لاتزيل الشكوك وما تضمره دولتا الوسط من المطامع فانهما تقولان انهما لاتريدان ضما بالقوة ومعنى ذلك انهما تنويان ضما بغير القوة . فمتى ذا يمكن أن يوصف الضم بالقوة ؟ فالجواب على ذلك ان الامر معلق على وجود القوة وعلى شكل الخيار الذي يعرض على الشعوب الموجودة تحت نير الغازي أضف الى هذا هل يعتبر الضم ضما عند مالا يمكن ذكر الضم بالقوة في المعاهدات الدولية . فالصيغة التي تعرضها دولتا الوسط صيغة مبهمة تتحمل الريب والشكوك وتدلنا على اننا لانزال بعيدين جدا عن المبدأ الاول الذي يمنع كل ضم » اه المراد منه نقلا عن عدد ٤ يناير من لاهرام

وقد أفادت البرقيات المنشورة بهذا التاريخ ان مفاوضات الصلح أوقفت لان

ألمانية تزعم أن شعوب الولايات أو الممالك الاربع التي انتزعتها من الروسية — وهي البولندية والكورلندية واللتوانية واللاستونية — قد جهرت برغبتها في الانضمام الى ألمانية فيجب أن تكون ألمانية ، وان الروس ينكرون عليها ذلك وان وزير خارجيتهم تروتسكي خطب في اللجنة المركزية لحزب العمال والمجندين فأنكر ذلك أشد الانكار لان ظهار الشعب الرغبة في مسألة لا يكون صحيحاً مع وجود الاحتلال الاجنبي والقوة العسكرية . وفي برقية لرويتر من لندن وردت في ٢ يناير ان اللجنة أقرت الوزير الخطيب على خطابه ووضعت قرارا بفحواه قالت في آخره

« فنحن ندافع عما لبولندا ولتوانيا وكورلندا من الحق في بت مصيرها والحكم في مستقبلها بتمام الحرية ونقول لشعوب النمسا والمانيا وبلغاريا وتركيا اذ كروا ان التعجيل في عقد صلح دمقراطي يتوقف عليكم فقد سالت دماؤكم وأصابكم الاعياء والجهد في حرب عديمة المثيل فلا تسمحوا لدعاة السلطة والفتح من النمسويين والالمان أن يحاربوا روسية الثورية لإخضاع بولندا ولتوانيا وكورلندا وأرمينية »

(المنار) قد سبقنا فبينا في الجزء الاول من هذا المجلد مثل ما قررته لروسية ورئيس الوزارة الايطالية اليوم في مسألة حرية الشعوب واختيارها لتكل الحكومة الذي ترضاه لنفسها . وبينا في الجزء الرابع — الذي قبل هذا — أهم ما يشترط الحلفاء للصلح . وبعد كتابة ما تقدم واعداده للطبع جاءنا البرق بخطبة رئيس الوزارة البريطانية ثم بخطبة رئيس الولايات المتحدة وهما أصرح ما قاله الحلفاء في أسباب الحرب وشروط الصلح وبعد ناسخا لكل ما يخالفه * سيد القول ما يقول الرئيس * وسيعلم منهما حقيقة غرض الحكومة الالمانية وهل هي تريد الصلح حقيقة فيما تتخذه من الوسائل الصورية له كما يقال، أم تريد به ايقاع الشقاق بين أعدائها كما قال رئيس الحكومة الايطالية، أو إقامة الحجة عليهم بأنهم هم طلاب الحرب والفتح كما يظن كثير من الناس . ولعل هذه الصراحة من الحلفاء تضطرها الى التصريح بشروط الصلح التي ترضاها فانها لما تصرح بشيء الا طلب حرية البحار. ونسأل الله تعالى ان ينصر الحق والعدل وحرية الشعوب المستضعفة على الباطل والظلم قوة الاستبداد والاستعباد ويكشف عنها حجب الخداع والرياء . ان ربي سميع الدعاء.

* (تنبيه) اضطررنا الى تأخير تتمة ترجمة الشيخ سليم البشري

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله أولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٢٩ ربيع الآخر ١٣٣٦ — ٢٢ الدلو (ش ٢) ١٢٩٦ ه‍ ش ١١ فبراير ١٩١٨

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٧٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُبِينٍ (٧٦) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٧) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَ (* كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي . فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٨) فَلَمَّا رَأَ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي . فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٩) فَلَمَّا رَأَ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ . فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ

*) رسمت رأى في المصحف راء وهمزة بصورة الالف الممدودة وحذفت الالف المنقلبة عن الياء في الرسم تبعا لحذفها في النطق لالتقاء الساكنين

(٨٠) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

بدأ الله سبحانه هذه السورة بعد حمد نفسه ببيان أصول الدين ومحاجة المشركين فبين استحقاقه للعبادة وحده واشراكهم به وتكذيبهم بالآيات التي أيد بها رسوله ورد ما لهم من الشبهة على الرسالة ثم لقن رسوله طوائف من الآيات البينات في إثبات التوحيد والرسالة والبعث مبدوءة بقوله له (قل . قل .) ثم أمره في هذه الآيات بالتذكير بدعوة أبيه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الى مثل ما دعا اليه من التوحيد وتضليل عبدة الاصنام وما أراه الله من ملكوت السموات والارض وما استنبطه هو منه من آيات التوحيد و بطلان الشرك وإقامة الحجة على أهله، تأييدا لمصداق دعوته في سلالة ولده اسماعيل عليهم الصلاة والتسليم. ولابراهيم المكانة العليا من اجلال الامة العربية كما ن اليهود والنصارى متفقون على إجلاله . واننا نقدم لتفسير الآيات مقدمة في اسمي إبراهيم وأبيه ومسألة كفر آزر وحكمة الله تعالى فيما قصه عنه فنقول :

﴿ مقدمة في أصل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ومسألة كفر أبيه ﴾

[ابراهيم] هو الاسم العلم لخليل الرحمن أبي الانبياء الاكبر من بعد نوح عليهم الصلاة والسلام ، و يؤخذ من سفر التكوين — وهو السفر الاول من أسفار العهد العتيق — انه العاشر من أولاد سام بن نوح وانه ولد في (أور الكلدانين) وهي بلدة من بلاد الكلدان وه « أور » بضم الهمزة وسكون الواو ومعناها في الكلدانية النور أو النار كما قالوا وقيل هي البلدة المعروفة الآن باسم (اورفا) في ولاية حلب كما رجح بعض المؤرخين وقيل غيرها من البلاد الواقعة في جزيرة العراق — بين النهرين — وفي أقطار العالم القديم بلاد وموقع كثيرة مبدوءة بكلمة (اور) واقعة مع ما بعدها موقع المضاف من المضاف اليه ، وأشهره (أورشليم) لمدينة القدس قالوا ان معناها ملك السلام أو إرث السلام فشليم بالعبرية هي السلام بالعربية . وفي بعض التواريخ العربية انه من قرية اسمها (كوثى) من سواد الكوفة . وكان اسم ابراهيم (أبرام) بفتح الهمزة

وقالوا ان معناه (أبو العلاء) فهو مركب من كلمة أب العربية السامية مضافة الى ما بعدها . وفي سفر التكوين ان الله تعالى ظهر له في سن التاسعة والتسعين من عمره وكلمه وجدد عهده له بأن يكثر نسله ويعطيه أرض كنعان (فلسطين) ملكا أبديا وسماه (إبراهيم) بدل (أبرام) وقالوا ان معنى ابراهيم (أبو الجمهور) العظيم أي أبو الامة . وهو بمعنى تبشير الله تعالى إياه بتكثير نسله من اسماعيل ومن اسحق عليهم الصلاة والسلام ، ولا ينافي ذلك كسر همزته فقد علم ان أصلها الفتح وان إب المكسورة في ابراهيم هي أب المفتوحة في أبرام . فالجزء الاول منه عربي والثاني كلداني أو من لغة أخرى من فروع السامية أخوات العربية التي هي أعظمها وأوسعها حتى جعلها بعض علماء اللغات هي الاصل والام لسائر تلك الفروع السامية كالعبرية والسريانية . وذكر رواة العربية في هذا الاسم سبع لغات عن العرب وهي ابراهيم وابراهام وابراهوم وابراهم مثلثة الهاء وأبرهم بفتح الهاء بلا ألف . وصرح بعضهم بأنه سرياني الاصل نقل وبعضهم بأن معناه أب راحم أو رحيم ، وعلى هذا يكون جزآه عربيين بقلب حائه هاء كما يقلبها جميع الاعاجم الذين لا ينطقون بالحاء المهملة كالافرنج وتركيبه مزجي . وفي القاموس المحيط كغيره « أن تصغيره بريه أو أبيره وبريهيم » قال شارحه عند الاول : قال شيخنا وكأنهم جعلوه عربيا وتصرفوا فيه بالتصغير والا فالاعجمية لا يدخلها شيء من التصريف بالكلية .

وقد ثبت عند علماء العاديات والآثار القديمة ان عرب الجزيرة قد استعمروا منذ فجر التاريخ بلاد الكلدان ومصر وغلبت لغتهم فيهما ، وصرح بعضهم بأن الملك حمورابي الذي كان معاصرا لابراهيم عليه الصلاة والسلام عربي . وحمورابي هذا هو ملكي صادق ملك البر والسلام ووصف في العهد العتيق بأنه كاهن الله العلي وذكر فيه أنه بارك ابراهيم وان ابراهيم أعطاه العشر من كل شيء . ومن المعروف في كتب الحديث والتاريخ العربي ان ابراهيم أسكن ابنه اسماعيل مع أمه هاجر المصرية عليهم السلام في الوادي الذي بنيت فيه مكة بعد ذلك وان الله تعالى سخر لهما جماعة من جرهم سكنوا معهما هنالك وان ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان يزورهما وانه هو وولده اسماعيل بنيا بيت الله المحرم ونشرا دين الاسلام في البلاد العربية . فيظهر من

ذلك ان العربية القديمة لغة ابراهيم وهاجر هي لغة حمورابي وقومه ولغة قدماء المصريين أو اللغة الغالبة في القطرين ، وانها على ما كان فيها من الدخيل الكلداني والمصري كانت قريبة جدا من العربية الجرهمية ولذلك كان الذين ساكنوا هاجر من جرهم يفهمون منها وتفهم منهم . وقد ثبت في صحيح البخاري ان ابراهيم زار اسماعيل مرة فلم يجده وتكلم مع امرأته الجرهمية ولم تعجبه ثم زاره مرة أخرى فلم يجده وكانت عنده امرأة أخرى فتكلم معها فأعجبته . وقد ورد أيضا ان لغة اسماعيل كانت أفصح من لغة جرهم فهي أم اللغة المضرية التي فاقت بفصاحتها و بلاغتها سائر اللغات أو اللهجات العربية، ثم ارتقت في عهد قريش من ذريته بما كانوا يقيمونه لها من أسواق المفاخرة في موسم الحج. ثم كملت بلاغتها وفصاحتها بنزول القرآن المجيد المعجز للخلق بها

أما أبو ابراهيم فقد سماه الله تعالى في الآية الاولى من هذه الآيات (آزر) وفي سفر التكوين أن اسمه (تارح) بفتح التاء وحاء مهملة وقالوا ان معناه (متكاسل) ومن الغريب ان نرى أكثر المفسرين والمؤرخين واللغويين منا يقولون ان اسمه تارخ بالخاء المعجمة أو المهملة وان آزر لقبه أو اسم أخيه أو صنمه، ونقل عن الزجاج والفراء انه ليس بين النسابين والمؤرخين اختلاف في كون اسمه تارخ أو تارح . ولا نعرف لهذه الاقوال أصلا مرفوعا الى النبي (ص) ولا منقولا عن العرب الاولين ، وانما هو منقول فيما يظهر عمن دخل في الاسلام من أهل الكتاب كوهب بن منبه و كعب الاحبار اللذين أدخلا على المسلمين كثيرا من الاسرائيليات فتلقوها بالقبول على علاتها، ومقاتل ابن سليمان المجروح بالكذب الذي قال ابن حبان فيه كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم . وفي التفسير المأثور عن مجاهد قال : آزر لم يكن بأبيه ولكنه اسم صنم — وعن السدي اسم أبيه تارح واسم الصنم آزر — وعن ابن عباس في احدى الروايتين عنه قال : آزر الصنم وأبو ابراهيم اسمه يازر، وفي الاخرى ان أبا ابراهيم لم يكن اسمه آزر وانما اسمه تارح. رواهما عنه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ — وعن ابن جريج ان اسمه تيرح. وجزم الضحاك بأن اسمه آزر واعتمده ابن جرير ، وروي عن الحسن أيضا . وقال البخاري في التاريخ الكبير : ابراهيم ابن آزر وهو في التوراة تارح والله سماه آزر وان كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارخ ليعرف

بذلك . اه فقد اعتمدان آزرهو اسمه عندالله أي في كتابه، فان أمكن الجمع بين القولين فبها والا رددنا قول المؤرخين وسفر التكوين لانه ليس حجة عندنا حتى نعتد بالتعارض بينه وبين ظواهر القرآن بل القرآن هو المهيمن على ما قبله نصدق ما صدقه ونكذب ما كذبه ونلزم الوقف فيما سكت عنه حتى يدل عليه دليل صحيح . وأضعف ماقالوه في الجمع بين القولين ان آزر اسم عمه بناء على ان العرب تسمي العم أبا مجازا وهذه الدعوى لا تصح على إطلاقها ، وانما يصح ذلك حيث توجد قرينة يعلم منها المراد ولا قرينة هنا ولا في سائر الآيات التي ذكر فيها من غير تسمية . ويليه في الضعف قول بعضهم انه كان خادم الصنم المسمى بآزر فأطلق عليه من باب حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مكانه . وأقواه أن له اسمين أحدهما علم والآخر لقب . والظاهر حينئذ ان يكون تارح هو اللقب لان معناه المتكاسل وهو لقب قبيح قلما يطلقه أحد ابتداء على ولده وانما يطلق مثله على المرء بعد ظهور معناه فيه أو رميه به ، الا ان يصح مازعمه من عكس فجعل آزر هو اللقب بناء على ان معناه في لغتهم المخطئ أو المعوج أو الاعوج أو الاعرج — ولعله تحريف عما قبله — وقيل إنه الشيخ الهرم بالخوارزمية

بعد كتابة ماتقدم راجعت (روح المعاني) للآلوسي والتفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للرازي فأحببت أن أنقل عنهما ما يأتي

قال الآلوسي وعلى القول بالوصفية يكون منع صرفه للحمل على موازنه وهو فاعل المفتوح العين فانه يغلب منع صرفه لكثرته في الاعلام الاعجمية ، وقيل الاولى ان يقال انه غلب عليه فألحق بالعلم و بعضهم يجعله نعتا مشتقا من الازر بمعنى القوة أو الوزر بمعنى الإثم ، ومنع صرفه حينئذ للوصفية ووزن الفعل لانه على وزن أفعل

وقال الرازي بعد ان ذكر قول الزجاج باتفاق علماء النسب على ان اسم أبي ابراهيم تارح : ومن الملحدة من جعل هذا طعنا في القرآن وقال هذا النسب خطأ وليس بصواب . ثم ذكر ان للعلماء ههنا مقامين أحدهما رد الاستدلال باجماع النسابين على ان اسمه كان تارح قال « لان ذلك الاجماع انما حصل لان بعضهم يقلد بعضا وبالآخرة يرجع ذلك الاجماع الى قول الواحد والاثنين مثل قول وهب وكعب وأمثالهما وربما تعلقوا بما يجدونه من أخبار اليهود والنصارى ولا عبرة بذلك في مقابلة

صريح القرآن » اه وقد بينا لك مأخذه وانه لا إجماع في المسألة . ثم ذكر المقام الثاني وهو تسليم قولهم والجمع بينه وبين نص القرآن بما نقلناه عنهم آنفا مع بيان قويه وضعيفه .

ومن الناس من استدل على ان آزر لم يكن والد ابراهيم (ص) بل عمه بالجزم بأن آباء الانبياء كافة أو نبينا خاصة لم يكونوا كفارا و بأن ابراهيم خاطب آزر بالغلظة والجفاء ولا يجوز ذلك من الانبياء . وقد عزا الرازي هذا القول الى الشيعة وأطال في بيانه واختصر في بيان (زعم أصحابه) — أي الاشاعرة أو أهل السنة — ان آزر كان والد ابراهيم وكان كافرا وفي ردهم قول الشيعة . وقال الآلوسي : والذي عول عليه الجم الغفير من أهل السنة ان آزر لم يكن والد ابراهيم عليه السلام وادعوا انه ليس هم آباء النبي (ص) كافرا أصلا لقوله عليه الصلاة والسلام « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات » والمشركون نجس ، وتخصيص الطهارة بالطهارة من السفاح لا دليل له يعول عليه والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، وقد ألفوا في هذا المطلب الرسائل واستدلوا له بما استدلوا . والقول بأن ذلك قول الشيعة كما ادعاه الامام الرازي ناشئ من قلة التتبع . وأكثر هؤلاء على ان آزر اسم لعم ابراهيم عليه السلام وجاء إطلاق الاب على العم في قوله تعالى (أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوبَ الموت اذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق) وفيه إطلاق الاب على الجد أيضا . وعن محمد بن كعب القرظي انه قال الخال والد والعم والد ، وتلا هذه الآية »

ثم ذكر السيد الآلوسي آثارا استدلوا بها على ماذكر أخذها فيما يظهر من بعض رسائل السيوطي التي ألفها في نجاة الابوين الشريفين وجمع فيها الذرة وأذن الجرة — كما يقال — ورجح الآثار الواهية والمنكرة على الاحاديث الصحيحة ، المؤيدة بالآيات الصريحة ، وهي التي أشار اليها بقوله : وألفوا في هذا المطلب الرسائل الخ واعتمد عليها فيما ادعى انه هو الذي عول عليه أهل السنة . ومن الغريب وقوع هذه الهفوة من مثل هذا النقاد ، وانما أوقعه فيها هوى صادفته في الفؤاد ، وهو الميل الى ما يدل على نجاة جميع أولئك الآباء والاجداد ، الذين أنجبوا أفضل الابناء والأحفاد ، ابراهيم الخليل ومحمد الحبيب ، عليهما وعلى آلهما أفضل الصلاة والتسليم ، فان من نجبهما وهو من آيات

الايمان بهما ، ان يحب المؤمن نجاة أصولهما ، ولكن اذا ثبت أن بعضهم أصر على الكفر ، وقضت حكمة الله أن يبينه لنافي محكم الذكر ، وأن يطلع رسوله على عاقبته في النار ، فيخبر أمته به لكمال التوحيد والاعتبار ، أفيكون مقتضى حب الله ورسوله هو الايمان بذلك و بيانه كما بيناه ؟ أم يكون حبهما تحريفه وتأويله مبالغةفي تعظيم نسب الرسل واستعظاما لهلاك أقرب الناس منهم نسبا مع كرامتهم عندالله؟ وتأثرا بأقوال أهل الملل الذين جعلوا نجاة الخلق وسعادتهم في الآخرة بجاه أنبيائهم وتأثيرهم الشخصي عند الله ؟ لا باتباعهم والاهتداء بماجاؤا به من أصول الايمان وفضائل الاعمال (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) نعم ان مما يصدع الفؤاد، ويكاد يفتت أصلب الجماد ، ان يرى المؤمن والدخليل الرحمن، قد أثبت عليه في كتاب الله تعالى عبادة الاوثان، وأطلع الله تعالى رسوله على أن مآله أن يمسخ حيوانا منتنا و يلقى في سعير النيران ، كما روى البخاري في كتاب أحاديث الانبياء و كتاب التفسير من صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له ابراهيم ألم أقل لك « لاتعصني » فيقول أبوه فاليوم لاأعصيك ، فيقول ابراهيم : يارب انك وعدتني أن لاتخزيني يوم يبعثون فأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى « اني حرمت الجنة على الكافرين » ثم يقال : يا إبراهيم ماتحت رجليك ؟ فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار » . قال الحافظ ابن حجر في شرحه : وفي رواية ابراهيم بن طهمان : فيؤخذ منه فيقول يا براهيم أين أبوك ؟ قال: أنت أخذته مني، قال انظر أسفل، فينظر فاذا ذيخ يتمرغ في نتنه. وفي رواية أيوب : فيمسخ الله أباه ضبعا فيأخذ بأنفه (أي يأخذ ابراهيم انفه أصابعه كراهة رائحة نتنه) فيقول : ياعبدي أبوك هو ؟ فيقول لا وعزتك . وفي حديث أبي سعيد فيحول في صورة قبيحة وريح منتنة في صورة ضبعان. زاد ابن المنذر من هذا الوجه : فاذا رآه كذا تبرأ منه : قال ولست أبي . والذيخ بكسر الذال المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم خاء معجمة ذكر الضباع ولا يقال له ذيخ الا اذا كان كثير الشعر . والضبعان لغة في الضبع اه

أقول الضبعان بالكسر ذكر الضباع وهو مفرد ، والضبع بضم الباء وسكونه

هي الانثى فلا يقال ضبعة وقال ابن الانباري يطلق على الذكر والانثى . وهو وحش خبيث الرائحة فناسب ذلك خبث الشرك .

وقال الحافظ : قيل الحكمة في مسخه لتنفر نفس ابراهيم منه ولئلا يبقى في النار على صورته فيكون فيه غضاضة على ابراهيم . وقيل الحكمة في مسخه ضبعا أن الضبع من أحمق الحيوان وآزر كان من أحمق البشر لانه بعد أن ظهر له من ولده ماظهر من الآيات البينات أصر على الكفر حتى مات الخ

ثم ذكر الحافظ ان الاسماعيلي استشكل متن هذا الحديث من أصله وطعن في صحته من جهة ان ابراهيم علم ان الله لايخلف الميعاد فكيف يجعل ماصار لابيه خزيا مع علمه بذلك ؟ (قال الحافظ) وقال غيره هذا الحديث مخالف لظاهر قوله تعالى (وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه) وأجاب عن الثاني بأن أهل التفسير اختلفوا في الوقت الذي تبرأ فيه ابراهيم من أبيه فقيل كان ذلك في الحياة الدنيا لما مات آزر مشركا وذكر ان الطبري رواه عن ابن عباس من طرق قال في بعضها : استغفر له ماكان حيا فلما مات أمسك . وقيل انما تبرأ منه يوم القيامة لما يئس منه حين مسخ على ماصرح به في رواية ابن المنذر التي أشرت اليها . وهذا الذي أخرجه الطبري أيضا من طريق عبد الملك ابن أبي سليمان سمعت سعيد بن جبير يقول ان ابراهيم يقول يوم القيامة : رب والدي رب والدي : فاذا كان الثالثة أخذ بيده فيلتفت اليه وهو ضبعان فيتبرأ منه ... (ثم قال الحافظ) ويمكن الجمع بين القولين بأنه تبرأ منه لما مات مشركا فترك الاستغفار له لكن لما رآه يوم القيامة أدركته الرأفة والرقة فسأل فيه فلما رآه مسخ يئس منه حينئذ فتبرأ منه تبرأ أبديا . وقيل ان ابراهيم لم يتيقن موته على الكفر بجواز ان يكون آمن في نفسه ولم يطلع ابراهيم على ذلك ويكون تبرأ منه بعد الحال التي وقعت منه في الحديث

ثم نقل الحافظ عن الكرماني ايرادا بمعنى إشكال الاسماعيلي موضحا والجواب عنه من وجهين أحدهما أنه اذا مسخ وألقي في النار لم تبق الصورة التي هي سبب الخزي فهو عمل بالوعد والوعيد معا . وثانيهما ان الوعد كان مشروطا بالايمان وانما استغفر له وفاء بما وعده فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه .

وأقول ان ما في الحديث من أن الله تعالى وعد ابراهيم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بأن لا يخزيه يوم القيامة يشير الى دعائه الذي حكاه الله تعالى عنه في سورة الشعراء ومنه (٣٦ : ٨٦ واغفر لأبي انه كان من الضالين ٨٧ ولا تخزني يوم يبعثون ٨٨ يوم لا ينفع مال ولا بنون ٨٩ الا من أتى الله بقلب سليم) وأما وعد الله تعالى إياه بذلك فلا نعرفه الا من هذا الحديث فهو يدل على ان الله تعالى أوحى اليه بأنه استجاب له هذا الدعاء بشرطه المعلوم من الدين بالضرورة وهو أن الله تعالى لا يغفر لمن يشرك به . وتأمل قوله تعالى في خاتمة الدعاء (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) فهو من دقائق الرقائق

وأما استدلال الآلوسي تبعا لغيره بحديث « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين لى أرحام الطاهرات » على إيمان آباء النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من عبد الله (أولهم) لى آدم عليه السلام فهو معارضة لظاهر القرآن والاحاديث الصحيحة بحديث رواه أبو نعيم في الدلائل من حديث ابن عباس بلفظ « لم يلتق أبواي في سفاح لم يزل الله عز وجل ينقلني من أصلاب طيبة لى أرحام طاهرة صافيا مهذبا لا تنشعب شعبتان الا كنت في خيرهما » هكذا في نسخة الدلائل التي بأيدينا وذكره السيوطي عنه بلفظ « من الاصلاب الطيبة الى الارحام الطاهرة » بالتعريف ولا نعرفه باللفظ الذي ذكره الآلوسي عن أحد من المحدثين وانما يذكره بهذا اللفظ من لا يتحرون نقل الاحاديث بضبط مخرجيها بل يتساهلون بنقلها حيث وجدوها كثير من المفسرين والمتكلمين ، وقد سبق الفخر الرازي الآلوسي الى ذكره بهذا اللفظ من غير عزو ولا ذكر لاسم الصحابي الذي رفعه كعادته . واللفظ المروي لا معنى له الا كون آبائه (ص) ولدوا من نكاح لا من سفاح وهو معنى صحيح وردت فيه أحاديث أخرى . ولو فرضنا انه روي باللفظ الذي ذكراه لاحتمل هذا المعنى أيضا وكان حمله عليه جمعا بينه و بين القرآن والاحاديث الصحيحة أولى من جعله أصلا وإرجاعها اليه بالتأويل والتكلف . والذي خرجه إنما جعله في دلائل طهارة نسبه لا إيمان أصوله

ومما ذكر السيوطي من الدلائل في معنى هذه المسألة قوله تعالى (وتقلبك في

الساجدين) لقول بعضهم ان معناه في أصلاب الطاهرين أي المؤمنين وروى أبو نعيم انهم الانبياء ، ويبطل ذلك ما ذكرنا من المعارضة وقوله تعالى قبل الآية (الذي يراك حين تقوم) أي ويرى تقلبك في الساجدين فهو لا يحتمل الماضي وإنما معناه كما قال ابن عباس وغيره : الذي يراك حين تقوم في الصلاة ويرى تقلبك في المصلين أي معهم وبينهم . وما روي عنه من أن المعنى تقلبه من صلب نبي الى صلب نبي حتى أخرجه نبيا لا يصح سندا ولا متنا ولا لغة . وتفصيل ذلك سيأتي في محله

وأما الاحاديث الصحيحة المعارضة لحديث أبي نعيم التي أشرنا اليها في سياق الكلام غير حديث البخاري في مسخ آزر فأهمها ماورد في أبوي الرسول الطاهرين صلى الله عليه وآله وسلم فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن ثابت ان رجلا قال يارسول الله أين أبي ؟ قال « في النار » قال فلما قفا الرجل دعاه فقال « ان أبي وأباك في النار » قال النووي في شرحه : فيه ان من مات على الكفر فهو في النار ولا تنفعه قرابة المقربين ، وفيه ان من مات في الفترة على ماكانت عليه العرب من عبادة الاوثان فهو من أهل النار ، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة فان هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة ابراهيم وغيره من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم . وقوله (ص) «ان أبي وأباك في النار» هو من حسن العشرة للتسلية بالاشتراك في المصيبة . ومعنى قفا ولى قفاه منصرفا اه وورد حديث مثله في أمه (ص) أخرجه الامام أحمد

وروى مسلم أيضا من طريق مروان بن معاوية عن زيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) « استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي » ورواه من طريق محمد بن عبيد بلفظ : زار النبي (ص) قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال (ص) « استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فانها تذكر الموت » وذكر النووي ان هذه الرواية وجدت في نسخ المغاربة دون المشارقة ولكنها توجد في كثير من الاصول في آخر كتاب الجنائز ويضبب عليها أو في الحاشية . وذكر ان الحديث رواه من هذه الطريق أبو داود والنسائي وابن ماجه ورجاله عندهم

كلهم ثقات قال فهو حديث صحيح بلا شك

وقال النووي في شرح الحديث : فيه جواز زيارة المشركين في الحياة وقبورهم بعد الوفاة لانه اذا جازت زيارتهم بعد الوفاة ففي الحياة أولى ، وقد قال تعالى (وصاحبهما في الدنيا معروفا) وفيه النهي عن الاستغفار للكفار . قال القاضي عياض رحمه الله : سبب زيارته (ص) قبرها انه قصد قوة الموعظة والذكرى بمشاهدة قبرها ، ويؤيده قوله (ص) في آخر الحديث « فزوروا القبور فانها تذكر الموت » انتهى فهذا كلام أهل السنة

وقد ورد في التفسير المأثور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من عدة طرق ان قوله تعالى في سورة التوبة (٩ : ١١٤ ماكان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ١١٥ وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم) نزلت في هذه الواقعة . ولكن روى الشيخان وغيرهما انها نزلت لما عرض النبي (ص) على أبي طالب عند موته ان يقول لا إله الا الله ليحاج له بها أو يجادل عنه أو يشفع له بها ، وكان عنده أبو جهل فجعل يقول له أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال آخر ما كلمهم انه على ملة عبد المطلب وأبى أن يقولها فحينئذ قال النبي (ص) « والله لأستغفرن لك مالم أنه عنك » فأنزل الله (ماكان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين) الخ وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله (ص) (٢٨ : ٥٦ انك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) قيل في تفسير « من أحببت » من أحببت هدايته وقيل من أحببته بقرابة ونحوها

قال الحافظ عند شرح هذا الحديث من كتاب التفسير في البخاري حين ذكره في تفسير سورة القصص : وفيه إشكال لان وفاة أبي طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقا وقد ثبت ان النبي (ص) أتى قبر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه ان يستغفر لها فنزلت هذه الآية والاصل عدم تكرر النزول . ثم ذكر الروايات في ذلك عن الحاكم وابن أبي حاتم والطبري والطبراني . ثم قال : ويحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وان كان سببها تقدم ويكون لنزولها سببان متقدم وهو أمر أبي طالب ومتأخر وهو أمر آمنة ، ويؤيد تأخير النزول ما تقدم في تفسير براءة من استغفاره (ص)

للمنافقين حتى نزل النهي عن ذلك فان ذلك يقتضي تأخير النزول وان تقدم السبب، ويشير الى ذلك أيضا قوله في حديث الباب: وأنزل الله في أبي طالب (انك لا تهدي من أحببت) لانه يشعر بأن الآية الاولى نزلت في أبي طالب وفي غيره والثانية نزلت فيه وحده. اه ثم أيد الحافظ تعدد النزول بروايات أخرى فيمن استغفر لوالديه المشركين ومن استأذن في ذلك. ومعنى ذلك ان الصحابة كانوا يقولون في الآية الدالة على حكم وقع له عدة أسباب انها نزلت في تلك الاسباب أي نزلت مبينة لحكم الله فيها وإن تأخرت عنها. وسيأتي تحقيق هذه المسائل في محلها ان شاء الله تعالى

ومن غريب التعصب للرأي ان السيوطي حاول في بعض رسائله اعلال أحاديث الزيارة فزعم انه لم يروها أحد من أصحاب الصحاح ولا السنن وحصر روايتها في الحاكم وأحمد وسائر من ذكر شيخه الحافظ ابن حجر في شرح البخاري وأشرنا اليه آنفا كأنه ظن أنها لو كانت في الصحاح أو السنن لما اقتصر الحافظ على من ذكر من مخرجيها مع ماعرف من عادته انه يذكر جميع طرق الحديث أو أقواها. وفاته أنه إنما أراد هنا ذكر ماثبت في سبب نزول الآية من أحاديث الزيارة. وما رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه فيها ليس فيه ذكر نزول الآية في ذلك. ولكن أين حفظ السيوطي رحمه الله تعالى؟ أليس أهون ما يدل عليه هذا الانكار انه لم يكن حافظا للصحاح والسنن حفظا وانما كان يراجع الكتب عند الحاجة وينقل منها نقلا؟

ومما ذكر السيوطي في التقصي من حديث «ان أبي وأباك في النار» ان المراد بأبيه فيه عمه أبو طالب! وفي حديث عرض كلمة التوحيد على أبي طالب ما يبطل دعواه ايمان جميع آباء الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ان آخر ما قاله أبو طالب انه على ملة عبد المطلب، فهو دليل على ان ملة عبد المطلب تنافي كلمة التوحيد التي هي عنوان الاسلام، ومنه زعمه ان الحديث قد نسخ ولعله نسي قول الاصوليين ان الاخبار لا تنسخ ولا نقول انه جهله فقد قرره في الاتقان تقريرا. وقد تقدم ان اطلاق كلمة الاب على العم مجاز لا يصح في اللغة الا بقرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقي وسياق الحديث يعين المعنى الحقيقي. فاذا جاز أن يكون السائل عن أبيه

أراد عمه يجوز أن يكون معنى الحديث « ان عمي وعمك في النار »

ولعمري ان من يقول مثل هذه الاقوال لا يرد عليه ولا يصح ان يحكى قوله الا في مقام التعجب أو مقام الاعتبار . على أن بعض العلماء ردوا عليه ومع ذلك اغتر كثيرون بما أورده في نجاة الابوين ومنه حديث احيائهما وإيمانهما الذي قال بعض الحفاظ بوضعه وغاية ما قرره هو انه ضعيف لا موضوع ، وهو معارض بالآيات والاحاديث الصحاح . ومنه انهما من أهل الفترة وجمهور الاشاعرة على القول بنجاتهم ولكنهم استثنوا من ورد النص بأنهم من أهل النار . وأقوى ما قاله هو وغيره وارجاه ما ورد من الاحاديث في امتحان الله تعالى لاهل الفترة يوم القيامة ونجاة بعضهم به هذا اذا لم يصح ما نقلناه عن النووي من جزمه بأن مشركي العرب قد بلغتهم دعوة ابراهيم وغيره . وفيه بحث سيأتي في موضعه ان شاء الله تعالى وإذا حق نجاة الابوين الظاهرين بالامتحان ، يكون ما ورد فيهما خاصا بما قبل الامتحان

﴿ حكمة النصوص في كفر بعض أرحام الانبياء الاقربين ﴾

ان الذين اتخذوا استنباطهم البعيد من الروايات الضعيفة والمنكرة أصلا في إثبات إيمان آباء الرسول (ص) يؤولون لاجله الآيات الكثيرة والاحاديث الصحيحة الصريحة قد غفلوا عن أمر عظيم وهو الحكمة والفائدة في الاكثار من التصريح بكفر والد ابراهيم في القرآن وما في معناها كقصة ابن نوح الذي أصر على كفره ولم يرض أن يركب السفينة مع ولده وأهله . وفي تصريح الرسول (ص) بما يكون من أمر ابراهيم الخليل مع والده يوم القيامة وتصريحه أيضا بأن أباه في النار و بعدم اذن الله تعالى له في الاستغفار لأمه ولا لعمه الذي رباه وله عليه أعظم الحقوق . ومثل ذلك فيما يظهر انزال سورة في سوء حال أبي لهب ومصيره الى النار وهو عم الرسول صلى الله عليه وسلم

ان الحكمة البالغة والفائدة الظاهرة من هذه النصوص هي تقرير أصل التوحيد الهادم لقاعدة الوثنية بالفصل بين ما هو لله تعالى وما هو لرسله ، وهو ان الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يرسلوا الا مبشرين ومنذرين ، إن عليهم الا تبليغ دين الله وإقامته ، وليس لهم من الامر شيء ، ولا يملكون لاحد ضرا ولا نفعا ، وليس عليهم

هُدى أحد ولا رشده بالفعل. وانما عليهم هداية التعليم والحجة. فلا يهدون من أحبوا ولا يغنون عنه من الله شيئا وان كان أقرب الناس وأحبه اليهم في النسب والمعاملة الدنيوية.

وأما قاعدة وثنية العرب وغيرهم فهي اتخاذ أولياء من الخلق يزعمون انهم وسطاء بين الله وبين عباده في شؤون الخلق والايجاد، والاشقاء والاسعاد، والسلب والامداد، لا في مجرد التبليغ والارشاد، قياسا على ما يعهدون من الاقربين والمقربين، عند الملوك المستبدين، فهم يدعونهم لذلك مع الله أو من دون الله (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وكانوا يعبرون عنهم بالاولياء والشركاء كما قال تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) — الآية. وكانوا يقولون في طوافهم «لبيك لا شريك لك، الا شريكا هو لك، تملكه وما ملك».

وأصل أصنامهم وأوثانهم الغلو في تعظيم الصالحين فهي مأخوذة عن قوم نوح وكانت تماثيل رجال صالحين هلكوا فأوحى الشيطان الى قومهم ان انصبوا الى مجالسهم أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت (راجع سورة نوح من كتاب التفسير في صحيح البخاري) وقد هدم القرآن جميع قواعد شرك العرب وغيرهم من الوثنيين وأهل الكتاب الذين جعلوا مدار السعادة والنجاة على شفاعة أنبيائهم وأوليائهم لا على اتباعهم في الايمان والعمل وفضل الله تعالى. ولما كان ابراهيم أعلا البشر مقاما في أنفس العرب ومقامه الاعلى في الرسل عند أهل الكتاب مقامه كرر الله تعالى في كتابه ذكر كفر والده واجتهاده هو في هدايته وعنايته بالاستغفار له وان ذلك كله لم يفده شيئا، وزاد الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم فبين لنا ما أطلعه الله عليه من عاقبته السوءى في الآخرة وذكر أيضا عن أبويه وعمه وهو ما علمت من رواية الصحيحين وغيرهما ليعلم الناس أن مدار النجاة في الآخرة على الايمان الصحيح الاذعاني المستلزم للعمل بما جاء به الرسل عليهم السلام لا بأشخاص الرسل وتأثيرهم الشخصي عند الله كتأثير الاقربين والمقربين، عند الملوك المستبدين، اذ يحملونهم بالشفاعة أو الاقناع على عفو عن مذنب، أو إحسان الى غير مستحق؛ وهذه نظرية الوثنيين في الشفاعة التي نفاها القرآن المجيد، وأثبت ان الشفاعة لله جميعا لا يشفع عنده أحد

الا من بعد اذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له ، وقد تقدم تفصيل ذلك في تفسير هذه السورة من هذا الجزء وفي غيرها

ولا يرد على حصر وظيفة الرسل في التبليغ ما يؤيدهم الله تعالى به من الآيات فانها وان كان بعضها يحصل بقول أو فعل منهم لا يصح ان تعد من جملة كسبهم وتصرفهم وان يترتب على ذلك دعاؤهم أحياء وأمواتا بمثلها كابراء الاكمه وإحياء الميت بل هي من تصرف الله تعالى وحده سواء منها ما لا دخل لهم فيه بقول ولا فعل كإعجاز القرآن وما يجري عقب قول أو فعل وكقول الرسول للميت « قم باذن الله » كإلقاء موسى لعصاه أو ضربه البحر بها . قال تعالى (٢٩ : ٥٠ وقالوا لولا انزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين) وهذه الآية نص في الموضوع وفي معناها آيات تقدم بعضها فيما فسرنا من هذه السورة (الانعام) وسيأتي في آخر هذا الجزء منها (قل انما الآيات عند الله) ومما هو بمعناها قوله تعالى بعد حكاية ما اقترحه كفار مكة على الرسول في سورة الاسراء (١٧ : ٩٤ قل سبحان ربي ! هل كنت الا بشرا رسولا ؟) أي فانا لا أقدر على ذلك بصفتي البشرية لانني مثلكم فيها وليس من شأن الرسول ذلك من حيث هو رسول مبلغ عن الله تعالى

لولا تقرير هذه القاعدة لما ظهرت حكمة تلك العناية بتكرار ذكر كفر أبي ابراهيم في القرآن الحكيم كالآيات التي في سورة مريم (١٩ : ٤٠ — ٤٨) وكذكر أبيه قبل قومه في خبر بعثته في هذه السورة وفي سورة الانبياء (٢١ : ٥٢) الخ وسورة الشعراء (٢٦ : ٧٠) الخ وسورة الصافات (٣٧ : ٨٣) الخ وسورة الزخرف (٤٣ : ٢٥) فمن تأمل هذه الآيات وما في معناها كآية الاستغفار له في سورة براءة (٩ : ١١٥) — وتقدمت — وقوله تعالى في سورة الممتحنة (٦٠ : ٣ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون خبير ٤ قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم و بدا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ، الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) من تأمل ذلك كله جزم بما قلنا ، وأجدر بنا وقد وفقنا الله تعالى الى إظهار الحق بهذه الشواهد والبينات، أن ندعو الله تعالى

بالدعاء المتمم لهذه الآيات، فتقول (ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم)

هذا وان كلام بعض الذين حاولوا إثبات ايمان جميع آباء الخليلين أو جميع الانبياء وايمان أبي طالب يدور على ما يقابل هذا الاصل وهو الغلو فيهم يدعوى ان كرامتهم تنفع أولي القربى منهم فتكون سببا لهدايتهم الى الايمان ولا سيما من يسوءهم ويؤذيهم بقاؤه على الكفر، ومن يدعوهم أو يدعو بعض الصالحين من أتباعهم لجلب النفع او لكشف الضر، يظنون انهم ينالون سعادة الدنيا والآخرة بالتوسل بذواتهم، لا بما أمر الله من اتباعهم، ومنهم من يعتقد انهم يخرجون من قبورهم، ويقضون الحوائج التي تطلب منهم بأشخاصهم، وذلك مصادم لتلك النصوص كلها ولما في معناها من قواعد التوحيد وكون الدعاء عبادة لا يكون الا لله تعالى (١٧ : ٥٦ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه، ان عذاب ربك كان محذورا)

واذا كانت هذه الامة لم تسلم من وجود اناس قد اتبعوا سنن من قبلهم في الغلو في الانبياء والصالحين مع هذه النصوص الكثيرة الصريحة في الكتاب والسنة فكيف لو لم توجد هذه النصوص بهذه الصراحة ؟

نعم ان من الناس الراسخين في التوحيد من يحمله حب الرسول عليه صلوات الله وسلامه على تقوية كل قول يمكن أن يستنبط منه نجاة أبويه الطاهرين أو جمع أصوله وانما يحسن هذا بشرط أن لا يكون في ذلك تحريف لكلامه أو كلام الله تبارك وتعالى ولا إخلال بمقاصد الرسالة وأصول الدين، فان الحب الصحيح لله ولرسوله الذي هو آية الايمان انما يثبت ويتحقق بالاتباع واقامة الدين، ومن يرجح قرابة الرسول على رسالته فانما حبه له وهم حب هوى للعصبية والنسب، لا حب هدى باتباع ما أوجب الله على لسانه أو استحب، وقد كان أبو طالب أشد الناس حبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عصبية لقرابته، لا اتباعا لرسالته، وكل مؤمن يتمنى لو كان آمن به، ولكن ثبت في صحيح البخاري أنه بعد أن كان أعظم وأقوى ظهير ومانع له من أعدائه لقرابته قد أبى أن يقر عينه عند الوفاة بالنطق بكلمة « لا إله الا الله »

ولم يمنع ذلك بعض الغلاة من القول باسلامه ، ولا ما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين أيضا من حديث أخيه العباس بن عبد المطلب : قال للنبي (ص) : ما أغنيت عن عمك فوالله كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال « هو في ضحضاح من نار ولولا انا لكان في الدرك الاسفل من النار » ورويا من حديث أبي سعيد الخدري انه سمع النبي (ص) — وذكر عنده عمه فقال « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه » فهذا رجاء ولذي قبله خبر ، وفي هذا الحديث من الاشكال انه معارض بقوله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وما في معناها من الآيات كقوله تعالى في الملائكة والمسيح (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) أي لاهل التوحيد كما روي عن مفسري السلف — وبحديث عدم نفع شفاعة ابراهيم لأبيه . — ان صح ان يسمى ذلك شفاعة — وأحاديث أخرى . وقد يجاب عن حديث أبي سعيد على طريقة العلماء في مثله بأن هذا الرجاء ليس اعتقادا جازما ولا خبرا عن الله تعالى فيحتمل ان يكون وقع منه (ص) قبل اعلام الله تعالى اياه بما ذكر في الآيات ، وليس في حديث العباس ذكر للشفاعة ولكنه بمعناها ويشير كلام الحافظ ابن حجر في شرح الحديث في باب قصة أبي طالب من الفتح الى أن ذلك خصوصية له (ص) ولم يصرح بالاشكال . ويمكن أن يجاب بأن الشفاعة المنفية هي ما كان يعتقد المشركون من تأثير الشفعاء في ارادة الباري سبحانه وتعالى كتأثير الشفعاء عند الملوك وعظماء الدنيا ، وبأن الشفاعة لا تنفع الكافر بانقاذه من النار وجعله من أهل الجنة كما ان أعماله الصالحة في الدنيا لا تنفعه هذا النوع من النفع لان تأثير الكفر يغلب تأثيرها ولكنها قد تنفع بجعل عذاب المشفوع له بفضيلة فيه وعمل صالح له أخف من عذاب الكافر الذي ليس له فضائل ولا أعمال صالحة مثلها كما يدل عليه ما ورد في تفاوت عذاب أهل النار . وما أجدر أبا طالب بأن يكون أخف الكفار عذابا بأعماله الصالحة التي أجلها كفالة الرسول وحفظه ورعايته بل روي عنه أنه كان مصدقا له ولكنه أصر على الشرك استكبارا وحمية لما كان عليه أبوه وقومه وقد أثار هذه الحمية فيه أبو جهل لعنه الله — وكذا عبد الله بن أبي أمية رضي الله عنه فقد بعد ذلك — اذ كانا لديه وقت تلك الدعوة كما تقدم . آمين

وروى أحمد من حديث أبي هريرة انه قال للنبي (ص) : لولا ان تعيرني قريش يقولون ما حمله على ذلك الا جزع الموت لأقررت بها عينك . فكان جل كفره غلبة الحمية الجاهلية وتعظيم الآباء بتقليدهم وإيثار ذلك على الشهادة بالحق . فأين هو من كفر المعاندين الذين آذوا الرسول والمؤمنين بكل ما استطاعوا من أنواع الاذى وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وما زالوا يحاربونهم ويحرضون الناس عليهم الى أن خذلهم الله تعالى ونصر رسوله والمؤمنين عليهم . ولكن يرد على ذلك ان من كان مستحقا لأخف العذاب وجوزي به لا يكون منتفعا بالشفاعة . والتخفيف بسببها بعد الاستحقاق معارض بقوله تعالى (ولا يخفف عنهم من عذابها) وبنصوص أخرى فلا يظهر معنى الشفاعة الا على قول من يقول ان كل الشفاعات تكريم صوري للشفعاء لما يجريه الله تعالى عقب شفاعتهم لا بها كما يقول الاشعرية في جميع الاسباب .

بعد كتابة ما تقدم وجمعه للطبع راجعت شرح الحافظ للحديث في كتاب الرقاق من البخاري فاذا هو قد ذكر الاشكال واجوبة عنه بمعنى ما تقدم من الخصوصية وتخصيص العموم وكون التخفيف من عذاب المعاصي دون الكفر ، والتجوز في لفظ الشفاعة فنقل عن (المفهم شرح صحيح مسلم) للقرطبي ان أبا طالب لما بالغ في اكرام النبي (ص) والعذاب عنه جوزي على ذلك بالتخفيف فأطلق على ذلك شفاعة لكونها بسببه اهـ

هذا وان في المسألة مباحث نرجئ القول فيها الى تفسير آيات السور الاخرى التي أشرنا اليها في سياق هذا الكلام ونختم الكلام هنا بمسألتين من متعلقاته

(المسألة الاولى حظر إيذاء الرسول أو آله بذكر أبويه أو عمه بسوء)

اذا علمت ان حكمة بيان كتاب الله تعالى وحديث رسوله (ص) لكفر من ذكر وعذابهم في النار هي تقرير أساس الدين وهو التوحيد على أكمل وجه فاعلم ان الذي يطلب شرعا هو أن يذكر ذلك في مقام التعليم وهو يشمل قراءة القرآن وتفسيره ورواية الحديث وشرحه — ومنه السيرة النبوية وتاريخ الاسلام — وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة ومن وافقهم من الفرق والرد على من خالفهم . ولا يجوز أن يتجاوز ذلك الى ما يخل

بالادب ، ويؤذي الرسول أو آله بحسب أو نسب ، وناهيك بالام والاب ، وبأبي طالب دون أبي لهب ، بل لا ينبغي أن يذكر أبو لهب بسوء موصوفا بكونه عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الا في مقام التعليم والبيان الذي تقدم ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة قالت : استأذن حسان بن ثابت النبي (ص) في هجاء المشركين قال « كيف بنسبي فيهم » فقال حسان : لاسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين » أي لاخلصن نسبك من أنسابهم حتى لا يصيبه من المحو شيء . وفي رواية انه استأذنه في هجو أبي سفيان فقال « كيف بقرابتي منه » فأجاب حسان بنحو ما تقدم ، وقد كان أبو سفيان يومئذ أشد الناس عداوة للنبي (ص)

ومن هدي علماء السلف في ذلك واقعتان رويتا عن عمر بن عبد العزيز (رض) وناهيك بعلمه وهديه (إحداهما) انه اتي بكاتب يخط بين يديه وكان أبوه كافرا . فقال للذي جاء به : لو كنت جئت به من أولاد المهاجرين ! فقال الكاتب : ماضر رسول الله (ص) كفر أبيه . فقال عمر : قد جعلته مثلا ! لا تخط بين يدي بقلم أبدا (الثانية) انه قال لسليمان بن سعد : بلغني أن أبا عاملنا بمكان كذا وكذا زنديق . قال وما يضيره ذلك يا أمير المؤمنين قد كان أبو النبي (ص) كافرا فما ضيره . فغضب عمر غضبا شديدا وقال : ما وجدت له مثلا غير النبي (ص) ؟ قال فعزله عن الدواوين

ومنه أن الشافعي (رض) قال : وقطع رسول الله (ص) امرأة — أي يدها — لما شرف فكلم فيها فقال « لو سرقت فلانة — لامرأة شريفة — لقطعت يدها » فكنى عن فاطمة عليها السلام ولم يذكر اسمها مبالغة في الادب . مع ان اسناد السرقة اليها في الحديث مفروض فرضا لا واقع وهو يذكره في سياق الاستنباط من السنة الذي يجوز فيه ما هو أعظم من ذلك . ومن هذا القبيل . ما فعله أبو داود — رحمه الله تعالى في حديث تعزية فاطمة عليها السلام في ميت وقول النبي (ص) لها « فلعلك بلغت معهم الكدى » أي المقابر قالت : معاذ الله وقد سمعتك تذكر فيها ما تذكر ! فقال لها كما في سنن النسائي « لو بلغتها معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك » وأما أبو داود فرواه هكذا : قال « لو بلغت معهم الكدى » فذكر تشبيدا عظيما اه وقالوا انه ترك التصريح بآخر الحديث عن باب الادب .

فان قيل أي المحدثين خبر عملا في هذا الحديث ؟ النسائي الذي رواه بلفظه وعمل بأمر النبي (ص) ان يبلغ القول عنه كما سمع كما في حديث عبدالله بن مسعود عند أحمد والترمذي وما في معناه من الامر بتبليغ الشاهد الغائب في خطبة حجة الوداع كما في الصحيحين وغيرهما ، أم أبو داود الذي راعى الادب بحذف ماحذف ؟ فالجواب ان الذي جرى عليه حملة السنة ومبلغوها للامة من السلف الصالح هو وجوب تبليغ النص بلفظه على من حفظه أو بمعناه اذا وعاه ووثق بقدرته على أدائه ، ولهؤلاء الاعلام أعظم منة في عنق الامة الاسلامية بنقل السنة اليها كما رووها وضبط متونها ووزن أسانيدها بميزان الجرح والتعديل المستقيم ، والشافعي وابو داود رحمهما الله تعالى من أئمتهم . وانما يحسن مثل ماروي عنهما من الادب العالي مع بضعة الرسول سيدة النساء عليها السلام اذا كان لا يضيع به شيء من الحديث كذكره لمن يعلم الاصل المروي أو لمن لا مصلحة له في العلم بنصه والله أعلم ، ولو كان أئمة الحديث يستبيحون حذف شيء منها لما وثقنا بنقلهم ولكن علم من سيرتهم ومن روايتهم للاحاديث المشكلة كغيرها ومن جرحهم لمن غير أو بدل أو حذف أو زاد او نقص او خالف الثقات في شيء من المتون وان كان غرضه التعظيم ، والظاهر ان الشافعي وأبا داود قالا ماقالا عالمين بأنه لا يضيع من الحديث شيئا لانه محفوظ مشهور

﴿ المسألة الثانية ما مذهب أهل السنة ﴾

قد علمت أن السيد الآلوسي عزا القول بايمان أبي ابراهيم الخليل (ص) الى الجم الغفير من أئمة أهل السنة وأن هذه هفوة منه عفا الله تعالى عنه ، ولا يخفى على مثله أن هذا اللفظ لا يصح ان يطلق على رأي كل من صنف رسالة أو كتابا من المنتسبين الى مذاهب أهل السنة في الاصول أو الفروع . وانما مذهب أهل السنة والجماعة ما كان عليه السواد الاعظم من الصحابة وعلماء التابعين وأئمة الحديث والفقه ممن تبعهم في الاعتصام بنصوص الكتاب والسنة من غير تحريف ولا تكلف لإرجاع ظواهرها الى ما ابتدع من البدع والآراء التي أحدثها أهل الاهواء . ومنهم فقهاء الامصار المشهورون كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسفيان الثوري

والاوزاعي وداود وغيرهم . وقد انتسب الى بعض مذاهب هؤلاء كثير من أهل الكلام فخالفوهم في بعض الاصول كبعض المعتزلة من الشافعية وكثير من المعتزلة والمرجئة من الحنفية ، وأقرب المتكلمين اليهم الاشاعرة وأكثرهم من المالكية والشافعية والماتريدية من الحنفية ، ولكن هؤلاء قد اضطروا الى الخوض في مسائل من الكلام لم تؤثر عن أئمتهم في الفقه ولا عن غيرهم من السلف الصالح ، واختلف الاشعرية والماتريدية في كثير منها كما اختلف الاولون منهم في عدة مسائل خالف بعضهم فيها الاشعري أو خالف بعضهم بعضا — فهم على انتسابهم كلهم الى السنة لا يصح ان يجعل كل ما قرره واحد أو آحاد منهم مذهبا لاهل السنة والجماعة وان تقلد ذلك الكثيرون من الناس ، وانما القاعدة في كل ماحدث بعد الصدر الاول من الاقوال والآراء وتنازع فيه العلماء فلم يجمعوا فيه على قول أن يرد الى الكتاب والسنة فيؤخذ ما وافقهما ويرد ما خالفهما عملا بقوله تعالى (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) الآية . وقد بينا نصوص القرآن والسنة الصحيحة في مسألة آباء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكلام بعض علماء السلف والخلف في الاخذ بها من غير تأويل ، فكل ما خالفها مردود وليس من مذهب أهل السنة في شيء

هذا — وانني بعد كتابة ما تقدم وجمعه للطبع عثرت بالمصادفة على ما كتبه الآلوسي في مسألة استغفار ابراهيم لابيه من تفسير سورة الممتحنة فاذا هو مبني على رجوعه عن هفوته التي نقلناها عنه وانتقدناها عليه ، وحملنا ذلك على مراجعة ما كتبه في المسألة من تفسير سورة التوبة فاذا هو مثل الذي في تفسير سورة الممتحنة في بنائه على ان آزر أبو ابراهيم وأنه مات مشركا . وهذا هو اللائق بعلمه واستقلاله في الفهم . وهذا شأن علماء السنة — اذا قال أحدهم قولا ثم ظهر له الدليل من الكتاب أو السنة الصحيحة على خلافه فانه يرجع عن قوله اليهما ، سواء كان الدليل من أحدهما أو كليهما ، وهو من الخطإ الذي يغفره الله تعالى للمخلصين الاوابين ، بل ثبت في الحديث الصحيح ان من اجتهد فأخطأ له أجر الاجتهاد ومن اجتهد فأصاب كان له أجر الاجتهاد وأجر الاصابة . وهذا مما يؤكد اتقاء الاغترار بقول أي عالم خالف النص أو ما اشتهر عن السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم ووفقنا للاقتداء بهم .

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بما شاء من الألقاب ان شاء . واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متاخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

حكم التصوير وصنع الصور والتمثيل واتخاذها

تابع لما في الجزء الخامس

ملخص ما تقدم من الاحاديث والآثار وأقوال العلماء في شرحها وفقهها

أما الاحاديث فتلخص في سبع مسائل

(١) ان المصورين يعذبون يوم القيامة ويكلفون إحياء ما صنعوا تعجيزا ووصفهم بالظلم الشديد لقصدهم مضاهاة خلق الله

(٢) لعن المصور كما لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وقال فيهم انهم كانوا يصورون الصالحين منهم ويضعونها في معابدهم ووصفهم بأنهم شر الخلق

(٣) انكار نصب الستور التي فيها الصور والتماثيل وهتكها أي ازالتها

(٤) تعليل الانكار تارة بأننا لم نؤمر بكسوة الحجر والطين وتارة بكونها في المصلى تعرض للمصلي في صلاته وتارة بعدم دخول الملائكة بيتا فيه صورة أو كلب

(٥) اتخاذ الثياب التي فيها الصور وسائد ومرافق واستعمال النبي (ص) لها مع بقاء الصورة فيها كما صرح به في رواية الامام أحمد

(٦) ان تغيير الصورة الحيوانية بما تصير به أشبه بالشجر كقطع رأسها يبيح اتخاذها . وفي معناه فتوى ابن عباس للمصور العراقي

(٧) نقض التصاليب وازالتها

وأما الآثار عن الصحابة والتابعين في المسألة (فمنها) استعمال زيد بن خالد الصحابي للستر الذي فيه الصور وهو أحد رواة حديث «ان الملائكة لاتدخل بيتا فيه صورة الا رقما في ثوب» فهو لم يشترط ان يكون الثوب الذي فيه الصورة مهانا

(ومنها) اتخاذ أحد أعاظم أئمة التابعين القاسم بن محمد بن أبي بكر (رض) الخملة التي فيها تصاوير القندس والعنقاء، وهو ربيب عمته عائشة الصديقة واعلم الناس بحديثها وفقهها وقد روى عنها حديث النمرقة

(ومنها) استعمال يسار بن نمير مولى عمر بن الخطاب (رض) وخازنه الصور في داره. وقد روى عن عمر وغيره وهو من الثقات كما قال ابن سعد وابن حبان

(ومنها) صنع الصور في دار مروان بن الحكم أو سعيد ابن العاص وكل منهما ولي امارة المدينة وكانا من التابعين روى الشيخان عن الاول ومسلم عن الثاني وهو خير من الاول. وقد انتقد على البخاري روايته عن مروان وأجابوا عنه بأنه ثقة في الحديث وإنما ذنبه عملية سببها السياسة أعاذنا الله من شرها وشر أهلها. وعمل مروان لا قيمة له في الاحتجاج الا أنه يدل على أن التصوير كان مستعملا في عصر الصحابة ولكن أبا هريرة أنكر مارآه في داره وكان من أعلم الصحابة بأحداث بني أمية وأخبر ببعضها قبل وقوعها. وكذلك أنكر ابن عباس على المصور العراقي تصويره الحيوان وافتاه بتصوير النبات

وأما أقوال العلماء في شرحها وفقهها فمنهم من شدد فيه ومن خفف، واشهر المشددين من محققي الفقهاء في القرون الوسطى أبو بكر ابن العربي والنووي فقد جزما بتحريم التصوير مطلقا وان كان الاصل ان ماحل اتخاذه واستعماله حل صنعه

وقال الاول: انما له ظل كالتماثيل ذات الاجسام يحرم اتخاذه بالاجماع، وبين الحافظ ابن حجر ان حكاية الاجماع غير صحيحة لتصريح الجمهور بحل لعب البنات لصحة الحديث بذلك، ونقل عن القرطبي حكاية قولين فيما لا يتخذ للابقاء كتماثيل الفخار وجعل إلحاق ما يصنع من الحلوى بالفخار و بلعب البنات محل تأمل. وأقول ان تماثيل الحلوى التي تصنع بمصر في أيام الموالد أقل بقاء مما يصنع من الفخار لانها لاتلبث أن تؤكل وهي تؤخذ للاطفال كلعب البنات فالقول بحلها أظهر من

القول بحل ما يتخذ من الفخار ، وأما ما لا ظل له من الصور فحكيا في اتخاذه أربعة أقوال : ١ الجواز مطلقا ٢ المنع مطلقا ٣ تحريم ما كانت الصورة فيه تامة وجواز ما قطع رأسها أو تفرقت أجزاؤها ٤ جواز ما يمتهن دون كان معظما كالمعلق . وقد رجحا الثالث ورجح الحافظ ابن حجر الرابع .

وقد علم من هذا التفصيل كلام المخففين بالاجمال . ومن التفصيل فيه قول الحافظ : مذهب الحنابلة جواز الصورة في الثوب ولو كان معلقا الا ان يكون على جدار ، ومذهب القاسم بن محمد بن أبي بكر (رض) ان ما لا ظل له لا بأس باتخاذه مطلقا فقد صح انه كان في بيته بمكة حجلة فيها تصاوير كما تقدم ، ومنه حمل أبي علي الفارسي الوعيد بعذاب المصورين على المشبهة الذين يعتقدون ان لله تعالى صورة كصور خلقه تعالى عن ذلك ، وجعل الحافظ ابن حبان حديث امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة خاصا بالنبي (ص) وجعل بعضهم إياه خاصا بملائكة الوحي ومقتضاهما انه انقطع ، وجعله الكثيرون خاصا بملائكة الرحمة ، وخصصه بعضهم بالصفة كما تقدم في ص ٢٢٩ ومنتهى التخفيف قول بعضهم ان الوعيد على تحريم التصوير خاص بمن كان في ذلك الزمان لقرب العهد بعبادة الاثان وأما الآن فلا . ورده ابن دقيق العيد كما قال الحافظ في الفتح

والتحقيق ان الاصل في الوعيد على التصوير قسمان أحدهما لا يتحقق الا بالقصد وهو مضاهاة خلق الله كما تقدم في الكلام على الحديث . وثانيهما لا يشترط فيه قصد علة الحضر وهو كما يؤخذ من حديث كنيسة الحبشة ومما صرح به المحققون من المتقدمين والمتأخرين في شرحه وشرح غيره هو سد ذريعة عبادة صور الانبياء والصالحين وغيرهم ومثله الوعيد على بناء المساجد على القبور لا فرق بينهما البتة . فيأتي فيه ما قاله الحافظ في شرح الحديث من (باب بناء المسجد على القبر) من صحيح البخاري وهو كما في آخر ص ٢٣٥ من جزء المنار الماضي : وقد تقدم ان المنع من ذلك إنما هو في حال خشية أن يضع بالقبر ما صنع أولئك الذين لعنوا . وأما اذا أمن ذلك فلا امتناع . وقد يقول بالمنع مطلقا من يرى سد الذريعة وهو هنا متجه قوي اه

ويمكن أن يقال ان سد الذرائع يختلف باختلاف الازمنة وباختلاف أنواع الصور

ولما كانت التماثيل والصور المعظمة في الجاهلية تعظيم العبادة هي صور ذات الانفس اذن ابن عباس (رض) للمصور الذي استفتاه بتصوير الشجر وما لانفس له . ولما صارت صور ذات الانفس لمجرد الزينة وزالت مظنة العبادة اتخذ بعض أئمة السلف بعض الصور في بيوتهم كما ترك الصحابة الصور في ايوان كسرى . ولا نقول ان ذريعة تعظيم الصور تعظيم ديانة وعبادة قد زال في هذا الزمن وان علة التحريم انتفت كما قال من جعل التحريم كالمنسوخ لجعله خاصا بالعصر الاول ، اذ لا شك في أن تصوير الانبياء والاولياء وكل من يغلو في تعظيمه العوام أو اتخاذ تماثيل لهم قد يفضي الى العبادة . كما رأينا نظير ذلك في تعظيم قبور الصالحين الذي جاء مصداقا لحديث الصحيحين « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع » الخ ولكن الناس شددوا في سد ذريعة عبادة الصالحين بتعظيم صورهم وتساهلوا في سد ذريعة عبادتهم بتعظيم قبورهم ببناء المساجد عليها والطواف بها والتماس جلب النفع ودفع الضر بالتمسح بها ودعاء من دفن فيها .

ومن تأمل الاحاديث وآثار السلف في مسألة تشييد القبور وتجصيصها وحظر اتخاذها مساجد ووضع السرج والستور عليها ، ومسألة التصوير واتخاذ الصور بجعلها في البيوت والستور ونحوها — يتجلى له ان علة النهي عن الامرين واحدة ، ألا انها في القبور أشد وأعم ؛ وقد جمع الامر بازالتهما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الهياج الاسدي قال قال لي علي : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله (ص) « أن لا تدع تمثالا الا طمسته ولا قبرا مشرفا الا سويته » وفي رواية : أن لا أدع قبرا مشرفا الا سويته ولا تمثالا الا طمسته » باسناد الافعال الى ضمير المتكلم أي بعثني على أن لا أدع الخ . وطمس التمثال محو صورته التي يشبه بها الحي ، ويحصل بتشويهه أو قطع رأسه دون ازالة عينه لان ذلك كاف في اخراجه عن صفة المعظم عبادة . وأما تسوية القبر فازالة لعينه لان المراد بها تسويته بالارض أي جعله مساويا لها . ولكن أجاز الفقهاء رفع القبور قدر شبر كما رفع الصحابة قبر النبي (ص) وصاحبيه (رض) . وقدر بعض من رأى القبر الشريف من السلف ارتفاعه بأربعة أصابع ، نقله الحافظ في الفتح والظاهر انه اعتمده — وقال الشافعي في الام : ورأيت الائمة بمكة يأمرون بهدم ما يبنى . قال النووي عند نقله في شرح مسلم ويؤيد

الهدم قوله « ولا قبر امشرفا الا سويته » اه

وأما الخلف من العوام والحكام فخالفوا جميع الاحاديث والآثار في المسألة الاولى ولكنهم ظلوا يشددون المسألة الثانية الى أن عمت البلوى بها في هذا العصر فصاروا يتساهلون في أمر اتخاذ التصاوير للزينة وللانس بصور الاقربين والمحبين وصار العلماء يسمحون للمصورين بتصويرهم حتى أكابر شيوخ الازهر وقضاة الشرع والمفتين، ولكنهم لا يزالون يشددون في صناعة التصوير نفسها على كثرة منافعها وشدة الحاجة اليها في غير ما تساهل الجمهور في اتخاذه من أعمالها

سألني بعض العلماء البصراء في طرابلس الشام مرة عن التصوير اذ قلت انه بعد الآن من أركان العمران والحضارة هل له فائدة يعتدبها شرعا فان مافتن به الناس من زينة التصاوير ليس بالامر النافع الذي يرخص في هذه الصناعة لاجله ولو في غير ما تخشى عبادته أو تعظيمه تعظيما دينيا ؟ فقلت له على البداهة ولم يكن قد سبق لي تفكر في حصر فوائد التصوير : إن له أنواعا من الفوائد في حفظ اللغة وإيضاح كثير من العلوم والفنون وفي الاعمال العسكرية والادارية والسياسية وذكرت له من الامثلة على ذلك ما يأتي

(١) اننا نرى في كتب اللغة أسماء كثير من الاشياء كالنبات والحيوان وغيرهما غير مفسرة بما يعرف به المسمى من لم يكن يعرفه باسمه ذلك بل يقولون حيوان معروف أو طائر معروف وصاحب القاموس المحيط يكتفي بحرف م المختزل من كلمة معروف وهذا تقصير كبير في حفظ اللغة، ولو وضعت صورة الشيء عند اسمه كما كان يفعل قدماء المصريين وكما تفعل أمم الحضارة الآن لكان ذلك أحسن حفظ للغة ولا يغني عنه الوصف بالكلام لان بعض الاجناس تتشابه فلا يسهل التمييز بينها بالقول بل يتعسر أو يتعذر وصف أي جنس من أجناس المخلوقات وصفا يمكن أن يعرفه به كل من سمعه

(٢) يترتب على الجهل بأجناس بعض الحيوان جهل ما يتعلق بها من الاحكام الشرعية كأحكام ما يحل أكله منها وما لا يحل وأحكام جزاء الصيد على المحرم وغير ذلك

(٣) ان للتصوير فوائد عظيمة في علوم التاريخ الطبيعي والطب والتشريح الانساني والحيواني وفروع هذه العلوم قد صارت كثيرة في هذا العصر، ويتوقف ايضاح الحقائق فيها تأليفا وتعليما على الصور التي تظهر بها جميع الاعضاء الظاهرة والباطنة

صحيحة ومريضة فاتقان هذه العلوم يتوقف عليها

(٤) للتصوير فوائد عظيمة في الاعمال الحربية، فلا يمكن لمن يتركه أو يقصر فيه أن يقاتل أعداءه بمثل ما يقاتلونه به ولا ان يعد لهم ما استطاع من قوة — فمنها تصوير المواقع والطرق والبلاد والجيوش وما لديها من السلاح والذخيرة ، ومنها تصوير من يشتبه في أمرهم ان يكونوا عيونا وجواسيس وتقتضي الحكمة ان يجعلوا تحت المراقبة . ومنها تصوير من يحتاج الى تحقيق شخصيتهم لئلا يشتبهوا بغيرهم ...

(٥) للتصوير فوائد عند حكومات هذا العصر في الاعمال السياسية والادارية كأعمال الجواسيس وحفظ الامن وغير ذلك وتفصيل ذلك يطول .

لا يقال ان المسلمين يمكن ان يستغنوا عن صناعة التصوير في التعليم والتأليف والاعمال الحربية وغيرها كما استغنى سلفهم فان هذا بمثابة القول باستغنائهم عن سلاح هذا العصر ومراكبه البحرية والهوائية كما استغنى عنها سلفهم ، وانما كان يصح هذا التشبيه لو كان ماذكر من المستحدثات موجودا في عصر السلف يستعمله خصومهم وهم يتركونه ولا يضرهم تركه . وهذا باطل لا يقول به أحد .

ولا يترتب على نوع ما من أنواع هذه التصاوير تذرع الى عبادة غير مشروعة ولا الى تعظيم ديني ولا يقصد بشيء منها مضاهاة خلق الله — فإما ان يؤخذ فيها بقول من يجعل الوعيد على التصوير خاصا بما ذكر من أول الامر كتصوير الصالحين ومن يخشى ان يفتتن الناس بصورهم وتماثيلهم وبما يقصد به مفسدة أخرى كالتحريض على المعاصي وهتك العورات ، واما أن يخص عمومها بأحكام الضرورة في بعضها وأحكام الحاجة التي تعد من المصلحة الراجحة في بعض آخر ، فان القاعدة في المحرم لذاته ان يباح للضرورة كأكل الميتة ولحم الخنزير، وفي المحرم لسد الذريعة ان يباح للمصلحة الراجحة كرؤية الطبيب للعورات وأبدان النساء الاجنبيات عملا بقاعدة ارتكاب أخف الضررين .

فمن عرض مسألة التصوير وأتخاذ الصور على هذه القواعد الشرعية علم منها أن دين الفطرة، الذي قرن كتابه ووصف بالحكمة، ورفع منه الحرج والعسر عن الامة ، لم يكن ليحرم صناعة نافعة في كثير من العلوم والاعمال ، ويحتاج اليها في حفظ الأمن

وفنون القتال ، وانما يحرم مافيه مفسدة أو ماكان ذريعة الى مفسدة ، ولا يبعد ان يقال ان أعمال المصورين في هذا العصر تعتريها الاحكام الخمسة — فاذا سألنا رؤساء الحكام وكبار القواد وأركان الحرب والاطباء وغيرهم من علماء الفنون التي هي من فروض الكفايات عن صناعة التصوير الشمسي واليدوي فقالوا ان منها ما هو ضروري يترتب على تركه ضرر عظيم ، ومنها ما فيه مصلحة راجحة ، ومنفعة مجربة — فمقتضى الاصول والقواعد تكون واجبة في بعض تلك الضرورات والمصالح ، ومستحبة أو مندوبة فيما دونها من المنافع ، ومباحة فيما لاضرر فيه ولا نفع ، ومكروهة فيما كان مظنة الضر ، وقد بيناقريبا ماتكون فيه محرمة وهو ماحمل عليه النص ، فهذا ماأعلمه وأفهمه من نصوص الشرع وقواعده في هذه المسألة وهو يؤيد ما نقلته عن بعض علماء السلف والخلف في التساهل فيها قولا وعملا ، والله أعلم

رحلة الحجاز

٧

طواف الافاضة

بعد ذلك ركبت دابتي وقصدت مكة المكرمة فطفت طواف الافاضة وهو طواف الركن الذي لا يتم الحج بدونه ، وفي أثناء طوافنا شرع أهل مكة في صلاة العيد ورأيت الامير يصلي معهم مأموما . وكان الرجال يصلون في الجهة الغربية من الكعبة المعظمة والنساء في الجهة الجنوبية وهن كثيرات جدا ، ثم سعينا بين الصفا والمروة وهو من أركان الحج وقد سعيت في هذه المرة ماشيا . وقد اختلفت الروايات : هل طاف النبي (ص) وأصحابه بين الصفا والمروة في حجة الوداع مرة أو مرتين ؟ ففي حديث جابر عند مسلم أنهم طافوا بينهما مرة واحدة قبل عرفة ، وفي حديث عائشة انهم طافوا مرتين أي عند القدوم وبعد طواف الافاضة ، ورجح المحققون من علماء الحديث رواية جابر وقالوا ان ماذكر في حديث عائشة مدرج من كلام الزهري لا من كلامها ، فذهب المحدثين ان السعي لا يتكرر ، ويقول كثير من الفقهاء ان لكل نسك سعيا لا يسقطه السعي بعد طواف القدوم ، وأن السعي للعمرة لا يغني عن

السعي بعد طواف الافاضة للحج . ولم يصل النبي (ص) العيد يوم النحر بمكة ولا بمنى كما انه لم يصل الجمعة بعرفة لانه مسافر ولم يكن يصليهما في السفر، وقال بعض العلماء ان رمي جمرة العقبة للحاج كصلاة العيد لغيره فصلاة العيد لا تطلب منه وان كان مكيا . ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لإقامة السنة على الوجه لا كمل في حجة أخرى أو حجات كثيرة

هذا وانني بعد الطواف والسعي جئت منزلنا بمكة واستحضرت حلاقا فأخذ شعر رأسي كله بالآلة المعروفة بالمكنة أخذا أقرب الى الحلق منه الى التقصير ثم عدت الى منى وقد تحللت من الحج تحللا كاملا ؛ ولله الحمد أولا وآخرا، واياه نسأل أن يجعله حجا مقبولا وسعيا مشكورا . وقد بقي من أعمال الحج التي لا يشترط فيها الاحرام — رمي بقية الجمار وذبائح النسك

الجمار بالكسر والجمرات بالتحريك جمع جمرة وهي في أصل اللغة واحدة الجمر من النار، والحصاة، والقبيلة التي تصبر لقراع القبائل، وكل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحدا ولا ينضمون الى أحد . قيل سميت جمرات المناسك بمنى بهذا الاسم لانها ترمى بالجمار أي الحصى وقيل لانها مجمع الحصى التي ترمى شبهت باجتماع القبيلة على من ناوأها . وقال أبو العباس أصلها من جمرته ودهرته اذا نحيته ، والتجمير رمي الجمار والمجمر (كالمعظم) موضع رمي الجمار . فأما جمرة العقبة فهي في عقبة منى التي ينحدر منها السائر الى مكة على جانب الطريق ، وأما الجمرة الوسطى والصغرى فهما في وسط الطريق الذي يشق منى نصفين وتعرف مواقعهما من صورة منى (خريطتها) وفي موضع كل من الوسطى والصغرى بناء يقرب من شكل المنارة أو المسلة قليل الارتفاع حوله حظيرة مستديرة، وكانت دارنا عند الجمرة الوسطى من جهة الشمال وهي أفسح دار هنالك .

وقد بينا كيفية رمي الجمار وحكمته في مناسك الحج كما بينا حكمة ذبائح النسك . وكنا نذبح كل يوم من أيام منى فنأخذ حاجتنا ليومنا ونتصدق بالباقي . وقد كانت الذبائح في السنين الخالية تزيد على حاجة أهل البلاد ومن حولهم من الاعراب لكثرتها وأما في هذا العام فهي لا تكاد تكفي فقراء الحرم

الحالة السياسية في الحجاز

في أواخر سنة ١٣٣٤

أتممنا بفضل الله مناسكنا ، فنحمد الله تعالى ونسأله ان يتقبل منا ، واذ فرغنا من حديث المناسك، فيحسن ان نتم فوائد هذه الرحلة بما يمكن بيانه الآن من أخبار الحجاز الاجتماعية والسياسية، التي تعد من أعظم الاحداث التاريخية، ثم ببعض الطرف الادبية، من المختارات الشعرية، ونبدأ بذكر انشاء الحكومة الجديدة في مكة المكرمة فنقول :

لما شعر بالاستعداد لتأليف هذه الحكومة أصحابنا اللاجئون اليها ، الذين يعدون من أصحاب الشأن أو العمل فيها ، اختلفت آراؤهم فيما ينتظر أن تكون عليه، وما ينبغي أن يكون مسلكهم في هذه الحال على كل تقدير يتصوره الذهن، وقد استحسنوا ان يجتمعوا ليلا ويكاشفوني بآرائهم ويتعرفوا رأيي «والمستشار مؤتمن» ففعلوا . ومما يعد من الغريب عند كثير من الناس ان ما كان يجول في أذهان أهل البلاد المختلفة بمكة في هذه المسألة هو عين ما كان يجول في أذهان أهل مصر من الآراء والظنون . ثم ماذا كان ؟

علمنا يوم الخميس سابع ذي الحجة انه قد تألفت فيها حكومة جديدة. على الوجه الذي نشر بعد الحج في العدد السابع عشر من جريدة القبلة بتاريخ ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٤ وهذا نصه:

(الحكومة العربية الجديدة)

« ما أزفت الساعة السادسة من نهار الخميس الماضي سابع ذي الحجة حتى اكتظت دار الحكومة بأكابر العرب وعليتهم انتظاراً لتشريف رجال الحكومة العربية الجديدة ولما كانت الساعة السابعة وصل صاحب السمو الامير عبد الله ومعه سائر الوكلاء فصدحت الموسيقى بالسلام الشريف وأخذت الجنود النظامية المرصوصة على جانبي الطريق السلام العسكري . ولما استقر بحضراتهم المكان في ندوة الحكومة قرئ المرسوم الشريف الصادر من جلالة سيدنا الملك المعظم الى حضرة العلامة المفضال الشيخ عبد الله سراج بتعيينه قاضياً للقضاة ووكيلا لرئاسة الوكلاء وتعيين زملائه حضرات الوكلاء العظام . وهذه صورة المرسوم الشريف :

﴿ المرسوم الشريف بتأليف هيئة الوكلاء ﴾

حضرة العالم الكامل الشيخ عبد الله سراج

انه لما كانت مصالح لرعايا وانتظام شؤون المجتمع وتوفر أسباب العمران لا بد لها من دواوين يتوزع عليها النظر في الحكومة وما هو في معنى ذلك من المصالح العامة والخاصة، ويتعين بها أساس الوظائف الذي تبنى عليه المسؤلية وتكوين حكومة لبلادنا المحروسة . وبالنظر الى ما تحققناه فيكم من الكفاءة والاستقامة ، عزمنا بعد الاستعانة بالله عز وجل على توجيه منصب قاضي القضاة لعهدتكم وتعيينكم وكيلا عن رئيس الوكلاء العظام ، وقد اخترنا لبقية الوكالات حضرات الذوات الآتية أسماؤهم، وهم ولدنا عبد الله بن الحسين لوكالة الخارجية ويكون وكيلا عن وكيل الداخلية، وعبد العزيز بن علي رئيس أركان حرب ووكيلا عن وكيل رياسة الجند مع ترفيع درجته عن رتبته الحاضرة، والشيخ علي مالكي وكيلا للمعارف والشيخ يوسف ابن سالم رئيس البلدية سابقاً وكيلا للمنافع العمومية ، والشيخ محمد أمين مدير الحرم الشريف سابقاً وكيلا للاوقاف مع بقائه في نظارة أمور الحرم وكل يتعلق بوظيفته الشريفة، والشيخ أحمد بن عبد لرحمن باناجه وكيلا للمالية . وذلك لما توسمناه من درايتهم واستعدادهم للسهر على مصالح البلاد وأهلها على ما يرضي الله ، واننا ننتظر منكم المبادرة الى تأسيس الدوائر والدواوين لرسمية وتعيين العمال والموظفين لها وأرجو الله سبحانه أن يجعلنا مظهر توفيقه وهداه ، في كل ما يحبه يرضاه

في ٧ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٣٤ هـ شريف مكة وأميرها

حسين

ثم تلي مرسوم شريف آخر بتأليف مجلس الشيوخ الاعلى وهذا نصه :

﴿ المرسوم الشريف بتأسيس مجلس الشيوخ الأعلى ﴾

وكيل رئيس الوكلاء وقاضي القضاة مولانا وفقه الله

بما أننا قد استنسبنا تعيين هيئة أطلقنا عليها اسم (مجلس الشيوخ) وجعلنا وظيفة هذا المجلس النظر في كل ما يتعلق بمنافع البلاد والمراقبة على أعمال الدواوين

والدوائر الرسمية وإبداء الرأي فيما تعرضه الدوائر على مقام وكيل رئيس الوكلاء وسيقرر فيما بعد صلاحية هذا المجلس العالي ، فقد جعلنا رئيساً له جناب الفاضل الاجل فاتح بيت الله الحرام الشيخ محمد صالح الشبيبي . وأعضاءه حضرات الافاضل الاجلاء مفتي الشافعية السيد عبد الله بن محمد صالح لزواوي ومفتي المالكية الشيخ عابد بن حسين والشيخ عبد القادر بن علي الشبيبي ونائب الحرم السيد ابراهيم بن علي ووكيل شيخ السادة السيد محمد بن علوي السقاف والشيخ عبدالله علي رضا والشيخ علي بن عبدالله الشرباصي والشيخ أبو بكر بن محمد خوقير وذوي السيادة والشرف حمزة بن عبد الله الفعر وفتن بن محسن وسليمان بن أحمد بن سعيد وناصر ابن شكر ولتبليغهم ماذكر اقتضى تحريره ما

في ٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٤

اه مانقل عن جريدة القبلة

شريف مكة وأميرها

حسين

ولما علم الناس بتأليف الحكومة الجديدة كان حديثها شغلهم الشاغل وكانوا ينتظرون أن يسمعوا يوم الجمعة ثامن الشهر شيئا جديدا في تعيين شكلها، واستحسن بعض الاخوان الذين رأوا مارأوا من اكرام الامير مثواي أن أطلب التشرف بمقابلة خاصة أتوسل بها الى عرض ماعرفوا وحمدوا من رأيي في شكل هذه الحكومة ففعلت، نالت الحظوة في أول الليل على سطح في أحد جوانب قصر الامارة، وتوسلت بذكرماتم من تأليف مجلس الوكلاء الى السؤال عن شكل الحكومة كيف يكون ؟ فتفضل الامير بتواضعه المعهود قائلا : هذا مانحب ان نأخذ رأيكم فيه فذكرت رأيي مفصلا تفصيلا، ولكنني لم أسمع كلمة ولا رأيت اشارة تدل على استحسان ولا على انكار ، ثم استأذنت وانصرفت،

قلت ان جمهور الناس من المكيين والحجاج كانوا ينتظرون أن يسمعوا يوم الجمعة شيئا جديدا فلم يسمعوا ، وكان من صلى الجمعة في المسجد الحرام من المصريين على مقربة من المنبر يلقون السمع الى الخطيب عند الدعاء، فسمعوه بآذانهم يدعو للسلطان محمد رشاد ، وخرج الناس من المسجد الحرام ، ولم يقع ماكانوا يتوقعون من المبايعة بالخلافة بين الركن والمقام ، فزال بذلك مازال من الظنون والاوهام .

ثم عاد الناس الى الحديث في هذه المسألة في مساء يوم العيد بمنى وأشيع ان

المبايعة يحتمل أن تكون ضحوة غد في أثناء الاحتفال المعتاد في سرادق الامير ، ذلك بأن العادة قد مضت بأن تكون ضحوة اليوم الاول من أيام منى موعد تهنئة الامير الشريف بالعيد واتمام المناسك فكان يحضر لديه والي الحجاز وقائد الجند فيه وأمير الحج الشامي والمصري وكبار الشرفاء والعلماء وكبراء رجال الحكومة ووجهاء مكة المكرمة والحجاج و يتلى الفرمان السلطاني الذي يعهد فيه الى الشريف بالنظر في شؤون إقامة الحج وحفظه في الحجاز ... و يخلع الوالي على الامير الخلعة السلطانية .

ولما أشيع ما أشيع جاءني أولئك الاصحاب ليلا للمذاكرة في الامر و بعد طول التشاور فيه اقترحوا عليّ أن أذهب الى مخيم الامارة لاكتشاف الحقيقة إذ قيل ان جمهور رجال الحكومة الجديدة وشرفاء مكة ووجهاءها يرون وجوب المبايعة بالخلافة وإن سيدنا الامير مخالف لهم في ذلك و يرى ترك ذلك الى جماعة المسلمين في سائر الاقطار ، وقد بين هذا المعنى بعد ذلك في بعض المنشورات الهاشمية . ولما كان منزلنا بعيدا عن مخيم الامارة وكان الاخوان يعلمون ان الامير لا يسهر كثيرا جاؤني بجواد كريم فركبته وأسرعت الى السرادق الخاص فقيل لي إن سيدنا قد نام ، وسألت عن نجله الامير عبد الله فقيل انه قد نام أيضا ، فعدت أدراجي الى اخواني فأخبرتهم بذلك وانصرفنا الى مضاجعنا .

بت ليلتي أفكر في هذه المسألة ، ولم يبق لي من أعمال النسك ما يشغل قلبي عنها ، وكان رأيي في مسألة الخلافة هو ما قيل لي في هذه الليلة عن رأي الامير دون من حوله ، وقد أكبرته لذلك ، وكان أعجبني من منشوريه الاولين جعل عداوته لفئة الاتحاديين المتغلبة لا للشعب التركي ولا للدولة العثمانية أيضا — وكذلك كانت الثورة في أول عهدها — وكنت أرى ان مبارزته العداوة للفئة المتغلبة قد يقف بغي زعمائها على العرب عند حد ما اجترح جمال باشا من الموبقات التي هي شر لدولته وكذا لجمعيته لا خير لهما كما توهم ، وان نفع الحركة الحجازية ، محصور في هذه الفائدة المرجوة ، وفي إغاثة جيران بيت الله من المجاعة والهلكة المخيفة ، وفي الاحتياط لما يجب اذا سقطت الدولة ، وأرى انه يجب السعي لتحقيق ذلك بدون ارتكاب إثم يربي شره على خيره ، وكنت أشرت الى رأيي هذا والى حسن ظني في الامير الشريف في مقال المحاورة الذي نشر في المنار قبل الحج وقبل العزم عليه ذلك ما بت أفكر فيه ، ولما أصبحنا أسرع الناس الى مكان الاحتفال مشرقين

وتأخرت الى الضحوة الكبرى فألفيت سرادق الامارة غاصا بالناس وكذا الفجوة التي أمامه ولو لم يرني بعض من يعرفني هنالك لما تيسر لي اختراق ذلك الجمع الكثيف، والنفوذ الى المجلس الهاشمي الشريف ، ولكن آتي من فرج لي فرجة بين الناس دخلت منها الى أن بلغت الحلقة الكبيرة وجلست على كرسي أخلي لي فيها، وكان الناس من مصريين ومكيين قد شرعوا في إلقاء الخطب والقصائد في التهاني والادعية، فرأيت أن ألقي خطبة في بيان الحقيقة التي عرفتها بالبحث والاختبار ، والآراء التي أنتجتها تلك الافكار، أشير فيها الى آراء الناس من الحجازيين والآفاقيين وكنت قد بلوت أخبارهم ، واكتنهت معرفتهم وانكارهم، وأذكر ما لدي من الرأي في المسألة الحجازية وما يشترط في ذلك بقدر ما يسعه المقام، فلما فرغ من كان يتكلم قبل مجيئي استأذنت فأذن لي فقمت وقلت ما ملخصه كما نشر في جريدة القبلة

وكل ما يوضع فيما بين الاهلة هكذا ( ) فهو من قبل جريدة القبلة كما هو ظاهر الا الآيتين الكريمتين : في أولها فهما من أصل الخطبة

خطبتنا السياسية في منى

أيها المسلمون الكرام ، من سكان حرم الله وحجاج بيته الحرام ، انكم تعلمون أن الاسلام دين سيادة وسلطة ، وأن شريعته أنزلت ليقيم أحكامها أهله ، لقوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم) على التأويل المشهور للآية وتعلمون أن الله تعالى قد جعل هذا الدين عربيا اذ أنزل القرآن الذي هو أصله وأساسه باللغة العربية على لسان النبي الامي العربي محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقد بين الله تعالى ذلك بقوله (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) فهذه الآية أخص من الآيات الناطقة بانزال القرآن عربيا، لانها مصرحة بأن حكم هذا الدين عربي ، مع العلم بأن كتابه المتعبد به عربي . وهذه البلاد العربية هي مهد هذا الدين ومهبط وحيه ومشرق نوره، وكان أهلها هم السابقين الى تلقيه والاهتداء به، ثم تبعهم فيه غيرهم من عرب الحجاز فسائر هذه الجزيرة العربية . ثم حمله العرب الى سائر الاقطار ونشروه فيها ، فامتد في الجيل الاول منهم حتى عم نوره الشرق والغرب ، وأروا

الامم باقامة أحكامه من العدل والرحمة ما لم يعرفوا ولم يسمعوا له نظيرا كما اعترف بذلك المنصفون من الافرنج وغيرهم

ثم طرأ الضعف على السلطة الاسلامية بتفرق الوحدة العربية الكافلة لها، وتغلغل الاعاجم في الدول الاسلامية التي تعددت بسبب ضعف سلطة الخلافة . فبعد ان كانت الفتوحات الاسلامية في مد لاجزر معه، صارت دول الطوائف الاسلامية بين مد وجزر، وقوة وضعف، حتى وصلت الدولة العثمانية منها الى درجة عالية، ومكانة سامية، من القوة الحربية وسعة الفتح والتغلب، فسر بها المسلمون ورضي بعض حكامهم المستقلين بسيادتها طوعا واختيارا، كما دخل بعضهم تحتها اضطرارا، وقد كان امراء مكة العظام أهل بيت سيدنا هذا (وأشار الخطيب الى جلالة مولانا الامير) في مقدمة من أيد هذه الدولة واعترفوا بسلطتها وسيادتها، لاجل جمع كلمة المسلمين بها واعلاء شأن الشريعة الاسلامية بنفوذها (هنا قال جلالة سيدنا للخطيب صدقت)

ثم ان هذه الدولة قد سرى اليها الضعف ودب اليها الوهن من زهاء ثلاثة قرون. واني أذكر لكم بعض الشواهد على ذلك من تاريخها الرسمي منذ مئة سنة ونيف

ان محمد علي باشا الذي كان واليا للدولة على مصر قد زحف لى سورية ففتحها، ثم على الاناضول فتوغل فيها، ولولا أن الدولة الانكليزية أكرهته على الرجوع الى مصر لاستولى على بلاد الدولة كلها . وكان ذلك على عهد السلطان محمود الذي كان يعد مصلحا في الدولة ومجددا لها بقضائه على عسكر الانكشارية المختل وادخاله نظام الجندية الاوربي في الدولة

تولى السلطان محمود السلطنة في سنة ١٢٢٣ وتوفي سنة ١٢٥٥ فخلفه السلطان عبد المجيد الذي صرح في خطابه عند اعلان « التنظيمات الخيرية » في كلخانة بأن الضعف والخلل قد طرأ على الدولة منذ ١٥٠ سنة وأنه لا بد من تلافي خطر ذلك بالنظام الذي أعلنه بتدبير أساطين الدولة في عهده . ولكن ذلك النظام لم يعد لى الدولة قوتها، ولا أنقذها من الخطر الذي كان يخشى عليها. ودليل ذلك أن أركان الدولة قد خلعوا أخاه السلطان عبد العزيز الذي خلفه سنة ١٢٧٧ وقتلوه أو ألجأوه الى بخع نفسه بيده سنة ١٢٩٣ بحجة أن استبداده كان حائلا دون اصلاح الدولة وتجديد شبابها . وولوا بعده السلطان مرادا لم يلبثوا أن خلعوه في تلك السنة وولوا

بعده السلطان عبد الحميد الذي كان عاهدهم على العمل بالقانون الاساسي الذي قلدوا فيه الدول الاوروبية ظنا منهم بأنهم لا يعتزون الا بما اعتزت به من الحكم النيابي

وأما سيرة السلطان عبد الحميد فهي معروفة عندكم لان العهد بها قريب ، وقد خلعته جمعية الاتحاد والترقي بقوة جند الدولة واعتقلته، وتولت الجمعية السيطرة على الدولة بعده ، فماذا كان من أمرها ؟ هل كانت خيرا من أولئك السلاطين العظام الذين لم يقدروا أن يصلحوا ملكهم الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ؟ كلا ان زعماء هذه الجمعية الذين غلبوا الدولة على أمرها هم أو شاب من الملاحدة المارقين قد وصلوا الى ما وصلوا اليه بكيد يهود سلانيك وشركاؤهم في النمسة وألمانية أقوى أنصارهم ولذلك نرى أكبرهم جمع المال . فلا هم على دين هذه الدولة فيغاروا عليه ، بل هم يقاومونه ويهدمونه ، ولا هم من أصل راسخ فيها فيكونوا أحرص على حياتها من أبناء سلاطينها وأساطينها

واذا نظرنا الى أعمالهم دون عقيدتهم وآرائهم نرى أنهم قد فعلوا في الدولة من الافساد والتخريب ما لم يفعله غيرهم فيها منذ أصيبت بالضعف الى أن أصيبت بهم

ثبت أنهم أخذوا من مال الدولة لنظارة الحربية خمسين مليون جنيه ليجددوا قوتها العسكرية ، ثم رأينا دولة البلغار — التي كانت ولاية من ولايات الدولة ولم يتم لها الاستقلال الا في عهدهم — قد كسرت جيوش الدولة وكادت مدافعها في محطالجه تمزق مسامع أهل الآستانة . وكان السبب الحسي لذلك قلة ما عند الجيش العثماني من المؤنة والذخيرة والدواب وسائر أسباب الحرب

وقد خسرت الدولة في عهدهم المشؤم من الممالك مالم تخسر مثله في عدة أجيال : خسرت البوسنه والهرسك بيع الجمعية اياهما للنمسة، وطرابلس الغرب وبرقة بيعها اياهما لإيطالية ، ومكدونية وألبانية وكريت وجزائر الارخبيل، ونسكت عما خسرته في هذه الحرب من الولايات — فقد أضاعوا نصف الدولة في بضع سنين، وحملوها فيها من أثقال الديون ما لم تحمل مثله قبلهم في بضعة قرون . ثم عمدوا الى الامة ، فأفقروها كما أفقروا الدولة . فهذا هو الاصلاح الذي خلعوا لاجل القيام به سلطان الدولة وخليفتها عبد الحميد وحجروا على خلفه من بعده

فيا أيها المسلمون الغيورون المبصرون ! اذا كان قد ثبت من تاريخ الدولة الرسمي بما ذكرته لكم من شواهده أنها كانت ضعيفة يخشى عليها الزوال قبل هذه الارزاء والمصائب التي منيت بها بشؤم هذه الجمعية ، فكيف يكون حالها الآن وقد اصطلت بنار هذه الحرب ، وتعرضت لعداوة أكبر دول الارض ؟

ان سواد المسلمين الاعظم يغارون على هذه الدولة و يتمنون لها دوام الاستقلال وكمال القوة للسبب الذي بيناه في فاتحة الكلام، ولكن يقل في المسلمين من يعرف حقيقة حالها وكنه الخطر الحائق بها . و يقل فيمن يعرف ذلك من يسعى لتدارك ما يترتب على هذا الخطر اذا وقع من فقد الاسلام لما بقي من أحكام شريعته ، وحرمان المسلمين من آخر ما كان لهم من الاستقلال السياسي على علاته

لم نر أحدا من زعماء المسلمين وكبرائهم قدر الحال الخطرة التي وصل اليها الاسلام قدرها وانبرى لتداركها الا هذا الرجل العظيم — أمير مكة وشريفها — فانه أى أن الدولة — وهو من أعلم أهلها بحالها — قد أمست على شفا جرف ، وأن ملاحدة الاتحاديين قد اتخذوا الاحكام العرفية والقوة العسكرية ذريعة للتنكيل بالامة العربية بتقتيل رجال الفكر والعمل ومصادرة أموال أهل الثروة منها حتى لا يبقى فيها رجاء في عامل ولا في عمل ، فانتدب لتدارك الخطب ومصارعة الخطر بنفسه الكريمة وأنفس أنجاله النجباء . ولو استطاع أن ينقذ الدولة نفسها من الخطر لفعل ، ولو بذل في ذلك دمه ودم هؤلاء الانجال الكرام (هنا قال الامير حفظه الله تعالى للخطيب صدقت)

لكن العمل لانقاذ الدولة نفسها من الخطر قد أصبح فوق طاقته وطاقة غيره (... صدقت) فرأى أن يبدأ بالمستطاع وهو انقاذ الحجاز مهد الاسلام ومشرق نوره مما نزل به من البلاء والشقاء ، ثم انقاذ غيره مما يمكن انقاذه من البلاد العربية ، ليكون ذلك بيئة لحفظ الاستقلال الاسلامي وعدم زواله بما يخشى و يتوقع أن يحل بالدولة العثمانية والعياذ بالله تعالى (... صدقت)

لا يخفى على ذي بصيرة ان الاتحاديين ماحشروا الالوف من جيوشهم في الحجاز الا بنية سيئة لانهم يعلمون كما نعلم أن أعداءهم الحلفاء لا يحاولون الاستيلاء على الحجاز ولا يحاربون أهله ، فكان من المعقول ان يرسلوا تلك الجيوش الى قتال

أعدائهم الروس وانقاذ ما فتحوه من الولايات التركية ، ولكن التنكيل بالعرب أهم عندهم من دفع الروس عن عقر دارهم . ولو تم لهم ما أرادوا لرأينا من فظائعهم في الحجاز ما هو أشد من فظائعهم في الشام (... صدقت)

نعم ان الحلفاء لا يحار بون الحجاز ولكن وجود الجيوش الاتحادية فيه ألجأهم الى ضرب الحصر البحري على ثغوره فضاقت المعيشة على أهله حتى باعوا حليهم وأثاثهم وأبواب بيوتهم وخشب سقفها ولو طال عليهم أمد ذلك سنة أخرى لا كلتهم المجاعة وما يتبعها عادة من الاوبئة (... صدقت)

أعلن سيدنا هذا استقلال العرب في الحجاز — والحاجة قد اشتدت اليه حتى وصلت الى حد الضرورة - وما كان ليوجد في الامة العربية ولا الامة الاسلامية كلها من آتاه الله من البصيرة والشجاعة والثقة بالله والتوكل عليه ما ينهض به للقيام بهذا العبء العظيم ، ولولا ثقته بالله وتوكله عليه لما تجرأ على ذلك لاننا كنا نعلم أنه لا يوجد في الحجاز قوة عسكرية ولا ثروة مالية يعتمد عليها في مثل هذا العمل (تصديق ..)

كلنا نعلم انه لا يوجد في الدنيا كلها مكان يصلح لتأسيس دولة اسلامية تخلف الدولة العثمانية اذا وقع بها ما نخشاه عليها الا جزيرة العرب وما يتصل بها من البلاد العربية لما خص الله تعالى به هذه البقعة وأهلها من الخصائص ، ولا يعقل ان يحفظ استقلال الاسلام في مثل بلاد الافغان إن هو زال من مهده وموطن نشأته ومحل اقامة شعائره . انفردت هذه البقاع الطاهرة المقدسة بأنها أجدر بقاع العالم الاسلامي لاقامة استقلاله . وكذلك انفرد سيدها وأميرها في هذا العصر بالنهوض بما يجب من العمل والاستعداد لتجديد هذا الاستقلال . فكان له بعمله أكبر منة في اعناق أهل هذه البلاد وفي اعناق جميع المسلمين الذين يشعرون بأن أمر هذا الاستقلال هو أهم المصالح العامة الدينية والاجتماعية . ولكن منهم من فقد هذا الشعور

أيها الحجازيون ان من يكفر منكم لهذا الرجل المصلح المنقذ هذه النعمة فهو أكفر الناس للنعم . أيها المسلمون يجب ان تعلموا ان هذا العمل أعظم خدمة للاسلام في هذا الزمن . فان الدولة العثمانية ان سلمت من السقوط وحفظ استقلالها لم يكن استقلال العرب في الحجاز وغيره مانعا من ذلك ولا من تعاضد العرب والترك مع

حفظ حقوق كل منهم . وان سقطت وفقدت استقلالها لم يكن هذا الاستقلال هو السبب فيه ولكنه يكون سببا لحفظ استقلال الحكم الاسلامي في أشرف بقاع الاسلام، بل لايغيب عن أذهانكم انه لولا اعلان هذا الاستقلال لترتب على سقوط الدولة العثمانية وقوع حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم غنيمة في أيدي الدول الفاتحة . فان تركوهما بعد ذلك لنا كان لهم منة التصدق بهما علينا . والا كانا تحت سيادتهم والعياذ بالله تعالى . وبهذا يتبين لكم ان هذا العمل العظيم ، الذي قام به هذا الزعيم العظيم ، قد أنقذ الحرمين الشريفين وما حولهما من هذا الخطر الجسيم . ووضع أقوى أساس لحفظ الاستقلال الاسلامي بانشاء دولة جديدة له . فله بهذا أكبر منة على جميع المسلمين . وما أقول هذا تملقا له ولا مدحا شعريا، وانما هو الحقيقة البيضاء الناصعة بينتها لكم بالايجاز الذي يحتمله المقام والسلام اه الخطبة

قالت جريدة القبلة معقبة على هذه الخطبة ، : « وبعد أن جلس (أي الخطيب) أثنى عليه جلالة سيدنا أيده الله بروح من عنده وقال للناس انه لم يره الا منذ أيام قليلة » ونزيد عليها أنه قد صرح بأنني عبرت في المسألة عن فكره ورأيه ولم يسبق له مكاشفتي به وانه لم يرني الا منذ أيام قليلة، وهو صادق فيما قال ، وانني ما كنت أرجو أن يرضيه خطابي إلا من باب حسن الظن فيه الذي استنبطته مما كنت أعلم من سوء نية جمال باشا وأعوانه، ومن منشوريه الدالين على قيامه بما قام به في الحجاز لاجل الداعية التي وصلت الى حد الاضطرار ، وانها ضرورة تقدر بقدرها ، وهذا هو الحكم الشرعي في مثلها ، وقد جعلتها مقدمة للسعي الى ذلك .

وأقول ان وقع الخطبة قد كان حسنا في سمع الجمهور ، وكانت موضع حديث الناس وثنائهم ، حدثني بذلك الكثيرون في منى ثم في مكة ، وقد علمت أنها جمعت بين إرضاء الفريقين المتعارضين في الرأي — فريق المتشائمين من ثورة الحجاز الخائفين ان تكون سببا لضعف الدولة العثمانية وزوالها ، على حين لا استعداد لانشاء دولة اسلامية تحل محلها ، وفريق المتفائلين الذين يرجون ان تكون مبدأ دولة عربية مستقلة تحيا بها حضارة العرب الزاهية الزاهرة ، حتى ان أصحاب فكرة المبايعة كانوا يرجون عند سماع الخطبة ان تكون مقدمة للمبايعة .

زارني بعد نزولنا من منى الى مكة الشيخ عبد الملك الخطيب أحد أدباء مكة المقربين من الحضرة الهاشمية – وقد تقدم ذكره في هذه الرحلة – فكان جل حديثه الثناء على الخطبة، وقال انني كنت في الحضرة الهاشمية أذكر محاسنها وأنوه بها وان سيدنا وافقني على ذلك وساهمني فيه، ثم ذكر انه كان ينقصها شيء واحد، قلت بل ينقصها عندي أشياء ولكن الوقت لم يكن يتسع لا كثر مما قيل، قال: لم أعن ان في الخطبة نفسها نقصا بل هي كاملة، وانما كان ينقصها ان تكون مقدمة للمبايعة، فلو انك بعد إتمامها مددت يدك وبايعت سيدنا لاتبعك الناس وكان أمرا مفعولا، قلت ان هذا ليس من رأيي ولا من حقي، وما يؤمنني ان يقال لي ما قيل لذلك الشاعر الذي قال

وخذا النوم من عيوني فاني قد خلعت الكرى على العشاق

فقيل له خلعت مالا تملك على من لا يقبل؟ وبهذا حوت لمباحثة السياسية إلى مفاكهة أدبية

هذا – وانني قد تشرفت بعد ذلك بحديث مع الحضرة الهاشمية في موضوع الخطبة، فكان مما قال الامير ان المسألة الجوهرية في الخطبة هي ان الدولة العثمانية على خطر وأنا موافق لك على هذا الرأي من قبل الحركة ولكن أكثر الناس أو المسلمين لا يعقلون ذلك. وقد عرضت عليه في هذه الجلسة شيئا من خلاصة رأيي في المسألة العربية، وما يجب اتخاذه من الاحتياط في مسألة الدولة على الوجه الذي أشرت اليه في خاتمة الخطبة، فأظهر لي الاستحسان، وأحال على لزمان، وقراء المنار يعرفون رأيي مما بسطته في المقالة التاريخية (المسألة العربية) التي نشرتها في الجزء الاول من المجلد العشرين، ومنه ان الثورة الحجازية قد أدت وظيفتها، وأفادت ما رجوناه منها، فأنقذ الحجاز، وأوقفت بغي البغاة، وأحمد الله انني كنت أسعى الى تنفيذ هذه المقاصد على تلك القواعد، وانني الآن معتزل لاعمال السياسة وأهلها، منتظر حكم العزيز الحكيم في أمر أمتي والشعوب كلها.

﴿ ترجمة الشيخ سليم البشري ﴾

بقي مما ينبغي أن يذكر في ترجمته ما انفرد به دون أمثاله من شيوخ الازهر كاشكاره كتابة على الدولة العثمانية الفتك بالارمن في أطنة — وكرئاسته لاحتفال اللجنة السورية التي عقدت في دار التمثيل الاميرية لاعانة طلبة العلم السوريين في الازهر — تلك اللجنة التي قال في حمدها بحق انها مسيحية ليس فيها الا مسلم واحد تسمى لاعانة مسلمين ليس فيهم نصراني واحد — وغير ذلك من الامور المدنية العصرية، ولم يتيسر لناجع ما كتب في ذلك بوقته من الجرائد، ولم يذكره أحد في ترجمته

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

٢٩ جمادى الآخرة ١٣٣٦ — ٢١ الحمل (ر ١) ١٢٩٦ هـ ش ١١ إبريل ١٩١٨

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

﴿ واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة (قل أندعو من دون الله) وما في حيزها [وهو آخر حجاج للمشركين في العقائد مبدوء بالامر القولي . وسيعاد هذا الاسلوب في السورة حجاجا في الاحكام العملية أيضا] والظرف فيها متعلق بفعل عهد حذفه تقديره اذكر ، أي واذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين لقنك ما تقدم من الحجج على بطلان شركهم ، وضلالهم في عبادة ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ومن بيان هدى الله تعالى والاسلام له — اذكر لهم عقب هذا — قصة ابراهيم جدهم الذي يجلونه ويدعون اتباع ملته حين قال لأبيه آزر منكرا عليه وعلى قومه شركهم : أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذي خلقك وخلقها ، وهو المستحق للعبادة من دونها ؟ ﴿ إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ . الضلال العدول عن الطريق الموصل الى الغاية التي يطلبها العاقل من سيره الحسي أو المعنوي . وغاية الدين تزكية النفس بمعرفة الله وعبادته وما شرعه من الاعمال

والآداب للفوز بسعادة الدارين، وعبادة غير الله تعالى ولو بقصد التقرب اليه مدسٍّ للنفس مفسد لها فلا يوصلها الا الى الهلاك الابدي، والتعبير عنها بالضلال ليس فيه سب ولا جفاء ولا غلظة كما زعم من استشكله من الولد للوالد وقابله بأمر الله تعالى لموسى وهارون أن يقولا لفرعون قولا لينا. وأجاب عنه بأنه حسن للمصلحة كالشدة في تربية الاولاد أحيانا، ومن استدل به على ان آزر كان عم ابراهيم لا والده والصواب أن التعبير بالضلال البين هنا بيان للواقع باللفظ الذي يدل عليه لغة كقوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) وكقولك لمن تراه منحرفا عن الطريق الحسي: إن الطريق من هنا فأنت حائد أو ضال عنه. ومعنى قول ابراهيم لأبيه: إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الاصنام مثلك في ضلال عن صراط الحق المستقيم بين ظاهر لا شبهة فيه، فان هذه الاصنام التي اتخذتموها الهة لكم، لم تكن آلهة في نفسها بل باتخاذكم وجعلكم، واسمٌ من خلقها وصنعها بل هي من صنعكم، ولا تقدر على نفعكم ولا ضركم، وذلك انها كانت تماثيل ينحتونها من الحجارة أو يقتطعونها من الخشب أو يصوغونها من المعدن فهم أفضل منها، ومساوون في أصل الخلقة لمن جعلت ممثلة لهم من الناس، أو لما صنعت مذكرة به من النيرات، ولا يليق بالانسان ان يعبد ما هو دونه ولا ما هو مساوٍ له في كونه مخلوقا مقهورا بتصرف الخالق، ومربوبا فقيرا محتاجا الى الرب الغني القادر. وقد دلت آثار أولئك القوم التي اكتشفت في العراق على صحة ما عرف في التاريخ من عبادتهم للاصنام الكثيرة حتى كان يكون لكل منهم صنم خاص به سواء الملوك والسوقة في ذلك، وكانوا يعبدون الفلك ونيراته عامة، والدراري السبع خاصة، كما يعلم من قوله تعالى:

﴿ وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والارض ﴾ أي وكما أرينا ابراهيم الحق في أمر أبيه وقومه وهو انهم كانوا على ضلال بين في عبادتهم للاصنام كنا نريه المرة بعد المرة ملكوت السماوات والارض، على هذه الطريقة التي يعرف بها الحق، فهي رؤية بصرية، تتبعها رؤية البصيرة العقلية، وانما قال نريه دون أريناه لاستحضار صورة الحال الماضية التي كانت تتجدد وتتكرر بتجدد رؤية آياته تعالى في ذلك الملكوت العظيم كما يعلم من التعليل الآتي، والتفصيل المترتب على هذا الاجمال في

الآيات . والملكوت المملكة أو الملك العظيم والعز والسلطان ، وإطلاق الصوفية إياه على عالم الغيب اصطلاح . قال في اللسان : وُملك الله تعالى وملكوته سلطانه وعظمته ، ولفلان ملكوت العراق أي عزه وسلطانه وملكه . عن اللحياني . والملكوت من الملك كالرهبوت من الرهبة ويقال للملكوت مَلَكُوة (كنرقوة) اه وقال الراغب والملكوت مختص بملك الله تعالى وهو مصدر ملك أدخلت فيه التاء نحو رحموت ورهبوت اه وصرح بعضهم بأن هذه التاء للمبالغة على قاعدة زيادة المبنى لزيادة المعنى ، فالملكوت الملك العظيم والرحموت الرحمة الواسعة والرهبوت الرهبة الشديدة .

وروي عن عكرمة ان كلمة ملكوت نبطية وأصلها بلسانهم ملكوتا . وفي كتب اللغة أن النبط والانباط جيل من الناس يسكنون البطائح وغيرها من سواد العراق ، فهم بقايا قوم ابراهيم في وطنه الاصلي اذا كانت سلسلة نسبهم محفوظة ، ويقول المؤرخون انهم من بقايا العمالقة وانهم هاجروا من العراق بعد سقوط دولة الحميريين وتفرقوا في جزيرة العرب ثم انشأوا دولة في الشمال منها . وقد روي عن علي وابن عباس (رض) ان كلا منهما قال : اننا نبط من كوثي . وكوثي بلد إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم كما يحفظ عن العرب . ومراد الحبرين ان بني هاشم من ذرية ابراهيم وان النبط من قومه ، وفيه انكار احتقارهم لنسبهم أو ضعف لغتهم ، وقيل إن مرادهما به التواضع وذم التفاخر بالانساب . وروي عن ابن عباس ان المراد بملكوت السماوات والارض خلقهما أي كقوله تعالى (أولم ينظروا في ملكوت السماوات والارض وما خلق الله من شيء) وعن مجاهد انه آياتهما ، وعنهما وعن قتادة انه الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والبحار ، وعن مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والسدي ان الله تعالى أراه ما وراء مسارح الابصار من السماوات والارض حتى انتهى بصره الى العرش ، وزاد بعضهم انه أراه خفايا أعمال العباد ومعاصيهم . وليس لهذه الاقوال الاخيرة حجة من الحديث المرفوع وانما استنبطوها فيما يظهر من اسناد الإراءة الى الله عز وجل ، فانه يدل على عناية خاصة ، واختار ابن جرير مما رواه من تلك الاقوال أنه تعالى أراه من ملكوت السموات والارض مافيهما من الشمس والقمر والشجر والدواب وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما وجلى له بواطن الامور وظواهرها ،

ويتحقق ذلك بهدايته إياه الى وجوه الحجة فيها على وحدانيته تعالى وقدرته ، وعلمه وحكمته ، وفضله ورحمته ، ويدل على ذلك تعليل الاراءة ، وما يترتب عليها من اقامة الحجة

أما التعليل فقوله تعالى ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ قيل ان المعنى ولاجل ان يكون من أهل اليقين الراسخين فيه أريناه ما أرينا ، وبصرناه من أسرار الملكوت ما بصرنا ، وقيل ان هذا عطف على تعليل حذف لتغوص الاذهان على استخراجه من قرائن الحال ، وأسلوب المقال ، أي نريه ذلك ليعرف سننا في خلقنا ، وحكمنا في تدبير ملكنا ، وآياتنا الدالة على ربوبيتنا وألوهيتنا ، ليقيم بها الحجة على المشركين الضالين ، وليكون في خاصة نفسه من الواقفين على عين اليقين ، وهو من الايجاز البديع ، واليقين في اللغة الاعتقاد الجازم المبني على الامارات والدلائل والاستنباط دون الحس والضرورة . وقال الراغب هو سكون الفهم ، مع ثبات الحكم ، وانه من صفة العلم فوق المعرفة والدراية . وبذلك جمع ابراهيم بين العلم النظري والعلم اللدني.

وأما ما يترتب على ذلك من الاهتداء الى وجه الحجة والاستدلال فقوله عز وجل ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ﴾ الخ قال الراغب أصل الجَنّ ستر الشيء عن الحاسة يقال جنه الليل وأجنه وأجن عليه فجنه ستره . وأجنه جعل له ما يجنه كقولك قبرته وأقبرته وسقيته وأسقيته ، وجن عليه كذا ستر عليه اه ومنه الجن والجنة بالكسر والجنة بالضم وهي الترس يستر به ما يحاول العدو ضربه من الوجه والرأس وغيرهما ، والجنة بالفتح وهي البستان الذي يستر الشجر أرضه من الشمس . والكوكب والكوكبة واحد الكواكب وهي النجوم والفلكيون يطلقون المؤنث على المجموعة المعينة منها والعرب تطلقه على الزهرة كما غلب اطلاق النجم معرَّفا على الثريا ، ولم ينقل الينا تأنيث النجم والعامة تقول نجمة .

والمعنى ان الله تعالى بدأ يريه ملكوت السموات الارض تلك الاراءة التي علمها بما تقدم آنفا ، فكان من أول أمره في ذلك انه لما أظلم عليه الليل ، وستره أو ستر عنه ما حوله عن عالم الارض ، نظر في ملكوت السماء فرأى كوكبا عظيما ممتازا على سائر الكواكب باشراقه وجذب النظر اليه — يدل على ذلك تنكير الكوكب — وقد روي عن ابن عباس انه المشتري الذي هو أعظم آلهة بعض عباد الكواكب من قدماء اليونان والروم وكان

قوم ابراهيم سلفهم وأئمتهم في هذه العبادة ، وعن قتادة أنه الزهرة . فماذا قال لما رآه؟

﴿قال هذا ربي﴾ أي مولاي ومدبر أمري قيل انه قال ذلك في مقام النظر والاستدلال لنفسه ، وقيل في مقام المناظرة والحجاج لقومه ، واعتمد من قال بالاول على ما روي في التفسير المأثور من عبادته عليه الصلاة والسلام لهذه الكواكب في صغره اتباعا لقومه حتى أراه الله تعالى حجته بعد كمال التميز على بطلان عبادتها ، والاستدلال بأفولها وغير ذلك من صفاتها على توحيد خالقها ، وان ذلك كله كان قبل النبوة ودعوتها . ومنه قصة طويلة مروية عن محمد بن اسحق فيها ان ابراهيم (ص) ولدته أمه في مغارة أخفته فيها خوفا عليه من ملكهم نمرود بن كنعان ان يقتله اذ كان أخبره المنجمون بأن سيولد في قريته غلام يفارق دينهم و يكسر أصنامهم فشرع يذبح كل غلام ولد في الشهر الذي وصف أصحاب النجوم من السنة التي عينوا ، وفيها ان ابراهيم كان يشب في اليوم كما يشب غيره في شهر وفي الشهر كما يشب غيره في سنة وانه طلب من أمه بعد خمسة عشر يوما من ولادته أن تخرجه من المغارة فأخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والارض — وذكر رؤيته للكوكب فالقمر فالشمس ... ولاشك في أن هذه القصة موضوعة لهذه المسألة وان ابن اسحق أخذها عن بعض اليهود الذين كانوا يلقنون المسلمين أمثال هذه القصص ليلبسوا عليهم دينهم فتبطل ثقة يهود وغيرها بهم . وروى نحوه أبو حاتم عن السدي . والسدي المفسر كذاب معروف كما قال علماء الحديث واسمه محمد بن مروان . وأما ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس من تفسير « هذا ربي » بالعبادة فلا يصح وهو من مراسيل علي بن طلحة مولى بني العباس وقد روى عن ابن عباس تفسيرا كثيرا ولم يره وقال فيه أحمد ابن حنبل له أشياء منكرات . وقال الحافظ في تهذيب التهذيب : صدوق يخطئ . ومعاوية ابن أبي صالح الراوي عنه من رجال مسلم وقد لينه ابن معين وقال أبو حاتم لا يحتج به . ولم يرضه البخاري ولا ابن القطان ، فكيف يؤخذ بروايته عن ابن عباس ان ابراهيم خليل الرحمن كان في صغره مشركا ؟ وهذا اذا فرضنا ان السند اليه صحيح .

ومن العجيب ان ابن جرير اختار هذا القول مع تقريره القول المقابل له على أحسن وجه وهو الذي جزم به الجمهور من انه كان مناظرا لقومه فقال ما قال تمهيدا

للانكار عليهم ، فحكى مقالتهم أولا حكاية استدرجهم بها الى سماع حجته على بطلانها اذا أوهمهم انه موافق لهم على زعمهم ، ثم كر عليه بالنقض ، بانيا دليله على قاعدة الحس ونظر العقل ، وقيل انه استفهام إنكار أو تهكم واستهزاء حذفت اداته أي أهذا ربي الذي يجب علي أن أعبده ؟ ، وقيل أراد : هذا ربي بزعمكم ، أو إنكم تقولون هذا ربي . وذلك مما لا يلتئم مع ما يأتي في الشمس ، ولا يقبله الذوق .

أما ابن جرير فاحتج أولا بالرواية وقد علمت انها لا تصلح حجة على دعوى شرك الخليل عليه الصلاة والسلام ولو في الصغر على انها مطلقة — وثانيا بالعبارة التي قالها بعد أفول القمر ، وسترى حسن توجيهها على الوجه الآخر ، وأما الجمهور فاحتجوا بحجج كثيرة اطال الامام الرازي في تعدادها وفي أكثر ما أورده نظر ظاهر . وأقوى حجتهم السياق من حيث تشبيه اراءة الله تعالى إياه هذا الملكوت وما يترتب عليه من ابطال ربوبية الكواكب باراءته ضلال أبيه وقومه في عبادة الاصنام — ومن اسناد هذه الاراءة الى الله تعالى الدال على تمييز ما رأى بها على ما كان يرى قبلها — ومن تعليل الاراءة بما تقدم — ومن التعقيب على ذلك بمحاجة قومه وقوله تعالى انه آتاه الحجة عليهم

﴿ فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ أي فلما غرب هذا الكوكب واحتجب ، قال لا أحب من يغيب ويحتجب ، ويحول بينه وبين محبه الافق أو غيره من الحجب ، وأشار بقوله الآفلين الى ان هذا الكوكب فرد من أفراد جنس كله يغيب ويأفل ، والعاقل السليم الفطرة والذوق لا يختار لنفسه حب شيء يغيب عنه ، ويوحشه فقد جماله وكماله ، حتى في الحب الذي هو دون حب العبادة ، فان أحب شيئا من ذلك بجاذب الشهوة دون الاختيار ، فلا يلبث ان يسلو عنه بنزوح الدار ، والاحتجاب عن الابصار ، الا أن يصير حبه من هوس الخيال ، وفنون الجنون والخبال ، وأما حب العبادة الذي هو أعلى الحب وأكمله لانه من مقتضى الفطرة السليمة والعقل الصحيح ، فلا يجوز ان يكون الا للرب الحاضر القريب ، السميع البصير الرقيب ، الذي لا يغيب ولا يأفل ، ولا ينسى ولا يذهل ، الظاهر في كل شيء بآياته وتجليه ، الباطن في كل شيء بحكمته ولطفه الخفي فيه (لا تدركه الابصار

وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير ،) ولكن تشاهده البصائر بآثار صفاته في الخلق والتقدير ، وسلطانه في التصرف والتدبير ، وما كان ليخفى على الخليل الاول ما قاله الخليل الثاني في مقام الاحسان ، وما ملته الا عين ملته في الاسلام والايمان ، وهو « ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » فكيف يعبد هذه الكواكب التي تأفل وتحجب عن عابديها ، ويخفى حالهم عليها ؟

وقد فسر بعض النظار وعلماء الكلام الافول بالانتقال من مكان الى مكان وجعلوا هذا هو المنافي للربوبية لدلالته على الحدوث أو الامكان . وهو تفسير للشيء بما قد يباينه فان المحفوظ عن العرب أنها استعملت الافول في غروب القمرين والنجوم وفي استقرار الحمل وكذا اللقاح في الرحم فعلم ان مرادها من الاول عين مرادها من الثاني وهو الغيوب والخفاء ، وقد يتحول الشيء وينتقل من مكان الى آخر وهو ظاهر غير محتجب . وفسره بعضهم بالتغير ليجعلوه علة الحدوث المنافي للربوبية أيضا ، وهو غلط كسابقه فان الشمس والقمر والنجوم لا تتغير بأفولها ، ومذهب المتأخرين من علماء الفلك — وهو الصحيح — ان افولها انما يكون بسبب حركة الارض لا بحركتها هي ، وان حركتها على محاورها وحركة السيارات من المغرب الى المشرق ليست من سبب أفولها المشاهد في شيء . وفي الكلام تعريض لطيف بجهل قومه في عبادة الكواكب بأنهم يعبدون ما يحتجب عنهم ، ولا يدري شيئا من أمر عبادتهم ، وهو يقرب من قوله لابيه بعد ذلك (لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا) ولا يظهر هذا التعريض على قول النظار في تفسير الافول فان قوم ابراهيم لم يكونوا على شيء من هذه النظريات الكلامية بل كانوا يعدون الافلاك قائلين بربوبيتها ، وبقدمها مع حركتها ، وما زال الفلاسفة والفلكيون يقولون بقدم الحركة وازليتها ، وعلماء الكون في هذا العصر يعدون الحركة مبدأ وجود كل شيء ، وانها ملازمة للوجود المطلق من الازل الى الابد .

وقد كان الزمخشري من أولئك النظار وقد قال بعد ما يأتي في القمر والشمس : (فان قلت) لم احتج عليهم بالافول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال الى حال ؟ (قلت) الاحتجاج بالافول أظهر لانه انتقال مع خفاء واحتجاب اه وقال ابن المنير

انه من عيون نكته ووجوه حسناته ، اه والصواب أن الكلام كان تعريضا خفيا، لا برهانا نظريا جليا ، وأن وجه منافاة الربوبية فيه هو الخفاء والاحتجاب والتعدد، وان البزوغ والظهور لم يجعل فيه مما ينافي الربوبية بل بني عليه القول بها ، فان من صفات الرب ان يكون ظاهرا وان لم يكن ظهوره كظهور غيره من خلقه كما علم مما تقدم آنفا .

﴿ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ﴾ أي فلما رأى القمر طالعا من وراء الافق أول طلوعه قال: هذا ربي، على طريق الحكاية لما كانوا يقولون تمهيدا لابطاله كما تقدم، وقد استعملت العرب هـذا الحرف في التعبير عن ابتداء طلوع النيرات وأول طلوع الناب وفي بزغ البيطار والحاجم للجلد وهو تشريطه بالمبزغ ، ولذلك قالوا ان معنى البزغ الشق فالنيرات تشق الظلام بطلوعها ، وجعله بعضهم تشبيها بشق الناب والسن اللثة وشق البيطار والحجام للجلد . والظاهر ان ابراهيم (ص) رأى الكوكب في ليلة ورأى القمر في الليلة التالية لها كما يؤخذ من العطف بالفاء وذلك انه لا فاصل بين ليلة وأخرى الا النهار وهو ليس بمظهر للكواكب والقمر فكأنه غير فاصل . ويحتمل ان يكون قد رأى الكوكب والقمر في ليلة واحدة واذا كانت هذه الليلة هي التي رأى الشمس في أول نهارها — وهو المتبادر — وجب ان يكون رأى الكوكب في أول الليل هاويا للغروب وبعد أفوله بقليل بزغ القمر ، وان ذلك كان في وسط الشهر ، وانه سهر مع بعض قومه الليل كله حتى أفل القمر في آخره ، وكثيرا ما يفعل الناس هذا ولا سيما في الليالي البيض ولو لم يكن لهم غرض ديني أو علمي منه ، وقد يتصور وقوع ذلك في بعض الليالي القليلة من السنة كالليلة الخامسة عشرة من شهر رجب من سنتنا هذه (سنة ١٣٣٦) فان الشمس تغرب فيها عن افق مصر الساعة ٦ والدقيقة ٢٨ ويطلع القمر بعد غروبها بعشرين دقيقة وفي هذه المدة يحتمل ان يرى بعض السيارات أو نحوها من النجوم المشرقة الممتازة كالشعرى هاويا للغروب ويغرب بعدها بربع ساعة . ويغرب القمر في تلك الليلة بعد انتهاء الساعة الرابعة بدقيقتين من صبيحتها وتشرق الشمس بعد غروبه بأربع عشرة دقيقة . ولكن يتكر على هذا انه لا يظهر فيه جن الليل وهو اظلامه . وانما يتعين تصوير وقوع ما ذكر في مثل هذه الليلة من الشهر ، والقمر بدر ، والشمس في الدرجة الخامسة من برج

الثور ، اذا تعين انه لا يجوز وصف القمر والشمس بالبزوغ الا في أول طلوعهما من وراء افق القطر كله ؛ وقد يقال ان هذا غير متعين بالوصف وانه يجوز ان يقال: رأيت القمر بازغا. ولو بعد طلوعه بساعات كما يقال: رأيت ناب البعير بازغا بعد طلوعه بأيام . ثم ان البزوغ والغروب منهما ما هو حقيقي عرفا وما هو نسبي ، فمن كان في مكان مطمئن أو محاط بالبنيان والشجر يبزغ عليه القمر والشمس بعد بزوغهما في افق قطره، ويغربان عنه قبل غروبهما عن ذلك الافق . وقد يكون في مكان يحجب مشرقه ما ذكر دون مغربه وبالعكس فيختلف البزوغ والغروب باختلاف ذلك . وبهذا يتسع مجال احتمال وقوع ما ذكر في ليلة واحدة وصبيحتها بغير تكلف . والكلام في الآيات مرتب على رؤية الكوكب رؤية غير مقيدة بحال ولا وصف وعلى رؤية القمر والشمس بازغين لا على بزوغهما ، فالاول يصدق برؤيته قبيل الغروب في أول جنون الليل، والآخران يصدقان بالرؤية في حال البزوغ النسبي . وقد غفل عن هذه الدقة في تعبير التنزيل من زعم ان رؤية ما ذكر لا يتصور وقوعه في ليلة واحدة وصبيحتها ، ومن فرض لذلك وجود جبال في ذلك المكان الخالي من الجبال .

﴿ فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ أي فلما أفل القمر كالكوكب وان كان أكبر منه منظرا وأبهى نورا في الارض ، قال مسمعا من حوله من قومه : لئن لم يهدني ربي الذي خلقني الى العبادة التي ترضيه باعلام خاص من لدنه لأكونن من القوم الضالين الذين يفتتنون بجمال بعض المخلوقات أو بما يرون أو يتوهمون من خواصها ومنافعها ، حتى يعبدوها من دون خالقها ، وهذا تعريض آخر بضلال قومه يقرب من التصريح وإرشاد الى توقف هداية الدين على الوحي الالهي .

قال ابن المنير في الانتصاف : والتعريض بضلالهم ثانيا أصرح وأقوى من قوله « لا أحب الآفلين » وانما ترقى في ذلك لان الخصوم قد قامت عليهم بالاستدلال الاول حجة فأنسوا بالقدح في معتقدهم ولو قيل هذا في الاول فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون الى الاستدلال ، فما عرّض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة الا بعد ان وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود واستماعه الى آخره ، والدليل على ذلك انه ترقى في النوبة الثالثة الى التصريح بالبراءة منهم ، والتقريع بأنهم على شرك بين ثم قيام الحجة

عليهم ، وتبلج الحق وبلغ من الظهور غاية المقصود اه وذلك قوله عز وجل :

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ﴾ أي قال مشيرا اليها على الطريقة التي بيناها فيما قبله : هذا الذي أرى الآن أو الذي أشير اليه ربي. قال الزمخشري: جعل المبتدأ مثل الخبر بكونهما عبارة عن شيء واحد كقولهم ما جاءت حاجتك ، ومن كانت أمك ، ولم تكن فتنتهم الا ان قالوا ، وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ، ألا تراهم قالوا في صفة الله علاّم ولم يقولوا علاّمة وان كان العلامة أبلغ احترازا من علامة التأنيث اه وجوز أبو حيان ان يكون تذكير الاشارة الى الشمس حكاية لما قيل بلغة العجم وأكثر لغاتهم لا تميز بين المذكر والمؤنث في الاشارة ولا في الضمائر .ونوقش في كون ذلك مقتضى الحكاية وفي دعوى كون لغة ابراهيم من تلك الاعجمية . وقد سبق لنا القول بأنها عربية ممزوجة ، على ان بعض الاعاجم يذكرون الشمس ويؤنثون القمر . وسيأتي فيما نذكر من عقائد قوم ابراهيم ان للشمس زوجة

وأما قوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿ هذا أكبر ﴾ فهو تأكيد لإظهار النصفة للقوم ، ومبالغة في تلك المجاراة الظاهرة لهم ، وتمهيد قوي لاقامة الحجة البالغة عليهم ، واستدراج لهم الى التمادي في الاستماع بعد ذلك التعريض الذي كان يخشى ان يصدهم عنه . ومعناه ان هذا أكبر من القمر والكواكب قدرا ، وأعظم ضياء ونورا ، فهو اذاً أجدر منهما بالربوبية ، ان كان المدار فيها على التفاضل والخصوصية ،

﴿ فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون ﴾ أي فلما أفلت كما أفل غيرها ، واحتجب ضوءها المشرق وذهب سلطانها ، وكانت الوحشة بذلك أشد من الوحشة باحتجاب الكوكب والقمر ، صرح عليه الصلاة والسلام بالنتيجة المرادة من ذلك السمر ، فتبرأ من شرك قومه ، الذي أظهر مجاراتهم عليه في ليلته ويومه . والبراءة من الشيء التفصي منه والتنحي عنه لاستقباحه ، فهو كالبرء من المرض وهو السلامة من ألمه وضرره ، وما مصدرية أو موصولة أي اني بريء من شرككم بالله تعالى أو من هذه المعبودات التي جعلتموها أربابا وآلهة مع الله تعالى . فيشمل الكواكب والاصنام وكل ماعبدوه وهو كثير

﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين
تبرأ من شركهم وقفى على تلك البراءة ببيان عقيدته الحق وهي التوحيد الخالص فقال إني وجهت وجهي وقصدي وجعلت توجهي في عبادتي للرب الخالق الذي فطر السموات والارض ، أي ابتدأ خلقهما بما فتق من رتق مادتهما وهي دخان ؛ وأكمل خلقهن أطوارا في ستة أزمان ، فهو خالق هذه الكواكب النيرات ، وخالقكم وما تصنعون منه هذه الاصنام من معدن ونبات ؛ وتوجيه الوجه هنا بمعنى اسلامه في قوله عز وجل (٤ : ١٢٤ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا) وقوله (٣١ : ٢١ ومن يسلم وجهه لى الله وهو محسن) الآية . وقد تقدم في تفسير الاولى (ص ٤٣٨ ج ٥) ان اسلام الوجه له تعالى عبارة عن توجه القلب ، فان الوجه أعظم مظهر لما في النفس من الاقبال والاعراض والخشوع والسرور الكآبة وغير ذلك ، وان المراد باسلامه وبتوجيهه لله تعالى تركه له يتوجه اليه وحده في طلب حاجته ، واخلاص عبوديته ، فهو وحده الرب المستحق للعبادة ، القادر على الاجر والاثابة . ومن الشواهد على استعمال الوجه بمعنى القلب حديث « لتسوُنّ صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم » وفي رواية قلوبكم رواه أحمد وأصحاب السنن . ووجّه يتعدى باللام والى كأسلم وتقدم شاهدا « أسلم » آنفا ولم يتكرر « وجه » في القرآن بهذا المعنى ، والا فاللام هنا بمعنى الى كقوله تعالى (بأن ربك أوحى لها) وقوله (لعادوا لما نهوا عنه) واخترع الرازي اللام هنا نكتة سماها دقيقة فقال . المعنى ان توجيه وجه القلب ليس اليه لانه متعال عن الحيز والجهة بل الى خدمته وطاعته لاجل عبوديته الخ فجعل اللام « دليلا ظاهرا » على كون المعبود متعاليا عن الحيز والجهة . وهذا تحكم مردود لا تقبله اللغة ولا يقتضيه العقل ولا يتفق مع ماورد في معنى توجيه الوجه في القرآن . أما إباء اللغة له فلأن اللام لو كانت للتعليل مع حذف مضاف لكانت الآية خالية من المقصود منها بالذات وهو كون توجيه القلب بالعبادة الى الله فاطر السموات والارض ، اذ التعليل على مافيه من التكلف يصدق بالتوجه الى غيره تعالى كالتوجه الى الكوكب لاجل الخالق له لا لأجله هو بدعوى انه هو الذي يقرب اليه زلفى . وأما العقل فانه يدرك ان توجه القلب لاينحصر في

كونه الى الحيز والجهة المحصورة ، وأما القرآن فقد عدى إسلام الوجه بالى في سورة لقمان و باللام في سورة النساء ، وهو بمعنى توجيهه كما تقدم آنفا .

هذا وان التعبير بفاطر السموات والارض هو وجه الحجة في الآية فان مافتن به القوم من تأثير التيرات في الارض — ان صح — لم يعدُ ان يكون خاصية لبعض اجرام السماء وهي لم توجد نفسها ولا صفاتها وخواصها ، فالواجب ان ينظر في أمرها من حيث هي جزء أو أجزاء من مجموع العالم ، فحينئذ يراها الناظر المتفكر خاضعة لتدبير من فطر العالم الكبير التي هي بعضه ، ويعلم انه هو الحقيق بالعبادة من دونها ، لانه هو الرب الحق المدبر لها ولغيرها . وانما يتجلى الاستدلال على وحدانية الربوبية والإلاهية بالنظر في جملة العالم وكونه لابد أن يكون له خالق مدبر واحد ، اذ لا يمكن ان يستقيم نظام المتعدد الا اذا كان له جهة وحدة كما بيناه في غير هذا الموضع وسيعاد ان شاء الله تعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) وأما الاستدلال بأجزاء الكون فيتولد منه شبهات ومشكلات كثيرة .

والحنيف صفة من الحنف وهو بالتحريك الميل عن الضلال والعوج الى الاستقامة ، وضده الجنف بالجيم . فقوله حنيفا حال أي وجهت وجهي له حال كوني مائلا عن معبوداتكم الباطلة وعن غيرها ، فتوجهي واسلامي خالص له لا يشوبه شرك ولا رياء ، وما أنا من القوم المشركين به الذين يتوجهون الى غيره من المخلوقات ، كالكواكب أو الملائكة أو الملوك أو الصالحين ، أو ما يتخذ لهم من الاصنام والتماثيل ، تبرأ أولا من شركهم أو شركائهم ثم تبرأ منهم أنفسهم (٦٠ : ٤ قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله) روى ابن جرير عن ابن زيد ، ان قوم ابراهيم قالوا حين قال اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض : ماجئت بشيء ونحن نعبده ونتوجهه . [1] فرد عليهم بأنه حنيف أي مخلص له لا يشرك به كما يشركون اه بالمعنى

وفي الآيات قراآت لا تتعلق بالمعنى كفتح ياء اني وسكونها وإمالة رأى وكسر

(١) كذا في نسخة تفسيره المطبوعة بالمطبعة الاميرية وانما يقال توجه اليه لا توجهه ، وفيها أيضا : ولا أشركه أي لا أشرك به

الراء والهمزة فيها ، ولكن قراءة يعقوب ضم آزر على النداء فهي دليل على كونه اسما علما لان حذف حرف النداء خاص بالعلم في الفصيح وغيره شاذ

﴿ مسائل متممة لتفسير الآيات ﴾

﴿ المسألة الاولى في عقائد قوم ابراهيم (ص) ﴾

تقدم انهم كانوا يعبدون الكواكب والاصنام . وقال ابن زيد إنهم كانوا يعبدون الله تعالى أيضا ويشركون ماذكر به . وكل ذلك صحيح دلت عليه آثار الكلدانيين التي اكتشفت في العراق . وقد أثبت بيروسوس وسنيلوس أن علماءهم وكهانهم كانوا يعرفون حقيقة التوحيد ولكن كانوا يدينون بها في أنفسهم ولا يبيحونها للعامة ، وان اليونان أخذوا هذا النفاق عنهم ، ولعل الصواب ان الذين أخذوا عنهم أولا هم قدماء المصريين فقد كان التوحيد منتهى علم حكمائهم وكانوا يكتمونه عن العامة لان استعباد الملوك الذين هم أعوانهم لها لا يدوم الا بالوثنية كما يعلم مما بيناه في التفسير وغيره مرارا ، واليونان اقتبسوا من قدماء المصريين ، على ان هنري رولنسن من مدققي مؤرخي أوربا قال ان امة من ضفاف الدجلة والفرات ارتحلت الى أوربة بتلك العقائد منقوشة في صفائح الآجر

من آلهة الكلدانيين (إلّ) وهي كلمة سامية عرفت في العربية والسريانية والعبرانية . قال صاحب القاموس : والإل الربوبية واسم الله تعالى . وكل اسم آخره إل وإيل فمضاف الى الله تعالى . وقال أل المريض والحزين يئل ألا وألا أنّ وحنّ ورفع صوته بالدعاء . وقال في مادة (أي ل) : إيل بالكسر اسم الله تعالى . وفي لسان العرب بحث في كون الإل من أسماء الله تعالى ولكنه نقله عن ابن سيده ثم قال : والإل الربوبية ، والأل بالضم الاول في بعض اللغات وليس من لفظ الاول . ثم قال في (إيل) : من أسماء الله عز وجل عبراني أو سرياني . ثم نقل عن ابن الكلبي ان جبرائيل وشراحيل واشباههما كشرحبيل تنسب الى الربوبية « لان إيلا لغة في إل وهو الله عز وجل كقولهم عبد الله وتيم لله » أقول ونقل مثله في (إل) وضعفه بمنع جبريل وما أشبهه من الصرف أي دون شرحبيل وشهبيل

من أسماء العرب ، ونقل عن أبي منصور أنه يجوز ان يكون إيل عرب فقيل إلّ . ثم قال في مادة (اله) وقد سمت العرب الشمس لما عبدوها الاهة ، والألهة الشمس الحرة حكي عن ثعلب ، والاليهة والألاهة (بالفتح والكسر) وألاهة (مضمومة الهمزة غير معرّفة) كله الشمس الخ ثم ذكر أن : الإلاهة والالوهة والالوهية العبادة. وذكر عند تفسير الالـه بالمعبود في أول المادة قولهم : الـه بين الالـهة والالهية والالهانية وان أصله من أله يأله (من باب علم) اذا تحير

هذا وان دلالة مادة اله على العبادة والمعبود سامية قديمة منقولة عن الكلدانيين وغيرهم . قال البستاني في دائرة المعارف عند تعريف اسم (الله) بأنه اسم للذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد — أي كما قال علماء المسلمين — : وهو بالعبرانية ألوهيم بصيغة الجمع تعظيما لا تكثيرا . وقد يطلق على غير الله ، ويهوه أي الكائن وهو خاص به تعالى . وإيل أي القدير . وبالسريانية الوهو وبالكلدانية إلاها اه

وفي تواريخ المتأخرين المؤيدة بالعاديات (الآثار القديمة) أن أعظم أرباب الكلدانيين وآلهتهم (ايل — أو — إل) فهو رب الارباب وأصل الآلهة ، وليس له تمثال ولا صورة في معابدهم . والظاهر أنهم كانوا يعتقدون مما ورثوا من دين نوح عليه السلام انه منزه عن صفات الخلق وتخيلاتهم . وروى ديودورس عن فيلو انه مرادف لزحل ، ولا يصح هذا الا ان يراد بزحل أبو المشتري كما قيل . وقد أشاروا الى الايمان به في عصور قدماء ملوكهم ، ومما قالوا عنه في أقدم تلك الخرافات انه أول مولود (أنا) و(بيل) و(وانا) هذا هو رأس (الثالوث) الكلداني وقيل ان هذا الاسم بمعنى اسم الجلالة (الله) ويقولون أنو اذا كان فاعلا وانا اذا كان مفعولا وأني اذا كان مضافا اليه . ومن ألقابه عندهم — القديم والرأس الاصلي وأبو الآلهة ورب الارواح والشياطين وملك العالم الاسفل وسلطان الظلام أو رأس الموت . ووجدت آثار عبادته في مدينة (أرك) وهي الوركاء. قال ياقوت الوركاء موضع بناحية الروابي ولد به ابراهيم الخليل عليه السلام . وقد بنى أحد ملوكهم معبدا له ولابنه (قول) في أشور سنة ١٨٣٠ قبل المسيح فصار اسم هذه المدينة بعد ذلك (تلاّن) وأصله (تل أنا) وجاء ذكره في آجرّ الملك (أروكه) اكتشفت في أنقاض (أم

قبر) هذه ترجمته : « ان إله القمر ابن شقيق (أنو) و بكر (بعلوس) قد حمل عبده (أروكه) الرئيس التقي ملك (أور) على بناء هيكل (تسين كاثو) معبدا مقدسا له »

والثاني من ثالوثهم (بلوس — أو — بيل) ولعلهما محرفان عن (بعل) و(بعلوس) ومن أسمائه (انو) و(إيل انيو) ومعناه السيد . وتلحق غالبا بلفظ (نيبرو) ومؤنثها (نيبروث) وهي قريبة من كلمة (نمرود) التي هي في ترجمة التوراة السبعينية (نبروث) وكلمة (نيبرو) مشتقة من كلمة بابار السريانيـة ومعناها طارد ، وتدل مادة نبر في العربية على الارتفاع فنبر رفع والنبرة الشيء المرتفع ففيها معنى الشرف . ومعناها في الاشورية يقارب معناها في السريانية (فبيل نبرو) بمعنى السيد الصياد أو رب الصيد — ولذلك قيل انه نمرود المذكور في العهد العتيق ، ويقولون انه كان يصيد الوحوش . وهو بعلوس الذي ذكر مؤرخو اليونان انه باني مدينة (بابل) وملكها الاول ، ودلت الآثار على ان الاشوريين كانوا يسمونها مدينة (بل نبرو) وظل الكلدانيون يعبدون (نمرود) مدة وجود دولتهم وكانوا يكنونه بأبي الآلهة و يكنون زوجه المسماة (موليتا — أو — انوتا) بأم الآلهة العظام . ولكن وصفت في بعض الآثار بأنها زوج (نين) وهو ابنها وفي بعضها انها زوج (اشور) ولها ألقاب عظيمة ووجد لها عدة هياكل

والثالث من ثالوثهم (حوا — أو — حيا) وهو حيوان بعضه كالانسان و بعضه كالسمك زعموا انه خرج من خليج فارس ليعلم سكان ضفاف النهرين علم الفلك والادب ، ونسب اليـه اختراع حروف الهجاء ، وقد وجد اسمه على صحيفة من الآجر وجدت في خرائب (أور) ويرى بعض الباحثين ان اسمه من مادة الحياة العربية أو الحية ، وشعاره في القلم الكلداني الشكل الاسفيني ، ومنه رسم الحيـة للدلالة على منتهى الذكاء والحكمة والاشارة الى الحياة . وله ألقاب عظيمة

وكان للكلدان (ثالوث) آخر أحد آلهته (سيني) وهو القمر وهذا الاسم سامي فاسم القمر بالسريانية سين وكذا في السنسكريتية ، ومن ألقابه زعيم الارباب في السماء والارض (و بعل رونا) أي رب البناء ، وكانوا يصورونه في جميع تطوراته منذ يكون هلالا ، وله هياكل كثيرة وأعظم معابده في (أور)

والثاني (سان) أو (سانسي) وهو الشمس ، والاسم سامي أيضا ومنه السنا بالعربية وهو بالقصر الضياء وقيل ضوء النار والبرق والصواب انه أعم قال تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) ومنه (شاني) بالعبرية ومعناها لامع ، واسم الشمس باللغة السنسكريتية (سيونا) ومن ألقاب هذا الإله : رب النار ونير الارض والسماء . وكان له هياكل في المدن الكبيرة وأشهرها (بيت بارا) و بارا أوفرا اسم الشمس بالمصرية القديمة وكان اسم (هيليوبوليس)عندهم (سيبارا) وتسمى في الآثار (تسيبار شاشاماس) ومعنى الثلاثة مدينة الشمس . وللشمس زوجة عندهم يسمونها (أي) و(كولا) و(أنونيت)

وثالث الثلاثة (ثول) أو (إيثا) أي الهواء وهو رب الجو القائم بتسخير الرياح والعواصف والاعاصير المتصرف في الزراعة والمواسم . ومن هياكله هيكل بناه الملك (شماش ثول) الذي ملك الكلدان سنة ١٨٥٠ قبل المسيح

وهذه الاخبار والآثار تشهد بصدق القرآن ، وكونه حجة الله على الانام، لان من جاء به أمي لم يقرأ شيئا من كتب الاولين ، ولا رأى أثرا من آثار الغابرين، فيعلم منها خبر معبوداتهم . ولا يرد عليه ما أورد على العهد العتيق من كون كاتبه(عزرا الكاهن) كتبه بعد السبي فاقتبس فيه كثيرا من تقاليد البابليين

﴿ المسألة الثانية معنى الرب والإله وشبهة الشرك وكونه قسمان ﴾

ظاهر ماحكاه الله تعالى عن ابراهيم (ص) أن قومه كانوا يتخذون الاصنام آلهة لا أربابا و يتخذون الكواكب أربابا آلهة ، فالإله هو المعبود فكل من عبد شيئا فقد اتخذه إلها ، والرب هو السيد المالك والمربي المتصرف ، وليس للخلق رب ولا إله الا الله الذي خلقهم ، فهو المالك لكل شيء في كل زمن وكل حال وملكه حقيقي تام ، وملك غيره عرفي ناقص موقوت ، له أجل محدود ، وهو المعبود بحق ، اذ العبادة الحق لا تكون الا للرب ، فان العبادة هي التوجه بالدعاء وكل تعظيم قولي أو عملي الى ذي السلطان الاعلى على عالم الاسباب وما هو فوق الاسباب لانه هو الموجد لها والمتصرف فيها، فهي خاضعة لسلطانه وكل ما عداه خاضع لسلطان

بل سلطانه فيها . والاصل في اختراع كل عبادة لغيره تعالى أمران (أحدهما) ان بعض ضعفاء العقول رأوا بعض مظاهر قدرته تعالى في بعض خلقه فتوهموا ان ذلك ذاتي لهذا الخلق ليس خاضعا لسنن الله في الاسباب والمسببات لقصر ادراكهم عن الوصول الى كون القدرة الذاتية خاصة بخالق كل شيء الذي أعطى كل شيء خلقه وما امتاز به على غيره ، وكون خفاء سبب الخصوصية لا يقتضي عدم خضوع صاحبها لسنن الخالق فيها وفي غيرها من شؤونه (أي شؤون صاحب الخصوصية) ووثنية هؤلاء هي الوثنية السافلة (ثانيهما) تخذ بعض المخلوقات ذات الخصوصية في مظاهر النفع والضر ، وسيلة الى الرب الإله الحق ، تشفع عنده وتقرب اليه كل من توجه اليها أو الى التماثيل والاصنام وغيرها مما يمثلها أو يذكر بها ، فيتوسل ذو الحاجة بدعائها وتعظيمها بالقول أو الفعل لاجل حمله تعالى بتأثيرها عنده ، على قبوله واعطائه سؤله ، وهذا التوسل توجه الى غير الله مبني على اعتقاد عدم انفراد الرب بالاستقلال بقضاء الحاجات ، وكونه يفعل بتأثير الوسيلة في ارداته وهذا شرك في العبادة ينافي الحنيفية . وهذه هي الوثنية الراقية التي كانت العرب عليها في زمن البعثة ، ولذلك كانوا يقولون في طوافهم :

لبيك لاشريك لك * الا شريكا هو لك * تملكه وما ملك

وكان بعض قوم ابراهيم (ص) قد ارتقوا في وثنيتهم الى هذه المرتبة في الجملة أو شكوا ، اذ عقلوا ان الاصنام لا تسمع دعاءهم ولا تبصر عبادتهم ، ولا تقدر على نفعهم ولا ضرهم ، وانما قلدوا بعبادتها آباءهم ، كما يعلم من محاجته (ص) لهم في سورة الشعراء (٢٦ : ٦٩) الخ ولذلك اتخذوها آلهة معبودين ، لا أربابا مدبرين ، ولكنهم اتخذوا الكواكب أربابا لما لها من التأثير السببي أو الوهمي في الارض ، وتوسعوا في اسناد التأثير اليها حتى اخترعوا من ذلك ما لا شبهة له ، فكانوا يعتقدون ان الشمس رب النار ونير الارض والسماء يدبر الملوك ويفيض عليهم روح الشجاعة والاقدام وينصر جندهم ويخذل عدوهم ويمزقه كل ممزق — ويعتقدون نحو ذلك في زحل واسمه (نبي) ويعتقدون ان (مرداخ) — وهو المشتري — شيخ الارباب ورب العدل ولاحكام حافظ الابواب التي يدخلها الخصوم لفصل الخصومات — وان (رنكال)

وهو المريخ كمي الارباب وزب الصيد وسلطان الحرب ، فهو يشترك مع زحل في تدبيره الا ان هذا هو المقدم في الصيد وذاك المقدم في الحرب . — وان (عشتار — أو — نانا) وهي الزهرة ربة الغبطة والسعادة ومفيضة السرور على الناس، وتمثل في الآثار بامرأة عارية — وأن (نبو)وهو عطارد رب العلم والحكمة .

وكانت حجة ابراهيم البالغة في حصر العبادة بالتوجه فيها الى فاطر السموات والارض وحده دون غيره من الوسائط والوسائل ، ومثلها في سورة الانبياء فقد قال في تماثيلهم (٢١ : ٥٦ بل ربكم رب السماوات والارض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) وبهذا كان يحتج جميع الرسل عليهم السلام وهو أقوى الحجج وأظهرها ، وأما ما ذكره ابراهيم (ص) من التعريض قبلها فهو تمهيد لها

﴿ المسألة الثالثة آراء المتكلمين والفلاسفة في حجة ابراهيم ﴾

ما ذكره الرازي وغيره من مفسري المتكلمين في هذه المحاجة تكلف لا تدل عليه العبارة ولا يقتضيه العقل ولا تتوقف عليه الحجة ، وقد تقدم أنهم جعلوا معولهم فيها على ذكر الافول ، وكون وجه الحجة فيه دلالته على الامكان والحدوث ، وقالوا ان أحسن الكلام ، ما يحصل فيه نصيب لكل من الخواص والاوساط والعوام ، فالخواص يفهمون من الافول الامكان وكل ممكن محتاج ، والمحتاج لا يكون مقطع الحاجة فلا بد من الانتهاء الى من يكون منزها عن الامكان ، حتى تنقطع الحاجات بسبب وجوده كما قال (وان الى ربك المنتهى) وأما الاوساط فانهم يفهمون من الافول مطلق الحركة ، فكل متحرك محدث ، وكل محدث فهو محتاج الى القديم القادر ، فلا يكون الآفل إلها بل الاله هو الذي احتاج اليه ذلك لآفل . وأما العوام فانهم يفهمون من الافول الغروب وهم يشاهدون ان كل كوكب يقرب من الافول فانه يزول نوره وينقص ضوءه ويذهب سلطانه ويصير كالمعزول ، ومن يكون كذلك لا يصلح للالهية (قال الرازي) بعد ماتقدم : فهذه الكلمة « لا أحب الآفلين » مشتملة على نصيب المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال فكانت كل الدلائل وأفضل البراهين. ثم ذكر الرازي بعد هذا دقيقة استنبطها من مذهب

علماء الفلك على عهده هي أعرق في التكلف من هذا التفصيل الذي جعل فيه الوجه الصحيح في الحجة نصيب العوام الذي سماهم أصحاب الشمال ، وهو يعلم أن أصحاب الشمال هم أهل النار ، (فاعتبروا يا أولي الابصار)

ثم قال الرازي : تفلسف الغزالي في بعض كتبه وحمل الكوكب على النفس الناطقة الحيوانية التي لكل كوكب ، والقمر على النفس الناطقة التي لكل فلك ، والشمس على العقل المجرد الذي لكل ذلك . وكان أبو علي ابن سينا يفسر الافول بالامكان (أي فهو عند الرازي امام المقربين !) فزعم الغزالي ان المراد بأفولها إمكانها في نفسها ، وزعم ان المراد من قوله (لا أحب الآفلين) ان هذه الاشياء بأسرها ممكنة الوجود لذواتها ، وكل ممكن فلا بد له من مؤثر ولا بد له من الانتهاء الى واجب الوجود . واعلم أن هذا الكلام لا بأس به الا انه يبعد حمل لفظ الآية عليه. ومن الناس من حمل الكوكب على الحس ، والقمر على الخيال والوهم ، والشمس على العقل ، والمراد ان هذه القوى المدركة الثلاثة قاصرة متناهية ، ومدبر العالم مستول عليها قاهر لها ، والله أعلم اه نقل الرازي وليس ما استحسنه من قبلُ بل سماه أحسن الكلام ، الا مثل ما استبعد حمل الآية عليه من بعدُ أو هو أبعد وأجدر بالملام .

﴿ المسألة الرابعة اشارات الصوفية في الآيات ﴾

أورد نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري في تأويلات تفسيره عبارتين في الآيات قال في الاولى ان ابراهيم رأى نور الرشد في صورة الكوكب ونور الربوبية في صورة القمر ونور الهداية في صورة الشمس، وسبك ذلك بعبارة شعرية متكلفة ، وأما العبارة الثانية فزعم أنها دارت في خلده ، وما هي الا ما نقله الرازي (الذي لخص هو تفسيره وزاد عليه هذه التأويلات) عن الغزالي — وذكرناه آنفا — الا انه تصرف فيه فجعله أقرب الى التصوف . وقد نقل الآلوسي هذه العبارة الاخيرة عن النيسابوري في اشاراته وذكر قبلها اشارة جعل فيها الكواكب اشارة الى النفس التي هي الروح الحيوانية والقمر اشارة الى القلب والشمس اشارة الى الروح وانها أفلت بعد تجليها بتجلي أنوار الحق . وهو أقل تكلفا مما قبله ، وان كان باطلا مثله ،

وأمثل ما قيل في باب الاشارة ما شرحه الغزالي في بحث فرق المغرورين من الصوفية في كتاب الغرور من الاحياء ، فانه بعد أن ذكر الذين اغتروا بأول ما انفتح لهم من أبواب المعرفة وما شموا من رائحتها فوقفوا عنده قال :

﴿ وفرقة أخرى ﴾ جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا الى ما يفيض عليهم من الانوار في الطريق ولا الى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات اليها ، جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا الى حد القربة الى الله تعالى فظنوا أنهم قد وصلوا الى الله فوقفوا وغلطوا ، فان لله تعالى سبعين حجابا من نور[1] لا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجب في الطريق الا ويظن أنه قد وصل . واليه الاشارة بقول ابراهيم عليه السلام اذ قال الله تعالى اخبارا عنه (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي) وليس المعنى به هذه الاجسام المضيئة فانه كان يراها في الصغر ويعلم انها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحدا ، والجهال يعلمون ان الكوكب ليس بالله فمثل ابراهيم عليه السلام لا يغره الكوكب الذي لا يغر السوادية[2] ولكن المراد به أنه نور من الانوار التي هي من حجب الله عز وجل وهي على طريق السالكين ولا يتصور الوصول الى الله تعالى الا بالوصول الى هذه الحجب ، وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض[3] وأصغر البيرات الكوكب فاستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر فلم يزل ابرهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال الله تعالى (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض) يصل الى نور بعد نور ويتخيل اليه في أول ما كان يلقاه انه قد وصل ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا فيترقى اليه ويقول قد وصلت فيكشف له ماوراءه حتى وصل الى الحجاب الاقرب الذي لا وصول الا بعده فقال (هذا أكبر) فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوي في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال (قال لا أحب الآفلين ★ ... اني وجهت وجهي للذي

(١) ورد هذا في حديث مرفوع

(٢) السوادية العامة وكلة سواد تطلق على الشخص المجهول وعلى الكثير من الناس وعامتهم . وهذه الجملة والاستدراك بعدها يخرج الكلام من باب الاشارة ويدخله في باب التفسير . فهو خطأ في التعبير .

(٣) المراد الكبر المعنوي وهو العظمة

فطر السموات)[1] وسالك هذه الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الاول. وأول الحجب بين الله و بين العبد هو نفسه فانه أيضا أمر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى أعني سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى انه ليتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ،وعند ذلك يشرق نوره اشراقا عظيما اذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه، وهو في أول الامر محجوب بمشكاة هي كالساتر له فاذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد اشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب الى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول أنا الحق[2] فان لم يتضح له ماوراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الالهية ولم يصل بعد الى القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور .وهذا محل الالتباس اذ المتجلي يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة فيظن انه لون المرآة وكما يلتبس مافي الزجاج بالزجاج كما قيل

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الامر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى الى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه ، كمن رأى كوكبا في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمد يده اليه ليأخذه وهو مغرور » اه

---

(١) كذا في الاصل وهو مخالف لترتيب التنزيل فان آية التوجه بعد آية البراءة التي بعد آية الشمس كما تقدم

(٢) رويت هذه الكلمة عن الحلاج من غلاة الصوفية ويشير الغزالي الى الاعتذار عنه بأن ذلك سبق لسان قد يقع في حال دهشة من الواصل يغيب بها عن نفسه ، ويستغرق في شهود وحدانية ربه ، ويعبرون عن هذه الحالة بالفناء ، ويوضح هذا كلامه الآتي وتمثله بالبيتين المرويين عن الحلاج أيضا وأول كلتيه هذه في المقصد الاسنى بوجهين وصرح في كتاب المحبة من الاحياء بأن القول هذا من الغلو والاسراف ، وتجاوز الحق الى القول بالحلول والاتحاد . واذا أردت أيها القارئ تحقيق هذا المقام ، واخذ الحق حقيقته خالصا من بين فرث الضلال ودم الاوهام ، فعليك بما كتبه المحقق ابن القيم في شرح الدرجة الثالثة من درجات الفناء من منازل السائرين ، في كتابه المعروف بمدارج السالكين ، ومنه تعلم مافي كلام الغزالي في الأنوار الالهية ، مبنيا على أساس التوحيد والقواعد الشرعية . وتجد ذلك في ص ٢٤٣ من الجزء الثالث منه

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط
السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اس
بالحروف او يعبر عما شاء من الألقاب، ان شاء . واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غ
وربما قدمنا متاخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غ
مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة وا
فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ التمثيل العربي ﴾

﴿ اشتغال المرأة المسلمة به وتمثيل قصص الانبياء ﴾

(س ١٠) من صاحب الامضاء بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الى فضيلة مولانا وراشدنا السيد رشيد رضا

جمعتني النوادي بطائفة من المتعلمين الذين قلما يخلو مجلسهم من البحث و
مناسبة دار بيننا ذكر التمثيل العربي و بسطنا على بساط بحثنا (١) المرأة المسلمة والتم
(٢) تمثيل روايات الانبياء عليهم السلام عموما وخاتمهم خصوصا فقرّ رأي فريق
على جواز ذلك كله اذ لا تتم أدوار التمثيل وفصوله الا بالمرأة فاذا جوزنا التمثيل ج
ظهور المرأة المسلمة على مراسح التمثيل . وأي مانع يمنع تمثيل روايات الانبياء ع
الصلاة والسلام عموما وخاتمهم خصوصا وهو لم يخرج عن كونه درس وعظ
طريقة التأثير النافع الذي ينشده مشاهير الوعاظ وقل من يصادفه أو يجد له أ
ومنع فريق آخر كل ذلك وعده نوعا من التقليد الافرنجي الذي يستحوذ على بع
البسطاء فيعدونه مفتاح تمدن الامة في حين أنه شر عليها وعلى أخلاقها الذاتية .
ماكان من الفريقين أما أنا كاتب هذه السطور فقد أعلنت الحيدة حتى أستن
برشدكم أو أستنير بفتيا منارکم والسلام

كاتبه

محمد محمد سمفان

طالب بمدرسة القضاء الشر

(ج) قلت هدانا الله وايك محجة الصواب في الحكم، وعصمنا ان نقفو ما ليس لنا به علم: ان بعض الاندية جمعك بطائفة من المتعلمين البحاثين، وانهم ذكروا « التمثيل العربي » فاختلفوا في جواز اشتغال المرأة المسلمة به، وفي جواز تمثيل قصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام عامة وخاتمهم خاصة، فقالت طائفة منهم بجواز الامرين، وعللوا الاول « بأن أدوار التمثيل ونصوله لاتتم الا بالمرأة فاذا جوزنا التمثيل جوزنا ظهور المرأة المسلمة على مراسح التمثيل » وعللوا الثاني بأنه « درس وعظ على طريقة التأثير النافع الذي ينشده مشاهير الوعاظ وقل من يصادفه أو يجد له أثرا » وقالت طائفة أخرى بمنع الامرين وعدوه من التقليد الافرنجي الضار، الذي يغتر به الاغرار، وقلت انك وقفت حتى تستفتي المنار، فهاك ما أفهمه في المسألتين بالاختصار:

لم يأت فريق المجيزين بشيء من العلم، يدل على ماجزموا به من الحكم، فان سلمنا لهم ان التمثيل لايتم الا بالمرأة — لا نسلم لهم ان جوازه يستلزم جواز اشتغال المرأة المسلمة به، بل نسألهم ماذا يعنون بهذا التمام؟ وهل يعتد به شرعا؟ ولماذا لا يستغنى فيه بالمرأة غير المسلمة التي تستبيح من أعماله مالا يباح للمسلمة؟ وبأي حجة جعلوا القول بجواز التمثيل الذي ينقصه وجود المرأة المسلمة أصلا بنوا عليه القول بجواز اشتغالها بالتمثيل؟ وهل يعد التمثيل المطلق ان يكون مباحا أو مستحبا بشرط خلوه من فعل الحرام وذرائع الفساد، واشتماله على الوعظ النافع والارشاد؟ أوليس الصواب أن يقال والامر كذلك — ان التمثيل الذي يتوقف على قيام المرأة المسلمة ببعض أعماله على الوجه المعروف في دور التمثيل بمصر غير جائز، لان ماتوقف على غير الجائز فهو غير جائز، أو لان درء المفاسد مقدم على جلب المصالح؟

ان اشتغال المرأة المسلمة بالتمثيل المعروف يشتمل على منكرات محرمة (منها) ظهورها على أعين الرجال متبرجة كاشفة مالا يحل كشفه لهم من أعضائها كالرأس والنحر وأعلى الصدر والذراعين والعضدين، وتحريم هذا مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة فلا حاجة الى ذكر النصوص فيه، (ومنها) اشتراك مع الرجال الممثلين في أعمال تكثر في التمثيل وان لم تكن من لوازمه في كل قصة كالمعانقة والمخاصرة والملامسة بغير حائل (ومنها) غير ذلك من المنكرات التي تشتمل عليها بعض القصص دون بعض

كالتشبه بالرجال ، وتمثيل وقائع العشق والغرام المحرم بما فيه من الاعمال المحرمة لذاتها أو لكونها ذريعة الى المحرم لذاته . ولا أنكر انه يمكن للكاتب العالم بأحكام الشرع وآدابه أن يكتب قصة تمثيلية يودع بعض فصولها أعمالا شريفة وأقوالا نافعة اذا مثلتها امرأة مسلمة تبرز في دار التمثيل غير متبرجة بزينة ولا مبدية لشيء مما حرم الله ابداءه من بدنها ، ولا آتية بشيء من أعمال الفساد ولا من ذرائعه ، فان تمثيلها يكون بهذه الشروط مباحا أو مستحبا . مثال ذلك أن تؤلف قصة في الترغيب في الحرب للدفاع عن الحقيقة وحماية البلاد عند وجوبها باعتداء الاعداء عليها ، ويذكر فيها ماروي عن الخنساء رضي الله عنها في حث أبنائها على القتال بالنظم والنثر . فمن ذا الذي يتجرأ على القول بتحريم ظهور امرأة تمثل الخنساء في مثل تلك الحال ، التي هي مثال الفضيلة والكمال ؟ ولكن امكان وضع مثل هذه القصة — وهو من الممكنات التي لم تقع — لا يبنى عليه القول باطلاق جواز ماهو واقع من التمثيل المشتمل على ماذكرنا وما لم نذكر من المنكرات المحرمة والمكروهة شرعا

وأما تمثيل قصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام فقد علاوه بأنه درس وعظ مؤثر ، يعنون ان كل ماكان كذلك فهو جائز ، وهذه الكلية المطوية ممنوعة ، وتلك المقدمة الصريحة غير متعينة ، فان هذه القصص قد توضع وضعا منفرا ، فلا تكون وعظا مؤثرا ، وان من الوعظ المؤثر في النفوس مايكون كله أو بعضه باطلا ، وكذبا وبدعا ، أو مشتملا على مفسدة أو ذريعة اليها ، ويشترط في جواز الوعظ ان يكون حقا لا مفسدة فيه ولا ذريعة الى مفسدة . وبناء على هذا الاصل ننظر في هذه المسألة من وجوه

(أحدها) ان العرف الاسلامي العام يعد تمثيل الانبياء عليهم الصلاة والسلام إهانة لهم أو مزريا بقدرهم ، ومما أعهد من الوقائع في ذلك أن بعض النصارى كانوا أرادوا أن يمثلوا قصة يوسف عليه السلام في بعض المدن السورية فهاج المسلمون لذلك وحاولوا منعهم بالقوة ، ورفع الامر الى الآستانة فصدرت ارادة السلطان عبد الحميد بمنع تمثيل تلك القصة وأمثالها . فان قيل ان بعض مسلمي مصر كالمتعلمين القائلين بالجواز لا يعدون ذلك اهانة ولا ازراء اذ لا يخفى على مسلم ان اهانة

الانبياء أو الازراء بهم أقل ما يقال فيه انه من كبائر المعاصي وقد يكون كفرا صريحا وردة عن الاسلام — نقول انما العبرة في العرف بالجمهور الذي تربى على آداب الاسلام وأحكامه لا بالافراد القلائل ومن غلبت عليهم التقاليد الافرنجية، حتى صاروا يفضلونها على الآداب الاسلامية، كذلك القاضي الاهلي الذي حكم ببراءة استاذ مدرسة أميرية غازل امرأة محصنة وتصباها، وكاشفها بافتتانه بجمالها، حتى هجره الرقاد، وواصله السهاد، فشكت لمحصنة هذه الوقاحة لى زوجها فرفع الزوج الامر الى قاضي العقوبات، طالبا تعزير ذلك العادي المفتات، فكان رأي القاضي ان مغازلة لمحصنات الحسان وتصبيون، يحمل ذلك الكلام لذي يفسدهن على أزواجهن، لا يقتضي سجنا ولا غرامة، ولا تأنيبا ولا ملامة، لانه إظهار لحب الحسن والجمال، وهو من ترقي الذوق وآيات الكمال، ولكن مارآه هذا القاضي المتفرنج حسنا وكمالا، رآه السواد الاعظم من المسلمين نقصا قبيحا، وأنكروه عليه في الجرائد حتى منعتها مراقبة المطبوعات من التمادي في الانكار، واستأنف لزوج الحكم فنقضه لاستئناف، وحكم بأن كلام ذلك الاستاذ جريمة منافية للآداب. ولو حاول بعض أجواق التمثيل تمثيل قصة أحد الرسل الكرام، عليهم الصلاة والسلام، لرأوا من إنكار العلماء والجرائد ما لا يخطر ببال أولئك الافراد الذي يرون جوازه، ولو وقع مثل ذلك في بلد لم تذل أهله سيطرة الحكام لما كان لا مثار للفتنة، ولصدي الناس لصد الممثلين بالقوة، لى يغلب على ظني ان أكثر الناس يعدون تمثيل الامراء والسلاطين، وكبار رجال العلم والدين، مما يزري بمقامهم، ويضع من قدرهم، وان أحدا من هؤلاء الكبراء لا يرضى لنفسه ذلك.

(الوجه الثاني) ان أكثر الممثلين لهذه القصص من سواد العامة، وأرقاهم في الصناعة لا يرتقي الى مقام الخاصة، فان فرضنا أن جمهور أهل العرف لا يرون تمثيل الانبياء إزراء بهم على اطلاقه، أفلا يعدون من الازراء والاخلال بما يجب لهم من التعظيم أن يسمى (السيد فلان) أو الخواجه فلان) ابراهيم خليل الله أو موسى كليم الله أو عيسى روح الله أو محمدا خاتم رسل الله؟ فيقال له في دار التمثيل يارسول الله، قولك في كذا... فيقول كذا... ولا يبعد بعد ذلك ان يخاطبه بعض

الخلعاء بهذا اللقب في غير وقت تمثيل على سبيل الحكاية، أو من باب التهكم والزراية، كأن يراه بعضهم يرتكب إثما فيقول له : مدد يارسول الله ! ألا ان اباحة تمثيل هؤلاء الناس للانبياء قد تؤدي الى مثل هذا، وكفى به مانعا لو لم يكن ثم غيره

(الوجه الثالث) تمثيل الرسول في حالة أو هيئة تزري بمقامه ولو في أنفس العوام وذلك محظور وان كان تمثيلا لشيء وقع . مثال ذلك ان يمثل بعض هؤلاء الممثلين المعروفين يوسف الصديق عليه السلام بهيئة بدوي مملوك ترارده سيدته عن نفسه وتقد قميصه من دبر ، ثم يمثله مسجونا مع المجرمين . ويتجلى النظر في هذا الوجه ببيان مسألة من أعظم المسائل التي يغفل عنها أمثال أولئك الباحثين الذين ذكرهم المستفتي ، وهي ان الرسل عليهم الصلاة والسلام بشر ميزهم الله تعالى بما خصهم به من الوحي ، وهداية الخلق الى الحق ، وقد كانت بشريتهم حجابا على أعين الكافرين حال دون ادراك خصوصيتهم، فأنكروا ان يكون الرسول بشرا مثلهم يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ، وروي عن المسيح عليه السلام ان النبي لا يهان الا في وطنه وقومه ، وقال بعض العلماء في هذا المعنى : أزهد الناس في الولي أهله وجيرانه . أي لانهم قلما يرون منه الا ما هو مشارك لهم فيه من الصفات والعادات. وأما ما يمتاز به من دقائق الورع والتقوى والمعرفة بالله تعالى فمنه ما هو سلبي لا يفطنون له ، ومنه ما هو خفي لا يدركونه ؛ ولذلك احتيج في إيمان أكثر الناس بالرسل قبل الارتقاء العقلي الى الآيات الكونية. وبعده الى الآيات العلمية ،(كالقرآن الحكيم من الامي) والذين يؤمنون بالرسل من بعدهم يسمعون من أخبار آيامهم وخصائصهم وفضائلهم أكثر مما يسمعون من أخبار عاداتهم وصفاتهم البشرية، وبذلك يكون تعظيمهم وإجلالهم لهم غير مشوب بما يضعف الايمان بهم من تصور شؤونهم البشرية. على ان الواجب ان يعرفوا منها ما يحول دون الغلو في التعظيم والاطراء الذي يرفع به الغلاة الانبياء الى مقام الربوبية والالهية ، والتفريط في ذلك كالافراط . فتمثيل أحوال الانبياء وشؤونهم البشرية بصفة تعد زراية عليهم وازدراء بهم أو مفضية الى ضعف الايمان والاخلال بالتعظيم المشروع — مفسدة من المفاسد التي يحظرها الشرع ، فكيف اذا أضيف اليها كون التمثيل في حد ذاته يعد في العرف العام تنقيصا

أو اخلالا ما بما يجب من التكريم — وكون الممثلين من عوام الناس ، وقد علمت ما في هذا وذاك ؟

(الوجه الرابع) ان من خصائص القصص التمثيلية الكذب ، وان الكذب على الانبياء ليس كالكذب على غيرهم ، فاذا جاز أن يسند الى أسماء لا مسميات لها كلام تقصد به العظة والفائدة كما يحكون مثل ذلك عن ألسنة الطير والوحش وهو ما احتج به الحريري في فاتحة مقاماته على جواز وضعه لها ، واذا صح ان يقاس على ذلك اسناد مثل ذلك الكلام الى أناس معروفين من الملوك وغيرهم فيما لا ضرر فيه ولا افساد في التاريخ ولا غيره من الحقائق — اذا جاز ما ذكر وصح القياس فلا يظهر جواز مثله في الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، على أن في المسألة نصا خاصا لا محل للقياس مع مورده ، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم « ان كذبا عليّ ليس ككذب على أحد ، فمن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من حديث سعيد بن زيد ، وروي عجزه — وهو من كذب عليّ الخ — متواترا ، وروى أحمد من حديث عمر مرفوعا « من كذب عليّ فهو في النار » وهو مطلق لم يقيد بالتعمد واسناده صحيح . وقياس الكذب على غيره من اخوانه الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام جلي فهو أقرب من قياس الكذب على الرسل على الكذب على العجماوات الذي احتج به الحريري وأشار الى اتفاق العلماء على جوازه . والكذب عليهم يشمل ما يحكى عنهم من أقوال لم يقولوها ، وما يسند اليهم من أعمال لم يعملوها

فان قيل انه يمكن وضع قصة لبعض الرسل يلتزم فيها الصدق في كل ما يحكى عنه أو يسند اليه ، قلنا ان النقل الذي يعتد به عند المسلمين هو نقل الكتاب والسنة ، ولا يوجد قصة من قصص الانبياء في القرآن يمكن فيها ذلك الا قصة يوسف وكذا قصة موسى وقصة سليمان مع ملكة سبأ اذا جعل التطويل فيهن في غير الحكاية عنهم . والأولى هي التي يرغب فيها الممثلون . ويرجى ان يقبل على حضور تمثيلها الكثيرون ، وفيها من النظر الخاص ما بيناه في الوجه الثالث . وأما السنة فليس في اخبارها المرفوعة ولا الموقوفة ما يبلغ ان يكون قصة تصلح للتمثيل الا وقائع السيرة المحمدية الشريفة ،

والعلماء بها لا يكاد أحد منهم يقدم على جمع طائفة منها وجعلها قصة تمثيلية . واذا فتح هذا الباب ووجد منهم من يدخله على سبيل الندور لا يلبث ان يسبقه اليه كثير من الجاهلين بالسنة المتقنين لوضع هذه القصص بالاسلوب الذي يرغب فيه الجمهور فيضعون من قصص الانبياء المشتملة على الكذب ما يكون أروج عند طلاب الكسب بالتمثيل ، فيكون وضع الصحيح ذريعة الى هذه المفسدة

فعلم من هذه الوجوه ان جواز تمثيل قصة رسول من رسل الله عليهم السلام يتوقف على اجتناب جميع ماذكر من المفاسد وذرائعها بحيث يرى من يعتد بمعرفتهم وعرفهم من المسلمين انه لا يعد ازراء بهم ، ولا منافيا لما يجب من تعظيم قدرهم ، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى من اهتدى بهم .

رحلة الحجاز

٨

أيام منى ولياليها وأقوال الشعراء فيها

نصوص الشرع في أيام منى

قال عز وجل (وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) أجمع العلماء على أن الايام المعدودات في هذه الآية هي أيام منى التي تسمى أيام التشريق . قيل إن سبب تسميتها بذلك أنهم يشرقون فيها لحوم الاضاحي أي يقددونها ويبرزونها للشمس . وقيل لان الهدايا والضحايا لم تكن تنحر فيها الا بعد شروق الشمس ، وقيل هو مأخوذ من قول الجاهلية : أشرق ثبير ، كيما نغير . أي ادخل يا ثبير في الشروق لكي نسرع في الدفع الى منى للنحر ، ذلك بأنهم كانوا لا يفيضون من المزدلفة الى منى الا بعد شروق الشمس ووقوعها على جبل ثبير أعظم تلك الجبال ، فأمرنا بمخالفتهم بالافاضة قبل الشروق . وقيل

هذه الصورة رسمت لرحلة البتانوني

لانها أيام تشريق لصلاة يوم النحر فصارت تبعا له ، وأطلقوا التشريق على صلاة العيد وسموا مصلى العيد مشرقا . والجمهور على ان هذه الايام هي الثلاثة التي تلي يوم عيد النحر وأدخله بعضهم فيها ، ولكن تخيير المتقي بين التعجل في يومين أو التأخر انما هو في أيام مني الثلاثة التي بعد يوم العيد .

ووصفت أيام منى الثلاثة أو الاربعة بالمعلومات في قوله عز وجل في الحجاج (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام. فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) وتطلق الايام المعلومات على أيام عشر ذي الحجة الاوائل أو التسع التي آخرها يوم عرفة .

روى أحمد ومسلم والنسائي عن أبي نبيشة الهذلي قال قال رسول الله (ص) « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل » وفي رواية ضعيفة عند غيرهم زيادة « وبعال » بعد شرب . والبعال والمباعلة الملاعبة بين البعلين (الزوجين) ومعناها صحيح فانه يحل في أيام منى كل ما كان محرما بالاحرام حتى التغشي ، وانما يحل بعد طواف الافاضة الذي تتم به أركان النسك كلها . والمراد بالاكل الاكل من لحوم الاضاحي المطلوب بقوله تعالى (فكلوا منها) وغيرها من الطيبات ، فان هذه لايام أيام عيد وسرور شرع فيها الجمع بين لتتمتع باللذات المباحة حتى للهو بالحراب وسماع الغناء وبين ذكر الله تعالى وشكره على إنعامه بها وبالتوفيق لاقامة النسك .

وشعار هذه الايام من الذكر التكبير ويستحب رفع الصوت به والاشتراك فيه عقب الصلوات وفي عامة الاوقات والامكنة فقد روى سعيد بن منصور وأبو عبيد ان عمر (ص) كان يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الاسواق حتى ترتج منى تكبيرا » وذكره البخاري في الصحيح تعليقا . وأصح ماورد في صيغته ما أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن سلمان قال « كبروا : الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا » وروي عن الصحابة والتابعين التكبير ثلاثا ومرتين وزيادة التهليل. والظاهر ان النبي (ص) لم يأمر الناس بصيغة مخصوصة في التكبير والذكر في العيدين وأيام منى كما انه لم يأمرهم بأذكار وأدعية معينة في الطواف والسعي والوقوف بعرفة

يأتي كل فرد أو جماعة بما شاؤا ، فلا بأس اذا بما استحدث الناس من الذكر وصيغ التكبير مما لم يرد عن السلف وان أشار بعض العلماء الى استنكاره لذلك كأنه يراه من البدع باستحداث صفة لعبادة تعد من الشعائر ، وهو ما سماه بعضهم بالبدعة الاضافية . وانما يتجه هذا اذا التزموه جهرا بغير زيادة ولا نقصان ، ويتأكد إنكاره اذا صار بحيث تظن العامة انه واجب أو مندوب بهذا الوصف . وقد ذكر الامام الشافعي في الام أن التكبير المشروع في العيدين هو كلمة « الله أكبر » وان التثليث في بدئه مستحب وان لكل أحد ان يزيد من الذكر ماشاء

وكذلك التكبير والدعاء والتضرع عند رمي الجمار ، يرمي كل جمرة بسبع حصيات مكبرا مع كل حصاة ويقف عند الاولى والوسطى فيطيل القيام يدعو ويتضرع ولا يطيل عند جمرة العقبة . هكذا كان يفعل النبي (ص) وروي تقدير قيامه (ص) عند الجمرتين الا بقدر سورة البقرة

وكانت ذبائح النبي (ص) في حجة الوداع مئة من الابل جاء بثلاث وستين منها معه من المدينة وجاء علي كرم الله وجهه بالباقي من اليمن وقد نحر النبي (ص) ٦٣ بيده الكريمة فكانت اشارة الى سني حياته الشريفة وأمر عليا فنحر الباقي . وأمر (ص) بأخذ بضعة (بفتح الباء قطعة) من كل بدنة فجعلت في قدر فطبخت فأكل هو وعلي منها وشربا من مرقها

كلمة تاريخية أدبية في أيام منى

سمعنا من الشريف في منى كلمة جديرة بالحفظ والتدوين ، قال : كانت أيام منى أول الاسلام من أطيب أيام الحياة — أي لما تقدم بيانه من الجمع بين اللذات الروحية والبدنية والاجتماعية — فلما قربت المواصلات بين الاقطار الاسلامية البعيدة صار ينتقل الوباء الى الحجاز مع الحجاج الموبوئين فيكون أشد فتكه عند اجتماع الناس في منى ، فصارت أيام منى أيام غم وكدر يتعثر الناس فيها بالموتى في كل مكان ، وتعد الحكومة لها الالوف الكثيرة من الاكفان ، ونحمد الله انه لم يمت فيها حد في هذا العام ، لا بمرض وبائي ولا بمرض عادي اه بالمعنى

أقول من الشواهد المؤيدة لهذه الكلمة التاريخية كثرة ذكر منى في أشعار المتقدمين الغزلية والتغزل بالنساء عند رمي الجمار فيها، وندرة مثل ذلك في غيرها من المشاعر، وعند غير رمي الجمار من الشعائر، ذلك بأن ما تقدم لنا شرحه من تأثير الاحرام ولباسه في القلب وتأثير رؤية المشاعر العظام والطواف بها والوقوف فيها أيضا — كل ذلك مما يصرف الحاج عن كل ما عداه، ولا يدع في قلبه فراغا واسعا لغير ذكر الله، لا ذكر الحسان، ولا ذكر الاهل والولد والاخوان، فالتجلي الالهي في جميع المشاعر، أثناء اداء جميع المناسك، تجلي هيبة وجلال، الا منى فان التجلي فيها تجلي انس وجمال، ولا تنس ما ذكرناه آنفا من تحلل الحاج فيها من الاحرام، واستباحته ما كان محرما من الاعمال، وكونها أيام عيد يستحب فيها التمتع بالطيبات، وزد على ذلك أن لياليها هي الليالي التي يكمل فيها نور القمر، وأن هواءها اللطيف يحبب اليك السمر،

رفقا بها يأيها الزاجر قد لاح سلع وبدا حاجر
وخلها تسحب أرسانها على الربا لا راعها ذاعر
واذكر أحاديث ليالي منى لاعدم المذكور والذاكر

*

لهف نفسي لليال سلفت آه لو ترجع هاتيك الليالي
لاتقل لي بمنى تعطى المنى بمنى كان من القوم انفصالي

*

صحبي مضوا فدامعي منهلة في اثر صحبي
ما فوق الهجران سهـ ما فانثنى عن قصد قلبي
كلا ولا نادى الجوى الا وكنت انا الملبي
ولقد وقفت على مني لولا المنى لقضيت نحبي

وأشعار الشعراء بالتغزل بالنساء في منى ورميهن الجمار كثيرة من أحسنها قول الشريف الرضي وهو من التغزل الخيالي التنزيه

من مُعيدٌ لِيَ ايا ... مي بجزع السمُرات (١)
ولياليَّ بجَمْع ... ومِنًى والجمرات (٢)
وظباء حاليات ... كظباء عاطلات (٣)
رائحات في جلابيـ ... ـب الدجا مختمرات (٤)
راميات بالعيون الـ ... ـنجل قبل الحصيات
أَلِعَقْرِ القلب راحوا ... أم لعقر البدَنات (٥)
كيف أودعت فؤادي ... أعينا غير ثقات
أيها القانص ما أحـ ... ـسنت صيد الظبيات
فلَكَ الشربُ وما زُوِّدت غير الحسرات
ياوقوفا ما وقفن ... في ظلال السلمات (٦)
موقفا يجمع فتيا ... ن الهوى والفتيات
نتشاكى ما عنانا ... بكلام العبَرات

(١) الجزع بكسر الجيم وسكون الزاي منعطف الوادي ومنحناه والسمرات جمع سمرة وهي شجرة السمر بفتح السين وضم الميم وهي من شجر العضاه أي ذي الشوك وشوكها قصير وورقها صغير ولها برم أي ثمر أصفر يؤكل (٢) جمع اسم المزدلفة وذكر في هذه الرحلة (٣) حاليات مزينات بالحلي وهن الظبيات بالمجاز وعاطلات غير متحليات وهن الظبيات بالحقيقة (٤) الدجا سواد الليل مع غيم يمنع رؤية القمر والنجوم . يعني يخرجن ليلا لرمي الجمار وغير الرمي من حاجهن فيكون الدجا ساترا لهن كالجلابيب حالة كونهن مختمرات يخمرهن مبالغة في الستر (٥) ذكر ضمير راحوا وقلما يأتي في الفصيح الا لنكتة كتذكيره في السلام على امرأة ابراهيم (ص) في سورة هود وارادة إذهاب الرجس عن نساء النبي (ص) في سورة الاحزاب لشمول الخطاب للخليلين والخطابين ولعل الشاعر هنا يعني انهن يخرجن مع رجالهن (٦) السلمات جمع سلمة بفتحتين وهو من شجر العضاه كالسمر ويكثر في جزيرة العرب ، والخطاب للرجال الذين تقفوا في ظلال شجر السلم مدة وقوف أولئك النساء يتشاكون معهن الجوى بكلام العبرات اي الدموع الدال على مافي القلوب

نظرٌ يشتَـل منا كل عين بقَذاة (١)
كم نأى بالنفر عنا من غزال ومهاة (٢)
آه من جيدٍ الى الدا ر كثير اللفتـات (٣)
وغرامٍ غير ماض بلقاء غير آت
فسقى بطن منى والـ ـخيف صوبُ الغاديات (٤)
وزمانا نائمَ العذ ال مأمونَ الوُشاة
في ليـال كالليالي بالغواني مُقمرات
غرست عندي غرسَ الـ ـشوق ممرورَ الجناة (٥)
أين راقٍ لغرامي وطبيبٌ لِشكاتي (٦)

(١) يعني ان كل عين من أعين فتيان الهوى والفتيات تذرف العبرات في موقفها ذاك حتى كان فيها قذاة تستنبط دموعها وهي مايقع في العين من عصفة تبن وغيرها (٢) المهاة البقرة الوحشية تشبه بها المرأة النجلاء لسعة عينيها وحسنهما ، وأشار بغزال ومهاة الى فتيان الهوى والفتيات الذين وصف موقفهن عند الوداع كما علم من ذكره النفر هنا وهو الدفع من منى (٣) المراد بالدار دار منى (٤) بطن منى واديها والخيف سفح جبالها أي سقاها كلها . ايصوب و ينسكب من المطر في الغداة أي أول النهار . فالغاديات جمع غادية وهي السحابة التي تنشأ أول النهار . أو المطرة فيه (٥) الجناة ما يجني من الثمر والظاهر انه أراد بالممرور المرّ — ضد الحلو — وفعل المرارة لازم لا مفعول له ، وانما الممرور من غلبت عليه المرة وهي بالكسر ما يسمى الصفراء أو السوداء من اخلاط البدن . والشريف من أئمة اللغة فلا بد ان يكون لاستعماله مخرج اذا صحت الرواية عنه وان لم يكن استعماله حجة في اللغة (٦) الشكاة بالفتح ما يشكى من مرض عرض أو ألم ألمّ . سأل ماعزّ فلا يوجد وهو الراقي لغرامه والطبيب لسقامه ، وانما احتاج الغرام للراقي دون الطبيب لأنه وجد نفسي روحي يحتاج الى المسكنات الروحية وان وهمية . والاستفهام استفهام توجع ويأس

ومن التغزل الخيالي في منى وغيرها من معاهد النسك وأعماله ما قاله أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي في قصيدته التي مدح بها ثقة الدولة يوسف بن محمد بن الحسين القضاعي صاحب صقلية الروم وهو:

ولما التقينا محرمين وسيرُنا ... بلبيك ربًّا والركائبُ تعسف (١)
نظرتُ اليها والمطيُّ كأنما ... غوارب منها معاطسُ رعَّف (٢)
فقالت أما منكنّ من يعرف الفتى ... فقد رابني من طول ما يتشوف (٣)
أراه اذا سرنا يسير حذاءنا ... ونوقف أخفاف المطيّ فيوقف
فقلت لتِربيها أبلغاها بأنني ... بها مستهام قالتا نتلطف (٤)
وقولا لها يا أم عمرو أليس ذا ... مِنًى والمُنى في خَيفهِ ليس يُخلَف (٥)
تفاءلت في أن تبذلي طارف الوفا ... بأن عنّ لي منك البنانُ المطرَّف (٦)
وفي عرفات ما يخبر أنني ... بعارفة من عطف قلبك أسعف (٧)

(١) قوله وسيرنا بلبيك ربا . معناه ان سيرهم ملابس ومصحوب بالتلبية المعروفة. وعسف الركائب خبطها في السير على غير هدى لعله لشدة الزحام أو في السرى، يقال بات فلان يعسف الليل اذا خبطه في ابتغاء طلبته (٢) الغوارب جمع غارب وهو الكاهل أو ما بين السنام والعنق ، والمعاطس الأنوف والرعف الرواعف أي التي يسيل منها الدم ، والمراد ان الغوارب جرحت من طول السير والاقتاب عليها حتى كان منها أنوفا راعفة (٣) رابه أوقعه في الريبة وهي الشك والتهمة ، والتشوف الى الشيء التطلع اليه ، أي ان تطلعه وإدمانه النظر الينا جعلني اتهمه بأنه يتعمد ذلك لأمر ما في نفسه ثم فسرت ذلك التشوف لصواحبها بسيره حذاءهم اذ سرن ووقوفه اذا وقفن (٤) التِرب بكسر التاء وسكون الراء الندة وهي بالكسر من ولد معك فترباها رفيقتان لها من سنها والمستهام من جعله الحب كالهائم في الفلوات لا يهتدي سبيلا الى النجاة (٥) شرع يستميلها بالتفاؤل بنيل مودتها مستنبطا له من أسماء الامكنة وغيرها على طريق العيافة التي ستذكر في الأبيات ، و بدأ بذكر منى فجعلها فألا بنيل المنى وهو جمع منية (بوزن غرف وغرفة) ومعناه ما يتمنى وقد تقدم ان خيف منى سفح جبلها (٦) طارف الوفاء حديثه وجديده والبنان الاصابع وقد يخص بالعقد العليا منها واحدتها بنانة والمطرف المخضوب بالحناء (٧) العارفة المعروف في المعاملة المراد من حديث « من أسدى اليكم معروفا فكافئوه » والاسعاف بالحاجة قضاؤها

وأما دماء الهَدْي فهي هُدى لنا ... يدوم ورأي في الهوى يتألّف (١)
وتقبيلُ ركنِ البيت إقبالُ دولة ... لنا وزمانٍ بالمودة يعطف
فأوصلتا ما قلته فتبسمت ... وقالت أحاديثُ العيافة زُخْرُف (٢)
بعيشي ألم أخبركما أنه قفى ... على لفظه بُرْدُ الكلام المفوّف (٣)
فلا تأمنا ما اسطعتما كيد نطقه ... وقولا ستدري أيُّنا اليومَ أعْيَفُ (٤)
اذا كنت ترجو في منى الفوز بالمنى ... ففي الخيف من إعراضنا نتخوّف
وقد أنذر الإحرام أن وصالنا ... حرام وأنّا عن مزارك نصدف (٥)
وهذا وقذفي بالحصى لك مخبر ... بأن النوى بي عن ديارك تقذف (٦)
وحاذر نِفاري ليلة النفر انه ... سريع، فقل من بالعيافة أعرف (٧)

---

(١) الهدي بالفتح ما يهدى الى الحرم من الانعام وهي ذبائح النسك والهدى بضم ففتح الدلالة على المطلوب بلطف والايصال اليه كذلك وهو ضد الضلال والمراد ان كلمة الهدي بالفتح فأل دال على تواصل دائم لنا (٢) العيافة التفاؤل أو التشاؤم بحركات الطير ومساقطها وأسمائها. هذا هو الاصل ثم توسعوا فيه بمثل ما ترى في هذه الابيات والزخرف الزينة والتزويق تعني انها من زخرف الكلام لا من الحقائق كقوله تعالى (يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) وفي حديث قبيصة عند أبي داود «العيافة والطرة والطرق من الجبت» أي من الخرافات كالكهانة والسحر والحديث صحيح السند (٣) البرد الثوب المخطط والمفوف الرقيق، وتعني به لطافة كلامه وحسنه وكونه ينم عما وراءه (٤) أعيف اسم تفضيل من العيافة. يقال عاف الطير يعيفها اذا زجرها وتطيرها وهو ما تقدم آنفا (٥) نصدف نعرض (٦) أي وقذفي بالحصا في رمي الجمار مخبر لك بأن النوى أي البعد أو وجهة السفر (وهي مؤنثة) ترمي بي في مكان بعيد عن ديارك (٧) النفار والنفور مصدر نفر (من باب نصر وضرب) وهو الشرود بسبب مزعج ومنه نفار الظبي والدابة والنفر للقتال. والنفر التفرق. ويوم النفر وليلة النفر هو يوم ينفر الحاج من منى وهو ثاني أيام التشريق لمن تعجل ويسمى النفر الاول وثالثها لمن تاخر ويسمى النفر الثاني.

فلم أر مثلينا خليلي مودة لكلٍّ لسان ذو غرارين مُرهَف (١)

ومما قيل في أيام منى ولياليها مارواه صاحب الاغاني عن معبد المغني الذي يضرب به المثل قال أتيت أبا السائب المخزومي — وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة — فلما رآني تجوّز أي خفف الصلاة وقال مامعك من مبكيات ابن سريج ؟ قلت له :

ولهنّ بالبيت العتيق لُباتة والبيت يعرفهن لو يتكلم
لو كان حيًّا قبلهن ظعائنا حيا الحطيمُ وجوههن وزمزم
لبثوا ثلاث منى بمنزل غبطة وهمو على سفرٍ لعمرك ماهمو
متجاورين لغير دار إقامة لو قد أجدَّ تفرق لم يندموا

فقال لي غنه فغنيته ثم قام يصلي فأطال ثم تجوز إلي فقال مامعك من مطرباته ومشجياته ؟ فقلت قوله

اسنا نبالي حين ندرك حاجة مابات أو ظل المطي معقلا

فقال لي غنه فغنيته ثم صلى وتجوز الي وقال ما معك من مرقصاته ؟ فقلت

فلم أر كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحج أقتنّ ذا هوى (٢)

فقال كما أنت حتى ائمر لهذا بركعتين

وأما التغزل في نساء معروفات في وقائع ومشاهد كانت هنالك فكثيرة، لزبير النساء الشهير عمر بن أبي ربيعة الشاعر القرشي كثير — منها قوله في أيام منى

ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها وموقفي وكلانا ثَمّ ذو شجن
وقولها آثريا وهي باكية والدمع منها على الخدين ذو سَنَن (٣)

---

(١) أي لكل منا لسان ذو حدين مرهف من أرهف السيف اذا رقق حده ، ويعني بغراري اللسان قدرته على جعل الكلام الواحد على وجهين متقابلين متضادين كجعل أعمال النسك ومواضعه للتفاؤل وللتشاؤم فهو كالسيف ذي الحدين

(٢) الشعر لعمر بن أبي ربيعة وانا لابن جريج الصوت . والتجمير رمي الجمار وأفتن بالهمزة كفتن من الفتنة وهو لغة نجد وفي نسخة ديوان عمر المطبوعة أفلتن

(٣) السنن بالفتح الطرق وهي مجاري الدمع

بالله قولي له في غير معتبة ماذا أردت بطول المكث في اليمن
ان كنت تطلب دينا أو رضيتَ بها فما أخذت بترك الحج من ثمن

قال ابن سريج المغني ما ظننت ان الله عز وجل ينفع أحدا بشعر عمر ابن أبي ربيعة حتى سمعت وأنا باليمن منشدا ينشد قوله : بالله قولي له — البيتين — فحركني ذلك على الرجوع الى مكة فخرجت مع الحجاج وحججت

وقد كان عمر مفتونا بالنساء وحديثهن ولم تكن هيبة بيت الله وسائر المشاعر الشريفة لتصرفه عن مغازلتهن حتى في أثناء أداء المناسك لانه وهو مكي قد ألفها واعتادها والآفاقيون أشد هيبة وخشوعا هنالك من الحرميين في الغالب . ومما روي عنه في كتاب الاغاني أنه بينما كان يطوف رأى امرأة من أجمل النساء فوقعت في قلبه فدنا منها فكلمها فلم تلتفت اليه ، فعاودها في الليلة الثانية فقالت اليك عني يا هذا فانك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمة فألح عليها يكلمها حتى خافت ان يشهرها . فلما كان في الليلة الثالثة جاءت بأخيها معها الى الطواف فلما رأى عمر أخاها معها عدل عنها فقالت بقول جرير

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي صولة المستأسد الضاري

وروي ان المنصور حدث بهذا الخبر فقال : وددت انه لم تبق فتاة في خدرها الا سمعت بهذا الحديث . أقول وهو شاهد على حكمة الشرع في حظر السفر على المرأة الا مع ذي محرم . هذا وان شعر عمر يوهم انه كان من أفسق الفساق ولكن روى صاحب الاغاني عنه انه حلف في مرض موته بالله انه ماركب فاحشة قط ولا كشف ثوبا عن حرام قط ، وحلف مرة بعتق كل مملوك له على ذلك وكان له في الحوك وحده سبعون عبدا .

ومما روي عن غير عمر في هذا الباب تشبيب النميري بزينب الثقفية . ذلك أن يوسف بن الحكم الثقفي والد الحجاج المشهور كان قد اعتل في بلده (الطائف) فنذرت بنته زينب لتحجن ماشية ان عوفي ، فعوفي فخرجت في نسوة فقطعن بطن وَجّ (أي بطن وادي وج) وهو ثلاث مئة ذراع في يوم جعلته مرحلة لثقل بدنها ولم تقطع مابين مكة والطائف الا في شهر ، وكان محمد بن عبدالله النميري الطائفي يهواها فقال في حجها أبياتا منها :

تضوّع مسكا بطنُ نعمان إذ مشت ... به زينب في نسوة عطرات (١)
تهادَين ما بين المحصب من منى ... وأقبلن لا شعثا ولا غبرات (٢)
أعان الذي فوقَ السموات عرشه ... مواشي بالبطحاء مؤتجرات (٣)
مررن بوجٍّ ثم رحن عشية ... يلبين للرحمن معتمرات
يخبئن أطراف البنان من التقى ... ويقتلن بالالحاظ مقتدرات (٤)
وليست كأخرى أوسعت جيب درعها ... وأبدت بنان الكف للجمرات
وعلت بنان المسك وحفا مُرَجّلا ... على مثل بدر لاح في الظلمات (٥)
وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت ... برؤيتها مَن راح من عرفات

وقد أراد الحجاج ان يفتك بالنميري لتشبيبه باخته لولا أن منعه منه عبد الملك وكتب اليه ان لاسبيل له عليه على انه ما وصفها هي وصواحبها الا بالتقى

وعلى ذكر أبيات النميري فيمن توسع جيب درعها وترفع يدها عند رمي الجمار لبرى ساعدها ، وتتراءى يوم جمع أي عند انصراف الناس منها صباحا الى منى لتفتن من أفاض اليها من عرفات — على ذكرها نقول لاعجب اذا وجد في النساء المفتونات بجمالهن من تحب ان تظهر جمالها في تلك المعاهد الشريفة كما وجد في الرجال مثل عمر بن أبي ربيعة الذي يخرج الى الحج ليغازل النساء ، ولكن هذا نادر وأكثر الشعر فيه تخيل ، ومنه قول العرجي الشاعر من أبيات كانوا يتغنون بها :

أماطت كساء الخز عن حُرّ وجهها ... وأدنت على الخدين بُرد امهلملا (٦)
من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ... ولكن ليقتلن البريء المغفلا (٧)

روى أبو الفرج عن عبدالله بن عمر العمري قال : خرجت حاجا فرأيت امرأة جميلة

(١) تضوع فاحت رائحته وبطن نعمان أي وادي نعمان وهو بين الطائف ومكة ويروى حرف القافية خفرات والخفر شدة الحياء (٢) المحصب موضع بين مكة ومنى (٣) مؤتجرات طالبات للاجر (٤) ويروى يخمرن بدل يخبئن والمصراع الثاني * ويخرجن جنح الليل معتجرات أي متلفعات بالمعاجر على رؤوسهن (٥) البنان بكسر الباء جمع بنة بالفتح وهي الرائحة الطيبة والمرجل متابعة الشيء وأصله متابعة السقي . والوحف الشعر الكثير الحسن والمرجل من الترجيل وهو تسريح الشعر بالمرجل أي المشط . أي وعلت روائح المسك منها شعرا اتيقا حسنا مرجلا فوجه يلوح بينه كالبدر في الظلمات (٦) البرد بالضم ثوب مخطط والمهلهل الرقيق النسيج والواهي أي برد لا يستر الوجه لرقته ولعله من الهلل بالتحريك وهو نسيج المنكبوت (٧) الحسبة بالضم والاحتساب في العمل اعتداده ذخرا عند الله . والمغفل من لا فطنة له فيتقي فتنة النساء

تتكلم بكلام رفثت فيه فأدنيت ناقتي منها ثم قلت لها يا أمة الله ألست حاجة؟ اما تخافين الله؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسنا ثم قالت: تأمل يا عمي فاني ممن عنى العرجي بقوله

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلا

قال فقلت لها : فاني أسأل الله أن لا يعذب هذا الوجه بالنار . قال و بلغ ذلك سعيد ابن المسيب فقال : أما والله لو كان من بعض بغضاء أهل العراق لقال لها : اعزبي قبحك الله ، ولكنه ظرف عباد الحجاز (قال أبو الفرج) ورويت هذه الحكاية عن أبي حازم بن دينار — وذكر حكاية أخرى في معناها فيها ان أبا حازم قال لاصحابه: أدعوا الله لهذه الصورة الحسنة ان لا يعذبها بالنار . وأبو حازم من كبار عباد التابعين . وكان عباد العراق ولا سيما أهل البصرة منهم مشهورين بالشدة في العبادة والزهد ومنهم خرج أكابر الصوفية

وانا نختم هذا السياق بخبر أبي نواس فاسق الشعراء فقد روي أنه كان يهوى جارية لاحد الثقفيين بالبصرة اسمها جنان وكانت حسناء أديبة عاقلة ظريفة تروي الاشعار وتعرف الاخبار فقيل له يوما انها عزمت على الحج فقال أما والله لا يفوتني المسير معها والحج عامي هذا ان أقامت على عزيمتها ، ثم سبقها الى الخروج وقال بعد عودته:

ألم تر أنني أفنيت عمري بمطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجد سببا اليها يقربني وأعيتني الامور
حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعني و إياها المسير

وروى صاحب الاغاني من خبر حجه عمن شهده وقد أسرم أنه لما جنه الليل جعل يلبي بشعر ويحدو به و يطرب ففنى به كل من سمعه وهو قوله

لهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك لبيك إن الحمد لك
والملك لاشريك لك والليل لما أن حلك
والسابحات في الفلك على مجاري المنسلك
ما خاب عبد أملك أنت له حيث سلك
لولاك يارب هلك كل نبي وملك
وكل من أهلّ لك سبح أو لبي فلك

يامحطئا ما أغفلك عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك لبيك إن الملك لك
والحمد والنعمة لك والعز لاشريك لك

والعبرة في هذه الوقائع والاشعار من وجوه (منها) أنه يدل على أنه لا يمكن أن يجتمع النساء والرجال الكثيرون في مكان ينظر بعضهم الى بعض الا ويكون لمغازلة النساء بالكلام أو بالنظر نصيب فيه كما قال عمر بن أبي ربيعة في أبيات مقصورة

ومن مالئ عينيه من شيء غيره اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمي

واذا كانت معاهد الحج لم تخل من المغازلة والتغزل في أول عصر الحضارة الاسلامية وأول العهد بتحجب النساء والدين لم يزل في قوة سلطانه على الارواح حتى ان أشد المترفين اسرافا في الخلاعة ومغازلة النساء لم يرتكب في عمره فاحشة فما ظنك في غير هؤلاء وأمثالهم وفي أهل هذا الزمان في غير تلك المعاهد ؟ قال لي بعض القيسيين قد مات الدين ولا يقصد الناس المعبد الا لمغازلة النساء

(ومنها) ان أقوال الشعراء في معاهد الحج وأيامه وأعماله مما يشوق القلوب اليه الى تلك البلاد كما وقع لابن سريج في لبن ولاجله كتبت هذا الفصل من الرحلة ، انني وجدت نفسي في أيام كتابتي لهذا الشعر فيه شديدة الشوق الى الحجاز ومشاهره وليالي عرفة والمزدلفة ومنى ، على انني لست من المغازلة والغزل في شيء ، ولم أر هنالك ولم أسمع عن أحد شيئا من ذلك ولله الحمد

ولكنني أذكر في الكلام على هذه العبرة كلمتين لفاضلين مصريين كانا معنا في الحجاز (احداهما) قول أتقى الرجلين وأحسنهما تدينا وهو محصن انه رأى في منى امرأة في نافذة دار مقابلة للدار التي كان فيها نحمل منظاراً تنظر فيه فتوهم أنها تنظر اليه فاشتغل قلبه بذلك مدة وجوده في منى (والثانية) قول الآخر وهو أعزب: انني لم أر في الحجاز امرأة وسيمة يشتهي المرء ان يعيد اليها طرفه فهل هؤلاء من نساء العرب اللواتي شبب بهن الشعراء ذلك التشبيب الفاتن الذي يخجل لقارئه ابن أجمل نساء الارض ؟ ويا ليت شعري كيف كان يكون غزلهم وتشبيبهم لو كان في نسائهم من الجمال ما نعهد في الآستانة وغيرها ؟

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٣٠ شعبان ١٣٣٦ — ١٨ الجوزاء (ر ٣) ١٢٩٦ ه ش ٩ مايو ١٩١٨

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٨١) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٢) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٣) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٤) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

المحاجة المجادلة والمغالبة في قامة الحجة . والحجة الدلالة المبينة للمحجة أي المقصد المستقيم كما قال الراغب ، وأصل المحجة وسط الطريق المستقيم ، وتطلق الحجة على كل مايدلي به أحد الخصمين في إثبات دعواه أو رد دعوى خصمه، فتنقسم الى حجة ناهضة يثبت بها الحق، وحجة داحضة يموه بها الباطل ، وانما يسمى ما لا يثبت به الحق حجة على سبيل ادعاء الخصم وحكاية لقوله ، واصطلحوا على تسميتها شبهة .

ولما حاج ابراهيم قومه ببيان بطلان عبادة الاصنام وربوبية الكواكب واثبات وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده — وهي الحنيفية — حاجوه ببيان أوهامهم في شركهم ، وقد بين الله تعالى في سورتي الانبياء والشعراء انهم اعتذروا له عن عبادة الاوثان والاصنام بتقليد آبائهم ، وليس للمقلد أن يحتج، ولكنه يجادل ويحاج مع كونه لا يخضع للحجة اذا قامت عليه ، ويؤخذ من هذه الآيات أنهم لما لم يجدوا حجة عقلية على شركهم بالله خوفوه أن تمسه آلهتهم بسوء . والظاهر ان هذا كان قبل ما حكى الله تعالى عنه وعنهم في سورة الشعراء بقوله (٢٦ : ٧٢ قال هل يسمعونكم اذ تدعون ٧٣ أو ينفعونكم أو يضرون ٧٤ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) وقبل واقعة تكسيره لأصنامهم التي قال الله فيها من سورة الانبياء انهم رجعوا الى أنفسهم فاعترفوا بظلمهم، ثم نكسوا على رءوسهم مصرين على شركهم ، وكثيرا ما يضطرب المقلد لسماع الحجة إذ يومض في قلبه برقها، ويهز شعوره رعدها ويكاد يحييه ودقها ، ثم ينكس على رأسه ، ويعود الى سابق وهمه ، خائفا منه غير مخوف ، راجيا غير مرجو ، كما نراه في عباد أصحاب القبور ، الذين يتوهمون أن قبورهم وغيرها من آثارهم تدفع عمن زارها أو تمسح بها الضر وتكشف السوء ، وتدر الرزق وتخزي العدو ، اما بتصرفهم في الخلق ، وإما لانهم قربان عند الرب ، ولا يرون ذلك ناقضا للايمان الصحيح بالله عز وجل (١٢:١٠٦ ومايؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) قال تعالى

﴿ وحاجه قومه ﴾ أي وجادله قومه بعد ماتقدم من أمره معهم وخاصموه في أمر التوحيد الذي قرره لهم كأن زعموا كما روي وسمع من أمثالهم أن اتخاذ الآلهة لا ينافي الايمان بالله الفاطر سبحانه، لانهم وسطاء وشفعاء عنده ، ومتخذون لاجله ، وذلك ما تقدم

قريبا عن ابن زيد في تفسير قوله (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا) وخوفوه بطشهم به فماذا قال عليه السلام؟ ﴿ قال أتحاجوني في الله وقد هدان ﴾ أي أتجادلونني مجادلة صاحب الحجة في شأن الله تعالى وما يجب في الايمان به - والحال انه قد فضلني عليكم بما هداني الى التوحيد الخالص والحنيفية التي أقمت بها الحجة عليكم، وانتم ضالون باصراركم على شرككم وتقليدكم به من قبلكم؟ وقد خفف نون (تحاجوني) نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان وذلك بحذف احدى النونين وشددها سائر القراء، وهما لغتان للعرب في مثلها. وحذفت الياء من هداني في الرسم، لانها لا تظهر في النطق ﴿ ولا أخاف ما تشركون به ﴾ من الكواكب والاصنام أن تصيبني بسوء، فاني أعلم علم اليقين أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تقرب ولا تشفع ﴿ الا ان يشاء ربي شيئا ﴾ أي لكن أستثني من عموم الخوف في عموم الاوقات، من جهة آلهتكم كغيرها من المخلوقات، ان يشاء ربي القادر على كل شيء وقوع مكروه بي، فانه يقع لا محالة كما شاء ربي، فان فرض انه شاء أن يسقط علي صنم يشجني، أو كسف من شهب الكواكب يقتلني، فان ذلك يقع بقدرة ربي ومشيئته، لا بمشيئة الصنم أو الكوكب ولا بقدرته، ولا بتأثيره في قدرته تعالى وارادته، ولا بجاهه عنده وشفاعته، اذ لا تأثير لشيء من المخلوقات في مشيئته الخالق الازلية الجارية بما ثبت في علمه الازلي ﴿ وسع ربي كل شيء علما ﴾ أي ان علم ربي وسع كل شيء وأحاط به. ومشيئته مرتبطة بعلمه المحيط القديم وقدرته منفذة لمشيئته، فلا يمكن ان يكون لشيء من المخلوقات التي تعبدونها ولا لغيرها تأثير ما في صفاته، ولا في أفعاله الصادرة عنها، لا بشفاعة ولا بغيرها، وانما كان يكون ذلك لو كان علم الله تعالى غير محيط بكل شيء، فيعلمه الشفعاء والوسطاء من وجوه مرجحات الفعل أو الترك بالشفاعة أو غيرها ما لم يكن يعلم، فيكون ذلك هو الحامل له على الضر أو النفع، أو العطاء أو المنع. أخذنا هذا المعنى لهذه الجملة من حجج الله تعالى على نفي الشفاعة الشركية بمثل قوله (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء) فراجع تفسيره (في ص ٣١ من جزء التفسير الثالث) وجعل الجملة بعضهم كالتعليل للاستثناء، بجواز

أن يكون قد سبق في علمه تعالى أصابته بسوء يكون سببه الاصنام، أو لبيان انه لإحاطة علمه لا يفعل الا ما فيه الخير والصلاح ، و بعضهم تعريضا بجهل معبوداتهم من الكواكب والاوثان ، وما قلناه أرجح وهو من قبيل تفسير القرآن بالقرآن .

﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أيها الغافلون ان هذا هو شأن الرب الفاطر ، وأنه ينافي ما أنتم عليه من الشرك الظاهر، ومنه اعتقاد وقوع الضرّ بي أو النفع لكم، بالتصرف الذي تزعمونه في معبوداتكم ؟ وقد تقدم انهم كانوا مؤمنين بأن للعالم كله ربا خالقا غير هذه الآلهة والارباب المتخذة من مخلوقاته اتخاذا ، ولكنهم لم يكونوا يعقلون بأنفسهم أن نسبة جميع الخلق الى الخالق واحدة من حيث انه هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فسخر ماشاء لما شاء بسنن الاقدار، ونظام الاسباب والمسببات، ثم هدى العقلاء لتلك الاسباب، ليطلبوا المنافع و يتقوا المضار، وقد ظهر بالدلائل والتجارب انها مسخرة على سواء، فالسلطة الغيبية العليا له وحده ليس لغيره تأثير فيها معه، ولا تدبير، فاذا جعل بعض الاجناس أو الاشخاص سببا للنفع أو الضر بارادة خلقها لها كالحيوانات، أو بغير ارادة كالجمادات ، فلا يقتضي ذلك أن ترفع عن رتبة المخلوقات، ونجعل أربابا معبودات، وكان يجب أن يفطن العاقل لذلك و يتذكر بالتذكير به، لانه تذكير بما يدركه العقل بالبرهان، وتعرفه الفطرة بالوجدان، فكأنه مما غفل عنه، لا مما جهله، لانه معلوم له بالقوة . وفسر ابن جرير التذكر هنا بالاعتبار والاتعاظ وهو أحد معانيه (فذكر ان نفعت الذكرى * سيذكر من يخشى)

ومن العبرة في الآية ان هذا الضرب من الشرك الذي رده امام الموحدين ابراهيم صلوات الله عليه ، لا يزال فاشيا في كثير من المنتمين في التوحيد الى ملته، لانهم لم يعقلوا ماتقدم من حجته، فهم ينسبون الى من يعتقدون تصرفهم في المخلوقات، من احياء وأموات ، مايقع عقب زيارتهم لهم أو نفع أصاب حي يدعوا له ، أو توسلهم بهم، من زوال ألم . أو خير ألمّ . أو ضر أصاب عدوا دعوا عليه؛ وانما يقع مايقع من ذلك سبب حقيقي جلي، أو وهمي خفي، وكل بتقدير الله السميع العليم، العزيز الحكيم

و بعد ان بين لهم عليه السلام أنه لا يخاف شركاءهم بل يخاف الله وحده من ناحية الاسباب ومن غير ناحيتها قال :

﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ؟ ﴾ أي وكيف أخاف ما أشركتموه بربكم من خلقه فجعلتموه ندا له ، وهو لاينفع ولا يضر ، ولا يسمع ولا يبصر ، ولا تخافون أنتم إشراككم بالله خالقكم مالم ينزل به عليكم حجة بينة بالوحي ، ولا ببرهان العقل ، تثبت لكم جعله شريكا له في الخلق والتدبير ، أو في الوساطة والشفاعة والتأثير ، فافتياتكم على خالقكم الذي بيده الضر والنفع بهذه المو بقة الفظيعة هو الذي يجب أن يخاف و يتقى . فالاستفهام للإنكار التعجبي من تخويفهم اياه مالا يخيف ، في حال كونهم لايخافون أخوف ما يخاف ، وقد جعل الاستفهام عن كيفية الخوف لا عن الخوف نفسه لبيان أن انتفاء كل صفة وصورة يمكن ان تدعى لصحة هذا الخوف فهي باطلة ، وانه عليه السلام لم يجد لهذا الخوف كيفية ولا وجها ، فلا يخاف هؤلاء الشركاء لذواتهم ، ولا بدعوى وساطتهم عند الله وشفاعتهم ، ولا لقدرة على الضر والنفع قد يدعى ولو بجعل الله لهم ، ولا لثبوت جعلهم أسبابا للضرر بغير إرادة ولا اختيار منهم . فالمراد ان جميع وجوه الخوف الحقيقية والمجازية منتفية ، والا فعليهم بيان كيف يخافون .

وقد حذف متعلق الشرك في مقام انكار خوفه من شركائهم ، وذكره بعده في مقام انكار عدم خوفهم من شركهم ، - وهو قوله « أشركتم بالله مالم ينزل به سلطانا » - لان الحاجة الى بيان عدم وجود السلطان — أي الدليل — على هذا الشرك انما يحتاج اليه في مقام اسناده اليهم والتعجب من عدم خوفهم سوء عاقبته ، ما لايحتاج اليه في مقام انكار هو كل كيفية يمكن ان تدعى للخوف لشركائهم . فهو يثبت بذلك الاطلاق انه لا يمكن ان توجد كيفية للخوف مما أشركوه ، فلو عدل عنه الى تقييد انكاره بما ذكر لفات بهذا القيد ذلك العموم البليغ ، وذهب ذهن السامعين الى انه سيخاف اذا ظهر له دليل على صحة دعواهم ، وهم قوم مفلدون يعتقدون انه لابد من وجود أدلة تثبت صحة اعتقادهم ، وان لم يعرفوها أو يقدروا على بيانها لخصمهم ، وأما ذكر هذا المتعلق في مقام الانكار التعجبي من عدم خوفهم فهو ضروري لانه تذكير لهم عند ذكر عقيدتهم بأنهم لا عذر لهم بالجهل ببطلانها ، لانه دليل لهم عليها

وقال بعض المفسرين أن قوله « ما لم ينزل به عليكم سلطانا » قد ذكر

على طريق التهكم مع الاعلام بأن الدين لا يقبل الا بالحجة المنزلة أو مطلق الحجة القاطعة ، وأن التقليد ليس بعذر ، ولا سيما تقليد من ليس على هداية ولا علم ، ولا بصيرة ولا عقل . وذكر لوازي في العبارة وجهين (أحدهما) انها كناية عن امتناع وجود الحجة والسلطان على الشرك ، والمعنى ما لم ينزل به سلطانا لانه باطل لا يمكن ان يقوم عليه برهان، فهو كقوله تعالى (ومن يدعُ مع الله الها آخر لا برهان له به) أي لا برهان له به يعلمه ولا برهان يجهله لاستحالة البرهان على الباطل (ثانيهما) انه لا يمتنع عقلا ان يؤمر باتخاذ تلك التماثيل والصور قبلة للدعاء والصلاة . وأقول ان هذا الوجه لا محل له لان جعلها قبلة غير جعلها شركاء يخاف ضرها ويرجى نفعها لذاتها او لوساطتها عند الله تعالى . فالقبلة لا تأثير لها في نفع ولا ضر لا بالذات ولا بالشفاعة كما يعتقدون في الشركاء وانما يتوجه اليها امتثالا لامر الله ومثل ذلك استلام الحجر الاسود في الطواف

ثم رتب صلوات الله عليه على هذا الانكار التعجبي ما هو نتيجة له بقوله

﴿ فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون ؟ ﴾ المراد بالفريقين فريق الموحدين الحنفاء الذين يعبدون الله وحده ، ويخافونه ويرجونه ولا يخافون ولا يرجون غيره من دونه ، وانما يعارضون الاسباب بالاسباب ، ويدافعون الاقدار بالاقدار ، كاتقاء أسباب الامراض قبل وقوعها ، ومدافعتها بالادوية بعد الابتلاء بها؛ وفريق المشركين الذين استكبروا تأثير بعض الاسباب، فاتخذوا منها ما اتخذوا من الآلهة والارباب، بل نسبوا الى بعضها النفع والضر بخداع المصادفات واختراع الاوهام . فهو يقول لهم أيّ هذين الفريقين أحق وأجدر بالامن على نفسه، من عاقبة عقيدته وعبادته ؟ ونكتة عدوله عن قول : فاينا أحق بالامن . الى قوله « فأي الفريقين » هي بيان ان هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك ، من حيث إن أحد الفريقين موحد والآخر مشرك ، لا خاصة به وبهم، فهي متضمنة لعلة الامن ، وقبل ان نكتته الاحتراز عن تزكية النفس . واسم التفضيل على غير بابه فالمراد أينا الحقيق بالامن ، ولكنه عبر باسم التفضيل تلطفا في استنزالهم عن منتهى الباطل بدعوى انهم هم الحقيقون بالامن، وانه هو الحقيق بالخوف، الى الوسط النظري بين الامرين،

وهو أي الفريقين أحق ، واحترازاً عن تنفيرهم من الاصغاء الى قوله كله . ثم قال «ان كنتم تعلمون» أي أيهما أحق بالامن — أو ان كنتم من أهل العلم والبصيرة في هذا الامر ، فأخبروني بذلك ، وبينوه بالدلائل ، وهذا إلجاء الى الاعتراف بالحق ، أو السكوت على الحماقة والجهل . أما الجواب فهو قوله الحق :

﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون ﴾ في هذا الجواب احتمالات (أحدها) أنه من قوم ابراهيم اذ تذكروا لما ذكرهم، وراجعوا عقولهم وفطرتهم، فاعترفوا بالحق كما اعترفوا حين كسر أصنامهم من بعد ، اذ قال لهم (بل فعله كبيرهم فاسألوهم ان كانوا ينطقون * فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رءوسهم: لقد علمت ماهؤلاء ينطقون) وقد روى ابن جرير هذا الاحتمال عن ابن جريج (الثاني) أنه من قبل ابراهيم عليه السلام صرح به اذ سكتوا عن الجواب مفحمين مبالغة في تبكيتهم ، وقد قال الآلوسي ان هذا روي عن علي كرم الله وجهه، ولم أره في تفسير ابن جرير ولا ابن كثير ولا الدر المنثور، ولعله نقله عن بعض تفاسير الشيعة. (الثالث) انه من الله عز وجل فصل به القضاء بين ابراهيم ومن حاجه من قومه . ورواه ابن جرير عن ابن اسحق وابن زيد واختاره وقال انه أولى القولين بالصواب، وقد يرجحه في اللفظ عطف الآية التالية على هذه، وستعلم ماعندنا في ذلك

الظاهر ان الامن في هذا الكلام يقابل الخوف فيه. وهو الامن من عذاب الرب المعبود لمن لا يرضى ايمانه وعبادته ، فانهم خوفوا ابراهيم ان تمسه آلهتهم وأربابهم بسوء لجحده إياهم وعداوته لهم، فأجاب بأنه انما يخاف الله وحده ولا يخافهم ، والظلم الذي يلبس به الايمان ويخالطه، فينقص منه أو ينقضه، هو الشرك في العقيدة أو العبادة، كاتخاذ ولي من دون الله يدعى معه أو من دونه ، ولو لأجل التقريب اليه والشفاعة عنده، ويحب كحبه ، ويعظم من جنس تعظيمه ، باعتقاد ان له سلطانا من وراء الاسباب ينفع به ويضر بذاته ، أو بتأثيره في مشيئة الله وقدرته ، ولا يدخل فيه الظلم الذي ليس من شأنه أن يلابس الايمان ، كظلم المرء نفسه باتيان بعض المضار، أو ترك بعض المنافع عن جهل أو اهمال ، أو ظلم غيره ببعض الاحكام أو الاعمال ، وهذا التفسير للظلم يبين به ماورد تفسيره به في الحديث المرفوع الذي سنذكره. فان قيل

ان الظلم في الآية نكرة في حيز النفي فهي للعموم والشمول ، قلنا ان عموم كل شيء بحسبه فقوله تعالى (ان الله على كل شيء قدير) عام في كل شيء ممكن ، ولا يدخل في عمومه ذات الله تعالى وصفاته الواجبة له فلا يقال انه قادر على إعدامها ولا على ايجادها ولا انه غير قادر ، وقوله في ملكة سبأ (وأوتيت من كل شيء) عام في كل ما يحتاج اليه الملوك ، لا كل شيء في الوجود ، فمن لم يقبل جعل مثل هذا من العام باطلاق ، فليجعله من العام الذي أريد به الخاص .

ولا يخفى ان الامن في الآية مقصور على الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم فاذا حمل العموم فيها على إطلاقه وعدم مراعاة موضوع الايمان يكون المعنى : الذين آمنوا ولم يخلطوا ايمانهم بظلم مّا لانفسهم في ايمانهم ولا أعمالهم البدنية والنفسية من دينية ودنيوية ، ولا لغيرهم من المخلوقات ، من العقلاء والعجماوات ، أولئك لهم الامن من عقاب الله تعالى الديني على ارتكاب المعاصي والمنكرات ، وعقابه الدنيوي على عدم مراعاة سننه في ربط الاسباب بالمسببات ، كالفقر والاسقام والامراض ، دون غيرهم ممن ظلموا أنفسهم أو غيرهم ، فان الظالمين لا أمان لهم ، بل كل ظالم عرضة للعقاب ، وان كان الله تعالى لسعة رحمته لا يعاقب كل ظالم على كل ظلم ، بل يعذب من يشاء ويغفر لمن شاء ما دون الشرك به . وهذا المعنى في تفسير الآية صحيح في نفسه ، ويترتب عليه ان الامن المطلق من الخوف من عقاب الله الديني والدنيوي جميعا لا يصح لاحد من المكلفين ، دع خوف الهيبة والاجلال ، الذي يمتاز به أهل الكمال ، وقد صح اسناد الخوف الى الملائكة والانبياء (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم — ١٧ : ٥٧ ويرجون رحمته ويخافون عذابه — ٢١ : ٢٨ وهم من خشيته مشفقون) وهذا التفسير يؤيد قول ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، (الا ان يشاء ربي شيئا) على ما تقدم . وأما الامن من عقاب الآخرة بالفعل وهو النجاة منها فهو ثابت للملائكة والانبياء عليهم السلام ، ولكثير ممن دونهم من الصالحين الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وان لم يعلم ذلك في الدنيا كل منهم ليبقى جامعاً بين الخوف والرجاء . ومن الناس من يؤمن فيموت قبل ان يظلم أحدا . وقد ورد حديث في ادخال مثل هذا في مفهوم الآية

أما معنى الآية على الوجه الاول فهو : الذين آمنوا بالله تعالى ولم يخلطوا إيمانهم بظلم عظيم وهو الشرك به سبحانه أولئك لهم الامن دون غيرهم من العقاب الديني المتعلق بأصل الدين وهو الخلود في دار العذاب، وهم فيما دون ذلك بين الخوف والرجاء

وروي عن علي كرم الله وجهه انه قال: نزلت هذه الآية في ابراهيم وقومه خاصة ليس في هذه الامة ، وظاهر ان الله خص ابراهيم وقومه بأمن موحدهم من عذاب الآخرة مطلقا لا من الخلود فيه فقط، ولعل سبب هذا إن صح ان الله تعالى لم يكلف قوم ابراهيم شيئا غير التوحيد اكتفاء بتربية شرائعهم المدنية الشديدة لهم في الاحوال الشخصية والادبية وغيرها حتى ان التوحيد الخالص كان كافيا لتطهيرهم من رذائلهم كلها. وقد اكتشف الباحثون شريعة حمورابي الملك العادل الذي كان في عهد ابراهيم – والذي باركه وأخذ منه العشور كما في سفر التكوين – فاذا هي كالتوراة المعروفة في أكثر أحكامها، وأما فرض الله الحج على لسان ابراهيم فقد كان في قوم ولده اسماعيل لا في قومه الكلدانيين. ومذهب أهل الحق من هذه الامة أن من موحديها من يعذبون بالمعاصي على قدرها، لانهم خوطبوا بشريعة كاملة يحاسبون على إقامتها، ولا يخلد مؤمن في النار بذنبه

هذا – وأما حصر الامن فيمن ذكر على الوجهين فيؤخذ من تكرار الاسناد ثلاثا (١) وتقديم المسند على المسند اليه « لهم الامن » . وأما كون المراد بالظلم هنا العظيم منه فقد يدل عليه تنكيره ، وأما جعل هذا الظلم العظيم خاصا بالشرك بالله تعالى فلا يعلم من نص الآية قطعا ولكن السياق وموضوع الايمان قد يدل عليه دلالة غير قطعية لغة كما علم مما تقدم . ولذلك فهم بعض الصحابة (رض) منه العموم المطلق وهم من أهل اللسان، فأخبرهم الرسول عليه الصلاة والسلام – وهو أعلم بمراد من أنزله عليه – بمعناه الدال على أنه من قبيل العام الذي أريد به الخاص، روى أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من حديث ابن مسعود أن الآية لما نزلت شق ذلك على الناس وقالوا يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال (ص) « إنه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (ان الشرك لظلم عظيم) إنما هو الشرك » وروي تفسير الظلم هنا

(١) قوله تعالى « الذين آمنوا » هو المسند اليه الاول ، و « أولئك » الثاني ، و « الامن » الثالث ، وخبر « الامن » « لهم » وهو مع خبره مسند الى « أولئك » أي خبره وجملة « أولئك لهم الأمن » مسندة الى « الذين آمنوا » أي خبر له .

بالشرك عن أبي بكر وعمر وابن عباس وأبي ابن كعب وحذيفة وسلمان الفارسي وغيرهم من الصحابة والتابعين (رض) .

﴿ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ﴾ قيل ان الاشارة الى كل ما تقدم في هذا السياق، وقيل الى الآية الاخيرة منه ، والاول أقوى وأظهر، وأعم وأشمل ، والمراد بالحجة جنسها ، لا فرد من أفرادها ، أي وتلك الحجة التي تضمنها ما تقدم من المقال ، البعيدة المرمى في اثبات الحق وتزييف الضلال ، هي حجتنا البالغة ، التي لا تنال الا بهدايتنا السابغة ، أعطيناها ابراهيم حجة على قومه مستعلية عليهم ، قاطعة لألسنتهم ، ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ الدرجات في الاصل مراقي السلم وتوسع فيها فصارت تطلق على المراتب المعنوية في الخير والجاه والعلم والسيادة والرزق. وقد قرأ الكوفيون درجات بالتنوين، وقرأها الباقون بالاضافة الى من نشاء، ومعنى الاول نرفع من شئنا من عبادنا درجات بعد ان لم يكن على درجة منها، ومعنى الثانية نرفع درجات من شئنا من اصحاب الدرجات حتى تكون درجته في كل فضيلة ومنقبة أرفع من درجة غيره فيها، وحكمة القراءتين، اثبات المعنيين . فالعلم النظري درجة كمال ، والحكمة العلمية والعملية درجتا كمال ، وفصل الخطاب ، وقوة العارضة في الحجاج ، من درجات الكمال، والسيادة والحكم بالحق درجة كمال ، والنبوة والرسالة أعلى من كل هذه الدرجات، لانها تشتمل عليها، وتزيد عنها، وكل ذلك متفاوت بفضل الله فضل بعض اهله على بعض، فهو سبحانه يؤتي الدرجات ابتداء باعداده وتوفيقه من يشاء للكسبي منها واختصاصه من يشاء بالوهبي، ثم هو الذي يرفع درجات من يؤتيهم ذلك بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية الى ما ترتقي به درجته ، وبصرف موانع هذا الارتقاء عنه، وبإيتاء ذي الدرجة الوهبية (النبوة) ما لم يؤت غيره من أهلها، من المناقب والآيات المنزلة والتكوينية وكثرة اهتداء الخلق بها، (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) وجملة نرفع استئنافية مبينة ان ما آتى الله ابراهيم (ص) من الحجة كان باختصاصه باعلى درجات النبوة الوهبية ، وما ترتب عليها من درجات الدعوة الكسبية ، وقوله تعالى بعد هذا ﴿ ان ربك حكيم عليم ﴾

تذييل مقرر لمضمون ما قبله مبين لمنشإه ومتعلقه من صفات الله تعالى ، وقد وضع فيه اسم الرب مضافا الى ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام ، موضع نون العظمة على طريق الالتفات ، تذكيراً منه تعالى لخاتم رسله بفضله عليه وتفضيله اياه ، برفعه درجات على جميع رسل الله ، فهو يقول له ان ربك الذي ربك وآواك ، وعلمك وهداك ، ورفع ذكرك بجوده وكرمه ، وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه ، حكيم في فعله وصنعه ، عليم بشؤون خلقه وسياسة عباده ، وسيريك شاهد ذلك عيانا في سيرتك مع قومك كما أراكه بيانا في ما كان من ابراهيم مع قومه ،

وقد زعم الرازي أن هذه الآيات تدل على ان معارف الانبياء برمتهم استدلالية لاضرورية ، والالما احتاج ابراهيم الى الاستدلال ، وعلى انه لاطريق الى معرفة الله تعالى الا النظر والاستدلال بأحوال المخلوقات ، اذ لو أمكن تحصيلها بغير ذلك لما عدل عليه الصلاة والسلام الى هذه الطريقة . وقد علم مما فسرنا به الآيات بطلان الحصر في هذين الزعمين وبطلان غيره من مزاعمه النظرية في هذا المقام . والحق ان معرفة الله تعالى لاتحصل على الوجه الصحيح الا بالوحي ، وعلم الانبياء به ضروري لا نظري ، فقد علمهم الله تعالى به مالم يكونوا يعلمون بنظرهم من المسائل ، وما يثبتونها به من الحجج العقلية والدلائل ، (٤ : ١١٢ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم) ولكن من طرق دعوتهم الى ماهداهم اليه ، ومن استدلالهم عليه بعد اعلامهم به ، ماهو كسبي لهم ، يؤدونه بنظرهم واستدلالهم ، وقد اطلعنا على نظريات فلاسفة اليونان ، وغيرهم من الفلاسفة وعلماء الكلام ، فوجدنا أكثرها في باب الالهيات أوهام ، وقد اعترف الرازي نفسه بذلك في آخر عمره ، وندم على مافرط فيه ، ولنا بيتان في هذا المقام ، قلناهما في أيام تحصيل علم الكلام :

يا أيها الرجل الذي هو جاهد في الفلسفه
ما ذا يروقك من تعا مها وأكثرها سفه

﴿ تنبيه ﴾ بعد طبع التفسير بالمنار وقبل طبعه منفردا أعدنا تصحيحه فغيرنا فيه وبدلنا فعلى المشترين ان يصححوا نسخهم على نسخة الجزء السابع من التفسير عند صدوره الا الصفحات الثلاث الاخيرة من هذا الجزء من المنار

المتفرنجون والاصلاح الاسلامي

يكثر ذكر المتفرنجين في المنار وغيره، والتفرنج مشتق من اسم الافرنج أو الفرنجة، وهذه الصيغة تبنى لمعان (منها) التكلف كتجلد فلان وتشجع وتخشع وتجرع الشراب اذا تكلف الجلد والشجاعة والخشوع وشرب مايكره و(منها) تحصيل الشيء بالتدريج كتعلم الحساب. وكل من هذين المعنيين ظاهر في استعمال كلمة التفرنج وما يشتق منها، فالمتفرنجون هم الذين يقلدون الافرنج فيما يستحسنون من العادات وغيرها بالتكلف أولا ثم يتوسعون في ذلك بالتدريج، حتى انتقل بعضهم من التقليد في مشخصات الامم التي تقوى بها روابطها كالعادات في الازياء والاكل والشرب وآداب المجلس الى ما هو من مقوماتها التي تبقى ببقائها وتفنى بفنائها كاللغة والدين والشريعة وأصول الآداب والروابط الاجتماعية المنزلية والقومية

وهؤلاء المتفرنجون فريقان (أحدهما) من كان تفرنجهم أثر التعليم العصري والتربية الافرنجية التي حببت اليهم ما لقنوه وتربوا عليه من مقومات القوم ومشخصاتهم قبل أن يلقنوا ما لأمتهم من ذلك ويتربوا عليه كما يجب فكانوا كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

(وثانيهما) من يتفرنجون تقليدا للفريق الاول من قومهم الحكام والاغنياء تقربا اليهم، وانتظاما في سلكهم، وتمتعا بمثل زينتهم ولذتهم، فهم مقادة المقلدين، بغير شبهة ولا دليل، انما كان سبب فشو هذا التفرنج في المسلمين المدارس الافرنجية والمدارس الوطنية الرسمية وغير الرسمية، التي أنشئت لتقليد الافرنج في تربيتهم وتعليمهم بغير بصيرة ولا علم بموضع الحاجة، على حين كان العلم بمقومات الامة الاسلامية ومشخصاتها قد قل وضعف بضعفها السياسي والاجتماعي، وما بقي منه أمسى مشوبا بما ليس منه من البدع والدخيل، وساءت طريقة تعليمه وأهملت فكرة التربية عليه بالتخلق والعمل، وقد قلت في المنار غيره مرة انني لا أعرف في الدنيا مدرسة تعلم فيها اللغة العربية التعليم الفطري الذي به تكون ملكة في ألسنة المتعلمين بحيث يهمون كلامها الفصيح في كل كتاب، ويقدرون على الاتيان به محاورة وخطابة وكتابة

بغير تكلف، كما تعلم اللغات الافرنجية في بلاد أهلها، ولا على مقربة من ذلك كما تعلم في بلادنا ، ولا أعرف مدرسة يعلم فيها الاسلام تعليما يفهم به كتابه وسنته وما فيهما من العقائد والاحكام والحكم والآداب فهما صحيحا يتمكن به المتعلمون من بيانه بالقول والكتابة، واثبات قضاياه والدفاع عنه بالدليل والحجة، ولا مكانا يتربى فيه النشء على أخلاقه وآدابه العالية ، وانما المدارس الاسلامية التي تدرس فيها العربية والدين معاهد تعالج فيها كتب في فنون العربية والعلوم الشرعية مما صنف بعد ضعف العلم الاستقلالي أو موته قلما يوجد فيها من وضع الأئمة المجتهدين شيء، ولكن يقرأ في بعضها قليل من كتب التفسير والحديث بقصد التبرك الذي لا يعقل معناه لا بقصد الاهتداء. وكل ما يقرأ من الكتب في مدارس البلاد العربية يفسر باللغة العامية، وفي مدارس البلاد الاعجمية (كالهند والفرس والترك) يترجم بلغاتها

في أثناء هوي الامة الاسلامية في هذه الهاوية من الجهل من عدة قرون كان الافرنج يصعدون في مراقي العلم الاستقلالي والتربية الاجتماعية على علم ونظام، يهتدون فيه بسنن الله في خلق الانسان والاكوان، وقد جعلوا لكل علم وكل فن ولكل صناعة وعمل جماعات تعنى بترقيته واتقانه، حتى إن الجمعيات الدينية فيهم تملك ألوف الالوف من النقود الذهبية . ولكن كان جل ارتقائهم في العلوم والفنون المادية والمالية والحربية وطرق استعمار الممالك واستخدام الشعوب لمنافعهم، وأقله في الفضائل الدينية والادبية التي ترجح الحق على القوة، والعدل على الشهوة، حتى خاف عاقبة ذلك عليهم حكماؤهم وعقلاؤهم، وقال أكبر وأشهر فيلسوف اجتماعي فيهم وهو هربرت سبنسر، لا كبر وأشهر حكيم فينا وهو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده — ما معناه : ان ضعف الفضيلة وتغلب الافكار المادية على أوربة ستدعتها (أي تدفعها بعنف) الى حرب مجتاحة ليظهر أي أممها الاقوى فيسود العالم .

« إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » وانه ليبغي أن رآه قوي واستعلى ، وان مظاهر الغنى والقوة لغرارة خداعة ، فالفقراء يعظمون الاغنياء وان منعوهم رفدهم ، وهضموهم حقهم ، والضعفاء يخضعون للاقوياء وان أرهقوهم عسرا ، واستذلوهم عدوانا وظلما، ولا يزال بعض الشعوب على أثر مما من سلفهم الذين عبدوا الملوك واتخذوهم

آلهة وأربابا، وان زالت تلك الدعوى وعفت مظاهرها الباطلة، فيظهر اثرهذا الارث في كثير من أفرادها، وان تبوءوا مقاعد الرياسة فيها، واما ولوع الامم المغلوبة على أمرها بتقليد الغالبين في كل ما يسهل التقليد فيه من العادات وشؤون الحياة، فهو سنة من أظهر سنن الاجتماع، وقد بسط الكلام فيها حكيمنا ابن خلدون في مقدمته فهي لاتخفى على قراء العربية، الذين يعنون بالامور الاجتماعية، والتقليد في الامم كالتقليد في الافراد هو توطين لنفس المقلد على ان يكون تابعا للمقلد في بعض ثمرات اجتهاده، غير طامع في مساواته، فهو يستلزم تعظيمه له واحتقاره لنفسه وقومه

ان المقلد لا ينفك مرتكسا في الضعف يخبط في ليل دجوجي

قد يشتبه أمر بعض المتفرنجين بما يدعواليه المصلحون من الاعتبار بما أوتي الافرنج من العلوم والفنون وما أتقنوا من الاعمال، والبحث في أسباب ذلك وطرقه، والاستقلال في اقتباس ماتحتاج اليه أمتهم منه، لتقوى به وتكون أمة عزيزة قوية مثل أممهم، وانما تقوى الامة اذا حافظت على ما كانت به أمة كاللغة والآداب والعادات والشرائع التي تمتاز بها، واذا كان بعض العادات باطلا اضرارا فينبغي ازالته وتغييره بالحكمة والموعظة الحسنة، والتربية العملية النافعة، بشرط ان لا يشوب ذلك شيء من تحقير الامة في أنفس أهلها، ولا اذلالها باشعارها باستعلاء غيرها عليها، وان لا تحمل على تقليد أجنبي عنها، وانما تلقن الحكمة مع اقناعها بفضلها ونفعها، وبأنها يجب ان تكون أحق بها وأهلها، كما ورد في حديث أبي هريرة عند الترمذي «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»، ومن المتفرنجين من يدعي هذا الاصلاح، ويتوهم أنه صادق لانه لا يميز بين الاصلاح والافساد، ومنهم من يدعيه بمحض الكذب والرياء، (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله مافي قلبه وهو ألد الخصام * واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)

ان الفرق بين المتفرنج المقلد وبين المصلح المستقل مما يخفى على غير العارفين بالحقائق، ومن هؤلاء العارفين لورد كرومر الذي كان عميد انكلترة في مصر، فقد بين في كتابه مصر الحديثة من فضائح المتفرنجين المصريين ما فيه أكبر عبرة لمن يعتبر منا، وان كان لم يكتبه لاجلنا، ولا نحن عرفنا كيف نستفيد منه، وقد أشار الى

مذهب المصلحين الاسلاميين فيما يستحدثون لقومهم من شؤون الحضارة بما قاله في أحد تقاريره عن مصر عند ذكر وفاة الاستاذ الامام ، وهو ان الشيخ وحزبه المعتدل يشترطون في ذلك المحافظة على أصول الاسلام، خلافا لمن لا يبالون في هذه السبيل بالدين ولا ما دونه من مقومات الامة التي نشأوا فيها. ولا يرجى من أجنبي غير مسلم أن يقول في كلمة استطرادية أكثر من هذا في بلد له السيطرة على حكومته ، وجل من تعتمد عليهم حكومته من رجالها هم المتفرنجون كما بين ذلك اللورد نفسه في كتابه (عباس الثاني)

المتفرنجون أصناف فمنهم المعتدلون والغلاة ، ومن الغلاة المارقون من الدين الذين يحاربون أصوله وفروعه ، وينفثون سموم الكفر والفسق في أهله ، والمارقون الذين لا يحبون أن يعرف حالهم، فلا يتكلمون في أهل الدين ولا يحبون أن يتكلم هؤلاء فيهم ، اما لاعتقادهم ان فشو الكفر مفسدة تزيد أمتهم ضعفاً وفساداً ، واما لكراهتهم للخوض في أمثال هذه المسائل وما تجره من القيل والقال، ومن المعتدلين الثابتون على عقيدتهم التي نشأوا عليها، والذين لهم ضرب من الآراء الجديدة فيها، وانما تفرنج هؤلاء في أبدانهم، لا في عقلهم ووجدانهم، ولا نحاول استقصاء ما يكون به التفرنج وأصناف أهله في أفراده بل نقول بالاجمال انه قسمان صوري ومعنوي، ظاهري و باطني، والمعنوي الباطني ، يستلزم الصوري الظاهري، وأما هذا فلا يستلزم ذاك ولكنه يؤثر فيه بعض التأثير، فكل منهما يمد الآخر في ذلك وفي غيره ويستمد منه ، لذلك نرى بين أصحاب كل قسم من التعارف والتآلف ما لا نجده بينهم وبين المخالفين لكل منهم ، فهو لذلك يسري في الامة سريانا تدريجيا لا يشعر به الجمهور، وانما يفطن له الافراد من العارفين بشؤون الاجتماع المراقبين لسير الامم وتقلبها وما يطرأ عليها من التغيير

أما ما يشعر به الجمهور ويتألم له من بعض شذوذ الغلاة من هؤلاء المتفرنجين وجهر بعضهم في انكار ما عليه الامة من العقائد أو العادات المحترمة فمثله فيه كمثل العامي الجاهل الذي يصاب بالداء لافرنجي، يتألم لكل قرحة تعرض له من أثر الداء ويطلب لها الدواء ، ولكنه لا يعرف خطر الداء في عامة بدنه ، ولا فعله في

تسميم دمه ، ولا يطلب له العلاج في غير أوقات التألم من الاعراض الحادثة ، ولا يصبر على تناول الادوية التي يرجى أن تنقي دمه من ذلك السم في الزمن الطويل

ترى هذا الجمهور الذي ضربنا له المثل يصيح ويشكو قولا وكتابة عند كل صوت يجهر بمخالفة دينه وآدابه وعاداته: فلان كفر ، فلان فجر، وأما العالم بشؤون الاجتماع فهو كالعالم بالطب أو بحفظ الصحة كلاهما يهتم بالعلل العامة وأسبابها والعلاج الذي يستأصلها لا بأعراضها الذي تظهر تارة وتخفى أخرى . ويا ليت الجمهور يتبع الطبيب الاجتماعي الذي يستصرخه عند كل صيحة تؤلمه من مهاجميه في عقائده أو غيرها من مقوماته الملية كما يتبع مريض البدن طبيب الابدان ، اذاً لسهل التوقي من خطر هؤلاء الذين تقطعت الاسباب وانفصمت العرى التي تربطهم بأمتهم، وتعذر عليهم الاتصال بأمة أخرى يكونون أعضاء حية فيها، ففقد جمهورهم الشعور بالحياة القومية والملية، فأمسى لا يهتم الا بلذاته الشخصية، ومنها أن يكون محترما مكرما بين من يعيش معهم، فهو يدعوهم الى أن يكونوا مثله مدعيا ان ذلك خير لهم، كما انه يكون عونا لكل ذي سلطان عليهم ، يساعده على كل ما يريده منهم ، ومن دون هذا الجمهور أفراد يعز عليهم أن لا يكون لهم أمة، فهم لشدة حاجتهم الى الامة التي انفصلوا منها في الباطن يريدون أن يجذبوها اليهم ويجعلوها أمة أخرى بمقومات وميشخصات مذبذبة لا هي اسلامية صحيحة ، ولا هي أفرنجية خالصة، ليكونوا أعضاء رئيسة لها في هذا الخلق الجديد المتخيل، بعد ان صاروا فيها كالاعضاء الاثرية أو زوائد الاظفار والاشعار التي جرت العادة بقصها والقائها ، وهؤلاء الافراد الذين يفكرون في تكوين الامم قليلون ، ولكن الذين يلغطون بهذه الالفاظ كثيرون، ولم يظهر في متفرنج فرد صلح لتكوين أسرة صالحة، أو تأسيس جمعية نافعة ، فأين هم من انشاء أمة كبيرة واعادتها خلقا جديدا ؟ لا أنهم بضعف الامة في نفسها، وبمساعدة القوى الغربية لهم عليها ، ليستطيعون شيئا من الهدم دون البناء، ومن الاماتة دون الاحياء

قلنا ان جمهور المسلمين يشكو ويتألم من كل صوت يسمعه من هؤلاء الذين يدعون ارادة اصلاحه واحيائه، وانما يشكو من أعراض الداء لا من سمه وأسبابه، ونقول أيضا انه كلما سمع صوتا منكرا من تلك الاصوات ، يفزع الى من يثق بهم،

من العلماء والكتاب : انصروا الدين ، ردوا على الملحدين ، ويقنعه كل ما يقال ويكتب بعنوان الرد، وان كان من قبيل الطعن والسب

وقد سمع في هذه الايام صوت من هذه الاصوات ، لولا حالة الحرب وما اقتضته من المراقبة على المطبوعات ، لكان لجهر بالشكوى منه ، أضعف ماعهد في أمثاله ، ذلك صوت رجل من أعضاء النيابة ، ألقيَ على جمهور عظيم من رجال القضاء بأسلوب الخطابة ، ثم طبع في رسالة ، ووزع على الناس كافة ، موضوعه وضع قاعدة لاصلاح قانون الاحوال الشخصية، بل تغيير أصول الشريعة الاسلامية، وقد رغب الينا بعض الفضلاء في الرد عليه، ويكفي في وجوب ذلك مجرد اطلاعنا عليه، ولكننا سنتكلم في تلك القاعدة أو القواعد كلاما علميا شرعيا، ولا نقول في شخص واضعها شيئا، فان الغرض بيان الحق في نفسه، ومن عرف الحق عرف أهله، وموعدنا الجزء الآتي ان شاء الله تعالى

نقد ذكرى المولد النبوي

لصاحب الامضاء الرمزي

(الموضع الاول) في صفحة (٥ *) من المقدمة حققتم ان عمل المولد بالشكل المعروف بدعة وانكم تتحامون عن عمل شيء باسم المولد فحسنتم وأجدتم . ثم ذكرتم ان البكري دعاكم فتوسلتم باجابة الدعوة الى تنفيذ فكرة استبدال الضار من الموالد بالنافع — فهل هذه الفكرة غيرت حكم هذه البدعة وأخرجتكم من المحدثين ؟ لا أظن ذلك بل لا أرى وضع المولد يليق بأمثالكم — القائمين بالاصلاح ومحاربة البدع وخصوصا على الصورة التي طبع عليها مختوما كل فصل منه بالصلاة البتراء فلو اكتفيتم بنشره في المنار مع لارشاد الى جعل تلاوته بصورة الخطابة لربما كان أنسب ، وعن الصورة المألوفة أبعد.

(الموضع الثاني) في أول الصفحة الرابعة من ذكرى المولد ذكرتم مالفظه: كيف

*) في الاصل صافحة في كل موضع من الرسالة فابدلت في المطبعة بصفحة

كان اصطفاء الله تعالى لهذه الاصول من الامة العربية، الذي ثبت في صحيح مسلم وغيره من كتب السنة السنية، و بماذا امتاز قوم خاتم الرسل الخ . العبارة في ذوقي السقيم غير مستقيمة ولم يظهر لي صلاحية شيء مما بعدها للجواب عن « كيف كان » وجميعه جواب عن « و بماذا امتاز » فحذف السؤال الاول والاقتصار على الثاني لعله أظهر

(الموضع الثالث) في الصفحة الخامسة قولكم: أيام كانت الامم مرهقة بالاثرة والانانية والانين من ثقل الضرائب الخ لعل الاولى حذف لفظ والانين او ابداله بلفظ وتأن ليصح العطف أو ليكون أوضح

(الموضع الرابع) في الصفحة السابعة قولكم . أما اصطفاء الله لكنانة فيفسره الخ وقولكم : وأما حج العرب اليه فهو دليل الخ لعل الاولى : اصطفاء الله لكنانة يعلم مما كانت تحفظه العرب من اخباره الخ وحج العرب اليه دليل الخ بحذف لفظ أما ولفظ فهو

(الموضع الخامس) في الصفحة الثامنة ذكرتم بالحواشي تفسير الندوة بالشورى وخصصتموها باجالة الرأي بعد البعثة للائتمار به صلى الله عليه وآله وسلم هكذا والمعروف ان الندوة محل الشورى مطلقا وان الذي بناه قصي وجعل بابه للكعبة كما نقلتموه في الصفحة نفسها عن ابن اسحاق . وكذلك فسرتم اللواء براية قريش وانه كان يسمى العقاب والمعروف ان العقاب اسم راية النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في القاموس صفحة ١٠٧

(الموضع السادس) قولكم في الصفحة التاسعة « كان ذلك كله من ارتقاء قريش واستعداد العرب للاسلام، ولكن هذه القوى المعنوية كلها وجهت لمعاداته عليه وآله أفضل الصلاة والسلام » لعل حذف هذه العبارة المشعرة بغاية الهجو والموهمة ان جميع قريش وجهوا جميع قواهم لمقاومته أولى واليق لان السياق في مدح قريش وشرح المزايا التي فضلوا واستعدوا بها للاصلاح الروحي والمدني ولان الواقع خلاف ذلك فليس كل قريش وجهوا قواهم لمعاداته صلى الله عليه وآله وسلم اذ منهم السابقون للاسلام مع اخفائه لمصلحة الذب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كابي طالب رضي الله عنه ومنهم السابقون له المتحملون لمشاق التعذيب كآل ياسر ومنهم

السابقون القائمون بنصرته صلى الله عليه وآله وسلم ونشر دعوته، والذب عن حوزته، المؤثرون له صلى الله عليه وآله وسلم على أنفسهم، القائمون بمساعدته بكل مافي وسعهم، كحمزة وعلي وخديجة وأبي بكر وغيرهم من أجلاء الصحابة الذين هجروا وطنهم رغبة في صحبته وملازمة خدمته صلى الله عليه وآله وسلم بل منهم مع عدم اسلامه في أول البعثة من تحمل مشاق الحصر مع بني هاشم في الشعب ايثارا لنصرته صلى الله عليه وآله وسلم ومساعدته. على ان الاسلام ماعتز ودخل في طور القوة والمنعة الا بعد اسلام من تأخر منهم ، فكانوا القائمين بنصرته ونشر دعوته صلى الله عليه وآله وسلم، الباذلين أرواحهم في حماية بيضته في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم و بعد وفاته ، وسيبقون ان شاء الله كذلك الى قيام الساعة. ولعل الحكمة في ذلك رفع التهمة عن رسالته صلى الله عليه وآله وسلم. ولله در العلامة الشيخ عبدالعزيز الزمزمي حيث أشار في همزيته لذلك فقال

خيرة الله من قريش وما أد راك من هم مكانة وعلاء
نسب بالعلا تلا فتراءت درر الافق تحتها حصباء
شرف شامخ الذرى وفخار ثابت صير الجبال هباء
أنزل الله في قريش لإيلاف قريش فزادهم آلاء
شرف الله قدرهم بنبي خلقوا من نجاره شرفاء
واصطفاهم لاجله واجتباهم فغدوا سادة به نجباء
ذب عنهم صونا لهم ورعاهم وحماهم ممن نوى الاسواء
أظهر الله فضلهم من قديم بحديث في فضلهم عنه جاء
ثم لما جاء النبي اليهم أبطأوا عنه لا قلى وجفاء
كيف يجفونه وقد الف الله عليها ضبابها والظباء
لكن الله وحده قد تولى نصره حفلة به واعتناء
لو تولوه داخل الشك قوما عاينوا حزب نصره القرباء
فقضى الله ما قضاه الى ان شاد أركان دينه والبناء
دخلوا فيه مرعبين فصاروا فيه للناس قادة رؤساء

جعل لمصطفى الامامة فيهم ... اذ رآهم لخودها أكفاء
ورثوا الامر بعده فأقاموا ... إعوجاجا من العدا وانحناء

(الموضع السابع) في الصفحة العاشرة قولكم فجملة ما امتاز به آله صلى الله عليه وآله وسلم الخ . لعل ثبوت بعد الآل عن الامور الحربية والرياسة لا يصح قبل الاسلام ولا بعده . أما قبل الاسلام فلمنافاته ما قدمتموه من أن الندوة واللواء والسفارة والاعنة والقبة من المناصب المختصة بهم ، وكلها من الامور الحربية ، ولمنافاته أيضا ما قدمتموه من أن كنانة كان مثابة التعارف ، وأن مالكا وقصيا ملكا العرب ، فهل الرياسة غير هذا ؟ وأما بعد الاسلام فلمنافاته ما هو معلوم من حملهم لألوية القتال وقيادة الجيوش لمحاربة الاعداء في بدر وأحد وخيبر وحنين ، بل لم تدر رحى الحرب في المعارك المشهورة الا على محور الآل ، فهم قطب رحاها بلا جدال ، وهم الثابتون معه صلى الله عليه وآله وسلم في المواضع التي فر فيها الابطال . فهل الامور الحربية التي بعدوا عنها غير هذا ؟ ولله در أبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي حيث يقول كما نقله في الاستيعاب

لقد علمت قريش غير فخر ... بأنا نحن أجودهم حصانا
وأكثرهم دروعا سابغات ... وأمضاهم اذا طعنوا سنانا
وأرفعهم لدى الضراء عنهم ... وأبينهم اذا نطقوا لسانا

وقولكم في الصفحة المذكورة وانذلك غلبوا على الرياسة حتى بعد الاسلام الخ تغلب الغير عليهم في الرياسة بعد الاسلام لا يستلزم بعدهم عنها وعدم استحقاقها ، والا لنافى ما تواتر عن علي وابنيه الحسن والحسين من قيامهم بطلب الخلافة واحتجاجهم على من قاومهم بالبراهين ومحاربتهم للطاغية معاوية وأذنابه ، وانضمام الصحابة الا من شذ الى علي وابنيه عليهم السلام

ربما يقال ان الدليل على ذلك كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يولي غيرهم ويتركهم فالجواب عن ذلك ان التولية منه صلى الله عليه وآله وسلم لاشخاص كعمرو بن العاص وعدم توليته لآخرين كابي بكر وعمر لا يمكن أن يكونا دليلا على استحقاق الاول للخلافة وعدم استحقاق الآخرين لان ذلك من وقائع

الاحوال المطروقة باحتمال أن يكون كل من التولية وعدمها لمقاصد مهمة. فمن مقاصد التولية تأليف قلب المولى أو استجلاب ود عشيرته (ومنها) ازلة نفور الناس عنه لاستنذارهم له من حيث تلطخه بحمئة عداوة النبي والمسلمين (ومنها) قصد ابعاده للسلامة من دسائسه (لو كانوا فيكم ما زادوكم الا خبالا) ومن مقاصد عدم التولية لاشخاص قيامهم بحراسة النبي والذب عن حوزته ومساعدته (ومنها) قيامهم بتلقي أحكام الشريعة ليبلغوها للامة وخصوصاً آل بيته، فهم هالة طلعته، وثقات أمته، وهم العدول المعصوم اتفاقهم ، المشهود بأنهم والقرآن في قرن الى قيام الساعة ، رضوان الله عليهم أجمعين

وقولكم في آخر الصفحة فهو أنفى للشبهة عن رسالته صلى الله عليه وآله وسلم قد يقال انه لو كان فيما ذكر محل شبهة لكان لفضيلهم والامر بالصلاة عليهم وفرض مودتهم وموالاتهم وفرض الخمس لهم أكبر شبهة وأعظم تهمة وليس الامر كذلك والله أعلم

(الموضع الثامن) في الصفحة الثالثة عشرة ذكرتم بعض أولاد عبد المطلب والمقام يقتضي استيعابهم لان الاقتصار في محل البيان يوهم الحصر وزيادة سطر لا تطول به القصة

(الموضع التاسع) في الصفحة الثلاثين ذكرتم انه صلى الله عليه وآله وسلم لقي من قومه أشد الجحود والايذاء الخ لعل الاولى : من زعماء قومه الذين أشقاهم الله فصدوه عن تبليغ دعوة ربه ومنهم عمه أبو لهب القائل الخ لما قدمناه من قيام كثير من قومه بمساعدته واجابة دعوته

(الموضع العاشر) في الصفحة الحادية والثلاثين ذكرتم انه صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعو الناس أن يحموه للقيام بهذا الامر فلم يحمه من قريش أحد الخ لعل الاولى: كان يدعو الناس الى أن يعضدوا من يحمونه ليقوم بهذا الامر فحال زعماء الشرك دون ذلك محاولة لاطفاء نور الله ويأبى الله الا أن يتم نوره فهدى الله للايمان به ستة نفر من أهل يثرب الخ لما تقدم أيضا

(الموضع الحادي عشر) في الصفحة السابعة والثلاثين ذكرتم انه صلى الله عليه وآله وسلم ثبت وحده في يوم أحد الخ والذي أذكره انه ثبت معه بضعة نفر من

قريش و بني هاشم وكذا في حنين وهذه منقبة لهم يحسن ذكرها اشعارا بمزايا الاصطفاء التي ذكرتموها

(الموضع الثاني عشر) في الصفحة الحادية والاربعين ذكرتم في الخاتمة انه صلى الله عليه وآله وسلم أقام بمكة بعد بدء التبليغ عشر سنين والمشهور انها بضع عشرة سنة . ثم ذكرتم في الصفحة الثانية والاربعين حال الاسلام في تلك المدة وما لاقاه صلى الله عليه وآله وسلم مع السابقين من المؤمنين وصبرهم على الاضطهاد الخ ثم دخول الاسلام في عهد الحرية الخ ولم تذكروا دخوله في عهد القوة والمنعة بعد فتح مكة بدخول قريش واتباع العرب لهم مع ان ذلك هو مظهر مزايا الاصطفاء فلعل إلحاقها يكون في المستقبل ان شاء الله تعالى

(الموضع الثالث عشر) في الصفحة الثالثة والاربعين ذكرتم في الحواشي حديث الثقلين ثم قلتم: وفسر زيد أهل بيته بمن تحرم عليهم الصدقة الخ ثم قلتم ويقول آخرون هم علي وذريته من فاطمة عليهم السلام الخ وظاهر تقديمكم تفسير زيد والتعبير في مقابله بلفظ يقول آخرون يشعر باعتماد ما قاله زيد رضي الله عنه . ولعل الصواب ما يقوله الآخرون كما حققه شيخ مشايخنا العلامة مولانا السيد أبو بكر ابن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوي في كتابه رشفة الصادي

ولعل ملخص ما حققه العلامة ابن شهاب ان المراد بأهل البيت في آية التطهير علي وفاطمة والحسن والحسين عند جمهور العلماء وأكابر أئمة الحديث المعتد بروايتهم ودرايتهم وان الادلة تضافرت بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمصير الى تفسير من أنزلت عليه الآية متعين

دعوا كل قول غير قول محمد فعند بزوغ الشمس ينطمس النجم

فمن ذلك ما أخرجه الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي من طرق عن أم سلمة رضي الله عنها قالت في بيتي نزلت (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم بكساء ثم قال هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه

عن أم سلمة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في بيتها على منامة عليه كساء خيبري فجاءت فاطمة رضي الله عنها ببرمة فيها خزيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ادعي لي زوجك وابنيك حسنا وحسينا فبينماهم يأكلون اذ نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (انما يريد الله) الآية فأخذ النبي فضلة كسائه فغشاهم اياه ثم أخرج يده من الكساء فألوى بها الى السماء ثم قال « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » قالها ثلاث مرات . قالت أم سلمة فأدخلت رأسي في الستر فقلت يارسول وأنا معكم فقال « انك الى خير » مرتين. وذكر ابن كثير والسمودي طرقا كثيرة لحديث أم سلمة هذا وأخرج الامام أحمد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم عن عائشة ما يقاربه في المعنى. وكذلك روي عن واثلة ابن الاسقع ما يقاربه — الى غير ذلك من الاحاديث الدالة على ان المراد بأهل البيت من ذكر . ولا التفات لمن خالف ذلك ، ولا يمنع هذا الحصر دخول أولاد من ذكر وذرياتهم الى آخر الابد في هذا المعنى المراد شمول لفظ أهل البيت لمن سيوجد منهم — كشمول لفظ لامة لمن سيوجد منها لاسيما والاحاديث مصرحة بذلك كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : إني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي » الى أن قال « وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » وكقوله عليه وآله الصلاة والسلام « أهل بيتي أمان لاهل الارض فاذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الارض » الى غير ذلك من الاحاديث والاخبار الدالة قطعا على ان هذه السلالة الطاهرة هم أهل البيت المطهرون وانهم المرادون بكل ما ورد في فضل أهل البيت من الآيات والاحاديث وأنهم عدول هذه الامة وانهم لن يفارقوا الكتاب الى يوم القيامة، وانهم أحد الثقلين المؤمور بالتمسك بهما، وقد أجمعت الامة على ذلك اه باختصاره وبعد وجود النص بعدم ادخال أم سلمة بل وعائشة في رواية هل يمكن تفسيره بما يشمل آل العباس وخصوصا والحديث في الحض على التمسك بأهل البيت فهل يعقل ان نحض على التمسك ببني العباس وسيرهم معلومة لدى العام والخاص

(الموضع الرابع عشر) في الصفحة الثالثة والاربعين ذكرتم انهم (أي الآل)

كانوا أحفظ الناس لهديه صلى الله عليه وآله وسلم وانه لا يخلو عصر من طائفة أو أفراد من الهداة المصلحين منهم وان فتن الكثير منهم بغلاة المحبين الخ ولعل المناسب وان فتن بعضهم واغتر بشرف نسبه وترك العلم والاعمال النافعة غافلا عن قول جده علي الخ لان اثبات الفتنة للاكثرية ينافي آية التطهير كما لا يخفى . ثم ذكرتم في حديث الثقلين رواية عن أبي هريرة وأن فيها ابدال لفظ العترة بلفظ السنة، وأن لا معارضة بينها الخ يظهر للعاجز ان رواية الابدال المذكورة على حذف مضاف أي حملة سنتي فتكون مخصصة للرواية الاولى كما ان الاولى مخصصة للثانية فالمعنى حملة سنتي الذين هم من عترتي ، أو عترتي حملة سنتي ، وأيضا يظهر أن المراد بالطائفة من أمته التي لاتزال ظاهرة على الحق قوامة على أمر الله الى أن تقوم الساعة هم عترته الحاملون لسنته والله أعلم

من ملاكه سلخ جمادى الاولى سنة ١٣٣٦

ن . ه . د

رحلة الحجاز

٩

النفر من منى الى مكة

لما كان يوم النفر رمينا الجمرات لآخر مرة وفي الاصيل شددنا الرحال ونفرنا من منى هابطين الى مكة المكرمة حامدين لله شاكرين له ما وفقنا لاتمام مناسكنا ، راجين من فضله وإحسانه أن يكون حجنا مبرورا، وسعينا مشكورا ، وعلمنا مثابا ، ودعاؤنا مستجابا ، وبالله ما أحلى الشعور الذي يستولي على المرء في أثناء هذا النفر ، فانه على فراقه لذلك المعهد القدسي الذي وصفنا في الفصل السابق ماله في النفس من عظيم الانس تراه يفارقه قرير العين مطمئن القلب جم السرور فرحا بفضل الله ورحمته ، وذلك شأن الانسان بعد إتمام كل عمل من الاعمال النافعة التي يهتم بأمرها ، يفرح في عاقبة إتمامه بقدر ما كان من عنايته به وتعبه فيه ، وبقدر مكانة العمل نفسه من نفسه ، وما يرجو من فائدته ونفعه ، سواء كان ذلك في دنياه أو دينه ؛ فمن لم

يألو جهدا في أداء المناسك أفاض من منى وهو بحيث وصفنا من الغبطة الروحية، والسكينة والطمأنينة، التي يعبر عنها بعض الناس براحة الضمير، ومن قصر في شيء من تلك الاعمال ولو بترك العزيمة والافضل خالج غبطته وطمأنينته بعض التمني ولوم النفس: ليتني فعلت كذا، وسأفعل كذا في حج آخر ان شاء الله تعالى. كما تمنى بعض رفاقنا لو باتوا الليل كله في المزدلفة معي

المقام بمكة بعد الحج

قد كنت أرجأت أمورا مما أنوي عمله في مكة الى ما بعد الحج (منها) ما أشرت اليه قبل من زيارة جميع الذين تفضلوا بزيارتي ولم تتيسر لي زيارتهم قبل الحج (ومنها) زيارة كثير من المعاهد التاريخية والآثار النبوية في مكة وضواحيها اذ لم أشأ أن أخلط ذلك بأعمال النسك كما يفعل بعض العوام الذين يعدون بعض ذلك من أعمال النسك أو من الاعمال المطلوبة شرعا ولو لغير النسك، ولا يطلب شيء من ذلك شرعا، لا وجوبا ولا ندبا، الا من كانت له نية صالحة في شيء من ذلك وجاء به على وجه يعرفه الشرع ولا ينكره. (ومنها) شراء أشياء كثيرة مما يباع في مكة بعضها لانفسنا وبعضها لاجل اهدائه لاصدقائنا (ومنها) وهو أهمها شرح ما عندنا من الحقائق في الحالة السياسية الحاضرة لمن يجب شرحها له بعد ان كنا فتحنا أبواب بعض مسائلها فكان الحديث في أكثرها اجماليا ولا يغني فيها الا البيان والتفصيل

لم نلبث أن بدا لنا ما لم نكن نحتسب وفاجأنا ركب المحمل المصري بسفره يوم الخميس ١٤ ذي الحجة من مكة المكرمة الى جدة، وعلمنا انه قرر ركوب البحر في ثاني يوم وصوله اليها، ولو سافرنا معه لما أمكننا أن ندرك شيئا مما نريد من مكة، فعزمنا على التخلف عنه يوما واحدا وهو منتهى ما نملك من التأخير، وما ذا عسى يغني عنا اليوم الواحد مما كنا نقدر له أسبوعا كاملا لا نستكثره عليه؟ على اننا أدركنا في ذلك اليوم بتوفيق الله تعالى وعناية المحبين ما لا يدرك الا في أيام، فابتعنا بعض ما نحب من الحلي والحلل من منسوجات الهند الموضونة وغير الموضونة وبعض منسوجات الشام وبلاد الترك والصين وغير ذلك مما يشتري مثله الحجاج عادة، وكان الفضل في شراء ذلك في وقت قصير مع أمن غبن التجار لنا فيه لصديقنا الشيخ

حسين باسلامه وهو من أشهر أدباء مكة وتجارها ، وقد تركنا ما كنا ننبغي من الزيارات بأنواعها ، ولكن الله تعالى منّ علينا بما هو خير منها كلها ، وهو التشرف بدخول بيته العتيق المعظم والصلاة والدعاء فيه

دخول الكعبة المعظمة

دخلت المسجد الحرام في وقت الضحى من يوم الجمعة (١٥ ذي الحجة) فوجدت باب البيت العتيق المعظم مفتوحا وفيه بعض شبان آل الشيبي الكرام فرأيت الفرصة سانحة للتشرف بالدخول فيه والوقت هادئ لا يكدر صفوه احتفال ولا ازدحام ، وكان يرافقني الشيخ حسين باسلامه فبلغ من هنالك من الشيبيين رغبتي فقابلوها بالقبول والارتياح ، فتوضأت من بئر زمزم وأدلى الشيبيون لي السلم ، فصعدت فدخلت متذكرا دخول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، متمثلاً حاله في ذلك اليوم العظيم يوم الفتح ، ففاجأني من الهيبة والخشوع والبكاء ما لم يسبق له نظير ، ووقفت زمنا لا أستطيع فيه الاحرام بالصلاة ولا النطق بالتكبير ، وقد ذكر لي رفيقي باسلامه في هذه الحال المكان الذي صلى فيه صفوة الله من خلقه وعينه بالاشارة على حسب ما بينه الحافظ ابن حجر في شرح البخاري فصليت فيه ركعتين هما أرجى ما أحتسبه عند الله تعالى من التطوع ، ثم صليت في كل جهة من الجهات الثلاث الاخرى ركعتين

ودخول الكعبة ليس من مناسك الحج خلافا لما حكاه القرطبي عن بعض العلماء ، واختلفت الرواية في دخول النبي (ص) البيت وصلاته فيه. والتحقيق الذي جمع به بين الروايات الصحيحة المتعارضة أنه دخله في عام الفتح لا في حجه ولا في عمرته ، وأنه صلى فيه ركعتين بين العمودين المقدمين جاعلا الباب وراءه وبينه وبين الجدار الذي صلى اليه ثلاثة أذرع بذراع الآدمي تقريبا لا تحديدا ، وليس من السنة تتبع المواضع التي صلى فيها النبي (ص) للصلاة فيها ، ولا مواقفه في النسك كما تقدم في الكلام على موقفه في عرفات ، وكذا سائر عباداته ، ولم يرو عن أحد من علماء الصحابة انه فعل شيئا من ذلك الا عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) فهو فعل غير مشروع وغير ممنوع ، الا أن يؤتى به على وجه يكون به بدعة وهو جعله كالمشروع بالتزامه أو

بالاجتماع عليه كالشعائر، فاذا خلا من شبهة البدعة كان كبير الفائدة لذي اللب ، لما فيه من حسن الذكر الذي يخشع له القلب، ولعله لم يشرع لئلا يترتب عليه الحرج الشديد بالتزاحم والتعذر فعله على العدد الكثير كما لو أراد كل حاج أن يقف حيث وقف (ص) ولسد ذريعة الشرك اذ يخشى على ضعيف العلم بالدين أن يغلو فيه فيجعل للرسول شركة في العبادة التي يتتبع آثاره فيها (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) وانما ذلك بتوجيه الوجه واسلامه اليه وحده في العبادة

﴿ وداع الامير وصفاته ﴾

علمت ان أمثل الاوقات لوداع الامير ما بعد صلاة الجمعة فقصدت عقب الصلاة حجرته التي يصلي فيها وهي في جدار الحرم الجنوبي فألفيته جالسا في القسم الخارجي من الحجرة وفي حضرته بعض الكبراء وفي مقدمتهم رئيس الوكلاء والشيخ محمد صالح الشيبي الكبير رئيس مجلس الشيوخ، وكان معي السيد عبدالله الزواوي وكيل المجلس، وعلمنا انه كان في القسم الداخلي حيث صلوا الجمعة نجله الشريف عبدالله وكيل الخارجية مع بعض الناس. فلما دخلت على الامير تلقاني بالحفاوة والاكرام، فاستلمت يده لتقبيلها فحاول تواضعه التمنع من ذلك ، ولما جلسنا تفضل بكلمات من المجاملة كادت تذيبني خجلا ، ونكتفي من كلامه بما دون الاطراء الذي تقتضي الحال حذفه وهو قوله موجها الخطاب للحاضرين : هذا فلان ... صاحب المنار كلكم تعرفونه وتعرفون ماله من الغيرة والاخلاص والجهاد في خدمة الاسلام .. وهو قد جاءنا في هذا العام حاجا.. وكنا نتمنى أن يبقى عندنا ولكنه صاحب عمل كبير في مصر وهو قدر أى وعرف كل شيء عندنا وظهر له اننا الى الآن لم نقف امام عتبة عمل من الاعمال (وكان ذكر في سياق حديثه ما ينوي من ضروب الاصلاح العلمي والعملي) التي لا بد لنا منها، وأن همنا محصور في اخراج المتغلبة من بلادنا ولا يتم ذلك الا بفتح المدينة المنورة فمتى تم لنا ذلك وأردنا البدء بالاصلاح الذي نبغيه فاننا نرجو من غيرته أن لا تمنعه أعماله في مصر من اجابتنا الى ما نطلبه من معاونته وارشاده ، وهو الآن يقدر أن يخدم حركتنا في مصر أكثر مما يخدمها هنا لو أقام بيننا

فلما أتم كلامه شكرت له ما أراه مبالغة في حسن الظن والمجاملة ، وذكرت ان

هذا التواضع عن كمال الرفعة قد أخجلني حتى عقد لساني ولم يبق لي الا أن أقول إنني أعد نفسي كجندي صغير مستعد في كل آن لخدمة دينه وأمته بالاخلاص ، وأعاهدكم امام بيت الله تعالى على انني لا أدعى الى عمل أستطيعه فى خدمتهما الا وأبذل فيه كل جهدي مادمت معتقدا أنه حق، وانه لا يشنيني عن ذلك منفعة شخصية ولا أهل ولا ولد، فانني نشأت على العمل بما يوجبه عليّ اعتقادي ويطمئن اليه قلبي. ثم قمنا وتقدمت لوداعه، ومحاولة تقبيل يده فأخذ بيدي وتوجه بي الى بيت الله عزوجل من حيث يرى من نافذة المكان وقال : أسأل رب هذا البيت ان يجمعنا ولا يجعل هذا آخر العهد بيننا . ثم ودعت الحاضرين وانصرفت حامدا شاكرا

صفات الامير وشمائله

قد آن أن أذكر في هذه الرحلة بعض ما علمته واستنبطته من صفات هذا الامير الجليل ومزاياه التي يوافق ذكرها مقتضى الحال فأقول: انه حوى جل أخلاق ملوك الشرق وأمرائه العظماء ، وانفرد بصفات ورثها من أجداده الشرفاء، فمن ذلك قرى الضيوف واجازة الوفود، وعزة النفس والثقة بها والاعتماد عليها، والثبات والاصرار على ما يأخذ به ويجرى عليه فقد تتزازل الجبال دونه ولا يتزلزل، وشدة الحذر، وسوء الظن الذي عد من أزكى الفطن ، حتى كأن نصب عينيه قول الشاعر

وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

ولذلك تراه ينظر في كل شيء من شؤونه الخاصة، وشؤون البلاد العامة، حتى أمور المنزل وشؤون الضيوف والوفود ونفقاتهم ، ومصالح البدو وصلاتهم ، وقد أعطاه الله تعالى قوة غريبة فهو يشتغل بالنظر في ذلك كله عامة النهار ولا يشكو مللا ولا تعبا ، وقد كلمته في مسألة الاشتغال بالجزئيات ووجوب نوطها ببعض العمال ، وجعل وقته الثمين خاصا بالمصالح العامة والامور الكلية ، ووضع نظام لذلك ، فقال ان هذا ضروري لا مندوحة عنه ونحن لا نزال نجري على نظامنا القديم ، والتحول عنه الى غيره لا يتأتى الا فى زمن غير قصير، قلت نعم وانما الغرض وضع النظام له والبدء فيه

ومن أخلاقه وشمائله توخي التواضع في القول والفعل ، مع المحافظة على الوقار وابهة الملك ، والادب العالي في مخاطبة الجليس ومجاملته ، مع الاشارة الى ما تقتضي

الحال من معارضته ، وهو على آدابه وتواضعه شديد الوطأة على المجرمين والمخالفين السياسيين، يأخذهم بأشد العقاب الذي يرهب كل من تحدثه نفسه بأن يعمل على شاكلتهم، لا يخاف في ذلك لومة لائم ، (ومنها) العفة والنزاهة فهو مقتصد في تمتعه بالطيبات ، عزوف النفس عن الانهماك في الشهوات ، (ومنها) الشجاعة والاقدام على مكافحة الاخطار ، لا يخاف الموت على نفسه ولا على ولده ، ولذلك جعل أنجاله الاربعة قوادا لجيوشه ، يكافحون المهالك بأيديهم ، ويناطحون الموت بنواصيهم ،

وهو يحب وطنه (الحجاز) حبا عظيما ، ويكرم الحفاة العراة من أعرابه تكريما ، وطالما نوهنا بما علمنا من براعته في سياستهم وحفظ الامن بينهم، وقد رأيناه يقضي في مقابلتهم عدة ساعات من كل نهار، وهم يدمرون عليه بما اعتادوا من الحرية والاستقلال

أما معارفه وآراؤه في السياسة والامور الاجتماعية فليس الخوض فيها من مقتضى الحال في هذا الوقت ، ولم يكن يسهل العلم بتفصيلها من المذاكرات القليلة التي دارت بيني وبينه وان كنت كلمته فيها بحرية واستقلال قلما يكلمه بمثلهما أحد ، لانه قليل الكلام لا يطيل المراجعة والحوار في المسائل ليعلم كنه غوره فيها ، ولكن الزمان سيبين كنه ذلك كله بما يظهر من تصرفه في شؤونها . وقد وقفت منه على آراء سيكون لها أعظم شأن في سياسته (منها) يأسه من الدولة العثمانية ولولا هذا اليأس لما أقدم على ما أقدم عليه، كما أشرت الى ذلك في خطبتي السياسية بمنى بين يديه ، ثم انه كلمني في هذا الموضوع بعد النزول من منى، وعده من الامور التي عبرت فيها بالخطبة عن رأيه قبل الوقوف عليه (ومنها) انه له ثقة بالدولة البريطانية وتقديرا لقوتها وعظمتها لا حد لهما ، ولا سلطان لشيء عليهما ، (ومنها) ان ماشاهده من التطور والتحول في سياسة الدولة العثمانية وافضاء ذلك الى جعلها كالكرة في أيدي جمعية الاتحاد والترقي قد ضاعف مافي فطرته وتربيته من كراهة الآراء والافكار التي نشأ عنها ذلك الفساد، وشدة الحذر من أصحاب أمثال هذه الآراء والافكار، وقد ذكرت في هذه الرحلة ما كان أعجبني ووافق رأيي من خطته السياسية التي أفصح عنها في منشوراته ، وأشرت الى ما طرأ بعد ذلك من التحول فيها فلا أعيده ، وانما أقول انه جاء موافقا لما ذكرت هنا من آرائه الراسخة فظهر ان التجارب لا تزيدها الا رسوخا وثباتا

وانني أختم الكلام بتكرار الشكر والثناء على حسن ضيافته لي واكرامه إياي، فقد غمرني بكرمه وجوده، وكان من دقة لطفه وكمال ذوقه في ذلك أن جعله بطريقة لا مجال للاعتذار عن قبول شيء منه ، وقد كنت قلت أول مقدمي لبعض المقربين منه كلاما عن عادتي التي شرحتها في المنار عند رحلتي الى الهند ، وهي انني لا أقبل أن تشاب خدمتي للعلم وللملة والامة بشيء من شوائب المنافع الشخصية، حتى انني كنت أعلن في تلك الرحلة انني لا أقبل الهدية.. ورجوت أن يتلطف في تبليغ ذلك وان أدري أفعل أم لا ، ولكنني بعد شد الرحال وعند ارادة الركوب وصلت الي جائزة سنية ، أو هدية هاشمية ، أردت أن أكلم من جاء بها في شأنها فقال هكذا أمرت وأنا لا أعلم شيئا الا انني عبد مأمور أمرني سيدنا فنفذت أمره، وانصرف، فعجبت من هذا اللطف الدقيق ، والذوق السليم ،

طواف الوداع وتوديع الاخوان

في أثناء اشتغال وكيل الخرج وأعوانه بشد الرحال، طفت أنا ومن معي الآل والصحب طواف الوداع ، وكان ذلك بعد العصر ، وكنا قصدنا ان نركب في ذلك الوقت ، ولكن لم يتيسر لنا الركوب الا عند قرب غروب الشمس ، وودعنا قبل الخروج كثير من الاخوان والمحبين ، وركبنا وركب معنا بعض الاصدقاء مشيعين ، وفي مقدمتهم السيد الزواوي الكبير ونجله السيد عبد الرحمن والشيخ حسين باسلامه ومطوفنا ونجله ، وخرج معهم الاخ الرفيق الشيخ خالد ، أما سائر الرفاق والاهل فقد ركبوا في الشقادف من أول الامر ، وأما أنا فركبت البغلة التي أرسلت الي من الاصطبل الهاشمي مع اثنين حجاب الامير مشيا أمامي بملابسهما الرسمية، حتى اذا ماخرجنا من مكة المكرمة و بلغنا المكان المعروف بقهوة المعلم — وقد ذكرناه في الكلام على دخولنا مكة حرسها الله تعالى — ألفينا هنالك صاحب السيادة الشريف شرف حاكم مكة (القائم مقام الامير فيها) بالانتظار مع بعض رجاله وقد أنفذ للتوديع من قبل الحضرة الهاشمية نائبا عنها ، وعلمنا انه خرج منذ وقت العصر لانه هو الوقت الذي عين لخروجنا ولم يتيسر لنا الخروج فيه، فنزلنا وجلسنا معه قليلا واعتذرنا له عن تأخيرنا وشكرنا له هذا الانتظار الطويل ،

ثم صلينا المغرب مع المودعين جماعة وأتبعتها أنا والرفيقان بالعشاء مجموعة معها جمع تقديم ، ثم ودعنا السادة المشيعين، وركبنا الرواحل وسرنا باسم الله قافلين ، والحمد لله رب العالمين

ذيل لمباحث الحج في الصدقات وفقراء الحرم

انني عند توديع السيد الزواوي قلت له قد بقي معي في الكيس خمسة عشر جنيها انكليزيا من النقود المخصصة للصدقة في الحرم لم يتيسر لي انفاقها فانا أوكلك في في توزيعها على المستحقين ، من أهل الصلاح والمروءة المتعففين ، وأعطيته اياها ، فأرسل الي بعد عودتي الى مصر ورقة فيها أسماء من صرفها لهم ، ومقدار ما أعطى كلا منهم ، وعليها أختامهم . وبهذه المناسبة نقول كلمة في فقراء الحرم والصدقة فيه وفي غيره وما يتعلق بذلك كبحث السؤال

ان الفقراء المتسولين أول من يستقبل الحجاج قبل دخول مكة وآخر من يشيعهم عند الخروج منها عائدين الى بلادهم، وكذلك شأنهم عند الخروج من مكة الى منى فعرفات وعند العودة من منى بعد انقضاء أيامها. وأكثر هؤلاء المتسولين من صغار الصبيان والبنات ، يقل فيهم المراهقون والمراهقات ، فتراهم يحيطون بالحجاج من كل جانب ، رافعين أيديهم الى مقدم الهوادج، وألسنتهم تكرر الادعية المناسبة للاوقات ، فيذكرون في أدعيتهم قبل دخول مكة وعند الخروج الى عرفة أداء الحج وقبوله والعودة بالسلامة ، وبعد الحج زيارة النبي (ص) والوقوف بشباك حجرته الطاهرة ، ومنهم من يربط كوزا من الزنك ونحوه بطرف خشبة كالعصا ويرفعها حتى تكون بين يدي الراكب فيكون ما يوضع في كل كوز خالصا لحامله ، وأما الصغار الذين لا يحملون هذه الكيزان فما يرضخ لهم يرمى على الارض فيستبقون لالتقاطه فيكون حظ النشيط القوي منهم أضعاف حظ الخامل والضعيف ،

السؤال محرم في الاسلام لا تبيحه الا الحاجة الشديدة أو الضرورة التي تبيح كثيرا من المحظورات كاكل الميتة ولحم الخنزير ، لانه ذل يدعو اليه الكسل وحب البطالة والاتكال على أوساخ الناس ، والضرورات عوارض تعرض لبعض الناس أحيانا وهي تقدر بقدرها شرعا ، وليس من شأنها أن تكون ملازمة للكثيرين من

الاصحاء القادرين على الكسب بحيث تبيح لهم أن يجعلوا السؤال حرفة يكون عليها مدار رزقهم، كما هو شأن أكثر السائلين في كل البلاد، بل يكون بعض هؤلاء غنيا شرعا تجب عليه الزكاة، وقد يتأثل السائمة والعقار، واذا كان السؤال لغير ضرورة معصية محرمة وكانت الاعانة على المعصية معصية فعلى المسلم العارف باحكام الاسلام أن لا يرضخ بشيء لمن يعلم من حاله أنه قد اتخذ السؤال حرفة له، ولا لمن يعلم أيضا انه غير مضطر الى ما يسأله، بان كان يمكنه أن يستغني عنه، والمجهول حاله في ذلك موضع تردد ونظر، وأما من يعلم الانسان أو يظن من حاله انه يسأل عن ضرورة ولاغنى له عما يسأله ولا وصول له اليه بغير السؤال فالمندوحة للواجد عن مواساته والرضوخ له من مال الله تعالى، وقد يصل ذلك الى درجة الوجوب، كأن تعلم أن فلانا مضطر ولا يعلم بحاله أحد يرجى أن يزيل اضطراره سواك وأنت قادر على ذلك، ومثل هذه الصورة تقع للافراد القليلين وقلما تقع للكثير من الناس الا في أزمنة المجاعات العامة

انني قلما أعطي أحدا من السائلين الكثيرين في الشوارع بمصر، ولما رأيت هؤلاء السائلين خارج مكة عند قدومي اليها – وأنا لم أنس ما كان بلغنا ونحن في مصر من خبر العسرة والضيق في الحجاز وما سمعته مؤكدا لذلك في جدة — وجدتني مندفعا لاعطاء كل من سألني، ولما نفد ما كان في كيسي من الدراهم المعدة لنفقة الطريق من جدة الى مكة أذنت الرفيق الذي صحبني من جدة بأن يعطي من يعلم انه لم يأخذ مني ويحصي ما ينفقه لارده له بعد الاجتماع بالآل الذين كانوا يحملون نفقتنا في رحالهم. وكنت أردت أن أجري على هذه الطريقة مع السائلين في الحرم الشريف، ثم صدني عن ذلك انهم صاروا يجتمعون علي بكثرة عند الدخول ويحيطون بي بحيث يتعذر توزيع ما في اليد أو الجيب عليهم فكنت أنثره على بعد فيتركوني ويتهافتون عليه ثم تركت ذلك لما فيه من المشقة والشهرة ورأيت الراحة في الاخفاء. ولكن رفيقي محمد نجيب أفندي ظل يتحمل التعب والعناء في توزيع الصدقة على هؤلاء المتسولين في داخل الحرم وخارجه وله صبر طويل على ذلك.

ومن غريب ما رأينا من دلائل البؤس والجوع في الفقراء الملازمين للحرم ان بعض

الناس جاء بشيء من الحبوب لحمام الحرم فاختطفوه وصار بعض السودانيين من الدكرور يأخذون منه ويضعونه في أفواههم ويمضغونه متغذين به كالدواب . وقد جريا نحن على عادة الناس بالرضخ بالقليل للواحد من هؤلاء المتسولين بحيث كان صرف اخينيه الواحد يوزع على المئة أو المئات منهم، وانما تطيب النفس بما هو أكثر من ذلك للذين يتعرضون ولا يسألون ، والذين اذا سألوا يتجملون ولا يلحفون ، وانما ذكرنا هذا البحث وما وقع لنا من التجربة فيه ليستفيد منه غير العالم بما ذكرنا من الاحكام ، وغير الواقف على ما وقفنا عليه من التجارب ، ونسأل الله أن لا يجعل فيه شيئا من الرياء وشهوة الشهرة ، على أن صدقتنا مما ينبغي أن يستحيا من ذكره، فهي والحق يقال دون ما أنعم الله به علينا ، وما من أحد يحج ايمانا واحتسابا الا ويتصدق في الحج بحسب سعته لان الاعمال الصالحة يضاعف أجرها في ذلك الزمان وذلك المكان ، ومنهم من ينفقون هنالك فوق جميع ما نملك من المال، ولكن المتصدق العالم المخلص يجد عناء عظيما في تحري المستحقين الصادقين ، من أهل الايمان واليقين ، والصلاح في الدين، يجد هذا العناء في وطنه الذي يقيم فيه، فكيف حاله في بلد يجهل حال أهليه ، وقد كثر الكفر والابتداع في الارض ، وظهر الفساد في البر والبحر ؟ وليس هذا محل شرح هذه المسألة بالاسهاب، وقد ألممنا بها من قبل في المنار

القفول من مكة الى جدة

اننا لما ودعنا المشيعين الكرام وامتطينا الرواحل اخترت ان يكون محمد افندي هو الصاحب بالجنب لي ، وان يركب وكيل الخرج مع الاستاذ الشيخ خالد ، وكان المناسب أن يركب الاستاذ معي لما بيننا من التعادل والتوازن في الجسم، وطول الصحبة مع التوافق في التربية والرأي ، فإننا تعارفنا من أوائل العهد بمقدمي الى مصر، ولا أزال أهدي اليه المنار من ذلك العهد الى اليوم ، ولا أرى منه الا الوفاق والثناء والشكر، وإنما اخترت التفرق في الرواحل لثلاثة أسباب ترجح ما ذكرت من الجامعتين الجسمية والروحية بيننا (أحدها) ان في تفرقنا عدلا بين الراحلتين في التخفيف عليهما ، لان تعادلنا في الجسامة ، يقابله تعادل صاحبينا في النحافة ، (ثانيها) ان كلا منا يحتاج الى خدمة رفيقه في الراحلة ، ومحمد أفندي يرغب في

خدمتي لانني استاذه في الدين ، فلا يبقى لخدمة الاستاذ الا وكيل الخرج (ثالثها) ان صاحبي أجدر بالاستفادة مني لانه اعتاد منذ كان تلميذا الرجوع الي في أمور دينه، فصرت لعلمي بشؤونه أقدر على افادته و إفتائه في أمره ، وصاحب الاستاذ أجدر بالاستفادة منه لانه ما فتئ مشتغلا بوعظ العوام وارشادهم ، وقد حيل بيني و بين ذلك في مصر فلم يقع لي فيها الا مرارا قليلة في السنين الاولى من هجرتي ، وأما في هذه السنين الاخيرة فلم يأخذ عني فيها الا بعض المدرسين وأذكياء طلاب العلم ، وكان من لوازم هذه القسمة بيني وبين صديقي انني كنت أحسن حظا منه إذ كان صاحبي من الاتقياء المتعلمين في مدارس الحكومة حتى العالية فيها ، العارفين بأخلاق الناس وشؤونهم بطول اختباره وتجاربه في خدمة الحكومة المصرية، وصاحبه من العوام ، على انه كان يمكنه ان يستفيد من اختباره لشؤون الحجاز وأصناف الحجاج ما لا يعرف الا من أمثاله المتمرسين بهذا الأمر

سرينا منفردين ليس معنا رفاق من المصريين ولا غيرهم ممن نعرف، ولكننا وجدنا في الطريق عددا ليس بقليل من حجاج المغاربة منهم المشاة والركبان، وقد بلغنا بحرة في وقت السحر فعرّسنا فيها ؛ [1] وكان الجوع قد بلغ منا لاننا لم نتعش قبل خروجنا من مكة فأكلنا مما حملنا من الزاد، وكان جله من لحم خروف أهداه الي بعض المحبين لم نر مثله في طراوة لحمه ولينه ودسمه، لا في الحجاز ولا في غيره، وهو ليس من ضأن الحجاز . ثم نمنا قليلا اذ استيقظنا بعد طلوع الفجر فأدركنا صلاته بفضل الله تعالى

لم أر من بحرة في إلمامي بها ليلا قادما من جدة الى مكة الا ما على جانبي الطريق العام من المنازل التي يسمونها القهاوي وهي خاصة بالرجال ، وأكثر من ينزل فيها الرجال الذين لا يستغنون عما فيها من الطعام وشراب الشاي والقهوة، وما يحتاجون اليه من الخدمة ، أو الذين يريدون الاستراحة قليلا وان كان معهم كل ما يحتاجون اليه ، وكنت حينئذ من هذا الفريق كما تقدم ؛ وفي هذه المرة نزلنا في المنازل التي يسمونها العشش وهي وراء تلك القهوات، وقد رأيتها فوق ما كنت أحسب — رأيتها دورا في كل دار بيوت من العيدان و بيت خلاء لها حائط منها يفصلها عن غيرها

(١) التعريس نزول المسافرين في آخر الليل للاستراحة

من الدور بحيث يكون النساء في كل منها في ستر تام غير معرضات لأعين أهل الدور المجاورة لها، نزلت مع الوالدة والشقيقة في دار، ونزل رفاقنا في دار بجانبها، ومكثنا هنالك الى ضحوة النهار، وقد نفد ماحملنا من مكة من الماء، فجاءنا وكيل الخرج بماء كدر غير عذب، فسألناه ألا يوجد ماء نقي عذب في هذه الارض؟ قال بلى ولكنه غال لا يكفينا لملء ما معنا من أواني الشرب أقل من ريال، فأمرناه بأن يأتينا بقدر الكفاية منه، فجاءنا بماء لايفضل الاول الا بمضاعفة ثمنه، فكانت هذه كبرى سيئاته، جعلها خاتمة لخدمته، فكانت سبب حرمانه مما كنت أنوي أن أجعله علاوة له على الاجرة الوافية التي خصصها له الامير، وما كان يصيبه كل يوم بعد كفايته وكفاية أهله من فضل النفقة المعينة، وما أخذه من ذبائح نسكنا التي وكلته بالتصرف فيها، وقد سبق له مثل هذه السيئة معنا بمنى، جاءنا بماء كدر لولا أن تداركنا أنفسنا بالبحث عن ماء نقي وفقنا له لما سلم أحد منا من مرض النزلة الشعبية التي ظهرت أعراضها في بعضنا، ولكننا غفرنا له تلك. وأما هذه فلم نستطع تداركها، وسوء الخاتمة لايغفر فنسأله تعالى أن يحسن خاتمتنا.

هذا واننا قد قاسينا من الظمأ في بقية يومنا وعامة ليلتنا بين بحرة وجدة مالم نعرف له نظيرا في تاريخ حياتنا، فكنا نبل أفواهنا من ذلك الماء عند الضرورة، وحاولت الاستغناء عنه بمص رب السوس فلم يغن شيئا. وفي هذه الحالة تذكرت ما كنت عازما على استصحابه من مصر فأنسانيه الشيطان وهو السكر الليموني أي الممزوج بحامض الليمون، فأوصي كل مسافر الى تلك البلاد وأمثالها ان يحمل معه شيئا منه

وصلنا الى جدة قبيل الفجر فنزلنا في دار صديقنا الشيخ محمد أفندي نصيف وكيل الامارة الجليلة وقد نمنا بعد صلاة الفجر ساعات قليلة، وبعد الاستيقاظ طلبت ماء سخنا للاستحمام فاغتسلت وغيرت ثياب الطريق وعلمنا ان أكثر الحجاج المصريين نزلوا الى السفينتين اللتين جاءوا فيهما فتبعناهم وزودنا صديقنا بأحسن الزاد، ونزل معناهو وبعض الاصدقاء في زورق البلدية البخاري الى سفينتنا التي جئنا فيها (النجيلة) مشيعين، وكان هذا آخر عهدنا بأرض الحجاز، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالعودة اليها مرارا كثيرة حاجين ومعتمرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مصائب الحرب

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ

يشتغل بأعمال هذه الحرب — حرب المدنية — عشرات ألوف الالوف من الرجال ومئات الالوف من النساء كان أكثرهم يشتغل بأعمال الزراعة والصناعة والتجارة فيكثرون من نتاج الارض ، ومن ايصال حاج بعض الناس الى بعض ، فيعم به الرخاء وغضارة العيش ، ويزداد المال في أيدي الناس ، وقد قدر عدد قتلى المعارك في أربع سنين بعشرة آلاف الف وعدد المشوهين من الجراح بخمسة وعشرين أو ٣٠ الف الف وحل محلهم مثلهم أو أكثر منهم ، فتضاعفت خسارة البشر بالحرمان من فوائد أعمالهم ، فنقصت الاموال والثمرات بنقص الانفس ، ثم بهلاك الكثير منهما ومن الانفس بحرب الغواصات التي ابتدعتها مبتدعة أكثر رزايا التدمير والتقتيل — ألمانية — فقد رقت صناعة هذه السفن الغواصة حتى صارت تحمل المدافع ، وتقطع تحت الماء ألوفا من الاميال والفراسخ ، وحيثما التقت بسفينة تحمل عروض التجارة ، أو تنقل الناس من بلد الى آخر ، أرسلت عليها وابلا من قذائف المدافع أو سهاما من الطوربيل ، فجعلتها كعصف مأكول ، لاتفرق بين سفن المحاربين وسفن الامم التي على الحياد ، ولا بين حاملة الجنود وعدد الحرب وحاملة العروض وأهل السلم من الرجال والنساء والاولاد ، أرادت بذلك أن تحرم انكلترة وأحلافها من ثمرات سيادة البحار ، بعد ان شدد هؤلاء عليها خناق الحصار ، فآذت الامم كلها ، وأكثرت من عدد أعدائها

كانت جوائح الغواصات سببا في اشتداد الضيق وامتداد الغلاء الفاحش الى جميع أقطار الارض . وقد كان هذا القطر المصري في السنتين الاولى والثانية من سني الحرب أقل الاقطار غلاء وأكثرها رخاء لان أرضه زراعية خصبة يمكنها أن تنتج من الاقوات ما يزيد عن حاجة أهلها ، وكان المخزون فيه مما يرد اليه من الخارج كالفحم

الحجري والانسجة والمواد والادوات اللازمة للزراعة والصناعة كثيرا وثمنه معتدلا، وقد غلا ثمن القطن منذ السنة الثانية فربحت البلاد عشرات من الملايين قضت منها كثيرا من ديونها . فلما اشتد حرب الغواصات قل كل ما يرد من الخارج وتضاعفت أثمانه أضعافا ، وتبع ذلك غلاء غلات البلاد وموادها حتى بلغ ثمن اردب القمح في الشتاء الماضي خمسة جنيهات ، ويباع الآن الرطل المصري من السمن بأربعة عشر قرشا وخمسة عشر ، وبلغ ثمن أقة زيت الزيتون أربعين قرشا فصار مساويا للسمن بعد اشتداد غلاء السمن وكان قد زاد عنه، الا أنه قد ورد منه أخيرا على الاسكندرية عدة قناطير من كريت فنزل الثمن قليلا. ورطل اللحم البلدي يباع في القاهرة بثمانية أو تسعة قروش ، وأقة العنب بيعت بأربعة قروش فخمسة فستة ، وقس عليه سائر الفاكهة

وقد سعرت الحكومة المصرية أكثر مواد الغذاء ، فكان تسعيرها اياها سببا لزيادة الغلاء، ولم نر أهل هذه البلاد اتفقوا على مخالفة الحكومة وعدم الاكتراث لها بشيء كما فعلوا في تسعير الاقوات. فمن الثابت انها لم تنقص من ثمن شيء الا وزادوا فيه عما كانوا يبيعونه به قبل تسعيرها إياه، اللهم الا زيت البترول فهو الذي استطاعت الحكومة أن تنفذ أمرها فيه تنفيذا مطردا. وقد كان ثمن رطل اللحم قبل تسعيره ٦ قروش أو ٦ ونصف قرش فلما رفعته الحكومة الى هذا القدر ارتقى سعره كما علمت. وكان ثمن رطل السمن ٩ فصار بعد جعلها اياه نحوا من ذلك بزهاء ضعفيه. وكان ثمن أقة زيت القطن المكرر كثمن رطل السمن فصار شأنه شأن السمن في التسعير والغلاء. وقس على ذلك سائر الاشياء

وأما ما يرد الى القطر من الخارج فقد تضاعفت أثمانه الى ماشاءت أطماع تجاره التي لاحد لها ، فتضاعف ربحهم وعظمت ثروتهم ، وكلما غلوا في الغلاء ، غلا أهل الفنع والثراء في الشراء، وقد بلغنا ان أغنى أمم الارض من الاوربيين والامريكيين ترك موسروها في أثناء هذه الحرب جميع ما يعد في العرف من الكماليات، واكتفى الاغنياء منهم بالحاجيات، ومن دونهم بالضروريات، حتى ترك أكثرهم شرب الخمور التي كان بعضهم يعدها ضرورية، وكسدت عندهم تجارة الترف والزينة، وشذ أغنياء هذا القطر، فاشتد تباريهم في اتخاذ الحلي والحلل، وتنافسهم في الاثاث والرياش، وأرهق من دونهم من أهل الطبقة الوسطى عسرا ، فنسأله تعالى أن يجعل لهم مع هذا العسر يسرا .

تقريظ المطبوعات الجديدة

ان الاضطرار الى تقليل صحائف المنار على كثرة مواده دون تقريظ المطبوعات الجديدة في هذه السنة وما قبلها ، أو التنويه بذكرها للإعلام بها ، وذلك حق لاصحابها على من يهدونها اليهم من أصحاب الصحف الدورية حقه العرف ، وأوجبه التعاون على نشر العلم ، واقراء هذه الصحف من الحق على أصحابها أن يعلموهم بما يتجدد في صناعة المطبوعات ، من الصحف والمصنفات ، ويبينوا لهم قيمتها المعنوية قبل بيان قيمتها المالية ، بالتقريظ الصحيح ، والنقد النزيه ، واننا نحب أن نؤدي الحقين ، ونقوم بواجب النصح للفريقين ، ولكن يتعذر علينا تارة ويتعسر تارة قراءة ما يهدى الينا من هذه المطبوعات أو قراءة طائفة من كل منها ، تكفي لصحة الحكم في أمرها ، ولا نحب أن نكون كمن ينظر في فهرس الكتاب فيختار منه ما يظن أن فيه تقصيرا أو خطأ فيراجعه وينتقد منه ما يراه محلاً للانتقاد ، أو يختار موضعاً يوافق رأيه فينقله ويخصه بالثناء ، ولا كمن يثني على كل كتاب يهدي اليه ثناء مجملا ، أو ينشر ما يرد له اليه صاحب الكتاب اطراء مفصلا ، وخير من هذا وذاك أن يعرف صاحب الصحيفة بالكتاب تعريفا تاريخيا بذكره وذكر اسمه واسم مؤلفه وموضوعه ووصف حجمه وورقه وطبعه ، وهو ما نجري عليه أحيانا ، وقد نزيد عليه بيان قيمته المعنوية أحياناً ، وان من الكتب ما يعرف الجمهور قدره في الجملة بمجرد ذكره أو وصفه . واننا نراجع الآن ما أهدي الينا في هذه المدة ونذكر ما يقع في يدنا منه فيما بقي من أجزاء منار هذا المجلد

﴿ جرجي زيدان ١٨٦١—١٩١٤ ﴾ « ترجمة حياته ، مرائي الشعراء والكتاب حفلات التأبين ، أقوال الجرائد والمجلات في الرجل وآثاره » نشر هذا الكتاب اميل افندي زيدان نجل جرجي بك زيدان ووارث الهلال من بعده مؤلفاً من ص ١٤٧ بحجم الهلال مطبوعاً بمطبعة الهلال في سنة ١٩١٥ وهذا الكتاب مستغن عن الوصف والتقريظ

﴿ مبادىء علم السياسة ﴾ كتاب لخصه سليم افندي عبد الاحد الكاتب

المشهور من بعض الكتب الانكليزية لمجلة الهلال فطبعتـه بمطبعتها في سنة ١٩١٥ وجعلته ملحقا للسنة الثالثة والعشرين من مجلة الهلال . وهو ثلاثة أقسام (أولها) في الدولة — حقيقتها ونشوئها وسلطتها وصلتها بغيرها وأنواع الدول في القديم والحديث (ثانيها) نظام الحكومة — سلطتها بأنواعها وأنظمتها وسياستها وادارتها وأحزابها وغير ذلك (ثالثها) الحكومة والاجتماع، وفيه ذكر المذاهب الفردية والاشتراكية والانظمة الحاضرة . أما حاجة اللغة العربية الى مثل هذا الكتاب فشديدة لكثرة القراء الذين يهتمون بالامور السياسيـة وقلة ما في اللغة من موادها . وأما طبع الكتاب فنظيف وورقه جيد ، وصفحاته ١٣٠ بشكل المنار والهلال

﴿ خلق المرأة ﴾ كتاب ألفه بالفرنسية هنري ماريون الذي كان أستاذاً في كلية الآداب بباريس وترجمه بالعربية اميل افندي زيدان صاحب الهلال وجعله ملحقا للسنة السادسة والعشرين . وقد طالعته كله فألفيت كاتبه من أعدل الكتاب لاوربيين في هذا الموضوع ، وأرجو أن أكتب شيئا في بيان ما استفدته منه ، وقد طبع بمطبعة الهلال طبعا حسنا ولكن على ورق غير جيد — والعذر قلة الورق وكثرة الثمن — وصفحاته ١١٩

﴿ الصبي — بحث في الاخلاق والتربية في قالب روائي ﴾

كتاب الفته فتاة انكليزية اسمها (ماري كورلي) وعني بترجمته بالعربية عبد العزيز افندي صدقي من موظفي وزارة المعارف والتزم طبعه نجيب افندي متري صاحب مطبعة المعارف وقد طبع الجزء الاول منه في العام الماضي في ١٢٨ صفحة

أما المترجم فشاب نبيه يتوخى أن ينفع بلاده بما يترجم وليس ممن لاهم لهم من الترجمة أو التأليف الا الكسب فيختارون ما يلذ للجمهور لا ما ينفعه ، وعبارته حسنة ولكن فيها ما فيها من ضعف أساليب الجرائد وغلطها ، وذلك ما يعز أن يسلم منه كاتب عصري ، وهو على ما أظن غير مغرور بها على علمه بأنها تفضل عبارات اكثر مترجمي القصص التي تنشر في هذه الايام، بل يحب الترقي والكمال في الترجمة والانشاء ، ولا طريق لذلك الا عرض ما يترجم وينشئ لنقد بعض علماء اللغـة والادب ومتأنقي الكتاب قبل نشره أو بعده ولو بالجعل والجزاء

وأما غرضه من ترجمة هذه القصة فقد بينه في مقدمتها وهو اكمال ما ينقص البلاد من القصص الجدية الجامعة بين لذة المطالعة والفائدة النافعة في تربية الاسرة، وقد شرح ذلك شرحا جميلا في صفحتين ونصف صفحة

تصفحت هذا الجزء فألفيته مفيدا كما قال المترجم ولكن البلاد ليست فارغة خالية من مثله كما ادعى ، كيف وقد طبع فيها كتاب (التربية الاستقلالية) مرتين وأوشكت نسخ الطبعة الاخيرة أن تنفد ، وهو اذا قوبل بما ظهر من كتاب (الصبي) يظهر انه أعم فائدة وأفضل ، وأسلم من لغو القصص وأبعد ، ومما أعجبني من الفوائد التي انفرد بها كتاب الصبي أو خالف فيها غيره بيان كراهة الشعب الانكليزي لتعليم أولاده وتربيتهم في مدارس أجنبية. فان مؤلف كتاب التربية الاستقلالية (اميل القرن التاسع عشر) — وهو فرنسي — قد استحسن أن يربى الطفل الفرنسي في البلاد الانكليزية لان التربية فيها أفضل، وأن يعلم ويربى فى بلاده اذا صار يافعا، لينشأ فرنسيا وطنيا صادقا، ثم يكمل علومه فى البلاد الالمانية، لان العلوم العالية ترقى فيها وأكمل . وأما مؤلفة كتاب الصبي أو قصته فهي تقول فى التعليم فى المدارس الاجنبية ما قال مالك فى الخمر ، وتجعلها أدهى من الساعة وأمر ، فقد ذكرت أن أم (الصبي) الجاهلة ، التي جعلتها مثلاً للتربية الفاسدة، قد اختارت له مدرسة أجنبية، يتعلم فيها من اللغات والعلوم العقلية والجسمية، ما يؤهله لكل عمل فى الحياة ، على قلة الاجرة والنفقات ، ثم ذكرت أن الصبي ارتاع لهذا الاختيار الذي يخرجه عن كونه انكليزيا «اذ كان وجدانه يحدثه أن المدارس الاجنبية تبدل جنسيته وأخلاقه» ثم قالت إن الصبي ذكر ذلك لشيخ كبير مختبر يعرف البلاد الاجنبية فحذره من ذلك وأنذره سوء عاقبته بقوله : إن المدارس الاجنبية لا تخرّج انكليزيا مطلقا ، انك تذهب الى الخارج شابا ظريفا مؤدبا كما أنت الآن ، ولكنك لا تعود بتلك الصفات ، ستعود وقد تعلمت الكذب والنفاق والمخادعة ، فعند ما تتحدث تنهق كالحمير ، وعند ما تسير تقفز كالضفادع ، وسوف تخاف من الماء البارد ، ولا يمكن الناظر الى وجهك أن يقول انك انسان حي، انك أجنبي ممسخ حقير ، هذا ما ستكونه. اه

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٣٠ شوال ١٣٣٦ — ١٤ الاسد (ص٢) ١٢٩٦ هـ ش ٧ يوليو ١٩١٨

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٨٥) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسٰى وَهٰرُونَ ، وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٦) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيٰى وَعِيسٰى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصّٰلِحِينَ (٨٧) وَإِسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعٰلَمِينَ (٨٨) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيّٰتِهِمْ وَإِخْوٰنِهِمْ وَاجْتَبَيْنٰهُمْ وَهَدَيْنٰهُمْ إِلٰى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٩) ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ

يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٩١) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ

بين الله تعالى في الآيات السابقة لهذه بعض ما رفع به من درجات ابراهيم (ص) ثم بين في هذه فضله ونعمه عليه في حسبه ونسبه وذريته، وأعلاها جعل الكتاب والحكم والنبوة فيها، فقال ﴿ ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ﴾ أي ووهبنا لابراهيم بآية منا اسحق نبيا من الصالحين، ومن وراء اسحق ولده يعقوب نبيا نجيبا منجبا للانبياء والمرسلين، وهدينا كلا منهما كما هدينا ابراهيم بما آتيناهما من النبوة والحكمة وقوة الحجة. وتقديم «كلا» على «هدينا» لافادة اختصاص كل منهما بما ذكر من الهداية على سبيل الاستقلال لا التبع، لان كلا منهما كان نبيا، هاديا مهديا، وانما ذكر اسحق من ولدي ابراهيم دون اسماعيل، لانه هو الذي وهبه الله تعالى له بآية منه بعد كبر سنه ويأس امرأته سارة على عقمها جزاء لايمانه واحسانه، وكمال اسلامه لربه واخلاصه، بعد ابتلائه بذبح ولده اسماعيل، واستسلامه لامر ربه في الرؤيا من غير تأويل، ولم يكن له ولد سواه على كبر سنه، وقد ولد له من سرية شابة، ولذلك قال تعالى بعد ذكر قصة الذبيح من سورة الصافات (وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين) وسنبين حكمة تأخير ذكر اسماعيل وذكره مع من ذكر من الرسل (ع م) وقال المفسرون والمؤرخون ان كلمة (اسحق) معناها (الضحاك) وقيل ان معناها الحرفي (يضحك) وقالوا انه ولد ولأبيه مئة واثنتا عشرة سنة، ولأمه تسع وتسعون سنة، وانه عاش مئة وثمانين سنة. وقالوا ان معنى كلمة (يعقوب) الحرفي «أخذ العقب» والمراد يختلس ما يأخذه،

﴿ ونوحا هدينا من قبل ﴾ أي وهدينا جده نوحا هديناه من قبل ابراهيم الى

مثل ما هدينا له ابراهيم وذريته من النبوة والحكمة ، وارشاد الخلق وتلقين الحجة ، قيل ان اسم (نوح) من مادة النوح العربية والمشهور انه اعجمي ، قال الكرماني معناه بالعربية (الساكن) وقال مؤرخو اهل الكتاب ان معناه (راحة) أما قوله تعالى ﴿ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون. وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين * واسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين ﴾ فهو عطف على «ونوحا هدينا» أي وهدينا من ذريته داود وسليمان الخ وقد جزم ابن جرير شيخ المفسرين بأن الضمير في ذريته لنوح وتابعه على ذلك بعض المفسرين واحتجوا بأنه اقرب في الذكر و بأن لوطا ويونس ليسا من ذرية ابراهيم ، وزاد بعضهم ان ولد المرء لا يعد من ذريته فلا يقال ان اسماعيل من ذرية ابراهيم . وهذا القول لا صح لتصريح اهل اللغة بأن الذرية النسل مطلقا . وأخذ بعضهم من قوله تعالى (وآية لهم انا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) أن الذرية تطلق على الاصول كما تطلق على الفروع ، وذلك بناء على ان المراد بالفلك المشحون سفينة نوح . وقال بعضهم ان الذرية هنا للفروع المقدرة في اصلاب الاصول ، والقول الآخر في الفلك المشحون انه سفين التجارة التي كان المخاطبون يرسلون فيها أولادهم يتجرون

وذهب سائر المفسرين الى ان الضمير عائد الى ابراهيم لان الكلام في شأنه ، وما آتاه الله تعالى من فضله ، وانما ذكر نوحا لبيان نعم الله عليه في أفضل أصوله ، تمهيداً لبيان نعمه عليه في الكثير من فروعه ، ويزاد على ذلك ان الله جعل الكتاب والنبوة في نسلهما معا ، منفرداً ومجتمعاً ، كما قال تعالى في سورة الحديد (ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) وقال بعض هؤلاء ان يونس من ذرية ابراهيم ، وان لوطا ابن اخيه وقد هاجر معه فهو يدخل في ذريته بطريق التغليب ، ويعد منها بطريق التجوز الذي يسمون به العم أبا ، وتقدم بيان هذا التجوز في الكلام على أبي ابراهيم (ص) في فاتحة تفسير هذا السياق

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات الثلاث أربعة عشر نبيا لم يرتبهم على حسب

تاريخهم وأزمانهم لانه أنزل كتابه هدى وموعظة لا تاريخا — ولا على حسب فضلهم ومناقبهم لان كتابه ليس كتاب مناقب ومدائح وانما هو كتاب تذكرة وعبرة، وانما جعلهم ثلاثة اقسام لمعان في ذلك جامعة بين كل قسم منهم

فالقسم الاول داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، والمعنى الجامع بين هؤلاء ان الله تعالى آتاهم الملك والامارة، والحكم والسيادة، مع النبوة والرسالة، وقد قدم ذكر داود وسليمان وكانا ملكين غنيين منعمين، وذكر بعدهما أيوب ويوسف وكان الاول أميرا غنيا عظيما محسنا، والثاني وزيرا عظيما وحاكما متصرفا، ولكن كلا منهما قد ابتلي بالضراء فصبر، كما ابتلي بالسراء فشكر، وأما موسى وهارون فكانا حاكمين، ولكنهما لم يكونا ملكين، فكل زوجين من هؤلاء الازواج الثلاثة ممتاز بمزية، والترتيب بين الازواج على طريق التدلي في نعم الدنيا وقد يكون على طريق الترقي في الدين. فداود وسليمان كانا اكثر تمتعا بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسى وهارون، والظاهر ان موسى وهارون أفضل في هداية الدين واعباء النبوة من أيوب ويوسف، وأن هذين افضل من داود وسليمان، بجمعهما بين الشكر في السراء، والصبر في الضراء، والله أعلم. وقد قال تعالى بعد ذكر هؤلاء « وكذلك نجزي المحسنين » أي بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها بالحق، وهداية الدين وارشاد الخلق، وهذا كما قال الله تعالى في أحدهم يوسف (١٢: ٢٢ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) فهو جزاء خاص ببعضه معجل في الدنيا، أي ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي الله بعض المحسنين بحسب إحسانه في الدنيا قبل الآخرة ومنهم من يرجئ جزاءه الى الآخرة

والقسم الثاني زكريا ويحيى وعيسى والياس، وهؤلاء قد امتازوا في الانبياء عليهم السلام بشدة الزهد في الدنيا والاعراض عن لذاتها، والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها، ولذلك خصهم هنا بوصف الصالحين، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم، وان كان كل نبي صالحا ومحسنا على الاطلاق

والقسم الثالث اسماعيل واليسع ويونس ولوط، وأخر ذكرهم لعدم الخصوصية اذ لم يكن لهم من ملك الدنيا أو سلطانها ما كان للقسم الاول، ولا من المبالغة في

الاعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثاني، وقد قفى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين، الذي جعله الله تعالى لكل نبي على عالمي زمانه، فمن كان من النبيين منهم منفردا في عالم أوقوم كان افضلهم على الاطلاق، وما وجد من نبيين فأكثر في عالم أو قوم فقد يكونون مع تفضيلهم على غيرهم، متفاضلين في أنفسهم، فلاشك ان ابراهيم أفضل من لوط المعاصر له، وان موسى أفضل من أخيه هارون الذي كان وزيره، وان عيسى أفضل من ابن خالته يحيى، صلوات الله عليهم أجمعين. وسيأتي ذكر بعضهم في بعض السور مفصلاوفي بعضها مختصرا، ولذلك نرجئ الكلام على كل منهم الى تفسير تلك السور. والله المسؤول أن يوفقنا لتفسيرها واتمام تفسير الكتاب العزيز على ما يحب ويرضى عز وجل.

وهذا البيان لترتيب هؤلاء الانبياء ونكتة ما ذيل به كل قسم منهم هومما فتح الله به علينا لم نعلم ان أحدا سبقنا اليه، ولكن حوم بعضهم حوله فلم يقع عليه، وقد قال صاحب روح المعاني وهو أفضل المفسرين المتأخرين، وناهيك بسعة اطلاعه على أقوال الاولين والآخرين، : « ولم يظهر لي السر في ذكر هؤلاء الانبياء العظام، عليهم من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل السلام، على هذا الاسلوب المشتمل على تقديم فاضل على أفضل، ومتأخر بالزمان على متقدم به، وكذا السر في التقرير أولا بقوله تعالى « وكذلك نجزي » الخ وثانيا بقوله سبحانه « كل من الصالحين» والله تعالى أعلم بأسرار كلامه » اه ولله الحمد الذي يختص بفضله ورحمته من يشاء، وقد يؤتي مفضولا ما لا يؤتي أفضل الفضلاء

ونذكر هنامن مباحث اللفظ والقراآت ان القراء اختلفوا في قراءة اسم (اليسع) فقرأه الجمهور بلام واحدة بوزن (اليمن) القطر المعروف. وقرأه حمزة والكسائي بلامين أدغمت احداها فى الاخرى بوزن (الضيغم) قال بعض المفسرين ان اليسع معرب الاسم العبراني يوشع فهو اسم اعجمي دخلت عليه لام التعريف على خلاف القياس وقارنت النقل فجعلت علامة التعريب فلا يجوز مفارقتها له كالبزيد الذي دخلت عليه في الشعر. وقيل انه اسم عربي منقول من (يسع) مضارع (وسع) وأقول الاقرب انه تعريب (اليشع) وهو أحد أنبياء بني اسرائيل وكان خليفة الياس

(إيليا) ومن المعهود في نقل العبري الى العربي ابدال الشين المعجمة بالمهملة .

وقد استدل بعضهم بذكر عيسى في ذرية ابراهيم أو نوح على ان لفظ الذرية يشمل أولاد البنات وذكر الرازي ان الآية تدل على ان الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ويقال ان أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الحجاج بن يوسف . وذكر ذلك الآلوسي وقال : وأورد عليه أنه (أي عيسى) ليس له اب يصرف اضافته الى الام الى نفسه فلا يظهر قياس غيره عليه في كونه ذرية لجده من الام ، وتعقب بأن مقتضى كونه بلا أب أن يذكر في حيز الذرية وفيه منع ظاهر والمسألة خلافية ، وذكر ان موسى الكاظم (رض) احتج بالآية على الرشيد ، ثم ذكر نقلاً عن الرازي استدلال الباقر بها وبآية المباهلة . قال وادعى بعضهم ان هذا من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم وقد اختلف افتاء أصحابنا في هذه المسألة والذي أميل اليه القول بالدخول اهـ

وأقول في الباب حديث أبي بكرة عند البخاري مرفوعاً « ان ابني هذا سيد » يعني الحسن ، ولفظ ابن لا يجري عند العرب على أولاد البنات ، وحديث عمر في كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم مرفوعاً « وكل ولد آدم فان عصبتهم لابيهم خلا ولد فاطمة فاني أنا أبوهم وعصبتهم » وقد جرى الناس على هذا فيقولون في أولاد فاطمة (ع م) أولاد رسول الله (ص) وأبناؤه وعترته وأهل بيته

واستدلوا بتفضيل من ذكر من الانبياء على العالمين على تفضيل الانبياء على الملائكة بناء على ان العالم اسم لما سوى الله تعالى ، وفيه نظر فان العالمين في مثل هذه الآية لا يفهم منه الا الناس أو الاقوام من الناس ، فهي كالآيات الناطقة بتفضيل بني اسرائيل على العالمين ولم يخطر في بال أحد قرأها أو فسرها انها تدل على تفضيلهم على الملائكة ، ومثلها قوله تعالى حكاية عن قوم لوط (أولم ننهك عن العالمين) وقوله في ابراهيم (ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) وهي أرض الشام بارك الله فيها لمن يسكنها من الناس لا للملائكة وغيرهم من عالم الغيب .

﴿ ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم ﴾ أي وهدينا من آباء من ذكر من الانبياء أي بعض آبائهم وذرياتهم واخوانهم ، ومن المعلوم أن بعض هؤلاء لاقربين لـ

يهتد بهدي ابنه أو أبيه أو أخيه من الانبياء كأبي ابراهيم وابن نوح ، قال تعالى في سورة الحديد (ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) وقيل ان العطف هنا على ما قبله مباشرة — أي وفضلنا بعض آبائهم وذريتهم واخوانهم وهم الذين اهتدوا بهديهم، على غيرهم من عالمي زمانهم الذين لم يهتدوا بمثلهم ﴿ واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ﴾ وهذا عطف على (فضلنا) أي وفضلناهم وخترناهم واصطفيناهم بالاجتباء وهو افتعال من جبيت المال والماء في الحوض والثمرات الناضجة في الوعاء — اذا — جمعت ما تختاره منه ، ولذلك قال الراغب الاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء (ثم قال) واجتباء الله العبد تخصيصه اياه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للانبياء ، وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء . ثم أورد الآيات في ذلك ومنها الآية التي نفسرها. وقد أعيد ذكر الهداية لبيان متعلقها وهو الصراط المستقيم، على ما فيه من التأكيد ، ولترتب عليه قوله

﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ﴾ أي ذلك الهدى الى صراط مستقيم، وهو ما كان عليه أولئك الاخيار مما ذكر من الدين القويم ، والفضل العظيم، هو هدى الله الخاص، الذي هو وراء جميع أنواع الهدى العام، كهدى الحواس والعقل والوجدان ، لانه عبارة عن الايصال بالفعل الى الحق والخير على الوجه الذي يؤدي الى السعادة ، وقد تقدم شرح ذلك في تفسير سورة الفاتحة . وقوله « يهدي به من يشاء من عباده » يقع على درجتين: هداية ليس لصاحبها سعي لها ولا هي مما ينال بكسبه ، وهي النبوة المشار اليها بقوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) وهداية قد تنال بالكسب والاستعداد ، مع اللطف الالهي والتوفيق لنيل المراد ، وقد تقدم كلام بهذا المعنى في هذا السياق . ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ أي ولو فرض أن أشرك بالله أولئك المهديون المجتبون ، لحبط أي طل وسقط عنهم ثواب ما كانوا يعملون ، بزوال أفضل آثار أعمالهم في أنفسهم ، الذي هو الاساس لما رفع من درجاتهم ، لان توحيد الله تعالى لما كان منتهى الكمال المزكي للانفس ، كان ضده وهو الشرك منتهى النقص والفساد المدسي لها ، والمفسد لفطرتها ، فلا

يمكن أن يبقى معه تأثير نافع لعمل آخر فيها ، يمكن أن يترتب عليه نجاتها وفلاحها.

﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ﴾ ذهب ابن جرير والرازي الى أن الاشارة في أولئك الى من ذكر في الآيات من أنبياء الله تعالى ورسله ، وذهب آخرون الى شمولها من ذكر بعدهم اجمالا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم. وقال ابن جرير ان المراد بالكتاب ما ذكر في القرآن من صحف ابراهيم وموسى وزبور داود وانجيل عيسى ، وان المراد بالحكم الفهم بالكتاب ومعرفة ما فيه الاحكام. وروى عن مجاهد ان الحكم هو اللب (قال) وعنى بذلك مجاهد ان شاء الله ما قلت، لان اللب هو العقل ، فكأنه أراد ان الله آتاهم العقل بالكتاب وهو بمعنى ما قلنا من انه الفهم به اه . ولم يرو عن السلف في تفسير الحكم غير هذا القول عن مجاهد . والحكم يطلق في أصل اللغة على حكم العقل باثبات شيء لشيء أو نفيه عنه قطعا وهو العلم اليقيني بالمعنى اللغوي الذي بيناه من قبل وهو يستلزم فقه المعلوم وفهم سره وحكمته فهو بمعنى الحكمة والفلسفة ، ويطلق على القضاء للخصم على خصم بأن هذا حقه أو ليس بحقه ، وقال الراغب : والحكم بالشيء ان تقضي بأنه كذا سواء ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه ، وقال صاحب اللسان : والحكم العلم والفقه والقضاء بالعدل وهو مصدر حكم يحكم (كنصر ينصر) ثم نقل عن ابن سيده ان الحكم القضاء وجمعه أحكام ولم يقيده بالعدل ، وعن الازهري انه القضاء بالعدل . وقول ابن سيده هو الظاهر لقوله تعالى (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) والمعنى الاصلي لهذه المادة المنع . قال في اللسان : والعرب تقول حكمت وأحكمت وحكّمت (بالتشديد) بمعنى منعت ورددت، ومن هذا قيل للحاكم بين الناس حاكم لانه يمنع الظالم من الظلم . وذكر كغيره من ذلك حكمة اللجام بالتحريك وهي حديدة اللجام التي توضع في حنك الدابة — لانها ترد بها وتكبحها . وأقول ان الحكم بمعنى العلم الجازم وفقه الامور وهو حكمتها فيه معنى المنع أيضا وهو منع الاحتمالات والظنون فمن ليس له حكم جازم في المسألة لا يكون عالما بها. ومايقال في المسألة الواحدة يقال في كل علم وفن، وكذا منع العالم الحكيم من مخالفة مقتضى العلم ومن الواضح الجلي أن كل نبي من الانبياء قد آتاه الله الحكم بهذا

المعنى — أي العلم الصحيح والفقه في أمور الدين وشؤون الاصلاح، وفهم الكتاب الذي تعبده به ، سواء أنزله عليه أم أنزله على غيره . وانما اختص بعضهم باتيانه الحكم صبيا ، كما حكى ذلك عن يحيى ، وأما الحكم بمعنى القضاء والفصل في الخصومات فلم يؤته الا بعض الانبياء ، فاذا كان المشار اليه بقوله (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) من ذكرت أسماؤهم من الانبياء فيما قبله من الآيات فالاظهر ان المراد بالحكم فيها الفصل في الخصومات والقضاء بين الناس لانه أخص ويستلزم العلم والفقه كما تستلزمهما النبوة ، وتكون هذه العطايا الثلاث مرتبة على حسب درجات الخصوصيـة ، فان بعض أولئك النبيين أوتي الثلاث كابراهيم وموسى وعيسى وداود، ومنهم من أوتي الحكم والنبوة كيوسف والانبياء الذين كانوا يحكمون بالتوراة، ومنهم من لم يؤت الا النبوة فقط . واذا جعلنا الحكم بمعنى الفهم والعلم كانت الآية غير مبينة لعطية القضاء التي تستلزمهما . ومن شواهد القرآن على استعمال الحكم بمعنى القضاء قوله تعالى (يا داود انا جعلناك خليفـة في الارض فاحكم بين الناس بالحق) وقوله في داود وسليمان معا (٢٤ : ٧٩ وكلا آتينا حكما وعلما) وقوله في يوسف (١٢ : ٢٢ آتيناه حكما وعلما) وقوله في شأن التوراة (يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) وأما قوله تعالى حكاية عن موسى (٢٦ : ٢٠ فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين) فهو أظهر في هذا المعنى وان تأخر القيام و بأمر الرسالة عن جعله رسولا ، فان كلا منهما وقع في وقته المناسب و به له . وتفسير بعضهم للحكم هنا بالنبوة ضعيف للاستغناء عنه بذكر الرسالة . ومثله قوله تعالى حكاية عن ابراهيم (٢٦ : ٨٣ رب هب لي حكما) فانه دعا هذا الدعاء وهو رسول عليم بعد محاجة قومه، فلم يبق الا انه طلب الحكم بمعنى الحكومة والسلطة. ومن الشواهد على استعمال الحكم بمعنى العلم وفقه القلب قوله تعالى في يحيى (١٩ : ١٣ وآتيناه الحكم صبيا) واذا استعملنا الحكم بمعنييه على مذهب من يجيز ذلك في المشترك كان على التوزيع فان كل نبي أوتي الحكم بمعنى العلم والفقه والفهم ، وما أوتيه الا بعضهم بمعنى القضاء بين الناس كما تقرر وتكرر

وأما اذا جرينا على القول بأن المشار اليه في الآية هو أولئك النبيون ومن ذكر

من آبائهم وذرياتهم واخوانهم فالحاجة الى استعمال المشترك في معنييه أقوى ، فان بعضهم كان نبيا غير حاكم ، وبعضهم كان عالما حاكما غير نبي ، وبعضهم كان عالما حكيما غير حاكم ولا نبي ، ويكون إيتاء الكتاب أعم من إيحائه ، فان أمة الرسول الذي أنزل عليه الكتاب بايحائه اليه يقال أنها قد أعطيت الكتاب ، وآيات القرآن ناطقة بذلك . بل يقال أيضا ان الكتاب أنزل اليهم وعليهم كما نص في سورتي البقرة وآل عمران ، فالانزال على الرسل عبارة عن الوحي اليهم ، والانزال على الامم عبارة عن مخاطبتهم بما أنزل لهدايتهم . ويؤيد هذا الوجه في تفسير الآية قوله تعالى (١٥:٤٥ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) الآية

ثم قال تعالى مبينا وجه العبرة بما ذكر للمخاطبين بالقرآن ﴿ فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ﴾ أي فان يكفر بهذه الثلاث – أي الكتاب والحكم والنبوة — هؤلاء المشركون من أهل مكة وقد خصوا بدعوتهم الى الايمان بها قبل غيرهم ، اذ أوتيها على اوجه الاكمل رسول منهم ، فقد وكلنا بأمر رعايتها ، ووفقنا للايمان بها وتولي نصر الداعي اليها ، قوما كراما ليسوا بها بكافرين ، بل منهم من آمن ومنهم من سيؤمن عند ما يدعى ، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله « فان يكفر بها هؤلاء » : يعني أهل مكة ، يقول ان يكفروا بالقرآن (أي الجامع لما ذكر كله لرسول الله) « فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » يعني أهل المدينة والانصار اه وروى مثله عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب . وروي عن قتادة تفسير من يكفر بها بأهل مكة كفار قريش وتفسير الموكلين بها بالانبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم الله تعالى هنا . وعن أبي جناب العطاردي تفسير الموكلين بها باللائكة . هذا هو المأثور ، الذي اقتصر عليه في الدر المنثور . وروى ابن جرير نحو قول ابن عباس عن الضحاك والسدي وابن جريج ، وذهب بعض المفسرين الى ان الموكلين بها هم أصحاب رسول الله (ص) مطلقا ، وقيل كل من يؤمن به ، وقيل الفرس . والمختار عندنا أنهم جميع الصحابة فان المهاجرين قد كانوا أول من آمن بها ، وصبر على بلائها ، وكانوا بعد الهجرة في مقدمة الانصار ، في كل عمل وكل جهاد ، ولكن الانصار مقصودون بالذات لان القوة والمنعة لم تكن الا بهم ولذلك قال

غير كافرين بها، فان لانصار لم يكونوا عند نزول هذه السورة مؤمنين ، أما تفسير القوم الموكلين بها بمن ذكر من الانبياء فقد اختاره ابن جرير واحتج بأن الكلام السابق واللاحق فيهم، فالكلام في الاثناء ينبغي ان يكون فيهم كذلك، وتبعه الزمخشري قضية وحجة . ونقله الرازي عن الحسن واختيار لزجاج . ولمعنى أنه تعالى وكل بها من ذكر في أزمنتهم . ولعل من هؤلاء من يريد بتوكيل أولئك النبيين المرسلين بها ما أخذه الله من العهد عليهم في قوله (٣ : ٨١ واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة) الآية ولم يصرحوا بذلك . وأما تفسير القوم بالملائكة فقد استبعده الرازي معللا ذلك بأن اسم القوم قلما يقع على غير بني آدم ، ونقول ان السياق هنا يدل على قوم كرام من بني آدم بدليل التنكير، وإن أطلق لفظ القوم على الجن في التنزيل ، ولا ينافي ذلك وقوعه في سياق الكلام عن الانبياء فان قصص الانبياء لم تذكر الا لاقامة الحجة بها على الكافرين ، والهداية والعبرة للمؤمنين ، ووصفهم بأنهم ليسوا بها بكافرين ، وصف لقوم حاضرين ، منهم المؤمن بالقوة والمؤمن بالفعل ، ووصف الانبياء السابقين بذلك لا يظهر له وجه

بعد كتابة ماتقدم بزهاء شهر رأيت في الرؤيا نفرا من أهل بلدنا (طرابلس الشام) مقبلين في عمائم وأقبية من الحرير النفيس وأنا جالس مع أناس فقال أحدهم هذا فلان وذكر اسم رجل كان زعيما لطائفة كبيرة من الرجال المعروفين بالشجاعة والنجدة، فقمنا له، وسلمنا عليه وعلى من معه، ففاجؤنا بنبأ عظيم موضوعه أنه قد ظهر في هذه الايام مصداق قوله تعالى (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) قالوا ألم تعلموا بذلك ؟ قلنا لا ، قالوا ان هذه مسألة عظيمة قد عرفت في أوربة وذكرت في بعض جرائدها — وظننت أنه كان معهم شيء من هذه الجرائد — وقد اهتم لها فلان باشا — وذكروا رئيس وزراء الدولة العثمانية — وسافر لاجلها . فصرت أفكر في هذه الكلمة الاخيرة والمراد منها . فقلت في نفسي ليت شعري هل سخر الله للملة الاسلامية قوما ينصرونها غير المدعين لذلك ؟ ومن هؤلاء القوم الذين لم نعلم من خبرهم هذا شيئا ؟ وما معنى اهتمام الوزير وسفره من العاصمة لاجلها؟ والى أين سافر ؟ وهل يريد ان يكون مع هؤلاء القوم وحده أو مع أحد من شيعته — كما

تقتضيه السياسة – ؟ وقد اتسعت خواطري في ذلك بما لا حاجة الى ذكره، واردت أن أسأل الجماعة المخبرين عن ذلك فاستيقظت قبل أن أفعل وكان ذلك في وقت السحر، وقد تذكرت قرب عهدي بتفسير الآية عند ما قصصت رؤياي فحسبتها من المبشرات بأن الله تعالى قد يسخر للاسلام من غير الكافرين من ينصره، ويصلح ما أفسد فيه أهله وغير أهله، بازلة العلل والموانع، أو يمهد السبيل لذلك. وقد يكون ذلك على وجه غير ما ينظره الجماهير من ظهور المهدي بعد ان خابت الآمال في كثير من أدعياء المهدية. واذا كان الله قد أرانا في تاريخنا مصداق قول رسوله « ان الله تعالى ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وقوله « ان الله تعالى ليؤيد الاسلام برجال ماهم من أهله »[1] أفيضيق على فضله أن يكون مضمون هذه الآية عاما مكررا، ويؤيد الله الاسلام بقوم ليسوا بكافرين، ولا يشترط في هؤلاء أن يكونوا كانصار الرسول (ص) وسائر الصحابة (رض) في صفاتهم وخصائصهم، وبهذا يظهر من السر في وصف القوم في الآية بعدم الكفر، ما هو أعم مما ذكر من قبل، فافهم

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ الهدى ضد الضلال، وهو يطلق في مقام الدين على الطريق الموصل الى الحق وهو الصراط المستقيم الذي نطلبه في صلاتنا، وعلى سلوك ذلك الطريق والاستقامة في السير عليه. وقال الراغب: الهدى والهداية في موضوع اللغة واحد ولكن قد خص الله عز وجل لفظة الهدى بما تولاه وأعطاه واختص هو به دون ما هو الى الانسان اه وهو لا يصح مطردا. والاقتداء في اللغة السير على سنن من يتخذ قدوة أي مثالا يتبع. قال في اللسان: يقال قِدوة وقُدوة لما يقتدى به، ابن سيده: القدوة والقدوة ما تسننت به. ثم قال: وقد اقتدى به والقُدوة الاسوة. بعد هذا ينبغي أن نعلم ما يكون به الاقتداء وما لا يكون، ولا سيما اقتداء النبي المرسل بالشرع الاكمل بغيره ممن لو كان حيا لما وسعه الا اتباعه، فأما العلم بتوحيد الله وتنزيهه واثبات صفات الكمال له وبسائر أصول الدين وعقائده كالايمان بالملائكة وأمر البعث والجزاء فكل ذلك مما أوحاه الله

(١) رواهما الطبراني الاول عن عمرو بن النعمان بن مقرن بسند صحيح والثاني عن عبدالله ابن عمر بسند ضعيف

تعالى الى رسوله على أكمل وجه فكان علما ضروريا وبرهانيا له كما تقدم تقريره من عهد قريب فلا يمكن أن يؤمر بالاقتداء فيه بمن قبله. وأما قوله تعالى له (ص) (١٦ : ٢٣ ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) فمعناه ان الملة التي أوحاها اليه وأمره باتباعها وهي العقيدة وأصل الدين هي ملة ابراهيم فهو يتبعها لامر الله لا لانها ملة ابراهيم ، اذ ليست مما علمه من ابراهيم بالتلقي لانه لم يكن في عصره ، ولا بالنقل لانه لم يكن (ص) ناقلا ذلك عن العرب ، وان كان من المشهور المتواتر عند العرب ان ابراهيم (ص) كان موحدا حنيفي . وكذلك الشرائع العملية لا يقتدي فيها الرسول، بأحد ، وانما يتبعها لان الله أمره باتباعها . ذلك بأن الرسول لا يقبع في الدين الا ما أوحي اليه من حيث انه أوحي اليه ، وقد تقدم مما فسرنا من هذه السورة فيه قوله تعالى حكاية عن رسوله بأمره (ان اتبع الا ما يوحى الي) ومثله في أواخر سورة الاعراف (٧ : ٢٠٣) وقال تعالى (٤٥ : ١٧ ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها) الآية . وموافقة رسول لمن قبله في هذا لا يسمى اقتداء ولا تأسيا وانما يكون التأسي به في طريقته وسنته العملية كقوله تعالى (٦٠ : ٤ قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله) الآية — فانه تعالى أرشد المؤمنين الى التأسي بابراهيم ومن آمن معه وجعلهم قدوة لهم في سيرتهم العملية التي كانت من هدى الله تعالى لهم وهي البراءة من معبودات قومهم ومنهم ما داموا عابدين لها — ولما كان وعد ابراهيم لابيه بالاستغفار له وهو مشرك ليس من هذا الهدى بل كان مسألة شاذة لها سبب خاص استثناها تعالى من التأسي به فقال (الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك) الخ

فمعنى الجملة : أولئك الانبياء الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم في الآيات المتلوة آنفا ، والموصوفون في الآية الاخيرة بايتاء الله إياهم الكتاب والحكم والنبوة، هم الذين هداهم الله تعالى الهداية الكاملة فبهداهم دون ما يغايره ويخالفه اقتد أيها الرسول فيما يتناوله كسبك وعملك مما بعثت به من تبليغ الدعوة وإقامة الحجة ، والصبر على التكذيب والجحود ، وايذاء أهل العناد والجمود ، ومقلدة الآباء والجدود ، واعطاء كل حال حقها من مكارم الاخلاق ، وأحاسن الاعمال ،

كالصبر والشكر ، والحكم بالحق ، والشجاعة والحكم ، والايثار والزهد ، والسخاء والبذل ، الخ (١١ : ١١٩ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك — ٦ : ٣٥ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين * — ٤٦ : ٣٤ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) فان قيل ان الله تعالى قال له في آخر سورة ن (٦٨ : ٤٨ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم) وصاحب الحوت هو يونس أحد هؤلاء الانبياء الثمانية عشر (قلنا) نعم انه أحدهم ولكن هذه الحالة لم تكن من الهدى الذي آتاه الله اياه ، بل هفوة عاقبه الله عليها ثم تاب عليه ، والله لم يأمر خاتم رسله بالاقتداء بكل فرد من أولئك الانبياء في كل عمل ، وانما أمره أن يقتدي بهداهم الذي آتاهم الله اياه سواء ما كان منه مشتركا بينهم ، وما امتاز بالكمال فيه بعضهم ، كما امتاز نوح وابراهيم وآل داود بالشكر ، ويوسف وأيوب واسماعيل بالصبر ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس بالقناعة والزهد ، وموسى وهرون بالشجاعة وشدة العزيمة في النهوض بالحق ، فالله تعالى قد هدى كل نبي ورفعه درجات في الكمال ، وجعل درجات بعضهم فوق بعض ، وقد أوحى الى خاتم رسله خلاصة سير أشهرهم وأفضلهم وهم المذكورون في هذه الآيات وفي سائر القرآن الكريم ، وأمره أن يقتدي بهداهم ذاك ، فيما يتأتى به الاقتداء ، وقد شهد الله تعالى له بأنه جاء بالحق وصدق المرسلين وانه لم يكن بدعا من الرسل ، فعلم بهذا انه كان مهتديا بهداهم كلهم ، وبهذا جعل فضائله ومناقبه الكسبية أعلى من جميع مناقبهم وفضائلهم ، لانه اقتدى بها كلها فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقا فيهم ، وما هو خاص به دونهم ، ولذلك شهد الله تعالى له بما لم يشهد به لاحد منهم ، فقال (٦٨ : ٤ وانك لعلى خلق عظيم) وأما فضائله وخصائصه الوهبية فأمر تفضيله عليهم فيها أظهر ، وأعظمها عموم البعثة ، وختم النبوة والرسالة ، وانما كمال الاشياء في خواتيمها ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين . والهاء في اقتده للسكت أثبتها في الوقف والوصل جمهور القراء وحذفها من الوصل حمزة والكسائي ، وقرأ ابن عامر بكسر الهاء من غير اشباع ، وهو ما يسمونه الاختلاس ، ولهم في تخريجها وجوه

بعد كتابة ما تقدم راجعت أقوال بعض المفسرين في تفسير ما به الاقتداء فرأيت الرازي لخصها بقوله. فمن الناس من قال المراد أن يقتدي بهم في الامر الذي أجمعوا عليه وهو القول بالتوحيد والتنزيه عن كل ما لا يليق به (أي بالله تعالى) في الذات والصفات والافعال وسائر العقليات، وقال آخرون المراد الاقتداء بهم في جميع الاخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة من الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم . وقال آخرون المراد لاقتداء بهم في شرائعهم الا ما خصه الدليل . وبهذا التقدير كانت الآية دليلا على أن شرع من قبلنا يلزمنا . ثم ذكر بعده مقدمة وجيزة أن المراد — فقد بهم في نفي الشرك وثبات التوحيد وتحمل سفاهات الجهال في هذا الباب. (قال) وقال آخرون اللفظ مطلق فهو محمول على الكل الا ما خصه الدليل المنفصل . اه

ونقول انه لا يصح قول من هذه الاقوال مطلقا على انها متداخلة ، ولكن أقربها الى الصواب ثانيها من حيث انه مفصل، وآخرها المجمل الذي لا يعلم المراد منه

وقد نظم الرازي جميع العقليات في سلك أصول الدين من التوحيد والتنزيه واثبات الصفات وجميع ذلك عنده لا يمكن أن يعرفه الانبياء ولا غيرهم الا بنظر العقل كما نقلناه عنه مردودا عليه في هذا السياق . والاقتداء في النظر والاستدلال لا يظهر له معنى وجيه فان غايته أن يستدل بدليلهم أو بمثله أو ان يستدل كما استدلوا . وقد أورد الرازي عن القاضي في هذه المسألة اعتراضا وضعه في غير موضعه وأجاب عنه بما هو حجة عليه لا له . وأورد السعد على المسألة أن الواجب في الاعتقادات وأصول الدين هو اتباع الدليل من العقل والسمع فلا يجوز سيما للنبي (ص) أن يقلد غيره فما معنى أمره بالاقتداء ؟ وأجاب بأن اعتقاده عليه السلام حينئذ ليس لاجل اعتقادهم بل لاجل الدليل فلا معنى لامره بذلك . وجعل غيره معناه تعظيم أولئك الرسل والاعلام بأن طريقهم هو الحق الموفق للدليل ، وهو تكلف لا يقبله التنزيل .

وأما القول بأن المراد الاقتداء بهم في فروع شرائعهم فهو أضعف الاقوال وأبعدها عن الصواب، لاما قيل من اختلافها وتناقضها وقبولها النسخ وكون المنسوخ لم يبق هدى، بل الامر أعظم من ذلك: ان الله بعث محمدا خاتما للنبيين والمرسلين،

وأكمل لنا على لسانه دينه المبين ، وأرسله رحمة لجميع العالمين ، وأنزل عليه في أواخر ما أنزله بعد ذكر التوراة والانجيل وأهل الكتاب (٥ : ٥١ وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا) فهذه الآية ناطقة بأصرح بيان بأن كتاب هذا الرسول (ص) مهيمن ورقيب وحاكم على ما قبله من الكتب الالهية لا تابع لشيء منها — وبأنه (ص) أمر بأن يحكم بما جاءه من الحق ولا يتبع أهواء أهل الكتاب الذين يود كل فريق منهم أن يحكم له بما يوافق كتبه ومذهبه، وكل ذي دعوى أن يحكم له بما يوافق مصلحته ، ولم يثبت لنبي من أولئك الثمانية عشر شريعة مفصلة الا لموسى ولم يذكر الله تعالى لرسوله من تلك الشريعة الا أحكاما قليلة اقتضت ذكرها اقامة الحجة على اليهود ، وذلك بعد نزول هذه السورة المكية بسنين ، وقد شهد القرآن على اليهود بأنهم حرفوا وبدلوا ونسوا حظا مما ذكروا به، وكذلك أهل الانجيل شهد عليهم بأنهم نسوا حظا مما ذكروا به — وقد أمرنا الرسول (ص) كما في صحيح البخاري بأن لا نصدق اليهود فيما يروونه من التوراة ولا نكذبهم، فهل يمكن مع هذا أن يكون المراد بقوله تعالى (فبهداهم اقتده) اقتد أيها الرسول الخاتم للنبيين، الذي أكمل على لسانه الدين، بالاحكام القليلة التي نوحيها اليك من أحكام التوراة بعد سنين ؟ ان الذين اخترعوا هذا القول في الآية انما جعلوه حجة جدلية لقول اتخذوه مذهبا وهو ان شرع من قبلنا شرع لنا . وقد فصلنا القول ببطلانه وبطلان الاحتجاج بهذه الآية عليه في تفسير آية المائدة المذكورة آنفا (٥ : ٥١) فيراجع في جزء التفسير السادس (ص ٤٠٠ — ٤٢٠) وبقية تلك الاقوال التي أوردها الرازي داخلة فيما ذكرناه منها . فعلم بهذا ان ماقررناه أولا هو الوجه الصحيح الذي يدل عليه القرآن العزيز ، بما ذكرنا من شواهد آياته في هذا التقرير .

ولم يرد في التفسير المأثور شيء في هذه المسألة الا ما أخرجه البخاري وبعض رواة التفسير عن ابن عباس (رض) انه استدل بالآية على سجود التلاوة عند قوله تعالى عن داود في سورة ص (فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب) وقال « فكان داود ممن أمر نبيكم

(ص) أن يقتدي به فسجدها داود فسجدها رسول الله (ص)، قال الحافظ في الفتح: وفي النسائي من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعا « سجدها داود توبة ونحن نسجدها شكراً » فاستدل الشافعي بقوله شكرا على انه لا يسجد فيها في الصلاة لان سجود الشاكر لا يشرع داخل الصلاة . ولأبي داود وابن خزيمة والحاكم من حديث أبي سعيد أن النبي (ص) قرأ وهو على المنبر ص فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ثم قرأها في يوم آخر فتهيأ الناس للسجود فقال « انما هي توبة نبي ولكني رأيتكم تهيأتم » فنزل وسجد وسجدوا معه. فهذا السياق يشعر بأن السجود فيها لم يؤكد كما أكد في غيرها اه وانما ذكر الحافظ هذا في شرح باب سجدة ص من البخاري، وفيه عن ابن عباس ان ص ليس من عزائم السجود . ونحن نستدل بما ذكر على أن النبي (ص) لم يكن يلتزم سجودها وظاهر قوله « نسجدها شكرا » يخالف استنباط ابن عباس انه كان يسجدها اقتداء بداود وانما يظهر الاقتداء لو سجدها مثله توبة ، والخبر هو الخبر ولكنه غير معصوم ، والله أعلم

﴿ تحقيق مسألة الايمان بالرسل اجمالا وتفصيلاً ﴾

وعدد الرسل المذكورين في القرآن

من أصول العقائد الاسلامية انه يجب الايمان بأن الله تعالى أرسل في كل الامم رسلا منهم من قص على رسولنا ومنهم من لم يقصص عليه، وانه يجب الايمان بمن ذكر منهم في القرآن ايمانا تفصيليا أي يجب معرفتهم بأسمائهم. وصرح بعض العلماء بأن انكار رسالة أحد منهم كفر ، وظاهر كلامهم هذا أن معرفتهم بأسمائهم من المجمع عليه المعلوم من الدين بالضرورة فلا يعذر أحد بجهله الا من كان حديث العهد بالاسلام ومن نشأ بعيداً عن بلاد المسلمين، فمن لم يعلم ان اليسع رسول الله — مثلاً — كان كافرا . ولكننا نعلم بالاختبار الصحيح ان اكثر عوام المسلمين في عصرنا — ومثله ما قبله من الاعصار المشابهة له — لا يعرفون أسماء كل من ذكر في القرآن منهم اذ لا يلقنهم أحد ذلك بل نعلم بالاختبار الصحيح أيضا ان أكثر عوام الاقطار التي عرفناها لا يلقنهم أحد من أهل العلم عقائد الاسلام فكل ما يعلمون منها هو ما يسمعه بعضهم من

بعض وليس هذا منه، واذا ثبت ان هذا ليس من المعلوم من الدين بالضرورة فالذي يتجه أن لا نكفر موحدا بجهل بعض هؤلاء الرسل اذا كان يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله إجمالا و باليوم الآخر والقدر و بأركان الاسلام العملية وتحريم الفواحش ماظهر منها وما بطن وسائر مالا يزال معلوما من الدين بالضرورة، كما أننا لا نكفر من ذكر بجهل غير ذلك مما يخفى على العوام من أخبار القرآن وأحكامه وآدابه كخبر أهل سبأ وحكم ارث الكلالة وأدب الاستئذان والسلام لدخول بيوت الناس، واما من جحد شيئا من ذلك بعد العلم بأنه منصوص في القرآن غير متأول فيكفر لانه كذب كلام الله تعالى، ومدار الكفر بكل أنواعه على تكذيب شيء من أمر الدين علم قطعا أن النبي (ص) جاء به عن الله تعالى، كما ان مدار الايمان كله على تصديق الرسول في كل ما علم قطعا أنه جاء به عن الله تعالى تصديق قبول و إذعان، وتقدم تفصيل ذلك في التفسير. والمراد بالعلم القطعي أن يكون قطعي الرواية كالقرآن و بعض السنة، وقطعي الدلالة كالنصوص التي لا تحتمل التأويل. فما كان غير قطعي الرواية احتمل أن يكذبه مكذب للجهل بالرواية أو لعدم تصديقه بعض رواته، وما كان غير قطعي الدلالة احتمل أن يكذب مكذب ببعض معانيه لاعتقاده أن هذا المعنى غير مراد، فهذا ما يخرج بغير العلم القطعي. ولذلك يشترط العلماء في ذلك أن يكون مجمعا عليه معلوما من الدين بالضرورة يشترطون أن يكون المكذب غير متأول اذ لا يتأول أحد الا ما كان غير قطعي الدلالة عنده، ولهذا لم يكفر سلف الامة من خالفهم في فهم آيات الصفات وغيرها من فرق المبتدعة متأولا، ولكن السلف والخلف يكفرون من يكذب الرسول (ص) بشيء يعتقد هو انه جاء به عن الله تعالى وان لم يكن في الواقع قطعي الرواية والدلالة اذ مدار الكفر على التكذيب

وقد ذكروا في بعض كتب العقائد وغيرها ان الانبياء المرسلين الذين ذكروا في القرآن ويجب الايمان بهم تفصيلا خمسة وعشرون هم الثمانية عشر الذين ذكرت سماؤهم في هذه الآيات التي لا نزال بصدد تفسيرها، والسبعة الآخرون آدم أبو بشر وادريس ولوط وأنبياء العرب هود وصالح وشعيب وخاتم الجميع محمد عليه عليهم الصلاة والسلام، وزاد بعضهم ذو الكفل لذكره مع الانبياء في سورة ص

ولكن اختلف في نبوته لعدم التصريح بها وانما وصف مع من ذكرمعهم بأنهم من الاخيار

ومما أشكل على العلماء في القول برسالة آدم عليه السلام قوله تعالى (٤:١٦١ انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) فظاهره ان نوحاً أول نبي مرسل أوحى الله اليه رسالته وشرعه. ويؤيده في الجملة هذه الآيات التي نفسرها وما في معناها كقوله تعالى (٥٧:٢٥ ولقد أرسلنا نوحاً وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) وعدم ذكره في السور التي سرد فيها ذكر الرسل المشهورين كهود ومريم والانبياء والشعراء والصافات وص والقمر. ويؤيده بالنص الصريح حديث الشفاعة المتفق عليه من حديث أنس بن مالك وأبي هريرة والاول أصرح قال قال رسول الله (ص) « يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك فيقولون لو استشفعنا على ربنا فأراحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا الى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم لست هناكم — ويذكر ذنبه الذي أصابه فيستحي ربه عز وجل — ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله الى أهل الارض فيأتون نوحاً » الخ وفي حديث أبي هريرة انهم يقولون له « يانوح أنت أول الرسل الى أهل الارض » الحديث وهو معروف مشهور وفيه ان كل رسول من أولي العزم — وهم على الراجح المشهور نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص) — كان يدفعهم الى من بعده حتى اذا انتهوا الى الخاتم كان هو الشافع المشفع

وقد اضطربت أقوال العلماء في آية (انا أوحينا اليك) وحديث الشفاعة قال الرازي في تفسير الآية (المسألة الثالثة) قالوا انما بدأ الله بذكر نوح لانه أول نبي شرع الله على لسانه الاحكام والحلال والحرام، ثم قال تعالى (والنبيين من بعده) ثم خص بعض النبيين بالذكر لكونهم أفضل من غيرهم اه وتبعه فيه النيسابوري وأبوالسعود والخازن وغيرهم وزادوا على ذلك خصائص لنوح. قال الخازن مانصه: قال المفسرون وانما بدأ الله بذكر نوح عليه السلام لانه أول نبي بعث بشريعة وأول نذير على الشرك وأنزل الله عز وجل عليه عشر صحائف وكان أول نبي عذبت أمته لردهم دعوته وكان أبا البشر كآدم عليهما السلام اه المراد منه ومثله في فتح البيان في مقاصد

القرآن ، وذكر الآلوسي ان تعليل البدء بذكره بكونه أول من شرع الله على لسانه الاحكام قد تعقب بالمنع، ولم يذكر لهذا المنع سندا ، ولا لقوله تعالى (والنبيين من بعده) حكمة ولا نكتة. وقد سكت عن ذلك أكثر المفسرين الذين اطلعنا على كتبهم. ففهوم تصريح هؤلاء المفسرين الناقلين عن غيرهم من العلماء أن آدم لم يكن رسولا لان الآية تدل عندهم على أن أول رسول شرع الله على لسانه الاحكام ، هو نوح عليه السلام.

وأما حديث الشفاعة فقد تكلم فيه الحافظ ابن حجر في عدة مواضع من شرح البخاري : قال في شرح حديث جابر من كتاب التيمم « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي — الى قوله — وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة » : وأما قول أهل الموقف لنوح كما صح في حديث الشفاعة : أنت أول رسول الى أهل الارض — فليس المراد به عموم بعثته بل إثبات أولية إرساله اه وهذا اعتراف بأنه أول الرسل. ثم قال في شرح حديث أبي هريرة من كتاب أحاديث الانبياء : فأما كونه أول الرسل فقد استشكل بأن آدم كان نبيا وبالضرورة نعلم انه كان على شريعة من العبادة وان أولاده أخذوا ذلك عنه فعلى هذا فهو رسول اليهم فيكون أول رسول، فيحتمل ان تكون الاولية في قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم « الى أهل الارض » لانه في زمن آدم لم يكن الارض أهل، أو لان رسالة آدم الى بنيه كانت كالتربية للاولاد ، ويحتمل ان يكون المراد انه (أي نوح) أول رسول أرسل الى بنيه وغيرهم من الامم الذين أرسل اليهم مع تفرقهم في عدة بلاد وآدم انما أرسل الى بنيه وكانوا مجتمعين في بلدة واحدة. واستشكله بعضهم بادريس ولا يرد لانه اختلف في كونه جد نوح كما تقدم اه أقول ويلي شرحه لهذا الحديث شرحه لما أورده البخاري في الياس عليه السلام وفيه عن ابن مسعود وابن عباس ان الياس هو ادريس، وقال الحافظ عند الكلام على ترجمة الباب: وكأن المصنف — أي البخاري — رجح عنده كون ادريس ليس من أجداد نوح فلذا ذكره بعده اه . وانما ذكره بعد الياس

ثم قال في شرح حديث أنس من كتاب الرقاق — بعد ذكر الاستشكال بآدم وشيث وادريس — : ومجمل الاجوبة عن الاشكال المذكور ان الاولية مقيدة بقوله « الى أهل الارض » لان آدم ومن ذكر معه لم يرسلوا الى أهل الارض — ثم ذكر الاشكال

بحديث جابر والجواب عنه بأن قوم نوح كانوا هم أهل الارض وبعثة نبينا لقومه ولغير قومه، ثم قال — أو الاولية مقيدة بكونه أهلك قومه أو أن الثلاثة كانوا أنبياء ولم يكونوا رسلا والى هذا جنح ابن بطال في حق آدم، وتعقبه عياض بما صححه ابن حبان من حديث أبي ذر فانه كالصريح في انه كان نبيا مرسلا وفيه التصريح بانزال الصحف على شيث وهو من علامات الارسال . وأما ادريس فذهبت طائفة الى انه كان في بني اسرائيل وهو الياس وقد ذكر ذلك في أحاديث الانبياء . ومن الاجوبة ان رسالة آدم كانت الى بنيه وهم موحدون ليعلمهم شريعته ونوح كانت رسالته الى قوم كفار يدعوهم الى التوحيد اه

وأنت ترى أن جواب ابن بطال وهو أحد شراح البخاري من فقهاء المالكية الاندلسيين أبعد الاجوبة المذكورة عن التكلف لان كل ما قيل غيره لا يزيل الاشكال . وتعقب القاضي عياض له بحديث أبي ذر عجيب منه وأعجب منه سكوت الحافظ له عليه، فالحديث اختلف الحفاظ فيه فجزم ابن الجوزي بأنه موضوع وحقق السيوطي في مختصر الموضوعات أنه ضعيف وذكر ذلك في الدر المنثور، واتفقوا على انتقاد ابن حبان لذكره إياه في صحيحه كما صرح بذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره . وقد قدم القسطلاني جواب ابن بطال غير معزو اليه على غيره مما ذكر من تلك الاجوبة في شرحه لحديث أنس من كتاب الرقاق في البخاري فقال عند قول آدم «ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله»: أي بعد آدم وشيث وادريس أو الثلاثة كانوا أنبياء ولم يكونوا رسلا.. الخ، فالقسطلاني بعد القول بعدم رسالة آدم جوابا مقبولا

وقال النووي في شرح حديث أنس من صحيح مسلم: قال الامام ابو عبد الله المازري: قد ذكر المؤرخون أن ادريس جد نوح عليهما السلام فان قام دليل على ان ادريس أرسل أيضا لم يصح قول النسابين إنه قبل نوح لاخبار النبي (ص) عن آدم ان نوحا أول رسول بعث، وان لم يقم دليل جاز ما قالوه وصح ان يحمل على ان ادريس كان نبيا غير مرسل . قال القاضي عياض وقد قيل ان ادريس هو الياس وانه كان نبيا في بني اسرائيل كما جاء في بعض الاخبار مع يوشع بن نون فان كان هكذا سقط الاعتراض . قال القاضي و بمثل هذا يسقط الاعتراض بآدم وشيث

ورسالتهما الى من معهما وان كانا رسولين فان آدم إنما أرسل لبنيه ولم يكونوا كفارا بل أمر بتعليمهم الايمان وطاعة الله تعالى وكذلك خلفه شيث بعده فيهم بخلاف رسالة نوح الى كفار أهل الارض ، قال القاضي وقد رأيت أبا الحسن ابن بطال ذهب الى أن آدم ليس برسول ليسلم من هذا الاعتراض وحديث أبي ذر الطويل ينص على ان آدم وادريس رسولان . هذا آخر كلام القاضي والله أعلم اه

فجملة هذه النقول عن كبار المفسرين والمحدثين من المتكلمين والفقهاء أن آدم مختلف في رسالته وأن ادريس مختلف في كونه هو الياس المذكور في آيات سورة الانعام التي نفسرها أو غيره ؟ فيكون عدد الرسل المجمع على وجوب الايمان برسالتهم — لأن نص القرآن فيها قطعي — ثلاثة وعشرون فقط . وأما الاحاديث فليس فيها نص قطعي الرواية والدلالة على رسالة آدم . وقد علمت ان حديث أبي ذر الذي نص على ذلك في سياق عدد الانبياء والرسل لا يحتج به في الاحكام العملية التي يكتفي فيها بالدليل الظني بله هذه المسألة الاعتقادية التي يطلب فيها اليقين ، لان أهون ما قيل فيه انه ضعيف وقيل انه موضوع ، ولو وجدوا حديثا صحيحا او حسنا في إثبات رسالة آدم لما لجأوا الى ذكره

أما مسألة نبوته وهو كونه موحى اليه من الله ففيها حديث آحادي رواه البيهقي وغيره عن أبي أمامة قال ان رجلا قال يا رسول الله أنبي كان آدم قال « نعم معلم مكلم » وقد فسر المعلم في كتب غريب الحديث بالملهم للخير والصواب . وروي « نبي مكلم » والتكليم أنواع أصولها ثلاثة بينها الله تعالى بقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء) ومنها وحي الرسالة وما دونه ومنها الرؤيا الصادقة كما ورد في التفسير المأثور . وأما حجته من القرآن فيمكن أن تؤخذ من قصة خلقه ومعصيته وتوبته اذ فيها ان الله علمه الاسماء كلها وانه تلقى من ربه كلمات فتاب عليه وهداه . ولكن دلالة ماذكر على نبوته غير قطعية فإن الجمهور لا يجعلون كل وحي نبوة لا ما كان بخطاب الملك ولا ما كان بالالهام والنفث في الروع ولذلك لا يقولون بنبوة مريم أم موسى ، ومن العلماء من قال بنبوتهما ، أما كون دلالة ذلك غير قطعية فلأنه يحتمل ان يكون خطاب آدم في قصة خلقه من خطاب

التكوين لا التكليف كقوله تعالى (ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) وقد قال الشاذلي من كبار العلماء والصوفية «وهب لنا التلقي منك كتلقي آدم منك الكلمات ليكون قدوة لولده في التوبة والاعمال الصالحات » ولو كان هذا التلقي نصا قطعيا في نبوته لما طلبه هذا العالم العارف باللغة وأساليبها .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر دليلا عقليا لرسالته فقال وبالضرورة نعلم انه كان على شريعة من العبادة وان أولاده أخذوا ذلك عنه فعلى هذا فهو رسول اليهم فيكون هو أول رسول اه . وقد يقال ان أخذ أولاده عنه لا يقتضي عقلا ان يكون الله قد بعثه رسولا اليهم يبلغهم وجوب الايمان بهذه الرسالة حتى يكون ذلك معارضا لحديث الشفاعة اذ يجوز ان يكون قد رباهم من الصغر على ما هداه الله اليه من الايمان والعمل الصالح كما تقدم عن بعض العلماء ، ونزيد عليه ان في القرآن نصاً يدل على انه كان يعلمهم العبادة وأحكام الحلال والحرام وما يترتب عليها من الجزاء وهو نبأ ابني آدم المفصل في سورة المائدة فمن العبادة فيه تقريب القربان ، ومن خبر الجزاء على الاعمال قول المعتدى عليه للمعتدي (اني أريد أن تبوء باثمي واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) ومن العجيب أن يغفل أولئك الحفاظ عن هذه الآيات ويكتفوا من النقل بحديث أبي ذر الموضوع أو الضعيف ويدعوى الضرورة العقلية التي ادعاها الحافظ ابن حجر . لو كانوا يفهمون منها أنها تدل على رسالة ادم دلالة قطعية ، واذا كانوا لا يفهمون ذلك فبم يستدلون ؟

وجملة القول ان الثابت قطعا في المسألة هو ان آدم عليه السلام كان على هدى من الله يعمل به ويربي عليه أولاده ، وان منه عبادات وقربات يرغب فيها بأنها يثاب عليها ، ومحرمات ينهى عنها لانها يعاقب عليها ، وهذه الهداية هي من جنس هداية الله للنبيين والمرسلين التي بلغوها أقوامهم ولا ندري كيف هدى الله تعالى آدم اليها فان طرق الهداية والتبليغ الالهي متعددة وكان الظاهر المتبادر ان ذلك كان بوحي الرسالة لولا ما عارضه من حديث الشفاعة وآية (انا أوحينا اليك) وما يؤيدها مما تقدم ومن احتمال ان ذلك من هداية الفطرة السليمة التي فطر آدم عليها

ونشأت عليها ذريته الى زمن نوح اذ اختلف الناس وحدثت فيهم الوثنية فبعث الله النبيين وجعل منهم لرسل المبلغين عنه باذنه المؤيدين منه بالآيات لاقامة الحجة على الكافرين، وذلك قوله عز وجل (٢:٢١٢ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) الآية. فقد صح عن ابن عباس (رض) انه فسر ذلك بأنهم كانوا على الاسلام وفي رواية مفصلة عنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين. قال لرواة وكذلك هي في قراءة عبد الله (أي ابن مسعود) «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا» الخ ورووا عن أبيّ انه كان يقرأها كذلك أيضا، ويؤيد ذلك في المعنى آيات أخرى. ورووا عن قتادة انه قال ذكر لنا انه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق ثم اختلفوا بعد ذلك فبعث الله نوحا وكان أول رسول أرسله الله الى الارض وبعث عند الاختلاف من الناس فبعث اليه رسله وأنزل كتابه يحتج به على خلقه اه من الدر المنثور ومنه يعلم المخرجون لهذه الروايات. فهذا قتادة من كبار علماء التابعين[1] يقول بان نوحا أول نبي مرسل. ويؤيد الرواية عنه مع ماتقدم ما ورد من التفسير المأثور في قوله تعالى (٣٠:٢٨ فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها) الآية — كحديث الصحيحين وغيرهما الناطق بان كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه. وفي بعض رواياته يولد على فطرة الاسلام وفي بعضها على الملة. ومنها حديث عياض ابن حماد المجاشعي المرفوع عند محمد بن اسحق الذي ذكر فيه آدم فقال (ص) «ان الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين وأعطاهم المال حلالا لاحرام فيه فجعلوا ما أعطاهم الله حراما وحلالا» وفي معناه آثار. والمراد من ذلك في مسألتنا ان الله تعالى فطر

---

(١) قتادة من كبار أئمة التابعين في التفسير والحديث والفقه وقد قال الامام أحمد فيه: قتادة أعلم بالتفسير وباختلاف العلماء، ووصفه بالحفظ والفقه وأطنب في ذكره وقال: قل من تجد أن يتقدمه. ذكر ذلك الحافظ الذهبي في ترجمته من طبقات الحفاظ، وذكر عنه أيضاً انه كان لايسمع شيئا الا حفظه. ومثله في تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر وفيه انه كان ثقة مأمونا حجة في الحديث. وقال الحافظ الذهبي ما تأخر أحد عن الاحتجاج بحديثه. ولد سنة ٦١ وتوفي سنة ١١٧ أو ١١٨

آدم على معرفته وتوحيده وشكره وعبادته بما يلهمه الله اياه الاقوال والاعمال وبما يصل اليه اجتهاده كما قيل في عبادة النبي (ص) في الغار قبل البعثة وقد يزاد على ذلك ارشاد الملائكة له ولاولاده فقد كانوا بطهارة فطرتهم يرون الملائكة كما ورد في تعليمهم اياهم تجهيز أبيهم ودفنه حين توفي، واسنا بصدد تمحيص أمثال هذه الروايات، ولكن مجموعها يؤيد الحديث المصرح بنبوة آدم والا كان من الهداية والتعليم الالهي ماهو أعلى من النبوة أو ماهو مساو لها فان كثيرا من الانبياء لم يؤت من ذلك مثل ما أوتي آدم . والانبياء أفضل البشر بالاجماع

فبهذا التفصيل يعلم وجه ما اشتهر على ألسنة العلماء من القول بنبوة آدم ورسالته مع عدم وجود النص القاطع ، بل مع وجود النص المعارض ، فإن هدايته لذريته من نوع هداية الرسل للمؤمنين من أتباعهم كما بيناه آنفا من معنى الآيات فيه ، ولذلك جعله الحافظ من قبيل الضروري ولكنه لم يبين وجه الضرورة ولم يهتد الى الجمع بينه و بين المعارض له، والذي يتجه في الجمع بغير تكلف هو التفرقة بين هداية من ولدوا على الفطرة و بين بعثة نوح ومن بعده من الرسل الى من فسدت فطرتهم واختلفوا في الدين الفطري في الكتاب الالهي من المشركين والضالين من أتباع نبي سابق عمادعاهم اليه بأن تجعل هذه الهداية الاخيرة هي الرسالة الشرعية التي يسمى من جاءوا بها رسلا دون الاولى . و بهذا يجمع بين عدة أجوبة مما نقل عن العلماء في رفع التعارض بتوضيح قليل كقول من قال انما كانت رسالة آدم الى بنيه المؤمنين ورسالة نوح ومن بعده الى الكافرين ، ومن قال انما كانت رسالة آدم الى بنيه من قبيل تربية الوالد لاولاده، وفيهما ان تسميتها رسالة شرعية بالمعنى المراد من الآيات هو الذي يحقق التعارض فكيف يجعل دافعا له؟ واما اذا اثبتنا ماذكر لآدم ولم نسمه رسالة بالمعنى الشرعي المذكور فان التعارض يندفع بغير تكلف كما قلنا، وتصح الاقوال كلها، و يكون الخلاف أشبه باللفظي

ثم ختم الله تعالى هذا السياق بقوله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ أي قل أيها الرسول لمن بعثت اليهم أولا : لا أسألكم على هذا القرآن الذي أمرت ان أدعوكم اليه وأذكركم به أو على التبليغ

(وكلاهما مفهوم من السياق وان لم يذكرا ، والمختار الاول) أجرا من مال ولا غيره من المنافع، أي كما ان جميع من قبلي من الرسل لم يسألوا أقوامهم أجرا على التبليغ والهدى — وذلك مصرح به في قصصهم من سورة هود وسورة الشعراء وغيرهما ، وقد قيل ان هذا مما أمر أن يقتدى بهم فيه والتحقيق ان ما أمره الله تعالى به استقلالا لا يدخل فيما أمر بفعله اقتداء كما تقدم بيانه ، وقد تكرر هذا الامر له صلى الله عليه وسلم في عدة سور ، وهو على عمومه ، ولا استثناء في قوله تعالى (٤٢: ٢١ قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى) منقطع ومعناه على ما رواه أحمد والشيخان في الصحيحين وأحمد والترمذي وغيرهم عن ابن عباس : الا أن تصلوا ما بيني و بينكم من القرابة . و يوضحه قوله في رواية لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عنه قال كان لرسول الله (ص) قرابة من جميع قريش فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه قال ياقوم اذا أبيتم أن تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم. وفي هذا المعنى روايات أخرى . والمعنى اني لا أسألكم على ما جئتكم به من سعادة الدنيا والآخرة جعلا منكم ولكن مودة القرابة بيني وبينكم مما يجب ان يحفظ وهي دون ماجر يتم عليه من عصبية النسب ولو بالباطل فان من تلك العصبية أن يحمي القريب قرابته وأهل نسبه و يقاتل من عاداهم، واني أكتفي منكم بالمودة وأقلها أن لا تعادوني ولا تؤذوني، وأعلاها أن تمنعوني وتحموني ممن يؤذيني . وليس هذا من الاجر على التبليغ في شيء فإنما يعطي الاجر على الشيء من يقبله وينتفع به فيكافئ صاحبه بمنفعة توازيه أولا توازيه . وقد صرح ابن عباس بما ذكرنا من أقل المودة في رواية ابن مردويه عنه من طريق عكرمة. وقيل في الآية غير ذلك كقول بعضهم الا أن تودوا الاقارب وتصلوا الارحام بينكم ، وقول بعضهم انها في الانصار وقول بعضهم انها في آل البيت النبوي توجب مودتهم وموالاتهم، ولاشك في أن حبهم وودهم وولاءهم من الايمان وأن بغضهم من الكفر أو النفاق، ولكن الرسول لم يطلب من الامة بامر الله أن تجعل هذا أجرا له على تبليغ الدعوة والقيام باعباء الرسالة بل أجره في ذلك على الله تعالى وحده كغيره من اخوانه الرسل كما هو مصرح في آيات أخرى . وسيأتي تفصيل ذلك ان شاء الله تعالى في تفسير سورة الشورى وغيرها

﴿ ان هو الا ذكرى للعالمين ﴾ الضمير راجع الى القرآن كما رجحنا أي ما هو الا تذكير وموعظة لارشاد العالمين كافة، لا الكم خاصة ، وهو نص في عموم البعثة .

رد المنار

على الناقد لذكرى المولد النبوي (١)

لما وصل الينا هذا النقد في بريد الشرق الاقصى كان أول ما خطر في بالنا قبل أن نقرأه أنه يجب علينا اذا وجدناه كله أو جله صحيحاً أن نشهد لصديقنا الناقد بالتدقيق والتحقيق وانه بزّ فيهما علماء مصر وغير مصر من البلاد الاسلامية التي اطلع كثير من علمائها على كتاب (ذكرى المولد النبوي) فلم يروا فيه بعض مارآه هو من الخطأ، ثم قرأنا النقد فرأينا أكثره خطأ محضا، وأقله ماله وجه أو شبهة، وهانحن أولاء نبين ذلك بما يحتمله المقام من التفصيل ، مع اتقاء ما يمل من التطويل

(الموضع الاول — تأليف الكتاب هل هو بدعة)

قد غفل الناقد عما حررناه في المقدمة من كون البدعة في احتفال المولد انما هي مجموع مايعمله الناس من خلط العبادات الدينية باحتفالات الزينة واللهو — الخ ماذكر في صفحة ي من المقدمة ، وقد صرحنا فيها بأن قراءة قصة المولد عبارة عن قراءة شيء من الحديث والسيرة النبوية لا ينكر منها الا جعلها من الشعائر الدينية الموهمة انها مشروعة أي بالتوقيت والاجتماع وغير ذلك . ففضل عن ذلك وجعل هذا العمل العلمي المفرد، عين ذلك المجموع المركب ، ومن العجيب انه ادعى اننا ختمنا كل فصل من ذكرى المولد بما سماه الصلاة البتراء. غافلا عن كون أهم فصوله وهو فصل تبليغ الدعوة لم يختم بصلاة بتراء ولا غير بتراء ، وكذلك فصل مناهضة الدعوة ، والجاء الرسول (ص) الى الهجرة ، ومثلهما الخاتمة

أما قولي في آخر تلك الصفحة التي كنت أتحامى كتابة قصة المولد لما ذكرت من الاسباب الثلاث فهو حكاية عن رأيي في هذه المسألة في السنين الخالية ، وأما

(١) يحسن أن يراجع النقد في الجزء الثامن عند كل موضع من المواضع

ما أنفذته إثر ما كان من المذاكرة بيني و بين البكري فهو ما ترجح عندي بعد ذلك وهو كتابة مصنف وجيز في خلاصة تاريخ المصطفى (ص) وسيرته ، وحقيقة دعوته، وكليات دينه وشريعته ، يكون دعوة الى الاسلام ، وردًّا لما فشا في قصص الموالد من الاباطيل والاوهام ، وأن أنشره مع بيان ما به تكون قراءته فريضة أو فضيلة محمودة، وما يكون به بدعة مذمومة، فتكون بذلك فوائد نشره مضاعفة، وانني أعتقد أن هذا العمل واجب شرعا ولو فصلت أدلتي على ذلك لما خفيت على أحد ولكن لاحاجة الى هذا التفصيل

على أن آخر عبارة الناقد لهذا الموضع تفيد اجازة هذا التأليف ونشره في المنار، اذ حصرت النقد في طبعه منفردا وختم فصوله بالصلاة البتراء، ويعني بها ما ترك فيها الصلاة على الآل ، لانه فيما يظهر ينكر ذلك ويراه بدعة محظورة ، ويلتزم قرن الصلاة على النبي (ص) بالصلاة على الآل ولو فيما ينقله عن غيره كما يراه قراء نقده فيما نقله عن ذكرى المولد، وهذا من التحريف في النقل ولا يخفى حكمه. ونحن لاننكر أن الصلاة على الآل تبعا للصلاة على النبي (ص) مشروعة في الصلاة وكذا في خارجها ، ونحن نفعلها في التشهد من الصلوات دائما وفي غيره احيانا ، ولم يقم عندنا دليل على التزامها ولم يصح عندنا نقل عن السلف من الصحابة وعلماء التابعين ولا أئمة آل البيت بذلك ، وانما تلتزمها فرقة الشيعة وقليل من غيرهم ، والتزامها أقرب الى البدعة من تركه ، لان الاصل في البدعة مخالفة ما كان عليه أهل الصدر الاول بشرطه ، وأما طبع الكتاب وحده فهو كطبعه في المنار ، والناقد نفسه يقترح أن يطبع مرة أخرى يراعى فيها ما رأى تنقيحه في نقده كما تقدم آنفا

(الموضع الثاني — الفرق بين الامتياز وما به الاصطفاء)

سألنا في الكتاب : كيف كان اصطفاء الله تعالى لتلك البطون من العرب، وبم امتازوا على غيرهم حتى كانت أمتهم بهم أفضل الامم، وأشد استعدادا لذلك الاصلاح الكامل العام ، الذي جاء به صفوة البشر منهم عليه أفضل الصلاة والسلام؟ وأجبنا عن ذلك بما شهدت به التواريخ العامة من امتياز الامة العربية على سائر الامم من بدء التاريخ الى عصر الاصلاح الاعظم بالبعثة المحمدية، وبما عرف في تاريخ العرب

أنفسهم من امتياز كنانة فيهم وامتياز قريش في آل كنانة وامتياز بني هاشم في قريش - فعلم بهذا أن اصطفاء كل بطن منهم كان بما امتاز به من المزايا والصفات والاحوال التي كان عليها ، وأن ذلك كان إعدادا لهم، لجعل صفوة الاصفياء في خير بطن منهم ، ولقيامهم بدعوته ، ونشرهم لهدايته ، ولم يتأمل الناقد ذلك فوقع فيما وقع فيه مما لم يخطر لغيره من الكتاب وعلماء اللغة عندنا ببال ، اذ لم يفطن لكون ما به الامتياز هو سبب الاصطفاء أو نفس الاصطفاء

﴿ الموضع الثالث — انكار عطف واقتراح آخر ﴾

أنكر الناقد علينا في جملة « كانت الامم مرهقة بالاثرة والانانية والانين من ثقل الضرائب » من الصفحة الخامسة ان عطف الانين على الاثرة غير صحيح أو غير واضح واقترح حذفه أو وضع فعل الانين المضارع موضع المصدر ، قال ليصح العطف أو ليكون أوضح ، ونقول ان لانكاره دون اقتراحه وجها وجيها ولكنه لم يبينه ، وهو ان الباء في قولنا « بالاثرة » للسببية أو للآلة وكل من الاثرة والانانية سبب للرهق الذي أرهقته تلك الامم أو آلة له ، وأما الانين فهو أثر السبب أو الآلة وليس منه ، والوجه ان يقال « تأن » بغير عطف

(الموضع الرابع — أما وجوابها)

بينا وجوه اصطفاء كنانة وقريش وبني هاشم على غيرهم من العرب بأسلوب أما وأما — فانكر الناقد ذلك في كنانة بجعله هنا خلاف الاولى ، زاعما ان الاولى حذف أما وجوابها ، وبدء الكلام هكذا : اصطفاء الله لكنانة يعلم مما كانت تحفظه العرب الخ ولم يبين وجه هذه الاولوية فندعها الى القراء يحكمون فيها بعلمهم وذوقهم

(الموضع الخامس — ندوة قريش ورايتها « العقاب »)

زعم الناقد انا في هامش الصفحة الثامنة فسرنا الندوة بالشورى وخصصناها باجالة الرأي للائتمار بالنبي (ص) بعد البعثة، وان المعروف ما ذكرناه عنها في صلب الكتاب، وقد فهم ذلك من قولنا « التي اجتمعوا فيها بعد البعثة للائتمار به (ص) » وبديهي أن وصفها بذلك لا يدل على ما فهمه من التخصيص وانما تلك غفلة ظاهرة منه

وأما انكاره قولنا ان العقاب راية قريش وقوله إن المعروف انها راية النبي

(ص) كما في القاموس، فما كان له ان يرسله بدون مراجعة لكتب التاريخ والحديث اذ كلمة القاموس وحدها لا تكفي للفصل في مثل هـذه المسألة وهو يعلم ان مافي القاموس مشهور لا يعرف عامة الناس غيره لذكره في السيرة النبوية ، وأشعار الشعراء كقول صاحب الهمزية

فغدا ناظرا بعيني عقاب في غزاة لها العقاب لواء

فكان ينبغي له — والامر ماذكرنا — ان يقول ان مجيء هذه العبارة من صاحب المنار على خلاف المشهور لا بد له من أصل، ثم يراجع لعله يقف على هذا الاصل ويحكم فيه حكمه

أشهر معاني العقاب (بضم العين) أنه طائر من الجوارح التي تصيد (ومنها) الحرب نقله في اللسان عن كراع (ومنها) العلم الضخم نقله الجمهور، قال في اللسان والعقاب الذي يعقد للولاة شبه بالعقاب الطائر وهي مؤنثة أيضا . ونقل صاحب العقد الفريد في كتاب النسب عن ابن المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي أن الذين انتهى اليهم الشرف من قريش فوصلهم بالاسلام عشرة رهط من عشرة أبطن كان لكل منهم منصب ومكرمة من المكارم التي كانت لقريش — وهي التي ذكرناها في الصفحة ٨ — قال : فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الاسلام، ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش واذا كانت عند أحد أخرجها اذا حميت الحرب فاذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب واذا لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه اه المراد منه .

ويؤخذ من كلام علماء التاريخ والعاديات أن طائر العقاب شعار قديم للعرب وقد عبر بعضهم عنه بالصقر وانما الصقر في اللغة اسم لكل مايصيد من جوارح الطير فالظاهر ان قريشا سمت راية الحرب الكبرى بالعقاب من ذلك . وأما كون رايته (ص) تسمى العقاب فلم يثبت في حديث صحيح ، ويحتمل أن يكون سبب هذا القول ان بعضهم أطلق هذا اللفظ على رايته الكبرى بمعناه اللغوي العام الذي هو العلم الضخم ففهم آخرون من لاطلاق ان العقاب اسم علم لها . وقد لخص الحافظ ابن حجر في شرح (باب ما قيل في لواء النبي (ص)) من صحيح البخاري ماورد في كتب السنة في

ذلك وحكى هذا القول بصيغة التمريض والتضعيف . وقد رأينا أن نذكر عبارته برمتها لانها فصل الخطاب في مسألة هذا الباب قال :

« اللواء بكسر اللام والمد هي الراية ويسمى أيضاً العلم وكان الاصل أن يمسكها رئيس الجيش ثم صارت تحمل على رأسه . وقال أبو بكر بن العربي : اللواء غير الراية ، فاللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح . وقيل اللواء دون الراية . وقيل اللواء العلم الضخم والعلم علامة لمحل الامير يدور معه حيث دار والراية يتولاها صاحب الحرب . وجنح الترمذي الى التفرقة فترجم بالالوية وأورد حديث جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة ولواؤه أبيض . ثم ترجم للرايات وأورد حديث البراء أن راية رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت سوداء مربعة من نمرة وحديث ابن عباس كانت رايته سوداء ولواؤه أبيض أخرجه الترمذي وابن ماجه وأخرج الحديث أبو داود والنسائي أيضاً ومثله لابن عدي من حديث أبي هريرة ولابي يعلى من حديث بريدة ، وروى أبو داود من طريق سماك عن رجل من قومه عن آخر منهم : رأيت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم صفراء ، ويجمع بينها باختلاف الاوقات . وروى أبو يعلى عن أنس رفعه « ان الله أكرم أمتي بالالوية » واسناده ضعيف ، ولابي الشيخ من حديث ابن عباس كان مكتوبا على رايته لا اله الا الله محمد رسول الله وسنده واه . وقيل كانت له راية تسمى العقاب سوداء مربعة وراية تسمى الراية البيضاء ويجاعل فيها شيء أسود » اه

(الموضع السادس — توجيه قوى قريش لمعاداته «ص»)

أنكر الناقد قولنا في الصفحة التاسعة ان قوى قريش المعنوية وجهت كلها لمعاداته (ص) بأنها مشعرة بغاية الهجو وموهمة أن جميع قريش وجهوا جميع قواهم لمقاومته (ص) وبأن هذا مخالف للسياق وللواقع ، ثم نوه بفضل قريش بما نوه به

ونقول في الجواب (أولا) ان ما يتضمنه الكلام من هجو فهو خاص بجاهلية قريش التي ذمها الله ورسوله والمؤمنون ، فقد فعلوا ما فعلوا وهم مشركون ، وما زال أكثرهم مشركين أكثر مدة البعثة ، وما صاروا يدخلون في الاسلام أفواجا الا بعد فتح مكة ، ويأس من بقي من زعمائهم بعد الحرب من الرياسة ، وأي جرم أجدر بالذم والهجو

مما فعلوا من إيذاء الله ورسوله وفتنة المؤمنين واخراجهم من ديارهم، وقتالهم في دار هجرتهم، وذلك لا يقتضي ذم المؤمنين منهم ولو بعد الايذاء، فقد كان خالد بن الوليد أشد كائنهم نكاية في قتال المسلمين، ثم صار أشدهم نكاية و بلاء في قتال أعدائهم الكافرين، (وثانيا) ان ما كان من كفر أكثرهم وايذائهم لا ينافي ما ذكرنا من استعداد جمهورهم للاسلام بما ذكرنا من مزاياهم، فان سبب الكفر والايذاء كبرياء الرؤساء المعروفين وحيلولتهم بين الرسول و بين الجمهور وتقليد الدهماء واتباعهم لهم، ولذلك كان صلح الحديبية فتحا مبينا بظهور ذلك الاستعداد فيهم وفي غيرهم من العرب عند ما صاروا يجتمعون بالمسلمين و يسمعون منهم القرآن وصفة الاسلام كما بينا ذلك في ص ٣٩ و ٤٠ من ذكرى المولد، ومن الدلائل على هذا حديث جابر مرفوعا عند أحمد ومسلم «الناس تبع لقريش في الخير والشر» وحديث أبي هريرة مرفوعا عند البخاري «خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام اذا فقهوا» (وثالثا) ان العبارة لا تدل بطريق الحقيقة ولا المجاز ولا الكناية على ان جميع أفراد قريش وجهوا جميع قواهم لمعاداته (ص) وانما هي صريحة في توجيه قوى القوم المعنوية التي هي جاههم ومكانتهم الدينية والادبية في العرب الى مقاومته (ص) وانما تكون هذه القوى للهيئة الاجتماعية والجمهور الاعظم الذي يمثله الزعماء، وهذا هو الذي حصل فلا مجال فيه للجدال والمراء، ولم يكن الذين آمنوا به (ص) من قريش قبل الهجرة بقادرين على حماية الدعوة، ولا حماية الرسول وضعفاء المؤمنين من الاذى والفتنة، بل كان اكثرهم محتاجا الى من يحميه ويجيره من جمهور قريش أصحاب الجاه والثروة والعظمة،

وقد أراد الله ان يكثر عدد السابقين الاولين من قريش الى الاسلام، ونصر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، فجعلهم ثلاثة أزواج: (١) السابقون الى الاسلام مع اخفائه ومثل له بأبي طالب، وقد ثبت في حديث الصحيحين ان أبا طالب مات على شركه وانه أدنى أهل النار عذابا لدفاعه عن الرسول (ص) وحياطته له وان كان بباعث القرابة والعصبية، و (٢) السابقون المتحملون لمشاق التعذيب ومثل له بآل ياسر وليسوا من قريش وانما هم عنسيون من اليمن، ولم يذكره ذكرهم بما كانوا يقاسونه من تعذيب قريش لهم، وعجز جميع المؤمنين عن اغاثتهم والدفع عنهم، حتى ان

النبي (ص) كان يمر بهم فيقول «صبرا يا آل ياسر موعدكم الجنة» و(٣) السابقون القائمون بنصرته ونشر دعوته (قال) كحمزة وعلي وخديجة وأبي بكر وغيرهم، وتمثيله بذكر هؤلاء صحيح ولكنهم كانوا عددا قليلا لم يقدروا على حماية أنفسهم وحماية الدعوة بل أخرجهم جمهور قريش القوي مع الرسول (ص) وسائر المؤمنين من ديارهم بغير حق كما شهد الله تعالى في سورة الانفال والحج والممتحنة. وماذكره من فضائل قريش في نقده لهذه العبارة من حق و باطل هو دون ماذكرناه نحن في هذه الرسالة بحق، ولا نناقشه الا في قوله ان الاسلام ما اعتز ودخل في طور القوة والمنعة الا بعد اسلام من تأخر منهم، ففيه نظر، بل هو غلط، فان الاسلام قد اعتز وقوي بدخول الانصار فيه وان كان فضل السابقين الاولين من المهاجرين على الانصار معروفا لا ينكر، في كونهم الاساس الاول والركن الاعظم، ولكن أخانا الناقد الفاضل أحد أفراد عصبية جديدة ذات نزعة عصبية للعلويين من قريش، وبهذه النزعة استصغر ما استكبره واستعظمه جماهير المطلعين على ذكرى المولد النبوي من فضائل قريش عامة والعلويين منهم خاصة بحق، ولنا في هذه العصبية كلام نقوله بعد

ثم اننا نبرأ الى الله مما نقله عن الزمزمي في همزيته وهو زعمه أن قريشا لم تبطل بالايمان بغضا وجفاء بل امتنعوا من تولي الرسول (ص) لثلا يشك فيه من يرى نصر القرباء له، بل أخروا ذلك الى أن تولى الله نصر دينه فلما كان ذلك دخلوا فيه وصاروا رؤساء له، فهذا الزعم مخالف لما علم بالضرورة من الكتاب والسنة وكتب السيرة النبوية كلها، فالظاهر منه ان الناظم يريد ان السواد الاعظم من قريش آمنوا بالنبي (ص) باطنا وكتموا اسلامهم لعلمهم بأن الله سينصر رسوله ويعز دينه بغير سبب ولا أحد من المؤمنين من غيرهم (اذ الظاهر أن هذا الرجل وأمثاله ينكرون فضل الانصار الثابت بشهادة الله ورسوله لهم بالايواء والنصر أو يصغرونه أو يخفونه) فأحبوا أن لا يكون اظهارهم للاسلام شبهة على نصره بالخوارق فأخروه لذلك؟ وماذا يقول في الايذاء والفتنة قبل الهجرة وفي سيرهم من مكة الى المدينة لاجل قتال النبي (ص) والمؤمنين بعدها؟

هذا واننا ننوي تنقيح عبارات من كتاب (ذكرى المولد النبوي) عند اعادة طبعه منها الاشارة في هذه العبارة التي نرد نقد الناقد لها، نريد أن نحذفها ونقول «ولكن قواها (أو قوى قريش) كلها وجهت لمعاداته عليه أفضل الصلاة والسلام» بدل «ولكن

هذه القوى كلها» فان هذه الاشارة وقعت بعد كلام ليس مرادا منها، والناقد لم يلمح ذلك

(الموضع السابع — بعد الآل عن الامور الحربية والرياسة)

قلنا في الصفحة العاشرة في بيان فذلكة ما امتاز به بنو هاشم آل الرسول (ص) على سائر قومه من قريش: ان جملة ذلك الاخلاق العلية، والفواضل العملية والفضائل النفسية ، والبعد عن الاثرة والامور الحربية ، ولذلك غلبوا على الرياسة حتى بعد الاسلام .. فرد علينا الناقد بقوله : لعل ثبوت بعد الآل عن الامور الحربية والرياسة لا يصح قبل الاسلام ولا بعده ، واستدل على الاول بما كان من المناصب الحربية لقريش قبل الاسلام و بما ذكرنا من امتياز كنانة ومالك وقصي في العرب ، وعلى الثاني بحمل الآل لالوية القتال وقيادة الجيوش في بدر وأحد وخيبر وحنين الخ

وأقول في الجواب انني أجل الناقد الفاضل عن ان يكون سوء الفهم ، هو الحامل له على هذا النقد ، كما يتبادر الى كل من قرأه وقرأ الاصل ، وأكاد أجزم بأن سببه نزعة العصبية التي أشرت اليها آنفا ، فهي التي ألقت الى وهمه أن العبارة تدل بجملتها على عدم استعداد آل البيت النبوي عليهم السلام للرياسة والملك ، وما يلزمهما من أمور الحرب، فأراد أن يرد على ذلك فغفل عن أصل العبارة وعن معنى الآل ، وأخذ يستدل على اصالتهم في الامور الحربية وعنايتهم بأمرها ، بما كان لغيرهم من قريش من مناصبها ، وبما كان من الرياسة والملك لبعض أصول قريش وأجدادهم كمالك بن النضر وكنانة ! ولم يكن لبني هاشم من تلك المناصب والرياسات التي ذكرها شيء ، انما كانت لهم سقاية الحاج فحسب ، وكان يتولاها العباس ، الذي لا يعده الناقد ولا ذريته من الآل ، أعني الذين وردت الاحاديث في تضخيم وتحريم الصدقة عليهم، فأما الندوة واللواء، فكانت لبني عبد الدار ، وقبل ان الندوة والمشورة كانت لبني أسد ، وأما السفارة فكانتا في بني عدي وتولاها قبل الاسلام عمر بن الخطاب (رض) وتفسير هذه المناصب يعلم من هامش ص ١٠ من ذكرى المولد

ثم انه غفل عن جعلنا امتياز بني هاشم بالاخلاق والفضائل دون الحرب ، وحب الاثرة والكبر ، علة لغلبة غيرهم إياهم على الرياسة الدنيوية حتى بعد الاسلام ، ولم يفهم نكتة هذه الغاية « حتى بعد الاسلام » والمراد منها ظاهر وهو ان الاسلام زاد

في امتيازهم وتفضيلهم ، فكان مقتضى ذلك أن يقدموا على غيرهم، في كل ما يساوون غيرهم في الاستعداد له ، ونبهنا الى حكمة ذلك . وهذا الغالب يصدق ولو لم يكن الا لبني أمية ، اذ العبارة لا تدل على انهم يغلبون في كل زمان وكل مكان ، على انهم غلبوا في أكثر الازمنة والامكنة، هذا هو الواقع الذي لامراء فيه .

على انني اطلقت ضمير الآل في قولي « غلبوا » ولم يكن لاحد منهم صورة في ذهني لا الطالبيين وما كان من زهد أئمتهم في الدنيا ورياستها ، وما قابل ذلك من أثرة غيرهم وتكالبهم عليها ، وظلمهم اياهم، لتعلق القلوب بهم ، فأطلقت العام وأنا أريد منه الخاص ، والعبارة صادقة في كل حال ، لا تنقضها خلافة العباسيين من الهاشميين الذين لا يعدهم الناقد من آل الرسول

ثم ان نفينا الجعل العناية بأمور الحرب من مزايا بني هاشم التي فضلوا بها سائر قريش لا يقتضي أن يكونوا جبناء يفرون منها، أو بلداء لا يحسنون التصرف فيها، اذ هم اضطروا اليها، فالحرب في نفسها شر، لا يبيحه الا جعله دافعا لمفسدة هي شر منه، واقامة مصلحة تصغر في جانبها هذه المفسدة، كما يعلم من أول ما نزل في لاذن للمؤمنين في القتال، وذلك قوله تعالى في سورة الحج (٢٢: ٣٧ أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وان اللهَ على نصرهم لقديرٌ ٣٨ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ الا أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعضٍ لهدمت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرنَّ اللهُ من ينصره ان الله لقويٌّ عزيز (٤٢) الذين ان مكنّاهم في الارض أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الامور)

فبنو هاشم لم يكونوا يحبون الحرب للرياسة والكسب، كغيرهم من العرب وغير العرب، ولم يوقدوا لذلك نار حرب قط، وقد كانت حرب الرسول (ص) كلها دفاعا عن الحق وأهله ، وتأمينا لحرية الدين ودعوته ، ولكنه كان أشجع الناس وأثبتهم في مواقف القتال، ويليه (ص) في ذلك عمه حمزة وابن عمه عليّ المرتضى (رضي الله عنهما) والشجعان من بني هاشم لا يحصون عددا ، ولكن الشجاعة شيء وحب الحرب للرياسة شيء آخر ، وفي كلامه هنا مآخذ أخرى سيعلم بعضها من الرد على بعض المواضع الآتية ، على انه لا غرض لنا في مناقشته في كل ما أخطأ فيه.

المتفرنجون والاصلاح الاسلامي

٢

(قاعدة اصلاح قانون الاحوال الشخصية)

كان من أمر الحكومة المصرية بعد اعلان انكلترة حمايتها عليها، وإلغائها منصب القاضي الشرعي الاكبر الذي كان يعين من قبل الدولة العثمانية عليها، أنها شرعت في أمر كان انفاذه في أيام ذلك القاضي متعذرا، وهو تأليف لجنة من علماء الازهر وبعض المدرسين في مدرسة القضاء الشرعي ومدرسة الحقوق يرأسها وزير الحقانية لوضع قانون للاحوال الشخصية الخاصة بأحكام الزواج وما يتعلق به كالطلاق والفسخ والعدة والنفقة، تستمد مواده من فقه المذاهب الاربعة المشهورة ولا تتقيد بمذهب الحنفية وحده، بل يجعل القانون الذي كان وضعه قدري باشا الحنفي هو الاصل، ويؤخذ من فقه المذاهب الاخرى ما تراه اللجنة أيسر وأكثر انطباقا على مصلحة الناس في هذا العصر. وطالما تمنى طلاب الاصلاح في هذا القطر وغيره مثل هذا التيسير، ولكن ما جرت عليه الحكومة المصرية منتقد من وجوه أخرى بيناها في مقال لم يتيسر لنا نشره، وقد كاشفنا ببعضها بعض أولي الشأن، وأهمها جعل الاحكام الشرعية قانونا وما يترتب على ذلك، فالقانون اذا أطلق في هذا المقام ينصرف في العرف الى ما يقابل الشرع من الاحكام، ويتوقف الحكم به على اقرار مجلس الوزراء اياه، وصدور أمر الحاكم العام (الدكريتو أو المرسوم السلطاني) به، ويلزم من ذلك جعله تشريعا جديدا من هذه الحكومة يحكم به باسمها على أنها هي الواضعة له، وينفذه وزير من وزرائها لا يشترط أن يكون مسلما، وكون القضاة يطبقون الحكم على ما يفهمون من نصوصه وان كانت سقيمة لا تدل على ما قصدته اللجنة دلالة واضحة (قد اطلعنا على بعض ما وضع من هذا القانون فوجدنا فيه عبارات كثيرة في غاية الضعف والركاكة) وكونه سيشرح كما شرح غيره من القوانين. فتستنبط الاحكام من عبارته (النص الحرفي) فيستعين بشرحه القضاة ووكلاء الدعاوي على فهم المراد منه والعمل بما يفهمون من ذلك، ولما كنت منتقدا لهذا الوضع بهذه الصورة لم أبين

رأيي في مواده عند ما أرسل الي وزير الحقانية الجزء الاول الذي تم منه كما أرسله الى كثير من علماء الشرع والقضاة والمحامين من شرعيين وأهليين ، لان ابداء الرأي في ذلك يتضمن اقرار أصل العمل والموافقة عليه ، واست مقرا له ولا موافقاً

وقد انتقد كثير من أهل العلم بعض مواد هذا القانون في الجرائد واقترح بعض من أرسل اليهم ما تم منه اقتراحات عرضت على اللجنة العلمية المشتغلة بوضعه، وعلمت أن بعض المحامين الاهليين اقترحوا على وزير الحقانية اغتنام هذه الفرصة لابطال تعدد الزوجات وتقييد أحكام الطلاق بنحو ما كان اقترحه قاسم بك أمين فيما كتبه في المسألة التي يسمونها تحرير المرأة ، وإن أدري أعرضت أمثال هذه الاقتراحات على اللجنة أم التزمت الوزارة عرض ما هو منصوص في كتب المذاهب الاربعة ؟

وقد كثر بحث المتفرنجين وخاصة علماء الحقوق منهم في مسألة قانون الاحكام الشخصية، وحديثهم في وجوب جعله مطابقا لآراء الذين يسمونهم الفئة الراقية — يعني المتفرنجة — وقد عني بهذه المسألة أحمد افندي صفوت وكيل نيابة (الدلنجات) فألف فيها رسالة خرج فيها عن الموضوع الى ما هو أعم منه وأكبر ، وأهم وأخطر ، وهو نسخ نصوص الشريعة الاسلامية كلها وابطال قواعدها وأصولها التي هي موضوع علم أصول الفقه، ووضع أصول أخرى لها يراها الواضع مرقية لهذه الامة الاسلامية من حضيض الهمجية القديمة التي كان عليها سلف المسلمين وخلفهم بزعمه ووهمه، الى قنة الترقي المدني الجديد الذي صعدت اليه الامة المصرية أو الفئة الراقية منها، التي يجب عنده أو ينتظر ان يتبعها غيرها. وقد ألقى هذه الرسالة بصفة خطبة - أو محاضرة كما سماها — على جمهور كبير من هذه الفئة بقاعة المحامين بالاسكندرية (في ١٥ اكتوبر سنة ١٩١٧) تحت رئاسة المحامي انطون بك سلامة. ثم طبعت ووزعت على الناس، وألقي الي نسخة منها، فوجب علي الرد عليها شرعا، وذلك ما رغب وبرغب فيه كثير من محسني الظن بي كما بينت ذلك في مقالة الجزء الذي قبل هذا

ان مواضع النقد والبحث في هذه الرسالة (أو المحاضرة) ثلاثة أهمها. القواعد الجديدة التي وضعها هذا الباحث لنسخ الشريعة الاسلامية بهدم أصولها القديمة كلها. ويليه المسائل المراد اصلاحها من قانون الاحكام الشخصية وهي أربعة ذكرها مجملة في ص ٥ (١) حرية المتعاقدين ولزومية العقد على الطرفين (٢) عدم التناقض مع قاعدة الحرية

الشخصية المقررة في قانون العقوبات (٣) رسمية عقد الزواج والطلاق (٤) تسهيل اجراءات الدعوى. ويلي هذين مسائل متفرقة في موضوع الترقي الذي يدعيه هو وأمثاله، ويطالب تغيير أصول الشريعة وفروعها لاجله. ونبدأ بالاول الاهم فنبين رأيه في أصول الشريعة وقواعده التي وضعها لنسخها وتتبعها بنقدها العلمي الشرعي فنقول:

أصول الشريعة ورأيه فيها

قال في أول الصفحة ٢١ ما نصه: «أصول الشريعة الكتاب والسنة والإجماع والقياس. (أما القياس) فنصرف النظر عنه لاننا سنقيس بأنفسنا على أحكام الاصول الاخرى» يعني انهم سيقيسون على الاصول التي يشرعونها بأنفسهم بناء على ان لهم حق التشريع في الاحكام الشخصية كالاحكام المدنية والعقوبية التي تشرع الحكومة فيها ما تشاء بارشاد المسيطرين عليها كما سيأتي بيانه، ومنها ما يأخذونه عن قوانين الافرنج كما هيه. مثال ذلك قاعدة الحرية الشخصية المقررة في قانون العقوبات، ومن أحكامها ان الانثى متى تجاوزت السنة الرابعة عشرة يجوز لها ان تعاشر من تشاء بلا قيد ولا شرط ولا ارتباط شرعي، وليس لوالدها حق ارجاعها عن غيها لدارة، كما صرح بهذا مؤلف الرسالة في الصفحة الثامنة وغيرها. وكما انه لا يجوز لوالد بنت الخامسة عشرة فما فوقها ان يردها ويمنعها عن غيها اذا اختارت ان تكون خدنا لاحد الفساق، أو بغيا تعرض نفسها للزنا في المواخير والاسواق، كذلك لا يجوز لقاضي الشرع ولا للسلطان أو نائبه ان يردها عن هذا الحق الذي حقه لها القانون، ولماذا؟ لان القانون أباحه. أما ما أباحه الله في كتابه فلكل حاكم ان يحرمه عندهم كما سيأتي قريبا

قال: (وأما الاجماع) وحجتهم فيه حديث «لا تجتمع أمتي على ضلال» فنقسمه الى قسمين إما اجماع العلماء أو حكم ولي الامر السابق (كذا) وعلى حسب قواعد نظامنا القضائي لا نتقيد برأي مهما أجمع عليه الشراح الا ان نوافق على اجماعهم. وأما ما يقرره الحاكم بصفته صاحب السلطة التشريعية فيمكن لخلفه ان يلغيه طبقا لقاعدة ان السلطة التشريعية يملك ان تلغي ما تقرره طبعا لاتأثير الشخصية الحاكم» (كذا) وقد استشهد لهذه القاعدة بأن لكل سلطان ان يلغي ما وضعه من قبله، وجعل إلغاء الاجماع من هذا القبيل، ثم قال ان المتأخرين هم الذين جعلوا الاجماع حجة رضاء منهم

بتحكيم السابقين (قال) « ونحن الآن نرفض حكم المتأخرين والسابقين » أي انه يرفض أحكام جميع المسلمين من السلف والخلف، ولكنه ادعى أنه يتقيد بما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فانظر كيف يتقيد بذلك ! قال في ص٢٢

= ﴿ السنة ﴾ أريد أن أبحث القرآن من قبل لان حكم اتباع السنة ناتج من حكم القرآن

« القرآن بصفته كتاب الله قد أودع فيه كل حكم شاء ان يفرض على كافة المسلمين في جميع العالم اتباعه، فالذي ترك ولم ينزل في القرآن ترك ليكون للفرد حرية التصرف فيه ولولي الامر الرأي في تقييده بحسب ما يراه لازما لمصلحة الجمهور . فالرسول بصفته ولي الامر حاكم الامة وقاضيها كان اذا سئل عن أمر حكم فيه وهذه الاحكام اما صدرت في مسائل فردية خاصة فتقيدت بها واما صدرت من الرسول لتكون قاعدة وحكماً عاماً وفي هذه الحالة تكون بمثابة قانون صدر من صاحب السلطة التشريعية ونفس هذه السلطة يملكها الحاكم في كل زمن بعده فيملك الغاء ما تقرر بمقتضاها

« واذاً استنتج ان السنة اما انها تخصصت بحوادث فردية فصارت أحكاما قضائية في طبيعتها ، واما تعممت في شكل قواعد وقوانين فصارت تشريعا صادرا من ولي الامر لزمنه ، واذا ظهر من بعد الاحقين من أولياء الامر مصلحة للناس في تغييرها أو الغائها كان ذلك ولا حرج . وهذا كله خاص بالاحكام المدنية فقط دون الدينية . ولا يناقض في شيء قوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » وقوله « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » اذ اننا اذا رأينا لزوما للخروج عن السنة لمصلحة فلا يكون ذلك غير طاعة بل شيئا آخر . وبديهي أن الرسول لو كان في هذا العصر لاختلفت سنته فيه ولو لم يسأل ما أبدى حكماً

= ﴿ الكتاب ﴾ قلت في الكلام عن السنة ان الله أودع الكتاب كل حكم شاء ان يفرض على كافة المسلمين في كل زمان اتباعه . فيكون الكتاب بذلك مقيداً للمسلمين فيما أمر. وبهذه المناسبة أعيد القول ان ليس لاي حكم لم يرد في الكتاب حكم الفرض الواجب العمل به . وما زاد عن الكتاب من سنة أو اجماع حكمه الجواز اذا شاء قام به الفرد وان لم ير مصلحة في ذلك فله العدول عنه

« والاحكام الواردة في القرآن عدا المبادئ الاصولية العامة على ثلاثة أقسام

(١) ماحرم عمله (٢) ما أوجب عمله (٣) ما أجيز »

ثم بين أن حكم القسم الاول أن لا يتعرض له ولا يحكم بشيء يخالفه في مرماه، كتحريم الأم والاخت والجمع بين خمس أزواج. ومرمى الشيء غرضه، والمراد أن يعتبر الغرض من الحكم لا الحكم نفسه فهو اذا كالقسم الثاني. وحكم القسم الثاني ان يبقى منه ماتتحقق به الحكمة المقصودة منه. ومثل له بايفاء العدة والاشهاد على عقد الزواج. وبين أن حكمة العدة براءة الرحم من الحمل وحكمة الاشهاد إعلان الزواج (قال) « فلا حرج في ان نصل الى الغرض المقصود من أفيد الطرق وأخصرها » وعدّ جعل العقد رسميا مغنيا عن الاشهاد، ومرور أكثر مدة الحمل على الطلاق مغنيا عن التقيد بالتربص ثلاثة قروء. أي ومثل ذلك ما اذا علم عدم الحمل بالاطلاع على ما في الرحم بالاشعة التي تشف الجسم (أي تجعله شفافا) كالاشعة المعروفة بأشعة روتنجن، فبذلك يمكن إلغاء العدة على قاعدته. ثم قال بعد التمثيل الذي ذكرناه بالمعنى « وبذلك ينقض وجوب التقييد بالمعاني الحرفية للالفاظ القانونية الواردة في القرآن » وأما حكم الثالث وهو ما جعله القرآن جائزا كتعدد الزوجات فهو ان الانسان مخير فيه ولكن لكل حكومة ان تحرم منه بالقوانين الوضعية ما تشاء

هذا رأي أحمد افندي صفوت في أصول الشريعة الاسلامية ذكر انه يقوله ويقترحه بصفته مسلما، وهو عدم لاصول الشريعة كلها لا يوافقه عليه مسلم في الارض وهو مسلم، وسنبين ذلك بالدليل في الجزء الآتي ان شاء الله تعالى

السيد الهمام - آل رضا

في آخر الساعة الثانية بعد النصف من ليلة الخميس لثمان بقين من شهر ذي القعدة الحرام الحال (الموافق لحلول الشمس في الدرجة الخامسة من برج السنبلة سنة ١٢٩٦ هـ ش — ٢٩ اغسطس) قد وهب الله جل ثناؤه لصاحب هذه المجلة غلاما سويا أزهر اللون جميل الخلق كأخيه (محمد شفيع) الا انه أوسع غرة وأنحف بنية، فسميناه الهمام (بضم الهاء وتخفيف الميم) فنحمد الله ونشكره على ماحبانا به من مزيد نعمه ونسأله تعالى أن يجعل له أوفر نصيب من اسمه، حتى يكون قرة عين لنا ولامته وقومه، ومثل ذلك لاخيه وأخته، (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما)

بشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٣٠ ذي الحجة ١٣٣٦ — ١٢ الميزان (خ ١) ١٢٩٧ هـ ش ٦ اكتوبر ١٩١٨

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي عنه)

(٩٢) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَبَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ؛ وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩٣) وَهَذَا كِتَبٌ أَنْزَلْنَهُ مُبَرَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ

ختم الله سبحانه سياق قصة ابراهيم مع قومه بذكر هداية بعض الرسل من أهل بيته وذريته تمهيدا بذلك الى بيان كون رسالة خاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جنس رسالتهم ، وكون هدايته متممة ومكملة لهدايتهم ، ومن ذلك انه لا يسأل على تبليغ هذا القرآن أجرا ، ولا يرجو من غير الله عليه فائدة ولا نفعا ، وقفى على ذلك بالرد على منكري الوحي ، وبيان انهم ما قدروا الله حق القدر ، وتفنيد ما عرض لهم من الشبهة ، واقامة الحجة الواضحة المحجة ، قال

﴿ وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ قدرُ الشيء (بسكون الدال وفتحها) ومقداره — مقياسه الذي يعرف به ومبلغه ، يقال قدره يقدُره وقدّره اذا قاسه ، وقادرت الرجل مقادرة قايسته وفعلت مثل فعله ، والقدر والقدرة والمقدار القوة . ومنه القدر بمعنى الغنى واليسار والشرف ، لانه كله قوة كما قال صاحب اللسان ، وكل ما تقدم مختصر منه . (قال) وقوله تعالى « وما قدروا الله حق قدره » أي ماعظموه حق تعظيمه ، وقال الليث ماوصفوه حق صفته ، والقدر والقدَر هنا بمعنى واحد اه . وعزي الاول الى ابن عباس وروي عنه أيضاً ان القدر هنا بمعنى القدرة ، قال ان الآية نزلت في الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم فمن آمن ان الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره . وعن الاخفش ان المعنى ماعرفوه حق معرفته . وعن أبي العالية ما وصفوه حق صفته . وتفسيره بالمعرفة أقوى ، لانه بالمعنى الاشتقي ألصق . وتعلق الظرف « اذ قالوا » بفعله أو معنى نفيه أظهر ، سواء تضمن معنى العلة أم لم يتضمن ، والعبارة محتملة للامرين . فمنكرو الوحي الذين يكفرون برسل الله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ماعرفوا الله حق معرفته ، ولا عظموه حق تعظيمه ولا وصفوه حق صفته ، ولا آمنوا بهذا النوع من قدرته ، وهو افاضة ماشاء من علمه بما يصلح به أمر الناس من الهدى والشرع على من شاء من البشر بواسطة الملائكة ، أو بتكليمه اياهم بدون واسطة ، أو قدرته على ما يتبع الرسالة من تأييد الرسل بالآيات ، وبهذا الاعتبار يكون تفسير القدر بالقدرة أظهر ، ومن يجيز استعمال المشترك في كل معانيه والجمع بين حقيقته ومجازه مع أمن اللبس يجيز ارادة كل ماذكر من معاني القدر هنا . على ان المعنى المختار يتضمن سائر

هذه المعاني فمن عرف الله حق معرفته وصفه حق وصفه وآمن بقدرته على كل شيء وعظمه حق تعظيمه

نطقت الآية بأن منكري الوحي ما عرفوا الله تعالى حق معرفته ولا وصفوه بما يجب وصفه به ولا عرفوا كنه فضله على البشر اذ قالوا انه ما أنزل شيئا مما على أحد منهم، فهي دليل على ان ارسال الرسل وانزال الكتب من شؤونه سبحانه ومتعلق صفاته في النوع البشري. فانها من مقتضى الحكمة، وأجل آثار الرحمة، فمن عرفه تعالى بصفات الكمال، التي هي متعلق أحاسن الافعال، ومصدر النظام التام، في عوالم الارواح والاجسام، كالحكمة البالغة، والرحمة السابغة، والعلم المحيط، والقيام بالقسط؛ ونظر في الآيات البينات، في أنفس البشر والآفاق، فعلم منها انه أحسن كل شيء خلقه، وأبدع كل شيء صنعه، وخلق الانسان في أحسن تقويم، مستعدا للعروج الى أعلى عليين، والهبوط الى أسفل سافلين، وجعل كماله الذي ترقيه اليه مواهب روحه الملكية، ونقصه الذي تدسيه فيه مطالب جسده الحيوانية، أثرا لعلومه وأعماله الكسبية، التي عليها مدار حياتيه الدنيوية والاخروية. ثم علم من تدبر أحواله في حياته الحاضرة، ومن درس طباعه وتاريخ أجياله الغابرة، أنه لم يكد يوجد فرد من أفراده أحاط علما بمصالح شخصه، فلم يجن على جسده ولا على نفسه، ولم يوجد جيل من أجياله، ولا شعب من شعوبه، ارتقت به علومه الكسبية، وقوانينه الوضعية، الى نيل السعادة المنزلية والقومية، والكمال الذي يؤهله للسعادة الابدية، الا من اهتدى بهداية المرسلين، وهم في كل ملة ثلة من الاولين وقليل من الآخرين، — من عرف الله بما ذكرنا من الصفات، وعرف البشر بما أجملنا من الاحوال والمميزات، علم علم اليقين ان ارسال الرسل وانزال الكتب من آثار تلك الصفات التي هي مصادر النظام ومظاهر الكمال، قد توقف عليه اكمال استعداد البشر للعروج الذي أشرنا اليه، وتوقي الهبوط الذي ذكرنا به، فكان ارشاد الوحي سببا لكل ارتقاء انساني، في ركني وجوده الجسماني والروحاني، وقد فتن في هذا العصر خلق كثير بترقي النظام الاجتماعي، وسعة التمتع الشهواني، في شعوب كانت قد استفادت كثيرا من هداية الوحي، ثم نسيت ذلك الاصل الذي هو مصدر كل الخير، فعتت عن أمر ربها ورسله، فمنها من كفر

بهم وحدهم ومنهـا من كفر بهم و به ، وادعوا أنهم قد استغنوا بعقولهم عن تلك الهداية، بل وصموها به بما وسموها من سمات الغواية، حتى اذا مابرح الخفاء، وفضح الرياء ، وانكشف الغطاء، ظهر أن تلك المدنية، هي أفظع الوحشية والهمجية، فأنهم أوسع فيها علوما وفنونا ، وأدق نظاماً وقانوناً ، هم أشد فتكا بالانسان ، وتخريباً للعمران، وان غاية هذا الترقي استعباد الاقوياء للضعفاء بتسخيرهم لخدمتهم، واستخراج خيرات الارض لهم ، استمتاعا بالشهوات الحيوانية السفلى ، واسرافا في زينة هذه الحياة الدنيا

وقد بين شيخنا الاستاذ الامام في (رسالة التوحيد) وجه حاجة البشر الى الرسل من طريقين أو مسلكين (المسلك الاول) مبني على عقيدة بقاء النفس واستعداد البشر لحياة أبدية في عالم غيبي، وحاجتهم الى ارشاد الهي يعلمون به ما يجب عليهم من العلم والعمل للسعادة في تلك الحياة، وكون ايتاء الله تعالى اياهم ذلك من آثار احسانه كل شيء خلقه، وإتقانه كل شيء صنعه ، اذ اختص بعض أفراد هذا النوع بفطرة عالية، وأعد أرواحهم الاشراف على عالم الغيب وتلقي علم الهداية عن رب العالمين بواسطة الروح الامين من الملائكة، أو بغير واسطة . وبذلك كانوا نهاية الشاهد ، وبداية الغائب ، في هذا النوع الذي جعل الله من التفاوت بين أفراده في العلم والعمل ما لا يعهد مثله ولا ما يقارب في نوع آخر من أنواع الاحياء، حتى ان الواحد منهم لينهض بأمة أو أمم فيرفع شأنها ، وألوف الالوف يكونون كالانعام يسخرهم لخدمته رجل واحد أو آحاد منهم أو من غيرهم. و(المسلك الثاني) مبني على ما علم من فطرة الانسان من كونه خلق ليعيش بجتمع متعاونا يقوم أفراد متفرقون وجماعات متعاونون بكل نوع من أنواع الاعمال التي يحتاج اليها في حفظ حياته الشخصية والنوعية، ويظهر به استعداده لتسخير جميع ما في عالمه لمنافعه، وكونه يعمل أعماله بحسب علمه وشعوره وتخيله، وكون أفراده يختلفون في ذلك اختلافا يقتضي التنازع والشقاق، الذي يفضي الى التخاذل والتقاتل اذا لم يتداركه الله بهداية تزيل الخلاف، وتوحد الآراء والاهواء، وهذه الهداية هي هداية الوحي الذي بعث الله به الرسل، وانما تزيل الخلاف لان الله أودع في فطرة الانسان فوق كل ماذكر غريزة هي أقوى غرائزه وأعلاها، وهي غريزة الشعور بوجود قوة غيبية

هي فوق قوته، وقوى جميع عالم الشهادة الذي يعيش فيه، والخضوع لكل ما يأتيه من جانب ذلك السلطان الاعلى، فأرسل الله الرسل بالآيات الدالة على تأييدهم من قبل تلك القوة العالية، والسلطة الغالبة، وكونهم يتكلمون عن قيوم السموات والارض، بما جاءوا به من الكتاب ليحكم بين الناس بالقسط. فزال من بين المؤمنين لهم كل خلاف، وتمهد لهم طريق السير الى الكمال، فكان العاملون بالكتاب من كل أمة خيارها وعدولها. ولولا البغي الذي حمل آخرين على الخلاف في الكتاب المزيل للخلاف، لبلغت به منتهى ماهي مستعدة له من السعادة والكمال

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يفعل من قد غص بالماء

ومن شاء ان يقف على هذا البحث بالتفصيل، ورد مايرد من الاعتراض عليه بالدليل، فليقرأه بالامعان والتدبر في رسالة التوحيد، وليراجع في الجزء الثاني من هذا التفسير، ما نقلناه عن الاستاذ الامام في تفسير قوله (٢: ٢١٢ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) وقد بز الاستاذ أثابه الله تعالى في هذه المسألة جميع العلماء والحكماء، الذين كتبوا في بيان حكمة بعثة الانبياء، ولولا أن طال هذا الجزء وتجاوز كل تقدير لنقلنا عبارة رسالة التوحيد برمتها هنا، ولعلنا نجد لها مناسبة في جزء آخر وان كانت أضعف من مناسبة هذه الآية التي يصح ان يكون ذلك البحث تفسيرا لها

﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ﴾ هذا رد على منكري الوحي والرسالة لقنه الله تعالى رسوله (ص) في إثر بيان كون ذلك من شؤونه تعالى ومقتضى صفاته في تدبير أمر البشر بحيث يكون المنكر له ما قدر الله حق قدره، ولا عرف من شأن نوعه البشري ما هو عليه في استعداده وسيره،

قرأ ابن كثير وأبو عمرو « يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون » بالمثناة التحتية على أنها اخبار عن الذين أنكروا الوحي وهم مشركو العرب ومن على شاكلتهم. وقرأها الآخرون « تجعلونه » الخ بالمثناة الفوقية على الخطاب، وبذلك اختلف المفسرون

في الآية وعدها بعضهم من مشكلات القرآن، وقد تقدم في الكلام على نزول السورة في أول تفسيرها أن بعضهم عد هذه الآية مما استثني من نزول هذه السورة كلها دفعة واحدة بمكة، وزعموا أنها نزلت في شأن بعض اليهود بالمدينة، وان ظاهر معنى الآية يدل على ذلك لان هذا الاحتجاج انما يقوم على اليهود دون مشركي العرب الذين خوطبوا بسائر السورة، وقد ورد في أسباب نزولها عن ابن عباس انه قال: قالت اليهود يامحمد أنزل الله عليك كتابا؟ قال نعم. قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابا، وعن السدي قال: قال فنحاص اليهودي ما أنزل الله على محمد من شيء. — وعن محمد بن كعب القرظي قال أمر الله محمدا أن يسأل أهل الكتاب عن أمره وكيف يجدونه في كتبهم فحملهم حسدهم على أن يكفروا بكتاب الله ورسله فقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء — فأنزل الله « وما قدروا الله حق قدره » الآية. وروي عن قتادة وكذا عن مجاهد أن الآية نزلت في اليهود ولم يذكروا اسما ولا قصة، وعن عكرمة وسعيد بن جبير أنها نزلت في مالك بن الصيف اليهودي قال الكلمة في قصة سيأتي ذكرها. وفي رواية عن مجاهد أنها في العرب ورجحه ابن جرير فانه بعد ذكر الخلاف صوب قول من قال ان الآية في مشركي قريش بأن الكلام في سياق الخبر عنهم ولم يجر لليهود ذكر في هذه السورة، وبأنه لم يصح من الرواية عن نزولها فيهم خبر متصل الاسناد، وبأن المعروف من دين اليهود انهم لا ينكرون الوحي بل يقرون بنزوله على ابراهيم وموسى وداود (قال) فلا يجوز لنا أن نصرف الآية عما يقتضيه سياقها من أولها الى هذا الموضع بل الى آخرها بغير حجة من خبر صحيح أو عقل. وذكر انه يظن أن من قال انها نزلت في اليهود تأولوا بذلك قراءة الافعال فيها بالخطاب « تجعلونه قراطيس » الخ وقال ان الاصوب قراءة « يجعلونه » الخ على معنى ان اليهود يجعلونه فهو حكاية عنهم ذكرت في خطاب مشركي العرب، ورجح ان هذا مراد مجاهد. ولكنه لم يبين وجه الاحتجاج على المشركين بما أنزل على موسى وهم لا يؤمنون به، ولا وجه تخريج قراءة الخطاب التي قرأ بها أكثر القراء بل اكتفى بترجيح القراءة الاخرى، فكل من القراءتين مشكل من وجه، وقد أجاب بعضهم عن الاشكال الاول مما يرد عليه بأن مشركي قريش كانوا يعلمون

أن اليهود أصحاب التوراة المنزلة على موسى عليه السلام وسيأتي الدليل على ذلك

وأما جمهور المفسرين الذين قالوا ان الآية نزلت في اليهود فيجيبون عن اشكال ابن جرير الاول وهو نزول السورة في مكة وكون السياق قبلها و بعدها في محاجة مشركي قريش بأن هذه الآية مستثناة من ذلك كما تقدم فانها نزلت في المدينة وأدخلت في هذا الموضع لتكون مقدمة للكلام في بحث الرسالة بعد بحث التوحيد، وفيه — كما قال — انه ليس في سابق الكلام ذكر لليهود ليعود الضمير اليهم بغير تكلف، وأجابوا عن اشكاله الثاني وهو كون اليهود يقرون بالوحي ولا ينكرونه من وجوه (أحدها) ان هذا انكار مطلق أريد به المقيد ، وقد بنى الرازي هذا الجواب على قصة مالك بن الصيف التي رويت في المأثور عن سعيد بن جبير — وعزاها الرازي الى ابن عباس — وهي انه كان سمينا وهو من أحبارهم فسأله النبي (ص) واستحلفه هل يجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ؟ فقال الكلمة . قال الرازي ومراده ما أنزل الله على بشر من شيء في أنه يبغض الحبر السمين (ثانيها) انه قال ذلك في حال الغضب مبالغة ، وذكروا أن اليهود سألوه عن قوله هذا فاعتذر بأن النبي (ص) أغضبه فقال ذلك أي في حال الغضب المدهش للعقل أو على سبيل طغيان اللسان (ثالثها) انه يجوز أن يكون المراد ما أنزل الله على بشر كتابا من السماء — أي سفرا مخطوطا — كما روي عن ابن عباس — وهو مر تحريفهم فانهم يعلمون ان الوحي الذي ينزله الله ليكتب يسمى كتابا قبل كتابته تجوزا و بعدها حقيقة (رابعها) ان مرادهم ما أنزل الله عليك من شيء — كما روي عن السدي — فذكر العام وأراد الخاص. وأما قراءة « يجعلونه قراطيس » الخ فلا تشكل على هذا الوجه من التفسير فيحتاج الى الجواب عنها كما تشكل قراءة « تجعلونه » على الوجه الآخر

هذا ما اطلعنا عليه في توجيه القراءتين وفيه من التكلف ما لا يخفى. وقد تقدم في تفسير سياق مثل هذا من هذه السورة أوله (٢٠ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) ان قريشا أرسلوا الى المدينة من يسأل اليهود عن رسالة النبي (ص) فأنكروا معرفته، وسيأتي في تفسير سورة الكهف ان قريشا بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط الى احبار يهود المدينة — وفي رواية انهم أرسلوا وفدا منهم هذان الزعيمان الكفر — فقالوا لهم: سلوهم

عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فانهم أهل الكتاب الاول وعندهم علم ماليس عندنا من علم الانبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله (ص) ووصفا لهم أمره و بعض قوله وقالا انكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا الخ فهذه الرواية تدل على ان كون التوراة كتابا من عند الله لليهود خاصة كان معروفا عند مشركي قريش، وانهم لهذا أرسلوا وفدا الى احبار اليهود فسألهم عن النبي (ص) و بذلك يكون الاحتجاج عليهم بالتوراة في هذه السورة التي أنزلت في محاجتهم في جميع أصول الدين احتجاجا وجيها، ولا يصح ماقاله الرازي من ان المشركين بلغتهم معجزات موسى الدالة على نبوته وكتابه بالتواتر وانهم كذبوا الرسول بسبب طلب مثلها . والذي يتجه على قولنا أن الآية نزلت في ضمن السورة بمكة كما قرأها ابن كثير وأبو عمرو محتجة على مشركي مكة الذين أنكروا الوحي استبعادا لخطاب الله للبشر باعترافهم بكتاب اليهود وارسالهم الوفد الى أحبارهم واعترافهم بأنهم أهل الكتاب الاول العالمين بأخبار الانبياء ، فهو تعالى يقول لرسوله (ص) : « قل » لهؤلاء الذين ما قدروا الله حق قدره من قومك إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء — كقولهم « أبعث الله بشرا رسولا ؟ » — « من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا » انقشعت به ظلمات الكفر والشرك الذي ورثه بنو إسرائيل عن المصريين « وهدى للناس » (الذين أنزل عليهم) أخرجوا من الضلال بما فيه من الاحكام والشرائع التي أنشأتهم خلقا جديدا فكانوا معتصمين بالحق مقيمين للعدل الى ان اختلفوا فيه، ونسوا حظا مما ذكروا به، فصاروا باتباع الاهواء « يجعلونه قراطيس يبدونها » عند الحاجة: إذا استفتي الحبر من أحبارهم في مسئلة له هوى في اظهار حكم الله فيها كتب ذلك الحكم في قرطاس — وهو ما يكتب فيه من ورق أو جلد أو غيرهما — فأظهره للمستفتي وللعموم « ويخفون كثيرا » من أحكام الكتاب وأخباره اذا كان لهم هوى في اخفائها ، وذلك ان الكتاب كان بأيديهم ولم يكن في أيدي العامة من نسخه شيء . وهذا الاخفاء للنصوص في الوقائع غير ما نسيه متقدمو اليهود من الكتاب بضياعه عند تخريب القدس واجلائهم الى العراق المشار اليه بقوله تعالى « فنسوا حظا مما ذكروا به » خلافا لما وهمه الرازي وغيره.

والظاهر ان الآية كانت تقرأ بمكة هكذا حتى أخفى احبار اليهود حكم الرجم بالمدينة وأخفوا ما هو أعظم من ذلك وهو البشارة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وكتمان صفاته عن العامة وتحريفها الى معاني أخرى للخاصة، وحتى قال بعضهم: ما أنزل الله على بشر من شيء كما قال المشركون من قبلهم — ان صحت الروايات أو بعضها في ذلك — حتى اذا كان ذلك كله كان غير مستبعد ولا مخل بالسياق أن يلقن الله تعالى رسوله أن يقرأ هذه الجمل في المدينة على مسمع اليهود وغيرهم بالخطاب لهم فيقول «تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا» مع عدم نسخ القراءة الاولى. وبهذا الاحتمال المؤيد بما ذكر من الوقائع يتجه تفسير القراءتين بغير تكلف ما، ويزول كل اشكال عرض للمفسرين في تفسيرهما.

وأما قوله تعالى ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ فقال قتادة: هم اليهود آتاهم الله تعالى علما فلم يهتدوا به ولم يأخذوا به ولم يعملوا به فذمهم الله في عملهم ذلك. وقال مجاهد هذه للعرب. وفي رواية عنه للمسلمين، ومؤداهما واحد، فان ما علمه العرب من علوم القرآن وحكمه وهدايته قد أدوه الى سائر المسلمين من غيرهم فكانت فائدته عامة. وفي الجملة امتنان منه سبحانه على الرسول وقومه وسائر المؤمنين بايتائهم هذا الكتاب الحكيم المبين. والمعنى عندنا على تقدير جعل الخطاب لليهود: وعلمتم بما أنزل على خاتم النبيين ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم الذين كانوا أعلم وأهدى منكم. فمن ذلك ما أفاده قوله تعالى (ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) وسيأتي بيانه في موضعه ان شاء الله تعالى. ومنه ما انفرد به الاسلام وهو ما أكمل الله تعالى به دينه من بسط أصول العقائد، موضحة بالامثلة مؤيدة بالدلائل؛ ومن إتمام مكارم الاخلاق وعقائل الفضائل والآداب، بجعلها وسطا بين ما كانوا عليه هم والنصارى من التفريط والافراط، ومن جعل أحكام العبادات والمعاملات، مصلحة لأنفس الافراد وموافقة لمصالح الجماعات؛ ومن جعل الحكومة شورى بين أهل الحل والعقد، والشريعة مساوية بين الاجناس والملل والافراد في ميزان العدل، لا يميز فيها اسرائيلي لنسبه، ولا عربي لحسبه، ولا يحابى مسلم باسلامه، ولا يظلم كافر بكفره، — كما تقدم في تفسير (١٣٤:٤ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوانين بالقسط) وتفسير (٨:٥ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط) وغيرهما، فكان المعقول ان يكون علماء اليهود —

وكذا النصارى — بعد مجيء النبي (ص) بهذه الاصول الكاملة في هداية البشر التي أكمل الله تعالى بها دينه المطلق الذي أرسل به جميع رسله أن يكونوا أسبق الناس الى الايمان به كما هو المعهود من كل ذي علم وفن حريص على الكمال فيه اذا جاءه من يفوقه في العلم به، أو رأى كتابا فيه يفضل كل ما عرف من كتبه، ولكن الحسد والعصبية، وحب الرياسة القومية، هي التي صدت عن الايمان من صدت من علمائهم المستقلين، ولا تسل عن حال المقلدين، وقد اعترف بذلك من آمن من فضلاء المعتدلين. وجملة «وعلمتم» الخ حالية وقيل استئنافية

بين سبحانه انكار المنكرين للوحي بعبارة تدل على جهلهم، وترشد الى البرهان المفند لزعمهم، وشفعه بأمر الرسول أن يسألهم ذلك السؤال الملجم لهم، ثم لقنه الجواب الذي كان يجب أن يجيبوا به لو أنصفوا، وأقروا بالحق واعترفوا، وما ينبغي ان يعاملهم به وهم جاحدون، لا ينطقون بالحق ولا يذعنون، وذلك قوله ﴿ قل الله، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ أي قل أيها الرسول: الله أنزله — أي كتاب موسى — ثم دعهم بعد بيان الحق مؤيدا بالحجج والدلائل، فيما هم فيه من الخوض في الباطل، حال كونهم يلعبون كما يلعب الصبيان، فانما عليك البلاغ والبيان، وعلينا الحساب والجزاء وفي أمر الرسول بالجواب عما سئلوا عنه إيذان بأنهم لا ينكرونه ولا يقولونه لما في الانكار من مكابرة النفس، وما في الاعتراف من خزي الغلب والاقرار بما يجحدون من الحق. وقد قيل ان الامر بتركهم منسوخ بآية القتال، ورده الجمهور بأنه لا منافاة بينهما. ومن الجهل باللغة والشرع احتجاج بعض المتصوفة بالآية على شرعية ذكر الله تعالى بالاسماء المفردة كتكرار لفظ الله! الله! وغيره من الاسماء الحسنى، وهم يكررون هذه الاسماء ساكتة لانها ليست كلاما مفيدا، والاسم الكريم في الآية مرفوع باجماع القراء لانه جملة حذف أحد جزئيها لقرينة السؤال التي هي جوابه كما علمت

﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ﴾ أي ذلك ما لزمكم من أن التوراة كتاب أنزله الله على موسى عليه السلام أي أوحاه اليه ليكتب ويهتدى به، الى ان يُنزل بترقيته لاستعداد جملة البشر ما ينسخه، وهذا أي القرآن كتاب عظيم

القدر، — فتنكيره للتفخيم — أنزلناه على خاتم رسلنا محمد (ص) كما أنزلنا التوراة على موسى من قبل، مبارك بار كه الله أو بارك فيه بما فضل به ماقبله من الكتب في النظم والمعنى وبما يكون من ثباته وبقائه الى آخر عمر البشر في الدنيا، — من البركة وهي بالتحريك النماء والزيادة والسعة النافعة كبركة الماء ومن معاني المادة الثبات والاستقرار كبرك البعير — مصدق الذي بين يديه وهو ماتقدمه من كتب الانبياء، أي مصدق لانزال الله تعالى إياها في الجملة لا لكل مايعزى اليها بالتفصيل، وقد ذكر فيه بعض الكتب بأسمائها، والصحف مضافة الى أصحابها، وذكر بعض قواعدها وأحكامها، على أنه أنزل مهيمنا عليها، ناعيا على بعض أهلها تحريفهم لها، ونسيانهم لحظ عظيم منها، وقد تقدم شرح ذلك في تفسير سورة المائدة وماقبلها، ونقل الرازي في تفسير مبارك عن أهل المعاني ان معناه كثير خيره، دائم بركته ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة، ويزجر عن القبيح والمعصية. ثم فسر ذلك هو: بأن مافيه من العلوم النظرية فهو أشرفها وأكملها وهو العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، ومافيه من العلوم العملية لاتجد في غيره مثله سواء كانت أعمال الجوارح أو أعمال القلوب. ثم قال: وأنا قد نقلت أنواعا من العلوم النقلية والعقلية فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم اه أي علم القرآن بتفسيره فليعتبر بهذا من يضيعون جل أوقاتهم في طلب العلم الديني بعلوم الكلام وغيرها، مما يعدون الرازي الامام المطلق فيها، لعلهم يرجعون الى كتاب الله تعالى ويهتدون به، ويطلبون السعادة من فيضه دون غيره، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتمام تفسيره، وأن يجعله حجة لنا لا علينا بكمال التخلق به،

﴿ ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ قال الزمخشري ان هذا عطف على ما دل عليه صفة الكتاب كانه قال: أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدمه وللانذار. واختار السعد التفتازاني كونه عطفا على صريح الوصف أي كتاب مبارك وكائن للانذار — لان عطف الظرف على المفرد كثير في بابي الخبر والصفة، وفيه بحث. ويجوز أن يكون عطفا على مقدر حذف لدلالة القرينة عليه كفعل التبشير الذي يقابل الانذار، وقد جمع بينهما في أول سورة الكهف وآخر سورة مريم. وجرى البيضاوي على أن التعليل لمحذوف دل عليه المذكور أي ولتنذر أم القرى أنزلناه. وقرأ أبو بكر عن عاصم «ولينذر»

بالاسناد المجازي الى الكتاب، وأم القرى مكة والمراد أهلها بالاتفاق ، كنيت بهذه الكنية لانها قبلة أهل القرى أي البلاد التي يجتمع فيها الناس كبيرة كانت أو صغيرة، أو لان فيها أول بيت وضع للناس، أو لانها حجهم ومجتمعهم، أو لانها أعظم القرى شأنا في الدين، أو لانهم يعظمونها كالام، أو لان الارض دحيت من تحتها كما روي عن بعض مفسري السلف. والمراد بالاخير انها أول ماظهر من الارض اليابسة في الماء، ولا يعرف مثل هذا الا بوحي صريح . والمراد بقوله تعالى (ومن حولها) أهل الارض كافة كما روي عن ابن عباس ، ويقويه تسميتها بأم القرى ، ونحن نعلم الآن علم اليقين أن الناس يصلون متوجهين الى بيت الله فيها، في جميع أقطار الارض القريبة منها والبعيدة عنها، فهذا مصداق كونهم حولها، وزعم بعض اليهود المتقدمين وغيرهم أن المراد بمن حولها بلاد العرب فخصه بمن قرب منها عرفا، واستدلوا به على أن بعثة النبي (ص) خاصة بقومه العرب. والاستدلال باطل وان سلم التخصيص المذكور، فان ارساله صلى الله عليه وآله وسلم الى قومه لا ينافي ارساله الى غيرهم، وقد ثبت عموم بعثته في آيات أخرى كقوله تعالى في هذه السورة (وأوحي الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) أي وكل من بلغه ووصلت اليه هدايته ، وقد تقدم، وقوله في أول سورة الفرقان (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقوله في سورة سبأ (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا)

﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ﴾ أي والذين يؤمنون بالدار الآخرة أو الحياة الآخرة وما فيها من الجزاء على الايمان والاعمال ايمانا اذعانيا صحيحا أو استعداديا قويا سواء كانوا من أهل الكتاب أو من غيرهم يؤمنون بهذا الكتاب المبارك اذ بلغتهم أو اذا بلغتهم دعوته لانهم يجدون فيه أكمل الهداية الى السعادة العظمى في تلك الدار ، فمثلهم كمثل سفر ضلوا في مفازة من مجاهل الارض حتى اذا كادوا يهلكون جاءهم رجل بكتاب في علم خرت الارض وتقويم البلدان فيه بيان مكانهم وبيان أقرب السبل لمنجاتهم ، فانهم لا يتلبثون بقبوله والعمل به ، وأما المنكرون للبعث والجزاء فلا يشعرون بشدة الحاجة الى هدايته ، وفي هذا تعريض أو تصريح بسبب اعراض جمهور أهل مكة الاعظم عن هذا الكتاب الذي فيه

سعادتهم . و بالغ الرازي في قوله : يحتمل أن يكون المراد من هذا الكلام التنبيه على اخراج أهل مكة من قبول هذا الدين لان الحامل على تحمل مشقة النظر والاستدلال وترك رياسة الدنيا وترك الحقد والحسد ليس الا الرغبة في الثواب والرهبة عن العقاب وكفار مكة لما لم يعتقدوا في البعث والقيامة امتنع منهم ترك الحسد وترك الرياسة فلا جرم يبعد قبولهم لهذا الدين واعترافهم بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام اه و يعلم وجه المبالغة مما فسرنا به الجملة الشريفة ﴿ وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ يؤدونها في أوقاتها، مقيمين لأركانها وآدابها، فان الايمان بالبعث و بالقرآن يقتضي ذلك حتما، وخصت الصلاة بالذكر لانه لم يكن فرضَ عند نزول السورة من أركان العبادات غيرها، على انه لما كانت الصلاة عماد الدين ورأس العبادات، وعمدة الايمان بالتقوية وكمال الاذعان، كانت المحافظة عليها داعية الى القيام بسائر العبادات المفروضة، وترك جميع المحرمات المنصوصة ، ومحاسبة النفس على الشبهات والافعال المكروهة ،

رد المنار

على الناقد لذكرى المولد النبوي (*

﴿ الموضع الثامن — أولاد عبد المطلب ﴾

أنكر الناقد ذكرنا في (ص ١٣) بعض أولاد عبد المطلب دون بعض وقال ان المقام يقتضي استيعابهم لان الاقتصار في محل البيان يوهم الحصر . ونجيب عن ذلك بأن المقام لا يقتضي استيعاب ذكرهم لان الكتاب ليس في تاريخ بني هاشم وانما هو خلاصة سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته وكليات دينه ومزاياملته، وذكرنا من أولاد عبد المطلب والده (ص) وأعمامه الذين لهم شأن عظيم في سيرته وهم أبو طالب والعباس وحمزة (رض) ولكن العبارة قد توهم غير المطلع على تاريخهم ان هؤلاء جميع ولد عبد المطلب ولذلك نقحنا العبارة في نسختنا الخاصة التي يعتمد عليها في الطبعة الثانية هكذا « وولد لعبد المطلب أولاد كثيرون أشهرهم أبو طالب والعباس وحمزة

---

*) تابع لما في ج ٩ ويراجع النقد المردود عليه هنا في ص ٣٤٩ ج ٨

وعبد الله » . وما الحاجة الى ذكر كبراء المشركين الضالين بعد سكوتنا عن ذكر أشهرهم أبي لهب؟

﴿ الموضع التاسع — ما لقي (ص) من جحود قومه وإيذائهم ﴾

أنكر الناقد علينا اسناد الجحود والايذاء الى قوم الرسول (ص) واقترح ان يصحح بقوله : فلقي أشد الجحود والايذاء من زعماء قومه الذين أشقاهم الله . واحتج على ذلك بما قدمه من قيام كثير من قومه بمساعدته واجابة دعوته (ص) ونجيب عن هذا بما أجبنا به عن ذلك الذي قدمه وأهمه أننا اهتدينا في هذا التعبير بالقرآن المجيد فقد قال تعالى (وكذب به قومك وهو الحق) ولم يقل زعماء قومك. ولهذا الاستعمال نظائر فيه وفي كلام العرب ، ولا يعقل ان يشترط في لغة ما أن لا يسند الى القوم الا ما يفعله كل فرد من أفرادهم اذ لا يمكن العلم بهذا الا في قوم محصورين عملوا عملا شاهده منهم من أخبر عنهم وذلك نادر ، وانما المعروف انه يسند الى القوم ما يفعله الجمهور وان أنكره من لا يؤثر انكاره لضعفهم أو قلتهم ، وكذا ما يفعله البعض ولم ينكره الجمهور كقتل اليهود للانبياء وعقر ثمود للناقة. وتفصيل الرد على هذه المسألة يعلم مما يأتي في الكلام على الموضع العاشر والموضع الحادي عشر

﴿ الموضع العاشر — حمايته (ص) للقيام بالدعوة ﴾

أنكر الناقد علينا قولنا في (ص ٣١) أنه (ص) كان يدعو الناس لحمايته للقيام بهذا الامر فلم يحمه من قريش أحد ، واقترح أن تصحح العبارة أو تنقح بقوله : كان يدعو الناس الى أن يعضدوا من يحمونه للقيام بهذا الامر فحال زعماء الشرك دون ذلك الخ وهذا وما قبله من تلك العصبية ، وغرضه ان ينزه قريشا مما ذكر و يسنده الى زعماء الشرك على الابهام ، والجواب عنه يعلم مما تقدم بالاجمال ، وأما التفصيل فهو في كتب الحديث والسيرة النبوية أيها راجع القارئ يجد فيه ان قريشا اشتد ايذائها للرسول (ص) بعد هلاك عمه أبي طالب وانه خرج الى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه — وهذه عبارة ابن هشام عن ابن اسحق — وانه كان يعرض نفسه على القبائل فيردونه حتى أجابه وفود الانصار (رض) وفي حديث عمرو بن مسلمة عند البخاري ان العرب كانت تقول دعوه وقومه فان ظهر عليهم

فهو نبي صادق. ولو كان فيمن آمن من قومه قوة ومنعة لما احتاج الى ذلك، بل كان كان يدعو القبائل الى الاسلام فقط . وهذا أمر مشهور متفق عليه ولم نر قبل هـذا النقد الغريب أحدا بلغت منه العصبية لقريش حتى في شر ما كانت عليه في جاهليتها هذا المبلغ ، وسنزيد هذا بيانا في الرد على الموضع الآتي =

﴿ الموضع الحادي عشر — ثباته (ص) في أحد ومن ثبت معه ﴾

قلنا في الكلام على شجاعته وثباته عليه الصلاة والسلام من (ص ٣٧) انه ثبت وحده يوم أحد. فأنكر الناقد علينا ذلك وقال انه « يذكر انه ثبت معه بضعة نفر من قريش وبني هاشم (قال) وكذا في حنين وهذه منقبة لهم يحسن ذكرها أشعارا بمزايا الاصطفاء التي ذكرتموها اه

والجواب ان الاحاديث الصحيحة تثبت انه (ص) انفرد بالثبات في الغزوتين بالذات وثبت معه أفراد بالتبع ، فالاولى ان يعطف يوم أحد على يوم حنين أو يكتفي بالثاني فانه ثابت في الصحيح بلفظه فلا غرو ان يذكر في مثل هذا السياق ، وان قيدوه بما سيأتي للجمع بين الروايات ، ففي بعض ألفاظ حديث أنس من صحيح البخاري انه « لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع النبي (ص) عشرة آلاف من الطلقاء (هم الذين أسلموا في مكة يوم الفتح) فأدبروا عنه حتى (بقي وحده) فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما: التفت عن يمينه فقال: يا معشر الانصار ؟ قالوا لبيك يا رسول الله نحن معك ، ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الانصار : قالوا لبيك يارسول الله نحن معك» الحديث ، ويؤيده حديث البراء في الصحيحين وهو انه سئل : أوليتم مع النبي (ص) يوم حنين؟ فقال أما النبي (ص) فلا — الحديث — وفي رواية : أفررتم عن رسول الله (ص) يوم حنين فقال : لكن رسول الله (ص) لم يفر ... وفى رواية انه سئل : أتوليت يوم حنين ؟ قال: أما أنا فأشهد على النبي (ص) انه لم يول ولكن عجل سرعان القوم فرشقتهم هوازن وأبو سفيان ابن الحارث آخذ برأس بغلته البيضاء » الحديث . وأبو سفيان هـذا هو ابن عمه (ص) الحارث بن عبد المطلب وكان خرج الى النبي (ص) وهو قادم الى مكة فاتحا فأسلم وحسن اسلامه . وروى ابن أبي شيبة من مرسل الحكم

ابن عتيبة أنه لما فر الناس يوم حنين لم يبق معه (ص) الا أربعة نفر ثلاثة من بني هاشم ورجل من غيرهم: علي والعباس بين يديه وأبوسفيان بن الحارث آخذ بالعنان وابن مسعود من الجانب الايسر قال وليس يقبل نحوه أحد الا قتل . واختلفت الروايات فيمن ثبتوا معه على أقوال: ٩ أو ١٠ أو ١٢ أو ٨٠ أو دون ١٠٠ أو ١٠٠ بضعة وثلاثون من المهاجرين والباقون من الانصار وهذا الاخير تفصيل رواية أبي نعيم في دلائل النبوة ويروى عن العباس (رض) الله عنه انه أنشد في ذلك

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا
وعاشرنا وافى الحمام بنفسه لما مسه في الله لا يتوجع

قال الحافظ في الفتح ولعل هذا هو الثبت ومن زاد على ذلك يكون عجل في الرجوع فعد فيمن لم ينهزم وكان أول من ولى وانهزم الطلقاء من قريش الذين دخلوا الاسلام يوم الفتح وما كلهم بصادق . وقال العلماء ما كل من ولى يومئذ كان فارا من القتال بل منهم من كان متحرفا لقتال أو متحيزا الى جهة أو فئة لاجل القتال، و بعضهم جرفه التيار وهو لا يدري أين ذهب ، وقالوا في الجمع بين رواية ثباته وحده ورواية ثبات القليل معه ان هؤلاء كانوا في خدمته وكان هو المهاجم وحده وهم يتبعونه من ورائه حيث توجه فتوجه الى قتال المشركين ولما رأى ما رأى من اختلاط الحابل بالنابل نادى الانصار فلبوه فكان النصر بهم وان كان فضل المهاجرين وثباتهم لا ينكر ، وكانت مزية بني هاشم ان اكثر العشرة أو الاثنى عشر الذين ثبتوا معه أولا منهم . وكان منهم أبو بكر وعمر وابن مسعود وعثمان بن طلحة وما لبث جمهور الصادقين أن تبينوا الامر فصاروا يتراجعون

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما ان النبي (ص) لما حاز الغنائم العظيمة في هذه الغزوة قسمها في قريش بين المهاجرين الذين أسلموا قبل الفتح والطلقاء الذين أسلموا يوم الفتح ولم يعط الانصار شيئا فوجد بعضهم لذلك فقال بعضهم اذا كانت شديدة فنحن ندعى و يعطى الغنيمة غيرنا . وقال بعضهم يغفر الله لرسول الله (ص) يعطي قريشا و يتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فجمعهم (ص) في قبة أدم (جلد) وسألهم عما بلغه عنهم فسكت بعضهم وقال فقهاؤهم : أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم

يقولوا شيئاً وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا كيت وكيت. فقال (ص) « اني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم — وفي رواية ان قريشاً حديث عهد [1] بجاهلية ومصيبة واني أردت أن أجبرهم وأتألفهم — أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله (ص) الى بيوتكم ؟ قالوا بلى . وفي رواية انه خطبهم فذكرهم فضل الله به عليهم بالهداية والتأليف بينهم والغنى ثم قال « ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي (ص) الى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءا من الانصار ولو سلك الناس واديا وشعبا وسلكت الانصار شعبا لاخترت وادي الانصار وشعبها، الانصار شعار والناس دثار» الخ وقد بين العلامة ابن القيم الحكم في غزوة حنين في الهزيمة ثم في النصر وقسمة الغنائم ومنها انه (ص) لم يعط كبار المهاجرين من الغنيمة كالانصار، فيراجع في زاد المعاد ولخصه الحافظ في الفتح

وأما ثباته وحده (ص) يوم أحد فهو ظاهر قوله تعالى (اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم) فقد اتفقوا على انه نزل في هزيمتهم يومئذ قال الحسن البصري: فروا منهزمين في شعب شديد لا يلوون على أحد والرسول يدعوهم في أخراهم « الي عباد الله الي عباد الله» ولا يلوي عليه أحد. وروي نحوه عن ابن عباس وعطية الصوفي وقتادة الا الجملة الاخيرة فقد انفرد بها الحسن . وقد اختلفت الروايات فيمن ثبت معه (ص) وظاهر بعض الروايات الصحيحة أن الناس تولوا فلم يبق مع النبي (ص) غير أبي طلحة زيد بن سهل الانصاري يناضل عنه فكان ثباته معه لاجله فيصح ان يقال انه (ص) ثبت وحده يومئذ لان ثباته كان بشجاعته الذاتية وثبات أبي طلحة لانه رآه ثابتا فوجب عليه ان يناضل عنه بسهامه ولما رآه غيره فعلوا مثل فعله، فقد كان سبب الهزيمة الا كبر اشاعة قتل النبي (ص) ولم يلبث أن تراجع الناس اليه لما علموا ببقائه فداه أبي وأمي (ص) فالسابقون الى ذلك عدوا من الثابتين معه واختلف في عددهم لان كل راو ذكر من رآه أو علم بوجوده معه فلا تنافي بين رواياتهم، ففي حديث أنس عند البخاري: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي (ص) وأبو طلحة بين يدي النبي (ص) مجوّب (أي مترس) عليه بحجفة له وكان أبو طلحة

(١) كذا في النسخ الصحيحة واعتمد بعضهم ان أصله حديثو عهد

رجلا راميا شديد النزع (أي رمي السهم) كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول «أنثرها لابي طلحة» (قال) ويشرف النبي (ص) ينظر الى القوم فيقول أبو طلحة بأبي أنت وأمي لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك، ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم (هي أم أنس) وانهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما (١) تنقزان القرب على متونهما تفرغانه في أفواه القوم (٢) ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم ولقد وقع السيف من يد أبي طلحة اما مرتين واما ثلاثا

وفي حديثه عند مسلم انه (ص) أفرد في سبعة من الانصار ورجلين من قريش يعني طلحة وسعدا. وفي حديث عائشة عند أبي داود الطيالسي قالت كان أبو بكر اذا ذكر يوم أحد قال: كان ذلك اليوم كله لطلحة قال كنت أول من فاء (أي رجع) فرأيت رجلا يقاتل عن رسول الله (ص) قال فقلت كن طلحة (قلت) حيث فاتني يكون رجل من قومي وبيني وبينه رجل من المشركين فاذا هو أبو عبيدة فانتهينا الى رسول الله (ص) فقال «دونكما صاحبكما» يريد طلحة فاذا هو قد قطعت أصبعه الخ. وفي الصحيح التنويه بسعد بن أبي وقاص فانه كان يناضل عنه (ص) وهو يقول له «ارم فداك أبي وأمي» روى البخاري هذا عنه، وروى عن علي كرم الله وجهه قال: ما سمعت رسول الله (ص) يجمع أبويه لاحد غير سعد. يعني في الفداء. وروى عن أبي عثمان النهدي انه لم يبق مع النبي (ص) في بعض تلك الايام التي يقاتل فيهن غير طلحة وسعد. أي طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وهما حدثا أبا عثمان النهدي بذلك، وروى الحاكم عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص عن أبيها قال: لما جال الناس يوم أحد تلك الجولة تنحيت فقلت اذود عن نفسي فاما أن أنجو واما ان أستشهد فاذا رجل مخمر وجهه وقد كاد المشركون ان يركبوه فملأ يده من الحصى فرماهم.. واذا بيني وبينه المقداد فأردت أن أسأله عن الرجل فقال لي ياسعد هذا رسول الله (ص) يدعوك فقمت وكأنه لم يصبني شيء من الاذى وأجلسني أمامه وجعلت أرمي فذكر الحديث اه من الفتح وفيه اختصار وقد نقله دحلان في سيرته عن المستدرك بزيادة واختلاف في بعض الجمل ومن الزيادة

(١) الخدم جمع خدمة وهي الخلاخيل وقيل الخدمة أصل الساق. والسوق جمع ساق
(٢) أي ترفعان قرب الماء بخفة وسرعة على ظهورهما وتبقيان الجرحى يصبه في أفواههم

أن الرجل المحمر لما رمى المشركين بالحصى تراجعوا عنه الى الجبل ففعل ذلك مرارا. فظاهر هذا الحديث انه لما جاء سعد لم يكن عنده غير المقداد وما يدرينا ان المقداد لم يكن معه من أول الامر ،

قال الحافظ في شرح حديث أبي عثمان النهدي من الفتح : وعند ابن عائذ من مرسل المطلب بن عبد الله بن حنطب ان الصحابة تفرقوا عن رسول الله (ص) حتى بقي معه اثنا عشر رجلا من الانصار. والنسائي والبيهقي في الدلائل من طريق عمارة ابن غزية عن أبي الزبير عن جابر قال تفرق الناس عن النبي (ص) يوم أحد و بقي معه احد عشر رجلا من الانصار وطلحة[1] واسناده جيد وهو كحديث أنس الا أن فيه زيادة أربعة فلعلهم جاؤا بعد ذلك، وعن محمد بن سعد انه ثبت معه ١٤ رجلا ٧ من المهاجرين منهم أبو بكر و٧ من الانصار . ويجمع بينه و بين حديث الباب (أي حديث أبي عثمان النهدي) بأن سعدا جاءهم بعد ذلك كما في حديثه الذي قدمته في الحديث الخامس (أي حديث أرم فداك أبي وأمي) وان المذكور من الانصار استشهدوا كلهم فلم يبق غير طلحة وسعد ثم جاء بعدهم من جاء . وأما المقداد فيحتمل ان يكون استمر مشتغلا بالقتال ، وسيأتي بيان ما جرى لطلحة بعد هذا. وذكر الواقدي في المغازي انه ثبت يوم أحد من المهاجرين سبعة أبو بكر وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعد وطلحة والزبير وأبو عبيدة، ومن الانصار أبو دجانة والحباب بن المنذر وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمة وسهل ابن حنيف وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، وقيل ان سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة بدل الاخيرين، فان ثبت حمل على انهم ثبتوا في الجملة ، وما تقدم فيمن حضر عنده (ص) أولا فأولا والله أعلم اه كلام الحافظ في الجمع بين الاقوال ..

فعلم مما تقدم ان منقبة الثبات مع النبي (ص) يوم احد خاصة بمن علموا بموقفه ودافعوا عنه قبل ان يتراجع الجيش وانها لم تكن للمهاجرين وحدهم بل كان للانصار

---

(١) هو ابن عبيد الله وملخص تتمة الحديث أن النبي «ص» قال لما لحقهم المشركون وهو يصعد في الجبل « ألا أحد لهؤلاء ؟ فقال طلحة أنا يا رسول الله ، فقال « كما أنت ياطلحه » فاستأذنه رجل من الانصار فأذن له فقاتل حتى قتل . فاعاد «ص» القول فلباه طلحة فقال له كما قال أولا فاستأذن أنصاري آخر فأذن له، وما زال يعيد ذلك ويحبس طلحة حتى لم يبق معه غيره فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيبت أنامله . وفي رواية شلت أصبعه أو أصبعاه وأنه جرح بضعة وثلاثين جرحا

الحظ العظيم منها، وانه لم يكن مع المهاجرين أحد من بني هاشم غير علي كرم الله وجهه ورضي عنهم أجمعين

﴿ الموضع الـ ١٢ — مدة اقامته (ص) بمكة بعد التبليغ ﴾

قال الناقد: ذكرتم في الخاتمة انه صلى الله عليه وآله وسلم أقام بمكة بعد بدء التبليغ عشر سنين والمشهور أنها بضع عشرة سنة اه

ونقول ان هذه العبارة أظهر هفواته وأغربها فما ذكرناه هو المنصوص في كتب الحديث والسير، وما ذكره وادعى أنه المشهور لم يقل به أحد. وانما وقع الخلاف في الروايات الواردة في مدة اقامته بعد البعثة لا بعد التبليغ بين عشر وثلاث عشرة وجمع بينهما المحققون بأن المدة بين بدء الوحي وفترته وبين الامر بالتبليغ ثلاث سنين والمدة من بدء الامر بالتبليغ الى وقت الهجرة عشر سنين، بين ذلك الامام احمد في تاريخه وغيره من المحدثين واعتمده ابن اسحق وغيره من أصحاب السير. فهل بلغ من الناقد الفاضل التعصب لمكة كاهلها أن حفظ المدة من ابتداء الوحي بالرؤيا الصادقة الى وقت الهجرة حفظا إجماليا ثم نسي تحديدها وصفتها فجعلها بضعة عشر عاما من أول التبليغ، وعلى هذا يحتمل ان تكون سبع عشرة سنة أو تسع عشرة سنة وان تضاف اليها مدة الفترة فتكون ٢٢ سنة!! ومن المشهور الذي يحفظه العوام وصبيان المكاتب في مدارس الناقد الفاضل كغيرها ان النبي (ص) بعث على رأس الاربعين وتوفي في ربيع الاول من السنة الحادية عشرة للهجرة عن ٦٣ سنة، فسبحان من لا ينسى ولا يذهل

وقد أضاف الناقد الى هذا الموضع مسألة أخرى فادعى اننا لم نذكر في الكتاب دخول الاسلام في عهد القوة والمنعة بعد فتح مكة بدخول قريش فيه واتباع العرب لهم، ورجا ان نذكر ذلك في المستقبل لانه مظهر مزايا الاصطفاء. ونجيب بأننا ذكرناه بالاجمال، ولا يتسع هذا المختصر للتفصيل

ونحب أن نصرح لاخينا الناقد الفاضل بأن كتاب ذكرى المولد النبوي لم يوضع لشرح حديث الاصطفاء ومناقب قريش وبني هاشم فنذكر فيه كل ما يتعلق بذلك من تاريخهم في الجاهلية والاسلام وانما شرحنا الحديث شرحا لم نطلع لاحد على مثله لبيان حكمة بعثة النبي (ص) في خير بيت من بيوت الامة العربية « للرد بقية »

المتفرنجون والاصلاح الاسلامي

٣

الاسلام وأصول الشريعة

قد علم مما تقدم في المقالتين الاوليين ان من المتفرنجين من يدعو المسلمين الى هدم أصول الشريعة الاسلامية كلها والاستعاضة عنها بقوانين يضعها حكام كل قطر مستقل بآرائهم ، وان استمدوا أصوله وفروعه من قوانين أمم أخرى مخالفة للمسلمين في عقائدهم وآدابهم وعاداتهم ومصالحهم، وان من هؤلاء المتفرنجين من يلبس على المسلمين بما يدعوهم اليه من افساد دينهم وهدم شرعهم الذي هو أعظم مقومات أمتهم الرابطة بين شعوبهم بما يلبس دعوته من ثوب الاصلاح ، وان أغرب أحوالهم المتناقضة أن بعضهم يتكلم باسم الاسلام ويدعي امكان الجمع بينه وبين نبذ أصوله كلها استهجانا لها بزعم انها وضعت لقوم لم يرتقوا الى الكمال الانساني الذي ارتقى اليه هؤلاء المتفرنجون ، ومن أهم أصوله اباحة السفاح بالبغاء أو اتخاذ الاخدان لكل عذراء تجاوزت السنة الرابعة عشرة أي صارت بنيتها مستعدة لهذا التمتع المفسد للصحة الجالب للادواء القاتلة المقلل لنسل الامة المشوه لآدابها الموقع للعداوة والبغضاء بين أفرادها وأسرها .

جهر بهذا صاحب الخطبة أو الرسالة التي نرد عليها في هذه المقالات بما تقدم بيانه في المقالة الثانية مع الوعد بالرد عليه واننا نبدأ الرد بكلمة وجيزة في بيان ما يناسب المقام من تعريف ما يكون به المسلم مسلما ليعلم هل يمكن الجمع بين الاسلام وبين ما جاء به ودعا اليه أحمد صفوت أفندي من حيث هو مسلم وان كنا قد بينا هذا في المنار من عهد قريب لئلا يقع بعض الجاهلين فيما يعده جميع المسلمين كفرا وهو لا يدري فنقول

الاسلام والكفر

ان الاسلام الصحيح عبارة عن الاذعان النفسي والخضوع الفعلي لجميع ما جاء به محمد خاتم النبيين والمرسلين (ص) عن الله تعالى مع الاعتقاد الجازم بأن كل ذلك حق وخير وان كل ما يخالفه باطل وشر ، سواء كان ذلك الجزم بدليل قطعي أو اقناعي

أو بغير دليل كما هو رأي الجمهور في صحة ايمان المقلدين. فمن أذعن بالفعل ظاهرا وهو غير مؤمن بما ذكر فهو منافق، ومن اعتقد وأيقن ولم يذعن فهو جاحد مجاهر، كما قال تعالى في قوم فرعون (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وان الاذعان والخضوع لبعض ماجاء به الرسول دون بعض كفر كالايمان ببعضه دون بعض، قال تعالى فيمن خالفوا بعض أحكام كتابهم الدنيوية (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) ولذلك أجمع أهل الحل والعقد من الصحابة بعد التشاور على قتال مانعي الزكاة وعدوهم مرتدين عن الاسلام. وليس منه مخالفة بعض الاوامر والنواهي بجهل أو تأول أو جهالة كغلبة غضب أوشهوة مع الاذعان النفسي في عامة الاحوال، والعملي فيما سوى هذه الشواذ، فان الجاهل يرجع اذا زال جهله بالعلم الصحيح، والفاسق يتوب اذا زالت جهالته بذكر الله وتذكر الوعد والوعيد (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب)

فهذا هو الاسلام الذي لا يعتد المسلمون بدين من خالفه ولا يعدونه منهم، فلا يرثونه ولا يرثهم، ولا يحل لهم ان يزوجوه مسلمة منهم، ولا أن يدفنوه في مقابرهم. ثم ان ما جاء به الرسول قسمان قطعي الرواية والدلالة وغير قطعي، وقد بينا حكم كل منهما في تفسير الجزء الماضي من المنار. ومن القطعي المعلوم من الدين بالضرورة ان محمدا (ص) خاتم النبيين ويلزمه أن شرع الاسلام باق ما بقي البشر لا ينسخه شيء، وقد أمر الرسول (ص) من كان في عصره من المسلمين ان يبلغوا من بعدهم، ولم يفرق أحد من سلف المسلمين وخلفهم بين من بلغتهم دعوته (ص) منه في عصره، ومن بلغته من غيره بعده. فمن يدعي الاسلام ويزعم ان ماجاء به الرسول من أحكام الشرع لم يكلف اتباعه فيه كله الا الذين كانوا في زمنه لانه كان حاكمهم، وأن من بعدهم لا يكلفون الا اتباع ما تشرعه لهم حكامهم سواء كانوا منهم أو من غيرهم، وانه لا فرق بين هؤلاء الحكام وبين الرسول في كونهم شارعين يجب اتباع أحكام شرعهم في الامور الشخصية والمدنية والتأديبية على سواء وينسخ المتأخر منهم ما شرعه من قبله — من يدعي ماذكر — فقد جاء بدين جديد معارض لدين الاسلام مع انتحاله لاسمه،

ولا يعتد أحد باسلامه الا من استجاب له وقبل دعوته، كما فعلت فرق الباطنية قديما وحديثا فانهم حرفوا أصول الاسلام وفروعه وشرعوا من الدين مالم يأذن به الله، فلم يعتد المسلمون بانتحالهم لقب الاسلام في الظاهر بل سموهم بأسماء أخرى كالاسماعيلية والدروز والنصيرية والبابية والبهائية، ولم يبح مسلم سني ولا شيعي ولا خارجي أكل ذبائحهم ولا تزويجهم ولا التزوج منهم، لانهم أبعد عن الاسلام من أهل الكتاب الذين يبيح السواد الاعظم من المسلمين أكل ذبائحهم والتزوج منهم، فكيف بالتوارث الذي لا يحل بين المسلمين وأهل الكتاب؟ فيجب على قائل ذلك القول وعلى من صدقه أن يرجعوا عنه اذ قد قالوه عن جهل بحقيقة الاسلام، وعسى ان يكونوا قد فعلوا، فنحن أحرص الناس على عدم اخراج أحد ينتمي للاسلام من حظيرته، وانما نبين الحقيقة عند الحاجة في نفسها، ولا نحكم على شخص معين بها ولا بلوازمها، وانما نعين الاشخاص على الحكم على أنفسهم، وعلى معرفة حكم الله فيمن يعرفون حالهم، سواء كان في مسألة الشارع والتشريع أو في غيرها. ومن الاصول المجمع عليها بين المسلمين أن لاحكم لغير الله بعد ورود شرعه، وسيأتي الكلام في ذلك ومن كان في قلبه شبهة من ذلك القول الناقض لهذا الاصل فيجب عليه ان يبحث حتى يزيلها، ويطمئن قلبه بوجوب اتباع الرسول (ص) في جميع ما ثبت عنه من أمر الشرع وسيرد الشبهات التي ذكرها احمد افندي صفوت في بحث الكتاب والسنة

بعد هذه المقدمة التي وفينا فيها بوعدنا في آخر المقالة الثانية. نبدأ بنقل كلام أحمد أفندي صفوت على الترتيب الذي ذكرناه في تلك المقالة فنقول:

القياس من أصول الشريعة

القياس ليس من الاصول التي أجمع عليها المسلمون بل الفقهاء فيه فريقان أحدهما يثبته وهم الجمهور ومنهم المقتصد فيه والقائل بانه ضرورة تقدر بقدرها، ومنهم المقتصد فيه والمبالغ في التوسع، وثانيهما ينكره وهم الظاهرية. وقد بينا حجج الفريقين وتحقيق الحق في ذلك في تفسير قوله تعالى (٥: ١٠٤ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) الآية[1] والقياسيون لم يقولوا بالقياس الا بما ظهر لهم من

(١) يراجع في المجلد ١٨ من المنار وفي ج ٧ من التفسير وهو بحث يستغرق ٧٥ صفحة

الدليل عليه من الكتاب والسنة. والظاهرية لم ينفوا القياس الا لاعتقادهم أن نصوص الكتاب والسنة وقواعدهما مغنية عنه

وأما غلاة المتفرنجين فانهم يردون القياس لانه مبني على كتاب الله وسنة رسوله لا لانهم يستغنون عنه بنصوصهما كالظاهرية من علماء السنة، بل هم يرغبون عنهما بالذات وعنه بالتبع لهما، ويستبدلون بأصولها وأحكامها أحكاماً أخرى يقيسون عليها، صرح بذلك أحمد افندي صفوت في خطابه كما نقلناه في المقالة الثانية عن ص ٢١ من رسالته، قال

« أما القياس فنصرف النظر عنه لاننا سنقيس بأنفسنا على أحكام الاصول الاخرى » أي الاصول التي تشرعها لهم حكوماتهم كاصل الحرية الشخصية في القانون المصري، وتقدم بيان ذلك والتمثيل له في المقالة الثانية. ولا نطيل القول في هذه المسألة لانها غير مقصودة لذاتها، ولان رده القياس الفقهي ليس لدليل شرعي ولا عقلي على فساده ولا لكونه ينافي الحق والعدل، وسيأتي له ذكر في الكلام بعد.

الاجماع من أصول الشريعة

قد اختلف علماء أصول الفقه الاسلامي في الاجماع الاصطلاحي الذي عرفوه بقولهم «هو اتفاق مجتهدي أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته على أمر من الامور» فقال بعضهم بعدم امكانه و بعضهم بعدم امكان العلم به و بعضهم بعدم امكان نقله الى من يحتج به و بعضهم بعدم كونه حجة، والامام أحمد والظاهرية لا يحتجون الا باجماع الصحابة، ويستدل العلماء الذين يحتجون بالاجماع الاصطلاحي — وهم جمهور سائر المذاهب — بآيات من القرآن وأحاديث فهموا منها اثبات حجية الاجماع أدناها مرتبة في الرواية حديث ابن عمر « لن تجتمع أمتي على الضلالة » كما رواه الطبراني في الكبير عنه، أو « لا تجتمع أمتي على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ الى النار » كما رواه الترمذي عنه، وقد نوزعوا في دلالة ما استدلوا به على اجماعهم الاصطلاحي. وقد حررنا بحث الاجماع وما يقوم الدليل عليه منه في تفسير قوله تعالى (٤ : ٥٨ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) وبينا هنالك ان أصول الشريعة الاسلامية أصح

وأعدل وأفضل من جميع أصول الحكومات الشورية التي يسمونها في عرف هذا العصر بالنيابية و بالدمقراطية (١)

وأما علاة المتفرنجين فيردون اجماع المسلمين من الصحابة وغيرهم بغير علم ولا فهم لانهم يرغبون عن كل ماهو اسلامي قديما كان أو حديثا الى قواعد تشريعهم الجديد الذي نذكر بعض مسائله في الاحكام الشخصية من هذا البحث لا لمخالفة لاجماع للعدل أو للمصلحة فشأنهم فيه شأنهم في القياس كما تقدم آنفا

قال لسانهم أحمد افندى صفوت في خطابه المعهود : [وأما الاجماع وحجتهم فيه حديث « لا تجتمع أمتي على ضلال (٢) » فنقسمه الى قسمين اما اجماع العلماء أو حكم ولي الامر السابق و بحسب قواعد نظامنا القضائي لا تقيد برأي مهما أجمع عليه الشراح الى أن نوافق على اجماعهم] اه فجعل حكم ولي الامر السابق داخلا في معنى الاجماع وما هو منه فى شيء ، وفسر اجماع العلماء بما يتفق عليه شراح كتب الفقه من الآراء — كما هو المتبادر من عبارته — وهذا لاطلاق باطل كما علم من تعريف الاجماع الذي ذكرناه آنفا . ثم انه زعم ان المتأخرين هم الذين جعلوا الاجماع حجة رضاء منهم بحكم السابقين (قال) « ونحن نرفض حكم المتأخرين والسابقين » فهو بعد قوله ان علماء المسلمين يستدلون على حجية الاجماع بالحديث الذي ذكره ولم ينازع في دلالته على ذلك يرفضه بصفته مسلما و يدعى أن المتأخرين وحدهم هم الذين جعلوه حجة . وذلك دليل على انه لا يعرف معنى الاجماع ولا تاريخه ، وانه لا يفهم معنى ما يقوله وما يكتبه بالعربية ، دع ما فيه من الخطأ والغلط اللغوي ، فهو اذا لا يرفض شيئا من أصول الشريعة — دع فروعها التي هي تبع لها في الرفض — لانه لا دليل عليه ، ولا لأن دليله معارض بما هو أقوى منه ، ولا لانه غير مطابق لمصلحة المسلمين في هذا العصر ، وان كان هو وأمثاله يزعمون ذلك بغير علم ، بل لانه يستبدل بما شرع الله و بكل ما يبنى عليه ما يشرعه الناس وان اختلف في كل قطر اسلامي باختلاف أفكار الشارعين أصحاب

(١) يراجع ذلك في مجلدي المنار ١٣ و١٤ وفي الجزء الخامس من التفسير
(٢) صوابه ضلالة كما تقدم آنفاً

السلطة والنفوذ فيه بحيث يكون للمسلمين عشرات من الشرائع في أحكام الزواج والطلاق وما يتبعهما وفي سائر الاحكام حتى يخرجوا عن كونهم أمة واحدة كما سماهم الله تعالى . ومن يرفض أصول الشريعة الاسلامية وجميع أحكام أهلها من المتقدمين والمتأخرين لما ذكرنا من العلة كيف يبالي بتفريق شمل الامة وتقطيع جميع الروابط والمقومات التي كانت بها أمة؟ ومن كان مكانه من الاسلام والعلم بمصالح أهله ما ذكرنا فهل يستبعد منه أن يعد هذا الافساد اصلاحا وطنيا كما نسمع من أفواه هؤلاء المتفرنجين كثيرا ونرى مثله فيما يكتبون أحيانا؟

قلنا ان فريق الغلاة من هؤلاء المتفرنجين يرفضون الاجماع وهو اتفاق علماء الشرع المستقلين من المسلمين لانه اجماع المسلمين ، وما ذاك الا انهم مرقوا من دينهم ولا يحبون ان يبقى لهم به صلة ما بل يحاولون افساد عقيدة كل من استطاعوا فتنته من أهل هذا الدين كما يفعل أمثالهم من دعاة الاديان أودعاة الالحاد

قلنا انهم يرفضون القياس الاسلامي أيضا لانه يستند على نصوص الكتاب والسنة التي لا يدينون بهما ولكنهم يجيزون القياس على ما يستحسنون من نصوص القوانين الوضعية . كما انهم يستحسنون العمل بما يتفق عليه علماء هذه القوانين من أي ملة كانوا ، ومن قبل رأي الافراد من قوم فهو أجدر بقبول رأي الجماهير منهم

وقلنا انهم لا يرفضون ذلك بدليل عقلي ولا شرعي فيكون موضوع المناقشة بيننا وبينهم كما وقع بين من قبلنا من سلفنا كالظاهرية والقياسية ونفاة الاجماع الاصولي على اطلاقه ومثبتيه وكما يقع الآن بين المستقلين في الفهم منا .

وأما غير الغلاة المرتدين من المتفرنجين فيوجد فيهم من يجد في صدره حرجا من الفقه الاسلامي اذ يرى كثيرا من فروعه غير معقولة أو غير عادلة ويرى ان قائليها لا حجة لهم عليها غير أقيسة لهم يعتقد أنها آراء لهم أو مفهومات لعبارات كتب مذهبهم لا يظهر لها أصل من نصوص الكتاب والسنة ، أو دعوى اجماع لم يثبت باتفاق المحدثين والمؤرخين على نقله، ولا حجة على جعله كالنص الذي لا سبيل الى نقضه،

ويوجد فيهم من قد ينكر كون القياس حجة ، أو من ينكر كثيرا مما ذكروا له مسالك العلة ، ومن ينكر حجية الاجماع أو إمكانه أو امكان العلم به ، وأكثر منهم من ينكر كونه حجة دائمة باقية كالكتاب والسنة ، وكون آراء الفقهاء الاجتهادية

شرعاً ثابتا يجب العمل به وان ظهر لنا من النصوص خلافه ، أو ثبت بالتجربة ضرره في مصالح الامة الشخصية أو المنزلية ، أو شئونها الاجتماعية والسياسية

ويوجد فيهم وفي غيرهم من مستقلي الفكر من يظنون بادي الرأي ان أكثر أحكام الفقه القضائية والسياسية آراء للمجتهدين إن كانت كلها أو جلها موافقة للمصلحة في الزمن الذي وضعت فيه فقد صارت غير موافقة لمصلحة المسلمين أنفسهم في هذا الزمن

وفي كل فريق ممن ذكرنا مقتصد في نقده لهذا الفقه ومسرف ، ومستدل ومقلد، ومن المستدلين الواسع الاطلاع ، والحافظ لقليل مما ينتقد من الاحكام ، ومنها بعض الاحكام الشخصية التي ألفت اللجنة المعهودة لاجلها . ومن يراجع مجلد المنار الرابع يرى فيه مناظرة في نقد الفقه الاسلامي بين كاتبين من أشهر الكتاب المعتدلين

وقد مر على أول بحث حضرته بمصر في هذه المسألة زهاء عشرين سنة وكان في دار سعد زغلول (باشا) ولم أنس كلمة قالها قاسم بك أمين لمن ذكر في الامثلة المنتقدة مسألة الربا وهي : ان تحريم الربا منصوص في القرآن وكل ما نص في القرآن يجب أن يؤخذ بالتسليم من غير بحث، وإنما نبحث في أقوال الفقهاء. اه وبعد هذا بسنة أو سنتين زرت الاستاذ الامام في يوم عيد فألفيته في مكتبه داخل الدار مع أحمد فتحي زغلول (باشا) محتجبا عن جماهير المهنئين الذين يجلسون في حجرة الاستقبال ريثما يشربون القهوة وينصرفون، فلما جلست اليهما وجدتهما يبحثان في مسألة الاجماع ورأيت الاستاذ يوافق جليسه في بعض ما ينكره من مباحث هذه المسألة، فقلت لهما اني أفهم في الاجماع معنى آخر غير المشهور في كتب الاصول وهو اتفاق أهل الحل والعقد كلهم أو أكثرهم مجتمعين على ما لا نص عليه من الامور المتعلقة بمصالح الامة القضائية أو السياسية سواء كان في استنباط الاحكام لها أو في تنفيذها وأرى ان ذلك ينطبق على ادلة الاجماع ويوافق عمل السلف كجمع الخلفاء الراشدين أهل العلم والرأي للتشاور فيما لم يرد فيه نص من الكتاب ولم تجر به سنة نبوية ، وفي مبايعة الخلفاء . فقال الاستاذ ان هذا المعنى صحيح لا اشكال فيه ولا اعتراض عليه واستحسنه أحمد فتحي غاية الاستحسان . وقد بينت هذا المعنى بعد ذلك بما كتبته في المقالة الثالثة عشرة وهي المقالة الاخيرة من مقالات (محاورات المصلح والمقلد) في بحث الوحدة

الاسلامية في السياسة والقضاء المنشورة في مجلد المنار الرابع وقد اطلع عليه الاستاذ الامام يومئذ فأعجبه، ثم زدته بيانا في تفسير (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) المنشور في أواخر المجلد الثالث عشر وأوائل المجلد الرابع عشر من المنار بعد ان نقلت عن الاستاذ الامام قوله انه اهتدى اليه بعد البحث في المسألة والتفكر فيها عدة سنين ، وانه كان يظن انه لم يسبق اليه حتى رأي النيسابوري صرح به في تفسيره. وقد ذكرت هنالك ان النيسابوري أخذه عن الرازي وزاده بيانا ثم أيدت قولها ووضحته بكلام السعد التفتازاني في مسألة انعقاد المبايعة بالإمامة. وقد حققت في المسألة ن الاجماع في الاسلام في معنى مجالس نواب الامة في القوانين الافرنجية الا انه أكمل منها. والقياس وهو ركن الاجتهاد للافراد معهود عندهم أيضا يجري عليه القضاة ووكلاء الدعاوي وشراح القوانين، فالقوم قد اقتبسوا من أصول الفقه الاسلامي وفرعه ما ارتقت به قوانينهم ونحن أهملنا وقصرنا ورضينا بالجهل الذي هو التقليد حتى صار أهل شرعنا ينفرون و يفرون منه و يقلدون الافرنج أو يجتهدون في قوانينهم، ولو لم يحرمهم علماء السوء الجامدون وأمراء الجهل الظالمون من الاجتهاد في شرعهم ، لما فروا الى شرائع الاجانب وقوانينهم ،

ألا انه لا علاج لردة بعض المرتدين، ولا بتداع كثير من المبتدعين، ولا لضعف سائر المتفرنجين الذين لا يزالون مؤمنين، الا سلوك سبيل الاستقلال في فهم الشرع، و بيان مكانته من المساواة والعدل، وموافقته لمصالح الناس، من جميع الاجناس، وشرح معنى قولنا انه أعظم مقومات هذه الامة تبقى ببقائه وتزول بزواله، وتفصيل ما يتبع ذلك من مقاصد الذين ربوا هؤلاء المتفرنجين على كراهته، وهم لا يشعرون بعلة ذلك ولا بعاقبته، فاذا ظل صنف الفقهاء والمتكلمين منا على جمودهم ، وايجاب تقليد ما اختاره المقلدون المتأخرون الذين يعالجون مصنفاتهم ، فسيغلبهم هؤلاء المتفرنجون واعوانهم على هدم ما بقي من شرعهم ودينهم، بل يجعلونهم أعوانا لهم على هذا الهدم ، على جهل بذلك أو على علم ، وها نحن أولاء نرى مبدأ تشريع جديد ، ووضع طريف يلبس بتليد ، يصيح بجانبيه مثل هذا الصوت الشديد، الذي أوجب هذا الرد العتيد ، وقد رأينا من أصحاب العمائم من نصر ذلك القصد الخفي ، ولم نر منهم من أنكر هذا الصوت الجلي فأين الغيرة على الدين؟ انا لنراها تظهر على أشدها في تضليل من يدعو الى هداية

الكتاب والسنة ولم نرها أثر في تخطئة من يدعو الى ترك كل من الكتاب والسنة فان كان ذنب الاول انه يؤثر الاجتهاد على التقليد، فالثاني يهدم كلا من الاجتهاد والتقليد، وزال اعتذار الجامدين على التقليد بأن كلمة الدهماء مجتمعة عليه. فصار سببا للتفرق في الدين والارتداد عنه

واذا كان الاجماع — وهو ما يقرر باجتهاد جماعة أهل الحل والعقد، — والقياس — وهو ما يستنبطه بالاجتهاد أفراد أهل العلم، هما أرقى ما اقتبسه منا الافرنج، وسبقنا اليهما ثابت بالنقل والعقل، وظهر انه لا علة لرفض من يرفضهما من المتفرنجين المارقين، الا كونهما من هداية الدين، وتقييدهما بنصوص الكتاب والسنة، وكونهما من آثار أئمة هذه الامة، فننتقل الى الكلام معهم في أصلي الكتاب والسنة، لنتبين هل ينبذونهما لذاتهما، أم لعلل يستنكرونها فيهما، وموعدنا في ذلك المقالة الرابعة

الشيخ عبد الكريم سلمان

في أثناء شهر شعبان من هذا العام فجع القطر المصري بعالم من أنفع علمائه، وأديب من أبرع أدبائه، وكاتب من أبلغ كتابه، وقاض من أعدل قضاته، أحد أعضاء النهضة الاصلاحية الحالية (الشيخ عبد الكريم سلمان) تغمده الله برحمته

ولد الفقيد في قرية (جنبواي) احدى قرى مديرية البحيرة من أبوين كريمي الاخلاق، أما الوالد فألباني الاصل، وأما الوالدة فعربية المحتد، وكان بين بيته وبيت الاستاذ الامام تعارف أهل الجوار، فلما جاورا في الازهر تعاشرا معاشرة الاهل لا الطلاب، ولما خرجا الى ميدان العمل تعاونا تعاون أخلاء الاصحاب، المتفقين في الآراء والمقاصد والآداب، وعاشا ما عاشا متوادين موادة الالدات والاتراب، ثم ما فرق الموت بينهما مدة التفاوت في العمر حتى جمع بينهما تحت التراب، فعسى أن يكون هذا مصليا لذلك المجلى الى دار الثواب، وأن يجمعنا الله بهما في دار الكرامة يوم المآب

لعل الشيخ عبد الكريم كان أذكى ذهنا من الاستاذ الامام، ولكن هذا فقه ففاته في الجد والاجتهاد، وتسديد سهام الارادة الى كل مراد، والعادة أن أكثر الاذكياء يكونون قليلي العناية والاجتهاد في الاعمال العقلية التي توكل الى رأيهم واختيارهم

(كطلب العلم في مثل الازهر) والسبب الخفي لذلك انهم لا يشعرون بما يشعر به من دونهم في الذكاء الى التعب في التحصيل ، الا من كان له من نفسه حافز يحفزه الى مقصد عظيم ، وكان الاستاذ الامام من هؤلاء فانه طالب العلم بباعث ديني قوي نماه في قلبه سلوك طريق التصوف قبله كما فصلناه في ترجمته فكان وهو يسكن مع الشيخ عبد الكريم في حجرة واحدة يقضي جل ليلته في المطالعة ويحاول الشيخ عبد الكريم هو وغيره أن يحملوه على مشاركتهم في سمرهم وما يلهون به فيه فيعيبهم ذلك منه، ولو كان للشيخ عبد الكريم مثل جده وعزيمته لكان للامة منه نابغة طار صيته في الاقطار ، وبلغ من الشهرة ما تبلغه شمس النهار ، على أنه مشى الهوينا فسبق الاقران ، فكان الاستاذ الامام البدء من مريدي السيد جمال الدين وكان هو الثنيان [1]

كان أول عمل تولاه الاستاذ الامام هو رئاسة تحرير الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) وادارة المطبوعات فكان الشيخ عبد الكريم عضده الاول في قلم محرريها ثم كان خلفه بعد اعتزاله العمل باعتقاله مع زعماء العرابيين إثر احتلال الانكليز لمصر ، فوضع اسم (عبد الكريم سلمان) في ذيل الجريدة موضع اسم (محمد عبده) وظل في عمله هذا الى أن ألغي القسم الادبي من الجريدة واستغني عن عمله في المطبوعات بعد عودة الاستاذ الامام من منفاه

ولما شرع الاستاذ بعد استقراره بمصر في صلاح التعليم في الجامع الازهر كان الشيخ عبد الكريم ساعده الايمن في ذلك من أول العمل الى آخره، وهو هو مؤلف كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر — في عشر سنين) كتبه عقب استقالتهما من مجلس ادارة الازهر وطبعناه ونشرناه قبيل وفاة الاستاذ الامام، بعد اطلاعه عليه واجازته له، ومنه يعلم قيمة عمل الشيخين في اقامة هذا الركن العظيم من أركان الاصلاح الاسلامي، وعبارته تشهد لهما بما كانا عليه من الاخلاص والتواضع والبعد عن التبجح والدعوى

فكفى الشيخ عبد الكريم فضلا وكرامة ان كان عشيرا وديدا للاستاذ الامام في أول نشأته العلمية وعضوا عاملا معه في النهضة الاصلاحية الاولى التي توسل اليها

---

(١) تطلق العرب كلمة البدء على السيد الاول في السيادة والتقدم والثنيان على التالي له في ذلك قال الشاعر في تفضيل قومه على غيرهم

ثنيانا ان أتاهم كان بدءهم وبدؤهم ان اتانا كان ثنيانا

بادارة المطبوعات . وفي الحركة الاصلاحية الثانية التي توسل اليها باصلاح التعليم في الازهر، وتفصيل ذلك في سيرة الاستاذ الامام. وقد تخرج مع الاستاذ الامام على يد السيد جمال الدين كثير من الازهريين في الافكار والكتابة والخطابة كان في مقدمتهم ابراهيم بك اللقاني، واشتغل معهما في المطبوعات أفراد منهم أشهرهم من الاحياء سعد باشا زغلول وابراهيم بك الهلباوي ومن الموتى سيد افندي وفا، ولكن ترك كل أولئك زي العلم الديني ،واستبدلوا به الزي الافرنجي العثماني،فكان اكثرهم بعد الثورة العرابية محامين في المحاكم الاهلية، ولم يجد الاستاذ الامام من يشتغل معه في الاصلاح بعد العودة الى مصر الا من حافظ على الزي الازهري وهو الشيخ عبد الكريم . وبهذا يعلم تأثير تغيير الزي في الشؤون الاجتماعية

بعد خروج الفقيد من خدمة المطبوعات جعل عضوا (قاضيا) في المحكمة الشرعية العليا فكان فيها قدوة صالحة في تحري العدل، والاستقلال في الرأي،ومن آيات ماوصفناه به من شدة الذكاء انه ولي القضاء بمذهب الحنفية في المحكمة العليا الاستئنافية وهو شافعي لم يتمرن على الاعمال والاحكام القضائية في المحاكم الابتدائية، فلم يعجزه أن يضرب مع أكبر القضاة بكل سهم، ويكون سباقاً الى اصابة الحق والعدل في الحكم ، وكان له من الشهرة في المحكمة ماهو جدير به . نعم انه كان قد سبق له دراسة بعض كتب الحنفية في الفروع والاصول كما شهد له الشيخ عبد القادر الرافعي وغيره من كبار فقهائهم

ولئن وجد في زمن الفقيد أفراد يساهمونه في فضيلة استقلال القضاء ، وآحاد يجارونه في حلبة الادب والانشاء، وآخرون يسبقونه بالتوسع في بعض العلوم ، أو الاغراب في بعض شوارد الفنون ، فقد كاد يكون نسيج وحده في أفضل مايتفاضل فيه الناس، بعد ما يتعلق بالباطن من معرفة الله ، وكمال الايمان والاخلاص، أعني مكارم الاخلاق ، وما يلزمها من محاسن الاعمال والآداب ، فقد كان ممتازاً بالوفاء لاخوانه، والاخلاص لاخدانه وخلانه ، والمروءة والنجدة في قضاء حاجات قاصديه، وان لم يكونوا من أصحابه ومحبيه، وأما أصحابه فكان أسبقهم الى عيادة مريضهم، وتشييع ميتهم، واصلاح ذات بينهم، وتهنئتهم بكل نعمة تحدث لهم، وكان ربما يسافر من بلد الى آخر للعتبى بين متغاضبين ،والتأليف بين متباغضين، وازالة الجفاء بين أسرتين؛

وكان له من الحذق في الاستعتاب ما يسل به السخائم ، ومن اللطف في العتاب ما يستخرج به الحفائظ، فلاتكاد تتعاصى حية على رقيته،أو تأبى عقدة أن تنحل بنفثته

ومن سوء حظ المسلمين ان أسرع اليه اليأس من صلاح حالهم ، فأقعده في آخر عمره عن مساعدة أعمال الاصلاح العام لهم ، وقد كان الاستاذ الامام عناه بقوله لي في أول العهد بمقدمي الى مصر : ان لي أملا كاملا وهنا رجل آخر له نصف أمل . ثم لم يلبث هذا النصف أن ذهبت به وقائع الايام ، حتى كان يصرح بذلك ويحتج علي وعلى الاستاذ الامام ، قائلا سترى ما ينتهي اليه أملكما في هذه الامة الميتة ، وما يبلغه اصلاحكما من هذه الشعوب الفاسدة ، وله كلمة في هذا المعنى قالها لاستاذنا الشيخ حسين الجسر ، ألبسها كهادته ثوب الدعابة والهزل ، وقد كنا بدار الاستاذ الامام ، نتحدث فيما أشيع من رغبة الامة اليابانية في التدين بدين الاسلام ، قال الشيخ حسين الجسر : اذاً يرجى ان يعود الى الاسلام مجده ، قال الفقيد دعهم فإني أخشى اذا صاروا منا ، أن نفسدهم قبل ان يصلحونا . ذكرت هذا في ترجمة الرجل لما فيه من العبرة المحزنة . والى الله المشتكى ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

كان الفقيد طويل القامة عظيم الجثة قوي البنية فاعتراه منذ سنتين مرض في المعدة طال عهده وما نقه منه الا وقد ذهب سمنه ، وهزل بدنه ، وضعف قلبه ، حتى توفي فجأة بسكتة قلبية ، وكان يعزى أصدقاءه آل محمود في بلدة الرحمانية ، فنقلت جثته الى مصر ، وصلى عليه في الجامع الازهر ، ودفن بجوار صديقه الاستاذ الامام ، تغمدهما الله بالرحمة والرضوان ، وقد حضر تشييع جنازته وليالي مأتمه من لا يحصى من العلماء والوجهاء ووفود البلاد من الوجهين البحري والقبلي ، مظهرين لمكانته العالية من أنفسهم ومعزين لنجله المهذب حسان افندي ، وللفقيد مقالات كثيرة في موضوعات شتى متفرقة في الصحف — كالوقائع المصرية ومجلة الآداب وجريدتي المؤيد والمقطم ، ولكن يقل فيها ما هو موقع منه أو معزو اليه ، وفي الاستطاعة جمع طائفة كبيرة منها ان وجد من يعنى بذلك . فعسى أن يأذن نجله بذلك لمن شاء ، جاعلا له حق طبعه ونشره ، لاحياء ذكرى والده وحفظ أثره .

حسن جلال باشا

كان حسن باشا جلال المتوفى في ١٨ جمادى الاولى الماضي من رجال العلم والعمل والفضيلة ومكارم الاخلاق الاسلامية، ففي سيرته من العبرة وحسن الاسوة ما يتوخى المنار نشره، ولم يكن تركنا الترجمته عقب موته تعمدا كتركنا تراجم أكثر من يموت من أرباب المناصب والرتب العلمية، والمظاهر الدنيوية العارين مما يتوخاه المنار، وإنما تركناها لان ما نعلمه من سيرته قليل مجمل، وكان محمد توفيق افندي أبو طالب رئيس كتاب محكمة مصر الاهلية قد أخبرنا بأنه شرع في كتابة ترجمة له، فانتظرنا صدورها للاخذ عنها وأكثر ما نرويه خلاصة عنها

ولد الفقيد بمصر لاربع خلون من شعبان سنة ١٢٧١ ولما بلغ سن التعليم أدخل في مدرسة خليل آغا فكان الاول من طلبتها في جميع فصولها فمهد له ذلك دخول مدرسة دار العلوم التي أنشئت في سنة ١٢٧٨ بطريق الاستئناف لفقده بعض شروطها، ففي وجد الى ان حصل ما كان ينقصه منها، وفي سنة ١٢٩٢ جعل مدرسا بالمدرسة التجهيزية بعد أداء الامتحان المشترط لذلك، وفي سنة ١٢٩٥ اختير لتدريس اللغة العربية لابناء فاضل باشا فرافقهم الى سويسرة وتعلم فيها اللغة الفرنسية، وكان يتردد فيها على وزير مصر الشهير مصطفى رياض باشا دون جميع من هنالك من المصريين (اذ كانوا يجتنبون لقاءه لمغاضبته للخديو اسماعيل باشا) فلما اعتزل اسماعيل وولي توفيق وعاد رياض الى وزارة مصر أرسل الفقيد الى أوربة لتحصيل علم الحقوق على نفقة الحكومة فنال شهادة الحقوق وعاد الى مصر فخدم القضاء مساعدا للنيابة فقاضيا فوكيلا لبعض المحاكم فرئيسا لعدة منها آخرها محكمة الاسكندرية تولاها عشر سنين ونصف سنة فمستشارا في محكمة الاستئناف وكان آخر راتبه الشهري فيها مئة جنيه.

ومن خدمته للعلم انه كان عضوا في المجلس الاعلى للازهر والمعاهد الدينية وعضوا في اللجنة الادارية لمدرسة القضاء الشرعي

هذه السيرة الرسمية التي تتلى لتحصيل مثلها اعناق أكثر المتعلمين ليست مما نحفل بذكر أصحابها في المنار وانما فضل الرجل عندنا في سيرته العملية وأخلاقه وآدابه الدينية التي فضل بها الجم الغفير من أمثاله رجال القضاء، وممن يعد فوقهم في المنصب والجاه كالوزراء والامراء، كان الرجل محافظا على أوامر دينه ونواهيه من سن الصبا الى سن الشيخوخة لم يفتن

في شبابه بمعاصي الشهوات، ولا في كهولته بمنكرات العظمة والكبرياء، ولا في شيخوخته بدناءة الطمع والحرص على المال، ولم تزالزل الاقامة في البلاد الاوربية، ما نشأ عليه من الآداب الاسلامية، ولم تفسد عليه عفته وورعه، ولم تحوله عن زيه العلمي ولا عاداته، حتى إنه كان يتورع عن أكل ذبائح النصارى لكثرة الملاحدة فيهم، ويذهب من محل اقامته الى جزار يهودي في مكان بعيد يشتري منه اللحم ويعالجه لنفسه

وروى أبو طالب عن بعض عشرائه من شبان المصريين طلاب علم الحقوق في فرنسة أنهم أغروا به امرأة بارعة الجمال لتراوده عن نفسه، وجعلوا لها عشرة جنيهات ان هي فتنته عن عفته، فجاءت حجرته متبرجة بما استطاعت من زينة، وطرقت الباب ففتح لها، وسألها قبل الدخول عن حاجتها؟ فضحكت ضحكة دل ومداعبة، ورأرأت رأرأة مغازلة وملاعبة، وحاولت الدخول عليه، ومدت يدها اليه، فدفعها بعنف وأغلق دونها الباب، فرجعت خائبة تجهر بالهجر والسباب.

ومما رواه من سيرته أنه كان أبر الناس بوالديه وأوصلهم لرحمه، وأحفاهم باخوانه وأصدقائه، وأشدهم عناية بكل من له عهد وصلة به، مرضت والدته بمصر أيام كان مقيما في الاسكندرية رئيسا لمحكمتها فكان يعودها كل أسبوع حاملا معه ملاءات فراشها كاملة النظافة والكي ويتولى ترتيب ذلك وفرشه بيده، وكان وهو يطلب الحقوق في أوربة يرسل اليها في كل شهر جزءا من راتبه. وبلغني أنه كان ينفق ثلث الراتب ويرسل اليها الثلث ويجعل الثلث الثالث للكتب، وما زال محبا للكتب باحثا عن نفائسها لمخطوطة طول عمره، وكنت أراه في أواخر عمره يختلف الى صفار باعة الكتب ويجلس عندهم باحثا عما عساهم التقطوه من بعض التركات، أو أصحاب الحاجات

قال أبو طالب: وكان وفيا بالعهد فقد عرف في (قنا) يوم ولي القضاء فيها بدالا مصريا متوسط الحال كان يشتري منه حاجته فلما عاد اليها وهو مستشار سأل عنه فقيل له ان حالته تضعضت وتجارته كسدت وهو الآن يبيع المراوح، فلم يمنعه ذلك من زيارته وتعهد شأنه كلما ذهب الى قنا، ولا تسل عن اغتباط ذلك البدال بمثل هذه الزيارة فانها كانت أشهى اليه من رد ثروته بل شبابه عليه اه

وأفضل ما يؤثر من مناقبه مبالغته في الاستقلال والعدل في القضاء حتى انه لم يكن يقبل

شفاعة ولاحديثا في قضية رفعت اليه ولافي ترقية عامل تحت رياسته كأنه لم يكن يكلم أحدا من أصدقائه القضاة ولاغيرهم في مثل ذلك. وقد اشتهر بذلك حتى لم يكن أحد من أقرانه ولا ممن فوقه في المناصب يطمع أن يكلمه في شيء من ذلك، وله مواقف وقائع تؤثر في ذلك ذكر بعضها أبو طاب. ويعجبني ماقاله في إثر هذه المناقب، وهو:

« ولقد أغفلت التوسع في حياة الفقيد القضائية وذكر الحوادث التي اتفقت له دلة على مبلغ ماكان عليه من الفقه في القضاء والعدل والشجاعة مكتفيا بأن المعاصرين أحاطوا بكل هذه الاحوال ويلوح لي أن كتابة تاريخ المعاصر بالتفصيل فيه من الصعوبة ما لا يظهر لاول وهلة ولذلك قنصرت على هذا الالماع اليسير

« وما كنت لاطمع أن يكون كل لمصريين كحسن باشا جلال فهذا من المحال قطعا ولا أرجو أن يكون واحد في الألف كذلك بل الذي آمله أن يتصفح هذه الورقات بامعان وأن لا يستصغروا شأن الحوادث التي سقتها هنا مثالا من أخلاقه عسى أن يحتذي حذوه ويهتدي بهديه نفر من الامة ليعملوا كما عمل لعل الله يبعث فيها الحياة الحقيقية التي لا يظهرها الا مثل هذه الاخلاق فان الذي يعيش الآن بين ظهراني المصريين لا يمكنه أن يتجاهل العلماء العديدين في كل علم وفن، فمصر ليست فقيرة من هذا النوع، اذ للقضاء رجال وللطب آخرون وللهندسة والزراعة مثلهم ولكل مطلب من مطالب الحياة قوم يشغلهم شأنه، وما ينقص المصريين الاشيء واحد وهو الاخلاق، فان ذوي الاخلاق الفاضلة قليلون بالنسبة لمجموع الامة ومدارسها ومعاهدها، واني على قدر معلوماتي القاصرة لا أرى بابا لهذه الاخلاق الا النفس التي بين جنبي كل حي من الامة فما عليه الا أن يروضها على الفضائل التي شاعت في الكتب وتداولتها ألسن الصغار وغفلت عنها عقولهم، فان أصغر كتاب مدرسي فيه بيان لاصول الفضائل، ولو مرنت النفوس مرانا حقيقا عليها لتغيرت الاحوال تغيرا عظيما في وقت قصير. أما ما نعيش الآن فيه من حيث الاخلاق وآداب المعاملات فما يعجز عن وصفه أكبر كاتب بليغ، واني ليحزنني جدا أن أجهل مصدر هذا الداء الوبيل الذي تفشى تفشيا مزعجا فان ابن عشر سنين يبرز في النفاق والمداهنة على ابن الستين، فنحن نتقدم فيها ولكنه تقدم معكوس، لان كل من أتقن

هذا النفاق عد ظريفا كيسا، وقد عم جمود الاحساس والعواطف كثيرا من هذه الطبقات في هذه الامة ذات المجد القديم والتاريخ العظيم التي تحتاج الى شيء بسيط حتى تكون من أرقى الامم وذلك باعتدال أبنائهم في أحوالهم وأقوالهم وأعمالهم بلا افراط ولا تفريط لان الحالة الوسطى تكاد تكون معدومة وقد ضاعت الحياة فيها

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

« وعندي ان اصلاح شأن هذه الامة التي سهلت طباعها وزكت نفوسها ولان جانبها وسهل قيادها لا يأتي الا بحسن اختيار العاملين من أبنائها من أصغر عامل عمومي وهو الخفير الى أكبر موظف وهو الوزير، فما كل النفوس بصالحة للخدمة العامة التي تتطلب صفات خاصة تظهر في صاحبها من أول نشأته، فاذا صح انتقاء هؤلاء أصبحت مصر في زمن قليل فردوس الارض لان هذه الامة سريعة التقليد لحكامها. اه المراد

[المنار] لقد هدى هذا الكاتب الى ما يجب من العبرة في هذه السيرة الحسنة بعبارة تدل على انه عني بتهذيب أخلاقه وتربية نفسه حتى ظن أن ذلك يسير على أكثر الناس المتعلمين. وهيهات هيهات، إنهم عن السمع لمعزولون، وعن الحاجة الى تزكية النفس لغافلون، وهذا التعليم المعروف لا يزيدهم الا غفلة واعراضا عنها، ولن يكون ذلك الا بانقلاب يتغير به نظام التربية والتعليم ويكون أمرهما موكولا الى أصحاب الفضيلة والحكمة من الامة، وأين هم؟ وكيف السبيل الى تفويض الامر اليهم؟ وأما اختيار أمثالهم لاعمال الحكومة فمن يقدر عليه ويعنى بتنفيذه، ههنا محل التأمل للمتأملين.

﴿ التحول في ميادين الحرب وقرب أجل الصلح ﴾

هجم الالمان في أول فصل الربيع من هذا العام على الجيوش الانكليزية في شمال الميدان الغربي هجوما لم يسبق له نظير كانوا يضربون به جميع خطوط القتال بمدافعهم في وقت واحد ويمطرون البلاد الواقعة وراء هذه الخطوط وابلا من مدافعهم الى مسافة ٢٨ ميلا وكان غرضهم الفصل بين الجيوش الانكليزية وبين الفرنسية والامريكية لتمكن من سحق الاولى والتفرغ بعدها للاخرى أو تخضع لطلب الصلح بلا شرط ولا قيد. وما كاد يتم لهم مبدأ ما يحاولونه حتى حدث في خطة

دول الاحلاف أعظم حادث انعقد الاجماع على وجوبه من قبل لولا ماعارضه من تقدم المانع على المقتضي وهو توحيد القيادة لجميع جيوش دولهم، وبذلك تمكن الفرنسيس من وصل ما انقطع من التواصل ومزج الجيوش بعضها ببعض. ثم هجم الالمان هجومين آخرين عظيمين بلغ من تقدمهم بهما أن قطعوا نهر المارن وصاروا على مقربة من باريس التي كانوا يضربونها كل يوم بمدافع بعيدة المرمى. وكان الناس يتوقعون زحفهم عليها في الاسبوع الثاني من شهر شوال وهو الثالث من شهر يوليو (تموز) لان وزراء الاحلاف كانوا يصرحون بأن تفوق الالمان عليهم في العدد والعدد عظيم وأن الخطر لا يزول الا اذا انقضى فصل الصيف وحالت أمطار الخريف دون استمرار شدة القتال وهم ثابتون مصابرون لعدوهم، فاذا تم ذلك لهم زال الخطر ودالت الدولة لهم بكثرة الجيوش الامريكية التي ستكون في صيف السنة المقابلة مساوية لجميع الجيش الالماني

بينما ينتظر الناس ذلك اذا فاجأهم خبر شروع الالمان في التقهقر المنظم من جنوب المارن الى شماله ثم من جنوب الاين الى شماله وكان يظن أن ذلك لخطة حربية يعقبها هجوم أشد مما قبله، ولما استمر التقهقر ظن قوم أنهم يقصدون خط هندنبرج ليشتوا فيه كما فعلوا في العام الماضي، وأنهم في أثناء ذلك يجمعون جيشا من الحكومات الروسية التي آذنت الاحلاف بالحرب، وظن آخرون أن سبب التقهقر اتفاق سري على الصلح، وقوى هذا الظن ماتناقلته البرقيات عن طلعت باشا من أنه قال عقب اجتماع سياسي مع رجال الدولتين الجرمانيتين : إنه لم يبق لاستمرار الحرب فائدة وإن الصلح سيعقد قبل حلول فصل الشتاء من هذا العام . ثم ما زال الالمان يتقهقرون والاحلاف يتأثرونهم ويحتلون البلاد التي يغادرونها حتى آخر الشهر وقد ظهر في برلين وغيرها مبادي انقلاب سياسي ربما كان هو السبب الباطن للاروز والانكماش

وأما الترك فكانوا يدافعون دفاع المستميت عن كل بقعة أخذها الروس من بلادهم التركية أو الانكليز من بلاد العرب في العراق وفلسطين حتى اذا جاء هذا الشهر فاجأتنا الانباء بأن الجيش الانكليزي في فلسطين شرع يزحف في الاغوار والانجاد، من تلك الارض الحصينة الخالية من الماء، فاستولى في ١٢ ذي الحجة (١٨ سبتمبر) على خطوط الترك الامامية في جلجلة والطيرة وطول كرم وفي ١٣ منه تقدم حتى بلغ العفولة

وفي ١٤ منه بلغ بيسان وجنين ونابلس والسامرة وماجا ١٧٠ منه الا واحتلوا حيفا وتبعتها عكا وفي ١٩ منه احتلوا طبرية وسمخ وعمان وبلغ عدد من أسروا من الجيش التركي أربعين ألفا ولم نسمع في أثناء ذلك بمقاومة تؤثر، ولا بعدد من القتلى يذكر، وما زالوا يوغلون في ولايتي سورية وبيروت شمالا من الجانب الغربي، ويحاذيهم جيش الامير فيصل العربي من الجانب الشرقي، حتى دخلوا دمشق في ٣٠ منه وكان الترك قد أجلوا عنها وتألفت فيها حكومة موقتة

ولا شك في أن الترك قد قرروا ترك سورية كلها لاهلها ولا نكماش الى بلادهم التركية تمهيدا لطلب الصلح. واذا يئس الاتحاديون من ولاياتهم العربية فانهم يفضلون بيعها لاعدائهم أو تركها لهم غنيمة باردة على ابقائها لاهلها العرب كما معروف عنهم، ولكن الامر لم يبق في أيديهم، فهم قد قتلوا أنفسهم وقطعوا أوصال سلطنتهم (امبراطوريتهم) بسيف العصبية الجنسية الذي سلوه على غير الترك من الاجناس

أما أخبار الصلح ومقدماته فأولها ان لنسة نشرت في ثاني ذي الحجة مذكرة رسمية في عاصمتها بينت فيها انها أرسلت الى الدول المتحاربة اقتراحا تدعوهم فيه الى ارسال مندوبين من كل منهم الى بلد من البلاد التي على الحياد للمفاوضة السرية في أمر الصلح وتمهيد السبيل الى الاتفاق الممكن في ذلك. وفي ٢١ منه علمنا أن الحكومة البلغارية طلبت الصلح وعقد الهدنة، وأن رئيس وزارة هذه الحكومة عرض الامر على معتمد الولايات المتحدة فأشار عليه بوجوب قبول شروط الحلفاء للهدنة بدون بحث لانهم يريدون بالشدة فيها الأمن كل خطر في المستقبل ولكنهم يراعون في شروط الصلح العدل والانصاف على قواعد الجنسية، فقبل نصحه. وروت البرقيات أيضا ان المعتمد نفسه سافر الى مركز قيادة الحلفاء وحضر توقيع الهدنة وان الترك سيحذون حذو البلغار

ولم ينقض اليوم الاخير من ذي الحجة الا والبرقيات العامة تتلاقى في جواء ارجاء العالم بأن الدولة الالمانية نفسها خاطبت الرئيس (ولسن) برغبتها ورغبة حليفتيها النمسة والتركية في الصلح على الاصول والشروط التي وضعها هو. فسبحان محول الاحوال، ونسأله أن يحول حالنا الى أحسن حال

﴿ تصحيح أغلاط ﴾ سقط جملة من التفسير موضعها أواخر السطر ٢٠ ص ٢٦١ من المجلد التاسع عشر فينبغي أن نكتب بازاء موضعها من الحاشية وهذا نصها :

﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يختلقونه في الدنيا من كون معبوداتهم تشفع لهم عند الله، أو ضلت المعبودات نفسها عنهم فلم تهتد الى الشفاعة لهم سبيلا. وغلب ما لا يعقل منها كالاصنام فعبر عنها بما للتقبيح ولان أكثرهم ماكان يعبد في عامة أوقاته غيرها .

جملة « أو نفع أصاب حبيبا دعوا له » في س٢١ ص٣٣٢ م٢٠ محلها قبل جملة « أو ضر أصاب عدوا دعوا عليه » في س ٢٢ بعده

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤٨	٢٥	عيال	الاعيال	٣٨٦	٢٢	خمسة	أربعة
٣٤٢	٣٠	مافي	على مافي	»	٢٣	سماؤهم	أسماؤهم
٣٤٢	٢١	ليفسد	لفسدفيها	»	٢٤	بشر وادريس ولوط	البشر وادريس
٣٦٦	٢	دون	حال دون	٣٨٢	١٧	مهتدقا	مهتديا
٣٧٦	٦	الاحكام	من الاحكام	٣٩٠	٧	مخلف	مختلف
٣٧٩	٦	واذا	واذ	٣٩٤	٨	وأحمد والترمذي	والترمذى

خاتمة المجلد العشرين

بحمد الله نختم المجلد العشرين من المنار، وله الحمد والشكر على نعمة التوفيق والثبات، وقد جعلنا أجزاء هذا المجلد عشرة كاجزاء المجلد الذي قبله، ولكننا اضطررنا الى تصغير حجمها من الجزء الخامس وما بعده، لان الحرب اشتد غليان سعيرها، وجميع الاشياء اشتد غلاء سعرها وقد ذكرنا في أول خاتمة المجلد السابق أن ما كنا نشتريه من الورق بمئة صار ما سعره ٤٠٠ أو ٥٠٠ ونقول في هذه الخاتمة انه تضاعف بعد ذلك الى ١٠٠٠ بل الى ١٦٠٠ السعر الاول فقد علمناه بأنفسنا، وأما السعر الآخر فيما نقل الينا، وقد غلت أثمان سائر الاشياء أيضا حتى الاغذية لوطنية التي بينا ثمنها في الجزء الثامن فلنا العذر في تصغير حجم المنار مع عدم الزيادة في قيمة الاشتراك، وقد فعل مثل فعلنا أصحاب الجرائد والمجلات في جميع الآفاق

هذا وقد اخرنا البدء بهذا الجزء الاخير الى شهر ذي الحجة، كما أخرنا ما قبله من أجزائه[1] وأجزاء ماقبله من سني الحرب فأدغمنا في سنيها الاربع سنة من سني المنار اذ لم نصدر في هذه السنين الاربع الا ثلاثة مجلدات، وبذلك وافقت مجلدات المنار عدد

(١) قد صدر ماقبله في أواخر ذي القعدة كما علم من آخر خبر في الجزء التاسع

سنيه الشمسية في الجملة ، وذلك ما توقعناه في خاتمة المجلد التاسع عشر من تأثير استمرار الحرب، فقد صدر أول عدد من سنة المنار الاولى في ٢٢ شوال من سنة ١٣١٥ ويوافق ذلك منتصف الشهر الاول من سنة ١٨٩٨ الميلادية . فعلى هذا يكون قد تم لنا المجلد العشرون في السنة العشرين الميلادية ولكن قبل تمامها

والمرجو أن يتم الصلح العام بين الامم المتحاربة في العام الذي نستقبله، وان يتيسر لنا فيه أن نزيد في حجم المجلد الحادي والعشرين، وان كان لا يرجى أن يعود ثمن الورق الى ما كان عليه قبل الحرب الا بعد سنين، فان عود الرخص الى المصنوعات انما يكون بالتدريج البطيء

الانتقاد على المنار

ورد علينا في هذا العام ذلك الانتقاد الطويل على (ذكرى المولد النبوي) وقد نشرناه برمته في الجزء الثامن والرد عليه في التاسع والعاشر و بقي له بقية تنشر في السنة الجديدة

وورد علينا انتقاد آخر لمسألة أبوي النبوي صلى الله عليه وآله وسلم وعمه أبي طالب التي ذكرت استطرادا في الكلام على أبي ابراهيم الخليل (ص) من هذا المجلد. فاننا قد ممن يجزمون بنجاة الابوين الشريفين وأبي طالب خلافا للماروي في الصحيحين وغيرهما، وكل ماذكره في مسألة الابوين قد تقدم في بحثها، وأما ايمان أبي طالب فانتقد علينا عدم ذكر ماورد في ايمانه من الروايات الضعيفة ولم يكن الكلام في تاريخه فنستوفي كل ماجاء فيه وانما كان في بيان حكمة ماورد في كتاب الله وحديث رسوله الصحيح في معنى التصريح بكفر أبي ابراهيم (ص) وقد صرحنا بحظر اعتداء بيان النصوص وحكمها وأحكامها في ذلك الى ما يعد ايذاء للرسول (ص) أو لاحد من أهل البيت الذين من ذريتهم، وان أقوى ما يستدل به على نجاة الابوين الشريفين في الآخرة وأرجاه هو ما ورد في امتحان الله تعالى لاهل الفترة في الآخرة ونجاة بعضهم به، ومن أجدر منهما بذلك؟ ونتمنى أن نجد أدلة أقوى من هذا، فان وجدنا شيئا نشرناه مغبوطين ، والا سكتنا مؤمنين مفوضين ، ولا نرتاح الى الرد على المنكرين ، فحسبنا بيان ما ظهر لنا أنه الحق المبين، وهو خلاف ما نهوى فما نحن للهوى بمتبعين، (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولوشاء لهداكم أجمعين) وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

المنار

١٣١٥

مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤونه الاجتماع والعمران

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

ناظر مدرسة دار الدعوة والارشاد

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المجلد الحادي والعشرون

صدر في سنتي ١٣٣٧ و ١٣٣٨ ﻫ

قيمة الاشتراك في المنار جنيه مصري في القطر المصري

وفي الخارج ١٢٠ (أو ٢٥ شلن ذهباً)

« الطبعة الاولى »

حقوق إعادة الطبع والترجمة للكل أو البعض محفوظة لمنشئ المجلة

مطبعة المنار بمصر

﴿ فهرس عام لجميع المواد التي وردت في المجلد الحادي والعشرين ﴾

ا

آدم. أبوته للبشر ومذهب داروين ٤٩ و٤٨٩
« التقاضي في انكار رسالته ٤٩
آل الباسل ١٠٦
آل البيت ومعنى اذهاب الرجس عنهم ٣٨
آل ربيعة وآل مراد ١٢٢
آل علي وآل فضل من أعراب الشام ١٨٥ و١٧٩
الآيات. تصريفها في القرآن ١٢٧
الرسول وكونها عند الله لا عنده وعدم اقتضائها ايمان مقترحها ١٧٦ و٣٩٤ و٥١٤
كون القرآن أدل على الرسالة منها ٤٠٠ و ١٥٣
الآيات الكونية. اقتراحها على آيات الله في فلق الحب والنوى وغيره ٥٨
ابن أبي سرح. تفنيد القول بطعنه في القرآن ١١
ابن سعود (أمير نجد) التقاتل بينه وبين شريف مكة وظفره ٢٢٧ خطابه لاهل الشام في ذلك ٢٤٨ مصانعته للانكليز ٣٤٢
ابن كلاب. ابتداعه القول بحدوث عبارة القرآن ٤٧٩
أبو اسحق الاسفرايني. فضله وتشنيعه على البلاقلاني ٤٨٧

صفحة

أبو بكر الباقلاني. متابعته لابن كلاب والاشعري في مسألة القرآن وتشنيع الاسفرايني وغيره عليه بذلك وخدمته للاسلام ٤٧٨
أبو ذر الهروي. متابعته للباقلاني في مسألة القرآن ٤٨١
أبو زيد. الحكم بكفره والتفريق بينه وبين زوجه في دعوى انكاره لرسالة آدم ثم الغاء هذا الحكم ٤٩
الاتحاد. مقالة فيه ٢٦٥
اتفاق سنة ١٩١٦ على بلاد العرب ١٦ — ٣٤ و٩٣ و٩٧
الاثم. ظاهره وباطنه ٤٦١
« احتجاج السوريين » على اللجنة الامريكية ورفضهم الوصاية الاجنبية وطلبهم الاستقلال ٢٥٠
الاحزاب السورية بمصر ٢٠١
احمد صفوت المصري. رفضه لاصول الاسلام الاربعة ٧٣
اخراج الحي من الميت وعكسه ٦٠
الادراك لغة. نفيه عن الله ١٢٠
الارواح. تجليها للناس ١٢٤
ارادة الله. استحالة تأثير المخلوق فيها ٤٥٣
استقلال البلاد العربية ٣٨٦
استقلال سورية والعراق ٣٣٤
استقلال مصر ومصالح الانكليز فيها ٥٤٠
الاستقلال ما هو؟ ٢٩٧
الاسلام. عموم دعوته وتأليف الامم عليه وتوحيده للعرب واصلاحه للامم وانتشاره بالدعوة لا السيف وانحراف المسلمين عنه الخ ٨١
الاسلام هو القرآن وحده » « المناظرة فيه ٤٩٠
اسم الله. ذكره على الذبائح وحكم مالم يذكر عليه ٤٥٧
الاشتراكية والبلشفية والدين ٢٥٢
الاشعري. قوله بحدوث عبارة القرآن وبالكلام النفسي واللفظي متابعة لابن كلاب ومن أنكر عليه ومن أول كلامه ٤٧٣
« مناظرته للجبائي ٥٢٣ و٥٣٥
الاشعرية والمعتزلة ٥٢٠ — ٥٣٨
الاعراب. البلاغة في مخالفة نسقه ٤٥٦
أعراب الشام في القرنين السابع والثامن ١٢٢ و١٧٩
الاعمال. تزيين الله اياها للامم ١٧٤
« خلق الله لخيرها وشرها ١٨٧
الافتراء على الله وأنواعه ٩
الافرنجي أوداه الزهري ٣٠٥
أكابر المدن المجرمون. مكرهم بالامة وعاقبته ٥٠٨
أمريكة. عملها في حرب الامم ٦
الامم. تزيين الله أعمالها لها ١٧٤ و٥٠٨ جعل أكابرها مجرمين ماكرين فيها ٥٠٨ حريتها بقواعد الرئيس ولسن ١٧ عذابها على مائدة الرسل وسائر ذنوبها العامة في الدنيا والآخرة ٥١٧

صفحة
الامم الجنوبية والشمالية ٤
الامة العثمانية والاسلامية . مهانتهما ٥٠١
أوربة . اطماعها وعاقبة حربها وانقاذ أمريكة لها ١ — ٨
أهل الكتاب . عقيدتهم في الجن ١١٧
« علمهم بحقية القرآن ٤٥١
اتفاق سنة ١٩١٦ على سوريه والعراق ٦ — ٣٤ و ٩١ و ٩٨
« انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ » ٨١
الانكليز والالمان في السياسة والحرب والنصر ٣٣٨

ب — ت

باحثة البادية ١٠٥ و ١٦٣
بريطانية وفرنسة في الشرق ٣٣
البشر . جنايتهم على أنفسهم وستن الله فيهم ٣ و ٥١٠
البصائر من الله في كتابه ١٢٦
بعث الله الناس فرادى ٤٠

تأويل النص لتوهم لوازم باطلة له ١٢٥
تأويلات المعتزلة والاشعرية ١٧٥
الترك . اضمافهم للعرب ١٣٧
« خروج الشريف عليهم ٣٤٣
« مفاسد حكمهم ٥٠١
التطور السياسي والديني والاجتماعي بمصر ٢٧٤
تعدد الزوجات في المدنية الغربية . رأي غوستاف لوبون فيه ٣٥٣
التعصب للاديان والمذاهب ١٧١
تعليم القرآن بمصر ٣٦٥
تفسير « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس » ٤٠
تفسير المنار . الجزء السابع ٢٢٥
التقاضي في رسالة آدم ٤٩
تقرير مشيخة الازهر في مشروع التعليم الاولي ٣٦٢ و ٤٢٣
تقليد بامرة آل فضل ١٧٩
التقوى دينية ومدنية وحربية
وكون العاقبة لاهلها ٣٤١
التكفير بالتأويل ٤٩ و ٢٤١ و ٢٨٢ و ٤٦٩ — ٤٧٧
التنجيم خرافة ٦٥
التوحيد عند الوهابية ٢٨٤
التوفيق والخذلان ٥٢١

ج . ح . خ

الجبائي والاشعري . مناظرتهما ٥٢٣ و ٣٣٥
الجبر والجبرية وشبهاتهم ١٧٥ و ٣٩٥ و ٥٠٢٠
جرائد الحلفاء والمسألة العربية ٩٨
جريدة القبلة . الرد عليها ٤٩٦
الجزائر . سيرة فرنسة فيها ٣٤٩
(الجزء السابع من التفسير) ٢٢٥
الجعد بن درهم أول المبتدعة ٤٧٣
جمعية الامم ٢٢ و ١٤٠
جهم بن صفوان المبتدع ٥٧٣
الجن . جعلهم شركاء وأولادا لله وعبادتهم وعقائد الوثنيين وأهل الكتاب فيهم ١١٤

الحجاز ونجد . تفاضلهما ٢٢٦
الحرب . عاقبتها وكونها للمتقين لاسباب الفشل فيها ٣٣٧ عقاب للظالمين ٣٤٣ مصائبها ومفاسدها ٤٩٨
الحسد بين العلماء ٤٩
الحسن والتقبيح العقليان ٥٣٠
حفني ناصف بك . وفاته ١٠٥
الحق والباطل والقوة ٦ و ٥١٢
حقنة ٦٠٦ للزهري ٣١٠
الحكم قة ومرجعه الكتاب والسنة والميزان ٧٤
الحلال والحرام . ٤٦٥
الحارثة . اسم عربي للمصور الجغرافي ١٩٧
(خسارة سورية من رجال العلم) ١١٢
خطب بيكو وسايكس وفيصل وولسن . راجع أسماءهم
الخلق والتقدير ٥٢٠
خلق الكفر والشر ١٨٨
خلاصة معاهدة الصلح بفرساي ١٣٨ و ١٨٩ و ٢٥٧ و ٢٩١ و ٣٧٨

د — ذ

الداء الافرنجي ٣٠٥
(داء التوت الشوكي) ٣١٦
دار السلام « الجنة » ٥٣٨
(دروس سنن الكائنات) ٣٠٥
الدكتور صدقي . راجع محمد
دول الشمال . تعارض مطامعها ٥
الدولة العثمانية بعد الهدنة ٢٢٣
الدولة العربية القادمة ١٠٠
دولة الكلام المبطلة الظالمة ٢٢٨
الدين . فائدته في الشدائد ٥٠٠
ذات بين الحجاز ونجد ٢٢٦ و ٢٨١
الذبائح وما هو منها من أعمال الشرك وذكر اسم الله عليها وعدمه

صفحة
وما ذكر اسم غيره عليه ٤٥٧
الرازي. احتجاجه على الجبر وخلق الشر والكفر ومراؤه للمعتزلة ١٧٠ و٥٢٠ — ٥٣٨
الرب. رؤيته وعدم ادراكه ١٢٠
الرحلة السورية الثانية ٣٧٧ و ٤٢٨ و٤٩٨
رد المنار على الناقد لذكرى المولد ٣٨ و ١٠٣
الردة ومسألة نبوة آدم ٥٠
رزء اسلامي عظيم ٤٤٧
الرسالة وهبية غير كسبية ٥١٥
الرسل. عجزهم عن الاتيان بالآيات ١٧٧
« نصر الله لهم ٤٥٢
الرهن. الانتفاع به ليس ربا ١٦
الرئيس ولسن «راجع ولسن»
الزنادقة المجوس ١١٤
الزهراوي. راجع السيد الزهراوي

س. ش

سايكس - راجع مارك سايكس
سؤال العباد ربهم عن أحكامه وأفعاله في الدنيا والآخرة ٥٣٣
السباب للمعبود والدين ورجاله والمذاهب والوالدين وما استنبط من النهي عن سب معبودات المشركين ١٧٠
السنة. هدم المتفرنجين لها ٧٣
« والبدعة ١٠٤
السلطان محمد وحيد الدين ٢٠٧
السلف. رد ما خالف مذهبهم ٤٧٥
سنن تنازع الحق والباطل ٣٩٧
سنن الله. استحالة تبديلها ٤٥٢
« وقدره ٥٣٦
« ومشيئته ٣٩٥
سنن الله في البشر ٣
« في بقاء الاصلح ٥١٢
« في تزيين الاعمال للناس ١٧٦
« في مكر أكابر مجرمي الامم بها وعاقبة الماكرين ٥٠٨
« في كون العاقبة للتقوى ٣٤١
السوريون صنائع الاجانب ١٩٩
سورية بعد التحرير ٣٨٣
« مسألتها وأحزابها ١٩٧
« مستقبلها ٣٣
« والعراق بين انكلترة وفرنسة ١٩٧
السياسيون. تلاعبهم بالكلم السياسية وتأويلها ٢٩٩ و٢٧٨
السياسة الانكليزية والفرنسية ٣٤١
السيد الجرجاني. تأويله شذوذ الاشعري في القرآن ٤٧٣
«السيد الزهراوي» عبد الحميد ترجمته ١٥٠ و٢٠٧
السيد والسيء معنى اللقبين ١١٢
الشام. أمراء أعرابها في القرن الثامن ١٧٩
الشريف حسين أمير مكة. طلبه في مؤتمر الصلح وصاية الدول على بلاد العرب مع اعطائها حق تعيين مصيرها في ذلك ١٠٢ ولايته الانكليز ومساعدتهم على قتال الترك وفتح فلسطين وسورية ٣٤٠
« خالد حاكم الحرمة ٢٢٦
« عبد الله حربه للوهابية ٢٢٦
اختياره ملكا للعراق ٤٤٥
« فيصل. تأليفه للمؤتمر السوري ٢٠٦ خطابه لاعضاء المؤتمر السوري ونصبه ملكا لسورية ٤٣٩ طلبه الوصاية الدولية على العرب في مؤتمر الصلح ١٠٢ قتاله مع الانكليز ومساعدته اياهم على فتح القدس وسورية وقهر الترك ٣٤٣
الشفاعة والشفعاء عند الوثنيين ١٥
الشفعاء. استحالة تأثيرهم في مشيئة الله ٤٥٣
شكري غانم. سعيه لحماية فرنسة لسورية ٥٣٥
شياطين الانس والجن ووحيهم ٣٩١ و٥٠٨
الشيطان. تزيينه أعمال الكافر له ٥٠٨

ص — ض — ط

صالح اليافعي. مناظرته للدكتور صدقي ٤٩٣
الصغار لغة وشرعاً والعذاب به ٥١٦
الصليبيون. حملتهم على الشرق واستفادتهم من الاسلام ٨٦
الصلح بين الامم المتقاتلة — راجع خلاصة معاهدة الصلح وولسن
ضلال اكثر أهل الارض ٤٥٥
ضم البلاد بلغة السياسة ٢٩٩
الطاعة المفضية الى المعصية ١٧٣
طه البشري. مناظرته للدكتور صدقي ٤٩٢

ع. غ

العاقبة للمتقين ٣٤١
عاقبة حرب المدنية ١ — ٨ و٣٣٧
عبد الحميد «راجع السيد الزهراوي»
عبد الرزاق البيطار. ترجمته ١١٢ و١٣٧
عبد الغني الرافعي. ترجمته ١٥٧
عبد الله بن أبي سرح «راجع ابن»
عبده ابراهيم الطبيب ٤٨٩

صفحة
البادئة والترك فيها ٤٦٠ و٤٦٢
العترة في حديث الثقلين ١٠٤
العدل والعقل في الاسلام ٨٤
عذاب الامم في الدنيا ٥١٧
العرب. اسئلة الانكليز لهم في الحرب والجاء الترك اياهم الى الخروج عليهم ٣٤٢
« انقسام بلادهم ٣٣ و١٩٧ و٣٠١
« انخداعهم بامانى الاستقلال وتغرير الجرائد فيه كالقبلة والكوكب والمقطم ١٩٧
« تعادي الحجازيين والنجديين ودعوتهم للاتفاق ٢٤٠ و٢٨١
« مقالة في وجوب اتحادهم ٢٦٥
« معاملة فرنسة لهم في الجزائر ٣٤٩
« مدنيتهم القديمة ووصف اليمن وعمائرها وزراعتها ودولها ٣٥٣ و٤١٥
العضد. تأويله لشذوذ الاشعري في لفظ القرآن ٤٧٣
العقوليس اخلافا للوعيد ٤٥٣
العلم والفقه ٦٩
علم الاجتماع ٥١٠ و٥١٣
علم الفلك. الاعتبار به ٦٥
علم الكلام. ابتداعه وذمه ٤٧٣ — ٤٨٣ و٥٢٩
العلماء. خطأهم في الاجتهاد وعدم تكفيرهم به ٤٨٢
عمر وعمار. مثلهما مع أبي جهل ٨٠٧
العمر. طوله وقصره ٥٣٦
الغرور وماديته ٣٩٨
غوستاف لوبون ٣٤٥

ف . ق

فرنسة. طرقها الاستعمارية ٣٤٥
« والعرب ٣٣ و١٩٧ و٢٧١ و٣٤٩ و٣٨٧
وانكلترة في الشرق ٣٣ و٣٠١
الفرق والفلق والفتق الخ ٨٥
الفسق ما اهل به لغير الله ٤٦٤
الفطرة ٥١٨ و٥٣٨
الفقه والفهم والعلم ٦٩
الفكر. استقلاله وعدمه ٥١٨
(فصل في الرد على القدرية والجبرية) ٥٢٢
فلسفة الوجود ٤٠١
قاسم أمين. اعتداله ١٦٦
قاعدة البراءة الاصلية ٤٦٦
القاعدة في الحلال والحرام ٤٦٥
القدر والاسباب والجهل بها ١٧٨ و٥٠٨ و٥٢٠ — ٥٣٨
القدرية والجبرية والاشعرية ٥٢٠ — ٥٣٨
القرآن. آيات وعظات منه في شؤون البشر العامة ١ — ٨
« أصل أصول الشريعة ٧٧
« امر النبي باتباعه ٧٤ و١٣٠
« بلاغته وفصاحته ٦٠ و٦٢ و٦٩ و٧٢ و١١٤ و٤٠٠ و٤٥٦
« بصائره ١٢٦
« التقديم والتأخير فيه ١١٤
« تناسب آيه ٩ و٥٨ و١٢٥ و١٧٠ و٣٩٤ و٤٥٥ و٥٠٥ و٥١٣
« تنزهه عن السب والشتم ١٢٣
« حفظ الله له دون غيره ٤٥٣
« دعوى تحريف ابن أبي سرح له ١١
« دعوى تلقي الرسول اياه بالدرس ١٢٧
« كلام الله لفظه ومعناه وخطأ بعض المتكلمين في مسألة لفظه ٤٦٩
« كونه أدلى في الرسالة من الآيات الكونية ٤٥٠ و٥١٣
« نكت مخالفته لبعض المألوف في اللغة ٤٥٦
« هديه في معاهدة الصلح ١٩٦
« هو الاسلام وحده ٤٩١
قرار المؤتمر السوري العام ٢٢١
قريش. شكواها النبي لعمه ٥٠٢
القرية والبلد بمعنى الامة وعاصمتها ٥٠٩
القمر. فوائد آياته ٦٤
قواعد الاتفاق بين الكلترة ومصر ٥٤٢
قوم نوح والوثنية ٤٥٩

ك . ل

الكتاب والسنة. نبذ المتفرنجين لهما ٧٣
كتاب الفلسفة السياسية. نموذج منه ٣٤٥
« كشف الشبهات. نموذج منه ٢٨٤ و ٣٠٤
كتب الله. تحريفها وضياعها ٤٥٣
الكفار. تزيين أعمالهم لهم ٥٠٨
الكفر بم يكون ٥٢ و٤٧٧
« خلق الله له ١٧٧
الكلام النفسي والخارجي. حقيقته وانواعه ٤٧١
كلمات الله واستحالة تبديلها ٤٥٢
كلمة الله. معناها وتمامها صدقا وعدلا ٤٥١
(لا قوة الا بالاتحاد) ٢٦٥
لجنة الاستفتاء في سورية ٢٠٥
اللطيف بذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه ١٢١
لويد جورج الوزير دعاؤه ٣٤١
الليل. كونه سكنا ٦٢

م

المؤتمر السوري العام تأليفه وقراره في الاستقلال الذي قدمه للجنة الامريكية ٢٠٩ و ٢٢١ اجتماعه للنظر في مستقبل البلاد ٤٣٣ وقراره التاريخي في اعلان استقلال

سورية والعراق ٤٤١
المؤتمر العراقي . قراره باستقلال العراق واتحاده مع سورية ٤٤٥
ماوك سايكس والعرب ٣٥ و٩٣ و٩٧ و١٠٠ و١٩٧
(مبادئ الانقلاب الاجتماعي الاكبر) ١٧
المتدينة في جزيرة العرب ٢٢٨
المتفرنجون والاصلاح الاسلامي وفيه رفضهم لاصول الدين الاربعة ٧٣
المتقون . أصنافهم وكون العاقبة لهم ٣٤١ و٤٠٠
المتكلمون . اختلافهم ومراؤهم وتنابزهم ٥٢٠ — ٥٣٨
« تأويلهم للنصوص ١٢٥ ٥٢٠ — ٥٣٨
« نظرياتهم في كلام الله ٤٧٣ في القدر والجبر ٥٢٠
مثل المهتدي والضال ٥١٨
المجاعة . افسادها للأعراض ٥٠٢
المجرمون ومكر أكابرهم بالامم ٥٠٨ و١٣ و ٥١٥٨
محمد أبو زيد « راجع أبو زيد »
« بخيت . فتواه في البلشفية ١٥٣
محمد بهجة البيطار ٣١٧
« توفيق صدقي . تأبينه ٤٤٧ ترجمته ٤٨٣ مذكراته ٤٠١
« عبد الوهاب . كتبه ٢٨٤
« كامل الرافعي . وفاته ١١٢ ترجمته ١٥٣ و٢١٤ و٣٢٥
محمد وحيد الدين « راجع السلطان »
محمود نشابه . ترجمته ١٥٥
المذاهب . اتخاذها أصولا للدين وتساب علمائها وتنابزهم بالالقاب ١٧١ و٥٢٠ عصبيتها ٤٦١
مذهب السلف في الصفات والقدر ٥٢٦ في كلام الله ٤٧٤ . كونه هو الدين ٣٨٢ و٥٢٩
بعد غلاة الكلام عنه ٥٣٨
مذهب الوهابية وعقائدهم ٢٣٥ ٢٨٤ و ٣٥٤
مذكرات الدكتور صدقي ٤٠١
مرسوم بامرة آل فضل وآل علي ١٨١ و ١٨٥
مرض النوم ٣١٤
مسألة الحسن والقبح ٥٣٠
مسألة سؤال العباد ربهم عن أفعاله ٥٣٣
لمسألة السورية والاحزاب ١٩٧
« « والعربية ٣٧
« مستقبل سورية والبلاد العربية » ٣٣ و ٩١
المستقر والمستودع ٦٨
المكر والكيد للحق وعاقبته ٧ و ٥٠٨
المسلمون ابتلاؤهم بذبائح الكفار ٤٥٨ عدلهم وتسامحهم في فتوحهم ٨٢ كونهم صاروا حجة على دينهم ٨٨ تركهم الكتاب والسنة ٧٣ مضاعفة أجرهم ٥٣٣
مسيلمة الكذاب ١١
المشركون . تعليقهم الايمان على جعلهم رسلا أو ايتائهم الآيات ٥١٤
مشيئة الله . الاحتجاج والاعتذار بها ٣٩٩ استحالة تأثير الخلق فيها ٤٥٣ موافقتها السنة ٣٩٥
مصر . تطورها السياسي والديني والاجتماعي ٢٧٤ سعيها للاستقلال ووفدها ومشروع الاتفاق بينها وبين انكلترة ٥٤٠ — ٥٥٨
« معاملة سلاطينها وتقليدهم لامراء اعراب الشام ١٧٩
معالجة الزهري ومرض النوم والحمى السوداء والتوت الشوكي ٣٠٥ — ٣١٦
معاهدة سايكس وبيكو ٣٤ و١٩٧ و ٣٠١ و ٣٨٤ و ٤٣٣
معاهدة الصلح مع ألمانية « راجع خلاصة »
« « مع تركية ٤٠٦
معاوية . حكم لعنه وأثره ١٧٤
المعتزلة والاشعرية ١٧٥ و٤٧٣ و ٥٢٠ — ٥٣٨
المفسرون . سبب أغلاطهم ٤٥٨
الملائكة . عبادتهم وجعلهم أولاد الله ١١٤
« تلقيهم الوحي وتبليغه للرسل ٤٧١ — ٤٧٣
ملك الحجاز (راجع الشريف حسين)
المنار . اضطهاده وأكبر أنصاره في سورية ٣٢٥ حجمه ٥٦ و٥٦٠ هجرة صاحبه ورحلاته وسياسته العربية ٢٤٩ و٣٧٧ — ٣٨٢ كونه سلفي المذهب وسبب ما ينشر فيه من التأويلات ٤٩٠
مناظرة الاشعري للجبائي ٥٢٥ و٥٢٨ و٥٣٤
منشورا ملك الحجاز في الوهابية والدعوة الى قتالهم ١٤١
الموت . عذابه ١٢
الميزان . المنزل للحكم به ٧٤
ميشل بك لطف الله . سخاؤه على حزب الاتحاد السوري ٢٠٤

ن . هـ . و

النبوة . كونها غير مكتسبة ٥١٥
مدعوها كذبا ١٠
نبينا . اتهامه بالدرس والتعلم ١٢٧
« اتباعه الوحي ١٣٠ اقتراح الآيات عليه وجوابه ١٢٧
تبليغه القرآن كما أنزل وعجزه

صفحة

عن مثله ٤٧١ دلالة القرآن على رسالته ٤٥٠ عداوة مجرمي مكة وايذاؤهم له ٥٠٧ و٥١٤ — و٥١٧ قوله تعالى فيه ووجدك ضالا فهدى ٥٠٧ كونه بشرا لا وكيلا ولا حفيظا ولا مسيطرا ١٢٩ و١٣١

النجوم . الاهتداء بها وآياتها ٦٤

نصر الله من ينصره ٤٠٠ و٥١٢

النصرانية . انتشارها بالقوة ٨٥

النصوص . تأويلها ١٢٥ و٤٦٠

نكت البلاغة في مخالفة المعهود في الاساليب ٤٥٦

النفس التي خلق منها الناس ٦٧

النوم . مرضه ٣١٦

« تأثيره ومنفعته ٦٣

الهندوس . مراتب الجن عندهم ١١٦

صفحة

الهوى والاضلال به ٤٥٩

الوثنيون . خرافاتهم في الجن ١١٦

ضلالهم في الذبائح ومنشأ وثنيتهم ٤٥٧

الوجوب على الله ٥٢٦

(الوحدة العربية . ودعوة ملك الحجاز الى قتال الوهابية) ٢٤٠

الوساطة بين الله والناس ٤٦٠ و٤٦٢

وحي الشياطين ٣٩١ و٤٦٢ و٥٠٥ و٥١٣

وحي الله تعالى وكلامه ٤٧١

وصف بلاد العرب الجنوبية ٤١٥

الوعيد (راجع العفو)

الوفد المصري — راجع مصر

واسن . شروطها لصلح الامم وخطبه في أسباب الحرب والصلح ٦ و١٧ — ٢٣ و١٩٨ و ٢٢٢ و٣٣٩ و٤٤٣

ولاية الله للصالحين ٥٣٩

الولد . نفيه عن الله بالبرهان ١١٨

الوليد بن طعمه . مقالة له ٢٦٥

الوهابية . حقيقة أمرهم وتاريخهم ومذهبهم وسيرتهم اليوم ودعوة ملك الحجاز الى قتالهم بدعوى كفرهم وانتصارهم عليه ٢٢٦ — ٢٤٩ و٢٨٨ — ٢٩١ و٣٥٤ — ٣٦١ دعوتهم وعقائدهم التي نشرها مفتي بيروت ٢٣٥ ردهم على جريدة القبلة ٤٩٦

يسر الشريعة ٤٥٩

اليمن . حضارتها القديمة وحالها اليوم ٤١٥

اليهود . المقابلة بينهم وبين العرب ومساعدة انكلترة اياهم على استعمار فلسطين تحت حمايتها ١٠٠

(تنبيه) الصفر على يسار الارقام اشارة الى تكرار المسألة فيما بعد الصفحة

جدول تصحيح غلط عثرنا به غير ما نشر في المجلد

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٢و٥	٥	*
٧	٥	أدبر	أدبر
٨	٧	(الرئيس)	(الرئيس واسن)
«	١١	فتنته	فتنة
١٠	٧	فترى	افترى
١٥	١٩	تشفعون	يشفعون
«	٢٠	خوطبوا	خولوا
٦٢	٥	يجعله الله	يجعله الله
٦٩	٨	لخلق البشر	لسنتنا في خلق البشر
١٧٠	٢١	اثنان	اخوان
«	٢٢	دين	أب
١٧٤	٥	(ص ٦٣٠ م ٧) المنار	المنار (ص ٦٣٠ م ٧)
٢٣٧	١٠	الله (١)	لله
«	١٨	أتنبؤن	قل اتنبؤن
«	٢٠	يختفون	يختلفون

١) هذا خطأ نسبي لا حقيقي فان هذه قراءة سبعية كتلك

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨٦	٨	أوجنباً	أوجنيا
٢٨٧	١٩	تفسير	تفسيرا
٢٩٧	٦	الاسماء	أسماء
»	١٢	الاجنبيته	الاجنبية
٢٩٨	٩	في أنه	أنه
»	٧	لقوم	قوم
»	٢١	فيامؤقتة أيصا	فيها مؤقتة أيضا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٠٣	١٧	اقرار	الاقرار
»	١٨	الان	الآن
٣٥٠	١٧	ليرمون	ليرمون
٣٥١	٢٤	يقسورها	يتصورها
٣٥٥	٩	نبيا	أنبياء
»	١٧	فاصغ	فاصغ
٣٥٨	٢	قاو	قالوا
١٦٠	٦	حتي	حي

(تنبيه) سقط من آخر كتاب كشف الشبهات في آخر صفحة ٣٦١ بعد وله (من حظوظ الدنيا) الخاتمة الآتية فتكتب بالقلم في البياض الباقي وهي: فآثره على الدين والله سبحانه وتعالى أعلم، وأعز وأكرم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٩٣	٤	الوتي	الموتي
٣٩٨	٦	ظنين	ظانين
٣٩٩	٨	افيصون	فيصورون
٤٥٤	١٩	عم	علم
٤٥٥	٢٢	نبرته	نبوته
٤٦٤	١٤	أنكم	إنكم
٤٦٥	٦	ولا يذكر	يذكر
»	٩	وانما يذكر	وانما يذكره
»	١٠	منها	فيها
٤٧١	٢٤	رَسم	رُسم
٤٧٢	١	غيره	مين

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٧٢	٢٣	المصحف	الصحف
٤٧٥	٨	أيضا »	ايضا
٤٨٩	٢	قتلته	قلته
٤٧٩	١٩	(قلت)«	«قلت)
٤٨١	٤	؟	:
٤٩٧	١٥	سوط ربك عذاب	سوط عذاب
٥١٣	٥	السم	السلم
٥١٥	٢	بالرسول	الرسول
»	٢٤	فيه تبينها	تبينها
٥٢٧	٤	يسأل	يسئل

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٢٩ ربيع الاول ١٣٣٧ — ١١ القوس (ش ١) ١٢٩٧ هـ ش ٢ ديسمبر ١٩١٨

فاتحة المجلد الحادي والعشرين

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن عز وقدر ، وغلب فقهر ، وخلق كل شيء بقدر ، وصلاة وسلاما على خاتم رسله محمد الذي بعثه رحمة للبشر ، ونذيرا للاسود والاحمر ، وأنزل عليه أحسن الحديث والسير . والمواعظ والعبر ، فاعتز وساد من اهتدى بآياته وادّكر ، وشقي من أعرض وكفر ، ولا تزال ميزانا لسير البشر ، في البدو والحضر (٧٤ ٣٢ كَلَّا وَالْقَمَرِ ٣٣ وَاللَّيْلِ اذْ أَدْبَرَ ٣٤ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ٣٥ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ٣٦ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٣٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)

أنذر المعتزين بقوة الاجناد، والاستعداد للحرب والجلاد، المغترين بكثرة الاموال والاولاد، وسعة الملك وعمران البلاد، سنته التي خلت في العباد، الباقية الى يوم التناد، في سوء عاقبة البغي والفساد، والفحش والسفاد، ذكرهم بما عاقب به من قبلهم، ثم أنذرهم عذابا يبعثه عليهم من فوقهم، أو يثيره بهم من تحت أرجلهم، أو يلبسهم شيعا بتنازع أطماعهم في الارض، ويذيق بعضهم بأس بعض، فتماروا بالنذر، واتكلوا على ما أوتوا من القوى والحيل: اتكلوا على قوة العلم والنظام وما لهما من قوة، اتكلوا على قوة الدخان السام والآلات الحربية، اتكلوا على قوة الغواصات والمدرعات والنسافات والمدمرات البحرية، اتكلوا على قوة الاموال من المواد والنقود الذهبية، اتكلوا على قوة المكر والخداع والتجسس والكايد السياسية، أعد كل ما استطاع من قوة لخذل الحق واتباع الهوى، متكلا على ما كانوا يسمونه توازن القوى، لاعتقاد الجميع أن الحق للقوة أو أن القوة تغلب الحق، ثم مني كل نفسه بالنصر أنه صاحب الحق (٢٣ : ٧٢ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوٰتُ وَالْأَرْضُ) (٥٤ : ٤٣ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ٤٤ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ٤٥ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ٤٦ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)

نسوا أن علم الله فوق كل علم وقوله (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)، نسوا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وأشد بأسا وتنكيلا، نسوا سنته في قوله (١٧ : ١٦ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) وسنته في قوله (١٧ : ٤

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ٥ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا) الى آخر تلك الآيات والعبر، وأمثالها من الامثال والنُّذر (٥٤:٤ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)

ان سنن الله تعالى في نوع الانسان، كسننه في سائر الاكوان، حق وعدل، ورحمة وفضل، الا أن الناس يبغون على أنفسهم، ويجنون على فطرتهم، فيَضر الفردُ أو الجمع منهم ليضر، ويضر لينتفع ويُسَر أو لينفع ويُسُر، فيعود ضرره عليه، ويحفر لاخيه أخدودا فيقع فيه، يفرط أو يفرِّط أناس في شهواتهم البدنية، فتنتابهم الامراض الجسدية، فاذا عرفوا بذلك سنن الله تعالى فيها، وحكمته في قوادم أسبابها وخوافيها، كانت فائدة الامراض أعظم من غوائلها، ونفعها أكبر من ضررها، ويفرط قوم ويفرط آخرون في الشهوات الاجتماعية، فيعبثون بالحقوق المشتركة والروابط المعنوية، فيهيج البغي والعدوان بين القبائل والشعوب، وتشتعل بينهم نيران الحروب، فتكون فتنة وبلاء للجميع، وان ظهر ذلك أولا في فريق دون فريق، ثم تكون العاقبة للمتقين، والنقمة على الباغين والعادين، (٢٢:٥٨ ذَٰلِكَ. وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ) و « ان الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته » والظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه (١١:١٠٢ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) وما كان يُظن بأدق الامم بحثا في السنن الالهية، وأوسعها علما بالشؤون الاجتماعية، أن تكون أشد عدوانا وبغيا، من

أشد القبائل البدوية غباوة و [illegible] من كان مثل هذه الامم كمثل الاطباء، الذين تفتك بشبابهم الامراض والادواء، لافراطهم في شرب المسكر، وإسرافهم في الفحشاء والمنكر، وهم أعلم الناس بضررها، وأبلغهم لساناً في التحذير من خطرها، وذلك برهان قطعي على أن علوم البشر أجمعين، لاتغني في اصلاح حال البشر عن هداية لدين دين الاذعان واليقين الحاكم على الارادة، لادين التقليد الذي لايخرج عن حكم العادة، وان ضل من اغتر بعلومهم فكفر، وفسق عن أمر ربه وفجر، وجهل حكمة الله وصنعه في خلق البشر، فقال بفنائهم وبقاء الحجر والمدر، (٧٥: ٧ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ٨ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ٩ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ١٠ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ١١ كَلَّا لَا وَزَرَ ١٢ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ١٣ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)

لقد أتى على أمم الشمال الغربية حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا، اذ كان أهل الجنوب الشرقيون يملأون الآفاق علما ونورا، لا يزال بعضه مرويا مأثورا، أو مرئيا منظورا، وذهب البعض الآخر هباء منثورا، ثم أتى عليها أحقاب نالت فيها بالعلم والصناعة ملكا كبيرا، وتبوأت من تراث ملوك الشرق جنات وقصورا؛ وزخرفا وحريرا، وثلت عروشا رفعها العدل والعلم ثم وضعها الجهل والظلم فدمرها تدميرا، فكانت سيف الانتقام الالهي منتضى مشهورا، . ولكن استكبر أهلها في أنفسهم وعتوا عتوًّا كبيرا، ولم يقيموا الميزان الذي يتبجحون به مَينا وزورا، ولو غير أهل الجنوب ما بأنفسهم، لغير الله ما حل بهم، ولكن أوشك أن يدور الزمان، ويعود الامر كما كان (٣٣: ٣٨ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا

مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا — ٤٩:٥٤ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ٥٠ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

تعارضت بين دول الشمال المطامع ، وتنازعوا على ما يصيبون في الجنوب والشرق من المنافع ، فحكم القضاء في قضيتهم المدافع ، وكان عذاب ربك واقعا ماله من دافع ، فقتلوا من أبنائهم في أربع سنين ، أضعاف من قتلوا في حروب المطامع في عدة قرون ، وخسروا في هذه السنوات من الاموال ، أضعاف ما ربحوا من جميع الاجيال (٢٢:٤٣ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ٤٦ : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) ولولا أن خلق الانسان من عجل ، لما استبطأ عدل الله في الامم والدول ، فمن ذا الذي كان يظن من المستعجلين أو المستبطئين ، ان يرى العالم في القرون الطويلة ما أرته هذه الحرب في أربع سنين ؟ : ثُلّ عرش قياصرة الروس القاهرين ، وأبعد القيصر وأهل بيته الى حيث كان يعتقل نابغي العلماء والسياسيين ، وتمزقت كبرى سلطنات (امبراطوريات) الارض ، الى بضع جمهوريات يسفك بعضها دماء بعض ، فثل عرش السلطنة النمسوية ، وتمزقت الى عدة حكومات جمهورية ، وتدهور عن عرشه أعز عاهل على وجه هذه الارض ، بعد ان كاد يقضي على أكثر أمم الشرق مع الغرب ، وهو النافذ الحكم والارادة في أوسع أمم الارض علما ، وأدقهم نظاما وأمتنهم حكما ، فكان سقوطه كسلك انقطع فتناثرت الفرائد ، اذ سقط ملوك الجرمان وامراؤهم واحدا بعد واحد ، وأجبر قبله على

الاستقالة ملك اليونان ، وتلاه كل من ملكي البلغار والرومان ، وتقلص ظل الترك عن بلاد العرب والارمن والاكراد ، التي سفك طغاتهم الاتحاديون فيها الدماء وأكثروا فيها الفساد (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (٣:٢٦ قلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) (٧٤:٣٤ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ)

ومن أكبر العبر أن الله أنقذ أوربة من ظهور الالمان عليها، وما كان يحذر من سيطرتهم على مستعمراتها بعد اجلائهم عنها ، على يد أقل الشعوب الكبرى استعدادا للحرب والجلاد، وأبعدها عن طلب السيادة على الشعوب والطمع في البلاد، وهو شعب الولايات المتحدة الامريكية ، الذي كان له من الفلج بقوة الحق المعنوية، فوق ما كان له من الظفر بترجيح قوى الاحلاف الجندية والمادية ، فان دعوة رئيسه (الدكتور ولسن) الى بناء صلح الامم على ماوضعه من قواعد الحق والعدل العام ، واستقلال الشعوب والاقوام ، والمساواة بين الاقوياء والضعفاء ، والاولياء والاعداء، هو الذي زلزل نظام الشعوب الجرمانية الراسخ البناء ، وأظهر الاشتراكيين الضعفاء منهم على أولئك الجبارين من الملوك والامراء، فكان به الظفر للقوة الادبية ، على تلك القوى العسكرية والمالية، التي أعدت لمقاومة البرية ، (٧:١١٧ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ) فعلم بذلك ان القوة للحق أو ان قوة الحق فوق قوة الباطل ، (٢١ : ١٨ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) وانما بقاء الباطل

في نومة الحق عنه ، أو خداعه للحق حتى يوهمه انه له أو معه أو شعبة منه، أما وقد استيقظ الحق من رقدته ، وصرع الباطل وهو في عنفوان قوته، فلم يبق الا أن يجرده من قوة المكر والخداع، التي هي عتاده الآن في الهجوم والدفاع، والكر في ميادين الاطماع (٧٤: ١٨ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٩ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢١ ثُمَّ نَظَرَ ٢٢ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٣ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ)

قُتل الانسان ما أكفره : اذا مسه الضر ، لجأ الى الحق والعدل ، والرحمة والفضل ، فاذا نجا منه استبدل الكفر بالشكر ، ولجأ الى الخديعة والمكر (١٠: ٢١ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ٢٢ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ - دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ: لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ٢٣ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٤ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) هذا هو القول الفاصل، بين الحق والباطل، المبين لحال الافراد

والجماعات ، في اختلاف الحالات والاوقات ؛ ولكن قد ظهر لفضلاء العقلاء من الامريكيين والحلفاء، بمارزئ به العالم في هذه الحرب من البأساء والضراء، أنه لا سلام لي الارض، الا بالمساواة في العدل، وترك سياسة المكر والرياء، ومعاهدات السر والخفاء، واستقلال جميع الشعوب بأمر حكوماتها، وتأليف عصبة من علماء الامم للفصل في خصوماتها ، وإلغاء جميع المعاهدات القديمة السرية، وان عللت بدعوى ارادة الخير وحسن النية، .. وانما الخير كله في الحرية، وهذا مادعا اليه (الرئيس) جميع المتحاربين، فواثقوه على أن يقبلوه مذعنين، وأسر الكيد له بعض الطامعين، ليأخذوا بالشمال ماعجزوا عن اخذه باليمين (٦: ١٢٤ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون) وأما أولئك العقلاء فمتفقون على ما اقترحه (الرئيس) من وجوب الاخلاص، وان لا منجاة بدونه ولا مناص، إن لا تفعلوه تكن فتنته في الارض وفساد كبير ، وانقلاب (لمشفي) شره مستطير ، أو تعود الحرب جذعة، بهذه السياسة الخدعة، الخبأة الطلعة ، (٣٥: ١٠ والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ٣٢: ٣٣ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور) فهذا ما يذكر به المنار قراءه في فاتحة مجلده الحادي والعشرين، كدأبه فيما سبق من السنين، مقتبسا من الكتاب المبين، وما هو ذكرى للمغرورين بقوتهم، وبشرى للمغلوبين على حريتهم، حجة على اليائسين، وعبرة للمعتبرين، وانما العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن ازدجر، (٥٤: ١٧ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

منشئ المنار ومحرره
السيد محمد رشيد رضا

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٩٤) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ ؟ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ : أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٥) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

هاتان الآيتان في بيان وعيد من كذب على الله وادعى الوحي أو الاتيان بمثله قفى بهما على ما تقدم من كون الوحي من شؤونه تعالى ومتعلق صفاته، ومن الرد على منكريه واثبات كون هذا القرآن الذي أنكروا نزاله على محمد (ص) لانه بشر كالتوراة التي يعترفون بانزالها على موسى وهو بشر، على انه أكمل من التوراة وغيرها من الكتب الالهية، ولذلك خوطب به جميع الناس، وجعل مكملا وخاتما للاديان . وهذا لوعيد يتضمن الشهادة بصدق النبي (ص) من حيث إن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر اذا لم يكن له مندوحة عن الايمان بأن القرآن من عند الله تعالى وعن الاهتداء به بالمحافظة على الصلوات ومايتبعها ويستلزمها كما تقدم بيانه آنفا — فكيف يمكن ان يكون أكمل الناس ايمانا بالله وخشية له ، وايمانا بالدار الآخرة وما فيها من

الجزاء – كمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام – ممن يعرض نفسه لهذا الجزاء بارتكاب منتهى الظلم الذي يترتب عليه أشد الوعيد وهو لافتراء وادعاء الوحي ؟ قال تعالى

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ افتراء الكذب على الله الاختلاق عليه بالحكاية عنه والعزو اليه أو باتخاذ الشركاء والانداد له كما يؤخذ من مجموع ما ورد في ذلك وهو المتبادر من اللفظ ، وقد سبق مثل هذا الاستفهام الانكاري في أوائل هذه السورة (الآية ٢١) وسيأتي مثله في أواخرها (١٤٤ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) وهو فيمن يدعي الوحي كذبا . ومثل ذلك في الاعراف و يونس وهود والكهف والعنكبوت والصف . وأشبه ما في هذه السور بمعنى الاية التي نفسرها آية يونس فانها في سياق الكلام على القرآن ، وهو (١٠ : ١٥ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذي لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، إن أتبع الا ما يوحى الي ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ١٦ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ١٧ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته انه لا يفلح المجرمون) وقد فسر الآلوسي افتراء الكذب هنا بانكار الوحي وهو لا يتفق مع ما بيناه آنفا . والمعنى لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴿ او قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء ﴾ جعل بعضهم أو هنا بمعنى الواو كقوله تعالى حكاية عن قوم شعيب (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء) وقول الشاعر * عليها تقاها أو عليها فجورها * فيكون العطف فيه لتفسير افتراء الكذب ، وتعقب بأن المفسر لا يأتي بأو ، والمختار انه من عطف المقيد على المطلق أو الخاص على العام ، فان افتراء الكذب على الله يشمل كل قول على الله بغير علم سواء كان ذلك في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه فيدخل فيه ادعاء الوحي ، وادعاء التحليل والتحريم وغير ذلك من أحكام الشرع بغير علم ، وفي هذا الاخير آية الانعام (١٤٤) وهي الثالثة في هذا المعنى وستأتي ان شاء الله تعالى . وجعل بعضهم « أو » للتنويع في المعنى الواحد كأن يراد بالافتراء ادعاء النبوة من غير ذكر الوحي ، وبالثاني ادعاء الوحي من غير ذكر النبوة والرسالة ، وان كانا متلازمين

وما اخترناه أظهر، قالوا نزل هذا في الذين ادعوا النبوة من العرب وروي عن عكرمة وقتادة تخصيص مسيلمة الكذاب منهم، والمراد أنه يدخل في عموم حكمه من ذكر والسورة مكية نزلت قبل ادعائهم النبوة بزمن طويل فالمعروف أن مسيلمة ادعى النبوة سنة عشر من الهجرة حتى قيل ان ذلك كان بعد حجة الوداع وفي أثناء مرض النبي (ص) الذي توفي فيه ، فلما سمع الناس بمرضه وثب الاسود العنسي باليمن ومسيلمة باليمامة وطليحة في بني أسد فادعوا النبوة . ذكره ابن الاثير في تاريخه . ويكفي في صحة الوعيد فرض وقوع الذنب أو توقعه، ونهيك بوعيد عالم الغيب والشهادة جل وعز

﴿ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله أو ادعى الوحي منه وممن ادعى انه قادر على انزال مثل ما أنزل على رسوله ، كمن قال من المشركين (لو نشاء لقلنا مثل هذا) وهو النضر بن الحارث فقد كان ممن يقول من كفار مكة ان القرآن أساطير الاولين وانه شعر لو نشاء لقلنا مثله. وروى ابن جرير عن عكرمة والسدي ان هذا نزل في عبدالله بن سعد بن أبي سرح أخي بني عامر ابن لؤي أسلم وكان يكتب للنبي (ص) فكان اذا أملى عليه « سميعا عليما » كتب هو « عليما حكيما » والعكس فشك وكفر وقال ان كان محمد يوحى اليه فقد أوحي الي وان كان الله ينزله فقد أنزلت مثل ما أنزل الله . هذا تمثيل رواية السدي لما كان يغيره من عبارة الوحي. وعبارة عكرمة انه كان يملي عليه «عزيز حكيم» فيكتب «غفور رحيم» وهاتان الروايتان باطلتان فانه ليس في شيء من السور المكية « سميعا عليما » ولا « عليما حكيما » ولا « عزيز حكيم » الا في سورة لقمان والمروي عن ابن عباس أنها نزلت بعد سورة الانعام وان الآية التي ختمت بقوله تعالى «عزيز حكيم » منها وثنتين بعدها مدنيات (كما في الاتقان) وذكر بعض المفسرين أن النبي (ص) أملى عليه قوله سبحانه في سورة المؤمنين (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين — فلما انتهى الى قوله تعالى — ثم أنشأه خلقا آخر) عجب عبدالله من تفصيل خلق الانسان فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال رسول الله (ص) « هكذا أنزلت علي » فشك حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقا لقد أوحي الي ، ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال ، ولم أر هذه الرواية في كتب التفسير المأثور ، ويقال فيها مثل

ما في الروايتين الاوليين من حيث التاريخ فالمروي ان الانعام نزلت قبل سورة المؤمنين وان بينهما ١٨ سورة مكية . وما قيل من احتمال نزول هذه الآية بالمدينة لاحاجة اليه والرواية غير صحيحة ولكن ذكروا في التفسير المأثور ان عمر بن الخطاب (رض) قال ذلك فكان مما وافق فيه خاطره القرآن، وهو جائز ان صحت الرواية، وقد يكون من الكشف الذي يعبر عنه علماء النفس اليوم بقراءة الخواطر . ورووا مثله أيضا عن معاذ وانما أسلم معاذ بعد نزول السورة في المدينة . وروي ان عبد الله بن سعد لما ارتد كان يطعن في القرآن ولعله قال شيئا مما ذكر في الروايات عنه كذبا وافتراء فان السور التي نزلت في عهد كتابته لم يكن فيها شيء مما روي عنه انه تصرف فيه كما علمت، وقد رجع الى الاسلام قبل الفتح ولو تصرف في القرآن تصرفا أقره عليه النبي (ص) فشك في الوحي لما رجع الى الاسلام .

ثم ذكر تعالى وعيد الظالمين الذين بعد من وصف في الآية أشدهم ظلما وأفحشهم جرما فقال ﴿ ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت ﴾ الخ الخطاب للرسول ثم لكل من سمعه أو قرأه، وجواب «لو» محذوف للتهويل، والغمرات جمع غمرة قيل هي في أصل اللغة المرة من غمره الماء اذا غطاه ثم استعيرت للشدة وعليه الشهاب، وقال الراغب أصل الغمر ازالة أثر الشيء ومنه قيل للماء الكثير الذي يزيل أثر سيله غمر وغامر . والغمرة معظم الماء الساترة لقعرها وجعل مثلا للجهالة التي تغمر صاحبها، وقيل للشدائد غمرات اه ملخصا والمعنى ولو تبصر أو تعلم إذ يكون الظالمون الذين ذكروا في الآية أو جنس الظالمين الشامل لهم ولغيرهم في غمرات الموت وهي سكراته وما يتقدمه من شدائد الآلام البدنية أو النفسية أو مجموعهما التي تحيط بهم كما تحيط غمرات الماء بالغرقى . ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ اليهم بالعذاب يوم البعث أو باسطوها لقبض أرواحهم الخبيثة بالعنف والضرب كما قال (فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) واختاره ابن جرير . وقد استعمل بسط اليد بمعنى الايذاء المطلق في قوله تعالى (٥ : ١١ اذ هم قوم ان يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم) فان أكثر الايذاء العملي يكون بمد اليد، فان أريد إيذاء معين ذكر كقوله تعالى حكاية في قصة ابني آدم (٥ : ٢٨ لئن بسطت الي يدك لتقتلني) الآية . وقوله ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ حكاية لقول الملائكة لهم

هند بسط أيديهم لتعذيبهم أو لقبض أرواحهم ، ومعناه أخرجوها مما هي فيه أي ان استطعتم — فهو أمر توبيخ وتهكم ، أو اخرجوها من أبدانكم . قال صاحب الكشاف ان هذا تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح الظلمة بفعل العزيم الملح يبسط يده الى من عليه الحق ليعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له : اخرج ما لي عليك الساعة ولا أريم (أي لا أبرح) مكاني حتى أنزعه من أحد قلك ، ووافقه صاحب الكشف في المعنى ولكنه جعل الكلام كناية عن العنف في السياق ، والالحاح والتشديد في الارهاق ، من غير تنفيس ولا إمهال ، وانه ليس هناك بسط يد ولا قول لسان ، وكل من القولين جائز لغة لا تكلف فيه ، وكان يكون متعينا ، لو كان صدور ما ذكر عن الملائكة متعذرا ، ولو كشف اصحابي الكشاف والكشف الحجاب عن تمثل الملائكة للبشر بمثل صورهم ، ومخاطبتهم بمثل كلامهم ، لرأيا انهما في مندوحة عن العدول عن الحقيقة الى التمثيل أو الكناية . وقد تعقب الاول ابن المنير بأن هذه الامور ممكنة على الحقيقة فلا معدل عنها .

﴿ اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ هذا من قول الملائكة أو تتمته ها . واليوم في اللغة لزمن المحدود بصفة أو عمل يقع فيه كأيام الاسبوع وأيام العرب المعروفة في تحديد وقائعها وحروبها ، والمراد به يوم القيامة الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء ، وقيل ان المراد به وقت الموت ، بناء على القولين السابقين في بسط اليد ، والتحقيق ان المراد ببسط اليد مدها لتعذيبهم يوم القيامة وحينئذ يقولون لهم هذا القول ، ولا يصح القول الآخر الا اذا صح جعل وقت الموت مبدأ يوم القيامة وهو خلاف الظاهر ، والمعنى اليوم تلقون عذاب الذل والهوان ،[1] لا ظلما من الرحمن ، بل جزاء ظلمكم لانفسكم بسبب ما كنتم تقولون مفترين على الله غير الحق ، : كقول بعضكم ما أنزل الله على بشر من شيء ، وزعم بعض آخر انه أوحي اليه ولم يوح اليه شيء ، وجحد طائفة منكم لما وصف به نفسه من الصفات ، واتخاذ أقوام له البنين والبنات ، واستكبار آخرين

(١) الهون بالضم والهوان بالفتح الذل ومنه (أيمسكه على هون أم يدسه في التراب) والهون بالفتح اللين والرفق والدعة ومنه (الذين يمشون على الارض هونا) فيختلف المعنى باختلاف حركة الهاء

عما نصبه وما أنزله من الآيات البينات ، احتقارا من بعضهم لمن كرمه الله باظهارها على يده ولسانه ، وخشية بعض آخر من تعيير عشيرته واقرانه ، وحاصل المعنى : ولو ترى أيها المخاطب بهذا ما يحل بالظالمين عند الموت ويوم البعث والجزاء مما ذكر لرأيت أمرا عظيما ، وعذابا اليما .

﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ هذه جملة مستأنفة بين الله تعالى فيها ما يقوله لهؤلاء يوم القيامة بعد بيان ما تقوله لهم ملائكة العذاب كما جزم ابن جرير ، لا معطوفة على ما قبلها من حكاية قول الملائكة كما حكاه الرازي أحد وجهين وزعم أنه الاقوى ، غافلا عن قوله تعالى (خلقناكم) ولا ينافي هذا الخطاب قوله تعالى (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) لان معناه أنه لا يكلمهم كلام تكريم ورضاء أو هو كناية عن الغضب والاعراض ، والمعنى لقد جئتمونا متفرقين فردا بعد فرد[1] أو وحدانا منفردين عن الانداد والاوثان ، والاهل والاخدان ، والانصار والاعوان ، مجردين من الخول والخدم والاملاك والاموال ، كما خلقناكم أول مرة من بطون أمهاتكم حفاة عراة غلفا ، أكد تعالى الخبر بمجيئهم بعد وقوعه تذكيرا لهم بما كان من جحودهم اياه واستبعادهم لوقوعه . كما ذكرهم بمشابهة بعثهم واعادتهم لبدء خلقهم ، وهو المثل الذي جاءهم به الرسول (ص) من ربهم ، ﴿ وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ فلم تقدموا لانفسكم منه شيئا بين أيديكم . معنى خولناكم أعطيناكم ، وأصل التخويل اعطاء الخول ، كالعبيد والنعم ، يعبر بالترك وراء الظهر عما فات الانسان التصرف فيه والانتفاع به ، لفقده اياه أو بعده عنه وبالتقديم بين الايدي عما ينتفع به في المستقبل ، فالمراد هنا أن ما كان شاغلا لهم من المال والولد ، والخدم والحشم ، والاثاث والرياش ، عن الايمان بالرسل والاهتداء بما جاؤا به ، لم ينفعهم كما كانوا يتوهمون أن الله فضلهم به على المؤمنين ، وأنهم يمكنهم الافتداء به أو ببعضه من عذاب الآخرة ، إن صح قول الرسل ان بعد الحياة الدنيا

(١) قيل ان فرادى جمع فرد على خلاف القياس وقيل انه جمع فريد كاسارى جمع أسير ، والصواب انه لا يطلق جمعاً لفرد كافراد وانما خص بمجيئه حالا في مثل جاءوا فرادى فهو يشبه مثنى وثلاث في الاستعمال

حسابا وجزاء في حياة اخرى ، وانما كان يمكنهم الانتفاع به لو آمنوا بالرسل وانفقوا في سبيل الله ، ولولا أن هذا هو المراد لاستغني عن هذه الجملة بما قبلها ، ومثل هذا يقال في قوله ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ فان الاديان الوثنية قائمة على قاعدتي الفداء والشفاعة كما تقدم بيانه مرارا ، أي وما نبصر معكم شفعاءكم — من الملائكة وخيار البشر أو تماثيلهم وقبورهم — الذين زعمتم في الدنيا أنهم فيكم شركاء لله تعالى ، تدعونهم ليشفعوا لكم عند الله تعالى ويقربوكم اليه زلفى ، بتأثيرهم في ارادته ، وحملهم اياه على فعل مالم تتعلق في الازل به . وقد تقدم شرح هذه العقيدة الوثنية والتفرقة بينها وبين احاديث الشفاعة في تفسير هذه السورة وغيرها

﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ البين الصلة أو المسافة الحسية أو المعنوية الممتدة بين شيئين أو أشياء فيضاف دائما الى المثنى كقوله تعالى (فأصلحوا بين أخويكم * فأصلحوا بينهما بالعدل) أو الجمع لفظا أو معنى كقوله تعالى (أو إصلاح بين الناس) ولا يضاف الى الاسم المفرد الا اذا كرر نحو (هذا فراق بيني وبينك * ومن بيننا وبينك حجب) ويستعمل في الغالب ظرفا غير متمكن وفي القليل اسما . وقد قرأه هنا عاصم وحفص عنه والكسائي بفتح النون أي تقطع ما كان بينكم من صلات النسب والملك والولاء والخلة ، وقدر بعضهم : تقطع الوصل بينكم . وقرأه الجمهور بالرفع على الفاعلية قالوا أي تقطع وصلكم أو تواصلكم ﴿ وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ أي وغاب عنكم ما كنتم تزعمون من شفاعة الشفعاء ، وتقريب الاولياء ، وأوهام الفداء ، اذ علمتم بطلان غروركم به واعتمادكم عليه ، أو ضل الشفعاء الذين كنتم تزعمون أنهم تشفعون لكم ، نفي الكلام نشر على ترتيب اللف ، فان تقطع البين راجع الى ترك ما خوطبوا ، وفقد الشفاعة أو الشفعاء راجع الى ما بعده ، وجملة القول إن آمالهم خابت في كل ما كانوا ما يزعمون ويتوهمون . وقد سبق لهذا نظير في الآيات (٢٠ — ٢٤) من هذه السورة فراجع تفسيرها في (ص ٣٤٢) من هذا الجزء ...

فتاوى المنار

ان غرضنا الاول من فتح هذا الباب في المنار بيان ما يشكل على الناس من حقائق الدين وكونه سبب سعادة الدارين، ما يخفى عنهم من اتفاق عقائده من العقل والعلم، وموافقة أحكامه للمصالح العامة، وآدابه للفضيلة العليا والتكميل الانساني الاعلى، ورد ما يرد من الشبهات على ذلك، وكذا ما يحل أو يحرم في أصل الشرع لمن ينفي الاهتداء به، وليس من غرضنا بيان أحكام المعاملات المالية والشخصية، في الوقائع التي يرجع فيها الى المحاكم الشرعية والمدنية، والغرض الثاني بيان المشكلات الاجتماعية والادبية التي تتعلق باصلاح حال الامة.

الانتفاع بالرهن — هل هو ربا

«س ١» من محمد محمد فاضل احد مشتركي المنار بسنجرج (منوفية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله (أما بعد) فما يقول الاستاذ الفاضل الامام الهمام السيد محمد رشيد رضا حفظه الله في الانتفاع بالاطيان المرهونة المسمى عند الفلاحين (بالغروقة) هل هو من الربا المحرم الداخل تحت قولهم (كل قرض جر نفعا فهو ربا) أو يقاس على الظهر والدر في قوله صلى الله عليه وسلم «الظهر يركب بنفقته اذا كان مرهونا ولبن الدر يشرب بنفقته اذا كان مرهونا» الحديث أم ان هذا الحديث لا يقاس عليه شيء غير الذي ورد فيه. الرجا أن تفيدونا بالجواب ولكم حسن الثواب تحريرا في ٥ ربيع اول سنة ١٣٣٧

(ج) ان ما ذكر من الانتفاع بالرهن ليس من الربا وجملة «كل قرض جر نفعا فهو ربا» رويت حديثاً ولم يصح بل قيل بوضعه كما بينا ذلك في المنار من قبل (ص ٣٦٢ م ١٠) في حديث الصحيحين وغيرهما أن النبي (ص) زاد في قضاء الدين على الاصل وعده من حسن القضاء، وانما تكون الزيادة ربا اذا كانت مشروطة في العقد، وأما الانتفاع بالرهن فالحديث الذي أوردتموه فيه رواه البخاري في صحيحه واكثر أصحاب السنن وغيرهم وورد بالفاظ أخرى ولكن الانتفاع بالرهن فيه في مقابل النفقة عليه لا في مقابل الدين، وقد قال بعض الأئمة بالاخذ به في الرهن الذى يحتاج الى نفقة مطلقا واشترط بعضهم فيه امتناع الراهن من تلك النفقة ومنع أكثرهم الانتفاع بالرهن مطلقا وأجابوا عن الحديث بما لا محل لبيانه هنا. وبعضهم يجيز انتفاع المرتهن بالرهن باذن الراهن وهو الذى جرت عليه جمعية علماء الحنفية، التي وضعت للدولة مجلة الاحكام العدلية، ومن الناس من يجري في هذه المسالة على طريقة بيع الوفاء وهو معروف ومقرر في المجلة أيضا

مبادئ الانقلاب الاجتماعي الاكبر

وحرية الامم

(١)

شروط الصلح العالمي أو صلح الامم العام

التي وضعها وأعلنها الدكتور ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة في أول سنة ١٩١٨ وقبلتها حكومات الحلفاء ثم رضيت الحكومات المحاربة لهن بجعلها قواعد للصلح العام

« وذلك قبل التعديلات التي اقتضت الحال ادخالها عليها »

منقولة عن الجرائد المصرية ومصححة على نسخة التيمس الصادرة في ١١ يناير سنة ١٩١٨

١ — ابرام اتفاقات الصلح علانية واعدادها علانية وبعد عقدها لا تبرم اتفاقات خاصة من أي نوع كان مما يتناول الشؤون الدولية ولكن الهيئات السياسية تعمل دائما جهارا وعلى مرأى من العالم .

٢ — حرية الابحار في البحر خارج حوم السواحل مطلقة من كل قيد (حوم السواحل ٦ أميال) سواء كان في زمن السلم أو في زمن الحرب الا في حالة اقفال البحار كلها أو بعضها بأمر دولي عام تنفيذا لاتفاقات دولية

٣ — ازالة الحواجز الاقتصادية جهد ما تصل اليه الطاقة . وتقرير المساواة في الصلات التجارية بين جميع الامم التي ارتضت الصلح وتشاركت في تأييده

٤ — اعطاء الضمانات الكافية وأخذها بأن ينقص سلاح كل بلاد الى أقله مما يتفق مع أمن البلاد في داخلها

٥ — التسوية الحرة المقرونة بالتساهل والنزاهة التامة للدعاوي الاستعمارية يكون مبناها الاحترام التام للمبدأ الذي يجعل مصلحة الشعوب ذات الشأن مساوية للدعاوي المتنازعة التي تدعيها حكومة المنوي تقرير صفتها أو عنوانها

٦ — اجلاء عن الاراضي الروسية كلها وتسوية كل مسألة تتعلق بروسيا على وجه يضمن لها أحسن المعاونة وأوسعها من جميع أمم الارض . بحيث تقدم لروسيا

الفرصة الموافقة لتقرر دون حائل ولا مانع عرقلة تقدمها السياسي والقومي ويكفل لها بكل اخلاص قبولها في حجر الامم الحرة بالانظمة التي تختارها هي لنفسها بل يقدر لها فوق قبولها المساعدة التي قد تحتاج اليها أو تتمناها من كل وجه

والمعاملة التي تعامل بها روسيا من الامم شقيقاتها في الاشهر المقبلة تكون الدليل الناصع على حسن مقاصدهن وعلى معرفتهن حاجات روسيا بصرف النظر عن مرافقهن الخاصة بل الدليل على عطفهن المعقول وتزمين

٧ — العالم كله موافق على قصد الجلاء عن البلجيك وترميمها دون أقل مسعى للنقص من سيادتها التي تتمتع بها كسائر الامم الحرة ولا يقوم عمل من الاعمال كهذا العمل في اعادة ثقة الامم في القوانين التي وضعتها هي ذاتها وجعلتها دستورا لصلاتها المتبادلة . وبدون هذا العمل يتهدم بناء القانون الدولي وتضيع قيمته الى الابد

٨ — تحرير جميع الاراضي الفرنساوية وترميم جميع المناطق المجتاحة والغرم الذي أصاب فرنسا من بروسيا في عام ١٨٧١ فيما يتعلق بالالزاس واللورين وهو الغرم الذي كدر صفو العالم في مدة خمسين سنة تقريبا يجب أن يعوض عليها حتى تعه دضمانة السلم لمصلحة الجميع

٩ — تعديل الحدود الطليانية يجب أن يتم طبقا لمبادئ قومية واضحة كل الوضوح

١٠ — تعطى لشعوب النمسا وهنغاريا التي نريد أن نرى مقامها بين الامم ثابتا ومضمونا كل التسهيلات لزيادة استقلالها الاداري

١١ — رومانيا وصربيا والجبل الاسود يجلى عنها والاراضي المحتلة ترمم ويضمن لصربيا طريق الى البحر . وصلات الدول البلقانية تكون متبادلة ومعينة بنصائح ودية، وتجري هذه الصلات على قاعدة التقاليد العنصرية المقررة تاريخيا . ويجب البحث الجد في الضمانات الدولية للاستقلال السياسي والاقتصادي وصيانة الاملاك لدول البلقان

١٢ — الاقاليم التركية من أملاك السلطنة العثمانية الحاضرة يجب أن يضمن لها سلطان وطني وطيد . ولكن الامم الاخرى التي هي الآن تحت الحكم التركي يجب أن تضمن لها حياة أمن لا ريب فيه وفرصة للتدرج في الاستقلال الاداري لا شائبة فيها أبدا . وأما الدردنيل فيجب أن يظل مفتوحا دائما كطريق حرة لبواخر جميع الامم ومتاجرها تحت حماية جميع الدول

١٣ — يجب انشاء دولة بولونية مستقلة وهذه الدولة تتألف من جميع الاراضي التي لا يجادل بأن سكانها من البولونيين وتضمن لهذه الدولة طريق الى البحر ويضمن باتفاق دولي استقلالها السياسي والاقتصادي كما تضمن سلامة أملاكها وأراضيها

١٤ — يجب أن تؤلف من جميع الامم عصبة عامة باتفاقات معينة يكون الغرض منها تبادل الضمان للاستقلال السياسي وصيانة الاملاك على حد المساواة للامم الصغيرة والكبيرة .

(٢)

خطبة الرئيس ولسن في عيد استقلال الاميركيين

مترجمة عن عدد التيمس الذي صدر في ١٢ يوليو سنة ١٩١٨

في اليوم الرابع من يوليو (تموز) الماضي احتفلت الولايات المتحدة الاميركية بعيد استقلالها فوقف الرئيس ولسن عند قبر وشنطون على جبل فرنون وخاطب المجتمعين حوله قائلا :

يسرني أن آتي معكم الى هذا المحل الاستشاري القديم البعيد عن الضوضاء لأخاطبكم قليلا بمغزى هذا اليوم الذي هو عيد حرية أمتنا ، المكان منفرد والهدوء تام فيه ، وهو لا يزال بعيدا عن ضوضاء العالم كما كان في تلك الايام الخطيرة الشأن حينما كان الجنرال وشنطون يأتيه مع الرجال الذين اشتركوا معه في انشاء الامة الاميركية ، كانوا يتطلعون الى العالم من هذا المكان فرأوه بعين الخيال التي تنظر الى المستقبل ، رأوه بعين أبناء هذا العصر التي لا يرضيها ماض تنفر منه النفوس الابية . ولذلك لا نشعر بأن هذا المكان موقف رجل ميت ولو كان قبره أمامنا ، فانه المكان الذي عمل فيه عمل عظيم ، عمل حي . هنا وعد الناس وعدا عظيما قولا وفعلا ، فالذكرى التي تحيط بنا في هذا المكان وتبث النشاط في نفوسنا هي ذكرى ذلك الرجل العظيم الذي لم يكن موته سوى خاتمة مجيدة لحياة مجيدة .

ومن هذه الاكمة الخضراء تتطلع بأعين باصرة الى العالم المحيط بنا ونتصور الوسائل التي يجب أن تحرر نوع الانسان . ومما لا ريب فيه أن وشنطون وشركاءه أثبتوا بأخلاقهم وأعمالهم أنهم لم يكونوا يقولون ويفعلون لاجل فريق من الناس خاصة بل لاجل الشعب كله . فعلينا نحن أن نثبت أنهم لم يقولوا ولم يفعلوا لاجل

شعب واحد بل لاجل العالم أجمع. لم يكن اهتمامهم بأنفسهم ولا بمصالح الملاك والتجار وأصحاب المصالح الاخرى الذين كانوا يعاملونهم في فرجينيا وما اليها شمالا وجنوبا بل بالشعب كله الذي كان يرغب في نزع الامتيازات التي تميز ذوي المقامات العليا ونفي الخاصة وابطال سلطة حكامهم الذين لم يختاروهم للحكم عليهم .

لم يكن لوشنطون ومشيريه منافع شخصية ولا طلبوا امتيازات خاصة وانما أرادوا أن يكون كل انسان حرًّا وأن تكون أميركا ملجأ يلجأ اليه كل من يريد من أمم الارض أن يشاركهم في حقوق الاحرار ومزاياهم .

فبهدى أولئك الفضلاء نهتدي معتقدين أن اشتراكنا في هذه الحرب هو ثمرة الغرس الذي غرسوه . والفرق بيننا وبينهم أنه قسم لنا من حسن حظنا أن نشترك مع أناس من كل أمة في ما تؤمن به حريتنا وحرية كل الامم . ويسرنا جدا أنه أتيح لنا أن نفعل ما كان أسلافنا يفعلونه لو كانوا في مكاننا ، ويجب أن ينال العالم كله ما نالته أميركا في العصر الذي أتينا لنتذكره ونستمد الالهام منه .

لا شبهة في أن هذا المكان من أصلح الاماكن لان نلتفت منه الى عملنا ونوطن أنفسنا على القيام به، وهو من أصلح الاماكن لان نبين للاصدقاء الذين ينظرون الينا وللحلفاء الذين كان من حسن الحظ أن شاركناهم في العمل ما هو الدافع الذي يدفعنا اليه وما هي الاغراض التي نرمي اليها .

فهذا ما نراه في هذه الحرب التي خضنا غمارها . ان أغراض الخصمين منها واضحة بينة في كل فصل من فصولها . ففي الجهة الواحدة نرى أمم العالم التي اشتركت في الحرب فعلا والامم التي تئن من السيادة ولكنها لا تستطيع المقاومة . أمما كثيرة في كل أقطار المسكونة ومنها أمم روسيا التي تقوّض بنيانها الآن .

وفي الجهة الاخرى نرى قواد جيوش ورؤساء حكومات لا يرمون الى نفع عام بل الى نفع خاص : الى مطامع شخصية لا ينتفع بها أحد غيرهم ، وأسيادا شعوبهم كالوقود في أيديهم، وحكومات تخشى من شعوبها ولكنها متسلطة عليهم تتصرف في دمائهم وأموالهم كما تشاء وفي دماء كل الشعوب التي تتسلط عليهم وأموالهم ، حكومات ترتدي حلل سيادة قديمة غريبة عن عصرنا ومعادية له .

فهذه الحرب الزبون الناشبة بين الماضي والحاضر وشعوب الارض تستشهد في معتركها لا بد من أن تكون فاصلة حاسمة لا مهادنة فيها ولا مراضاة ولا توسط ولا هوادة

الحلفاء يحاربون لاجل أغراض أربعة ولا يلقون السلاح من أيديهم قبل أن تتحقق كلها:

(الاول) ملاشاة كل قوة استبدادية تستطيع أن تزعزع أركان السلم اذا أرادت ولو سرا . واذا كانت ملاشاة القوى الاستبدادية غير مستطاعة وجب على الاقل اضعافها حتى تعجز عن الضرر .

(الثاني) تسوية كل خلاف سواء كان في أرض أو سلطة أو مصلحة اقتصادية أو علاقة سياسية على مبدأ رضا الشعب الذي تتعلق به تلك التسوية مباشرة لا على مبدأ المصالح المادية والمنافع الشخصية التي تنال شعبا آخر أو تنال قوما يرغبون في تسوية أخرى لتعزيز سيادتهم أو نفوذهم الخارجي

(الثالث) تسليم الشعوب كلها بأن معاملة بعضهم مع بعض خاضعة لمبادئ الشرف والاحترام لناموس العمران الذي يخضع له سكان كل الممالك العصرية . وان علاقاتهم بعضهم مع بعض خاضعة للقانون القاضي بأن كل العهود والوعود يجب أن تحفظ حفظا تاما بلا دسيسة ولا مخادعة ولا ضرر ولا ضرار ، ولتوثيق عرى الثقة التامة على أساس الاحترام المتبادل والحقوق المتبادلة .

(الرابع) انشاء نظام للسلم يجمع قوة الامم الحرة لمقاومة كل معتد على الحق ويحفظ السلم والعدل باقامة محكمة من الرأي العام يخضع لها الجميع ويكون لها حق الفصل في كل خلاف يقع بين الامم ويتعذر عليهم فضه .

هذه الاغراض العظيمة يمكن التعبير عنها بجملة واحدة وهي اننا نطلب سلطان القانون المؤسس على رضا الرعايا والمؤيد برأي البشر المنظم . هـذه الاغراض العظيمة لا تنال بالبحث والتوفيق بين مطالب رجال السياسة وما يشيرون به لتوازن القوة لحفظ مصالح الامة وانما تنال بما يصمم عليه العقلاء الذين يتوخون العدل والحرية

ويلوح لي أن هواء هذا المكان سيحمل صدى هذه المبادئ الى كل الانحاء . هنا قامت قوات حسبتها الامة العظيمة التي وجهت لمقاومتها عصيانا على سلطتها الشرعية ولكنها رأتها بعد ذلك خطوة في تحرير شعبها كما هي خطوة في تحرير شعب

الولايات المتحدة . وقد وقفت الآن لاتكلم والفخر ملء نفسي والامل والثقة ملء جوانحي عن نشر هذا العصيان بل هذا التحرير في أقطار المسكونة .

ان حكام بروسيا الذين عميت بصائرهم أثاروا قوى لا يعرفون قدرها، قوى اذا ثارت لا يمكن اخمادها لانها مدفوعة بعزم وحزم لا فتور لهما ولان النصر معقود بناصيتها ،

(٣)

وجوه الحرب أو مقاصدها وجمعية الامم

خطبة الدكتور ولسن في نيورك

منقولة عن عدد التيمس الذي صدر في ٤ اكتوبر سنة ١٩١٨

خطب الرئيس ولسن في نيويورك قبل فتح باب الاكتتاب في قرض الحرية الرابع بستة آلاف مليون ريال فقال انه لم يعد ل منبر الخطابة ليروج القرض فان لترويجه رجالا ونساء لاتني همتهم ولا يفتر ولاؤهم وقفوا أنفسهم بحماسة على عرضه على مواطنيهم في جميع أنحاء البلاد، وسيكون النجاح التام قرين عملهم لما هو معروف عن حميتهم وحمية البلاد . وهذه الثقة مؤيدة بما يبذله مديرو المصارف (البنوك) من المعونة الصادقة القائمة على الخبرة والروية ، فانهم يساعدون مساعدة لا تثمن ويرشدون بآرائهم ومشورتهم . ثم قال : —

ماجئت لاروج القرض وانما جئت منتهزا هذه الفرصة لاطلعكم على أفكار تظهر لكم الامور التي يدور عليها هذا النزاع العظيم وتجلوها لعيونكم أكثر من قبل وتزداد حماستكم لحمل واجب تأييد الحكومة برجالكم وماعندكم من الوسائل المادية والبذل والايثار (وانكار الذات) الى أقصى الحدود. فليس في الدنيا رجل أو امرأة استوعب معنى هذه الحرب وهو يتردد في بذل كل ما عنده . فمهمتي القيلة هي أن أشرح لكم مرة أخرى معنى هذه الحرب ومغزاها لنا. وحسبي هذا اذكاء لشعوركم، وتذكيرا لكم بالواجب عليكم، فانه كلما انقضى دور من أدوار هذه الحرب تجلى لنا ما نروم أن نبلغ بها . ومتى هاج فينا عامل الرجاء والانتظار أشد هياج ازداد تأملنا في النتائج التي تبنى عليها ، والاغراض التي تنال بها، وازداد ذلك كله وضوحا لاعيننا، فان للحرب أغراضا معينة لم نوجدها نحن ولا نستطيع تغييرها، ليست هذه الاغراض

من مخترعات رجال السياسة ومجالس الحكومات ، وليس في طاقة السياسة والمجالس تغييرها وتبديلها، لانها نشأت من طبيعة الحرب وأحوالها، فجهد ما يستطيعه الساسة ومجالس الحكومات تنفيذ هذه الاغراض أو نبذها خيانة منهم . ويحتمل أن هذه الاغراض لم تكن جلية في أول الامر ولكنها صارت جلية اليوم، فقد دامت الحرب أكثر من أربعة أعوام وخاضها العالم كله وحلت مشيئة بني البشر فيها محل مقاصد الدول . ويحتمل أن تكون الحرب أضرمت بيد فريق من رجال السياسة والدول ولكن ايقافها فوق طاقتهم وفوق طاقة خصومهم، لانها صارت حرب شعوب وشملت شعوبا من جميع الاجناس على اختلاف المراتب في القوة والثروة . وقد خضناها لما ثبتت صبغتها، وظهر أنه لا يوجد أمة تستطيع الوقوف أمامها مغلولة اليدين غير مكترثة لنتائجها . وقد تحدثنا الحرب فتحدث في قلوبنا كل ما نعز في الدنيا وكل ما نحيا لاجله، وسمعنا صوتها فكان له رنة في قلوبنا، وسمعنا أيضا أصوات اخواننا من جميع أقطار العالم، وأصغينا الى نداء اخواننا الذين نادونا بعد ما سقطوا قتلى الى قاع البحار فلبينا دعوتهم بهمة عظيمة وشجاعة . وكان الجو حولنا صافيا نقيا فرأينا الامور على حقيقتها وظللنا نراها بأعين شاخصة وعقول لم تتغير من ذلك الحين . وقبلنا الوجوه التي تدور الحرب عليها بحكم الحقائق، لا كما عرفها جماعات من الناس هنا أو في البلدان الاخرى ، فلا يمكننا أن نقبل نتيجة لا تطابق تلك الوجوه أولا نحلها .

وهذه الوجوه أو الامور الجوهرية هي :

هل يسمح للسلطة العسكرية في أمة أو مجموعة من الامم أن تبت الحكم في مصير شعوب ليس لها من الحق في حكمها سوى الحق المكتسب بالقوة ؟

هل يجوز للامم القوية أن تتعدى على الامم الضعيفة وتخضعها لمقاصدها ومصالحها؟

هل يكون حكم الشعوب في أمورها الداخلية بقوة مطلقة غير مسؤلة أم بمشيئتها واختيارها .

هل يكون في العالم مقياس عام للحق والامتياز في جميع الشعوب أم يفعل القوي ما يشاء ويعذب الضعيف ولا ناصر له ؟

هل يوطد الحق اتفاقا بمحالفات تعقد احتياطا أو تكون هنالك جمعية من الامم

توجب احترام الحق العام المشترك ؟

هذه وجوه الحرب لم يخترعها رجل واحد ولا جماعة من الناس فهي ملازمة للحرب ويجب أن تبت إما بالاتفاق أو التساهل أو بالتوفيق بين المصالح، ولكن يجب أن يكون بتها نهائيا مع التسليم التام الصريح بالمبدأ القائل أن مصلحة ضعف الخلق مقدسة كمصلحة أقواهم. وهذا ما نعنيه بالسلم الوطيد الدائم اذا تكلمنا باخلاص وفهم وعلم حقيقي بالمسألة التي نحن فيها . فنحن متفقون على أن لا سلم يحرز بالمساومة والتساهل مع الدولتين الجرمانيتين لاننا عاملناهما قبل اليوم ورأيناهما في تعاملهما مع حكومات أخرى كانت تحارب في هذه الحرب وشاهدنا ما فعلتا بها في (برست لتوفسك) و(بخارست) فأقنعتانا بأنهما خاليتان من الشرف، وأنهما لا تبتغيان العدل ولا ترعيان عهدا ولا تعرفان مبدأ سوى القوة ومصلحتهما ، فلا اتفاق معهما غير مستطاع وقد جعلتاه مستحيلا، والشعب الالماني يعلم الآن أننا لا نقبل عهود الذين جرونا الى هذه الحرب فاننا واياهم على طرفي نقيض في معنى الاتفاق والتفاهم .

ومن أهم الامور أن نجمع إجماعا تاما صريحا على اجتناب كل صلح يحرز بالتساهل أو التنازل عن شيء من المبادئ التي جاهرنا بأننا نحارب لاجلها . ولهذا أتكلم بمنتهى الصراحة عن الامور التي يشملها ما تقدم . فاذا كانت الحكومات التي نحارب ألمانيا وشعوب تلك الحكومات متفقة على إحراز صلح وطيد ثابت كما أعتقد وجب على جميع الذين يجلسون حول مائدة الصلح أن يأتوا اليها وهم مستعدون أن يدفعوا الثمن الوحيد الذي يحرز هذا الصلح به، وأن يوجدوا الاداة الوحيدة التي تكفل تنفيذ معاهدات الصلح واحترامها . وهذا الثمن هو العدل المجرد عن الهوى في تنفيذ كل مادة من مواد الصلح بقطع النظر عن المصالح التي يعترض ذلك لها وعن أصحاب هذه المصالح . لا أقول العدل المطلق فقط بل ارتياح الشعوب التي يحكم في أمورها ومصيرها أيضا، فالاداة التي توصل الى ذلك والتي لا بد منها هي جمعية الامم التي تؤلف بعهود فعالة . ومن دون هذه الاداة التي تكفل دوام السلام يظل السلم العام قائما بعضه على وعود قوم ساقطين من الحقوق، لان ألمانيا يجب أن تبيض سواد صفحتها لا في مجلس الصلح بل فيما يعقبه. وعندي ان تأليف جمعية الامم هذه وتعيين

الغرض منها تعييناصريحا جليا يجب أن يكون جزءا من الصلح نفسه بل أهم جزء فيه.

ولا يمكن تأليف هذه الجمعية الآن فانها اذا ألفت الآن كانت عبارة عن محالفة جديدة مقتصرة على الامم المتحدة على عدو مشترك . ولا يحتمل أن تؤلف بعد عقد الصلح اذ من الواجب ضمان السلم والسلم لا يضمن بخاطر يخطر بالبال بعد الصلح . أما السبب الذي يقضي بضمان السلم فهو — بالقلم العريض — وجود فريق من الذين يبرمونه أثبت العالم أن عهوده لا يعول عليها، فيجب تدبير وسيلة عند عقد الصلح لازالة هذا العامل . ومن الحماقة أن يترك الضمان لمشيئة الحكومتين اللتين رأيناهما تدمران روسيا وتخدعان رومانيا

ولكن هذه الاقوال العمومية لا تكشف اللثام عن المسألة كلها ولا بد من تفاصيل تجعلها أقرب الى الامور العملية منها الى الامور النظرية . فاليكم بعض التفاصيل أتلوها عليكم بثقة أعظم لانها رسمية تعبر عن تأويل الحكومة الاميركية الواجب عليها في مسألة السلم

الاول ان معنى العدل المجرد عن الهوى هو أن لا نميز بين الذين نريد أن نعدل فيهم والذين لا نريد أن نعاملهم بالعدل. فالعدل يجب أن لا يفرق ولا يميز ولا يحابي ولا يعرف من المقاييس سوى التساوي في الحقوق بين الشعوب المختلفة صاحبة الشأن

الثاني لا يجوز أن تجعل المصلحة الخاصة لامة أو أمم أساسا لجزء من الصلح اذا كانت مناقضة لمصلحة الكل

الثالث لا يجوز انشاء محالفات أو عهود خاصة واتفاقات داخل جمعية الامم العامة

الرابع لا يجوز أن تعقد في قلب جمعية الامم اتفاقات ومعاهدات اقتصادية خصوصية مصدرها حب الذات ، ولا يجوز استخدام المقاطعة الاقتصادية في أي شكل كان الا كعقاب اقتصادي باخراج المعاقب من أسواق العالم، وهذه سلطة تخول لجمعية الامم التأديب والسيطرة

الخامس يجب نشر جميع الاتفاقات التي تبرم بين الدول على رءوس الاشهاد بحذافيرها وقد كانت المحالفات القومية والمعاهدات على اختلاف انواعها والمنافسة الاقتصادية مصدرا كبيرا للخطط والشهوات التي تؤدي الى الحرب فكل صلح

لا يقضي على هذه المحالفات والاتفاقات يكون صلحا خاليا من الاخلاص غير مأمون البقاء .

ان الثقة التي أتكلم بها عن شعبنا في هذه الامور لم تنشأ عن تقاليدنا فقط ولا عن مبدإ العمل الدولي الذي جاهرنا باتباعه دائما فقط، فاذا قلت ان الولايات المتحدة لا تعقد معاهدات واتفاقات خصوصية مع أمم معينة فإني أقول أيضا ان الولايات المتحدة مستعدة لحمل نصيبها الكامل من تبعة المحافظة على العهود العامة والاتفاقات المشتركة التي يشاد السلم عليها من الآن . فانا لا نزال نتلو وصية وشنطن الخالدة باجتناب « المحالفات المؤدية الى المشاكل » ونفهم مضمونها ونلبي الدعوة التي فيها . على ان المشاكل تأتي من محالفات خصوصية محدودة، فنحن نقبل الواجب الذي يفرض علينا في العصر الجديد الذي نرجو فيه محالفة عامة تجتنب فيها المشاكل وتطهر جو العالم للتعارف بين شعوبه والمحافظة على حقوقه المشتركة

وصفت الحالة الدولية كما حققتها الحرب . لا لاني أظن أن زعماء الشعوب العظيمة التي نحن متحدون معها مختلفون لي في الرأي والقصد، بل لان الجو يظلم من حين الى حين بما ينتشر فيه من الضباب وما يطير فيه من الريب والظنون التي لا اساس لها، وتشويه لآرائهم تشويها يراد به الشر، فيجب من حين الى حين دحض الاقوال التي يقولها غير المسؤولين عن دسائس للصلح، أو عن ضعف في العزيمة ووهن في القصد من جانب ولاة الامور، ويجب من حين الى حين المجاهرة بأتم الصراحة بما تكرر ذكره من قبل

قلت اني لم أوجد وجوه الخلاف في هذه الحرب والمحاور التي تدور عليها ولم يوجدها غيري من رجال الحكومة بل قابلتها بما أوتيت من بعد النظر والتصميم الذي اشتد بزيادة وضوح هذه الامور . ومن الواضح الآن ان هذه النتائج مما لا يستطيع أحد ان يقلبها إلا اذا تعمد ذلك، فانا مضطر أن أقول لاجلها كما أظهر الزمان والاحوال لي ولكل العالم ، وحاسبنا لهذه الامور تزداد كلما ازدادت جلاء، والقوات التي نقاتل لاجلها تتآزر وتتآلب وتقوى بما بينها كلما ازدادت هذه الامور وضوحا امام أعين الشعوب المتحاربة ، ومن مميزات هذه الحرب العظمى أنه بينما رجال الدول يبحثون عن تعاريف لتعريف مقاصدهم وأغراضهم ويظهرون بمظهر المتقلب الذي يغير اتجاه نظره كانت عقول الشعوب التي يفرض على أولئك

الرجال تعليمها وانارة أذهانهـا تصقل وتتبين الاغراض التي تحارب لاجلهـا ، فصرف النظر عن الاغراض القومية ، وحل محلها الغرض العام المشترك للانسانيـة المستنيرة، وصارت آراء الناس أبسط مما كانت وأصدق وأشد اتحادا من آراء رجال الاعمال الذين لا يزالون يعتقدون أنهم يقامرون لاجل القوة والسلطة . يقامرون بمبالغ عظيمة ، لهذا قلت ان الحرب حرب شعوب وليست حرب ساسة، فعلى رجال السياسة أن يتبعوا سير الفكر العام وإلا سقطوا . وعندي ان هذا هو المدلول عليه في الاجتماعات التي يعقدها عامة الناس الآن ويطلبون في كل واحد منها تقريبا من رجال حكوماتهم أن يخبرهم بالصراحة التامة ما يبغون من هذه الحرب وما هي الشروط التي يظنون أنها ستكون شروط تسويتها النهائية . ولم يتح من ذكرت الى ماقيل لهم حتى الآن جوابا عن سؤالهم، لانهم يخشون أن يكون جواب السؤل مفرغا في عبارات تقسيم الاملاك والبحث في السلطة لا في قالب العدل والرحمة والسلام، وارواء غليل المظلومين من الرجال والنساء والشعوب المستعبدة، وهي الامور التي يرون أنها جديرة بحرب كهذه غمرت العالم ، ويحتمل أن يكون الساسة لم يدركوا هذا التغيير في عالم السياسة والعمل، ويحتمل أنهم لم يجيبوا مباشرة عن السؤال المطروح عليهم لانهم لم ينتبهوا الى دقة السؤال والجواب المطلوب . أما أنا فيسرني أن أحاول ترديد الجواب راجيا أن يفهم العالم أن الشغل الشاغل لي هو إرضاء الذين يحاربون في الصفوف وهم أولى الناس بالجواب الذي لا يعذر أحد على عدم فهمه مادام يفهم اللغة التي يصاغ هذا الجواب بها أو يستطيع الحصول على من يترجمه له الى لغته بالضبط . وعندي أن زعماء الحكومات التي نحن مشتركون معها سيتكلمون بالصراحة التي أحاول أن أتكلم بها كلما حانت لهم فرصة، وعسى أن يشعروا أنهم أحرار في مخطئتي اذا اعتقدوا أنني مخطيء في تعيين الامور التي تنشأ عن الحرب أو في ما أقول عن الوسائل التي يمكن بها الحصول على الحل الموافق لهذه الامور

ان توحيد القصد بين الدول في هذه الحرب ضروري كتوحيـد القيادة في الميدان، وهذا التوحيد في المشورة والرأي يكفل النصر التام ، فالنصر لا يحرز بغير ذلك « والمجوم الصلحي » لا يقع الا متى أظهرنا أن كل انتصار تحرزه الشعوب

المتحدة على ألمانيا يدني الامم من الامان والطمأنينة ويجعل تكرار حرب كهذه مستحيلا . ان ألمانيا لا تفتأ تلمح الى الشروط التي تقبلها (لعقد الصلح) فنجد أن العالم لا يقبل شروطا لصلح، بل يطالب انتصار العدل انتصارا نهائيا ، ويبغي الانصاف في المعاملة . انتهى :

﴿ تعليق المقطم ثم المقتطف على هذه الخطبة ﴾

نشر المقطم هذه الخطبة في ٢ اكتوبر وعلق عليها التعليق التالي قال :

«جعل الدكتور ولسن موضوع خطبته « جمعية الامم » التي يصبو الى تأليفها من جميع الدول ليكون منها حائل يحول دون وقوع حرب عظيمة أخرى تنكب بها الانسانية نكبات تعرقها عرق المدى . والذي ينعم النظر في هذه الخطبة النفيسة البليغة يجد أنه لم يقل فيها قولا لم يسبق له أن جاهر به في خطبته السابقة وخطاباته التاريخية الى مجالس الامة الاميركية فقيمتها اذا في تأييد المبادئ والقواعد التي وضعها وبسط الآراء التي كان أول من نادى بها في معترك الامم، فدل ذلك على أن نبي الحق ونصير العدل والرأفة في هذا العصر مصمم على أن يطبق هذه المبادئ النظرية على سياسة العالم العملية بكل ما أوتي من علم وذكاء وهمة ونشاط وما رزق شعبه من قوة وثروة وعلم وحمية

«إن الاشتراكية الصحيحة الخالصة من كل شائبة والتي ترفع قدر الانسانية هي الاشتراكية التي نادى بها الدكتور ولسن بقوله في خطبته هذه « ان مصلحة أضعف الخلق مقدسة كمصلحة أقواهم »

«ورب قائل يقول ان الدكتور ولسن ليس بمبتكر لهذا المبدإ فقد جاهر به غيره من قبله . وقد يكون الامر كذلك ولكن ولسن ينوي أن يكون أكبر عامل في تطبيقه فعلا واخراجه من حيز القوة الى حيز الفعل واتخاذ الوسائل التي تضمن المحافظة عليه وعقاب كل من يجرؤ على نقضه . فاذا كانت الاديان المنزلة قد علمت هذا المبدأ من قديم الزمان فان الذين اشتغلوا بالسياسة في مامضى من العصور جعلوا ديدنهم التجمل بهذا المبدإ في الظاهر ومحاربته في الباطن فكانوا يسخرونه لقضاء الاوطار ثم يعبثون بروحه

« فالشعوب الصغيرة في جميع أقطار العالم ترفع أيديها مبتهلة الى الله أن يطيل عمر ولسن ويمنحه القوة اللازمة لتحقيق أمانيه . واسم ولسن سيظل منقوشا على صفحات قلوب المظلومين من الرجال والنساء والامم المستعبدة التي يسعى لإرواء غليلها بجعل نتيجة هذه الحرب لخدمتها ونفعها، لا لتقسيم البلدان والبحث في توزيع السلطة والسؤدد

« ان الصوت الصاعد من أميركا هذه الايام صوت نبوءة يقرع أسماع العالم بالحق ويدل الدول على سبيل الصلاح والبقاء . واذا كان في التاريخ عبر وفي علم الاجتماع أوليات فانما هي ما نادى به خلف وشنطن . فهو ليس شاعرا ولا هو من السابحين في بحار الخيال ولكنه رجل أشبع مروءة ووفاء ، واستوعب العلم الصحيح المبني على استقراء سليمي العقل والدين من البشر، ورأى الواجب يقضي عليه بارشاد الناس الى سبيل الحق. ورجل كهذا قاد أمة عظيمة الى مواطن الحرب والبذل والجود ولبت أمته دعوته عن طيب خاطر لتؤيد مبدأ مس قلوبها لا يذهب كلامه صرخة في واد

« وقد فصل خطته تفصيلا حسنا في هذه الخطبة وعرف العدل تعريفا ما رأى الناس أسمى منه في ما صدر عن عقول البشر فقال «ان معنى العدل المجرد عن الهوى هو أن لا نميز بين الذين نريد أن نعدل فيهم والذين لا نريد أن نعدل فيهم فالعدل يجب أن لا يعرق ولا يميز ولا يحابي ولا يعرف من المقاييس سوى التساوي في الحقوق بين الشعوب المختلفة»

« نقول وقد يظل العالم بعيدا عن بلوغ هذه المرتبة الرفيعة التي وضعها رئيس الاميركيين نصب العيون لان الارتقاء اليها صعب شاق» ولكن انشاء هذا المقياس الرفيع سيفيد العالم لانه ينشطه على التطاول لبلوغه وستفهم أوربا اليوم أن سياسة مترنخ وتيلران وبسمرك لا تثبت على طوارق الحدثان كما ظهر في ما جرى بعد مؤتمر فينا ومعاهدة فرنكفورت لان البناء المتين لا يقوم على الرمل وانما يثبت اذا قام على الصخر

« فليرحب العالم بصوت المدافع عن الضعفاء من الافراد والاقوام وليكرم صاحبه ويعظم قدره فقد أنار سبيل الانسانية ومسح دموعها فخفق فؤادها أملا وامتلأ صدرها رجاء

« ان الرجل الذي لبى دعوة الانسانية في أشد عصورها خطرا عليها تنصت الانسانية الى صوته انصات كل مخلوق الى صوت من يعرف حبه وعطفه ويدرك تفانيه وايثاره ويحترم كفاءته ومقدرته » اه

[المنار] صدق المقطم في قوله ان الرئيس ولسن ليس هو الواضع لهذه القواعد للحق والعدل ولا هو أول من نادى بها ، فان الواضع لها هو الله تعالى بمثل قوله (٤ :٥٧ ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) فذكر الناس كلهم ، ويؤيده قوله (٥ :٩ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) والشنآن البغض مع الاحتقار. وأول من نادى بها في هذا العهد وزمن هذه الحرب احرار الروس وخاطبوا بذلك دول الحلفاء فأكبروا خطتهم وأجابوا عنها بما يباهاه في المجلد (العشرين) الماضي من المنار (ص ٤٨-٥٧)

وصدق المقطم أيضا في حصر مزية الرئيس ولسون في استعمال قوة أمته لتنفيذ هذه القواعد بعد تفصيله لها ، وفي قوله ان ديدن السياسيين فيما مضى هو التحمل بها في الظاهر، ومحاربتها في الباطن ، وتسخيرها لقضاء المآرب ، وقد أصبح جميع الناس يعرفون هذا . ويسرنا أن نرى جميع أمم الحلفاء تعظم ولسن وتؤيده اليوم

(٤)

خطاب الرئيس ولسن

في مجلس الامة الامريكي

القى الرئيس على مجلس الامة المؤلف من الشيوخ والنواب تقريره السنوي وذكر فيه مسألة تأثير أمته الفاصل في الحرب ومسألة الصلح وجاءنا روتر في أول دسمبر « ك١ » بخلاصة منه ننقل ترجمتها عن الجرائد مع تصحيح ما بمقابلتها على جريدة التيمس ، وهي:

« كان العام الذي انقضى منذ وقوفي أمامكم للقيام بالواجب الذي فرضه عليّ الدستور هو ابلاغ مجلس الامة المعلومات الخاصة بأحوال البلاد (أمريكة) ـ مفعما بحوادث عظيمة وأعمال كبيرة ونتائج جمة بحيث لا أرجو أن أعطيكم صورة كافية تمثلها أو تمثل التغييرات البعيدة الغور التي طرأت على حياة أمتنا وحياة العالم . وقد شاهدتم بأنفسكم هذه الامور كما شاهدتها أنا وعليه قد حان الوقت لتعيين نصيب كل منا فيها . ولا ريب في أننا نحن الذين نقف في وسط هذه الامور بمنزلة جزء منها وأقل كفاءة من رجال أي جيل آخر فيما يقولونه عن معنى هذه الحوادث أو عن ماهيتها . على أن هناك حقائق ظاهرة لا يمكن الخطأ فيها وهذه الحقائق تكون في

الذهن جزءا من الاعمال العامة التي يقضي علينا واجبنا بالبحث فيها ، وما ذكر هذه الحقائق لا اعداد المكان الصالح لنماء العمل التشريعي والتنفيذي الذي يجب علينا أن نكيفه ونقرره »

وتناول الرئيس بعد ذلك الكلام على نقل أكثر من مليوني جندي الى ما وراء البحار بخسارة ٧٥٨ شخصا بسبب أعمال العدو ثم قال «ولسنا نثير رواكد الحسد اذا قلنا ان وراء هذه الحركة العظيمة دعامة تدعمها وهي قائمة على تنظيم في صناعات البلاد وفي جميع أعمالها المثمرة يفوق بكماله و بتمام طريقته وتباشير نتيجته و بالنشوة المخيمة عليه و باتحاد غايته وسعيه كل تنظيم وضعته أية دولة من الدول العظمى الداخلة في الحرب»

ثم أطرى روح الحمية والبسالة التي ظهرتها الجنود الاميركية في ساحة القتال قائلا «ان الجيش الاميركي قام بدوره في أعظم وقت مناسب وفي أعظم ساعة حرجة كان مصير العالم فيها هدفا للاخطار ألقى بقوته بين صفوف الحرية فبدأ يأفل نجم العدو وما زال يزداد أفولا حتى أدرك قواد دولتي الوسط انهم قد ضربوا. وهنا نحن أولاء نرى الآن بلادهم تصفي

و بعد أن أثنى الرئيس على أعمال بنائي السفن وعمال السكك الحديدية والذين اشتغلوا في الحرب بأيديهم وعقولهم أطرى النساء الاميركيات وصرح بأن « أقل ثناء يمكن توجيهه اليهن هو أن نجعلهن مساويات للرجل في الحقوق السياسية بما برهن على أنهن كفؤ لهم في كل عمل اشتغلن به لانفسهن أو لبلادهن »

واستطرد الرئيس فقال : « الآن وقد ضمنا نيل الفوز العظيم الذي بذلت في سبيله كل تضحية . وقد جاء هذا الفوز تاما كاملا فعلينا أن نعود حالا الى واجباتنا الخاصة بالسلام — السلام الذي سيقينا اعتداء الملوك المطلقين من كل قيد ومطامع العصابات العسكرية — ولنستعد لنظام جديد ولوضع أساسات جديدة للعدالة وللحق

و بعد أن تناول الرئيس الكلام على علاقة أميركا بالدول الاجنبية ذكر مسألة الاصلاح والترميم وإلغاء القيود التجارية وغيرها في أميركا ثم حث على مساعدة بلجيكا وفرنسا والجهات الاخرى التي اجتاحها العدو وناشد المجلس على تأييد برنامج الاسطول ، ثم تناول مسألة سفره أوربا لحضور مؤتمر الصلح فقال

« انني أرحب بهذه الفرصة لاعلن للمجلس عزمي على الالتحاق بمندوبي الحكومات التي نشترك معها في الحرب ضد دولتي الوسط لادرس معهم النقط الجوهرية في معاهدة الصلح . وانى لا أجهل عدم ملاءمة سفري ولا سيما في هذه الاونة . على انني أرجو أن تبدو العوامل التي أوجبت علي السفر امامكم وجيهة كما تبدو لي. فقد قبلت حكومات الحلفاء قواعد الصلح التي بينتها لكم يوم ٨ يناير الماضي كما قبلتها حكومتا دولتي الوسط، وترغب هذه الحكومات رغبة كلها عقل في استشارتي الشخصية فيما يتعلق بتفسير هذه القواعد وتطبيقها فمن الواجب أن أقدم هذه المشورة كي تبدو تماما رغبة حكومتنا الصادقة في العمل — بدون أن تكون هناك مصلحة ذاتية ما — لتسوية المسائل التي ستكون ذات فائدة عامة لجميع الامم ذات الشأن

« ولا ريب في أن تسوية المسائل الخاصة بالصلح الذي سيتفق عليه على جانب عظيم من الاهمية والشأن فيما يتعلق بنا وبقية العالم . واني لا أعرف مهمة أو مصلحة تبدو ذات أهمية أعظم من تسوية هذه المسائل . فقد قاتلت قواتنا في البر والبحر لحماية مبادئ تعرف انها مبادئ بلادها . ولقد حاولت ان اعبر عن هذه المبادئ فقبلها رجال السياسة كخلاصة افكارهم واغراضهم ، وبما ان الحكومات المشتركة قد قبلت هذه المبادئ فان علي أن أعمل بحيث لا يمكن ادخال خطأ عليها وبحيث يبذل كل مجهود لتنفيذها

قال فالواجب يقضي علي والحالة هذه بأن ألعب دوري لاحصل لهم على ما بذلوا لاجله دماءهم وأرواحهم . وليس عندي هنالك واجب يمكن تفضيله على هذا

ثم وعد الرئيس ولسن بأن سيوقف المجلس على جميع المفاوضات التي ستدور في مؤتمر الصلح كما هي بكل سرعة ممكنة مشيرا الى الغاء الرقابة في انكلترا وقال

« أفلا أرجو أن أكون متمتعا بتأييدكم أيها النواب في جميع الواجبات الدقيقة التي ستلقى على عاتقي في أوروبا وفي مجهوداتي التي سأبذلها بصدق وأمانة لتفسير المبادئ والاغراض التي تجلها بلادنا التي نحبها ؟

قال: « ولا أجهل عظم الواجب الذي أخذته على عاتقي ولا المشاق التي ستعترضني في سبيلي ولا التبعة العظيمة الملقاة علي

«انني خادم الامة، وليس لدي فكرة خاصة أو غرض خاص في القيام بمثل هذه المهمة . وسأذهب لابذل أقصى جهدي في التسوية العامة التي يجب أن أعمل للوصول اليها في مؤتمر الصلح مع زعماء الحكومات المشتركة . وسأعتمد على تأييدكم ومساعدتكم لي وسأكون على صلة معكم فاقف بواسطة البرقيات البحرية واللاسلكية على كل شيء تريدون أخذ رأيي فيه وسأكون مرتاح الفكر لانني سأكون دائما على إلمام تام بمعرفة الامور الجليلة الشأن الخاصة بشؤوننا الداخلية

« وسأجعل مدة غيابي قصيرة ما أمكن وأملي أن أعود اليكم وأنا علي يقين تام بأن المبادئ العظيمة التي ناضلت أمير كا لاجلها قد دخلت في دور العمل والتنفيذ» اه

مستقبل سورية وسائر البلاد العربية

(١)

﴿ البلاد المحررة ﴾

هذا اعلان رسمي من قبل الحكومتين البريطانية والفرنسوية نشر بهذا العنوان في الجرائد المصرية اليومية في يوم الجمعة ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ — ٤ صفر سنة ١٣٣٧

« ان الغرض الذي ترمي اليه فرنسة وبريطانية العظمى بمواصلتهما في الشرق تلك الحرب التي أثارها الطمع الالماني هو تحرير الشعوب التي طالما ظلمها الترك تحريراً نهائيا وتأسيس حكومات ومصالح أهلية تبني سلطتها على اختيار الاهالي الوطنيين لها اختياراً حراً وقيامهم بذلك من تلقاء أنفسهم . وتنفيذاً لهذه النيات قد وقع الاتفاق على تشجيع العمل لتأسيس حكومات ومصالح أهلية في سورية والعراق اللتين أنتم الحلفاء تحريرهما وفي البلاد التي يواصلون العمل لتحريرها وعلى مساعدة هذه الهيئات والاعتراف بها عند تأسيسها فعلا . والحلفاء بعيدون عن ان يرغموا سكان هذه الجهات على قبول نظام معين من النظامات وانما همهم ان يحققوا بعونهم ومساعدتهم الفائقة حركة الحكومات والمصالح التي ينشئها الاهالي لانفسهم مختارين حركة منتظمة وان يضمنوا لهم قضاء عادلا واحدا للجميع وان يسهلوا انتشار العلم في البلاد

وتقدمها اقتصاديا وذلك بتحريك همم لاهليي وتشجيعها وان يزيلوا الخلاف والتفرق الذي طالما استخدمته السياسة التركية. ذلك هو ما أخذت الحكومتان الحليفتان على عاتقيهما مسؤلية القيام به في البلاد المحررة »

(٢)

﴿ البر بالمواثيق ﴾

نشر المقطم في يوم الاثنين ٢٣ دسمبر ١٩١٨ و١٩ ربيع الاول ١٣٣٧ ما نصه :

تلقينا في الاسبوع الماضي العدد ١١٥ من جريدة المستقبل الغراء الصادر في باريس يوم ٣٠ سبتمبر الماضي فقرأنا فيه مايأتي :

« جاء في برقية رسمية من لندن هذا النبأ الذي طربت له أفئدة أبناء سورية ولبنان :

« لندن في ٢٥ سبتمبر — ان الجيوش البريطانية التي تؤازرها جنود افرنسية قد وصلت الآن الى حدود البقاع الراجع أمر تهيئة سكانها للحكم الذاتي الى فرنسة طبقا للاتفاق الافرنسي البريطاني المبرم عام ١٩١٦

« فبراً بنو ثوق ترى الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية أيضا انه من اللازم تنظيم الادارة لموقتة في هذه البقاع طبقا لاتفاق عام ١٩١٦ وان السلطة العسكرية البريطانية الموجودة هناك تبر بالمواثيق بر الحكومة البريطانية بها وستوضح قريبا ها على بساط البحث مسألة ادخال هذا الاتفاق في طور العمل » — انتهى بحروفه

(٣)

﴿ اعلان اتفاق سنة ١٩١٦ المذكور في باريس ﴾

ان جريدة المستقبل التي تصدر في باريس لخدمة فرنسة في مستعمراتها الافريقية وسائر البلاد العربية ويديرها أفراد من مسيحيي لبنان وسورية يعبرون عن أنفسهم باسم (الجمعية السورية المركزية) قد بينت أمر هذا الاتفاق الذي أشار اليه فيما نقلناه عنها لمقطم الآن منذ سنة كاملة : صدر العدد ٩٠ منها في ٢٧ ربيع الاول سنة ١٣٣٦ — ١٠ يناير سنة ١٩١٨ مزينا بطبعه بالحبر الاحمر والازرق

مصدرا بمقالة افتتاحية في (مستقبل سورية) الذي صرح به في الجمعية السورية ممثلا الحكومتين البريطانية والفرنسية . ذلك بأن الحكومة الانكليزية أوفدت (السر مارك سايكس) المشهور الى باريس فضمت اليه حكومتها (المسيو جانغو) ممثلا لها ليصرحا في الجمعية السورية باتفاقهما، فعقدوا فيها اجتماع حضره بعض أعضاء مجلسي النواب والشيوخ الفرنسيين ونائب ملك الكاثوليك في فرنسة وأعضاء الجمعية السورية وهم المسيو شكري غانم رئيسها الاول والمسيو أنيس شحاده رئيسها الثاني والدكتور جورج سمنه كاتم أسرارها العام والمسيو نجيب مكرزل أمين صندوقها — واعتذر يوسف أفندي سعد أحد أعضائها عن الحضور بانحراف صحته — ورأس الجلسة المسيو (فرنكلان بوون) أحد أعضاء مجلس النواب، وبعد افتتاحه الجلسة القى المسيو شكري غانم خطبة ذكر فيها حب م لفرنسة واعجابهم بانكلترة والتوازن بين الدولتين وانه هو أساس «ما صح الرأي العام على تسميته باسم جمعية الامم» (؟) وقال « ان في هذا التوازن ضمانا للشعوب الصغيرة ، لانه يكفل استقلالنا بصفة أكيدة ، بعد تحريرها من رق الاتراك الشنيع . ويجعل لنا مقاما رفيعا برعاية فرنسة وعونها وبمصادقة انكلترة » الخ

ثم تلاه السر مارك سايكس فتحث في خطابه السوريين على الاتحاد ونبذ الخلاف، والاتفاق على القاعدتين الآتيتين اللتين زعم ان في استطاعة جميع أجناس سورية وأديانها الاتفاق عليهما (؟) وان الواجب على السوريين الذين يتمتعون بالحرية في أوربة وأمريكة ومصر ان يرفعوا أصواتهم بهما لان الذين في البلاد مكرهون على الصمت . وهما قوله .

١ يجب بادئ بدء قلب الحكم التركي المشؤوم، لان ماهو — باجماع الآراء — فاسد في أرمينية، غير صالح لسورية

٢ ثم يجب ان تنتظروا من فرنسة أن تأتيكم بالمساعدة التي لاغنى للشعب المظلوم عنها ، وهو في حاجة اليها ، كي يقدر على السير بنفسه في طريق الحياة . وينبغي ان تتطلبوا ضمانات من الدول المتمدنة في العالم لئلا تخضعوا مرة أخرى لحكم الاتراك الذي صار بكم الى الفقر والى الشقاء

وتلاه المسيو غو ممثل الحكومة الفرنسية فقال :

أيها السادة

«انه ليسرني أن أؤكد لكم برخصة من وزير خارجية الجمهورية — بعد النصائح الرشيدة التي سمعتموها من فم السر مارك سايكس ممثل الامة الحليفة — ان فرنسة وانكلترة متفقتان تمام الاتفاق على تحرير الشعوب غير التركية من النير التركي في آسيا الصغرى. مهما كانت أديان هذه الشعوب وأجناسها. وتهيئتها المستقبل أحسن من ماضيها

وقد صممت الدولتان الحليفتان العزم — بعد طرح كل فكرة ترمي الى السيطرة الاستعمارية — على هداية الشعوب التي تتكلم العربية وغيرها من اللغات . والساكنة في الربوع التي تمتد من الجبال الاناطولية الى بحر الهند . وللسير بها في طريق الاستقلال بالحكم ، وفي سبيل الحضارة ، مع احترام العقائد الدينية وحقوق الوطنيات . وستعمل كل من الدولتين في منطقة نفوذها . وسيكون الدور الذي تمثله فرنسة وانكلترة دور دليل لتحسين حالة المستقبل . ودور حكم بين الجماعات الدينية والجنسية . والاولى مستعدة للقيام بهذا الدور في الشمال . والثانية في الجنوب .

اننا نرغب في ان يحيط مواطنوكم كلهم علما بهذا الاتفاق الولائي المعقود بين الدولتين الحرتين الكبريين حتى يقدروه حق قدره، ولا سبيل الى تحقيق مستقبل مجيد — وقد أهلتهم له عذاباتهم الماضية وثقتهم بمصير وطنهم — الا بالاتفاق ، و بنبذ الشقاق الناتج من حكم الاتراك

وانني أدعوكم الى تحية فجر هذا المستقبل لسورية، ولغيرها من البلدان التي تتكلم بالعربية ، شاملين في تحياتنا بريطانية العظمى ، وفرنسة ، وسورية اهـ

ثم أن مسيو شكري غانم فاه بكلام خلاصته ان السوريين الذين في مصر كثيرون وهم أرقى السوريين علما وثروة وأشدهم اختلافا فينبغي للسر مارك سايكس السعي لاتفاقهم على الامرين اللذين دعا اليهما أي بنفوذ حكومته هنا ، ولم يقل موسيو شكري غانم هـذا القول الا لعلمه بأن السواد الاعظم من السوريين هنا مخالفون له في رأيه ورأي جمعيته ، وانهم لا يرون أنفسهم غير أهل للاستقلال التام ولا يطلبون نصب وصي عليهم حتى يؤهلهم له، لانهم يعتقدون انهم راشدون، لا سفهاء ولا معتوهون

(٤)

﴿ دخول المسألة العربية في طور جديد ﴾

بعد ذلك الاتفاق دخلت المسألة في طور جديد بما وضعه الدكتور ولسن رئيس الولايات المتحدة من الشروط لصلح الامم ، وما فسرها به في تلك الخطب ، فصار أمر الشعب العربي في كل قطر منوطا به ومفوضا اليه باتفاق الدول ، ولم يبق للافتيات عليه من سبيل ، الا ان يجني على نفسه ، فالدول وأحرار أممها يقولون له ان أمره بيده ، والمستعمرون الطامعون يقولون له قد قضي الامر في شأنه ، فما عليه الا أن تساعدهم على تمدينه وسير بلاده ،

هذا واننا قد بينا من قبل ان الشروط لصحة مثل هذا الاعتراف والاقرار ، ان لا يكون تحت سيطرة عسكرية ولا ضغط سلطة تنافي الاختيار ، وان يكون من المقر المعترف على علم بأن أمره بيده ، وأن قضيته لم يقض فيها ولن يقضي فيها الا برأيه ، (راجع ص ٤٨ — ٥٩ و ٤٩٩ و ٢٤٦ من المجلد ٢٠)

بعد هذا نقول :

من المقرر الذي لا ريب فيه أن مسألة الولايات العربية العثمانية ستعرض على مؤتمر الصلح وما يقرره فيها هو الذي ينفذ — وان الدولة العثمانية ستطلب ان تكون مستقلة في ادارتها الداخلية عملا بالشروط الـ ١٢ من شروط الرئيس ولسن التي قبلت الصلح بها ، وقد نقلت التيمس في شهر نوفمبر ان مجلس النواب العثماني قرر ان تكون الولايات العربية مستقلة تحكم نفسها كما تشاء بشروط الارتباط بالسلطان وحده . والظاهر ان المراد بذلك أن تكون تحت سيادته باعترافها له بالخلافة ، لا تحت سيادة الباب العالي ومجلس الامة — وأن انكلترة وفرنسة ستطلبان تقسيم سورية والعراق على حسب اتفاقهما في سنة ١٩١٦ وكل هذا وذاك ينافي تحرير البلاد واستقلالها خلافا لما أذاعته البرقيات والجرائد عن دول الحلفاء من أول سني الحرب الى آخرها ، ولقواعد ولسن وخطبه المفسرة لها ، المصرحة بوجوب استفتاء كل شعب في أمره ، والعمل برأيه في حكم بلاده ، وهذا الاستفتاء لم يقع

فالحق ان أمرهم بيدهم من كل وجه ، ولهم أن يطلبوا ما يبغونه بدافع الفطرة

والعقل، من الاستقلال التام المطلق من كل قيد، وهو ما أجمع عليه زعماؤهم وعقلاؤهم، وقتل في سبيله شهداؤهم . فاذا فاتتهم هذه الفرصة واختاروا العبودية على الحرية والاستقلال، بخداع دعاة الاستعمار، كانوا في حكم من بخع نفسه بيده، بل كانوا قاتلين لامتهم بأسرها . وملعونين في تاريخها وتاريخ الامم كلها

هذا وان أهل المعرفة يصرحون - كلما أمكنهم التصريح - بمطالب البلاد الصحيحة المعقولة التي لا يختلف فيها الا المخدوعون أو المأجورون. والمرجو من الرئيس ولسن العظيم ومن أحرار سائر الامم الذين لا ينخدعون بمكايد المستعمرين ولو كانوا من أمتهم أن ينصروا الحرية الكاملة فيحرروا الشعب العربي كغيره تحريرا تاما يجعل أمره بيده . ولله الامر من قبل ومن بعد

رد المنار

على الناقد لذكرى المولد النبوي (١)

الموضع الثالث عشر آل البيت (٢)

نقل الناقد ماذكرناه في حاشية ص٤٣ من ذكرى المولد من القولين في تفسير حديث الثقلين قول زيد بن أرقم (رض) ان آل النبي (ص) هم الذين تحرم عليهم الصدقة وقول غيره هم علي وذريته من فاطمة عليهم السلام. واستنبط من تقديمنا القول الاول وابهام القائلين بمقابله ترجيحه، وتعقبه بقوله «ولعل الصواب مايقوله الآخرون كما حققه شيخ مشايخنا العلامة مولانا السيد أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوي» وملخصه كما قال «ان المراد بآل البيت في آية التطهير علي وفاطمة والحسن والحسين عند جمهور العلماء وأكابر أئمة الحديث المعتد بروايتهم ودرايتهم وان الادلة تضافرت بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمصير الى تفسير من أنزلت عليه متعين» ثم بين ذلك بحديث أم سلمة المعروف في تفسير آية التطهير وأشار الى حديث عائشة بمعناه، وذكر أن جميع ذرية فاطمة داخلة في ذلك الى يوم القيامة

(١) تابع لما في الجزئين ٩ و١٠ من المجلد ٢٠ (٢) براجع النقد في ص ٣٠٠ م ٢٠

وأن الاحاديث مصرحة بذلك ومثل بحديث الجمع بين القرآن والعترة وبحديث «أهل بيتي أمان لاهل الارض» وجزم بأن ذلك دال قطعا على أن هذه السلالة الطاهرة هم أهل البيت المطهرون المرادون بكل ماورد في فضل أهل البيت من الآيات والاحاديث وانهم عدول هذه الامة وأحد الثقلين المأمور بالتمسك بهما قال «وقد أجمعت الامة على ذلك»

وأقول (أولا) انني لم أرد بتقديم قول زيد ترجيحه ولا بتأخير قول الآخرين تضعيفه لانني لست بصدد ذلك وانما أخرت ما أخرت لابني عليه ماذكرته بعده من الثناء والمناقب، وهذا سبب من أسباب التأخير معهود في أساليب الكلام الفصيح وكان له ان يفهم منه الترجيح. (وثانيا) أن ما ذكره من التصويب، وادعى انه هو التحقيق، وأن الاحاديث الصحيحة ناطقة به، والامة مجمعة عليه. فيه نظر ظاهر، ولا أحب أن أعبر عنه بمادون ذلك. فالاحاديث الصحيحة في الآل والذرية والعترة كثيرة والخلاف فيها كثير. والمتبادر من آية التطهير انها في نساء النبي (ص) لانها تعليل لما قبلها من الاوامر والنواهي الخاصة بهن، وما بعدها خطاب لهن كالذي قبلها، فلا يمكن ان يكون هذا التعليل أجنبيا في وسط الكلام. ولا يمكن ان يصح عن النبي (ص) تفسير آية بما ينافي أساليب البلاغة فكيف بما ينافي المتبادر من اللغة؟ وقد بينت هذا في المنار من قبل

ولولا التعصب الذي أوقع أدق علماء اللغة وفرسان بلاغتها في الغلط أحيانا لما كان يقبل أحد له شمة من العربية أن يقول فيما نزل نصا قاطعا في خطاب معين انه في غير ذلك المخاطب المعين حتى انه لا يشمله بعمومه خلافا للاصل الذي جرى عليه جميع العلماء. قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى (انما يريد ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) هذا نص في دخول أزواج النبي (ص) في أهل البيت ههنا لانهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولا واحدا إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح. اه ويريد الصحيح ما جرى عليه أهل الاصول من ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ولفظ أهل البيت هنا عام يدخل فيه كل منتسب الى ذلك البيت. ولكن المخاطب منهم في الآية نساؤه (ص) وهن أهل

بيت السكنى المتبادر هنا ، وأهل بيت الرجل وآله يطلق على بيت القرابة وعلى اتباعه ومنه قوله تعالى (ادخلوا آل فرعون أشد العذاب) وقول عبد المطلب يوم الفيل:

وانصر على آل الصليـ ـب وعابديه اليوم آلك

ولا يمكن ان يراد هذا الاخير من الآية بقرينة الخطاب ومثله آل القرابة لولا ما ورد من في الحديث من ادخاله (ص) أهل العباء فيهم خبرا أو دعاء والدعاء هو الذي ثبت في الصحيح . وأما حديث أم سلمة فمضطرب المتن ومخالف لمنطوق الآية وفي أسانيد طرقه كلها علل تمنع الاحتجاج به فكيف يمكن ترجيح مفهومه على منطوق القرآن ؟ وفي حديث علي عند النسائي وأبي هريرة عند أبي داود مرفوعا « من سره ان يكتال بالمكيال الاوفى اذا صلى علينا آل البيت فليقل : اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على آل ابراهيم انك حميد مجيد » فقد عطف آل البيت على الازواج والذرية والاصل فى العطف المغايرة

انني لا أحب أن أطيل الكلام في مناقشة الناقد في هذه المسألة من عندي ، بل أستغني عن ذلك بأن أنقل له أوسع ما رأيته في تفسير آية التطهير وأجمعه لاقوال أهل السنة والشيعة ليعلم مكان ما ادعاه من اتفاق العلماء أو اجماع الامة من الصحة ، وهو ما أورده الشهاب الآلوسي في روح المعاني تفسيرا لقوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا)

قال: استئناف بياني مفيد تعليل أمرهن ونهيهن. والرجس في الاصل الشيء القذر وأريد به هنا عند كثير الذنب مجازا وقال السدي الاثم وقال الزجاج الفسق وقال ابن زيد الشيطان وقال الحسن الشرك وقيل الشك وقيل البخل والطمع وقيل الاهواء والبدع وقيل ان الرجس يقع على الاثم وعلى العذاب وعلى النجاسة وعلى النقائص والمراد به هنا مايعم كل ذلك ولا يخفى عليك ما في بعض هذه الاقوال من الضعف وأل فيه للجنس أو للاستغراق والمراد بالتطهير قبل التحلية بالتقوى. والمعنى على ما قيل انما يريد الله ليذهب عنكم الذنوب والمعاصي فيما نهاكم، ويحليكم بالتقوى تحلية بليغة فيما أمركم؛ وجوز أن يراد به الصون والمعنى انما يريد سبحانه ليذهب عنكم الرجس ويصونكم من المعاصي صونا بليغا فيما أمر ونهى جل شانه. واختلف في لام

ليذهب فقيل زائدة وما بعدها في موضع المفعول به ليريد فكأنه قيل يريد الله اذهاب الرجس عنكم وتطهيركم. وقيل للتعليل، ثم اختلف هؤلاء فقيل المفعول محذوف أي انما يريد الله أمركم ونهيكم ليذهب، أو انما يريد منكم ما يريد ليذهب، أو نحو ذلك. وقال الخليل وسيبويه ومن تابعهما: الفعل في ذلك مقدر بمصدر مرفوع بالابتداء واللام وما بعدها خبر أي انما ارادة الله تعالى للاذهاب، على حد ما قيل في «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» فلا مفعول للفعل وقال الطبرسي اللام متعلق بمحذوف تقديره: وارادته ليذهب وهو كما نرى. وهذا الذي ذكروه جار في قوله تعالى (يريد الله ليبين لكم* وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وقول الشاعر

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل مكان

ونصب «أهل» على النداء وجوز أن يكون على المدح فيقدر أمدح أو أعني، وأن يكون على الاختصاص وهو قليل في المخاطب ومنه «بك الله نرجو الفضل» وأكثر ما يكون في المتكلم كقوله: نحن بنات طارق نمشي على النمارق

وأل في «البيت» للعهد وقيل عوض عن المضاف اليه أي بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، والظاهر أن المراد به بيت الطين والخشب، لا بيت القرابة والنسب، وهو بيت السكنى لا المسجد النبوي كما قيل، وحينئذ فالمراد بأهله نساؤه صلى الله تعالى عليه وسلم المطهرات للقرائن الدالة على ذلك من الآيات السابقة واللاحقة مع أنه عليه الصلاة والسلام ليس له بيت يسكنه سوى سكناهن، وروى ذلك غير واحد: أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نزلت (انما يريد الله) الخ في نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة. وأخرج ابن مردويه من طريق ابن جبير عنه ذلك بدون لفظ خاصة، وقال عكرمة من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة أنه قال في الآية ليس بالذي تذهبون اليه، انما هو نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم. وروى ابن جرير أيضا أن عكرمة كان ينادي في السوق ان قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) نزل في نساء النبي عليه الصلاة والسلام. وأخرج ابن سعد عن عروة (ليذهب عنكم الرجس

أهل البيت) قال يعني أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم. وتوحيد البيت لان بيوت الازواج المطهرات باعتبار الاضافة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيت واحد وجمعه فيما سبق ولحق باعتبار الاضافة الى الازواج المطهرات اللاتي كن متعددات، وجمعه في قوله سبحانه الآتي ان شاء الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم) دفعا لتوهم ارادة بيت زينب لو أفرد من حيث ان سبب النزول أمر وقع فيه كما ستطلع عليه ان شاء الله تعالى. وأورد ضمير جمع المذكر في عنكم ويطهركم رعاية للفظ لاهل . والعرب كثيرا ما يستعملون صيغ المذكر في مثل ذلك رعاية للفظ، وهذا كقوله تعالى خطابا لسارة امرأة الخليل عليهما السلام (أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد) ومنه على ما قيل قوله سبحانه (قال لاهله امكثوا اني آنست نار) خطابا من موسى عليه السلام لامرأته ولعل اعتبار التذكير هنا أدخل في التعظيم . وقيل المراد هو صلى الله تعالى عليه وسلم ونساؤه المطهرات رضي الله تعالى عنهن وضمير جمع المذكر لتغليبه عليه الصلاة والسلام عليهن

وقيل المراد بالبيت بيت النسب ولذا أفرد ولم يجمع كما في السابق واللاحق، فقد أخرج الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معا في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «ان الله تعالى قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسما فذلك قوله تعالى (وأصحاب اليمين ... وأصحاب الشمال) فانا من أصحاب اليمين وانا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثا فجعلني في خيرها ثلثا فذلك قوله تعالى[1] (وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون) فانا من السابقين وانا خير السابقين، ثم جعل الاثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة وذلك قوله تعالى (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله تعالى ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتا فجعلني في خيرها بيتا فذلك قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا) أنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب»

(١) قوله واصحاب المشامة الخ كذا بخطه وفيه حذف صدر الآية وهو الثلث الاول اه مصححه

فان المتبادر من البيت الذي هو قسم من القبيلة البيت النسبي

واختلف في المراد باهله فذهب الثعلبي الى أن المراد بهم جميع بني هاشم ذكورهم واناثهم ، والظاهر انه أراد مؤمني بني هاشم وهذا هو المراد بالآل عند الحنفية ، وقال بعض الشافعية المراد بهم آله صلى الله تعالى عليه وسلم الذين هم مؤمنو بني هاشم والمطلب. وذكر الراغب ان أهل البيت تعورف في أسرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مطلقا. وأسرة الرجل على ما في القاموس رهطه أي قومه وقبيلته الادنون. وقال في موضع آخر صار أهل البيت متعارفا في آله عليه الصلاة والسلام. وصح عن زيد ابن أرقم في حديث أخرجه مسلم انه قيل له من أهل بيته نساؤه صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فقال لا أيم الله ان المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع الى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفي آخر أخرجه هو أيضا مبين هؤلاء الذين حرموا الصدقة أنه قال هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس

وقال بعض الشيعة أهل البيت — سواء أريد به بيت المدر والخشب أم بيت القرابة والنسب — عام، أما عمومه على الثاني فظاهر وأما على الاول فلانه يشمل الاماء والخدم، فان البيت المدري يسكنه هؤلاء أيضا، وقد صح مايدل على أن العموم غير مراد: أخرج الترمذي والحاكم وصححاه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت في بيتي نزلت (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بكساء كان عليه ثم قال «هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام أخرج يده من الكساء وأومأ بها الى السماء وقال « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » ثلاث مرات . وفى بعض آخر انه عليه الصلاة والسلام ألقى عليهم كساء فدكيا ثم وضع يده عليهم ثم قال « اللهم ان هؤلاء أهل بيتي — وفي لفظ — آل محمد فاجعل صلواتك و بركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل ابراهيم انك حميد مجيد » وجاء في رواية أخرجها الطبراني عن أم سلمة انها قالت

فرفعت الكساء لادخل معهم فجذبه صلى الله تعالى عليه وسلم من يدي وقال «انك على خير» وفي أخرى رواها ابن مردويه عنها أنها قالت ألست من أهل البيت فقال صلى الله تعالى عليه وسلم انك الى خير انك من أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وفي آخرها رواها الترمذي وجماعة عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي عليه الصلاة والسلام قال قالت أم سلمة وأنا معهم يانبي الله؟ قال «أنت على مكانك وانك على خير» وأخبار ادخاله صلى الله تعالى عليه وسلم عليا وفاطمة وابنيهما رضي الله تعالى عنهم تحت الكساء وقوله عليه الصلاة والسلام اللهم هؤلاء أهل بيتي ودعائه لهم وعدم ادخال أم سلمة أكثر من أن تحصى وهي مخصصة لعموم أهل البيت بأي معنى كان البيت فالمراد بهم من شملهم الكساء ولا يدخل فيهم أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم. وقد صرح بعدم دخولهن من الشيعة عبد الله المشهدي وقال المراد من البيت بيت النبوة ولا شك أن أهل البيت لغة شامل للازواج بل للخدام من الاماء اللائي يسكن في البيت أيضا وليس المراد هذا المعنى اللغوي بهذه السعة بالاتفاق، فالمراد به آل العباء الذين خصصهم حديث الكساء، وقال أيضا ان كون البيوت جمعا في بيوتكن وافراد البيت في أهل البيت يدل على أن بيوتهن غير بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اه وفيه ماستعلمه ان شاء الله تعالى

وقيل المراد بالبيت بيت السكنى وبيت النسب وأهل ذلك أهل كل من البيتين وقد سمعت ما قيل فيه وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز. وقال بعض المحققين المراد بالبيت بيت السكنى وأهله — على ما يقتضيه سياق الآية وسباقها والاخبار التي لاتحصى كثرة ويشهد له العرف — من له مزيد اختصاص به اما بالسكنى فيه مع القيام بمصالحه وتدبير شأنه والاهتمام بأمره وعدم كون الساكن في معرض التبدل والتحول بحكم العادة الجارية من بيع وهبة كالازواج، أو بالسكنى فيه كذلك بدون ملاحظة القيام بالمصالح كالاولاد، أو بقرابة من صاحبه تقضي بحسب العادة بالتردد اليه والجلوس فيه من غير طلب من صاحبه لذلك أو بعدم المنع من ذلك كالاولاد الذين لا يسكنونه وكاولادهم وان نزلوا وكالاعمام وأولاد الاعمام، وعلى هذا يحصل الجمع بين الاخبار، وقد سمعت بعضها كحديث الكساء؛ ولا دلالة فيه على الحصر، وكالحديث الحسن أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اشتمل على العباس وبنيه بملاءة ثم

قال «يا رب هذا عمي وصنو أبي وهؤلاء أهل بيتي فاستر هم من النار كستري اياهم بملاءتي هذه» فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت فقالت آمين. ثلاثا. وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام ضم الى أهل الكساء علي وفاطمة والحسنين رضي الله تعالى عنهم بقية بناته وأقار به وأزواجه، وصح عن أم سلمة في بعض آخر انها قالت فقلت يارسول الله أما أنا من أهل البيت؟ فقال «بلى ان شاء الله تعالى». وفي بعض آخر أيضا انها قالت له صلى الله تعالى عليه وسلم: ألست من أهلك؟ قال «بلى» وأنه عليه الصلاة والسلام أدخلها الكساء بعد ماقضي دعاءه لهم. وقد تكرر. كما أشار اليه المحب الطبري. منه صلى الله تعالى عليه وسلم الجمع وقول «هؤلاء أهل بيتي» والدعاء في بيت أم سلمة وبيت فاطمة رضي الله تعالى عنهما وغيرهما وبه جمع بين اختلاف الروايات في هيئة الاجتماع وما جال صلى الله تعالى عليه وسلم به المجتمعين وما دعا به لهم وما أجاب به أم سلمة، وعدم ادخاله في بعض المرات تحت الكساء ليس لانها ليست من أهل البيت أصلا بل لظهور أنها منهم حيث كانت من الازواج اللاتى يقتضي سياق الآية وسباقها دخولهن فيهم بخلاف من أدخلوا تحته رضي الله تعالى عنهم فانه عليه الصلاة والسلام لو لم يدخلهم ويقل ماقال لتوهم عدم دخولهم في الآية لعدم اقتضاء سياقها وسباقها ذلك ، وذكر ابن حجر على تقدير صحة بعض الروايات المختلفة الحمل على أن النزول كان مرتين ، وقد أدخل صلى الله تعالى عليه وسلم بعض من لم يكن بينه وبينه قرابة سببية ولا نسبية في أهل البيت توسعا وتشبيها كسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه حيث قال عليه الصلاة والسلام «سلمان منا أهل البيت» وجاء في رواية صحيحة ان واثلة قال وأنا من أهلك يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام «وأنت من أهلي» فكان واثلة يقول انها لمن أرجى ما أرجو. والخبر الدال بظاهره على أن المراد بالبيت البيت النسبي أعني خبر الحكيم الترمذي ومن معه عن ابن عباس يجوز حمل البيت فيه على بيت المدر، والحيوان ينقسم الى رومي وزنجي مثلا كما ينقسم الانسان اليهما ، على أن في رواته من وثقه ابن معين وضعفه غيره والجرح مقدم على التعديل

وما روى عن زيد بن أرقم رضى الله تعالى عنه من نفي كون أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم أهل بيته وكون أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده

عليه الصلاة والسلام فالمراد بأهل البيت فيه أهل البيت الذين جعلهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثاني الثقلين لا أهل البيت بالمعنى الاعم المراد في الآية، ويشهد لهذا ما في صحيح مسلم عن يزيد بن حيان قال انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم الى زيد بن أرقم فلما أجلسنا اليه قال له حصين لقد لقيت يازيد خيرا كثيرا: رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه، لقد لقيت يازيد خيرا كثيرا، حدثنا يازيد بما سمعت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: يا أخي والله لقد كبرت سني وقدم عهدي فنسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله صلى تعالى عليه وسلم فما حدثتكم فاقبلوا ومالا لا تكلفونيه. ثم قال قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال « أما بعد ألا يا أيها الناس فانما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وإني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به — فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال — وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي » ثلاثا، فقال له حصين ومن أهل بيته يازيد أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال ومن هم؟ قال هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس» الحديث فان الاستدراك بعد جعله النساء من أهل بيته صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهر في أن الغرض بيان المراد بأهل البيت في الحديث الذي حدث به عن رسول الله عليه الصلاة والسلام وهم فيه ثاني الثقلين. فلأهل البيت اطلاقان يدخل في أحدهما النساء ولا يدخلن في الآخر وبهذا يحصل الجمع بين هذا الخبر والخبر السابق المتضمن نفيه رضي الله تعالى عنه كون النساء من أهل البيت . وقال بعضهم ان ظاهر تعليله نفي كون النساء أهل البيت بقوله « أيم الله ان المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع الى أبيها وقومها » يقضي أن لا يكن من أهل البيت مطلقا فلعله أراد بقوله في الخبر السابق «نساؤه من أهل بيته» أنساؤه الخ بهمزة الاستفهام الانكاري فيكون بمعنى ليس نساؤه من أهل بيته كما في معظم الروايات في غير صحيح مسلم ويكون رضي

الله تعالى عنه ممن يرى أن نساءه عليه الصلاة والسلام لسن من أهل البيت أصلاء ولا يلزمنا أن ندين الله برأيه لا سيما وظاهر الآية معنا وكذا العرف ، وحينئذ يجوز أن يكون أهل البيت الذين هم أحد الثقلين بالمعنى الشامل للازواج وغيرهن من أصله وعصبته صلى الله تعالى عليه وسلم الذين حرموا الصدقة بعده ولا يضر في ذلك عدم استمرار بقاء الازواج كما استمر بقاء الآخرين مع الكتاب كما لا يخفى اه

وأنت تعلم أن ظاهر ما صح من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « اني تارك فيكم خليفتين وفي رواية ثقلين كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والارض وعترتي أهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض » يقتضي ان النساء المطهرات غير داخلات في أهل البيت الذين هم أحد الثقلين لان عترة الرجل كما في الصحاح نسله ورهطه الادنون ، و« أهل بيتي » في الحديث . الظاهر أنه بيان له أو بدل منه بدل كل من كل وعلى التقديرين يكون متحدا معه فحيث لم تدخل النساء في الاول لم تدخل في الثاني ، وفي النهاية أن عترة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بنو عبد المطلب ، وقيل أهل بيته الاقربون وهم أولاده وعلي وأولاده رضي الله تعالى عنهم وقيل عترته الاقربون والابعدون منهم اه . والذي رجحه القرطبي أنهم من حرمت عليهم الزكاة وفي كون الازواج المطهرات كذلك خلاف ، قال ابن حجر والقول بتحريم الزكاة عليهن ضعيف وان حكى ابن عبد البر الاجماع عليه فتأمل. ولا يرد على حمل أهل البيت في الآية على المعنى الاعم ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « نزلت هذه الآية في خمسة فيّ وفي علي وفاطمة وحسن وحسين (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) اذ لا دليل فيه على الحصر والعدد لا مفهوم له ، ولعل الاقتصار على من ذكر صلوات الله تعالى وسلامه عليهم لانهم أفضل من دخل في العموم وهذا على تقدير صحة الحديث ، والذي يغلب على ظني انه غير صحيح ، اذ لم أعهد نحو هذا في الآيات منه صلى الله تعالى عليه وسلم في شيء من الاحاديث الصحيحة التي وقفت عليها في أسباب النزول ، و بتفسير أهل البيت بمن له مزيد اختصاص به على الوجه الذي سمعت يندفع ما ذكره المشهدي من شموله

للخدام والاماء والعبيد الذين يسكنون البيت ، فانهم في معرض التبدل والتحول بانتقالهم من ملك الى ملك بنحو الهبة والبيع وليس لهم قيام بمصالحه واهتمام بأمره وتدبير لشأنه الا حيث يؤمرون بذلك ، ونظمهم في سلك الازواج ودعوى ان نسبة الجميع الى البيت على حد واحد مما لا يرتضيه منصف، ولا يقول به الا متعسف.

وقال بعض المتأخرين ان دخولهم في العموم مما لا بأس به عند أهل السنة، لان الآية عندهم لا تدل على العصمة، ولا حجر على رحمة الله عز وجل ولا جل عين ألف عين تكرم ، وأما أمر الجمع والافراد فقد سمعت ما يتعلق به والظاهر على هذا القول ان التعبير بضمير جمع المذكر في عنكم للتغليب ، وذكر ان في عنكم عليه تغليبين أحدهما تغليب المذكر على المؤنث وثانيهما تغليب المخاطب على الغائب اذ غير الازواج المطهرات من أهل البيت لم يجر لهم ذكر فيما قبل ولم يخاطبوا بأمر أو نهي أو غيرهما فيه ، وأمر التعليل عليه ظاهر وان لم يكن كظهوره على القول بأن المراد بأهل البيت الازواج المطهرات فقط ، واعتذر المشهدي عن وقوع جملة (انما يريد الله) الخ في البين بأن مثله واقع في القرآن الكريم فقد قال تعالى شأنه (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل) ثم قال سبحانه بعد تمام الآية (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فعطف أقيموا على أطيعوا مع وقوع الفصل الكثير بينهما ، وفيه انه وقع بعد (أقيموا الصلاة) الخ (وأطيعوا الرسول) فلو كان العطف على ما ذكر لزم عطف أطيعوا على أطيعوا وهو كما ترى ، سلمنا أن لا فساد في ذلك الا أن مثل هذا الفصل ليس من محل النزاع ، فانه فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالاجنبي من حيث الاعراب وهو لا ينافي البلاغة، وما نحن فيه على ماذهبوا اليه فصل بأجنبي باعتبار موارد الآيات اللاحقة والسابقة ، وانكار منافاته للبلاغة القرآنية مكابرة لا تخفى ، ومما يضحك منه الصبيان أنه قال بعد: ان بين الآيات مغايرة انشائية وخبرية لان آية التطهير جملة ندائية وخبرية وما قبلها وما بعدها من الامر والنهي جمل انشائية وعطف الانشائية على الخبرية لا يجوز، ولعمري انه أشبه كلام من حيث الغلط بقول بعض عوام الاعجام : خسن وخسين دختران مغاوية . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » اهـ ..

التقاضي والتخاصم في رسالة آدم

الحسد غريزة قديمة في الثقلين كان أول مظهر عرف لها في التاريخ المأثور حسد إبليس أبي الشياطين لعنه الله لآدم أبي البشر عليه السلام . وكان ينبغي ان يكون أطهر البشر من هذه الخليقة الذميمة أهل العلم الديني ولكن ثبت في بعض الآثار انهم أشد تغايرا من التيوس في زروبها كما ثبت بالاختبار انهم أشد تحاسدا من النساء الضرائر في بيوتها

وقد لبس الحسد الابليسي في هذا العام وما قبله ثوبي زور من الغيرة على آدم عليه السلام . ثوبان ظهر بهما بعض محبي الظهور من شبان الازهريين، وانما فصلهما وخاطهما بعض شيوخهم المعروفين ، فأما الثوب الاول فهو تكفير من يقول بأن قوله تعالى (خلقكم من نفس واحدة) ليس نصا قطعيا في كون هذه النفس (المنكرة) هي آدم وفي كونه هو أصل جميع البشر — وان كان يقول بهذا عملا بدلالة الظواهر — وعدم قبول اسلام أحد من القائلين بتعدد أصول البشر أو الشاكين في صفة تكوينهم وقد بينا في المنار كيف كان عاقبة المفترين في هذه المسألة (راجع ص ٦ م ٢٠)

وأما الثوب الثاني فهو تكفير من يقول ان رسالة آدم غير ثابتة بنص قطعي بل القول بها معارض بظواهر بعض الآيات وبحديث الشفاعة المتفق عليه فان خاتم النبيين والمرسلين (ص) يروي فيه عن آدم ان نوحا أول رسول أرسله الله الى أهل الارض . ذكر هذه المسألة في مجلس خاص بدمنهور الشيخ محمد أبوزيد من مريدينا طلاب دار الدعوة والارشاد، فانبرى لتكفيره والتشهير به صاحب الثوب المستعار، ثم ألبس الثوب من رفع عليه دعوى حسبة الى قاضي دمنهور الشرعي ليحكم بردته، ويفرق بينه وبين زوجه . فكان مثله مع مفصل الثوب ولابسه الاول كمثل من تعلم السحر من هاروت وماروت (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله . ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق)

نظر في الدعوى قاضي دمنهور فكان فقهه فيها كفقه لابس الثوب وخائطه ، فحكم بردة الرجل وفرق بينه وبين زوجه ، فاحدث هذا الحكم هزة واضطرابا في القطر المصري كله وأظهر الناس استنكاره في جميع الجرائد ، وبين أهل العلم وجوه خطأه في المجالس والمدارس ، وانزعجت له وزارة الحقانية ، فحظرت النظر في أمثال هذه الدعوى على المحاكم الشرعية الا أن يكون بعد اطلاع الوزارة على الدعوى ، وأخذ الاذن الخاص بالنظر والحكم فيها . وهذا ملخص الحكم المشار اليه :

صورة ملخص الحكم الصادر فى قضية الشيخ ابو زيد

سئل الشيخ عما يعتقده في رسالة ونبوة آدم فقال « ان آدم ليس نبيا ولا رسولا بنص قطعي وانما نبوته ورسالته ظنيتان ، هذا ما نطقت به وما أعتقده الى الآن »

(الحكم والاسباب)

حيث ان نبوة سيدنا آدم عليه السلام ثابتة بالكتاب والسنة وبالاجماع ومعلومة من الدين بالضرورة لذا كفر جاحدها — قال في كتاب العقائد النسفية أول الانبياء آدم عليه السلام، وآخرهم محمد عليه الصلاة والسلام — أما نبوة آدم فبالكتاب والسنة والاجماع، . بالكتاب الدال على أنه أمر ونهي مع القطع بأنه لم يكن في زمنه نبي آخر فهو بالوحي لاغير وكذا بالسنة والاجماع، فانكار نبوته على ما نقل عن البعض يكون كفرا. وفي الفتاوى الهندية جزء ثاني من يقول آمنت بجميع الانبياء ولا أعلم ان آدم نبي أم لا يكفر، كذا في العتابية ولم يحك خلافاً. وفيها أيضا: رجل قال لغيره ان آدم عليه السلام نسج الكرباس، فقال له الغير: فحينئذ نحن أولاد النساج، فهذا كفر، ماذاك الا يكون استخفاف بالنبي لان هذه العبارة لو قيلت لولي من أولياء الله ما ترتب عليها الكفر . وفي الجزء الاول من مجمع الانهر في شرح ملتقي الابحر: ويكفر بقوله لاأعلم ان آدم عليه الصلاة والسلام نبي أم لا

وحيث إن المنصوص عليه شرعا أن المرتد عن دين الاسلام ينفسخ نكاحه في الحال ويفرق بينه وبين زوجته

وحيث أن الشيخ محمد أبو زيد قد نطق بما يوجب الردة لانكاره نبوة ورسالة

آدم عليه السلام وان هذه عقيدته كما أقر بذلك و بذا ارتد عن دين الاسلام وانفسخ نكاحه بزوجته (فلانة) فوجب التفريق

(لهذا) فرقنا بين الشيخ محمد أبو زيد المذكور وزوجته

[المنار] هذا نص الحكم كما وصل الينا وهو على مافيه من خطأ في العبارة ظاهر البطلان بعدم انطباقه على الدعوى من جهة الصورة و بعدم صحة ما استدل به القاضي — فاما الاول فان الشيخ أبا زيد قد صرح بأن نبوة آدم ورسالته ثابتتان بالادلة الظنية وهذا ليس انكارا لها كما زعم القاضي والا كان القاضي نفسه منكرا لمعظم أحكام الشريعة التي يحكم بها بين الناس في مسائل الابضاع والاموال والكفر والايمان فان معظمها ظني بغير نزاع ، وقد صرحوا في العقائد النسفية وشروحها ان الادلة الظنية كافية في العقائد . وأما الثاني فهو ان الردة انما تكون بجحد المجمع عليه المعلوم من الدين بالضرورة وهو ما لا يخفى على أحد من عوام المسلمين وخواصهم ونبوة آدم ورسالته ليست كذلك فما نقله عن الفتاوى الهندية وغيرها في التكفير بها غير صحيح. وقد قصر القاضي فيما يجب عليه من كشف شبهة المدعى عليه ومن اسقتابته.

﴿ الغاء الحكم في قضية سيدنا آدم ﴾

بحكم محكمة الاستئناف الشرعية الصادر في أول ديسمبر سنة ١٩١٨

منقول عن جريدة وادي النيل

عرضت قضية سيدنا آدم المعروفة على محكمة الاسكندرية الكلية الشرعية أمس برئاسة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ مصطفى سلطان وكان الزحام شديدا جدا. وقد حضر الجلسة جمهور كبير من المحامين الاهليين والشرعيين والعلماء وكان المدعي عليه الشيخ محمد أبو زيد حاضرا ومعه اثنان من المحامين . وكان المدعي الشيخ محمد صالح الزواوي حاضراً ومعه محامياه

و بعد استكمال الاجراءات النظامية سمعت المحكمة كلام المحامين ثم سألت المدعى عليه:

— تريد المحكمة أن تتبين رأيك في نبوة آدم

— ان نفسي مطمئنة الى أنه نبي ونظري في النصوص هو الذي اطمأنت به نفسي

— قلت في مذكرتك في الصفحة التاسعة « فما بال هؤلاء يطلبون حكما شرعيا

من قاض مسلم يعتقد أن نبوة آدم ورسالته ليستا من العقائد في شيء ؟ »

— انهما ليستا من العقائد التي تثبت بالنص القطعي . وهذا تعريف أصولي اتبعته في جهات من المذكرة (١)

— جاء في المذكرة ما يدل على أنك ترى الادلة ظنية

— ان كلامي لاينافي اعتقاد النبوة فانه لامانع من أن آخذ من الادلة الظنية شيئا ترتاح به نفسي ويطمئن اليه ضميري ، وان أدلة نبوة آدم عليه السلام وان كانت ظنية في اصطلاح الاصوليين فاني مرتاح اليها وليس هناك خلاف بين ماأقوله الآن وما قلته فيما مضى

وبعد هذا أخذ فضيلة الرئيس يفيض في نصائحه وكان الاسف والالم آخذين من نفسه فقال : أخجلتمونا مام الناس أعظم خجل . فالافرنج مشتغلون بما يفيدهم وأنتم مشغولون بما لايفيد. ألستم ترون الكسل والكذب اللذين يتفشيان في الاخلاق حتى كادا يقتلانا ؟ أفما كان الاولى أن نعالج هذين الداءين وغيرهما من الادواء المنتشرة بيننا ؟ لقد كان الاولى أن يكتب القلم الذي كتبت به هذه المذكرة فيما ينفع الامة فيقول لها : اتحدوا . لا تتحاسدوا . لاتتباغضوا . اعملوا كما يعمل غيركم . اطلبوا العيش بعزة النفس لا بالمذلة للامراء وغير الامراء ، نرجو يا رجال الدين أن تعالجوا الادواء المنتشرة بين المسلمين

وبعد أن فرغ فضيلته من هذه النصائح الثمينة استحلف رجال الدين ان ينبذوا الشقاق وصغائر الامور وقال انني أعرف الآن انكم حزبان أتيا ليسمعا مانقضي به في هذه القضية فأرجو أن تخرجوا متحدين. ثم قامت المحكمة للمداولة ثم عادت فأصدرت الحكم وهذا نصه :

بعد سماع أقوال الخصوم والاطلاع على ملف القضية الابتدائية وبعد المداولة وللاسباب التي هي

استئناف حاز شكله القانوني فهو مقبول

المقرر شرعاً ان الكفر هو تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم في شيء مما علم مجيئه

(١) يعني بالمذكرة رسالة كتبها في المسألة بين فيها خلاف العلماء فيها ورجحها

به من الدين علماً ضرورياً بحيث يستوي فيه الخاصة والعامة كالتوحيد وأركان الاسلام وألحقوا به كفر العناد أو مايدل على الاستخفاف لتضمن ذلك معنى الجحود

نبوة آدم وان دل عليها الكتاب والسنة واتفق عليها العلماء ولم يعرف بينهم خلاف فيها فانكارها بأي شكل كان ضلال ومخالفة لما عليه المسلمون ، الا انها ليست من ضروريات الدين بحيث يعرفها الكافة كالصلاة والصوم . بل هي من الامور النظرية والقول بأنها معلومة من الدين بالضرورة دعوى غير مقبولة

منكر شيء من الامور النظرية مستندا الى شبهة ولو غير صحيحة لا يحكم عليه شرعاً بالكفر على ما هو الحق الذي يجب العمل به في مذهب الحنفية. ذلك لان الكفر نهاية في العقوبة فلا يكون الا عن نهاية الجناية وذلك بانكار الثابت بالنص القطعي الخالي من الشبهة والاحتمال من الكتاب والسنة المتواترة أو الاجماع القولي الثابت تواترا، ولذلك قالوا لايفتى بكفر مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في عدم كفره رواية ضعيفة ولو في مذهب غيرهم، وأجازوا مع الكراهة امامة أهل البدع في الصلاة وهم ممن يعتقدون خلاف المعروف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا معاندة بل بنوع شبهة وان كانت فاسدة حتى الخوارج الذين يستحلون دماء وأموال مخالفيهم من المسلمين أو ينكرون صفات الله، وقالوا لانكفر أهل البدع ببدعتهم لكونها عن تأويل وشبهة وللنهي عن تكفير أهل القبلة والاجماع على قبول شهادتهم وذلك ما لم ينكر أحد منهم شيئا من المعلوم ضرورة

وفي الفتاوى الصغرى « الكفر شيء عظيم » وفي جامع الفصولين « لا يخرج الرجل من الايمان الا جحود ما أدخله فيه وما يشك في أنه ردة لا يحكم بها اذ الاسلام الثابت لايزول بالشك ان الاسلام يعلو» وقال صاحب نور العين «ان المسائل الاجماعية تارة يصحبها التواتر كوجوب الخمس وقد لا يصحبها الا بكفر جاحدها (؟) لمخالفته التواتر لا الاجماع» ثم نقل انه « اذا لم تكن الآية أو الخبر المتواتر قطعي الدلالة أو لم يكن الخبر متواترا أو كان قطعيا ولكن فيه شبهة أو لم يكن اجماع الجميع أو كان ولم يكن اجماع جميع الصحابة أو لم يكن قطعيا بان لم يثبت بطريق التواتر أو كان قطعيا لكن كان اجماعاً سكوتيا ففي كل هذه الصور لا يكون الجحود كفرا»

ومن كل هذا ترى العلماء رضوان الله عليهم قد احتاطوا نهاية الاحتياط في عدم تكفير المسلمين

ماورد من الآيات والاحاديث في نبوة آدم عليه السلام وكذا الاجماع عليها، كل ذلك لم تتوفر فيه تلك القيود وهذا ما يجب التعويل عليه دون ما عداه وعليه يكون حكم محكمة أول درجة في غير محله ويتعين إلغاؤه

وكيل المستأنف عليه قال انه مكتف بالادلة الموجودة بمحضر القضية الابتدائية وهي أدلة غير منتجة للدعوى خصوصا وقد قرر المستأنف عليه اليوم انه يعتقد تمام الاعتقاد بنبوة آدم عليه السلام

لهذا — تقرر قبول هذا الاستئناف شكلا وفي الموضوع بالغاء ما حكمت به محكمة أول درجة ورفض دعوى المدعي» اه

[المنار] هذا الحكم هو الحق وما ذكره القاضي الفاضل في أثناء كلامه من المواعظ يرجى ان يزيد المدعى عليه الظلوم في تكفيره والتفريق بينه وبين زوجه هدى فانه قد عاهد الله تعالى على يدنا بوقف حياته على خدمة دينه وأمته بمثل هذه المواعظ وما كتب مذكرته الا دفاعاً عن دينه وهو أثمن شيء يحرص عليه فكانت كتابتها في وقتها أفضل مما استحسن القاضي ابداله بها، وأما المبطلون المكفرون للمؤمنين مع علمهم بما ورد في ذلك فلم يتعظوا — وهم أحوج الى الموعظة — اذ طلبوا اعادة النظر في الحكم مخطئين له، وذلك يتضمن تكفير قاضي الاستئناف بزعمهم لانه قال بأن نبوة آدم مسألة نظرية لا قطعية فهل فقهوا هذا أم يقولون ان أبا زيد يكفر بما لا يكفر به غيره ؟؟ قالت جريدة وادي النيل :

﴿ عود الى قضية آدم ﴾

لم يقنع المدعون في قضية آدم المعروفة بالحكم الذي أصدرته المحكمة الشرعية الكلية فيها . ويظهر أنهم لم يتأثروا بتلك النصائح الثمينة التي أفاض بها فضيلة رئيس المحكمة عليهم وعلى رجال الدين عامة وان أغلاها وأثمنها ترك الخلاف في توافه الامور والاتفاق لمعالجة الادواء التي تضر الامة في كل شيء، وانا لا يسعنا الا أن

نأسف لهذه الحالة فقد رفعوا التماس اعادة نظر الى المحكمة وعرض عليها في جلسة أمس (أي ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣٣٧ — ٢ يناير ١٩١٩) فأصدرت الحكم الآتي :

صار الاطلاع على عريضة الالتماس المطلوب بهـا الغاء ما حكمت به محكمة الاستئناف في القضية نمرة ٤ سنة ١٩١٨ بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٩١٨ وخلاصتها انه لم يصادف (كما زعم الطالب) قبولا في المذهب لبنائه على مجرد استنتاجات من قواعد عامة ولان اتفاق العلماء على نبوة آدم (باعتراف المحكمة) يدل على انها معلومة من الدين بالضرورة لامن الامور النظرية فضلا عن وجود نصوص قاطعة تدل على انها معلومة من الدين بالضرورة، ولان كل الاحكام الشرعية نظرية ولما اشتهر بعضها اشتهارا تاما سمي ضروريا وذلك لاينافي نظريته وان الضروري متفاوت في الشهرة ويكفي فيه أي شهرة وعلى تسليم انه نظري كما فهمت المحكمة فان منكره لايعفى من التكفير الا اذا كان خفيا والمنكر له شبهة وان عدول المستأنف الى الاقرار بنبوة آدم أمرا زائدا عن الموضوع الذي فصل فيه ابتدائيا. الخ »

المحكمة : حيث إن الالتماس تقدم في ميعاده القانوني

وحيث ماقررته محكمة الاستئناف في بيان ماحكمت به في القضية المشار اليها لاعمل لها فيه بشيء سوى جمع ماقاله علماء الحنفية في عدة مواضع في كتب الفروع المعول عليها « كرد المحتار » وشرحه في باب الامامة والردة « والبحر » في الردة و « فتح القدير » في باب البقاء وغير ذلك . ومن كتب الاصول « كالتحرير » و « مسلم الثبوت » القاضية تلك النصوص بأن مذهب أبي حنيفة عدم تكفير أحد من المخالفين فيما ليس من الاصول المعلومة من الدين بالضرورة. واذن يكون ماقضي به استئنافيا في هذه الحادثة ليس الا بالتطبيق لما نصوا على أنه المذهب والذي يعلم منه أن ماجاء في (الهندية) و (مجمع الانهر) مخالفا له لا يمكن الاخذ به في الاحكام التي لاتكون الا بأرجح الاقوال من مذهب أبي حنيفة عملا بما قالوه في رسم المفتي (راجع مقدمة شرح الدر جزء أول) وجاء القانون نمرة ٣١ مقررا له

وحيث ان التطرف بدعوى أن نبوة آدم معلومة من الدين بالضرورة توصلا لتكفير مسلم بأي وسيلة انقيادا لاحقاد نفسية ثم الاستدلال عليها بماجاء بعريضة الالتماس

تعده المحكمة تهاترا وشغبا في أمر بديهي ومثله مكابرة مردود من ذاته لا يستحق التفاتا

وحيث ان حكم محكمة الاستئناف لم يبن الا على ان المستأنف أنكر لشبهة غير صحيحة أمرا نظريا ليس من الاصول المعلومة ضرورة كما هو صريح في أسباب ذلك الحكم ولا دخل فيه مطلقا لما قرره المستأنف بالجلسة فالقول بأن ما حصل منه أمر زائد لم يفصل فيه ابتدائيا وجعل ذلك من أسباب الالتماس قول صادر بلا روية. ومما ذكر كله وما تبين في أسباب الحكم المستأنف ومن الرجوع الى الكتب التي أخذت منها أسبابه والى كتاب (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) للامام الغزالي رضي الله عنه يرى أن ما حكمت به محكمة الاستئناف هو ما يجب الحكم به شرعا ويتعين لما ذكر رفض هذا الالتماس موضوعا عملا بالفقرة الثانية من المادة ٣٣١ قانون نمرة ٣١ سنة ١٩١٠

فبناء عليه — تقرر قبول هذا الالتماس شكلا وفي الموضوع برفضه وعدم قبوله اه

[المنار] نشكر للقاضي الفاضل تصريحه بما ظهر له من أن هذه القضية لم تكن صادرة عن غيرة على الدين ، ولا حرص على اعراض المسلمين ، وانما هي أحقاد نفسية أثارها الحسد ، والا فما بالنا لم نر أحدا من هؤلاء المكفرين لاهل الصلاح والاصلاح من المسلمين لا يدافعون عن الاسلام بالانكار على من يدعون الى ترك جمع نصوصه حتى نصوص الكتاب والسنة والاجماع بجميع أنواعه ، وتفضيل ما يضعونه هم من القوانين عليها كالذين يرد عليهم المنار من رجال القضاء الاهلي ، ولا بالانكار على المستبيحين لجميع الفواحش والمنكرات ؟ ؟

﴿ حجم المنار والجزء الاول من المجلد الحادي والعشرين ﴾

بدأنا بهذا الجزء في ربيع الاول واضطررنا الى تأخيره زهاء شهرين ، وقد زدنا فيه كراستين على ما قبله ونرجو أن نزيد فيما يصدر بعد الجزء الثالث اذا ورد ورق جديد على مصر في هذه المدة وأن يصدر مطردا بلا انقطاع . وقد أخرنا المقالة الرابعة من مقالات (المتفرنجون والاصلاح الاسلامي) ولعلها تنشر في الجزء التالي له مع ترجمة (باحثة البادية وتأبينها) وشيء من تقريظ المطبوعات الحديثة

المنار ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

سلخ جمادى الاولى ١٣٣٧ — ١١ الحوت (ش ٣) ١٢٩٧ ه ش ٢ مارس ١٩١٩

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٩٥) إِنَّ ٱللَّهَ فَٰلِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَٰلِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ، قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ،

قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ . إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

هذه طائفة من آيات التنزيل ، مبينة ومفصلة لطائفة من آيات التكوين، تدل أوضح الدلالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وعلمه وحكمته، ولطفه ورحمته، جاءت تالية لطائفة من الآيات في أصول الايمان الثلاثة ، — التوحيد والبعث والرسالة ، فهي مزيد تأكيد في اثباتها ، وكمال بيان في معرفة الله تعالى ، بما فيها من بيان سننه وحكمه في الإحياء والإماتة والأحياء والاموات ، وتقديره وتدبيره لامر النيرات في السموات ، وأنواع حججه ودلائله في أنواع النبات ، قال عز وجل :

﴿ ان الله فالق الحب والنوى ﴾ الفلق والفرق والفتق جنس واحد للشق — ونحوه الفأو والفأي والفأس والفت والفتح والفجر والفرج والفرز والفرس والفرص والفرض والفري والفصل واشباهها — ومنه قوله تعالى (واذ فرقنا بكم البحر) مع قوله فيه (فانفرق فكان كل فرق كالطود) ومن أسماء الصبح الفلق — بالتحريك — والفتق — بالفتح — والفتيق ، وقول الراغب : الفلق شق الشيء وابانة بعضه من بعض والفتق الفصل بين المتصلين . غير ظاهر، والتنزيل يدل على عكس قوله ان الفتق يعتبر فيه الانشقاق والفلق يعتبر فيه الانفصال . وفيه ان مواد الفلق والفتق والشق والفطر ومطاوعاتها قد استعملت في الاشياء المادية في باب الخلق والتكوين وما يقابله من خراب العالم بقيام القيامة وأن الفرق استعمل في الامور المادية والمعنوية جميعا، ومن الثاني تسمية القرآن فرقانا وتلقيب عمر بالفاروق، فان المراد بهما الفرق بين الحق والباطل . والحب بالفتح اسم جنس للحنطة وغيرها مما يكون في السنبل والاكمام والجمع حبوب مثل فلس وفلوس والواحدة حبة . والحب بالكسر

بزر مالا يقتات مثل بزور الرياحين الواحدة حبة بالكسر. قاله في المصباح ونحوه في مفردات الراغب . والنوى جمع نواة وهي عجمة التمر والزبيب وغيرهما كما في اللسان، والعجمة بالتحريك مايكون في داخل التمرة والزبيبة ونحوها ، وجمعها عجم. وقيل ان النوى اذا أطلق ينصرف الى عجم التمر فان أريد غيره قيد فقيل نوى الخوخ ونوى المشمش . ولعل هذا تابع للقرينة ولم أر من قال انه كذلك في أصل اللغة

والمعنى ان الله هو فالق ما تزرعون من حب الحصيد ونوى الثمرات وشاقه بقدرته وتقديره الذي ربط به أسباب الانبات بمسبباتها ، ومنها جعل الحب والنوى في التراب وارواء التراب بالماء. وعن ابن عباس ان المراد بالفلق هنا الخلق والايجاد ، والاول أظهر في بيان المراد ، وقد بين ذلك بقوله : ﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ أي يخرج الزرع من نجم وشجر وهو حي أي متغذ نام من الميت وهو مالا يتغذي ولا ينمي من الحب والنوى وغيرهما من البزور كما يخرج الحيوان من البيضة والنطفة. فان قيل ان علماء المواليد يزعمون أن في كل أصول الاحياء حياة فكل ما ينبت من ذلك ذو حياة كامنة اذا عقم بالصناعة لا ينبت. قلنا ان هذا اصطلاح لهم يسمون القوة أو الخاصية التي يكون بها الحب قابلا للانبات حياة ولكن هذا لا يصح في اللغة الا بضرب من التجوز وانما حقيقة الحياة في اللغة ما يكون به الجسم متغذيا ناميا بالفعل وهذا أدنى مراتب الحياة عند العرب ولها مراتب أخرى كالإحساس والقدرة والارادة والعلم والعقل والحكمة والنظام، وهذه أعلى مراتب الحياة في المخلوق، وفوق ذلك حياة الخالق التي هي مصدر كل حياة وحكمة ونظام في الكون. وما قلنا انه الحقيقة أظهر من مقابله وهو جعل اطلاق الميت على الحب والنوى من مجاز التشبيه كأنه لما لم تظهر فيه آيات حياته الكامنة من النماء وغيره سمي ميتا ، فان واضعي اللغة في طور البداوة لم يكونوا يعلمون ان في الحب والنوى صفة هي مصدر النماء قد تزول فلا يبقى قابلا للانبات . وجعل بعضهم كلا من الحي والميت هنا مجازا ويرده مثل قوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ﴿ ومخرج الميت من الحي ﴾ كالحب والنوى من النبات والبيضة والنطفة من الحيوان . وهذا قيل انه عطف على « فالق الحب » لان الاصل في الكلام الفصيح أن

يعطف الاسم على الاسم، ولان إخراج الميت من الحي لايدخل في بيان فالق الحب والنوى، وقيل انه عطف على « يخرج الحي من الميت » سواء كان بيانا لما قبله أو خبرا بعد خبر، لان التناسب بين مذين الامرين المتقابلين أقوى من التناسب بين الثاني و بين فلق الحب والنوى، ولذلك وردا بصيغة الفعل في سورتي يونس والروم (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) وقدحسن عطف اسم الفاعل (مخرج) على الفعل (يخرج) لنكتة بيان التفاوت بين الامرين مع كون اسم الفاعل بمعنى فعل المضارع فان مخرج الشيء هو الذي يخرجه في الحال أو الاستقبال، ولكن هذا الفعل يدل أيضاً على التجدد والاستمرار، وقد يراد بوضعه موضع اسم الفاعل أو موضع الفعل الماضي إفادة تجدده واستمراره، أو تصور حدوث متعلقه واستحضار صورته، مثال الاول المقابلة التي أوردها الشيخ عبد القاهر في دلائل الاعجاز بين قوله تعالى (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء) وقوله (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) فصيغة الفعل في يرزقكم تدل على أنه يرزقهم حالا فحالا وساعة فساعة، وصيغة الاسم في باسط ذراعيه تفيد البقاء على تلك الحالة. ومثال الثاني قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة) جعل (فتصبح) موضع فأصبحت لافادة استحضار تلك الهيئة الجميلة وتمثلها كأنها حاضرة مشاهدة. وكل من هذين المعنيين للمضارع قيل بأنه مراد بقوله تعالى (يخرج الحي من الميت) القائل بالاول هو فخر الدين الرازي والقائل بالآخر هو ابن المنير في الانتصاف على الكشاف. وقال الرازي في تعليل اختلاف التعبير في المعنى: إن العناية بايجاد الحي من الميت أكثر وأكمل من العناية باخراج الميت من الحي. وقال ابن المنير في ذلك ان الاول أظهر في القدرة من الثاني وانه أول الحالين والنظر أول ما يبدأ به — فلهذا كان جديرا بالتصور والتأكيد في النفس و بالتقديم. وذهب الخطيب الاسكافي في (درة التنزيل) الى جعل اختلاف التعبير لفظيا محضا. وملخص كلامه ان مقتضى السياق ان يقال « ومخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي » لمناسبة (فالق الحب) قبله (وفالق الاصباح) بعده ولكن لما كان ذلك مستثقلا في النطق بعد كلمة « والنوى » التي اجتمع فيها ثلاثة من حروف العلة عدل

عن (ومخرج) المبدوء بحروف العلة الى (يخرج) التي بمعناها ثم عطف عليها (ومخرج) لمناسبة اسم الفاعل قبله و بعده .

ونقل بعض المفسرين عن ابن عباس (رض) ان معنى الجملتين يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، ومثله اخراج البار من الفاجر والصالح من الطالح والعالم من الجاهل وعكسه بحمل الحياة والموت على المعنوي منهما على حدقوله تعالى (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) ولكن هذا التفسير لايناسب هذا السياق و إنما يناسب سياق آل عمران (٢٧:٤) ويونس(٣١:١٠) (فراجع الاول في ص ٢٧٥ ج ٣ من التفسير)

﴿ ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾ أي ذلكم المتصف بما ذكر من مقتضى القدرة الكاملة والحكمة البالغة هو الله خالق كل شيء فكيف تصرفون عن عبادته وحده، وتشركون به من لايقدر على فلق نواة ولا حبة ، ولاإحداث سنبلة ولا نخلة ؟

﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ﴾ جمع تعالى في هذه الآية المنزلة بين ثلاث آيات سماوية، بعد الجمع فيما قبلها بين ثلاث آيات أرضية، (فالآية الاولى) فلق الاصباح والمراد به الصبح وأصله مصدر «أصبح الرجل» اذا دخل في وقت الصباح ومن الشواهد عليه قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل الا انجلي بصبح وما الاصباح منك بأمثل

وقرأ الحسن بفتح الهمزة وأنشد قول الشاعر :

أقفى رياحا وبني رياح تناسخ الأمساء والإصباح

بالكسر والفتح — مصدرين وجمع مساء وصبح ، وفلق الاصباح عبارة عن فلق ظلمة الليل وشقها بعمود الصبح الذي يبدو في جهة مطلع الشمس من الافق مستطيلا، فلا يعتد به حتى يصير مستطيرا ، تتفرى الظلمة عنه من أمامه وعن جانبيه الى أن تنقشع وتزول ، ولذلك سمي فجرا فان الفجر بمعنى الفلق كما تقدم آنفا . والله تعالى هو فالق الاصباح بنور الشمس الذي يتقدمها، اذ هو خالقها ومقدر مواقع الارض منها في سيرها، كما نبينه في الآية الثالثة من آيات هذه الآية فانها معللة الآيتين قبلها ، والمراد

من التذكير بالآية الاولى التأمل في صنع الله بتفري الليل اذا عسعس ، عن صبحه اذا تنفس، وإفاضة النور الذي هو مظهر جمال الوجود، ومبدأ زمن تقلب الاحياء في القيام والقعود، والركوع والسجود، ومضيهم في تجلي النهار، الى ما يسروا له من الاعمال، وما لله في ذلك من نعم وحكم وأسرار، ويدل على ذلك ذكر الآية الثانية بفائدتها وهي آية الليل بجعله الله سكناً، فهذا المذكور، يدل على مقابله المحذوف، وهو جعل النهار وقتاً للحركة بالسعي للمعاش ، والعمل الصالح للمعاد، وقد صرح بنوعي الفائدتين في آيات كقوله تعالى (٢٨ : ٧٣ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) فهذه الآية على ايجازها جامعة للفوائد الدنيوية والدينية ، وفيها اللف والنشر ، أي لتسكنوا في الليل وتطلبوا الرزق من فضل الله في النهار، وليعدكم لشكر نعمه عليكم بهما، وبمنافعكم في كل منهما، ومن الآيات المصرحة بذكرهما ماقرن بالتذكير بفائدتهما الدنيوية فقط كقوله تعالى (٧٨ : ١٠ وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً) ومنها ما قرن بالتذكير بفائدتهما الدينية فقط كقوله تعالى (٢٥ : ٦٢ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) فيالله من ايجاز القرآن و بلاغته في اختلاف عبارته ،

قرأ عاصم والكسائي « وجعل الليل » بالفعل الماضي وقرأه الجمهور بصيغة اسم الفاعل « وجاعل » ورسمهما في المصحف الامام واحد، والاولى تقوي جانب الاعراب فان الشمس والقمر المعطوفين على الليل منصوبان باجماع القراء ولا يظهر نصبهما على القراءة الثانية الا بتقدير جعل أو جعل « جاعل » بمعناه، وهو تكلف يجتنب في الفصيح. والثانية تناسب السياق والنسق بعطف الاسم على الاسم وهو الاصل الذي لا يخرج عنه في الفصيح الا لنكتة . فبالجمع بين القراءتين زال التكلف وتم التناسب، فيالله من فصاحة القرآن في عبارته ، واختلاف قراءته ،

والسكن بالتحريك السكون وما يسكن فيه من مكان كالبيت وزمان كالليل ، وكذا ما يسكن اليه وهو ما اختاره الكشاف هنا قال : السكن ما يسكن اليه الرجل (أي مثلا) ويطمئن استئناساً به واستراحاً اليه من زوج أو حبيب ، ومنه قيل للنار سكن لانه يستأنس بها، لالتراهم سموها المؤنسة، والليل يطمئن اليه التعب بالنهار

لاستراحته فيه وجمامه . ويجوز أن يراد وجعل الليل مسكونا فيه من قوله (لتسكنوا فيه) اهـ وهذا الاخير المرجوح عنده هو الراجح المختار عندنا لأنه يجوز الجمع بينهما، ودليل الترجيح نص « لتسكنوا فيه » ومن سكون فيه ، أعم وأظهر من السكون اليه، فان كثيرا من الناس يستوحشون من الليل ولا يأنسون به، وان كان له على آخرين أياد جلية أو خفية، تنقض مذهب المانوية، فيستطيله المرضى والمهمومون والمهجورون، ويستقصره العابدون الواصلون، والعاشقون الموصولون، فذلك يقول ما أطوله ويطلب انجلاءه ، وهذا يقول ما أقصره ويتمنى بقاءه :

يود أن سواد الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

والمراد بالسكون فيه ما يعم سكون الجسم وسكون النفس. أما سكون الجسم فبراحته من تعب العمل بالنهار ، وأما سكون النفس فبهدوء الخواطر والافكار ، والليل زمن السكون لانه لا يتيسر فيه من الحركة وأنواع الاعمال ما يتيسر في النهار ، لما خص به الاول من الاظلام والثاني من الابصار ، (١٧ : ١٢ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) فأكثر الاحياء من إنسان وحيوان تترك العمل والسعي في الليل، وتأوي الى مساكنها للراحة التي لاتتم وتكمل الا بالنوم، الذي تسكن به الجوارح والخواطر ببطلان حركتها الارادية ، كما تسكن به الاعضاء الرئيسة سكونا نسبيا بقلة حركتها الطبيعية، فتقل نبضات القلب بوقوفها بين كل نبضتين ، ويقل افراز خلايا الجسم للسوائل والعصارات التي تفرزها ، ويبطئ التنفس ويقل ضغط الدم في الشرايين ولا سيما في أول النوم اذ تكون الحاجة الى الراحة به على أشدها ، ويضعف الشعور حتى يكاد يكون مفقوداً ، فيستريح الجهاز العصبي ، ولاسيما الدماغ والحبل الشوكي، وتستريح جميع الاعضاء باستراحته . وتقل الفضلات التي تنحل من البدن وتكثر الدقائق التي تتكون من الدم لتحل محلها . وانما تكثر الفضلات وانحلال الذرات بكثرة العمل، فالعمل العقلي يجهد الدماغ والعضلي يجهد الاعضاء العاملة فتزداد الحرارة ويكثر الاحتراق بحسب كثرة العمل وتكون الحاجة الى الراحة بالنوم بقدر ذلك، وقد علل النوم تعليلات كثيرة ولما يصل العلماء الى كشف سره ، واستجلاء كنه سببه

وأما الآية الثالثة الكونية في الآية فهي جعل الشمس والقمر حسبانا أي علمي حساب، لان طلوعهما وغروبهما وما يظهر من تحولاتهما واختلاف مظاهرهما كل ذلك بحساب، كما قال تعالى (٥٥: ٥ الشمس والقمر بحسبان) فما هنا بمعنى آية الاسراء (١٧: ١٢) التي ذكرت آنفا وآية يونس (١٠: ٥ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) فالحساب بالكسر والحسبان بالضم مصدران لحسب يحسب (من باب نصر) وهو استعمال العدد في الاشياء والاوقات. وأما الحسبان بالكسر فهو مصدر حسب (بوزن علم) وفضل الله تعالى في ذلك عظيم فان حاجة الناس الى معرفة حساب الاوقات لعباداتهم ومعاملاتهم وتواريخهم لا تخفى على أحد منهم في جملتها، وعند خواص العلماء من ذلك ما ليس عند غيرهم؛ وعلماء الفلك والتقاويم متفقون في هذا العصر على أن للارض حركتين - حركة تتم في ٢٤ ساعة وهي مدار حساب الايام، وحركة تتم في سنة وبها يكون اختلاف الفصول وعليها مدار حساب السنين الشمسية، ولعلنا نشرح هذا في تفسير سورة يونس وغيرها

﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي ذلك الجعل العالي الشان، البعيد المدى في الابداع والاتقان، فوق بعد النيرات عن الانسان، المترتبُ على ماذكر من سبب اختلاف الايام والفصول وتقدير السنين الشمسية، ومن تشكلات القمر التي نعرف بها الشهور القمرية، هو تقدير الخالق الغالب على أمره في تنظيم ملكه، الذي وضع المقادير والانظمة الفلكية وغيرهما بما اقتضاه واسع علمه، فهذا النظام والابداع من آثار عزته وعلمه عز وجل، فليس في ملكه جزاف ولا خلل، (إنا كل شيء خلقناه بقدر)

﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ هذا نوع آخر من آيات التكوين العلوية مقرون بفائدته في تعليل جعله، والمراد بالنجوم ماعدا الشمس والقمر من نيرات السماء، لان ذلك هو المتبادر من السياق والمعهود في الاهتداء: ذكر ببعض فضله في تسخير هذه النيرات التي ترى صغيرة بعد التذكير ببعض فضله في النيرين الاكبرين في أعين الناس، وقيل إنهما يدخلان في عموم النجوم لان القمر مما يهتدى به في الظلمات، فاذا استثنيت بعض ليالي الشهر قلنا وأي نجم يهتدى به في جميع الاوقات؟ وكانت العرب في بداوتها تؤقت بطلوع النجم لانهم ما كانوا يعرفون

الحساب» وانما يحفظون أوقات السنة بالانواء، وهي نجوم منازل القمر في مطالعها ومغاربها وسيأتي بيان ذلك في موضع آخر وقد سموا الوقت الذي يجب الاداء فيه «نجما» تجوزا لان الاستحقاق لا يعرف الا به، ثم سموا المال الذي يؤدى نجما وقالوا نجمه اذا جعله أقساطا. وفي الظلمات هنا وجهان ظلمات الليل بالبر والبحر واضافهما اليهما لملابستها لهما - أو مشتبهات الطرق شبهها بالظلمات، قاله في الكشاف. وكان اهتداؤهم بالنجوم قسمان أحدهما معرفة الوقت من الليل أو من السنة والثاني معرفة المسالك والطرق والجهات. وقد سبق ذكر الظلمات و بيان أنواعها في البر والبحر في تفسير الآية ٦٣ من هذه السورة

وهاهنا يذكر المفسرون النهي عن علم النجوم الذي يزعم أهله انهم يعرفون به ما سيكون في المستقبل من الاحداث قبل حدوثها، ومنهم من بالغ فأطلق النهي عن علم النجوم الا القدر الذي يهتدى به في الظلمات، و يعرف به الحساب، و يحصل به الاعتبار بزينة السماء، لان هذه الاشياء هي التي هدى اليها الكتاب، والصواب أن المذموم هو تلك الاوهام التي يزعمون معرفة الغيب بها دون علم الهيئة الفلكية التي يعرف بها من آيات قدرة الله وعلمه وحكمته مالا يعرف من علم آخر، وقد اتسع هذا العلم في عصرنا هذا بما استحدث من المراصد المقربة للابعاد والآلات المحللة للنور التي يعرف بها سرعة سيره وأبعاد الاجرام السماوية بعضها من بعض ومساحة الكواكب وكثافتها والمواد المؤلفة منها. واننا نقتبس مما نقل عن علماء الهيئة كلمة في أبعاد بعض النجوم الثوابت التي هي شموس من جنس شمسنا:

«النجوم تعدُّ بالملايين لكن علماء الفلك لم يتمكنوا حتى الآن الا من معرفة ابعاد بعض المئات منها لان سائرها أبعد من ان يرى اختلاف في مواقعه. والذي عُرف بعدُه منها جرت العادة أن لا يحسب بعده بالاميال بل بالمسافة التي يقطعها النور في سنة من الزمان فان النور يسير ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية فيقطع في السنة نحو ٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ميل وقد وجد بالرصد ان أقرب النجوم منا لا يصل نورهُ الينا الا في أربع سنوات ونحو نصف سنة فيقال ان بعدهُ عنا أربع سنوات ونصف سنة نورية. ومن النجوم ما لا يصل النور منه الينا الا في ألف سنة أو أكثر فالنجم المسمى بالنسر الطائر يصل النور منه الينا في أربع عشرة سنة ونصف

سنة لان بعده ... ... ٨٧ ميل . والنجم المسمى بالنسر الواقع يصل النور منه الينا في نحو ثلاثين سنة لان بعده عنا نحو ... ... ١٨٠ والنجم المسمى بالسماك الرامح يصل النور منه الينا في نحو خمسين سنة لان بعده عنا ... ... ٣٠٠ وأما الشعرى العبور وهي أسطع النجوم نوراً فبعدها عنا نحو تسع سنوات نورية والعيوق بعده عنا نحو ٣٢ سنة نورية

وأول من قاس ابعاد النجوم بالضبط الفلكي [ستروف] فانه قاس بعد النسر الواقع سنة ١٨٣٥ الى سنة ١٨٣٨ فجاءت نتيجة قياسه مطابقة لنتيجة القياسات الحديثة مع ان الفلكيين يستخدمون الآن من الوسائل مالم يكن معروفا في عصره» اه

ولعل كثرة الآيات في عالم السماء هي نكتة تذييل الآية بقوله تعالى : ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ سواء أريد بها آيات التنزيل أو آيات التكوين ، فان أريد بها المعنى الاول فوجهه أن هذه الآية وما قبلها وما في معناها من الآيات المنزلة في الحث على النظر في ملكوت السماء كله تفصيل مبين لطرق النظر والبحث في العالم السماوي للذين يعلمون بالفعل أو بالقوة والاستعداد شيئا من حِكم الله تعالى وعجائب صنعه فيه فيزدادون بهذا التفصيل بحثا وعلما ، فيكون علمهم ناميا مستمرا . وان أريد الثاني فوجهه أظهر وهو ان الآيات الدالة على علم الله تعالى وحكمته وفضله على خلقه لا يستخرجها من النظر في النجوم الا الذين يعلمون، أي أهل العلم بهذا الشأن، الذين يقرنون العلم بالاعتبار، ولا يرضون بأن يكون منتهى الحظ، ما تمتع به اللحظ ، ولا غاية النظر والحساب ، أن يقال ان هذا لشيء عجاب، ومن الاعتبار قول صاحب المقتطف بعد مقالات لخص فيها بعض « بسائط علم الفلك » — ومنها الكلمة المذكورة آنفا — فانه قال لما انتهى من الكلام على النظام الشمسي ورجح أنه لا يصلح شيء من سياراته لحياة البشر غير الارض وانه يحتمل أن تكون سيارات سائر الشموس كذلك وكلها أكبر من هذه الشمس قال: « والانسان أوسع هذه المخلوقات ادراكا، وهو على سعة ادراكه لا يعلم تركيب جسم النملة ولا كيفية تجمع الدقائق في حبة الرمل ، علم واسع وجهل مطبق، وكلاهما ناطق بأن مبدع هذا الكون أعظم وأعلم وأحكم من كل ما يتصور عقل الانسان »

﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ﴾ بعد ان ذكرنا الله تعالى ببعض آياته الكونية في الارض وفي السماء ذكرنا في هذه الآية ببعض آياته في أنفسنا . الانشاء ايجاد الشيء وتربيته أو احداثه بالتدريج . وقد استعمل في التنزيل في خلق الانسان بجملته وخلق أعضائه ومشاعره وايجاد الاقوام والقرون من أممه بعضها في اثر بعض، وفي البعث، وفي خلق الشجر والجنات، وفي احداث السحاب ، وفي حقيقة الاساس : وأنشأ حديثا وشعرا وعمارة . والنفس ما يحيا به الانسان وذاته فيطلق على الروح وعلى المرء المركب من روح وبدن . والمستقر (بفتح القاف) حيث يكون القرار والاقامة قال تعالى (ولكم في الارض مستقر) كما قال (جعل الارض قرارا) . قال الراغب : قر في مكانه يقر قرارا اذا ثبت ثبوتا جامدا ، وأصله من القُر وهو البرد وهو يقتضي السكون والحر يقتضي الحركة اهـ. والمستودع موضع الوديعة وهي ما يتركه المرء عند غيره موقتا ليأخذه بعدُ فهي فعيلة من ودع الشيء اذا تركه بمعنى مفعولة . ويكون كل من المستقر والمستودع مصدرا ميميا بمعنى الاستقرار والاستيداع ، ويكون الثاني اسم مفعول بمعنى الوديعة ولا يكون الاول كذلك لان فعله لازم الا ما جاء على طريقة الحذف كقولهم ظرف مستقر ، أي مستقر فيه

والمعنى انه تعالى هو الذي أنشأكم من نفس واحدة وهي إما الروح التي هي الخلق الآخر في قوله تعالى بعد ذكر أطوار خلق الجسد (ثم أنشأناه خلقا آخر) وإما الذات المركبة من الروح والجسد والمراد بها الانسان الاول الذي تسلسل منه سائر الناس بالتوالد بين الازواج، وهو عندنا وعند أهل الكتاب آدم عليه السلام. وتقدم مثل هذا في أول سورة النساء مع بحث طويل في تفسيره وسيجيء شبهه في سورة الاعراف . وفي انشاء جميع البشر من نفس واحدة آيات بينات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته، وفي التذكير به ارشاد الى ما يجب من شكر نعمته، ومن وجوب التعارف والتآلف والتعاون بين البشر، وعدم جعل تفرقهم الى شعوب وقبائل، مدعاة للتعادي والتقاتل ، وقد فصلنا القول في هذا المعنى في أول تفسير آية سورة النساء

قرأ ابن كثير وأبو عمرو المستقر بكسر القاف والباقون بفتحها . واختلف في المراد

بالمستقر والمستودع فروى جمهور رواة التفسير وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : المستقر (بالفتح) ما كان في الرحم والمستودع ما استودع في أصلاب الرجال والدواب — وفي لفظ : المستقر ما في الرحم وعلى ظهر الارض وبطنها مما هو حي ومما هو قد مات — وفي لفظ : المستقر ما كان في الارض والمستودع ما كان في الصلب ، وروي عن ابن مسعود انه قال في تفسير العبارة : مستقرها في الدنيا ومستودعها في الآخرة، أي النفس . وفي رواية عنه المستقر الرحم والمستودع المكان الذي تموت فيه . وروي مثله عن الحسن وقتادة . وأورد الرازي قول الحسن مفسرا له فقال المستقر حاله بعد الموت لانه ان كان سعيدا فقد استقرت تلك السعادة وان كان شقيا فقد استقرت تلك الشقاوة ولا تبديل في أحوال الانسان بعد الموت وأما قبل الموت فالاحوال متبدلة فالكافر قد ينقلب مؤمناً والزنديق قد ينقلب صدّيقاً فهذه الاحوال لكونها على شرف الزوال والفناء لا يبعد تشبيهها بالوديعة. وذكر للاصم قولين أحدهما ان المستقر من خلق من النفس الاولى ودخل الدنيا واستقر فيها والمستودع الذي لما يخلق بعد، وثانيهما المستقر من استقر في قرار الدنيا والمستودع من في القبور حتى يبعث (وانما يظهر وجه هذين القولين على قراءة كسر القاف أوجعل المستقر بفتح القاف مصدرا) وحكى عن أبي مسلم الاصفهاني أن التقدير — فمنكم مستقر ذكر ومنكم مستودع أنثى فعبر عن الذكر بالمستقر لان النطفة تتولد في صلبه وعبر عن الانثى بالمستودع لان الرحم شبيهة بالمستودع. ولعله أخذه من قول الشاعر:

وانما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللآباء أبناء

وأقول ليس في الكتاب العزيز ما نستعين به على تفسير هذه العبارة كدأبنا في تفسير القرآن بالقرآن الا قوله تعالى في سورة الحج (٢٢ : ٥ يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم) الآية . وقوله تعالى في سورة هود (١١ : ٦ وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلٌّ في كتاب مبين) قال ابن عباس : مستقرها حيث تأوي ومستودعها حيث تموت . وقال مستقرها في

الارحام ومستودعها حيث تموت . فهذا يرجح أن المراد بالمستقر (بفتح القاف) الرحم والمستودع القبر ، وأما المستقر (بكسر القاف) فالظاهر أنه من يطول عمره في الدنيا كأنه قال فمنكم مستقر في الدنيا يعمر عمرا طويلا ومنكم مستودع لا استقرار له فيها بل تخترمه المنية طفلا أو يافعا ، ويمكن تفسير قراءة الفتح بهذا أي فمنها ذو استقرار وذو استيداع . وآخر ما خطر لي بعد تلخيص أقوال المفسرين ان المستقر الروح — وهو يذكر ويؤنث — والمستودع البدن . والجملة مما يتسع المجال فيه للتفسير والتقدير والايجاز مقصود به

﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ أي قد جعلنا الآيات المبينة لخلق البشر مفصلة كل فصل ونوع منها يدل على قدرة الخالق وارادته ، وعلمه وحكمته ، وفضله ورحمته ، فصلناها كذلك لقوم يفقهون ما يتلى عليهم أي يفهمون المراد منه ومرماه ، و يفطنون لدقائقه وخفاياه ، فالفقه — وان فسر بالعلم و بالفهم — أخص منهما . قال الراغب : الفقه هو التوصل الى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم . وقال ابن الاثير في النهاية ان اشتقاقه من الفتح والشق ، وأحسن منه قول الحكيم الترمذي ان فقه وفقأ واحد فان الابدال بين الهمزة والهاء كثير . وفقأ البثرة شقها وسبر غورها ، فالفقأ مستعمل في الحسيات والفقه في المعنويات ، والجامع بينهما النظر في أعماق الشيء و باطنه . فمن لا يفهم الا ظواهر الكلام ولا يفطن الا لمظاهر الاشياء لا يقال انه فقه ذلك ، ولذلك سمي علم الشرع فقها لما فيه من الاستنباط ، ولما كان استخراج الحكم والعبر من خلق البشر يتوقف على غوص في أعماق الآيات ، وفطنة في استخراج دقائق الحكم والبينات ، عبر هنا بالفقه ، والعلم بمواقع النجوم والاهتداء بها في ظلمات البر والبحر من الامور الظاهرة التي لا تتوقف على دقة النظر ، ولا غوص الفكر ، وكذلك أكثر مظاهر علم الفلك ، فلذلك اكتفى في الآية السابقة لهذه بالتعبير بالعلم كما تقدم . وقد فطن لذلك الزمخشري — وما أجدره به — فقال (فان قلت) لم قيل « يعلمون » مع ذكر النجوم ، و(يفقهون) مع ذكر انشاء بني آدم ؟ (قلت) لان إنشاء الانس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيرا فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقا له اه وتعقبه ابن المنير فزعم ان هذا كلام

صناعي وان التحقيق ان اختلاف التعبير للتفنن . وذكر وجها آخر بناه على زعمه ان الفقه أدنى درجات العلم ، لانه عبارة عن مجرد الفهم ، وما بني على الفاسد فاسد ، وأين هو في فهم أسرار اللغة من الزمخشري ؟ وأين المقلد لظواهر بعض النقول من الامام اللوذعي ؟ وأيهما السليقي والصناعي ؟

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ﴾ هذه الآية المنزلة مرشدة الى نوع آخر من آيات التكوين وهو ايجاد الماء ، وانزاله من السماء ، وجعله سببا للنبات ، وجعل النبات المسبب عنه أنواعا كثيرة ، مشتبهة وغير متشابهة ، و بذلك يلتقي آخر هذه السياق بأوله . أي وهو الذي أنزل من السحاب ماء فأخرجنا بسبب هذا الماء الواحد نبات كل شيء من أصناف هذا النامي الذي يخرج من الارض فأخرجنا منه أي من النبات خضرا أي شيئا غضا أخضر بالخلقة لا بالصناعة وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحب كساق النجم وأغصان الشجر ، نخرج منه أي من هذا الاخضر المتشعب من النبات آنا بعد آن حبا متراكبا بعضه فوق بعض وهو السنبل — فهذا تفصيل لنماء النجم الذي لا ساق له من النبات ونتاجه ، وعطف عليه حال نظيره من الشجر فقال ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان دانية ﴾ « من طلعها » بدل مما قبله والنخل الشجر الذي ينتج التمر يستعمل لفظه في المفرد والجمع وجمعه نخيل . وطلعها أول ما يطلع أي يظهر من زهرها الذي يكون منه ثمرها قبل أن ينشق عنه كافوره أي وعاؤه ، وما ينشق عنه الكافور من الطلع يسمى الغريض والاغريض ، والقنوان جمع قنو (بالكسر) وهو العذق الذي يكون فيه الثمر ، ومثله في وزنه واستواء مثناه وجمعه الصنو والصنوان وهو ما يخرج من أصل الشجرة من الفروع . والقنوان كالعناقيد من العنب والسنابل من القمح ، أي وحاصلة أو مخرجة من طلع النخل قنوان دانية القطوف سهلة التناول أو بعضها دان قريب من بعض لكثرة حملها .

﴿ وجنات من أعناب ﴾ قرأ الجمهور « جنات » بالنصب وتقدير الكلام : ونخرج منه — أي من ذلك الخضر — جنات من أعناب . وقرأها أبو بكر عن عاصم بالرفع وهو المروي عن علي المرتضى وابن مسعود والاعمش وغيرهم وتقدير

الكلام : ولكم جنات من أعناب ـ أو ـ وهنالك جنات ـ أو ـ ومن الكرم جنات الخ وسنبين حكمة اختلاف الاعراب بعد ﴿ والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ﴾ أي وأخص من نبات كل شيء الزيتون والرمان حال كونه مشتبها في بعض الصفات غير متشابه في بعض آخر ، قيل ان هذه الحال من الرمان وحده فانه أنواع تشتبه في شكل الورق والثمر وتختلف في لون الثمر وطعمه ، فمنه الحلو والحامض والمز ، وقيل ان الحال من مجموع الزيتون والرمان أي مشتبها ماذكر منهما في شكل ورق الشجر وغير متشابه في الثمر ـ أو المعنى كل منهما مشتبه وغير متشابه وذلك ظاهر مما قبله. وصرحوا بأن المشتبه والمتشابه هنا بمعنى اذ يقال اشتبه الامران وتشابها كما يقال استويا وتساويا . وقد قرئ في الشواذ متشابها وغير متشابه وهو ما أجمع عليه فيما سيأتي في آية (وهو الذي أنشأ جنات معروشات) الخ والحق ان بين الصيغتين فرقا فمعنى اشتبها التبس أحدهما بالآخر من شدة الشبه بينهما ، ومعنى تشابها أشبه أحدهما الآخر ولو في بعض الوجوه والصفات فهذا أعم مما قبله . ولا شك في أن بعض ماذكر يتشابه ولا يشتبه وبعضه يتشابه حتى يشتبه حتى على البستاني الماهر كما شاهدنا ذلك واختبرناه في بعض أنواع الرمان احلو مع الحامض ، وهذا من دقة تعبير التنزيل في تحديد الحقائق

﴿ انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ﴾ أي انظروا نظر تأمل واعتبار الى ثمر ماذكر عند مايخرج ثمره والى ينعه عند ماينع أي ويبدو صلاحه وينضج وتأملوا صفاته في كل من الحالين وما بينهما يظهر لكم من لطف الله وتدبيره ، وحكمته في تقديره ، مايدل أوضح الدلالة على وجوب توحيده ﴿ ن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أي في ذلكم الذي أمرتم بالنظر اليه والنظر فيه دلائل عظيمة أو كثيرة للمستعدين للاستدلال، من المؤمنين بالفعل والمستعدين للايمان ، وأما غيرهم فان نظرهم كنظر الطفل وان كانوا من العالمين بأسرار عالم النبات ، والغواصين على مافيه من المحاسن والنظام . فانه لا يتجاوز هذه الظواهر ولا يعبرها الى ماتدل عليه من وجود الخالق وصفاته التي تتجلى فيها، ووحدته التي ينتهي النظام اليها، وان كان يعلم أن وحدة النظام في الاشياء المختلفة، لا يمكن أن يصدر عن ارادات متعددة

ومن مباحث البلاغة في الآيات، واختلاف الاعراب والترتيب بين المتناسبات، هذا السياق بدئ بفلق الحب والنوى واخراج الحي من الميت وعكسه، وقفي عليه بما يناسبه من فلق الاصباح، وعطف على هذا ما يقابله من معاقبة الليل للنهار، وأشير الى فوائدهما وفوائد النيرين، اللذين هما آيتا هذين الملوين، وناسب ذكر النيرين التذكير بخلق النجوم، والمة بالاهتداء بها والايماء الى مافيها من آيات العلوم، ثم عطف على هذا النوع من الآيات إنشاؤنا من نفس واحدة فمنها المستقر والمستودع، وقفي عليه بانزال الماء، وجعله سببا لنبات كل شيء من هذه الاحياء، وكل منهما تفصيل لقوله في الآية الاولى من السياق « يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي » وقد لُوّن في تفصيل خلق النبات الخطاب، وتفنن في طرق الاعراب، للتنبيه الى ما فيه من أنواع الالوان، وتشابه ما فيه من الثمار والافنان، فبدئت الآية بضمير الوحدة الغائب المفرد تبعاً لسياق ما قبلها من هذه الآيات، وعطف عليه ضمير المتكلم الجمعي بطريق الالتفات، اذ قال « فأخرجنا به نبات كل شيء » بعد قوله « أنزل من السماء ماء » فحكمة الالتفات أن تلتفت الاذهان، الى ما يعقب ذلك من البيان، فتنتبه الى ان هذا الاخراج البديع، والصنع السنيع، من فعل الحكيم الخلاق، لا من فلتات المصادفة والاتفاق، ولما كان الماء واحدا والنبات جمعا كثيرا ناسب افراد الفعل الاول وجمع الفعل الآخر. ومعلوم أن الواحد اذا قال فعلنا أراد افادة تعظيم نفسه اذا كان مقامه أهلا لذلك كما يقول الملك أو الامير حتى في هذا العصر في أول ما يصدره من نحو نظام أو قانون « أمرنا بما هو آت » ونكتة العدول عن الماضي الى المضارع في قوله « نخرج منه حبا متراكبا » تحصل بارادة استحضار صورته العجيبة في حسنها وانتظامها، وتنضد سنابلها واتساقها، وعطف عليه ما يخرجه تعالى من طلع النخل، من القنوان المشابه لسنابل القمح، في نضد ثمره وتراكبها، ومنافعها وغرائبها، فان في كل منهما غذاء للناس، وعلفا للدواب والانعام، وذكر بعده جنات الاعناب، لانها أشبه بالنخيل في هذه الابواب، فالعناقيد تشبه العراجين في تكونها، وتراكب حبها وألوان ثمرها، كما تشبهها في درجات تطورها، فالحصرم كالبسر والعنب كالرطب والزبيب كالتمر، ويخرج

من كل منهما عسل وخل وخمر ، ثم ذكر الزيتون والرومان معطوفا على نبات كل شيء أو منصوبا على الاختصاص ، لاعلى ماقبله من النخيل والاعناب،لان ما بينهما من التشابه في الصورة ، محصور في الورق دون الثمرة ؛ وأما مكانهما من المنفعة والفائدة ، فالاول في الدرجة الثالثة والآخر في الدرجة الرابعة ، ذلك بأن الزيتون وزيته غذاء فقط ولكنه تابع للطعام غير مستقل بالتغذية ، والرمان فاكهة وشراب فقط ولكنهما دون فواكه النخيل والاعناب وأشر بتهما في المرتبة ، فناسب جعله بعدها ، والاشارة باختلاف الاعراب الى رتبة كل منهما ، وبناء على اختلاف المراتب قدم نبات الحب على الجميع لانه الغذاء الاعظم الاعم لاكثر الناس وأكثر أنواع الحيوان الاهلية التي تقوم أكثر مرافقهم ومنافعهم بها، فسبحان من هذا كلامه

المتفرنجون والاصلاح الاسلامي*

(٤)

قدبينا في المقالة الثانية رأي أحمد صفوت أفندي [١] في الكتاب والسنة والاجماع والقياس من أصول الشريعة وتكلمنا في المقالة الثالثة على أصلي الاجماع والقياس ، وأرجأنا الكلام على الاصلين الاولين بالتفصيل الى هذه المقالة فنقول :

أحكام السنة

ملخص مانقلناه من خطبة الرجل في أحكام السنة (ص ٤٠٧ م٢٠) أنها قسمان خاص وهو ما كان من قبيل أحكام المحكم في القضايا الفردية وعام وهو ما كان من قبيل القواعد والقوانين لزمنه(ص) . وزعم أن كلا من القسمين قد ثبت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بصفته حاكم الامة وقاضيها أي لابكونه رسول الله تعالى والمبلغ عنه . وان لكل حاكم يجيء بعده حق الحكم والتشريع الذي كان له في الاحكام المدنية وله أن يغير ويلغي من تلك الاحكام مايرى مصلحة الناس في تغييره والغائه

ونقول ان هذا الذي قرره مخالف لما جرى عليه المسلمون منذ ظهر الاسلام الى

*) تابع لما في المجلد العشرين (١) وكيل نيابة الدلنجات بالامس والسكرتير القضائي للفسطين اليوم

هذا اليوم فهو مشاقـة للرسول واتباع لغير سبيل المؤمنين وخروج عن اجماعهم الحقيقي لا العرفي عند الاصوليين فقط، ولكنه يقرره بصفته مسلما كما قال، وقدعلم مما بيناه في المقالة الثالثة مكانه من الاسلام

أما المسلمون فهم متفقون على أن الحكم لله وحده (إنِ الحكم الا لله) وان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مبلغ عن الله تعالى، وأمر أن يحكم بين الناس بما أراه الله فيما أنزل الله من الكتاب والميزان ، والمراد بالميزان العدل والقسط ، والموازنة بين أحكام النصوص في القياس والرأي، قال تعالى (٥٠:٥ وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) الآية . وقال (٤:١٠٤ انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) وقال تعالى (٤٢:٥ ألله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) وقال عز وجل (٢٤:٥٧ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقال تبارك اسمه (٤٤:٥ وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين) وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به الرسول (ص) فقال (٥٧:٤ ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وقال (٥ : ٩ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) أي ولا يكسبنكم بغض قوم وعداوتهم لكم أو بغضكم لهم جريمة ترك العدل فيهم بل يجب أن تعدلوا فيمن تبغضون ومن يعاديكم كما يجب أن تعدلوا فيمن يحبكم وفيمن توالون على سواء، فالعدل واجب لذاته لا يختلف باختلاف من يحكم بينهم ومن يعاملون

قلنا ان المسلمين اتفقوا على أن الحكم لله وحده أي هو له لذاته لانه هو رب العباد الذي يعلم مافيه الخير والمصلحة لهم والذي يجب عليهم الخضوع والانقياد له، ولهم العز والشرف في ذلك ، وليس لبشر أن يعلو على جماعة البشر فيكون سيدا مسيطرا عليهم بقوته ، أو عصبيته رضوا أم سخطوا لأن هـذا ذل وعبودية لا نجب عليهم الا لربهم وخالقهم ولذلك جعل الله الرسل معلمين هادين ، لا جبارين ولا

مسيطرين ، وقد اختلف العلماء في أحكام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هل كانت كلها بوحي من الله أم كان بعضها بالاجتهاد والقياس ؟ وهل أذن الله له أن يحكم برأيه فيما لم يوح اليه فيه شيء لا بالنص ولا بالاقتضاء أم لا ؟ وقد جعل الله تعالى أمر المؤمنين شورى بينهم حتى انه أمر الرسول نفسه بمشاورتهم في الامر، وانما أوجب عليهم طاعة أولي الامر منهم بالتبع لطاعة الله ورسوله ، فلا يطاع أحد منهم في معصيته و «انما الطاعة بالمعروف» كما ثبت في الحديث الصحيح[1] بل قال تعالى في آية المبايعة للرسول (ولا يعصينك في معروف) و بهذا يعلم الفرق بين طاعة الرسول وطاعة غيره من أولي الامر ، وقد فصلنا ذلك في تفسير (٤ : ٥٨ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم)[2] فما قرره أحمد افندي صفوت من مساواة الرسول صلى الله عليه وسلم بغيره من الملوك والسلاطين في التشريع باطل مخالف لكتاب الله وسنة رسوله واجماع المسلمين وكذا للمعقول فطاعة الرسول من أصول الايمان واستحلال مخالفته والقول بنسخ آحاد الحكام لاحكامه وشرعه كفر صريح ، بل يشترط في صحة الايمان الاذعان لحكمه والرضاء به ظاهرا و باطنا (٤ : ٦٤ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)[3]

هذا وانا نرى هؤلاء المتفرنجين يقتدون بأئمتهم الافرنج في كل شيء ضار ولا يقتدون بهم في احترام سلفهم من رجال القانون والمشترعين ورؤساء الحكام، وناهيك بالانكليز والامريكان منهم فانهم لا يزال يحافظون على أقوال سلفهم وحكامهم مالم يضطروا الى تركها اضطرارا ، ومن ذلك ما يطرق مسامعنا كثيرا في هذه الايام من تكرار ذكر مذهب (منرو) واستمساك أهل الولايات المتحدة بعروته حتى ان منهم من يقاوم به مشروع جمعية الامم الذي هو أشرف مشروع يعلو به قدر أمتهم ورئيسهم اذا هو نجح في تنفيذه والا كان الامر بالعكس أو الضد وتراهم مع هذا يقولون انه يجب الوقوف به عند حد مذهب (منرو) الذي من مقتضاه عدم تدخل حكومتهم في شؤون العالم القديم في مقابلة

---

(١) رواه أحمد والشيخان وغيرهما من حديث علي (٢) يراجع تفسيرها في ص ١٨٠–٢٢٢ من ج ٥ من التفسير «٣» راجع تفسيرها في ص ٢٢٢ ج ٥ ت

عدم السماح له بالتعرض لشؤون العالم الجديد تحقيقا لقول (مونرو) «أمريكا للامريكيين» أفليس كل من يوصف بالاسلام أجدر بالاستمساك بأقوال نبيه من استمساك هؤلاء الناس بمن لا يساوي قلامة ظفره من زعمائهم ؟ أما انه كان ينبغي ذلك للمنسوب الى دينه أوقومه وان لم يكن مؤمنا به، الا أنهم جهلوا الدين وفوائده الروحية والدنيوية فأرادوا التفلت منه مع البقاء على الاستفادة من الانتساب اليه على ما تقدم بيانه في المقالة الاولى

وقد وقع في بعض ما نقلناه في المقالة الثانية من كلام أحمد صفوت افندي ان الخروج عن السنة لمصلحة لا ينافي طاعة الرسول التي فرضها الله تعالى على المؤمنين ، وفيه أن دعوى الخروج للمصلحة يتوقف على معرفة السنة وجعلها هي الاصل المتبع بعد كتاب الله تعالى وعدم الخروج عن شيء منها الا بعد أن يثبت لاهل الحل والعقد من المؤمنين في بعض المسائل انه عرض من أحوال العصر ما يجعل العمل بالسنة في تلك المسألة مخلا بالمصلحة العامة ومفضيا الى مفسدة راجحة أو حرج وعسر ممارفعه نص الكتاب العزيز بحيث يظهر لاهل الحل والعقد ان ترك السنة والحالة هذه منطبق على القواعد الشرعية المقررة في اباحة الضروورات للمحظورات وتقديرها بقدرها وارتكاب أخف الضررين اذا كان لابد من أحدهما — ولكننا نرى هؤلاء المتفرنجين لا يدرسون شيئا من كتب السنة البتة، بل يقبلون ما يخالفها من المفاسد ويدعون اليه وينسخون به سننا كثيرة ونصوصا في كتاب الله صريحة، كقاعدة الحرية الشخصية التي كررنا ذكرها في المقالات السابقة من جهة اباحتها للزنا واستحسانه وابطال أحكام شرعية كثيرة لاجله ،

على انه قال بعد ذلك عند الكلام على الكتاب ان ما زاد عليه من سنة أو اجماع فحكمه الجواز ان شاء قام به الفرد وإن لم ير مصلحة في ذلك فله العدول عنه. فجعل السنة واجماع الامة كآراء أفراد الناس وأقوالهم وان كانوا من الجهال والاندال، فان الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من حيث وجدها. فهل وجدت أمة من أمم الارض تجعل أحكام أنبيائها وحكم حكمائها واجماع علمائها وحكامها وزعمائها كآراء نحوت الناس وغوغائهم يتبع كل فرد فيها رأيه وهواه فان رأى مصلحة له في شيء منها كان له أن يأخذ به وان لم ير له فيه مصلحة رده ؟ أما انه لو رزئ البشر بمثل هذا

الرأي الافين من أول نشأتهم لكانوا أدنى منزلة من جميع أنواع الحيوان ولم يتكون منهم قبيلة ولا شعب ولا أمة ، لان الشعوب والامم انما تتكون بما يفعل ماضيها في مستقبلها، وسنة الارتقاء فيها أن يبني الخلف على أساس السلف فيحفظوا من الماضي أمثل ما اهتدى اليه العلماء والفضلاء و يزيدوا عليه ما يزيد مقومات الامة ومشخصاتها قوة وتمكينا

القرآن أصل الاصول للشريعة

جعل احمد صفوت افندي أحكام القرآن المجيد ثلاثة أقسام المحرم والواجب والجائز ، وقال ان حكم الاول أن لا يتعرض له ولا يحكم بشيء يخالفه في مرماه . ومثل له بتحريم نكاح الام والاخت والجمع بين خمسة أزواج — وحكم الثاني أن يبقى منه ما تتحقق به الحكمة المقصودة منه ، ومثل له بايفاء العدة والاشهاد على الزواج — وحكم الثالث ان الانسان مخير فيه وان لكل حكومة أن تحرم منه بالقوانين الوضعية ما تشاء ، ومثل له بتعدد الزوجات

أما كلامه في حكم الاول — وهو ما حرمه الله في كتابه — فمجمل غامض فان قوله «ولا يحكم بشيء يخالفه في مرماه» يجعله كالقسم الثاني، لان مرمى الشيء هو الغرض الذي يقصد به وهو عين حكمته، واذا كان المراد مراعاة حكمته دون نصه لا يبقى معنى لقوله «أن لا يتعرض له» وقد حرم الكتاب الربا والزنا وجعل للزنا عقابا بقوله (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة) الآية — فهل يجعل هذا العقاب على فعل الزنا نفسه أم على مرمى تحريمه والغرض الذي حرم لاجله ؟ وما هو ذلك المرمى ؟ هل لكل أحد من أفراد الناس أو من رؤساء الحكام أن يعين ذلك المرمى و يعلق الحكم به؟ فاذا فهم أحد الافراد أن الغرض من تحريم الزنا ما يترتب عليه من ضرر اختلاط الانساب أو التعادي بين الناس أو قلة النسل أو حدوث بعض الامراض فهل له أن يستبيح منه ما يأمن هو ذلك الضرر فيه ؟ واذا اعترف بعض الناس للقاضي المسلم بالزنا فهل يوقف اقامة الحد عليه حتى يعلم أن زناه قد ترتب عليه مرمى التحريم ؟ وما يقال في الزنا يقال في محرمات النكاح كالام والبنت والاخت فقد يدعي أفراد المكلفين أو القضاة أن لذلك غرضا ومرمى هو الذي تمتنع مخالفته وان التحريم يزول

نزواله ، وعند ذلك يمكن استباحة جميع ماحرمه الله تعالى لمن شاء

وأما حكم الثاني — وهو ما أوجبه الله تعالى في كتابه — فقد بين المراد من بقاء ماتتحقق به الحكمة المقصودة منه بالمثلين الذين ذكرهما وهو ان حكمة العدة براءة الرحم من الحمل وحكمة الاشهاد على الزواج اعلانه (قال) « فلا حرج في أن نصل الى الغرض المقصود من أفيد الطرق وأخصرها » وعد جعل عقد الزواج رسميا مغنيا عن الاشهاد ، ومرور أكثر مدة الحمل على الطلاق مغنيا عن التقيد بالتربص ثلاثة قروء . وقد قلنا في المقالة الثانية انه يمكن الاستغناء عن العدة البتة بناء على قاعدته فيما اذا علم بطريقة فنية براءة الرحم من الحمل كرؤيته خاليا من الحمل بمثل الاشعة المعروفة بأشعة (رونتجن)

ونقول ان الاشهاد على عقد النكاح غير منصوص في الكتاب العزيز وانما أمر في سورة الطلاق بالاشهاد على الرجعة وبت الطلاق ولا شك في أن أحمد صفوت أفندي لايفرق بينهما في حكمه بالاستغناء عن الاشهاد بجعل ما ذكر رسميا مهما تكن حكمة الامر به ، وجمهور أهل السنة على أن هذا الاشهاد مستحب لا واجب وان الاشهاد على عقد النكاح واجب وشرط لصحة العقد ، وقد ينازع في زعمه ان جعل العقد رسميا يغني عن الاشهاد ، فان فائدة الاشهاد أن يعلم الناس بأن زيدا تزوج فلا يتهمه أحد بأنه يعاشر امرأة بالفسق ، وجعل الزواج رسميا لا يترتب عليه هذه الفائدة لانه قد يحصل بعلم كاتب العقد وحده

ثم انه على تقدير قبول قاعدته الفاسدة ينازع بما زعم انه هو حكمة العدة فان للعدة عدة حكم وفوائد منها ما هو غير مطرد وهو ظهور براءة الرحم فانه خاص بالحائل المستعدة للحمل وقد أوجب الله العدة على غير المستعدة له كالصغيرة واليائسة، ومنها ماهو مطرد كحفظ كرامة الزوج الاول والتوسعة على المطلق في الوقت الذي يمكن أن يؤاخذ فيه نفسه لعله يراجع . وبهذا نعلم شيئا آخر من مفاسد القاعدة وهو تحكم الاهواء في اختراع الحكم التي تراعى ويحافظ عليها في الاحكام التي أوجبها كتاب الله فاذا أخطأ الناس في معرفة الحكمة نكون قد تركنا حكم ربنا لوهم جهلي تراءى لهم (بئس للظالمين بدلا) وأهواؤهم هذه ليس لها أساس ثابت من الحق ولا من

الفضيلة ، وما يسمونه المصلحة تابع للهوى أيضا فان أصل التشريع الاعظم عندهم أن تكون الاحكام موافقة لعادات الامة وأحوالها التي تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فاذا هم لم يقفوا عند عقائد الدين وفضائله ولا غيره من مقومات الامة السابقة كما علمنا من أقوالهم وأفعالهم فلا يبعد أن يحللوا ما أشرنا اليه آنفا من نكاح البنات والاخوات فقد نقل عن بعض كبرائهم الزنا ببنته وأمثال ذلك . وحكم قاض من قضاتهم في هذه البلاد منذ سنين قليلة ببراءة أستاذ من أساتذتهم في المدارس الاميرية تصبى امرأة متزوجة بما يفتنها عن زوجها ويزري بكرامتها بمثل قوله لها في الطريق العام ان جمالها حرم عليه نوم الليل!! وعلل القاضي المتفرنج حكمه بالبراءة بأن الاستاذ لم يأت شيئا نكرا وان ما صدر عنه ليس الا الاعجاب بالحسن والجمال، وهو من آيات الارتقاء في الذوق والخيال، الذي هو منتهى الكمال!! وقد اضطربت البلاد لهذا الحكم ولهجت الجرائد باستهجانه والانكار عليه، ونحمد الله أن أبطلته محكمة الاستئناف ، فأرضت الصيانة والعفاف

وأما حكم الثالث ـ وهو ما جعله القرآن جائزا ـ فقد بينه أيضا وجعله كأن لم يكن. فأما كون الافراد مخيرين فيه عملا فصحيح ، وأما كون الحكام يجوز لهم أن يحرموا منه ماشاؤا فباطل ، اذ ليس الحكام أربابا حتى يحللوا ويحرموا على الناس بمحض مشيئتهم . فما أحله الله فليس لاحد أن يحرمه الا باذن من الله عز وجل (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) والله أرحم بعباده من أنفسهم فهو لم يحرم عليهم الا ماهو خبيث ضار ولم يحل لهم الا ماهو طيب نافع ، كما قال تعالى في وصف رسوله (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) فاذا عرض من حوادث الزمن ما جعل بعض الحلال ضارا و بعض الحرام ضروريا تغير الحكم بحسب ذلك العارض وعلى قدره فقد قال تعالى بعد تحريم محرمات الطعام (الا ما اضطررتم اليه) فالضرورات تبيح المحظورات وتحظر المباحات ولكنها تقدر بقدرها، والرأي في ذلك لاولي الامر من الامة وهم أهل الحل والعقد ورجال الشورى في المصالح العامة ، ويجب على الحكام أن يحكموا بما يستنبطونه لهم من أمثال هذه الاحكام التي تختلف باختلاف

الزمان والمكان . ومثلهم نواب الامة عند أمم الحضارة في هذا العصر

وخلاصة مايقترحه هذا المتفرنج من الاصلاح في أحكام كتاب الله ان ما أحله الله للناس فلكل حاكم أن يحرمه عليهم اذا شاء، وما حرمه عليهم تراعى فيه حكمة التحريم بحسب فهم الناس لها، ولهم أن يفعلوا المحرم اذا كان فعله لا يبطل تلك الحكمة ، وكذا ما أوجبه عليهم فليس عليهم الا ترك الحكم بما يخالف مرماه وغرضه من الايجاب لا نفس الواجب — وصرح بهذه النتيجة في الاقسام الثلاثة بقوله عقب التصريح بالاستغناء عن عدة النساء والشهادة على عقد النكاح بقوله

«وبذلك ينقض وجوب التقيد بالمعاني الحرفية للالفاظ القانونية الواردة في القرآن »

وهذا نص صريح في ترك أحكام القرآن كلها وعدم الرجوع الى شيء منها لا للعمل بها ولا للاستنباط منها ، ويكفي المسلمين على هذا الرأي أن يجمع مثل أحمد صفوت افندي ما يفهمه من مرامي الواجبات وحكم المحرمات في عدة مسائل أو قواعد تذكر في مقدمات القوانين الوضعية أو تجعل شروطا لبعض أحكامها كأن يقال: يشترط في صحة زواج المطلقة أو المتوفى زوجها أن لا تكون حاملا من الزوج الاول

ومن المعلوم بالضرورة أن هذا القانوني الذي تصدى لاصلاح شريعة الاسلام باسم الاسلام يقول بوجوب التقيد بالمعاني الحرفية للقوانين الوضعية التي وضعها الافرنج لمصر فهي مفضلة عنده وعند أمثاله على كتاب الله تعالى. وليس هذا بعجيب منه ولكن العجيب الذي ليس وراءه عجب أن يخطب خطبة في جمهور كبير من رجال القانون بمصر يدعو فيها المسلمين باسم الاسلام الى نبذ كتاب جميع أحكام ربهم وسنة رسولهم واجماع أمتهم، وفقه جميع أئمتهم، و يسمى ذلك اصلاحاً لشريعتهم ، ومبدأ لترقيتهم ، ثم يطبع ذلك وينشره بين الناس فيقره جمهور من رجال القضاء. و يسكت عنه الكتاب والعلماء ، وحسب هؤلاء تكفير بعضهم بعضا بالمسائل الخلافية ، ككون الحجة على نبوة آدم وابوته للناس ظنية أو قطعية ، والى الله المشتكى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

انتشار الاسلام

بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ

هذا فصل من رسالة التوحيد للاستاذ الامام أكرم الله مثواه، قال: —

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك، لكن يدهش عقل الناظر في أحوال البشر عند ما يرى أن هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من أدناها الى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة، ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد، وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب، واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان، ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل: أوذي الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق، وطردوا من الدار، وسفكت منهم دماء غزيرة، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر، يثبت الله بمشهدها المستيقنين، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب، وهي ذوب ما فسد من طباعهم، فتجري من مناحرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الاطباء الحاذقين (٨: ٣٧ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون)

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته، ويخمدوا دعوته. فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء، والفقير للاغنياء، ولا ناصر له الا أنه الحق بين الاباطيل، والرشد في ظلمات الاضاليل، حتى ظفر بالعزة، وتمزز بالمنعة، وقد وطيء أهل الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا، ولا أنالهم القهر فلاحاً

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير في ماضيهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان. فهزؤا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر ، فغزاهم بنفسه. وبعث اليهم البعوث في حياته. وجرى على سنته الأئمة من صحابته. طلبا للامن وابلاغاً للدعوة. فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم. وانهالوا به على تلك الامم في قوتها ومنعتها ، وكثرة وكثرة عددها ، واستكمال أهبها وعددها. فظفروا منها بما هو معلوم ، وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على اديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزأ قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة

كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها ، يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد في تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره ، ويقفون مساعيهم على بث عقائده بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد بمعاملة المغلوبين فضلا واحسانا ، عند ما كان يعدها الاروبيون ضعة وضعفا

رفع الاسلام ما ثقل من الإتاوات ، ورد الاموال المسلوبة الى اربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدي قاض شرعي باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا اكراه ولا رغبة في دنيا . وصل الامر في عهد بعض الخلفاء الامويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية ، وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة ، ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزير مثل أولئك العمال (١)

(١) شكا اليه عامله بمصر ذلك فأجابه « ان محمدا «ص» بعث هاديا ، ولم يبعث جابيا »

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمان ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في اسبانيا . اشتهرت حرية الاديان في بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوربا فراوا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم: لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته، وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئا من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه ، فما الذي أقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا ، وبذلوا في خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم ؟

ظهور الاسلام على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية ، وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال ، وسيره بسكانها على الجادة القويمة ، حقق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل، وتحقيق استجابة دعاء الخليل (٢ : ١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامهامن بعدهما ، فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد في مجاحدته فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين ، أوقع ذلك من الريب في قلوب مقلديهم ماحركهم الى النظر فيه ، فوجدوا لطفا ورحمة ، وخيرا ونعمة ، لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق ، ورأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلي ويلحقها بالملكوت الاعلى ، ويدعوها الى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى في توفية البدن حقه ، متى حسنت النية وخلصت السريرة . فاذا نزت شهوة أو

غلب هوى كان الغفران الالهي ينتظره متى حصلت التوبة ، وكملت الاوبة ، تبدت لهم سذاجة الدين عند ما قرؤا القرآن ونظروا في سيرة الطاهرين من حامليه اليهم، وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل الى فهمه ، وما تكفي جولة نظر في الوصول الى علمه ، (* فتراموا اليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه

كانت الامم تطلب عقلا في دين فوافاها ، وتتطلع الى عدل في ايمان فأتاها ، فما الذي يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها ، والمبادرة الى رغيبتها ؟ كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها أن لايقام وزن لشؤون الادنين ، متى عرضت دونها شهوات الاعلين ، فجاء دين يحدد الحقوق، ويسوي بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال ، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأتي بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير، وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا، فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه ، عدل يسمح ليهودي أن يخاصم مثل علي بن أبي طالب أمام القاضي وهو من نعلم من هو! و يستوقفه معه للتقاضي الى أن قضى الحق بينهما، هذا وماسبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذي حببه الى من كانوا أعداءه ، و رد اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه

غلب على المسلمين في كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجهم الجار فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم، ثم لا يكون الا طائفا يحل ثم يرتحل، فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة ، ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعي الكثير منهم في هدمه بعلم و بغير علم لم يقف الاسلام في انتشاره عند حد، خصوصا في الصين وفي أفريقيا، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه : لا سيف وراءها، ولا داعي امامها ، وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل

*) الاول كالجمع بين التثليث والتوحيد والثاني عالم الغيب غير المحال

من حركة الفكر في العلم بما شرعه، ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامي واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله، و يسر أحكامه وعدالة شريعته، و بالجملة لان فطر البشر تطلب دينا وترتاد منه ماهو أمس بمصالحها، وأقرب الى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى الى الطمأنينة في الدنيا والآخرة ، ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذا، والى العقول مخلصا، بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة، والاوقات الطويلة ، و يستكثرون من الوسائل، ونصب الحبائل ، لاسقاط النفوس فيه — هذا كان حال الاسلام فى سذاجته الاولى ، وطهارته التي أنشأه الله عليها ، ولايزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الارض الى اليوم

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه : ان الاسلام لم يعط على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى، يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه و بين حياته . سبحانك هذا بهتان عظيم ! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ماتواترت به الاخبار تواترا صحيحا لايقبل الريبة في جملته، وان وقع اختلاف في تفصيله، وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم، و كفا للعدوان عنهم، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهم جاوروهم وأجاروهم، فكان الجوار طريق العلم بالاسلام، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل في الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهددا كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة ، مع كثرة الجيوش ووفرة العدد و بلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر في شدته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد ، فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل من قرن، هذا ولم يكن السيف وحده، بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه، يقولون ما يشاءون تحت حمايته، مع غيرة تفيض من الافئدة ، وفصاحة تتدفق عن الالسنة ، وأموال تخلب ألباب المستضعفين ، ان في ذلك لآيات للمستيقنين ،

جلت حكمة الله في أمر هذا الدين: سلسبيل حياة نبع في القفار العربية، أبعد بلاد الله عن المدنية، فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها، وتعلو أهل الارض بمدنيتها، زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الارواح، فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها. قالوا كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله في الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغي قائمة في هذا العالم الى أن يقضي الله قضاءه فيه، اذا ساق الله ربيعا الى أرض جدبة ليحيي ميتها، وينقع غلتها، ويغني المخصب فيها، أفينقص من قدره أن أتى في طريقه على عقبة فعلاها، أو بيت رفيع العماد فهوى به؟

سطع الاسلام على الديار التي بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا، وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا، فوقف وقفة القائد خذله الانصار وكاد يتزحزح الى ما وراءه، لكن الله بالغ أمره، فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيز خان، وفعلوا بالمسلمين الافاعيل، وكانوا وثنيين جاؤا لمحض الغلبة والسلب والنهب، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الاسلام دينا، وحملوه الى أقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم: جاءوا لشقوتهم، فعادوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم، وزحفوا الى ديار المسلمين، وكانت فيهم بقية من روح الدين، فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها، لِم جاءوا وبماذا رجعوا؟ ظفر رؤساء الدين في الغرب، باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق، أو يستولي سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق في الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية، جاء من الملوك والامراء وذوي الثروة وعلية الناس جم غفير، وجاء ممن دونهم من

الطبقات ماقدروه بالملايين ، استقر المقام لكثير من هؤلاء في أرض المسلمين ، وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر في أحوال المجاورين ، وتلتقط من أفكار المخالطين ، وتنفعل بما ترى وما تسمع ، فتبينت أن المبالغات التي أطاشت الاحلام ، وجسمت الآلام ، لم تصب مستقر الحقيقة ، ثم وجدت حرية في دين ، وعلما وشرعا وصنعة مع كمال في يقين ، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادي عليه ، ثم جمعت من الآداب ماشاء الله وانطلقت الى بلادها ، قريرة العين بما غنمته من جلادها ، هذا الى ما كتبه السفار من أطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكامها وأدبائها ، ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا ، وأخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل ، والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين ، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين ، والاخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه ، وحرفوا في معناه ، ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته ، وجاءت في اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح في العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا في التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وان ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى الا في صورة العبادة لا غير .

ثم أخذت أمم أوربا تفتك من أسرها ، وتصلح من شؤونها ، حتى استقامت أمور دنياها على مثل مادعا اليه الاسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدنية الحاضرة ، التي تفاخر بها الاجيال المتأخرة ماسبقها من أهل الازمان الغابرة ، — هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، جاء القوم ليبيدوا ، فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ، ظن الرؤساء ان في إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم ، وتقوية ركنهم ، فباؤا بوضوح شأنهم ، وضعضعة سلطانهم ، وما بيناه في شأن الاسلام — ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير من أهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه ، واعترفوا أنه كان أكبر اساتذتهم فيما هم فيه اليوم ، والى الله عاقبة الامور

﴿ ايراد سهل الايراد ﴾

يقول قائلون اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه ﴿ ٦ : ١٥٩ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ﴾ فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب ، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟ اذا كان الاسلام موحدا فما بال المسلمين عددوا ؟ اذا كان موليا وجه العبد، وجهة الذي خلق السموات والارض، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا ، وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد؟ اذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه الى النظر في الاكوان ، وأطلق له العنان يجول في ضمائرها بما يسعه الامكان، ولم يشرط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان ، فما بالهم قنعوا باليسير ، وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم، ظنا منه أنه قد يرضي الله بالجهل ، واغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟ — ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة في الجد والعمل ، أصبحوا مثلا في القعود والكسل ؟ — ما هذا الذي ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه ، وبين ما دعاهم اليه فتركوه ؟ — اذا كان الاسلام في قربه من العقول والقلوب على ما بينت، فما باله اليوم على رأي القوم تقصر دون الوصول اليه يد المتناول؟ اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه، فما بال قراء القرآن لا يقرؤنه الا تغنيا، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم الا تظنيا ؟ — اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدوهما الى أغلال أي أغلال؟ — اذا كان قد أقام قواعد العدل، فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل في الظلم ؟ — اذا كان الدين في تشوف الى حرية الارقاء، فما بالهم قضوا قرونا في استعباد الاحرار — اذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء ، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء؟ — اذا كان الاسلام يحظر الغيلة ، ويحرم الخديعة ، ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه ؟ — اذا كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها

وما بطن ، فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن ، والنفس والبدن ؟

اذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم ، وان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، ونهى ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم ، وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره ، فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ، ولا يعتصمون بصبر ، ولا يتناصحون في خير ولا شر ، بل ترك كل صاحبه ، وألقى حبله على غاربه ، فعاشوا أفذاذا ، وصاروا في أعمالهم أفرادا ، لا يحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه ، كأنه ليس منه ، وكأن لم تجمعه معه صلة ، ولم تضمه اليه وشيجة ؟

ما بال الابناء ، يقتلون الآباء ، وما بال البنات ، يعققن الامهات ؟ أين وشائج الرحمة ؟ أين عاطفة الرحم على القريب ؟ أين الحق الذي فرض في أموال الاغنياء للفقراء ، وقد أصبح الاغنياء يسلبون ما بقي في أيدي أهل البأساء ؟

قبس من الاسلام أضاء الغرب كما تقول ، وضوءه الاعظم وشمسه الكبرى في الشرق وأهله في ظلمات لا يبصرون ! أصح هذا في عقل ، أو عهد في نقل ؟ ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيئا وهم من أهل هذا الدين أول ما يعلق بأوهام أكثرهم ان عقائده خرافات ، وقواعده وأحكامه ترهات ، ويجدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار ، وبعداء الانظار - والى الذين قصروا همهم على تصفح أوراق من كتبه ، ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه ، كيف يجافون علوم النظر ويهزؤون بها ، ويرون العمل فيها عبثا في الدين والدنيا ، ويفتخر الكثير منهم بجهلها ، كأنه في ذلك قد هجر منكرا وترفع عن دنيئة ؟ فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحي ان يظهر به بين الناس ، ومن غرته نفسه بأنه على شيء من الدين وانه مستمسك بعقائده ، يرى العقل جنة ، والعلم ظنة ، أليس في هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين ، على ان لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟

﴿ الجواب ﴾

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال ، وربما كان ما جاء في الايراد قليلا من كثير ، وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وان الحاج وغيرهما من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت في خاصة الدين الاسلامي بما يكفي الاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم معانيه ، وحملها على مافهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ، ويكفي في الاعتراف بماذكرته من جميل أثره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الامم ، فذلك هو الاسلام . وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل من أحسن في استعماله والاخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه ، وقد جرب علاج الاجتماع الانساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهورا لا يستطيع معه الاعمى انكارا ، ولا الاصم إعراضا ، وغاية ما قيل في الايراد أن أعطى الطبيب المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته ، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في بيته وهو لا يتناوله ، وكثير ممن يعودونه ، أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته ، يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه ، وهو في يأس من حياته ، ينتظر الموت أو تبدل سنة الله في شفاء أمثاله . كلامنا اليوم في الدين الاسلامي محاله على ما بيناه . أما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن ، وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر ان شاء الله

[المنار] جمع الاستاذ الامام رحمه الله في هذا السؤال والجواب جملة مساوي المسلمين المخالفة لهدي الاسلام وبين فيها كليات محاسنه المفصلة في رسالة التوحيد بعض التفصيل ، ووعد ببيان تفصيل هذه المساوي في كتاب آخر ولكنه لم يوفق لكتابته ، على انه جاء في كتاب (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) بكثير مما أراد من ذلك

مستقبل سورية وسائر البلاد العربية(*)

(٥)

خطب مؤسسي اتفاق سنتي ١٩١٦ و ١٩١٧

خطبة موسيو بيكو في دمشق

القى موسيو بيكو معتمد فرنسا السامي في سورية هذه الخطبة في حفلة أعدت له ولزميله السر مارك سيكس في النادي العربي بدمشق ونشرت جرائدها ترجمتها فنقلها المقطم في عدد ٢٣ ربيع الآخر – ٢٥ يناير (ك ٢) الماضي عن «المقتبس» الدمشقية وهذا نصها:

أيها السادة

لم أكن أنتظر بعد ان قضيت أياما عديدة وساعات كثيرة في السفر على متون القطارات والسيارات أن أصل الى دمشق فأشهد هذه الحفلة الجميلة التي ضمت خير الرجال والشبان بيد اني لم أستغرب هذا الامر من صديقي السر مارك سايكس الذي عودني ان يفاجئني بهكذا حفلات مستغنما هذه الفرصة التي سنحت لاهنئ الحكومة العربية بما نالته من الاستقلال الذي جاهدت الامة العربية وقاتلت في سبيله

انضمت الحكومة العربية الى الحلفاء زمن الحرب وقاتلت معهم لكونها عرفت قدسية المبدأ الذي يقاتلون عنه فهي بعملها هذا تستحق الشكر وانني باسم فرنسة أشكر الامة العربية والحكومة العربية لجهادهما

انتهى دور الحرب ودخلنا في دور جديد دور العمل والاجتهاد ولا أظن ان الدور الجديد يقل في خطورة شأنه عن دور الحرب خصوصا وان أعداءنا واعداءكم لا يزالون موجودين فلذلك يجب ان نكون متفقين متحدين

أخذت برقية بالامس من فرنسة جاء فيها ان الامير فيصل قابل المسيو كلمنصو

(*) تابع لما في الجزء الاول

مقابلة طويلة انتهت باتفاقهما على جميع المبادئ والآراء ولم يوجد بينهما أثر من آثار الاختلاف

اتحدنا زمن الحرب وعملنا معاً للوصول الى النتيجة فلذلك يجب أن لا يكون اتحادنا وقتيا بل ثابتا وطيداً لتنال الامة العربية ثمرة أتعابها وتقطع مع دول الحلفاء العقبات ويكون مبدأ تمدنها ورقيها

اننا نرى في الزمن الحاضر زمن المذاكرات الصلحية كثيرا من الاعداء ونصادفهم أينما حللنا وذهبنا

ان هؤلاء الاعداء أتراك يعملون للمصلحة التركية ولقد شاهدناهم يعملون أعظم الاعمال في أوربة ضدي أنا والسير مارك سايكس

شاهدناهم في دار نظارة الخارجيـة يقولون للفرنسويين لا تؤمنوا للعرب ولا تصدقوهم ولا تنتظروا منهم ان يؤلفوا حكومة، وسمعناهم يقولون للانكليز لا تتفقوا مع الفرنسويين ولا تمدوا يدكم اليهم ولا تساعدوا العرب — فلذلك يجب أن نعرف هؤلاء الدساسين فيما يتكلمون به

قال أحد الخطباء اننا الآن في دور جديد وعلينا واجبات جمة . لقد صدق أيها السادة فان الامم التي كافحت مع العرب للوصول الى هـذه النتيجة نتيجة الظفر القطعي قد ولد فيها فكر جديد وشعور جديد لم يكونا لها من قبل - ذلك الشعور شعور الاستقلال والحرية للامم

يجب أن تقاوموا كل من يخالف هذا المبدأ ان كان تاجرا يعمل لرواج سلعته أو صحافيا يشتغل الترويج صحيفته، وان تدكوا كل المصاعب والعقبات التي تحول دون اتفاق الشعوب العربية أي كل من ينطق بالعربية، لان الاديان لا تكون مانعة للاتحاد ولا تسمعوا للمفسدين الذين يحاولون تفريق وحدتكم وكلمتكم

ان فرنسا لم تخض غمار هذه الحرب لصد عادية الالمان عن بلادها فقط بل لتأييد مبدأ الحرية والاستقلال ولترى كل أمة تعيش متمتعة بالاستقلال وان يكون لها الحق باختيار طريقة الحكم الذي تريده

التحاب مطلوب وخصوصا بين الامم التي حاربت جنبا لجنب، وان فرنسا

لا تميل قط الى الرجل الذي يأتيها و يقول لها اني أحبك أكثر من وطني — لانه منافق لا يعرف أن يحب فترده وتقول له اذهب وحب وطنك أولا — وان أعظم سرور لفرنسا هو ان ترى لامة العربية متحدة متفقة والحكومة العربية مستقلة وانها أي فرنسا مستعدة لمساعدتها . واذا كانت أوربا فرنسا ان تساعد الحكومة العربية فهي مستعدة لايفائها باخلاص ويسرنا ان نرى الحكومة ولامة العربية ناجحة نامية باذن الله » اه

خطبة السر مارك سايكس في دمشق

والقى السر مرك سيكس في تلك الحفلة نفسها وقد نقل المقطم ترجمتها في عدد ٢٥ ربيع الآخر ٢٧ يناير عن جريدة البلاغ البروتية الغراء وهو

ياسعادة الحاكم و ياحضرات المجتمعين: سأتكلم بصعوبة هذه الليلة فقد سمعت أمرين أوقعاني في الاضطراب فالامر الاول انني سمعت أحد الخطباء يقص على حضراتكم تاريخ حياتي ويظهر انه حفظ شيئا منه حتى خشيت أن يتكلم عن سيئاتي ولكنني أقول بكل ارتياح ان معلوماته كانت قاصرة من هذه الجهة. والامر الذي أحرج مركزي ذكره انني طفت البلاد العربية التي تبلغ مساحتها ٧٠٠٠ ميل ولا أقدر أن أخطبكم باللغة العربية . ووصفني خطيب آخر بالبطل الساكت وهذا الوصف جيد ومطابق جدا اذا كان موجهاً لقائد عسكري ولا يكون مطابقا اذا نعت به أحد السياسيين لان السياسي متكلم بالطبع

لا أفيد الشرق بهذا الكلام وانني أريد أن القي عليكم أمرا هذه الليلة :

ان يومكم هذا يوم مشهود اذ سيفتتح فيه مؤتمر الصلح (على ما أظن) الذي ستقرر فيه أعمال مهمة وتدبر فيه شؤون الكون لمدة قرنين

منذ أربع سنين والحرب العامة تبتلع كبار العالم ومشاهيرهم واننا نحزن عهد اخواننا الذين ذهبوا ضحيتها — ولا أظنهم يقلون عن ٥ — ٦ ملايين — اذا لم نعمل بتؤدة. لافرق عندي في المحلات والاماكن التي لقوا بها حتفهم فالنتيجة واحدة وهي مفارقتهم هذا العالم سواء قضى الفرنسوي بفرنسا أو قضى البريطاني في فلندرأو في العراق أو في هذه البلاد بلادكم . أو قضى ذلك البحري الذي كان يقطع أجواز

البحار وهو أعزل من السلاح يحمل الميرة الى المحاربين في أنحاء المعمورة — في البر أو البحر ، أو من رجالكم الذين جاهدوا في سبيلكم، أو كانوا من النساء والاولاد الذين أخرجوا من ديارهم في المدينة المنورة وأرمينية منفيين وقتلوا في الصحراء — فان كل واحد من هؤلاء مات بسبب واحد ولغاية واحدة . وعلينا أن نعتقد أن هؤلاء الابرياء لم يكونوا سوى ضحية القصد الذي ماتوا في سبيله وهو أن الشعوب المظلومة تجدد أيامها وأن العالم ينال سلاما عاما دائما — تلك هي الغاية العظمى التي ماتوا لاجلها

ولنأت الآن الى تشريح أقسام هذه الغاية ومنها ماهو أمامنا

هذه مدينتكم دمشق التي كانت مطلع التمدن في الزمن الماضي أصبحت متأخرة خربة، وبعبارة أخرى منقهقرة، وهذا المكان ربما كان ملك أحد أولئك لاقوام الذين ضحوا أنفسهم . واذا نظرنا الى هذه البلاد نظرة عامة لا نرى سوى خرائب ونشاهد آثار الحكم الجائر خلال ٤٠٠ سنة تحكم فيها الاتراك . واذا أمعنا النظر أكثر من ذلك نجد شيئاً آخر لم يتمكن التركي نفسه من تخريبه

ان هذا الميل الطبيعي نحو الاعمار والاستثمار الذي بنى تدمر — والشجاعة والحكمة اللتين اتصف بهما العرب — وتلك الصفات صفات الشجاعة والاقدام التي كانت ملازمة لخالد بن الوليد لاتزال للجندي العربي، وان الرجولية والشهامة التي اتصف بها صلاح الدين لاتزال للعرب

ان الميل الى الشعور والآداب الذي أوجد الشعر القديم وكان الباعث على وضع كتب التصوير والنقوش التي تعلمناها نحن منكم لا تزال موجودة عندكم، وان الميل الى العلم الذي شيدت أركانه في بغداد وقرطبة والذي نقلناه نحن الاوربيين عنكم لا يزال لكم

ان الطبيعة قد وهبتكم هذه الهبات التي فطرتم عليها فلا التركي ولا العفريت ولا الشيطان يستطيع نزعها منكم

والآن أنتقل الى الامر الآخر . ان هذه الهبات موجودة لديكم أولا وآخرا فان العرب هم الذين أفاضوا روح التمدن على العالم كله ونشروا ضياء العلم الساطع، ولكن ويالسوء الحظ ان زمن النور الذي انبثق من جانب العرب كان قصير المدى

دققوا في التاريخ واسألوا أسفاره تخبركم أن الممالك العربية كانت قصيرة الاعمار لم يمتد زمن ملكها طويلا فلم يسد الهاشميون ولا الامويون ولا العباسيون اكثر من قرن أو قرنين وتأملوا أن هرون الرشيد ذلك الخليفة الذي مات حاكما لجميع البلدان — قد أباد ولداه ذلك الملك العظيم. فعليكم أن تحاذروا الوقوع في مثل هذا الامر ولا تدعوا نهضتكم تكون قصيرة العمر

ان تمدنكم السابق كان مثل ينبوع ماء عذب تفجر في الصحراء فوق أرض رملية صخرية فلم يمض عليه قليل حتى أنبت أزهارا ونباتات ثم علت الغرالة فأحرقت تلك الازهار وعادت تلك القفار الى حالها وهذا كان خطؤكم العظيم

في رايتكم شارة سوداء فلتكن هذه الشارة رمزا يذكركم بالماضي ويحذركم من الوقوع فيه ويدعوكم للاجتماع والاتحاد، فكفاكم ٤٠٠ سنة قضيتموها في الظلم والاستبداد. لقد مضى هذا الدور والحمد لله فقابلوا المستقبل بثبات وعزم وشجاعة وانظروا الى باطن الارض وتأملوها واستخرجوا كنوزها ومعادنها

أنظروا الى القرى انظروا الى كثرة وفيات الاطفال انظروا الى هذه الطرقات الخربة انظروا الى هذه العاصمة العظيمة والى أية حال وصلت من الخراب مع انها ربما كانت أغنى مدينة في العالم

اذا أحببتم احياء هذه الاراضي فهي تحتاج الى جميع قواكم وقوانا نحن الحلفاء أيضا لنحيا حياة طيبة سعيدة طويلة لا قصيرة تتجاوز المائة أو المائتين أو الثلاثمائة قرن [كذا ولعل أصله سنة] وأرجوكم بعد ذلك ان تضعوا ثقتكم في أمر واحد هذا الامر هو الفكر الجديد الذي انتشر في أوروبا

اعلموا جيدا ان السياسة الاوربية قد تغيرت نحو الشرق وان السياسة السرية والاستعدادات الحربية التي قادت أوروبا الى هذه الحرب الطاحنة قد ذهب زمنها وانه توجد روح جديدة تنتشر في أوروبا، وان الاوربيين لا يفكرون في توسيع ممالكهم بل في تمدين الامم الذين حاربوا لاستقلالهم

وأرجو منكم قبل الجلوس أن تفكروا جيدا في مستقبل أبنائكم الذين لم يولدوا بعد، وفي أجدادكم الذين ماتوا من قبل والسلام عليكم . اه

﴿ خطبتا بيكو وسايكس في حلب ﴾

زار علي رضا باشا الركابي الحاكم العسكري للشام والمسيو جورج بيكو مندوب فرنسا والسر مارك سايكس مندوب انكلترا مدينة حلب فأقام نادي العرب حفلة اكراما لمسيو جورج بيكو ممثل حكومة فرنسا حضرها الشريف ناصر والحاكم العسكري العام ورجال الحكومة العربية وكثير من ممثلي دول الحلفاء وجم من العلماء والادباء والرؤساء الروحيين والاعيان فابتدأ الكلام رئيس النادي مرحبا بالقوم وتلاه أحمد افندي الابري فألقى خطابا بديعا ثم خطب بالافرنسية يوسف افندي سركيس ونهض بعده مسيو جورج بيكو والقى خطابا بالافرنسية عربه أمين افندي غريب هذه خلاصته: (١)

خطبة موسيو بيكو

حضرة الحاكم العام وأيها السادة

أشكركم كثيرا لانكم سمحتم لي اليوم بأن آتي وأحمل سلام فرنسا الظافرة الى ممثلي الحكومة العربية العظيمة اذ ليس لنا بهجة في هذا الظفر أعظم من رؤية مثل هذا المحفل فهو بداية عمل كريم نتج عن الحرب هو انتهاء الاستبداد التركي وتقرير الحرية لشعب عظيم يديره رجال عظام

كل يعلم ماهي الاسباب التي جعلت هذه الحرب حربا خاصة بفرنسا اذ قد كان منذ سبع وأربعين سنة في جنبنا جرح غير مندمل وكان لا بد لنا من الانتقام ولكن كنا نجتنب الحروب لشدة هولها على الانسانية فلما جاء اليوم الذي تجمعت به القوى البربرية في العالم اضطررنا الى محالفة قوى التمدن ابقاء عليه من الشر المحدق به فانضمت الينا انكلترا ثم العرب ثم ايطاليا ثم أميركا وبقية كل منهم الوصول الى يوم يأمن فيه كل شعب على حريته واستقلاله (تصفيق حاد)

لا شيء يرضي فرنسة ويسرها كرؤيتها حكومة نشأت بالامس وأخذت تتقدم وترتقي يوما بعد يوم في هذه الاماكن المحررة من الاستعباد وغدا مع تمام

(١) منقول عن عدد ٢٨ ربيع الآخر الماضي ٣٠ يناير (ك٢) من جريدة الاهرام

الصلح لا بد أن يزول الحكم العسكري الذي ترونه اليوم مع مناطقه الحاضرة التي اقتضتها ضرورات الحرب فيطل عليكم نور يوم جديد وعظيم فليوحد العرب جميعا كلمتهم ومساعيهم من حلب حتى أقاصي الصحراء وليبذوا كل شقاق مهما اختلفت عقائدهم أو عاداتهم وليبذلوا ما بوسعهم من الاقدام امام هذه الغاية المنشودة

« حاربت فرنسا أربع سنوات توصلا للنتيجة التي نراها الآن ولها الطالع الاسعد بأن ترى الحكومة العربية شديدة الازر محترمة من الجميع وتحل بالاتفاق المتبادل جميع المسائل التي يشكلها عمران سورية وحرية اتصالها بالبحر لان اتصالها بالبحر ضروري ولا بد لها منه (؟) ولكن يجب عليكم يارجال سوريا ومستقبلها البراق أن توحدوا كلمتكم لتبلغوا هذا النجاح اذ أنكم محاطون بالاعداء الذين رأيتهم أنا والسير مارك سايكس حيث كنا نجاهر بحقوقكم أمام أوربا فكانوا يتذرعون لاحباط مساعينا متلبسين بزي الاصدقاء فما آلوا الا بالفشل اذ صممت الحليفتان على الاعتراف بحكومة عربية كبيرة مستقلة » اه

خطبة السر مارك سيكس بحلب

ونهض بعده السير مارك سايكس فقال :

« أيها السادة الكرام والمسيو جورج بيكو المحترم. أتكلم اليوم وأنا مرتاح الضمير اذ حزت الانتخاب في مجلس الامة فأصبحت قادرا على اتمام العمل الذي زاولته من أجلكم

« طرق مسامعكم الآن ما قاله المسيو جورج بيكو وأزيده تأكيدا انه قل أن يشتغل انسان كما اشتغل هو في معاونة المبدأ العربي وقد ظهرت نتائجه جلية

« تذكرون ماهي الايام السوداء التي اضطررنا لاجتياز مراحلها فان الايام السعيدة التي نحن فيها الآن لاتنسينا مكاره تلك الايام ومتاعبها التي كان يشاطرني مضضها. المسيو بيكو الذي لم يقنط قط من نجاح المبدإ العربي رغم ما كنا نلاقيه من العراقيل الجمة وأهول بها من عراقيل لان العدو اذ ذاك المانيا وجيشها الجرار الذي هو اكثر جيوش العالم انتظاما

« كانت بريطانيا سيدة البحار وما كان يخطر على بالها ما كانت تدبره لها عدوتها المانيا من المكايد البحرية ألا وهي الغواصات

ان العدو الذي كنا نصادمه هو ذاك القادر ذو العظمة والجبروت (المانيا) فمن ذا الذي يستطيع أن يقول سواء كان انكليزيا أو عربيا أو افرنسيا أو ايطاليا أو أميركيا أنا الذي أنزلت المانيا من حالق عظمتها وضربت خزوانة كبريائها . لا يستطيع أحد أن يدعي هذه الدعوى وانه لم يقهرها الا الله وحده ، ان القدرة الالهية التي منحتنا هبة النصر العظيمة تأمرنا بالمحافظة عليها والانتباه كيف يقتضي أن نستفيد منها لاننا اذا أسأنا استعمالها فهي تستردها منا

والآن أريد أن أقدم كلمة على سبيل النصيحة لكافة الحاضرين هنا ممن يتكلم بالعربية وهي قصيدة (اذا)

وعندها أنشد قصيدة لاحد شعراء الانكليز عنوانها (اذا) ضمت من الحكم الرائعة ما أصاخ له الجمهور وقابله بالاستحسان. وعقب ذلك نهض توفيق افندي شامية والقى خطابا بديعا وانفضت الحفلة والجذل باد على أسرة الجميع » اه ما في الاهرام

(٦)

اقوال جرائد الحلفاء

رأي حكومة الحجاز

جاء في آخر مقالة افتتاحية طويلة نشرت في العدد ٢٤٠ من جريدة القبلة الذي صدر في مكة المكرمة يوم الخميس ١٥ ربيع الاول ما نصه :

« وهامقطمنا الاغر ينقل لنا في عدد ٩٠٣٨ الصادر بتاريخ ٢٦ صفر ١٣٣٧ من تصريحات أم صحف العالم ولسان حال الشعب البريطاني الذي أثبت فضله على العالم ومنته على مجتمعه ولا حرج بمواقفه وثباته واقتداره السياسي والحربي والمالي امام أهوال سنينا هذه الاربع من حسن نواياها وآمالها وماتريده ثقة واعتمادا على معاشر العرب بقولها من بحث: (سياستنا القديمة التي كانت ترمي الى تسنيد تركيا وشد أزرها على أعدائها وأخذنا نحاول البحث عن بديل حر يحل محل السلطة العثمانية البالية الفاسدة ؛ ومن هؤلاء الابدال الذين يحاولون محل تركيا العرب أما سواهم

فلسطين الجديدة وأرمينيا الجديدة)

« نرحب ونؤهل ونسهل بمن أنزلنا محل ثقته ، وتوسمنا بالاهلية لمصادقته ، ولا ريب فان على مثل هذا يتنافس المتنافسون، ولمثله فليعمل العاملون

« الف الف أهلا وترحيبة وأضعافها شكرا لحسن الظن ، وانا لا نجيبه بما قال أحد أشياخ جاليتنا: أهلني صغيرا وحماني كبيرا، ولكن نقول ان العرب اليوم هم كالاشبال أو أفراخ الشياهين والبازي المحتاجة لصيانة آبائها

« ومع هذا فستجدهم أيها الداعي لحسن الظن ان شاء الله تعالى من حيث تريد ، وترهم بعنايته بيت القصيد. فاليكم بني يعرب ما أوتيتوه من طموح الانظار اليكم، وآمال أجل شعوب العالم فيكم، فانظروا ماذا تأمرون بعد ما وصفكم ذلك الشعب بما وصف ، فأجيبوا داعي المكرمات ، وحققوا في نجابتكم التصورات ، وكونوا خير أمة أحيت مندرس معالم سؤدد أسلافها الناس ، ولا أنتم أرفع وأسمى من أن تذكر له نكبات التخاذل وموارد الانعاس ، أو تسيئوا بقولنا الظن وعكس القصد . وأيم الله انه الحق ، ونكرر ما أشرنا اليه في أعد دنا السابقة بانا معاشر الحجازيين ولا شيء من الرياسة أو السيادة ان كانت في سوري أو في يمني أو في حجازي ونحوه ، ولا يهمنا ورب الكعبة الا توليكم لبلادكم كتولي الشعوب المحررة لبلادها. وان داء الشامي هو داء لبناني وان في شقاء الآخر شقاء للاول . وان ما يصيب أحدهما يصيب الآخر من خير أو عكسه. ومتى تفطنهم في أن أبسط دليل على هذا قيام الحجازيين ونهضتهم وهم ولا شيء مما أصاب اخوتهم من الضيم الذي سارت بأنواعه الركبان علمتم أنهم أدركوا تلك الغاية الجليلة واغتنموا تلك الفرصة لتحليهم بجلائلها، وان يمتعهم بدعة العيش التي هم بها على مسمع من أنين المضطهدين من اخوانهم عار عظيم لا يغسله الا دمائهم وكان بفضله ما كان فلا تعقموا النتيجة ولا تهدروا تلك الدماء الزكية والنفوس الابية » اه كلام القبلة بحروفه

[المنار] ان عبارة جريدة القبلة على — ما فيها من الغلط والمعاظلة — صريحة في اتفاق حكومة الحجاز مع حكومتي الحليفتين انكلترة وفرنسة في أمر الولايات العربية العثمانية وأهمها مسألة فلسطين الجديدة . ولكن جاء في جرائد الحلفاء ولا سيما جريدتي الطان والتيمس كلام عن مذكرة الامير فيصل التي قدمها للمؤتمر ما يجلي المقاصد كما ترى

الدولة العربية القادمة (*)

« هذا عنوان مقالة افتتاحية للتيمس في ٧ فبراير عربناها فيما يلي

« شهد فيصل الامير الحجازي جلسة المؤتمر في باريس أمس وبسط قضية أمته ويندر أن يكون بين المواضيع التاريخية ما يجهله الجمهور (في بريطانيا) جهله لتاريخ العرب وما قد يكون لهم من الشأن كأمة في المستقبل . وقد كان السر مرك سيكس أعظم رجال الدولة البريطانية اهتماماً بوصف البواعث التي حملت البريطانيين على تعضيد العرب في حربهم الطويلة مع الترك

« ان الامبراطورية العربية القديمة التي كانت تمتد في أوج عزها من بغداد الى قرطبة (المقطم : كذا في الاصل والصواب انها كانت تمتد من بلاد فارس الى قرطبة) كانت أفضل حكومة قامت بين محيط الامبراطورية الرومانية ونشوء أوربا الحديثة ولعلها كانت أمتن جسر للحضارة في العصور الوسطى ، وكان منشأ هذه الامبراطورية في الحجاز الذي تكلم الامير فيصل باسمه في باريس أمس . وكان للامبراطورية العربية تهذيب وحضارة خاصان بها خلافا للسلطنة العثمانية . ومما اختلفت به عن السلطنة العثمانية أيضا انها عرفت كيف تنتفع أعظم انتفاع بجميع العناصر التي اتصلت بها حتى لقد دعي عصر عظمتها وعزها العصر الذهبي للشعب اليهودي. والحقيقة ان وجوه الشبه بين العرب واليهود لا تقتصر على ما بينهما من القرابة وصلة الرحم بل تتناول ما بينهما من الشبه العظيم في تاريخهما، فقد أضاع اليهود قوميتهم بالنزاع الشديد الذي وقع بينهم وبين الامبراطورية الرومانية فحل العرب محل اليهود وصاروا قادة الافكار بين الشعوب السامية، ثم سقط العرب فريسة للمغول الذين غزوا بلادهم واستولى الترك على الميراث الذي ورثه العرب من اليهود . وقد كان الانبياء اليهود أنبياء عربا وعند الشعبين كثير من الاخبار والاقاصيص التقليدية التي يشتركان فيها وبينهما شبه كثير في تاريخهما فقد فقدا قوميتهما وانفصل الواحد عن الآخر بتابعيتهما السياسية للبلاد التي اختارها للاقامة فيها

« والمأمول أن يعالج المؤتمر مشكلة التصرف في أملاك تركيا التي أخذت منها

(*) منقولة عن مقطم ٢٤ جمادى الاولى سنة ٢٥ فبراير

وبعدها وحدة كاملة فهنالك العرب كما تقدم ويليهم اليهود وآمالهم القومية في فلسطين وبعدهم الارمن . فمستقبل الشرق يتوقف كثيرا على ما يكون من الاتفاق بين هذه الاجناس الثلاثة التي سيكون لها أوطان قومية في القريب العاجل ومصير كل منها بهم الآخرين، فاذا أبدل الحكم العثماني الذي حافظ ولو في الظاهر على وحدة تلك الانحاء مع انه لم يفعل شيئا لترقيتها ماديا أو أدبيا أو عقليا — اذا أبدل هذا الحكم بمنافسات ومناظرات محلية كان هذا الابدال مصابا

«ان المرء يتطلع الى جامعة عربية تمتد من دمشق الى بغداد ولها منافذ تجارية الى البحر المتوسط والبحار الشرقية. وقد لا تكون امبراطورية وحدة متجانسة ولكن يمكن أن تكون ولايات متحدة وتكون هنالك دولة (أجنبية) منتدبة. ويرجح أن هذه الامبراطورية الجديدة تستعين كثيرا بمقدرة يهود فلسطين كما استعانت امبراطورية العرب القديمة بيهود أفريقية وأسبانيا فيجد اليهود بذلك لمقدرتهم مجالا جغرافيا أوسع من فلسطين التي هي ليست سوى بلد صغير وحينئذ تتحد أعمال الشعبين في انهاض الشرق من كبوته

«ويشترط لبلوغ هذا الغرض شرطان جوهريان الاول أن تنال اليهودية ميراثها التام في فلسطين فلا يكون في الدنيا مسألة اسمها «فلسطين الشهيدة» والثاني أن يتماص يهود فلسطين من نفوذ الاعمال المالية عليهم فلا ينصرفوا الى اغتراف موارد الشرق المادية بل يتخذوا لانفسهم ضربا من الحضارة الصحيحة من البلاد نفسها ويوجهوا همهم الى انشاء تهذيب حقيقي خاص بها يطابق المبادىء السامية الانسانية التي وضعتها جمعية الامم وتحقيق هذه الامنية يهم العرب كما يهم اليهود تقريبا » اه

الامير فيصل في المؤتمر (*)

نشرت المورننج بوست في ٨ فبراير التلغراف التالي لمكاتبها الباريسي وهو :

« ظل الامير فيصل يتكلم في مجلس العشرة عشرين دقيقة . فكان أوجز المندوبين الذين سمع المجلس أقوالهم وكان وقع كلام الامير شديدا في نفوس أعضاء المجلس حتى قال أحد هؤلاء الاعضاء ان وقع كلامه كان كوقع كلام المسيو فنزيلوس. وكان الامير يتكلم بالعربية والكولونل لورنس يترجم كلامه الى الانكليزية

(*) عن عدد المقطم المنقول عنه ما قبله

ثم ينقل ترجمان كلام هذا الى الفرنسوية؛ وكان الامير يتكلم ببلاغة وحكمة وفاز فوزا كبيرا لما ذكر سامعيه بأن مملكته دامت في علم الوجود تسع مئة سنة

« وخلاصة أقوالهان والده ملك الحجاز لا يطلب أن يضم شبرا واحد من الارض الى مملكته ولكنه يطالب للعرب — ويريد بالعرب الشعوب التي تتكلم العربية — حق تعيين مصيرهم بحسب نظام التوكيل الدولي وهو النظام الذي يعتقد أن البريطانيين مستعدون لتطبيقه على عرب الحجاز (؟) ولكنه لا يصر على توكيل دولة دون أخرى ولا ينطق باسم عرب افريقية . ولا يعارض الفرنسويين الا حيث يحتمل أن يعارض الفرنسويون في مطالب الذين كانوا حلفاء دول الاتفاق أكثر من ثلاثة أعوام

« ومما هو جدير بالذكر هنا أن فيصلا طالب العلم في الاستانة في حكم عبد الحميد وقضى أعواما في مدارسها فهو لا يجهل تاريخ السياسة الاوربية الحديث. والصحف الفرنسوية تراعي قواعد اللياقة والمجاملة معه اذا استثنينا بضع جرائد لا يعتد بها

« وليس ثمة تنافر جوهري بين مصالح انكلترا ومصالح فرنسا ولكن يجب حل هذه المسألة بأسرع ما يستطاع وعندي ان هذا هو تعليل قرار المجلس الفجائي على أن يسمع أقوال الامير

« وقد وصفت جريدة الفلوى الامير فيصلا بقولها: انه عميل للحكومة البريطانية ذكي غيور وقالت انها مقتنعة بأن المستر لويد جورج سيخفف من حدته. واهتمت به الصحف الاخرى ولكنها اهتمت أيضا بالكولونل لورنس اهتمامها بالامير

« وحادث الامير فيصل مندوب جريدة اكسلسيور فاشار الى الاقوال غير الصحيحة التي قالها الصحافيون الفرنسويون والبريطانيون عنه وعن المسألة العربية بالاجمال ثم قال « ان الحجاز لا يطمع بالتوسع وبسط السيادة ولا يرمي الى ملك الشرق الادنى ولا يروم فتح البلدان » ثم قال وجل ما أطلبه هو تطبيق قاعدة الدكتور واسن الخاصة بحق الشعوب في تعيين مصيرها على العرب في آسيا الصغرى، ان تحرير العرب لا يلاشي النفوذ الموجود أو الذي يسعون لايجاده في سورية ولكنه يرقي هذا النفوذ بالطرق السلمية باجتناب كل نزاع قد ينشأ عن مقاصد ضم الاملاك المستور بستار كثيف أو شفاف، فالعرب يطلبون أن يعاملوا كما يعامل اليونان والسربيون والبلغاريون الذين خلصوا امثالهم من استبداد الترك » اه.

رد المنار

على الناقد لذكرى المولد النبوي — تتمة (١)

الموضع الرابع عشر — افتتان آل البيت بالغلاة فيهم

أشار الناقد الى قولنا في حاشية ص ٤٣ من ذكرى المولد بعد الثناء على آل البيت النبوي العلوي : وان فتن الكثيرون منهم بغلاة المحبين ، فكانت فتنتهم لهم أعم وأدوم من فتنة الامراء الظالمين ، اذ كان من أثرها في ذريتهم أن ترك أكثرهم العلم والاعمال النافعة استغناء عنهما بشرف النسب غافلا عن قول جدهم علي المرتضى كرم الله وجهه : قيمة كل امرئ ما يحسنه الخ وقال : «واعل المناسب : وان فتن بعضهم واغتر بشرف نسبه وترك العلم والاعمال النافعة غافلا عن قول جده علي الخ لان اثبات الفتنة للاكثرية ينافي آية التطهير كما لا يخفى »

ونقول في الجواب اننا لم نثبت الفتنة للاكثرين منهم بل للكثيرين وانما ذكرنا ان أكثر ذريتهم أي المتأخرين منهم تركوا العلوم والاعمال النافعة للامة استغناء عنهما بشرف النسب . وهذا أمر مشاهد معروف في الاقطار كلها فانك قلما تعد في بطن من بطونهم المشهورة المعظمة بنسبها علماء محققين يؤخذ عنهم العلم والدين، أو رؤساء جمعيات ومصالح يرجع الناس اليهم في أمور دينهم ودنياهم . فاذا كان هذا هو الواقع فهو حجة على أن الآية الكريمة ليست بالمعنى الذي يقول به الناقد ، وان لم يكن هو الواقع فليرده بسرد أسماء العلماء الاعلام منهم في الحجاز واليمن وسائر البلاد العربية والعجمية وبيان نسبتهم العددية الى الجاهلين المثبتة انهم هم الاكثرون عددا . وقد علم مما أوردناه في تفسير الآية من الجزء الماضي أن الآية في أفق غير أفق هذه المسألة فالتحقيق أن قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) الخ تعليل لما قبله من الاوامر والنواهي التي خوطب بها نساء النبي (ص) وما قرنت به من الوعد بمضاعفة الاجر على الطاعة والوعيد بمضاعفة العذاب على المعصية، أي ان الله تعالى لا يريد بذلك اعناتكم والتضييق عليكم يا أهل البيت وانما يريد به اذهاب الرجس عنكم وتطهيركم بحملكم على امتثال ما أمركم به والانتهاء عما نهاكم عنه، فهو كقوله تعالى

(١) يراجع نقد هذه المسألة في آخر ص ٣٥١ من المجلد العشرين

في تعليل الامر بالوضوء والغسل والتيمم (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون)

خاتمة النقد في العترة والسنة

أشار الناقد الى ما ذكرناه في تلك الحاشية من اختلاف الرواية في حديث الثقلين اذ فسر الثقل الثاني في بعضها بالعترة وفي بعضها بالسنة وقال : يظهر للعاجز أن رواية الابدال المذكورة على حذف مضاف أي حملة سنتي فتكون مخصصة للرواية الاولى كما ان الاولى مخصصة للثانية — فالمعنى حملة سنتي الذين هم من عترتي أو عترتي حملة سنتي . وأيضاً يظهر أن المراد بالطائفة من أمته التي لا تزل ظاهرة على الحق قوامة على أمر الله لى أن تقوم الساعة هم عترته الحاملون لسنته. والله أعلم »

أقول ان هذا الجمع بين الروايتين قوي في المعنى ضعيف في اللفظ فان حذف المضاف لا يجوز الا حيث تدل عليه القرينة كقوله تعالى (واسأل القرية) وأما قوته في المعنى فظاهرة ، وذلك عين ما أردناه بقولنا في أصل ذكرى المولد : « فتوفي صلى الله عليه وآله وسلم تاركا للامة ما ان تمسكوا به ان يضلوا من بعده ، كتاب الله وسنته في تبيينه ، وعترته العاملين بهما من أهل بيته » وأقول لا ن انهم ثلة من الاولين ، وقليل من الآخرين ، وقد هدم الناقد بقوله هذا جل ما كان بناه من جعل معنى هذين الحديثين وما شابههما عاما شاملا للسلالة العلوية الفاطمية من وجد منها ومن يوجد الى يوم القيامة حتى انني استغربت منه قوله في نقد الموضع الرابع عشر «وان فتن بعضهم واغتر بشرف نسبه » الخ بعد ما تقدم من تعصبه في المواضع السابقة لكفار قريش من أجلها ، على انه وان أطلق ما يدل على ذلك بالاجمال ، فانه لا يعتقده اذا فكر فيه بالتفصيل ، ولا نعرفه الا محبا للحق وخادما للعلم، وساعيا الى الاصلاح ، وما ذلك لا أثر شدة الحب ، بالاولى الناس وأجدرهم بالحب.

واذا كان الصحيح عنده ما قال أخيرا فانني أسأله سؤال مستفيد مخلص أن يدلني على من يعرف من أفراد هذه الطائفة التي ورد الحديث فيها من أهل هذا العصر عسى أن يكون لنا بهم من ولاء العلم والادب ، وصلة القرابة والنسب، ما يعيننا على التعاون معهم على خدمة العلم والدين ، والله يتولى الصالحين ، اه الرد

باحثة البادية وحفني ناصف بك

(وفاتهما وترجمتهما)

« باحثة البادية » لقب الاديبة الشهيرة ملك كريمة حفني بك ناصف اختارته لتوقيع ماكانت تنشره من مقالاتها وشعرها في الجرائد كما يفعله كثير من المتنكرين والمتنكرات في الشرق والغرب . توفيت لعشر خلون من المحرم فاتحة هذا العام ، ثم احتفل بتأبينها في اليوم الثاني من شهر ربيع الاول . وقد كان شهر وفاتها وما بعده من الفترة التي لم يصدر فيها المنار، وشهر تأبينها ضاق عما أعدّ له فرجونا فيه بأن نكتب شيئا في ترجمتها وتأبينها في هذا الجزء

وفي هذه الفترة بين الجزئين توفي والدها الاسيف وكان قبل وفاتها مريضاً فضاعف الحزن عليها المرض حتى صار حرضا انتهى بالموت . وكان سبب موتها هي الانتقال من الفيوم الى القاهرة وهي مصابة بالنزلة الوافدة لاجل مواساته في اثر انكشاف كارثة كانت سبب مرضه أو سبب شدته فأصيبت باضاعف النزلة فكانت القاضية. وقد خسر القطر المصري بل الامة العربية بوفاتهما ركنين من أركان النهضة العربية الرجال والنساء معا، كما يتضح ذلك لغير العارف بفضلهما من أهل الاقطار البعيدة، مما ثبت من ترجمتهما الوجيزة

باحثة البادية

هي كبرى أولاد حفني بك ناصف عني بتربيتها وتعليمها وهو في شرخ الشباب، وزمن الجهاد في اصلاح التعليم وترقية الآداب ، وضعها في المدرسة السنية ، التي هي أرقى مدارس البنات الاميرية ، فكانت أولى ابنة مصرية نالت شهادتها الابتدائية ، ثم انتقلت من القسم الابتدائي ، الى قسم المعلمات العالي، فجدت حتى نالت شهادة هذا القسم فيه وكانت الاولى أيضاً . وكان من مبادي التوفيق ان كان من أساتذتها في القسم الاول الشيخ حسن منصور وفي القسم الآخر الشيخ أحمد ابراهم ، وهذان الاستاذان في الذروة العليا من مدرسي علوم اللغة العربية وفنونها في مصر علما وآدابا وأخلاقا وحذقا في التعليم . ثم انها اشتغلت بالتعليم في

المدرسة نفسها فكانت خير معلمة كما كانت خير متعلمة، امتازت بالذكاء النادر والجد والاجتهاد، والتنزه عما ينتقد من عادات الفتيات في هذه البلاد، فتم لها بالتعليم ركنان من أركان العلم أو طوران من أطواره الثلاث التي لا ينضج عالم الاجتماع بدونها — وثالثها الكتابة والتأليف الذي وجهت اليه عنايتها بعد زواجها واختبارها بنفسها شؤون الحياة الزوجية وتدبير المنزل، ولم ينقصها من الخبرة التي تؤهلها لمرتبة الاصلاح النسائي على وجه الكمال، الا الحرمان من صفة الامومة والقيام على تربية الاولاد، فسبحان من تفرد بالكمال، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

ثم ان والدها زوجها برضاها من عبد الستار بك الباسل أحد زعماء العرب المصريين وشيوخهم، وهو وأخوه الاكبر حمد باشا الباسل رئيسا قبيلة الرماح المقيمة بجوار الفيوم، وقد امتاز هذان الاخوان في عربان الديار المصرية وغيرهم بالجمع بين فضائل البداوة ومحاسن الحضارة والتنزه عن رذائلهما، فمن الاولى الوفاء والسخاء والنجدة والمروءة وقرى الضيف واغاثة الملهوف، ومن الثانية محبة العلم والادب وأهلهما والاطلاع على شؤون الاجتماع والعمران، ولهما مشاركة في هذا وما يتعلق به من مسائل التاريخ القديم والحديث والقوانين زادتها معاشرتهما للطبقة العليا من العلماء ورجال الحكومة والسياحة في أوربة وبعض البلاد الشرقية اتساعا وصقلا. ولكن هذه المزايا التي اجتمعت لزوجها، وسعة الرزق التي هي في نظر أكثر النساء خير منها، ومن النبوغ في أي علم من علوم الدين والدنيا، كان يظن أن سيعارضها ما هو أقوى منها في نظر فتاة مصرية تعلمت التعليم العالي، وهو زي عبد الستار بك العربي، من الشملة البيضاء والطربوش المغربي، ذلك بأن وجهة التعليم بمصر أوربية يقصد بها فرنجة المصريين كما قال لورد كرومر، ومن شأن اللواتي يتعلمن ويتربين على هذه الطريقة أن ينفرن من كل ما هو وطني محض من الزي والعادات، ويفضلن كل ما هو تقليد للافرنج منها، حتى ان بعض بنات الوجهاء المتعلمات لا يقبلن زوجا لا نفسهن الا من كان حاملا لشهادة عالية من أوروبة — لذلك استغرب كثير من الناس رضاء (ملك ناصف) بقرين لها من شيوخ العرب وان كان بيته أرقى من بيت أبيها ثروة، وأوسع معيشة، كما يرى القارئ هذا فيما ننقله في هذه الترجمة من تأبين تلميذة الفقيدة وصديقتها (نبوية موسى) التي هي تلوها في ذكاء

والتحصيل . وما ذاك الا أن فطرة (ملك) وتربيتها المنزلية وهدي أستاذيها في المدرسة حالا دون افساد التفرنج للبها، واستحواذ زخرفه على قلبها ، وبذلك كانت جديرة بمعرفة قيمة رجل من كرام أمتها، لم يخطبها الا لعلمها وحسن تربيتها، ففضلته على الشبان المتفرنجين المتطرسين المتورنين، الذين انسلوا من شرف الصيانة وفضائل الدين،

وجدت الفقيدة من قصر الباسل أجمل منظر يتجلى فيه ذوق المرأة وعلمها بتدبير المنزل ، ووجدت من عبد الستار أوفى زوج تهنأ معه الحياة الزوجية ، لاديبة مثلها يتسابقن لتضليل المزايا المعنوية على المظاهر الصورية، ووجدت من حريته الادبية، ما مكنها من نشر مكارمها الاصلاحية، ويقل أن يوجد في المسلمين حتى المتفرنجين منهم من يرضى لزوجه أن تنشر آراءها في الصحف المنشرة وتتصدى لمناظرة أرباب الاقلام فيها، بل اكثر البنات اللواتي يتعلمن في مثل بلاد أوربة ينتهي بالزواج اشتغالهن بالعلم فلا يجدن بعده وقتاً للتأليف ولا لانشاء المقالات للصحف ، ولذلك كانت آثار النساء القلمية قليلة بالنسبة الى عدد المتعلمات منهن في كل أمة اذا قوبلت بآثار الرجال بالنسبة الى عددهم. ولكن عقيلة الباسل لم تجد من بيتها وبعلها الا التنشيط على الكتابة والنشر

لآل الباسل هؤلاء ثلاث دور آهلة (احداها) بجوار مزارعهم وقبائلهم من مديرية الفيوم بالقرب من مدينة الفيوم وتعرف بقصر الباسل وهي سكنهم الاصلي وفيها يكونون في أكثر أوقاتهم ، (والثانية) بمدينة الفيوم نفسها (والثالثة) في القاهرة يقيم فيها حمد باشا أيام انعقاد الجمعية التشريعية التي هو أحد أعضائها ومن يتعلم من ولده في المدارس، ويختلف اليها هو وعبد الستار بك أياما من كل شهر لمصالح لهما في العاصمة ولقاء أصدقائهما فيها ، ويلم بها أزواجهما أيضا . وقد حبب لا بنة حفني المقام في قصر الباسل لما فيه من اجتماع محاسن الحضارة والبداوة وصفاء العيشة الخلوية مع رفاه العيشة الحضرية وزينتها، وتسنى لها فيه اختبار حال الفلاحين المقيمين بقرية قصر الباسل وسكان الخيام من البدو المخيمين بجواره، فكانت تعاشر نساء الفريقين وتتعرف حال حياتهن الزوجية ، ومن ثم انتزعت لنفسها لقب « باحثة البادية »

ظهر اسم « باحثة البادية » أول مرة في صحيفة (الجريدة) سنة ١٣٢٦ في ذيل اقتراح بناء مدفن لعظماء رجال مصر، فرددنا على هذا الاقتراح في المنار ردا دينيا

رجحنا أن المقترح رجل متنكر فقلنا في أول الرد: نشر هذا الاقتراح بتوقيع « باحثة البادية » وما هو الا خيال باحث في الحاضرة » أو تمني متفرنج في العاصمة » الخ (راجع ص٣٨٠م١١) وقد أخبرني عبد الستار بك من عهد غير بعيد انها أرادت يومئذ أن ترد على المنار واستشارته في ذلك فأشار عليها بأن لا تفعل قائلا انك لن تستطيعي أن تجادلي كاتبا من أئمة الدين في مسألة دينية كهذه . . . ثم انه علم منها بعد ذلك انها استنبطت من ذلك انه يكره لها أن تكتب في الصحف مطلقا، فصرح لها بأن ظنها هذا خطأ، وانه لايكره أن تكتب ماترجى فائدته ، فكان هذا بدء حياتها الاصلاحية وخدمتها العامة — فالعامل في هذه الحياة . الاستعداد الفطري . ثم دار النشأة وروحها الوالد الذي نبين كنهه في ترجمته . ثم المدرسة وروحها من ذكرنا من الاساتذة . ثم دار الزوج وهو روحها وقد ذكرنا من أمر هذا العامل الاخير مايعرف به قدر تأثيره في هذه الحياة، فهذه العوامل هي التي كونت « باحثة البادية » في حياتها التي تتجلى للقارئ في مقالاتها الخالدة وآثارها الباقية ، ولما لم يجتمع ذلك لغيرها من بنات مصر في هذا العصر كانت في مسلمات مصر نادرة شاذة

مقالاتها اوآثارها القلمية

كتبت مقالات كثيرة ونظمت بعض القصائد والمقاطيع من الشعر، وألقت عدة خطب في محافل اجتمع فيها مئات من كرائم النساء في القاهرة، وشرعت في تأليف كتاب في حقوق النساء في الاسلام وفي أوربة لم يتم . وقد نشرأكثرما كتبت في الجريدة وجمع بعضه في كتاب سمي (النسائيات) وطبع الجزء الاول منه في سنة ١٣٢٨ فقرظه نفر من الادباء والعلماء، وقد ذكرت في تأبينها ان آثارها القلمية تدور على بضعة أقطاب أو تدخل في ستة أبواب

(الاول) تربية البنات وتعليمهن في البيوت والمدارس

(الثاني) المرأة — تأثيرها في العالم — تأثيرها الخاص في زوجها وولدها وأهلها — ما ينبغي لها في كل طور من أطوار حياتها — أحوال القرويات والبدويات والمدنيات — المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الافرنجية — الجمال والعادات والازياء

(الثالث) الزواج . سنه — حقوق الزوجين والعشرة بينهما — تقصير كل منهما فيما يجب عليه — تزوج المصريين بالاجنبيات

(الرابع) الحجاب والسفور

(الخامس) الرجال والنساء — جناية كل منهما على الانسانية بجنايته على الآخر — وظائف كل منهما — مزايا كل ومساويه

(السادس) شجون وشؤون عامة كوصف البحر والعيشة الخلوية والجمال، وأقلها شوارد شعرية في الحال الاجتماعية السياسية

وقيمة هذه الآثار ومزيتها التي استحقت به الفقيدة الترجمة في المجلات العلمية والاصلاحية، وتأبين فضلاء الرجال لها في حفلة عامة، هي في نظري انها اصلاحية جاءت وسطا بين آراء المحافظين الجامدين على كل قديم، والمتهافتين كالاطفال على كل جديد، وان الكاتبة مستقلة فيها غير مقلدة (للترجمة بقية)

تقريظ المطبوعات الجديدة

﴿ منتخبات في اخبار اليمن ﴾

من كتاب (شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم) لنشوان بن سعيد الحميري

أما كتاب شمس العلوم فقد قال صاحب كشف الظنون فيه مانصه: «شمس العلوم في اللغة ثمانية عشر جزءا لنشوان بن سعيد الحميري اليمني المتوفى سنة ٥٧٣ ثلاث وسبعين وخمسمائة سلك مسلكا غريبا يذكر فيه الكلمة من اللغة فان كان لها نفع من جهة ذكره وذكر في كل مادة أبواب الكلمة واستعمالاتها، ثم اختصره ابنه في جزئين وسماه (ضياء الحلوم، في مختصر شمس العلوم) أول شمس العلوم «أما بعد مستحق الحمد» الخ اه ولم يتكلم على المختصر، وفي مقدمة كتاب المنتخبات كلام عنه وعن مؤلفه ونسخه وسماعه، ومما ذكر فيها عن المختصر «الجزء الاول من كتاب لمختصر من شمس العلوم، ودواء كلام العرب من الكلوم، املاء القاضي السيد أديب الادباء، وقدوة النجباء، امام الائمة، وسراج الظلمة، أبي عبد الله محمد بن نشوان بن سعيد الحميري طول الله تعالى مدته، وأعلى في الدارين درجته»

وأما هذه المنتخبات فتدل أن الكتاب معجم لغوي أدبي تاريخي لكن رأينا عناية صاحب المنتخبات خاصة بما في الاصل من لغة حمير وتاريخها ولا سيما ملوكها وأمرائها

وشعرائها وسائر تاريخ اليمن. وفي مادة س ن د منه صورة حروف المسند وهو خط حمير. قال وهو موجود كثير في الحجارة والقصور. وكان يكتب حروفاً مقطعة كالخطوط الافرنجية ولكن يفصل بين الكلام بالصفر عندهم وهو حرف الالف في خطنا

طبعت هذه المنتخبات في مطبعة (بريل بليدن) سنة ١٩١٦ وكتب على طرتها بعد ما تقدم من اسم الكتاب المنتخبة منه باسم مؤلفه « وقد اعتنى بنسخها وتصحيحها عظيم الدين أحمد» وصفحاتها ١٩ واذ أضيف اليها صفحات الفهارس كان المجموع ١٦٣ صفحة . وهو من الكتب التي طبعت على نفقة أوقاف ذكرى مستر (جب) الشهير وله مقدمة وتعليقات على الكتاب بالانكليزية وطبعت في الجانب الايسر فيها كلام عن مؤلفه ورواته واختلاف نسخه

﴿ كتاب العقود اللؤلؤية ، في تاريخ الدولة الرسولية ﴾

الكتاب من تأليف الشيخ علي بن الحسن الخزرجي ، وقد عني بتصحيحه وتنقيحه الشيخ محمد بسيوني عسل المصري، وطبع على نفقة أوقاف ذكرى مستر (جب) بمطبعة الهلال بمصر سنة ١٣٣٢هـ — ١٩١٤ وأهدي الينا الجزء الثاني منه منذ أشهر ولكن لم يرسل الينا الجزء الاول . وصفحات الجزء الثاني ٣٢٠ وهي بقطع المنار وبضم الفهارس اليها تبلغ الصفحات ٤٨٦ وهو يدخل في ثلاثة أبواب الاول منها في أخبار الدولة المجاهدية والثاني في قيام الدولة الافضلية ووقائعها والثالث في قيام الدولة الاشرفية الكبرى وبعض أيامها ، وعسى أن لا نحرم من الجزء الاول وأن نوفق الى كتابة نبذة في بني رسول عند تقريظه

﴿ حضارة العرب ﴾

كتاب علمي وجيز صغير الحجم كبير الفائدة جمع فيه واضعه أسعد افندي داغر خلاصة من تاريخ العرب في الجاهلية والاسلام في أربعة فصول (الاول) في تاريخ عرب الجاهلية أو العرب قبل الاسلام (الثاني) في تاريخ العرب بعد الاسلام من عصر الخلفاء الراشدين الى العصر العثماني التركي وفيه نبذة في صفات العرب وأخلاقهم وعاداتهم وملابسهم وآدابهم وآداب الاكل عندهم (الثالث) في

علوم العرب اللغوية والدينية والادبية والعقلية والكونية والرياضية والسياسية والاقتصادية (الرابع) في فنون العرب الحربية والبحرية والعمرانية والجميلة .

وقد قال المؤلف في خاتمة كتيبه الجميل « يرى القارئ مما تقدم اننا أوردنا في هذا الكتاب بعض مفاخر العرب بغاية ما يمكن من الايجاز واننا اقتصرنا على كليات علومهم دون جزئياتها وفروعها لاننا لو أردنا الاحاطة بها كلها لاحتجنا الى مجلدات ضخمة وقد جعلنا غايتنا من هذا المؤلف الصغير الاشارة الى ما أحدثه العرب من الاكتشافات والاختراعات وما لهم من الآثار الخالدة في عالم الفنون والصناعة وما وضعوه من العلوم وما استدركوا فيها على المتقدمين من تصحيح أو تكميل مما ثبتت صحته وتناوله الخلف من بعدهم ، وهو ليس الا نقطة من بحر أو جزءا من كل »

وفي الكتاب زهاء تسعين رسما بعضها للاناسي المشهورين وأولهم حمورابي صاحب أقدم شريعة عرفت في التاريخ البشري و بعضها للمدن والقصور والمساجد وغيرها من المباني و بعضها للنقود والكتابة و لاواني والنسيج والآلات الحربية والعلمية كالمنجنيق والاصطرلاب والمرصد و بعضها للاقطار والممالك وهو ما يسمونه الخرائط وهو محرف مأخوذ من مادة خرت الارض وهو معرفة مضايقها وأنحائها.

كل هذه الرسوم وتلك المسائل الكثيرة قد أودعت في أقل من مئة وخمسين ورقة من قطع أصغر من قطع المنار فقال بعض المنتقدين ان هذا فهرس لا كتاب، وهذا قول خطأ ليس بصواب، فان الفهرس عناوين ناقصة، وهذه مسائل وقضايا تامة، وعندي أن وجود مثل هذا الكتاب في أيدي القارئين من هذه الامة العربية ضروري لانه خلاصة وجيزة لتاريخ أمتهم المدني يسهل فهمها وتعميمها بين جميع الطبقات والاصناف حتى يكون جمهور الامة على علم اجمالي بمآثر سلفه ومفاخرهم يرجى أن يبعثه على احياء مجدهم، وتجديد عهدهم

و ينتقد على الكتاب ان بعض مسائله غير محررة وسبب ذلك انها ذكرت على سبيل النموذج لا التحرير والتحقيق. ومن ذلك التفرقة بين بعض العلوم والفنون وذكر أعظم رجالها وأئمتها ، ويتبع ذلك التساهل في التعبير كقوله في الكلام عن التصوف : قيل التصوف نسبة الى الصوف ! أراد أن يقول ان التصوف مشتق من الصوف ، أو ن الصوفي منسوب الى الصوف الذي كان يلبسه. وفيه أغلاط طبعية

لم تذكر في آخر الكتاب من جدول التصحيح كلمة الدكاة وصوابها الزكاة وكلمة الفاني الباقلاني وصوابها القاضي الباقلاني — كلاهما في ص ١٥٣ ، ومثل هذا غير مقلل من فائدة الكتاب التي بيناها. وقد طبع الكتاب بمطبعة هندية بالقاهرة سنة ١٣٣٦ وتوجه مؤلفه باسم الامير فيصل الشهير جعله (تقدمة) له — فنال منه جائزة سنية ، وهو يباع في مكتبة المنار وغيرها وثمن النسخة منه ٣٥ قرشا

شذرات

﴿ لقب السيد والسي ﴾

ابتدع بعض الجرائد العربية الحديثة في زمن الحرب اطلاق لقب (السيد) على كل أحد وجعله بدلا من كلمة فندي التركية (ومسيو ومستر) الافرنجيتين. فأنكر ذلك السواد الاعظم من العرب المسلمين والنصارى جميعا لان اكثر المسلمين يخصون بهذا اللقب آل بيت الرسول عليه وعليهم الصلاة والسلام و بعضهم يجعله للحسنيين منهم ويخص الحسنيين بلقب (الشريف) ولا يشذ عن هذا التخصيص الى استعمال هذا اللقب لتعظيم كل من يراد تعظيمه الا القليل من الشاميين والاقل من غيرهم. ويرى بعض الباحثين أن الاصل في ذلك نزعة ناصبية أو يزيدية . وأما النصارى فيخصون بهذا اللقب سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام و بعض كبراء رجال الدين كالبطرك والمطران . وقد سبق المغاربة والمصريون الى استعمال كلمة (السي) في هذا المقام و يظن كثيرون انها مختصرة من كلمة السيد . والصواب ان هذا لفظ مستقل مكسور السين مشدد الياء ومعناه المثل، ومثناه (سيان) مستعمل . وجمعه أسواء كشبه ومثل وأشباه وأمثال ، وهو جدير بأن يعمم في الاستعمال

﴿ خسارة سورية من رجال العلم والدين ﴾

خسرت سورية في أثناء هذه الحرب اكبر رجال الدين فيها علما وهديا وأخلاقا الشيخ عبد الرزاق البيطار الدمشقي والشيخ محمد كامل الرافعي الطرابلسي ، وانا ننتظر من أوليائهما أن يوفونا بمذكرتين من تاريخهما نستعين بهما على ترجمتهما

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٢٩ شعبان ١٣٣٧ — ٧ الجوزاء (ر ٣) ١٢٩٧ م ش ٢٩ مايو ١٩١٩

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٩٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

حكى الله تعالى في هذه الآيات بعض ضروب الشرك التي قال بها بعض العرب ، وروى التاريخ كثيرا من نوعها عن أمم العجم ، وهي اتخاذ شركاء لله من عالم الجن المستتر عن العيون ، واختراع نسل له من البنات والبنين ، حكى هذا بعد تفصيل ماتقدم فيما قبله من أنواع الآيات ، لدلالة على توحده بالخلق والتدبير في عوالم الارض والسموات، وتعقبه بانكاره وتنزيه الخالق المبدع عنه، وذلك قوله عز وجل

﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ أي وجعل هؤلاء المشركون لله سبحانه شركاء — وفسر هؤلاء الشركاء بالجن على طريق البدل النحوي — ولم يقل وجعلوا الجن شركاء لله، بل قدم وأخر في النظم لافادة أن محل الغرابة والنكارة أن يكون لله شركاء لا مطلق وجود الشركاء ثم كون الشركاء من الجن فقدم الاهم فالاهم . ولو قال « وجعلوا الجن شركاء لله » لافاد ان موضع الانكار أن يكون الجن شركاء لله لكونهم جنا . وليس الامر كذلك بل لمنكر أن يكون لله شريك من أي جنس كان . وفي المراد بالجن هنا أقوال أحدها انهم الملائكة فقد عبدوهم . روي هذا عن قتادة والسدي . والثاني انهم الشياطين فقد أطاعوهم في أمور الشرك والمعاصي . روي عن الحسن وسيأتي شاهد له بعد عشرين آية . والثالث أن المراد بالجن ابليس فقد عبده أقوام وسموه ربا ومنهم من سماه إلـه الشر والظلمة وخص الباري بألوهية الخير والنور. وروي عن ابن عباس أنه قال انها نزلت في الزنادقة الذين يقولون ان الله تعالى خالق الناس والدواب والانعام والحيوان وابليس خالق السباع والحيات والعقارب والشر . ورجحه الرازي وضعف ماسواه وقال ان المراد بالزنادقة المجوس الذين قالوا ان كل خير في العالم فهو من (يزدان) وكل شر فهو من (اهرمن) أي ابليس . فأما كون ابليس والشياطين من الجن فقطعي وأما كون الملائكة منهم فقيل انه حقيقي لانهم من العوالم الخفية فتصدق عليهم كلمة الجن وقيل انه مجازي، وفسروا الجنة في قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) بالملائكة وقال بعض العرب انه تعالى صاهر الى الجن فولدت سرواتهم له الملائكة . وقد يقابل الجن بالملائكة كقوله تعالى في موضع عبادة المشركين لهم (٣٤: ٤٠ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ٤١ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم

مؤمنون) فهذا مع آية الانعام الآتية (٦: ١٢٠ وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون) مما يرد انكار الرازي لتسمية طاعة الشياطين عبادة ﴿ وخلقهم ﴾ أي والحال أن الله تعالى قد خلق هؤلاء الجاعلين له الشركاء وليس لشركائهم فعل ولا تأثير في خلقهم ، أو خلق الشركاء المجعولين، كما خلق غيرهم من العالمين ، فنسبة الجميع اليه واحدة ، وامتياز بعض المخلوقين على بعض في صفاته وخصائصه، أو ما خلق مستعدا له من الاعمال التي يفضل بها غيره، لا يخرجه عن كونه مخلوقاً ، ولا يجعله أهلا لان يكون إلهـا أو ربا

﴿ وخرقوا له بنين و بنات بغير علم ﴾ أي واختلقوا له تعالى بحماقتهم وجهلهم بنين و بنات بغير علم (وسيأتي معنى هذا) فسمى مشركو العرب الملائكة بنات الله (٩: ٣٠ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) وسيأتي بيان ذلك. الخرق والخزق والخرم والخرب والخرز ألفاظ فيها معنى الثقب بانفاذ شيء في الجسم، وقال الراغب الخرق قطع الشيء على سبيل الفساد من غير تدبر ولا تفكر ، قال تعالى (أخرقتها لتغرق أهلها) وهو ضد الخلق فان الخلق هو فعل الشيء بتقدير ورفق والخرق بغير تقدير — وذكر الآية — وقوله بغير تقدير أي بغير نظام ولا هندسة هو الصواب وقوله قبله من غير روية ولا تدبر خطأ ظاهر . ويناسب هذا من معاني المادة الخرق (بالضم) وهو الحمق ضد الرفق يقال خرق زيد يخرق (بالضم فيهما) فهو أخرق وهي خرقاء . وقال صاحب اللسان : وخرق (من باب ضرب) الكذب وتخرقه وخرّقه كله اختلقه — وذكر الآية وان نافعا قرأ وخرقوا (بالتشديد) وسائر القراء قرأوا بالتخفيف ، ثم قال: ويقال خلق الكلمة واختلقها وخرقها واخترقها اذا ابتدعها كذبا. اه ولعل ما تقدم من الفرق بين الخلق والخرق في الافعال يأتي نظيره في الاقوال، فالخلق الكذب المقدر المنظم والخرق الكذب الذي لا تقدير فيه ولا نظام ، ولا روية ولا إنعام ، فههنا يظهر التقييد بنفي التدبر والنظر ، ويؤيده قوله تعالى « بغير علم » قال في الكشاف: من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ وصواب ، ولكن رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية اه وهو بيان وتوكيد لمعنى « خرقوا » فهذا التعبير من أدق بلاغة التنزيل

بيان معنى الشيء بما يدل على تزييفه، و تنكير العلم هنا في حيز النفي بغير للدلالة على انسلاخ هؤلاء المشركين في خرقهم هذا عن كل ما يسمى علما فلا هم على علم بمعنى مايقولون ولا على دليل يثبته ،ولا على علم بمكانه من الفساد والبعد من العقل، ولا بمكانه من الشناعة والازراء بمقام الالوهية والربوبية،اذلو علموا بذلك لما ارتضوه لان أكثرهم مؤمنون بخالقهم وخالق كل شيء، وهم يتقربون اليه بما اتخذوه له من شريك وولد

﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ أي هو منزه عن ذلك متعال عنه لانه نقص ينافي انفراده بالخلق والتدبير، وكونه ليس كمثله شيء ، وتقدم تحقيق معنى سبحان والتسبيح والتقديس في أواخر سورة المائدة . والتعالي العلو والبعد عما لا يليق الذي يظهر للناظر المتفكر مرة بعد مرة بالنسبة الى ماعلا عنه و بعد عن مشابهته من الاشياء كلها،فهو من قبيل «توافد القوم» في الجملة ، ولوكان له تعالى ولد لكان له جنس يعد جميع أفراده — ولا سيما أولاده— نظراء له فيه ، وهذا باطل عقلا ونقلا عن جميع رسل الله وجميع حكماء البشر وعقلائهم من جميع الامم، ولكن الذين اخترعوا للناس عقائد الوثنية في عصور الظلمات ، وأزمنة التأويلات ، ذهبوا هذه المذاهب من الاوهام، ولا نعرف أول من جعل لله ولدا ولا منشأ اختراع هذه العقيدة وأقرب المآخذ لذلك مابيناه في أواخر تفسير سورة النساء فيراجع هنالك (ص ٨٣ ج ٦ تفسير)

وأما عبادة الجن فقديمة في الملل الوثنية أيضا . ففي الخرافات اليونانية والرومانية يجعلونهم ثلاث مراتب الاولى الآلهة وأولهم المولد لهم أجينوس وهو الخالق لكل شيء عندهم وهو نفس (زفس) أو (جوبتير) والثانية توابع الشموس والاقطار والبلاد فلكل منها رب من الجن مدبر له ومتصرف فيه ، وقد نصب الروم لجني رومية تمثالا من الذهب . والثالثة توابع الافراد أي قرناؤهم . والهنود القدماء يقسمون الجن الى قسمين أخيار وأشرار فيسمون الاخيار (ديوه) وهم عندهم فرق كالآلهة أشهرها (الكنّارة) الذين دأبهم الترنم بمدائح (باولسيتا) ويليها (الياكة) الذين يقسمون الثروة والغنى بين الناس و (الغندورة) وهم العازفون للشمس ويتألف منهم أجواق في السماء تدخل فيها الكنارة فيسبون العقول بتسبيحهم على معازفهم . ومنهم (الابسارة) وهن أناث يملان العالم كله ومختاراتهن في سماء (اندرا) يرقصن

الرقص البهج تحت أشجار الذهب والياقوت في جنة (مندانا) ومنهم (الراجينة) ومن قيان موكلات بالمعازف مقامهن في سماء (برهما) وعددهن ١٦ الفا . ومنهم الفعلة الالهيون و يسمون (الجيدارة) وهم الذين بنوا قصر الآلهة وأنشأوا جميع المباني العجيبة في العالم . ويقسمون الجن الاشرار الى طوائف أيضاً منهم (الدينية والاسورة والدناوة والرقاشة) ويقولون ان مقامهم في الظلمة وانهم كانوا هاجموا الآلهة ليزلوهم عن عروشهم ففروا منهم الى بلاد الساقة وأرادوا أن يسلبوهم شجر الحياة . وعقائد المانوية من الفرس في الهي الخير والشر معروفة ، وفي أساطير الفرس ان (جنّستان) أي بلاد الجن في غربي أفريقية وقيل غير ذلك . وأساطير الامم القديمة في الجن كثيرة

وأما أهل الكتاب فقد لخص (الدكتور جورج بوست) في آخر الجزء الاول من (قاموس الكتاب المقدس) عقائدهم في الشيطان قال : الشيطان كائن حقيقي وهو أعلى شأنا من الانسان ورئيس رتبة من الارواح النجسة (١ كو٦ : ٣) ويخبر الكتاب المقدس بطبيعته وصفاته وحالته وكيفية اشتغاله وأعماله ومقاصده ونجاحه ونصيبه فلنا في شخصيته نفس البراهين التي لنا في شخصية الروح القدس والملائكة. أما طبيعة الشيطان فروحية وهو ملاك يمتاز بكل ما يمتاز به هذه الرتبة من الكائنات — الى أن قال بعد ذكر كونه عدوا لله مطرودا من وجهه — : غير أن طرده الى عالم الظلمة لا يمنع اشتغاله في الارض كالهة هذا العالم وعدو الانسان وخالقه اه

وقد تقدم في تفسير هذه السورة كلام عن الملائكة والجن والشياطين مما يؤثر عن العرب في الجاهلية وما ورد في الكتاب والسنة و بعض ما قاله علماؤنا في ذلك والتقريب بينه و بين العلوم النفسية والمادية . وعندنا ان ما يحفظ من أساطير الاولين والآخرين في ذلك له أصل من الوحي لى أنبيائهم خلطوا فيه من بعدهم وجعلوا الحقيقة مجازا والمجاز حقيقة على نحو ما حققناه في تحريفهم معنى كلمة الله التي عبر بها عن التكوين فجعلوها ذاتا فاعلة خالقة وسماها بعضهم الهاً و بعضهم « ابن الله » وتحريفهم معنى روح القدس كذلك وكلمة ابن المجازية كما بيناه في أواخر تفسير سورة النساء . (ص ٨٢ — ٩٥ ج ٣ تفسير) فلا يتخذ موافقة الوحي لبعض تلك الاساطير شبهة على الوحي ، وسنزيد مسألة عبادة الجن بياناً في مواضع أخرى ان شاء الله تعالى

﴿ بديع السموات والارض ﴾ هذا بيان لما قبله من معنى تسبيح الباري وتعاليه عما يصفه به المشركون . البدع بالفتح الانشاء والايجاد المبتدأ والبدع بالكسر والبديع الشيء الذي يكون أولا كما قال في اللسان. ومنه البدعة في الدين، يقال بدع الشيء (من باب قطع) وأبدعه وابتدعه. وقال الراغب : الابداع انشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء، ومنه قيل ركية (بئر غير مبنية) بديع أي جديدة الحفر . واذا استعمل في الله تعالى فهو ايجاد الشيء بغير آلة ولامادة ولازمان ولامكان وليس ذلك الا لله. وقال صاحب اللسان : والبديع المحدَث العجيب ، والبديع المبدِع وأبدعت الشيء اخترعته لاعلى مثال . والبديع من أسماء الله تعالى لابداعه الاشياء واحداثه اياها ، وهو البديع الاول قبل كل شيء ، ويجوز أن يكون بمعنى مبدع أو يكون من بدع الخلق أي بدأه . والله تعالى كما قال سبحانه (بديع السموات والارض) أي خالقهما ومبدئهما فهو سبحانه الخالق المخترع لاعن مثال سابق اه وذكر ان بديعا من بدع لامن أبدع، وهو معروف فان الاصل في صيغة فعيل أن تكون من الثلاثي وقد سمع ورودها من الإفعال شذوذا ، وهي تأتي بمعنى فاعل كقدير وبمعنى مفعول كقتيل ، وهو هنا بمعنى الفاعل أو الصفة المشبهة

والمعنى على اختلاف التقدير . إن الله هو الذي بدع السموات والارض، أو البديع سمواته وأرضه بما كان من ابداعه واختراعه لهما، أو البديع فيهما بمعنى انه لا شبيه له ولا نظير فيهما ، واذا كان هو المبدع للسموات والارض ولم يوصفا بكونهما من ولده فكذلك الملائكة ، وأجدر منه أن يكون خلقه للمسيح من أم بغير أب غير مسوغ لجعله ولدا له اذ قصارى ذلك أن يكون ابداعا ما، والابداع التام وهو إيجاد ما لم يسبق له نظير في ذاته ولا في وصفه ولا سببه — إن كان له سبب — ليس ولادة، وأثر هذا الابداع وهو المبدَع لايسمى ولدا، اذ الولادة ما كان ناشئا عن ازدواج بين ذكر وانثى من جنس واحد وليس لله تعالى جنس فيكون له منه زوج ولذلك قال ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ أي كيف يكون له - وهو المبدع لكل شيء — ولد والحال انه لم يكن له زوج ينشأ الولد من ازدواجه بها ولا معنى للولد الا ما كان كذلك، وانما صدور جميع الكائنات السماوية والارضية عنه صدور ايجاد ابداعي

للاصول الاوالي، وايجاد سببي كالتوالد بينها بحسب سننه في التوالي ، ولذلك قال ﴿وخلق كل شيء﴾ خلقا ولم يلده ولادة فما خر قتم له من الولد مخلوق له لا مولود، فان خرجتم عن وضع اللغات وسميتم صدور المخلوقات عنه ولادة فكل ما في السموات والارض يكون من ولده وحينئذ يفوتكم ما أردتم من تخصيص بعض المخلوقات بهذه المرتبة تفضيلا لها على غيرها، ولا يقول أحد منهم بهذا. وهذه الجملة استئنافية مقررة لانكار نفي الولد، أو حال بعد حال، واستدلال بعد استدلال ، ومثلها قوله ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ وبيانه ان علمه بكل شيء ذاتي له ، ولا يعلم كل شيء الا الخالق لكل شيء (ألا يعلم من خلق؟) ولو كان له ولد لكان هو أعلم به وهدى العقول اليه بآيات الوحي ودلائل العلم، ولكنه كذب الذين خرقوه له بغير علم، بالوحي المؤيد بدلائل العقل، قال البيضاوي: وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه (الاول) انه من مبدعاته السموات والارضون وهي مع انها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها (والثاني) ان المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين والله تعالى منزه عن المجانسة (والثالث) ان الولد كفؤ للوالد ولا كفؤ له لوجهين الاول ان كل ما عداه مخلوقه فلا يكافئه، والثاني انه لذاته عالم بكل المعلومات ولا كذلك غيره بالاجماع اه وقد تقدم مثل هذين الآيتين في سورة البقرة

﴿ ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾ الخطاب للمشركين المحجوجين أو لجميع المكلفين ، والاشارة الى المنزه عما يصفون، المتصف بما وصف به نفسه من الابداع ، والانفراد بخلق جميع الاشياء، واحاطة العلم بالجليات والخفيات، من المشهودات والغائبات، أي ذلكم الذي شأنه ما ذكر هو الله ربكم، لا من خرقوا له من الاولاد، وأشركوا به من الانداد، فاعبدوه اذا ولا تشركوا به شيئا، لا اله الا هو خالق كل شيء، وانما الاله المستحق للعبادة هو الرب الخالق وما عداه مخلوق يجب عليه أن يعبد خالقه ، فكيف يعبده ويؤلهه من هو مثله في ذلك؟ ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي وهو مع كل ما ذكر موكول اليه أمر كل شيء يتصرف فيه ويدبره بعلمه وحكمته ، يقال فلان وكيل على عقار فلان وماله، وقيل ان الوكيل هنا

بمعنى الرقيب ، وفي سورة المؤمن (٤٠ : ٦٢ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو فأنى تؤفكون) قدم فيه وصفه بالخلق على كلمة التوحيد عكس ما هنا لان ماهنا رد على المشركين فناسب فيه تقديم كلمة وحيد، وآية سورة المؤمن جاءت بين آيات في الخلق ونعم الله فيه فناسب تقديم وصف بالخلق فيها على التوحيد الذي هو نتيجة لذلك وغاية

﴿ لا تدركه الابصار ﴾ البصر العين الا انه مذكر وأبصرت الشيء رأيته. وقيل البصر حاسة الرؤية. ابن سيده : البصر حس العين والجمع أبصار . ذكره في اللسان وقال الراغب : البصر يقال للجارحة الناظرة نحو قوله (كلمح البصر * واذ زاغت الابصار) وللقوة التي فيها . والادراك اللحاق والوصول الى الشيء . يقال تبعه أو أتبعه حتى أدركه. واتبع فرعون بجنوده بني اسرائيل (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون) ويقال أدركه الطرف والموت ومده حتى اذا أدركه الغرق) في كل ذلك معنى اللحاق بعد اتباع حسي أو معنوي . والدرك (بالفتح) أقصى قعر البحر ، ومنه (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار) قرئ بالفتح وبالتحريك. وقال الراغب الدرج كالدرك لكن الدرج يقال باعتبار الصعود والدرك اعتبارا بالحدور. وأدرك بلغ أقصى الشيء وأدرك الصبي بلغ غاية الصبا وذلك حين البلوغ. اه ويقال فيما بعد أو دق وخفي لا يدركه الطرف ، فان اجتهاد النظر لادراك ما لطف ودق إعمال له كاعماله في محاولة إبصار البعيد . ففي الادراك معنى اللحوق ومعنى بلوغ غاية الشيء ، ومن هنا فسر الجمهور الادراك في الآية برؤية لاحاطة التي يعرف بها كنهه عز وجل فتكون بمعنى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) ففي احاطة العلم لا يستلزم نفي أصل العلم، وكذلك نفي ادراك البصر للشيء لا يستلزم نفي رؤيته إياه مطلقا. وهذا أقوى ما جمع به أهل السنة بين الآية والاحاديث الصحيحة الناطقة برؤية المؤمنين لربهم في الآخرة من جهة اللغة . ومن سلم للمعتزلة وغيرهم من منكري الرؤية قولهم ان الادراك هنا بمعنى الرؤية مطلقا قالوا ان النفي خاص بحال الحياة الدنيا التي يعهدها المخاطبون ولا يعرفون فيها رؤية الا للاجسام وصفاتها من الاشكال والالوان وهي التي يشترط فيها ماذكروه كالمقابلة وعدم الحائل . وقالوا ان

عائشة كانت نفت الرؤية في الآخرة وتنفيها في الدنيا حتى عن النبي (ص) وهو الذي كان يرى من وراءه كما يرى من أمامه لغلبة روحه الشريفة اللطيفة على جثته المنيفة، وقد جلينا مسألة رؤية الرب في الآخرة في باب الفتوى من مجلد المنار التاسع عشر (ص ٢٨٢ — ٢٨٨) وسنعود اليها في تفسير قوله تعالى لموسى عليه السلام (لن تراني) من سورة الاعراف ان شاء الله تعالى وهنالك نلم بمسلك الصوفية في نفي الادراك واثبات الرؤية للرب، بتجليه تعالى للذي يكون هو به بصر العبد، الثابت في الحديث القدسي «ولا يزال عبدي يتقرب لي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» الحديث وهو في صحيح البخاري. وخلاصة هذا المسلك انه تعالى هو الذي يرى نفسه بتجليه في بصر عبده، فما يرى الله الا الله، وفاقا لقولهم لا يعرف الله الا الله.

وأما قوله تعالى ﴿وهو يدرك الابصار﴾ فمعناه أنه تعالى يرى العيون الباصرة أو قوى الابصار المودعة فيها رؤية ادراك واحاطة بحيث لا يخفى عليه من حقيقتها ولا من عملها شيء. وقد عرف البشر من تشريح العين ما تتركب منه من طبقاتها ورطوباتها. ووظائف كل منها في ارتسام المرئيات فيها، وعرفوا كثيرا من سنن الله تعالى في النور ووظائفه في رسم صور الاشياء في العينين، ولكن لم يعرفوا كنه الرؤية ولا كنه قوة الابصار ولا حقيقة النور. وفي لسان العرب عن أبي اسحق: أعلم الله أنه يدرك الابصار وفي هذا الاعلام دليل على ان خلقه لا يدركون الابصار أي لا يعرفون حقيقة البصر وما الشيء الذي به صار الانسان يبصر من عينيه دون ان يبصر من غيرهما من سائر أعضائه، فأعلم أن خلقا من خلقه اللطيف الخبير. فأما ما جاء من الاخبار في الرؤية وصح عن رسول الله (ص) فغير مدفوع وليس في هذه الآية دليل على دفعها لان معنى هذه الآية ادراك الشيء والاحاطة بحقيقته وهذا مذهب أهل السنة والعلم بالحديث اه

﴿وهو اللطيف الخبير﴾ أي وهو اللطيف بذاته الباطن في غيب وجوده، بحيث تخسأ الابصار دون إدراك حقيقته، على انه الظاهر بآياته التي تعرفه بها العقول بطريق البرهان، الظاهر في مجالي ربوبيته لاهل العرفان، بتجلياته التي تكمل في الآخرة

فيكون العلم بها رؤية عيان، وهو في كل من بطونه وظهوره منزه عن مشابهة الخلق، فتعالى الله الملك الحق . وهو الخبير بدقائق الاشياء ولطائفها ، بحيث لا يعزب عن ادراكه ألطف أرواحها وقواها ، ولا أدق جواهرها وأعراضها . ففي الآية لف ونشر مرتب.

اللطيف من الاجرام ضد الكثيف والغليظ فيطلق على الدقيق منها والرقيق ، واللطيف من الطباع ضد الجافي . قال في اللسان : واللطيف من الاجرام والكلام ما لا جفاء فيه ، وجارية لطيفة الخصر اذا كانت ضامرة البطن ، واللطيف من الكلام ما غمض معناه وخفي ، واللطف في العمل الرفق فيه اه . وكذا اللطف في المعاملة فهو الرفق الذي لا يثقل منه شيء . ويستعمل فعله لازما ومتعديا يقال لطف الشيء (بوزن حسن) أي صغر أو رق وصار لطيفا . ويقال لطف به ولطف له (بوزن نصر) وقال ابن الاثير في تفسير اللطيف من أسماء الله تعالى : هو الذي اجتمع له الرفق في الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها الى من قدرها له من خلقه اه أرجعه الى صفات الافعال والى العلم من صفات المعاني . وهو في الاول أظهر وأكثر من الثاني ، فمنه قوله تعالى في سورة الحج بعد ذكر انبات النبات بالماء (٢٢ : ٦٣ ان الله لطيف خبير) وقوله في سورة الشورى (٤٢ : ١٧ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء) أي يوصل اليهم الخير والرزق، بمنتهى العناية والرفق. وفي سورة يوسف حكاية عنه (١٢ : ١٠٠ ان ربي لطيف لما يشاء) فسروه بلطف التدبير والعناية به وبأبويه واخوته بجمع شملهم بعد ان نزغ الشيطان بينهم، وعد بعضهم من لطف العلم قوله تعالى في سورة لقمان حكاية عنه (٣١ : ١٥ يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير) والاظهر في معناه هنا أنه اللطيف باستخراجها من كن خفائها الخبير بمكانها منه. ونزيد عليهم أن من لطفه تعالى جعل أحكام دينه يسرا لا حرج فيها وهي من صفة الكلام الذي هو مظهر لعلمه ، ومنه قوله تعالى في سورة الاحزاب، في آخر ما خاطب به نساء الرسول (ص) من المواعظ والحكم والاحكام، (٣٣ : ٣٤ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفا خبيرا) فلم يبق الا الشاهد على لطفه تعالى في ذاته . المناسب في الكمال للطفه في

صفاته وأفعاله وأحكامه ، وهو الآية التي نحن بصدد تفسيرها لا يظهر فيها غيره

والمتكلمون يأبون جعل اللطيف من صفات الذات له سبحانه — كالرحيم والحليم — والاثريون والصوفية لا يأبون مثل ذلك بل يثبتونه، وقد قال الزمخشري في الآية كلمة تشبه ان تكون تأييدا لمذهب أهل الاثر والصوفية وهو معتزلي مبالغ في التنزيه وقد تابعه عليها المفسرون من الاشاعرة وغيرهم كالرازي والبيضاوي وأبي السعود والآلوسي، قال: وهو اللطيف يلطف عن أن تدركه الابصار الخبير بكل لطيف فهو يدرك الابصار لا تلطف عن إدراكه، وهذا من باب لان اه نقلو هذا المعنى عنه وجعلوا اللطيف مستعارا من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها

قال الآلوسي : ويفهم من ظاهر كلام البهائي كما قال الشهاب انه لا استعارة في ذلك حيث قال في شرح أسماء الله تعالى الحسنى : اللطيف الذي يعامل عباده باللطف ، وألطافه جل شأنه لا تتناهى ظواهرها وبواطنها في الاولى والاخرى (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وقيل اللطيف العالم بالغوامض والدقائق ، من المعاني والحقائق ، ولذا يقال للحاذق في صنعته لطيف . ويحتمل ان يكون من اللطافة المقابلة للكثافة ، وهو وان كان في ظاهر الاستعمال من أوصاف الجسم لكن اللطافة المطلقة لا توجد في الجسم لان الجسمية يلزمها الكثافة ، وانما لطافتها بالاضافة ، فاللطافة المطلقة لا يبعد ان يوصف بها النور المطلق الذي يجل عن إدراك البصائر فضلا عن الابصار ، ويعز عن شعور الاسرار فضلا عن الافكار ، ويتعالى عن مشابهة الصور والامثال ، وينزه عن حلول الالوان والاشكال ، فان كمال اللطافة إنما يكون لمن هذا شأنه ، ووصف الغير بها لا يكون على الاطلاق ، بل بالقياس الى مادونه في اللطافة ، ويوصف اليه بالكثافة ، انتهى . وتعقبه الآلوسي بقوله: والمرجح ان اطلاق اللطيف بمعنى مقابل الكثيف على ما ينساق الى الذهن على الله تعالى ليس بحقيقة أصلا كما لا يخفى اه

وأقول ان ما ذكر في هذا الكلام اللطيف من اثبات اللطف بالذات، للذات التي لا تشبهها الذوات ، ومن الاشارة الى تضعيف جعل اللطيف بمعنى العليم بالدقائق، كلاهما من لباب الحقائق، اذ ما فسر به اللطيف هنا هو معنى الخبير، وقوله ان اللطافة

المطلقة لا توجد في الجسم الخ له وجه من اللغة ولكن الجسم في عرف علماء المعقول من المتكلمين والحكماء أعم من الجسم في أصل في اللغة ومدلول اشتقاقها فالجسم في اللغة من الجسامة أي الضخامة وهو كما في اللسان وغيره : جماعة البدن أو الاعضاء من الناس والإبل والدواب وغيرهم من الانواع العظيمة الخلق. وأما في عرف العلماء فهو القابل للقسمة أو ماله طول وعرض وعمق. والموجودات المادية أعم من هذا أيضا وقد عرف في علوم الكون واتساعها في هذا العصر ماهو ألطف من كل ماكان يعرف في العصور الخالية التي يضرب فيها المثل بلطف الهواء أو النسيم، اذ ثبت ان هذا النسيم اللطيف مركب من عنصرين كل منهما ألطف من المجموع المركب منهما . وقد ثبت ان للهواء المحيط بأرضنا حدا قريبا، وأن في الكون موجودا آخر ألطف منه ومن كل من عنصريه وأمثالهما من العناصر البسيطة اللطيفة الخفية هو الذي يحمل النور والحرارة من الشموس والكواكب المتفاوتة الابعاد الشاسعة الى هوائنا فأرضنا ويسمونه (لاثير) فهذا الموجود الساري في جميع الكائنات الرابط لبعضها ببعض كما يجزم به علماء الكون نظرا واستدلالا قد لطف عن إدراك العيون وعن تصرف أيدي الكيماويين الذين يرجعون الماء والهواء وغيرهما من المركبات الى بسائطها اللطيفة التي لا ترى، ويتصرفون فيها أنواعا من التصرف، ويستعملونها في كثير من المضار والمنافع، ويرى بعض المثبتين لاستقلال الارواح البشرية وقدرتها على التشكل في الاشباح اللطيفة والكثيفة انها تستعين على هذا التشكل بالاثير، فألطف شبح تتحلى به يتخذ من الاثير لمكثف بعض التكثيف ، بحيث تدركه الابصار ، ولا يمنعه ذلك من النفوذ في كثائف الاجرام ، كما ينفذ الاثير بالنور من الزجاج ، ويغير النور من جميع الاجرام ، وقد تأخذ شبحا لها من جسم بشر بينها وبينه تناسب كمستحضري الارواح ، فاذا خلعت الروح هذا الثوب امتنعت رؤيتها لتناهي لطافتها ،

واذا كان كل موجود في كل رتبة من رتب الوجود وكل صفة من صفات تلك الرتب قد استفاد وجوده وصفاته من الخالق الحكيم ، وكان اللطف من تلك الصفات التي أشرنا الى تفاوتها العظيم ، فلا بد ان يكون لطفه تعالى أدق وأخفى من لطفها، واذا كان لطف بعضها لا يستلزم الجسمية اللغوية ولا العرفية فلطفه

عز وجل أجدر بذلك وأحق ، فعلماؤنا كافة والروحيون من علماء الافرنج وغيرهم الذين يقولون - كما قول الصوفية - بتحلي أرواح الموتى في صور متفاوتة في اللطف وبتجرد بعض أرواح لاحياء وظهورها في أشباح لطيفة أخرى والروحيون المنكرون منهم لذلك - كلهم متفقون على ان الروح لم يعرف كنهها ، وأنها ألطف وأخفى من الاثير ومن البسائط المادية بأسرها وهي مع ذلك عاقلة متصرفة. والماديون يقولون ان مادة الكون الاولى التي ظهرت فيها صور جميع العناصر ومركباتها لا يعرف لها كنه ، ولا يدركها طرف، ولا يوضع لها حد ، وانها في منتهى اللطف ، وهي أزلية أبدية ، — فجميع العلماء من روحيين وماديين متفقون على ان لطف ذات الشيء لا يستلزم التركيب ولا الحد ولا التحيز ، فلطف ذات الخالق ، أولى بتنزهه عن ذلك، وإنما فر المتكلمون من هذه اللوازم حتى لجأ بعضهم الى التعطيل وبعضهم الى التأويل لاكثر ما وصف الله تعالى به نفسه في كتبه. وماذلك الا من قياس الغائب على الحاضر ، والواجب على الجائز ، والله تعالى فوق ذلك. وهو اللطيف الخبير ، السميع البصير : العلي الكبير ، هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم

---

(١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ

الآيات السابقة كلها في الالهيات من عقائد الدين ، وهذه الآيات في التنبيه لمكانتها من العلم والهداية، وفي المبلغ لها عن الله تعالى وما يقول المشركون فيه واعلامه

بسنة الله فيهم من حيث هم بشر وما يجب عليه وما ينفى عنه في هذا المقام قال تعالى

﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾ البصائر جمع بصيرة ولها معان منها عقيدة القلب والمعرفة الثابتة باليقين أو اليقين في العلم بالشيء والعبرة والشاهد أو الشهيد المثبت للامر والحجة أو الفطنة، أو القوة التي تدرك بها الحقائق العلمية، وهذا يقابل البصر الذي تدرك به الاشياء الحسية ، ومنه قول معاوية لبعض بني هاشم : انكم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم، وقولهم له : وأنتم يابني أمية تصابون في بصائركم ، أي قلوبكم وعقولكم، والمراد بالبصائر هنا الآيات الواردة في هذه السورة أو في هذا السياق الذي أوله (ان الله فالق الحب والنوى) أو هي وما في معناها من الآيات المثبتة لحقائق الدين، أو القرآن بجملته، وربما يرجح هذا بتذكير الفعل «جاءكم» اذ لا بد له من نكتة في الكلام البليغ لانه خلاف الاصل وان كان جائزا. وأقوى النكت وقوع اللفظ المؤنث على معنى مذكر . والخطاب وارد على لسان الرسول (ص) كما قال ابن جرير وغيره ، فالمعنى قد جاءكم في هذه الآيات جلية، بصائر من الحجج العقلية والكونية، تثبت لكم عقائد الحق اليقينية، التي يتوقف عليها نيل السعادة الابدية، جاءكم من ربكم الذي خلقكم وسواكم ، وربى أجسادكم ومشاعركم وسائر قواكم، ليربي بها أرواحكم، بأحسن مما ربى به أشباحكم ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ أي فمن أبصر بها الحق والهدى ، فآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ، فلنفسه أبصر ، ولسعادتها ما قدم من الخير وأخر ،

﴿ ومن عمي فعليها ﴾ أي ومن عمي عن الحق باعراضه عنها، وعدم النظر والاستبصار بها ، فأصر على ضلاله ، ثباتا على عناده ، أو تقليد آبائه وأجداده، فعليها جنى، وإياها أردى ، ولعمى البصائر شر من عمى الابصار ، وأسوأ عاقبة في هذه الدار وفي تلك الدار ، وهذا كقوله تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) وقوله (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وقوله (ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها) وقوله هنا « فلها » بمعنى فعليها ، ونكتته المشاكلة أو الازدواج وقيل غير ذلك

﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ يراقب أعمالكم ويحصيها عليكم ويحفظها ليجازيكم عليها، وانما أنا بشير ونذير ، والله هو الرقيب الحفيظ ، فهو يعلم ما تسرون وما تعلنون ،

ويجزيكم عليه بما تستحقون، فعليه وحده الحساب وما علي الا البلاغ ،

﴿ وكذلك نصرف الآيات ﴾ أي ومثل ذلك التصريف والتفنن العلي الشان، البعيد الشأو في فنون المعاني وأفنان البيان ، الذي تراه في هذه السورة أو هذا السياق ، نصرف الآيات في سائر القرآن، لاثبات أصول الايمان، والهداية لاحاسن الآداب والاعمال، فنحولها من نوع الى نوع ومن حال الى حال، مراعاة لتفاوت العقول والافهام ، ولاختلاف استعداد الافراد والاقوام ، ﴿ وليقولوا درست ﴾ المعنى العام للدرس تكرار المعالجة وتتابع الفعل على الشيء حتى يذهب به أو يصل الى الغاية منه. يقال درس الشيء كرسم الدار وآثارها يدرس (من باب جلس) اذا عفا وزال بفعل الريح أو تتابع المشي عليه وغير ذلك من الاسباب فهو دارس، ودرسته الريح أو غيرها، ودرس اللابس الثوب درسا أخلقه وأبلاه فهو درس، ودرسوا الطعام أي القمح داسوه ليتكسر فيفرق بين حبه وتبنه، ودرس الناقة درسا راضها، ودرس الكتاب يدرسه درسا ودراسة ودارسه مدارسة — من ذلك. قال في اللسان عقب نقله: كأنه عاند حتى انقاد لحفظه ثم قال: ودرست الكتاب أدرسه أي ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه علي من ذلك، والمدرسة بالصم الرياضة . ففي كل ما ذكر معنى تكرار العمل ومتابعته حتى بلوغ الغاية منه . قرأ الجمهور (درست) فعلا ماضيا للمخاطب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارست) للمشاركة وهي مروية عن ابن عباس ومجاهد. وقرأ ابن عامر و يعقوب (درست) بفتح السين وسكون التاء وهي مروية عن أبيّ وابن مسعود وابن الزبير والحسن. و تعليل في قوله (وليقولوا درست) خاص معطوف على تعليل عام يعرف من القرينة والمعنى وكذلك نصرف الآيات على أنواع شتى ليهتدي بها المستعدون للايمان، على اختلاف العقول والافهام، وليقول هؤلاء المشركون الجاحدون ، المعاندون منهم والمقلدون ، قد درست من قبل يا محمد وتعلمت . وليس هذا بوحي منزل كما زعمت ، وقد قالوا مثل هذا افكا وزورا ، وزعموا انه تعلم من غلام رومي كان يصنع السيوف بمكة قيل انه كان يختلف اليه كثيرا ، وذلك قوله تعالى في سورة النحل (١٦: ١٠٣ ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) أوليقولوا دارست العلماء وذاكرتهم، وجئتنا بما تلقيته عنهم، أو درست.

هذه العقائد ومحيت ، بمعنى أنها أساطير قديمة قد رثت وخلقت. وهاتان القراءتان، في معنى قوله تعالى في سورة الفرقان (٢٥: ٤ وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون. فقد جاءوا ظلما وزورا (٥) وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) وأظهر منه في تأييد القراءة الاخيرة قوله تعالى حكاية عن قوم هود في الشعراء (٢٦: ٣٦ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ١٣٧ ان هذا الا خلق الاولين ١٣٨ وما نحن بمعذبين) وحكمة القراءات الثلاث حكاية أقوال ثلاث فئات من المشركين ، وهو من ايجاز القرآن العجيب في الكلام والرسم

قيل ان اللام في قوله « وليقولوا درست » للعاقبة والصيرورة أي ليكون عاقبة تصريف الآيات أن يقول الراسخون في الشرك مثل هذا القول مكابرة وعنادا، وجحودا والحاداً ، وقيل ان هذا تعليل صحيح يؤيده قوله تعالى (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا) ونقول ليس معنى يضل به كثيرا ان الاضلال من المقاصد التي أنزل لاجلها ، أو التي من شأن القرآن في نفسه أن يكون علة وسببا لها، وانما معناه انه يترتب على وجوده إعراض فاسدي الفطرة عنه، وضلالهم بسبب الكفر به، فهو بمعنى العاقبة التي تترتب على انزاله، كما يترتب على جميع المنافع التي خلقها الله للناس في الانفس والآفاق مضار كثيرة من سوء الاستعمال

﴿ ولنبينه لقوم يعلمون ﴾ أي ولنبين هذا القرآن المشتمل على ما ذكر من تصريف الآيات، الذي يقول فيه المكابرون أنه أثر درس واجتهاد ، أو لنبين التصريف المفهوم من « نصرف » لقوم يعلمون بالفعل أو بالاستعداد ، الذي لا يعارضه تقليد ولا عناد ، ما تدل عليه الآيات من الحقائق ، وما يترتب على الاهتداء بها من السعادة . فعلم من عطف هذا على ما قبله أن الذين يقولون للرسول انك درست أو دارست حتى جئت بهذه الآيات المنزلة ، اذ كانت أثر الدرس أو المدارسة ، هم الجاهلون الذين لم يفهموا تلك الآيات ، التي صرفها الله على أنواع وأشتات ، أو لم يفقهوا سرها ، وما يجب من ايثارها على منافع الدنيا بأسرها، وأما الذين يعلمون مدلولاتها، وحسن عاقبة الاهتداء بها، فهم الذين يتبين لهم بتأملها حقيقة القرآن ، أو ما في التصريف من أنواع البيان ، المؤيد بالحجة والبرهان .

والمفسرين في الآية أقوال أخرى منقوضة (منها) قول بعضهم ان المراد بدارست قارأت اليهود فحفظت عنهم بعض معاني هذه الآيات ، وينقض هذا ، هو معلوم على سبيل القطع من نزول هذه السورة في أوائل البعثة بمكة ولم يكن النبي (ص) لقي أحدا من اليهود اذ لم يكونوا من أهلها ولو تلقى عنهم كتبهم بالمدارسة لما سكتوا عن بيان ذلك لمشركي مكة حين أرسلوا اليهم يسألونهم عنه ولغيرهم من قومهم ومن المشركين ، ولو أرادوا هذا المعنى بهتانا لصرحوا به ونقل عنهم، وسيأتي في آخر هذا البحث ما يدل على أنهم لم يريدوه، وهو منقوض في نفسه بأن ماجاء به (ص) مهيمن على كتبهم قد بين أن ماعندهم محرف وفيه زيادة عما جاء به أنبياؤهم ونقص مما نسوا منه، وقد بين لهم كثيرا مما كانوا يخفون منه[1] وهو من جهة أخرى أتم وأكمل لانه خاتم النبيين ، الذي أكمل الله على لسانه الدين .

(ومنها) قول آخرين ان « ليقولوا دارست » على النفي أي لئلا يقولوا ذلك، قاله ابن جرير ونقله الرازي عن القاضي من المعتزلة ورده أشد الرد وله الحق، ولكنه غير مصيب في جعل العبارة مما يحتج به على الجبر أو القدر

(ومنها) قول الرازي ان الكفار كانوا يقولون في نزول القرآن نجوما: ان محمدا يضم هذه الآيات بعضها الى بعض ويتفكر فيها و يصلحها آية فآية ثم يظهرها ولو كانت وحيا جاء بها دفعة واحدة كما جاء موسى بالتوراة دفعة واحدة ومن ثم كان تصريف الآيات حالا فحالا هو الذي أوقع الشبهة للقوم في أن القرآن نتيجة مدارسة ومذاكرة مع آخرين. وقول ان هذا الكلام رأي ملفق لا يصح به في جملته نقل فالعرب لم تكن تعتقد ان موسى جاء بالتوراة جملة واحدة من عند الله ولا أهل الكتاب، وانما تلك الوصايا العشر فقط وسائر أحكام التوراة نزلت متفرقة بحسب الوقائع في أمكنة مختلفة كالقرآن. وتلك الوصايا لا تبلغ عشر هذه السورة (الانعام) التي نزلت جملة واحدة كما أثبتنا ذلك في أول تفسيرها بل لا تزيد على نصف العشر الا قليلا . ولعل كثرة ما فيها من الآيات البينات على أصول الدين هو الذي حمل بعض المفسرين على القول بأن معنى

(١) راجع تفسير أول سورة آل عمران من الجزء الثاني وتفسير (٤:٤٤) من الجزء الرابع و (٥:١٤—١٦) من الجزء السادس

(وليقولوا درست) ولئلا يقولوا درست فان المجيء بهذه الآيات الكثيرة المنتظمة الحجج والبراهين المختلفة دفعة واحدة من شأنه ان يمنع المنصف من دعوى اقتباس القرآن بالمدارسة مع الآخرين، وأين هؤلاء المدارسون؟ ولم لم يظهر من أحد منهم ولا من الرسول نفسه في مدة أربعين سنة شيء من هذه المعارف العالية، والبلاغة المعجزة؟ كلا انما قالوا ذلك جحودا ومكابرة، وربما نطق به بعضهم بادي الرأي من غير تفكر في مخالفته لما هو معلوم بالضرورة عندهم من كونه أميا وكونه احتج على جمهورهم في ذلك بمثل قوله تعالى: (١٠: ١٦ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) وقوله (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون) وهذه تدل على انهم لم يرتابوا وانما هي المكابرة.

﴿ اتبع ما أوحي اليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾

بعد ان بين تعالى لرسوله ان الناس فريقان فريق قد فسدت فطرتهم ولم يبق فيهم استعداد للاهتداء بتلك البصائر المنزلة، ولا للعلم بما فيه من تصريف الآيات البينة، فحظهم منها مكابرتها، وجحود تنزيلها، وفريق يعلمون، وبالبيان يهتدون — أمره أن يتبع ما أوحي اليه من ربه، بالبيان له والعمل به، مشيرا باضافة اسم الرب الى ضميره، الى تعظيم شأنه وتكبيره، والى كون الوحي اليه (ص) تربية له في نفسه، وناصبا اياه إماما لجميع أبناء جنسه، يتربى به من وفق منهم لاتباعه، وذلك أن الاقتداء لا يتم الا بمن يعمل بما يعلم، ويأتمر بما يأمر، وقرن هذا الامر بكلمة توحيد الالوهية، لبيان وجوب ملازمته لتوحيد الربوبية، فكما أن الخالق المربي للاشباح بما أنزل من الرزق، وللارواح بما أنزل من الوحي، واحد لاشريك له في الخلق ولا في الهداية، فالواجب ان يكون الاله المعبود واحدا لاشريك له في الجزاء على الاعمال بشفاعة ولا ولاية، فالامر هنا بالاتباع ليس الغرض منه مجرد المداومة عليه، كما هو الشأن في أكثر من يأمر بالعمل من هو متلبس به، وانما الغرض منه بيان كونه من متممات التبليغ، ثم عطف على هذا الامر المقرون بكلمة التوحيد، أمره (ص) بالاعراض عن المشركين، بان لا يبالي بأصرارهم على الشرك، ولا بمثل قولهم له درست أو ست، لان الحق يعلو متى ظهر بالقول والعمل مع الاخلاص، لا يضره الباطل

بخرافات الاعمال ولا بزخارف الاقوال ، ثم هون عليه أمر الاعراض عنهم، بقوله

﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ الخ أي ولوشاء الله تعالى أن لا يشركوا لما أشركوا، وذلك انه لم يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، وانما خلقهم مستعدين للايمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، والطاعة والفسق ، ومضت سنته في ذلك بأن يكونوا عاملين مختارين . فأما غرائزهم وفطرهم فكلها خير، واما تصرفهم فيها وكسبهم لعلومهم وأعمالهم فمنه الخير والشر ، وقد فصلنا هذه المسألة من قبل ،

﴿ وما جعلناك عليهم حفيظ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ وأنما أنت بشير ونذير، والله تعالى هو الحفيظ والوكيل عليهم ، وهو مع ذلك لا يسلبهم استعدادهم ، ولا يجبرهم بقدرته على الايمان والطاعة له . اذ لو فعل ذلك لكان اخراجا لهم من جنس البشر الى جنس آخر. ولعل في الجملتين احتباكا والتقدير: وما جعلناك عليهم حفيظا تحفظ عليهم أعمالهم لتحاسبهم وتجازيهم عليها، ولا وكيلا تتولى أمورهم وتتصرف فيها، وما أنت عليهم بوكيل ولا حفيظ بذلك ولا سيادة. أي ليس لك ما ذكر من الوصفين بأمرنا وحكمنا، ولا لك ذلك بالفعل كما يكون نحوه لبعض الملوك بالقهر أو التراضي . وقد تقدم تفسير الحفيظ والوكيل في الآيات الاخيرة، وكذا في الآية ٦٦ من هذه السورة « قل لست عليكم بوكيل » فراجع تفسيرها وفيها انه روي عن ابن عباس أنها منسوخة بآية السيف وروي ذلك عنه في هذه الآية أو ما قبلها أيضا ، والجمهور لا يعدون مثل هذا من المنسوخ كما تقدم، نعم انه نزل قبل ان تتكون الامة ويصير النبي (ص) حاكما ولكن نزل مثله بعد ذلك لان الحاكم في الاسلام ليس حفيظا ولا وكيلا على الامة بالمعنى المراد هنا ، ففي سورة النساء المدنية (٤ ٧٩ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك حفيظا)

وفي هذه الآيات وأمثالها من تقرير حرية الدين والاعتقاد ، ما لا نظير له في قانون ولا كتاب ،

أعراب الشام

في القرنين السابع والثامن للهجرة الشريفة

جاء في الكلام على المملكة الشامية من الجزء الرابع من صبح الاعشى بيان عن العربان التابعين لها وبطون العرب أولو الامرة فيهم نلخص منه ما يأتي. قال:

﴿ البطن الاولى ﴾

﴿ آل ربيعة من طيئ من كهلان من القحطانية ﴾

وهم بنو ربيعة بن حازم، بن علي، بن مفرج، بن دَغْفَل، بن جراح؛ وقد تقدم نسبه مستوفًى مع ذكر الاختلاف فيه في الكلام على ما يحتاج اليه الكاتب في المقالة الاولى قال في «العبر»: وكانت الرياسة عليهم في زمن الفاطميين خلفاء مصر لبني جراح، وكان كبيرهم مفرج بن دَغْفَلَ بن جراح، وكان من إقطاعه الرملة. ومن ولده حسّان وعلي ومحمود وحرار، وولي حسّان بعده فعظم أمره وعلا صيته، وهو الذي مدحه الرّياشيّ الشاعر في شعره. قال الحمداني: وكان مبدأ ربيعة أنه نشأ في أيام الاتابك زنكي صاحب الموصل، وكان أمير عرب الشام أيام طغتكين السلجوقي صاحب دِمَشق ووفد على السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام فأكرمه وشاد بذكره. قال: وكان له أربعة أولاد، وهم فضل، ومراد، وثابت، ودَغفَل. ووقع في كلام المسبحي أنه كان له ولد اسمه بدر. قال الحمداني: وفي آل ربيعة جماعة كثيرة أعيان لهم مكانة وأُبّهة، أول من رأيتُ منهم ماتع بن حديثة وغنام بن الطاهر، على أيام الملك

الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب. قال: ثم حضر بعد ذلك منهم الى الابواب السلطانية في دولة المعز أيبك والى أيام المنصور قلاوون زامل بن علي بن حديثة، وأخوه أبو بكر بن علي، وأحمد بن حجي وأولاده واخوته، وعيسى بن مُهنا وأولاده وأخوه؛ وكلهم رؤساء أكابر وسادات العرب ووجوهها، ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة وصيت عظيم، الى رونق بيوتهم ومنازلهم

من تلقَ منهم تقل: لا قيتُ سيدَهم

مثلُ النجوم التي يسري بها الساري

ثم قال: الا أنهم مع بُعد صيتهم قليل عددهم. قال في «مسالك الابصار» لكنهم كما قيل:

تُعيِّرُنا أنّا قليلٌ عديدنا فقلتُ لها: ان الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارُنا عزيز وجار الاكثرين ذليل

ولم يزل لهم عند الملوك المكانة العلية والدرجة الرفيعة، يحلونهم فوق كيوان، وينوعون لهم أجناس الاحسان. قال الحمداني: وَفد فرج بن حية على المعز أيبك فأنزله بدار الضيافة وأقام أياماً، فكان مقدار ماوصل اليه من عين وقماش واقامة — له ولمن معه — ستة وثلاثين ألف دينار قال: واجتمع أيام «الظاهر بيبرس» جماعة من آل ربيعة وغيرهم فحصل لهم من الضيافة خاصة في المدة اليسيرة أكثر من هذا المقدار ومايعلم ماصرف على يديّ من بيوت الاموال والخزائن والغلال للعرب خاصة الا الله تعالى

واعلم ان آل ربيعة قد انقسموا الى ثلاثة أفخاذ، هم المشهورون منهم، ومن عداهم أتباع لهم وداخلون في عددهم، ولكل من الثلاثة أمير مختص به

الفخذ الاول — (آل فضل) — وهو فضل بن ربيعة لمقدم ذكره ، وهم رأس الكل وأعلاهم درجة وأرفعهم مكانة. قال في « مسالك الابصار » : وديارهم من حمص الى قلعة جعبر، الى الرحبة ، آخذين الى شقي الفرات وأطراف العراق حتى ينتهي حدهم قبلةً بشرق الى الوشم ، آخذين يساراً الى البصرة ؛ لهم مياه كثيرة ومناهل موروده :

ولها منهل على كل ماء وعلى كل دِمنةٍ آثارُ

ثم نقل المؤلف بعد هذا نبذة من (مسالك الابصار) في تشعب بني فضل الى شعب كثيرة وان أفضل بيت من بيوتهم في عهد مؤلفه (آل عيسى) وفروعه وقوله فيهم : وهؤلاء آل عيسي في وقتنا هم ملوك البر فيما بعد واقترب ، وسادات الناس ولا تصلح الا عليهم العرب

قال المؤلف : وأما الامرة عليهم فقد جرت العادة أن يكون لهم أمير كبير منهم يولى من الابواب السلطانية ويكتب له تقليد شريف بذلك ، ويلبس تشريفا أطلس اسوة النواب ان كان حاضرا ، أو يجهز اليه ان كان غائبا ، ويكون لكل طائفة منهم كبير قائم مقام أمير عليهم ، وتصدر اليه المكاتبات من الابواب الشريفة الا انه لا يكتب اليه تقليد ولا مرسوم . قال في (مسالك الابصار) ولم يصرح لأحد منهم بامرة على العرب بتقليد من السلطان الا من أيام (العادل أبي بكر) أخي السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب)

ثم ذكر بعض امرائهم وموالاة بعضهم للتتار وشؤونهم مع سلاطين مصر

وبعد انتهاء الكلام على الفخذ الاول من آل ربيعة قال

(الفخذ الثاني من آل ربيعة — آل مرا) نسبة الى مرا بن ربيعة. وقال في (مسالك الابصار) ديارهم من بلاد الجيدور والجولان الى الزرقاء والضليل الى بصرى ، ومشرّقا الى الحرة المعروفة بحرة كشت قريبا من مكة المعظمة الى شعباء الى نيران مزيد الى الهضب المعروف بهضب الواقي. وربما طلب لهم البر وامتد لهم المرعي أوان خصب الشتاء فتوسعوا في الارض وأطالوا عدد الايام والليالي حتى تعود مكة المعظمة وراء

ظهورهم ، ويكاد سهيل يصير شامَهم ، ويصيرون بوجوههم مستقبلين الشام . وقد تشعب آل مرا أيضا شعبا كثيرة ، وهم آل احمد بن حجي وفيهم الإمرة ، وآل مسخر ، وآل نمَيّ . وآل بقرة ، وآل شماء

وممن ينضاف اليهم ويدخل في امرة أمرائهم حارثة ، والخاص ، لامٌ ، وسعيدة ، ومُدلج ، وتزير ، ، بنو صخر ، وزبيد حوران : وهم زبيد صَرخَد ، وبنو غنيّ ، وبنو عرقال ، ويأتيهم من عرب البرية آل ظفير ، والمنارجة ، وآل سلطان ، وآل غري ، وآل برجس ، والحرسان ، وآل المغيرة ، وآل أبي فضيل ، والزرّاق ، وبنو حسين الشرفاء ، ومطين ، وخثعم ، وعدوان ، وعنزة . قال : وآل مرا أبطال مناجيد ، ورجال صناديد ، وأقيال قلْ (كونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيدًا) ، لا يعد منهم عنترةُ العبسي ، ولا عَرابة الأَوْسي ، الا أن الحظ يحظ بني عمهم [بأكثر] مما يحظهم ، ولم تزل بينهم نوَب الحرب ، ولهم في أكثرها الغلب .

قال الشيخ شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي رحمه الله : كنت في نوبة حمص في واقعة التتار جالسا على سَطح باب الاصطبل السلطاني بدمشق اذ أقبل آل مرا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح على الخيل المسوَّمة ، والجياد المطهمة ، وعليهم الكزغندات الحمر الاطلس المعدني ، والديباج الرومي ، وعلى رءوسهم البيض ، مقلدين بالسيوف ، وبأيديهم الرماح كأنهم صقور على صقور ، وامامهم العبيد تميل على الركائب ، ويرقصون بتراقص المهارى ، وبأيديهم الجنائب ، التي اليها عيون الملوك صورا ، ووراءهم الظعائن والحمول ، ومعهم مغنية لهم تعرف بالحضرمية طائرة السمعة ، سافرة من المودج وهي تغني :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ... ليالي لاقينا جذاماً وحميرا
ولما لقينا عصبة غلبيّة ... يقودون جرداً للمنية ضُمَّرا
فلما فرعنا النبع بالنبع[1] بعضه ... ببعض أبت عيدانه أن تكسّرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثله[2] ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

وكان الامر كذلك ، فان الكسرة أولا كانت على المسلمين ثم كانت لهم الكرة على التتار ، فسبحان منطق الالسنة ومصرف الاقدار

الفخذ الثالث — من آل ربيعة (آل علي) — وهم فرقة من آل فضل المقدم ذكرهم ينتسبون الى علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . قال في « مسالك الابصار » : وديارهم مرج دمشق وغوطتها ، بين إخوتهم آل فضل وبني عمهم آل مرا ، ومنتهاهم الى الحرف والجبابة الى السكة ، الى البرادع قال في « التعريف » : وانما نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الامرة الى عيسى بن مهنا وبقي جار الفرات في تلابيب التتار . قال في « مسالك الابصار » : وهم آل بيت عظيم الشأن مشهور السادات ، الى أموال جمة ، ونعم ضخمة ، ومكانة في الدول علية . وأما الامرة عليهم فقد ذكر في « مسالك الابصار » أنه كان أميرهم في زمانه رَمْلة بن جماز بن محمد بن أبي بكر بن علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . ثم قال : وقد كان جده أميرا ثم أبوه . قلد الملكُ الاشرفُ « خليل بن قلاوون » جدَّه محمد بن أبي بكر إمرة آل فضل ، حين أمسك مهنا بن عيسى . ثم قلدها من الملك الناصر أخيه أيضاً حين طرد مهنا وسائر اخوته وأهله .

(١) المراد بالنبع القسي وهو في الاصل شجر تتخذ منه (٢) الصواب بمثلها لأن الكاس مؤنثة

قال : ولما أُمِّر رملة كان حَدَثَ السن فحسده أعمامه بنو محمد بن أبي بكر وقدموا على السلطان بتقادمهم وتراموا على الامراء وخواص السلطان وذوي الوظائف فلم يحضرهم السلطان الى عنده ولا أدنى أحدا منهم، فرجعوا بعد معاينة الحين، بحقي حنين، ثم لم يزالوا يتربصون به الدوائر، وينصبون له الحبائل، والله تعالى يقيه سيئات ما مكروا، حتى صار سيد قومه، وفرقد دهره، والمسود في عشيرته، المبيض لوجوه الايام بسيرته، وله اخوة ميامين كبرا، هم أمراء آل فضل وآل مرا. وقد ذكر القاضي تقي الدين ابن ناظر الجيش في «التثقيف»: أن الامير عليهم في زمانه في الدولة الظاهرية برقوق كان عيسى بن جاز اه المراد منه

هذا تعريف وجيز بآل فضل وآل مرا من عرب الشام، ثم ذكر القلقشندي في الجزء الثاني عشر من صبح الأعشى في الكلام على من يولى عن الابواب السلطانية بمصر ممن هم خارج دمشق امراء العربان، وانهم طبقتان، الطبقة الأولى من يكتب له منهم تقليد في قطع النصف: «بالمجلس العالي» وهو أمير آل فضل خاصة سواء كان مستقلا بالامارة أو شريكا لغيره فيها. وبعد ان ذكر صورة تقليدين لهؤلاء أعني امراء ال فضل ذكر ان الطبقة الثانية التي تلي طبقتهم من عرب الشام هي التي يكتب لها بالامرة مرسوم شريف لا تقليد — وانهم مرتبطان المرتبة الأولى من يكتب له في قطع النصف وهم ثلاثة (الأول) أمير آل علي (والثاني) المقدمة على عربي ال فضل وال علي (والثالث) أمير ال مراء. وذكر نموذجا مما يكتب لكل منهم،

وسننشر من ذلك ما فيه العبرة لمن يقابل أمثال هذا وذاك بما صارت اليه عرب الشام وغيرهم من بعد استيلاء الترك على مصر والشام، الى هذه الأيام، فقد كانت قبائل الاعراب قوة عظيمة للدول المصرية والشامية فاضعفتها الدولة التركية، وما كان سبب ذلك الا محافظة الترك على عجمتهم، وتعصبهم لتركيتهم، على ما كانت عليه من الفقر والبداوة فانها لم تدون لها المعاجم ويبدأ بجعلها لغة علم الا في النصف الثاني من القرن الماضي (الثالث عشر للهجرة) بعد ضعف الدولة وديب الاضمحلال فيها. ولو حافظت على العرب والعربية لما حل بها وبالاسلام، ما يكيان منه في هذه الايام، وسنبين ذلك بالجلاء التام.

معاهدة الصلح

وضع رؤساء وزراء الحلفاء مع الدكتور ولسن رئيس الولايات المتحدة شروط الصلح بينهم وبين الحكومة الالمانية في مجلد ضخم ونشرت خلاصتها شركة روتر في برقية وردت من لندن في ٧ مايو وهذه ترجمتها العربية :

هذه خلاصة رسمية لمعاهدة الصلح وهي تتألف من مقدمة وصفية وديباجة وخمسة عشر فصلا :

﴿ المقدمة الوصفية للخلاصة ﴾

ان نص معاهدة الصلح الذي سلم الى الالمان الآن يراد به أولا تبيان الشروط التي بها وحدها يقبل الحلفاء والدول المشتركة معهم ان يعقدوا الصلح مع ألمانيا وثانيا ايجاد التدابير الدولية التي ابتكرها الحلفاء لمنع وقوع الحروب في المستقبل وتسوية أمور البشر . ولهذا السبب الاخير أدمج في المعاهدة عهد جمعية الامم والاتفاق الدولي الخاص بالعمل والعمال .

على ان المعاهدة لا تبحث الا نادراً في المشاكل الناشئة عن تصفية الامبراطورية النمسوية ولا في أملاك الدولتين المعادية التركية والبلغارية الا في ما يقيد ألمانية قبول التسويات المقبلة التي يستقر عليها قرار الحلفاء في ما يتعلق بهاتين الدولتين .

وتقسم المعاهدة الى ١٥ فصلا فالفصل الاول يحتوي على عهد جمعية الامم التي عينت لها وظائف في مواضع شتى من المعاهدة . والفصل الثاني يصف حدود ألمانية الجغرافية ابتداء من النقطة الشمالية الشرقية من حدود البلجيك الحالية .

ويتألف الفصل الثالث من ٣ مادة يشترط فيها على الالمان قبول التغيير السياسي التي تقضي به المعاهدة في أوربا . وهذا الفصل يقضي بانشاء دولتين جديدتين دولة التشك والسلوفاك ودولة بولندة ، وينص على الاعتراف بهما ، وينقح قاعدة سيادة البلجيك ويغير حدودها ، وينص على انشاء أنظمة جديدة من الحكم في لكسمبرج ووادي السار ، ويرد الالزاس واللورين الى فرنسة ، ويقضي باحتمال اضافة أملاك

الى الدنمرك ، وتجبر ألمانية على الاعتراف باستقلال النمسة الجرمانية وقبول الشروط التي توضع للدول والحكومات التي نشأت منذ الثورة الروسية

ويبحث الفصل الرابع في التعديل السياسي للبلدان الواقعة في خارج أوربة والتي تأثر مركزها بالحرب وفيه تنازل عام في ألمانية عن أملاكها وحقوقها في الخارج، وان تسلم الى الحلفاء مستعمراتها والحقوق التي اكتسبتها في افريقية بالاتفاقات الدولية المختلفة ولا سيما عقد برلين سنة ١٨٨٥ وعقد بروكسل سنة ١٨٩٥ التي عينت نصيب كل من الدول الاوربية في قلب افريقية . ويتضمن هذا الفصل اعتراف الدول بالحماية البريطانية على القطر المصري وينقض عقد الجزيرة الذي كان خطوة من خطوات سياسة الإعتداء الالمانية التي أوصلت الى الحرب .

ويتضمن الفصل الخامس شروط الصلح العسكرية البرية والبحرية والجوية وتحديد جيش ألمانية وأسطولها ويقضي بالغاء التجنيد الاجباري في ألمانية توطئة لجعل هذا الالغاء عاما .

وينص الفصل السادس على انه يجب على جميع الدول الموقعة للمعاهدة ان تصون قبور قتلى الحرب ويتضمن بيان كيفية اعادة اسرى الحرب الى أوطانهم

والفصل السابع خاص بأمور التبعة والعقاب وهو ينص على محاكمة الامبراطور ولهلم.

وفي الفصل الثامن بيان كيفية التعويض المطلوب من ألمانية وفيه نصوص خصوصية عن الاوراق ومفاخر الحرب التي أخذها الالمان في الحروب السابقة

ويتضمن الفصل التاسع المواد المالية وهي تختص بتنفيذ ما اشترط في الفصل السابق

والفصل العاشر طويل جدا كثير الوجوه وهو يحتوي على النصوص الاقتصادية ويؤيد المعاهدات والاتفاقات الدولية المختلفة التي ليست بذات صبغة سياسية كالمعاهدات الخاصة بالبوستة والتلغراف والقوانين الصحية وبالاجمال جميع الاتفاقات التي تقيدت بها الدول المتمدنة قبل الحرب . وقد أضيف الى هذا الفصل نصوص خاصة للتحكم في تجارة الافيون والعقاقير التي تماثله .

وأما الفصل الحادي عشر فخاص بالملاحة الجوية

وفي الفصل الثاني عشر مواد تبحث في المراقبة الدولية على الموانئ والترع

والاتجار وسكك الحديد وفيه نصوص خاصة على قنال كيل

والفصل الثالث عشر يتضمن الاتفاق الدولي الخاص بالعمل والعمال

وأما الفصل الرابع عشر فيحتوي على الضمانات اللازمة لتنفيذ المعاهدة .

والفصل الخامس عشر عبارة عن مجموعات من المواد المختلفة منها الاعتراف بما يعقد بعد هذه المعاهدة من معاهدات الصلح وتأييد أحكام محاكم الغنائم

والمواد الاخيرة تبحث في ابرام المعاهدة وموعد الشروع في تنفيذها وقد جاء فيها ان النص الفرنسوي والنص الانكليزي للمعاهدة يعدان رسميين يعول عليهما

ديباجة المعاهدة

في الديباجة بيان وجيز لاصل الحرب وطلب ألمانية للهدنة ويلي ذلك أسماء الدول الموقعة للمعاهدة والتي تمثلها الدول الخمس العظمى أي ولايات أميركا المتحدة والامبراطورية البريطانية وفرنسة وايطالية واليابان ومعها البلجيك وبوليفية والبرازيل والصين وكوبا واكوادور واليونان وغواتيمالا وهايتي والحجاز وهندوراس وليبيريا ونكارغوى وبناما وبيرو وبولندا والبورتغال ورومانيـة وصربية وسيام والتشك سلوفاكيا وارغواي من احدى الجهتين والمانية من الجهة الاخرى

ويلي ذلك أسماء المندوبين عن هذه الدول وبعدها هذه العبارة : « وبعد ما تبادل هؤلاء المندوبون أوراق اعتمادهم المعلنة لسلطتهم ووجدت هذه الاوراق وافية اتفقوا على ما يأتي :—

تنتهي الحرب في الساعة التي يبدأ فيها بتنفيذ هذه المعاهدة وتستأنف العلاقات السياسية بحسب أحكام هذه المعاهدة مع المانيا ومع كل دولة من دولها من جانب الحلفاء والدول المشتركة معهم

الفصل الاول في جمعية الامم [1]

العضوية — يكون أعضاء الجمعية من الدول الموقعة لهذا العهـد وسائر الدول

---

(١) اختار بعض المترجمين كلمة « عصبية الامم » على جمعية الامم وهو أصح ولكننا اعتمدنا في ترجمة المعاهدة وخطب ولسن السابقة على من سموها جمعية

التي تدعى الى الانضمام اليه وعلى هذه الدول أن ترسل طلب انضمامها من غير قيد ولا شرط في خلال شهرين ويجوز قبول أي دولة أو مستعمرة مستقلة أو مستعمرة كانت اذا وافق على قبولها ثلثا أعضاء هيئة الجمعية ويجوز لاية دولة كانت أن تنسحب من الجمعية اذا أعلنت عزمها على ذلك قبل الانسحاب بسنتين وكانت قد قامت بجميع عهودها الدولية

كتابة السر — تنشأ هيئة دائمة لكتابة سر (سكرتارية) الجمعية في مركزها الذي سيكون مدينة جنيف

هيئة الجمعية — تتألف هيئة الجمعية من مندوبي أعضاء الجمعية وتجتمع هذه الهيئة في مواعيد معينة ويكون الاقتراع بالدول (أي لا بعدد المندوبين) ولكل دولة من أعضاء الجمعية صوت واحد ولا يجوز أن يتجاوز عدد مندوبيها ثلاثة

مجلس الجمعية — يتألف المجلس من مندوبي الدول الخمس العظمى (انكلترة وفرنسة وايطالية والولايات المتحدة الامريكية واليابان) مع مندوبي أربع دول أخرى من الدول الداخلة في الجمعية وتختارهم هيئة الجمعية من وقت الى وقت . ويجوز للمجلس أن يشرك دولا أخرى معه بالانتخاب ويجتمع مرة واحدة في السنة على الاقل . وأما الدول الداخلة في الجمعية والتي ليس لها مندوبون في المجلس فتدعى الى ارسال مندوب عنها متى بحث المجلس في أمور تهم مصالحها، ويكون الاقتراع في هذا المجلس بالدول ولكل دولة صوت واحد ومندوب واحد، ويجب أن تكون قرارات الهيئة والمجلس بالاجماع الا فيما يختص بطرق العمل والتنفيذ وبعض أمور أخرى نص عليها في عهد الجمعية وفي معاهدة الصلح ففي هذه تكون القرارات بالاكثرية

التسليح — يصوغ المجلس الخطط الخاصة بانقاص السلاح لتوضع موضع البحث والنظر والقبول وتنقح هذه الخطط مرة كل عشر سنوات ومتى تم الاتفاق عليها لا يجوز لدولة تكون عضوا في الجمعية أن تتجاوز قدر السلاح المعين لها من غير موافقة المجلس . ويتبادل الاعضاء المعلومات الوافية عن السلاح والتسلح والبيانات العسكرية وتكون للمجلس لجنة دائمة تعده بالمشورة في الامور العسكرية البرية والبحرية

منع وقوع الحرب — اذا وقعت حرب أو بدا خطر من وقوع حرب فالمجلس

يجتمع للبحث في ما يجب اتخاذه من العمل المشترك ويتعهد أعضاء جمعية الامم بأن يعرضوا مسائل النزاع بينهم للتحكيم أو التحقيق وأن لا يلجؤا الى الحرب الا بعد صدور الحكم بثلاثة أشهر . ثم ان الاعضاء متفقون على تنفيذ حكم التحكيم وعلى عدم محاربة الخصم الذي يذعن له من الفريقين المتنازعين فاذا أبى أحد الاعضاء (الدول) تنفيذ الحكم فالمجلس يعرض التدابير التي يلزم اتخاذها

ويضم المجلس الخطط لانشاء محكمة دولية والمحكمة تحكم في المنازعات بين الدول وتقدم المشورة للاعضاء (الدول) الذين لا يريدون عرض قضاياهم على التحكيم يجب أن يقبلوا حكم المجلس أو الهيئة فاذا اتفق أعضاء المجلس - ما عدا مندوبي الفريقين المتنازعين - اتفاقا اجماعيا على حقوق أحد الفريقين فالاعضاء (الدول) يسلمون بأنهم لا يحاربون الفريق المنازع الذي يذعن لما يشير المجلس به . وفي هذه الحالة يكون لمشورة الهيئة باتفاق جميع أعضائها (الدول) الممثلين في المجلس وبأكثرية بسيطة من الباقين (أي من الدول الصغرى التي لها مندوبون في المجلس) - ما عدا الفريقين المتنازعين - قوة القرار الاجماعي من المجلس وفي كلتا الحالين اذا لم يتيسر الوصول الى الاتفاق المطلوب فالاعضاء يحفظون لانفسهم الحق في فعل ما يرونه لازما لصون الحق والعدل

والاعضاء (الدول) الذين يلجأون الى الحرب غير مكترثين للعهد يحرمون كل اتصال وعلاقة بسائر الاعضاء (الدول) . وفي هذه الاحوال يبحث المجلس في الاعمال العسكرية البرية والبحرية التي يمكن للجمعية ان تعملها لحماية العهد ويقدم التسهيلات للاعضاء (الدول) التي تعاون في هذه المهمة

صحة المعاهدات - جميع المعاهدات أو العهود الدولية التي تبرم بعد انشاء جمعية الامم يجب أن تسجل في كتابة السر (السكرتارية) وتنشر ويجوز لهيئة الجمعية أن تشير على أعضائها (دولها) من حين الى حين باعادة النظر في المعاهدات التي لم تعد صالحة للعمل أو التي يكون في تطبيقها خطر على السلام. والعهد يقضي بنقض جميع المعاهدات التي تعقد بين الدول الموقعة له والتي تناقض نصوصه ولكن ليس في العهد ما يمس صحة المعاهدات الدولية كمعاهدات التحكيم أو الاتفاقات المحلية

كمذهب منرو لاجل صون السلام وتوطيد أركانه

نظام التوكيل — ان الوصاية على الشعوب التي لا تستطيع حتى الآن الوقوف وحدها يعهد فيها الى الامم الراقية التي هي أصلح من سواها للقيام بشؤون هذه الوصاية . والعهد يعترف بثلاث درجات من الارتقاء تقتضي أنواعا مختلفة من التوكيل وهي

(ا) الشعوب التي من قبيل شعوب السلطنة التركية وهي التي يمكن ان يعترف باستقلالها موقتا بشرط ان تستمد المشورة والمساعدة من دولة وكالة يسمح لتلك الشعوب بأن يكون لها صوت في اختيارها [1]

(ب) الشعوب هي من قبيل أمل أو بقية الوسطى وهذه تدار أمورها بواسطة دول موكله بشروط يوافق عليها أعضاء جمعية الامم بالاجمال . وفي بلاد هذه الشعوب يتساوى جميع أعضاء الجمعية في التجارة ويحظر فيها بعض المساوىء كالنخاسة وبيع السلاح والمسكرات ويمنع انشاء القواعد العسكرية البرية والبحرية والخدمة العسكرية الاجبارية

(ج) الشعوب الاخرى التي من قبيل سكان القسم الجنوبي الغربي من أفريقية وجزائر الباسفيك الجنوبي فهذه تدار أمورها حسن ادارة بقوانين الدول التي توكل بها كما لو كانت أجزاء من أملاك تلك الدول غير قابلة للانفصال عنها . وفي جميع الاحوال المتقدمة يتعين على الدولة الموكلة أن تقدم تقريرا سنويا والجمعية تعين لها درجة سلطتها

نصوص دولية عامة — تهتم الدول أعضاء الجمعية بالاجمال وتسعى بواسطة جمعية دولية يؤلفها مؤتمر العمال للمحافظة على شروط الانصاف مع العمال من الرجال والنساء والاولاد في بلدانهم وسائر البلدان وتتعهد أيضا بأن تعدل في معاملة الاهالي الوطنيين في البلاد التي تحت سيادتها وكل ذلك طبقا لنصوص الاتفاقات الدولية الموجودة أو التي يتفق عليها فيما بعد . وهذه الدول تعطي الجمعية حق المراقبة العامة

« ١ » عبارة العهد : الشعوب كالتي هي تحت السلطنة التركية والتي يعترف باستقلالها الخ وعبارة الاهرام : الشعوب التي تماثل شعوب السلطنة العثمانية التي يمكن الاعتراف موقتاً باستقلالها تكون تحت ارشاد ومساعدة احدى الدول المنتدبة التي يجب أن يكون لهذه الشعوب صوت في انتخابها

على تنفيذ الاتفاقات الخاصة بمنع الاتجار بالنساء والاولاد أو تشغيلهم الخ ومراقبة تجارة السلاح والذخيرة في البلاد التي تجب فيها هذه المراقبة. ثم ان هذه الدول تتخذ ما يلزم من التدابير لحرية المواصلات والنقل والمساواة في معاملة متاجر جميع أعضاء الجمعية مع المراعاة الخاصة لحاجات البلاد التي خربت في أثناء الحرب، وتسعى لاتخاذ التدابير والاحتياطات اللازمة لمنع انتشار الامراض ومراقبتها بالاتحاد الدولي. وجميع المكاتب واللجان الدولية الموجودة الآن توضع تحت تصرف جمعية الامم وكذلك اللجان والمكاتب التي تنشأ في المستقبل

تعديل العهد وتنقيحه — ينفذ كل تعديل يعدل به العهد متى وافق عليه المجلس وأكثر المندوبين في هيئة الجمعية

الفصل الثاني

في حدود المانية

وصفت حدود المانيا في مادتين احداهما خاصة بالمانية نفسها والاخرى ببروسية الشرقية وقد وصفت الحدود بين دولة ولندة الجديدة والمانية وبين بولندة وبروسية الشرقية والحد الجديد بين بروسية الشرقية والنمسة وصفاً مفصلا في كل ما لم يترك الحكم النهائي فيه للجان التحديد التي أرسلت الى هناك. أما الحد الفاصل بين المانية والبلجيك فيقع خطأ وصف في فصل آخر عن البلجيك. وأما الحد الفاصل بين المانية ولكسمبرج وبين المانية وسويسرة فهو عين الحد الذي كان في أغسطس سنة ١٩١٤ وأما الحد الفاصل بين المانية وفرنسة فهو الحد الذي كان بينهما في ١٨ يوليو ١٨٧٠ مع قيد خاص بوادي السار. والحد الذي يفصل بين المانية والنمسة هو الحد الذي كان بينهما في ٣ أغسطس ١٩١٤ الى الموضع الذي تبدأ منه دولة التشك والسلوفاك الجديدة. ويسير حد هذه الدولة الجديدة على الحد القديم بين المانية والنمسة الى حيث تبدأ بلاد دولة بولندة الجديدة. وأما التخوم بين المانية والدولة وجزء من التخوم بين بروسية الشرقية وبولندة فهذه يحكم فيها في ما بعد بحسب نتيجة الاستفتاء في الحالين

الفصل الثالث

فى المواد السياسية في أوربة

البلجيك — تقبل المانية نقض معاهدة سنة ١٨٣٩ التي قضت بأن تكون البلجيك محايدة وعينت حدودها الخ وتوافق سلفاً على أي عهد يتفق الحلفاء على استبداله بها ، وعلى المانية أن تعترف بسيادة (الملكية) البلجيك التامة على بلاد (مورسناه) المختلف عليها وجزء من بلاد مورسناه البروسية وأن تتنازل للبلجيك عن جميع حقوقها على (اوبن ومالميدي) وانما يحق لسكانهما أن يحتجوا بعد ستة أشهر[1] على هذا التغيير كله أو بعضه ويكون الحكم النهائي في المسألة لجمعية الامم . ويعهد في تسوية تفاصيل الحدود الى لجنة . ويتضمن هذا الفصل قوانين شتى عن تغيير الافراد ارعويتهم وتكون البلاد التي تأخذها البلجيك خالصة من جميع الديون والاعباء

لكسمبرج — تتنازل ألمانية عن معاهداتها واتفاقاتها المختلفة مع (غرندوقية لكسمبرج) وتعترف بأنها لم تعد داخلة في النظام الجمركي الالماني ابتداء من أول يناير الماضي، وتتنازل عن كل حقوقها في استغلال سكك الحديد فيها وتسلم بالغاء حيادها وتقبل سلفا لاتفاقات الدولية التي يبرمها بشأنها الحلفاء والدول المشتركة معهم

ضفة الرين اليسرى — يجب على ألمانيا — طبقا لما نص عليه في الفصل العسكري التالي — ان لاتبقى حصونا ولا معاقل (استحكامات) في مواضع تبعد عن ضفة نهر الرين الشرقية أقل من خمسين كيلو متراً ولا تنشئ في تلك المواضع معاقل جديدة ولا يجوز لها ان تبقي في الشقة المذكورة قوات مسلحة دائمة ووقتية ولا تجري مناورات عسكرية ولا تكون لها مبان أو معامل تسهل تعبئة الجيش فاذا خرقت نصوص هذه المادة عدت مرتكبة عملا عدائيا ضد الدول الموقعة لهذه المعاهدة واعتبر ذلك منها سعيا على تكدير صفاء السلم في العالم، وعليها بحكم هذه المعاهدة ان تابي كل استيضاح يرسله اليها مجلس جمعية الامم .

السار — تتنازل ألمانية لفرنسة عن الملكية التامة لمناجم الفحم في حوض السار

«١» ترجمها بعضهم قبل مضي ستة أشهر

مع كل ما يتبع هذه المناجم من الادوات والمهمات والوسائل ويعد هذا تعويضا لفرنسة من مناجم الفحم التي خربها الالمان في شمال بلادها وجزءا من الاموال التي يتعين على ألمانية دفعها على حساب التعويض . وتقدر قيمة هذه المناجم لجنة التعويض وتقيد لالمانية في الحساب، وتكون الحقوق الفرنسوية في هذا الحوض خاضعة للقوانين الالمانية التي كانت نافذة عند عقد الهدنة الا فيما يختص بالتشريع الحربي، وتحل فرنسة محل أصحاب المناجم الحاليين وهؤلاء يأخذون العوض من ألمانية . وتقدم فرنسة المقادير اللازمة من الفحم لسد الحاجات المحلية وتدفع نصيبها الحق من الرسوم والضرائب المحلية . ويمتد هذا الحوض من حدود اللورين كما أعيدت الى فرنسة ويسير شمالا الى (سان فندل) فيشمل من الغرب وادي السار الى (سارهوازباخ) ومن الشرق مدينة (هومبرغ) . ولكي تضمن للاهالي حقوقهم ورفاهيتهم ولفرنسة الحرية التامة في استغلال المناجم تتولى حكم الحوض المذكور لجنة تعينها جمعية الامم وتتألف من خمسة أعضاء أحدهم فرنسوي والآخر من أهل السار وثلاثة اليقون ينوبون عن ثلاث بلدان مختلفة غير فرنسة وألمانية . وتعين جمعية الامم أحد أعضاء اللجنة رئيسا لها ويكون صاحب السلطة التنفيذية فيها وتكون لهذه اللجنة جميع سلطات الحكم الذاتي التي كانت قبلا للامبراطورية الالمانية وبروسية وبافارية وتدير سكك الحديد وسواها من المصالح العمومية ويكون لها السلطة التامة في تفسير مواد المعاهدة . وتستمر المحاكم المحلية ولكنها تكون خاضعة للجنة وتظل الشرائع لالمانية الحالية قاعدة للقانون ولكن يجوز للجنة ان تعدلها بعد استشارة مجالس نيابي محلي تؤلفه وتكون للجنة سلطة فرض الرسوم للاغراض المحلية فقط ويجب الحصول على موافقة هذا المجلس المحلي على فرض رسوم جديدة

وفي كل قانون يسن للعمل والعمال تراعي مشيئة جمعية العمال المحلية وبيان جمعية الامم الخاص بالعمال ويجوز استخدام العمال الفرنسويين وسواهم بلا قيد ما ويجوز أن يكون العمال الفرنسيون الذين يستخدمون في العمل تابعين لنقابات العمال الفرنسية . ولا يكون في بلاد السار خدمة عسكرية وانما تؤلف فيها شرطة محلية لحفظ النظام ويحفظ الاهالي مالهم من المجالس المحلية وحرية الاديان والمدارس

واللغة ولكن لا يقترعون الا للمجالس المحلية وتبقى لهم جنسيتهم الحالية الا حيث يريد الافراد منهم تغييرها

والاهالي الذين يرغبون في مغادرة بلاد السار يمنحون كل تسهيل في ما يختص بأملاكهم وتكون البلاد داخلة في النظام الجمركي الفرنسي ولا تجبى ضريبة على ما يصدر من فحمها ومعادنها الى ألمانية ولا على المحاصيل والمواد الالمانية التي يؤتى بها الى الوادي، ولا تجبى رسوم الواردات على ما يرسل من السار الى ألمانية ولا على ما يأتي من ألمانية الى السار للمقطوعية المحلية وذلك لمدة خمس سنوات . ويجوز تداول النقود الفرنسية بلا قيد ولا تحديد

وبعد انقضاء خمس عشرة سنة تستفتى قرى البلاد للوقوف على رغبة أهلها وهل يفضلون استمرار النظام المنصوص عليه هنا تحت حماية جمعية الامم أو يريدون الانضمام الى فرنسة أو لانضمام الى ألمانية . ويكون الاقتراع حقا لجميع من كان من السكان فوق العشرين من العمر اذا كانوا مقيمين في البلاد عند امضاء هذه المعاهدة ومتى أفتى أهل البلاد وظهر رأيهم فجمعية الامم تحكم في تابعيتها. فاذا أعيد قسم منها الى ألمانية وجب على الحكومة الالمانية ان تشتري المناجم الفرنسوية فيه بثمن يقدره الخبيرون فاذا لم يدفع الثمن بعد ذلك بستة أشهر فان هذا القسم يصير ملكا لفرنسة واذا ابتاعت ألمانية المناجم فجمعية الامم تعين مقدار الفحم الذي يرسل منها الى فرنسة

الالزاس واللورين — بعد ما تعترف ألمانية بالواجب الادبي المفروض عليها وهو تلافي الضرر الذي ألحقته سنة ١٨٧١ بفرنسة وشعب الالزاس واللورين فان الاملاك التي أعطيت لالمانية بموجب معاهدة فرنكفورت ترد الى فرنسة الآن وتكون حدودها كما كانت قبل سنة ١٨٧١ ويعتبر تاريخ ذلك من يوم توقيع الهدنة، وتكون هذه البلاد المردودة خالصة من الديون العمومية . أما الرعوية فيها فتنظم بنصوص مفصلة يميز فيها بين الذين يعادون حالا الى الرعوية الفرنسية الكاملة والذين يجب عليهم ان يطلبوا هذه الرعوية رسميا والذين يفتح لهم باب التجنس بالجنسية الفرنسية بعد ثلاث سنوات والفريق الاخير يشمل السكان الالمان في الالزاس واللورين تمييزا لهم عن الذين ينالون حقوق أهل البلاد كما هيئت في المعاهدة

وتنتقل ملكية جميع أملاك الحكومة وأملاك عواهل (أمبراطرة) المانية السابقين في الالزاس واللورين الى فرنسة من غير أن تدفع ثمنها وتحل فرنسة محل المانية في ملكية سكك الحديد والحقوق التي لها على امتيازات الترمواي وتنتقل ملكية كباري الرين الى فرنسة وعليها أن تعنى بصونها وتظل مصنوعات الالزاس واللورين تدخل ألمانية من غير أن تدفع رسوما لمدة خمس سنوات بحيث لا يتجاوز المجموع السنوي مما يدخل منها كذلك المتوسط السنوي في السنوات الثلاث السابقة للحرب ويجوز استيراد مواد النسج من المانية الى الالزاس واللورين واعادة اصدارها معفاة من الرسوم . وتجب المحافظة على العقود الخاصة بالتيار الكهربائي من الضفة اليمنى للرين لمدة عشر سنوات وتكون ادارة ميناءي (كال وستراسبورج) لمدة سبع سنوات ويجوز مدها الى عشر سنوات في يد مدير فرنسي تعينه لجنة الرين المركزية وتراقب أعماله

وتضمن حقوق الملكية في الميناءين والمساواة في المعاملة في كل ما يتعلق بالنقل لسفن الامم وبضائعها . وتبقى العقود المبرمة بين أهل الالزاس واللورين والالمان مرعية الا أن لفرنسة حقا في نقضها بحجة المصلحة العامة . وتبقى أحكام المحاكم نافذة في بعض القضايا أما في غيرها فلا بد من مرجع قضائي يعيد النظر فيها . وأحكام العقوبات السياسية التي صدرت في أثناء الحرب تعد ملغاة ويفرض حق تسديد غرامات الحرب كما هي الحالة في سائر بلدان الحلفاء .

وفي هذا الباب نصوص عامة في المعاهدة تتعلق بأحوال الالزاس واللورين الخصوصية وقد تركت بعض أمور التنفيذ الى اتفاقات تعقد بين فرنسة والمانية

النمسة الجرمانية — تعترف المانية بالاستقلال التام للنمسة الجرمانية

بلاد التشك والسلوفاك — تعترف المانيا بالاستقلال التام لدولة التشك والسلوفاك وهذا يشمل بلاد (الروذينيين) المستقلين جنوبي جبال كرباتية وتقبل أن تكون حدود هذه الدولة كما ستعين أما الحدود التي تفصلها عن المانية فتتبع حد بوهيميا القديم كما كان سنة ١٩١٤ ويلي ذلك الشروط المعتادة الخاصة بذيل الرعوية وتغييرها

بولندة — تتنازل المانية لبولندة عن الجانب الاكبر من (سيليزيا) العليا و(بوزن)

وولاية (بروسية) الغربية على الضفة اليسرى من نهر الفستولا و بعد عقد الصلح بخمسة عشر يوما ؤلف لجنة تحديد من سبعة أعضاء خمسة منهم ينوبون عن دول الحلفاء والدول المشتركة معهم وواحد لبولندة وواحد عن المانية لتعيين الحدود . والنصوص الخصوصية اللازمة لحماية الاقليات القومية أو الدينية توضع في معاهدة ثالثة تبرم بين الحلفاء و بولندة

[المنار : حذفنا من هنا حدود بروسية الشرقية ودنتزج والدنمرك]

هايجولند — تدمر الاستحكامات والمباني العسكرية والموانئ في جزيرتي (هايجولند) في الحال و يكون هدمها تحت مراقبة الحلفاء بواسطة عمال المان وعلى نفقة ألمانية ولا يجوز أن يعاد بناؤها ولا يسمح بانشاء استحكامات أو مبان أخرى مماثلة لها في المستقبل

روسية — تعترف المانيا بالاستقلال التام لجميع البلدان التي كانت جزءاً من أمبراطورية روسية السابقة وتحترم هذا الاستقلال و تقبل المانية نهائيا الغاء معاهدة برست لتوفسك وجميع المعاهدات والاتفاقات المختلفة التي أبرمتها ألمانية منذ الثورة في نوفمبر ١٩١٧ مع جميع الحكومات أو الجماعات السياسية في بلاد أمبراطورية روسية السابقة و يحفظ الحلفاء لانفسهم بالنيابة عن روسية حق التعويض والترضي الذين يطلبان من ألمانية عملا بمبادئ المعاهدة الحالية (لها بقية)

المانيا

في أوائل هذا الشهر وصل مندوبو الالمان للنظر في شروط الصلح الى باريس وعددهم مع المساعدين والمترجمين مئة وخمسون نسمة واجتمعوا بمندوبي الحلفاء بقصر (فرسايل) في من الشهر وفي ٧ منه عقد الاجتماع الرسمي الاول لمؤتمر الصلح فافتتحه الرئيس (كلمنصو) بخطبة وجيزة ذكر فيها أن دول الحلفاء أكرهت على الحرب وان ساعة الحساب الرهيبة دنت قال : وهذه شروط الصلح أقدمها لمندوبي الالمان فاذا كان لهم اعتراض عليها فليقدموه مكتوبا في مدة خمسة عشر يوما فقط . وناول كاتب سر المؤتمر كتاب معاهدة الصلح — وهو مجلد ضخم فيه أكثر من الف مادة — للكونت (بروخدورف هنتز) رئيس مندوبي الالمان فتناوله وخطب خطبة معتدلة وهو قاعد ثم ترجمت خطبته بالفرنسية والانكليزية وأهم ماذكره فيها الاعتراف بفشلهم في الحرب أو خسارتهم لها وبان

تبعة الحرب ليست عليهم وحدهم وانه مستعد للاعتراف بما ارتكبته دولته في الحرب ويعيد ماقاله في مجلس النواب سنة ١٩١٤ في شان الاعتداء على البلجيك وان الالمان مستعدون للتعويض ونوه برضاء الجميع ببناء شروط الصلح على قواعد الرئيس (ولسون) وبوجوب انضمام ألمانية وجميع الدول الى جمعية الامم وبانهم سيفحصون شروط الصلح بحسن النية .

ترجمة

(١)

السيد عبد الحميد ابن السيد محمد شاكر ابن السيد ابراهيم الزهراوي

وُلد هذا الفقيد رحمه الله تعالى سنة الف ومائتين وثمان وثمانين للهجرة الشريفة بمدينة حمص من أسرة كريمة ينتهي نسبها الى الامام الحسين ابن السيدة الطاهرة البتول فاطمة الزهراء رضي الله عنها . ولما أتم السادسة من عمره وضعه والده في المكتب فتعلم القراءة والكتابة والحساب واللغة التركية على يد شيخه الشيخ مصطفى الترك . ثم نقله والده الى المكتب الرشدي بحمص فأتقن وبرع في دروسه حتى أتمها ففاق أقرانه ، وتقدم رفاقه وأترابه . وكان في خلال تحصيله موضع الاعجاب بتؤدته وتروّيه وحسن خلقه وتحصيله . وبعد اكمال دروسه خرج من المكتب المومى اليه حاملا شهادة التحصيل وعكف دائبا على تحصيل العلوم بأنواعها فقرأ فنون العربية بأقسامها على بعض شيوخ بلده والفقه الحنفي على أستاذه الشيخ حسن الخوجه والحديث والتفسير والعقائد على محدث زمانه الشيخ عبد الستار افندي الاتاسي ومنه أخذ الاجازة بقراءة الحديث وروايته . وقرأ الاصول والكلام والمعقول على الشيخ عبد الباقي الافغاني نزيل حمص المتوفى فيها . وكان رحمه الله تعالى يجهد نفسه على التحصيل ومطالعة الكتب المطولة في كل فن حتى بلغ شأوا قصر عنه أقرانه بعد ان أتم دروسه على أساتذته كما تقدم سافر الى الاستانة سنة ١٣٠٨ بقصد

(١) جاءتنا هذه الترجمة لفقيدنا العزيز من أخلص خلانه وخلانا الاستاذ الشيخ أحمد نبهان الحمصي وهي ترجمة تاريخية وجيزة ليس فيها شرح لعمل لا مبالغة في وصف فنشرناها لتضم الى ما كتبناه في رثائه وترجمته من قبل وان كان بعضها تكرارا لما تقدم

السياحة فأقام فيها برهة وجيزة ثم سافر منها الى مصر محط رحال العلماء فحل نزيلا في دار نقيب الاشراف وقتئذ السيد توفيق البكري . وهناك اجتمع بكثير من الفضلاء والادباء وجرت بينه و بينهم مطارحات شعرية على البداهة فكان محل اعجاب الجميع . ثم رجع الى وطنه حمص عن طريق بيروت فالشام

بعد مكثه في بلده بضعة شهور أصدر جريدة سماها (المنير) كان ينشر في كل عدد منها مقالات في الامامة وشروطها وينتقد أعمال الحكومة الجائرة منبها لها على سوء العاقبة أن دام هذا الجور والعسف [1] وكان يطبعها على مادة غروية على حسابه و يرسلها مجانا الى البلدان بواسطة البريد لذلك اتصلت أبحاثها بمسامع الحكومة فكانت تصدر التلغرافات الرمزية الى المراكز بمنع هذه الجريدة كغيرها مما ينبه الاذهان و ينشط الكسلان حسب العادة المألوفة في ذلك الزمان

وفي سنة ١٣١٣ سافر ثانية الى الاستانة بقصد التجارة فاتخذ مخزنا هناك في محل يسمى (سلطان أوطه سى) ولما كان مخلوقا للعلم والحكمة والاصلاح لا للتجارة ثقلت عليه أعمال التجارة فتركها وعكف على مطالعة الفنون والعلوم في دور الكتب العمومية وقلما خلت منها واحدة من مراجعته لاكثر كتبها

في غضون تلك الايام طلبه صاحب جريدة المعلومات طاهر بك ليكون محررا لجريدته (المعلومات) العربية فباشر العمل بكل جد ونشاط فكان يكتب فيها المقالات الادبية والاصلاحية التي لم يكن يتجرأ أحد في البلاد العثمانية على نشر مثلها مع شدة المراقبة على الجرائد في ذلك الحين [2] ثم أخذ تحت المراقبة من قبل السلطان عبد الحميد لانه زار سفارة انكلترة هو واسماعيل كمال بك الالباني الشهير مع آخرين مظهرين ارتياحهم لانتصارها على البويرء فساء السلطان أن الف وفد سياسي في الاستانة لعمل نفذه ولم يعلم هو به الا بعد وقوعه، ثم عين اسماعيل كمال

«١» كانت تلك الجريدة السرية مؤيدة لدعوة جمعية الاتحاد والترقي الاولى التي كان أحد أعضائها

(٢) في أثناء تلك المدة أنشأنا المنار بمصر ونشرنا في آخر عدد من سنته الاولى أصولا الاصلاح كانت نشرت في جريدة المعلومات وناقشناها فيها فكان ذلك أول تلاق بين أفكارنا وأفكار ذلك الصديق من حيث لا ندري ولا يدري، لان ما نشر في المعلومات بقلمه لم يكن معزوا اليه ولان المنار كان ممنوعا من البلاد العثمانية

والياً لطرابلس الغرب بقصد ابعاده عن الآستانة لى حيث لا يستطيع عملا سياسيا بل حيث يسهل الانتقام منه فلم يقبل فاسترضته الحكومة حينئذ فلم ينخدع فلما أعيتهم الحيل فيه صرفوا النظر عنه — وعين المترجم في ذلك الوقت قاضيا لاحد الالوية فلم يقبل أيضاً وكان القصد من هذا التعيين كالاول خشية أن تسري كهربائية أفكاره المتنورة الى الغير

وبعد ان أوقف تحت المراقبة أربعة أشهر أرسل الى دمشق الشام «مأمور اقامة» تحت المراقبة براتب خمسمائة غرش كل شهر

وفي خلال اقامته بدمشق كتب رسالة في الامامة بين شروطها التي ذكرها الفقهاء والمتكلمون ورسالة في الفقه والتصوف نقد فيها بعض المسائل فيهما وبحث في الاجتهاد شأن من سبقه في مثل هذا النقد والبحث . فما اطلع على هذه الرسالة بعض المعاصرين الجامدين أغروا العامة به زعمين انه مخالف للدين ، فضجّ الناس وقتئذ عن غير روية لانهم أتباع كل ناعق وكان لوقت عصر جمعة من أيام رمضان (١) وحشدت العامة من كل نهج فكادوا أن يوقعوا بالمترجم شراً ولا أن تداركته العناية الالهية وذلك مما يدل على شجاعته واخلاص يقينه بربه حيث كان غريبا وحيدا عن عشيرته في بلد غير بلده وقد أثر بعض المصنفين بصفة العلم هذه الفتنة باسم الانتصار للدين والله يعلم المفسد من المصلح

شاع الخبر فبلغ الوالي يومئذ وهو مظلم باشا فخشي أن ينالوا منه نيلا فحسما للفتنة وتخليصا لصاحب الترجمة من شرهم وتسكينا لحميتهم استجلبه محافظة على حياته وأوقفه (أي حبسه حبسا سياسيا لا يخل بكرامته) ليقف على حقيقة الامر ثم انه أحضر أولئك المحرضين وجمعه بهم في مجلس خاص للمباحثه في موضوع الرسالة وطلب منهم اثبات ما زعموه من أنها مخالفة للدين ، فما قامت لهم حجة مقنعة على دعواهم بل كانت حجته هي الدامغة

(١) كان تأليب بعض الجامدين المفسدين العوام في دمشق على العقد في مثل ذلك الوقت من ذلك الشهر مثل تأليبهم اياهم علينا فيهما بعد ذلك ببضع سنين فكان ذلك مما يذكر العقيد من التناسب والموافقات بيننا . وهذه الرسالة هي التي أشار اليها الاستاذ الامام في مقالات الاسلام والنصرانية (راجع ص١٦٩ و١٧٠ من مجلد المنار التاسع عشر)

عند ما يئسوا من الوصول اليه بالأذى من هذا الطريق أوحوا الى الوالي ما لفقوه من الاباحآت السياسية بحقه حتى ألجأوا الوالي لمراجعة الآستانة في أمره فجاء الامر بطلبه اليها فأرسل محفوظا عن طريق بيروت (وكانت مدة اقامته بدمشق سنة وستة أشهر) فبقي في الآستانة تحت الحفظ ستة أشهر ثم أرسل محفوظا الى وطنه حمص « مأمور اقامة » بالراتب المذكور ، وكانت اعادته عن طريق ميناء الاسكندرونة فحلب فحماه فحمص

قضى مدة عند أهله فضاق صدره ففرّ هاربا الى مصر معهد الحرية عن طريق طرابلس الشام سنة ١٣٢٠ وبعد وصوله ببرهة وجيزة رغب اليه صاحب جريدة المؤيد ان يكون محرراً فيها ، فاستلم الوظيفة ، وكتب ما كتب فيها من المقالات المفيدة . ثم ألف بعض كبراء القطر المصري حزبا سموه حزب الامة وأنشأوا جريدة له سموها (الجريدة) فدعوه الى التحرير والتنقيح فيها فابى طلبهم وداوم على عمله حتى حصل الانقلاب العثماني وأعلن الدستور فطلبه اخوانه بحمص ليكون نائبا عنهم في مجلس النواب (المبعوثين) فأجابهم حباً بخدمة الامة والوطن فانتخب هو وخالد أفندي البرازي مبعوثين من لواء حماه فذهب الى الآستانة فكان صوته في المجلس من أعلى الاصوات وأقواها في اقامة الحجة وايضاح المحجة

(لها بقية)

الشيخ محمد كامل الرافعي

في أواخر العام الماضي فجعت طرابلس الشام وهي غارقة مع سائر البلاد السورية في طوفان مصائبها بوفاة أفضل علمائها ، وأعلم فضلائها ، مثال الفضيلة والاخلاص الاعلى في هذا العصر ، وذكرى السلف الصالح في ذلك المصر ، أصدق أصدقائنا ، وأخلص أوليائنا ، الشيخ محمد كامل ابن الشيخ عبد الغني الرافعي الطرابلسي الشهير

ولد الفقيد في طرابلس الشام سنة ١٢٧٢ أو ١٢٧٠ ولما بلغ سن التمييز أقرئ

القرآن الكريم وتعلم مبادي الخط والحساب فى أحد مكاتب الصبيان ثم دخل المكتب الرشدي العثماني أي المدرسة الابتدائية الرسمية للحكومة فتعلم فيها مبادئ اللغة التركية ومايدرس بها من مبادي الفنون الرياضية وغيرها ومنه النحو والصرف للغتين العربية والتركية وعلم الحال وهو عبارة عن العقائد والعبادات الدينية والآداب. ثم تلقى العلوم العربية والدينية على أعلم علماء العصر ، الذين بذت طرابلس بهم كل مصر ، والده والشيخ محمود نشابه والشيخ حسين الجسر ، فقد كان وجود هؤلاء في طرابلس مصدقا لقول المتنبي

أكارم حسد الارض السماء بهم وقصرت كل مصر عن طرابلس

ولما كانت الرحلة في طلب العلم مزيد كمال في التعليم كما قال الحكيم ابن خلدون لما فيها من حفز الهمة ، والانقطاع اليه بمفارقة الاهل والاحبة ، وكان حب عشيرة الرافعية للازهر وتعلقهم به يفوق ما يعرف من ذلك عند غيرهم من أهل طرابلس وغيرها من البلاد الاسلامية ، لان الرافعي الذي يرحل من طرابلس الى مصر لا يشعر كغيره بمفارقة وطن ، ولا بغربة عن الاهل والسكن ، لان اكثر عشيرته يقيمون في مصر ، فهو في الهجرة الموقتة اليها يجمع بين فوائد الغربة ، وأنس القرابة والقربة ، — رحل الفقيد الى مصر في سنة ١٢٩٧ وجاور في الازهر سنين لم أقف على عددها ، وكان أشهر شيوخه فيه كبير الرافعية ، وأفقه فقهاء الحنفية ، الشيخ عبد القادر الرافعي ، والشيخ محمد الشربيني الشافعي الشهير الذي أدركنا الناس أخيرا يضعونه في الذروة من علماء الازهر في كل علم وفن يدرس فيه ، وفي المحافظة على أخلاق علماء الدين ، والشيخ عبد الهادي الابياري الشافعي الشهير بالجمع بين العلوم الدينية ، والتفنن في أدبيات اللغة العربية ، والشيخ أحمد الرفاعي المالكي الشهير الذي كان خير مزية له انه كان آخر من قرأ جميع كتب السنة الستة في الازهر

وهؤلاء الشيوخ الكبار لم يكونوا يفوقون شيوخه الثلاثة في طرابلس في علم من العلوم ولا فن من الفنون ولا في أخلاق الدين وفضائله الا أن يكون ما اشتهر عن الشيخ عبد القادر الرافعي من سعة الاطلاع والتحقيق في فقه الحنفية

واننا نقدم على ترجمة الفقيد تعريفا وجيزا بشيوخه الثلاثة في طرابلس لاننا رأينا لكل منهم أثرا واضحا في سيرته العلمية والعملية والادبية

الشيخ محمود نشابه

أما الشيخ محمود نشابه فقد أقام في الازهر زهاء ثلاثين سنة طالبا ومدرسا وأتقن جميع ما يدرس فيه حتى علم الجبر والمقابلة الذي هجر بعد عهده ، ثم قضى بقية عمره المبارك في طرابلس في تدريس تلك العلوم فتخرج به كثيرون وكان شيخ الشافعية والحنفية جميعا وقلما أتقن أحد فقه المذهبين مثله ، وقد أدركته في أوائل الطلب وقرأت عليه الاربعين النووية وأجازني بها قبل الشروع في طلب العلوم ثم كنت أحضر درسه لشرح البخاري في الجامع الكبير واقرأ عليه صحيح مسلم وشرح المنهج بداره ، وحضرت عليه طائفة من شرح التحرير وهو في فقه الشافعية كالمنهج . وما عرفت قيمته وتفوقه على جميع من لقيت من علماء الاسلام في علومه الا بقراءة صحيح مسلم عليه فانني كنت أقرأ عليه المتن فيضبط لي الرواية أصح الضبط من غير مراجعة ولا نظر في شرح ، واسأله عن كل ما يشكل عليّ من مسائل الرواية والدراية فيجيبني عنها أصح جواب ، وكنت أراجع بعض تلك المسائل بعد الدرس في شرح مسلم وغيره ولا أذكر انني عثرت له على خطأ في شيء منها . وكان اذا راجعه بعض تلاميذه أو غيرهم في غلط وقع فيه يقبله بدون أدنى امتعاض لما تحلى به من الانصاف والتواضع وغيرهما من الاخلاق المحمدية . أعطاني شرحه للبيقونية في مصطلح الحديث بخطه فرأيته استعمل في فاتحته لفظ الفالح بمعنى المفلح فراجعته فيه فأمرني أن أصلحه وأصلح كل خطأ من قبيله ، ورأيته ارتاح لذلك وسرّ به .

وكانت معيشته معيشة الزهاد لا يبالي بزينة الدنيا ولا زخرفها ولا يحفل بحكامها وكبرائها ، كان في طرابلس متصرف من أهل العلم اسمه عارف باشا وكان يزوره علماؤها الا الشيخ فذهب المتصرف لزيارته في داره فرده عن الباب ولم يأذن له بالدخول . خرجت مرة معه للرياضة في ضواحي البلد فما كدنا نحاذي دار الحكومة بجوار تل الرمل حتى تعب الشيخ . فالتفت الي وقال : ياسيد رشيد أعندك

كبر؟ قلت أرجو أن لا يكون عندي كبر . قال اذاً اقعد معي على الارض هنا لنستريح . فقعدنا بجانب الطريق

وقد رثيته بقصيدة أذكر منها هذه الابيات للدلالة على ما كان له من المكانة في نفسي وقتئذ مع القول بأن هذه المكانة لم تتغير الى اليوم :

شيخ الشيوخ امام العصر أوحده ... وواوث المصطفى فينا ونائبه
فلك الطريقة أو در الحقيقة في ... يم الشريعة راسيه وراسبه
ومرجع الكل في حل النصوص وفي ... حل العويص اذا أعيت مصاعبه
رب الحقائق كشاف الدقائق محمود الخلائق من جلت مواهبه
من حلقت هامة الافلاك همته ... وزاحمت منكب الجوزا منا كبه
من لا تحد بتعريف معارفه ... وليس تحصى بتنقيب مناقبه
من كان عن خشية الله منكسرا ... ولان عن رفعة للناس جانبه
من أحيت السنة الغرا مآثره ... وأفنت البدعة السودا قواضبه
• وما قواضبه الا يراعته ... والكتب كم ألفت منها كتائبه

ومنها

خطب أصاب فؤاد الشرق فانفطرت ... مرارة الكون وارتاعت مغاربه
قد مزق الفلك العلمي أطلسه ... ومن مكوكبه انقضت كواكبه
ومنهج العلم أمسى اليوم مسلكه ... وعرا تجوب مجاهيلا جوائبه
وصدر شرح البخاري ضاق فيه وكم ... قامت على مسلم تبكي نوادبه
لئن بكى تابعو النعمان مذهبه ... فالدين من بعده ضاقت مذاهبه
هذا ابن ادريس بعد الشيخ قد درست ... دروس مذهبه وارتاع طالبه

ومنها

فله مثوى ببطن الارض مد به ... بحر تفيض بلا جزر ثوائبه (١)
مثوى حوى منه ذا فضل لقد حسدت ... ترابه من أخي العليا ترائبه

(١) الثوائب مياه المد الذي يعقب الجزر ففي البيت الاحتراس من أنواع البديع

مثوى لقد حفظ الثأر الاثير على ثراه اذ ظفرت فيه رغائبه
لئن دفنا به شخص الكمال ضحى فالروح طارت الى عدن نجائبه

الشيخ عبد الغني الرافعي

وأما والد الفقيد الشيخ عبد الغني الرافعي فقد حصل العلوم والفنون الدينية واللغوية في طرابلس ودمشق الشام وأشهر شيوخه في طرابلس الشيخ نجيب الزعبي الجيلاني، ولا أعرف شيوخه في دمشق ومن المعروف المشهور انه كان فيها يومئذ نفر من اكبر علماء الاسلام في العالم، وكان الشيخ لوذعي الذكاء يحصل في سنة ما لا يحصله الاكثرون في سنين ، وقد امتاز بين فقهاء عصره بالجمع بين النبوغ في علوم الشرع والتصوف والادب فكان فقيها مدققا وصوفيا مصفى وأديبا شاعرا ناثرا، وله في كل ذلك ذوق خاص . سلك طريق الصوفية على الشيخ رشيد الميقاتي الشهير سلوكا صحيحا بالرياضة الشديدة ومداومة الذكر حتى رأى من الاسرار والعجائب الروحية ما لا محل لذكر شيء منه في هذا التعريف الاستطرادي . وكان عالي الهمة قوي العناية شديد المواظبة فيما يأخذ فيه من علم أو عمل على غير المعهود من اكثر مفرطي الذكاء أمثاله . سمعت منه انه قرأ كتاب أدب الدنيا والدين ثلاثين مرة، وقرأ احياء العلوم للغزالي مرارا كثيرة لا أذكر عنه عددها

أدركناه في شيخوخته قوي الجسم والعقل والذاكرة وكان جميل الصورة كأن وجهه ورد يحيط به الياسمين من شيبته الناصعة، وكان يلبس أحسن الملابس ويأكل أطيب المآكل ويسكن دارا مزينة بالنقش والاثاث الجميل، وتزوج في شيخوخته بكرا رزق منها أولادا، وكان يرى في سن السبعين انه لم يفقد من مزايا الشباب شيئا ، ولم يشغله رخاء العيش عن اشتغال القلب واللسان بذكر الله ومذاكرة العلم ، ولي افتاء طرابلس وهو أعلى منصب لرجال العلم في عرف الدولة العثمانية ، وولي القضاء لولاية اليمن ، ولم يكن في مكانه من الرياسة والجاه يمتنع من وضع يده بيد رجل فقير يلبس الاسمال البالية ويمشي معه في السوق اذا كان له مزية من علم أو صلاح ، اذ كانت أخلاقه أخلاق كبار الصوفية ومظهره مظهر كبار رجال الدنيا ، ولكنه ما كان ليجلس بجانب الطريق العام على التراب امام دار الحكومة كما فعل الشيخ محمود نشابه

أذكر مما سمعت من أخبار تصوفه انه سافر من بلده وهو في مقام التوكل ولم يكن معه شيء من الدراهم فيسر الله له الامر ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن أخبار أدبه انه لما سافر الى الآستانة لقي في الباخرة بعض رجال العلم والادب فلما عرف الرجل فضله قال له :

فيم اقتحامك لج البحر تركبه وأنت تكفيك منه جرعة الوشل

فأجابه على الفور ببيت من هذه القصيدة (المعروفة بلامية العجم) :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلي

ولما لم يعرف له رجال الآستانة قيمته أراد التحول عنها الى مصر ، فأرسل الى الشيخ عبد الهادي نجا الابياري وسألة برقية يتوسل بها الى توفيق باشا عزيز مصر في ذلك العهد وهي هذان البيتان :

قالت لي النفس الابية مذ رأت في الروم ضاع اسمي وضل رشادي

سر بي لدار الفضل مصر لعله يهديك للتوفيق عبد الهادي

وأذكر مما رأيت من انصافه وتواضعه انه كان عند ما يزورنا في القلموز يعود الي أن أقرأ عليه شيئا من احياء العلوم لانني كنت مولعا بمطالعته من قبل الشروع في طلب العلم ، فانتهيت في القراءة مرة لي فصل في الحكايات التي يذكرها أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في بعض الابواب كحكايات المتوكلين والاسخياء فاستوقفني الشيخ وقال : انني مستغرب خشوع المصنف قدس سره هذه الحكايات في هذا الكتاب وكله علم وتحقيق لولا هذه الحكايات .. قلت انني أرى هذه الحكايات من أهم مقاصد الكتاب فانه كتاب تربية وانما تتم التربية بالتأسي والقدوة ، فالترغيب في السخاء بالآثار المروية والحكم المعقولة لا يبلغ تأثيره وحده ما يبلغه ما نرى في هذا الكتاب وغيره من ذكر حكايات الاجواد من السلف، وانما كمال التربية في الجمع بين الترغيب بالقول، والقدوة بالفعل، فقال لي : أعيذك بالواحد * من شر كل حاسد * انني أقرأ هذا الكتاب من قبل أن تخلق وقد قرأته مرارا وأنا أفكر في هذه المسألة وأنتقدها على المؤلف ، ولم يخطر في بالي هذا الغرض الواضح الذي لاشك في انه كان يرمي اليه رضي الله عنه . ولم يكتف الشيخ قدس الله روحه بهذا الثناء بل كان

يذكر هذ الجواب في كل مجلس من مجالسه العلمية الادبية عقبه ويقول لمجالسيه وأكثرهم من تلاميذه ومريديه : انني كنت مستشكلا هذه المسألة منذ عشرات من السنين وقد حلها لي هذا الغلام النابغ النابه على البداهة . أو ما هذا معناه بالاختصار

وقد استفاد من اقامته في اليمن فوائد عظيمة منها ان مذاكراته ومناظراته لعلماء الزيدية مهما علمت من انصافه قوى في نفسه ملكة الاستقلال في فهم الدين وفقه الحديث عرف سيرة الامام الشوكاني فاقتنى كتابه (نيل الاوطار . شرح منتقى الاخبار) ولما عاد الى طرابلس كان يقرأه درسا للنابغين المنتهين من طلاب العلم كحلقة الشيخ محمد كامل المترجم . وقد حضرت بعض هذه الدروس ولكنني كنت مبتدئا لا أفهم شيئا من الاصطلاحات الاصولية والحديثية فيه . وإنما كان يسمح لي بحضورها ما كان لي من الكرامة الشخصية عند الشيخ وأهل بيته بموادتهم مع والدي وأهل بيتنا ، ومن أعجب ما سمعناه منه عن أهل اليمن انه لم يتفق له في مدة توليه القضاء فيهم أن سمع من أحد منهم شهادة زور ، أو كذبا على محكوم أو الخصوم ، بل كانوا يقولون له أحكم بالشرع ياعبد الغني ؟ فيقول نعم ، فيصدقونه في شرح منازعاتهم

توفي حاجا بمكة فرثيته بقصيدة مطلعها

طوبى لمن بجوار الله قد نزلا ... وقد أعدّ له جناته نُزُلا

وياهنيئا لمن اسقاه سيده ... في مهد القرب من كأس الشهود طلا

ومنها

نعم لقد مات علم الدين وانكسفت ... شمس الرشاد وبدر الهدي قد أفلا

نعم لقد قبضت روح التصوف ولا ... نصاف منا وجيد الفقه قد عطلا

نعم قد اخترم التبيين واحتكم التلو ... ين واصطلم التمكين مرتحلا

ومنها

لئن بكاه بنا علم اليقين فقد ... قرت به عينه مذ كأسها نهلا

وان غدا فيه كل الفضل مجتمعا ... فقد تفرق في أبنائه النبلا

فللمعارف والارشاد كاملهم ... من حالف العلم فيه الهدي والعملا

وفي البلاغة كم عبد الحميد سما ... وللتحدي بها آي البيان تلا

المقارنة بين الشيخين

أختم هذا التعريف لمختصر بالشيخين اللذين انتهت اليهما الرياسة العلمية في وطننا بمقابلة وجيزة بينهما فأقول ان الشيخ نشابه كان أوسع من الشيخ الرافعي اطلاعا ومعرفة لما عدا التصوف والادب من العلوم المعقولة والمنقولة وكان واقفا عليها تمام الوقوف بفهم تام لكل ماقرأه من الكتب في الازهر وغيره كتفسير البيضاوي وغيره وشروح كتب السنة وكتب الاصول والفقه وفنون العربية الخ ولكنه كان مقلدا في المسائل وأدلتها غالبا قلما يفكر في استعمال فهمه في انتقاد المعتمد في تلك الكتب. فكان لهذه العلوم والفنون كحفاظ الحديث غير المستنبطين، ويالها من مزية قلما نجد الآن أحدا من رجالها. وكانت عبادته كعبادة السلف وهي النوافل المأثورة وكثرة تلاوة القرآن. وأما الشيخ الرافعي فكان على ما امتاز به من علوم الاخلاق والتصوف والادب فقيه النفس مستقل الفكر اذا ظهر له رجحان مذهب الزيدية مثلا على مذهب الحنفية الذي نشأ عليه تحصيلا وعملا وافتاء وقضاء لا يمتنع من القول بترجيحه

وقد كان بين الشيخين شيء من تغاير المعاصرة في سن الشباب لانتهاء الرياسة العلمية اليهما، ولكن علو أخلاقهما وقف بهما دون التنافس الذي يجر عادة الى التحاسد والطعن، ومما وقع بينهما من المناظرة أن الشيخ عبدالغني رحمه الله استخرج من قوله تعالى (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا) مئة سؤال وجاء مجلس الشيخ محمود نشابه إذ كان يقرأ تفسير هذه الآية في البيضاوي درسا وشرع يلقي عليه سؤالا بعد سؤال وهو يجيبه غير مكترث ولا شاعر بأنه مناظر مختبر، فلما كثرت الاسئلة تنبه فأطبق الكتاب ووضع يديه على صدره والتفت الى السائل وقال: أتريد أن تسأل ياعبد الغني؟ اسأل هيه، اسأل، هيه، فما زال السائل حتى فرغ مما عنده ولم يعجز المسؤل ولا توقف في سؤال من تلك الاسئلة

الشيخ حسين الجسر

وأما الشيخ حسين الجسر فقد حصل العلوم في طرابلس واكبر شيوخه فيها الشيخ محمود نشابه وجاور في الازهر بضع سنين ومن أشهر شيوخه فيه الشيخ المرصفي الشهير وقد امتاز بين علماء الدين بالنظر في العلوم والفنون التي يسمونها العصرية،

وبقراءة الجرائد السياسية والمجلات العلمية ، فكان لذلك يرغب في جعل طلاب العلوم الدينية جامعين بينها وبين الالمام بتلك العلوم والفنون فسعى لحمل بعض الاغنياء على انشاء مدرسة دينية نظامية تعلم فيها بعض الرياضيات والطبيعيات على الطريقة الاوربية واللغتان التركية والفرنسية فأنشئت (المدرسة الوطنية) وكان هو مديرها وقد دخل كاتب هذه السطور في القسم الداخلي منها سنة ١٣٢٩ أو ١٣٠٠ فكان ذلك أول العهد بطلبه للعلم بعد ان تعلم القراءة والخط في مكتب الصبيان بالقلعون وطالع بعض كتب الادب والتاريخ والتصوف منفردا . ولكن لم يطل عمر المدرسة فان الحكومة التركية لم تقبل جعلها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية وأصر مديرها الشيخ رحمه الله تعالى على اقفالها ان لم تعترف بها فأقفلت ، وطلب للتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت فأقام فيها مدة قصيرة ثم عاد الى طرابلس وواظب على التدريس لطلاب العلوم الدينية في المدرسة الرجبية وفي داره وواظبنا على حضور تلك الدروس حتى تخرجنا بها وأخذنا الاجازة بالتدريس والتعليم منه سنة ١٣١٥ رحمه الله تعالى وجزاه عنا خيرا .

وكانت طريقته في التدريس أن يوجه كل همه الى حل المسائل بسهولة وعبارة سهلة يفهمها الطالب . ولم ندرك زمن تلقي المترجم عنه ولكننا سمعنا منه أنه قرأ كتاب امتحان الاذكياء وان الشيخ محمد كامل الرافعي كان يقول اننا عند ما نسمع العبارة من الاستاذ نفهمها ونرى انها ظاهرة فاذا أردنا بيانها بعد الدرس تعذر ذلك علينا ورأيناها مغلقة . ولشيخنا الجسر مؤلفات مطبوعة مشهورة أشهرها (الرسالة الحميدية ، في حقيقة الديانة الاسلامية ، وحقية الشريعة المحمدية) التي بين فيها عقائد الاسلام وأركان عباداته وأهم معاملاته الاجتماعية مقرونة بحكمها وأدلتها ، وذكر ما يرد عليها من الشبهات العصرية وأجوبتها ، وقد كافأه السلطان عبد الحميد بنسبة الرسالة اليه برتبة علمية ووسام فانتقد الناس ذلك عليه لانهم كانوا ينسبون اليه قصيدة بائية فيها طعن شديد على الحكومة ولا سيما رتبها وأوسمتها . وطلبه السلطان الى الآستانة ليكون من شيوخ (يلدز) فأقام بضعة أشهر ثم طلب الاذن له بالعودة الى طرابلس معتذرا بان هواء الاستانة لا يوافق صحته — وكان مصدورا — فاذن له ،

وأخبرنا بأن العلة الصحيحة للهرب من الاستانة هي المحافظة على الدين

وكان رحمه الله على سعة اطلاعة وأخذه حظ من العلوم العصرية ووقوفه على طريقتها الاستقلالية، شديد المحافظة على التقليد في جميع العلوم الدينية، وكنت فتحت في درسه باب المناقشة في أدلة العقائد والمذاهب فكان ينهاني عن ذلك. وكان شديد المحافظة على شرفه وصيته. ولما طبعت الرسالة الحميدية اهداني نسخة منها، ثم سألني بعد أيام هل قرأت الرسالة؟ قلت قرأت بعضها، قال انه يعجبني رأيك فكيف رأيتها؟ قلت بعد الثناء عليها بالاجمال انني انتقدت منها شيئين (أحدهما) التعبير عن المسائل العلمية القطعية التي تعتقدون صحتها ككروية الارض بما يدل على الشك أو الانكار، فاعتذر عن هذا بمراعاة عقول العوام والمتعصبين الذين يطعنون في دين من يقول بهذه المسائل. فقلت اذا لم يتجرأ مثلك من الموثوق بعلمهم ودينهم على الجزم بهذه المسائل فمن يجزم بها ومتى يكون ذلك؟ (والثاني) عدم تقسيم الرسالة الى أبواب وفصول يوضع لكل منها عنوان يدل عليه على نحو ما هو مفصل في الفهرس للتنشيط على المطالعة وسهولة المراجعة. فقال ان اتصال الكلام ببعض كالماء الجاري من حسن الانشاء وأساليب البلاغة. قلت فلماذا جعل القرآن سورا وهو أبلغ الكلام وأفصحه؟

هذا وانني لما أنشأت المنار انتقد علي عفا الله عنه لانحاء على خرافات أهل الطريق والشدة والاستقلال في مسائل أخرى في كتاب كتبه الي بعد أشهر من صدور المنار قال فيه: «ظهر المنار بأنوار غريبة الا أن أشعته مؤلفة من خيوط قوية كادت تذهب بالابصار» ثم ذكر تلك المسائل في ورقة واحدة من ورق المخاطبات العادية، فكتبت اليه جوابا مفصلا يدخل في بضع ورقات بينت فيه ما عندي من من الحجة على صحة ما كتبت وكونه دفعا وضروريا. وقلت فيه ما معناه انني أعرض هذا على مسامع أستاذي معترفا بأنني لا أزال تلميذا له لكن على ما عهد مني من عدم قبول شيء الا بعد الاقتناع به، وانني انتظر ما يجيب به لاقرره مذعنا له اذا ظهر لي انه الصواب والا راجعته فيه كتابة الى ان ينجلي لي الحق. فلم يرجع الي قولا في ذلك، وهو لم يكن ينتقد يومئذ الا الاسلوب وما فيه من نشر عيوب المسلمين

توفي رحمه الله تعالى وأنا بمصر فطلبت من نجله الكبير الشيخ محمد يمن ان يرسل الي ما عنده

من المواد لاجل كتابة ترجمة حافلة له، وظلك انتظار ذلك زمناطو يلا فلم أظفر منه بشيء ولم أكتب شيئا لانني لم أحب أن أكتب ترجمة بتراء . وما رثيته لانني تركت الشعر من قبل الهجرة الى مصر ولذلك لم أرث شيخنا الاستاذ الامام أيضا . الا انني زدت في مقصورتي أبياتا فيه وفي السيد جمال الدين، رحمهما الله الجميع وجزاهم عنا خيرا . وسنذكر في النبذة التالية من الترجمة تأثير كل من هؤلاء الشيوخ في المترجم رحمه الله تعالى .

﴿ باحثة البادية — تتمة ترجمتها ﴾

حقيقتها النفسية ومذهبها الاصلاحي

ان ما يناه من خبر نشأتها وتربيتها وما أشرنا اليه من آثارها القلمية هما كالعلة والمعلول والمقدمات والنتيجة في اظهار صورتها النفسية العقلية، وسيرتها العملية، فثبت عندنا ان باحثة البادية ذات رأي ثابت ومذهب كونه العلم والبحث في تربية النساء المسلمات وتعليمهن وما يجب أن يقمن به من الاصلاح الاجتماعي في العالم الاسلامي في هذا العصر . وانها كانت داعية اصلاح منبعثة بغيرة نفسية الى نشر مذهبها والحمل على اتباعه ومناضلة المخالفين له

قبل أن نبين حقيقة هذا المذهب نقول ان هذه منقبة للمترجمة لم تسبقها اليها امرأة في مصرها في عصرها ، ولعلي لا أبالغ اذا قلت في أمتها العربية كلها، بل هذا مما يقل في الرجال بله النساء ، وقد غفل عن معرفة هذا لها من رثوها وأبنوها في الصحف وفي حفلة التأبين التي نذكرها بعد لان مثل هذه الدقائق لا يلتفت اليها الشعراء والخطباء ولا أكثر كتاب الصحف

كتب كثير من الرجال والنساء في المسائل التي كتبت فيها باحثة البادية في هذا العصر ، ولا نجزم بان أحدا منهم صاحب مذهب ثابت له حافز من نفسه للدعوة اليه والدفاع عنه الا قاسم بك أمين وباحثة البادية . لا أنكر أن من أولئك الكاتبين من هم أوسع اطلاعا وأفصح عبارة من باحثة البادية، وأن منهم من له رأي ثابت فيما كتب خطأ كان أو صوابا، ولكنه مقلد فيه لغيره حتى في الاستدلال . ومزية

على أمثال هؤلاء أنها قد ارتقت الى طبقة أهل الاصلاح وأصحاب المذاهب الاجتماعية.

لما شبت حرب المناظرة والجدال في المسألة التي سموها تحرير المرأة وجعل أساس عقيدتها ما سموه السفور أو رفع الحجاب كنا نرى مقلات كثيرة لمقلدة المحافظين على الحجاب وأخرى لمقلدة التفرنج طلاب السفور، هؤلاء متهوّكون في فتنة التشبه بالافرنج ظانين أنهم في التشبه بهم في أهون الامور وانهما يكونون مثلهم حتى في غير ما تشبهوا بهم فيه، وأولئك مستمسكون بكل ماتعودوه ودرجوا عليه ولا سيما اذا كان له شيء من صبغة الدين، خائفون أن يكون في التحول عنه انحلال أمتهم بذهاب مقوماتها أو مشخصاتها، وان لم يكونوا على علم بأن للامم مقومات ومشخصات تقوى بالاعتصام بها، وتنحل بانحلالها، وأن ما يحافظون عليه ويناضلون دونه منها، لان ذلك الخوف وجداني مبهم، لا علمي مبين، فترى جمهورهم يظن أن ما جرى عليه أكثر نساء المدن وبعض نساء القرى من وضع البراقع على أفواههن هو الحجاب الشرعي

لم تكن باحثة البادية من هؤلاء ولا من أولئك بل كان لها مذهب وسط مبني على أصلين أحدهما وجوب التزام النساء جميع ماقرره الاسلام من عقيدة وأمر ونهي، وثانيهما اقتباس جميع ما تحتاج اليه المرأة المسلمة من الفنون والنظام والاعمال للقيام بما يناط بها عند ماتكون زوجاً لرجل وأما لولد ورئيسة لمنزل أو منقطعة لاتقان علم أو عمل، على ماتقتضيه حالة العصر من مجاراة الامم العزيزة القوية في مضمار الارتقاء

ان تسمية هذا المذهب وسطاً بين نزغات المتفرنجين ورغبات المحافظين على القديم على علاته يشعر بتفضيله، وناهيك بقاعدة «خير الامور أوساطها» المسلمة عند الجمهور وقد رويت حديثاً مرفوعا أخرجه السمعاني في ذيل تاريخ بغداد عن علي كرم الله وجهه بسند مجهول ولكن معناه يؤيد بقوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) مع قوله في آية أخرى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وبما تقرر في علم الاخلاق من كون الفضائل أوساطاً بين أطراف هي الرذائل كالجود بين طرفي البخل والاسراف .

ويمكن بيان ذلك في هذا المذهب بطريقة علمية مستمدة من سنة الله تعالى في أجساد الناس وأنفسهم وعقولهم . ذلك بأن الله تعالى في تسلسل أفراد الناس

(وغيرهم من الاحياء) بعضهم من بعض سنتين متقابلتين : سنة التباين وسنة التوافق والتوارث، فبمقتضى سنة التوافق يشبه الابن أباه والفرع أصله في بعض صفاته الجسدية والنفسية وبمقتضى سنة التباين يخالفه في بعض تلك الصفات، فلا يوجد أحد يماثل أباه أو غيره من أصوله في كل شيء أو يخالفه ويباينه في كل شيء، ولولا هاتان السنتان لكان كل فرد من الافراد التي يتولد بعضها من بعض مباينا لغيره كأنه نوع من جنس لم يوجد منه غيره أو لكان جميع البشر كأبيهم الاول في كل شيء بحيث يتعذر التفرقة بين اثنين منهم في سن واحدة، فسبحان الخلاق العليم الحكيم

ثم ان الله تعالى سنتين كهاتين السنتين في سيرة الناس العملية، وحياتهم الاجتماعية، وهما سنة المحافظة والتقليد، وسنة الاستقلال والتجديد، وحكمة الله تعالى في جعل مدار ارتقاء البشر في العلوم والاعمال على اجتماع هاتين السنتين كحكمته في جعل مدار وجود الاجناس والانواع على تينك السنتين، ولو قلد كل أحد من قبله في كل ما وجدهم عليه لكانت حياتهم العملية مماثلة كحياة النحل والنمل من الحشرات التي تعيش بالاجتماع والتعاون، ولو خالف كل أحد من قبله في كل شيء واستقل بجعله جديدا لخرج الانسان بذلك عن كونه عالما اجتماعيا يرتقي بالتعاون وبناء الجديد على القديم مع التحسين فيه، ولما تكونت الامم والشعوب ولا ارتقى علم ولا عمل ولا صناعة، فالامم تتكون بما يشترك أفرادها فيه من العلوم والاعمال التي تطبع في أنفسها ملكات وأخلاقا وأذواقا خاصة تكون من أقوى مقوماتها التي تفصلها من غيرها. ولا يتكون للامة خلق جديد في أقل من جيل وقلما يكمل لها خلق أو ذوق خاص في الفنون والصناعات في أقل من ثلاثة أجيال كما يقول بعض علماء الاجتماع

بعد هذا البيان التمهيدي لبيان قيمة مذهب باحثة البادية في مسألة تربية النساء المسلمات في هذا العصر أقول ان أكثر الذين خاضوا في هذه المسألة يجهلون هذه الاصول فكان منهم من غلبت عليه سنة التقليد والمحافظة على القديم برمته وهو لا يدري أن الاقتصار عليه ضار على أنه محال، ومنهم من غلبت عليه سنة حب التجديد لكل شيء وابطال كل قديم وهو لا يدري انه مفسدة على انه مطلب لا ينال، وجهل الاكثرين

من الفريقين أن التطورات الجديدة الطارئة على الامة التي تدعوها الى تغيير شيء من ماضيها وتحدث التعارض والتدافع بين الفريقين المذكورين يجب أن يتروى في أمر تيارها فلا يساعد على جرفه الماضي الذي صار من مقومات الامة ولا يقاوم بمحاولة منعه مر أي تغيير في شؤونها وان كان ازلة ضار واستبدال نافع به . لهذا نرى من المتفرنجين طلاب التجديد بغير علم صحيح ولا فطرة معتدلة من يستعجلون في هدم عقائد الدين وشعائره ، وفي التصرف في اللغة تصرفاً يخرجها عن أصولها وقواعدها، وفي تغيير الاخلاق والآداب الاجتماعية بسفور النساء ومخالطتهن للرجال في المجامع والملاهي والحانات والمراقص ، وما الدافع لهم الى هذا الا ما يرون فيه من اللذة والتمتع والتشبه بالافرنج فيما يشكو منه حكماؤهم وفضلاؤهم

كان قاسم بك أمين مستقلا معتدلا في فريق مقلدة التفرنج ، وخصمه محمد طلعت بك حرب مستقلا معتدلا في فريق مقلدة التدين والتعود ، ثم ظهرت باحثة البادية مستقلة معتدلة تجاذبها الفريقان كل منهما يعدها من حزبه فيما توافقه فيه ، غير مشددة عليها بالانكار فيما تخالفه فيه ، فبهذا التفصيل الوجيز تعرف قيمة هذه المرأة المسلمة العربية المصرية الفاضلة ، وانها فوق قيمة من توصف بأنها كاتبة ناثرة شاعرة ، أو خطيبة ماهرة ، فمزيتها في نساء قومها انها مصلحة مستقلة معتدلة

الاحتفال بتأبينها

تحدث بعض من حضر مأتم الباحثة من المفكرين في استحسان إقامة حفلة تأبين لها تكون مظهراً لتكريم الرجال للنساء وترغيبا لهن في العلم النافع والسيرة الزوجية الصالحة ، ثم تألفت لذلك لجنة برياسة شيخ الادباء اسماعيل صبري باشا كان أول عملها أن عرضت على السير عدلي باشا يكن وزير المعارف جعل حفلة التأبين تحت رياسته فقبل مرتاحا ، ولما كان الراغبون في التأبين والرثاء كثيرين اضطرت اللجنة الى اختيار ثلاثة من الخطباء وبضعة من الشعراء الذين يحضرون الحفلة. واختارت من رسائل التأبين والرثاء كلمة وجيزة بليغة لصديقة الفقيدة نبوية موسى ناظرة مدرسة البنات الاميرية في الاسكندرية وقصيدة لاحمد افندي الكاشف الشهير

ثم اختارت ان يكون الاحتفال في قاعة الخطابة الكبرى من دار المدرسة السعدية التي كانت دار الجامعة المصرية ، وضربت موعدا لذلك الساعة الرابعة من مساء يوم الجمعة ثاني ربيع الاول ولم يكد يجيء الموعد حتى غصت تلك القاعة الفسيحة بأهل العلم والادب والوجاهة ، وطلاب الازهر والمدارس التجهيزية والعالية ، وكان المنظم للمكان والمراقب لنظام الاحتفال علي بك حسني ناظر المدرسة السعيدية وهو عريق في ذلك وأصيل . وقد اعتذر عن حضور الحفلة عدلي باشا بانحراف ألم بصحته وحضرها وكيل نظارة المعارف الذي تولى المساعدة نيابة عن الوزير في جعلها في احد معاهد الوزارة

وكان أول الخطباء ابراهيم بك الهلباوي المحامي الشهير وموضوع تأبينه ترجمة الفقيدة فذكر كل ماينبغي ذكره في ذلك بفصاحته وطلاقته التي تشبه بالسيل المدرار ، وتدفق الانهار ، وألم بما دار من الجدل والمناقشات في تعليم المرأة وحجابها ، وعد باحثة البادية حجة على المنكرين ، وقد اضطرب الحاضرون عند ذكر مسألة الحجاب وكاد بعضهم يقاطع الخطيب ويصرحون بأن الفقيدة حجة على طلاب السفور لانها فاقت جميع المتعلمات في مصر وهي محافظة على حجابها الشرعي وناصرة للقائلين به .

وتلاه الشيخ مصطفى عبد الرازق كاتب سر مجلس الازهر والمعاهد الدينية الاعلى فتلا خطبة فصيحة العبارة موضوعها الغرض من اقامة هذه الحفلة وهو تكريم النابغين المستحقين للتكريم من الرجال والنساء لما في ذلك من حسن الاسوة والترغيب في العلم والعمل النافع للامة . وألم بذكر النهضة الحديثة في التعليم وتربية البنات وما للشيخين الاستاذ الامام محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان من الجهاد واليد البيضاء في ذلك واستغرب من تقصير أصدقاء الشيخ عبدالكريم الذين هم من كبراء الامة فيما كان ينبغي من الاحتفال بتأبينه ، وما كان ينبغي لغيرهم أن يتقدم عليهم في الدعوة الى ذلك ، ونوه بما كان من نجاح باحثة البادية في العلم والدعوة الى اصلاح حال المرأة وما كان من صلاحها في نفسها واشتهارها بعلو الآداب والتقوى الذي استحقت به مثل هذا الاحتفال

وتلاه كاتب هذه السطور وكان موضوع خطابته نبوغ باحثة البادية وانتظامها في سلك المصلحين وآيات ذلك من مقالاتها وخطبها . وقد بدأت بذكر أوليتها الذي تقدمت الاشارة اليها وذكرت أن منها أن أول مكان خطبت فيه هو هذه القاعة التي كان تأبينها فيها أول احتفال في مصر بتأبين امرأة . ثم ذكرت نحوا مما تقدم في الترجمة من أخبار نشأتها وتعليمها وتربيتها واستنبطت منه أن مدارس البنات الاميرية — وغير الاميرية بالاولى — لا يرجى أن تخرج مثلها لان نبوغها كان بمجموع تلك الاسباب التي ذكرناها لا بالمدرسية السنية التي تعلمت فيها ولا لرأينا في كل سنة عدداً من المتخرجات مثلها . ذلك بان التعليم عندنا تقليدي آلي (نسبة لى الآلة) يقصد به ايجاد آلات للحكومة وما يشبه مصالح الحكومة من الاعمال الادارية والزراعية والتعليمية وغيرها ، وانما يكثر النابغون في معاهد التعليم الاستقلالي وهي لم توجد عندنا بعد . لذلك كان كل من ظهر من نابغينا في هذه العصور الاخيرة كالسيد الافغاني والاستاذ الامام ورياض باشا من أصحاب الاستعداد الفطري وما أتيح له من التوفيق والاسباب العارضة

ثم بينت ان باحثة البدية لم تصل لى درجة الطبقة العليا من كتاب العصر لاشعرائه ولاخطبائه ولامصنفيه بل كانت وسطا في ذلك ، وانما مزيتها التي استحقت بها التأبين هي استقلالها بالمذهب الاصلاحي النسائي الذي سمت قلبها وعقلها للدعوة اليه ، وأوجزت في بيان مذهبها الذي ذكرته في الترجمة آنفاً وضاق الوقت عما كنت عازما عليه من شرحه شرحاً علميا بالطريقة التي رأيت في الترجمة

ثم انشدت قصائد الرثاء مبتدأة بقصيدة شاعر العرب الشيخ عبد المحسن الكاظمي مختتمة بقصيدة شاعر النيل محمد حافظ بك ابراهيم . وبينهما قصائد الاساتذة الشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مهدي خليل والشيخ أحمد الزين والشاعرين الشهيرين محمد افندي الهراوي وأحمد افندي الكاشف . . وبعد انتهاء الساعة السادسة انفض الاجتماع . وسيطبع كل ماقيل في الحفلة وما كتب في الصحف عقب الوفاة وعقب التأبين مع ما أرسل الى لجنة الاحتفال مما لم يتسع الوقت لقراءته ويجمع في كتاب خاص فمن عنده شيء منه فليرسله الى ادارة مجلة المنار بمصر .

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٣٠ رمضان ١٣٣٧ — ٦ السرطان (ص١) ١٢٩٧ هـ ش ٢٨ يونيو ١٩١٩

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٠٧) وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِنْدَ ٱللَّهِ ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

أمر الله تعالى رسوله فيما قبل هذه الآيات بتبليغ وحيه بالقول والفعل، وبالاعراض عن المشركين بمقابلة جحودهم وطعنهم في الوحي بالصبر والحلم، وعلل ذلك بأن من مقتضى سننه في خلق البشر متفاوتي الاستعداد، مختلفي الفهم والاجتهاد، أن لا يتفقوا على دين، ومن مقتضى هدايته في بعثة الرسل ان يكونوا مبلغين لا مسيطرين، وهادين لا جبارين، فعليهم أن لا يضيقوا ذرعا بحرية الناس في اعتقادهم، فان خالقهم هو الذي منحهم هذه الحرية ولم يجبرهم على الايمان إجبارا وهو قادر على ذلك، ثم عطف على هذا الارشاد النهي عن سب آلهتهم، وطلب بعضهم للآيات وحقيقة حالهم فيها فقال:

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ أي ولا تسبوا أيها المؤمنون معبوداتهم التي يدعونها من دون الله لجلب النفع لهم أو دفع الضر عنهم، بوساطتها وشفاعتها عند الله لهم. فيترتب على ذلك سبهم لله سبحانه وتعالى عدوا أي تجاوزا عن الحق الى الباطل من غير علم بذلك، أو تجاوزا منهم في السباب والمشاتمة التي يغيظون بها المؤمنين الى سبه بغير علم منهم ان ذلك يكون سببا له سبحانه، لانهم وهم مؤمنون بالله لا يتعمدون سبه ابتداء عن روية وعلم، بل يسبونه بوصف لا يؤمنون به كسبهم لمن أمر النبي (ص) بتحقير آلهتهم أو لمن يقول انها لا تشفع ولا تنفع، أو يقولون قولا يستلزم سبه بحيث يفهم ذلك منهم ومن لم يعلم ذلك القائل — وهذا مما يجب اجتناب سببه حتى على القول بأن لازم المذهب ليس بمذهب — أو يقابلون السباب لمعبودهم بمثل سبه يريدون محض المجازاة فيتجاوزونه كما يقع كثيرا من المختلفين في الدين والمذهب: يسب نصراني نبي مسلم فيسب المسلم نبيه ويريد عيسى (عليهما الصلاة والسلام) ويسب شيعي بلاحي سنيا ويماريه أبا بكر فيسب عليا (رضي الله عنهما) والاول يعلم ان سب عيسى كفر كسب محمد (ص)، والثاني يعلم أن سب علي فسق كسب أبي بكر (رض). ومثل هذا يقع كثيرا، بل كثيرا ما يتساب اثنان من أهل دين واحد يسب أحدهما دين الآخر أو معبوده فيقابله بمثل سبه، يغيظه سب أبيه مضافا اليه ويعده اهانة له فيسبه مضافا الى أخيه إهانة لاخيه، وهذا كله من حب الذات والجهل الحامل على المعاقبة على الجريمة بارتكابها عينا فيهين والده المعظم عنده ومعبوده الذي هو أعظم منه احتراما لنفسه وعصبية لها. وقد جاء في الصحيحين عن عبد الله بن

عمرو مرفوعا « من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال « يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه »

فالمراد بالعلم المنفي على هذا العلم الحضوري الباعث على العمل وهو ارادة السب التي يقصد بها اهانة المسبوب. فان الساب هنا لا يتوجه قصده الا الى اهانة مخاطبه الذي سبه. ويجوز أن يراد بالعلم المنفي اعتقاد الساب ان خصمه لا يعبد الله تعالى بل يعبد الها آخر لانه يصف معبوده بما لا يصح ان يوصف به الله تعالى عنده، وقد ثبت عن بعض المختلفين في الاديان وفي مذاهب الدين الواحد وصف ربهم والههم بصفات وسب خصومهم والههم بصفات تناقضها أو تضادها. كما يقول مثبتو الصفات ونفاتها بعضهم في بعض، ويمكن التمثيل لهذا باختلاف الاشعرية والمعتزلة في مسألة ارادة الله تعالى للشر والكفر وعدمها، فقد يبالغ كل منهما في نفيه فيزعم أن الههم غير الله مخالفه، وقد نقل عن اثنين من أكابر علمائهم انهما التقيا فقال المعتزلي: سبحان من تنزه عن الفحشاء، فقال الاشعري سبحان من لا يقع في ملكه الا ما يشاء، أي ومنه الفحشاء، فهل يعد أن يعبر بعض المحازفين عن هذين المعنيين بصيغة السب لتأييد المذهب ؟ دع ما يقوله من هم أشد منهم غلوا في تضليل المخالف وتكفيره، والجميع يقولون انهم يعبدون الله خالق السموات والارض وما بينهما وما فيهما، وهم صادقون في ذلك وان اتخذ بعضهم له شريكا أو وصفه بما لا يليق به أو نفى عنه ما وصف به نفسه، ولكن تعصب المرء لنفسه ولمن تجمعه به جامعة ما قد يحمله على توسيع شقة الخلاف بمثل ذلك ولا سيما في أثناء الجدل. وفي هذا المقام تزداد فهما لقوله عز وجل (٢٩ : ٤٦ ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) هذا ما نراه في معنى النهي وتعليله وقد ورد في المأثور ما يؤيد بعضه نقله عن الدر المنثور وهو :

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) الآية قال قالوا: يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك. فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدوا بغير علم

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش

انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فانا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعه[1] فلما مات قتلوه، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبيّ ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاصي والاسود بن البختري وبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب فقالوا استأذن لنا على أبي طالب فأتى أبا طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك، فاذن لهم عليه فدخلوا فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وان محمدا قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه، فدعاه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هؤلاء قومك وبنو عمك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يريدون؟ قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا ولندعك وإلهك، قال النبي صلى الله عليه وسلم «أرأيتم لو أعطيتكم هذا هل أنتم معطيّ كلمة ان تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم وأدت لكم الخراج» قال أبو جهل وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هي؟ قال «قولوا لا اله الا الله» فأبوا واشمأزوا، قال أبو طالب قل غيرها فان قومك قد فزعوا منها، قال «يا عم ما أنا بالذي أقول غيره حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي، ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها» ارادة أن يؤيسهم، فغضبوا وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك، فأنزل الله (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله فأنزل الله (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) اه أي أنزل ذلك في ضمن السورة كما تقدم نظيره اه

وقد غفل بعض المفسرين عن مثل ماذكرنا من شؤون الناس التي تحملهم على سب أعظم شيء عندهم في حال الغضب، والملاحاة في المراء والجدل، وعن التفسير المأثور عن السلف، حتى قال بعضهم إن المراد بسبهم لله تعالى هنا سب رسوله (ص) من باب التجوز على حد قوله تعالى (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) وهو

(١) أي كان أبو طالب يحميه منهم

تكلف بعيد ، وقال الراغب : وسبهم الله يجوز على أنهم يسبونه صريحا ولكن يخوضون في ذكره فيذكرونه بما لا يليق به يبادرون في ذلك بالمجادلة فيزدادون في ذكره بما تنزه تعالى عنه اهـ وما قاله مما يقع مثله وليس كل المراد

واستشكل بعضهم النهي عما ورد في الكتاب العزيز من وصف آلهتهم أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تقرب لا تشفع ، وأنها هي وأياهم حصب جهنم ، وتسميتها بالطاغوت وهو مجاوزة من الطغيان ، وجعل عبادتها طاعة للشيطان . وقد يجاب عنه بأن هذا لا يسمى سبا ، وإن زعمه جدلا ، لان السب الشتم وهو ما يقصد به الاهانة والتعيير ، والغرض من ذكر معبوداتهم ذلك بيان الحق ، والتنفير عن الاباطيل والمفاسد ، وأجيب على تقدير التسليم أن سب ما يستحق السب جائز في نفسه ، وانما يحظر اذا أدى الى مفسدة أكبر منه ، والحال هنا كذلك . وقد صح النهي عن الصلاة في المقبرة والحمام ، ومثلهما التلاوة في المواضع المكروهة .

واستنبط العلماء من هذه الآية أن الطاعة اذا أدت الى معصية راجحة وجب تركها فان ما يؤدي الى الشر شر ، وفرقوا بين هذا وبين الطاعة في مكان فيه معصية لا يمكن دفعها . وهذه المسألة تحتاج الى بسط وايضاح فان من الطاعة ما يجب وما لا يجب ، ومن المعاصي والشرور التي تترتب على بعض الطاعات أحيانا ما هو مفسدة راجحة وما ليس كذلك ، ومن كل منهما ما يمكن التنصي من ترتبه على الطاعة وما لا يمكن التنصي منه ، ولكل من ذلك أحكام ، وتعرض له درجات الانكار الثلاث ، «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان» رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الاربعة.

ومن فروع هذه المسألة ما ذكرناه في العدد الاول من منار السنة الاولى في بحث اصطلاح كتاب العصر ، وهو أن معنى لفظ الكفر في اللغة الستر والتغطية ومنه قيل لليل كافر والبحر كافر ، وأطلق لفظ الكفار في سورة الفتح على الزراع وغلب لفظ الكفر في القرآن وعرف الفقهاء والمتكلمين بمعنى المقابل للايمان الصحيح شرعا . ثم غلب في عرف كتاب هذا العصر على الملاحدة المعطلين المنكرين لوجود الله تعالى وجل ، فصار إطلاقه على كل متدين سبا واهانة فيترتب على هذا أن اطلاقه على

من يحرم ايذاؤه من أهل الاديان محرم شرعاً اذا تأذى به ولا سيما في الخطاب. وذكرة شاهد لهذا من فتاوى الحنفية وهو ما في معين الحكام قال: اذا شتم الذمي يعزر لانه ارتكب معصية. وفيه نقلا عن الغنية: ولو قال للذمي يا كافر يأثم إن شق عليه ه

(ومنها) ما ذكرته في سياق الكلام في المحتفين في لعن معاوية بن أبي سفيان من (ص ٦٣٠ م ٧) المنار بعد بيان ما يترتب على لعنه من التعادي بين الشيعة والسنيين وهو: لهذا لا أبالي أن أقول لو اطلع مطلع على الغيب وعلم أنه مات على غير الاسلام لما جاز له أن يلعنه. وغرضي من هذا أن اللعن يترتب عليه من مفاسد الشقاق بين المسلمين ما يجعله محرما وأكثر المسلمين يحرمون لعنه، وقد لعن الله الشيطان ويلعنه اللاعنون في كل مكان ومن لا يلعنه طول عمره لا يسأله الله عن ذلك لانه لم يوجبه عليه. كما قال بعض الائمة،

(ومنها) ما نقل عن أبي منصور قال: كيف نهانا الله تعالى عن سب من يستحق السب لئلا يسب من لا يستحقه — وقد أمرنا بقتالهم واذا قاتلناهم قتلونا وقتل المؤمن بغير حق منكر؟ وكذا أمر النبي (ص) بالتبليغ والتلاوة عليهم وان كانوا يكذبونه؟. وأجاب عنه بأن سب الآلهة مباح غير مفروض وقتالهم فرض وكذا التبليغ، وما كان مباحا ينهى عما يتولد منه ويحدث، وما كان فرضا لا ينهى عما يتولد عنه.

واختلف الفقهاء في اجابة الدعوة الى وليمة النكاح المقارنة لبعض المعاصي كما يقع كثيرا هل يجيب الدعوة ويغير ما يراه من المنكر بيده أو بلسانه إن قدر، والا أنكره بقلبه وصبر؟ أم يجيب في حال القدرة على التغيير دون حال العجز؟ أم يفرق فيه بين من يقتدى به وغيره فيحرم حضور المنكر ولو مع النهي عنه على الاول دون الثاني؟ أقول لا مجال هنا لتحقيق الحق فيها، ولا للاطالة في فروع المسألة

﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ أي مثل ذلك التزيين الذي يحمل المشركين على ما ذكر وحية لمن يدعون من دون الله زينا لكل أمة عملهم من إيمان وكفر، وخير وشر، أي مضت سنتنا في أخلاق البشر وشؤونهم ان يستحسنوا ما يجرون عليه ويتعودونه مما كان عليه آباؤهم، أو مما استحدثوه بأنفسهم اذا صار يسند وينسب اليهم، سواء كانوا على تقليد وجهل، أم على بينة وعلم، فسبب التزيين في الاول انسهم به وكونه من شؤون أمتهم، التي يعد مدحها مدحا لها ولهم، وذمها عارا عليها

وعليهم، وزد على ذلك في الثاني مايعطيه العلم من كون ذلك حقا وخيرا في نفسه يترتب عليه فضلهم على غيرهم فيه وفي الجزاء عليه، وشبهات الاول ليس لها مثل هذا التأثير.

فظهر بهذا ان التزيين أثر لاعمال اختيارية لا جبر فيها ولا إكراه، وليس المراد به ان الله خلق في قلوب بعض الامم تزيينا للكفر والشر وفي قلوب بعضها تزيينا للايمان والخير خلقا ابتدائيا، من غير ان يكون لهم عمل اختياري نشأ عنه ذلك. اذ لو كان الامر كما ذكر لكان الايمان والكفر والخير والشر من الغرائز الخلقية التي تعد الدعوة اليها والترغيب فيها وما يقابله من النهي والترهيب عنها من العبث الذي ينزه الله تعالى عن ارسال الرسل وانزال الكتب لاجله، ولكان عمل الرسل والحكماء والمؤدبين الذين يهدون الناس ويزكونهم بالتأديب - كله من الجنون. ومن لوازم ذلك أن يكون التفاوت بين الاخيار والاشرار من الناس كالتفاوت بين الملائكة والشياطين وهو خلاف المقطوع به عقلا ونقلا من استوائهم في قابلية كل منهم للايمان والكفر والخير والشر

وقد غفلت المعتزلة عن هذا التحقيق فأول بعضهم الآية بأنها خاصة بالمؤمنين الذين زين الله في قلوبهم الايمان، و بعضهم بغير ذلك، واحتج بها بعض الجبرية في الظاهر والباطن معا و بعض الاشعرية الذين يعتقدون الجبر و يقيمون الحجج لاثباته ويتبرؤن من لفظه والانتساب الى أهله - احتج كل منهما بأنها نص في مذهبه، وقد تفلسف الرازي في الاستدلال على ان تزيين الكفر بخلق الله تعالى من غير اختيار للعبد فزعم ان الانسان لايختار الكفر والجهل ابتداء مع العلم بكونه كفرا وجهلا و إنما يختاره لاعتقاده كونه إيمانا وعلما وصدقا وحقا، فلولا سابقة الجهل الاول لما اختار هذا الجهل الثاني، وذلك الجهل السابق ان كان اختياريا يقال فيه مثل قيل فيما قبله محال فيلزم التسلسل المحال، قال « ولما كان ذلك باطلا وجب انتهاء تلك الجهالات الى جهل أول يخلقه الله تعالى فيه ابتداء وهو بسبب ذلك الجهل ظن في الكفر كونه إيمانا وحقا وعلما وصدقا، فثبت انه يستحيل من الكافر اختيار الجهل في قلبه » و يبطل هذا الدليل الذي سماه قطعيا ان الجهل أمر سلبي، لا يوصف بأنه خلق ابتدائي، وأنه ليس كل كفر مزينا لصاحبه باعتقاده انه حق وعلم وصدق كما زعم، بل شر الكفر وأشده كفر الجحود والعناد

والمكابرة، وانما يزينه الشيطان لصاحبه بعده من عزة النفس وشرفها، بالامتناع من اعترافها بما تراه عارا عليها وعلى الآباء والاجداد، من اتباع من هو دونها في الشرف والجاه، كما عرف من شأن الجاحدين، من رؤساء الامم المترفين، مع الانبياء المرسلين، وورثتهم من العلماء المصلحين،

فعلم من هذا التحقيق ان تزيين الاعمال للامم عبارة عن سنة الله تعالى في أعمالها وعاداتها وأخلاقها المكسوبة والموروثة وقد بينا في تفسير (٣:١٣ زين للناس حب الشهوات) ان ما كان كذلك لا يسند الا الى الله تعالى واضع السنن وكاتب المقادير. وأما تزيين القبيح من عمل واعتقاد فيسند تارة الى الشيطان وشواهده في هذه السورة (٦:٤٠ و١٣٧) والانفال (٨:٤٩) والنحل (١٦:٦٣) والنمل (٢٧:٢٤) والعنكبوت (٢٩:٣٨) وحم السجدة (٤١:٢٥) وتارة الى المفعول وشواهده في هذه السورة (٦:١٢٢) والتوبة ويونس وفاطر والمؤمن والقتال والفتح، وورد اسناده الى الله تعالى في أول سورة النمل فقط. ويقابله اسناد تزيين الايمان اليه تبارك اسمه في سورة الحجرات فقط. ويجمعهما معا اسناد جميع الاعمال اليه تعالى في الآية التي نحن بصدد تفسيرها، ونحوه اسناد حب الشهوات الى المفعول في سورة آل عمران ويراجع تفسيرنا لها[1] ولقوله تعالى في أواخر سورة البقرة (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)[2] وفي تفسير الاخيرة كلام حسن للاستاذ الامام في الخير والشر

﴿ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ أي ثم يرجع جميع أفراد أولئك الامم الى ربهم الذي هو سيدهم ومالك أمرهم بعد أن يموتوا ويبعثوا لا الى غيره اذ لا رب غيره، فينبئهم عقب رجوعهم اليه للحساب والجزاء بما كانوا يعملون مما كان مزينا لهم وغير مزين، ويجزيهم به ان خيرا فخير وان شرا فشر

﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها﴾ أي وأقسم أولئك المشركون المعاندون بالله أشد أيمانهم تأكيدا ومنتهى جهدهم ووسعهم مبالغة فيها: لئن جاءتهم آية من الآيات الكونية التي اقترحوها أو مطلقا ليؤمنن بها أنها من عند الله للدلالة على صدق رسوله (ص) فيكون ايمانهم بها ايمانا به، أو ليؤمنن بما دعاهم اليه

(١) ص ٢٣٨ ج ٣ تفسير (٢) (ص) ١٤٦ ج ٣ تفسير

بسببها ﴿ قل انما الآيات عند الله ﴾ أي قل أيها الرسول انما الآيات عند الله تعالى فهو وحده القادر عليها، والمتصرف فيها، يعطيها من يشاء بفضله ورحمته، ويمنعها من يشاء بحكمته «وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله» ومشيئته، وكمال الادب معه تعالى أن يفوض اليه الامر في ذلك. وتقدم تحقيق المسألة في أوائل تفسير السورة

روى أبو الشيخ عن ابن جريج أن هذا نزل في المستهزئين الذين سألوا رسول الله (ص) الآية، واخرج ابن جرير مثله عن محمد بن كعب القرظي مفصلا فذكر انهم ذكروا له إخباره بعصا موسى واحياء عيسى الموتى وناقة ثمود وطلبوا منه أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأقسموا بالله لئن فعل ليتبعنه أجمعين، فقام (ص) يدعو فجاءه جبريل فخيره بين أن يصبح الصفا ذهبا على أن يعذبهم الله اذا لم يؤمنوا — أي عذاب الاستئصال حسب سنته تعالى كما تقدم في هذه السورة — وبين أن يتركهم حتى يتوب تائبهم، فاختار الثاني فأنزل الله فيهم « وأقسموا بالله » حتى « ولكن أكثرهم يجهلون » أي فأنزل الله هذه الآيات في ضمن السورة التي نزلت دفعة واحدة، وتقدم تحقيق مثله مرارا

﴿ وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ﴾ أي انكم ليس لكم شيء من أسباب الشعور بهذا الامر الغيبي الذي لا يعلمه الا علام الغيوب سبحانه وتعالى وهو انهم لا يؤمنون ان جاءت الآية. والخطاب للمؤمنين الذين تمنوا مجيء الآية ليؤمنوا والنبي (ص) معهم، وقيل لهم وحدهم، ويؤيد الاول رواية دعائه بذلك ورواية طلبه القسم منهم ليؤمنن بها. وقد غفل من غفل من المفسرين عن كون الاستفهام انكاريا نافيا لشعورهم بهذا الامر الثابت عنده تعالى في علم الغيب فذهب الى أن المعنى: وما يشعركم انهم يؤمنون اذا جاءت؟ فجعلوا النفي لغوا، وذهب بعضهم الى أن « أنها » بمعنى لعلها، ونقلوا هذا عن الخليل وجاؤا عليه بشواهد هم في غنى عنه وعنها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر بخلاف عنه عن عاصم ويعقوب «انها» بكسر الهمزة كأنه قال: وما يشعركم ما يكون منهم اذا جاءت؟ وكأنهم قالوا ما ذا يكون منهم؟ فأخبرهم بذلك قائلا: انها اذا جاءت لا يؤمنون. وقرأ ابن عامر وحمزة «لا تؤمنون» بالخطاب للمشركين، وهو كسابقه التفات وتلوين

﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ هذا عطف على قوله « لا يؤمنون » وبيان لسنة الله تعالى في عدم ايمانهم برؤية الآية. أي وما يشعركم أيضاً أننا نقلب أفئدتهم عند مجيء الآية بالخواطر والتأويلات، والتفكر في استنباط الاحتمالات، وأبصارهم في توهم التخيلات، كشأنهم في عدم ايمانهم بما جاءهم أول مرة من الآيات. وقيل الضمير في قوله « به » للقرآن، وقيل للنبي عليه الصلاة والسلام، وتقليب الابصار من قبيل قوله تعالى (١٥ : ١٤ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ١٥ لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) فان من لم يقنعه ما اشتمل عليه القرآن من الآيات العقلية العلمية، لا يقنعه ما يراه بعينيه من الآيات الحسية، بل يدعي أن عينيه خدعتا أو أصيبتا بآفة فهي لا ترى الا صورا خيالية، أو انه من أعمال السحر الصناعية، وهل هذا إلا خلق الاولين، في مكابرة آيات من بعث فيهم من المرسلين ؟

﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ العمه التردد في الامر من الحيرة فيه، أي وندعهم في تجاوزهم الحدود في الكفر والعصيان، المشابه لطغيان الماء في الطوفان، الذي رسخوا فيه فترتب عليه ماذكر من سننه في تقلب القلوب والابصار، يترددون متحيرين فيما سمعوا ورأوا من الآيات، هل هو الحق المبين، أم السحر الذي يخدع الناظرين ؟ وهل الارجح اتباع الحق بعد ما تبين، أم المكابرة له والجدال فيه كبرا وانفة من الخضوع لمن يرونه دونهم. وهذا صريح في أن رسوخهم في الطغيان، الذي هو منتهى الاسراف في الكفر والعصيان، هو سبب تقلب القلوب والابصار، وانما اسناده الى الخالق لها، لبيان سننه الحكيمة فيها، كغيره من ربط المسببات بأسبابها، وانما يخطئ كثير من الناس هذا الامر الواقع لعدم التأمل فيه، ولتوهم أن جميع ما يسند اليه تعالى فهو من الخلق المستقل دون نظام المقادير، وهي نزعة قدرية داخلة في قولهم « الامر أنف » فلا نظام فيه ولا قدر، يتبعهم خصومهم فيها وهم لا يشعرون، ويوقعهم التعصب للمذاهب في أظهر التناقض وهم

غافلون، فنسأله تعالى أن يثبت أفئدتنا وأبصارنا على الحق، ويحفظنا من الطغيان والعمه في كل أمر، ويجعلنا ممن أبصر بما جاءه من البصائر، ويصلح لنا السرائر والظواهر. اللهم آمين ﴿ تم الجزء السابع ﴾

امراء اعراب الشام في القرن الثامن

وما كان يكتب لهم من تقليد الامارة من سلاطين مصر

جاء في (ص ١١٨) من الجزء الثاني عشر من كتاب صبح الاعشى في بيان ما يكتب الى الطبقة الاولى من أمراء عربان الشام ما نصه:

تقليد بامرة آل فضل

وهذه نسخة تقليد بإمرة آل فضل[1]: كتب به للامير شجاع الدين «فضل بن عيسى» عوضاً عن أخيه مُهنّا، عند ماخرج أخوه المذكور مع قراسنقر الافرم ومن معهما من المتسحبين، وأقام [هو] بأطراف البلاد ولم يفارق الخدمة، في شهور سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، من من انشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهو:

الحمد لله الذي منح آل فضل في أيامنا الزاهرة بحسن الطاعة فضلا، وقدّم عليهم بقديم الاخلاص في الوَلاء من أنفسهم شجاعاً يجمع لهم على الخدمة ألفة وينظّم لهم على المخالصة شملا؛ وحفظ عليهم من اعزاز مكان بيتهم لدينا مكانة لا تنقض لها الايام حكما، ولا تنقص لها الحوادث ظلا

نحمدُه على نعمه التي شملت ببرّنا، الحضر والبدو، وألهجت بشكرنا، ألسنة العجم في الشدو والعرب في الحدو، وأعملت في الجهاد

«١» يراجع ما نشرناه عن آل فضل في الجزء الذي قبل هذا

بين يدينا من اليَعْمَلَات ما يباري بالنص والعَنق الصافنات في الخَبب والعدْو ؛ ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة نَدرأ بها الامور العظام، ونقلد بيُمنها ما أهم من مصالح الاسلام لمن يجري بتدبيره على أحسن نظام ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوثُ من أعلى ذوائب العرب وأشرفها ، المرجو الشفاعة العظمى ومطول عرض الامم وهول موقفها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كرمت بلوغاء أنسابهم ، وأضاءت بتقوى الله وجوههم وأحسابهم ، صلاة لا تزال الالسن تقيم نداءها ، والاقلام ترقم رداءها . وسلم تسليما كثيرا

وبعد فان أولى من أجْنَته الطاعة ثمرة اخلاصه ، ورفعته المخالصة الى أسنى رتب تقريبه واختصاصه ، وألّف بمبادرته الى الخدمة الشريفة قلوب القبائل وجمع شملها ، وناله حسن الوفاء من أمر قومه وإمامهم ما يستشهد فيه بقول الله تعالى (وَكانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهلَها) — من ارتقى الى أسنى رتب دنياه بحفظ دينه ، ودل تمسكه بأيمانه على صحة إيمانه وقوة يقينه ، ولاحظته عيون السعادة فكان في حزب الله الغالب وهو حزبنا ، وقابلته وجوه القبول فأرته أن المغبون من فاته تقريبنا وقربنا، ورأى احساننا اليه بعين لم يطرفها الجحود، ولم تطرفها اعراض السعود ، فسلك جادة الوفاء وهي من أيمن الطرق طريقة ، واقتدى في الطاعة والولاء بمن قال فيهم بمثل قوله : (وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقا)

ولما كان المجلس العالي ... هو الذي حاز من سعادة الدنيا والآخرة بحسن الطاعة ماحاز ، وفاز من برنا وشكرنا بجميل المبادرة الى الخدمة بما فاز ، وعلم مواقع احساننا اليه فعمل على استدامة وبلها ، واستزادة

فضلها ، والارتواء من معروفها الذي باء بالحرمان (منه) من خرج عن ظلها ، مع ما أضاف الى ذلك : من شجاعة تبيت منها أعداء الدين على وجل ، ومهابة تسري الى قلوب من بُد من أهل الكفر شرى ما قرب من الاجل — اقتضت آراؤنا الشريفة أن نمد على أطراف تلك المحروسة منه سورا مصفحا بصفاحه ، مشرفا بأسنة رماحه

فرسم بالامر الشريف العالي لازال يولد وليه فضلا ، ويملأ مملكه احسانا وعدلا — أن يفوض اليه كيت وكيت : لما تقدم من أسباب تقديمه ، وأومئ اليه من عنايتنا بهذا البيت الذي هو سر حديثه وقديمه ، ولملمنا بأولويته التي قطبها الشجاعة ، فلكها الطاعة ، وماداتها الديانة والتقى ، وجادتها الاماثة التي لاتستزلها الاهواء ولا تستفزها الرقى

وليكن لاخبار العدو مطالعا ، ولنجوى حركاتهم وسكناتهم على البعد سامعا ، ولديارهم كل وقت مصبحا حتى يظنوه من كل ثنية عليهم طالعا ، وليدم التأهب حتى لاتفوته من العدو غارة ولا غرة ، ويلزم أصحابه بالتيقظ لادامة الجهاد الذي جرب الاعداء (منه) مواقع سيوفهم غير مرة ، وقد خبرنا من شجاعته واقدامه ، وسياسته في نقض كل أمر وابرامه ، ما يغني عن الوصايا التي ملاكها تقوى الله تعالى وهي من سجاياه التي وصفت ، وخصائصه التي ألفت وعرفت ؛ فليجعلها مرآة ذكره ، وفاتحة فكره ، والله تعالى يؤيده في سره وجهره ، بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى

مرسوم بامرة آل فضل

وهذه نسخة مرسوم شريف بإمرة آل فضل ، كتب بها للامير

حسام الدين « مُهنَّا بن عيسى » من انشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، وهي :

الحمد لله الذي أرهف حسام الدين في طاعتنا بيد من يُمضي مَضاربه بيديه ، وأعاد أمر القبائل وامرتهم الى ما لا يصلح أمر العرب الا عليه ، وحفظ رتبة آل عيسى باستقرارها لمن لا يزال الوفاء والشجاعة والطاعة في سائر الاحوال منسوبات اليه ، وجعل حسن العقبى بعنايتنا لمن لم يتطرّق العدو الى أطراف البلاد المحروسة الا ورده الله تعالى بنصرنا وشجاعته على عقبيه

نحمده على نعمه التي ما زالت مستحقة لمن لم يزل المقدّم في ضمائرنا ، المعوَّلَ عليه في أمور الاسلام وأمورنا ، المعيَّن فيما تنطوي عليه أثناء سرائرنا ومطاوي صدورنا ؛ ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة توجبُ على قائلها حسنَ التمسك باسبابها ، وتقتضي للمخلص فيها بذل النفوس والنفائس في المحافظة على مصالح أربابها ، وتكون للمحافظ عليها ذخيرة يوم تتقدم النفوس بطاعتها وايمانها وأنسابها ، ونشهد أن محمدا عبدُه ورسوله المبعوثُ من أشرف ذوائب العرب أصلا وفرعاً ، المفروضة طاعته على سائر الامم ديناً وشرعاً ، المخصوص بالأئمة الذين بثوا دعوته في الآفاق على سعتها ولم يضيقوا الجهاد أعداء الله وأعدائه ذَرعاً ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين حازوا بصحبته الرتب الفاخرة ، وحصلوا بطاعة الله وطاعته على سعادة الدنيا والآخرة ، وعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف فلم يزحزحهم عن ظلها الركون الى الدنيا الساحره ؛ صلاة تقطع الفلوات ركائبها ؛ وتسري بسالكي طرق

النجاة نجائبها ، وتنتصر باقامتها كتائب الاسلام ومواكبها ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فان أولى من تلقته رتبته التي توَّم إعراضها بأيمن وجه الرضا ، واستقبلته مكانته التي تخيل صدودها بأحسن مواقع القبول التي تضمنت الاعتداد من الحسنات بكل ما سلف والاغضاء من الهفوات عما مضى ، وآلت اليه إمرته التي خافت البَطَل منه وهي به حالية ، وعادت منزلته الى ما ألفته لدينا: من مكانة مكينة وعرفته عندنا: من رتبة عاليه ؛ من أمنت شمس سعادته في أيامنا من الغروب والزوال ، ووثقت أسباب نعمه بأن لا يروّع مريرها في دولتنا بالانتقاض ولا ظلالها بالانتقال ، وأغنته سوابق طاعته المحفوظة لدينا عن توسط الوسائل ، واحتجت له مواقع خدمه التي لا تجحد مواقفها في نكاية الاعداء ولا تنكر شهرتها في القبائل ، وكفل له حسن رأينا فيه بما حقق مطالبه ، وأحمد عواقبه ، وحفظ له وعليه مكانته ومراتبه ، فما توهم الاعداء أن رقد خبا حتى لمع ، ولا ظنوا أن وده أقلع حتى همى وهمع ، ولا تخيلوا أن حسامه نبا حتى أرهفته عنايتنا فحيثما حل من أوصالهم قطع ، وكيف يضاع مثله ؟ وهو من أركان الاسلام التي لا تنزل الاهواء ولا ترتقي الاطماع مترنها ، ولا تستقر[1] الاعداء عند جهادها واجتهادها في مصالح الاسلام حسبها ودينها

ولما كان المجلس العالي ... هو الذي لا يتحول اعتقادنا في ولائه ، ولا يزول اعتمادنا على نفاذه في مصالحنا ومضائه ، ولا يتغير وثوقنا به

(١) لعله « ولا تستقل »

عما في خواطرنا من كمال دينه وصحة يقينه، وأنه مارفعت بين يدينا راية جهاد الا تلقاها عرابة عزمه بيمينه ، فهو الولي الذي حسنت عليه آثار نعمنا ، والصفي الذي نشأ في خدمة أسلافنا ونشأ بنوه في خدمنا، والتقي الذي يأبى دينه الا حفظَ جانبِ الله في الجهاد بين يدي عزيمتنا وأمام همتنا — اقتضت آراؤنا الشريفة أن نصرح له من الاحسان بما هو في مكنون سرائرنا، ومضمون ضمائرنا، ونعين بأن رتبته عندنا بمكان لا تتطاول اليه يد الحوادث ، ونبين ان أعظم أسباب التقدم ما كان عليه من عنايتنا وامتناننا أكرمُ بواعث .

فلذلك رُسم أن يعاد الى الامرة على أمراء آل فضل ومشايخهم ومقدميهم وسائر عربانهم ، ومن هو مضاف لهم ومنسوب اليهم ، على عادته وقاعدته .

فليجر في ذلك على عادته التي لامزيد على كمالها ، ولا محيد عن مبدئها في مصالح الاسلام ومآلها ، آخذا للجهاد أهبته من جمع الكلمة واتحادها ، واتخاذ القوة واعدادها ، وتضافر الهمم التي مازال الظفر من موادها والنصر من امدادها، والرام أمراء العربان تكميل أصحابهم، وحفظ مراكزهم التي لاتسدأ بوابها الابهم، التيقظ لمكايدهم، والتنبه لكشف أحوالهم في رواحهم وغدوهم ، وحفظ لا لاف التي هم سورها من أن تسوِّرها مكايد العدا ، وتخوُّف من يتطرق الى الثغور من قبل أن يرفع الى أفقها طرفاً أو يمد على البعد الى جهتها المصونة يدا، وليبث في الاعداء من مكايد مهابته ما يمنعهم القرار ، ويحسِّن لهم الفرار ، ويحول بينهم وبين الكرى لاشتراك اسم النوم وحد سيفه في مسمى الغرار

وأما ما يتعلق بهذه الرتبة من وصايا قد ألفت من خلاله، وعرفت من كماله، فهو ابن بجدتها، وفارس نجدتها، وجهينة أخبارها، وحلبة غايتها ومضمارها، فيفعل من ذلك كله ما شكر من سيرته، وحمد من اعلانه وسريرته، وقد جعلنا في ذلك وغيره من مصالح امرته أمره من أمرنا: فيعتمد فيه ما يرضي الله تعالى ورسوله، ويبلغ به من جهاد الاعداء أمله وسوله، والله الموفق بمنه وكرمه! والاعتماد ...

مرسوم شريف بامرة آل علي

ثم جاء في (ص ١٢٤) مما يكتب الى المرتبة الاولى من الطبقة الثانية ما نصه:

وهذه نسخة مرسوم شريف بإمرة آل علي، كتب به للامير عز الدين «جماز» بعد وفاة والده محمد بن أبي بكر، من انشاء المقر الشهابي ابن فضل الله، وهي:

الحمد لله الذي أنجح بنا كل وسيله، وأحسن بنا الخلف عمن قضى في طاعتنا الشريفة سبيله، ومضى وخلي ولده رسيله، وأمسك به دمعة السيوف في خدودها الاسيله، وأمضى به كل سيف لا يرد مضاء مضاربه بحيله، وأرضى بتقليده كل عنق وجمّل كل جيله

نحمده على كل نعمة جزيله، وموهبة جميله، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له شهادة ترشد من اتخذ فيها نجوم الاسنة دليله، وتجعل أعداء الله بعز الدين ذليله، وأن محمدا عبده ورسوله الذي أكرم قبيله، وشرف به كل قبيله، وأظهر به العرب على العجم وأخمد من نارهم

كل فتيله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة بكل خير كفيله ، وسلم تسليما كثيرا

وبعد ، فان دولتنا الشريفة لما خفق على المشرق والمغرب جناحها ، وشمل البدو والحضر سماحها ، ودخل في طاعتها الشريفة كل راحل ومقيم في الاقطار ، وكل ساكن خيمة وجدار — ترعى النعم بابقائها في محلها ، والقائها في محلها ، مع ما تقدم من رعاية توجب التقديم ، وتودَع بها الصنائع في بيت قديم ، وتزيّن بها المواكبُ اذا تعارضت جحافلُها ، وتعارفت شعوبها وقبائلها ، واستولت جيادها على الأمد وقد سبقت أصائلها ، وتداعت فرسانها وقد اشتبهت مناسبها ومناصبها ومناصلها ، وكانت قبائل العربان ممن تعمهم دعوتنا الشريفه ، وتضمهم طاعتنا التي هي لهم أكملُ وظيفه ، ولهم النجدة في كل بادية وحضر ، وإقامة وسفر ، وشام وحجاز ، وإنجادٍ وإنجاز ، ولم يزل (لآلِ علي) فيهم أعلى مكانه ، وما منهم الا من توسد سيفه وافترش حصانه ، وهم من دمشق المحروسة رديفُ أسوارها ، وفريد سِوارها ، والنازلون من أرضها في أقرب مكان ، والنازحون ولهم الى لدارها قطار[1] وأوطان ، قد أحسنوا حول البلاد الشامية مُقامهم ، واستغنوا عن المقارعة على الضّيفان لما نصبوا بقارعة الطريق خيامَهم[2] وباهو كلَّ قبيلةٍ بقومٍ كاثر النجوم عديدهم ، وأوقدوا

(١) المنار : لفظ أقطار هنا لامعنى له فهو محرف عن أوطار أخذا من قول الشريف الرضي : لايذكر الرمل الا حن مغترب له بذي الرمل أوطار وأوطان

(٢) ماخوذ من قول الشاعر :

نصبوا بقارعة الطريق خيامهم يتقارعون على قرى الضيفان

وبعده ويكاد موقدهم يجود بنفسه حب القرى حطبا على النيران

لهم في اليفاع نارًا اذا همى القطر شبتها عبيدهم (١)، وهم من آل فضل حيث كان عيشها، وحديثه في المسامع حليها، فلما انتهت الإمرة الى الامير المرحوم شمس الدين محمد بن أبي بكر رحمه الله — جمعهم على دولتنا القاهرة، وأقامهم يبتغي بطاعتنا الشريفة رضا الله والدار الآخرة، ثم أمده الله من ولده بمن ألقى اليه همه، وأمضى به عزمه، ونفذ به حكمه، ونقل قسمه

وكان الذي يتحمل دونه مشقات أمورهم، ويتلقى شكاوى آمرهم ومأمورهم، ويردُ الى أبوابنا العالية مستمطرا لهم سحائب نعمنا التي أخصب بها مرادهم، وساروا في الآفاق ومن جدواها راحلتهم وزادهم، وتفرد بما جمعه من أبوته وإبائه، وركز في كل أرض مناخ مطيّه ومرسى خبائه، وضاهى في المهاجرة الى أبوابنا الشريفة النجوم في السرى، وحافظ على مراضينا الشريفة فما انفك عن نار الحرب إلا الى نار القرى، وورد عليه مرسومنا الشريف فكان أسرع من السهم في مضائه. كم له من مناقب لا يغطي عليها ذهب الاصيل تمويها! وكم تنقل من كور الى سرج، ومن سرج الى كور فتمنى الهلال أن يكون لها شبيها! كم أجمل في قومه سيره! وكم جمل سريره! كم أثر لها أملا! كم أحسن عملا! كم سد خللا! كم جمع في مهماتنا الشريفة كل من امتطى فرسا وركب جملا! كم صفوف به تقدمت، وسيوف أقدمت، وحتوف حمائم الحمام بها على الاعداء ترنمت!!

(١) ماخوذ من قول المعري في رائيته :

الموقدون بنجد نار بادية لا يحضرون وفقد العز في الحضر
اذا همى القطر شبتها عبيدهم تحت الغمائم للسارين بالقطر

وكان المجلس السامي الامير الأجلي الكبير المجاهدي المؤيدي العضدي النصيري الاوحدي المقدمي الذخري الظهيري الاصيلي : مجد الاسلام والمسلمين ، شرف الامراء في العالمين ، همام الدولة حسام الملة ، ركن القبائل ذخر العشائر ، نصرة الامراء والمجاهدين ، عضد الملوك والسلاطين « جمازبن محمد » أدام الله نعمته — : هو المراد بما تقدم ، والاحق بأن يتقدم ، والذي لو أن الصباح صوارم والظلام جحافل لتقدم ، فلما مات والده رحمه الله نحا الى أبوابنا العالية ونور ولائه يسعى بين يديه ، ووقف بها وصدقاتنا الشريفة ترفرف عليه ، فرأينا أنه بقية قومه الذين سلفوا ، وخلف آبائه الذين عن زجر الخيل ماعزفوا ، وكبيرهم الذي يعترف له والدهم ووليدهم ، وأميرهم الذي به ترعى بهعهودهم ، وشجرتهم التي تلتف عليه من أنسابهم فروعها ، وفريدهم الذي تجتمع عليه من جحافلهم جموعها

فرسم بالامر الشريف أن تفوض اليه إمرة آل علي تامة عامة ، كاملة شاملة . يتصرف في أمورهم ، وآمرهم ومأمورهم ، قرباً وبعداً ، وغوراً ونجداً ، وظعنا واقامه ، وعراقاً وتهامه ، وفي كل حقير وجليل ، وفي كل صاحب رُغاءٍ وثُغاء وصرير وصليل ، على أكمل عوائد أمراء كل قبيله ، وفي كل أمورهم الكثيرة والقليلة

ونحن نأمرك بتقوى الله فبها صلاح كل فرق ، وأصلاح كل رفيق ، ونجاح كل سالك في طريق . والحكم : فليكن بما يوافق الشرع الشريف ، والحقوق : نخلصها على وجه الحق من القوي والضعيف . والرفق بمن وليته من هذا الجم الغفير والجمع الكبير . والزام قومك بما يلزمهم من طاعتنا

الشريفة التي هي من الفروض اللازمة عليهم، والقيام في مهماتنا الشريفة التي تبرز بها مراسمنا المطاعة اليك واليهم، وحفظ أطراف البلاد والذب عن الرعايا من كل طارق يطرقهم الا بخير، والمسارعة الى ما يرسم لهم به ما دامت الاسفار في عصاها سير، والافراج لعربك لا تسمح به الا لمن له حقيقة وجود، وله في الخدمة أثر موجود، ومنعهم: فلا يكون الا اذا توجه منعهم، أو توانت عزائمهم وقل نفعهم. والمهابة: فانشرها كسمعتك في الآفاق، ودع بوارق سيوفها تشام بالشام وديمها تراق بالعراق وخيول التقادم: فارتد منها كل سابق وسابقة تنف منهما الرياح، ويحسدهما الطير اذا طارا بغير جناح، ولا تتخذ دوننا لك بطانة ولا وليجة، ولا تقطع عنا أخبارك البهيجة. وليعرف قومه له حقه، ويوفوه من التعظيم مستحقه، فانه أميرهم وامره من امرنا لمطاع، فمن نازع فقد خالف النص والاجماع، والله تعالى يوفقه ما استطاع، بمنه وكرمه! والخط الشريف...

خلاصة معاهدة الصلح (١)

٢

الفصل الرابع في المواد السياسية في خارج أوربا

حقوق المانية في خارج أوربة — تتنازل المانية في خارج أوربة لدول الحلفاء والدول المشتركة معها عن جميع الحقوق والامتيازات في البلاد التي لها أو لحلفائها وتتعهد أن تقبل التدابير التي تتخذها دول الحلفاء الخمس بشأن ذلك

المستعمرات والاملاك وراء البحار — تتنازل المانية لدول الحلفاء والدول المشتركة معها عن أملاكها الواقعة وراء البحار مع كل مالها من الحقوق والامتيازات

(١) تابع لما نشر في الجزء الثالث

فيها وتنتقل جميع الاموال المنقولة وغير المنقولة التي للامبراطورية الالمانية أو لأية دولة من دولها الى الحكومة التي تكون صاحبة السلطة هناك ولهذه الحكومات أن تتخذ ما تستصوب من التدابير لارجاع الرعايا الالمان من هناك الى أوطانهم والشروط التي تشترط على الرعايا الالمان من سلالة أوربية اذا أرادوا البقاء وامتلاك الاملاك والاتجار وتتعهد المانية بأن تعوض من الخسارة التي أصابت رعايا الفرنسويين في الكمرون أو على حدودها بفعل ولاة الامور الالمان الملكيين والعسكريين ولافرد الالمان من أول يناير ١٩٠٠ الى ١ أغسطس ١٩١٤ وتتنازل المانيا عن جميع الحقوق التي اكتسبتها باتفاق ٤ نوفمبر ١٩١١ و٢٨ سبتمبر ٩١٢ وتتعهد بأن تدفع الى فرنسا جميع الودائع والحسابات والسلف التي حصلت عليها بموجب هذين الاتفاقين وذلك بحسب التقدير الذي تقدره لجنة التعويض وتتعهد المانيا بأن تقبل وتنفذ النصوص التي تضعها دول الحلفاء والدول المشتركة معها للاتجار بالسلاح والمسكرات في أفريقية وهي قد برلين العام ١٨٨٥ وعقد بروكسل العام ١٨٩٠ أما الحماية السياسية لاهالي المستعمرات الالمانية السابقة فقد ط بالحكومات التي تدير أمور تلك المستعمرات

الصين — تتنازل المانيا للصين عن جميع الامتيازات والغرامات التي نالتها باتفاق البوكسر المبرم سنة ١٩٠١ وعن جميع المباني والارصفة والقشلاقات والحصون وذخيرة الحرب والبواخر وآلات التلغراف اللاسلكي وسائر الاملاك العمومية — ماعدا المباني التي للوكالة السياسية والقنصليات — في منطقة امتياز الالمان في تيان تسن وهنكو وفي سائر الاملاك الصينية ماعدا كياوتشو وتقبل أن ترد على حسابها الى الصين جميع الآلات الفلكية التي أخذتها سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠١ على ان الصين لا تتخذ اجراءات للتصرف بالاملاك الالمانية في حي السفارات في بكين من غير رضى الدول الموقعة لاتفاق البوكسر. وتقبل المانيا الغاء امتيازاتها في هنكو وتيان تسن وتقبل الصين أن تفتحهما لاستعمال الامم. وتتنازل المانية عن كل دعوى على الصين أو أية دولة أخرى من دول الحلفاء والدول المشتركة معها في ما يختص باعتقال رعاياها في الصين أو اخراجهم منها أو ضبط المصالح الالمانية أو تصفيتها هناك من ١٤ أغسطس سنة ١٩١٧ وتتنازل بريطانية العظمى عن أملاكها

في منطقة الامتياز البريطاني في كنتون وافرنسا والصين معا عن ملكية المدرسة الالمانية في منطقة الامتياز الفرنسوي في شنغاي

سيام — تعترف ألمانية بأن جميع الاتفاقات المبرمة بينها وبين سيام وفي جملتها حقوق الامتيازات الاجنبية زالت من ٢٢ يوليو ١٩١٧ وان جميع الاملاك العمومية لالمانية في سيام تنتقل ملكيتها الى سيام بلا عوض ما عدا دور الوكالة السياسية والقنصليات. أما الاملاك الالمانية الخصوصية فتعامل طبقا لنصوص المواد الاقتصادية (في المعاهدة). وتنازل ألمانية عن كل دعوى لها على سيام تختص بضبط بواخرها ومصادرتها وتصفية أملاكها وأموالها واعتقال رعاياها

ليبيريا — تتنازل ألمانية عن جميع الحقوق التي اكتسبتها بالاتفاقات الدولية التي أبرمت في ١٩١١ - ١٩١٢ بشأن ليبيريا ولا سيما الحق في تعيين سنديك للجمارك ولا تدخل في كل معاوضة مقبلة لارجاع ليبيريا الى سابق منزلتها وتعد في حكم المنقوض جميع المعاهدات التجارية والاتفاقات المبرمة بينها وبين ليبيريا وتعترف بحق ليبيريا في تعيين شروط اقامة الالمان في بلادها ومنزلتهم فيها

المغرب الاقصى تتنازل ألمانية عن جميع الحقوق والامتيازات التي نالتها بعقد الجزيرة والاتفاقات الفرنسوية الالمانية في سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١١ وبجميع المعاهدات والاتفاقات التي أبرمتها مع السلطنة الشريفية (المغربية) وتتعهد بأن لا تتعرض لاية مفاوضة تدور على المغرب الاقصى بين فرنسة وسواها من الدول وتقبل جميع النتائج الناتجة من الحماية الفرنسوية هناك وتتنازل عن امتيازاتها الاجنبية ويكون للحكومة الشريفية الحرية التامة في التصرف نحو لرعايا الالمان ويكون جميع الاشخاص المشمولين بالحماية الالمانية خاضعين لقانون البلاد ويجوز ان تباع جميع الاموال الالمانية المنقولة وغير المنقولة وفي جملتها حقوق التعدين بالمزاد العلني ويعطى لثمن للحكومة الشريفية ويخصم من المطلوب لها من التعويض وعلى ألمانية أيضا ان تتخلى عن مصالحها في بنك الدولة في المغرب الاقصى. وتتمتع جميع البضائع المغربية التي تدخل ألمانية بالامتيازات التي للبضائع الفرنسوية

مصر — تعترف ألمانية بالحماية البريطانية التي بسطت على مصر في ١٨ دسمبر

١٩١٤ وتنازل اختيارا من ٤ أغسطس ١٩١٤ عن الامتيازات الاجنبية فيها وعن جميع المعاهدات والاتفاقات المبرمة بينها وبين مصر وتتعهد أن لاتتعرض لاية مفاوضة تدور على مصر بين بريطانيا العظمى والدول الاخرى . وفي هذا القسم نصوص تختص بالقوانين التي تسري على الرعايا الالمان والاموال الالمانية وعلى قبول ألمانية لكل تغيير يعمل في مجلس صندوق الدين وتقبل ألمانية ان تنتقل الى بريطانيا العظمى السلطة التي كانت ممنوحة لسلطان تركيا السابق لضمان حرية الملاحة في قنال السويس . والاجراءات التي تتبع في أموال لرعايا الالمان في مصر جعلت مشابهة للاجراءات المتبعة في المغرب الاقصى وسواه من البلدان وتعامل البضائع المصرية الانكليزية التي تدخل ألمانية بمثل المعاملة التي تعامل بها البضائع البريطانية

تركية وبلغارية — تقبل ألمانية جميع التدابير التي تتخذها دول الحلفاء والدول المشتركة معها مع تركية وبلغارية في ما يختص بالحقوق والامتيازات والمصالح التي تطالب ألمانية أو رعاياها بها في تينك البلادين ولم ينص عليها في مكان آخر

شانتنغ — تتنازل ألمانية عن جميع الحقوق والامتيازات التي لها ولا سيما في كياوتشا وعن سكك الحديد والمناجم والاسلاك التلغرافية البحرية التي أحرزتها بالمعاهدة التي أبرمتها مع الصين في ٦ مارس ١٨٩٨ وباتفاقات أخرى

أما في شانتنغ فجميع حقوق ألمانية على سكة الحديد من تسنغ تاو الى تسن انفو وفي جملتها حقوق التعدين وحقوق الاستغلال تنتقل الى اليابان أيضا وكذلك أسلاك التلغراف البحري الممتدة من تسنغ تاو الى شنغ وشيفو فهذه أيضا تنتقل الى ملكية اليابان بلا مقابل وتستولي اليابان على جميع أملاك الدولة الالمانية المنقولة وغير المنقولة في كياوتشا بلا مقابل

الفصل الخامس

في الشروط العسكرية البرية والبحرية والجوية

انه توطئة للشروع في انقاص سلاح الامم انقاصاً عاما تتعهد ألمانية مباشرة بأن تسير على المواد العسكرية البرية والبحرية والجوية التالية وهي : —

الشروط البرية — تنص الشروط العسكرية البرية على تسريح الجيوش الالمانية

وتنفيذ القيود العسكرية الاخرى بعد امضاء المعاهدة بشهرين (ويكون ذلك الخطوة الاولى نحو نزع السلاح الدولي) وتلغى الخدمة العسكرية الاجبارية في بلاد ألمانية وتدخل قوانين للتجنيد على قاعدة التطوع في قوانين ألمانية العسكرية تقضي بتجنيد صف الضباط والجنود لمدة لا تقل عن ١٢ سنة متوالية وتشترط ان يخدم الضباط ٢٥ سنة ولا يحالوا الى المعاش قبل ان يبلغوا الخامسة والاربعين ولا يسمح بانشاء احتياطي من الضباط الذين خدموا في الحرب ، ويكون مجموع رجال الجيش لالماني مئة الف لايزيد عدد الضباط فيهم على أربعة آلاف ولا يجوز تأليف قوة عسكرية غير هذه القوة ويمنع منعا خاصا زيادة موظفي الجارك والغابات أوالبوليس وتعليمهم تعليما عسكريا وتكون وظيفة الجيش الالماني صون النظام الداخلي ومراقبة الحدود وعلى قيادته العليا ان تحصر عملها في المهام الادارية ولا يسمح بأن يكون لها هيئة أركان حرب عامة وينقص عدد المستخدمين الملكيين في وزارة الحربية والمصالح المشابهة لها الى عشر ماكان في سنة ١٩١٣ ولا يجوز ان يكون لالمانية أكثر من سبع فرق من المشاة وثلاث فرق من الفرسان وفيلقين من أركان الحرب ويقفل مايزيد عن حاجة هذا الجيش من المدارس العسكرية ومدارس الضباط وتلاميذ المدارس الحربية الخ ويقتصر في قبول التلاميذ الذين يعينون ضباطاً على سد المناصب التي تفرغ في الجيش

أما صنع السلاح والذخيرة ومهمات الحرب في ألمانية فيقتصر فيه على بيان يبنى على قاعدة المقدار اللازم لجيش كالجيش المتقدم ولا يجوز انشاء احتياطي من السلاح والذخيرة فجميع الاسلحة والمدافع والمهمات الموجودة فوق الحد المعين يجب أن تسلم الى الحلفاء للتصرف فيها ولا يجوز لالمانية أن تصنع غازات سامة ولا سوائل نارية ولا يسوغ لها استيرادها ولا يجوز لها أن تصنع دبابات ولا أتوموبيلات مدرعة . وعلى الالمان أن يبلغوا الحلفاء أسماء جميع المصانع التي تصنع الذخيرة والسلاح ومواقعها وبيان مصنوعها لاجل الحصول على موافقة الحلفاء عليها ، ويجب الغاء الترسانات التي لحكومة المانية وصرف مستخدميها، وأما الذخيرة التي تصنع لاستعمال في الاستحكامات فتقتصر على ١٥٠٠ طلقة لكل مدفع من المدافع التي من عيار

١٠،٥ سنتمتر فما دون و ٥٠ طلقة لكل مدفع من المدافع التي هي أكبر من ذلك. ويحظر على المانية أن تصنع السلاح والذخيرة لبلدان أجنبية واستيرادها من الخارج ولا يجوز لالمانية أن تحافظ على الاستحكامات أو تنشيء استحكامات في أرض ألمانية واقعة على أقل من خمسين كيلو مترا شرقي الرين ولا يجوز لها أن تبقى في الشقة المذكورة قوات مسلحة لا دائمة ولا وقتية، ويحافظ على الحالة الحاضرة في ما يختص بالحصون القائمة على الحد الجنوبي والشرق الاصلي للامبراطورية الالمانية ولا يجوز اقامة المناورات العسكرية (في الشقة المذكورة) ولا انشاء مبان دائمة للمساعدة على تعبئة الجيش ويجب نزع السلاح من الاستحكامات في خلال ثلاثة أشهر (بعد المعاهدة)

الشروط البحرية — تنص الشروط البحرية على انه في خلال شهرين لا يجوز أن تتجاوز قوات المانية البحرية ست بوارج من طرز ديتشلندا ولوترنجن وستة طرادات خفيفة و١٢ مدمرة و١٢ نسافة أو ما يساوي هذا العدد من السفن التي تحل محلها . ولا يجوز أن يكون في هذه القوة البحرية غواصات . أما سائر البوارج فتوضع في الاحتياطي أو تخص بالاعمال التجارية ويجوز لالمانية أن تبقي على قدم الاستعداد عددا معيناً من السفن التي تلتقط الالغام الى أن يتم التقاط الالغام في بعض المناطق المعينة في البحر الشمالي وبحر البلطيق . وبعد انقضاء شهرين (على امضاء المعاهدة) لا يجوز أن يتجاوز مجموع رجال الاسطول الالماني ١٥ الفاً منهم ١٥٠٠ من الضباط وصف الضباط على أعظم تقدير . وتسلم (الى الحلفاء) نهائيا جميع البوارج الالمانية التي تسير على سطح الماء والمعتقلة في موانئ الحلفاء أو المحايدين ، وفي خلال شهرين تسلم في موانئ الحلفاء بوارج المانية أخرى مبينة في المعاهدة وهي راسية الآن في الموانئ الالمانية ويجب على الحكومة الالمانية أن تتعهد بتحطيم جميع البوارج الالمانية التي تسير على سطح الماء والتي لم يتم صنعها حتى الآن وأما الطرادات المحولة ونحوها فينزع سلاحها وتعد بواخر تجارية . وبعد شهر تسلم في موانئ الحلفاء جميع الغواصات الالمانية والبواخر المستعملة لاخراج الغارق والحياض الخاصة بالغواصات والتي يمكن أن تسير في البحر بعددها أو التي يمكن

قطرها . وأما الباقي وما لا يزال يصنع في دور الصنعة فيجب على ألمانية أن تحطمه في خلال ثلاثة أشهر، ولا يجوز لالمانيا أن تستعمل حطام هذه السفن الا للاغراض الصناعية ولا يجوز بيعها لبلدان أجنبية الا بشروط معينة لتعويضها. ويحظر على ألمانية أن تبني أو تحرز بوارج ويحظر عليها أن تبني أو تحرز غواصات والبوارج التي تبقى لها تعطى قدرا معينا من السلاح والذخيرة والمهمات الحربية وأما ما يفضل من السلاح والذخيرة والمهمات الحربية فيسلم ولا يجوز لالمانيـة خزن شيء منه أو انشاء احتياطي

ويجب ان يؤخذ رجال الاسطول الالماني بالتطوع التام ولا تقل مدة الخدمة للضباط وصف الضباط عن ٢٥ سنة متوالية وأما صغار صف الضباط أو البحارة فمدة الخدمة لهم لا تقل عن ١٢ سنة متوالية بقيود مختلفة

ولاجل ضمان سلامة الدخول لى بحر البطليك لا يجوز لالمانية ان تنشئ حصوناً في بقاع معينة ولا أن تنصب مدافع تشرف على الطرق البحرية بين البحر الشمالي والبطليك ويجب عليها ان تهدم (المعاقل) الاستحكامات القائمة في تلك البقاع وتنزع ما فيها من المدافع وأما سائر الحصون الواقعة على بعد ٥٠ كيلو مترا من شاطئ ألمانية أو القائمة على جزر ألمانية فهذه تبقى لانها دفاعية ولكن لا يجوز انشاء حصون جديدة ولا زيادة السلاح في الموجود منها . والحد الاعلى لما يخزن من الذخيرة في هذه المعاقل هو ١٥٠٠ طلقة للمدفع الواحد من عيار ١ ٤٦ بوصة فما دون و ٥٠٠ طلقة لكل مدفع من المدافع التي هي أكبر من هذا

ولا يجوز استعمال محطات التلغراف اللاسلكي الالمانية في ناون وهنوفر وبرلين لارسال تلغرافات بحرية وعسكرية أو سياسية من غير رضاء الحلفاء والدول المشتركة معهم في مدة ثلاثة أشهر وانما يجوز استعمالها لاغراض تجارية تحت المراقبة . وفي هذه المدة لا يجوز لالمانية ان تنشئ محطات كبيرة أخرى للتلغراف اللاسلكي ويجوز لها ان ترمم الاسلاك التلغرافية البحرية التي قطعت والتي لا يستعملها الحلفاء وكذلك أجزاء الاسلاك البحرية التي نقلت بعد قطعها والتي لا ينتفع بها الآن . وفي هذه الاحوال تظل الاسلاك المذكورة أو القطع التي نقلت أو التي استعملت ملكا للحلفاء

والدول المشتركة معهم وبناء على ذلك فان ١٤ سلكا أو أجزاء أسلاك عينت في هذه المادة لاترد الى ألمانية

الشروط الجوية — تنص الشروط الجوية على ان لا يكون في قوات ألمانية المسلحة أسلحة طيران عسكري أو بحري ولكن يسمح لها أن تبقي عندها مالا يزيد على ١٠٠ طيارة بحرية غير مسلحة الغاية أول اكتوبر ١٩١٩ تستعمل للبحث عن الالغام تحت سطح الماء فقط. ويسرح جميع رجال سلاح الطيران في ألمانية في خلال شهرين ماعدا ١٠٠٠ رجل بينهم الضباط يجوز ابقاؤهم الى اكتوبر وتتمتع طيارات الحلفاء والدول المشتركة معهم بحرية المرور فوق أملاك ألمانية والنزول فيها والنزول في منطقة المياه المحلية التي لها الى أول يناير ١٩٢٣ الا اذا كانت ألمانية قد سبق فقبلت قبل هذا التاريخ في جمعية الامم أو سمح لها بالعمل باتفاق الجو الدولي ويحظر صنع الطيارات أو أجزائها في جميع أنحاء ألمانية لمدة ستة أشهر وتسلم جميع الطيارات العسكرية والبحرية والبالونات المسيرة ومهمات الطيران الى الحلفاء والحكومات المشتركة معهم في خلال ثلاثة أشهر الا الطيارات البحرية المئة التي تقدم ذكرها

شروط عمومية — وتنص الشروط العمومية على تعديل القوانين الالمانية لتصير مطابقة للمواد المتقدمة وعلى ألمانية ان تنفذ جميع المواد الواردة في المعاهدة تحت مراقبة لجنة دولية من الحلفاء يعينها الحلفاء والحكومات المشتركة معهم وعلى الحكومة الالمانية ان تمد هذه اللجنة بجميع التسهيلات ونفقات مصروفاتها ، وأما مهمة اللجان العسكرية والبحرية والجوية التي للمراقبة فقد نص عليها بالتفصيل

(لها بقية)

﴿ فائدة ، في هدي القرآن في المعاهدة ﴾

من عجائب حكم القرآن وعلومه أن كل زمان يظهر منها مالم يكن ظاهرا فيما قبله كظهوره فيه كما فصلناه في تفسير قوله تعالى (٦:٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) ومن هذا القبيل قوله تعالى بعد الامر بالايفاء بعهد الله من سورة النحل

(١٦ : ٩٢ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة - الى قوله - ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها) الآية. الايمان بالفتح العهود والمواثيق والدخل بالتحريك ما داخل الشيء من أسباب الفساد كالخديعة والحيلة والعبارات التي يراد تأويلها وتحريفها عن ظواهرها في العهود وسنبين ذلك بالتفصيل ان شاء الله تعالى

المسألة السورية والاحزاب

بينما كان العرب في سورية والعراق يمنون أنفسهم بالنجاة من طغيان الطورانيين وما سامهم جلادهم جمال باشا وغيره من سوء العذاب الى نعيم الاستقلال الصحيح والحرية التامة ويتلذذون بما يقرأون في المنشورات والجرائد التي تنقلها اليهم العيون أو تنشرها عليهم الطيارات (كالقبلة والمقطم والكوكب) كان السر مارك سايكس والموسيو بيقو « صديقا العرب » يضعان أصول الاتفاق بين دولتيهما على اقتسام هذه البلاد بينهما و يضمان لها خارتة[1] تحدد منطقة كل قسم منها كما فعل غيرهما من من رجال دول الاحلاف في بلاد الترك أيضا. وقد كان أول من كشف النقاب عن أسرار هذه المعاهدات السرية أحرار الروس لما أسقطوا حكومتهم القيصرية ، ونشروا أسرارها المطوية ؛

وقد اشتهر أمر معاهدة تقسيم ولايات سورية والعراق بين فرنسة وانكلترة وكثر كلام الجرائد الاوربية والعربية فيه ولما ظهرت شروط الرئيس ولسن واتفقت الدول المتحاربة على جعلها أساسا للصلح باعتبار ما فسرها من خطبه التي نشرنا أهمها من قبل كان يظن أنها تنسخ هذه المعاهدة ونظائرها من المعاهدات السرية التي وضعت لاستيلاء الاقوياء على بلاد الضعفاء نسخا تاما، ولكننا وجدنا ان عهد عصبة

(١) الخارتة في الاصل اسم فاعل من خرت الارض بخرتها (من باب نصر) اذا عرف طرقها ومضايقها ومنه الدليل الخريت وهو العارف بذلك. وفي اللسان عن السكسكي: خرتنا الارض اذا عرفناها ولم تخف علينا طرقها اه. فاذا أطلق لفظ الخارتة على الصحيفة التي يرسم فيها وجه الارض وما فيها من جبال وبحار وغير ذلك كان هذا الاطلاق صحيحا باعتبار ان الصحيفة المشتملة على ذلك كالخارتة [illegible] وصف مجازي كثير معاهد في العربية

الامم الذي يحسب الرئيس ولسن أنه غير به نظام الدول والامم ونقل البشر من طور سافل الى طور عال من الحرية والسلام قد أجاز تقسيم بلاد الشعوب الضعيفة بين الاقوياء بشرط ان يسمى تصرف كل دولة فيما تأخذه منها وصاية وتوكيلا لا حماية ولا امتلاكا ولا استعمارا ، وزاد على ذلك أن الشعوب الراقية من أولئك الضعفاء التي يعترف باستقلالها موقتا بشرط قبول هذه الوصاية (أي بشرط أن لا تكون مستقلة) يسمح لها بأن يكون لها صوت في اختيار الدولة الموكلة بها ليكون ذلك حجة عليها. واذا احتج الضعيف على هذا بأنه مناقض لما قاله ولسن وأمثاله من كبار رجال دول الحلفاء من أن أحد أغراضهم الرئيسية من الحرب تحرير الشعوب المطلوبة واستقلالها اذ هو عبارة عن وضع اسم جديد للاستعمار والاستعباد يخدع الجاهلين ويصرفهم عن المقاومة — قال له من عساه يتعطف بالجواب: ليس المراد من تحرير الشعوب غير الاوربية جعلها حرة كالاوربيين كما يفهم البلداء الذين يفسرون الالفاظ بما يرون في معاجم اللغة المخالفة لمعاجم السياسة وانما المراد منه انقاذها من حكامها الظالمين وجعلها تحت سيادتنا العادلة التي هي أفضل للشعب الضعيف من الحرية المطلقة التي لا يقدر على القيام باعبائها وشؤونها ، واذا كان ما قارب الشيء يعطى حكمه، فما القول في ما هو أفضل منه ؟

فاذا قيل ان صحت هذه النظرية فاسترقاق الراقين في الحضارة من الافراد لمن دونهم خير لهم من الحرية فلماذا تحرمون استرقاقهم ؟ ثم لماذا تبيحون حرية الفسق والفجور للشعوب الجاهلة وأنتم ترون ما يجني عليها نشو الزنا والسكر من الامراض والفقر وفساد البيوت (العائلات) والامة؟ ان قيل هذا سكت لسان المقال، وصاح لسان الحال:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

كان أولوا الالمام بالسياسة من السوريين يعتقدون منذ آذن دول الحلفاء الدولة العثمانية بالحرب ان انتصارهم يفضي الى تقسيم بلادها بينهم على قاعدة مطامعهم القديمة فيها بأن تكون الاستانة لروسية وسورية لفرنسة والعراق لانكلترة، ولم تكن أقوال رجال السياسة منهم انهم يبغون تحرير الامم والشعوب مضعفة لاعتقادهم هذا ولكن منهم من حسن الظن بالرئيس ولسن اذ نادى بهذه الحرية وبوجوب تعميمها وتعميم

العدل وعدم التفرقة بين من يجب ان يعدل فيهم اذ حسبوا ذلك ناسخا لما جرت عليه أوربة من وجوب حصر حرية الشعوب في أقوامها دون الشعوب الاسيوية والافريقية، ومنهم من لم يحسن الظن به ولم يفضله على ساسة أوربة في شيء، وربما كان هؤلاء السيئو الظن هم الاقلين من أهل الالمام بالسياسة وكان سائرهم على رأي عامة شعبهم وعامة سائر الشعوب من حسن الظن والرجاء الى ان ظهر عهد عصبة الامم فقال المتمرسون بالسياسة ان قواعد واسس وخطبه لم تأت بشيء جديد الا زيادة كلمات في معجم السياسة الخادع، وان أكثر العامة يفهمون ان المراد من مساعدة الدول الموكلة للشعوب ليس الا عبارة عن امدادها بما يعوزها من المال والسلاح وغيره كما يرون من مساعدة انكلترة لحكومة الحجاز الموالية لها

هذا وان من المعلوم المشهور أن لكل من الفرنسيس والانكليز صنائع وأولياء من السوريين يلقون اليهم بالمودة، فطائفة الموارنة من صنائع فرنسة وأوليائها ولها أفراد من الطوائف أخرى قد اجتهد رجالها في تكثير عددهم بعد احتلال سورية، وطائفة الدروز من صنائع انكلترة وأوليائها وكذلك اليهود صاروا من أوليائها بوعدها اياهم بجعل بيت المقدس وما حوله من سورية الجنوبية وطنا قوميا لهم يرجون أن يستعيدوا فيه ما فقدوا من المال، وقد استمال رجالها بعد احتلال هذه البلاد كثيرا من أفراد الطوائف لاخرى واستمال اليها الامير فيصل كثيراً من المسلمين. زد على ذلك ان جمهور المتعلمين بالمدارس الفرنسية يفضلون فرنسة على انكلترة والمتعلمين بالمدارس الانكليزية والامريكانية يفضلون امريكة وانكلترة على فرنسة، وللدين والمذاهب تأثير عظيم في تفضيل دولة على دولة وأمة على أمة، ودعاة الدين والمذاهب ما زالوا يتبارون في جذب قلوب من يربونهم ويعلمونهم في مدارسهم الى أنفسهم وينفرونها من المخالفين لهم

لم يكن للدولة التركية أدنى عناية بمقاومة دعاة النفوذ الاجنبي في بلادها ولا اهتمام بمعارضته بمثله فيها، ولا في بلاد أولئك لاجانب أو مستعمراتهم بالاولى، وليس لغيرها من أمم المشرق الاسلامية ولا لغيرها دولة ولا امارة لها دعاة يستميلون الناس باسم الدين ولا باسم الحضارة ولا المصالح، لهذا كان الذين ينفرون من

الترك بالتأثير لاجنبي أو بسبب الظلم وسوء الادارة — والذين يتوقعون انقضاء ما عليه الترك من سوء الادارة الى سقوط دولتهم وانقسام الدول الكبرى لها — لم يكن أحد من هؤلاء ولا أولئك يفكر في مستقبل بلاده الا وتتمثل له احدى الدول الاوربية الطامعة مسيطرة عليها متمتعة بخيراتها مستخرجة لكنوزها

كان الامر كذلك الى أن قام الاتحاديون الطورانيون من الترك ببث دعوة الجنسية التركية ومحاولة تتريك جميع الخاضعين لحكمهم من الاجناس الاخرى بالقوة القاهرة حتى دعوا هذه الاجناس دعاً الى المحافظة على جنسياتها ، واحياء ما أماته الجهل والاهمال من لغاتها ، ثم الى التفكر في حريتها واستقلالها ، فلما اتخذ الاتحاديون الحرب ذريعة الى تنفيذ خطتهم في القضاء على العرب في سورية والعراق بالقوة القاهرة وشرعوا ينكلون بهم تقتيلا وتصليبا وتغريبا ومصادرة وتخريبا — كما فعلوا بالارمن والروم — واشتعلت نار الثورة العربية في الحجاز وانضوى أميره الى دول الاحلاف المحاربة للترك والجرمان تعلقت آمال السوريين الذين يساءون سوء العذاب في سورية وغيرهم من العراقيين بأن تكون لهم دولة عربية يكون المؤسس لها ملك الحجاز ، وكان النصارى كالمسلمين في تمني ذلك لان الشدائد التي ذاقوها بأنهم عرب، قد أزالت كل خلاف وشقاق كان بينهم

ولما احتل الحلفاء سورية بعد جلاء الترك عنها وأخذ جزء من جنوبيها عنوة أقاموا فيها ثلاث حكومات عسكرية على قاعدة معاهدة سنة ١٩١٦ : حكومة انكليزية في سورية الجنوبية (فلسطين) لانها منطقة انكاترة، وحكومة فرنسية في سواحل سورية الشمالية لانها منطقة فرنسة، وحكومة عربية في الداخلية لانها منطقة العرب، وكانت كل حكومة تبث نفوذها في منطقتها حتى اعتقد المتمرسون بالسياسة من أهل البلاد في كل منطقة أنها صارت ملكا خالصا لمحتلها مهما يكن الاسم الذي يسمى به هذا الملك . وكانت كل حكومة تشدد في منع الاتصال بين كل قسم من سورية وبين مصر بشدة المراقبة على البريد وشدة التدقيق في منع السفر من أحد القطرين الى الآخر الا لمن يوثق بمشايعته للحلفاء في سياستهم ثم لمن يوثق بأنه لا يخالفهم ولا يشتغل بسياسة غير سياستهم ، ذلك بأن من في مصر أجدر بمعرفة حقائق

السياسة وخفاياها من أهل سورية وسائر أقطار الشرق الادنى ، ولكن الاخبار والافكار كانت تنقل بالتدريج بتلقين بعض ضباط الجيش العربي وغيرهم من خدمة الحكومة العربية الذين كانوا يترددون بين مصر والحجاز وسورية، ثم بتلقين غيرهم وبما كان يحمل كل من الرسائل ، فعرف بذلك الكثيرون من أهل سورية حقائق المسائل ، وكان مما ترتب عليه قوة رجائهم بما يحبون من الاستقلال التام ، وضعف أملهم وتغير رأيهم في ارتباط سورية بحكومة الحجاز، فلم يعد يرغب في هذا أحد يعتد به من الذين عرفوا حقيقة الحال، ولكن الامير فيصلا نجح بلطفه وسخائه وبمظاهرة لانكليز له في تأليف حزب كبير يرغب في جعله ملكا لسورية مستقلة

الاحزاب السورية

من فقه ماتقدم لم يعجب مما يراه من كثرة اختلاف السوريين في أمر بلادهم كما يعجب من لا يعرف من شؤونهم سوى الظواهر التي تتجلى له في جرائدهم ومجلاتهم وبراعتهم في التجارة بمصر وأوربة والممالك الاميركية ، وادارتهم لبعض أعمال الحكومة المصرية والسودانية ،

قال عالم أوربي لشاب سوري من تلاميذه انني وقفت على كثير من شؤون السوريين الاجتماعية وغيرها وحضرت بعض أنديتهم ومحافلهم فلم أر بيننا وبينهم فرقا يذكر لهذا أخذ في العجب مأخذه لما علمت ان كثيرا منهم يطلبون ان يكون وطنهم تحت حماية أو وصاية أجنبية ، هذه خطة خسف وضعة لا يرضى لنفسه بمثلها من نعلم انهم أدنى من السوريين في كل علم وعمل ، وأقل شعوراً بمعنى الحرية والشرف... ولو علم هذا العالم ان مصدر هذا الخسف والضعة بعض أولئك الذين اذا رآهم تعجبه أجسامهم وان يقولوا يسمع لقولهم دون الجمهور السوري الاعظم الذي لم يسلبه التفرنج ولا التعصب الديني ماعرف به السوريون وسائر العرب من الشمم والاباء ثم علم سائر ما أشرنا اليه من أسباب الخلاف لما احتقر السوريين كافة بما صدر عن الاقلين منهم بعذر من الاعذار التي أشرنا اليها في هذا المقال أو بغير عذر

من جراء ذلك ألف السوريون في البلاد وفي الممالك الامريكية ومصر عدة

أحزاب وجمعيات كلها تطالب الاستقلال لسورية برمتها متحدة غير متجزئة ومنها فلسطين ولبنان إما وحدها وإما متحدة مع العراق وجزيرة العرب ، وبعض اللبنانيين منهم يطالب ان يكون لبنان مملكة مستقلة ويضم اليه متصرفية ولاية بيروت وجزء من ولاية الشام مما يكثر فيه النصارى بحيث يكون أكثر الاهالي منهم فتكون البلاد السورية مملكتين الساحلية منهما مسيحية والداخلية اسلامية . بهذا صرح لي بعض كبرائهم وأدبائهم فما الظن بما يصرح به بعضهم لبعض ؟ ثم ان طلاب الاستقلال لسورية من هؤلاء السوريين المهاجرين منهم من يطالبه تاما مطلقا ناجزا كحزب الاتحاد السوري بمصر وبعض الاحزاب والجمعيات في الممالك الامريكية الموافقة لهذا الحزب ، ومنهم من يطالب استقلالا اداريا تحت وصاية إحدى الدول الاوربية الكبرى أو الولايات المتحدة

وأما السوريون الذين في البلاد فالسواد الاعظم منهم كانوا يطلبون الاستقلال المطلق الناجز مع الارتباط بالوحدة العربية التي يراد ان تتألف من جميع الولايات العربية العثمانية على قاعدة اللامركزية ، وقد بثت فيهم دعوة طلاب الوصاية الاجنبية باسم المساعدة فراجت بين الكثيرين لاعتقادهم أنها عبارة عن مساعدة بالمال لاتنافي الاستقلال لابتشريع ولا بتنفيذ فلما فهموا المراد منها نبذها الاكثرون .

أول حزب ألف بمصر (حزب الاتحاد السوري) وكان أعضاؤه المؤسسون من المسلمين والنصارى والدروز وأساس برنامجه الاستقلال التام الناجز ، والمراد بالناجز الحال ، ويقابله الاستقلال المستقبل الذي يتوقف على مساعدة أجنبية ترشح الشعب له وتقوده اليه ان كانت تريد ذلك ، وانما فسرناه لان بعض الناس لم يفهم المراد منه حتى قالت احدى الجرائد السورية ان المراد بالناجز التام ، فحسبنه تأكيداً للتام ، والمراد بالتام مايشمل السياسي والاقتصادي والقضائي وان كان مؤجلا

ألف الحزب ، أولا من فريقي الاستقلاليين والاحتلاليين وكانت المواد الاولى التي وضعت له مشتملة على الجمع بين النقيضين — الاستقلال والاحتلال — فكان كل فريق يقوي المادة الموافقة لمشربه ويدعي الاحتلالي انه استقلالي وأنه انما يطلب مساعدة موقتة للضرورة .

وكل يدعي وصلا بليلى ... وليلى لاتقر لهم بذاكا

فاشتغلا بالجدال والنضال عدة أشهر كان الفلج فيها للاستقلاليين ، وكان الاحتلاليون يتعلمون منه لو ذاء ، وينفصلون مثنى وأفذاذ ، وتقرر البرنامج المؤلف من أربع عشرة مادة بالاجماع في بعضها وأكثر الآراء في بعض . ورضي كاتب هذه السطور بأن يكون من مؤسسي هذا الحزب المخالف لمذهبه السياسي في الجامعة العربية من وجوب اتحاد جزيرة العرب بالولايات العربية العثمانية للحرص على تعاون المسلمين مع النصارى على طلب الاستقلال التام الناجز لسورية بعد أن أطال الدعوة الى مذهبه فلم يستجب له من فضلاء النصارى بمصر الا أفراد قليلون ، ولان التعاون على استقلال بعض الاقطار العربية لا ينافي السعي لاستقلال سائرها من طريق آخر كما صرح به في بعض أيمان الجامعة العربية . وأنا أصرح هنا بأنني لم أكن موافقا على كل مواد البرنامج بل منها ما أسفر النضال فيه بيني وبين بعض الاعضاء عن تنازل بموافقة الاكثرين من الاعضاء لي ثم برجوع بعضهم الى رأي المخالفين لي ارضاء لهم لئلا يخرجوا من الحزب ، ولكنهم خرجوا بعد ذلك . على ان كل قانون وكل نظام يشترك في وضعه كثيرون يتقرر بعض مواده بالاتفاق وبعضها برأي الاكثرين

وتلا حزب الاتحاد السوري الحزب الفرنسي الذي يطلب جعل سورية برمتها (ومنها فلسطين ولبنان) مملكة واحدة مستقلة في ادارتها تحت حماية فرنسة أو وصايتها ، ولم يوجد في مؤسسي هذا الحزب أحد من الطوائف الاسلامية الا حقي بك العظم ومختار بك الجزائري . وتلاه الحزب الحر المعتدل الذي يتفق مع الحزبين السابقين في طلب وحدة سورية وحدودها ويخالفهما في طلب جعل حكومة الولايات المتحدة وصية على سورية ومساعدة لها على الاستعداد للاستقلال التام المطلوب . وليس في مؤسسي هذا الحزب أحد من الطوائف الاسلامية التي تبلغ أربعة أخماس أهل سورية

وكان في مصر قبل هذه الاحزاب بل قبل الحرب أيضا جمعية تعرف بجمعية الاتحاد اللبناني تطلب الدولة العثمانية بحقوق للبنان المعروف أو الصغير فتحولت بعد الحرب الى مطالبة الحلفاء باستقلال الجبل وتوسيع حدوده وجعله تحت حماية جميع الدول

الكبرى . وكان لمهاجري لبنان في البلاد الامريكية جمعية أخرى تعرف بجمعية النهضة اللبنانية تطالب بتوسيع حدود لبنان وتقوية استقلاله وجعله امارة ذات علم خاص وجعل أميره أوروبيا يطلب اختياره من الدول الست الضامنة لاستقلال الجبل ولهم مطالب أخرى متعارضة نشرناها في المجلد السابع عشر ثم كانت هذه الجمعية من طلاب الحماية الفرنسية وبعد انكشاف الحقائق تغير رأي مؤسسيها في ذلك وأشيع ان رئيسها المندوب عنها في باريس طلب الاستقلال التام وانضم الى جماعة الامير فيصل . ولجمعية الاتحاد اللبناني فروع في البلاد الامريكية وفي لبنان نفسه . وكان أكثر طائفتي الموارنة والروم الكاثوليك من غير أعضاء هذه الجمعية يودون أن يكون لبنان وكذا سائر سورية تحت حماية فرنسة كجمعية النهضة اللبنانية، ولما انتهت الحرب بظفر الحلفاء وأعلنوا ان الولايات العربية لن تعود الى الحكومة التركية وتألفت الاحزاب السورية للمطالبة باستقلال سورية على ماتقدم بيانه انضم الى كل من حزبي الاتحاد السوري والحر المعتدل كثير من أعضاء الجمعيتين ودخل أناس منهم في أحزاب أخرى استقلالية واحتلالية من طلاب وصاية الولايات المتحدة أو وصاية دولة غير معينة وبقي بعضهم ثابتاً على المطالبة بفصل لبنان من جسم سورية

الذي نعلمه أن حزب الاتحاد السوري فاق غيره في بث دعوته في سورية والمهاجر السورية لانه على تبرع جميع أعضائه بالعمل وظف له عمال للادارة والترجمة والنسخ واستعان على عمله بسخاء رئيسه ميشيل بك لطف الله وشقيقه جورج بك الذي تبرع له في أول تأسيسه بألفي جنيه مصري حتى كان ينفق في بعض الايام بضع مئين من الجنيهات أجور برقيات الى أوربة وأمريكة حيث أجاب دعوته خلق كثير وبث دعوته في جميع البلاد السورية ولم يستطع ذلك غيره . وأما الحزب الحر المعتدل أو الامريكاني رجع اليه كثير من الاحتلاليين الذين كانوا راضين بوصاية فرنسة من مهاجري السوريين في مصر وأمريكة وقليل من الاستقلاليين فظلوا هم السواد الاعظم ولاسيما في البلاد نفسها ولم يكن له فروع ولادعاة فيها، على أن الدعوة الى طلب مساعدة الولايات المتحدة قد ظهرت قبل تأسيس هذا الحزب في كل مكان، ونسبتها الجرائد الانكليزية الى الامير فيصل منذ كان في أوربة ثم اشتهر انه بث هذه الفكرة في سورية بعد

عودته اليها ثم فكرة الدعوة الى مساعدة الكتلة اذا لم تقبل حكومة الولايات المتحدة ، وهذا هو الذي وقع كما سنبينه بعد . ومن البديهي أن السوريين الذين في الولايات المتحدة وفي غيرها من الدنيا الجديدة كان كثير منهم قبل ذلك يفضل مساعدة الولايات المتحدة على مساعدة كل دولة أوربية، بل قلما يفضل دولة أوربية على الولايات المتحدة في هذا الامر أو ما يشابهه من كل ما يطلب للخير والانسانية الا جاهل غبي، أو متعصب غوي ، أو مستأجر دني، وما كل من طلب مساعدة دولة اخرى ابتداء يفضلها على حكومة الولايات المتحدة في ذلك بل منهم من طلب غيرها لليأس منها، ومنهم من نفر منها باقناعه بأنها ميالة إلى مساعدة اليهود على امتلاك الارض المقدسة وجعلها وطنا قوميا لهم . والاستقلاليون يفضلونها على غيرها أيضا ولكنهم لا يرضون ان يكون لها أدنى سيادة أو سلطان في بلادهم بأي اسم من الاسماء

وجملة الاقوال في الجمعيات والاحزاب انها على كثرتها ترجع الى هذه الثلاثة الانواع وان تأليفها كان خسارا على نفوذ فرنسة فقد كان أكثر عارفي النصارى معها فصار أكثرهم عليها فما القول في المسلمين وكلهم استقلاليون الا الشاذ النادر الذي لا حكم له ؟

لجنة الاستفتاء الدولية

كان مؤتمر الحلفاء عزم على ارسال لجنة دولية الى سورية وغيرها من بلاد الدولة العثمانية لتقف على رأي أهل البلاد في أمر مستقبلها وشكل حكومتها والدولة التي تفضل ان تندب لمساعدتها على الاستعداد للاستقلال المعترف لها به موقتا الى أن تصير قادرة على النهوض به وحدها، ثم اكتفى بجعل اللجنة من فضلاء الامريكيين فأحسن صنعا لان هؤلاء أبعد من الاوربيين عن الهوى في هذه المسألة

طافت هذه اللجنة أمهات البلاد في الولايات والمتصرفيات الممتازة والتابعة للولايات وقابلت في كل منها رجال الاديان والاحزاب والجماعات المنتخبة وممثلي الاندية العلمية والادبية والجمعيات — فظهر لها أن السواد الاعظم من الاهالي يطلب الاستقلال التام الناجز ولا يرضى أن يكون لدولة أجنبية حماية على بلاده ولا وصاية ولا مساعدة تمس الاستقلال ، و يريد أهل سورية الجنوبية (فلسطين) التصريح

بمنع مهاجرة اليهود الصهيونيين الى بلادهم ، وأهل سورية الشمالية يوافقونهم على ذلك كما صرح به الوفد السوري الآتي ذكره وغيره وأنه اذا أصر مؤتمر الصلح على ندب دولة من الدول العظمى لمساعدة الاهالي على النهوض بأمر الاستقلال فيشترطون أن تكون هذه الدولة هي الولايات المتحدة الامريكية لانها غير استعمارية ولاطامعة في البلاد وأن تكون مساعدتها موقتة لا تزيد على ١٥ سنة أو ٢٠ وأن تكون في الامور الفنية والاقتصادية التي لا تمس الاستقلال، وصرح بعضهم بعد قبول المساعدة البتة و بعضهم بطلبها من الولايات المتحدة دون سواها و بعضهم من انكلترة وأكثر هذا الفريق من الدروز، و بعضهم من فرنسة وأكثر هؤلاء من موارنة لبنان و بيروت ، وما كل الموارنة يرضى بوصاية فرنسة و مساعدتها . وأما المسلمون فقد صرحوا في كل بلد بعدم قبول مساعدتها بحال من الاحوال وما شذ الا أفراد لا يعتد بهم . ولاجل الفرار من مساعدتها أو وصايتها قال بعض المرجحين لمساعدة الولايات المتحدة انها اذا لم تقبل فانهم يرجحون انكلترة على غيرها بالشروط التي رجحوا بها الاولى اذا كان لا بد من هذه المساعدة التي احتجوا عليها وعلى المادة الثانية والعشرين من عهد عصبية الامم المتضمنة لها .

ذلك بأنه قد ألف في سورية مؤتمر بأمر الامير فيصل لاجل مقابلة لجنة الاستفتاء واطلاعها على رأي أهل البلاد ووضع (مشروع) قانون أساسي لها انتخب أعضاؤه في أكثر البلاد من قبل المنتخبين الثانويين الذين انتخبوا نواب البلاد في مجلس المبعوثين العثماني الاخير ومنهم أعضاء من طوائف لبنان كلها لا ندري كيف انتخبوا . ولم يمكن اقناع هؤلاء ولا غيرهم بالرضاء بمساعدة الولايات المتحدة ثم انكلترة بالشروط التي أشرنا اليها الا بعد ان بثت الدعوة فيهم بهذه الصفة : ان انتداب دولة من الدول الكبرى لمساعدة البلاد على السير في سبيل الاستقلال أمر مقرر في المؤتمر لا مرد له ، وان فرنسة تمت الى المؤتمر وجميع الدول بدعاوى كثيرة ليندبها لذلك أهمها ان أهل البلاد يفضلونها ، وإن لها صنائع يصدقونها ويطلبون مساعدتها ، فاذا اقتصر الاكثرون على طلب الاستقلال بدون مساعدة ما يخشى ان ترجح فرنسة بحجة أن بعض الاهالي يطلبها والآخرون

لايفرقون بينها و بين غيرها. بناء على هذا وعلى العلم بأن رئيس الحكومة البريطانية صرح بأن دولته لا تقبل الانتداب لمساعدة سورية — لان ما بينها و بين فرنسة من عهد وميثاق يحول دون ذلك وما هو بالذي يجعل قصاصة ورق — وضع المؤتمر القرار الذي قدمه الى لجنة الاستفتاء وسنذكره بنصه في مكان آخر من المنار

اذ لم يكن جميع أعضاء المؤتمر الذي قرر هذا منتخبين من الامة لينوبوا عنها فيه فقد جعلهم في معنى المنتخبين موافقة أكثر من استفتهم اللجنة لهم كما شرحته الجرائد السورية في بيانها لاعمال اللجنة في البلاد المختلفة. فجاء ماتقدم كله مصداقا لما كنا قلناه مرارا لبعض الباحثين معنا من لاجانب والوطنيين ، وهو ان السواد الاعظم في سورية يطلب الاستقلال التام المطلق — ولله الحمد من قبل ومن بعد

السيد الزهراوى

تتمة ترجمته بقلم صديقه الشيخ أحمد نبهان الحمصي

في أول سنة من مبعوثيته وقعت حادثة ٣١ مارث الشهيرة فحوصر المجلس من قبل العسكر بحجة الارتجاع عن الدستور وهددوا المبعوثين بالرصاص حتى انه قتل أحدهم محمد بك رسلان مبعوث اللاذقية رميا بالرصاص في باب المجلس ومنهم من رمى نفسه من احدى النوافذ العالية حتى تحطم خوفا على نفسه من القتل وفرّ كثير من المبعوثين حفظا لحياتهم وبقي المترجم رحمه الله تعالى مع بضعة أشخاص ثابتي الجأش غير مبالين بتلك القوة الهائلة التي تهددهم وهم يخابرون المراكز بالتلفون ويذكرون الوقعة وما هم فيه حتى كادت تلك القوة ان تقضي على بقية المبعوثين ثم خرج المترجم يخترق صفوف العساكر بلا اكتراث حتى وصل الى منزله وانفض الجمع

هذا الثبات في مثل هذا الموقف الحرج مما يدل على شجاعته وقوة يقينه

على أثر هذه الحادثة التي شاع خبرها حتى بلغ الروملي مكبراً زحف محمود شوكت باشا بجوشه ليضرب الآستانة لحماية الدستور وليكل بالارتجاعيين وينتقم ممن أثاروا هذه الفتنة فأرسلت الحكومة اذ ذاك هيئة مؤلفة من الاعيان والمبعوثين

لمقابلة الباشا وابلاغه حقيقة الحال فكان صاحب الترجمة من أعضاء تلك الهيئة الموقرة فاستقبلوه في (اياستفانوس) من ضواحي الآستانة وأوقفوه على جلية الخبر الشائع ولطفوه في سمعه حتى سكت غضبه وسكن جأشه ودخل بغير ازعاج لاحد

وفي أثناء تلك المدة — أعني الدورة الاولى لمجلس المبعوثين — أصدر المترجم جريدة عربية في الآستانة سماها (الحضارة) بشركة شاكر بك الحنبلي ثم انسحب هذا الاخير منها إذ تعين متصرفا للواء عكا بعد انذار الحكومة له

وكان السبب في انشاء تلك الجريدة أنه لما بلغ الاتحاديون مابلغوا من الاثرة والاستبداد وتسميم الافكار بالجرائد التي أنشأوها لبث أفكارهم السوءى وتصويرهم المحال بصورة الحقائق تأسس الحزب الحر المعتدل لمعارضتهم وكان معظم مؤسسية من مبعوثي العرب وحزب الائتلاف وكان معظم مؤسسيه من الترك ثم امتزج الحزبان باسم حزب الحرية والائتلاف وكان المترجم من مؤسسي الحزبين المذكورين لمعارضة حزب الاتحاد والترقي فأصدر جريدته (الحضارة) باللغة العربية للمحافظة على مبدأه الثابت وهو الاعتدال المحض حتى كان رفاقه يلومونه لشدة هذا الاعتدال والتروي وحتى أن كبار الاتحاديين كانوا يعجبون من اعتداله مع معارضته لرأيهم وكان كثير منهم يقول ليت جميع المعارضين مثل هذا الحر المعتدل

* والفضل ما شهدت به الاعداء *

وفي أثناء تلك المدة أيضا وقع اضطراب واختلال في الروملي فعينت الحكومة يومئذ لجنة من الاعيان والمبعوثين للكشف عن أحوال تلك البلاد وكان المترجم رحمه الله تعالى من أعضاء تلك اللجنة

وفي أثناء مدته نشبت الحرب في طرابلس الغرب فصعد المترجم منبر الخطابة في المجلس وهيج الخواطر وحرك السواكن ثم أجهش في البكاء فقال له بعض الحاضرين من المبعوثين لا تبك فاننا سنستردها فقال : أنا لا أبكي على طرابلس الغرب ولكنني أبكي على الروملي وسورية والحجاز والعراق

من تأمل هذه الجملة الجوابية منه يعلم أنه قد لمح من وراء حجب الغيب ما سيكون في المستقبل استنباطا حدسيا من سوء تدبير من بيدهم الحل والعقد ، وقد

اتفق مثل هذا لغيره من أصحاب الروية والحدس ، فوقع ما توقعوه ولله الامر من قبل ومن بعد

في مدة اقامته في الآستانة سواء كان مبعوثا أو لم يكن كان بيته مجمع الفضلاء والادباء على اختلاف لغاتهم ، والكبراء مع تفاوت رتبهم ، يستمدون من آرائه السديدة ، عرف هذا من شاهده بالعيان حتى كانت جلساته على مراتب لكل فريق وقت يقضيه فيأتي فريق آخر حتى تنقضي الساعة السابعة بل الثامنة من الليل

وكان مع كل هذا لا يأخذه ملل ولاضجر ولا سآمة مما يدل على سعة صدره وحسن مجلسه

في أواخر هذه الدورة للمجلس حصلت مناقشة بشأن المادة ٣٥ من القانون الاساسي ووقع الخلاف الشديد حتى آل الامر الى فض المجلس وتجديد الانتخاب ثانية فعاد المترجم رحمه الله تعالى الى وطنه وزيارة أهله وذويه ، فأوحت الحكومة الاتحادية الى جميع المراكز وأوعزت للحكومات أن يكون انتخاب المبعوثين ممن لا يخالف رأيهم ، وكانت تواصل التلغرافات والمندوبين للمراكز بالوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، لهذه الاحوال وشدة الضغط ما تمكن الاهالي من انتخاب المترجم لان حريتهم سلبت حتى امتنع كثير من التصويت

على أثر ذلك سافر الى الاستانة للقيام بأشغل الجريدة فانعقد المجلس من مبعوثين صار تعيينهم من قبل الاتحاديين في الباطن وان كان في الظاهر بالانتخاب

ثم تغلب حزب الائتلاف على حزب الاتحاد وتشكلت الوزارة ففضوا ذلك المجلس الجديد فعاد المترجم الى وطنه فوقعت حرب البلقان فصرف النظر عن الانتخاب الى أن تضع الحرب أوزارها

في ذلك الاوان سافر الى مصر فانتخب من حزب اللامركزية المؤلف هناك رئيسا للمؤتمر الذي انعقد في باريس لاجل مطالبة الحكومة التركية باصلاح بلاد العرب واعطاء هذه الامة المهضومة حقها الة نوني المهضوم وقد طبعت مقررات المؤتمر والخطب التي ألقيت فيه فلا حاجة الى بيان ذلك

وفي اثناء اقامته في باريس كان محل اعجاب الجميع في اعتد له. اذا طالعت تلك المقررات المطبوعة وتلوت ما فاه به رحمه الله حكمت له بذلك الاعتدال وبأن ذلك الاعجاب به كان بحق. وحسبك شهدة الاجانب فان جريدتي الماتان والطان — وهما من أكبر الصحف الفرنسية وأشهرها — قالتا بما نقلته الجرائد المصرية والسورية في ذلك الحين «ان السيد عبد الحميد افندي الزهراوي كان للمؤتمر بمثابة الدماغ من الجسد» وذلك بمناسبة ترؤسه للمؤتمر وحسن ادارته له

وكان مدة اقامته في باريس موضع التبجيل والاحترام، واجتمع بالموسيو بيشون ناظر خارجية فرنسة في مقر النظارة فأعجب به غاية الاعجاب وأنزله منزلة الاكرام

بعد أتمام وظيفة المؤتمر انفض أعضاؤه وبقي المترجم رحمه الله تعالى هناك مع نفر من رفقه مطالبين بالاصلاح العربي فاضطرت الحكومة الاتحادية للتحيل على على جلبهم فأرسلت من قبلها مدحت شكري بيك الكاتب العمومي لمركز الاتحاديين والمرحوم عبد الكريم الخليل للسعي لارضائهم وارجاعهم خدعة ومكرا منهما فعادا بالخيبة وما نالا غاية ولا مقصدا، فأعادوهما ثانية وأذنوا لهما بوعد جماعة المؤتمر باجابتهم الى مايلزم من الاصلاحات للبلاد العربية فوعدا وأقسما الايمان على ذلك فحضر عندها المترجم الى الاستانة اعتمادا على أيمانهم الكاذبة المبنية على الخداع والمكر وعين عضوا في مجلس الاعيان ليشرف على انجاز وعدهم، فبقي ينتظر تلك المواعيد الفارغة (وناهيك بمهارة الاترك بالمواعيد) الى ان نشبت الحرب العامة بسوء تدبير الرؤساء الذين أهلكوا الحرث والنسل وضيعوا ذلك الملك العظيم من أيديهم، وكان من لوازم ذلك اعلان الادارة العرفية في البلاد، فجعل جمال باشا قائدا عاما في سورية بصلاحية واسعة لتنفيذ أوامر الجمعية الخادعة بالاصلاح الذي كانت تنويه وهو الانتقام من متنوري أبناء العرب ونابغيهم واتخذوا الحرب فرصة لتنفيذ ما تكنه صدورهم من الضغائن على هذا الجنس الشريف

صلب المترجم بدمشق الشام مع جملة من وجهاء البلاد السورية بلا محاكمة ولا سؤال منه عن شيء وذلك ليلة السبت ٤ رجب سنة ١٣٣٤ هجرية و٢٣ نيسان

سنة ٩١٦ ميلادية وكان لسان حاله يقول

يا جزع نح وابك واندب جثة خلقت ... من يوم «قالوا بلى» للضنك والمحن
وحيّ أهلا وجيرانا وآونة ... حيّ الرفاق وحي سائر الوطن
حبا بصالحهم أصبحت فديتهم ... ليقطفوا ثمرا من راحتيّ جني

﴿ صفاته رحمه الله ﴾

كان مستجمعا لصفات الكمال. وقورا ذا ذهن حاد وفكرة واسعة وذاكرة عجيبة يتوقد ذكاء وملامحه أكبر دليل على ذلك، واسع الصدر سليمه، لين الجانب، بطيء الغضب لا يقابل أحدا بمكروه، لا يمل من جليسه كيف ما كان ولا جليسه من محادثته، يعاشر كل انسان على قدر علمه، أكثر أحاديثه في مجالسه بما يعود بالفائدة لا يستغيب أحدا ولا يحب أن يُغتاب أحد بحضوره، قليل الكلام الفارغ، كثير التفكر، أبيّ النفس، شجاعا شديد الصبر على الشدائد، قوي اليقين بربه تعالى، كريم الخُلق، جميل الخَلق والهيئة، يحبه من يراه لاول وهلة، عفيف النفس، لا يبالي بزخارف الدنيا، بعيدا عن التكلف، شديد البحث والتدقيق في المسائل، يتتبع الادلة والمستندات وقافا عند الحق، يحب أن تكون الحجة مع غيره ما أمكن، معتدلاً في شؤونه كلها، متمسكا بمبادئه محافظا عليها، عرف ذلك منه كل من عاشره حق المعاشرة

﴿ مكتوباته رحمه الله ﴾

كتب في مواضيع عديدة كلها فوائد — منها ما حوته جريدته الحضارة التي أصدرها في الاستانة ثلاث سنين، ومنها مقالات في التربية كان ينشرها في جريدة ثمرات الفنون ببيروتية قبل اعلان الدستور، ومنها ما نشرته المؤيد والمعلومات العربية والجريدة والمنير وخلافها من الجرائد المصرية والسورية. وكتب في مجلة المنار عدة مقالات. وله كتاب نظام الحب والبغض نشر منه في المنار عدة فصول، وما أكمله لموانع سياسية. ومنها رسالة في الفقه والتصوف وهي التي نوهنا بها قبلاً وأخرى في الامامة، ورسالة ترجمة السيدة خديجة سلك فيها مسلكا غريبا لطيفا أبدع فيه كل الابداع، وأتى بكل ما يستطاع. من طالعها حق المطالعة يقف على مقدرة

هذا المترجم واطّلاعه وسلامة ذهنه وسلاسة قلمه ودقة فكره ونزاهة سره، ولاسيما الابحاث الاخيرة منها، وقدطبعت بمطبعة المنار وكانت نيته أن يجعلها الحلقة الاولى لسلسلة تاريخية فحالت دون ذلك أشغال قامت مانعا عن اخراج هذا الفكر الى حيز الوجود . ومنها رسالة في النحو وأخرى في المنطق وغيرها في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع وكتاب في الفقه بأسلوب قريب المأخذ سهل العبارة يدعم مسائله بالادلة الدامغة [1] وله محاضرات كان يلقيها في بيروت وحمص أيام ذهابه الى الآستانة وعودته منها

وله مكتوبات غير ما ذكر بقيت مسودة بخطه اغتالتها أيدي الاتراك عند ما أرسل من الاستانة الى (عاليه) مركز الديوان العرفي الذي أسسه جمال باشا المخذول

وله شعر لطيف في كل باب من أبواب الشعر ومقطعات ومساجلات مع بعض أصحابه ومراسلات كلها رقائق

من ألطف شعره القصيدة العصماء في موضوعها وحسن أسلوبها ودقة معناها وقد أثبتها برمتها ليقف المطالع لها على رسوخ قدمه رحمه الله تعالى وبعد أفكاره وحسن يقينه واعتقاده وهي هذه

لا تكذبنّا يا بصر ... لا تخدعينا يا فكر
ان الحقائق تحت طي الذ ... شر فوق المنتظر
لكن برؤيتها دعاوي الذ ... امس تعبي من حصر
وسوى سراب لم يروا ... والآل كم غر النظر
أنى التصور يا حجا ... للسر في هذي الصور
الكون مبني على ال ... حركات كل في قدر
مجموع ذر يقتضي ... كل لما ضم الاخر
والارض تجمعنا فنح ... سب أنها احدى الكبر

(١) المنار : كان سبب تأليف هذا الكتاب محاورة طويلة دارت بيننا وبين الفقيد من جهة واحد فتحي باشا زغلول أيام كان وكيلا لوزارة الحقانية بمصر من جهة أخرى ولو تم على عهد الباشا السعي الذي طبعه على نفقة الحكومة لاجل المحاكم الشرعية

والشمس تعربنا لنا فنظنها المعنى الاغر
صور تغيّرُ لا نعي صفة لها غير الغير
ويجل مصدر أمرها عن أن تحيط به الفكر
هو مصدر بوجوده تقضي اشتقاقات الاثر
وتحيرت في ذاته وصفاته فطن غرر
والخبرة المثلى التبا عد عن دعاوٍ للخبر
كم مدعٍ لمعارف عليا عرف بالنكر
ما أنت يا انسان هل تدري دماغك لِمْ شعر
أوأنت تدرك مَن جمي ع الكون عنه قد ظهر
لِم ذي الدعاوي يافتى أأحاط منك به البصر
أأحاط منك به الحجى خُبرًا كما هو فانسبر
أعرفت من قبل المؤث ر كل تفصيل الاثر
أعرفت هذك الفضا ء وما به من كل ذر
دع عنك دعوى واستمع قولا مفيدا مختصر
الناس عثر في الغرو ر ولاجؤن الى الغرر
ويرى بنو الانسان أن بهمو خلاصة ما فطر
دعوى بها يسلون ما يلقون من تعب وضر
فهمو رهان الكدح ما داموا وتلك هي السير
ذوالحال نائب من مضى والعمر جملته خبر
سيان ذي الانعام في حاج الحياة وذا البشر
فتسلّ فيما اسطعت ان فكرت فيما قد حضر
واعبر على المقياس من ماض الى ما ينتظر
واعلم بأن المفلحي ن بذي الحياة أولوا العبر
والكون ظرف جواهر والسر فيه ما ظهر

الشيخ محمد كامل الرافعي

٢

ورث المترجم من والده فقه النفس، وحسن الهدي والسمت، والصفاء وحسن النية، وحب التصوف واخلاص الصوفية — ولكنه لم يتسنّ له من السلوك ما تسنى له — والاشتغال بآداب اللغة فكان منثوره كمنظومه وقلت عنايته بالمنظوم فلم يبلغ فيه شأو الوالد وانما بلغها وفاتها أخوه عبد الحميد بك شاعر طرابلس المشهور وقد أشرت الى ذلك في رثاء الوالد :

وان غدا فيه كل الفضل مجتمعا فقد تفرق في أبنائه النبلا
فللمعارف والارشاد كاملهم من حالف العلم فيه الهديَ والعملا
وفي البلاغة كم عبد الحميد سما وللتحدي بها آي البيان تلا

وكان أيضا يحذو حذو والده في التأنق في مطعمه وملبسه حتى انه كان يتولى شراء ذلك بنفسه واذا لم يعجبه ما يريد من الخضر والفاكهة وغيرهما في السوق القريبة من داره يذهب بالخادم الى سوق أخرى، فكان من أهنإ الناس معيشة جامعا بين التمتع بالطيبات وتقوى الله تعالى والرضاء بما قسمه له . ولكنه ترك التأنق في اللبس في أواخر عمره

وورث من استاذه الشيخ محمود نشابه حب الاستقصاء والتحقيق في العلم فكان بعد زمن الطلب والتلقي عن الشيوخ عاكفا على مطالعة أشهر الكتب وأعوصها إما وحده واما بالمشاركة مع بعض أصدقائه من أهل العلم كالشيخ محمد الحسيني والشيخ محيي الدين الحفار والشيخ عبد اللطيف نشابه نجل الشيخ محمود نشابه. لما بدأت بطلب العلم ألفيته يطالع مع صديقه الشيخ محمد الحسيني الذي هو أشهر علماء طرابلس اليوم أشهر كتب المنطق والاصول والكلام كسلم العلوم ومسلم الثبوت والمواقف والمقاصد ولم أدرك زمن حضوره دروس الشيوخ الا درس (نيل الاوطار) على والده ولم يتمه . والفصل بينه وبين استاذه الشيخ محمود نشابه ان استاذه واستاذنا هذا وقف في العلوم عند غاية فهم أشهر الكتب التي تلقاها في الازهر والتي قرأها للطلبة فرضي لنفسه بما

صححه فقهاء القرون الوسطى ومتكلموها ومفسروها ومحدثوها وغيرهم من علماء اللغة والمعقول ، وكان يصرف سائر وقته في العبادة وأكثر عبادته تلاوة القرآن . وأما المترجم فقد طلب العلم من سن التمييز الى منتهى الاجل فلم نكن نفسه تقف في العلم عند غاية ، واذا لم تطمئن بما قاله أشهر المدققين وما صحح في أشهر الكتب المتداولة بقي يبحث وينقب الى ان يصل الى ما يرتاح له ويقتنع به . ولهذا كان يبحث ويسأل دائما عما يطبع في مصر والهند من الكتب الجديدة ويستحضر ما يعجبه ويرجو فائدته منها فهو أول من أطلعنا على مؤلفات السيد حسن صديق خان ملك بهوبال وعلى زاد المعاد في هدي خير العباد المطبوع في الهند وعلى سلم العلوم ومسلم الثبوت وروح المعاني وغيرهما من مطبوعات الهند ومصر

وورث من استاذه الشيخ حسين الجسر الميل الى الوقوف على حالة العصر العلمية والاجتماعية والسياسية والعناية بمطالعة المجلات والجرائد والاقتناع بشدة حاجة المسلمين الى مجاراة الامم الغربية في العلوم والفنون التي عليها مدار العمران والقوة في هذا العصر مع المحافظة على أصول ديننا وهديه وآدابه التي تفضل كل ما عليه تلك الامم وغيرها مما يخالفها، وكثير مما هي عليه موافق لها أو مقتبس منها. فكان المترجم بهذه المزايا محبوبا محترما عند العوام والخواص من المسلمين وغيرهم ولو انه وفق لنزع قلادة التقليد من عنقه ووجه عنايته الى حل مشكلات المسائل بالاستقلال التام في الفهم بدلا من كثرة مراجعة الكتب لكان بما أوتي من الجد والاجتهاد والاخلاص والانصاف في البحث آية في التحقيق وحل المشاكل، على انه كان على مقربة من ذلك

ولولا أن شغل بعمل الحكومة عن التدريس والتصنيف لكان للامة من سعة اطلاعه وفقه نفسه وحسن بيانه عدد غير قليل من العلماء الذين يجمعون بالتخرج على يديه بين العلم والعمل للامة والملة، ومن المصنفات النافعة التي يخرج بها علمه وفهمه من حيز الاجمال الى حيز التفصيل ، ومن محجبات الصدور، الى سافرات السطور ، فانه رحمه الله تعالى كان من الاقلين الذين طلبوا العلم لله لا للمال ولا للجاه ، وقلما تصدى طلابهما للتدريس والتصنيف إلا بنيتهما ، وباعث الرغبة فيهما ، وآية ذلك أن ترى أكثر تلاميذهم يبتغون العلم في سبيلهما ، وأكثر تصانيفهم خالية من كل

ما تصلح به الانفس وتهذب به الاخلاق ، وفاقد الشيء لا يعطيه

أخلاقه وآدابه

وأما أخلاق الرجل وآدابه فقد كانت المثل الذي يضرب للاسوة ، والامام الذي ينصب للقدوة : عفة وصيانة ، صدق وأمانة ، جود وسخاء ، عزة وإباء ، نجدة ومروءة ، شجاعة وقوة ، رأفة ورحمة ، وفاء وعلو همة ، وذهيك صبره وثباته ، وحبه الخالص وإخلاصه لذي رحمه واخوانه ، فقد كان الاسرة الرافعية الكثيرة العدد في القطرين الشامي والمصري كالوالد العطوف ، والام الرءوم ، يقوم الكل منهم بما تقتضيه حاله من غنى وفقر ، وصحة ومرض ، كان من زار طرابلس من المقيمين في القطر المصري منهم يرى من حفاوته به وإقامة المآدب النفيسة له والعناية بخدمته والقيام بشؤونه مالا ينتظر مثله من والد حفي ، ولا ولد بار تقي ، ولا صديق غني وفي ، ولا أمير سخي أبي

توفي أخوه أحمد أفندي في اليمن وكان حاكما اداريا في بعض بلادها العثمانية وترك غلاما وجارية صغيرين حضنتهما أمهما ثم بلغه أنها تزوجت فخاف ان يكون ذلك مضيعة لهما فأخذ اجازة من الحكومة وسافر الى اليمن لاجل احضارهما وتولي تربيتهما ، وبعد البحث عنهما في اليمن علم أن زوج أمهما رحل بهما وبها الى العراق عاملا للحكومة فسافر الى العراق في المحيط الهندي في فصل الصيف اذ يشتد اضطرابه واصطخابه حتى ان أمواجه لتحرف الناس عن ظهور البواخر أحيانا فيضطر البحارة العاملون على الظهر الى ربط أنفسهم بالحبال ، وفي مثل ذلك البحر في ذلك الزمن يظهر للمسافر انه لا مبالغة في تشبيه التنزيل للموج بالجبال ، فما حدث به المترجم وغيره ان السفينة عند ما تقع بين موجتين ترى كأنها في واد عميق من أودية الجبال. وقد عجب كل من لقيه في سفره هذا من أهل لبنان والعراق كأهل وطنه السوري من شدة غيرته وعلو همته وتفانيه في سعيه لكفالة هذين الولدين وما كان من غبطته وسروره بالظفر بهما بعد ما كابده في سبيلهما من المشاق والاهوال ، وبذل مايفوق طاقته من المال ،

وقد قال فيه أخوه الصغير (وهو لاب) : والله لم يمض فقد أبي كفقدي أخي ،

فقد كفاني غصص اليتم بعطفه وبره واحسانه ، ثم أدبني فأحسن تأديبي بقوة روحه وسعة فضله وبيانه » اه

أقول: كذلك كان عطفه ووفاؤه لاصدقائه واخوانه، يكاد يضاهي بره واحسانه بذي قرباه ورحمه، فكانت داره مثابة لهم في كل وقت من ليل أو نهار، ولكن عنايته بهم كانت أشد، وزيارته لهم أكثر، وقد أجمع على حبه والاعتراف بفضله والثقة باخلاصه النصارى كالمسلمين ، ولم نر دارا من دور علماء الدين في طرابلس كداره يتردد عليها أهل الوجاهة والادب من جميع الطوائف . ولا يظن القارئ ان سائر علماء طرابلس جفاة أو متكبرون ، أو ضرب على أبواب دورهم حجاب من التعصب الديني فلا يزورون ولا يزارون ، كلا انهم بالرقة واللطف مشهورون ، ولكن الفقيد كان ممتازاً فيهم وفي سائر الناس، بما ذكرنا من الشمائل والصفات ، كما انه كان ممتازا بين رجال الدين بالعناية بشؤون السياسة والعمران ، لان نفسه كانت تعشق جميع المعارف والحقائق وتطلب فيها الكمال

كتب الي أخوه عمر أفندي صاحب العبارة التي ذكرناها آنفا، وهو أصغر اخوته، وأشدهم عشقاً لمذهبه واستعذابا لمشربه ، جملة بمعنى ما تقدم في وصفه ، قال :

« كان رحمه الله على حصة موفورة من العلم والفضل ومكارم الاخلاق عزوفا عن اللغو واللهو، ولوعا في البحث والدرس، كثير التنقيب عن نفائس الكتب واقتنائها ، والوقوف على نوادر مسائلها، فكانت داره لذلك ناديا لاهل العلم ينتابونه من كل جانب للمذاكرة والمحاورة والافادة والاستفادة . وقد كان رحمه الله شديد الاهتمام بالعالم الاسلامي والامم الاسلامية لحد لا يوصف، فتراه دائما مستطلعا طلع أخبارهم، متسائلا عن أحوالهم وأطوارهم، فكان اذا سمع خيرا استبشر وتهلل ، وان سمع شرا بات بليلة الملسوع يتأسف ويحوقل ، وكان شديد العناية والعطف على أهله وقرابته، كثير الوفاء لاصدقائه وذوي مودته ، وناهيكم بما نكب به في سبيل تمسكه بمودة الصديق الوحيد، والاستاذ الكامل الرشيد، وذلك في أواخر أيام السلطان عبد الحميد، وأما ايتاؤه ذوي القربى واليتامى من أهله فحدث عنه ولا حرج ، فقد كان يلقب نفسه

بأبي العشيرة والقبيلة (رحمه الله) نظراً لكثرة ما كان يهتم للقريب والبعيد عنه من أهله المنتشرة في سورية ومصر وبلاد الله أجمع .

« ولولا تعهده اياي مدة اليتم في الصبا وأيام نكبتي السياسية في دور الشباب لهلكت وأيم الله، ولولا غرسه في نفسي حب الفضيلة والالتحاق بأهلها لما كنت لمثلكم عاشقا وبكم طروبا

« كان رحمه الله صبورا على اللأواء والضر، وقد خسرت طرابلس بوفاته عالما كريما، وبارا رحيما، بكاه المسلم وغير المسلم لصلابته في دينه وعلمه وفضله، وثباته العجيب في مبدئه الحق وهو حب الحق ونصرته بكل وسيلة وذريعة، والكثير من المسيحيين النبلاء عندنا حب له بوجه خاص نظرا لما عرفوه من حريته وشجاعته وصدق طويته، ولولا مخافة التطويل لاقمت لكم على ذلك الف دليل وحسبي مع ذلك أن أقول : ان مجاهرة المرحوم بكل ما كان يعتقد من حق صريح . ووقوفه في وجوه الظلمة الطغاة من كبار رجال الحكومة البائدة في عهد عبد الحميد ومن بعده . بل واحسانه الى مواطنيه المسيحيين على اختلاف طبقاتهم بالتأمين والتطمين لهم أيام الحرب العامة كلما همّ بهم شيطان من شياطين الحكومة أو طرأ عليهم حادث من حدثان يطرأ على الامة — قد عرفهم بكثير من مزايا الاسلام وفضل علمائه العاملين .... »

(ويلي هذا كلام قطعه المراقب من الكتاب)

مودة المترجم وولايته لصاحب المنار

كان بين آل بيتنا وبين الرافعية في طرابلس مودة ورثها الاب عن الجد ، ولكنها مع بعض الافراد أقوى من بعض ، فكان الشيخ عبد الغني أحب شيوخهم الى والدي ونجله المترجم أحب شبانهم اليه ، لذلك كنت منذ الشروع في طلب العلم أتردد عليه وأحب مذاكرته ، على شدة اعراضي عن معاشرة الناس ، محافظة على سلامة الفطرة والاخلاق ، وقد وجدته أقرب المشتغلين بالعلم الى ذوقي لحبه التصوف وعنايته بكتبه، وكنت لا أعرف من كتب الصوفية إلا إحياء العلوم للغزالي رحمه الله تعالى فشوقني الى كتب الشعراني وكان مغرما بها وأعزني المنن والعهود الكبرى والطبقات فألفيتها دون الاحياء فكنت أعرف منها وأنكر ، وكنت أحضر

في بعض الاوقات دروس مطالعته الخاصة التي بينتها من قبل وألقي السمع الى بعض المسائل في الكلام والاصول فاذا فهمتها ذكرت له ولرفيقه رأيي في الخلاف فيها، فاذا تبين له بعد البحث ومقابلة الدلائل ان ماقلته هو الراجح قال لي من أين جئت بهذا الرأي ؟ — وأنت لم تحضر درسا واحدا في هذا الفن ولاسمعت هذه المسألة وأمثالها من قبل — فكنت أقول له انني رجعت الى نفسي فوجدتها لاتعقل الحق الا فيما قلته، أو ماهذا ماسمعناه، ولما تكرر ذلك صار يبتدأني أحيانا بالسؤال فيذكر مسأله مشكلة و يقول بعد بيان الخلاف فيها : ارجع الى نفسك واذكر لي حكمها فيها

كان هذا مبدأ حسن ظن المترجم بأخيه في الله ، ثم نمى الاعتقاد ، كما ينمي في اليد الخضاب ، حتى انتهى فيه أخيرا الى رأي العالم الناسك الشهير الشيخ عبد الباقي الافغاني ، اذ كان يقول ان علم فلان لدني ، فان مثل هذا لا يأتي بالتحصيل الكسبي ، فكان المترجم أجزل الله ثوابه وليا ونصيرا لي منذ أقدمت على الدعوة الى الاصلاح الديني والمدني في عهد طلب العلم الى ان توفاه الله تعالى اليه كما أشار الى ذلك أخوه فيما رويناه عنه آنفا

ولا مندوحة لي عن ذكر بعض الامثلة والشواهد على ذلك لانها من أهم مايكتب في ترجمة الرجل من حيث هو ركن من أركان النهضة الاسلامية الحديثة في طرابلس:

دعاني بعض اخواننا مرة الى حضور حفلة الذكر السنوية الاولى للمولوية في طرابلس و يسمونها المقابلة ولم أكن رأيتها قبل ذلك ولا رأيتها بعده، فذهبنا بعد صلاة الجمعة الى تكيتهم في وادي نهر أبي علي جنوبي القلعة، وانه لواد وسيم، صح فيه الماء واعتل النسيم ، وانها فيه لدار من أجمل الديار ، في جنات تجري من تحتها الانهار ، وقد أمها في ذلك اليوم خلق كثير من العلماء والوجهاء وسائر الطبقات فجلسنا مع أمثل النظارة المتفرجين في منظرة (كشك) تجاه مكان المقابلة فرأينا شيخ المولوية جالسا على جلد من جلود الضأن أو المعز، ورأينا جماعة الذاكرين بل الراقصين منهم وقوفا لابسين جلاليب رقصهم المعروف عند أكثر الناس في كل بلد يوجدون فيه، ورأيناهم يقبلون على شيخهم الجالس فيحيونه بالركوع وتنكيس الرؤس، وسمعنا العازفين بالناي يعزفون لهم في موضع معين من تلك (الحضرة) و يُخيل الي الآن انه كان هنالك معازف

أخرى — فلما رأيت مارأيت وسمعت ماسمعت أخذتني سورة الغضب لله، ورأيت — والقوم كلهم سكوت مقرّون لذلك — أنه تعين عليّ القيام بفريضة الامر بالمعروف والنهي المنكر، فوقفت في وسط النظارة وبينت لهم ان هذه بدع ومنكرات شر مافيها انها جعلت من الدين والدين بريء منها الخ وأمرت الناس بالخروج لان إقرار المنكر كفعله وخرجت، ولم يلبس أحد من الناس بكلمة استحسان ولا استهجان، ولما بعدت عن المكان قليلا نظرت ورائي فوجدت اناسا يتبعونني ولكنهم قليل بالنسبة الى من بقي

كان هذا الانكار مثارا للعجب في طرابلس الشام وصار حديث الناس في أنديتهم وسمارهم وملاهيهم، وهم بين مستحسن ومستهجن ومعترض ومجيب، وكنت أرى ان أقوى المؤيدين لي والمدافعين عني صاحب الترجمة على شدة أدبه مع جميع المنتسبين الى طرق التصوف وتأثره ببعض خرافات كتب الشعراني. ومن العجائب ان استاذي الشيخ حسينا الجسر وصديقه وصديق والدي الشيخ عبدالله البركة من العلماء كانا من المنكرين علي الناصحين لي بالسكوت عن مثل هذه الامور، فقد دعاني معهم في تلك الايام ابراهيم افندي السبع الى طعام أعده لنا في بستان، وهو ما يسميه أهل طرابلس بالسيران، وهنالك سألني الشيخان عن حقيقة مايتحدث به الناس في تلك الحادثة، فنصصت القول على غره، فصار شيخنا يدافع عن المولوية، بمثل مايؤثر في الكتب من الدفاع عن الصوفية، وأنا أحتج بالسنة ونصوص الشرع، حتى قال متبرما: ان مذهبنا (يعني الحنفي) أشد من مذهبكم (يعني الشافعي) في تحريم السماع والمعازف ولكن الصوفية لهم حالة أخرى مع الله واني أخاف عليك من عاقبة الخوض فيهم والطعن عليهم. قلت له ان هؤلاء القوم ليسوا من الصوفية في شيء حتى يسلم لهم بأن لهم اجتهادا وأحوالا تعرض لهم في بعض الاوقات يعذرون فيها بما لا يعذر به غيرهم. قال فما بالك تخص هؤلاء بالانكار وتسكت عن مرتكبي المعاصي الصريحة التي لاتأويل لها فان من الناس من يشرب الخمر ومن يلعب بالقمار؟ قلت اني لم أر من هؤلاء أحدا، على أن حالهم أهون من حال من يجعل البدع والمنكرات دينا. قال لك الحق من الجهة الشرعية وقد بينت لك رأيي وبذلت نصحي، فاختر لنفسك ما يحلو، أو ماهذا معناه

(الترجمة بقية)

قرار المؤتمر السوري العام

وعدنا في مقال (المسالة السورية والاحزاب) بان ننشر نص قرار المؤتمر السوري الذي قدمه للجنة الاستفتاء الدولية وهذا هو النص العربي الاصلي الذي قدمت ترجمته بالانكليزية :

« اننا نحن الموقعين أدناه بامضاءاتنا وأسمائنا أعضاء المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق الشام والمؤلف من مندوبي جميع المناطق الثلاث الجنوبية والشرقية والغربية الحائزين على اعتمادات سكان مقاطعاتنا وتفويضاتهم من مسلمين ومسيحيين وموسويين . وقد قررنا في جلستنا المنعقدة في نهار الاربعاء المصادف لتاريخ ٢ تموز (يوليو) سنة ١٩١٩ وضع هذه اللائحة المبينة لرغبات سكان البلاد الذين انتدبونا ورفعها الى الوفد الاميركي المحترم من اللجنة الدولية

(أولا) اننا نطلب الاستقلال التام الناجز للبلاد السورية التي يحدها شمالاً جبال طوروس وجنوباً رفح فالخط المار من جنوب الجوف الى جنوب العقبة الشامية والعقبة الحجازية وشرقا نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقي أبي كمال الى شرقي الجوف وغربا البحر المتوسط بدون حماية ولا وصاية

ثانيا — اننا نطلب أن تكون حكومة هذه البلاد السورية ملكية مدنية نيابية تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الواسعة وتحفظ فيها حقوق الاقليات على أن يكون ملك هذه البلاد الامير فيصل الذي جاهد في سبيل تحريرهذه الامة جهادا استحق به أن نضع تمام الثقة بشخصه وأن نجاهر بالاعتماد التام على سموه

ثالثا — حيث إن الشعب العربي الساكن في البلاد السورية هو شعب لا يقل رقيا من حيث الفطرة عن سائر الشعوب الراقية وليس هو في حالة أحط من حالات شعوب البلغار والصرب واليونان ورومانيا في مبدإ استقلالها فاننا نحتج على المادة الثانية والعشرين الواردة في عهد جمعية الامم القاضية بادخال بلادنا في عداد الامم المتوسطة التي تحتاج الى دولة منتدبة

رابعا — اذا لم يقبل مؤتمر الصلح هذا الاحتجاج العادل لاعتبارات لا نعلم كنهها فاننا بعد ما أعلن الرئيس ولسن ان القصد من دخوله في الحرب هو القضاء

على فكرة الفتح والاستعمار نعتبر مسئلة الانتداب الواردة في عهد جمعية الامم عبارة عن مساعدة فنية واقتصادية لاتمس باستقلالنا السياسي التام . وحيث اننا لا نريد أن تقع بلادنا في أخطار الاستعمار وحيث أننا نعتقد أن الشعب الاميركي هو أبعد الشعوب عن فكرة الاستعمار وانه ليس له مطامع سياسية في بلادنا فاننا نطلب هذه المساعدة الفنية والاقتصادية من الولايات المتحدة الاميركية على أن لا تمس هذه المساعدة باستقلال البلاد السياسي التام ووحدتها وعلى أن لايزيد أمد هذه المساعدة عن عشرين عاما

خامسا — اذا لم تتمكن الولايات المتحدة من قبول طلبنا هذه المساعدة منها فاننا نطلب أن تكون هذه المساعدة من دولة بريطانيا العظمى على أن لا تمس باستقلال بلادنا السياسي التام ووحدتها وعلى أن لايزيد أمدها عن المدة المذكورة في المادة الرابعة

سادسا — اننا لانعترف بأي حق تدعيه الدولة الافرنسية في أي بقعة كانت من بلادنا السورية ونرفض أن يكون لها مساعدة أو يد في بلادنا بأي حال من الاحوال

سابعا — اننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي من البلاد السورية أي فلسطين وطنا قوميا للاسرائيليين ونرفض هجرتهم الى أي قسم من بلادنا لانه ليس لهم فيها أدنى حق ولانهم خطر شديد جدا على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسي . أما سكان البلاد الاصليون من اخواننا الموسويين فلهم مالنا وعليهم ما علينا

ثامنا — اننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبي من سورية المعروف بفلسطين والمنطقة الغربية الساحلية التي من جملتها لبنان عن القطر السوري ونطلب أن تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بأي حال كان

تاسعا — اننا نطلب الاستقلال التام للقطر العراقي المحرر ونطلب عدم ايجاد حواجز اقتصادية بين القطرين

عاشرا — ان القاعدة الاساسية من قواعد الرئيس ولسن التي تقضي بلغو المعاهدات السرية تجعلنا نحتج أشد الاحتجاج على كل معاهدة تقضي بتجزئة

بلادنا السورية أو كل وعد خصوصي يرمي الى تمكين الصهيونيين من القسم الجنوبي من بلادنا ونطلب أن تلغى تلك المعاهدات والوعود بأي حال كان

هذا وان المبادئ الشريفة التي صرح بها الرئيس ويلسون لتجعلنا واثقين كل الثقة في أن رغائبنا هذه الصادرة من أعماق القلوب ستكون هي الحكم القطعي في تقرير مصيرنا وان الرئيس ويلسون والشعب الاميركي الحر سيكون لنا عونا على تحقيقها فيثبتون للعالم مصداق مبادئهم السامية وغاياتهم الشريفة نحو البشرية بنوع عام وشعبنا العربي بنوع خاص وان لنا الثقة الكبرى في أن مؤتمر السلم يلاحظ أننا لم نثر على الدولة التركية التي كنا واياها شركاء في جميع الحقوق التمثيلية والمدنية والسياسية الا لانها تجاملت على حقوقنا القومية فيحقق لنا رغائبنا بتمامها فلا تكون حالتنا قبل الحرب أقل منها بعد الحرب بعد أن أرقنا من الدماء ما أرقناه في سبيل الحرية والاستقلال، ونطلب السماح لنا بارسال وفد يمثلنا في مؤتمر السلام للدفاع عن حقوقنا الثابتة تحقيقا لرغباتنا والسلام اه

الدولة العثمانية بعد الهدنة

اشترطت دول الحلفاء في مهادنة الدولة العثمانية ان يكون لهم الحق في احتلال جيوشهم للبلاد والمواقع العسكرية التي يتوقف تنفيذ شروط الهدنة على احتلالها كتأمين تسريح الجيش واعادة الاسرى، وجعلوا هذا الشرط وسيلة لاحتلال كاد يكون عاما شاملا لجميع الولايات التركية بعد احتلوا جميع الولايات العربية في سورية والعراق. ومن البديهي ان هذا الاحتلال يمكنهم من تسريح جميع الجنود العثمانية الا ما يراه الحلفاء نافعا لهم في حفظ الامن تحت ادارتهم كالشرطة وأعوانها ومن جمع السلاح بحيث يكون تقسيم البلاد بينهم سهلا سائغا لا مشقة فيه ولا خسارة، ولم يكتفوا بجعل هذا الاحتلال لجيوش الدول الكبرى الظافرة بل انتهوا في اذلال الدولة والشعب التركي الى الاذن لجيش من اليونان ان يحتل ولاية أزمير أهم الولايات التركية بعد ولاية الآستانة فطفق هؤلاء يستذلون أهلها فكانت هذه النكاية حافزة للترك الى الخروج مما خنعوا له أولا من احتلال الآستانة وغيرها فهاجت الآستانة وماجت واجتمع

مئات الالوف في الميدان الفسيح بين مسجد أياصوفيا ومسجد السلطان أحمد واحتجوا أشد الاحتجاج على عمل الحلفاء، واحتج السلطان محمد وحيد الدين نفسه عليه بأن أعلن الاستقالة من الخلافة والسلطنة، وأبى ولي عهده ان يقبل المبايعة لنفسه فاضطر السلطان الى البقاء في دسته، وتألفت العصابات المسلحة في ولاية أزمير وغيرها من الاناضول لقتال اليونان فحملتهم خسائر عظيمة، ثم عزم الترك في الاناضول على مقاتلة كل جيش يحتل بلادهم أو يجعلها تحت حماية أجنبية وهو المتبادر من عمل أوربة. وفر أنور باشا وغيره من الضباط الى القوقاز فتولوا تأليف العصابات لقتال الانكليز الذين احتلوا بعض تلك البلاد، والمساعدة على نشر البلشفية في أمم الشرق الاسلامية

بهذه العصابات التي ينتمي أكثر قوادها الى جمعية الاتحاد والترقي التي لم تدع في الجيش أحدا من غير رجالها ذا قيمة أخذت الجمعية تبني لها مجدا جديدا في البلاد بعد ان ظن أكثر الناس انه قضي عليها بسوء عاقبة الحرب التي أهلكت بها الدولة والامة، وبما تلا الهدنة من فرار أكبر زعمائها واعتقال الباقين، وبما للسلطان محمد وحيد الدين الذي كان يمقتها أشد المقت من النفوذ الخاص الذي يعرفه له أهل المكانة من الترك وغيرهم حتى وصفه عربي وجيه كان مقيما في الآستانة وعرفه حق المعرفه بقوله: انه جمع بين ديانة أبيه عبد المجيد وشجاعة عمه عبد العزيز ودهاء أخيه عبد الحميد وقال عربي آخر مختبر ان مشربه تجديد حياة الدولة بالمحافظة على مكانتها الاسلامية والعناية بالترقي المدني وابطال التقاليد الضارة. ويرى العارفون بشؤون الدولة الآن انه راض في الباطن من مؤسسي العصابات كمصطفى كمال باشا وغيره وان كانوا غير خاضعين لحكومة الآستانة الخاضعة لاحتلال الحلفاء.

فالحرب الآن في الاناضول مستحرة كروسية، ونيران الفتن في البلقان مستورة برماد دقيق تنكشف من تحته تارة بعد أخرى، وجميع أمم الارض مضطربة جائعة، وسبب ذلك كله مؤتمر الصلح الاعرج الاعشى، الذي اكتفى بعقد الصلح مع ألمانية ليقيدها بقيود تمكنه من التصرف في سائر الامم بما يهوى، ومعاهدة الصلح معها لم يظهر رضاه عنها أحد الا الحكومة الانكليزية الواضعة لها، ولا يعلم عاقبة ذلك أحد الا الله تعالى، فنسأله سبحانه اللطف بعباده المهضومي الحقوق والادلة لهم من ظالميهم الطامعين آمين

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

٢٩ ذي القعدة ١٣٣٧ — ٢ السنبلة (ص ٣) ١٢٩٧ هـ ش ٢٦ أغسطس ١٩١٩

تفسير القرآن الحكيم

﴿ الجزء السابع ﴾

تم الجزء السابع من التفسير فكان كجزئين من الاجزاء السابقة في حجمه ، ونرجو أن تكون فائدته أكبر من فائدة ماقبله ، لان معظمه في أصول الدين وعقائده ، كبيان التوحيد وحقيقة الرسالة وتحديد وظائف الرسول والآيات على الالوهية والوحي والرسالة والبعث وشبهات الكفار على ذلك وتفنيدها ، والرد على المشركين وأهل الكتاب

طبع هذا الجزء في أيام الحرب اذ غلا ثمن الورق فصار بضعة عشر ضعفا أو عشرين وكذا ثمن الحبر وغيره من أدوات الطبع فاذا جعلنا ثمنه على هذه النسبة أو دونها بقليل وجب ان يكون ٣٠٠ أو ٢٥٠ قرشا ولكننا مع هذا جعلناه ثلاثين قرشا من الورق المعتاد و٣٥ من الورق الاجود وجعلنا ثمن كل جزء مما قبله ١٥ قرشا وسنكف عن نشر التفسير الى ان يرخص ثمن الورق والله الموفق

ذات بين الحجاز ونجد او الخرمة

والوهابية والمتدينة

في هذا الصيف كثر خوض الجرائد الاوربية والعربية المصرية والسورية في المسألة العربية وذكرت أنه وقع بين الوهابيين التابعين لابن سعود أمير نجد والحجاز بين حرب سببها الخلاف في المذهب انتصر فيها الاولون انتصارا فاصلا في (تربة) فكلوا بجيش الامير عبد الله نجل ملك الحجاز وأخذوا جميع ماكان معه من مدافع والسلاح والذخائر ثم أذيع انهم احتلوا مكة المكرمة وان ملكها لما شعر بقرب وصولهم اليها أخلاها لهم وسافر الى جدة فأقام فيها واستجار بحليفته بريطانية العظمى. وكثر حديث الناس في هذا المعنى وكان مما ذكرته هذه الجرائد أن الوهابية مصلحون في الاسلام. وتربة هذه (بضم فتح) قرية في الشرق الجنوبي من مكة والطائف وفي الغرب من وادي تربة الشهير الذي قال فيه صاحب معجم البلدان انه واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها.

أما أخذ النجديين مكة المكرمة فهو كذب صرح بتكذيبه كل من الوكالة العربية الهاشمية بمصر ودار الحماية الانكليزية، وأما وقوع القتل وانكسار جيش الامير عبد الله في (تربة) وأخذ جميع أسلحته فقد ثبت رسميا كما فصل في برقية وردت من عدن

وأما ما علمناه في المسألة من ثقات الضباط الذين كانوا في الحجاز وفي برهم فهو ان النزاع والقتال كان بين حكومة مكة وبين الشريف خالد صاحب (الخرمة) وهي قرية في الشرق الشمالي من مكة قريبة من وادي تربة والشريف خالد هذا من شرفاء مكة وعشيرة الامارة فيها وكان قد استنجد لمساعدة الشريف علي على فتح المدينة المنورة فلبى وهو الذي أمر أشرف بك أشقى الفدائيين الاتحاديين اذ كان رسلا بمبلغ كبير من الجنيهات المجيدية الى الامير ابن الرشيد ثم وقع الخلاف النفور بين الشريف علي قائد الجيش العربي المحاصر للمدينة المنورة وبين

الشريف خالد فعاد الثاني الى الخرمة وصار ملك الحجاز يرسل الحملة بعد الحملة لقتاله فيظفر بها وينضم اليه الكثير من بدوها ويدخلون في جماعة الاخوان المتدينة الذين نذكر خبرهم قريبا ، ولما سلم الترك المدينة المنورة الى جيش الامير علي بعد عقد الهدنة بين الدولة العثمانية والحلفاء الف الشريف عبد الله حملة من الجيش النظامي الذي كان محاصرا لها فيها عشرات من الضباط زيدت مرتباتهم وجهزت بأنواع الاسلحة الجديدة من المدافع الجبلية والرشاشة وغيرها وبالديناميت . قال بعض الضباط الذين كانوا في الحجاز ان هذه أعظم حملة يمكن لحكومة الحجاز أن تكافح بها الشريف خالدا فاذا كسرها تيسر له الاستيلاء على مكة المكرمة اذا شاء ، ثم لغا ما تقدم من أن جيش ابن سعود هو الذي كسر الحملة . ثم نقل الينا أن الحملة المنظمة استظهرت على الشريف خالد فأمرها ملك الحجاز بالزحف على نجد فعند ذلك فأرسل الامير ابن سعود بجيوشه لقتالها فظفرت بها ، ثم زحفت تقصد مكة حتى قيل انها وصلت الى وادي الليمون وان ملك الحجاز استنجد بالحكومة الانكليزية على ابن سعود . فسألت الامير ابن سعود عما يريده من الحجاز فأجاب بأنه هو أحق بحكم الحجاز من شرفاء مكة وأن أكثر أهله يفضلونه عليهم لعلمهم بعدله وشكواهم من ظلم جميع الشرفاء واستبدادهم مع ما كان من سيطرة الترك عليهم . وانه مع هذا لا يبغي الاستيلاء عليه وانما يطلب أن يكون (وادي تربة) هو الحد الفاصل بينه وبين نجد وأن تعترف به الحكومتان حتى لا تعتدي واحدة منهما على ما وراءه وأن يكون لحكومة نجد معتمد في مكة المكرمة ينظر في مصالح رعاياها ويراجع حكومتها في شأنهم فان شريف مكة كثيرا ما يظلمهم وفي بعض السنين يصدهم عن اداء فريضة الحج فلا يسمح لهم بها . فرأى الانكليز أن هذين المطلبين حق فوعدوا ابن سعود بأن يتوسطوا بينه وبين ملك الحجاز فيهما بشرط أن يمتنع هو وجميع أتباعه من المتدينة من التعدي على الحجاز . وبلغنا أيضا انهم خاطبوا ملك الحجاز في ذلك فأبى أن يعترف لنجد بحدود أو يقبل منها معتمدا ، والظاهر أن الانكليز يظاهرونه لاخلاصه وموافقته لسياستهم في بلاد العرب

المتدينة والوهابية

يعلم الملايين من البشر بعضهم بالمشاهدة والاختبار و بعضهم بالروايات الثابتة بالتواتر أن الاعراب (البدو) في الحجاز وغير الحجاز قد عادوا الى شر مما كانوا عليه في الجاهلية من الغزو والسلب والنهب والقتل حتى للحجاج المحرمين في أرض الحرم والاشهر الحرم وأنهم يستحلون ذلك ويسمونه كسبا ، وأن لهم شرائع وأحكاما عرفية مخالفة للشرع لا يرضون الحكم بدونها . وان أكثرهم لا يصلون ولا يصومون ومن يحج منهم لا يلتزم أحكام الشرع في الحج ولا يعرفها ولا يمنعه الاحرام بالحج عن القتل والسلب والنهب ان قدر عليه . ولا شك في أن من كان كذلك فهو ليس بمسلم ولا ذي دين. هذا ما هو مشهور عنهم، و يظن كثير من الناس انهم كلهم على ذلك وهذا خطأ عظيم فانه يصدق عليهم في هذا العصر ما بينه الله عز وجل من حال أسلافهم في عصر التنزيل وهو ان منهم الكافر والمنافق والمؤمن الصادق، ولكن كفر الكافرين منهم كله أو جله عن جهل بضروريات الدين التي لا يعذر أحد بجهلها ، ولعله لا يوجد فيهم شيء من كفر العناد والجحود

وأما الذين عادوا الى الدين من أعراب الحجاز وماحوله فالفضل في هدايتهم لشيوخ السنوسية ودعاة علماء نجد . أما السنوسيون فقد كان لهم في نشر طريقتهم شرة (أي نشاط وقوة) تلتها فترة . وأما النجديون فقد بلغنا أن شرتهم ونشاطهم بلغا أشدهما في هذه السنين الاخيرة ، ويسمون من يستجيب لهم المتدينة ، ويقابلهم من لا دين لهم يهتدون به وهم الذين لا يعرفون عقيدة الاسلام ولا شرائعه و يستبيحون الغزو والسلب والنهب لمجرد الكسب ، و بلغنا أن الدعاة يبينون في دعوتهم هذه الحقيقة لكشف غرور من يظن من أولئك الاعراب ان تسمية أنفسهم مسلمين يغني عنهم شيئا فيذكرون لهم أن الاسلام علم وعمل فمن لا علم له بحقيقة عقيدته — وأساسها التوحيد الخالص وتنزيه الله تعالى ووصفه بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم — ولا بأحكام أركانه وشرائعه وأن من لا يأتي لاحكامه بعد العلم بها فليس منه في شيء. وان من مات من آبائهم وأجدادهم غير عالم بذلك ولا مذعن له بالعمل من مستبيحي القتل والسلب فقد مات كافرا

حال المتدينة الدينية واشتراكيتهم الاختيارية

وبلغنا ان من استجاب دعوة هؤلاء الدعاة من الاعراب يتوب عن الكسب بالغزو والنهب ويتحولون عن البداوة فيبنون البيوت ويغرسون الشجر ويزرعون ويأخذون بتعلم القراءة والكتابة حتى قبل التحضر فتراهم يحملون ألواح الكتابة على ظهور الابل يتعلمون بها، ولا يبعد ان نجد فيهم من يقول كما قال أحد أعراب شنقيط:

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة ... بها نبين دين الله تبيانا

— وان التعاطف والتعاون بينهم يشبه ما كان في صدر الاسلام بين المهاجرين والانصار رضي الله تعالى عنهم فقد روينا عن أحد المختبرين من أهل مكة المكرمة ان الرجل منهم اذا كان عنده ألف شاة وكان يكفيه لنفسه وعياله نصفها أو ربعها مثلا فانه يبذل الباقي كله لمصلحة الاخوان

ولا يمكن حملهم على قتال أحد الا بحجة دينية فاذا قنعوا بأن القتال واجب شرعا وشرعوا فيه فانهم يندفعون بشجاعة واستبسال، وينفق كل في سبيله كل ماتصل اليه يده من المال، على حين نرى غيرهم لا يقاتل الا مأجورا، وإذا وجد من يزيد في أجره على من يقاتل معه ليقاتله فعل.

وبلغنا أن دعوتهم تغلغلت في جميع قبائل نجد والحجاز وعسير وأطراف هذه البلاد وما جاورها حتى ان قبيلتي غامد وزهران الحضريتين طلبتا مرشدين من علمائهم

ما ينتقد على المتدينة

هذا مجمل ما بلغنا من خبرهم من المختبرين المعجبين بنهضتهم الذين يرجون تجديد الاسلام في الجزيرة بهذه الحركة، ولا نجد بدا من ذكر انتقاد بعض رواة خبرهم غلوهم في كثير المسائل وتشديدهم فيها الى انهم يحرمون بعض المباحات، ويجازون على بعض الذنوب بأشد العقوبات، وآفة ذلك جهل بعض الدعاة بالاحكام الشرعية تفصيلا، وهو جهل لا يرجى تلافيه الا بالتوسع في العلم الشرعي، فان الذي يأخذ الدين بقوة يرجع الى ما يعلم من أحكامه وهدايته.

وخصوم هؤلاء المتدينة ينبزونهم بلقب الوهابية الذي وضعته السياسة لاهل نجد وسمته مذهبا، وقد حدثني الثقة عن عالم من أهل الحديث رآه في مكة وكان في نجد

ان علماء نجد ينتقدون على المتدينة غلوّهم في الدين والجهل بكثير من أحكامه التي لا غنى لمسلم يقيم دينه عنها . وسبب ذلك أنه لا يوجد في نجد من الدعاة والمعلمين الراسخين في علم السنة ومذهب الامام أحمد من يكفي لتعليم هذه القبائل الكثيرة التي تركت تقاليد الجاهلية وانتظمت في سلك المتدينة. واننا رأينا أكثر الذين ينصفون الوهابية في الامصار الاسلامية يقولون لاشك في انهم مجددون للاسلام في بلاد العرب ولكنهم غلاة مشدّدون ولشدة تمسكهم بظواهر النصوص وأخذها بقوة بدوية لا يشعرون بأنهم غلاة متشددون

حقيقة الوهابية ومذهبهم

ترى في كتب التاريخ الحديث ان لفظ الوهابية يطلق على أتباع الشيخ محمد عبد الوهاب العالم السنيّ الشهير الآتي ذكره المجدد للنهضة الدينية في نجد. وقد اتخذ أمير نجد تلك النهضة في إبان ظهورها وانتشارها وسيلة للاستيلاء على بلاد الحجاز التي طال عليها عهد الظلم والجهل ولم يظهر فيها مصلح علمي ولا إداري ، فانبرت حكومة الآستانة لمناهضته واخراجه من الحجاز الذي هو مناط عظمتها وسلطتها الاسلامية، واستعانت على ذلك بحكومة محمد علي باشا الفتاة اذ كانت عاجزة عن تولي ذلك بنفسها ، وأرادت ان تشوه تلك الحركة الاصلاحية فاذاعت أنها عبارة عن احداث مذهب جديد مبتدع في الاسلام مخالف لمذاهب أهل السنة، وأغرت أنصارها من العلماء الرسميين والمفتين بالرد على هذا المذهب وتضليل أهله أو تكفيرهم وهم ينكرون كل مذهب في الاصول غير مذهب السلف الصالح ويتبعون في الفروع مذهب الامام أحمد ابن حنبل وأصحابه ولكن الدولة العثمانية والحكومة المصرية كانتا أقدر منهم على اقناع أكثر أهل بلادهما بأنهم يتبعون مذهبا جديدا وان محمد علي باشا كان مجاهدا ناصرا للاسلام بقتالهم وان كان أصدق مؤرخي عصره وهو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي يثبت ضد ذلك في سيرته وفي وصف جيشه وجيشهم، فأما كلامه في سيرته فكثير، وأما مارواه عن المقارنة والمقاتلة بين الجيشين فحسبك منه ماذكره في أول حوادث سنة ١٢٢٧ عند ذكر الذين انهزموا من عسكر محمد علي ورجعوا الى مصر وهو

رواية الجبرتي في الوهابية وعسكر محمد علي

« ولقد قال لي بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبا وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضينا أذان ولا تقام به فريضة ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين. والقوم (يعني الوهابية) اذا دخل الوقت أذن المؤذنون و ينظمون صفوفاً خلف امام واحد بخشوع وخضوع واذا حان وقت الصلاة والحرب قائم أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة للحرب وتتاخر الاخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك لانهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته و ينادون في معسكرهم هلموا الى حرب المشركين المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط الشاربين الخمور التاركين للصلاة الآكلين الربا القاتلين الأنفس المستحلين المحرمات وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غير مختونين » اه

نظرة في أقوال الناس في الوهابية

لا يزال كثير من مسلمي الحجاز ومصر وسورية والآستانة والاناضول والرملي يظنون ان لاهل نجد مذهبا مخالفا لمذاهب أهل السنة لان بعض الذين كتبوا عنهم قالوا انهم يكفرون غيرهم من المسلمين ويقولون في النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ما يعد إهانة وانهم عند الاستيلاء على المدينة المنورة أخذوا الكوكب الدري من الحجرة النبوية مع غيره من الجواهر والذخائر وانهم ربطوا الخيل في المسجد الشريف وهم لا يحققون هذه التهم ولا ما يصح ان يعد منها كفرا وما لا يعد وهي تهم خصوم سياسيين والسياسة تستحل الكذب والبهتان والتحريف وكل منكر يوصلها الى غايتها. ثم انهم يغفلون عمد في قوانين حكوماتهم من المخالفة لاصول الدين وفروعه القطعية المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة التي يكفر جاحدها باتفاق مذاهبهم كاباحة الزنا والربا والقتل لاسباب عسكرية وسياسية مخالفة للشرع، وعن قول علمائهم ان الرضا بالكفر كفر، وعما يسمعون من الاقوال ويرون من الافعال التي يعدها فقهاؤهم كفرا أو فسقا يكفر مستحله. ولا يقولون لعل ما يقال عن أهل نجد ان صح يكون من جعل بعض أفرادهم لا من مذهبهم كما أن ما في بلادنا من أحكام القوانين وأعمال الكثير من الفساق والمرتدين هو من جعل بعض الناس بالدين أو ترك الاهتداء وليس عملا بمذهب أبي حنيفة الذي هو مذهب الحكومة وأكثر الولايات التركية ولا

بمذهبي مالك والشافعي اللذين ينتمي اليهما أكثر أهل هذه الولايات العربية

أهل نجد الذين يسمون وهابية كلهم حنابلة يتلقون من كتب السنة المشهورة وكتب مذهب الامام أحمد بن حنبل رابع الائمة الاربعة المشهورين وأوسعهم علما بالسنة كما يعلم ذلك أهل الحديث في كل بلاد الاسلام وهو استاذ أشهر مدوني كتب السنة كالبخاري ومسلم صاحبي الصحيحين اللذين هما أصح كتب الاسلام بعد كتاب الله تعالى . وحكومة نجد لا تحكم الا بفقه الامام أحمد فلا يوجد فيها قوانين غيره ولا أحد هنالك يعمل أو يحكم بقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب قاله باجتهاده ولا يوجد أحد في تلك البلاد يجاهر بمعصية من المعاصي الكبائر ،

فهم باستمساكهم بمذهب الامام أحمد يشبهون أهل أفغانستان في شدة استمساكهم بمذهب الحنفية والتعصب له وشدة الانكار على مخالفه، ولكنهم يفضلونهم و يفضلون سائر المنتمين الى المذاهب الاخرى بتقديم نصوص الكتاب والسنة على أقوال علماء مذهبهم عملا بقوله تعالى (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) و يعذرون من يأخذون بأقوال أي امام من المجتهدين ولكنهم ينكرون على من يأخذ بقول أي مؤلف منسوب الى مذهبه فيما يخالف فيه السنة الصحيحة الصريحة وذلك كثير. وأما الافغانيون فيعاقبون من يخالف مذهبهم ولو الى قول مجتهد أرجح أو عملا بحديث صحيح . فمن المنقول عنهم انهم يعاقبون من يقول «آمين» بعد الفاتحة حتى ان بعضهم سمع رجلا يصلي بجانبه في الصف قال آمين مع تأمين الامام فضربه بمجموع يده على صدره ضربة وقع بها على قفاه، و ينقل عنهم انهم اذا رأوا مصليا رفع سبابته عند التشهد فانهم يعاقبونه بقطعها، وقد سألت عن هذا بعض طلبة العلم منهم في مسجد لاهور الاثري الكبير بالهند فقالوا انه صحيح وأرادوا أن يحتجوا عليه فقصرت الكلام معهم متلطفا في الانكار عليهم

وأخبار تعصب أهل المذاهب بعضهم على بعض مشهورة مسطورة في كتب التاريخ وكل ما كان ينكره الحنابلة أهل الكلام في العقائد وأهل الرأي في الفقه هو الاعتصام بظواهر نصوص الكتاب والسنة وترجيح ما كان عليه السلف الصالح على ما جاء به أذكياء أهل النظر من بعدهم لذلك كانوا هم أحق بلقب أهل السنة

من الذين ينتحلونه لانفسهم دونهم

وأميرهم لهذا العهد من العقلاء المعتدلين، لا من الغلاة المشددين، فقد بلغنا أن الانكليز اجتهدوا في أول العهد بالحرب الاخيرة في استمالته لقتال الترك فاعتذر عن ذلك بانهم مسلمون، وان ما كان حرب أهل بلاده لهم من قبل فانما هو دفاع لا اعتداء، وكبار علمائهم أولى بالاعتدال وانصاف المخالف ، فلم يبق الا أن خصومهم يجعلون شذوذ بعض الغلاة منهم قاعدة متبعة ومذهبا لهم كافة

وانني أذكر لهم شاهدا على مبالغتهم في سوء الظن بدين أهل البلاد التي فشت فيها الاقوال الشركية كدعاء غير الله تعالى ولا سيما في وقت الشدة — وعلى كونهم مع هذا يتبعون الدليل اذا ظهر لهم ويقنعون به

زارني في مكة المكرمة شاب نجدي يظهر انه من طلاب العلم فقال انني أريد أن أسألك عن شيء أشكل علي من عملك وانما أسألك عنه لانك من علماء الحديث وأنصار السنة ومقاومي البدع . قلت سل . قال : انني رأيتك تصلي مقتديا بأئمة الحرم وقد فشا فيهم دعاء غير الله تعالى فيما لا يطلب من غيره والاستعانة بسواه فيما هو خارج عن الاسباب التي يتعاون الناس فيها وغير ذلك من الشرك الجلي . . . قلت انني لم أصل مقتديا بأحد سمعت منه مثل ذلك أو علمته عنه ، وانه لا يوجد عمل أدل على اسلام المرء وايمانه من الصلاة فانا أصلي مع كل من رأيته يصلي اذا لم يكن عندي علم بأنه على عقيدة باطلة ، واذا كان الله تعالى يقول (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا) والسلام أضعف الامارات على الايمان فهل يصح أن أقول بكفر المصلي والصلاة أقوى أمارات الايمان؟ فرأيته قنع بهذا الدليل ورضي به ، ولكنني رأيت من المتعذر اقناع أولئك الطلاب الافغانيين في لاهور بخطأ قومهم فيما ذكرت آنفا. ومثلهم من يقلد شيوخ السوء المفرقين في تكفير من يسمونهم الوهابية

لا يوجد عالم سني ولا شيعي ولا خارجي يدعي العصمة لاهل مذهبه فكل فرد من أفراد كل فرقة عرضة للخطإ وان بلغ من سعة العلم ما بلغ وكان الامام مالك يقول: كل أحد يؤخذ من قوله يرد عليه الا صاحب هذا القبر — ويشير الى قبر

المصطفى صلى الله عليه وسلم . وخير المخطئين من يكون خطأه عن اجتهاد وحسن نية سواء كان في تنقيح المناط أو في تحقيقه وآيته انه اذا ظهر له الدليل على خطأه رجع عنه الى الصواب ، وشر المخطئين من يتبع في خطأه من ليس معصوما ويصر عليه وان ظهر له الدليل من الكتاب والسنة على خلافه . فما أضاع الدين وروج بضاعة الجاهلين والدجالين الا هذا التقليد الاعمى من الشيع والفرق لكل من ينسب الى مذهب من يسمونه امامهم من غير علم ولا بصيرة، حتى انهم يقلدونهم فيما يخالف نصوص الائمة الذين يدعون اتباع مذاهبهم، والشواهد على ذلك كثيرة في المنتسبين الى كل مذهب من المذاهب، ولكنهم يتخذون أسماء الائمة دروعا ودرقا يدفعون بها حجج كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم المثبتة اعراضهم عنهما واتباعهم سَنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع مصداقا للحديث المشهور ، وانما أرادوا أن يسلبوا أهل نجد مثل هذا الدفاع عن أنفسهم فسلبوهم اسم الحنابلة وسموهم الوهابية ، ألا فليأتوا بمسألة واحدة مما عليه جمهور أهل نجد لا أصل لها في الكتاب والسنة ولا في كتب مذهب الامام أحمد ابن حنبل كما يأتيهم هؤلاء بكثير من المسائل المخلة بعقيدة الاسلام وبأحكامه التعبدية والقضائية الفاشية في بلادهم مما ليس له أصل في الكتاب والسنة ولا كلام الائمة

تلك حقيقة من يسمون الوهابية والمتدينة ونسبتهم الى غيرهم من المنتمين الى المذاهب المشهورة لخصناها مما قرأناه في كتبهم ومما وقفنا عليه بالرواية والاختبار ومن كتب التاريخ التي خلطت الحق بالباطل وجمعت بين ما كتبه المسلمون والافرنج على اختلاف الروايات والاهواء، كدأب الناس في كل ما تدخل فيه السياسة وتتنازع فيه الاحزاب والشيع ، واننا ننقل ما كتبه مؤرخ من أهل العلم الذين صدقوا كما كنا نصدق ما أذاعته السياسة من تأسيس الشيخ محمد عبد الوهاب لمذهب جديد وما ذاك الا رجوعه الى مذهب السلف الذي رجع اليه أكبر حذاق النظار من أهل الكلام في أواخر أعمارهم كالاشعري والغزالي والرازي وأضرابهم على تفاوت بينهم في معرفة السنة وآثار السلف والتدرج في الرجوع ، وهو :

﴿ مذهب الوهابية وعقائدهم ﴾

كتب المرحوم الشيخ عبد الباسط الفاخوري الذي كان مفتي بيروت في عهد السلطان عبد الحميد في ترجمة السلطان محمود الثاني العثماني من كتابه (تحفة الانام ، مختصر تاريخ الاسلام) الذي ألف وطبع في بيروت سنة ١٣٢٠ مانصه :

« ثم في غضون ذلك ظهرت الطائفة الوهابية في بلاد نجد واستولوا على مكة المكرمة والمدينة المنورة وباقي بلاد الحجاز حتى قاربوا بلاد الشام من جهة دمشق

«وهم قوم كثيرون من عرب نجد اتبعوا طريقة الشيخ عبد الوهاب وهو رجل ولد في «الدرعية» بأرض العرب من بلاد الحجاز طلب أولا العلم على مذهب أبي حنيفة في بلاده ثم سافر الى اصفهان وأخذ عن علمائها حتى اتسعت معلوماته في فروع الشريعة وتفسير القرآن الكريم ثم عاد الى بلاده سنة (١١٧٠) ثم أدته ألمعيته الى الاجتهاد[1] فأنشأ مذهباً مستقلا وقرره لتلامذته وشاع أمره في «نجد» و«الاحساء» و«القطيف» و«عمان» و«بني عتبة» من أرض «اليمن» ولم يزل أمرهم شائعاً ومذهبهم متزايدا وجماعتهم تكثر الى أن صدرت الارادة السنية الى محمد علي باشا عزيز مصر بقتال وردع هذه الطائفة خوفاً من انتشار شرهم في البلاد الاسلامية فاطفأ سراجهم[1] وبدد شملهم وأخفى ذكرهم، وقد توفي زعيمهم سعود سنة (١٢٢٩) فساد الامن في طريق الحج وأتى الناس أفواجاً لتأدية فريضة الحج وبهذه السنة حج محمد علي باشا بعد ان لم يكن أحد يتمكن من اداء هذه الفريضة

(١) لايخفى ما في هاتين الجملتين من الاشارة الى الاستحسان ولو صرح لعاقبته السياسة وصادرت الكتاب

وهاك رسالة من كلامهم تدل على مذهبهم ومعتقداتهم :

«اعلموا رحمكم الله ان الحنيفية ملة ابراهيم أن تعبد الله مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم له كما قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) فاذا عرفت أن الله تعالى خلق العباد للعبادة فاعلم ان العبادة لا تسمى عبادة الا مع التوحيد كما ان الصلاة لا تسمى صلاة الا مع الطهارة فاذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث اذا دخل في الطهارة كما قال تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون) فمن دعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه الا الله من جلب خير أو دفع ضر فقد أشرك في العبادة كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * واذا حُشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثلُ خبير) فأخبر تبارك وتعالى ان دعاء غير الله شرك ، فمن قال يا رسول الله أو يا ابن عباس أو ياعبد القادر زاعماً انه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ووسيلته اليه[1] فهو المشرك الذي يهدر دمه وماله الا أن يتوب من ذلك ، وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذي يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجي الى غير الله أو يستعين بغير

(١) هذا الاجمال يفسر ما بعده والقوم لا ينكرون الشفاعة بل يأخذون فيها بنص القرآن كما صرح به ابن عبد الوهاب في رسائله

الله فيما لا يقدر عليه الا الله فهو أيضاً مشرك، وما ذكرنا من أنواع الشرك هو الذي قاتل رسول الله المشركين عليه وأمرهم باخلاص العبادة كلها لله تعالى ويصح ذلك أي التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله في كتابه

أولها : أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون أن الله هو الخالق الرزاق المحي المميت المدبر لجميع الامور والدليل على ذلك قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والارض أمّن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله قل أفلا تتقون » وقوله تعالى : « قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقولون الله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل فأنى تسحرون » . اذا عرفت هذه القاعدة وأشكل عليك الامر فاعلم انهم بهذا أقروا ثم توجهوا الى غير الله يدعونه من دون الله فأشركوا

﴿ القاعدة الثانية ﴾

انهم يقولون ما نرجوهم الا لطلب الشفاعة عند الله نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم، وهو شرك. والدليل على ذلك قول الله تعالى: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله أتنبؤون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال الله تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار) واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف :

القاعدة الثالثة — «وهي ان منهم من طلب الشفاعة من الاصنام ومنهم من تبرأ من الاصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) ورسول الله لم يفرق بين من عبد الاصنام ومن عبد الصالحين في كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله . واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف:

القاعدة الرابعة — «وهي انهم يخلصون لله في الشدائد وينسون مايشركون، والدليل عليه قوله تعالى (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) وأهل زماننا يخلصون الدعاء في الشدائد لغير الله . فاذا عرفت هذا فاعرف : ان المشركين في زمان النبي أخف شركا من عقلاء مشركي زماننا لان أولئك يخلصون لله في الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم في الشدائد والرخاء والله أعلم بالصواب اه

«وهذه الرسالة والقواعد الذي أسسها ذلك الشيخ لاشبهة فيها لان هذا هو الدين الذي جاء به النبي والانبياء من قبله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . لكن هذا الشيخ لم يتحقق ولم يحقق هذه المسألة واتبعه قومه من بعده فافرطوا وفرطوا وقصروا حتى تولد منهم بسبب هذه القواعد تنقيص وتحقير ماعظمه الله وأمرنا بتعظيمه ومحبته وتوقيره، وقاسوا المسلمين المخلصين في التوحيد بالمشركين، حتى قاتلوا المسلمين في أفضل البقاع واستحلوا دماءهم وأموالهم، كما وان أكثر العوام من جهلة الاسلام قد تغالوا وأفرطوا وابتدعوا بدعاً تخالف المشروع من الدين القويم فصاروا يعتمدون على الاولياء الاحياء منهم والاموات معتقدين

أن لهم التصرف وبأيديهم النفع والضر ويخاطبونهم بخطاب الربوبية وهذا غلو في الدين القويم، وخروج عن الصراط المستقيم، وقد ورد في الحديث المرفوع « دين الله تعالى بين المغالي والمقصر » اه

[المنار] هذا ما كتبه مفتي بيروت رحمه الله ولا يخلو كلامه الاخير من تعارض لعل سببه محاولة الجمع بين اعترافه بصحة عقيدتهم التي رواها مجملة وبين ما ينقله عنهم خصومهم . على انه كان مضطرا فيما كتبه الى اتقاء وشاية المفسدين والسعاية به الى السلطان عبد الحميد الذي كانوا يخوفونه من استعداد الوهابية للخروج عليه وهؤلاء يقولون في ذلك : اذا كان المؤلف قد اعترف بأن هذه القواعد هي دين الله الذي أرسل بها رسله كلهم فكيف يكون مؤسسها واضعا لمذهب جديد ؟ وهل الجديد الا مخالفتها ؟ واذا كان قد اعترف أن أكثر العوام من جهلة الاسلام خالفوا الدين القويم بالاعتماد على الاولياء والاحياء والاموات الخ ومن المعلوم ان غير الاكثر الجاهلين أقروهم على ذلك فكيف يكون من بين لهم الحق الذي ضلوا عنه وقاتلهم عليه مخطئا ؟ وأين قياس الموحدين المخلصين بالمشركين ؟ واذا صح قوله ان هذه القواعد قد تولد منها تنقيص ماعظمه الله وهي حق باعترافه أفلا يكون ذلك من قبيل قوله تعالى في كتابه (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا) وما المراد بذلك التنقيص ان المؤمن بالله وبكتابه الغالي في أتباعه لا يصدر منه تنقيص لما أمر بتعظيمه ولكن خصومنا يطلقون ذلك على إنكارنا الغلو هم في تعظيم الصالحين بوصفهم بما لا يوصف به الا الله خالقهم ودعائهم واستعانتهم به فيما لا يطلب الا منه تعالى الشرع دون عرف كما هو مقرر في القواعد. فان تجاوز بعضنا هذا الحد الى ما يعد تنقيصا في عرف أهل البدع أو الشرك فاننا ننكر عليه كما ننكر على كل مخالف، ولا نبرئ كل من انتمى الينا من الخطأ في فهم قواعدنا أو مخالفتها وحسبنا ان مادعونا وقاتلنا في سبيله من جردوا علينا الحملات العسكرية لاجل الملك هو دين الله على لسان خاتم رسله ودين سائر أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم كما اعترف بذلك المفتي رحمه الله

هذا ما يقولونه وللشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله تعالى رسائل في رد شبهات المخالفين ربما ننشر بعضها في المنار ليطلع عليها من لا يعرف عنه شيئا الا من كلام المعترضين

الوحدة العربية . ودعوة ملك الحجاز الى قتال الوهابية

قويت في هذا القرن فكرة وحدة الاجناس ولا سيما الذين يجمعهم وطن واحد ويتعارفون بلغة جامعة وتوجهت هم المشتغلين بالسياسة والشؤون العامة الى ترقية أقوامهم وجمع كلمتهم ووحدة حكومتهم ، وكان من أمر العرب التابعين للدولة العثمانية في ذلك مافصلنا القول فيه من قبل

ونقول الآن ان ثورة مكة المكرمة واعلان أميرها الحسين بن علي الخروج على متغلبة الاتحاديين الطورانيين ثم على دولة الترك بجملتها في عهد الحرب الاوربية بل البشرية الكبرى قد أطمع بعض أهل الغيرة والاخلاص من العرب باتخاذ ذلك وسيلة الى جمع كلمة عرب الجزيرة والاستعانة بوحدتهم واتفاقهم على إنقاذ عرب سورية والعراق من ظلم الاتحاديين واضطهادهم اياهم في زمن الحرب والتعاضد معهم بعدها على مايرتقي به الجميع سواء انتصر أحلاف الدولة العثمانية وظلوا مرتبطين بها أو انكسرت بانكسارهم وفصل بينهم وبينها . وزاد في طمعهم هذا اعلان الزعيم العربي الثائر أن ثورته عربية جنسية لاتفرق بين المسلمين وغيرهم من العرب . ومما نقل عنه وعن أنجاله قواد جيوشه وانتشر في جميع الاقطار التي يقطن فيها الناطقون بالضاد قوله : اننا كنا عربا قبل موسى وعيسى ومحمد : أي فيجب ان نقيم وحدتنا العربية التي كانت قبلهم صلوات الله وسلامه عليهم فلا تكون ملتهم حائلة دون ذلك

لهذا سعى اليه بعض هؤلاء الطامعين في جمع الكلمة بأن يعقد اتفاقا بين شريف مكة والامير ابن سعود صاحب نجد والامام يحيى صاحب اليمن والسيد الادريسي صاحب عسير على قاعدة الاعتراف لكل منهم باستقلاله في بلاده والتعاون بينهم على دفع العدوان الاجنبي ، ورفع شأن الجنس العربي ، في بيان كان قد وضع قبل الحرب ووصل خبره الى الشريف بعد ايصاله اليهم واستحسانهم له والعلم برغبتهم في الوقوف على تفصيله والبحث في طريقة تنفيذه، ولم يعلم رأيه فيه قبل الثورة ولما عرض عليه بعدها وقد ظهرت شدة الحاجة اليه وسئل ان يشرع في تنفيذه قال ان سعيه اليه يحمل عندهم على خوفه من الترك وقصد الاستعانة عليهم لا على الاخلاص وانه يرى

تأجيله الى ان يفتح المدينة المنورة ولا يبقى للترك شيء في الحجاز . ولكن روى عنه بعض عماله انه كلم بعدهذا السعي في المسألة فقال كلاما حاصله احتقار أولئك الامراء والائمة وكون سلطتهم اليوم ستزول غداء أي سيزيلها هو

ثم صرنا نرى في أعداد تلقى الينا من جريدة القبلة (بعد قطعها المبادلة مع المنار على أثر منع الحكومة الهاشمية دخوله في الحجاز) مقالات ومنشورات في الطعن في أهل نجد والدعوة الدينية الى قتالهم . ثم بلغنا خبر ارسال حكومة مكة الهاشمية الحملة بعد الحملة لقتال الشريف خالد في الخرمة . ثم بلغنا بعد تسليم المدينة المنورة بأشهر خبر القتال بين الجيش الذي كان محاصرا لها وبين النجديين أنفسهم . فكان ذلك مثار حسن شديد في قلبنا وقلب كل عربي يحب وحدة قومهم واتفاقهم وكل مسلم يكره التعادي والتقاتل بين أبناء دينه . بل ذلك مما يحزن كل شرقي يكره ان يستبعد الغربيون الشعوب الشرقية وأن تكون هذه الشعوب هي التي تمهد لهم السبيل الى ذلك بتعاديها وتقاتلها والى الله المشتكى ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

وانا نثبت في هذه الفصول التاريخية المحزنة بعض ما نشر في جريدة القبلة من ذلك . فمنها المنشور الرسمي الذي صدر به عدد القبلة الذي صدر في غرة ربيع الاول من هذه السنة ننقله عن الجرائد وهو

﴿ منشور ملك الحجاز ﴾

أعلنا في منشورنا الصادر يوم الاربعاء ٩ شوال سنة ١٣٣٦ الذي نشرته «القبلة» في عددها ٢٠٢ الصادر يوم الخميس ٢٤ شوال سنة ١٣٣٦ عن البدع والزيغ الديني الذي تلقنه أهل الخرمة — القرية المعروفة الكائنة في شرق مكة المكرمة وفي الشرق الشمالي من الطائف وتبعد عنه نحو الثلاثماية فرسخ — من بقايا منتحلي العقيدة الوهابية من ساكني بعض قرايا نجد المكفرين لكل العالم الاسلامي بالاحتمالات المعلومة الساقطة عقلاً ونقلا التي من جملتها زيارة روضته صلوات الله عليه وسلامه

كما يشهد بذلك عليهم اجتناب كل فرد ينسب الى اعتقاد تلك الاضاليل لزيارته صلوات الله عليه وسلامه وكشارب التنباك وحامل السبحة ونحو ذلك . وأن لا بد للرجل أن يعترف بأن أباه وجد جدّه ماتوا على غير الاسلامية . وها ان مجتهديهم قد أتونا في هذه المرة أيضاً بتكفير من يضحك أو يروي الشعر أو من يحدو ، الى غير ذلك من الاباطيل التي تعين ماهية علمهم. وكوقوعهم فيما يرمون به أهل السنة والجماعة باعترافهم على أنفسهم بالنفع والضر بالعصا بقولهم انها تنفع وتضر ومحمد زاده الله شرفاً وتعظيما . . . الخ . وجهلهم ان معاشر أهل السنة بصرف النظر عن انهم لا يقولون بذلك والعياذ بالله فانهم يعتقدون ماهو أعم وأبلغ مما تزعمه المبتدعة المذكورة كاعتقادنا بأن الماء لا يروي والطعام لا يشبع والنار لا تحرق ولا تقطع السكين الا بقدرته وارادته جل شأنه وعلا . واننا لا نريد الا فيما أراده الصديق الاكبر والفاروق الاعظم رضوان الله عليهما من الالحاح في دفنهما عند ما أدرك كلامنهما الاجل عند قدميه الشريفتين صلوات الله عليه وسلامه . وهذا على سبيل الاختصار فليتأمل

وعليه وعلى ما أشرنا اليه في منشورنا البادئ الذكر أعلاه من عزمنا على الرفق في معاملاتهم والتباعد عن كل مايؤدي الى سفك الدماء وصيانتها ولكن أبت تلك الضلالة وذلك الزيغ عن منتحليهما الا الاصرار على المقاومة كما يعلم من الوقائع التي نشرتها جريدة «القبلة» من قبيل الحوادث ولتجاوز جرأتهم بواقعة يوم السبت الماضي الموافق ٢٠ صفر سنة ١٣٣٧ على مركز المؤن الكائنة في (عشيرة) وتشجيعهم بالمدد الوارد اليهم من اخوان بدعتهم برفق سلطان بن بجاد المعروف لديهم بسلطان الدين وغيره من عرفائه

« رأت الحكومة — وهي لاتشك بأنها في ضمن قوله صلوات الله عليه وسلم: يؤجر المرء رغم أنفه[1] — أن تقوم بمقابلة أولئك المبتدعة بالمثل مباشرة ، بالاصالة عن نفسها وبالنيابة عن كافة المسلمين مع مراعاة الرفق أيضا لمحو هذه البدعة خدمة للدين وتنزيها له مما في هذا الزيغ والضلال وسلامة البلاد من سيئاته . والله ولي التوفيق » اه

في هذا المنشور تصريح بان التخاصم كان أولا بين أهل الخرمة وحكومة الحجاز كما تقدم في أول هذه الفصول ، وان أهل الخرمة ساعدهم غيرهم بعد ذلك . وما ذكر في المنشور من بدع الوهابية نسب الى بقايا منهم في بعض قرى نجد ، وهذا لا يبيح اطلاق القول في تكفير أهل نجد كلهم ولا جملتهم ولا يبيح قتالهم وانما على حكومتهم أن تنظر في أمر من ضل منهم ان صحت الرواية على ظاهرها . وقد اطلعنا على منشور صدر بعد هذا في العدد الذي صدر من جريدة القبلة في ٨ جمادى الاولى ووقع اعلاه (باسم الحسين بن علي) وهذا نصه :

منشور كريم

بسم الله الرحمن الرحيم

وما يبدئ الباطل وما يعيد

الحمد لله رب العزة من استهدى به هداه ، ومن توكل عليه كفاه ، والصلاة والسلام على خيرته ومجتباه ، وآله الطهر ، وأصحابه الميامين الغر ، ماكمد حسود وجحود

أما بعد فقد ضاق ذرع حسادنا ونضبت جعبة تلفيقات مخترعات إفكهم فأصبحوا لا يجدون مايقولون ، ولا يفقهون بما علينا به يفترون ،

---

(١) المنار : لم يرو أحد من حفاظ السنة عن النبي « ص » أنه قال هذه الجملة ولكنها مما يدور على الالسنة وسبب تسمية الكثير من أمثال هذه الجملة حديثاً شبهها بالاحاديث في اختصارها وافادتها حكمة أو حكماً !

الا اشاعتهم فى هـذه الخطرة بأن العرب مختلفوا الرأي متفرقوا الكلمة ادّى بهم اختلافهم الى "قتال . شبوب نارحربه بينهم لاثبات عدم كفاءتنا معاشر العرب امام العالم الذي أعان والثناء لله ثبته بنا وحسن ظنه فينا الى الدرجة التي لانرى من حاجة للبحث عنها ، كما انا لا نرى أيضاً البحث عن تلك المختلقات الساقطة بطبعها بالوفود الذي لا يخلو شهر من قدومهم علينا من أقاصي البلاد على مرأى ومشهد العامة الا ان أراد ا تجدد دعوى مبتدعة الوهابية المذكورة الذين نشر أمرهم غير مرة على صحائف (القبلة) فنحن نحرر منشورنا هذا علاوة على ماسبق ليعلم القاصي والداني بانه متى تحقق لدينا عدم نجاح خطة الدفاع أمام مبادئتهم فلا بد للسلطان من قتالهم بكل موجوديته ويعتبره من أشرف الوظائف وأهمها مصلحةً لا لإرادة ملك أو حرصاً على رياسة كما بيناه في الحفلة العمومية الاخيرة وصرحنا لمن حضرها بانكم ان رأيتم من هو أرشد وأصلح مني للامر فهذه يدي ممدودة لعهده وأيدنا قولنا هذا بالحجج المعلومة لدى حضارها ولكن يقاتلهم للقصد والغاية التي زحفت من أجلها على مركزهم جيوش مولانا محمد علي باشا الا كبرطاب ثراه ولسلامة وصيانة البلاد من كفر وفسوق وعدوان أمثال هذه الخارجة وشوائب خروجهم عن الاسلامية فانه بصرف النظر عن تكفيرهم لمن سواهم من العالم الاسلامي ونيلهم من سيدالاولين والآخرين مَن وصفه جلت قدرته بأنه عزيز عليه[1] وانه رحمة

(١) المنار : يشير بهذا الى قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم) وظاهر عبارة المنشور ان قوله تعالى « عزيز عليه » وصف للرسول مستقل معناه انه مكرم عنده تعالى كما يقول الناس اليوم : فلان عزيز علينا أو عندنا . والصواب أن قوله « ماعنتم » معمول له وما مصدرية : أي عزيز عليه عنتكم أي شديد شاق عليه أن تقعوا في شدة أو مكروه

للعالمين فتبجحهم بقولهم ان العالم سيبعث شاء المولى أو لم يشأ والعياذ بالله وهو عز من قائل يقول ﴿قتل الانسان ما أكفره﴾ نعم — قتل الانسان ما أكفره — الى قوله عظمت قدرته ﴿ثم اماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره﴾ الآية كفاية للمتبصر ، لا يبقى بعد هذه المجاهرة بهذه الشناعة متأمل فليعتبر وليتهم بعد ان اعتقدوها وأمثالها اكنته صدورهم لينظر اليهم كسائر المنتحلين والمعتقدين من المسلمين وسواهم (كذا) ولكنهم تظاهروا بها وأباحوا دماء من لم يجب دعاتهم على اعتقادها وأمثالها وبدؤهم بالقتال واستحلوا أموالهم وانفسهم فكيف لا يقتل والحالة هذه بقتالهم ام كيف نتحاشى عن اعلانه بمنشورنا هذا على صحيفة القبلة اولاً ثم ارداقه بأنا على ماقلناه وصرحنا به المرة بعد الاخرى بأن مبايعينا بالذات او بالواسطة اذا رأوا المصلحة في سوانا فهذه ايدينا واولادي لعهد من يريدونه مبسوطة وإن لم نكن كذلك فنبرأ من الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ونكن من الذين عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين وهذا منا كما يعلم الله سبحانه وتعالى حرصاً على رابطة جامعة اقوامنا ان يفتنهم الاجراء ومبغضو تجدد مجد وسودد علياء الاسلاف باتهامنا ونسبتنا بحب الرياسة والحرص على الجاه وهو العالم الخبير فلا تسئلون عما اجرمنا ولا نسئل عما تعملون» اه

في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٣٧

[المنار] : هذان المنشوران الرسميان قليل من كثير ما نشرته جريدة القبلة التي هي لسان ملك الحجاز باسمه واسمها في تكفير الوهابية أو النجديين والدعوة الى قتالهم باسم الدين تارة واقتداء بمحمد علي باشا تارة أخرى . ومن العجيب أن يسمي ملك الحجاز محمد علي مولاه ويجعله قدوة له في قتال أهل نجد بناء على

انه قتال لا يطلب به ملك ولا جاه كأن محمد علي من الخلفاء الراشدين المهديين الذين خلفوا الرسول صلى الله عليه وسلم في اقامة الدين ، فعسى أن يراجع تاريخ الجبرتي المعاصر له الذي كان يدون اخباره عند حدوثها يوما بعد يوم ليعلم مبلغ علمه بالدين وعمله به، وأن يقرأ قانونه (قانون الكرباج) الذي طبع في المطبعة الاميرية منذ أول العهد بتأسيسها. وهو مع هذا يتكلم في تكفير القوم بلسان العالم المستدل ومحمد علي كان أميا لا عاميا فقط، ويتكلم في وجوب ذلك عليه باسم من ولي امامة المسلمين وخلافة نبيهم (ص) ليقيم دينهم وينفذ أحكامه وحدوده في المرتدين والبغاة، ومحمد علي كان واليا لمصر من قبل السلطان العثماني وبأمره حارب الوهابية، وملك الحجاز اليوم كان أميرا من قبل السلطان العثماني على الحجاز بسلطة محدودة فخرج عليه موالاة لدول الحلفاء وسمي ملكا للحجاز باعترافهم له ، ولا يزال الحجاز بحسب القانون الدولي من بلاد الدولة العثمانية ولن يزال كذلك حتى يعقد الصلح بين الحلفاء وبين الدولة العثمانية ويفصل فيه بأمر الحجاز

وأما أهل نجد فهم مستقلون منذ قرون كثيرة وحاكمهم يسمونه اماما وما نظن أنهم يبايعونه بالامامة (أي الخلافة) كما يبايع أهل اليمن أئمتهم، وحكومتا اليمن ونجد شرعيتان والحكومة العثمانية قد اعترفت باستقلال اماميهما وليس فيهما قوانين وضعية ولا معاهدات تقيدهما بقيود غير شرعية ، فان خرجت احداهما عن الشرع أو ارتد أهلها كلهم أو جلهم عن الدين (فرضا) فأجدر بالاخرى أن تكون هي تقيم حكم الله فيها

وأما تصدي ملك الحجاز الذي بيننا صفة حكومته لمثل ذلك بمساعدة حلفائه وأوليائه فلا يخفى حكمه ، وهو يستلزم أن يقاتل أهل الشام اذا تم لهم ما يطلبونه من الاستقلال دونه وانشاء حكومة مدنية اذا خالفت حكومتهم الشرع في بعض أصوله وكذا بعض فروعه المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة، وهو لا يستطيع ذلك مهما تكن الحالة التي يقر أمر حكومته عليها مؤتمر الصلح . بل ليس للمسلمين امام في هذا العصر يستطيع أن يقوم بالامر الذي تدعو اليه هذه المنشورات الحجازية، فلم يبق الا أن المسألة يراها جمهور المسلمين مسألة تنازع وتقاتل بين طائفتين متجاورتين من المسلمين تكفر كل منهما الاخرى، والواجب اذاً على أصحاب الاستطاعة منهم أن يحكموا

فيهما قوله تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله . فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين . انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)

والمسلمون المستقلون القادرون على هذا هم جيران الحجاز ونجد من أهل اليمن وعسير . فالمطالب بذلك شرعاً إمام اليمن والسيد الادريسي صاحب عسير. وأما مسلمو سورية والعراق فهم خاضعون الآن لاحكام دول الحلفاء العسكرية فليس لهم حرية ولا قوة على عمل شيء باسم الاسلام ولا باسم الوحدة العربية وهمهم في هذه الايام محصور في درء خطر الاستعمار الاوربي عنهم ويتمنون لو يتفق على الوحدة الوطنية مؤمنهم الصادق، وملحدهم المجاهر والمنافق، واليهودي والنصراني، والدرزي والنصيري والاسماعيلي ، وانه ليوجد في مسلمي العرب ملاحدة كملاحدة الترك من الاتحاديين وغيرهم ، ومنهم من يصرحون في خطب يلقونها ومقالات ينشرونها على الجماهير بوجوب جعل الدين الاسلامي محصورا في المساجد لا يتجاوزها الى دواوين الحكومة أو المحاكم ، فما يفعل بهؤلاء من يقاتل الوهابية اقامة لاحكام الدين ؟

وقد نقل الينا عن هؤلاء الوهابية وعن بعض الحجازيين والترك وغيرهم ان أمراء مكة من الشرفاء لهم قانون سري وضعه لهم جدهم أبو نمي قد شرع للشرفاء فيه أحكاما خاصة بهم تصادم الكتاب والسنة وما أجمع عليه جميع المسلمين ككون الشريف منهم اذا قتل يقتل به أربعة من قبيلة القاتل وغير ذلك من الاحكام التي تبيح لهم من أموال الناس ودمائهم ماحرمه الله تعالى. ويدعي هؤلاء الوهابية أن ملك الحجاز الذي قام بناؤهم يدين بهذا القانون وينفذ أحكامه وان هذا كفر باجماع المذاهب الاسلامية كلها وانه هو يعاقب بالقتل والصلب والقطع ومصادرة الاموال من غير محاكمة ولا حكم شرعي ولا غيره وان استباحة ذلك كفر صريح بالاجماع

فالذي ينبغي لمن يتصدى لاصلاح ذات البين أن لا يقبلوا كلام أحد الفريقين في الآخر ولا يسمحون له أن يتحكم في عقيدته ومذهبه بالقوة بل تؤمن البلاد ويجعل الفصل للحجة والبرهان ، لا للسيف والسنان

وأما ابن سعود فلم يبلغنا عنه شيء في مقاومة صاحب الحجاز الا ملخص المنشور الذي أرسله الى بلاد الشام بعد اعلان حكومة دمشق طلب التطوع لانشاء جيش الحجاز وهذا نصه :

﴿ خطاب ابن سعود لاهل الشام ﴾

« خطاب الى حضرات كبار ورؤساء (روحيين ومدنيين) أهالي بلاد الشام مسلمين وسواهم ممن تلزمه الحجة ويتناوله التكليف : سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

لقد بلغنا عنكم مالا يوافق صالحنا وصالحكم ولا ينطبق على الحق والعدل ولذلك فوضنا الى أحد مريدينا أن يلقي اليكم برسالتنا هذه وهي في مقام شكوى وتذكير فنقول :

« انكم تعلمون اننا منذ مئات من السنين قابضون على زمام حكومة نجد « وتوابعها » أبا عن جد مستقلين لاينازعنا فيها منازع . وليس لدولة مّا أدنى علاقة بديارنا سوى العلاقة الودية التي نتجت عن تحسس ديني لخليفة المسلمين بالآستانة والتي أوجبها ورعنا وورع آبائنا العظام على حين أن بلاد الحجاز كبلاد الشام كانت في ملكية الدولة العثمانية ، حتى جاءت الحرب العامة وانتهت بما ترونه من تشتت شمل الامة ، وتمزق وحدة الملة ، وكان ماكان في ذلك الاثناء من أمير مكة المكرمة مما لا شأن لنا به لو أنه قصر عمله وفعلته على الحجاز ولكنه جازاه الله بعمله عقد عقودا وأبرم مواثيق رمى بها سائر الاقطار العربية الى مهاوي الهلاك وهي كما تدعون منبع الاسلام فطوح بها الى حضيض الذل والهوان بعد ان عزت آلافا من الدهور

الى أن قال — « ذلك تجاوز منه وجرأة على الله والامة وأنى له هذا الحق والبلاد العربية فيها ممالك مستقلة ذات خبرات ومبرات وملوك وسلاطين منحدرين عن أصلاب طيبة وأرحام طاهرة هم سادات وأشراف أثبت منه نسبا وأكرما حسبا

« هذا وقد آلينا على أنفسنا نحن المتحدون بالله والى الله أن لا نرجع حتى يرجع الحق الى نصابه . ويشهد الله أن ذلك ليس منا انتصارا لدولة ولا طمعا في توسيع ملك

« نحن نعلم ان ذلك الامير يلفق علينا مقولات ويرمينا بالمروق عن الدين ويدعونا وهابية ليستفز ثائرة المسلمين علينا ويجمع الجند منهم ويقاتلنا بهم فيريد بذلك نشر الفتنة وتعظيم الخلاف

« فيا أبناء الشام ، وأهل باب كعبة رب الانام ، نحن مثلكم مسلمون مؤمنون موحدون ندين بدين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (صلى الله عليه وسلم) ونقر بترتيب الاصحاب كما جاءو في الحكم والاستخلاف ونقلد في عباداتنا الامام الاعظم أحمد بن حنبل ونعترف ان اخوته الائمة الباقين هم مثله في العظمة والصدق والصحة فحذار ثم حذار أن يغركم ويفسدكم ويفتنكم فتعطوه جندا ومالا فما امامكم الا اخوتكم في الله يجاهدون في الله ، ولم يسبق بيننا وبينكم عداوة ولا نحن طامعون في بلادكم ، فبلادكم تعلمون مصيرها ، فخلوا بيننا وبينه ليزول الاعجل ويقضي الله أمرا كان مفعولا . أما ان كانت لكم كلمة نافذة فصرفوها في سبيل احقاق الحق وبعد فان من يتجند الى قتالنا فحسبنا الله عليه والسلام على من سمع فوعى

« عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود »

﴿ تذكير المنار للفريقين ﴾

أيها العرب الكرام ليس هذا الوقت وقت التفرق والانقسام ، والتقاتل بدعوى تأييد الايمان وإقامة الاسلام بل هذا وقت يتفق فيه الاقوياء من دول أوربة على تقسيم بلاد العرب كلها ووضعها تحت سيطرتهم حتى ان حياتها ومعيشتها تكون رهن أيديهم

تذكروا ان جميع الممالك العربية التي زالت وزالت دولتها مازالت الا بتخاذل امرائها وزعمائها . كذلك كان زوال ملك العرب بالاندلس والجزائر ومراكش وتونس ، وكذلك زالت أكثر ممالك الشرق في الهند وغيرها ، خوبوا بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم فاعتبروا ياأولي الابصار . .

احتجاج السوريين

صورة التلغراف

الذي أرسلته الجمعيات السورية

الى سمو الامير فيصل . الى الرئيس ولسون . الى المستر لويد جورج . الى رئيس مؤتمر السلم . الى السنيور أورلاندو . الى ممثلي الحلفاء في العاصمة . الى الحاكم العسكري العام . الى اللجنة الاميركية . الى محمد رستم بك حيدر نائب سمو الامير فيصل في مؤتمر السلام . الى حبيب بك لطف الله مندوب الاتحاد السوري في باريس

نحن الموقعين أدناه نحتج على ماصرحت به اللجنة الاميركية في جنوبي سورية باسم مؤتمر السلام من لزوم تسمية دولة تنتدب للوصاية على بلادنا واننا نرفع احتجاجنا هذا الى دول الحلفاء الذين مازالوا يصرحون انهم ماحاربوا الا لتحرير الشعوب ونصرة المظلوم ونطلب منهم ان يبروا بوعودهم من ترك تعيين مصير بلادنا لنا ونصرح للملأ أجمع اننا لانطلب سوى الاستقلال التام بلاحماية ولا وصاية ولا اشراف ولا أقل شيء يمس باستقلالنا الخارجي والداخلي وبالختام نؤمل اننا لو ثقون بعدالة دول الحلفاء الكرام التي اعترفت بالاستقلال التام لكثير من الشعوب اليوم وأبدت مبدأ القومية والمساواة بكل قواها بأن تنصف شعبا حارب مع الحلفاء جنبا لجنب من أجل الاستقلال التام .

عن الاتحاد السوري — وائق المؤيد . عبد الرحمن شهبندر . سعد الدين المؤيد . نصوح المؤيد . هشام المؤيد

عن الاستقلال العربي — عبد القادر العظم . جميل مردم . أحمد قدري . يوسف سليمان مخيبر . أحمد مريود . رضا مردم

عن جمعية النهضة الادبية — سامي البكري عبد الرحمن السفرجلاني . نديم الصواف . يحيى الشماع

عن العهد السوري — عبد القادر كيوان . أبو النصر الباني . أسعد المالكي . حسني البرازي

عن العهد العراقي — جميل لطفي المحمد العراقي . اسماعيل نامق، رشيد الخوجه
عن المؤتمر السوري — منيح هارون (اللاذقية) عادل الطائع (اللاذقية) مظهر رسلان (حمص) سعيد حيدر (بعلبك) معين الماضي (فلسطين) فائز الشهابي (حاصبيا) عبد القادر الخطيب (دمشق) محمد المدرس (حلب)
عن جمعية النهضة الفلسطينية — سليم عبد الرحمن . الحاج ابراهيم، محمد صالح المعادي
عن الجمعية البقاعية — عجاج الهيماني . عوض البقاعي
عن الشبيبة البيروتية — محمد الصانع . أحمد مختار الفاخوري
عن التعاون الخيري — محمد الياسين . عارف الدوجي
عن الاسعاف الخيري — عبد الرحمن الدوليبي . أحمد صبري
عن جمعية الاطباء — حسام الدين أبو السعود. مرشد خاطر
عن جمعية الصيادلة — منير المحايري . حسني الحبل
عن جمعية المحامين — نجيب الحكيم . سعيد حيدر
عن النداء الخيري — شكيب كحاله . صالح الجيلاني
عن جمعية المعلمين — محمد أبو الخير القوطلي. عجاج البقاعي
عن جمعية طلاب المدارس — عبد القادر سري . مصطفى الرفاعي
عن جمعية الاخاء العلوية — أديب التقي البغدادي . محمد مرتضى
عن خريجي المدارس العالية — المهندس درويش أبو العافية . الزرعي عمر شاكر
عن جمعية فتيان الجزيرة — عثمان قاسم (صاحب الاستقلال العربي) أحمد فؤاد المحاسني. سعيد الحافظ. رشدي الصالح ملحس «مدير جريدة الاستقلال العربي» أديب الصفدي
عن النادي التجاري — لطفي الحفار . سعيد عبيد . ياسين دياب
عن الجمعية الزراعية السورية — هاشم المعري، صبحي الحسيني
عن النقابة الصحافية — خير الدين زركلي «صاحب المفيد» أسعد داغر «صاحب العقاب» عجاج البقاعي «صاحب الانقلاب» أبو الهدى اليافي «صاحب الكنانة»
عن الحرف والنقابات — محمد كوكس . محمد البرم
عن جمعية نهضة الطباعة العربية — سعدي العمري . محمود الجيلاني

﴿ صورة البيان الذي قدمته عائلات الشهداء للجنة الاميركية في دمشق ﴾

وقابلت هذه اللجنة يوم تقديمه

اننا بالنظر لاتصالنا العائلي بشهداء سورية نستطيع ان نبين امام حضراتكم رغائبهم المقدسة التي هي ركن النهضة العربية السورية والاساس الذي بنيت عليه ثورتنا. والاجتماعات التي كانوا يعقدونها في بيوتنا مع أصحابهم والاحاديث التي كانت تدور في خلواتهم كانت ترمي دائما الى رفع الامة السورية والحصول على استقلالها التام. لهذه الغاية كانوا يعملون ولتحقيقها فادوا بأنفسهم وعلى دمائهم أرادوا ان يبنى أساسها. ان هذه لروح الشريفة هي المخيمة على الشعب السوري اليوم وهي التي تدير زعماء سورية وترشدهم في أعمالهم. وها نحن أولاد عائلات أولئك الشهداء نطلب من ممثلي الشعب الاميركي الكريم الذي يعرف معنى الشهادة في سبيل الوطن ان يحققوا الآمال التي عقدناها عليهم ويبلغوا الدكتور ولسن حامل لواء الحرية اننا لانريد الا الاستقلال التام. وكتاب الايضاحات السياسية الذي وضعه أحمد جمال باشا ليبرر فيه جناياته التي اقترفها في سورية هو شاهد عدل على الغاية السامية التي كانوا يجدون للحصول عليها

الاشتراكية والبلشفية والدين

كثر ذم البرقيات والصحف الاوربية في البلشفية التي فشت في روسية وما جاورها من أوربة وآسية فوصفت بأنها عبارة عن فوضى وهرج وسفك دماء وانتهاك أعراض وسلب أموال بغير قانون ولا نظام. ونرى جميع الدول الراقية خائفة من سريانها الى بلادها، وغلبتها على أنظمتها وقوانينها ودينها وآدابها، فكان هذا الخوف والحذر مما أوجب الريب في صدق ذلك الذم والقدح فيها، لان تلك الفضائح المخالفة لكل دين المستقبحة في كل عقل، المباينة لكل أدب وعلم لا يخشى أن تهدم كل دين وأدب ونظام، وسنة الله في بقاء الامثل والاصلح التي

هي أساس سنن الاجتماع ، وقد عهد الناس من لسان السياسة ذم الحسن ومدح القبيح وغير ذلك من قلب الحقائق — لهذا نرى الناس يرجون من البلشفية خيرا وان لم يعرفوا حقيقتها ويودون لو يعرفون معناها ويقفون على أنظمتها

تحارب انكلترة وأحلافها البلشفية بالقول والفعل والمال والدين ، وقد كلفت الشيخ محمد بخيت مفتي مصر فأفتى في جواب سؤال بأن البلشفية محرمة في الاسلام وفي كل دين لانها عبارة عن لاباحة المطلقة للدماء والاموال والاعراض وجعلها عين المزدكية والزردشتية التي ظهرت في أمة الفرس ، فرد عليه كثير من الكتاب الازهريين وغير الازهريين من الجهة التاريخية والدينية وغير الدينية وكثر خوض الجرائد المصرية في ذلك . ولكن الحكومة المصرية أخذت صورة فتواه الخطية بآلة التصوير الشمسي ونقشتها في لوح معدني وطبعت عنها نسخا كثيرة لم يوزع شيء منها في مصر فالظاهر انها توزع في بعض البلاد الاسلامية الاسيوية التي سرت اليها البلشفية

وقد كثر سؤال الناس ايانا عن رأينا في البلشفية ما حقيقتها وهل هي ضرر وشر محض كما تقول السياسة والفتوى أم هل هي خير عام أو خير خاص بقوم وشر على آخرين فنقول :

ان الذي فهمناه من مجموع ما اطلعنا عليه في البلشفية أنها هي عين الاشتراكية المقصود منها ازالة سلطان أرباب الاموال الطامعين وأعوانهم من الحكام الناصرين لهم الذين وضعوا قوانينهم المادية على قواعد هضم حقوق العمال في بلادهم واستعمار بلاد المستضعفين من غيرهم ، وان معناها الحرفي «الاكثرية» فالمراد منها أن يكون الحكم الحقيقي في كل شعب للاكثرية من أهله وهم العمال في الصناعة والزراعة وغيرها ، وذلك بعد اسقاط سلطة أرباب الثراء والكبراء المشايعين لهم . وقد فعلوا ذلك في روسية بعد اسقاط دولة القياصرة الطاغية الظالمة التي لم يمنع مدعي الحكومات الديمقراطية من الفرنسيس والانكليز ظلمها وطغيانها من محالفتها والاتفاق معها على اقتسام بلاد العثمانيين والفرس . وقد قام في البلاد من بقايا أولئك القيصريين من يناوئهم ويقاتلهم على السلطة. ومن شأن أهل السلطة في كل بلاد أن يقاوموا الخارجين

عليهم فيها بما يمكنهم من الشدة والبأس ، سواء كان ذلك الخروج بحق أو بغير حق
فاذا كان للمطاعن الشديدة في قسوة البلشفيين هنالك أصل كما هو الظاهر فهـ
أحد سببين له وهو سبب لا تستطيع حكومة أن تبرأ نفسهـا من مثله . والسبب
الثاني هو انهم لم يكونوا متمرنين على الاحكام وكان الزمن زمن فوضى وفتن وف
عجزوا عن جعل قسوتهم بنظام يمكن لاهله أن يسموها به بضد اسمه

ونحن نجزم بأن أعمالهم وأنظمتهم لا يعقل أن تكون موافقة لاحكام الاسلا
ولا للمسلمين المذعنين لدينهم أن يتبعوهم فيها ، ولكن ليس خاصا بهم بل جم
القوانين الوضعية المتبعة في أوربة وكذا في الشرق كمصر والدولة العثمانية فيها ما يخالف
الشرع الاسلامي ، والمسلمون يتمنون نجاح الاشتراكيين نجاحا يزول به استعبا
الشعوب — وكلهم العمال — وان كانوا ينكرون عليهم كما ينكرون على غيرهم كل
يخالف الشرع ، على انهم غير مطالبين عندنا بفروع الشريعة ما داموا غير مسلمين

واننا ننشر هنا مقالة توضح ما أشرنا اليه من مقاصد القوم رأيناها في جريد
(سورية المتحدة) التي تصدر في المكسيك وهذا نصها :

«اقرأ أيها التاجر الكبير ما أكتبه اليوم بامعان وحكمة فان خطر الاشتراكية يحد
بكل هذه الكرة الارضية !

تقول الامثال اللاتينية (ان صوت الشعب هو صوت الله) أعني ان الاكثر
متى أرادت الحصول على حاجة ضرورية لها أخذتها عنوة واقتداراً لان الاكثر
هي الحقيقة والحقيقة هي القوة التي لا تقاوم

تمر الدقائق والساعات والايام وفي كل يوم تمثل أمامنا روايات عديدة تفهم
أن الحق للقوة وهذه القوة هي الاكثرية كما رأينا في الحرب التي أقامتها ألمانية ، لم
شعوب الارض حسبت أن ألمانية تظلم الشعوب والانسانية بالحرب التي شهرتها ع
فرنسة وبلجيوم وصربية فانقلبت الاكثرية عليها ولم تخش قوتهـا العسكرية و
استعداداتها الحربية من غواصات شيطانية وطيارات جهنمية ومدافع ضخمة وبعيد
المرمى بل حملت عليها من كل حدب وصوب حتى أصبحت الاكثرية ضد ألما
وهذه الاكثرية هي الحقيقة كما أشرنا في بدء كلامنا

والرأي العام اليوم أو الاكثرية هو الاشتراكية ـ والاكثرية هي ترجمة كلمة (بولشفيكي) الروسية ـ وهذه تطلب بناء أركان ضخمة ودعائم ثابتة عادلة للسلام العالمي وشروط حسنة للعمال في كل أقطاب الارض

قلنا ان معنى كلمة (بولشفيكي) هي الاكثرية وهذه هي الاشتراكية التي نحسبها من الاخطار المقبلة

لا يعجب القارئ اذا قلنا له ان ٩٩ في المئة من سكان الكرة الارضية هم من الاشتراكيين أو البلشفيكيين وهؤلاء هم الشعب الذي تقول الامثال ان صوته هو صوت الله، وهذا الشعب هو الذي يقلب الحكام ويئل العروش ويسقط الملوك وهو الذي يجبي أموال الغني ونسائه وبناته وأملاكه ومواشيه ومعامله بينادق أفراده يضحي حياته في سبيل اكثار أموال الاغنياء وزيادة أرباحهم

العمل . الشغل . هو نصيحة الآباء لابنائهم وفي المدارس يسمع التلامذة من معلميهم صدى هذه الكلمة مرات عديدة في كل يوم من أيام حداثتهم ، وكذلك الحكام يحثون الشعب على العمل لان به سعادة البلاد وبعكسه خرابها

قلنا ان الشعب العامل هو ٩٩ في المئة من كل سكان الارض ، وقلنا ان عليه تتوقف سعادة البلاد وخرابها وان هو الذي يرسل في الحروب لاقرار الامن ولاغاثة المظلوم ومحاكمة الظالم . أفلا يجب على الاقل أن تقدس حقوقه وتحترم ويحصل على حاجياته الضرورية ؟ ؟

تقطع العلائق الودية بين دولة وأخرى ويكون سبب ذلك طمع الواحدة ببقعة أرض غنية بالمعادن أو خصبة للاخرى وتكون هذه البقعة لاحد الاغنياء ، فتسوق الاولى شعبها برمته لساحة الحتف والفناء دفاعاً عن تلك البقعة لتحفظها للغني .

وتسوق الثانية كل شعبها لساحة الموت والدمار لتنتزع تلك البقعة وتبيعها من رسول آخر في بلادها

يترك العامل فأسه أو محراثه أو منشاره أو مطرقته ويترك زوجته وأولاده وعائلته وبيته عرضة للجوع والعري والاهانة ويعتقل البندقية لملاقات الموت الزؤام بين لعلعة المدافع وصفير البنادق ودوي انفجار الالغام وصليل السيوف وانفجار ينابيع الدماء للدفاع

عن أموال الغني وأرضه ومناجمه ومعامله والغني يخطر مشمخرا بين النمارق الوثيرة يعاقر كؤوس الخمور . ويتربع فوق الطنافس الناعمة لمداعبة ناحلات الخصور !!

يفعل الشعب كل هذا باسم الوطن وهو لا يملك من هذا الوطن شروى نقير فيعود من المجزرة البشرية مقشعر الشعور شائب(؟) الرأس ناحل الجسم عليلا فيجد أولاده وزوجته فريسة الجوع والبرد والاهانة فتقول له الحكومة اذهب واشتغل وهكذا يقضي العامل الفقير أيام حياته بين الفأس والمحراث لا يكسب من وراء عمله أجورا عادلة ولا يحصل الا على اليسير من رديء الغذاء وفضلات الكساء

مضت العصور والاجيال والشعب يتحمل كل هذا الشقاء والعناء و يحاول كسر نير الاغنياء المولاذي فتضر به الحكومات وهن شريكات الاغنياء بجرائمهم ومعاصيهم فيرضى بجورهم عن خوف ورهبة لاعن عدل ورحمة

أما الآن فالشعب هو غير ماكان عليه بالامس فهو الذي يقبض على القوة المسلحة ويدير حركتها ويقبض على السلاح والذخائر والخطوط الحديدية والمواصلات ومئة مليون رومي في أخصب بقع الارض وأغناها بالمعادن وزيت البترول والفحم الحجري تؤيد مطالب العامل وتؤلف أول حكومة شعبية في الارض دعك ان شعوب أواسط أوربة أعلنوا انضمامهم للحكومات الشعبية وكذلك نرى العمال في فرنسة وايطالية وسويسرة وفي كل أوربة وأميركة وآسية يطلبون اسقاط حكوماتهم وانشاء حكومات شعبية (بولشفيكية) وهم لا يخشون حكوماتهم لان منهم الجندي والبندقية بيده ومنهم البحار والسفينة وكل منهم يتقيد بأمره ومنهم سائق القطارات وصانع المدافع والقذائف بل ان كل شيء بيده وعليه يتوقف انقلاب الحركة الارضية والثورة العامة لايجاد العدالة واقرار السلام

ولا يتم هذا الا بانشاء الحكومات الشعبية التي تشعر بحاجات الشعب وتعترف بلوازمه

نعم انه لا يستطاع انشاء حكومات شعبية الا بعد أن تتبعثر ثروة الاغنياء وذلك بمقاومتهم ومناوءتهم لمطالب الشعب العادلة فيضطر هذا لاخذها بالقوة والارغام فيتضرر الاغنياء في كل أقطاب المسكونة ولكن الشعب لا يظلمهم بذلك بل ان طمعهم بابقاء سيطرتهم المطلقة ينتج لهم هذه النتيجة

خلاصة معاهدة الصلح [1]

٣

الفصل السادس

في أسرى الحرب

أسرى الحرب — تتولى لجنة تؤلف من مندوبي الحلفاء ومندوبي الحكومة الالمانية مع لجان فرعية محلية اعادة أسرى الحرب الالمان والملكيين المعتقلين الى أوطانهم . ويرد الاسرى الملكيون المعتقلون من الالمان الى أوطانهم بلا تأخير بواسطة الحكومة الالمانية وعلى حسابها ، والذين حكم عليهم لذنوب ارتكبوها ضد النظام العسكري . قبل ١ مايو سنة ١٩١٩ يردون الى أوطانهم ولو لم يكملوا المدة المحكوم بها عليهم ولكن هذا لا يسري على الجرائم المخالفة للنظام العسكري ويحق للحلفاء ان يبقوا عندهم ضباطا مختارين من الالمان الى ان تسلم الحكومة الالمانية الاسرى الذين ارتكبوا جرائم ضد قوانين الحرب وعرفها، ويحق للحلفاء ان يتصرفوا بما يستصوبون مع الرعايا الالمان الذين لا يرغبون في العودة الى أوطانهم، ويشترط في كل مسألة اعادة الالمان الى أوطانهم الافراج المعجل عن رعايا الحلفاء الذين لا يزالون في ألمانية وعلى الحكومة الالمانية ان تسهل على لجان التحقيق جمع المعلومات عن أسرى الحرب المفقودين ومعاقبة الموظفين الالمان الذين أخفوا رعايا الحلفاء . وعلى الحكومة الالمانية ان ترد الى الاسرى من الحلفاء جميع أموالهم ويتبادل الفريقان المتعاقدان المعلومات عن الاسرى الذين ماتوا وقبورهم

القبور — يحترم الحلفاء وحكومات ألمانية قبور جميع الجنود والبحارة المدفونين

(١) تابع لما نشر في الجزء الرابع

في أملاكهم ويعترفون باللجان المعينة للعناية بها ويساعدونها في مهمتها ويسهلون التسهيل المستطاع في نقل الرفات والدفن

الفصل السابع

في تبعة جنايات الحرب

يتهم الحلفاء علانية الامبراطور السابق ولهلم الثاني « بارتكابه الجريمة العظمى ضد الآداب الدولية وحرمة المعاهدات » وسيطلب من الحكومة الهولندية تسليم الامبراطور السابق وتؤلف محكمة خاصة من قاض واحد لكل دولة من الدول الخمس العظمى وتهتدي هذه المحكمة بأسمى المبادئ في السياسة الدولية ويناط بها مهمة تعيين العقاب الذي ترى وجوب انزاله . ويؤلف الحلفاء محاكم عسكرية لمحاكمة المتهمين بارتكاب فعال خرقوا بها قوانين الحرب وعرفها، وعلى الحكومة الالمانية أن تسلم جميع الاشخاص المتهمين بهذه التهم، وتعين كل دولة من دول الحلفاء محاكم كهذه لمحاكمة الذين ارتكبوا أمورا جنائية ضد رعاياها ويحق للمتهمين أن يعينوا المحامين عنهم وتتعهد الحكومة الالمانية أن تقدم جميع الاوراق والمعلومات التي يقتضي ابرازها

الفصل الثامن

في التعويض والرد

ان الحكومات المشتركة تلقي على ألمانية وحلفائها تبعة كل خسارة وعطل أصابا الحلفاء والدول المشتركة معهم ورعاياهم من جراء الحرب التي سيقوا اليها باعتداء ألمانية وحلفائها وان المانية تسلم بتبعتها وتبعة حلفائها . ومع أن الحلفاء والحكومات المشتركة معهم يعترفون بأن موارد المانية لاتفي بتعويض هذه الخسارة وذلك الضرر لنقص مواردها الناتج عن المطالب الاخرى المنصوص عليها في المعاهدة فانهم

يتقاضون منها التعويض من كل عطل أصاب الاهالي في الفئات السبع الكبرى التالية وهي :

(ا) العطل الحادث من الاذى البدني للاهالي بسبب الاعمال الحربية المباشرة وغير المباشرة وفي جملتها القاء القنابل من الجو

(ب) العطل الذي أصاب الاهالي وفي جملته التعرض للبرد والجوع في البحر من جراء اعمال القسوة التي أمر العدو بها والعطل الذي أصاب الاهالي في الولايات المحتلة

(ج) الضرر الحادث من اساءة معاملة الاسرى

(د) الخسارة التي نزلت بشعوب الحلفاء وهي ممثلة بالمعاشات والاعانات الممنوحة لعائلات الجنود اذا حولت الى رأس مال عند امضاء هذه المعاهدة

(ه) العطل الذي أصاب الاملاك والاموال غير المهمات العسكرية البحرية والبرية

(و) الضرر الذي أصاب الاهالي بالسخرة

(ز) الخسارة الحادثة من البلص والغرامات التي فرضها العدو

وعلاوة على ذلك تتعهد ألمانية بأن ترد جميع المبالغ التي اقترضتها البجيك من الحلفاء بسبب خرق ألمانية لمعاهدة ١٨٣٩ وذلك لغاية ١١ نوفمبر ١٩١٨ ولهذا الغرض تسلم ألمانية في الحال الى لجنة التعويض ٥ في المئة ذهبا وسندات تستحق في سنة ١٩٢٦ (لمقطم — يظهر انه سقطت عبارة هنا والمرجح انه جاء فيه ذكر الف مليون جنيه سندات) . أما جملة المطلوب دفعه من ألمانية كما هو مبين في كشف العطل والضرر فيعين ويبلغ اليها بعد ان تسمع أقوالها بالانصاف ويكون تسليمه اليها من لجنة التعويض التي للحلفاء قبل ١ مايو ١٩٢١. وفي الوقت عينه يقدم كشف الدفعات التي يتعين على ألمانية دفعها في خلال ثلاثين سنة لتوفية ماعليها وهذه الدفعات عرضة للتأجيل اذا طرئ بعض الطوارئ . وتعترف ألمانية اعترافا قاطعا لا رجوع فيه بما لهذه اللجنة من السلطة التامة وتقبل ان تمدها بجميع المعلومات

اللازمة وتسن القوانين لتنفيذ قراراتها وتقبل ان ترد الى الحلفاء النقود و بعض الاشياء التي تمكن معرفتها، ومن الامور المعجلة التي يطلب من ألمانية عملها في سبيل رد الشيء بها تدفع في خلال سنتين الف مليون جنيه اما ذهباً أو بضائع أو بواخر أو غير ذلك من أشكال الدفع المعينة وهذا المبلغ يدخل في سند الالف مليون جنيه المشار اليه في ما تقدم ولا يكون علاوة عليه مع العلم بأن بعض المصروفات كمصروفات جيوش لاحتلال وثمن الطعام والمواد الخام قد تحسم اتباعا لما يستصوب الحلفاء

ولجنة التعويض في تقدير مقدرة ألمانية على الدفع في الآجال المعينة تفحص نظام الضرائب في ألمانية أولا والغرض من ذلك ان تجعل المبالغ التي يطلب من ألمانية دفعها للتعويض عبئاً على جميع ايراداتها قبل ان يصرف من هذه الايرادات شيء في تسديد فائدة ديونها الداخلية أو استهلاك شيء منها . وثانياً تتأكد اللجنة ان اللجنة الالمانية هي بالاجمال بالغة من الكبر النسبي مبلغها في بلاد أية دولة من الدول التي لها مندوبون في اللجنة . هذا والتدابير التي يحق للحلفاء والدول المشتركة معهم اتخاذها اذا تقاعدت ألمانية باختيارها عن دفع الاقساط المطلوبة والتي تعترف ألمانية بأنها لا تعد أعمال حرب تشمل القيود الاقتصادية والمالية ومقابلة الشيء بمثله، وبالاجمال جميع التدابير التي تعدها الحكومات المذكورة لازمة في تلك الاحوال . وتتألف هذه اللجنة من مندوب عن كل من الولايات المتحدة و بريطانية العظمى وفرنسة وايطالية والبلجيك ومندوب عن سربيا واليابان يحل محل مندوب البلجيك حينما يقع ما يمس مصالح احدى هاتين الدولتين . ثم ان سائر دول الحلفاء يحق ان يكون لها مندوبون في اللجنة متى نظر في مطالبها ودعاويها من غير ان يكون لها حق الاقتراع وتجيز اللجنة لالمانية ان تقيم البينة على مقدرتها على الدفع وتوسع لها المجال لابداء حججها و يكون مركز هذه اللجنة في باريس وهي تضع نظام اجراءاتها وتعين موظفيها ومستخدميها وتكون لها الرقابة العامة على مسألة التعويض كلها وتصير الوكيل الوحيد للحلفاء لاستلام التعويض والدفع وحيازته و بيعه وتوزيعه

وتكون قرارات اللجنة بالاكثرية وانما يشترط الاجماع في المسائل التي تمس سيادة حليف من الحلفاء واعفاء ألمانية من جميع عهودها أو من بعضها وتعيين مواعيد بيع السندات الصادرة من ألمانية وكيفية بيعها وتوزيعها وصرفها وتأجيل الدفعات السنوية بين سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٦ الى ماوراء ١٩٣٠ وتأجيل الدفعات بعد سنة ١٩٢٦ لمدة ثلاث سنوت وتغيير أسلوب تقدير العطل والخسارة وتفسير الشروط. ويجوز للدول سحب مندوبيها من هذه اللجنة اذا أعلنت عزمها على ذلك قبل وقوعه باثني عشر شهرا. ويجوز للجنة ان تطلب من ألمانية ان تعطيها من وقت الى وقت على سبيل الضمان والتأمين سندات لتسديد المطلوبات التي لم تسددها. ولهذا الغرض ولاجل بيان مجموع المطلوب من المانية تطالب الآن بأن تقدم سندات تعترف فيها بالمبالغ المطلوبة منها وهي الف مليون جنيه انكليزي تدفع قبل انقضاء أول مايو ١٩٢١ بلا فائدة والفا مليون جنيه انكليزي بفائدة ٢ ١/٢ في المئة بين ١٩٢١ و ١٩٢٦ ثم تصير الفائدة ٥ في المئة ومال لاستهلاك ١ في المئة ويبدأ الدفع سنة ١٩٢٦. وتتعهد المانية بأن تعطي سندات بألفي مليون جنيه انكليزي آخر بفائدة ٥ في المئة وبشروط تعينها اللجنة فيما بعد

وتكون الفائدة على هذه الديون التي على ألمانية ٥ في المئة الا اذا عينت اللجنة فائدة أخرى في المستقبل والدفعات التي لاتدفع ذهبا يمكن للجنة ان تقبل فيها بدلا من الذهب أملاكا وبضائع وحقوق امتياز وامتيازات الخ ويجوز للجنة ان تصدر للدولة صاحبة الشأن شهادات تمثل السندات أو البضائع التي أخذتها من المانية ومتى انتقلت السندات من حيازة اللجنة ووزعت على الدول يعتبر ان ما يساوي قيمتها من دين المانية أوفى

البواخر — تعترف الحكومة الالمانية بأنه يحق للحلفاء ان يطالبوها بتعويضهم من جميع البواخر التجارية وسفن الصيد التي فقدت أو عطلت بسبب الحرب وان يطلبوا منها ان تبدلها بما يساويها طنا بطن وطرزاً بمثله وتقبل ان تسلم الى الحلفاء جميع

البواخر الالمانية التي حمولتها من ١٦٠٠٠ طن فصاعدا ونصف بواخرها التي حمولتها بين ١٦٠٠ طن و ١٠٠٠ طن وربع بواخر الصيد سفن الصيد وتسلم هذه البواخر كلها بعد شهرين للجنة التعويض مع عقود التنازل الدالة على نقل ملكية البواخر خالية من كل عب،

وعلاوة على ذلك من قبيل التعويض تقبل ألمانية ان تبني بواخر لحساب الحلفاء الى قدر لا يتجاوز ٢٠٠ الف طن في السنة في السنوات الخمس التالية وترد جميع البواخر النهرية التي أخذتها من الحلفاء ويكون ردها في خلال شهرين . وكل خسارة تكون قد أصابت هذه البواخر تعوضها ألمانية باعطاء جانب من بواخرها النهرية لا يتجاوز عشرين في المئة منها

الولايات المحررة — تتعهد ألمانية أن تنفق مواردها الاقتصادية على تعمير الولايات التي غزتها وتكون للجنة التعويض السلطة بمطالبة ألمانية بتعويض مادمر بتسليم الحيوانات والآلات الخ الموجودة في ألمانية وصنع المهمات المطلوبة للتعمير مع مراعات حاجات ألمانية الداخلية الضرورية

الفحم الخ — على ألمانية أن تسلم الى فرنسة مدة عشر سنوات من الفحم ما يساوي الفرق بين ما كان يستخرج سنويا من الفحم من مناجم الفور و بادكاله وما يستخرج منها سنويا لمدة نحو عشر سنوات . ثم ان ألمانية تعطي لفرنسة الخيار لمدة عشر سنوات بأن تسلم سبعة ملايين طن من الفحم سنويا لفرنسة علاوة على ما تقدم وتسلم ثمانية ملايين طن للبلجيك وتسلم ايطالية لها يختلف مقداره من ٢ ١/٤ مليون طن في سنة ١٩١٩ و ١٩٢٠ الى ٨ ١/٢ مليون طن في سنتي ١٩٢٣ و ١٩٢٤ بأثمان تعين حسب ما هو وارد في المعاهدة . ويجوز أخذ فحم الكوك بدلا من الفحم على نسبة ٣ أطنان منه لاربعة أطنان من الفحم ، ونص أيضا على تسليم البترول وقطران الفحم وسلفات الامونيا الى فرنسة لمدة ثلاث سنوات . وللجنة السلطة بأن تؤجل تسليم هذه المقادير أو تلغيه اذا كان تسليمها يعرقل مطلوبات الصناعة في ألمانية

الاصباغ والعقاقير — تعطي ألمانية اللجنة حقا بأن تأخذ من الاصباغ والعقاقير

وفي جملتها الكينا نصف الموجود منها في ألمانية في وقت الشروع في تنفيذ المعاهدة وتعطيها حقا كهذا كل ستة أشهر من السنة الى سنة ١٩٢٤ بحيث لا يتجاوز ٢٥ في المئة مما يكون قد صنع في الاشهر الستة السابقة

الاسلاك التلغرافية البحرية — تتنازل ألمانية عن كل حق لها في أسلاك معينة وتقيد قيمة الاسلاك التي لها أصحاب من الافراد أو الشركات لحساب ألمانية وتطرح من التعويض المطلوب منها

نصوص خصوصية — تعويضا من تدمير مكتبة لوفان تقدم ألمانية من الكتب الخطية والكتب المطبوعة القديمة والصور الخ ما يساوي ما أتلف في المكتبة المذكورة وزد على ذلك ان ألمانية تسلم الى البلجيك الجناحين الخاصين بمذبح سجود الحمل الذي صنعه هوفرت وجان فان ايك وهما موجودان في برلين الآن ووسط هذا المذبح موجود الآن في كنيسة القديس بافو في غنت وكذلك الجناحين الموجودين الآن في برلين ومونخ وهما من مذبح عمل العشاء الاخير صنعه درك وتس والقسم الاوسط من هذا المذبح موجود في كنيسة القديس بطرس في لوفان

وعلى ألمانية أن ترد الى ملك الحجاز في خلال ستة أشهر مصحف الخليفة عثمان الذي كان قبلا في المدينة وترد الى الحكومة البريطانية جمجمة السلطان مكرى التي كانت قبلا في شرق افريقية الالماني وترد الى الحكومة الفرنسوية الاوراق التي أخذها ولاة الامور الالمان سنة ١٨٧٠ وهي للمسيو روهو وترد الرايات الفرنسية التي أخذتها في حرب ١٨٧٠ — ١٨٧١

الفصل التاسع

في المالية

ان الدول التي ستأخذ أملاكا ألمانية تتحمل جانبا من الدين الذي كان على ألمانية قبل الحرب وهذا المبلغ تعينه لجنة التعويض على قاعدة النسبة بين ايرادات الاملاك المقتطعة ومجموع ايرادات ألمانية في السنوات الثلاث السابقة للحرب ولكن

نظرا للاحوال الخصوصية التي سلخت فيها الالزاس واللورين عن فرنسة سنة ١٨٧١ لما أبت ألمانية أن تحمل شيئا من دين فرنسة العمومي ففرنسة لا تحمل شيئا من الدين الذي كان على ألمانية قبل الحرب ولا تحمل بولندة شطرا ما من الديون التي استدانتها ألمانية للاستبداد ببولندة . أما قيمة أملاك الحكومة الالمانية في البلاد التي تنازلت عنها فهذه بالاجمال تحسب لالمانية في حساب التعويض الا في الالزاس واللورين حيث لا يقيد شيء كهذا لحساب الحكومة الالمانية . أما الدول الموكلة فلا تحمل شيئا من ديون المانية ولا تقيد شيئا لحسابها مقابل أملاك الحكومة الالمانية وتتنازل المانية عن كل حق في تعيين مندوبين لها أو السيطرة على بنوك الحكومة أو اللجان أو غير ذلك من المعاهد والجمعيات المالية والاقتصادية

وعلى ألمانية أن تدفع جميع مصروفات جيوش الاحتلال من تاريخ الهدنة مادامت هذه الجيوش مرابطة في بلاد ألمانية ويكون المبلغ اللازم لتسديد هذه المصروفات أول ما يؤخذ من ايراداتها وتتلوه مبالغ التعويض بعد دفع أثمان الواردات التي يعدها الحلفاء لازمة لالمانية . ويجب على ألمانية أن تسلم الى دول الحلفاء جميع المبالغ التي أوردتها تركيا والنمسا والمجر في ألمانية لاجل المساعدة المالية التي ساعدتهما ألمانية بها في أثناء الحرب وان تنقل الى ملكية الحلفاء جميع المطلوبات التي لها قبل النمسا والمجر وبلغاريا وتركيا من جراء الاتفاقات المبرمة بينهما في أثناء الحرب

وتؤيد المانية نقض معاهدتي بخارست وبرست لتوفسك وبناء على طلب لجنة التعويض تنزع المانيا ما لرعاياها من حقوق الملكية أو المصلحة في المنافع العمومية في البلاد التي تتنازل عنها وفي البلاد التي ستديرها دول الحلفاء بالوكالة وفي تركيا والصين وروسية والنمسا والمجر وبلغاريا وتنقل هذه الحقوق والمصالح الى حيازة لجنة التعويض وهذه اللجنة تقيد لها قيمة ذلك بالحساب وتتعهد المانية أن تسدد الى البرازيل التي تجمدت من بيع بن سان باولو وكانت قد أبت على البرازيل أن تسحبه من المانية

(لها بقية)

لاقوة الا بالاتحاد[1]

كونوا جميعا يابنيّ اذا اعترى خطب ولا تتفرقوا آحادا
تأبى القداح اذا اجتمعن تكسراً واذا افترقنَ تكسرت أفرادا
(أكثم بن صيفي)

أنشد الحكيم العربي هذين البيتين عندما شعر بدنو الاجل . فلخوفه على أولاده من التفرق دعاهم لسماع وصيته الاخيرة . وكان قد استحضر اضمامة من السهام فطلب اليهم ان يكسروها فلم يقدر واحد منهم على كسرها . ثم بددها فاستسهلوا كسرها فقال لهم: كونوا مجتمعين ليعجز من ناوأكم عن كسركم كما عجزتم عن كسرها . فاذا تفرقتم سهل كسركم وضاع قدركم . هان أمركم . فياحبذا لو اتعظ العرب بشعر حكيمهم وانتصحوا بأنفع النصائح . اذاً لما فقدوا الملك والخلافة . واشتغلوا عن الحوادث والحدثان بأحاديث خرافة . فبين التنازع والتقاطع خربوا مملكتهم بأيديهم وقد كانت أعظم مملكة طلعت عليها الشمس ، وبينما كانوا أسياد الشعوب اذا هم عبيد الترك والروم . لكنهم صبروا على الاعادي وصبروا غور العوادي . فوقاهم تعلقهم أهداب عروبتهم وتمسكهم بأستار كعبتهم . فحفظوا بكتبهم وأقلامهم ما كان دونه تكسير سيوفهم ، وتنكيس أعلامهم . فالحمد لله على بقاء القوة كامنة في صدورهم ليبنوا قصورهم على قبورهم . وان في حفاظهم على العصبية أساس الوحدة العربية

لا قوة بلا اتحاد ولا اتحاد بلا اتفاق وانما الاتفاق بحسن التفاهم وصدق التساهل وذلك ميسور للذين رجحت أحلامهم وكرمت اخلاقهم . فعلى العرب ان يتفقوا ويتحدوا بالتي هي أحسن لتلافي التي هي أقبح . ولا اعتلت عربيتهم وانحلت عصبيتهم ، فأصبحوا لا يعرفون أوطانا ولا يرفعون أعلاما . السيل الاوربي يكاد يطغى عليهم ويفرقهم كما تفرقت أيدي سبإ . وانه لأكثر خطرا وأشد هولا من سيل العرم الذي

(١) للكاتب الفاضل «الوليد بن طعمة» صاحب الروح العربية العالية عن العدد ١٤ من «سورية الجديدة» الصادر في البرازيل في أول ايار (مايو) سنة ١٩١٩

أجحف التبابعة ومزّق ملكهم فليبنوا له من اسانهم وقرآنهم سدّا امتن من سد مأرب. وما استقاموا الى الاوربيين رأوا منهم أصلالا وثعابين . وكفى بنكبة اخوانهم عرب الغرب عبرة وانذاراً . ومن فظائع الصليبيين في الماضي يعرفون مقدار فجائعهم في الآتي، فما أقرب الغد من الامس والخطر أدنى من قاب قوسين . الفرنج يضربون أخماسا لاسداس ويستضعفون العرب لتخاذلهم . فلا قوة لهم الا باتحادهم وتوحيد حكامهم وبلادهم

قيل ان زرقاء اليمامة كانت تبصر الشيء من مسير ثلاثة أيام . فجهز حسان ابن تبع جيشاً وسار الى غزو قومها جديس . فصعدت ونظرت الى الجيش فرأت كل رجل قد حمل شجرة ليلبسوا عليها فقالت أتتكم ياقوم الاشجار أو أتتكم حمير فلم يصدقوها ولم يستعدوا حتى صبحهم حسان فاجتاحهم . واني لقومي نذير لئلا يحل بهم ماحل بقوم الزرقاء . لقد علموا أن بين زرق العيون وسودها عداوة جراثيمها في العروق فكيف بركن العربي الى الفرنجي وهو العدو الازرق و بينهما من المباينة مالا يزول بالملاينة . فليحذر العرب خشونة القلانس بعد ليونة الملامس، ان الفرنج يصانعونهم لينالوا منهم أربا ثم يقولون لا نعرف عربا . المثل يقول : من جرب مجرباً كان عقله مخرباً . فأي شعب لم يجربهم و يتأكد أن أعمالهم تخالف أقوالهم فاذا دخلوا أرضاً مزقوها واذا حكموا أمة فرقوها . وبعد ما تركز أعلامهم وتغرز أقدامهم يستبدلون العنف من الرفق والقوة من الخدعة . فويل للعرب من الفرنسيس والانكليز اذا لم يوحدوا كلمتهم توحيدهم لله

لو حفظ العرب عصبيتهم في الاسلام كما حفظوها في الجاهلية لظلوا حتى اليوم أهل السيادة والقيادة . لكنهم أضاعوا الدولة والخلافة بتحكيم الغرباء وتسليم الامور الى الدخلاء، فأصبحوا محرومين من ملك بني على أجسادهم وأكبادهم ، وصار الى الفرس والترك ولاكرادما فتحته سيوف أجدادهم. والبلية من سياسة الخلفاء الخرقاء بتقديم العجم على العرب واعتمادهم على المماليك في السياسة والحرب ، فلو جعلوا لاحكام للعرب دون غيرهم لصانوا شرفهم وشرف العروبة والخلافة . وقد ظنوا دولتهم اسلامية تقوم بالمسلمين من جميع الشعوب . فما كان الاسلام شافعاً لهم عند نزوة

الشعوبية ونعرة العصبية . وهكذا أسقطوا العرب وأبعدوهم فسقطوا ذلاحماة للدولة الا الذين بنوها . والدولة التي يتربع في دستها الاجانب صائرة الى انحلالها واضمحلالها . لما قتل باغر التركي المتوكل على الله رثاه المهلبي بقصيدة قال في آخرها يخاطب بني العباس

فلو جعلتم على الاحرار نعمتكم　　حمتكم السادة المركوزة الحشد
قوم هم الجذم والانساب تجمعكم　　والمجد والدين والارحام والبلد

لقد صدق المهلبي فليس للمرء الا أهله وقومه في الشدة . ان معن بن زائدة الشيباني قاتل المنصور مع ابن هبيرة نصرة لبني أمية . فاشتد طلب المنصور له وهدر دمه فاختفى زمناً طويلا وبعد ماقتل المنصور أبا مسلم ثار عليه الراوندية وقصدوا قصره ليقتلوه ، فبرز البطل العربي معن بن زائدة متلثماً وقاتل العصابة الفارسية وحده حتى ظفر بها ومزق شملها. فتمرد الفرس على الخليفة العربي أنساه العداوة، فصان وقار الخليفة والعرب، وبما عنده من النخوة العربية والغيرة العصبية ركب مركبا خشناً وأبلى بلاء حسنا ، فلو كان حول الخلفاء حاشية وجند من أحرار العرب لما تطاولت اليهم أيدي الغلمان والمماليك. وقد كان سقوط الدولة العربية لبعد العرب عنها وتفرقهم وانقسامهم ، فالدولة لاتقوم الا باتحاد الاصلاء وابعاد الدخلاء

عسى أن يكون للعرب عبرة من الماضي فيجددوا ويؤسسوا دولة عربية خالصة فيها تخلو من الشوائب تجلو كل النوائب . ويصير العربي سيداً واليه العقد والحل والنهي والامر تتصدر الاحكام وتتصدر الحكام من العرب للعرب في كل أرض شرفت بالعروبة وتشرفت بالاستعراب، وبحكم الشرع يكون فيها عربيا كل مولود ومكتوب ومصكوك . وتظلها الراية التي طلعت من بطحاء مكة سوداء خضراء بيضاء، لقد كان سوادها وقاراً واخضرارها رجاء وبياضها هدى وسلاما . فتحتها يجب ان يتم اتحاد العرب في الشرق والغرب وهي المشرع واليها المهرع . ولا عزة للمسلمين من غير العرب الا بها لانها راية الخلافة العظمى ، فما أحراهم بأن يتراجعوا اليها ويقسموا اليها اليمين عليها مستعربين لغة كما استعربوا ديناً ، ان باندماجهم في أمة الرسول شرفا لهم فوق شرف ، هكذا تنبسط الدولة العربية الكبرى ولها جناح في

المشرق وجناح في المغرب ، فيبسوا أصلها وتمتد فروعها بجيش مرصوص وأسطول مرصوف ، فتظل عربية عربا لادخلاء فيها ولا غرباء

على العرب ان يحققوا هذه الاماني ولو كانت دونها المنايا ، تاريخهم مكتوب بدم أجدادهم فليكتبوا بدمهم وصية لاولادهم، فاذا عجزوا عن اتمام خطتهم أتمها الآتون بعدهم فللشعوب آجال تقصر عندها أجيال ، وما كان العرب ليخشوا محذورا ذا طلبوا محظورا ، انهم جارون أصحاب بأس و بطش ونجدة وشدة فلو كانوا متحدين متعاونين لسدوا كل ثغرة وصدوا عدواً له شرفغرة. فطالما حاربت قبائلهم دولا ذوات جحافل وأساطيل، فأطلقوا الاعنة وتسرعوا الاسنة تجاه قذافة النار. فكانت سواعدهم أشد من فوهات المدافع وأفتك ،فشهدلهم أعداؤهم بالبسالة والنصر، والفضل ما تشهد به الاعداء ، أجل ان الاعاجم يرهبونهم على افتقارهم وتفرقهم فكيف اذا وحدوا أوطانا واتحدوا أعوانا ، حينئذ تكون لهم أيام كأيام حليمة وذي قار واليرموك والقادسية وشريش وعروبة ، فما أكبر ذلهم في خضوعهم للترك والروم مد شرف راسخ ومجد باذخ ، وقد كانوا في جاهليتهم أسيادا وابطالا فلم يجسر الغزاة على وطء أرضهم وهي كعرينة الاسود ، فوقف غزاة الفرس واليونان والروم متأهبين مرهبين على حدود البادية الرهيبة ، وظلت الامة العربية بكرا حرة في رمالها وجبالها

كانت قوة العرب بشدة اتحادهم وصحة اعتقادهم لا بكثرة العدة والعدد ،فقد كسرت شراذمهم جيوشا جرارة وفتحوا في ثمانين سنة مالم يفتحه الرومان في ثمان مئة وكانوا يتغلبون بصبرهم واقدامهم واتحادهم على القواد المجربين والاجناد المدربين. فحكموا مئة مليون من البشر وعددهم لا يربي على مئة ألف ، وكانت أوامر الخلفاء تصدر في دمشق و بغداد وتنفذ في الهند والصين والاندلس ، وقد حدد أبو تمام دولة الخلافة في أيام المعتصم ببيت من قصيدة مدحه بها قال

فاعقد لهارون الخلافة انه سكن لوحشتها ودار قرار
فالصين منظوم باندلس الى حيطان رومية فملك ذمار

هذه حدود الدولة العربية التي شيدها جبابرة العرب فهدمها مماليكهم وما رممها صعاليكهم. وقد كان أوائلهم متنسكين فأصبح أواخرهم باللذات متمسكين. ولما

صاروا أحزابا غدت مملكتهم أقساما ، فطمع بها الطامعون وليس للفتنة ممعون ، وكانوا متحاسدين في الرئاسة ، متخالفين في السياسة ، فضعفوا بتقاتلهم وتخاذلهم وعاونوا أعداءهم على نفوسهم ، وما فقدوا ملكهم الا لانهم أرادوا أن يكونوا جميعهم ملوكا وأمراء ، وتلك عزة عربية لا تزال حتى اليوم حائلة دون اتفاق أمرائهم

لا تقوم للعرب قائمة حتى يوم الدين اذا لم يعتصبوا على الاجانب ، وربما ذهبت لغتهم وأخلاقهم وأرطانهم بعد ذهاب دولتهم ، فالروم كرة بعد كرة في حرب صار فيها العربي حريبا ، ان في قصيف المدافع مواعظ لهم فليتهم يتعظون ، وان يكونوا ضعفاء في الحكم لتكن لهم قوة من بغض أعدائهم وحب بعضهم لبعض ، ان من البغض لقوة أكبر من قوة الحب عند اصطدام المنازع ، فاياهم والاغترار بمواعيد الاوربيين فالافاعي مالسة جلودها حادة نيوبها ، انهم يظهرون لينا حتى اذا فازوا وحازوا قبضوا بايد من حديد فلا تنعتق الامة الضعيفة من الرق ولا تنطلق من الاسر وقد حجروا عليها وحجزوا سلاحها ، يصنعون السلاح وكالسلع يبيعونه أحقر الجمهوريات الاميركية وأصغر الممالك الاوربية ، فبيعه حلال عندهم لاهل الجبل الاسود في أوربة وأهل البرغواي في أميركة ، ولكنه محرم على الشعوب الافريقية والاسيوية التي ملكوا نواصيها ، وبعد شك سلاحهم ينزعون ما عندها من السلاح ويمنعونها من أن تصنع أو تشترى ، فتصبح عزلاء تحت رحمتهم وقد أحاطت بها القلاع والمدافع فويل للعرب اذا عاق العرق الفرنجي بارضهم فامتد واشتد

لقد ناموا مستسلمين الى الاقدار والاوربيون ينصبون أشراكا ويطرحون شباكا ، ولما استيقظوا أبصروا الاساطيل تدمر ثغورهم والمدافع تحصد صفوفهم ، فايقنوا أن لاطاقة لهم عليها بسيوف رقيقة ورماح دقيقة ، وقد جنى الاتراك على نفوسهم وعلى العرب لانهم ضعفوا وأضعفوهم معا ، فوثب الفرنسيس والانكليز عليها وعاثوا في بلادهم وعبثوا بحرمتهم فهلا علم العرب أن لاحق الا للقوة وبالقوة وأن لاقوة بلا اتحاد ؟ لاريب بأنهم ضعفاء اليوم ولكن لهم قوة باتحادهم فوق قوة السلاح فليجمعوا آمالهم وعواطفهم كلما جمع الاوربيون قواصف تنثر قذائف ، فبعد الحفيظة والحفاظ يرون فجر الحرية منبلجا وجيش العبودية منفلجا ، واذا توسلوا بالقوة

الادبية توصلوا الى القوة المادية ، فعلى هذا المنهج سار الذين كانوا من المغضوب عليهم والضالين ، فلتتوغل المروبة نفوسهم كلما توغل الفرنج بلادهم ، فإما ان يعيشوا عربا واما ان يموتوا عربا

أليس من الغبن والحيف ان تلمّ أحدث الامم شعثها ، ولا ترى أقدمها وأشرفها بعد الموت بعثها ، أما كفى الامة العربية شقاؤها بحكم الترك حتى تصير أشقى بحكم الروم ، الله أكبر على الذين يمزقون بلادها ويفرقون أولادها. فلا سبيل الى العزاء والصبر لا يفرج الهم والخطب قد ادلهم ، وفي ذلك والعرب البيض الوجوه الشم الانوف عبيد وقد صار لزنج في أميركة أحرارا ، الا تكون لاعظم السلالات دولة حرة جامعة ولاحقرها دول شتى في القارتين الاوربية والاميركية ، ألا يشفع للعرب فضلهم على الافرنج بما أخذوه من مدنيتهم وعلومهم وآدابهم ، ألا يعرفون لهم جميلا بدماء أهرقوها وأكباد أحرقوه في الذود عن حياضهم؟ لا ورب الكعبة فالحق يعرفه المرء ضعيفا وينكره قوياً ، فقل للعرب اتحدوا لتصيروا أقوياء وانتصفوا من أهل القوة بالقوة ، فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) لا خلافة لكم في هذا الخلاف ولا دولة والحصام بينكم ولا عاجم خصومكم فشيدوا دولة ذات عز وسلطان ولا ترضوا بالسلطة الا من السماء ، بئست الحكومة اذا كان الاجنبي فيها حكما وبئس الخليفة اذا كان صنما ، لا جلال ولا مهابة للخلافة الا بأمثال عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وهارون الرشيد وعبد الرحمن الناصر ، ولا منعة للدولة الا بأسطول يحمي الثغور ويخوض البحور ، وأمير مثل حميد بن معيوب الذي عقد الرشيد له للواء ، ولا سطوة للملك الا بخميس يقوده أمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وأسد بن عبد الله ومحمد القسري وموسى بن نصير والحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم ويزيد بن مزيد وأبي سعيد محمد بن يوسف

باتحاد العرب واتفاقهم تتألف الدولة العربية الكبرى ، فتعم الحجاز واليمن ونجداً والشام والعراق والموصل وديار بكر ، وتنضم اليها كل أرض تغلبت فيها العروبة وكل أرض أراد أهلها ان يستعربوا ، هذه خريطة الدولة العربية في آسية حتى توضع لها

خريطة في افريقية فتسبطرّ في الشرق والغرب ، وتنتظم البلاد العربية انتظام البلاد الالمانية بدهاء بسمرك والايطالية بسياسة كافور ، وليس الامر بعسير على سلالة كبيرة قديرة كالسلالة العربية فقد كاد يتم على يد عبد القادر ومحمد علي لولا معاكسة الفرنسيس والانكليز وأهل أوربة أجمعين ، فقد كانوا ولا يزالون ساعين الى احباط مساعي العرب خشية من سطوتهم وطشهم ، ولولا مساعدة الاوربيين ماظل الاتراك متحكمين بهم وبسائر الشعوب ، لقد كانوا جميعهم على الاتراك في أوربة ومعهم في آسية ، وطالما ادعوا حماية النصارى في الشرق ولم يكترثوا لمذابح الارمن وما لبوا لهم دعاء لكنهم لاهواء فاسدة انجدوا أهل اليونان والبلقان وعاونوهم على نيل استقلالهم ، وما كان أولئك أقوى من العرب والارمن وأصلح للحكم ولا هم أهل مدنية وثروة وسلطان ، انما المطامع والمآرب جعلتهم يدوسون حقوق الشرقيين ويدسون لهم ، وهذا يوسف كرم البطل اللبناني قد خانته فرنسة ذات الوجهين واللسانين ، فهي التي عاكسته وشاكسته وقضت عليه بذل الاسر ووحشة المنفى ، فقد لاينته وخادعته حتى استسلم ثم أعرضت عنه إعراضا ، واذ كانت طامعة بامتلاك لبنان خافت ان يفضي الامر اليه ، فأغرت به طائفته وبطريركها فكانوا شر أعدائه وما عرفوا له قدرا ، هذه حقيقة ساطعة وحجة قاطعة فلا اعتراض ولا افتراض

هكذا الفرنسيس والانكليز يفرقون الشرقيين شذر مذر فقل للعرب الحذر الحذر . فتحدوا اتحادا متينا لتسلم أوطانكم وأعراضكم ، وقاوموا بوارجهم ومدافعهم ومناطيدهم بتاريخكم ولغتكم ودينكم وأخلاقكم ، فاذا حفظتموها حفظتكم وهي عليكم محافظة مادمتم عليها محافظين ، قال بسمرك غلبنا الفرنسيس بالمدارس : والمثل العربي يقول الدارس غلب الفارس ، فادرسوا واثبتوا ولكم حق ويقين حتى يكون يوما فتح من الله ونصر مبين ، حينئذ يجتمع أمراؤكم ويجمعون أوطانا ويبايعون سلطانا ، فتبقى لكل أمير امارته وتعطى كل ولاية حقها ، فتستقل بادارتها الداخلية وتبعث نوابها وأعيانها الى مجلس الشورى ودار الندوة ، ويكون مرجع الولايات كلها الى حكومة مختلطة عاصمتها احدى المدن العربية الكبرى . وينظم جيش بريّ وجيش بحريّ من جميع طوائف العرب ، والمناصب للذين هم أهل لها دون تمييز

في الدين والبقعة فلا فضل لعربي على آخر الا بما أوتيه من المواهب وبما يأتيه من الاعمال ، هذه خطة أرسمها رسما ويعدها البعض هوسا ووهما ولكنها ستصير حقيقة فالليالي حبالى يلدن كل عجيبة ، ولا بد من ان ينهض العرب كاليابان فما السلالة الصفراء بأفضل من السمراء

هذا اتحاد مقدس يريده كل العرب ولكن الفرنسيس والانكليز لا يريدون، فكأن العباد عبيدهم والبلاد تليدهم، فيعطوا ويحرموا ما يشاؤن ومن يشاؤن ، أبدا ينبشون للشعوب قبورا ويقولون نمدن همجاً ونعمر بورا، فتراهم يغتصبون ويغتصبون متغزلين بالحرية والمدنية، فمتى يستريح الناس من هذه الاغنية التي غلب الفرنجي بها الشيطان ، كنا ظنناهم قد تابوا الى الله والمظلومين بعد ما لطمتهم ألمانية وحطمتهم ، فاذا هم طامعون بالذراع بعد الكراع وقد أفلتوا من البرثن واللهوات ، بالامس كانوا يشكون ظلمها معولين على الاميركان معولين واليوم يظلمونها بأشد من ظلمها وينقضون عهد نصرائهم اذ تحفزوا لملك رقابهم وحكم بلادهم ، وهكذا يجزون الاحسان بالاساءة ويقابلون الشر بشرّ أعظم ، لقد نهبوا ألمانية وسلبوها ولو استطاعوا لسحقوها وخنقوها، فأي فضل لهم اذا لم يعفوا عن مقدرة والعفو من شيم الكرام

أما العرب فكانوا أسوأ الناس حظا، وما كان الرومي مع العربيّ الا فظا ، لقد حالفوهم فكانت كل المحالفة من تلك المحالفة ، فبعد ما نصروهم قاموا ينحتون في اثلتهم ويقسمون بلادهم إربا إربا ، فيقول الانكليز ليس للعرب الا الحجاز فلنا العراق وفلسطين ويقول الفرنسيس لم تكن سورية يوما عربية فهي لنا منذ الازل والى الابد، وبعض الخونة يمالئونهم على الاحرار الذين يناوئونهم، فيا خيبة المسعى والامل، وهذه قصة الذئب والحمل ، الوفاء قد غاض والحق التوى ، فهل يرحمنا الذي على العرش استوى ، ولم يكتفوا بأن يمالوا من فقرنا بل يريدون ان ينزلوا اليهود في عقر دارنا فيجعلون مقاومة اليهود شغلا شاغلا لنا لننصرف عنهم ويتيسر لهم اضعافنا واذلالنا. فلا ريب في تعمدهم تفريق العرب لئلا تكون دولة عربية، نعم انهم لا يريدون ان تكون لهذه الامة دولة تجمعها وراية ترفعها ، فلا تبقى للشهم لاني بقعة عربية يلجأ اليها من جورهم ومكرهم . فيرى الموت تحت أية راية في الغربة أفضل من

العيش في وطنه تحت راياتهم ، ان له صبراً جميلا في البلاد الاجنبية ، ولكن لاصبر له وهو غريب في الديار العربية ، فيلعنهم ثلاثا وربما لعن في يأسه أرضا لم تكن يوما لابنائها واذ ينظر الى نزع أمته وانقراضها يودُّ أن تستقل أو تموت تحت انقاضها

أبداً يمكرون بنا متظاهرين بالعطف علينا وحجتهم في استعبادنا اننا قاصرون ضعفاء ينبغي لنا وصاية وحماية . الارض ارث لنا من آبائنا وأجدادنا ، ويريدون ان ينتزعوها منا ومن أولادنا ، واذا سألناهم عدداً ؟ أجابونا . نود تمدينكم وتأهيلكم للاستقلال ، فلو كان صدقاً ما يقولون لجاءونا بالكتب والاقلام لا بالكتائب والاعلام ، الساعي الى الصلاح لايحتاج الى السلاح ، فما هذه الحامية والنار الحامية ، وما بالهم يعدوننا أصدقاءهم ويدخلون علينا مسلحين ؟ ألا يجوز أن يكون التمدين سلماً فيرشدوننا لأجر أو بأجرة ويتركون لنا السيادة والحكم والحرية في أرضنا ويشاركوننا بتعميرها واستثمارها . لكنهم يريدون ان يملكوا الارض ويقرضوا النسل ليصير العالم فرنسويا وانكليزيا فاذا قلنا لهم نريد ان نجتمع ونتحد لنؤلف أمة ، يقولون لنا : لستم صالحين لذلك وأنتم جماعات متفرقة لازعماء لها يقودونها ولا حكماء يرشدونها . والله يشهد ان تفرقنا وانقسامنا باغرائهم واغوائهم ، فلو تركونا وشأننا لاصلحنا ذات البين أو تناضلنا حتى يفوز خيارنا ويقرُّ قرارنا . الامم جميعها أخذت نظامها من الفوضى وطمأنينتها من الثورة وما كانت بالامس أفضل منا اليوم ولكنها تطورت وترقت تدريجاً . أما الرجال فالحوادث تظاهرهم والامور مرهونة لاوقاتها . ويقولون زورا وبهتانا : لستم أهلا لان تستقلوا وتتمدنوا فنقول لهم : ليس الاستقلال من الفلسفة والمنطق لنأخذه عنكم ، فالانسان مستقل مالم يستعبد ، والعصفور مستقل مالم يقفص . لكلّ حريته في المعيشة ناعمة كانت أو خشنة ، ولكل المخلوقات حكمة في تدبير شؤونها وتحسين أحوالها . فما البشر في أرضهم دون النمل في قريتها ، والنحل في خليتها ، ولنا مدنية قديمة بها اهتديتم فنحن في غنى عن مدنيتكم . سنجدد معالمها ونرفع منائرها ونضيف اليها حسنات المدنية الحديثة ، ان ماتكرهوننا عليه من مدنيتكم يفسد أخلاقنا ويثقل أعناقنا هذا شرح القصة فهلا اعتبر العرب بما تراه أبصارهم وبصائرهم . وما كانت بلاياهم الا من تقاطعهم وتنازعهم . فلن يكون لهم مقام بين الشعوب ماداموا متعاندين متباعدين . فعلى قلتهم في بدء عهدهم كان لهم قوة باتحادهم واليوم على كثرتهم لا تخشى لهم صولة ولا

تبنى دولة . ولعزتهم وبأسهم لايخضع أمير منهم لامير والعرب جميعهم أمراء وهذا سبب التخاذل والتقاتل بينهم وتقوية الاجانب عليهم. فلو فطنوا لتعاهدوا وتعاونوا وكانت لهم قدرة بمبايعة عمر لابي بكر، والا كان الروم بعد الترك شر خلف لشر سلف، لقي أبو جعفر المنصور اعرابياً فقال له: يا عربيُّ احمد الله الذي رفع الطاعون عنكم بولايتنا، فقال له الاعرابي: ان الله أعدل من ان يجمع علينا خشاً وسوء كيلة ، فلا يجمع بين ولايتكم والطاعون، هذا مايقوله كل عربي للفرنسيس والانكليز بعد رحيل النكبة وحلولهم . فليعلم العرب ان حياة الامة بقوتها الادبية وان لاقوة الا بالاتحاد الوليد بن عبد الله بن طعمة

التطور السياسي والديني والاجتماعي بمصر

لا ينتقل شعب من طور الى طور أعلى منه أو أدنى الا بسير اليه مقدر في الواقع ونفس الامر تقديرا تكون فيه المسببات بقدر الاسباب، وسواء كان ذلك السير بتأثير حوادث لزمان وتقلب شؤون الاجتماع التي لا يشعر جمهور الشعب بها ولا يفطن لما يترتب عليها من العواقب النافعة أو الضارة، وانما يشعر أفراد منه ببعض احداث التغير في الاعمال والعادات فيحمدها اناس ويذمها آخرون، ولا يصل نظر الحامد ولا الذام الى ماسيكون من مستقرها في مستقبل الايام — أو كان السير بنظام موضوع لغرض مقصود وقواد من الزعماء ألفوا الجمعيات وحزبوا الاحزاب، ونقحوا أنظمة التربية وبرامج التعليم — أو كان مذبذبا بين هذا وذاك

أما الحال الاولى فهي حال تطور الشعوب الجاهلة التي ليس فيها زعماء حكماء يقودونها في سيرها على علم بسنن الكون وشؤون الاجتماع ، بل ينتقل اليها تغير الآراء وتجدد الافكار والانظار من شعوب أخرى على سبيل الاتفاق أو على سبيل القصد من تلك الشعوب، كما هو شأن الشعوب القومية المستعمرة مع الشعوب الضعيفة التي تطمع هي في بلادها فانها تتعمد احداث التغيير في عقائدها وآرائها وعاداتها بالقدر الذي تحل به روابطها الاجتماعية وتفسد عليها مقوماتها ومشخصاتها القومية، فتصبح منقسمة على نفسها ، ويجد الطامع فيها مايطلب من الاعوان له عليها آنا بعد آن .

قال اللورد سالسبوري ان مدارس المبشرين أول خطوة من خطوات الاستعمار فهي تحدث في البلاد التي تنشأ فيها انقساما وتفريقا بين أهلها يفقدون به وحدتهم

فيكونون عونا للمستعمر على أنفسهم — أو ماهذا مؤداه — وجاء في الجزء الكبير الذي خصصته مجلة [العالم الاسلامي] الفرنسية في مبحث «فتح العالم الاسلامي» (١) ان المدارس التي أنشأها المبشرون في الآستانة وغيرها من البلاد العثمانية قد كان تأثيرها في حل المسألة الشرقية أعظم من عمل جميع سفراء الدول ومعتمديهم السياسيين (١)

وأما الحال الثانية فهي حال الشعوب العلمية الراقية ذات الزعماء الحكماء الذين يعرفون أمراض الاجتماع وعلله، فيداوون أمراضه ويصلحون خلله، ويكملون نقصه بما يهديهم اليه العلم بسنن الله في خلقه، فيزداد كمالا أو يعجزون عن ذلك فيعود الى الضعف والفساد

وأما الحال الثالثة فهي حال الشعوب المتحضرة بمشابهتها للجاهلة الساذجة من وجه والعلمية من وجه آخر، وهي الشعوب الضعيفة ذات العلم التقليدي الناقص كاهل البلاد التي بثت فيها تعاليمهم وآراءهم فتبعتها تقاليدهم وعاداتهم فتفرق أهلها شيعا وأحزابا مختلفة متدابرة يعد كل منها الآخر ضارا للبلاد ومفسدا لاهلها، وتكون فيها زعماء بالتكلف والتحزب يعملون للكسب والشهرة لا للمصلحة العامة بل يجاهدون من هم أولى بالزعامة وأقدر على النهوض بالامر منهم الى ان يغلب فريق منهم الآخر باستمالة الرأي العام اليه.

ليس المقام مقام بيان شؤون كل شعب من هذه الشعوب على التفصيل وانما المراد من هذه المقدمة تذكير القارئ بأن مانعنيه بالتطور وهو انتقال الامة من طور الى طور انما يكون بسير اجتماعي منه ماهو صناعي كالذي يكون بسعي زعماء الامم الراقية، ومنه ماهو طبيعي ظاهر لبعض أهل البصيرة والعلم، أو خفي لا يعلم به الا بعد ظهور أثره كتفجر الينابيع بعد تجمع الماء بالسريان في باطن الارض، أو بين الجلي والخفي كسير الظل

ثم ان سير السنن الاجتماعية الذي يكون به التطور قد يكون بطيئا لا ينتهي الى غايته الا في عدة أجيال، وقد يكون سريعا مما يحدث في العالم من كبار احداث الاجتماع، كظهور الاسلام في العرب الاميين، الذي أحدث أكبر انقلاب اجتماعي في جميع العالم القديم فكان له ذلك الاثر العظيم في آسية وأفريقية وأوربة باحياء موات العلم ودارس الحضارة، وكالثورة الفرنسية التي زلزلت ما كانت عليه دول أوربة من الاستبداد والاستعباد، وكالحرب المدنية العامة الاخيرة التي زلزلت جميع الامم والشعوب أشد زلزال، ومخضت

(١) هو جزء شهر نوفمبر سنة ١٩١١م ونشرت ترجمة المقالة في المنار بعنوان «الغارة على العالم الاسلامي» فليراجع المجلد ١٥ سنة ١٣٣٠هـ من المنار

العالم البشري مخضا لم يتم تكوين زبده الى الآن وجميع الامم والشعوب شاخصة الابصار متلفة الاعناق مصيخة الاسماع ترتقب النتيجة التي يجتهد أولوا الاطماع المتداعون على اقتراس الشعوب الضعيفة كتداعي الجياع الى القصاع في جعلها شر بلاء أصيب به البشر ، بعد أن ملأوا الارض صياحا بأنهم ما حاربوا الا لتحرير البشر

كانت مصر مستقلة استقلالا داخليا تاما تحت سيادة الدولة العثمانية — التي لم يكن لها أدنى تدخل في ادارة مصر الداخلية — وكانت أوربة كلها مصدقة على هذا الاستقلال وا ولها في البلاد معتمدون سياسيون ، وكان الاحتلال الانكليزي الذي وقع بطلب أمير البلاد ورضاء الدولة صاحبة السيادة موقتا لم يناقع في استقلال البلاد ولا في سيادة الدولة عليها ووعدت الدولة وعودا رسمية كثيرة بأنه لابد من الجلاء عنها وتركها لاهلها ، ولكنها في أثناء الحرب أعلنت الحماية عليها ، وجعلتها ميدانا حربيا وأباحت لسلطتها العسكرية أن تتصرف فيها تصرف المالك ، فلما عقدت الهدنة هب المصريون المطالبة باعتراف انكلترة وسائر الدول — التي تعقد الصلح بين الامم — لها بالاستقلال التام وتألف وفد منها للسعي الى ذلك اختار سعد باشا زغلول الشهير بصدق الوطنية والشجاعة الادبية وقوة العارضة وسعة المعرفة في القوانين ، رئيسا له ، وأخذ الوفد وثائق كثيرة من الالوف من المصريين الذين يمثلون الرأي العام المصري بامضاءاتهم عنهم كاعضاء الجمعية التشريعية ومجالس المديريات والبلديات وسائر طبقات الاهالي ، وطفق يخاطب بذلك الحكومة البريطانية ورئيس وسون وسائر الدول بواسطة وكلائها السياسيين . ثم عقد الوفد اجتماعا عاما في دار وكيله حمد باشا الباسل خطب فيه الرئيس والوكيل وغيرهم في بيان حقيقة المسألة المصرية وما تطلبه البلاد من الاعتراف لها بالاستقلال ، وأراد الرئيس عقد اجتماع آخر في دار رفيعة السلطة العسكرية البريطانية من ذلك ثم اعتقاله مع الوكيل المذكور وعضوين آخرين من أعضاء الوفد هم محمد باشا محمود سليمان واسماعيل صدقي باشا وأرسلتهم الى مالطة ، فهاجت الامة المصرية لذلك هياجا وقامت بمظاهرات عظيمة في القاهرة والاسكندرية وغيرهما من المدن ، وهاج الفلاحون وقبائل العربان وقطعوا أسلاك البرق وقلعوا خطوط حديد السكك ودمروا بعض محطاتها حتى صار الهياج ثورة عامة ، واستقالت وزارة حسين رشدي باشا احتجاجا على مصادرة

الحرية الشخصية بنفي من ذكر من أعضاء الوفد وتعذر على السلطة تأليف وزارة جديدة.

وكان حسين رشدي قد طلب قبل ذلك كله من الحكومة الانكليزية الاذن له ولعدلي باشا وزير المعارف بالسفر الى انكلترة لمفاوضة أولي الامر فيها بما سيكون عليه شكل الحكومة المصرية بعد الحرب التي عاونت البلاد المصرية وحكومتها فيها السلطة البريطانية أعظم معاونة شملت زهاء مليون شاب مصري ساعدت السلطة الانكليزية العسكرية على الاعمال الحربية في فلسطين حتى انها كانت تسمى الحملة التي فتحت القدس الشريف « الحملة المصرية » وهذا الفتح هو الذي قال فيه المستر لويد جورج رئيس الوزارة الانكليزية انه آخر حرب صليبية . وساعدتها كذلك في العراق وفي مواضع أخرى وناهيك بالمنافع المالية بأنواعها . ولكن الحكومة الانكليزية أرجأت طلب الوزيرين أولا ثم أرادت أن يسافرا فأبيا الا أن تأذن للوفد المصري بالسفر أيضا فصدر الامر من لندن بالاذن لهما ولمن شاء من المصريين ومنهم الاربعة المعتقلون في مالطة

فلما ظفر المصريون بالاذن لوفدهم بالسفر نظموا مظاهرات أخرى اشترك فيها جميع طبقات الاهالي حتى النساء المخدرات فكن يطفن بسياراتهن ومركباتهن المزينات بالاعلام والرياحين ويهتفن مع الهاتفين : لتحيى مصر ، ليحيى الاستقلال التام ، ليحيى سعد باشا زغلول ، ليحيى أعضاء الوفد المصري الخ

وقد حاولت السلطة العسكرية البريطانية منع المظاهرات الاولى والآخرة فلم تفلح حتى انها أطلقت رصاص البنادق والمدافع الرشاشة مرارا كثيرة على المتظاهرين فلم يثنهم ذلك عن تكرار المظاهرات بل منهم من قاوموا الجنود وقتلوا منهم كثيرين، ولكن من قتلهم الجنود أكثر بالطبع وقد قدرت السلطة من قتل في الشوارع بزهاء الف نسمة منهم الكبير والصغير . وليس غرضنا من هذه الخلاصة تحرير تاريخ هذه الحوادث ولا وصفها وصفا شعريا لاجل التأثير وانما غرضنا ان نجعلها مقدمة لما هو مقصدنا بالذات لما ترتب عليها من التطور الديني باتفاق المسلمين والقبط وجعل الجامع الازهر معهد السياسة الاكبر في مصر والتطور الاجتماعي بدخول النساء في المظاهرات السياسية والقائهن الخطب في الشوارع والاسواق فهذا أهم ما يعني به المنار

دولة الكلام المبطلة الظالمة

ان المعقول المتبادر من حكمة الله في نعمة النطق ومزية الكلام التي ميز بها الانسان وفضله من سائر أنواع جنسه الحيواني هو انها التعبير عما في النفس من العلم ليتعاون الناس بإفضاء كل بما في نفسه الى غيره على تكميل علومهم وتحسين أعمالهم. ولكن الاشرار منهم كفروا هذه النعمة بما أساؤا من استعمالها في الكذب والافك والخلابة حتى قال بعض الاذكياء ان حكمة الكلام وفائدته إخفاء ما في النفس وصرف الاذهان عن الحقائق. وقد أجمع الناس على ما هدت اليه الاديان وقرره الحكماء من مدح الصدق والصادقين، وذم الكذب والكاذبين، الا ما قيل في حال التعارض بين مفسدة الكذب في مسألة معينة ومفسدة أخرى أكبر منها كالكذب على صائل ظالم يريد قتل بريء محترم الدم بما يصرفه عن قتله بانكار المكان الذي يوجد فيه أو غير ذلك، والاسلام يهدي في مثل هذه الحال الى التفصي من الكذب بالتعريض، ففي حديث عمران بن حصين في البخاري «ان في المعاريض مندوحة عن الكذب» ولكن كثيرا من الناس ينظمون في سلك هذا الاستثناء ما ليس منه كالتعارض بين الصدق وما يخشونه من فوت بعض شهواتهم ومطامعهم غير المشروعة به فيستبيحون الكذب للتوسل به الى تلك الشهوات والمطامع الشخصية أو القومية

اللصوص وقطاع الطرق والشطار المحتالون وشهداء الزور وأصحاب الدعاوي الباطلة ووكلاؤهم كل أولئك وأمثالهم يكذبون لاجل مطامعهم الشخصية. ورجال السياسة من الامراء والوزراء والسفراء ومن دونهم من الوكلاء السياسيين وكتابهم وجواسيسهم — كل أولئك يكذبون لاجل مطامع دولهم ومنافع أممهم، والفريقان يذمان الكذب مع الذامين، ويمدحان الصدق مع المادحين، ولا يعترف أحد منهم بأنه يكذب لدفع الضرر عن نفسه أو قومه أو لجلب النفع لهم كما يعترف من كذب تصريحا أو تعريضا لدفع الصائل الظالم عن البريء الا ان يكون الاعتراف من بعض المشتركين في هذا الاثم لبعض أو لمن يعلم حالهم ممن له صلة بهم

من عجيب أمر الانسان ان الكذب والافك وقول الزور وطمس معالم الحق وتشييد صروح الباطل لم يكن مقصورا على المتكالبين على الشهوات الدنيوية، والمطامع المالية

والسياسية ، بل تجاوزهم الى رجال الاديان ورجال المذاهب من أهل الدين الواحد، وهم أجدر بالصدق والتزام الحق، ولكنهم جعلوا الدين الذي موضوعه الهدى وتزكية النفس بالاعتقاد الصحيح والفضائل وسيلة للمال والجاه، فصاروا كطلاب المنافع الشخصية بالسرقة والغصب ونحوهما، وطلاب المنافع السياسية بالبغي والعدوان على الامم والشعوب

وأعجب أمر هؤلاء وأغر به أن فيهم أناسا يتعمدون الكذب على خصومهم، واستباحة أفحش ماحرمه دينهم في سبيل عداوتهم ، لا يبتغون بذلك مالا ولا جاها بل يقصدون التقرب به الى إلههم ، معتقدين انه يرضيه كل ما فيه إيذاء أعدائه، وان كان من الباطل والشر الذي حرمه على أبنائه وأحبائه في معاملة بعضهم لبعض. ومن كان يظن في ربه وإلهه حب الباطل والشر والرضاء بهما فكيف يطمع منه عدوه بالتزام حق أو عمل خير، أولئك الذين يقولون أن المقاصد والغايات الحسنة ، تبيح الوسائل المحرمة والمبادي السيئة . وان الباطل قد يوصل الى الحق ، والشر قد يؤدي الى الخير، أي انهم يختارون ان يكونوا مبطلين أشرارا مجرمين في الحال ليصيروا أخيارا في المآل

اذا كان علماء الاديان وأولياؤها ، وشيع المذاهب وأنصارها ، يؤلفون الكتب ويدونون الاسفار، في تضليل المجادلات والمشاغبات، ليؤيد كل فريق منهم مايوصف به وينتمي اليه منها، فهل يكثر على عبيد المال، وعشاق العظمة والجاه، ومنهومي اللذات والشهوات، ومفتوني السلطة والسيادة، ان يقلبوا جميع الحقائق. ويستحلوا جميع المحارم، في سبيل التمتع بتلك اللذات، والعلو في تلك الدرجات، والاشراف على الامم والشعوب بالامر والنهي ، وغير ذلك من التصرف والتشريع الذي هو شأن الرب عز وجل؟

ان دولة الكلام المؤيدة بمحافل الكذب والزور والبهتان، والافك والافتراء، والاخلاق والاختراق، والخلابة وتمويه، والتلبيس والتدليس، تترقى بترقي الحضارة وتتدلى بتدليها، وتتسع باتساع دائرة العلوم والمعارف وتضيق بضيقها، فهي مساوقة لدولة الاحكام مؤيدة لها،

الكذب شر الرذائل على الاطلاق، فهو مفسد الاديان والتواريخ، ومزيل الثقة بين الافراد والجماعات، ومولد الفتن والحروب بين الامم، وقلما تستغني رذيلة من الرذائل أو فتنة من الفتن عن شد ازرها بالكذب أو أحد جنوده، وحملة بنوده، وما ألجأ الناس الى الكذب على شدة قبحه وفحش ضرره والاجماع على ذمه الا عدم التناصف بينهم وترك تحكيم العدل

فيما تتعارض فيه منافعهم، وتتنازع منازعهم، والاصل في ذلك ان الضعيف هو الذي يكذب على القوي الذي لا ينصفه أولا يواتيه، والقوة والضعف أنواع شتى، فكم من قوي في شيء ضعيف في غيره، فاذا رأيت السيد يكذب على عبده، والمخدوم على خادمه، والامير على السوقة، فلا تظن ان هذا جاء على خلاف الاصل، فان في هؤلاء السادة المخدومين، والافراد الحاكمين، ضعفا في الاخلاق وقبائح الاعمال، فيتحرون كما يرغبون عن خدمهم واتباعهم فلا يجدون وسيلة لذلك الا الكذب أو التلبيس والتمويه فيلجؤن اليه صاغرين

الحكومة المستبدة تعلم الشعب الضعيف الخاضع الكذب والرياء حتى يصير ملكة له يفسد عليه أمور دينه ودنياه، وقلما يحتاج رجل هذه الحكومة الى الكذب على شعبهم المسكين لانه خاضع لكل ظلم قابل لكل ضيم، وانما يكذب الضعيف على القوي الجائر الذي لا يرضى بالحق، ورب قوي في شيء ضعيف في غيره فيكذب فيما هو ضعيف فيه ومن هذا النوع حكومات الامم القوية بالعلم والنظام والاحزاب السياسية، فكل حكومة من هذه الحكومات تكذب على نواب أمتها ورؤساء أحزابها في كل ما تعلم أنه لا يرضيهم من أعمالها الاستعمارية وسياستها الخارجية غير ذلك. ويستتبع ذلك الكذب على أهل المستعمرات والباس كثير من الباطل ثوب الحق والكذب على أهل العلم والرأي لا يرجى ان يروج الا بلبس الحق الذي تخشى مغبة ظهوره، وكذلك كذب الحكومات القوية بالعلم والاستعداد الحربي بعضهم على بعض — فلذلك صار الكذب فنا من أدق الفنون وركنا من أركان السياسة

وليعتبر القارئ في ذلك بما نشرناه من قبل من أقوال أقطاب ساسة الحلفاء وكبار وزرائهم في الاسباب الحاملة لدولهم على الحرب وأساسها حرية الشعوب واستقلالها، ومن خطب الرئيس ولسن في ذلك ووجوب تعميمه في جميع الامم والشعوب في الشرق كالغرب ومن قواعده الاربع عشرة التي وضعها لبناء صرح الصلح العادل عليها. فقبلها المتحاربون. ثم (ليعتبر) بمعاهدة الصلح الكبرى التي تنشر خلاصتها في المنار وبما تنقله البرقيات والجرائد الاوربية من التنازع والمساومة بين الحلفاء على اقتسام البلاد التي نص في معاهدة الصلح على الاعتراف لها بالاستقلال المطلق مع اشتراط قبول المساعدة التي ترضاها بنفسها من الدولة التي تختارها لمساعدتها وماذكر لفظ المساعدة الا لجعله محللا لامتلاك البلاد واستعباد أهلها باسم جديد يزعمون ان معناه لا ينافي الاستقلال المقرر والقواعد التي يبنى عليها، واذا شئت تفصيل هذا الاجمال فانظر ذلك المقال الذي كتبناه منذ بضعة أشهر في (الاستقلال) وتعذر نشره وقتئذ في كل من مصر والشام.

المنار ٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب

ينشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

غاية المحرم ١٣٣٨ — أول (العقرب) (خ ٢) ١٢٩٨ه ش ٢٤ أكتوبر ١٩١٩

ذات بين الحجاز ونجد

عود على بدء

٢

كتبنا ما رآه القراء من الفصول تحت هذا العنوان ونحن في أشد الحزن والامتعاض مما كان قد بلغنا من أنباء هذه الفتنة وهو أن الحرب ستستأنف بين الحجازيين والنجديين باسم الدين وان الجنود الهندية الانكليزية ستمد الاولين فقد ذهب فريق منها لاداء فريضة الحج وروي انها ستذهب بعد الحج الى الطائف بحجة زيارة عبدالله ابن عباس (رضي الله عنهما) فخشينا ان يكون المراد من الطائف ماوراءه وهو نجد، ونحن من أدرى العرب والمسلمين بسوء عاقبة مثل هذا القتال في هذه الايام فكان قصدنا مما كتبناه ان ندرأ هذه الفتنة من أقرب الطرق وأرجاها وهو الاقناع العلمي أو القوة العملية

أما الاقناع فمن ثلاثة أوجه (أحدها) ما بيناه من ان ما جعل سببا للقتال لا يصح وذلك ان ما يتهم به كل فرق من مخالفة بعض أصول الدين من العقائد والاعمال التي يعدها كفرا اذا صح بعضه أو كله فانما يكون من بعض الافراد لا من الجميع وهو في نظر المطقي والاصولي مشترك الالزام ، فالحكم المنصف يقول لكل واحد من الخصمين انك تتهم خصمك بمثل ما يتهمك به فانت تجزم بكفر الكثيرين في بلاده بأدلة تقيمها من الشريعة على ان كذا وكذا من الاقوال والافعال كفر ، وهو يجزم بكفر الكثيرين في بلادك بأقوال وأفعال أخرى يقيم الادلة الشرعية على كونها كفرا ، وكل منكما من أهل القبلة الذين يؤمنون بأن جميع ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم من أمر الدين حق ، إلا ان حكم خصمه في فهم . فتكفير كل منكما للآخر متأول فيه لا طاعن في الاسلام نفسه . ولا سبيل الى ظهور حجة أحد منكما على الآخر الا بالعلم وحرية البيان والنشر مع الادب في القول اقتداء بقوله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) الآية . وأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية فقد تساهل ذلك التساهل مع المشركين لاجل حرية الدعوة ، وليس لاحد ان يدعي ان من كفر بسوء فهم وقلة علم وفساد تأويل وهو يؤمن اجمالا بأن جميع ماجاء به الرسول قد أسوأ حالا وأجدر بسوء المعاملة من المشرك المجاهر الذي كذب الرسول وقاومه فيؤمن كل منكما الآخر في بلاده ، ويجتهد ما استطاع في تعليمه وافهامه ، والحق يعلو ولا يعلى

(الوجه الثاني) ان المجادلة بالتي هي أسوأ وهي الوقيعة والتقريع ، والسب والتكفير ، لا تأتي لا بالنتيجة التي هي أسوأ وهي العداوة والبغضاء التي يخفى معها الحق ان فرضنا أنها — أي المجادلة — اشتملت عليه ، ذلك بأن المخاطب بها يشغله التألم بتحقيره عن التأمل في غيره من معاني الكلام الذي يعتقد أنه صادر عن سوء نية فلا يقصد به اظهار حقيقة ، وما تعصب أكثر الناس لآرائهم الشخصية أو المذهبية الا بسبب المراء وسوء أسلوب الجدال من المخالفين لهم ، بل لامر أعظم من ذلك : نبغ في علماء المسلمين امام مجتهد واسع العلم قوي الحجة شديد العارضة الا انه كان حديد المزاج وقد ألف كتابا في الفقه قرن فيه كل مسألة بالحجة عليها ، والرد على

المخالف فيها ، بعبارة فصيحة وأسلوب جلي كان مظهراً لما وصفناه به آنفا من الصفات التي منها حدة المزاج ، فكان في عبارته من الحمز في اللمز ، واللدغ في الصدع ، ما كان سببا لاعراض جماهير الامة عن الاستفادة منه والاخذ عنه ، ولولا ذلك لكان أتباعه أكثر من أتباع غيره من أئمة الفقه المشهورين أو مساوين لاكثرهم تابعا ، ذلك الامام أبو محمد ابن حزم صاحب كتاب (المحلى) الذي شهد سلطان العلماء العز بن عبد السلام الشافعي الاصل الذي شهد له العلماء بالاجتهاد المطلق بأنه أحسن ما كتب المسلمون في الفقه ولم يقرن به الا كتاب (المغني) للشيخ الموفق الحنبلي

(الوجه الثالث) اذا كان المراء والمجادلة بالتي هي أسوأ تثمر العداوة والبغضاء وشدة استمرار الخلاف فكيف تكون ثمرة القتال بين فريقين يقتتلان بسبب الاختلاف في فهم الدين ، وهل كان قتال محمد علي باشا للوهابية الذي يريد التأسي به ملك الحجاز سببا لرجوعهم عما كانوا عليه في ذلك الوقت وعادوا اليه الآن حتى نعود الى قتالهم ؟ كلا !

وأما ما أشار اليه الملك في بعض منشوراته من وجوب ذلك على السلطان فهو لا يظهر في الواقعة الحاضرة لا من حيث موضوع التهمة التي تقدم القول فيها ولا من حيث السلطان الذي يجب [illegible] هو الامام الحق المجتهد في أصول الدين وفروعه المقيم لاحكامه وحدوده [illegible] يخضع لها سواد المسلمين مع الاعتصام باستشارة أهل الحل والعقد و[illegible] حجاز سدده الله ووفقه لم يدع هذا المقام لنفسه بل ترك أمر الخلافة الى الرأي الاسلامي العام فأنصف بذلك انصافا حمده الخاص والعام ، في جميع أقطار الاسلام ، وهو يعلم أيضا أن مملكته الحجازية لا تصلح الآن لاقامة خلافة فيها لا خلافة حقيقية مستوفاة الشروط ولا خلافة تغلب . أما الاول فظاهر من جميع وجوهه ، وأما الثاني فلانها أضعف من جميع البلاد المستقلة التي حولها ، فهي لا تقدر أن تحفظ نفسها بنفسها ، وليست مقرا لجماعة أهل الحل والعقد من علماء المسلمين وزعمائهم وقوادهم الذين تثق الامة بهم اذا بايعوا حاكمها باختيارهم... ولا حاجة الى بسط هذه المسألة في هذه العجالة التي نقصد بها درء الفتنة ، فاذا اقتضت الحال بسطها بسطناها في مقال طويل لا يدع مجالا لشبهة مشتبه ، وما قيل في

الحجاز يقال في نجد على ما لا يجهل التفاوت بينهما

واذا كان الامر كما ذكرنا فالمرجو من حاكمي البلادين ان يتفقا على اقفال باب الفتنة الذي فتحه الشيطان بينهما ، ولا يدعا الاجنبي وسيلة لتقوية نفوذه في البلاد المقدسة وحرمها ، فان شجر بينهما خلاف فليحكما فيه من يرضيانه من أهلهما وجيرانهما

وأما القوة الفعلية التي رأيناها أهلا لاصلاح ذات بينهما ، اذا هما لم ينصفا من أنفسهما ، فهي قوة جيرانهما أهل اليمن وعسير ، فالواجب عليهما ان يتصديا لهذا الامر وان لم يطلب الفريقان حكمهما فيه ، عملا بآيتي سورة الحجرات التين ذكرناهما بهما في الفصول السابقة (وان طائفتان من المؤمنين قتتلوا فأصلحوا بينهما) الخ بل يجب على أئمة هذه الجزيرة الاسلامية الشريفة وأمرائها ان يعقدوا بينهم المحالفة التي اقترحها عليهم بعض أهل البصيرة من المسلمين على قاعدة اعتراف كل منهم للآخر باستقلاله في بلاده وعدم اعتداء أحد منهم على حدود الآخر واتفاق الجميع على كبح جماح المعتدي وعقابه وتعاونهم بالاولى على مقاومة كل أجنبي يعتدي على أي بلد من بلادهم ، الا وليتذكروا ما أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته ويتداركوا ما قصر فيه من قبلهم ، والا فقد قرب عهد زوال سلطتهم ، وتغلغل النفوذ الاجنبي في جزيرتهم ، ولا يكونوا كحكومة مراكش الجاهلة الغبية التي أنذرناها في السنة الاولى للمنار مثل ما انذرهم اليوم فتمادت بالغدر حتى ضاع استقلالها . ألا وليعلموا ان جزيرتهم هذه معقل الاسلام ومأزره فاذا مكنوا الاجنبي منها بتخاذلهم كانوا لعنة على لسان كل مسلم في مشارق الارض ومغاربها الى يوم القيامة

كتاب كشف الشبهات (*

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

اعلم رحمك الله أن التوحيد هو افراد الله بالعبادة ، وهو دين الرسل الذي

*) هذا الكتاب تاليف الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو احدى الرسائل التي وعدنا بنشر بعضها (راجع الجزء « الخامس » ص ٢٢٩)

أرسلهم الله به الى عباده ، فأولهم نوح عليه السلام : أرسله الله الى قومه لما غلوا في الصالحين وَدّا وسواعا ويغوث ويعوقَ ونسرا ، وآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين :— أرسله الى قوم يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله ، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله . يقولون: نريد منهم التقرب الى الله ، ونريد شفاعتهم عنده مثل الملائكة وعيسى ومريم وناس غيرهم من الصالحين . فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم يجدد لهم دين أبيهم ابراهيم ، ويخبرهم ان هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله لا يصلح منه شيء لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلا عن غيرهما ، وانا فهؤلاء المشركون يشهدون ان الله هو الخالق وحده لاشريك له وانه لا يرزق الا هو، ولا يحيي الا هو ولا يميت الا هو ، ولا يدبر الامر الا هو ؛ وان جميع السموات ومن فيهن والارض ومن فيها كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره

فاذا أردت الدليل على ان هؤلاء الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون لها فاقرأ قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والارض ؟ أمن يملك السمع والابصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الامر ؟ فسيقولون : الله ! فقل أفلا تتقون ؟) وقوله (قل : لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ * سيقولون : لله قل أفلا تذكرون ؟* قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ * سيقولون : لله ! قل أفلا تتقون؟ * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ؟ ان كنتم تعلمون * سيقولون : لله ! قل : فأنى تسحرون ؟) وغير ذلك من الآيات

اذا تحققت أنهم مقرون بهذا ولم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفت ان التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا «الاعتقاد» ، كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلا ونهارا ، ثم منهم من يدعو الملائكة لاجل صلاحهم وقربهم الى الله ليشفعوا له، أو يدعو رجلا صالحا مثل اللات ، أو نبيا مثل عيسى . وعرفت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم على هذا الشرك ودعاهم الى اخلاص العبادة كما قال تعالى (فلا تدعوا مع الله

أحدا) وقال (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء) — وتحققت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم ليكون الدعاء كله لله والنذر كله لله والذبح كله لله والاستغاثة كلها بالله وجميع العبادات كلها لله : — وعرفت ان اقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الاسلام وان قصدهم الملائكة والانبياء والاولياء يريدون شفاعتهم والتقرب الى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم. عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت اليه الرسل وأبى عن الاقرار به المشركون وهذا التوحيد هو معنى قولك لا إله الا الله فان الاله عندهم هو الذي يقصد لاجل هذه الامور سواء كان ملكا أو نبيا أو وليا أو شجرة أو قبرا أو جنيا، لم يريدوا أن الاله هو الخالق الرازق المدبر فانهم يعلمون ان ذلك لله وحده كما قدمت لك، وانما يعنون بالاله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ السيد فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى كلمة التوحيد (لا اله الا الله) والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها، والكفار الجهال يعلمون ان مراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمة هو افراد الله تعالى بالتعلق والكفر بما يعبد من دون الله والبراءة منه فانه لما قال لهم: قولوا لا اله الا الله قالوا (أجعل الآلهة الها واحدا ؟ ان هذا لشيء عجاب)

فاذا عرفت ان جهال الكفار يعرفون ذلك فالعجب ممن يدعي الاسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفرة بل يظن ان ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن ان معناها لا يخلق ولا يرزق الا الله فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله الا الله

* *

اذا عرفت ما ذكرت لك معرفة قلب، وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وعرفت دين الله الذي أرسل به الرسل من أولهم الى آخرهم الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وعرفت ما أصبح غالب الناس فيه من الجهل بهذا أفادك فائدتين — : لاولى الفرح بفضل الله ورحمته كما قال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) وأفادك أيضا الخوف العظيم فانك اذا عرفت ان الانسان يكفر بكلمة يخرج بها من

[illegible] وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر [illegible] مل وقد يقولها وهو يظن انها تقربه الى الله كما [illegible] مل] (١) الكفار، خصوصا ان ألهمك الله ما قص عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين (جعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فحينئذ يعظم حرصك وخوفك على مايخلصك من هذا وأمثاله .

واعلم انه سبحانه من حكمته لم يبعث نبيا بهذا التوحيد الا جعل له أعداء كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) وقد يكون لاعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج كما قال تعالى (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم)

اذا عرفت ذلك وعرفت ان الطريق الى الله لابد له من أعداء قاعدين عليه أهل فصاحة وعلم وحجج فالواجب عليك ان تعلم من دين الله ما يصير لك سلاحا تقاتل هؤلاء الشياطين الذين قال امامهم ومقدمهم لربك عز وجل (لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) ولكن اذا أقبلت على الله وأصغيت الى حججه وبيناته فلا تخف (ان كيد الشيطان كان ضعيفا) والعامي من الموحدين يغلب ألفا من علماء هؤلاء المشركين، كما قال تعالى (وان جندنا لهم الغالبون) فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان ، كما هم الغالبون بالسيف والسنان، وانما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح وقد من الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين . فلا يأتي صاحب باطل بحجة الا وفي القرآن ماينقضها ويبين بطلانها كما قال تعالى (ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) قال بعض المفسرين هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل الى يوم القيامة

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جوابا لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا فنقول: جواب أهل الباطل من طريقين مجمل ومفصل . أما المجمل فهو الامر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها وذلك قوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم

(١) كل عبارة بين هذين الدعامتين [ ] من وضع صالح مخلص رضا

زيغ فيتبعون ما تشابه منه بتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « اذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم ». مثال ذلك اذا قال لك بعض المشركين (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وان الشفاعة حق وان الانبياء لهم جاه عند الله، أو ذكر كلاما لنبي صلى الله عليه وسلم يستدل به على شيء من باطله وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره فجاوبه بقولك: ان الله ذكر ان الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم و يتبعون المتشابه وما ذكرته لك من ان الله ذكر ان المشركين يقرون بالربوبية وان كفرهم بتعلقهم على الملائكة والانبياء والاولياء مع قولهم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) هذا أمر محكم بين لا يقدر أحد ان يغير معناه وما ذكرت لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا أعرف معناه ولكن أقطع ان الله لا يتناقض وان كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا يخالف كلام الله . وهذا جواب سديد ولكن لا يفهمه الا من وفقه الله فلا تستهونه فانه كما قال تعالى (وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم)

وأما الجواب المفصل فان أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة يصدون بها الناس منها قولهم نحن لا نشرك بالله، بل نشهد انه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر الا الله وحده لا شريك له، وان محمدا صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن عبد القادر أو غيره ولكن أنا مذنب والصالحون لهم جاه عند الله واطلب من الله بهم. فجاوبه بما تقدم وهو ان الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرون بما ذكرت ومقرون ان أوثانهم لا تدبر شيئا وانما أرادوا الجاه والشفاعة ، اقرأ عليه ماذكر الله في كتابه ووضحه، فان قال: هؤلاء لآيات نزلت فيهم عبدوا الاصنام، كيف تجعلون الصالحين أصناما؟ فجاوبه بما تقدم فانه اذا أقر ان الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله وانهم ما أرادوا ممن قصدوا الا الشفاعة ولكن أراد ان يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكر ، فاذكر له ان الكفار منهم من يدعو الصالحين والاصنام ومنهم من يدعو الاولياء الذين قال الله فيهم (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) ويدعون عيسى بن مريم وأمه وقد قال الله تعالى (ما المسيح بن مريم الا

رسول فدخلت من قبله الرسل، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) واذكر قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة: أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون؟ قالوا: سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) فقل له : أعرفت ان الله كفر من قصد الاصنام وكفر أيضاً من قصد الصالحين وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فان قال: الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد ان الله هو النافع الضار المدبر لا أريد الا منه والصالحون ليس لهم من الامر شيء ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم. فالجواب ان هذا قول الكفار سواء بسواء فاقرأ عليه قوله تعالى (مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى — هؤلاء شفعاؤنا عند الله)

واعلم ان هذه الشبه الثلاث هي أكبر ماعندهم فاذا عرفت ان الله وضحها في كتابه وفهمتها فهما جيدا فما بعدها أيسر منها. فان قال: أنا لا أعبد الا الله وهذا الالتجاء الى الصالحين ودعاؤهم ليس بعبادة. فقل له: أنت تقر أن الله فرض عليك اخلاص العبادة وهو حقه عليك. فاذا قال نعم. فقل له : بين لي هذا الذي فرض عليك واهو اخلاص العبادة لله وحده وهو حقه عليك. فانه لا يعرف العبادة ولا أنواعها فبينها له بقولك: قال الله تعالى (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) اذا عملت بهذا ، هل هو عبادة؟ فلا بد ان يقول نعم والدعاء مخ العبادة. فقل له: اذا أقررت انها عبادة ودعوت الله ليلا ونهارا خوفا وطمعا ثم دعوت في تلك الحاجة نبيا أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره اذ قال الله (فصل لربك وانحر) وأطعت الله ونحرت له فلا بد أن يقول نعم! فقل له : اذا نحرت لمخلوق نبي أو جني أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله ؟ فلا بد ان يقر ويقول نعم . وقل له أيضا : المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك ؟ فلا بد ان يقول نعم. فقل له : وهل كانت عبادتهم اياهم الا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك ؟ والا فهم مقرون انهم عبيد الله تحت قهره ، وان الله هو الذي يدبر الامر ولكن دعوهم والتجؤا اليهم للجاه والشفاعة وهذا ظاهر جدا

فان قال أتنكر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ منها ؟ فقل: لا أنكرها ولا أتبرأ منها، بل هو صلى الله عليه وسلم الشافع والمشفع وأرجو شفاعته لكن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى (قل لله الشفاعة جميعا) ولا تكون الا من بعد اذن الله كما قال عز وجل (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟) ولا يشفع في أحد الا من بعد ان يأذن الله فيه، كما قال عز وجل (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) وهو لا يرضى الا التوحيد كما قال تعالى (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) فاذا كانت الشفاعة كلها لله ولا تكون الا بعد اذنه ولا يشفع النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ولا يأذن إلا لاهل التوحيد تبين ان الشفاعة كلها لله أطلبها منه وأقول : اللهم لا تحرمني شفاعته اللهم شفعه فيّ. وأمثال هذا

فان قال: النبي صلى الله عليه وسلم أعطي الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله. فالجواب ان الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا وقال (فلا تدعو مع الله أحدا) وأيضا فان الشفاعة أعطيها غير النبي صلى الله عليه وسلم، فصح ان الملائكة يشفعون والاولياء يشفعون ، أتقول ان الله أعطاهم الشفاعة واطلبها منهم . فان قلت هذا رجعت الى عبادة الصالحين التي ذكر الله في كتابه وان قلت : لا . بطل قولك « أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله »

فان قال أنا لا أشرك بالله شيئا حاش وكلا، ولكن الالتجاء الى الصالحين ليس بشرك فقل له: اذا كنت تقر ان الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا، وتقر ان الله لا يغفره فما هذا الامر الذي عظمه الله وذكر انه لا يغفره ؟ فانه لا يدري، فقل له كيف تبرئ نفسك من الشرك وان لا تعرفه ؟ أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر انه لا يغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفه ؟ أتظن ان الله يحرمه ولا يبينه لنا ؟؟

فان قال: الشرك عبادة الاصنام ونحن لا نعبد الاصنام. فقل : وما معنى عبادة الاصنام ؟ أتظن انهم يعتقدون ان تلك الاخشاب والاحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها؟ فهذا يكذبه القرآن. أو هو قصد خشبة أو حجر أو بقية أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له يقولون: انه يقربنا الى الله زلفى ويدفع عنا ببركته؟ فقد صدقت وهذا هو فعلكم عند الاحجار والبنايا التي على القبور وغيرها. فهذا أقر ان فعلهم هذا

هو عبادة الاصنام . ويقال أيضا قولك «الشرك عبادة الاصنام» هل مرادك ان الشرك مخصوص بهذا ؟ وان الاعتماد على الصالحين ودعاءهم لايدخل في هذا ؟ فهذا يرده ماذكر الله في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة وعيسى والصالحين، فلا بد ان يقر لك من أن من أشرك في عبادة الله أحدا من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآن وهذا هو المطلوب

وسر المسئلة انه اذا قال أنا لا أشرك بالله فقل وما الشرك بالله؟ فسره لي. فان قال: هو عبادة الاصنام. فقل وما معنى عبادة الاصنام ؟ فسرها لي فان قال: أنا لا أعبد الا الله [وحده] فقل ما معنى عبادة الله وحده ؟ فسرها لي ، فان فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب وان لم يعرفه فكيف يدعي شيئا وهو لا يعرفه ، وان فسر ذلك بغير معناه بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الاوثان الذي يفعلون في هذا الزمان بعينه ، وان عبادة الله وحده لاشريك له هي التي ينكرون علينا ويصيحون كما صاح اخوانهم حيث قالوا (أجعل الالهة الها واحدا ؟ ان هذا لشيء عجاب)

يتلى

خلاصة معاهدة الصلح (١)

الفصل العاشر

في المواد الاقتصادية

الجمارك — تتضمن المعاهدة مواد تفصيلية لمنع المانية من التمييز مباشرة أو غير مباشرة بين متاجر الحلفاء والبلدان المشتركة معهم . وتظل هذه النصوص نافذة المفعول خمس سنوات الا اذا مدها مجلس جمعية الامم وهناك نص وقتي يقضي بأن يدخل المانية بالارسوم ما مقداره معينة من محاصيل ومصنوعات الالزاس واللورين ولكمبرج والاملاك التي تنازلت ألمانية عنها لبولندا . أما الرسوم الجمركية التي تفرضها

(١) تابع لما نشر في الجزء الخامس

ألمانية على الواردات من بلاد الحلفاء في الحال فلا يجوز ان تتجاوز أدنى الرسوم التي كانت مفروضة سنة ١٩١٤ . وبعد ستة أشهر يجوز لالمانية أن ترفع رسومها الجمركية بشرط ان تتقاضاها على السواء على واردات الحلفاء الا في ما يختص بأشياء قليلة معينة معظمها حاصلات زراعية فهذه تظل القيود الموضوعة لها نافذة لمدة ٢ ١/٢ سنة أخرى . ويحق للحلفاء ان ينفذوا نظاما جمركيا خاصا في الولايات التي يحتلونها

البواخر — تتمع بواخر الحلفاء بما تتمع به بواخر ألمانية و بواخر أولى الدول بالمراعاة في ألمانية لمدة لا تقل عن خمس سنوات ويستمر هذا النص نافذا بعد ذلك بشرط ان يعامل الحلفاء ألمانية به الا اذا عدله مجلس جمعية الامم اما في ما يختص بصيد السمك والاتجار ببواخر السواحل وقطر السفن فألمانية تعامل الحلفاء معاملة أولى الدول بالمراعاة للمدة المنصوص عليها في ما يختص بالرسوم الجمركية، وهنالك نص يقضي على ألمانية بالاعتراف بشهادات البواخر والمواضع التي تسجل فيها بواخر الدول التي ليس لها سواحل بحرية

المناظرة المجحفة — تتعهد ألمانية بأن تحمي متاجر الحلفاء من المناظرة المجحفة وان تلغي خصوصا استعمال المركات المقلدة والاشارات الدالة على أصل المصنوع (كذا) وتحترم على شرط التبادل في المعاملة القوانين والقرارات القضائية الصادرة من بلاد الحلفاء والحكومات المشتركة معهم في ما يختص بأسماء الخمور والمشروبات الروحية وهي الاسماء المستعملة حيث تعصر هذه الخمور وتستقطر هذه المشروبات

معاملة الرعايا — لا يجوز لالمانية أن تقيد رعايا الحلفاء وأملاكهم وأموالهم (في بلادها) بقيود لم تكن موجودة عندها قبل الحرب ولا ضرائب كذلك الا اذا فرضت مثل هذه القيود والضرائب على رعاياها ويحظر عليها أيضا ان تضع قيوداً تقيد بها الاعمال اذا لم تكن هذه القيود عامة لجميع الاجانب في بلادها . ويعمل بهذه النصوص خمس سنوات وتتجدد لمدة لا تتجاوز خمس سنوات أخرى اذا قررت ذلك اكثرية مجلس جمعية الامم وتزول الرعوية الالمانية عن كل شخص صار من رعايا احدى دول الحلفاء أو احدى دول الحكومات المشتركة معهم

الاتفاقات بين ألمانية ودول الحلفاء — جدد نحو أربعين اتفاقا كانت مبرمة من

قبل بين ألمانية و بعض دول الحلفاء ولكن اشترطت شروط خصوصية على اعادة قبول ألمانية في بعضها ومن ذلك الاتفاقات الخاصة بالبريد والتلغراف ولا يجوز لالمانية ان تمسك عن الموافقة على الاتفاقات الخصوصية التي تبرمها الدول الجديدة وعليها أيضا في مسألة اتفاق التلغراف اللاسلكي ان تقبل القيام بالقوانين الوقتية التي ستبلغ لها والموافقة على الاتفاق الجديد متى صيغت مواده . وفي الاتفاقات الخاصة بمصايد السمك في البحر الشمالي وبيع المسكرات فيه تكون المراقبة على سفن الصيد التي لشعوب الحلفاء واقامة النظام بينها من حقوق سفن دول الحلفاء دون سواها لمدة لاتقل عن خمس سنوات وتفقد ألمانية الحق الخاص الذي منحته بالمادة الثالثة من معاهدة ساموای المبرمة سنة ١٨٩٩ وغيرها من المعاهدات وتتنازل خصوصا عن حقها في تعويضات البوكسر بعد تاريخ دخول الصين في الحرب

المعاهدات بين ألمانية ودولة من دول الحلفاء — يجوز لكل دولة من دول الحلفاء اذا شاءت أن تجدد احدى معاهداتها مع المانية اذا كان تجديدها لاينافض معاهدة الصلح وذلك بأن تعلن عن عزمها على ذلك قبل وقوعه بستة أشهر، وتنقض المعاهدات التي أبرمتها المانية منذ أول أغسطس ١٩١٤ مع سائر دول الاعداء أو قبل ذلك أو بعده مع رومانية وروسية أو الحكومات الواقعة في بلاد روسية كما كانت وتلغى الامتيازات التي منحت لرعايا الالمان بالضغط والتشديد . ويتمتع الحلفاء بالامتيازات الممنوحة بالمعاهدات التي أبرمتها المانية مع دول الاعداء الاخرى قبل ١ أغسطس ١٩١٤ وبالمعاهدات التي أبرمتها المانية مع دول المحايدين في أثناء الحرب

الديون السابقة للحرب — تنشأ مكاتب تصفية في خلال ثلاثة أشهر في المانية وفي بلاد كل دولة من دول الحلفاء والحكومات المشتركة معها تتولى وضع الخطط لتسوية الديون السابقة للحرب [المعرب: سقط في الاصل هنا عبارة أو بضع كلمات] وكل تسوية من هذا القبيل تتم بواسطة هذه المكاتب وتحظر تسوية هذه الديون مباشرة ثم ان توزيع الاموال الناتجة من بيع أموال العدو وأملاكه يتم بواسطة هذه المكاتب وعلى كل دولة أن تحمل تبعة العهود المالية التي على رعاياها نحو رعايا دول الخصم

الا اذا كان المدين في حكم المفلس عند وقوع الحرب

ويدور البحث في المطلوبات بين مكتبي التصفية التابعين للبلدين صاحبي حق فاذا لم يتم الاتفاق بينهما تحال القضية الى التحكيم أو الى محكمة التحكيم المختلطة التي نص على تأليفها في ما يلي. والمبالغ المطلوبة لرعايا كل بلاد تدفع من مكتب التصفية في البلاد المذكورة وهو يقيد على البلاد نفسها الديون المطلوبة من رعاياها . وتدفع الديون بنقود البلاد لمخالفة صاحبة الشأن وأما سعر الكمبيو الذي يجري عليه فالسعر الذي كان دارجا في البلاد نفسها قبل وقوع الحرب بين تلك البلاد وألمانية بشهر . هذا اذا لم يكن في العقد التجاري بين المتعاملين نص خاص على كيفية الدفع . ولكل دولة من دول الحلفاء الخيار في الاشتراك في هذا النظام

أملاك الاعداء وأموالهم — كل ماعمل من التصفية والمراقبة ونحوهما في بلدان الحلفاء وألمانية بشأن أملاك الاعداء وأموالهم ومتاجرهم بحكم تدابير الحرب الاستثنائية يثبت في هذه المعاهدة بشرط تعويض مافقد من أملاك وأموال رعايا الحلفاء التعويض الذي تقرره محكمة التحكيم المختلطة والذي يؤخذ من أموال الرعايا الالمان التي تكون في حيازة حكومة الطالب . أما التعويضات المطلوبة لرعايا الالمان فهذه تدفعها ألمانية

كل قضية التصفية والمراقبة ونحوها في ألمانية توقف واذا كانت أملاك وأموال رعايا الحلفاء لم تصف تماما فانها ترد الى رعايا البلدان التي لم تصف الاموال الالمانية فيها والتي يمكن أن تطلب رد أموالها وأملاكها بواسطة الحكومة الالمانية من الاشخاص الذين صارت تلك الاموال والاملاك في حيازتهم ، وهنالك نصوص على حماية مارد من الاملاك والاموال والمتاجر في ألمانية ووقايته في المستقبل ويحفظ الحلفاء لانفسهم حق الاحتفاظ بجميع الاملاك والاموال الالمانية في لندنهم وتصفيتها والصافي من بيعها في أثناء الحرب وبعدها يعتبر لحساب ألمانية وتسدد به كل دولة مطلوب رعاياها من أموال وأملاك لهم في ألمانية أو ديون لهم قبل الالمان

العقود — ان العقود (الكونتراتات) المبرمة بين رعايا الحلفاء والرعايا الالمان قبل الحرب تعد بالاجمال ملغاة من تاريخ وقوع الحرب بين الفريقين ويستثنى من

هذا الحكم العقود الخاصة بنقل أموال منقولة أو غير منقولة اذا كانت هذه لاموال سملت فعلا وايجارات الاراضي والبيوت وعقود الرهن والكفالة وامتيازات المناجم والعقود المبرمة مع الحكومات والمحاسس العمومية وعقود التأمين . وقد نص على عقود التأمين نصا مفصلا فيما يلي

ويحفظ الحق في تنفيذ العقود التي ترى الدولة المحالفة أن تنفيذها في المصلحة العامة بشرط دفع تعويض عادل اذا اقتضت الحال تعيينه محكمة التحكيم المختلطة . ونظراً الى الصعوبات الدستورية فيما يتعلق بالولايات المتحدة والبرازيل واليابان تستثنى هذه البلاد الثلاث من النصوص الخاصة بالعقود المبرمة قبل الحرب ولا تعد عقود التأمين من الحريق منحلة بوقوع الحرب ولو لم تكن رسوم التأمين قد دفعت ولكنها تعتبر منقوضة في ميعاد دفع القسط السنوي الاول الذي يستحق بعد ابرام الصلح بثلاثة أشهر . أما عقود التأمين على الحياة فلا تنحل لسبب وقوع الحرب فقط ولكن في الاحوال التي انقطع فيها دفع الرسوم بسبب تنفيذ القوانين الحربية يحق للمؤمن أن يطالب بقيمة البوليصة التي تستحقها عند تاريخ الكف عن الدفع ويجوز اعادة التأمين واستئنافه اذا دفعت الرسوم المتأخرة مع فوائدها . أما عقود التأمين البحري فتعد محلولة بوقوع الحرب الا اذا كان الضرر قد سبق وقوعه فاذا كان هذا الضرر مغطى بتأمين آخر عقد بعد ابتداء الحرب تعد البوليصة الجديدة كأنها حلت محل البوليصة القديمة فاذا لم يكن قد وقع ضرر قبل الحرب فالرسوم التي دفعت تسترد . وتلغى اتفاقات التأمين الا اذا كان الغزو قد حال دون وجود المؤمن لمن يؤمنه على ما يريد . ويجوز لكل دولة من دول الحلفاء والدول المشتركة معها أن تلغي جميع عقود التأمين المبرمة بين رعاياها وشركة تأمين المانية ويجب على الشركة أن تسلم من أموالها وموجوداتها جانباً يكون على نسبة بوالص التأمين هذه

* *

تنشأ محكمة تحكيم مختلطة بين كل دولة من دول الحلفاء وألمانية تتألف من عضو تعينه كل من الحكومتين ورئيس يختاره مجلس جمعية الامم اذ لم تتفق الدولتان على تعيينه . أو يعينه قبل تأليف جمعية الامم رئيس الاتحاد السويسري الحالي وتفصل

هذه المحكمة في جميع النزاعات المتعلقة بالعقود المبرمة قبل تاريخ معاهدة الصلح بين رعايا الحلفاء والرعايا الالمان في كل ما لا يدخل في اختصاص محاكم الحلفاء والدول المشتركة معهم أو المحاكم العامة

الملكية الصناعية — أعيدت الحقوق الخاصة بالملكية الصناعية والادبية وما يتعلق منها بالفنون الجميلة . أما الحقوق التي للالمان فعرضة لنتيجة التدابير الحربية الخاصة التي اتخذها الحلفاء . وقد حفظ حق فرض شروط وقيود على حقوق الطبع وامتيازات الحصر الالمانية للمصلحة العامة وكذلك حق السعي في حمل ألمانية على انجاز عهودها . ويمكن تمديد الوقت لانجاز الاجراءات الرسمية في مسألة امتيازات الحصر والحصول على الحقوق بموجب المعاهدات الدولية وجميع الرخص التي كانت قبل الحرب تلغى الا ما كان منها بين أميركا وألمانية ولكن يبقى لصاحب الرخصة حق المطالبة برخصة جديدة بشروط توضع خصيصاً ولا تجوز المطالبة بتعويض من ضرر حدث في أثناء الحرب الا بين الدولتين المذكورتين

الافيون — تتعهد الدول الموقعة على هذا والتي لم تمض معاهدة الافيون المعقودة سنة ١٩١٢ ولا وافقت عليها بأن تنفذها الآن

الفصل الحادي عشر

في النقل الجوي

الطيران — يكون لطيارات الحلفاء والدول المشتركة معهم حق الطيران في جو المانية أو النزول في أرضها وحق استعمال ميادين الطيران الالمانية أسوة بالطيارات الالمانية ، وتعامل من حيث وسائل النقل الداخلية في ألمانية معاملة أكثر الامم مراعاة وتوافق ألمانية على قبول الشهادات التي يصدرها الحلفاء بشأن جنسية الطيارات وكفاءتها للطيران وعلى تطبيق الاتفاق المختص بالطيران والمعقود بين الحلفاء والدول المشتركة معهم على طياراتها هي في جوها . وهذه القواعد تبقى نافذة المفعول حتى سنة ١٩٢٣ الا اذا دخلت ألمانية في خلال هذه المدة جمعية الامم أو قبلت الاتفاق المذكور آنفا لما بقية

الاستقلال – ماهو؟ (*)

الاستقلال، ما الاستقلال ، وما أدراك ما الاستقلال؛ الاستقلال كلمة تدور في هذه الايام، على ألسنة الشعوب والاقوام، فيظن أنها مما يشترك في فهم كنهه الخواص والعوام ، وما هذا الظن الا من بعض الآثام

الاستقلال كلمة من كلم السياسة وهي من الاسماء الاجناس المنقسمة الى أنواع كالاستقلال السياسي والاستقلال الاداري والاستقلال الاقتصادي، وكن بظن أن اطلاق لفظ الاستقلال أو وصفه بالتام يشمل جميع أنواع هذا الجنس بحيث يكون الشعب الذي يطلبه لنفسه وتعترف به الدول حرا في جميع أنواع التصرف في حكومته لافرق بينه وبين الدول الكبرى كانكلترة وفرنسة أو الصغرى كسويسرة والبرتغال. وقد كانت الدولة العثمانية من الدول الكبرى المعترف لها بالاستقلال التام المطلق ولكننا رأيناها عاجزة عن زيادة ضريبة المكس الجمرك على ما يرد من صادرات الممالك الاجنبية وعاجزة عن تنفيذ قانون وضعته للمواد الكحولية ، أقره مجلس الامة وصدرت به الارادة السنية، ذلك بأن لدول كبرى عارضت في هذا وذاك. ومافتح للدول باب الافتيات عليها الا تلك الامتيازات التي كان أصلها منحة من القوي الضعيف وعطفاً عليه وتساهلا في معاملته عملا بهداية الشرع

(*) هذا هو المقال الموعود به في الجزء الخامس ص ٢٨٠

الاسلامي . ورأينا في أثناء هذه الحرب تصرفاً أغرب من هـذا . ذلك التصرف الذي قام به دول الاحلاف في بلاد اليونان المستقلة أتم الاستقلال باعترافهم حتى أفضى الى خلع ملكهم واخراجـه من بلاده . وحجتهم في ذلك انه خالف دستور البلاد وهم ضامنون له

ما كل من يلوك كلمة الاستقلال بفمه أو يرسمها بقلمه يعرف كنه كلمه . فهو مدرك لمعناها عند أهلها ، وما كل من يدعي في أنه يطلب الاستقلال لقوم فهو مخلص لهم ساع لخيرهم ، بل رب ساع لاستقلال قوم في الظاهر وهو انما سعى لاستعبادهم ، سواء كان منهم أو أجنبيا عنهم ، من كان في شك من ذلك فليعتبر بما نقلته الينا البرقيات والصحف عن ساسة أوربة في أثناء هذه الحرب من وضع هذه الكلمة في موضعها أو تحريفها عنه

قال رئيس الوزارة الايطالية في خطاب ألقاه في مجلس الشيوخ عند البحث في مسألة احتلال الجرمان للبلاد الروسية والبحث معها في الصلح على قاعدة « استقلال الشعوب كلها وعدم الضم والغرم » ونقلته الجرائد المصرية في أوائل يناير (ك٢) ١٩١٨ ما ترجمته بالعربية :

« ان دولتي الوسط أعلنتا انهما لا تنويان ازالة الاستقلال السياسي من البلاد التي احتلتاها . فكلمة " الاستقلال السياسي " لا تنفي الاعتداء على الاستقلال الآخر كالاستقلال الاقتصادي مثلا ولا تضمن أيضاً عودة المملكة المستقلة الى جميع أراضيها كاملة . أضف الى ما تقدم أن كلمة " استقلال الشعوب " كلمة مبهمة لا تزيل الشكوك وما تضمره دولنا الوسط من المطامع فانهما تقولان انهما لا تريدان ضما بالقوة . مفهوم ذلك انهما تريدان ضما بغير القوة . فتى يمكن اذاً وصف الضم بالقوة . الجواب عن ذلك أن الامر

معق على وجود القوة وعلى شكل احيار الذي يعرض على الشعوب الموجودة تحت نير الغازين» اه المراد منه. ونزيد عليه أن الوزير صرح بان الشعب الذي يراد استفتاؤه في أمره وحكم نفسه لا يعتمد على رأيه الا بعد سحب القوة الاجنبية لمحتلة لبلاده

وكما يتلاعب السياسيون بلفظ الاستقلال تفسيرا وتأويلا واستنباطا من العوامل والنعوت القيود التي يحرونها عليه يتلاعبون أيضا بما يقابله من الفاظ الضم والفتح والحماية والرعاية والاحتلال الموقت وغير الموقت والمساعدة . ولما اقترح أحرار الروس وجوب بناء عقد الصلح على قاعدة استقلال جميع الشعوب الكبيرة والصغيرة وعدم الضم والغرامة أي عدم ضم أي دولة بنفسها شعبا من بلاد غيرها. ودول التحالف الجرماني يومئذ في أوج مجدها — استحسنت حكومة الولايات المتحدة وكذا دول الحلفاء هذه القاعدة وطفقوا يتباحثون فيها . الا أن مستر سكويث رئيس الوزارة البريطانية قبل مستر لويد جورج بين أن لضم البلاد في معجم (قاموس) السياسة أربعة معاني :

(١) ضم بعض البلدان لتحرير الشعوب الراسفة في قيود الظلم واغلال الاستبداد وهو أمر مشروع — وعده من أغراض القتال لهم

(٢) ضم البلاد التي تحتوي على أجناس — فصلت عن أصولها بارجاع الفرع الى أصله

(٣) الضم لاجل الاحتفاظ بمواقع حربية تكون ضرورية للدفاع لا للهجوم

(٤) الضم بمعنى فتح البلدان للتوسع والتبسط للسؤدد السياسي

والربح الاقتصادي وقال : ان هذا الاخير وحده لا يلقى شيئا من التأييد في بريطانيا ولا بين حلفائها .

ونقول ان هذا أمر لا يعرف الا بالنية اذ لا يدعيه أحد في هذا العصر، بل كل من حاول أخذ شيء من أرض غيره يدعي حسن النية فيه ويحاول تطبيقه على أحد الثلاثة الاول من معانيه وهو ما أنكره رئيس الوزارة الايطالية على ألمانية ولنمسة فيما أشرنا اليه من خطبته آنفا. متى كانت السياسة من الامور التعبدية و مقامات الصوفية حتى يحكم فيها أو عليها بحسن النية ؟ كلا! انها تأويلات السياسة التي تجعل الحرام حلالا والحلال حراما يحللونه عاما ويحرمونه عاما ، فمن تدبر كلام الوزيرين الايطالي والبريطاني يظهر له انه لا ينبغي للعاقل البصير ان ينتظر من كلام السياسيين اذا أطلقوا كلمة "الاستقلال" أو الحرية و"تحرر الشعوب والامم" فيظن انها تنافي ما يقابلها أو يضادها من الاستعباد أو الاستعمار أو الضم باسم الحماية أو الرعاية أو المساعدة الموقتة أو المطلقة، فان المتكلم يستعمل عندهم استعمالات مجازية ، ويختلف معناه حتى بما لا يمكن اطلاع أحد عليه وهو النية . فان قيل لهم ان الاصل في الالفاظ المطلقة ان تحمل على معانيها الحقيقية تفصوا من ذلك بصرف اللفظ عن حقيقته بالقرائن اللفظية أو المعنوية

فاذا طلب شعب من الشعوب من مؤتمر الصلح الاعتراف باستقلاله مع مساعدة بعض الدول له على النهوض بشؤون استقلاله كان ذلك عندهم دليلا على انه يطلب استقلالا مجازيا أي تصرفا ناقصا مقرونا بمساعدة أجنبية من شأنه أن يؤول الى الاستقلال التام الحقيقي الذي هو عبارة

عن نهوضه بأمر حكومته وحده (على حد « اني أراني أعصر خمرا » أي عنبا يؤول أمره الى ان يكون خمرا اذا هو لم يفسد فيتستحيل خلا).

فاذا يجب أن يقيد الطلب الذى يراد به الحقيقة بوصف الاستقلال بالتام المطلق الناجز . . وبعدم شيء ينافيه ويعد قرينة على مجازيته، وان يصرح الشعب الطالب بأن لا يقبل أن يكون لدولة من الدول صفة رسمية لا قولية ولا فعلية ولا امتياز في بلاده، وأن يكون أمر امته بيدها وحكمها نيابيا لا يعتد فيه الا بما يقرره مجلس نوابه فيها

بهذا البيان يظهر لغير المتمرس بالسياسة ما يراه من التناقض أو التعارض في الاتفاق الفرنسي البريطاني على بلاد الشعوب العثمانية غير التركية كبلادنا العربية المعبر عنه باتفاق سنة ١٩١٦ الذي اعلنه بباريس السر مارك سايكس باسم الحكومة الانكليزية والمسيو غو باسم الحكومة الفرنسية في اواخر دسمبر (ك ١) من تلك السنة ثم اعلنته الحكومتان رسميا في ٨ نوفمبر (ت ٢) من السنة الماضية، فقد صرح ممثل انكلترة بباريس « انه لا يعقل ان يستقل الحجاز وتبقى سورية غير مستقلة وصرح عقيبه ممثل فرنسة في خطبته بأن [illegible] على تحرير الشعوب غير التركية من غير التركي في آسية [illegible] مهما كانت أديان هذه الشعوب واجناسها وتهيئتها لمستقبل احسن من ماضيها وللسير بها في طريق الاستقلال بالحكم وفي سبيل الحضارة مع احترام العقائد الدينية وحقوق الوطنيات . وستعمل كل من الدولتين في منطقة نفوذها وسيكون الدور الذي تمثله فرنسة وانكلترة دور دليل لتحسين حالة المستقبل ودور حكم بين الجماعات

الدينية والجنسية والاولى مستعدة بهذا الدور في الشمال والثانية في الجنوب» اه

فعلم من هذا التصريح ان التحرير الذي يقولونه هو تحرير مقيد بكونه خاصا بازالة سلطة الترك لا مطلق . وان الاستقلال الذي وعدوا به عبارة عن قيادة البلاد في طريق الاستقلال لا الاستقلال الحقيقي الناجز وتستغني بهذا عن شرح البلاغ الذي نشر في ٨ نوفمبر والجمع بين مافيه من تعارض بين اعطاء أهل بلاد السورية والعراقية حق الاختيار لشكل حكومتهم وبين ضمان الدولتين للجميع قضاء عادلا واحدا ومساعدة الحكومات والمصالح الاهلية على الامور العلمية والاقتصادية وازالة الخلاف والتفرق من بينهم ، فان هذا لا يكون الا بتوليهما ادارة البلاد

هذا وانما ذكر لفظ الاختيار في البلاغ لتطبيقه على قواعد الدستور ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة التي وضعها لصلح الامم فانه صرح بأنه — يجب استفتاء كل شعب في أمره ، وأن لا تحكم بلاد الا بما يختاره لها ، وانه ليس لدولة من الدول حق تمتاز به في بلاد غيرها بدعوى المصالح السياسية والادبية أو الاقتصادية ولا بأية دعوة أخرى ، وبأنه يجب تأسيس عصبة من الامم تضمن تنفيذ شروط الصلح ودوام السلم وحقوق الامم المستضعفة وتقوم بما يلزم لها من المساعدة

وقد قرأنا أخيراً في الرقيات والجرائد الباريسية تصريحاً لرئيس الوزارة الفرنسية بأن مسألة الولايات العثمانية العربية وغيرها ستعرض على مؤتمر الصلح فيكون حكمه فيها هو الفصل ، وأن وفاق سنة ١٩١٦ كان وفاقاً مؤقتاً والحالة الحاضرة فيها مؤقتة أيضاً . وقد كتب هذا الرئيس

كتاباً بهذا المعنى نشر في العدد ١٢٠ من جريدة المستقبل التي تصدر في باريس بالعربية لخدمة الحكومة الفرنسية

بعد هذا كله نعجب لبقاء بعض السوريين مختلفين في أمر مستقبل بلادهم وزعم بعضهم ان وفاق سنة ١٩١٦ كالقضاء الالهي المنزل، لا يتحول ولا يتزلزل، فيجب اظهار الرضاء به. والسبق الى نيل الزلفى عند الحكومتين التي فوض اليها أمرهم بزعمهم، ومن مقاومة آخرين لهؤلاء بطلب تفويض أمر تنظيم البلاد الى دولة أخرى غير الدولة التي يزعم أولئك انها صارت أو ستصير مالكة أمرهم، وقصارى ذلك التنازع والتفاضل بين دولتين، بحجة ارتكاب أخف الضررين، وما أغنانا عن كل منهما، فكيف تتخير فيهما.

ونعجب من هذا ان كل فرق يزعم انه يطلب الاستقلال والخير لوطنه في الحال والاستقبال ولا شك في ان فيهم المخلصين وغير المخلصين

ويسرنا ان السواد الاعظم من أهل البلاد لا يرضى لنفسه الا الاستقلال التام الناجز والحرية الكاملة الناجزة لا مجرد الاطلاق من قيد سلطة ضعيفة عاجزة لتحل محلها دولة قادرة وانما كان بعضهم يغش أو يغلط تقيد رغبته بقيود يحسبها نافعة غير ضارة، ولكن الامر قد انكشف وظهر فلا يخفى الا على أكمه لا يبصر القمر وشرط صحة اقرار العلم والاختبار فالواجب الان أن يكسر المقيد قيده الذي تقيد به قبل العلم بأن أمره بيده وحرية القول والكتابة، في الاقرار والتوكيل والانابة

ذلك بأن يستأنف زعماء البلاد بطريقة منظمة التوقيع على طلب الاستقلال التام المطلق الناجز وجعل حكومة البلاد نيابية (ديمقراطية)

تبني أحكامها على أساس العدل والمساواة وحفظ حقوق الثلاث القليلة العدد من أهل البلاد، وان تضمن لها ذلك جمعية الامم لا دولة من الدول وان يرفع ذلك بالبرق والبريد الى مؤتمر الصلح والى الرئيس ولسن. وان ينيب هؤلاء الزعماء الذين يفوز لذلك واحدا من كل ولاية يعملون الطوائف من المال المختلفة وارسالهم الى مؤتمر الصلح يطلب هذا الاستقلال

يا أبناء وطني الاعزاء. قد أجمعت الدول الكبرى على جعل استقلال الشعوب من قواعد صلح الامم وعلى تفويض أمر الولايات اليها فلا تستطيع دولة منها أخذ شيء من بلادنا الا بقرار منا فالويل الدائم والشقاء الملازم لامة تبخع نفسها وتناجر مختارة بيدها مخدوعة بأن تنال بذلك مساعدة نحيا بها. واعيذكم بالله من هذه الحماقة. وأسأله لكم حسن الخاتمة.

تصحيح أغلاط الجزء الخامس من المجلد ٢١

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٢٦	٢٢	رسلا	مرسلا
٢٢٦	٢٣	النقور	والنقود
٢٢٧	•	فيها	فيه
•	١١	فأرسل	أرسل
•	٢١	لها	
٢٢٨	٢١	يغني	لايغني

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣٢	٢	جانبة يتلقون من	حالة يتلقون الاحكام من
٢٣٧	١٠	سيقولون الله	سيقولون لله
٢٣٧	١٨	أتنبؤن	قل أتنبؤون
٢٣٩	١٦	أتباعه	أتباعه
٤٤٠	١٧	اليه	
•	•	اتفاقا	اتفق
٢٤٦	١٧	هي	هي التي
٢٤٩	١١	فنعطوه	فتعطوه

مدرسة
دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

١

المعالجة — إذا حقن (*) المصاب بالسلفرسان (Salvarsan) [وهو المسمى ٦٠٦ والجديد منه يسمى ٩١٤] بمقدار ٢٠ر٠جم الى ٣٠ ر٠جم انخفضت الحرارة وذهبت اللزونيات من الدم في ظرف ٧ ساعات أو ١٤ أو ٢٠ ساعة على لاكثر. زد على ذلك أن هذه الحقنة قد منعت حصول النكس في المصابين بنسبة ٩٢ في المئة

واذا لم يعمل الحقن عولجت هذه الحمى بمثل معالجة الحميات الاخرى ، فيلزم المريض الفراش في غرفة متجددة الهواء نقيته، وتعطى له الاغذية السائلة ، واذا اشتدت الحرارة عولجت بالماء البارد كما سبق في الحميات الاخرى ، ومما يخفف الصداع وضع الكمادات الباردة على الرأس . واذا كان المريض متألما من الكبد أو الطحال وضعت الكمادات الساخنة عليهما . واذا عرق المريض عرقا شديدا وجب تنشيف جسمه في الحال . ويقاوم الهبوط الذي قد يحصل عند البحران بالتدفئة والمنبهات المنعشات . وفي أواخر الفترات بين نوب الحمى يحسن تغذية المريض بجميع الاطعمة الجيدة وتعطى له المقويات ليتحمل نكس المرض اذا حصل

الوقاية — تكون بالنظافة التامة واتقاء القمل وغيره من الحشرات كالقردان وابادتها بكافة الوسائل الفعالة كالغلي ونحوه

الافرنجي Syphilis

تكلمنا في الجزء الاول من هذا الكتاب (ص ١٢٨ — ١٣٠) على هذا

(*) ويكون الحقن اما داخل العضلات أو في الأوردة ، وهو الأفضل

المرض بشيء من الايجاز ونريد الآن أن نفصل القول في ميكروبه وطرق تشخيصه العملية وكذلك في معالجته الحديثة

أما ميكروبه فيسمى بالافرنجية [Spirochaeta Pallida] والكلمة الاولى يونانية بمعنى (الحلزوني) والثانية لاتينية بمعنى الاكد (الباهت) لتعسر رؤيته بالمجهر، فانه من أدق الميكروبات الحلزونية. وقد اكتشف هذا الميكروب سنة ١٩٠٥ ميلادية، وهو طويل دقيق سريع الحركة يلتوي على نفسه نحوا من ٦ — ١٤ طية وينتهي طرفين وهدبين دقيقين جدا ، يبلغ طوله نحوا من ٤ الى ٢٠ مك [1] وعرضه ٢٥ ر. من الميكرون ، وهو من نوع الحيوانات الاولى [Protozoa]

يوجد هذا الميكروب في جميع القروح الافرنجية الاولى والثانية وفي أنواع الطفح الثانوي المختلفة وفي غير ذلك فتراه مثلا في العقد اللمفاوية القريبة من القروح ومن الطفح وقد تجده أحيانا في الدم وفي الطحال

أما في الطور الثالث من الافرنجي، وهو الذي كانوا يعتبرونه غير معد فوجوده ليس بالسهولة التي في الطورين الاولين ، ومع ذلك فمن مشاهدته في محيط الاورام الصمغية لا في وسطها غالبا وكذلك يشاهد في غير ذلك من الاصابات الافرنجية الثلاثية مثل التهاب لابهر (الاورطي) وفي قشرة المخ في مرض الشلل العام للمجانين، ويستمر وجوده بعد الطور الاول في الجسم الى سنين عديدة . ويوجد في الافرنجي الوراثي كثيرا بالدم والاحشاء كالكبد والطحال والرئتين

واعلم ان هذا الميكروب اذا تلقح به الجسم أخذ عدة ساعات حتى ينتشر فيه، ولذلك وجد بعض الباحثين [متشنكوف Metchnikoff] أنه اذا تلقح بعض أنواع القردة بالميكروب ثم دهن موضع التلقيح (بمرهم الزئبق الحلو) أمكن منع العدوى حتى بعد مضي ١٨ ساعة من التلقيح

والمطهرات تقتل هذا الميكروب وكذلك الحرارة التي درجتها من ٥٢° — فيجوز فصاعدا ، والمعالجة بالزئبق و ٦٠٦ أو ٩١٤ تذهب الميكروب من الجسم أو تقلله

(١) ومتوسط الطول نحو من ٨— ٩ مك

أما تشخيصه - فمن أسهل طرقه أن يؤخذ جزء من إفراز القروح ويوضع على لوح من ألواح المجهر الزجاجية ويلون باحبر الهندي المعتاد ويبسط على اللوح حتى يكون طبقة دقيقة ، فاذا جفت ونظر اليها بالمجهر رأيت المزمنيات فيها بسهولة. هذا والداء في أطواره الثلاثة الاولى المعتادة قل أن يتعسر على الطبيب معرفته، ولكن الصعوبة في معرفته حينما ينشأ عنه في آخر أطواره فساد بعض الاعصاب أو الشرايين بسمه الذي يحدث فيها تلفا أو التهابا مزمنا فيتسبب من ذلك أنواع من الشلل وتصلب في الشرايين وغير ذلك من الاعراض العضالة التي يتعذر علاجها في أكثر الاحوال. وأحسن الطرق لمعرفة الداء حينئذ أن يبحث مصل دم المصاب أو جزء من السائل المخي الشوكي بطريقة [وزرمان Wassermann] الالماني وهي مبنية على بعض حقائق باكتيريولوجية يجب أن نبينها قبل وصف هذه الطريقة فنقول : —

انك اذا حقنت حيوانا بسم ميكروب أو بالميكروب نفسه أو بخلايا دم أو بغيره أو أي مادة أخرى زلالية تولدت في البنية [مادة مضادة Anti_body] للمادة المحقونة ولذلك تسمى المادة المحقونة [مولدة الضد Anti_gen] فمثلا اذا حقنت حيوانا بمقدار غير مميت من سم ميكروب الدفتيريا تولد في دمه شيء مضاد لسم الدفتيريا وحماه من أذاه — كما سبق بيان ذلك - واذا حقنت الميكروب تولد في الدم مايذيبه ويبيده ، واذا حقنت كريات حمراء تولد فيه ما يذيبها أيضا ، وكذلك اذا حقنت خلايا أو غيرها تولد فيه ما يحلها ويذيبها [1] واعلم جيدا ، واعلم ان المادة المتولدة لاتكون مضادة الا لما ولدها لا لغيره. فاذا كانت المادة المحقونة دم الارنب مثلا كانت المادة المتولدة مضادة له لا لدم الحصان مثلا ولا لميكروب ولا لغيره . و[المادة المضادة Anti_body] التي تولدت لا تذيب المادة المحقونة مولدة الضد [Anti_gen] إلا بمساعدة مادة أخرى تكون عادة في دم الحيوان المحقون ، وتسمى المادة [المساعدة أو المكملة Complement] ووجودها في الدم طبيعي لا حادث ، فاذا سخن الدم أو مصله حتى صارت درجة حرارته ٥٥° — ٦٠° سنتجراد فسدت المادة المساعدة وبطل عملها ، وأصبحت المادة المضادة وحدها

(١) يراجع أيضا الجزء الاول ص ٤٩

لا تذيب المادة المولدة للضد ، وتفسد المادة المساعدة أيضاً بغير التسخين كما سيأتي بيانه

اذا علمت ذلك فاعلم أن المصاب بالافرنجي توجد في دمه مادة مضادة للمرض وهي التي تولدت في البنية بسبب تلقحه بهذا الداء ، ونحصل على هذه المادة بأخذ جزء من مصل دم المصاب أو جزء من سائل النخاع الشوكي له ، فاذا مزج هذا المصل أو هذا السائل بمادة [مولدة الضد] للافرنجي ، وبعبارة أخرى المادة التي اذا حقنت في شخص ولدت مايضاد الافرنجي أو بعبارة أصرح مادة مشتملة على ميكروب الافرنجي ككبد جنين امرأة مصابة بالافرنجي مثلا — فاذ مزج هذا المصل أو السائل المشتمل على مضاد الافرنجي [Anti-body] بجزء من هذا الكبد المولد للضد [Anti-gen] كان لهذا المزيج خاصية إفساد المادة المساعدة [Complement] التي توجد في دم أي حيوان وابطال عملها في الاذابة ، فاذا أضيف لدم هذا الحيوان الذي أفسدنا مادته المساعدة مادة مضادة مع مادة مولدة للضد لما أمكن لهذا الدم أن يقوم بعمله في الاذابة

ولبيان هذه الطريقة عملا ليتمكن قارئ من فهمها نقول : —

لفحص شخص يظن أنه مصاب بالافرنجي نؤخذ من أحد أوردة ٥ - ١٠ سنتي مترا مكعبا من الدم أو مقدار أكبر من ذلك بقليل من سائل النخاع الشوكي بالبزل القطني ويمزج مصل هذا الدم أو السائل النخاعي بكبد جنين مصاب بالافرنجي ويضاف عليهما جزء من مصل دم أحد خنازير الهند وهو مشتمل بطبيعته على تلك المادة التي سميناها [بالمادة المساعدة Complement] ويترك هذا المزيج مدة ساعة في حرارة درجتها ٣٧ سنتجراد

هذا ونكون قد استحضرنا من قبل أورنبا وحقناه عدة مرات بدم ثور حتى تتولد فيه مادة مضادة (مذيبة) لكريات دم الثور ، وهي كما قلنا لا تذيبه الا بوجود المادة المساعدة التي تكون معها في الحالة الطبيعية ونأخذ دم هذا الارنب ونزيل منه بالتسخين المادة المساعدة - كما سبق بيانه - ليبقى عندنا دم فيه المادة المضدة فقط لدم الثور، ونضيف على دم هذا الارنب بعد ذلك المزيج المذكور سابقا (وهو مصل

الانسان المشتبه في اصابته بالافرنجي مع كبد الجنين مع مصل خنزير الهند المشتمل على المادة المساعدة بدل التي أضفناها بالتسخين من دم الارنب) ونضيف اليه أيضا جزءاً من دم الثور ، ثم نسخن جميع هذا الخليط حتى تصير درجة حرارته ٣٧° سنتجراد ونبقيه في هذه الحرارة ساعتين ، فاذا وجد مصل الانسان المشتبه في اصابته توجد فيه حقيقة المادة المضادة للافرنجي لا فسدت هي ومادة كبد الجنين المادة المساعدة على الاذابة التي بدم خنزير الهند وحينئذ لا تذوب كريات دم الثور بدم الارنب ، ويستنتج من ذلك أن الشخص الذي نفحصه مصاب بالافرنجي ، أما اذا ذابت كريات دم الثور علمنا أن هذا الانسان ليس مصابا بالافرنجي ولذلك لم يفسد مصله المادة المساعدة على الاذابة التي بدم خنزير الهند

هذه هي طريقة وزرمان علما وعملا ، وهي أهم الطرق الآن لتشخيص الافرنجي ويجب معرفتها على كل طبيب ولذلك توسعنا في ذكرها هنا

وهي تنجح اذا عملت في أثناء الطور الاول من الافرنجي بعد ٥ — ٨ أسابيع من حصول العدوى ، وتنجح أيضا في الطور الثاني في ٩٥ في المئة ، وفي الثالث في ٧٥ في المئة ، وفي الافرنجي الكامن (الذي لم تظهر أعراضه) في ٥٠ في المئة ، وكذلك تنجح في الامهات اللاتي يلدن أطفالا مصابين بالافرنجي الوراثي وهن في الظاهر سليمات منه ، وذلك بنسبة ٧٠ أو أكثر في المئة منهن

وفي الاطوار الاخيرة الافرنجية التي ينشأ منها الشلل العام للمجانين وداء اختلال الحركة لمسمى أيضا [بسل النخاع [1] Tabes Dorsalis] تنجح هذه الطريقة في كافة الاحوال تقريبا (أي نحو ١٠٠ في ١٠٠) سواء أعملت بمصل دم المصاب أو بسائل النخاع الشوكي ، أما في الحالات التي يصاب فيها المخ أو النخاع بالاورام الصمغية الافرنجية فنجاحها قليل

هذا واذا علمنا أن مصل الانسان يشتمل بطبيعته على مادة تذيب كريات دم لغنم وكذلك يشتمل على المادة المساعدة على الاذابة — اذا علمنا ذلك أمكننا اختصار تلك الطريقة السابقة باستعمال دم الغنم بدون الاحتياج لدم خنزير

(١) سمي بذلك لما ينشأ عنه من الضمور في الاعصاب العصبية الخلفية للنخاع

الهندولا الدم الارنب والثور ، بل نضيف فقط لمصل الانسان كبد جنين مصاب بالافرنجي ودم الغنم ، على أنه قد وجد أيضا أن كبد الجنين غير ضروري فان مواد أخرى يمكن أن تعمل عمله كخلاصة أي كبد سليم وقلب أو حشاء أو أنسجة أخرى وغير ذلك كثير كمحلول الكولستيرين (Cholesterin) والليثين (Lecithin) ومن ذلك يعلم أن المادة التي نبحث عنها في مصل الانسان ليست هي المادة المضادة للافرنجي بالمعنى الصحيح بل هي مادة أخرى مخصوصة توجد في الدم اذا أصيب الشخص بالافرنجي ، فوجودها يدل على الاصابة والعكس بالعكس

واذا عولج الشخص قد تصبح طريقة وزمان غير ناجحة في التشخيص ، ولكن من الغريب انه اذا حقن حينئذ بحقنة ٦٠٦ تعود فتصبح ناجحة ، وذلك يدل على أنه لم يشف تماما من الداء ، وعليه فلا يمكن الاعتراف بطهارة شخص من هذا الداء الا اذا عملت طريقة وزمان بعد هذه الحقنة التي تسمى حينئذ (الحقنة المحرضة) على نجاح الطريقة (Provocative)

المعالجة — نظرا لتعسر تطهير البنية من هذا الداء يجب أن تكون مدة المعالجة طويلة جدا والا لما خلص الجسم من الميكروب وسمومه . وهناك ثلاثة أنواع من الادوية لها نفع عظيم جدا في هذا المرض (١) لزئبق ومركباته و (٢) يودور البوتاسيوم و (٣) بعض مركبات الزرنيخ وأشهرها حقنة ٦٠٦ و ٩١٤

أما المعالجة بالزئبق واليودور فهي قديمة ولذلك لا نريد أن نتكلم عليها هنا لانها معروفة مشهورة ، وانما نريد أن نتكلم على معالجته الحديثة بالمركبات الزرنيخية ، فنقول : —

قد وفق العلامة ارلخ (Ehrlich) هو ومساعده هاتا (Hata)[1] سنة ١٩٠٩ ميلادية الى تركيب كيماوي زرنيخي نافع في هذا المرض سماه ٦٠٦ لانهما وفقا اليه بعد عمل تجارب عديدة بلغت هذا العدد ، ولذلك سمي بهذا الاسم ، ويسمى أيضا [أرلخ هاتا Ehrlich – Hata] نسبة لهما ، ويعرف عند الافرنج أيضا باسم (السلفرسان Salvarsan) ولم أقف على أصل هذه الكلمة ، وانما أظن

(١) هو بكتيريولوجي ياباني كان مساعدا لارلخ الألماني

انها مركبة من كلمتين : (أولها) بالالمانية Salbe وبالانكليزية Salve ومعناها (مرهم) أو (أي دواء للقروح) (وثانيتهما) اسم الزرنيخ (Arsenic) في اللغات الافرنجية. فاذا صح هذا الظن كان معنى ذلك الاسم (الشفاء الزرنيخي) وتركيبه الكيماوي هو (Dioxydiamino - arseno_benzol Dihydrochloride) ومعنى (Di) في اليونانية (مثنى أو مزدوج) وOxy من كلمة (oxygen) و(Amine) تركيب كيماوي يشبه النوشادر (Ammonia) في عناصره وخواصه وهو مشتق منه و (Arseno) الزرنيخ كما سبق و (Benzol) أو (Benzene) مركب كيماوي من الهيدروجين والكربون بنسبة ستة جواهر فردة (Atom) من الاول الى مثلها من الثاني في كل ذرة (Molecule) و(Hydro) من كلمة (Hydrogen) و(Chlor) من (Chlorine) ، وعليه فحقنة ٦٠٦ مركبة بنسب مخصوصة من (الاكسجين والنيتروجين والهيدروجين والزرنيخ والكربون والكلورين) ولونها أصفر لامع ، وهي مسحوق يباع في أنابيب صغيرة زجاجية لايجوز فتحها الاوقت الاستعمال لانها تفسد وتتأكسد اذا ترك المسحوق معرضا للهواء ، والذي يملأ الفراغ الذي يبقى بالانبوبة بغاز غير الاكسجين ، وهذا المسحوق يذوب في الماء ببطء ويكون المحلول حمضيا مشتملا على ٣٤٫١٥ في المئة من الزرنيخ

ويحقن بمقدار ٠٫٣٠ جراماً الى ٠٫٦٠ جراماً

وكل أنبوبة تشتمل عادة على هذا المقدار الاخير (٠٫٦٠ جم) والافضل أن تحقن في الاوردة

طريقة الحقن — يذاب مقدار السلفرسان في ٣٠ أو ٤٠ سنتمتر مكعب من الماء الساخن المقطر حديثاً والمعقم ثم يضاف اليه جزء من محلول هيدرات الصوديوم (بنسبة ١٥٪ من الهيدرات الى الماء المذاب فيه) فيتكون راسب أولا وذلك يأخذ في الذوبان بالتدريج كلما زدت مقدار محلول الهيدرات ، فاذا ذاب الراسب أضف محلولا دافئا من ملح الطعام النقي (بنسبة ٥ في المائة) يصنع بماء مقطر حديثاً الى أن يصير مقدار السائل كله ٢٥٠ جرام وعندئذ يصير صالحا للحقن في الاوردة بشرط أن تكون درجة حرارته عند دخوله الوريد نحو ٣٨° سنتجراد .

ويجب أن يلتزم المريض الفراش قبل الحقن مدة ٢٤ ساعة ويكون طعامه خفيفا في تلك المدة وتطلق أمعاؤه بسهل ، وكذلك يجب أن يبقى في الفراش بعد الحقن ٢٤ ساعة أخرى. ومن المحتم أن تلتزم طرق التعقيم والتطهير التامة في كل هذه العملية من أولها الى آخرها

وكثيرا ما يحدث بعد الحقن ارتفاع خفيف في حرارة الجسم لبضع ساعات

واذا روعيت جميع الاحتياطات التي ذكرناها هنا بدقة نجا المريض من الاعراض الخطرة مثل الرعدة والحمى الشديدة والقيء والاسهال ، وخصوصا اذا روعي أن الماء يجب أن يكون معقما ومقطرا حديثا فاذا كان مقطرا قديما رسبت فيه بعض الميكروبات من الهواء حتى اذا غليته قبل الاستعمال فان هذه الميكروبات يموت ولكن تبقى أجسامها في الماء وهذه تسبب بعض الاعراض الشديدة التي تحصل كثيرا عقب هذه الحقنة

أما طريقة الحقن في العضلات فهي أن يذاب المقدار اللازم من السلفرسان في ١٠ سنتي متر مكعب من الماء المقطر المعقم الدافئ ثم يضاف عليه ٦ سنتي متر مكعب من محلول هيدرات الصوديوم بنسبة ٤٪ في المئة ثم ٦ في المئة من حامض الخليك حتى يبدأ السائل في أن يكون تأثيره حمضيا ثم نقطة من محلول هيدرات الصوديوم بحيث يصير قلويا، ثم يحقن في عضلات الالية أو غيرها . وهذه الطريقة قد تحدث ورما مؤلما في مكان الحقن ، ولذلك يفضل عليها الحقن في الاوردة

ولا يجوز الحقن تحت الجلد ولا لمصاب بمرض في القلب أو الكلى أو الشرايين أو لمصاب بالسل ، وقد أعطاها بعضهم لمثل هؤلاء بمقادير طفيفة

والمعتاد أن يحقن المريض مرتين أو ثلاثا بعد فترة أسبوع أو أسبوعين لان الدواء لا يخرج من البنية الا بعد نحو أسبوع

وفائدة هذه الحقنة أنها تشفي القروح الافرنجية بأنواعها والاورام الصمغية بسرعة عجيبة حتى ان القروح المزمنة تشفى بعد الحقن ببضعة أيام . وفائدتها ليست قاصرة على الافرنجي المكتسب بل هي نافعة أيضاً في الافرنجي الوراثي على حد سواء . أما في أطوار الافرنجي الاخيرة (Parasyphiiitic) فلم يثبت الى الآن

نفعها العظيم غاية الامر أنها قد توقف المرض وتخفف من أعراضه المؤلمة

وهذه الحقنة تذهب ميكروب الافرنجي من الدم وتصيّره طريقة [وزرمان] سلبية ، بمعنى أنها تطهر الدم حتى ان المصاب يكون كأنه لم يصب بشيء

ومن المستحسن جدا أن يعالج المصاب بعد هذه الحقنة بالزئبق مدة سنتين أو ثلاثاً حتى يشفى تماماً من الافرنجي

وهذه الحقنة لا تخلو من الخطر فقد مات بها كثيرون أصابهم بعدها تشنج وغيبوبة ذهبت بحياتهم ، ولا يمكن نسبة ذلك لاي سبب سوى أن بنيتهم لا تحتمل العلاج بها لاستعداد خاص تتأثر بها لا نعرف سببه

أما السلفرسان الجديد [Neo-Salvarsan] ويسمى أيضا ٩١٤ لمثل السبب المذكور آنفا ، فهو يختلف قليلا من الوجهة الكيماوية عن السلفرسان القديم ويزيد عليه ببعض المركبات التي فيها (الكبريت والصوديوم) وهو مسحوق أصفر سهل الذوبان في الماء ويكوّن معه محلولا متعادلا (لا قلويا ولا حمضيا)

ومقدار ما يحقن منه في الاوردة جرام واحد يذاب في ٢٠٠ سنتي مكعب من الماء المقطر وكثيرا ما يحقن في العضلات أيضا

ويعتقد العلماء أن تأثيره في الافرنجي كتأثير النوع القديم على السواء ولكنه أقل خطرا منه ، ويجوز تكرار الحقن به بعد شهر

هذا ولما كانت الحرب الحالية قد منعت التجارة الالمانية في كثير من بلدان العالم فكر بعض علماء الفرنسويين [الدكتور موينرات Mouneyrat] في ايجاد مركب آخر يغنيهم عن مركبات الالمان المذكورة سابقا وسماه [الجاليل Galyl] أو ١١١٦ وهو مركب من الكربون والهيدروجين والاكسجين والنيتروجين والفسفور والزرنيخ بالنسب الآتية : — [٢٤ كربون — ٢٢ هيدروجين — ٨ أكسجين — ٤ نيتروجين — ٢ فسفور — ٤ زرنيخ] ويسمى بلغة الكيماويين : —

(Tetraoxydiphospho tetra aminodiarsenobenzene)

وقد سبق أننا فسرنا جميع مقاطع (أجزاء) هذه الكلمة ماعدا كلمة (Tetra) وهي يونانية معناها أربعة. وهذا الدواء نافع — كمركبات الالمانية — في الامراض

الاخرى الناشئة عن الميكروبات الحيوانية كالحمى الراجعة ومرض النوم

وهذا الدواء مسحوق أصفر يباع في أنابيب مقفلة ولا يتغير بمضي الزمن وهو سهل الذوبان في الماء، ويقول مخترعه انه لا يضر عصب البصر ولا عصب السمع كما يحدث أحيانا من المركبات الالمانية. ومقدار ما يحقن منه ٣٠ سم لى ٣٥ سم لكل ثمانية أيام، والعادة أن تزول الاعراض بعد ثلاث أو أربع حقن، ولكن الافضل أن يعمل ست حقن وينبغي تكرارها في كل سنة لمدة أربع سنوات لازالة الداء من البنية. ويكون الحقن تحت الاوردة، ويجوز أن يعمل أيضا داخل العضلات. وهناك دواء آخر انجليزي يسمى خارسفان Kharsivan] وهو مثل النفرسان سواء بسواء

مرض النوم Sleeping Sickness

ينشأ هذا المرض من ميكروب حيواني يشبه الحيوانيات المذكورة آنفا يسمى بالافرنجية [Trypanosome] يعيش في دم الحيوانات الفقرية وينتقل من بعضها الى البعض الآخر بواسطة الحشرات (الذبابية) أي الذباب، ومن الحيوانات الفقرية التي يعيش في دمها هذا الميكروب ما لا يتأثر به ولا يشعر بوجوده ويكون بالنسبة للميكروب كمستودع طبيعي (خزان) له، ومنه ينتقل الى الانواع الاخرى بالذباب ليحدث له المرض

يشبه هذا الميكروب الدودة فله جسم طويل متحرك ولكنه ليس مفتولا بل مسطحا، وله طرفان، في الامامي منهما هدب واحد كالشارب له، وفي أحد جنبيه غشاء دقيق كثير التماوج، وله نواتان احداهما كبيرة والاخرى صغيرة، والكبيرة في وسطه والصغيرة بقرب الطرف الذي لا هدب له ومنها يبتدئ خيط دقيق يمر بحافة الغشاء المتماوج وينتهي هذا الخيط بالشارب

وهذا الميكروب هو خلية واحدة طولها من ١٨ — ٢٥ ميكرونا وعرضها من ٢ الى ٢٫٨ مك فطوله نحو ثلاثة أمثال قطر كرية الدم الحمراء

وهو يتوالد بالانقسام الطولي (وقد يحدث الانقسام نادرا بالعرض) ويشاهد هذا الميكروب في دم المصاب والغدد الليمفاوية وسائل النخاع الشوكي، ولا يدخل

هذا الميكروب في كريات الدم الحمراء أما البيضاء فتأكله وتبيده

الاسباب — عرف حدوث هذا المرض منذ زمن بعيد في شاطئ أفريقية الغربي بين نهري (سنغال Senegal) و (لواندا Loanda) وعلى بعد بضعة آلاف ميل من البحر وقد عرف أيضا حديثا في بلاد (أوغندا Uganda) وفي جهات أخرى من العالم ولكن المصابين فيها كانوا ممن ذهبوا الى أفريقية ، ويندر حدوث هذ المرض لغير السود، ويصيب لاشخص في جميع الاعمار والذكور والاناث على حد سواء، وقد يستثنى من ذلك الاطفال الرضع والشيوخ الفانين

ويقول الميكروب من مصاب لآخر نوع من الذباب المسمى (Tsetse) وهو أكبر قليل من الذباب المعتاد ويشبهه شبها عظيما ولكنه لا يوجد الا حيث يوجد هذا المرض . ومما يمتاز به أن أنثاه لاتلد بيضا بل تلد جيداً تام التكوين

الاعراض — لاشك أن ميكروب المرض قد يوجد في دم بعض الناس مدة طويلة بدون أن تظهر عليهم أعراض المرض، وقد ينتهي الامر بموت الميكروب . وأول أعراض الداء حمى تمكث بضع ساعات أو بضعة أيام ثم تعود بعد بضعة أسابيع ولا تمتاز أعراض هذه الحمى كثيرا عن غيرها من الحميات الاخرى

وإذا وصل الميكروب الى تجويف العنكبوتية للمخ وانتشاع ظهرت حينئذ الاعراض المميزة لهذا الداء . وهذا المصاب بسنة (نعاس) تزداد تدريجيا حتى تصير سباتا فغيبوبة تامة . وفي أول درجة النعاس قد يحاول المريض العمل ولكنه يكون في غاية الخمول والكسل والضعف، فاذا بلغ درجة النوم لم يتقلب في فراشه الا اذا قلبناه ولا يأكل الا اذا أطعمناه ومع ذلك لا يتم عمل الاكل بل يترك الطعام في فمه ويستمر في نومه . ومدة المرض من خمسة أشهر الى خمسة عشر شهرا . ولم يعرف ان أحدا أصيب به ونجا منه وميكروب هذا المرض يحدث التهابا مزمنا في المخ والنخاع وأغشيتهما (السحايا)

المعالجة — قل أن تنجح وتنحصر في العناية الشديدة بالمريض وبنظافته وتغذيته وتقليبه في فراشه وحقنه ببعض مركبات الزرنيخ كالدواء المسمى (أتوكسل Atoxyl) إما وحده أو مع بعض مركبات الزئبق أو غيره

الحمى السوداء أو الكلا أزار

(Black Fever or Kala_Azar)

مرض كثير الانتشار في بلاد الهند والصين وغيرهما من بلاد آسية ويوجد أيضا في مصر وتونس والجزائر. وسببه ميكروب حيواني أول من وصفه كل من السير (ليشمان Sir Leishman) والدكتور (دونوڤن Dr. Donovan) ولذلك سمي هذا الميكروب باسمهما (Leíshman_Donovan) ويوجد في المصاب في طحاله وكبده وفي غدده اللمفاوية وفي رئتيه وفي جدر أمعائه وغير ذلك، ويمكن الحصول عليه أثناء الحياة بنزل الطحال أو الكبد، وأخذ جزء من دمها . وينتقل من شخص لآخر بواسطة بق الاسرة وغيره

الاعراض — حمى مستطيلة والصفار (الانيميا) والضعف والنحافة وضخامة الكبد والطحال والرعاف أحيانا أو النزف من اللثة أو تحت الجلد وآلام في العظام وتورم بالوجه والقدمين بل واستسقاء بالبطن اذا عظم حجم الكبد ، ويصاب المريض بالاسهال أو الدوسنطاريا وبالالتهاب الرئوي . وهذه المضاعفات كثيرا ماتكون سببا في الموت. ويمكث المرض عدة أشهر، والموت فيه يكون بنسبة تسعين في المئة من المصابين

العلاج — يكون بمركبات الكينين أو الزرنيخ

داء التوت الشوكي — أو — العُلّيق الافرنجي

Framboesia

سمي بذلك لان أورامه التي تظهر بالجسم تشبه هذا النوع من التوت في شكله وحجمه . وهو مرض معد كثير الانتشار في البلاد الحارة كافريقية والهند وغيرها . يصيب الذكور والاناث على حد سواء والشبان أكثر من غيرهم والسود أكثر من البيض. وهو يشبه الافرنجي (Syphilis) شبها عظيما في ميكروبه وأعراضه وعلاجه حتى ظن بعض الباحثين أنه نوع منه ولكن الحقيقة غير ذلك فانه يمكن أن يصاب الشخص بالمرضين معا

تحصل العدوى بتلقيح الجلد بالميكروب في أي سحج أو جرح أو نحو ذلك،

ويندر حصول التلقيح في أعضاء التناسل . ومدة التفريخ من أسبوعين الى أربعة، يظهر بعدها في مكان التلقيح دمل يتقرح أو يستحيل الى مادة كالازرار الحمية تبرز من الجلد ، وتضخم العقد اللمفاوية التي حولها وقل أن تتقيح

هذا هو الطور الاول . أما الثاني فيظهر بعد شهر أو ثلاثة من مبدأ ظهور الطور الاول، ويسبقه توعك وحمى ثم تظهر دمامل صغيرة جدا في أول الامر ثم تكبر حتى تصير نحو بوصتين أو أقل وهي تشبه التوت الشوكي ، وهذه أيضا تتقرح . وهي تصيب كل أجزاء سطح الجسم . والطور الثالث كطور الاورام الصمغية الافرنجية

وميكروب هذا المرض من نوع الحلزونيات ويوجد في الدمامل والقروح وفي الطحال والعقد اللمفاوية وغيرها، ويمكث المرض سنة أو عدة سنين، وقل أن يميت

المعالجة . تكون بحقنة الدلفرسان، وكان يعالج قديما كالافرنجي بمركبات الزئبق واليود والزرنيخ، وتعالج القروح بالمطهرات كالمعتاد

الى هنا انتهى الجزء الثاني وسيليه ان شاء الله الجزء الثالث ويبدأ بالامراض التي لم تعرف ميكروباتها الى الآن

ترجمة الشيخ عبد الرزاق البيطار

بقلم حفيده الشيخ محمد بهجة البيطار

[عبد الرزاق بن حسن بن ابراهيم بن حسن بن محمد بن حسن البيطار الدمشقي]

في عاشر ربيع الاول من سنة ١٣٣٥ فجعت دمشق الشام، بوفاة أكبر وأشهر علمائها الاعلام ، علامة الاقطار ، الاستاذ الجد سيدي الشيخ عبد الرزاق البيطار رحمه الله ورضي عنه ولقد كانت وفاته خسارا عظمى على المسلمين والاسلام ، واليك نبذة يسيرة من ترجمة حياته

مولده وتحصيله

ولد المرحوم بمحلة الميدان من دمشق الشام سنة ألف ومائتين وثلاث وخمسين سنة ١٢٥٣ وغب التمييز تعلم القراءة والكتابة ثم حفظ القرآن الكريم وجوّده على

الشيخ الفاضل أحمد الحلواني شيخ قراء الشام ثم حفظ المتون في مبادي العلوم على والده العلامة الجليل المتفنن الشيخ حسن البيطار وكان يحضر دروسه الخصة والعامة ، ثم في أول رمضان سنة ١٣٠٧ توفي والده رحمه الله فقرأ على شقيقه الاكبر الشيخ محمد فقه أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وأخوه هذا كان أمين فتوى دمشق يوم كان مفتيها العلامة الشهير محمود أفندي حمزة ، وأخذ عن شقيقه الثاني العلامة الشيخ عبد الغني علم القراءات ثم لازم دروس العلامة المحقق الشيخ محمد الطنطاوي فأكمل عليه العلوم العربية والشرعية ، وتوسع في المعقول والمنقول وأخذ عنه علم الميقات والفلك والحساب ثم صحب العارف بالله تعالى الامير عبد القادر الجزائري فقرأ عليه جملة من كتب الحقائق وأعظمها الفتوحات المكية

صحبته للامير عبد القادر

لازم فقيدنا المرحوم الامير الملازمة التامة ، وأخذ عنه الفصل بالعدل في القضايا العامة ، ولقد كان يَرد على الامير قدس سره كثير من الخصومات بين الخلق ، ذ كان هو المرجع للناس في دمشق ، فكان يحولها اليه ، ويحيل أصحابها عليه ، فيكون قوله الفصل ، باجراء الحكم على سنة العدل ، ولقد استفاد المرحوم من أخلاق السيد وآدابه ، حتى عدّ ثاني الامير في حياته وعهد اليه بتربية أولاده وتعليمهم ، وكنت أسمع من أصدق أصدقاء المرحوم علامة الشام الثاني فقيد الاسلام شيخنا الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله أن أدب الاستاذ أدب الملوك قلت صدق رحمه الله ويعرف ذلك كل من جلس اليه وسمع حسن عبارته ورأى لطف اشارته

صدعه بالحق وتأثير أفكاره

كان عصر المرحوم الذي تلقى فيه دروسه الشرعية عصر جمود على القديم ؛ وتلقي الاقوال بالتسليم من دون تمحيص الصحيح من السقيم ، فاستمر فقيدنا على طريقة معاصريه متأثراً بها الى ما بعد الخمسين . ولقد سمعته في منزله يقول لعلامة العراق السيد محمود شكري الآلوسي لما كان نزيل دمشق سنة ١٣٣٣ وقد جاء ذكر أحد أئمة الاسلام العظام — كنا أيام التحصيل عند شيوخنا اذا ذكر مثل هذا الامام نظنه رجلا خارجا عن دائرة الاسلام ثم ألهمه الله تعالى الاخذ من الكتاب والسنة

وعدم قبول رأي أحد من دون حجة كما كان على ذلك سلف الامة ، وكما أوصى جميع لائمة رضي الله تعالى عنهم بعدم لاخذ بقولهم الا بعد معرفة دليلهم فصار يأخذ الاحكام بالدلائل ، ويقبل قول الحق من أي قائل ، ويصدع به ولا يخاف في الله لومة لائم ، فان كان العلم الصحيح أخذ المسائل بأدلتها — كما يقولون — فهو فهو في بلاد الشام من أول العلماء بلا شبهة ولا مراء ، لانه أول من أخذ بالدليل ، وجاهد في هذه السبيل ، ورفع فوق رؤوس أهل الحق راية السنة والتنزيل .

وكان رحمه الله تعالى فصيح اللهجة ، قوي الحجة ، غزير المادة ، وكان لدى مناظريه البطل المغوار والبحر الزخار ، لا يشق له غبار ، وما ناظره أحد الا واعترف له بالسبق في هذا المضمار ، وكان له مع صديقه المرحوم القاسمي مساجلات علمية ومحاورات أدبية ، تشف عن سعة علم وأدب جم

وكان له في المسائل الفرعية ، أساليب في الاقناع عجيبة ، فمنها ان بعضهم زعم مرة انه يجب القيام ، عند ذكر ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام ، — وجوبا بدعيا — تعظيما له صلى الله عليه وسلم وألف في ذلك رسالة ، وحملها للفقيد ليكتب له عليها تقريظا ، فاعتذر اليه ، فألح عليه ، وأخيراً قال له الاستاذ المرحوم : أنت مقصودك من هذه الرسالة انه اذا قيل ولد الرسول عليه الصلاة والسلام يجب القيام ؟ قال نعم ، قال والذي لا يقوم عند ذكر ولادته (ص) ؟ قال يكون آثما لانه ترك واجبا قال : أكلما قيل ولد الرسول (ص) يجب ذلك ؟ قال نعم . فعندئذ قال له الاستاذ : ها أنا ذا قد ذكرت لك ولادته (ص) ثلاث مرات فلم لم تقم ؟ فقال له لانه لا يوجد هنا الآن مولد ، فأجابه الاستاذ أداً قوم تعظيما لما اشتمل عليه المولد لا لمن ولد ! فخجل ولم يجب ، ثم أرشده الاستاذ الى ان تعظيم النبي (ص) الحقيقي باتباعه في أقواله وأعماله ونشر هدايته التي جاء بها عن ربه مشتملة على سعادة خلقه .

خلقه وخلقه

كان المرحوم طويل القامة جميل الطلعة والهيئة ، جليل الهيبة والوقار ، يكاد سنا برق جماله وجلاله يذهب بالابصار ، كلامه السحر الحلال ، وأدبه ألعب بالعقول من الغيث في الحقول ، أما رقة شمائله (رحمه الله تعالى) فلا أعلم له بها نظيرا في

العلماء الاعلام من بني الاسلام ، ولقد كان الاستاذ القاسمي رحمه الله مولعا بسمو أخلاقه ، ومعجبا بعظيم آدابه ، وزهيك بذوق الجمال الذي كان معدن اللطف والظرف . وقال لي مرة بعض الافاضل : ليت الاستاذ يكتب لنا رسالة في الاخلاق يستمليها من صفاته وآدابه فتكون أنفع ما كتب في هذا الفن . ولقد قلت مرة لاستاذنا القاسمي رحمه الله تعالى : اني قد عرفت كثيرا من العلماء وخالطتهم فلم أجد أكرم منكما (أي هو والاستاذ الجد رحمهما الله تعالى) عشرة ، ولا أرق عاطفة ، ولا أخف روحا ، ولا الطف حديثا ، مع ما رزقتما من سعة العلم والفضل ، فأنا لا أريد أن أفارق مجلسكما ولو الى النعيم ، ولا أمل حديثكما ولو استمر سنين . فقال لي: لهذا السر نحن لا نأنس بغيرنا كما نأنس ببعضنا ولا نسر اذا كنا منفردين . وقال لي مرة رب السيف والقلم الامير محي الدين باشا الجزائري نجل الامير عبد القادر (رحمهما الله تعالى) مامعناه : ان للمرحوم أدبا ممتازا وكلاما جذابا أكسبه ثقة الامراء ، ومحبة العظماء ، ونزل من نفوسهم منزلة رفيعة لا يدانيه فيها أحد من العلماء

وكان (رحمه الله تعالى) يراعي في مجلسه الطبقات ، ويعطي كل انسان نصيبه من الالتفات ، ومن عجيب أمره قدس الله روحه أنه كان يجلس اليه العالم والكاتب والشاعر والزارع والصانع والتاجر في مجلس واحد فيتبادل الافكار والآراء مع كل واحد منهم بعلمه ، ويفيده به الفوائد الجمة حتى يخرج الكل من عنده فرحين مسرورين

وكان (رحمه الله تعالى) واسع الصدر جداً ، كريما مضيافاً ، يغضب للحق ولا يغضب لنفسه أبداً ، وكان يتحمل من الناس فوق ما يتحمل ، ومن سعة صدره وشدة تحمله أنه مهما اشتد به الغضب لمسألة ما فلا يبدو شيء على أسارير وجهه

والحاصل انه ليس في وسعي أن أحيط بمكارم أخلاقه وحسبي أن أقول انه كان بها قدوة وكان مصداق قوله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)

صحبة عالم الشام له ، وثناؤه في درسه عليه ، وما كتبه عنه في حادثة سنة ٢٤

كان أشد الناس صحبة للمرحوم وملازمة له صديقه الابر الشيخ جمال الدين القاسمي فهو صاحبه ومريده العظيم الذي كان له معه أدب الولد البار مع أبيه ، قرأ عليه رسالة في الفلك وكان ينسخها دروساً بخطه ، ويكتب على هامشها تقرير الاستاذ

بنصه ، ولقد حضرت على المرحوم القاسمي مع تلاميذه دروسه في بيته وجامعه ومدرسته نحو ثلاث سنوات فندر جدا أن يمر يوم يذكر لنا فيه الاستاذ المرحوم الا ويقرر لنا فيه عظمته ، أو يطرفنا بنادرة مما اتفق له معه أو مع غيره ، واذا ذكره في الدرس فيذكره دائما بلفظ شيخنا ، وكان بعده عالم الشام ، وأذكر أنا كنا مرة نقرأ عليه في فن البيان (باب القصر) فقال في مثال قصر الصفة على الموصوف قصرا ادعائيا : لاعالم الا الشيخ عبد الرزاق البيطار : قال مع انه يوجد غيره ممن يسمون بالعلماء ولكن مع حشو وجود فلا يعتد بعلمهم

وأخبرني عم والدي المفضال شقيق المترجم سيدي الشيخ محمد سليم البيطار بأنهم لما كانوا في مصر سنة ٢١ كان مفتي الديار المصرية الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يجل الاستاذ المرحوم كثيرا ، ولا يتقدمه أبدا ، حتى ظن بعض أفاضل العلماء في مصر بأن الاستاذ الامام قد تلقى العلم عن المرحوم أيام كان في بلاد الشام

واليك ما كتب عنه لاستاذ القاسمي بخطه في حادثة سنة ٣٤ التي جرت للمترجم مع بعض العلماء ، بشأن قبور الانبياء والاولياء بتزوير بعض السفهاء قال : ان الشيخ عبد الرزاق البيطار ذاك العالم الجليل — ممن اشتهر بالانكار على أرباب الخرافات ، وممن يقاوم باسانه وبراهينه تلك الخزعبلات ، فانه ممن لاتأخذه في ابانة الحق لومة لائم ، ولا يصده عتب عاتب ولا قومة قائم ، وله صدق بالحق عجيب ، وعدم محاباة ومداراة ، وكل مايروى من حكايات المتمقرين فانه يزنه بميزان العقل فان أباه رده جهارا ، وقابل قائله بالصد انكارا ، وطالما صرح بالسخرية ممن ينادي من يعتقد فيه العامة من الاموات ، ويستشفع به في قضاء الحاجات ، ويعرفهم ماقاله السلف في هذا الباب من أنه أمر ما أذن الله به ، اذ أمر بدعائه وحده فدعاء غيره مما لايرضاه كما صرح به في غير آية من كريم الكتاب ، وقصده ترقية العامة عن نداء أحد الا الله ، وتعليق القلب الا بالخالق تبارك وتعالى . انتهى

صبره واحتسابه

مر على فقيدنا المرحوم — كما مر على فطاحل الرجال وأساطين العلم والحكمة قديما وحديثا — كثير من المصائب والفتن ، فكان بها مثال الصبر والثبات ، وانما كانت

تدار تلك التدابير السيئة بيد بعض المدلسين والمفسدين ، ومن لا خلاق لهم من الجامدين ، واليك بعضها : انهم بتأسيس مذهب جديد و بتسليم سورية لنجد ومصر للانكليز وذلك سنة ٢٤ وكان مما قاله لوالي سورية اذ ذاك [هو شكري باشا وكان رجلا عاقلا جدا] : هل سورية ومصر — يا حضرة الوالي — تفاحتان في جيبي حتى أسلمهما ؟ ثم ان كان في امكاني أن أتصرف بهما وأسلمهما لغيري فلم لا أبقيهما لنفسي ؟ ووراء ذلك فان كان يتيسر لمثلي تسليمهما فرجل أقدر مني يسلم البلاد العثمانية كلها للاجانب وأين الحكومة وقوتها ؟! فخجل الوالي وقال : أنا أعلم ان هذه وشايات وأراجيف لا أصل لها ولكني دعوتك عندي من أجل أن آنس بك وأفطر هذا المساء معك وكان ذلك في رمضان سنة ٢٤

وفتشت كتبه وداره مرات متوقعين أن يعثروا عنده على بعض أوراق سياسية أو مخابرات سرية فيسجنوه أو ينفوه ، ولكن طاش سهمهم فان الاستاذ (رح) لم يشتغل بالامور السياسية ، ولم تكن كتب العلم تنزل عن يده لا لحاجة ضرورية .

زهده في الوظائف ، و بعده عنها ، وخدمته للعلم

كان المرحوم بعيداً عن التربع في المناصب ، والاغترار بالمظهر الكاذب ، ولقد عرض عليه — اذ كان في الاستانة سنة ١٤ — من قبل المشيخة الاسلامية الافتاء أو القضاء في مدينة من أمهات المدن السورية ، فرفض كل وظيفة غير خدمة العلم الصحيح ونشره في طبقات الامة بالتعليم والارشاد والتصنيف ، ولكن بأثيره كما قال عالم الشام جمال الدين ، أكبر من أثره كحكيم الاسلام جمال الدين

وكان رحمه الله تعالى يلقي دروسه العامة في جامع كريم الدين الشهير بالدقاق في محلة الميدان ، ودروسه الخاصة في حجرته من ذلك الجامع وفي بيته أيضا ، وقد انتفع به كثير من الطلاب ، وحضرت عليه في دروسه العامة والخاصة طائفة من كتب التفسير والحديث والفقه ، عدا دروسي الخاصة التي كنت أقرأها عليه على انفراد و بعد أن وقع الانقلاب سنة ٢٦ وأصبحت الحكومة دستورية شورية ، ثم بويع السلطان محمد الخامس بعد خلع عبد الحميد — انتخبته دمشق مع بعض رجالها لمبايعة السلطان محمد ولتقديم واجبات التهاني والتبريك له فكتبت عنه في ذلك جرائد

العاصمة التركية ، مرددت صداه الجرائد العربية السورية، ثم ملأت هذه أعمدتها من آيات الشرف والافتخار، برجوع شيخ الديار الشامية الى الديار

تأليفه

أما تأليفه فبلغ نحو عشرة كتابا بعضها دقيق وأكثرها أدبي وأكبرها تاريخ في رجال القرن الثالث عشر ذكر فيه المشاهير وغيرهم، وكان أذن لي باختصاره وتأليفه الدينية منها المنة ، في العمل بالكتاب والسنة ، والمباحث الغرر في حكم الصور . والنامعة في لاقتداء حال التشهد من صلاة الجمعة ، وشرح العقيدة الاسلامية للعلامة محمود افندي حمزة مفتي دمشق

أما رسائله وفتاويه ومكاتيبه العلمية والادبية فتبلغ لو جمعت مئات الاوراق ونسأل المولى أن ييسر سبيل الجمع ، وتقديم الاهم منها للطبع ، بمنه وكرمه

نبذة من كلامه رحمه الله

نختم هذه الترجمة بايراد نبذة يسيرة من كلامه ليقف عليها القارئ على تبحره في الحديث ، وتمييزه الصحيح من الضعيف ، ونقده لكلام المؤلفين ، على عادة العلماء المحققين قال رضي الله عنه في « رسالته المباحث الغر » في حكم الصور » التي حررها في جواب سؤال ورد من أحد علماء الهند باختصار : ولا التفات لما نسب للفاضل أبي الوليد محمد بن عبد الكريم المعروف بالازرقي رحمه الله المتوفى — كما في كشف الظنون سنة ٢٢٧ من انه قال في تاريخه الموجود الآن في المكتبة العمومية في دمشق المحمية ، الذي ألفه في خصوص البيت الحرام فقال في مناسبة بناء قريش الكعبة ما نصه — مع بعض اختصار وتصرف :

وجعلوا في دعائمها صور الانبياء وصور الاشجار وصور الملائكة فكان منها صورة ابراهيم خليل الرحمن شيخا يستقسم بالازلام وصورة عيسى بن مريم وأمه ، فلما كان يوم الفتح دخل رسول الله (ص) البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء من زمزم ثم أمر بثوب فبل بالماء ، وأمر بطمس تلك صور فطمست ، قال ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه وقال امحوا جميع الصور الا ما تحت يدي ورفع يديه عن عيسى وأمه ، ونظر الى صورة ابراهيم عليه السلام

فقال قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالازلام ما لابراهيم والازلام . انتهى

ثم ساق الازرقي هذه القصة بأسانيد عديدة مضطربة المتن ، ولذلك قال الاستاذ رحمه الله : أقول هذا الحديث الذي ذكره بصور متعددة والفاظ متقاربة من أمر النبي (ص) بمحو الصور الا ما كان من صورة عيسى ومريم لم يذكره أحد من المحدثين ولا من المفسرين ولا من أهل السير ولا ممن ألفوا المؤلفات في تاريخ بيت الله الحرام أو غيره لا ممن كان قبله ولا ممن عاصره ، ولا ممن كان بعده (الى أن قال) فان عامة أهل الشرع من الفقهاء والمحدثين على خلاف ذلك ، ولو كان ذلك له أصل لوجب عليهم استثناء صورة مريم وعيسى من عموم التحريم ، لان الاطلاق في مقام التقييد خطأ كالعكس (ثم قال) ويلزم على تسليمه ان النبي (ص) قد تناقض كلامه ، واختلفت في هذه المسألة أحكامه ، فتارة يعمم الامر في محو الصور ، وتارة يستثني عيسى وأمه بمقتضى هذا الخبر ، وتارة يقتضي انه ما دخل حتى محيت الصور كلها ، وتارة أنه دخل قبل محو شيء منها ، مع أن هذا الامر بعيد جدا بل باطل ، لا يعول عليه الا قاصر او جاهل ، فلم يبق الا أن ذلك مدسوس عليه ، ومنسوب كذبا وزورا وبهتانا اليه ، وقد تجاسر كثير من الناس من قديم وحديث ، على ذكر جمل من الكلام وسموها بالحديث ، وأدخلوها في عبارة الكتب وظنوا انها فضيلة مع انها وان كانت في الترغيب والترهيب رذيلة وأي رذيلة ، وكذلك دسوا بعض عبارات ، على كثير من الافاضل والسادات ، فحينئذ لا يلتفت الى هذه العبارة التي دسها في كلامه بعض أهل الغواية ، ممن له بها حاجة وغاية ، ولم يخش من الكذب على النبي المختار ، ولا أفزعه قوله (ص) « من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وظن انه يروج المحال وانه ليس في السويداء رجال ، مع ان الشريعة محفوظة ، وبعين العناية ملحوظة ، فما أدخل قائل قولا باطلا الا ورد عليه ، ولا دس بها جاهل منكرا الا وسهام التكذيب قد توجهت اليه ، وكل ما أجاب به بعض الناس عنها مع تسليم نسبتها لهذا الامام ، فانه يريد النقض لا الابرام ، ومن كان عنده جواب لائق مولا ذكره أهل الشرع موافق ، فليتكرم بالحاقة في هذا المكان ، ومولاه يعامله بجزيل الفضل والاحسان إه ؟ (دمشق) [الحفيد] محمد بهجة البيطار

الشيخ محمد كامل الرافعي

٣

حبه للمنار وايذاؤه فيه

قلنا ان المودة بيننا و بين الفقيد كانت موروثة ثم قويت بما كان بيننا من المشاكلة في حب العلم والتصوف ثم ازدادت قوة بتصدينا للامر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم بالدعوة الى الاصلاح الديني والاجتماعي في طرابلس الشام ، حيث كان رحمه الله وأحسن مثوبته أقوى المدافعين والانصار، فلما أنشأنا المنار وتصدت الحكومة الحميدية لمقاومته وايذاء قرائه بدسائس بعض المقربين من السلطان كان هو أقوى الثابتين على الانتصار له والمجاهرين بولاء صاحبه

منعت الحكومة الحميدية إدخال المنار الى ممالكها منذ سنته الاولى بارادة سلطانية فكان يرسل في البرد الاجنبية ويقرأه الناس في زوايا بيوتهم سرا منفردين ثم يخفون نسخه في المخابئ ، وكان هو وحده يقرأه على من يسمر معه في حجرة الضيوف والسمار و يحمله في جيبه الى دار الحكومة و يضعه في درج مكتبه لينظر فيه عند سنوح فرصة فترات العمل ، فلما اشتد الضغط والايذاء لقرائه وفتشت بيوت المتهمين بقراءته كان نصيبه من الجزاء ان حبس في دار الحكومة مع بعض اخواننا فصبر على هذه المحنة صبر الكرام ولم يدهن الحكومة الظالمة بقول ولا فعل

وقد سيم قبل ذلك أن يرد على المنار أو ينكر على صاحبه مسلكه في شرح خرافات أهل الطرق ومفاسد الظلمه وتقصير العلماء فيما يجب عليهم من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فأبى مصرحا بأن هـذا الذي يقوله المنار هو الحق وانه أدى به النصيحة التي هي روح الدين وقوامه ، وأوعز بمثل هذا الرد الى كثيرين ممن يرون رأيه في المنار وصاحبه ومنهم من يدعي صحبته ومودته فسمعوا وأطاعوا وكانت جريدة طرابلس ميدانا واسعا لجولان أقلامهم ، وكل منهم يعتذر لمثل الفقيد من اخواننا الصادقين بأنه مكره لا مختار ، يخشى إيذاء رئيس زبانية الجلاوزة وغضب المتصرف ، فان أمن شرهما في نفسه وماله وشرفه لمكانة له في بلده فلا يأمن شر المحرك لهما من

ضفاف البسفور ، ومنهم من زعم أنما كتب عن لسانه في تلك الجريدة كذب وانه لايجرأ على التكذيب

وكان في جميع الاوقات والاحوال راضيا عن جميع مباحث المنار وارائه الدينية والادبية والاجتماعية والسياسية مؤيداً له فيها مناضلا كل مايسمعه من نقد أو اعتراض عليها ، وكان يرجح ما يحققه المنار من قواعد العقائد ومشكلات الفقه ومسائل التصوف على جميع ماخالفه من أقوال المتقدمين والمتأخرين وان عظمت شهرتهم وضخمت ألقابهم

ولما جئت طرابلس عقب اعلان الدستور العثماني بذل منتهى طاقته واجتهاده في الحفاوة بي ، وكانت مدة اقامتي في داره أضعاف مدة اقامتي في دار أمي وأبي ، وكان يتفنن لي كل يوم باختيار أطايب الطعام وأنواع الحلوى وأصناف الفاكهة ، لتجديد الرغبة فيها ، واثارة الشهوة لها ، وأمن الملل من المتكرر منها ، وكان فوق ذلك كله يغتنم فرص خلو المكان من الزائرين — وقلما كان يتفق ذلك الا عند المنام و بعد صلاة الفجر — فيطرح علي مشكلات المسائل العلمية التي تعرض له في مطالعته لأشهر الكتب وغير ذلك مما يفكر فيه من الامور السياسية تارة والروحية أخرى

انني لم أعرف أحدا من الناس أشد من هذا الرجل حرصا على العلم وحبا للحق واخلاصا في القلب وصفاء في النفس وبعدا عن الهوى و بغضا للدعوى وسلامة من الشكوى فهو على مخالته إياي ومكاشفته لي بكل مايجول في ذهنه ويعلق بقلبه لم أره في يوم من الايام شكا الي بغض أحد له أو بغضه لاحد الا ماكان يؤلمه من غفلة الناس واعراضهم عن الحق وعدم قبولهم دعوة الاصلاح حبا فيهم وحرصا على هدايتهم ، فمن كان متحليا بهذه الصفات لايستغرب منه الرغبة الخالصة في الاستفادة من كل من يراه أهلا للافادة العامة أو الخاصة وان كان يفضله في كل ماعدا مايستفيده منه ، فكيف يكثر منه طلب الفائدة بمنتهى الصفاء والاخلاص ممن غرس في قلبه حسن الاعتقاد فيه من أول نشأته ولم يزل ذلك الغرس ينمي ويترعرع حتى صار شجرة عظيمة ثابتة الاصل سامية الفرع يانعة الثمر الذي هو أحب الثمار اليه وان كرهه من يخالفه في ذوقه ولم يتح له مثل اعتقاده ؟

كتبت هذا وأنا في خجل من كتابته حتى كاد يصدني عنه وما كان أشد تريثي في المضي فيه ولولا النية الصالحة في كتابته لما غلبت خجلي بقوة الارادة التي يغلب بها الرجل كل ما يعارض فيه الشعور النفسي والمصلحة الراجحة ، وانني لأشد خجلا من هذا شيء آخر يتعلق بترجمة هذا الرجل الكامل مما يقتضيه تاريخ الاصلاح ورجاله [illegible] مثل من مكتوباته لي وسأراجع طائفة منها ثم أرى هل يمنعني الخجل مما فيها من الاطراء عن نشرها أم لا

وجملة القول في الفقيد انه لا يختلف [illegible] ممن يعرفه في أنه أفضل أسوة في الخير وأكمل مثال في هذا العصر للفضيلة ، فهو من شهداء الحق على الخلق ، وقد حدث بفقده فراغ لا يملأه أوف الرجال ، فنسأله تعالى أن يحشرنا واياه مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقا

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

أصل العالم

مباحث فلسفية في الجغرافية الطبيعية صفحاته ٣٥ صفحة بالقطع المتوسط. طبع في مطبعة الفنون الجميلة سنة ١٩١٦ على نفقة ادارة مجلة الرشديات على ورق كورق الصحف السيارة

اسم الكتاب يدل على موضوعه وعلو كعب مؤلفه الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهري في الابحاث الفلسفية ينوه بمكانه ، وسبب تأليفه أن الشيخ عبد العظيم فهمي الضرير الطالب بالجامع الاحمدي سأل المؤلف أسئلة كانت لديه مشكلة وذلك بعد أن قرأ شيئاً من مؤلفات الاستاذ الجوهري فأجابه بما أدى الى مباحث: (١) كروية الارض (٢) ما وراء الطبيعة (٣) تكوين العالم (٤) مخاطبة لطالب العلم وفيها حال الانسان الاولى (٥) حالة الثانية (٦) الحالة الثالثة. وكلها في أصل الموجودات

*) كتب تقاريظ هذا الجزء شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

الولاء، في نقد ذكرى أبي العلاء

صفحاته ٧١ طبع في مطبعة المعاهد بمصر سنة ١٣٣٥ هـ طبعاً متقناً على ورق جيد

وضعه الكاتب المحقق حسن افندي حسين انتقداً على كتاب ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين . وذكر في المقدمة لاسباب التي حدت به الى وضع هذا الكتاب فقال: ان منها « ان الكتاب (ذكرى أبي العلاء) خاص في موضوعه وأن الدكتور هو الذي عني باخراجه ودعا الجمهور لمناقشته ، وأعلن انه على استعداد للذود عن أثره » الخ وقد قسم النقد لى قسمين : نقد من حيث الموضوع . ونقد من حيث اللغة . ومع التزام النزاهة قال في الخاتمة : « قد استعرنا من تعبيرات الشيخ طه أكرمها فخاطبناه باللسان الذي كان يخاطب بها المفضل وجعلنا هذه الجمل بين هاتين العلامتين (— . و — .) لنحفظ له حقه في ذلك ونعلم القارئ أنا آدب من أن نستعين بالسباب ولكن بضاعة الشيخ طه ردت اليه » والكتاب ثمين غني بمباحثه على قصره جدير بمن اطلع على كتاب ذكرى أبي العلاء أن يطلع عليه بل ومن لم يطلع على ذلك الكتاب أن يقرأه . ويطلب من ناشره حسين فندي مصطفى شارع شوار بي باشا رقم ٣ بالقاهرة ومن المكاتب الشهيرة بمصر

تاريخ الاتراك العثمانيين

الاول والثاني والثالث طبع بمطبعة الواعظ بمصر سنة ١٣٣٥ صفحات الاول ٧٠ والثاني ١٤٤ والثالث ٨٠

هذا الكتاب مجموعة محاضرات حسين أفندي لبيب استاذ التاريخ بمدرسة القضاء الشرعي بمصر نقله عن الانكليزية ونكتفي من تقريظه بايراد مقدمته وهي باختصار

« وبعد فهذه أبحاث مستفيضة في تاريخ الاتراك العثمانيين استخرجناها من أمهات تواريخ الاوربيين وعمدة مؤلفات المستشرقين مما لم يتيسر نشره قبل الآن بين جمهور المتعلمين وقد عجلنا بطبعها هذه الطبعة المؤقتة استنجازاً لفائدة الطلاب والمدرسين حتى اذا وضعت الحرب أوزارها أعدنا طبعها على أسلوب جميل وورق نبيل بحرف صقيل ثم زدناها بالتعليقات والشروح فائدة وأضفنا اليها ما يكون قد توفر

لدينا من الفصول الشيقة والموضوعات الممتعة وحليناها بالصور وزدناها من الخرط

ويرى المطالع على هذه الفصول اننا عنينا بنقل وصف حضارة العثمانيين ولم نقصر البحث على تراجم السلاطين وذكرنا من أحوال عامتهم في السلم بقدر ما عنينا بشرح عمل خاصتهم في السياسة والحرب بحيث يجمع هذا الكتاب بين دفتيه صورة كاملة لنشأة الامة العثمانية ونموها وتدرجها في سبيل الارتقاء ثم سقوطها

وقد جعلنا عملنا هذا في ثلاثة أجزاء قصرنا الاول والثاني منها على التاريخ السياسي والاجتماعي الى القرن التاسع عشر الميلادي وجعلنا الجزء الثالث وقفا على تاريخ اللغة التركية وآدابها وشعرائها ووصف الحكومة العثمانية في سائر أدوارها ومدينة القسطنطينية والسراي السلطانية في غابر عزها وسالف مجدها ثم أردفنا ذلك بوصف ما طرأ على العثمانيين في الاعصار الحديثة من الانقلابات الدستورية والتطورات الادبية والسياسية مما أدى بهم الى ألم حوادث الايام الحالية

هذا ما كنا قصدنا أن لا نستقل برأي ولم نختر الميل الى جانب بل كنا وسطاء صدق وسفراء حق بين مؤلفي الكتب الاوربية وقراء اللغة الشريفة العربية »

الآباء والبنون — : قصة تمثيلية ذات أربعة فصول صفحاتها ١١٥ بالقطع الكبير طبعتها شركة الفنون في نيويورك سنة ١٩١٧

هذه الرواية جديرة بالاحتذاء ان لم نقل بالاقتداء لانها مثلت حالة من حالاتنا عادة راسخة فيها وهي من وضع مخايل فتدي نعمه مؤلف البرج وضح فيها كيف يتطرق الى البيوت الفساد من حيث يراد الاصلاح وقد أودع في كثير من فصولها الحكم والجمل العامية التي تكون تمثيلا حقيقيا وتصويرا شبيها بالاخلاق والعادات ، وانني أحب أن أسبق الى المؤلف بكلمة ، وهي ان تحكم كثير الروايات والقصص باللغة الفصحى أو الفصيحة القريبة من لغة العامة — ذلك ان معظم كلام العامة فصيح خصوصا في بلادنا السورية — بين العموم يقوم من لغة العامة ويقربها من الفصيح ويسهل فهم ما يلقى اليها من المواضيع المتنوعة . فاننا كثيرا ما نسمع الاطفال في مصر والشام يتغنون بما يسمعونه في المراسح فاهمين ما يقولون . ولان نرفع العامية الى مستوى

الفصحى خير من ان تنزل بالفصحى الى حضيض العامية ، وأرجو منه ان يعيد الكرة على ذنب الساق على الساق للنا غة أحمد فارس الشدياق

تاريخ الفلسفة — في المنطق وما بعد الطبيعة طبع الطبعة الاولى بالمطبعة المصرية سنة ١٩١٨ على ورق جيد صفحاته ٢٢٨ بقطع المنار وحرف (بنط ٢٠)

وضعه بالانكليزية صديقنا محمد بك بدر العضو بالمجمع العلمي بادنبرج ومحرر دائرة المعارف الاسلامية بليدن ، الحائز شهادة الشرف من الدرجة الاولى في الفلسفة العامة والفلسفة الاسلامية وتاريخ المذاهب الفلسفية وتاريخ العرب في الاندلس والتاريخ السياسي للاسلام وتاريخ الآداب الاسلامية من جامعة بن بألمانية وكاتم أسرار لجنة الوفد المصري . ونقله الى العربية حسن افندي حسين وصدره بمقدمة له . ثمنه خمسون قرشا ويطلب من مكتبة المنار بمصر

ديوان عبدالله ابن الدمينة طبع في مطبعة المنار سنة ١٣٣٧ طبعا جيدا صفحاته ٥٩ بقطع المنار وحرفه معارض الحواشي بشرح كثير من الكلم اللغوية مصححا على النسخة الشنقيطية

أبرز هذا الديوان من ثنايا الكتب المدفونة ، وأطلعه من أصداف الجواهر المكنونة كل من صديقنا السيد محمد الهاشمي البغدادي وولدنا محيي الدين رضا فخدما بذلك الادب والتاريخ ، لان من حاجة المتأدب أن يطلع على شعر عبدالله ابن الدمينة الذي نظمه في زهو اللغة العربية وابان المدنية الاسلامية لا سيما وان شعره يكاد يكون في موضوع واحد هو الغزل أو النسيب ، ومن بغية وعاة تاريخ آداب اللغة العربية ان يقرأوا هذا الديوان ليتجلى لهم تطور اللغة وابروا عيث الوراقين وعبث القصاصين ببنات قرنح الادباء الاولين ؛ فان من يطلع على قصة [مجنون ليلى] وعلى هذا الديوان يرى ان كثيرا من غرر أبياته قد نسب الى ذلك المجنون فمن ذلك قوله في القصيدة الاولى [ابين الحب]

أحقا عباد الله ان لست صادرا ولا واردا الا علي رقيب

وقوله منها

وهل ريبة في ان نحن نجيبة الى إلفها أو ان نحن نجيب

وقوله منها

واني لا أستحييك حتى كأنما علي بظاهر الغيب منك رقيب

الى غير ذلك مما يطول ايراده . فهل تواردت هذه المعاني على خاطري ابن الدمينة . والمجنون العامري ؟ أم لا مجنون بخصوصه بل مجانين الحب كثير في كل عصر وقبيل . ومنهم ابن الدمينة ؟ ومما ينسب الى ليلى في قصة المجنون قول اميمة في هذا الديوان أثناء عتاب وحوار قولها

وأنت الذي أخلفتني وعدتني وأشمت بي من كان فيك يلوم
وأبرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضا أرمى وأنت سليم
فلو ان قولا يكلم الجسم قد بدا بجسمي من قول الوشاة كلوم

والديوان يطلب من مكتبة المنار وثمنه ٥ قروش والبريد قرش

المواكب نظرات شاعر ومصور في الايام والليالي، طبع في مطبعة «مرآة الغرب» في نيويورك سنة ١٩١٩ طبعاً جيداً على ورق في غاية الجودة صفحاته ٤٨

الكتاب من مؤلفات جبران خليل جبران الشاعر الخيالي المطبوع والمصور البارع الشهير، وهو قصيدة أبياتها ٨١ بيتاً من البسيط يقابل كل قطعة في الوضع ستة أبيات من قصيدة من مجزوء الرمل لكل أربعة أبيات منها قافية وللبيتان اللذان يليان الاربعة قافية أخرى وفصل بينهما بصورة متقنة ترمز الى الموضوع في ثنتي عشرة من هذه المواكب التي هي سبعة عشرة محاورة . قد ختم القصيدة الثانية بعشرين بيتا جعلها خاتمة لها لكل بيتان منها قافية

ثم ان القصيدة الاولى تنطق بلسان واعظ محنك قد خبر الايام وعجم عود الزمان وحلب الدهر أشطره وكاف بصرف الدهر فقام يعظ بما ينفثه من الحكم مبيناً أسرار الحياة . والقصيدة الثانية هي ردنا شئ في ريعان الشباب ألف المعيشة الخلوية في غاب الحياة (الطبيعة) حيث السذاجة والهدوء مصطحبا الناي داعيا الى هجر ضوضاء المجتمع والخلود الى عيشته الراضية الهادئة البعيدة عن مفاسد المدنية وأضاليل السياسة وخرافات المذاهب وبدعها . وهاك أنموذجاً منها قال الشيخ الفيلسوف — المحاورة أو القطعة الرابعة عشرة صفحة ٤٠ في الروح :

وغاية الروح طي الروح قد خفيت فلا المظاهر تبديها ولا الصور

فذا يقول هي الارواح ان بلغت حد الكمال تلاشت وانقضى الخبر
كأنما هي أثمار اذ نضجت ومرت الريح يوما عافها الشجر
وذا يقول هي الاجسام ان هجعت لم يبق في الروح تهويم ولا سمر
كأنما هي ظل في الغدير اذا تعكر الماء ولت وامحى الاثر
ضل الجميع فلا الذات في جسد تثوى ولا هي في الارواح تختضر
فما طوت شمأل أذيال عاقلة لا ومرّ بها الشرقي فتنتشر

وقد وضع نسيب عريضة الكاتب المتفنن مقدمة لهذا المؤلف كانت كالمفتاح لمقاصد الشاعر جبران خليل جبران . وما كل من قدم مقدمة كالنسيب وما كل كتاب كالمواكب . فاذا قلت ان جبران خليل جبران هو معري هذا الزمان فأرجو أن لا أكون مجازفا

الساق على الساق في ما هو الفارياق

أو أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والاعجام صفحاته ٤٢٢ بالقطع الوسط خلا الخاتمة وجدول بيان المترادف والمتجانس وذنب الكتاب واهداؤه ، طبع ثانية في مطبعة رعمسيس بمصر على ورق أبيض جيد وورق عادي سنة ١٩١٩

هذا الكتاب من أشهر مؤلفات النابغة العلامة اللغوي أحمد فارس وقد صدره بهذين البيتين :

تأليف زيد وهند في زمانك ذا أشهى الى الناس من تأليف سفرين
ودرس ثورين قد شدا الى قرن أقنى وأنفع من تدريس حبرين

وكان قد طبع في باريس سنة ١٢٧٠ هـ وجعل الفهرس في أوله ثم صورة اهداء الكتاب ثم تنبيه من المؤلف قال فيه بعد الحمدلة « وبعد فان جميع ما أودعته في هذا الكتاب فانما هو مبني على أمرين أحدهما ايراد غرائب اللغة ونوادرها » الخ . « والامر الثاني ذكر محاسن النساء ومذامهن الخ » وفي هذا يقول في الفاتحة :

غيري من الوصاف في ذا صنفوا لكنهم لم يحسنوا التصنيفا
اذ كان ما قالوه مبتذلا ولم يتقص منهم واصف موصوفا

لكن كتابي أو أنا بخلاف ذا نكفي الحفي الجد والتعريفا
لا عيب فينا غير انك ترى صنوا لنا في فننا وحريفا

ثم مقدمة مفيدة لناشر الكتاب را فائيل كحلا [1] ثم فاتحة الكتاب فالكتاب الاول الى الرابع . ثم بيان ما في الكتاب من الالفاظ المترادفة والمتجانسة وهو جدول مفيد للكاتب والحاسب والطبيب والاجتماعي والمؤلف والمترجم أو هو زبدة ما يبغي اللغوي والاديب من هذا الكتاب . ثم « ذنب الكتاب » يتنظم فيه أغلاط مدرسي اللغة العربية في باريس . وكنت أود أن أثبت هنا مقدمة ناشره الاول واعذاراً لمؤلفه وناشره وطابعه وورثته ولكن منع من ذلك ضيق المقام أو المكان

نفدت الطبعة الاولى ولكن بعد نيف وستين سنة من طبعه ، واشتد الطلب عليه ولكن عز المطلب فأقدم على طبعه يوسف أفندي توما البستاني وجعل أوله فاتحة المؤلف وحذف مقدمة ناشره وما عدا ذلك وضعه بعد « الذنب » واذا كانت الطبعة الاولى لم تخل من أغلاط مطبعية مع انها طبعت تحت اشراف المصنف وقد جعل لاكثرها جدول خطإ وصواب وبقي البعض منها مثل ما في الصفحة الثانية والسطر الثالث في الذنب من غلطة في آية كريمة وهي خطأ (قل ينسفها) وصوابها (فقل ينسفها) وتابعته الطبعة الثانية عليها وهي في الصفحة الاولى والسطر ١٦ منها وكذلك كلمة « مبتهج » في ص ٣٥ س ١٨ وصوابها « مبتهج »

وترى في الطبعة الثانية شيئا من هذا مثل ما في ص ٥ س ٨ اجازك والصواب اجارك وص ٤ س ٦ « الوفا » وصوابها « الفوفا » وص ٢٩ س ٢٣ « اليا » وصوابها « اليه » وص ٢٦٣ س ١٦ « يعمرون » وصوابها « يعمرن » مما لا يكاد يخلو منه كتاب

ويحق لقراء العربية شكر ناشر هذا الكتاب بعد طبه فانه من أمتع الكتب العربية وأفيدها وأمتعها وأثبتها الكثير من عادات الشرقيين والاوربيين في مساكنهم ومجالسهم ومدارسهم ومعابدهم وصلواتهم وخلواتهم وجلواتهم وهواجسهم ومجالسهم وقد انحى على الاكليروس باللائمة وخصوصا الماروني منه

(١) قد حذفت هذه المقدمة من الطبعة الثانية ليوسف توما البستاني وليته أثبتها لما فيها من الفائدة

وسلقهم بلسان من حديد وانقم لاخيه المعلم أسعد الشدياق ثم صار منتقدا مطلقا قصصيا مؤرخا ولم يدع سيدته الفصاء من لذعات قلمه . والحاصل أن المؤلف لم يكن يجهل ان زمنه كان مما يصعب فيه نشر الكتاب ولذلك قال في فاتحته — :

وحياة رأسك ان رأسي عالم ... اني به لن أستفيد رغيفا
لكن قرني حكة هاجت على ... اني أحاول مرة تأليفا
فصلته لكن على عقلي فما ... مقياس عقلك كان لي معروفا
ماراج من قولي فخذه وما تجد ... من زائف فاتركه لي ملفوفا
لاترفسن ماسر منه لاجل ما ... قد ساء بل لا توله تأفيفا
حاشاك أن تقضي عليّ تهافتا ... من قبل ان تتحقق التوقيفا
فتقول قد كفر المصنف فاحشدوا ... ياقوم صاحبكم أتى بجديفا
فتهيج أرباب الكنائس هيجة ... شؤمى فيخترطوا عليه سيوفا

ولكن الزمن قد تحول وتغيرت الافكار وكثير من يرغب بهذا المؤلف النفيس حتى من أرباب الكنائس وقام من الطائفة لمرونيه من طبعه وعني بنشره . وثمن النسخة منه ٦٠ قرشا من الورق العادي و٨٠ قرشا من الورق الجيد وأجرة البريد خمسة قروش ويطلب من مكتبة العرب ومكتبة المنار بمصر

تقرير لجنة التعليم الاولى ومشروع القانون المختص بتسهيل وسائل التعليم . طبع بالمطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩١٩ صفحاته ١٢٩ بالقطع المتوسط فيه ١٣٠ فقرة تم مواد القانون ثمانية وعشرون مادة مصدر بتقرير وزير المعارف بتشكيل اللجنة

وضعت هذا التقرير لجنة مؤلفة من أصحاب السعادة : اسماعيل حسنين باشا رئيس ، والاعضاء : علي جمال الدين باشا مدير الشرقية . ومحمد علام باشا مدير أسيوط . والمستر باترسن مدير عموم الحسابات المصرية بوزارة المالية . والدكتور بتس مدير قلم البلديات والمجالس المحلية بوزارة الداخلية ، والمستر مكلين كبير مهندسي قسم البلديات والمجالس المحلية بوزارة الداخلية والمستر بروان مراقب القسم الاداري بوزارة المعارف ومحمد علي المغربي بك مراقب التعليم الاولي بوزارة المعارف ومحمد عاطف بركات بك ناظر مدرسة القضاء الشرعي والمستر رب مساعد مراقب

التعليم الاولي بوزارة المعارف. وحسين كامل بك مدير قسم الادارة بوزارة الداخلية والشيخ محمد شريف سليم ناظر مدرسة المعلمين الناصرية

أصدرت وزارة المعارف هذا التقرير وقد تناولته أقلام الكتاب وأوسعته انتقادا وأوسع ما كتب فيه أو عليه ما كتبه عبد الله أمين أفندي ناظر مدرسة لمعلمين الاولية بمديرية الجيزه وتقرير لجنة مشيخة الازهر ونحن نثبت هذا الاخير في الاجزاء الآتية من المنار مشيرين الى بعض الفقرات أو المواد المستشهد بها فيه بالهامش

ديوان المصرى : الجزء الثالث صفحاته ١٠٤ طبع بمطبعة المعارف بمصر سنة ١٣٣٦ طبعا نظيفا على ورق جيد

هذا الديوان من نظم الشاعر الشهير المبرز صاحب البكرية وشاعر الاسرة السلطانية عبد الحليم المصري وقد جعل ديوانه هذا هدية لى سلطان مصر ووضع رسمه عليه . و كتب في صدره « من لم يقرأ الاول والثاني فليستغن بهذا عنهما ، ومن قرأهما فقد سار مع الشعر من مهده الى شبابه » وصدره بهذه المقدمة

« هذا ثالث أجزاء ديواني (أول شعري) سيقرأه أحد رجلين رجل يقول : أحسن ، فقل له ان عاش سيزيد ورجل يقول: أساء ، فقل له ان عاش سيحسن والسلام »

وثمن الديوان ٢٠ قرشا صحيحا و يطلب من مكتبة المنار بمصر

فتاة الشرق : صدر الجزء الاول من السنة الرابعة عشره من هذه المجلة المعروفة بمواضيعها المفيدة فنحث على مطالعتها

من وراء خطوط النار : الى أبناء سوريا الاحرار

رسالة بقلم بعض متطوعي الجيش الفرنسي الشرقي يدعو فيها السوريين في المهجر وفي كل أرض الى المساعدة والتعاون على استقلال سورية . طبعت في مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩١٨

فن التاليف الحديث : صفحاته ٧٩ بالقطع الصغير طبع بمطبعة المحيط بمصر سنة ١٩١٨ على ورق كورق الصحف السيارة

هذا الكتاب أشبه بفهرس أو مقدمة للفن منه بمؤلف حاكى فيه واضعه (ن فريد المصري) الاوربيين ولا يخلو من فوائد جمة لمطالعه خصوصا ذ كان من المبتدئين أو من مقادة الجامدين على أساطير الاولين . وثمنه خمسة قروش

مجموعة أدب وطرب : أو قصيدة « ياليل الصب » لابي الحسن الحصري ومعارضاتها صفحة ١٦٠ بالقطع الصغير وقد طبعت بمطبعة المنار سنة ١٣٣٨

عني بجمع هذه القصائد ولدنا محيي الدين رضا وصدرها بمقدمة من قلم جبران افندي خليل جبران ولم يذكر في هذه المجموعة كل معارضات هذه القصيدة بل اختصر على ما وصل اليه من معارضات أدباء مصر وسورية وهم شوقي بك وصبري باشا وولي الدين بك يكن والامير نسيب أرسلان ونخله افندي العلوي فحوت هذه المجموعة الصغيرة من أطيب الشعر وأرقه وألطفه وزانتها البلاغة وحلتها الفصاحة لذلك صادفت اعجاب الجمهور ونالت استحسان الصحف والمجلات وكبار الادباء وهي تباع في مكتبة المنار وثمنها عشرة مليمات

تصحيح أغلاط أخرى في الجزء الخامس من المجلد ٢١

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٤٥	٢١	الحجا	الحجاز
٢٤٩	«	دولتها	دولها
٢٥٠	١٤	وأبدت	وأيدت
٢٥٢	٩	أولاد	أولاء
٢٥٣	٧	المردكية	المزدكية
«	٤	أم هل هي	أم هي
٢٥٤	٥	عجزوا	فعجزوا
«	«	يسموها	يسموهما
«	«	اسمه	اسمهما
«	٧	ولا للمسلمين	ولا يجوز للمسلمين
٢٥٤	٥	ولكن ليس	ولكن هذا ليس
«	١٠	وكلمتهم	وظلم
٢٥٥	٣	اقطاب	اقطار
«	٢٤	لملاقت	لملاقاة
٢٥٩	١٥	البجيك	البلجيك
٢٦٨	١٣	بازخ	باذخ
٢٧٥	٥	الغلمية	العليمة
«	٩	والعلمية	والعليمة
٢٧٦	٩	الدولة	الدولة المحتلة
٢٧٨	٢١	تعريفا	تعريضا

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار ١٣١٥

يوشك المكنة من بناء ومن يؤت المكنة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

٣٠ رجب ١٣٣٨ — ٢٩ (الحمل) (را) ١٢٩٨هـ ش ١٩٤ ابريل ١٩٢٠

عاقبة حرب المدنية

الاوربية

كتبنا في أثناء هذه الحرب مقالات بينا فيها أسبابها وعللها وحكمة الخالق فيها وفظائعها وشرورها والمقابلة بينها وبين الحروب الاسلامية التي امتازت بالرحمة وبجعل الحرب ضرورة تقدر بقدرها وبتحريم القسوة والفظائع فيها ، والمقابلة والمقارنة بين الدول المتحاربة في الاستعداد والمزايا ، وصرحنا فيها بان عاقبتها ستكون انفراد احدى الدولتين الرئيستين في الحلفين الكبيرين الجرماني والانكليزي — وهما المانية وانكلترة — بالسيادة والعظمة في العالم وفاقا لقول الفيلسوف هربرت سبنسر الشهير الاستاذ لامام : ان ضعف الفضيلة وتغلب الافكار المادية في اوربة سيدفعان دولها الى حرب عامة طاحنة ليعلم اليها الاقوى ليسود العالم

ومما بيناه في بعض تلك المقالات ان المانية أتقنت الاستعداد للحرب اتقانا يمكنها من محاربة أوربة كلها وانها فاقت جميع الدول في السلاح والنظام وان أعداءها يفوقونها بالكثرة التي تعد من أعظم أسباب الغلبة كما قال الشاعر العربي

ولست بالاكثر منهم حصاة وانما العزة للكاثر

وقد كان من أمر هذه المكاثرة ان انكلترة ألبت على المانية أكثر دول الارض في الشرق والغرب من العالمين القديم والجديد ، وانما كان ذلك بعلو كعبها على الالمان وغيرهم في الدهاء السياسي الذي هو أدق علوم البشر وأصعب أعمالهم مركبا وأوعرها مسلكا، وقد قلت مرة لصاحب لي من الالمان المستشرقين كان يحاورني وأحاوره في المقارنة بين قومه وبين الانكليز وما بينهما من المناظرات : انني مقتنع بانكم فقتم الانكليز في جميع العلوم والفنون والاعمال حتى التجارة الا ماهو أهم من ذلك كله وأعظم - وهو السياسة - فانني أرى ان الانكليز يفوقونكم فيها - فقال صدقت

وقد ذكرتني هذه الكلمة التي قلتها منذ بضع سنين بكلمة في معناها قلتها منذ بضع عشرة سنة في مجلس بدار أحد أصدقائنا بمصر مات من حاضر به لطيف باشا سليم وحسن باشا عاصم وجرجي بك زيدان وبقي صاحب الدار وأحد الباشوات قال صاحب الدار في ذلك المجلس: انه بلغه أن ألمانية عقدت معروسية محالفة سرية على انكلترة وسيترتب على هذه المحالفة اخراج الانكليز من مصر ومن الهند أيضا. فقلت له: لا تغتر بهذا الخبر فان انكلترة كانت ولا تزال تضرب بعض الامم ببعض وتكون هي الرابحة فهي كما قال مسلم بن الوليد * كالسيل لم تحذف جلمودا بجلمود *

انني لم أصدق هذا الخبر في ذلك الوقت ثم تبين في أثناء هذه الحرب مما اكتشف من أسرار القيصرية الروسية أن له أصلا وان مشروع المحالفة وضع ثم عرض ما حال دون اتمامها فان كان هذا وقع بعد ذلك الزمن الذي أخبرنا فيه ذلك المخبر به فمن الجائز أن تكون مقدماته ووسائله قد سبقته بسنين ، والذي نقصده من العبرة في هذه السياسة هو أن الانكليز غلبوا ألمانية على روسية فحالفوها على الترك والفرس ثم جعلوها باتفاقهم مع حليفتها فرنسة فدية لهما في هذه الحرب ، فكانت مصب نقمة ألمانية الحربية في ريعان قوتها ، وعنفوان أسرتها ، وكذلك تعبث الامم العليمة الحكيمة بالامم الجاهلة الخرقاء فتجعلها فدية لها كما فعل الحلفاء بأمم أخرى وكما فعل الالمان بالترك

وقد كان أعجب مظاهر قدرة انكلترة السياسية تسخير دولة الولايات المتحدة الامريكية لانقاذها وانقاذ حلفائها من جحيم الالمان العسكري بعد ان عجزت أوربة كلها ومن ظاهرها من أمم آسية وأفريقية وأمريكة الجنوبية عن فل حدهم ،

وايقاف طغيان مدهم ، وهي الدولة التي جعلت من قواعد سياستها ترك مشاكل العالم القديم لاهله، وعدم مشاركتهم في شيء منه ، رقتها انكلترة رقيتين استخرجت بهما حيتها من جحرها ، وزحزحتها عن قاعدة سياستها، إحداهما دعوتها الى انقاذ حرية الامم والشعوب من السيطرة الالمانية التي تهدد العالم بالاستعباد، والثانية دهاء اليهود ونفوذهم المالي في تلك البلاد، وقد وعدتهم انكلترة بان يكون جزاؤهم اعادة ملك اسرائيل الى مملكة سليمان في الارض المقدسة بالرغم من أنوف العرب اصحاب البلاد . ومن الملتين الاسلامية والنصرانية وسكت لها على هذا الوعد أشد ذوي التحمس الديني من البروتستنت والكاثوليك حتى الجزويت منهم ، وأما المسلمون فلم يصدهم ذلك عن مساعدتها على فتح البلاد المقدسة بالجيوش التي جهزوها باسم شريف مكة سليل الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحب الحجاز بقيادة بعض ابنائه ، فهل كان باستطاعة أحد من دول الارض أن يفعل مثل هذا أو يفكر في امكانه ؟ لا! ولكن الانكليز فعلوا ما لم يكن يخطر في بال بشر فاستردوا هذه البلاد وما حولها من المسلمين الذين غلبوا قلب الاسد ملك الانكليز وسائر ملوك أوروبة في الحرب الصليبية بمساعدة الجيوش الاسلامية

طوع المستر لويد جورج وزير انكلترة الاكبر هذه الدولة بالرقيتين اللتين ذكرنا فجعلت ثروتها الكبيرة ومواردها الغزيرة وجنودها الكثيرة وقفا على انقاذ الحلفاء من المانية بل هاجمت المانية بقوة أكبر واعظم من كل هذه القوى — قوة الدعوة الى الصلح المبين على اتفاق الامم والشعوب على العدل العام والحرية الشاملة لجميع الانام ، وابطال ماجرت عليه الدول القوية في العصور الخالية من المحالفات السرية على هضم حقوق الامم المستضعفة وغير ذلك من أصول الحق والعدل التي مازال الاقوياء يهدمونها بمعاول القوة ، ومنها وجوب حرية البحار ، وجعل الانكليز وغيرهم فيها سواء، قام الدكتور ولسن رئيس جمهورية الولايات يحارب المانية بهذه القوة الادبية المعززة لتلك القوى الحربية والمالية ، ففاه بتلك الخطب الطنانة الرنانة ، ووضع للصلح تلك القواعد الجذابة الخلابة ، ففعلت في زمر الاشتراكيين والعمال الالمانيين فعل السحر، ولا سيما قاعدة حرية البحار في زمني الحرب والسلم ، فخرجوا على حكومتهم السياسية ، وثاروا في وجه قوتهم العسكرية

وهي في أوج انتصارها ، وذروة فخارها ، : أمرت أسطولها بأن يهاجم الاسطول البريطاني فاعتصب بحارته وأبو الامتثال ، وهدد زعماء الاشتراكيين قواد الحرب باعتصاب جميع العمال ، أو يطلبوا عقد الصلح على قواعد الرئيس « ولسن » العادلة إذ هي أفضل من نصر عسكري يؤرث الاحقاد ويورث السياسة الجائرة ، وانما أسست جمعياتهم ونحزبت احزابهم لمقاومتها ، وقد سنحت لهم الفرصة فقالوا لانضيعها ، ولم يقنعهم القول بأن هذا خداع ، لان الامريكيين غير متهمين بالكيد ولا بالاطماع ، فستمهلتهم الحكومة ريثما تسحب جيوشها وكراعها وزخائرها من قلب فرنسة فامهلوها ، وكان ما كان من أمر طلب الهدنة واشتراط الحلفاء فيها اضعاف جميع قوى الالمان الحربية في البر والبحر والجو حتى لايستطيعوا العود. فمن المنتصر ؟ : أميركة في الظاهر وانكلترة في الباطن ، بل المنتصر انما هم رجال السياسة الانكليزية وحدهم ، فهم الذين اقنعوا الولايات المتحدة بوجوب مؤازرة القضية المشتركة فسقطت على يدها المانية وساعدهم على ذلك صلف الالمان وغرورهم واحتقارهم الولايات المتحدة . وهم الذين والوا شريف مكة فكان عاملا قويا لسقوط الترك ، وهم المتصدرون لادارة دفة سياسة العالم بعد التمهيد لها واقتحام مايقوم امام هذه الادارة من العقبات . ومن ذلك اقناع الولايات المتحدة باسم خدمة الانسانية وتأييد المدنية بالاشراف على تركية ، والنهوض بالجمهورية الارمنية . ويتولون هم ادارة البلاد العربية من برقة الى العراق فعمان ـ ماخلا سورية الشمالية فان ادارتها جعلت لفرنسة تنفيذاً لمعاهدة سايكس ربيكو من جهة وحتى لاتؤوب فرنسة بصفقة المغبون وترضى من الغنيمة بالاياب من جهة أخرى . . . — والبلاد الفارسية المتصلة ببلوجستان فالهند فالتبت

الانكليز يحتلون سورية الجنوبية (فلسطين) ويعملون فيها عمل الحاكم المطلق ويمهدون السبيل لمهاجرة الصهيونيين اليها ليكونوا حكاما فيها تحت حمايتهم ويحتلون العراق ويعملون فيه عمل المالك بلا معارض وقد أسسوا للسواحل العربية الحجازية واليمنية محافظة سموها [محافظة البحر الاحمر] وأرسلوا بعثة الى الامام يحيى — ولكنها أسرت قبل الوصول اليه — وأرسلوا بعثة أخرى الى السيد الادريسي

للاتفاق معه. وعقدوا اتفاقا مع حكومة ايران نشر في الجرائد فشكت منه الصحافيون ورجال السياسة واحتجوا بانه مخالف لعهد « عصبة الامم » اذا كانت المسألة السورية معلقة بانواط تلك الوسائل المشار اليها ، كما تحدث أولئك الرجال وتلك الجرائد بالمسألة المصرية وبما للمصريين من الحق في المطالبة باستقلالهم وحريتهم ولم تفتر تلك الشقشقة حتى تم الاتفاق على العود الى تنفيذ معاهدة سنة ١٩١٦

وقد ظهر رجحان السياسة الانكليزية على السياسة الفرنسية في البلاد التي كانت تظن فرنسة أن سياستها فيها أرجح لما لها فيها من الصنائع والوسائل . فقد كان طلاب المساعدة الامريكية فالانجليزية من اهالي البلاد اضعاف طلاب المساعدة الفرنسية ، فلم يبق لفرنسة بد من اللجإ الى ارضاء انكلترة والرضا منها بتنفيذ معاهدة سنة ١٩١٦ بمقابلة تصرفها المطلق في مصر وسائر بلاد العرب والعجم

جرى كل ماذكر على طريقة السياسة الاوربية المعروفة المألوفة من تصرف الاقوياء في الضعفاء والعلماء في الجهلاء ، بعد ان ذهبت جعجعة خطب الرئيس « ولسون » في الهواء وهو ما كنا نتوقعه من وراء هذا النصر ، ونحدث به من كلمناه في عواقب الحرب ، وخاصة اخواننا العرب المغرورين من السوريين والعراقيين ، ولا غرابة في غرور اطفال اغرار في مهد السياسة والحركة العربية الحجازية في بدء ظهورها تكبرها في أعينهم بعض الجرائد.

فان قال قائل : أن كتاب الله قد أثبت أن العاقبة للمتقين ، وقد فسر علماؤنا التقوى بانها عبارة عن اداء المأمورات وترك المنهيات ، فهل كان الانكليز — بهذا المعنى — هم المتقون ، حتى كانت عاقبة هذه الحرب لهم بنفوذ الكلمة وعلو المنزلة والتصرف في أرض الله الواسعة ؟ نقول : ان قول الله تعالى لاريب فيه ، وان كلام العلماء في تفسير التقوى صحيح ولكنه مجمل فمن فهم منه ان المراد بفعل المأمورات الوضوء والصلاة والصيام ولو على غير الوجه الذي شرعه الله تعالى وان ترك المنهيات خاص بترك الخمر والزنا والسرقة وما أشبه ذلك — فهو قصير النظر ضعيف الفهم ، التقوى أعم من ذلك وهي تختلف باختلاف ماتطلب فيه كما بيناه في مواضع من تفسير المنار ونبهنا أهل العصر الى تقصير المفسرين وغيرهم من علمائنا في بيان ما في الكتاب والسنة من الاصول الاجتماعية ومسائل السياسة والعمران

فالتقوى المكررة في قوله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا) الآية غير التقوى في معاشرة النساء المكررة في سورة الطلاق ، وغير التقوى في قوله تعالى (وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي اليه تحشرون) فلكل مقام خصوصية هي المقصود الاول من المعنى العام ، والتقوى في قوله تعالى (ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) غير ماذكر كله ، فالاولى والثانية في أحكام الطعام والصيد وهما من الاحكام الشخصية الفردية ، والثالثة في أحكام الزوجية وهي منزلية (أو عائلية) والرابعة في شؤون الامم والعمران وهي مايعبر عنه في عرف هذا العصر بالاجتماعية وكلامنا فيها . والثابت عندنا ان الانكليز أشد الاقوام عناية باتقاء الخيبة والفشل في هذه الامور ، والالمان كذلك الا أن الالمان فاقوا الانكليز بالتقوى الحربية فلم يدعوا شيئا من أسباب اتقاء الانكسار فيها الا وأحكموه ، ولذلك كانت العاقبة لهم في المعارك الحربية ، ولكنهم لم يتقنوا كالانكليز اتقاء التنازع الداخلي فوقعت الثورة الاشتراكية في أمتهم ، وصدق عليهم قوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ولم يتقنوا كالانكليز اتقاء سخط الامم والشعوب عليهم فأسخطوا الامة الامريكية على حين صارت أعظم الامم ثروة واشتدت حاجة جميع الامم اليها ، فكان ذلك عونا للانكليز على تسخيرها لهم، ولم يتقوا خروج العرب على الترك باستمالة العرب وتوثيق الرابطة بينهم وبين الترك وتحذيرهم من خطر انتصار الانكليز عليهم بل سمحوا لاوليائهم سفهاء الاحلام من زعماء (جمعية الاتحاديين) — الدم والذهب — بارهاق العرب والتنكيل بهم تقتيلا وتصليبا وتذليلا وتغريبا ومصادرة وتعذيبا وهتكا للاعراض وافساداً للاخلاق ، على حين كان الانكليز يجدون في استمالة كل أمير وزعيم منهم بما يروج عنده من ضروب الاستمالة فمال اليهم بعض دون بعض وكان فيمن مال وشايعهم مشايعة فعلية أو سلبية الامير عبد العزيز بن سعود صاحب نجد وبعض شيوخ عرب العراق، ووالاهم شريف مكة (الملك حسين) وساعدهم على محاربة الترك بجيش مؤلف من بدو الحجاز وحضر سورية والعراق بقيادة أبرع أبنائه في الغزو والقتال الامير فيصل (ملك سورية)

وقداعترفوا له ببلائه وأخلاصه في اعانتهم على فتح القدس الشريف وعلى إيقاع الفشل والخذلان في جيش الترك المدافع عن سورية حتى انهزم وتركها غنيمة باردة لهم، وصرحت جريدة التيمس الشهيرة بأن الامير فيصلا سل حسامه في نصر الحلفاء من غير أن يحصل على أي وعد منهم بشيء ولكنه أعطي بعض الوعود بعد ما أخذ في النجاح، وقالت أن الامير فيصلا كان يرغب في الاستقلال التام للحجاز وحده وأما لسائر الشعوب العربية فانه يرغب لها في الاستقلال عن الترك فقط وأن تطلب كل البلاد العربية وصاية دولة واحدة عليها وتعني دولتها انكلترة (اه ملخصا من عددها الاسبوعي المؤرخ في ١٤ فبراير سنة ١٩١٩) بل كانت موالاة الشريف أكبر مما ذكر في فوائدها السلبية والمعنوية ولا محل لشرح ذلك هنا ، ولو كان للالمان مثل دهائهم لسبقوهم الى استمالة العرب وكانوا على ذلك أقدر ، وإذاً لاستطاعوا أن يجندوا منهم خمسمائه ألف أو ألف ألف جندي ولا أبالغ أذا زدت على ذلك ولا سيما اذا شملت هذه الاستمالة اليمن وعسير ، ووصلوا الى شواطىء البحر الاحمر وبحر العرب ولم يكن ذلك عليهم بعسير

فان قال ذلك القائل : فهمنا معنى التقوى في السياسة والحرب ومعنى كونها من سنن الله تعالى في النجاح ، ولكن خفي علينا ما بينت في تلك المقالات من أن هذه الحرب انتقام إلهي عادل من الدول والشعوب الظالمة لنفسها والظالمة لغيرها الباغيه على عباد الله التي لم تشكر نعمه تعالى باستعمالها فيما يرضيه من اقامه الحق والعدل ، واننا نرى ألوف الالوف من البشر تئن من سلطة تلك الدول وحكمها واذا كانت مصيبة صادقه في شكواها — لانها مهضومة الحقوق بضعفها — فلما ذا كانت عاقبة الحرب استمرار عقاب الله لها بالاستذلال والحرمان من الاستقلال ، ورفع العقاب عن اولئك الباغين ، وتحكيمهم في بلاد قوم آخرين ؟

إن قال ذلك القائل هذا القول وأورد علينا هذا الاشكال فاننا نجيبه بأن مايراه هو مشكلا لا نراه نحن كذلك ، فاننا نرى أن الامم المستضعفة الظالمة لنفسها المظلومة من قبل الاقوياء المسلطين عليها بما كان من تفريطها ، لم يمحصها ماحل بها و يرجعها الى رشدها ، وأن الدول الباغية الظالمة قد ذاقت من الشدائد

التي تعامل لمستضعفين بها ، ولم تنب وترجع الى ربها ، وكذلك شأن الدول والامم التي غلبت بهذه الحرب على أمرها ، فالعقاب الالهي لكل أمة ودولة لم ينته بهذه الحرب ، ولا هي انتهت بما وضع من معاهدة الصلح مع بعض المتقاتلين دون بعض

وما ذكرنا من فوز بعضهم وعلو كلمته بما بيناه من سببه، لادليل على ثباته ودوامه. واذا طال العهد عليه بحثنا عما اقتضى ذلك من أسبابه وسنن الاجتماع فيه، وانا نرى هذا الفوز والفلاح يكاد يجر وراءه أسباب خسار وخذلان؛ أهمها خسران الانكليز ذلك الصيت الحسن ، الذي غرسوا فسيله ، وزرعوا بزوره ، وتعاهدوا زرعه بما ينميه عدة أجيال ، حتى كانت الشعوب المتململة من سلبهم استقلالها تفضلهم على غيرهم ، والشعوب المتألمة في غيرهم تتمنى لو تتقيأ ظل حكمهم ، ولكن لا يزال في الشعب الانكليزي ذي العرق الراسخ في مكارم الاخلاق ، وبعد الروية وطول الاناة ، وحب العدل والانصاف رجال يرجى أن يرجحوا القوة المعنوية، على القوة المادية ، ويراءوا الانقلاب الاجتماعي الجديد الذي فجرت هذه الحرب قواه التي جمعت في عهد بعيد، كما تتفجر البراكين من الارض بآخر نقطة أو دفعة من الغازات المولدة للضغط فاذا قدر هؤلاء الرجال على مقاومة الاطماع الاستعمارية. وضعوا لدولتهم سياسة جديدة تتفق مع مصالح مصر والهند والعرب والفرس وسائر الشعوب ببقائها على مراعاة ما أشرنا اليه من الانقلاب الاجتماعي الاكبر. اذا قدر هؤلاء الفضلاء العقلاء على ما ذكرنا، وتركوا لهذه الشعوب استقلالها في ادارة بلادها وسياستها وحالفوها على ان يكونوا هم المقدمون على جميع أمم المدنية في مساعدتها العلمية والفنية التي تقرر استقلالها وتعمر بلادها ، ورضوا من المكافاة على ذلك بالمنافع الاقتصادية والأدبية ، التي تكون بالتراضي لا بالقوة الاحتلالية ، فانهم يؤسسون لشعبهم السكسوني المجيد ، مجدا طريفا الى مجده التليد، بحيث يرجى ان يكون خالدا لا يبلى ولا يبيد ، مالم يرجع عن هذه الطريقة أو يحيد، وحينئذ تكون لهم العاقبة الثابة ، ويسترجع أضعاف ما فقد من ثروته الهالكة ، من غير نفقات كبيرة ، كالنفقات التي لا يزال يتكبدها باحتلال البلاد المغلوبة ، ويكون سببا لاصلاح الكون ، وعمران الارض ...

أكتب هذا بملاء العقيدة الثابتة ، المؤيدة بالدلائل الاجتماعية الناهضة ، لا بباعث الاغراض القومية ، أو قصد الايهامات السياسية ، تاركا تصديقه للزمان ، وتفسيره لحوادث الأيام ، وسنن الله في الأنام ، لا مبدل لسنته ولا معقب لحكمه ولا راد لمشيئته

نموذج

من كتاب الفلسفة السياسية

تأليف المؤرخ الفيلسوف غوستاف لوبون الفرنسي والترجمة لعبد الباسط افندي فتح الله البيروتي

عقد المؤلف الباب الاول من كتابه هذا لبيان أغلاط قومه في الفلسفة السياسية الاستعمارية . وجعل موضوع الفصل الاول منه بيان المبادئ والقواعد التي جروا عليها في الاستعمار فقال : —

مبادينا الاستعمارية

لاريب في أن المنازعات الاقتصادية بين الغرب والشرق ستكون من شواغل الفكر الجدية في القرن العشرين. وستستتبع من الخراب والدم المهراق أكثر مما استتبعته حروب الازمنة الخالية ، وسيكون المستعمرات في هذه الخصومات القائمة بين مدنية ومدنية الشأن الكبير . واذ لم يبق اليوم من يمتري فيما لنا من المصلحة في الاحتفاظ بمستعمراتنا فليس في وسعنا أن لانبالي بما يتعلق بها من هذا القبيل

ان ادارة المستعمرات التي أنشأتها الامم الاوربية تقوم على قواعد جدجلية . واذ كانت هذه القواعد من بنات التجربة كان ينبغي أن تكون هي هي لدى الجميع. بيد انها تختلف اختلاف الامة عن الاخرى .

قد يكون في هذا التعبير عن اختلافها شيء من المبالغة لان طرق الاستعمار التي تسلكها الدول الاوروبية يمكن ردها الى اثنتين نسلك الاولى منهما نحن الافرنسيين وحدنا ، والاخرى يسلكها ماعدانا من الامم . وانما تنشىء المستعمرة كل أمة لتستفيد منها وتبقى لها . أما نحن فاننا نترفع عن أمثال هذه الافكار السخيفة ! ولكن لايبرح بالنا ان وظيفتنا هي انحاف شعوب الارض بمنافع المدنية . لذلك نرى أن نحكم فيهم بأوضاعنا وأفكارنا ، تلك الاوضاع والافكار التي هم ويالاسف مجمون على إباثها . واذ كنا موقنين بما لنا من الحق الصحيح فانا نصر على العمل بمذاهبنا ، وسنظل

كذلك حتى يقوم لنا من الفشل المتواتر دليل قوي على ان مبادئنا الاستعمارية العظمى ان هي الا أغلاط محزنة في كلتي جهتيها النظرية والعملية على حد سواء .

عقدت في كتابي « مدنيات الهند » فصلا بينت فيه أصول الادارة التي تعمل بها انكلترة في فتح مستعمراتها وتدبير شؤونها خصوصا الهند ، وكيف ان هذه المستعمرة قد أخضعت بأموالها ورجالها نفسها . وبأي حكمة هي مسوسة . وكيف يمكن ان تذهب هذه الامبراطورية العظيمة ذات يوم من أيدي المتغلبين عليها اذا هي حملت على مبدإ واحد من مبادئ الفلسفة السياسية الخاطئة . واذ كنت مضطراً الى الاختصار فسأقصر البحث في هذا الفصل على الآراء الرائجة في فرنسة لسياسة أدنى مستعمراتنا الينا وهي الجزائر وعلى النتائج التي يؤدي اليها العمل بتلك الآراء

ان الكتابات عن الجزائر لا تعد . غير ان كتابين منها كتبهما مؤلفان مضطلعان بالامر فضمناهما الوسط من الآراء المقبولة . أحدهما الفه العلامة « لوروبوليو » من أساتذة مدرسة فرنسة ، والآخر الفه موسيو « فينيون » من قدماء القناصل الافرنسيين

ليس من غرضي في هذا الفصل تحقيق بالتفصيل عن نتائج استعمارنا الجزائري ولكن أقصد الى بيان قيمة الفلسفة السياسية التي كان وسيكون عليها مدار العمل في ادارة البلاد زمنا طويلا فيما أرى . وسيكون انتقادي للمبادي فقط لا للرجال العاملين بها . لان الذي يتصرف برجل الدولة هي الضرورات السياسية لا النظريات العلمية . ولما كانت الضرورات عبارة عن بنات الآراء فعلى الآراء ينبغي أن توجه المؤاخذة لا الى الاشخاص لمكرهين عن احتمالها ، اذ ليس في استطاعة الواحد منهم ان يتولى الحكم بدونها . وأما تغييرها ففي غاية من الصعوبة لان الشعب الافرنسي الذي هو بحسب الظاهر أدنى الى الانقلاب من كل شعب قد يكون في الحقيقة أكثر شعوب الكون تمسكا بقديم .

ان الجزائر ناحية تساوي فرنسة في مساحتها . لكنها قليلة السكان . يقطنها ستة ملايين من المسلمين المخلصين لا وضاعنا على رواية التقارير الرسمية . ولكن الحق الواقع ان هذا الاخلاص محتاج في تمكنه الى جيش مؤلف من ٦٠ ر ٠٠٠ رجل ، أعني قدر الجيش الذي يستخدمه الانكليز لاستبقاء طاعة — ٢٥٠ —

مليون هندي منهم — ٥٠ — مليون مسلم [١] هم أكثر مهابة وأصعب مراسا من أهل الجزائر اخوانهم في الدين .

ثم ان بين سكان الجزائر المسلمين ثمانمائة ألف من الاوروبيين نصفهم فرنسيس فقط والنصف الآخر اسبان ومالطيون الخ. هذه العناصر الاوروبية على اختلاف أصولها لا تتزوج مع المسلمين وانما تتزوج فيما بينهما ولا تلبث ان يتكون منها شعب ذو أخلاق متميزة مصالحه ستكون بالطبع أدنى الى مصالح الجزائر منها الى مصالح أم الوطن [٢] تلك التي هي بمثابة صبر في — كما هو الظاهر حتى الآن — دأبه أن يمنح البلاد سككا حديدية ومؤسسات عمومية وعطايا مختلفة .

والمسلمون الذين هم القسم الاعظم من أهل الجزائر يحتوي سوادهم على سلالات من كل فاتح من فاتحي افريقية ، ويظهر ان جمهورهم ثلثاه من البربر والثلث الآخر من العرب . وبين الفريقين فوارق ولكنها ضئيلة أهمها مابه ينقسمون الى بدو وحضر . وسترى فيما يأتي — خلافا للرأي الشائع — دليلا على ان كلاً من العرب والبربر منهم البدو ومنهم الحضر .

*

وأما كتاب (موسيولور وابوليو) فيمكن تلخيصه بكلمة واحدة تعرب عن الفكرة السائدة في فرنسة بشأن الجزائر وهي : فرنسة المسلمين . أي إنحالهم عادات الفرنسيس وأخلاقهم . والطريقة السياسية التي سلكت حتى الآن لفرنسة هؤلاء المسلمين أو الاستيلاء عليهم بالفتح المعنوي تشبه مناهج الامريكان الاولى في معاملة أولئك الحمر الجلود اذ كانوا يغتصبون أرضهم التي فيها صيدهم ثم يتركونهم يموتون كما يشاؤن جوعا . هذه هي طريقتنا

(١) المنار : لعل المؤلف اعتمد في هذه الارقام على احصاء قديم أو أراد بهذا العدد أهل الولايات التي يتولى ادارتها ولاة من الانكليز دون البلاد المستقلة في ادارتها الداخلية ومجموع سكان جميع الهند تزيد على ٣٠٠ مليون والمسلمون منهم يبلغون زهاء ٩٠ مليون على ماسمعت من بعض أفاضلهم

(٢) أم الوطن الفرنسي باريس

الادارية في الاكتساح على وجه التقريب. واقد أجاد في وصفها موسيو فينيون اذ قال:

« لما رأت الدولة أن الولاة يصادرون قسما من أرض القبائل عقب كل ثورة حسبت أن العدالة تمكنها من منح احاسن تلك الاراضي للمستعمرين بعد صد أربابها الوطنيين عنها .

«وكلما انتشر العنصر الاوربي كان الوطنيون يطردون عن تراث آبائهم بحيث أمسى الكثير من القبائل بعيدا عن الناحية التي كانت وطنا له

«وأما نتائج مثل هذه السياسة التي استمرت أكثر من ثلاثين سنة فلا يمكن ان تكون مبهمة : وهي ان العربي الذي رأى نفسه في رجوع مستمر لم يبق له شيء من الثقة بأن يجني ثمرة عمله ولم يعد يفكر في اتقان حرثه ولا تحسين أرضه . والذي حرم أرض قبيله المزدرعة ومنع حق الانتفاع بموارد الماء لم يعد يستطيع الصبر على المحل وقلة القوت وموتان الماشية و نقراضها . وكل هذه الآلام والمصائب ما كانت الا لتذكي الضغن في قلب الوطني على المستعمر وتزيد في انفراج مسافة الخلف بينهما .

«وأما قرار مجلس الشيوخ الذي صدر عام سنة ١٨٦٣ وأعلن حق تمليك الاراضي للقبائل التي كانت متصرفة فيها فلم تكن فيه نهاية لطريقة دفع القبائل وصدها عن أراضيها ولكنه غير اسمها وهيئتها اذ صارت تسمى اليوم باسم [الاستملاك لاجل المنافع العمومية(١)] وتمتاز هذه الطريقة بخاصتين : اعطاء الارض الى المستعمر بعد سلبها من الوطني وتكوين مناطق أوربية محضة يزاح عنها الوطني وان كان من المالكين ويقضى عليه بعد انتزاع ملكه بالفقر . نعم ان مالك الارض الاول يعوض عن أرضه ببدل نقدي تعينه المحاكم وهو يتراوح بين ٥٠ — ٦٠ فرنكا لكل هكتار أي انه يبدل بثلاثين أو أربعين هكتاراً من الارض التي كانت تؤتيه كل موارد العيش الرغد مدة حياته مقدارا من المال (١٥٠٠ — ٢٠٠٠) فرنك لا يكاد يقوم بأوده عاما واحدا أو عامين . »

وكان الاستعمار الرسمي أغرب أشكال التنفيذ لسلطة الحكومة القادرة على كل

(١) الاستملاك في اصطلاح القانون العثماني : انتزاع الملك من صاحبه بعد تقدير ثمنه بمعرفة لجنة مخصوصة و يسمى في مصر «نزع الملكية»

شيء في الجزائر . أما لو تقرأ تاريخه في الكتاب الذي اقتبست منه الشاهد المتقدم اذن لرأيت نتائج قطاع تلك الارضي مجانة كل فئة من الساقطين الذين لاتوازي قابليتهم لحرث الارض الا كفاءتهم لتعليم اللسان السانسكريتي ، ولرأيت نتائج انشاء تلك الضياع الرسمية التي صارت اليوم قاعا صفصفا ...

هذه التجربة المهلكة وما استلزمته من النفقات الباهظة لم تك كافية لهداية عمالنا لان أحدهم قد طاب منذ بضع سنين خمسين مليونا لينتزع بها من العرب أملا كا بنشيء فيها ضيعا مكان الضياع التي أذلها وأشقاها الخراب ! ولكن دار الندوة - ولحسن الحظ - ردت اقتراحه هذا لانه ولاريب يدعو المسلمين الى الثورة ويحتفر هوة جديدة تتردى فيها ملايين أم الوطن [1]

ألاوان في عرض مثل هذا الاقتراح والبحث فيه - حتى أوشك أن يستجاب له - لدليلا على أن لرأي الاستعماري الافرنسي لايزال في الدرجة السفلى من التثقيف .

ولا عجب اذا كلفتنا الجزائر المبالغ الجسام بفضل أمثال هذه التجارب لان ماأنفقناه عليها يقدر باربعة مليارات عدا جبايتها نفسها . فهل ترانا أمنا البلاد على الاقل بهذا المقدار من الاموال المبذولة ؟ اذا صدقنا بذلك فلاينبغي أن ننسى أن علينا أن نقوم بنفقة جيش عظيم لنحفظ فيها السلام حفظا ما.

*

منذ فتح الجزائر تناوب سياستنا الاستعمارية مبدآن كان يرجح الواحد منهما على الآخر تبعاً لحركة الرأي العام أما إحداهما فهو انتزاع ملكية العرب ودفعهم الى الصحراء . وأما الآخر فجعلهم فرنسيسا بحملهم على أوضاعنا .

غير أن العرب لم يندفعوا بما أقاموا من الحجة البالغة وهي أن الصحراء لم يعد فيها معاش لاحد ، وقبل أن يرضوا بالموت جوعاً جعل الملايين منهم يعارضون بالمقاومة . فلا هم قبلوا التفرنج ولا هم رضوا بالاندفاع لانه لم يوجد حتى الآن شعب

(١) المنار : المراد ملايين دراهم (فرنكات) أبناء أم الوطن باريس

تمكن من تغيير وضعه المعنوي من أجل انتحاله وضع أمة أخرى فكلتا الطريقتين ممقوتتان والانتقال من إحداهما الى الاخرى لا يرجى منه اصلاح لها . وبناء على هذا فستظل سلسلة هذه التجارب المدمرة تزداد حلقة بعد حلقة الى أن يأتي يوم يهتدي فيه حكامنا فيعترفون أن أبسط حل لهذه المشكلة وأقله مؤنة وأوفره حكمة . هو أن يتركوا للبلاد المفتتحة أوضاعها وعاداتها وشكل حياتها وعقائدها كما تفعل الامم المستعمرة كلها خصوصاً الانكليز والفلنك .

أما هذا الحل فقد يكون الآن ضرباً من المحال لان الرأي العام ضد له بدليل ماترى من سلوك أهل الحل والعقد فيها وما نجد من الافكار المنبثة في الجرائد والمؤلفات .

ولما كنا نحن أهل الغرب قد أطلقنا من قيود العقائد الدينية (١) فاننا نظن الامر كذلك في أرجاء العالم كافة . وقليل من المؤلفين الاوربيين الذين أدركوا أن أمر الدين في الشرق فوق كل الامور ، فان الاوضاع المدنية والسياسية والحياة الاجتماعية والقروية هي عند أتباع محمد كما هي لدى أتباع صاوا وبوذه مرجعها الى الشريعة الدينية . والاكل والشرب والنوم والحرث كلها أفعال عبادة عند أهل الشرق .

ولقد أدرك الانكليز ذلك حتى أنهم رغم تصلبهم في مذهبهم البروتستانتي يبرمون في الهند معابد لوثنيين ويجرون على كهنتها لوظائف الواسعة على حين يضنون على رسل دينهم بأدنى المساعدة . وانك مهما تحريت لا تعثر برجل واحد تحت سماء انكلترة يؤيد القول بأن دمار مستعمرة أولى من تعطيل مبدإ .

ولقد كان ينبغي أن يكون أساس سياستنا حماية الدين الاسلامي والاستظهار

---

(١) المنار : المراد بقيود العقائد ما كانت الكنيسة تقيد به حرية العلم والارادة والعمل من قيود الحظر والتحريم التي تعوقها عن السير في سبيل الرقي وهذه القيود لا وجود لها في الاسلام ولكن الذين اتبعوا سنن من قبلهم من متفقهتنا اخترعوا لنا قيودا مثلها ونحن نعاني الصعاب في كسرها أو الانطلاق منها مع الحذر من الغلو الذي جنى على الغربيين بترك بعضهم للعقائد نفسها لا القيود التي أضيفت اليها فقط

بذوات النفوذ من جمعياته الدينية وتأييد سلطة الفقهاء عوضا عن مناجزتها واضعافها.

ان أول « مقيم » افرنسي في تونس كان من نوادر الحكام المضطلعين بشؤون الشرق فقد دل على مبلغه من الحصافة في السياسة اذ طلب الى باي تونس اذ ذاك أن يصدر منشوراً دينيا يثبت للمؤمنين مشروعية الاحكام التي كان يريد وضعها لكن ما كان أسرع أولي الامر منا الى عزله .

احترام شعائر الدين عند العرب هو باحترام أوضاعهم لان الاوضاع انما هي متفرعة عن العقائد الدينية كما بينت آنفا — بيد ان « موسيولور وابوليو » يرد هذه السياسة وينعتها بسياسة «التعفف» ويقول «ان الاحترام التام لسنن مايسمى بالقومية العربية وأخلاقها وعاداتها يقضي بترك جيشنا ومستعمرينا لارض أفريقية» لماذا يا ترى؟ قد ذهل المؤلف عن بيان السبب وانه ليعسر عليه — فيما أظن — ان يجد لرأيه طلاء من سبب معقول . ان السياسة التي أقرها هنا هي عين السياسة التي يجري عليها الانكليز مع المسلمين في الهند دون ان يكون لهم (أي الانكليز) أقل ميل الى ترك ملكهم ذاك العظيم

وأما الوسائل التي يشير بها « موسيولور وابوليو » فهي موافقة لآرائنا في المساواة العامة ومؤداها « مزج العنصر الوطني بالعنصر الاوربي » وتعريف هذا المزج حالة لجمعة تجري فيها على شعبين مختلفين في الاصل أحكام قضائية واجتماعية واحدة وقوانين عامة واحدة مع خضوعهما من حيث الانتاج لمؤثر واحد

هذه الصورة تبدو باهرة وهي مرسومة على الورق. وانها لأمنية المساواة التي يتمناها أهل النظر منا من أبناء سنة ٩٣ والوقت الحاضر . ولكن يسخر منها أدنى المستخدمين في حكومة الهند الملكية . ولا عجب فقد يمكن أن يكون الرجل عالما مشهورا ولا يكون له إلمام بالهاوية التي تفصل الشرقي عن الغربي في الافكار والوجدان .

على انا نجد المؤلف ينتبه لبعض العقبات في سياسته المزجية ولكنه يتصورها بسهولة ، فهو يوقن من غير دليل «ان البدو لايختلفون عن الاوربيين الا في [illegible]

واحد » الا وهو الدين ؟فما أعظم هذا الخطأ ! وقد يكون الاقرب الى الحقيقة ان يقال ان بين غـلوي من عصر برينوس و بين باريزي من أبناء اليوم من الفرق العظيم مثل مابين أوروبي متمدن و بين بربري من أبناء لزمن الحاضر . ويزعم (موسيولور وابوليو) انه لما كان البربر ولاوروبيون من أصل واحـد بقي العرب وحدهم موضوعا للفرنسة فهم الذين ينبغي أن يفرنسوا ويظهر له ن الامر سهل جدا « ينبغي ـ حسب ايضاحه ـ ان تغير مناهج القبيلة تغييرا تاماً وكذلك طريقة الملك وتعدد الزوجات فاذا تم ذلك لم يبق الا تفاريع يظفر بها بمرور الزمن »

هذه التحولات الصغيرة التي قد تسر الخاص من الاشتراكيين يراها المؤلف من السهولة بحيث لم ير في بيان الوسيلة اليها فائدة . غير اني أظهر ان كل من الف النظر في طبيعة العرب المعنوية يجد أن ، في احداث هذه التغييرات من الصعوبة لا يقل عما يوجد منها في جعلك وحدا من أبناء أوسترالية أستاذا في كلية فرنسة . و(موسيو بوليو)ليس بذي شفقة على العرب الذين ينظر اليهم نظره لى فئة من الهمج ويحسب ان مجتمعهم مكون على الصورة القديمة لكل شعب بدوي فهو يظهر ان كل العرب من قبيل الرعاة وان البربر من أهل الحضر . ومن يقرأ ما كتبه ابن خلدون في القرن الرابع عشر يعـلم أن قسمة بربر الجزائر الى بدو وحضر ليست بنت الامس . وأما التميـيز بين البربر والعرب الذي جنح له فريق من المؤلفين من حيث القابلية للتمدن فانه كان مبنيا على ملاحظات جد سطحية لا يستطاع اليوم تأييدها ، ولما كان شكل لوجود متعلقا ببيئة كانت الحياة الاجتماعية بنوعيها بدوية وحضرية تابعة لطبيعة لارض لا لطبيعة سلالة . ففي السهول المرملة يكون كل من العرب والبربر من الرحل كما أن كلا منهم يكون مقيما في جهات المحصبة وفي كل قطر يسكنه العرب كالجزائر ومصر وسورية وجزيرة تجـد منهم البدوي والمتحضر ، غير انى لا يظهر لي أي من العرب المتحضرة والبربر المتحضرة يفوق الآخر من حيث الكمال العقلي . واذا لم يكن بد من الميـل الى إحدى الطائفتين فالاولى أن يكون الى العرب أصحاب تلك المدينـة القديمة الباذخة . لان البربر ما كانت لهم الا مدنية طفلة ناقصة

وأكثر مايلح به (موسيو بوليو) من الاصلاح منع تعدد الزوجات ولكنه يذهل دائما عن أن يبين لنا لوسيلة العملية الى ذلك ، فهو يفيض في بيان فوائد وحدة الزوج و يظهر لمعاصريه ان البيت هو في الاصل ملك المرأة الفرد و بدونها تفقد العائلة روحها ويفقد البيت أداة سعادته،ويقول ان التعدد من أعظم الاسباب في ركود المجتمع العربي

بيد أني لاأريد ان أدخل جوف المسألة ولا أن أعترض بانه لما كان تعدد الزوجات مذهبا للشرقيين كافة كان لابد لهذه العادة من أسباب قوية . كما أني لاأتكلف توجيه النظر الى أن التعدد الشرعي عند المشارقة هو خير من التعدد النفاقي عند الاوربيين وما يتبعه من المواليد الحرام . فان في كتابي (تاريخ الحضارة العربية) شرحا كافيا لهذه المسائل وغيرها والناظر فيه يجد ان دور « الحريم » في عهد الدولة العربية أنتجن من (bas - bleus) والنساء العالمات قدر ما أنتجت مدارس إناثنا من ذلك. ولقد اتضح اليوم ان تعدد الزوجات ما كان قط سببا في ركود المسلمين،وهل من حاجة بعد الى التذكير بأن العرب وحدهم هم الذين أظهروا لنا العلم اليوناني — اللاتيني ، وان مدارس أوروبة الجامعة — ومنها جامعة باريس — عاشت ستمائة عام بفضل ماترجم من كتبهم و بنهجها مناهجهم؟

ثم ان المدنية العربية كانت من أبهر المدنيات التي عرفها التاريخ . نعم انها قضت كما قضى كثير غيرها ولكن من القناعة بالادلة السطحية أن نعزو الى تعدد الزوجات ماهو نتيجة لغيره من العلل المهمة

على أنه لم يتضح لنا السبب في كراهية الاستاذ الفاضل لتعدد الزوجات وهو ينبئنا ان التعدد محصور في البيوتات الموسرة وانه قد قل انتشاره .فاذا صار التعدد إلى غاية من الندرة وقلة التأثير فما باله يبغي ابطاله ؟ وكيف يمكن اقامة الدليل على ان هذه العادة« من أعظم الاسباب في الركود الذي يتصف به المجتمع العربي[1] »

(١) المنار : ليتأمل هذا البحث الذين يقلدون منا أصحاب الاهواء السياسية فينا فهذا العالم الفيلسوف يقرر مايعتقد عن بحث وعلم واولئك السياسيون يبثون فينا مايحبون ان يحملونا عليه لأجلهم لا لأجلنا

يعد (موسيولوروا بوليو) تربيتنا اللاتينية من الوسائل المقدمة لاصلاح العرب، لا جرم ان هذا هو الرأي العام اليوم . وقد كان لي منه نصيب كسائر الناس . ولم أعدل عنه الا بعد تجشم الكثير من الاسفار وتوفير البينات واني - وان لم يكن لي أمل في هداية واحد من القراء الفرنسيس الى رأيي -- لا بد لي من بسط فكري كله نظرا لخطورة الموضوع في فصل أبين فيه ان التعليم الاوربي عدا كونه لا يحسن شيئا من حالة الوطنيين، لا نتيجة له سوى إشقائهم مادة ومعنى، وما كان ليستحيل على أحد استدراك أسباب الاثر السيئ الذي أحدثته تربيتنا الاوروبية في سلالات هي أدنى من السلالة الاوروبية أو بينهما فرق عظيم • تلك التربية التي اتخذناها بعد تطورات ملائمة لشعورنا وحاجاتنا ما كانت لتلائم شعورا وحاجات تخالفها، وما كانت تناسبها الاولى غير مفاجأة العربي أو الهندي أو غيرهما من أهل الشرق لسلب ميراثه من الافكار التي قامت عليها أوضاعه وعقائده التي هي قاعدة وجوده. ولا تحققت أمنية (موسيولوروا بوليو) وغيره من المؤلفين الذين يطرون تربية العرب الاوروبية لكانت لنا الجزائر كما كانت البندقية للنمساويين وكالهند اليوم للانكليز وكالالزاس للالمان

كشف الشبهات (*)

٢

فاذا عرفت ان هذا الذي يسميه المشركون في وقتنا «الاعتقاد» هو الشرك الذي أنزل فيه القرآن وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عليه ، فاعلم ان شرك الاولين أخف من شرك أهل وقتنا بأمرين (أحدهما) ان الاولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والاولياء أوثانا مع الله الا في الرخاء واما في الشدة فيخلصون لله الدين كما قال تعالى (واذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون الا اياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا) وقوله (قل أرأيتم ان أتاكم عذاب الله أو

(*) تابع ما نشر في الجزء السادس من هذا المجلد

أتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين؟ بل اياه تدعون فيكشف ماتدعون اليه ان شاء وتنسون ماتشركون) وقوله (واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه — الى قوله — قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار) وقوله (واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) . فمن فهم هذه المسئلة التي وضحها الله في كتابه وهي ان المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعون الله ويدعون غيره في الرخاء واما في الضر والشدة فلا يدعون الا الله وحده لا شريك له وينسون ساداتهم — تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الاولين . ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسئلة فهما راسخا ؟ والله المستعان

والامر الثاني — ان الاولين يدعون مع الله أناسا مقربين عند الله إما نبيا واما أولياء واما ملائكة، ويدعون أشجارا وأحجارا مطيعة لله ليست عاصية. وأهل زماننا يدعون مع الله أناسا من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك ، والذي يعتقد في الصالح والذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به

اذا تحققت ان الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصح عقولا وأخف شركا من هؤلاء فاعلم ان لهؤلاء شبهة يوردونها على ماذكرنا وهي من أعظم شبههم، فاصغ سمعك لجوابها، وهي انهم يقولون: ان الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا اله الا الله، ويكذبون الرسول ، وينكرون البعث، ويكذبون القرآن ويجعلونه سحرا ونحن نشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ونصدق القرآن ونؤمن بالبعث ونصلي ونصوم، فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟ . فالجواب انه لا خلاف بين العلماء كلهم ان الرجل اذا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء وكذبه في شيء انه كافر لم يدخل في الاسلام، وكذلك اذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه، كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة أو أقر بالتوحيد والصلاة وجحد الزكاة، أو أقر بهذا كله وجحد الحج . ولما لم يفقد أناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم الحج أنزل الله في حقهم (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن

كفر فان الله غني عن العالمين) ومن أقر بهـذا كله وجحد البعث كفر بالاجماع وحل دمه وماله كما قال جل جلاله (ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا) فاذا كان الله قـد صرح في كتابه ان من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقا زالت هـذه الشبهة وهذه هي التي ذكرها بعض أهل الاحساء في كتابه الذي أرسل الينا

ويقال اذا كنت تقر أن من صـدق الرسول في كل شيء وجحد وجوب الصـلاة إنه كافر حـلال الدم بالاجماع ، وكذلك اذا أقر بكل شيء الا البعث، وكذلك لو جحد وجوب صوم رمضان .لا يجحد هذا ولا تختلف المذاهب فيه وقد نطق به القرآن كما قدمنا فمعلوم ان التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج فكيف اذا جحد الانسان شيئا من هذه الامور كفر ولو عمل بكل ماجاء به الرسول واذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر سبحان الله ماأعجب هذا الجهل

ويقال أيضا: هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قـالوا بني حنيفة وقد أسلموا مع النبي صـلى الله عليه وسـلم وهم يشهدون أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ويصلون ويؤذنون فان قال انهم يقولون ان مسيلمة نبي . قلنا هـذا هو المطلوب.اذا كان من رفع رجلا الى رتبة النبي صلى الله عليه وسـلم كفر وحل ماله ودمه ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة فكيف بمن رفع شمسان ويوسف أو صحابيا أو نبيا في مرتبة جبار السموات والارض؟سبحان الله ما أعظم شانه! (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون)

ويقال أيضا:الذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار كلهم يدعون الاسلام وهم من أصحاب علي وتعلموا العلم من الصحابة ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما؟فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم؟أتظنون ان الصحابة يكفرون المسلمين أم تظنون الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضر والاعتقاد في علي بن أبي طالب يكفر ؟

و يقال أيضا: بنو عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني العباس كلهم يشهدون أن لا إله الله وأن محمدا رسول الله ويدعون الاسلام ويصلون الجمعة والجماعة فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون مانحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم ،وان بلادهم بلاد حرب ، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين

و يقال أيضا: اذا كان الاولون لم يكفروا الا أنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول والقرآن وانكار البعث وغير ذلك . فما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب « باب حكم المرتد » وهو المسلم الذي يكفر بعد اسلامه ، ذكروا(١) أنواعا كثيرة كل نوع منها يكفر ويحل دم الرجل وماله ، حتى أنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب

و يقال أيضا: الذين قال الله فيهم (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم) أما سمعت الله كفرهم بكلمة مع كونهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاهدون معه و يصلون معه و يزكون و يحجون و يوحدون؟ وكذلك الذين قال الله فيهم (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لاتعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم) فهؤلاء الذين صرح الله أنهم كفروا بعد ايمانهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم : تكفرون المسلمين أناسا يشهدون أن لا اله الا الله و يصلون و يصومون (ثم تأمل) جوابها فانه من أنفع مافي هذه الاوراق

ومن الدليل على ذلك أيضا ماحكى الله عن بني اسرائيل مع اسلامهم وعلمهم وصلاحهم أنهم قالوا لموسى (اجعل لنا الها كما لهم آلهة) وقول ناس من الصحابة «اجعل لنا ذات أنواط» فحلف صلى الله عليه وسلم أن هذا نظير قول بني اسرائيل (اجعل لنا الها)

(١) أي ذكروا في هذا الباب الخ

ولكن للمشركين شبهة يدلون بها عند هذه القصة وهي أنهم يقولون إن بني اسرائيل لم يكفروا وكذلك الذين قالوا « اجعل لنا ذات أنواط » لم يكفروا. فالجواب أن تقول : ان بني اسرائيل لم يفعلوا ذلك وكذلك الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا خلاف أن بني اسرائيل لم يفعلوا ذلك ولو فعلوا ذلك لكفروا وكذلك لاخلاف أن الذين نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا وهذا هو المطلوب

ولكن هذه القصة تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لايدري عنها فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول الجاهل « التوحيد فهمناه » أن هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان (وتفيد) أيضا أن المسلم اذا تكلم بكلام كفر وهو لايدري فنبه على ذلك وتاب من ساعته أنه لايكفر كما فعل بنو اسرائيل والذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم (وتفيد) أيضا أنه لو لم يكفر فانه يغلظ عليه الكلام تغليظا شديداً كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

وللمشركين شبهة أخرى يقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أسامة قتل من قال لا اله الا الله وقال « أقتلته بعد ماقال لا اله الا الله ؟ » وكذلك قوله « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله » وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها . ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لايكفر ولا يقتل ولو فعل مافعل : فيقال لهؤلاء الجهلة معلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون لا اله الا الله وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لااله الا الله وأن محمداً رسول الله ويصلون ويدعون الاسلام . وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار. وهؤلاء الجهلة يقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لااله الا الله . وأن من جحد شيئا من أركان الاسلام كفر وقتل ولو قالها ،فكيف لاتنفعه اذا جحد فرعا من الفروع وتنفعه اذا جحد التوحيد الذي هو أساس دين الرسل ورأسه ؟ ولكن أعداء الله مافهموا معنى الاحاديث

فأما حديث أسامة فانه قتل رجلا ادعى الاسلام بسبب أنه ظن أنه مادعى

الاسلام الا خوفا على دمه وماله والرجل اذا أظهر الاسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه مايخالف ذلك وأنزل الله تعالى في ذلك (ياأيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) أي تثبتوا ،فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت فاذا تبين من بعد ذلك مايخالف الاسلام قتل لقوله (فتبينوا) ولو كان لايقتل اذا تاها لم يكن للتثبت معنى ، وكذلك الاحاديث الاخر وأمثاله ، معناه ماذكرناه وان من أظهر التوحيد والاسلام وجب الكف عنه، الا أن يتبين منه مايناقض ذلك. والدليل على هذا أن رسول الله صلي الله عليه وسلم هو الذي قال « أقتلته بعد ماقال لا له الا الله ؟ » وقال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله» هو الذي قال في الخوارج « أينما لقيتموهم فاقتلوهم لئن أدركتهم لاقتلنهم قتل عاد » مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلا حتى أن الصحابة يحقرون أنفسهم عندهم ،وتعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم « لا اله الا الله» ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الاسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة .

وكذلك ماذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة بني حنيفة ، وكذلك أراد صلى الله عليه وسلم أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل منهم أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله (ياأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا) وكان الرجل كاذبا عليهم . وكل هذا يدل على أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم في الاحاديث التي احتجوا بها ماذكرناه

ولهم شبهة أخرى وهي ماذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بابراهيم ثم بموسى ثم بعيسى فكلهم يعتذر حتى ينتهوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركا

والجواب: أن نقول سبحان من طبع على قلوب أعدائه! فان الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لاتنكرها كما قال تعالى في قصة موسى (فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه) وكما يستغيث الانسان بأصحابه في الحرب أو غيره في أشياء يقدر عليها المخلوق ، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الاولياء أو في

غيبتهم في الاشياء التي لا يقدر عليها الا الله . اذا ثبت ذلك فاستغاثتهم بالانبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف وهذا جائز في الدنيا والآخرة أن تأتي عند رجل صالح حتى يجالسك ويسمع كلامك تقول له أدع الله لي كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه في حياته وأما بعد موته فحاش وكلا أنهم سألوا ذلك بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره فكيف بدعائه نفسه

ولهم شبهة أخرى وهي قصة ابراهيم لما ألقي في النار اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة ؟ فقال ابراهيم أما اليك فلا . فقالوا فلو كانت الاستغاثة شركا لم يعرضها على ابراهيم

فالجواب ان هذا من جنس الشبهة الاولى فان جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه فانه كما قال الله فيه (شديد القوى) فلو أذن له أن يأخذ نار ابراهيم وما حولها ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل ولو أمره الله أن يضع ابراهيم عنهم في مكان بعيد لفعل ولو أمره أن يرفعه الى السماء لفعل ، وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلا محتاجا فيعرض عليه أن يقرضه أو يهبه شيئا يقضي به حاجته فيأبى ذلك المحتاج أن يأخذ ويصبر الى أن يأتيه الله برزق لامنة فيه لاحد ؛ فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون ؟

*

ولنختم الكلام بمسئلة عظيمة مهمة تفهم مما تقدم لكن نفرد لها الكلام لعظم شانها ولكثرة الغلط فيها فنقول : — لاخلاف ان التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل فان اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما ، فان عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند ككفر فرعون وابليس. وهذا يغلط فيه كثير من الناس يقولون « هذا حق ونحن نفهم هذا ونشهد انه الحق ولكن لانقدر أن نفعله ولا يجوز عند أهل بلدنا الا من وافقهم » أو غير ذلك من الاعذار ، ولم يدر المسكين ان ان غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه الا لشيء من الاعذار كما قال تعالى (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) وغير ذلك من الآيات كقوله (يعرفونه كما يعرفون

أبناءهم) فان عمل بالتوحيد عملا ظاهرا وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه فهو منافق وهو شر من الكافر الخالص (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار)

وهذه المسئلة مسئلة طويلة تبين لك اذا تأملتها في ألسنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة لأحد ، وترى من يعمل به ظاهرا لا باطنا ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله أولاهما قوله تعالى (لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم) فاذا تحققت ان بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه اللعب والمزح تبين لك ان الذي يتكلم بالكفر ويعمل به خوفا من نقص مال أوجاه أو مداراة لاحد أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها . والآية الثانية قوله تعالى (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم * ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) الآية ، فلم يعذر الله من هؤلاء الا من أكره مع كون قلبه مطمئنا بالايمان واما غير هذا فقد كفر بعد ايمانه سواء فعل خوفا أو مداراة أو مشحة بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله،او فعل على وجه المزح او لغير ذلك من الاغراض الا المكره

فالآية تدل على هذا من وجهين الاول قوله (الا من أكره) فلم يستثن الله تعالى الا المكره ومعلوم ان الانسان لا يكره الا على الكلام أو الفعل وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها والثاني قوله تعالى (ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا) فصرح ان هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد والجهل والبغض للدين ومحبة الكفر وانما سببه ان له في ذلك حظا من حظوظ الدنيا

﴿ انتهى كتاب كشف الشبهات

تقرير لجنة مشيخة الازهر الشريف (*)

المؤلفة لفحص مشروع تعميم التعليم الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ الاكبر

شيخ الجامع الازهر

ياصاحب ! الفضيلة بما لك من الحق الشرعي والرياسة الكبرى الدينية في الديار المصرية . أصدرت أمرك الينا بتعيين لجنة منا لفحص مشروع تعميم التعليم الاولى مع تقريره الذي أصدرته لجنة وزارة المعارف العمومية المؤلفة بالامر الوزاري في ٣٠ مايو سنة ١٩١٧ والذي فرغت من وضعه في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٨ طالبة ان ينفذ العمل به من أول ابريل سنة ١٩٢٠ ريثما تأخذ الحكومة العدة لتنفيذه

وهانحن أولاء نتشرف برفع تقريرنا هذا الى فضيلتكم شاملا لما عن لنا في الموضوع والله الهادى الى سواء السبيل .

(١) اللجنة ترحب بمشروع تعميم التعليم الاولي من حيث هو تعميم لتعليم طبقات الامة بأسرها وتعتبره بدء خير جديد للامة المصرية في سائر شؤونها ومصالحها الدينية والدنيوية قال الله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

(٢) خلاصة المشروع من الوجهة التي تهمنا هو ان يعمل كل مجلس مديرية في المديريات وكل سلطة معادلة له في المحافظات على ايجاد مدارس أولية في كل

(*) نشرنا هذا التقرير انجازا لما وعدنا به فى الجزء الماضى . وقد قال لنا احد أعضاء لجنة المشروع : تذكروا ان المشروع وضع في غير هذا الوقت واننا نسلم باكثر الانتقاد الذي ورد عليه الخ . صالح رضا

مدينة وقرية تضم كل سنة عددا من البنين والبنات الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والحادية عشرة بنسبة واحد في المائتين من مجموع السكان وذلك بأن تأخذ ٤٪ من البنين و ٢½٪ من البنات حتى تكون نتيجة هذه المدارس بعد عشرين سنة تعليم ٨٠٪ من مجموع البنين و ٥٠ في المائة من مجموع البنات بالقطر المصرى وذلك يعادل ١٠ في المائة من مجموع السكان يتلقون في تلك المدارس دراسة مناسبة وفق منهج خاص تضعه وزارة المعارف العمومية أو نقره يشمل على الاقل تعليم الديانة والقراءة والكتابة والحساب وغير ذلك من المواد التي يعينها وزير المعارف العمومية (فقره ٤٥ و ٤٧ ومادة ١ و ٢) (١)

---

(١) نص الفقرة ٤٥ [الغرض العاجل من القانون] يرمي مشروع القانون الذي وضعناه الى أن ينشأ في كل مدينة وقرية في مدة لا تتجاوز عشرين سنة مدارس أولية حسنة البناء جيدة المعلمين يبلغ مجموع تلاميذها ٨٠ في المائة من أبناء الامة ومجموع تلميذاتها ٥٠ في المائة من بناتها ممن تتراوح أعمارهم وأعمارهن بين السادسة والحادية عشرة . وانا نرى أن هاتين النسبتين هما الحد الحقيقي الذي يجب التعويل عليه فى إعداد ما يلزم من الامكنة إذا راعينا أن عددا من الاطفال سينصرف عن التعليم وأن آخرين سيلحقون بالمدارس الابتدائية وغيرها وراعينا العادة التي لا تزال مسيطرة على قسم كبير من الامة وهى قلة الرغبة في تعليم البنات وتحرير المرأة من قيود الجهل وأغلال الامية

والفقرة ٤٧ [نسبة تلاميذ المدارس الاولية بالبلاد الغربية] واذا قدرنا نسبة التلاميذ المصريين الذين يجب تعليمهم بالمدارس الاولية ممن تتراوح أعمارهم بين السادسة والحادية عشرة بثمانين في المائة من مجموعهم ونسبة التلميذات اللاتي من هذه الاعمار بخمسين في المائة من مجموعهن فان مجموع ذلك يعادل ١٠ في المائة من مجموع سكان القطر . أي أن بلوغ هذه الغاية يرفع درجة التعليم في مصر الى درجة ايطالية واسبانية وبلغارية وفنلندة وبلاد اليونان =

= ونص المادة الاولى [تعريفات] العبارات الآتية يقصد بها في هذا القانون مايلى:

(ا) المدرسة الاولية معهد تلقى فيه دراسة مناسبة لابناء المصريين بين السادسة والحادية عشرة من عمرهم . ويكون التعليم فيها باللغة العربية فقط وفق منهج خاص تعينه وزارة المعارف العمومية أو تقره يشمل على الاقل تعليم الديانة والقراءة والكتابة والحساب وغير ذلك من المواد التي تعينها وزارة المعارف العمومية

(ب) « السلطات المعادلة لمجالس المديريات » هي السلطات التي يخولها هذا القانون أو أي قانون يليه أن تتولى في المحافظات ما تتولاه مجالس المديريات من شئون التعليم الاولي في المديريات

(ج) « المدارس الاولية الاهلية » هي المدارس الاولية التى لا تديرها مصالح الحكومة ولا مجالس المديريات أو السلطات المعادلة لها

(د) « المدارس الاولية الاهلية المعترف بها » هي المدارس الاولية الاهلية التي ترى وزارة المعارف العمومية أنها قد أدركت الغرض المقصود من هذا القانون من حيث أمكنتها ومعدانها والقائمون بالتعليم فيها وادارتها العمومية

(ه) « السلطة البلدية » كل مجلس بلدي أو مختلط أو محلى أو قروي أو أي سلطة منتخبة من هذا القبيل تخول حق ادارة الشئون المحلية باحدى المدن أو القرى

(و) « السنة » هي السنة المالية المتفق عليها في الحكومة المصرية

ونص المادة الثانية [انشاء المدارس الاولية] يجب على كل مجلس مديرية (في المديريات) وكل سلطة أو سلطات تعادله (في المحافظات) أن يوجد كل سنة من المدارس الاولية المناسبة مايكفي لنصف في المائة (أي لواحد في كل مائتين) على الاقل من مجموع السكان الذين في دائرته باعتبار كل مدينة أو قرية واحدة قائمة بذاتها ، لها مايخصها من المدارس بنسبة عدد سكانها

وينتفي هذا الوجوب فيما يختص بأي مدينة أو قرية متى أصبح بها من المدارس الاولية المناسبة ما يكفي لعشرة في المائة من عدد سكانها . ومع ذلك يجوز لمجالس المديريات والسلطات المعادلة لها أن تستمر في ايجاد معاهد جديدة =

تأثير المشروع من الوجهة الدينية

ان تعليم القرآن للاطفال والعمل على حفظهم له في هـذه السن (من سن ست سنوات الى احدى عشرة سـنة) أمر جرت عليه الشعوب الاسلامية منذ التاريخ الاسلامي لاسيما الشعوب العربية وخاصة منها القطر المصري حتى قال ابن خلدون في الفصل ٣٢ الذي كتبه في هذا الموضوع « اعلم ان تعليم الولدان القرآن صار شعارا من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون

= للتعليم بعد بلوغ هذا الحد في الجهات التي تتطلب أحوالها ذلك

وجميع المدارس الاولية التي تديرها مجالس المديريات أو السلطات المعادلة لها في وقت صدور هذا القانون وكذلك المدارس الاهلية التي يعترف بها فيما بعد يمكن اعتبارها وافية بما تتطلبه هذه المادة من انشاء المدارس وافتتاحها اذا أقرتها وزارة المعارف العمومية . ولكن لا يجوز اعتبارها كذلك الا عن السنين الاخيرة من السنين المقررة لانفاذ هذا القانون

وتقرر وزارة المعارف العمومية عدد ماتسعه كل مدرسة أولية من التلاميذ .

ولا يتحتم على مجالس المديريات أو السلطات المعادلة لها أن تنشئ مدرسة في جهة ما أو توسع في بنائها الا اذا كان عدد التلاميذ الذين يراد ايجاد محال لهم على النسبة الموضحة في الفقرة الاولى من هذه المادة قد بلغ ١٥٠ تلميذا في المدن التي يزيد عدد سكانها على ٨٠٠٠ نفس أو ٧٥ تلميذا في البلدان التي يتراوح عدد سكانها بين ٤٠٠٠ و ٨٠٠٠ نفس . أو ٤٠ تلميذا في البلدان والقرى التي يقل عدد سكانها عن ٤٠٠٠ نفس

وكذلك لايحتم على مجالس المديريات أو السلطات المعادلة لها أن تنشئ مدرسة أولية في جهة ما أو توسع في بنائها مادام بمدارسها الاولية الجامعة للشروط المطلوبة من المحال ما يزيد كثيرا على مبلغ اقبال الاهالي في تلك الجهة على التعليم ويكون البت في ذلك لوزارة المعارف العمومية

الحديث وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات » ومعلوم ان الولدان هم أبناء هذه السن التي يقضي المشروع بالاستيلاء عليهم فيها ويكون القضاء على حفظ القرآن فيها. ولا ندري كيف غاب ذلك عن لجنة الوزارة وهي بنفسها تقول في تقريرها المرفق بالمشروع (فقرة ٥٩) عن المستر لكي في كتابه الديمقراطية والحرية ج ٢ ص ٦٢ « والقاعدة الوحيدة التي يعول عليها ان يجعل الشارعون نصب أعينهم رغبات الامة وميولها كيفما تنوعت أشكالها وأن يسعوا الى تحقيقها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا »[1]

بل رمى أحد الاعضاء بهذا العنوان كما جاء في التقرير [فقرة ٨٣][2] الى أبعد من ذلك حيث لفت أنظار اللجنة قائلا: ان الاعفاء من الخدمة العسكرية لحفظ القرآن القاضي به قانون القرعة الصادر في سنة ١٩٠٢ عقبة في سبيل التعليم الاولي . ونحن

---

(١) نص هذه الفقرة ٥٩ [الصعوبات الدينية] لا تكاد توجد مملكة من الممالك الا كان نمو التعليم الاولي فيها مصحوبا بعقبات نشئة من صعوبة التوفيق بين الآراء المتضاربة فيها بشأن التعليم الديني. ولقد كانت هذه المسألة دائما منبع جدال طويل وربما جاز القول بأنها لم توفق مملكة من الممالك الى حلها حلا مرضيا من جميع الوجوه . ثم عبارة المستر «لكي» المذكور أعلاه

(٢) نص الفقرة ٨٣ [تأثير قانون القرعة] لفت أحد الاعضاء المسلمين نظر اللجنة الى العراقيل التي يضعها قانون القرعة الصادر في سنة ١٩٠٢ في سبيل وضع نظام واف للتعليم الاولي لان الفقرة السادسة والعشرين منه تعفى من الخدمة العسكرية حفظة القرآن الكريم اذا لم تكن لهم مهنة أخرى . ولما كان المصريون ينفرون أشد النفور من الخدمة العسكرية كان معظم الاهلين شديدي الرغبة في العمل على اعفاء أبنائهم منها وكانت لوسيلة الوحيدة لذلك عند الفقراء منهم أن يعدوا أبناءهم ليكونوا حفظة وأن يبعثوهم الى الكتاتيب الاهلية لقضاء جميع أوقاتهم في حفظ القرآن بدلا من ارسالهم الى المكاتب المنتظمة حيث يتعلمون تعلما وافيا مع تلقى المقدار الكافي من التعليم الديني. أما ما يشترطه هذا القانون من عدم =

مع دهشتنا من هذا الحكم لبعد المسافة ما بين سن القرعة وسن المشروع نعجب من موافقة اللجنة باجماع عليه حتى قالت بالفقرة ٨٧ « ان نجاح هذا المشروع أو أي مشروع آخر يرمي الى ترقيـة التعليم الاولي يتوقف على ازالة هذا العائق الذى يصرف الناس عن الاهتمام بالتعليم الاولي »[1]

(٤) من حيث ان المشروع يقضي باستيـلاء وزارة المعـارف تدريجيا مع الهيئات الادارية التي تشاركها على ٨٠ في المائة على الاقل من أبناء المسلمين من سن ست سنوات الى احدى عشرة سنة فهو يقضي على المعاهد الدينية من أساسها لان ينبوع المعاهـد هو تلك المكاتب الاهليـة التي تقوم بتعليم القرآن الكريم

= الاشتغال بمهنة أخرى فلا فائدة منه لان المقترعين لا يلتفت اليهم بعد اعفائهم ولا تعرف الحكومة شيئا ممـا يزاولونه من الاعمال . وقد قيل لنا ان الاحداث الذين يذهبون الى هذه المكاتب لا لشيء سوى حفظ القرآن وتضييع أوقاتهم بها الى السادسـة عشرة أو السابعة عشرة يربو عددهم كثيرا على من ينتظر أن يشتغلوا بشيء من الاعمال الدينية أو يلحقوا بأحد معاهـدها . على أن الازهر الشريف ومدرسة القضاء الشرعي لا يشترطان على راغبي اللحاق بهما أن يحفظوا من القرآن أكثر من نصفه . وقد بلغنا أن حكومة تركية وهي حكومة اسلامية لا تعفي أحدا من الخدمة العسكرية لحفظ القرآن

(١) عنوان الفقرة ٨٧ [ازالة هذا العائق] وتتمتها « الوافي بالغرض . وذلك يتم بأحد أمرين . إما بالسير على النهج المرسوم في مشروع القانون الذي ارتضاه صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية في سـنة ١٩٠٥ وإما باتباع طريقـة أخرى تقرها هيئة رجال الدين الاسلامي . ونود لو وضعت الآن قاعدة عامة تقضي بعدم اعفاء أحد بعد مضي زمن طويل من الآن (أي بعد سنة ١٩٣٠ مثلا) من الخدمة العسكرية لسبب من الاسباب (سواء أكان دينيا أم صناعيا أم تعليميا أم غير ذلك) الا اذا كان طالب الاعفاء قد أتم المقرر الدراسي للمدارس الاولية أو الابتدائية فان ذلك يساعد نشر التعليم الاولي مساعدة عظيمة »

وحفظه ولا يمكن لقانون الازهر والمعاهد الدينية أن يتخلى عن شرط حفظ القرآن لانه شرط ضروري لمن ينتسب للمعاهد الدينية ويتلقى علوم الدين التي تستمد كلها من القرآن كما يقضي ذلك المشروع أيضا على جميع الوظائف الشرعية التي يشترط في مبدئها حفظ القرآن الكريم وما جاء في [الفقرة ٩٠](١) من تقرير لجنة الوزارة «ان من يرغب من النشء في الانتظام في تلك المعاهد الدينية فلديهم متسع من الوقت بعد اتمام مقرر المدارس الاولية (أي بعد السنة الحادية عشرة ان فرض نجاحه فيها) للوصول الى غرضهم هـذا بالتعلم في مدارس اعدادية يشرف عليها رجال الدين» غير كاف في الاجابة ولا مذال تلك العقبة التي يضعها المشروع في سبيل المعاهد الدينية لوجوه

(ا) المدارس الاعدادية التي تحيل عليها لجنة الوزارة هي شيء لا في عالم الوجود ولا في عالم المشروعات فضلا عن كون تعميمها في جميع المدن والقرى حتى تقوم بحاجة البلاد من تخريج القدر الكافي لطلاب المعاهد الدينية ومن وجود الحفاظ بها أمر لا يكاد يكون ممكنا ولا يبلغ درجة انتشار مكاتب الاهلية الحالية التي تقوم بذلك الان

(ب) اذا فرض ان التلميذ الذي يريد الانتظام في سلك المعاهد الدينية لم يساعده الحظ ورسب في بعض امتحاناته السنوية بتلك المدارس الاولية من التحق بالمدارس الاعدادية المذكورة ليتمكن من الالتحاق بالمعاهد الدينية فلم يكون قد بلغ من السن عند الخروج منها ؟ وهل يسمح له الحظ بالمكث من تتميم الدراستين بالمدارس الاولية والمدارس الاعدادية قبل فوات السن المحدودة

---

(١) ونص الفقرة ٩٠ [المدارس الاعدادية] أما من يرغب من النشء في الانتظام في سلك المعاهد الدينية أو في أن يكونوا من حملة القرآن الكريم فلديهم متسع من الوقت بعد اتمام مقرر المدارس الاولية للوصول الى غرضهم هذا بالتعلم في مدارس اعدادية يشرف عليها رجال الدين . ونرى أن تمنح الحكومة ما يكون جامعا لشروط الجدارة من هذه المدارس إعانة مالية

للدخول في المعاهد الدينية أو يحال بينه وبينها ؟ ثم اذا صح انه تمكن من الدخول في المعاهد في آخر سنة يسوغ القانون الدخول فيها للطالب والمعاهد الدينية أقل مدة التعليم فيها خمس عشرة سنة فلا ينتهي الطالب من دور التعليم الا وهو في طريق الكهولة وهذا مالا يرضاه رجال الاصلاح

(ج) باعتبار ان آخر سنة للتلميذ في هذه المدارس الاولية هي السنة الحادية عشرة من عمره اذا فرض نجاحه فيها وانه يحتاج الى مدة أخرى يقضيها في حفظ القرآن ليتمكن من الانتظام في المعاهد الدينية يكون المشروع قد حاف حيفا ظاهرا على قانون المعاهد في تضييق دائرة من ينتسبون اليه بعد ان كانت من سن عشر سنوات الى سبع عشرة سنة [مادة ٦١] من قانون الازهر وحال بين الاباء وبين اعدادهم أبناءهم للتعلم في باكورة شبابهم بالمعاهد الدينية وقد دل البيان الرسمي بدفاتر الانتساب بالقسم الاولي من المعاهد الدينية على ان الذين ينتسبون بالسنة الاولى يوجد بينهم عدد كبير من أبناء الاحدى عشرة سنة والاثنتى عشرة سنة

(د) ان وجود الحرية التامة التي يتمتع بها الآباء الآن في تعليم أبنائهم القرآن الكريم في هذه السن (من ستة الى احدى عشرة) هو الوسيلة الوحيدة في التمهيد للانتظام بالمعاهد الدينية وبعبارة أخرى لحياة المعاهد الدينية والوسيلة في صيانة حفظ القرآن بين الامة لان الحفظ بعد هذه السن يكاد يكون مستحيلا والمثل الشهير في ذلك عند الشعب (الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر)

(٥) ان وجود حملة القرآن الكريم مستظهرين له أمر ضروري اقتضته الشريعة الغراء على سبيل فرض الكفاية في كل أمة لاسيما في مصر (التي تعتبر لمركزها الديني ووجود الازهر فيها كعبة لسائر الشعوب الاسلامية) ليقوموا بفريضة كيفية الاداء والتجويد للقرآن واتقان رواياته وأحكامه ومعرفة رسمه وليحفظوه على الامة وينقلوه بطريق التواتر من جيل الى جيل

فضلا عن ان من خصائص أولئك الحفظ أيضا ماجرت به العادة في منتديات المسلمين ومجتمعاتهم العامة والخاصة من تلاوة آيات الكتاب الحكيم عند اقتضاء الظروف والعادات القومية ليعظوا النفوس ويذكروا الامة بكتابها المقدس الكريم

وما فيه من هدى وارشاد وحث على مكارم الاخلاق ولا يتأتى للامة المصرية القيام بالفريضة المذكورة والمحافظة على تلك العادة القومية الاسلامية ما لم تبق الوسيلة التي تمكن الابناء من حفظ القرآن في أول تعليمهم وعهد مرونتهم

(٦) توجد بالقطر المصري أوقاف جمة مرصودة على تعليم القرآن الكريم للاطفال بطريق الحفظ له غيبا (وتفتيش الوادي مشهور) وتقضي أوامر الشريعة الغراء باحترام شروط الواقفين حتى قال العلماء « شرط الواقف كنص الشارع » فلابد من تنفيذ هذه الاوقاف على الوجه المنصوص بها ولا يجوز بحال أن يصرف ريع تلك الاوقاف في غير هذا النوع من التعليم والمشروع باستيلائه على ٨٠ في المائة من البنين يقضي بتعطيل تلك الاوقاف وصرفها في غير ما رصدت له وبعبارة أخرى يقضي بتعطيل أوامر الشريعة الغراء في تنفيذ هذه الاوقاف في سبيلها ، بل يصرف الناس عن مثل هذا العمل البار (الوقف على التعليم) الذي قام بنهضة كبرى في سبيل التعليم الاولي بمصر وقد اعترفت لجنة الوزارة في [الفقرة ٢٥][1] أن أقوى

(١) عنوان الفقرة ٢٥ « الحكومة وتعليم الأطفال » ونصها — : من الأقوال المأثورة عن نابليون : « إن التعليم يجب أن يكون أول أغراض الحكومة ». ولقد أصبح معظم الحكومات المتمدينة في الوقت الحاضر يعتبر تعليم الأطفال من أعظم واجباته . وقد وصل تعليم طبقات الشعب في البلاد الأوربية إلى ماهو عليه الآن بفضل أربع حركات كبيرة وهي:

(أولا) غيرة الطوائف الدينية على نشر مذاهبها وتوطيد أركانها بتعليم الاحداث،

(ثانيا) قيام مذهب الانسانيين (Humanitarianism) الذي يرمي الى وقاية الأحداث من العمال ،

(ثالثا) قيام الديمقراطية لأنها خولت جما غفيرا من الشعب حق الاشتراك في أعمال الحكومة فاستدعى ذلك تعليم الاطفال لأن منهم ينبغ كبار أعضاء مجالس النواب،

(رابعا) الحركة الصناعية فانها أقنعت الامم بان انتشار التعليم بين جميع الطبقات — ولو اقتصر على مايتناوله التعليم الاولي — يزيد في مقدرة العمال .

وقد كان أقوى البواعث على تعليم الشعب بمصر الى وقتنا هذا على النمط الحالي بواعث دينية ولكن تقدم البلاد من الوجهات الصناعية والسياسية والادبية والاجتماعية سيوجد بواعث قوية جديدة يزيد عظم شانها على مر الأيام ولا يمكن غض الطرف عنها ولا التسويف فيما توحي به من الجد والعمل .

البواعث على تعليم الشعب المصري الى وقتنا هي البواعث الدينيـة واذا يحسن بالمشروع المذكور ان يكون أساسه الذي يعتضد به هي تلك البواعث ليكون أنجح له في سبيله لا ان يقاومها و يقضي عليها وترى اللجنة ان ايجاب حفظ القرآن الكريم في تلك المدارس وجعله أساسا فيها (نظراً لشدة تعلق الشعب المصري بمبادئه الدينية) هو أقرب وسيلة لترغيب الامة في تلك المدارس التي ستعاني الحكومة في الترغيب فيها الصعوبات الجمة

(يتلى)

خلاصة معاهدة الصلح [1]

٥

الفصل الثاني عشر — في المواصلات

الموانئ وطرق الملاحة وسكك الحديد — يطلب من ألمانية أن تمنح حرية الانتقال والنقل للاشخاص والبضائع والسفن ومركبات سكك الحديد الخ التي تأتي من بلاد الحلفاء والدول المشتركة معهم أو تذهب اليها مارة بأرض ألمانية وان تعاملها كما لو كانت ألمانية صرفة والبضائع التي تمر بألمانيـة (ترنسيت) تعفى من الرسوم الجمركية . وتكون أجرة النقل معتدلة ولا تتوقف تسهيلات أو دفع رسوم ما على نوع الراية التي تخفق على السفن سواء كان ذلك مباشرة أو بواسطة . ووضعت تدابير تمنع التمييز بين دولة وأخرى بمراقبة البضائع المنقولة وكل تمييز ممنوع على الاطلاق

ويعجل في نقل البضائع الدولية وخصوصا ما كان منها قابل التلف ويحافظ على المناطق الحرة في الموانئ الالمانية وتقدم التسهيلات اللازمة لمطالب التجارة بلا تمييز في الجنسية . ولكن يسمح بفرض رسوم معينة قليلة في موانئ نهر الالب الحرة . وتحسب جميع الانهر من مقر نهر فلتافا وملتقى نهري مولدو وفلتافا تحت براغ ونهر لاودر من ملتقاه بنهر الاوبا ونهر النيمن تحت جرودنو والدانوب تحت الم — هذه كلها تحسب أنهراً دولية هي وروافدها الواقعة ضمن هذه المنطقة . وتعامل أملاك جميع الدول واعلامها مثل معاملة رعايا البلاد الواقعة على ضفاف تلك الانهر واملاكها

(١) تابع لما نشر في الجزء السادس

وسائر ما يخصها . وقد اتخذت تدابير مختلفة لتأمين التسهيلات ودفع أجور معتدلة والملاحة باشراف جمعية الامم واللجان الدولية . وهذه اللجان تعقد في مستقبل قريب لوضع مشروعات بتنقيح المعاهدات الحاضرة التي يراد بقاؤها نافذة المفعول وقتيا . ويطلب من ألمانية ان تسلم جزءاً من سفنها النهرية ورفاصاتها والمهمات الاخرى بعد ثلاثة أشهر من اعلانها بذلك

أما من جهة الدانوب فان اللجنة القديمة تعاد اليها السلطة التي كانت لها قبل الحرب ولكن لا تمثل فيها الا بريطانية العظمى وفرنسة وايطالية ورومانية . وأما المنطقة الخارجة عن اختصاص اللجنة فتعين لها لجنة دولية لادارة أمور الدانوب الاعلى كله الى ان يتوصل الى تسوية المسائل تسوية نهائية . ونص على حفر قنال بين الدانوب والرين اذا قر الرأي على حفرها في مدة ٢٥ سنة . ووضعت مواد خاصة بنهري الرين والموزل وتبقى معاهدة ١٨٦٨ نافذة المفعول اجمالا مع بعض تعديلات مهمة . ويكون مقر اللجنة المركزية ستراسبرج وتعين فرنسة رئيسها . ولما كانت هولندة من جملة الدول الموقعة لهذه المعاهدة فان التعديلات المشار اليها تعرض عليها وتسلم ألمانية الى فرنسة بعد ثلاثة أشهر جزءا من رفاصات موانئ الرين وسفنها أو اسهما من أسهم شركات الملاحة فيه وكذلك جزءا من الابنية والرفاصات وما أشبه ذلك مما كان للالمان في ميناء روتردام في ١ أغسطس سنة ١٩١٤ أو أسهما من أسهم شركاتها فيه ، ويكون لفرنسة الحق التام على حدودها في استخدام ماء الرين للزرع وما شاكل ذلك وعمل الاعمال اللازمة لاستخدام مائه في ادارة حركة الالآت بشرط ان تدفع مالا معينا وبشرط موافقة اللجنة

وتتكفل ألمانية بأن لا تحفر ترعاً على ضفة النهر اليمنى المناوحة للحدود الفرنسوية وبأن تمنح فرنسة بعض الامتيازات على ضفته ليبنى لبناء بعض المباني الهندسية مقابل دفع تعويض ويجوز اسويسرة مثل هذا في أعالي النهر . واذا استقر رأي البلجيك في خلال ٢٥ سنة على حفر ترعة بين الرين والموز وجب على الحكومة الالمانية ان تحفر ما وقع منها في أرضها طبقا للتصميمات التي تضعها الحكومة البلجيكية وتوزع النفقة على الحكومات المختلفة المختصة . ولا يجوز لالمانية ان تعارض اللجنة فيما اذا شاءت ان توسع دائرة اختصاصها بحيث تشمل نهر الموزل الاسفل بموافقة حكومة

ليكسمبرج والرين الاعلى بموافقة حكومة سويسرة والترع الجانبية التي يراد حفرها لتحسين الملاحة . ويجب على الحكومة الالمانية ان تؤجر جمهورية التشك والسلوفاك مدة ٩٩ سنة اماكن في ميناءي همبرج وستتن تكون مناطق حرة

سكك الحديد – نصت المواد الخاصة بسكك الحديد على ان البضائع التي ترسل بين بلاد الحلفاء والمانية أو بطريق ألمانية لها الحق في أعظم المراعاة . وبحثت في بعض رسوم سكك الحديد فقالت انه اذا وضع اتفاق جديد لسكك الحديد بدلا من اتفاق برن المعقود سنة ١٨٩٠ وجب على المانية ان تعمل به وقبل وضعه تعمل باتفاق برن . وتشترك في تسيير قطرات للركاب والبضائع بين بلاد الحلفاء بطريقها وبشروط موافقة وتسيير قطرات للمهاجرين أيضا . وتجهز مركبات سكك الحديد بآلات تمكنها من الاندماج في قطرات البضائع التي للحلفاء من غير تغيير انظام السبنسات ويفعل الحلفاء مثلها . ونصت أيضا على تسليم أنظمة الخطوط في الاراضي المنتقلة وتسليم مقدار معتدل من المركبات لاستعمالها فيها . ويعهد الى لجان خاصة في تشغيل الخطوط التي تصل مابين قسمين من بلاد واحدة وتجتاز في طريقها بلادا أخرى أو الخطوط الفرعية التي تمر من بلاد الى أخرى واذا لم تكن هناك اتفاقات خاصة فعلى ألمانية أن تسمح بمد مثل هذه الخطوط أو اصلاحها حسب الاقتضاء لتكون هناك خطوط منتظمة بين بلد من بلاد الحلفاء وآخر . هذا اذا طلب ذلك منها في خلال ٢٥ سنة بموافقة جمعية الامم . والدول المتحالفة تدفع النفقات

توافق ألمانية بطلب حكومة سويسرة والحكومة الايطالية على نقض معاهدة ١٩٠٩ الخاصة بطريق نفق سان غوتر . ويوضع بدلا منها اتفاق وقتي تنفذ ألمانية بموجبه تعليمات تصدر باسم الحلفاء من حيث نقل الجنود والمهمات والذخيرة وما أشبه ذلك ونقل المؤونة الى بعض الجهات واعادة وسائط النقل العادية وخطوط البوستة والتلغراف

توافق ألمانية على الانتظام في كل اتفاق عام يعقد على أمور النقل وطرق الملاحة والموانئ وسكك الحديد الدولية بموافقة جمعية الامم في مدة خمس سنوات من عقده . ويعهد في تسوية كل خلاف الى جمعية الامم . أما بعض المواد الخاصة كالمواد التي تنص على المعاملة المتساوية في مسائل مرور البضائع ونقلها فهي عرضة

لتنقيح جمعية الامم لها في خلال خمس سنوات . واذا لم تنقح فانما تنفذ على كل دولة من الدول المتحالفة التي تسمح بمعاملة متبادلة

قنال كيال — تكون قنال كيال حرة ومفتوحة امام البوارج والبواخر التي لجميع الامم اذا كانت في حالة سلم مع ألمانية وتعامل رعايا جميع البلدان وبضائعها وسفنها بالمساواة من حيث استخدام القنال ولا تؤخذ رسوم ما الا الرسوم اللازمة لحفظ القنال واصلاحها ويعهد في هذا الى ألمانية واذا نقضت هذه الشروط أو جرى خلاف عليها فللدول المختصة ان ترفع المسئلة الى جمعية الامم وتطالب تعين لجنة مختلطة

الفصل الثالث عشر — في العمل والعمال

الاتفاق الخاص بالعمل والعمال — ينص هذا الاتفاق (أولا) على عقد مؤتمر دولي كل سنة لعرض اصلاحات في أمر العمل والعمال توافق عليها الدول التي تتألف جمعية الامم منها و(ثانيا) على انشاء هيئة ادارة تنفيذية تعد مذكرات للمؤتمر وانشاء مكتب دولي للعمال لجمع المعلومات والتقارير وتوزيعها . ويكون رئيس هذا المكتب مسئولا امام الهيئة الادارية و(ثالثا) على ان يكون المؤتمر السنوي مؤلفا من أربعة مندوبين عن كل حكومة اثنين عن الحكومة نفسها وواحد من أرباب الاعمال وواحد عن العمال ولكل مندوب ان يعطي صوته مستقلا . وللمؤتمر ان يوافق بأكثرية ثلثي أعضائه على الاقتراحات أو صور الاتفاقات الخاصة بمسائل العمل والعمال . ومتى تمت الموافقة عليها تعرضها الحكومات صاحبة الشأن على الدوائر المختصة لسن قوانين بها أو ما أشبه ذلك فاذا وافقت عليها هذه الدوائر المختصة وجب على الحكومات صاحبة الشأن ان توقعها وتنفذها فاذا أهملت حكومة من الحكومات هذه الواجبات فللهيئة الادارية المذكورة ان تعين لجنة تحقيق تحكم بما ترى ولجمعية الامم ان تتخذ تدابير اقتصادية ضد الدولة المخالفة . و(رابعا) على اتخاذ تدابير خاصة لمنع كل خلاف يقع مع دستور الولايات المتحدة أو غيرها من الدول التي في حكمها . و(خامسا) على البلاد التي هواؤها وأحوالها الصناعية المتأخرة وغير ذلك من أحوالها الخاصة تجعل أحوال العمل والعمال فيها مختلفة اختلافا جوهريا عن أحوال غيرها . وعلى المؤتمر في أحوال مثل هذه ان يراعي هذا الاختلاف عند وضع أي معاهدة وقد الحق بهذا

الاتفاق بروتوكول بأن يعقد الاجتماع الاول في وشنطن في السنة الجارية و بتعيين لجنة دولية لهذا الغرض . وفيه أيضا جدول للبحث في موضوعات الاجتماع الاول ومن جملتها مبدأ جعل ساعات العمل ثمانيا في اليوم ومسئلة العمال العاطلين واستخدام النساء والاولاد في الصناعات الخطرة خصوصا

والحق بالجزء الخاص باتفاق العمال عهدا من الدول الموقعة على هـذه المعاهدة بشأن تنظيم أحوال العمل ومبادئه التي يجب على جميع البلدان الصناعية ان تسعى في تطبيقها عليها بقدر ما تسمح به ظروفها الخاصة بها . و بين هذه : ان لا يحسب العمال مجرد سلعة . حث أصحاب الاعمال والعمال في الاتحاد على كل عمل مشروع . ان يدفع الى العمال أجور توافق أحوال المعيشة في زمانهم ومكانهم جعل ساعات العمل ثمانيا في اليوم أو ثمانيا وأربعين في الاسبوع حيث لم يعمل بذلك حق الآن . جعل ساعات الراحة في الاسبوع أربعاً وعشرين على القليل وفي جملتها الاحد حيث يمكن ذلك . الغاء تشغيل الاولاد وحصر تشغيل الاحداث بحيث يسمح لهم بالاستمرار على الدرس والرياضة اللازمة . جعل أجوة الرجال والنساء متساوية حيث العمل متساو . ان يراعى في شروط العمل القانونية في كل بلاد معاملة جميع العمال الذين فيها معاملة اقتصادية عادلة . ان تضع كل بلاد نظاماً للتفتيش يقصد به حماية العمال وتشترك النساء فيه

الفصل الرابع عشر ـ الضمانات

غرب أوربة — ضمانا لتنفيذ المعاهدة تحتل جنود الحلفاء والدول المشاركة لهم البلاد الالمانية الواقعة غربي نهر الراين ورؤس الكباري مدة خمس عشرة سنة . فاذا نفذت ألمانية شروط الصلح بصدق واخلاص انجلت جنود الحلفاء عن بعض البقاع وفي جملتها رأس الكبري الذي عند كولونيا بعد مضي خمس سنوات . تنجلي عن بقاع أخرى ومن ضمنها رأس الكبري في كبلنز بعد عشر سنوات وعن البقي وفي جملته رأس الكبري عند ماينز بعد ١٥ سنة واذا رأت لجنة التعويض الدولية ان ألمانية قصرت في انجاز عهودها كلها أو بعضها مدة الاحتلال أو بعد مضي الخمس

عشر سنة عادت جنود الحلفاء فاحتلت حالا تلك البقاع كلها أو بعضها . واذا أنجزت ألمانية جميع عهودها الخاصة بالمعاهدة الحالية قبل مضي الخمس عشرة سنة فان الجنود المحتلة تجلو عن أرضها حالا

شرق أوربة — وكذلك تعود جميع الجنود الالمانية الموجودة الآن شرقي الحدود الجديدة حالما يرى الحلفاء ان الساعة ملائمة لذلك : ويجب عليها ان تمتنع عن كل مصادرة وما أشبهها وأن لا تتعرض لتدبير من التدابير الدفاعية التي تتخذها الحكومات الوقتية المختصة

احتلال الاراضي — كل مسئلة خاصة باحتلال الاراضي لاتنص عليها هذه المعاهدة تسوى بموجب معاهدات تعقد فيما بعد ويكون لها مفعول هذه المعاهدة وتأثيرها

الفصل الخامس عشر ـ شتى

شتى — تعترف ألمانية بصحة معاهدة الصلح والاتفاقات الاضافية التي تعقدها دول الحلفاء والدول المشتركة معهم مع الدول حليفات ألمانية وتوافق على القرارات الخاصة بأراضي النمسة والمجر وبلغارية وتركية وتعترف بالدول الجديدة ضمن الحدود التي تعينها الدول الموقعة على هذه المعاهدة

وتوافق الدول على ان رؤساء اللجان يكون صوتهم بعض الاحيان فاصلا في المسائل التي تتساوى الاصوات فيها . أما أعمال المرسلين الالمان في الاراضي التي ستنتقل الى أيدي الحلفاء فتستمر تحت اشراف امناء تعينهم الدول التي تنتقل تلك الاراضي اليها . وهناك مادة تتعهد ألمانية فيها بأن لا تطالب دولة من دول الحلفاء الموقعة لهذه المعاهدة بمال بناء على وادث سبقت العمل بهذه المعاهدة وتقبل جميع الاحكام التي تصدرها محاكم الغنائم التي للحلفاء بشأن السفن أو البضائع الالمانية ويحفظ الحلفاء لانفسهم حق النظر في الاحكام التي أصدرتها محاكم الغنائم الالمانية

وقد حررت هذه المعاهدة بالفرنسوية والانكليزية وسيصادق عليها وتودع في باريس بأسرع مايمكن ؟ ويلي ذلك نصوص مختلفة بشأن المصادقة

يسري مفعول هذه المعاهدة على كل دولة من تاريخ مصادقتها عليها

انتهت معاهدة (فرسايل)

الرحلة السورية الثانية

تمهيد

هاجر صاحب هذه المجلة من الديار السورية الى الديار المصرية في شهر رجب سنة ١٣١٥ عقب انتهائه من طلب العلم في طرابلس الشام وأخذه شهادة التدريس (العالمية) لاجل القيام بعمل اصلاحي للاسلام والشرق، لا مجال له في بلد اسلامي عربي غير مصر، والاستعانة عليه بصحبة الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) والاقتباس من علمه وحكمته، والوقوف على نتائج اختباره وسياحته، وعمله مع حكيم الشرق وموقظه من رقدته، (السيد جمال الدين الافغاني) قدس الله أرواحهما. وكنت قبل ذلك أمنّي نفسي بالالتحاق بالسيد الحكيم ولزامه، ومرافقته في ترحاله ومقامه، فلما توفاه الله تعالى اليه نضيت عني رداء التمني والتواني، وقلت لئن فاتني لقاء المعلم الاول فلن يفوتني لقاء الثاني،[1] وأنشأت (المنار) في أواخر تلك السنة ولم أكن أنوي أن أشتغل بالسياسية ولا بالاصلاح من طريقها بل بالاصلاح الفكري والنفسي والاجتماعي، ولكن السياسة السوءى عدوة الاصلاح ترى بقاءها بفقده، وحياتها بموته، فهي لا تترك القائم به اذا هو تركها وقد كان دعاني عبد القادر أفندي القباني صاحب جريدة (ثمرات الفنون) — اذ كاشفته في بيروت بعزمي على السفر الى مصر وانشاء صحيفة اصلاحية فيها — الى رياسة التحرير لجريدته فقلت له ليس في البلاد حرية تمكنني من ذلك. قال اترك الطعن في السلطان واكتب في الاخلاق والآداب ما تشاء فلا تجد مانعا ولا معارضا، قلت أرأيت اذا بحثت في الكذب الذي هو شر الشرور على الاطلاق وبينت ان أكبر أسباب فشوه وانتشاره هو الاستبداد المانع من قول الصدق، والمعاقب على التزام الحق، أيمكنني أن أنشر هذا في الجريدة وأكون آمنا من عقاب الحكومة؟ قال كلا أن أمثال هذه المباحث

(١) أطلق لقب المعلم الاول عند المشتغلين بالحكمة النظرية اليونانية على الحكيم ارسطو والمعلم الثاني على الرئيس ابن سينا

لا يمكن نشرها في غير مصر فعجل بالسفر ولا تخبر بعزمك أحدا لئلا يصل الخبر الى الوالي فيمنعك منه

صادرت حكومة سورية العدد الثاني من المنار بعد توزيعه، لمقالة فيه عنوانها (القول الفصل في سعادة الامة) ليس فيها ذكر لحكومتها ولا لغيرها من الحكومات بسوء ، ثم صدرت ارادة السلطان عبد الحميد بمنع المنار من دخول مملكته في الشهر السادس من عمره وتلا ذلك اضطهاد والدي واخوتي لاجلي بعد خيبة سعي السياسة لاخراجي من مصر وعرض ما أحب من المناصب والوظائف العلمية أو غيرها في ديار الشام أو غيرها ، وبذلك حرمت من زيارة وطني الى أن أعلن الدستور سنة ١٣٢٧ فزرته عقب اعلانه اذ كانت البلاد ترقص به طربا والناس يحتفلون فيها لاظهار سرورهم بالخطب والاناشيد ، ويحتفون بمن يعود اليهم من المهاجرين المجاهدين ، والاحرار المنفيين وأشباه المنفيين ، ويتحاورون ويتناجون بما يجول في خواطرهم من الاماني والآمال ، وما يرجون من كبار الاعمال ، ويقدسون جمعية الاتحاد والترقي ويطرون من عرفوا أسماءهم من زعمائها ، ويكرمون كل من لقوا من أعضائها ،

قد علم قراء المنار في ذلك العهد أنني كنت باعلان الدستور مسروراً لا مغرورا ، وراجيا خائفا ، لا راجيا متمنيا ، ولكنني رأيت الناس في البلاد العثمانية سكارى من تأثير ذلك الانقلاب أكثرهم يحسب ان البلاد سعدت سعادة لا شقاء بعدها ، وأقلهم منزعج ممتعض لما فاته من المال والجاه في ظل الحكومة الحميدية وهم أعوان تلك الحكومة وجواسيسها . وقد أشرت الى أسباب خوفي ومثاراته في أول مقالة كتبتها في الترحيب بالانقلاب وأهمها توقع استبداد رجال الثورة من الاتحاديين وقيامهم بالعصبية الجنسية ودعوى « الحاكمية التركية » والغلو في الحرية ، ..

لذلك كانت نصيحتي لاهل بلادي السورية التي أبثها في الاندية والستار وأوادعها أكثر الخطب السياسية والادبية هي تذكيرهم بما يجب من العناية بالعلم واللغة العربية والتهذيب والثروة ليكونوا أحياء أعزاء بأنفسهم ، وعضوا رئيسا في بنية دولتهم ، وقد رجوت أن أجد ثلة من الشبان ، المفكرين والكهول المحنكين، أولي

عزيمة وشكيمة ، وأخلاق قوية ، ينهضون بذلك متعاونين فلم أجد عند أحد أملا في العمل للامة من طريق الامة ، بل وجدت الاعناق كلها متلفة الى الحكومة والآمال كلها موجهة اليها ومحصورة فيها ، فحزنت حزنا شديدا ونبهت الجمهور الى غرورهم بالحرية الموهومة والسعادة التي يتمنونها من اعلان الدستور في مجالس كثيرة كان أوضحها وأظهرها خطبة ألقيتها في نادي الجمعية العثمانية في بيروت في احتفال كبير دعيت اليه عرضت فيها بتلك الاحتفالات العظيمة بالحرية وشبهتهم فيها بعاشق أم عمرو اذهام صبابة بها وهو لم يرها ، ولا شاهد شيئا من محاسنها ، وانما سمع رجلا ينشد في الطريق :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة　　ردي عليّ فؤادي أينما كانا

فاستنبط من هذا البيت ان أم عمرو أجمل النساء وأجدرهن بأن تعشق فعشقها ، ثم لم يلبث أن أخذه من الحزن والجزع لفراقها ، بقدر ما أصابه من الشغف والصبابة بها ، لبيت آخر من الشعر سمعه من رجل آخر مارّ في الطريق فاستنبط أنها ماتت وهو

لقد ذهب الحمار بأم عمرو　　فلا رجعت ولا رجع الحمار

هكذا صرخت بأولئك الجماهير انني أخشى أن تكونوا رقصتم طربا وهمتم سرورا بحرية متخيلة موهومة ، وأن ينتهي الامر بيأسكم منها وبكائكم عليها قبل أن تروها ، وتتمتعوا بما ترجون من السعادة بها ، وهكذا كان ، ووقع ما كان عندي ولم يكن عند الجمهور في الحسبان ، ولم يحل الحول على تلك الحرية الاتحادية وتقديس جميع الشعوب العثمانية لرجال جمعية الاتحاد والترقي حتى نجم في الجمعية قرنا الاستبداد والعصبية التركية ، فنطحت بهما الحرية والدستور وآمال الشعوب العثمانية فيهما حتى قضت عليهما فلم يبق لهما في البلاد العثمانية عين ولا أثر ، وما انقطعت آمال هذه الشعوب من الدولة التي دانوا لسلطانها عدة قرون الا وتجددت لهم آمال أخرى في حياة الاستقلال القومي بل صاروا يفضلون الزوال على الخنوع لاستبداد هذه الجمعية المغرورة المتهورة المتكبرة

كانت الدولة العثمانية في القرون الاخيرة ، التي قويت فيها دول أوربة واعتزت ، وتواطأت على استعباد الشعوب الآسيوية والافريقية ، هي الدولة الاسلامية الوحيدة المعترف لها بالحقوق الدولية معهم ، لذلك كان حرص المسلمين على بقائها واعلاء

شأنها عظيما جدا ، وكان تعلق الشعوب الاسلامية بها أكبر قوة لها في نظر دول أوربة بما كانت تتقي ايقاظ شعورهم السياسي بما يوحيه اليهم من الوحدة والاستقلال . ولم تكن لهذه لدولة هذه القيمة لا بكون بلاد العرب التي هي مهد الاسلام وموطن نشأته الدينية والمدنية جزءا طبيعيا منها ، ولكن الاتحاديين المستكبرين احتقروا العرب و بلادهم ودينهم فلم يرقبوا فيهم إلاًّ ولا ذمة ، ولا دينا ولا حرمة ، فاضطهدوهم وأذلوهم وحاولوا ابطال لغتهم التي هي لغة كتاب الله ودينه استغناء عنها ومحاولة لنسخها باللغة التي جعلوها لغة « حاكميتهم الملية » وجعل بلادهم الخصبة كسورية والعراق تركية محضة وجزيرتهم مستعمرة للترك يتصرفون فيها تصرف المالك في عقاره والسيد في عبيده وإمائه ،

فلما رأيت بوادر هذه السياسة الاتحادية السوء رحلت الى الآستانة دار الملك ساعيا لتلافي خطرها ، وايقاف ماكاد يستشري من ضررها ، قبل أن يتسع الخرق على الراقع ، فمكثت في دار الملك سنة كاملة أطلع طلع القوم بمحاورة زعمائهم ووزرائهم ، ومذاكرة علمائهم وعقلائهم ، وما عدت من تلك العاصمة الا وأنا موقن بأن هذه الجمعية ستقضي على هذه الدولة ، وأن اضطهادها بسلطة الحكومة للعرب سيعيد اليهم عصبيتهم الجنسية التي فقدوها في بلاد حضارتهم كسورية والعراق ، وعوات على السعي لجعل القاعدة التي يرفع عليها بناء النهضة العربية هي العلم والثروة والوحدة حتى لا تتوقف حياتهم على حياة هذه الدولة ولا يموتوا بموتها ، مع الحذر من ان يكونوا باختيارهم سببا من أسباب سقوطها ، والاجتهاد في موالاة الشعب التركي والتعاون معه على مكافحة النزغات الالحادية والنزعات المادية ، وقد أسس في أثناء اقامتنا في الآستانة (المنتدى الادبي) لجمع كلمة شبان العرب المشتغلين بتلقي العلوم والفنون في مدارسها والتعاون على طلب العلم والتعارف والتآلف في سبيل الارتقاء

بعد العودة من الآستانة بأشهر رحلت الى (الهند) فسقط فالكويت فالبصرة فبغداد فسورية واتفق بعد وصولي الى سورية ان ظفر حزب الحرية والائتلاف في الآستانة بحزب جمعية الاتحاد والترقي في مجلس المبعوثين وما كان الفلج لهذا الحزب الا بتألفه من أحرار العرب ومنصفي الترك وكانا حزبين فاتحدا وصارا حزبا واحدا ،

فرأيت السواد الاعظم من السوريين فرحين مغبوطين بخذلان الاتحاديين بقدر مارأيت قبل ثلاث سنين من غبطهم بهم وافتخارهم بالانتماء اليهم، وانتمى الاكثرون منهم الى الائتلافيين خصومهم، وخفتت أصوات من بقي من أتباعهم فكان الالوف من الناس يجتمعون في الاندية والمحافل يتبارون في إلقاء الخطب والقصائد في الطعن فيهم والتشفي منهم، بعد ان كانت تقفى في الفخر بهم والثناء عليهم، وابتغاء الزلفى عندهم والوسيلة اليهم

ثم أديل لهم من خصومهم الائتلافيين في عاصمة الملك فنكلوا بهم فيها شر تنكيل ولم ينج من زعماء هؤلاء الخصوم الا من فر متنكرا الى أوربة أو مصر (ومنهم أمير الالاي صادق بك والاستاذ حسن صبري أفندي ورشيد بك ناظر الداخلية) وكان ذلك كله في أثناء حرب البلقان التي انكسرت فيها الدولة العثمانية حتى كادت دولة البلغار الجديدة تأخذ القسطنطينية منها عنوة، ولولا ما أصاب الدولة منها من الضعف والوهن وما كان في أثنائها من سحب قواها العسكرية من الولايات العربية لانتقم الاتحاديون ممن أظهروا لهم العداوة في البلاد العربية ولا سيما الذين ألفوا الجمعيات الوطنية كما انتقموا من أعدائهم في العاصمة، ولكنهم لضعفهم أسروا الكيد، وكظموا الغيظ والضغن، وأظهروا الميل الى الاصلاح والجنوح الى الصلح، وكان من أمرهم في إبان انعقاد المؤتمر السوري في باريس ما هو معروف، وفي استمالة طالب بك النقيب بعد محاولة اغتياله أن توسلوا به الى الاتفاق بينهم وبين الامير ابن سعود

وقبل الانتهاء من تمثيل دور الاتفاق بينهم وبين ممثلي الحركة السياسية من العرب في العاصمة (وفي مقدمتهم أصدق أخلائنا وأشعري سياستنا السيد الزهراوي وباقعة شبابنا عبد الكريم الخليلي) اشتعلت نار الحرب الاوربية الكبرى ولم يلبثوا أن أصلوا الدولة العثمانية سعيرها، وأحرقوها بشرر شرورها، وفي أثنائها اختاروا لقيادة فيلق سورية (منبت النهضة العربية) أشد زعمائهم قسوة وأغلظ قوادهم قلبا واضراهم بسفك الدماء أحمد جمال باشا الذي وكل بخصومهم الائتلافيين في العاصمة ذلك التنكيل الفظيع، ومنحوه السلطة المطلقة فخادع أهل البلاد أولا باظهار الميل الى العرب

والرغبة في مساعدة النهضة العربية ، وجعلها عونا وظهيرا للنهضة التركية ، تأييدا لما يضمها من الجامعة الاسلامية ، وما زال يقتل منهم في الذروة والغارب ، الى أن عرف أصحاب الافكار المدبرة ، والفصاحة المؤثرة ، وأولي المبادئ الثابتة ، والعزائم الصادقة ، ثم مادّهم في المخادعة الى ان جمع الجيوش من البلاد وقذف ببعضها جيوش الروسية في حدودها الزمهريرية ، وألقى بالبعض الآخر في أتون ملحمة الدردنيل الكبرى ، ومكن لنفسه في البلاد — بعد هذا كله بطش تلك البطشة الكبرى تقتيلا وتصليبا للافراد النابغين ، وتشريدا وتغريبا للاسر والبيوتات واللاغنياء والوجهاء ، وتلا ذلك نكبة المخمصة المجتاحة ، في إثر المصادرات الكثيرة للاموال الناطقة والصامتة ، حتى أكل الناس الاقذار والجيف بل أكلت الامهات أولادها ، وهو يرى ويسمع ، ويتمتع ويفسق ويفجر ، وينهى ويأمر ، وفعل أقرانه وأقتاله في العراق نحوا مما فعل في سورية ، فأيأسوا الامة العربية من الدولة العثمانية ، واضطروها الى إعلان الثورة في البلاد الحجازية ، فكانت من أسباب تقليص ظلها عن رءوسهم ، وزوال سلطانها من بلادهم ، ولكنه سبب اضطراري ، لا مقصد اختياري ، وانما كان القصد حياة العرب بالحرية والاستقلال ، لا إماتة الترك بأيديهم ، ولا اماتة أنفسهم تحت أرجلهم ، ولا مجال في هذا التمهيد للاشارة الى شيء من وصف هذه الثورة ولا بيان ماعرفنا منها وما أنكرنا ، وانما نختمه بأن الحرب العامة انتهت باحتلال جيش الثورة مع جيوش الحلفاء للبلاد السورية وبعد مرور بضعة أشهر على استقرار الاحتلال ، وتبدل الاحوال ، تيسرت لنا الرحلة الثانية الى هذه البلاد ، وسنبين مانرى فيه الفائدة والعبرة مما رأينا وسمعنا فيها ، وموعدنا الاجزاء الآتية من المنار

تصحيح أغلاط الجزء السادس من م ٢١ منار (١)

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٢٧	١٦	بمكانه	بمكانة
»	٢٠	له	الحالة
٣٢٨	٨	قد	لقد
»	١٧	باختصار	اختصار
٣٢٩	٣	أحول	أحوال
»	١٦	عادة	وعادة
٣٣١	٦	وعدتني	ماوعدتني
٣٣٢	٢	اذ	اذا
»	٣	تهويم	تهويم
»	٦	فتنشر	فتنتشر
٣٣٣	٢	ترى	لاترى
»	٩	واعذارا	اعذارا له ولمؤلفه

(١) انظر ص ٣٩٢ من هذا الجزء

سورية بعد التحرير

لاتدعوا الى الفتنة فان أسرع الناس
الى القتال أقلهم حياء من الفرار

الاحنف بن قيس

أذكى أوار هذه الحرب الضروس قوم ظنوا أن لهم بها جر مغنم ، وأضرم نارها أقوام دُعُوا اليها دعا مؤملين دفع مغرم ، وساعد فيها شعب آخر ليمنع اقتراف المأثم ، ويحول دون فناء العالم، خدمة للانسانية التي تتألم. دارت رحاها خمس دورات ، وجرت جيادها خمسة أشواط ، وقطب رحاها ثابت وقصب السبق أحرز — أو كاد — فوضعت السذاجة الاشعرية مبادئ لاخماد ثورتها ، واسكان براكينها رحمة بالانسانية ، فانقادت الفضيلة الشخصية لتلك المبادئ السامية فانجلى المغير عن أراض احتلها وسلم الصياصي التي كان قد أحكم بناءها . وظن ان فجر سعادة الانسانية قد تنفس ، وان قد تساوت الامم والشعوب في الواجبات والحقوق ، وانتشر لواء الحرية وطوي علم الاستعباد . ماذا جرى بعد ان وضعت الحرب أوزارها ؟

تناول ذلك الدهاء العمري تلك المبادئ فحولها عن وضعها بالتأويل والتحريف استخلص منها معاهدة للصلح كانت علة لجميع الحروب المنبثقة ، من تلك المعاهدة وستكون سبب حروب المستقبل وخراب العالم [1] فاذا كانت مبادئ ولسن محكمة عادلة فان المعاهدة مخشربة جائرة . جاس قوم خلال ديار قوم آخرين فاستباحوا بيضتهم ، وانتهكوا حرمتهم والله من ورائهم محيط

أجلبت أمم بخيلها ورجلها على الوادعين الساكنين الآمنين من جيرانها فكانوا الى الفتنة أسرع من اختطاف البازي أو هوي العقاب . فلما صرحت الرغوة عن اللبن الصريح ، واستبان الراجل من الراكب وتميز الاجرب من الصحيح ، نكصوا على أعقابهم فولوا الدبر غير معقبين

ايقظت المبادئ الولسنية امما وشعوبا من سباتها ، وفتحت للمرضى باب الشفاء وللموتى باب الحياة ، — وان يكن المؤلون قد أوردوا معظم الشعوب شعوبا ، وجعلوا الخير المأمول منها مقلوبا — فان دم الحياة قد دب في الاجسام ، وتيار الانفلات من

(١) أنظر مبادئ ولسن ومعاهدة فرساي

سلطة المستعمرين قد تمشى في العقول ، وتسرب الى القلوب، وتقرب ما كان قد تباعد ، وانفلق صبح شعوبية راقية من بلاد كانت أعرق الامم بالارستوقراطية ، بل لم يكن يدين بعبادة البشر — أو الملوك — الا حياء أحد على وجه البسيطة الا ما كان في روسية (منبعث النور الآن)

وكان من تلك الامم والشعوب من تحفز للوثبة ، وأعد الاستقلال العدة الامة العربية بأسرها وخصوصا أهل الشام والعراق وشبه الجزيرة منها

كونت هذه الامة الاحزاب وألفت الجماعات ووضعت الانظمة والقوانين لادارة حركتها، والقيام بمهمتها ، ثم توطيد نهضتها وانماء علومها وثروتها، وأول مظهر من مظاهرها قيام ملك الحجاز على أسياده وأبناء دينه (الترك) دفاعا عن أبناء وطنه وجلدته قام بالثورة وشد عضده فيها بنوه ومن ورائهم الامة العربية في مهاجرها وأوطانها ، وانسل من بقي من شبان العرب في الجيش التركي فانضموا الى هذه الحركة طمعاً بتأسيس مملكة عربية تضم جناحي الجزيرة الى قلبها

قام الثائرون قومتهم وساعدوا الاحلاف حاضرهم وباديهم على كسر شكيمة الترك وخضد شوكة الملحدين منهم فانجلى الترك عن العراق والشام والحجاز بعد ان قتلوا النابغين من شبان العرب، وألبسوا أهل القطرين (الشام والعراق) لباس الجوع والخوف ، وساموهم أنواع التعذيب والخسف

فرح أهل البلاد العربية بتقلص ظل الترك عن ربوعهم وخصوصا النابهين منهم — لانهم غير الحكماء والعقلاء — بناء على موعدة وعدها الاحلاف للملك حسين ابن علي أخذت بها معاهدة ان كانت كمبادئ ولسون فان معاهدة (سايكس بيفو) لها كمعاهدة فرسايل لتلك . قد ضمنت معاهدة الشريف مع الحلفاء استقلال سورية والعراق على شروط وقيود حفظت [للمحررين] حقوقا قديمة وحقوقا حديثة وحددت معاهدة سنة ١٩١٦ مناطق النفوذ لكل من دول الاحلاف فكان من جراء ذلك التقسيم الذي تعاني سورية وحدها مضضه وتتجرع غصصه . تقسيم غير عقلي ولا شرعي ولا طبيعي ، تقسيم جعل بأس الاهلين بينهم شديداً ووضع في قلوب المحتلين بعضهم لبعض ضغنا جديداً ، ومزق احشاء البلاد كل ممزق ، تقسيم

يستحيل معه دوام الراحة وتمكين الاستعداد للرقي الذاتي والاستقلال، للترقي ويعرقل مهمة الانتداب ويشل يد الاستغلال

« من غالب الطبيعة غلب » بأي وسيلة تقسم بلاد متصلة الحدود مشتركة المنافع متحدة اللغة الى مايسمى المنطقة الغربية ثم تقسيم هذه المنطقة الى لبنان والساحل . ومنطقة شرقية ومنطقة جنوبية أو مملكة صهيونية

خلق الله هذه المملكة من الارض متصلة متداخلة بعضها ببعض وخرقت لها السياسة ممالك ونسبت اليها أقواما ليسوا في العير ولا في النفير .

أحيت السياسة من ثنايا الدهر وطيات الزمان اسم الفينيقيين وأحدثت فكرة الصهيونيين بعد ان محيت فينقية من لوح الوجود ، وزلزلت طوارق الحدثان ملك اليهود ، و بدلت الارض غير الارض

دعت الحاجة الى احياء الفوارق الدينية ، و بعث العصبيات المذهبية ، بعد ان أزال ظلم الاتحاديين كوامن الاحقاد واتحدت الامة ايما اتحاد .

جرى كل هذا وادعاء الاصلاح لايزال قائما ، وقضية الاستقلال معترف بها ولكن النفوس ملت الوعود بعد ان طالبت بالقيام بالعهود ، قبل ان يتسع الخرق على الراقع ، و تزهق الانفس وترى الديار بلاقع .

لذلك عقد المؤتمر السوري في دمشق وأعلن استقلال سورية جمعاء [1] استنادا على الحقوق الطبيعية والقومية والجغرافية والسياسية . واعتماداً على المبادئ الولسنية واعتراف الاحلاف بهذا الاستقلال

ثم اجتمع مؤتمر عراقي في دمشق فأعلن استقلال العراق وانتخاب الامير عبد الله نجل الملك حسين ملكا عليه

تناقلت الصحف والبرق خبر هذا الاستقلال ولم يعترف به الحلفاء بعد ، وقد رأينا ان نثبت هنا مقالة نقلتها احدى الصحف المصرية عن مجلة (الرفيو) تحت العنوان الآتي

(١) سيثبت وثائق الاستقلال السوري العربي في الجزء القادم

استقلال البلاد العربية

كنا أول من نادى بوجوب الاعتراف باستقلال البلاد العربية وقد نشرنا في اليوم الثاني لقرار مؤتمر دمشق ما يؤخذ منه صراحة أن من حسن السياسة أن تعترف فرنسة وانكلترة بالأمير فيصل ملكا على سورية والعراق وفلسطين فعاند البعض وكابر وأنكر علينا هذا القول ولكن الحوادث جاءت الآن مؤيدة لنا ونرى أيضا أن الذين يديرون دفة السياسة في بلاد الحلفاء قد اقتنعوا الآن بوجوب تحقيق رغبة الشعوب العربية.

ان المعاهدة التركية التي سيضعها مؤتمر سان ريمو ستعين حدود المملكة التركية وتفصل منها عشرة ملايين من العرب الذين اشتركوا في هذه الحرب مع الحلفاء ضد تركية فاستحقوا بذلك أن ينالوا الحرية والاستقلال بلا شرط ولا قيد أعني أنه يجب على الحلفاء أن يتنازلوا عن كل تفويض أو وكالة على هذه البلاد وبهذه الكيفية يعود السلام الدائم الى هذه البلاد فلا نعود نسمع فيها قعقعة السلاح ولدي النظر في تنظيم آسية الصغرى يجب أن لا تترك الشعوب العربية أعوبة في يد المجازفات السياسية.

إن تكوين مملكة عربية قوية يضع حداً لتكل هذه الاضطرابات ويعيد الأمن والسلام الى هذه الربوع التعاسة ويضع أيضا مستقبلها الاقتصادي وفي هذه الحالة تكون فرنسة أول من يستفيد من نمو الزراعة وازدياد التجارة والصناعة التي لها فيها مركز ممتاز من قديم لا يجب تضييعه. اننا في الغالب نترك مزاحمينا الاكثر مهارة ونشاطا يسبقوننا الى اغتنام الفرص ولكن اذا جرينا على سياسة مخالفة لهذا الرأي فسيسبقنا غيرنا. ولا ندهش يوما اذا وجدنا أنفسنا في عزلة عن الاتحاد الاوربي كما حدث في المسألة الروسية وغيرها وقد عاملتنا التجارب في الماضي أن ننتفع بها على الاقل في هذا الوقت وأن نتبع في آسية الصغرى الاحتراس والاقدام بحيث اذا أخرنا قدما عن البلاد العربية فلا عذر لنا اذا ضاع نفوذنا الاقتصادي.

ان انكلترة التي ترقب الحوادث عن بعد تستعد الآن للتنازل عن دعواها

في العراق واننا ننصح لها بأن تسرع في ذلك ولا ننسى أن حلفاءنا من أصحاب التجربة الذين يعرفون كيف يغتنمون الفرص والذين متى رأوا انه لا يمكنهم العمل بخلاف ذلك ينفذونه طبقا للظروف وهي حكمة سياسية

«ومن المرجح ان اعترافنا باستقلال سورية سيقابل في شمالي افريقية بكل سرور وابتهاج وسيوطد نفوذنا فيها ولا بد ان تبتهج جميع الامم أشد الابتهاج اذ ترانا نعامل بالرفق والاعتبار اخوانها الذين يسكنون بين البحر الابيض المتوسط والخليج الفارسي

«ونحن نلاحظ مع الارتياح ان انكلترا تحبذ هذه الخطة

«وها نحن نشعر بتغيير محسوس في لهجة الجرائد الفرنسية من بضعة أيام مما يجعلنا نرحب بهذا التغيير الذي يفتح أعين من بيدهم زمام السياسة الخارجية ليروا الحقيقة وهذا ما اتبعته الجرائد الفرنسية الكبرى ولكن يجب علينا أن لا نقف في نصف الطريق وأن تستمر المجاهدة ومتى صار الاعتراف باستقلال سورية يجب علينا المساعدة في تأييده لتحيا حياة مضمونة

«ان فرنسة تظهر عظمتها بضمانة حقوق وحرية كل فرد وبذلك ستنال ثمار حكمتها وحذقها .

«ومن المحقق ان التدابير القديمة التي لا تزال نوجهها ضد الملك فيصل ستحفظ لفرنسة محلا غير لائق في الحكومة السورية وقد بين ذلك الجنرال نوري بك الذي أوفده الملك فيصل الى باريس ليوضح لحكومات الحلفاء مركز سورية والعراق وعلى الخصوص قرار مؤتمر دمشق في حديث له أفضى به آخر هذا الشهر لمندوب الصحف الفرنسية وفي الاستطاعة أن نعتمد على شرف الملك فيصل وفوق ذلك فان سورية دائما في حاجة الى فرنسة فلذلك يجب أن نتأكد أننا سنقابل دائما في سورية كاصدقاء يمكن الاصغاء بالاحترام الى نصائحهم واقتراحاتهم ومنحفظ لنا مستقبلا زاهرا في هذه المملكة التي تسمى بحق شقيقة فرنسة في مدنيتها القديمة والتي لا تطالب الا أن تعيش الآن عيشة راضية تحت ظل ومساعدة الحلفاء . وسيجد صنعنا وتجارنا وأساتذتنا في البلاد العربية ميدانا واسعا لاظهار نشاطهم ومقدرتهم ومشروعاتهم .

«واذا تقرر الاعتراف باستقلال سورية والعراق فسيحفظ في فلسطين منطقة خاصة

تحت الرقابة البريطانية ومعلوم أن فلسطين تشمل الاماكن المقدسة وعددا عظيما من اليهود مختلطا بأجناس مختلفة تعيش معا في الشرق فيجب اتخاذ مايكفل حقوق كل واحد في هذه المنطقة واحترام الاماكن المقدسة التي يقدسها العموم ولا يوجد مايبرهن على عدم كفاءة العرب لاخذهم هذه المسؤلية على عاتقهم لان الشعوب العربية تحترم أكثر من غيرها حقوق وعادات وعقائد الآخرين الذين يستظلون ظلها .

«إن فرنسة لا يمكنها أن تمد يدا لتقطع أوصال البلاد العربية بل يجب عليها أن تعمل مع حلفائها بما يطابق رغبات الشعوب . مثل هذه الرغبة ستجلى في حل مسألة لبنان ومؤتمر دمشق والملك فيصل يعترفان ولا بد للبنان بالحق في أن يفصل في شأنه ويعرب عن مصيره ولاهل لبنان الحق في تأليف مملكة أو جمهورية وأن يضعوا شرائعهم بحرية تامة وكل رجائنا أن لا يكره اللبنانيون على الانضمام الى حكومة سورية»

انتهى مانقلناه عن مجلة الريفيو وذكرت نحوه جرائد أوربية أخرى وقد أوضح مؤتمر (سان ريمو) المقصود من الانتداب والوصاية وأيد اتفاق الاحلاف على مخلفات الرجل (المتوفى) وسواء أكنا استقلاليين أم كنا احتلاليين فانه ليؤلمنا تأخير البت في مصير بلادنا وان سرنا انه كان من أسباب تكون الامة وتنشئة الحياة الاستقلالية فيها ، فان أمانيّ ضاعت وآمالا خابت وشرة أخمدت في كثير من بلاد وأقوام الامة السورية ، ولم تكن الضائقة الاقتصادية والسياسية بعد التحرير بأخف منها أيام الاستبداد

لو احسن أولو الشأن صنعا لصينت نفوس وحفظت اعراض ولاستغني عن مناوشات وحروب كثيرة ، بل لو كان المستشارون (غير الرسميين) من الوطنيين غير ذوي اضغان لسهل كل عمل يراد دون التقتيل والتنكيل واغراء الاهلين بعضهم ببعض مما يزرع الاحقاد بين طوائف الامة فتكون وبالا مستقبلا على الحاكم والمحكوم

ثم مابالنا نرى اشد الناس اغتباطا بالتحرير والاصلاح اسرعهم الى الهجرة في ابانه؟ مع ان بلادهم جعلت تحت سيطرة أمة المدنية التي هي اكثر الناس احسانا اليهم

اقرأ فصلا نقلناه في هذا الجزء عن كتاب فلسفة الحرب ثم اقرأ مانقلنا في هذا المقال عن الريفيو . وراجع مايقوله الوزراء وأصحاب الاقدار بهذا الصدد ومايتوخا

الاحلاف في مستقبل سورية. وقابل حالة سكان سورية الجنوبية والشرقية والشمالية والغربية واحكم على مستقبل الامة في عصر الحرية السعيد الذي يقبعه لا محالة تحقيق ناموس تنازع البقاء أو بقاء الاصلح واعلم بأن « كل سلطة منحدرة من العلو » وان « صاحب السلطة لم يعط السلطة عبثاً »

(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء)

صالح مخلص رضا

تقريظ المطبوعات الجديدة *)

ديوان ايليا أبو ماضي (الجزء الثاني) صفحاته ١٩٢ بالقطع الكبير طبع على ورق جيد بمطبعة « مرآة الغرب » في نيويورك سنة ١٩١٩

شعر ايليا أبو ماضي معروف لدى فريق الادب عامة وقراء المنار خاصة فهو يطرق المواضيع المتنوعة من سياسية واقتصادية وأخلاقية وأدبية وقصصية . وقد جعل ديوانه هدية الى أحد أفاضل أدباء السوريين ، وكتب له جبران خليل جبران الكاتب الاجتماعي الكبير مقدمة في الشعر والشاعر والخيال آية في الابداع والوصف فهي ايحاء من طبيعة الوجود .

ومن قصائده « فلسفة الحياة » أم القرى — أو « ملفرد الجميلة » في الوصف « والشاعر والامة » في السياسة ونوم الامة وغفلتها ، وكذلك قصيدة « وداع وشكوى » التي يصف بها سفره الى (نيويورك) لكنه أنحى على شعبه وبلاده باللائمة في هذه القصيدة وظهر بمظهر اليأس من عودة مجد الامة اليها لتقاعسها واستبداد حكومتها فمنها قوله :

وطن أردناه على حب العلى فأبى سوى أن يستكين الى الشقا
كالعبد يخشى بعد ما أفنى الصبي يلهو به ساداته ان يعتقا
شعب كما شاء التخاذل والهوى متفرق ويكاد ان يتمزقا
لا يرتضي دين الاله موفقا بين القلوب ويرتضيه مفرقا
لم يعتقد بالعلم وهو حقائق لكنه اعتقد النمائم والرقى

*) كتب تقاريظ هذا الجزء شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

ومنها : وحكومة ما ان تزحزح أحقا عن رأسها حتى تولي أحقا

الى أن يقول : بغداد في خطر ومصر رهينة وفداً تنال يد المطامع جانقا

ومنها في الدولة ضعفت عزائمها ولما ترعوي عن غيها حتى تزول وتمحقا

ولو شئت أن أختار من شعر ايليا لاثبت منه هنا شيئا كثيرا، وان شئت قلت لكان علي أن أثبت معظم قصائد الديوان

ديوان العقاد

الجزء الاول منه صفحاته ١٢٧ بقطع المنار طبع بمطبعة «البسفور» بمصر سنة ١٣٣٤ هـ ويطلب من مكتبة المنار

ناظم هذا الديوان محمود افندي العقاد المشهور بفضله وأدبه ونثره ونظمه وحرية ضميره وقد صدر ديوانه هذا بمقدمة في تأثير الآداب في نهوض الامم ، وفرق فيها الادب الى فرقين : أدب ذكاء وأدب طباع وعلق الرجاء وناطه بالثاني منهما

لست وقد طال العهد على تقريظ ديوان العقاد بمقرضه الآن أو مقرظه . ولكنني أشير اليه اشارة وأنتظر صدور الجزء الثاني منه

من غرر قصائد هذا الديوان قصيدة (الحب الاول) التي عارض بها قصيدة لابن الرومي أبياتها ١٩٣ وموشح « سباق الشياطين » ومن مقاطعيه

(في الحياة) : قالوا الحياة قشور قلنا فأين الصميم

قالوا شقاء فقلنا فأين يبغى النعيم

قالوا ان الحياة حياة ففارقوا أو أقيموا

و (تنازع الفردوس) يتحاسدون على الهباء فما لهم لايحسدون البر فيما يؤجر

نقموا على الكفار أن تركوا لهم أجر السماء وأنكروا ما أنكروا

لو كان ماوعدوا من الجنات في هذي الحياة لسرهم من يكفر

و (ضيق الامل) شر ما يلقى الفتى أجل ضيق عن واسع الامل

ولشر منهما أمل ضيق عن فسحة الاجل

ومنها : (الزمن) ان يوما يمر هيهات هيها ت بفالي الطريق بعد ذهابه

نحن نستدفع الزمان ولكن ت أحدنا بالدليل من جلبابه

ربما راقب المجتل اذا جا ء ويغدى بالروح عند ذهابه

الازاهير المضمومة ، في الدين والحكومة

صفحاته ٣٩٧ بالقطع الوسط طبع بمصر بحرف (بنط ٢٤) مضبوطا بالشكل الكامل على ورق جيد بتوقيع ١٣٣٨ هـ في مطبعة هندية

مؤلف هذا الكتاب هو المعلم أمين ظاهر خير الله الشويري اللبناني ابن صديقنا المأسوف عليه المعلم ظاهر خير الله صليبا وقد صدره بهذين البيتين

هذا الكتاب حوى علما ومعرفة ... بطاعة الله في جهر وأسرار
من اصطفاه دليلا في مناهجه ... يحز بدنيا وأخرى خير أوطار

وافتتحه برسائل أولاها بعرض الكتاب على ملك الحجاز . والثانية أمر الملك بتقديم الكتاب الى نجله الامير فيصل (ملك سورية) والثالثة والرابعة والخامسة معاملات ومراجعات بشأن الكتاب . ثم تقرير المجمع العلمي (بقلم الشيخ عبد القادر المغربي) ثم تقدمة الكتاب الى ملك الحجاز وأنجاله

أول الكتاب ثمرة حقائق لابد منها ، وهي ، ثم ديباجة الكتاب ، فالفصل الاول في وجود الله ثم بقية الفصول الى الرابع والعشرين وكلها في فلسفة الوجود والتدين والدين وعلاقة الانسان بالخالق وحكمة خلق الانسان الى غير ذلك مما ينتظم في سلك مباحث كلامية أو لاهوتية أدبية جعلها دعائم ومقدمات لما يريد بناءه وتثبيته من ضرورة الدين لصلاح الدارين ، وهي الشطر الاول من الكتاب . وأما الشطر الثاني وهو المقصود بالذات من الكتاب فيبتدئ بالفصل ٢٥ (الدين أساس للعمران) و ٢٦ (تدين رأس الحكومة) الى الفصل ٤٨ ثم الذيل وهو فصلان الاول (لابد للحكومة من دين) والثاني (دين الحكومة العربية الاسلام)

والمطلع على هذا الكتاب يعجب بفضل مؤلفه وشدة عنايته بما هو مدفوع بباعث التدين الحقيقي وحب الوطن وخدمته وبلوغ الجهد في خدمة الامة العربية ، وقد أفرغ وسعه في جمع المسائل وايراد الادلة عليها من عقلية ونقلية فجزاه الله عن العربية وأهلها خير الجزاء ، هذا واننا نتمنى لمؤلفه هذا الرواج لتعم فائدته وتجزل عائدته

تصحيح الخطأ في الجزء السادس م ٢١ منار

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨٢	٢	فرق	فريق
٢٨٤	١	التفاوت	من التفاوت
٢٨٥	٤	يرضياه	يرضيان
»	١٥	فقل	قل
»	١٨	تسخرون	تُسحرون
٢٨٩	١٤	واهو	وهو
»	١٥	اذًا	اذا
٢٩٨	١٦	احلتاها	احتلتاها
٢٩٩	١٠	بنفسهاشعبا	لنفسها شيئا
»	١٢	سكويث	اسكويث
٣٠٠	١٤	سكن	يمكن
»	١٩	استقاله	استقلاله
٣٠١	٢	فينستحيل	فيستحيل
٣٠٢	١	بهذا	لقيام بهذا
»	٧	الاختبار	الاختيار
»	٩	الاهيه	الاهلية
٣٠٣	٦	الحكومتين	الحكومة
٣٢٠	٩	اذا	الا اذا
٣٢٤	٨	وعيس	وعيسى
»	٢٣	يجيز	بجيز
٣٢٧	١٠	والصالحين	والشهداء والصالحين

تصحيح أغلاط في هذا الجزء تصحح بالقلم

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٣٧	١٠	اليها	أيها
٣٣٨	١٤	لم تحذف	يقذف
»	٢١	امرتها	شرّتها
٣٣٩	١٤	طوع	طوْع
»	١٥	ذكرنا	ذكرنا
»	١٧	المبين	المبني
»	٢٣	الحذابة	الجذابة
٣٤٠	١	و.روة	وذروة
»	٤	يؤرث	يوْرث
»	٧	وزخائرها	وذخائرها
»	١١	موْازة	موازرة
»	١٩	ربيكو	وبيكو
»	٢٤	واليمنة	واليمنية
٣٤١	١	فشكت منه الصحافيون	فشكا منه الصحافون
»	٢	السياسة	السياسة في فرنسه
»	١٨	المتقون	المتقين
٣٤٤	٩	في	من
»	١٧	المقدمون	المقدمين
»	١٨	تقرر	تعزز
»	٢٢	لهم الباقية الثابتة	له العاقبة الثابتة

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر غاية رمضان سنة ١٣٣٨ — ٢٦ الجوزاء (ر ٣) سنة ١٢٩٨ هش ١٧ يونية سنة ١٩٢٠

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

الجزء الثامن

(١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ

بين الله سبحانه في الآيتين اللتين قبل هذه الآيات أن مقترحي الآيات الكونية على الرسول صلى الله عليه وسلم أقسموا بالله مجتهدين في أيمانهم مؤكديها قائلين: لئن جاءتنا آية لنؤمنن بها وبما تدل عليه من صدق الرسول في دعوى الرسالة وما جاء به عن الله تعالى . وأن المؤمنين كانوا يودون اجابة اقتراحهم، ويظنون انها تفضي الى إيمانهم ، فبين الله تعالى لهم خطأ ظنهم بقوله (وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ؟ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون) نفى عنهم الشعور بسنته تعالى فيهم وفي أمثالهم من المعاندين وما يكون من شأنهم اذا رأوا آية تدل على خلاف مايعتقدون وما يهوون وهي انهم ينظرون اليها ويتفكرون فيها بقصد الجحود والانكار فيحملونها على خداع السحر وأباطيله ويزعمون أنها لاتدل على المطلوب . وبعد بيان سنته تعالى فيهم عند مجيء الآية المقترحة صرح بما هو أبلغ من ذلك فقال :

﴿ ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة ﴾ فرأوها المرة بعد المرة بأعينهم وسمعوا شهادتها لك بالرسالة بآذانهم ﴿ وكلمهم الموتى ﴾ منهم باحيائنا إياهم آية لك وحجة على صدق ماجئت به عن الله تعالى من ان الموت ليس عدما محضا للانسان ﴿ وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ﴾ أي وجمعنا كل شيء من الآيات والدلائل غير الملائكة والموتى فسقناه وأرسلناه عليهم مقابلا لهم أو كافلا لصحة دعوك أو قبيلا قبيلا ﴿ ما كانوا ليؤمنوا ﴾ أي ما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا ، ونفي الشأن أبلغ من نفي الفعل ، ذلك بأنهم لاينظرون في شيء من الآيات نظر استدلال وانما ينظرون اليها نظر من جاءه ولي يريد نصره واغاثته واخراجه من ضيق نزل به فظن انه عدو يهاجمه ليوقع به ويسلبه مابيده فينبري لقتاله ، فاذا قال له انما أنا ولي نصير ، لا عدو مغير ، ظن انه يخدعه بقوله ، وانه اذا لم يسبق الى قتله قتله ، لايعقل غير هذا .

وقوله تعالى « قبلا » قرأه عاصم وحمزة والكسائي بضم القاف والباء هنا وفي سورة الكهف ، وقرأه نافع وابن عامر بكسر القاف وفتح الباء فيهما ، وابن كثير وأبو عمرو كالاولين هنا وكالاخيرين في الكهف . قيل ان معنى القراءتين واحد وهو المقابلة والمواجهة بالشيء ونقله الواحدي عن أبي زيد ، والتقدير : وحشرنا عليهم كل

شيء من أنواع الدلائل مواجهة ومعاينة ، وقيل ان الاولى جمع قبيل فهو كقضب ورغف (بضمتين فيهما) جمع قضيب ورغيف ، والتقدير : وحشرنا عليهم كل شيء من ذلك قبيلا قبيلا وصنفا صنفا ، أي كل صنف منه على حدة . ومن استعمال مفرده في مثل هذا المقام قوله تعالى في حكاية اقتراحهم الآيات من سورة الاسراء (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) وقيل معناه الكفيل أي وحشرنا عليهم كل ما ذكر كفلاء يضمنون لهم صحة ما جئت به . وهو مروي عن أبي عبيدة والفراء والزجاج . وكل ماذكر من المعاني للقراءتين متفق يؤيد بعضه بعضا .

وأما الاستثناء بقوله تعالى ﴿ الا أن يشاء الله ﴾ فقيل هو منقطع معناه لكن الله تعالى ان شاء ايمان أحد منهم آمن ، وقيل هو استثناء متصل من أعم الاحوال أو الاوقات ، والمراد عليه انهم ماداموا على صفاتهم التي هم عليها في زمن اقتراح الآيات لايؤمنون واذا شاء الله ان يزيلها فعل . والظاهر انه مؤيد لذلك الجزم بعدم ايمان هؤلاء الناس الموصوفين بما ذكر من العناد والكبرياء والمكابرة ومعناه : ان سنة الله تعالى في فقدهم الاستعداد للايمان جارية بحسب مشيئته تعالى لكل مايجري في هذا العالم ولو شاء غير ذلك لكن ، ولكنه لايشاء لانه تغيير لسننه ، وتبديل لطباع هذا النوع من خلقه . (الانسان) فهو اذًا مزيد تأكيد لنفي الايمان عنهم ، والاستثناء الامام يعد من هذا التأكيد قوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله) فالمراد انه لاينسى البتة ، وقد يفسر به ما استشكلوه وذهبوا المذاهب في تأويله من آيتي سورة هود (خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك) ولا حجة في الاستثناء بالمشيئة في هذه الآية وأمثالها للجبرية على جبرهم ولا للقائلين بخلق الله تعالى للشر ولا لمنكريه فكل مايجري في الكون من أعمال البشر الاختيارية خيرها وشرها جار بنظام وسنن حكيمة وكلها بمشيئة الله تعالى وما هو شر من أفعال الناس الاختيارية لقبحه ولما يترتب عليه من ضررهم به وعقابهم عليه لايستلزم ماقالته تلك الفرق كما بيناه مرارا في هذا التفسير وفي مباحث أخرى من المنار

﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ سنن الله تعالى في عباده وانطباقها على الافراد والجماعات لذلك يتمنى بعض المؤمنين لو يؤتى مقترحو الآيات ما اقترحوه لظنهم

انه يكون سببا لايمانهم ، وليست الآيات بملزمة ولا مغيرة لطباع البشر في اختيار ماترجح عند كل منهم بحسب نظره فيها وفي غيرها ، ولو شاء تعالى لجعلها كذلك ولو شاء أيضا لخلق الايمان في قلوب البشر خلقا لا عمل لهم فيه ولا اختيار ، وحينئذ لايكونون محتاجين الى رسل بل لايكونون هم هذا النوع من الخلق الذي سمي الانسان.

ذهب بعض المفسرين الى ان هذه الجملة الاخيرة نزلت في المؤمنين فان أكثرهم يجهلون قطعا ان هؤلاء المقترحين المعاندين من الذين فقدوا الاستعداد للايمان والاستعداد للنظر الصحيح في الآيات والدلائل الموصلة اليه . وذهب بعضهم الى انها في الكافرين الذين لايؤمنون كالجمل قبلها ولا شك ان جهلهم عظيم في هذا الامر وفي غيره ، ويرجح الاول اسناد الجهل الى أكثرهم وهو عام شامل لهم ولا سيما اذا أريد بهم المستهزئون الخمسة خاصة كما تقدم في أول السياق من آخر الجزء السابع، وهم الوليد بن المغيرة المخزومي والعاصي بن وائل السهمي والاسود بن عبد يغوث الزهري والاسود بن المطلب والحارث بن حنظلة ، فقد كانوا أجهل القوم بهذه الهداية وأشدهم جهلا على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

ولما تضمن القول السابق أن أولئك المشركين المقترحين للآيات أعداء للنبي (ص) وما اقترحوا ما اقترحوا الا لاعتقادهم أنهم لايؤتونه فيكون ذلك بابا للطعن في رسالته — أراد الله تعالى تسليته (ص) عن ذلك ببيان أن ذلك سنته في جميع النبيين فقال ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن ﴾ أي وكما جعلنا هؤلاء ومن على شاكلتهم أعداء لك جعلنا لكل نبي جاء قبلك أعداءهم شياطين الانس والجن . والعدو ضد الصديق والحبيب يطلق على المفرد والمثنى والجمع والذكر والانثى ، قال تعالى في آية أخرى (فانهم عدو لي) ولذلك بين العدو هنا بأنهم شياطين الانس والجن فشياطين بيان لعدو أو بدل منه ، ويجوز ان يكون المعنى جعلنا شياطين الانس والجن أعداء لكل نبي بعثه الله تعالى . ذهب عكرمة والسدي الى ان المراد بشياطين الانس الشياطين الذين يضلون الانس بالوسوسة لهم وبشياطين الجن الذين يضلون الجن كذلك وكلهم من ولد ابليس وانه ليس في الانس شياطين . وهذا القول باطل بدليل قوله تعالى (واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم) الآية ،

والصواب ما روي عن مجاهد وقتادة والحسن وهو أن من الانس شياطين ومن الجن شياطين ورجحه ابن جرير بحديث أبي ذر المرفوع الذي رواه من عدة طرق وهو أن النبي (ص) قال له عقب صلاة « يا أبا ذر : هل تعوذت بالله من شر شياطين الانس والجن ؟ — قال قلت يارسول الله وهل للانس من شياطين ؟ قال — نعم » وقال ابن عباس كل عات متمرد من الجن والانس فهو شيطان .

ومعنى هذا الجعل ان سنة الله تعالى في الخلق مضت بأن يكون الشرير المتمرد العاتي عن الحق والمعروف أي الذي لا ينقاد لهما كبرا وعنادا وجمودا على ماتعود يكون عدوا للدعاة اليهما من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ومن ورثتهم وناشري هدايتهم . وهكذا شأن كل ضدين يدعو أحدهما الى خلاف ماعليه الآخر مما يتعلق بمنافعهم الاجتماعية، فان كان أحدهما خيرا محقا نسبت العداوة الى الآخر الشرير المبطل لانه هو الذي يسعى لى إيذاء مخالفه بكل وسيلة يستطيعها لانه مخالف وان كان يعلم انه يريد الخير له وليس كل مخالف مبطل عدوا يسعى جهده لايذاء مخالفه المحق ، وانما يتصدى لذلك العتاة المستكبرون المحبون للشهرة والزعامة بالباطل والمترفون الذين يخافون على نعيمهم ، فلم يكن كل كافر بالانبياء عليهم السلام ناصبا نفسه لعداوتهم وايذائهم وصد الناس عنهم بل أولئك العتاة المتمردون من الرؤساء والمترفين والقساة الذين ضريت أنفسهم بالعدوان والبغي ،وأولئك هم الشياطين المفسدون في الارض، سواء كانوا من جنس الانس الظاهر أو من جنس الجن الخفي ، وحكمة عداوة الاشرار للاخيار هي مايعبر عنه في عرف علماء الاجتماع البشري بسنة تنازع البقاء بين المتقابلات التي تفضي بالجهاد والتمحيص الى ما يسمونه [سنة الانتخاب الطبيعي] أي انتصار الحق وبقاء الامثل التي ورد بها المثل في قوله تعالى من سورة الرعد (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ، مما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الامثال) فالحياة الدنيا جهاد لا يكمل ويثبت فيها الا المجاهدون الصابرون ، وكذلك العمل فيها للآخرة » (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم

الصابرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا ان نصر الله قريب * والعاقبة للمتقين) ولكن أكثر الناس حتى من أهل الحق بله غيرهم يجهلون هذه السنن الحكيمة العالية واذا ذكرت لهم يشتبهون في تطبيقها على أنفسهم وعلى غيرهم كما اشتبه كثير من المسلمين في سبب خذلان دولهم وسقوط حكوماتهم ظانين ان مجرد تسميتها مسلمة كاف لنصر الله اياها وان خالفت هداية دينه بالظلم والفسق والكفر في زعمائها والاقرار من دهمائها وخالفت سننه في تنازع البقاء وتوقفه على كمال الاستعداد كما قال (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وقال : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ولم يقيموا شيئا من هذه الأوامر والنواهي بل فعلوا ضدها ، وقد سبق لنا تحقيق هذه المباحث في التفسير وغير التفسير من ابواب المنار

ثم بين تعالى شر ضروب عداء هؤلاء الشياطين للانبياء وهو مقاومة هدايتهم بقوله ﴿ يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ﴾ أي يلقي بعضهم الى بعض القول المزين المموه بما يظنون انه يستر قبحه ويخفي باطله بطرق خفية دقيقة لا يفطن لباطلها كل أحد ليغروهم به . فالايحاء الاعلام بالاشياء من طريق خفي دقيق سريع كالايماء وتقدم . والزخرف الزينة كالازهار للارض والذهب للنساء والتخييل الشعري في الكلام ، وما يصرف السامع عن الحقائق الى الاوهام ، والغرور ضرب من الخداع بالباطل مأخوذ من الغرة (بالكسر) والغرارة (بالفتح) وهما بمعنى الغفلة والبلاهة وعدم التجارب ومنه : شاب غِرّ وفتاة غِر (بالكسر) اي غافلان عن شؤون الرجال والنساء لا تجربة لهما . وهذا مأخوذ من غَرّ الثوب (بالفتح) وهو الكسر والثني الذي يحدث من طيه . يقولون طويت الثوب على غره ، أي على ثني طيته الاولى لم أحدث فيه تغييرا ، ثم صار يضرب مثلا لكل ما يترك على حاله، يقال : طويته على غره . والبصير الذي علمته التجارب حيل الناس وأباطيلهم لا يغر كما يغر من بقي على سجيته التي خلق عليها كالثوب الباقي على طيته الاولى . يقال غره يغره غرا وغرورا والمثال الاول من هذا الغرور هو ما أوحاه الشيطان الاول للانسان الاول أبينا (آدم) ولزوجه وهو تزيينه لهما الاكل من الشجرة التي اختبرهما الله تعالى بالنهي

عن قربها اذ قال لهما انها شجرة الخلد وملك لا يبلى (وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور) ومنه مايوسوس به شياطين الانس والجن لمن يزينون لهم المعاصي بما فيها من اللذة، والانطلاق من القيود المانعة من الحرية، واطماع المؤمن منهم بأماني الرحمة والمغفرة، والكفارات والشفاعة، كقول أحد شياطين الانس:

تكثر ما استطعت من الخطايا فانك واجد ربا غفورا
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا

والتغرير بزخرف القول قد ارتقى عند شياطين هذا الزمان ولا سيما شياطين السياسة ارتقاء عجيبا فانهم يخدعون الاحزاب منهم والامم والشعوب من غيرهم فيصورون لها الاستعباد حرية، والشقاوة سعادة، بتغيير الاسماء وتزيين أقبح المنكرات، وان من الشعوب اغرارا كالافراد، تلدغ من الجحر الواحد مرتين بل عدة مرار، فاعتبروا يا أولي الابصار

﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ أي لو شاء ربك أيها الرسول أن لا يفعلوا هذا الايحاء الغار ما فعلوه ولكنه لم يشأ ان يغير خلقهم، أو يجبرهم على خلاف ما زينته لهم أهواؤهم، بل شاء ان يكون كل من الانس والجن مستعدين للحق والباطل والخير والشر، وان يكونوا مختارين في سلوك كل من الطريقين، كما قال في الانسان (وهديناه النجدين) ومن وسوسة هؤلاء الشياطين للناس وزخرفها تحريف مثل هذه الآية الحكيمة بحملها على معنى الجبر فيقولون: ان كل عاص لله معذور لانه ما عصاه الا بمشيئته التي لا يستطيع الخروج عنها. وسيأتي في هذه السورة قوله تعالى في ذلك (سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا. قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون) فلا عذر بمشيئة الله لاحد لانه لم يشأ ان تكون افعالهم اضطرارية بل خلقهم بمشيئته يفعلون ما يفعلون باختيارهم ويحتجون على المنكرين عليهم كثيرا بأنهم على حق، واذا اعترفوا بخطإ يلتمسون لانفسهم فيه العذر، ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ من كذب، ويخلقون من إفك، ليصرفوا الناس عن الحق، واستقم كما أمرت، فانما عليك البلاغ، وعلينا الحساب والجزاء، والعاقبة للمتقين، وسنريك سنتنا في أمثالهم بعد حين. وقد فعل، عز وجل، فأهلك

المستهزئين بالقرآن الذين قيل ان السياق نزل فيهم ، ونصر الله عبده ، وأعز جنده ، وهكذا ينصر من ينصره ، وأما المتنازعون على الباطل ، ومجد الارض لزائل ، فانما يكون الفلج بينهم بحسب سنن الله تعالى لاشدهم مراعاة لها فى الاستعداد الحربي والاجتماعي وتخلقا بالاخلاق العالية كالصبر والثبات ، كما بيناه مرارا

﴿ ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ صغي اليه (كرضي) يصغى صغى مال ، ومثله صغا يصغو صغوا ، وأصغى لى حديثه مال واستمع ، وأصغى الاناء أماله . ويقال : صغى فلان معك — أي ميله وهواه كما يقال ضلعه معك . والمعنى يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروهم به ويخدعوهم وينشأ عن ذلك أن تصغى اليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة لموافقته لاهوائهم ﴿ ولير ضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ أي وليترتب عليه أيضا أن يرضوه من غير بحث في صحته وعدمها وان يقترفوا بتأثيره ماهم مقترفوه من المعاصي والآثام بغرورهم به ورضاهم عنه . اقترف المال اكتسبه والذنب اجترحه وصرح باللام في هذه الجمل دون الغرور لان الغرور من فعل الموحين وهذه الافعال ليست منه وانما هي مما يترتب عليه من أفعال المغترين به لاستعدادهم له وهم الذين لا يؤمنون بالآخرة ، فانهم هم الذين لا يهمهم من حياتهم ، إلا اتباع أهوائهم وارضاء شهواتهم . وقد غفل بعض المفسرين عن الفرق بين فعل الغر والغرور وبين مايترتب عليه من أفعال المغترين به فظن ان تفسير الكلام هكذا يكون من عطف الشيء على نفسه وانما هو بمعنى زيد غر عمروا فاغتر . وهذه اللام هي التي تسمى لام العاقبة والصيرورة قطعا

ومن مباحث البلاغة نكتة الفرق بين قوله تعالى في الآية (١١١) من هذه الآيات (ولو شاء ربك ما فعلوه) وقوله في الآية (١٠٦) من آيات قبلها في السورة (ولو شاء الله ما أشركوا) وهي ان المشيئة أسندت الى اسم الجلالة في مقام اظهار الحقائق في شؤون المشركين وما يجب على لرسول وما ليس له ، وأسندت الى اسم الرب مضافا الى لرسول في مقام تسليته وبيان سنته تعالى في اعداء لرسل قبله ، فكأنه يقول : هذا ما اقتضته مشيئة ربك الكافل لك بحسنى تربيته وعنايته نصرك على أعدائك وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك من المؤمنين كما تقدم آنفا في تفسير الجملة والحمد لله ملهم الصواب .

مذكرات الدكتور صدقي (*)

في فلسفة الوجود

ننشر هذه المذكرة هنا في فلسفة الوجود وإثبات الخالق جل شأنه، وقد كتبتها بعد تفكر طويل، وبحث عميق، وسترى فيها ان شاء الله تعالى أقوى دليل على وجود الخالق بحيث انك ان تجد فرقا بين قوة هذا الدليل وقوة دلائل العلوم الرياضية وغيرها فقول:—

بديهيات لا بد من ذكرها قبل الدليل: الضدان لا يجتمعان وقد يرتفعان. النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان. الترجيح بدون مرجح محال. واجب الوجود هو ما لا ينفك عنه الوجود لا أزلا ولا أبدا فهو قديم باق. الجائز هو ما يجوز عليه الوجود والعدم، ولا يرجح وجوده الا بمرجح أو موجد أو سبب. المستحيل هو ما لا يتصور في العقل وجوده. ايجاد الموجود تحصيل حاصل محال

نظرة في الكون: هذا الكون مركب من مادة وصورة، فالمادة كل ممتد أو متحيز، والصورة إما خيالية لا توجد الا في الذهن أو المخيلة كصورة الاثير مثلا ونسميها أيضا الهيئة أو الحالة، وإما وجودية تدرك بالحواس كشكل أي جسم معتاد. وقد تسمى المادة بالجواهر أو الذات وهي ما قام بنفسه، وتسمى الصورة بالعرض أو الصفة الاضافية وهي ما قام بغيره ويستحيل قيامه بنفسه

واذا استرسلنا في التفكير والفرض فقد نجوز أن يكون أصل العالم غير ممتد وغير متحيز بأن كان في حالة أو هيئة لا يمكن أن نتصورها بعقولنا لاننا لا نتصور الا المتحيز وانما نسلم بذلك جدلا لكيلا يطرأ على دليلنا الآتي احتمال ما أو ضعف بأي وجه من الوجوه

أما الذات أو الجوهر فليس في مقدور البشر ايجاده أو اعدامه. وأما العرض أو الهيئة أو الحالة فهي مما تتعلق بها قدرة البشر ايجادا واعداما، فمثلا قد نجمع من المادة أصنافا ونوجد منها بيتا أو غيره ثم نهدمه، فنحن قادرون على ايجاد الهيئة أو الحالة ولسنا قادرين على ايجاد المادة نفسها

(*) هذا آخر ما كتبه المرحوم المأسوف على نبوغه وفضله الدكتور محمد توفيق صدقي وهي بداية أبحاث كان قد شرع بكتابتها فعاجلته المنية قبل اتمامها وقد علق عليها بعض الهوامش

صالح مخلص رضا

الحالة أو الهيئة أو الصورة مهما فرضناها أو تخيلناها فهي كلها أمور ثبوتية مغايرة للذات أو المادة ولذلك توجد وتعدم بدون أن يصيب المادة من ذلك شيء ، فهي أمر زائد عليها ، وان كانت قائمة بها ، ولو كانت عينها لعدمت المادة بعدمها . وهذه الاعراض لها وجود فانها لو كانت عدما محضا لكانت زيادتها عدما لان زيادة العدم عدم فتكون الحالة زائدة على الذات وغير زائدة وهو محال

فتلخص من ذلك أن حالة المادة هي أمر وجودي زائد على الذات ، وهي قابلة للعدم فتكون جائزة الوجود ، فلا يرجح وجودها الا بمرجح أي سبب موجود فلا تكون قديمة ، لان الايجاد معناه الخلق بعدم العدم ، والقديم مالم يسبق وجوده بعدم فهو موجود دائما ، وايجاد الموجود تحصيل حاصل وهو محال

وعليه فهذه الحالة حادثة ، وكذلك كل حالة زائلة ، والمادة لا يمكن تصورها بلا حالة حادثة فتكون هي أيضا حادثة[1] والا كانت مجردة عن كل حالة وهو محال ، أو تكون موجودة ومتقلبة في حالات حادثة لا أول لها وهو محال أيضا [2] ، إذ تقلبها في هذه الحالات يدل على الانتهاء منها قبل كل حالة ، وكونها لا أول لها يستلزم عدم احصائها أو تناهيها . والانتهاء مما لانهاية له محال لانه تناقض

وجود الخالق : فالمادة حادثة ، وكل حادث لا بد له من محدث وهو الله تعالى والا جاز الترجيح بدون مرجح وهو محال

﴿ قدم صفات الله تعالى ﴾ الواجب قديم الذات قديم الصفات غير متغير والقدرة هي هي بعد الخلق كما كانت قبله ، والخلق عمل عمله الله لم يحدث تغييرا في ذاته أو صفاته مطلقا وليس بحركة ، ولكنا لا ندرك كنه هذا العمل (الخلق) ولا كنه الخالق ولا كنه المخلوقات

وخلق الازلي محال ، لان الخلق معناه الايجاد بعد العدم ، والازلي لم يسبق وجوده بعدم فهو موجود دائما ، وايجاد الموجود تحصيل حاصل

كذلك ايجاد حوادث في الازل لا أول لها ، لان ايجادها يستلزم احصاءها وحصرها واحصاء ما لا يعد محال . لذلك قال تعالى (وأحصى كل شيء عددا)

(١) لان ملازم الحادث حادث (٢) اذ هو التسلسل

﴿ نفي الجسمية عن الله تعالى ﴾ لو كان الله تعالى متحيزا لكان مركبا من جواهر فردة، والجوهر الفرد ماليس له امتداد مطلقا (١) وله وضع معين، وحيث انه لا فرق بين وضع ووضع بل كلها بالنسبة للجوهر سواء فوجوده في واحد منها دون غيره إما لعلة أو لغير علة. فان كان لغير علة فذلك ترجيح بدون مرجح وهو محال، وان كان لعلة (أي سبب أوموجد) فلا يكون وجود الجوهر في الوضع المعين قديما لان القديم هو مالم يسبق وجوده بعدم فهو موجود دائما فلا يكون محتاجا لسبب يهبه الوجود لكن المفروض هنا احتياجه للسبب فيكون محتاجا له غير محتاج له وهو تناقض، وما نشأ ذلك الا من فرض احتياج الله تعالى الى الوضع المعين فهو غير محتاج للوضع ولا للمكان وليس بمتحيز أصلا (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا)

﴿ الافول والحدوث ﴾ اعلم أن الافول المذكور في القرآن الشريف على لسان ابراهيم عليه السلام يدل على الحدوث لان معناه الغياب، وهو يدل اما على تحرك الآفل أو على أنه محدود غير محيط بخلقه، والا لم يمكن للارض أن تخرج بمن عليها عن تأثيره وسلطانه فان كان متحركا فهو حادث. وان كان محدودا غير محيط بكل شيء فهو ملتزم لوضع معين، وكل ماكان كذلك كان حادثا كما تقدم برهانه. فالآفل على كل حال حادث، وصدق الله وخليله عليه السلام

﴿ وحدانية الله تعالى ﴾ ثبت بالبرهان المذكور في كتابي (الدين في نظر العقل الصحيح) وبما يأتي أيضا: —

وهو ان اختصاص أحد الآلهة بخلق جزء دون غيره تخصيص بدون مخصص، وان كان ذلك بعد تشاور أو مفاوضة واتفاق فاما أن يؤثر ذلك في العلم القديم والارادة أو لا يؤثر، فان أثر فالعلم حادث وحدوثه يستلزم حدوث الذات، وان لم يؤثر فلا فائدة فيه مطلقا ويكون اختصاص كل بما خلقه تخصيصا بدون مخصص أيضا، ولا يلتئم ماخلقه هذا مع ماخلقه ذاك الا نادرا أو اتفاقا (صدفة) فيفسد نظام هذا العالم البديع، ويذهب كل إلـه بما خلق ويعلو بعضهم على بعض

(١) الجوهر الفرد هو الجزء الذي لا يتجزأ لا عقلا ولا وهما ولا فرضا مطابقا للواقع وهو موجود وجودا حقيقيا خارجيا فانه هو الجزء الذي تنتهي اليه المادة بالتحليل والتقسيم ومتى كان للمادة أول هو ذلك الجزء الذي انتهت اليه بالتقسيم كانت حادثة وهو المطلوب

المعلوم — ٠

(١) اما واجب وهو مالا ينفك عنه الوجود لا أزلا ولا أبدا ، لابد ان يكون أمرا ثبوتيا سواء كان ذاتا أم صفة ، جوهرا أو عرضا ، اذ لا معنى لوجود المعدوم

(٢) واما جائز وهو ما يجوز أن ينفك عنه الوجود اذا وجد ، ولا يوجد الا بموجد

(٣) واما مستحيل وهو مالا يمكن وجوده أزلا ولا أبدا

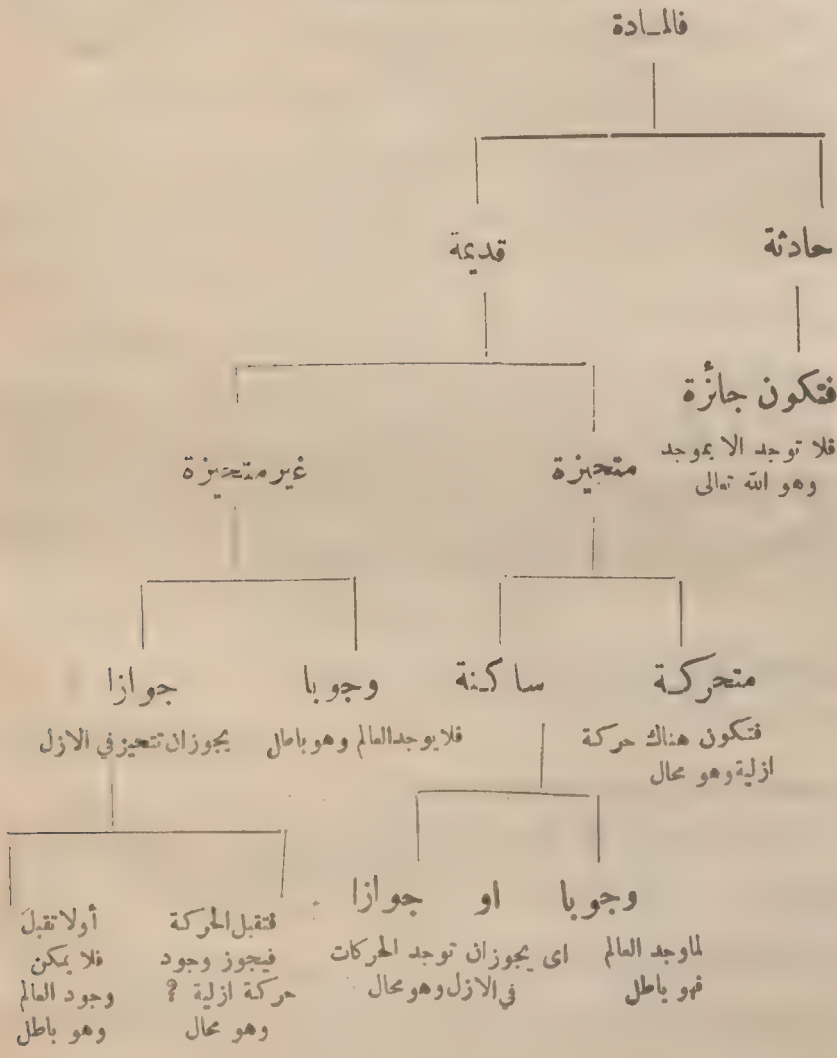

أما استحالة الحركات في الازل فلان معناه دخول حركات في الوجود لاعداد لها ودخولها هذا يستلزم انحصارها وعدها ، وعد ما لا يعد تناقض باطل ، فلا يجوز ذلك عقلا ولا فعلا

وهناك ثلاثة أسئلة : —

(١) ألا يجوز أن يكون سكون المادة في الازل واجبا ثم صار جائزا ؟ قلت : هل صار جائزا فجأة؟ أم تدريجا فان كان فجأة لزم الترجيح بدون مرجح والمعلول بدون علة ، وان كان تدريجا لزم وجود تغيرات في الازل وهو محال . وان قيل ان الزمان — على فرض وجوده — هو الذي فعل ذلك. قلت: ان كانت قوة الزمان حدثت فجأة أو تدريجا قلنا فيها ماقلناه آنفا

(٢) ان كان سكون المادة جائزا فلا توجد الحركات في الازل لعدم وجود القدرة على تحريكها أزلا فما تقول في ذلك ؟ قلت: ان كلامنا في المادة من حيث هي بقطع النظر عن أي اعتبار آخر فهل يجوز عليها التحرك من حيث هي أم لا ؟ فان جازت الحركة عليها عقلا من حيث هي جاز عقلا وجود حركات في الازل مع أن ذلك محال عقلا ، فكأن الحركات تجوز عقلا ولا تجوز ، وان كان لا يجوز عليها عقلا الحركة في الازل كان سكونها واجبا ولم يوجد العالم

(٣) انك تقول ما ملخصه : أن قدرة الله لا يمكنها أن توجد الحوادث في الازل كما تقول ان قدرة المادة لا تقدر على تحريكها في الازل فما الفرق بين القولين ، وهل العالم يجوز عليه من حيث هو الوجود في الازل أو لا يجوز ؟ قلت ان العالم لم يكن له وجود مطلقا في الازل حتى يرد علينا هذا السؤال بخلاف المادة عندكم فهي مفروض وجودها أزلا فهذا هو الفرق بين القولين

ملاحظة : — سمي المتحيز بالمادة لغة لانه ممتد

الدكتور صدقي

٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٩

معاهدة الصلح مع تركية

خلاصتها

في يوم ١٢ مايو سنة ١٩٢٠ عقدت في قاعة الساعة بوزارة الخارجية الافرنسية جلسة ذات خمس دقائق حضرها سفير انكلترة وسفير ايطالية وسفير اليونان ومندوب بلجكا ومندوب اليابان ومندوب الحجاز ومندوب الصين ومندوب البرتغال ومندوب رومانية ومندوب التشك سلوفاكية ومندوب الصرب ورئيس الوفد الارمني . و بعد التئام المجلس ادخل المسيو فوكير الوفد التركي يرافقه ضابط ايطالي فقام الجميع و بعد ان جلس رئيس الوفد توفيق باشا في المكان المعد له والى جانبه وزير الداخلية رشيد باشا وفخر الدين بك وزير المعارف والدكتور جمال باشا وزير النافعة والاشغال)

قال الموسيو ميلران رئيس وزارة فرنسة : —

« حضرات مندوبي السلطنة العثمانية !

« ان الدول الحليفات نطن بي أن أقدم لكم هذا المشروع للمعاهدة وهن يطلبن منكم قبوله، وقررن ان تكون المناقشة كتابة فتفضلوا بتقديم ملاحظاتكم مكتوبة لتجابوا عليها كتابة، ولكم مدة شهر لتبلغوا ملاحظاتكم، واننا مستعدون منذ الآن بان نتلقى كل مستند ترون ابلاغه لنا »

و بعد ان أتم خطابه مبينا بان تركية هي التي أطالت زمن الحرب على الاحلاف الخ . قدم الموسيو فوكير نسخة من مشروع معاهدة الصلح لرئيس الوفد فرد الرئيس بهذه الكلمة « الوفد يحفظ لنفسه الحق بان يرد على الدول الحليفات في الموعد المضروب بعد ان يدرس شروط الصلح التي قدمت اليه درسا دقيقاً »

وهاك الخلاصة التي نشرتها صحف باريز ولندن من المعاهدة

الشروط السياسية

الآستانة

يسلم الفريقان بتأييد سيادة تركية على الآستانة ولكن على شرط هو انه اذا أخلت تركية باتباع أحكام المعاهدة أو المعاهدات أو الاتفاقات الملحقة بها لاسيما مايتعلق بحماية الاقليات فان للدول المتحالفة تعديل القرارات السابقة . وتتعهد تركية بأن تقبل كل التدابير التي تتخذ بهذا الشأن

البواغيز

تفتح طريق الملاحة بالمستقبل في البواغيز أي الدردنيل وبحر مرمرا والبوسفور في زمن الحرب وزمن السلم لجميع المراكب التجارية والحربية وللطيارات المائية الحربية والتجارية بلا تمييز بين الرايات . ولا تكون مياه تلك البواغيز موضوعاً للحصر البحري ولا يجوز اتيان أي عمل عدائي فيها الا فيما يلزم لانفاذ قرار من قرارات عصبة الامم. وستنشأ لجنة للبواغيز للقيام بالمراقبة عليها . وستخول الحكومتان التركية واليونانية تلك اللجنة السلطة اللازمة من لدنهما ، وتؤلف اللجنة من ممثلين معتمدين من الولايات المتحدة (اذا رغبت حكومة واشنطن في ذلك ومتى أبلغت موافقتها بهذا الشأن) ومن السلطنة البريطانية وفرنسة وايطالية واليابان وروسية (اذ اعترف بروسية عضواً في عصبة الامم و بعد ذلك الاعتراف)ومن اليونان ورومانية و بلغارية (اذا اعترف ببلغاريا عضواً في عصبة الامم و بعد ذلك الاعتراف) ولكل دولة ان تعتمد ممثلا واحداً لها ولكن يكون لكل من ممثلي الولايات المتحدة والسلطنة البريطانية وفرنسة وايطالية واليابان وروسية صوتان . ولكل من ممثلي سائر الدول صوت واحد وللجنة ان تستخدم سلطتها مستقلة عن السلطة المحلية . ويكون لها رايتها الخاصة وميزانيتها الخاصة ونظامها المستقل . وهي مكلفة انفاذ جميع الاعمال اللازمة لتحسين سبل الملاحة في البواغيز وفي مدخل الموانئ ولها مراقبة سير السفن وقطرها ورسوها وكذلك المراقبة اللازمة في ثغري الآستانة وحيدر باشا لتنفيذ النظام المنصوص عليه في الشطر عن المعاهدة الخاص بالموانئ والطرق المائية والخطوط الحديدية

وفي حالة الاعتداء على حرية المرور بالبواغيز قد ورد نص خاص يقتضي باستنجاد اللجنة بممثلي الدول الممثلة في الآستانة . وهؤلاء الممثلون يقررون بالاتفاق مع القومندان البحري والعسكري لقوات الحلفاء التدابير الواجب اتخاذها . وللجنة ان تقتني الاملاك أو ان تقوم بالاعمال الدائمة التي تراها لازمة، أما الوسائل المالية فستتوافر بواسطة القروض التي تكون بضمان الرسوم التي يحق لها جبايتها على البواخر التي تمر بالبواغيز . وهناك أحكام تنقل الى لجنة البواغيز السلطة الممنوحة لمجلس الصحة

الاعلى وغيره من الهيئات وتقرر علاقاتها مع الشركات صاحبة الامتيازات الخاصة بالمنائر والارصفة والاحواض الخ وللجنة ان تنظم قوة بوليس . وتحيل كل مخالفة للقوانين الى المحاكم القنصلية . أما الرسوم التي تضعها على السفن فيجب ان تكون واحدة أيا كان الميناء الخارجة منه المراكب أو المسافرة اليه وأيا كانت رايتها وجنسية صاحبها

وهناك نصوص أشبه بالنصوص الواردة باتفاق سنة ١٨٨٨ الخاص بقناة السويس بشأن مرور السفن الحربية دون أي قيد خاص بالدولة المحاربة التي تعمل لانفاذ قرار من قرارات عصبة الامم

كردستان

تقبل تركية سلفا بمشروع استقلال محلي للاراضي التي يقطنها اكثرية من الاكراد شرقي الفرات وجنوبي أرمينية كما ستحددها لجنة مؤلفة من الانكليز والفرنسويين والايطاليين ويكون مركزها في الاستانة وهذا المشروع يصون حقوق الاشوريين والكلدانيين والاقليات الاخرى الجنسية والدينية في تلك الاراضي . وتتوقع المعاهدة تعديلا لحدود تركية المتاخمة لايران

واذا طلب الاكراد في تلك المنطقة استقلالهم من عصبة الامم في موعد معين فان هذا الاستقلال المعين يمنح لهم اذا أوصت به العصبة . وحينئذ يجوز للاكراد القاطنين في الجزء من كردستان الذي كان تابعاً حتى الآن لولاية الموصل ان ينضموا الى الدولة الكردية المستقلة .

أزمير

تقبل الحكومة التركية بنقل التمتع بحقوق سيادتها على ازمير والمنطقة المتاخمة لها كما هي مبينة في الخريطة الملحقة بالمعاهدة الى الحكومة اليونانية ، ويرفع العلم التركي على حصن من حصون ازمير الخارجية دلالة على السيادة العثمانية . وتكون الحكومة اليونانية مسؤولة عن ادارة المنطقة ويجوز لها ابقاء جنود فيها لصيانة النظام كما انه مرخص لها ادخال تلك المنطقة في نظامها الجمركي ويجب عليها انشاء

برلمان محلي على قاعدة التمثيل النسبي للاقليات . وهذا المشروع الواجب عرضه على مجلس عصبة الامم يدخل في طور التنفيذ بعد موافقة أكثرية المجلس عليه ويجوز تأخير الانتخابات المحلية لمدة معينة ريثما تتم عودة السكان الذين أبعدتهم السلطة التركية . وهناك أحكام خصوصية ترمي الى حماية الاقليات وجنسيات السكان في البلاد والخارج والى ايقاف الخدمة العسكرية الالزامية والى الاحتفاظ بحرية العمل واستخدام تركية لمرفإ أزمير ، وقد نص على انه لايجوز للحكومة اليونانية ان تقدم على مامن شأنه انزال قيمة النقود التركية . وستحمل منطقة أزمير شطرا مناسبا من الدين العثماني . و بعد مضي خمس سنوات يجوز للبرلمان المحلي أن يطلب من عصبة الامم ضم منطقة أزمير الى مملكة اليونان و يحق لمجلس العصبة أن يستشير الاهلين، فاذا منحوا حق الانضمام الى اليونان فان تركية ترضى منذ الآن بالتنازل عن جميع حقوق سيادتها الى اليونان

اليونان

تتنازل تركية لليونان عن حقوقها واختصاصاتها على الاراضي الواقعة في تركية أوربية خارجا عن الحدود المبينة في الخريطة الملحقة بالمعاهدة وعلى جزر أميروس وتنيدس ولمبوندس وصامطراس ومدلة وصاموس ونيكاريا وصاقس ، وعلى جزر أخر من بحر الارخبيل . تقبل حكومة اليونان مبدئيا في منطقة البواغيز نفس التعهدات المأخوذة على تركية وتنص بعض المواد على معاهدة أخرى توقعها اليونان لحماية الاقليات الجنسية والدينية واللغوية في أملاكها الحديثة ولا سيما في أدرنة ولصيانة حرية تجارة المرور ومعاملة تجارة سائر الامم على قاعدة المساواة . وتتحمل اليونان أيضا بعض تعهدات مالية

أرمينية

تعترف تركية بأرمينية كدولة حرة مستقلة وترضى بتحكيم رئيس الولايات المتحدة بشأن التخوم بين تركية وأرمينية في ولايات أرضروم وطرابزون وان و بتليس ، و بشأن منفذ لارمينية على البحر . وتذكر المعاهدات واجبات أرمينية وحقوقها فيما لو ألحق بها

قرار رئيس الولايات المتحدة أملا كا تركية . أما تحديد التخوم بين أرمينية والكرج اوآزربيجان فيكون موضوع اتفاق يعقد بين تلك الحكومات الثلاث. ويجب على أرمينية توقيع معاهدة على حدة تضمن فيها حقوق الاقليات وحرية تجارة المرور الخ

سورية والعراق وفلسطين

يعترف المتعاقدون بسورية والعراق كدولتين مستقلتين بمقتضى المادة ٢٢ من عهدة عصبة الامم أما من الوجهة الادارية فتكون تلك البلاد خاضعة لآراء ومساعدة دولة منتدبة الى ان تصبح قادرة على حكم نفسها بنفسها . وستعين الدول المتحالفة الكبرى الحدود وتختار المنتدبين . ويعهد أيضا بادارة فلسطين الى دولة منتدبة طبقاً لاحكام المادة ٢٢ من عهدة عصبة الامم . وتعين الدول المتحالفة الكبرى الدولة المنتدبة وتحدد التخوم . وقد أثبت التصريح الاصلي الذي صرحته الحكومة البريطانية في ٨ نوفمبر سنة ١٩١٧ ووافقت عليه الحكومات المتحالفة بشأن انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وستكلف لجنة خاصة تختار رئيسها عصبة الامم بدرس وتسوية جميع المسائل الخاصة بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين

أما حدود الانتداب فستعينها الدول المتحالفة الكبرى وتعرضها على موافقة مجلس عصبة الامم .

الحجاز

تعترف تركية كما اعترف الحلفاء بالحجاز كدولة حرة مستقلة وتنقل اليها حقوق سيادتها على الاراضي الواقعة وراء حدود السلطنة العثمانية القديمة قبل التخوم التي ستحدد فيما بعد للحجاز

وبالنظر للصفة المقدسة المعترف بها من جميع المسلمين لمكة والمدينة يتعهد ملك الحجاز بأن يدع الدخول اليهما حراً وسهلا لمسلمي جميع الاقطار الذين يقصدونهما للحج أو لاي غرض ديني آخر . وسيعمل أيضا على احترام الاوقاف . وقد وضع قرار أيضاً لضمان المساواة التجارية التامة في أراضي الحجاز للدول الجديدة المؤلفة من تركية ولسائر الدول

مصر والسودان وقبرس

تتنازل تركية عن جميع حقوقها واختصاصاتها على القطر المصري ابتداء من ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ وتعترف بحماية بريطانية العظمى على القطر المصري المعلنة في ١٨ دسمبر سنة ١٩١٤ وقد وضعت نصوص خاصة بالامور الآتية : اكتساب الاتراك للجنسية المصرية ، وترك الحرية للاتراك في اختيار الجنسية التركية ، ومعاملة مصر والرعايا المصريين وبضائعهم ومراكبهم وحماية بريطانية العظمى للرعايا المصريين في الخارج ، والتنازل لبريطانية العظمى عن السلطات المخولة لسلطان تركية بالاتفاق المعقود في الآستانة في ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٨٨ بشأن قناة السويس ، وكيفية معاملة الاملاك الخاصة بالحكومة التركية وبالرعايا الاتراك في القطر المصري ، تنازل تركية عن المطالب التي قدمتها بشأن الويركو الذي كانت تدفعه مصر ، وقبول بريطانية العظمى تحمل المسؤوليات التي كانت على تركية من جراء القروض التركية التي كانت بضمانة ويركو مصر

ويأخذ المتعاقدون عهداً بالاتفاق المبرم بين الحكومتين البريطانية والمصرية في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وبالاتفاق الاضافي المبرم في ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ بشأن نظام ادارة السودان

ويعترف المتعاقدون أيضا بضم قبرس الذي أعلنته بريطانية العظمى في ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ . وتتنازل تركية عن جميع حقوقها على تلك الجزيرة بما في ذلك التمتع (بالجزية) التي كانت تدفعها الجزيرة للسلطان . وقد وضع قرار بشأن اكتساب الرعايا الاتراك المولودين في قبرس أو المقيمين فيها عادة للجنسية البريطانية

المغرب وتونس

تعترف تركية بحماية فرنسة على المغرب الاقصى كما وضعت بالاتفاق المعقود في ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ وبحمايتها على تونس كما وضعت في ١٢ مايو سنة ١٨٨١ وتعامل البضائع المراكشية والتونسية في تركية معاملة البضائع الفرنسية

طرابلس وجزر بحر ايجه

تتنازل تركية عن الحقوق والامتيازات الممنوحة للسلطان في طرابلس بمقتضى معاهدة لوزان المعقودة في ١٢ اكتوبر سنة ١٩١٢ وتتنازل أيضا لايطالية عن جميع حقوقها واختصاصاتها في جزر الدوديكانز التي تحتلها الآن ايطالية وفي جزيرة كاستللوريزو

الجنسية

وقد أدرج في المعاهدة أحكام خصوصية لتسوية مسألة جنسية الرعايا الاتراك المقيمين عادة في الاراضي التي سلخت عن تركية بمقتضى المعاهدة .وهذه الاحكام تشبه بوجه عام الاحكام التي أدرجت في المعاهدة مع النمسة

أحكام عمومية

تحت هذا العنوان أدرجت نصوص تعترف تركيه بموجبها وتقبل بالمعدات والاتفاقات الاضافية التي عقدت مع الدول التي أنشأت أو ستنشأ في الامبراطورية الروسية القديمة . وتعترف أيضا بالغاء معاهدة بريست ليتوفسك وجميع المعاهدات والاتفاقات التي عقدتها تركية مع حكومة روسية المكسيمالية

وسيناط بلجنة خاصة وضع نظام قضائي في تركية يحل محل نظام الامتيازات الاجنبية

وتنص المعاهدة على وجه اصدار تركية عفوا عن جميع الرعايا الاتراك الذين قاتلوا أثناء الحرب في جانب الحلفاء وعلى تنازل تركية عن جميع حقوق سيادتها واختصاصها على جميع المسلمين الخاضعين لسيادة أو لحماية دولة أخرى

الشروط المالية

تخصص جميع موارد تركية – ماعدا المخصص منها لخدمة صندوق الدين العثماني — للقيام بالنفقات الآتية حسب ترتيب أوليتها :

(١) النفقات العادية لقوات الاحتلال المتحالفة بعد تنفيذ المعاهدة

(٢) نفقات الاحتلال من تاريخ ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ في الاراضي الباقية عثمانية وفي الاراضي التي سلخت عن تركية وألحقت بدولة غير الدولة التي تحملت نفقات لاحتلال

(٣) دفع التعويضات التي يطالب بها الحلفاء عن اضرار أصابت رعاياهم أثناء الحرب ولغاية انفاذ المعاهدة

أملاك الحكومة العثمانية

الدولة التي استولت على أراض سلخت من تركية تكون صاحبة الملكية في جميع الممتلكات التي كانت خاصة بالحكومة العثمانية في تلك الاراضي

توزيع الدين العثماني

الدول التي استولت على أراض سلخت من تركية ينبغي لها أن تشترك في تحمل الاقساط السنوية الخاصة بالدين العثماني

وعلى الدول البلقانية والدول التي نشأت حديثا في آسية ان تقدم الضمانات بشأن دفع ما يخصها من هذا القبيل

أما معدل ما تتحمله كل دولة من الدين العثماني فيبني على نسبة دخل الاملاك التي دخلت في حوزتها الى مجموع دخل تركية في السنوات الثلاث التي تقدمت الحرب البلقانية

وستسري هذه القواعد نفسها من حيث تحمل نصيب من الدين العثماني على الدول التي استولت على أملاك عثمانية عقب الحروب البلقانية

مراقبة المالية العثمانية

ينشأ في تركية قومسيون مؤلف من مندوب بريطاني ومندوب فرنسي وآخر ايطالي ويضم اليهم مندوب عثماني يكون صوته استشاريا ليتولى وضع الطرق التي يراها أنسب لاصلاح مالية تركية . ويدخل في اختصاص هذا القومسيون :

فحص الميزانية العثمانية التي لا يمكن انفاذها بدون موافقة القومسيون

تقرير التدابير اللازمة لاصلاح النظام النقدي في البلاد التركية

ولا يسع الحكومة العثمانية وضع أي ضريبة جديدة ولا تعديل نظامها الكمركي ولا عقد أي قرض داخلي أو خارجي ولا اعطاء أي امتياز بلا موافقة القومسيون

وتنص المعاهدة على امكان حلول هذا القومسيون المالي محل صندوق الدين لادارة الايرادات المتنازل عنها لذلك الصندوق ويكون ذلك بقرار من الاكثرية بعد استشارة حملة أسهم الدين وذلك في ميعاد ستة أشهر قبل انتهاء مدة مجلس الادارة الحالي

وقد عهد الى القومسيون المالي فيما يتعلق بانفاذ هذه المعاهدة بما يأتي :

تعيين قيمة الاقساط الواجب على تركية دفعها تسديدا لمصاريف القوات الاحتلالية وتعويضاً للاضرار التي استولت على أملاك عثمانية وذلك مقابل نصيبها في الدين العثماني

تقرير كيفية تخصيص المبالغ الذهبية التي يجب نقلها من ألمانية والنمسة انفاذا لشروط المعاهدتين المعقودتين مع تينك الدولتين

الشروط الاقتصاديه

تظل العلاقات التجارية بين الحلفاء وتركيه خاضعه لاحكام الامتيازات التى يعاد نظامها الى ما كانت عليه قبل الحرب (وقد ألغيت الامتيازات أثناء الحرب)

وعليه فتكون الرسوم على الواردات كما قررها اتفاق ٢٥ ابريل سنة ١٩٠٧ على انه تركت سلطة واسعة للقومسيون المالي لتعديل الرسوم حسب الحاجة ولتطبيق الضرائب التي قد توضع على الاتراك أو على الرعايا الاجانب أيضا المقيمين في تركية الى غير ذلك من الاختصاصات الخاصة بفرض رسوم جديدة أو تعديل الرسوم الموجودة

تجريد تركية من السلاح

الجيش — يؤلف الجيش التركي من المتطوعة ومدة الخدمة ١٢ سنة (و ٢٥ للضباط) ويؤلف من ٣٥٠٠٠ نفر جاندرمة مع قوة مؤلفة من ١٥٠٠٠ لتعزيز الجاندرمة و ٧٠٠ للحرس السلطاني . ويشترك في قيادة الجاندرمة ضباط من الحلفاء والمحايدين . وتدمر جميع الحصون القائمة على شواطئ بحر مرمرا والبوغازين الى الى مسافة عشرين كيلو مترا .

البحرية — تؤخذ من تركية جميع السفن الحربيه ما عدا بعض سفن مسلحة تسليحاً خفيفاً تبقى لحاجه البوليس

الطيران — لا يترك لتركية شيء من أسباب الطيران العسكري أو المائي

المراقبه — تؤلف لجان من الحلفاء لمراقبه نزع السلاح . وتؤلف الجاندرمه الجديدة على يد لجنه عسكريه من الحلفاء تتولى العمل لمدة خمس سنوات على الاقل

(تمت خلاصة شروط معاهدة الصلح مع تركية)

وصف بلاد العرب الجنوبية

التي يسميها اليونان العربية السعيدة

يراد بالعربية السعيدة اليمن وما جاورها وسميت بذلك لكثرة خيراتها بالنسبة الى البادية في الشمال فكأنهم يريدون بها بلاد العرب العامرة أو الخضراء ويحدها عندهم خليج العجم من الشرق وبحر العرب من الجنوب والبحر الاحمر من الغرب — ويسمون خليج العرب — ومن الشمال البادية وهي بادية الشام والعراق والعربية الحجرية (بلاد بطرا) فيدخل في اسم العربية السعيدة اليمن وحضرموت، والشحر ، وعمان ، واليمامة، ونجد

وأما العرب فيريدون باليمن الجزء الجنوبي من جزيرة العرب وهو يقسم عند العرب الاقدمين الى ٤٨ مخلاف والمخلاف ينقسم الى مدن وقرى ، ويوجد فيه الاودية والجبال والسدود ، وقد فصل الهمداني كل مخلاف بقراه وأوديته وجباله في كتابه (صفة جزيرة العرب)

ما قاله اليونان عن تاريخ اليمن لم يدون اليونانيون وسواهم من أمم التاريخ كتابا في تاريخ اليمن أو تاريخ غيرها من بلاد العرب ولكنهم ذكروه عرضاً في أثناء كلامهم في الجغرافية العامة والرحلات وغيرها . واكثر اليونان ذكرًا لبلاد العرب سترابون وبلينيوس وبريليوس وبطليموس ، ذكر كل منهم مدنا وأمما وأحوالا أخرى من أحوال بلاد اليمن بعضها يوافق ما ذكره العرب والبعض الآخر يخالفه . وذكروا مدنا وأقواما ولم يعرفها العرب اي انها لم ترد في تاريخهم أو جغرافيتهم . وأهم هؤلاء الاقوام هم [المعينيون] وذكروا الطرق التجارية ووصفوا الاحوال الاجتماعية فترى بين ما ذكره اليونان من الامم والمدن امما لم يذكرها العرب أو ذكروها عرضا بما لايستحق الذكر والمعينيون لم يعرفهم العرب وهم عند اليونان أمة عظيمة ذات تجارة واسعة وشأن كبير ومثلهم [القوريون] و[الجبائيون]

ومن المدن التي نوهوا بها [مأرب] ولم يذكرها العرب الا في عرض الكلام عن سدها وانفجاره

كانت اليمن في أصل نظامها تقسم الى [محافد] وهو يشبه نظام الاقطاع في الاجيال الوسطى لاوربة وكانت الاقيال [1] في اليمن يتعاطون التجارة ولتوسط بلاد اليمن والهند والحبشة ومصر والشام والعراق كانوا ينقلون التجارة بين هذه البلدان بعد دخولها الى جزيرة العرب بالقوافل بطرق خاصة

الدولة المعينية

تنبه العلماء الى هذه الدولة كما ذكره اليونان عنها فقال استرابون في كلامه عن بلاد اليمن «يشغل القسم الجنوبي من جزيرة العرب اربعة شعوب : المعينيون وعاصمتهم [قرنا] [2] والسبأيون وعاصمتهم [مأرب] »وذكر في مكان آخر أن المعينيين يحملون التجارة الى [بطرا] مدينة الانباط . وذكر بلينيوس ان المعينيين يقيمون في بلاد كثيرة العابات والاغراس ، وذكرهم ايضا ديونيوس و بطليموس واطروا سلطتهم وسعة تجارتهم . ولم يكن العلماء يعرفون [معين] فذهب بعضهم الى ان المراد بلفظ « معين » منى وهو — بقرب مكة — وقال آخرون غير ذلك حتى ووفق المستشرق [هالبني] الى ارتياد بلاد الجوف الجنوبي شرق صنعاء واكتشف انقاض معين، وقال الهمداني في كتاب الاكليل « محافد اليمن · مراقش، ومعين، وهما بأسفل جوف الرحب »ولا يظهر انها كانت دولة حرب وفتح بل كانت دولة تجارة مثل اخوانهم الفنيقيين على شواطئ سوريه ودولة الانباط في بطرا ، واكثر دول اليمن على هذه القاعدة اي تجارية . وكانت طرقها التجارية ممتدة في اواسط جزيرة العرب بين تلك البحار وانتشرت سيادتهم ومستعمراتهم الى اعالي الحجاز شمالا بدليل ماوقفوا عليه من النقوش المعينية في العلاء — قرب وادي القرى — وفي الصفاء وفي حوران وغيرها

---

(١) الاقيال لقب ملوك اليمن واحدها قيل بوزن بيت

(٢) لعل اصلها قرن بالتحريك

الدولة السبأية

لم يعلم الوقت الذي تأسست فيه الدولة السبأية ولكنه قد ثبت انهم أنشأوا في اليمن دولة كبرى جاء ذكرها في أخبار أشور منقوشاً في آجرّة للملك [سرجون] الثاني سنة ٧٠٠ قبل الميلاد ذكر فيها انه أخذ الجزية من [يثعمر] السبأي. فيدل هذا القول على وجود السبأيين في بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد . ولكن الراجح عند العلماء اليوم ان سرجيون لم يصل بفتوحه الى اليمن والظاهر ان السبأيين كانوا يدفعون الجزية عن تجارتهم في شمال جزيرة العرب حتى يؤذن لهم بالمرور الى شواطئ البحر المتوسط وخصوصا الى غزة لانها فرضة تجارية قديمة . وقد اتسع ملكهم ولا يراد بسعة الملك انهم دوخوا البلاد كما فعل اليونان والرومان او كما فعل العرب بعد الاسلام فان سبأ ليست دولة فتح بل هي دولة قوافل وتجارة ولا تجد للفتح ذكرا في آثارها الا قليلا خلافاً للاشوريين والمصريين معاصريها فانك لاتكاد تقرأ على آثارهم غير قولهم : فتحت ، وغلبت وحملت ، الغنيمة . وأما السبائيون فأكثر ما وصل الينا من أخبارهم : بنيت ، ووقفت ، ورممت . وانما يراد بسعة ملكهم نشر نفوذهم بواسطة تجارتهم وذكرت مملكة سبأ في التوراة أيام سليمان في القرن التاسع قبل الميلاد ، ويتضح من ذلك انهم أقدم من مملكة سليمان أيضا

حضارة اليمن القديم

بعد ماتحقق ان دولة حمرابي عربية علم ان العرب من أسبق الامم الى الحضارة والمدنية لانهم أنشأوا الدول وشادوا المدن ونظموا الحكومات وسنوا الشرائع و بنوا المدارس والهيا كل ورقوا الهيئات الاجتماعية الترقية شأن المرأة منذ اربعة آلاف سنة

وتقتصر هنا على مدنية عرب اليمن . وقد رأيت انهم كانوا أهل حضارة ودولة لا تقل عن دول معاصريهم في أشور وفينيقية ومصر وابتنوا المدن وشادوا القصور والهيا كل وتبسطوا في العيش ، لكن تمدنهم لم يكن حربيا كتمدن الاشوريين والفرس والمصريين بل كان تجاريا كتمدن الفينيقيين فكانوا واسطة التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فانقطعوا لاعمالهم وتفرغوا لاستثمار

أرضهم بغرس الشجر وزرع الحبوب وحفر المناجم واصطناع العطور والاطياب وركوب القوافل في القفار والسفن في البحار لنقل السلع وتوالت أجيال منهم كانوا هم وحدهم تجار العالم كاخوانهم الفينيقيين . وقد تعاصروا حينا وتعاونوا على ذلك دهرا طويلا

على ان التمدن لم يرد له ذكر في كتب العرب الا قليلا وانما ذكره اليونان عن التاريخ القديم وما كتشفه العلماء من آثار المدن وما قرأوه على اطلالها من اخبارها وقلما كانوا يعتنون بتنظيم الجند لقلة الحرب والفتوح وانما كانوا يجمعون الرجال في استخدامهم لبناء المدن او القصور او انشاء السدود . وقد ضرب اليمانيون نقودا نقشوا عليها صور الملوك واسماءهم واسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند وزينوها برموز سياسية او اجتماعية كصورة البوم او الصقر او رأس الثور رمزا الى زراعة أو صورة الهلال وهو رمز ديني عندهم . وكانوا يركبون والمركبات تجرها الخيول أو الافيال

كانت الامة في اليمن مؤلفة من اربع : طبقات الجند المسلح لحفظ النظام . والفلاحون لزراعة الارض ، والصناع ، والتجار ، ولكل فئة حدود لا تتعداها ولا ينتقل احد منها الى سواها

الصناعة

ليست جزيرة العرب بلادا صناعية وانما صناعتهم تحضير بعض اصناف التجارة والبخور واللبان والطيوب وغيرها وكان ذلك مشهورا عنهم بين الامم القديمة لا يشاركهم فيه احد

قال هيرودتس : و بلاد العرب فيها وحدها الخور والمر والقرفة والدارصيني واللاذن ، والعرب يجنون كل هذه الاشياء و بلاد العرب زكية الرائحة حيث ماسرت . .

الزراعة

من يجب بلاد العرب يرى ان بلاد المعينيين والسبأيين قد تغيرت معالمها

فيستغرب ما يسمعه عن ثروة تلك الامم وسعة سلطانها إذ لا يرى فيها الا قليلا من الناس وكانت على عهد ذلك التمدن بساتين وريا فيها الاغراس من الاشجار والرياحين والحنطة والازهار، وكانت الزراعة في رقي حسن مع مشقة الري في بلاد لا أنهر فيها الا ما يخزنونه بالسدود من أمطار الصيف ،فبلغ من رغبتهم في العمران وعلو همتهم انهم أنشأوا سدودا كالجبال يحجزون بها المياه في الاودية حتى ترتفع ويسقون بها المرتفعات ويصرفون الماء اليها من نوافذ حسب الحاجة كما يفعل بخزانات هذه الايام ، فالعرب أول من اصطنع الخزانات وهي السدود وأعظمها سد [مأرب] وسنذكره

وذكر [استرابون] أن بلاد سبإ أخصب بلاد العرب وعد من محصولاتها المرّ والبخور والقرنفل والبلسم وسائر العطويات فضلا عن النخيل والغاب

ووصف الهمداني [وادي ظهر ؟] باليمن وقد شاهده فذكر ان فيه نهرا عظيما يسقي جنبات الوادي وعليها من الاعناب نحو عشرين نوعا وفيه أصناف الفواكه الاخرى

المعادن

التعدين أي استخراج المعادن من بطن الارض وقد اشتهرت بلاد العرب بمعادنها وجواهرها عند القدماء وان ظهر ذلك غريبا الآن لتقلب الاحوال وتحول الازمان، ولكن التاريخ أصدق شاهد على ما كان في جزيرة العرب من الثروة في جوفها فضلا عن سطحها . كان فيها كثير من مناجم الذهب والفضة والحجارة الكريمة وكان ذلك من أهم أسباب طمع الفاتحين في ذلك العهد وقد شبهها بعضهم بكاليفورنيا هذا الزمان لكثرة مناجمها ، وأقدم هذه المناجم في بلاد [مدين] ولها شهرة واسعة في التاريخ القديم حتى ألف بعضهم كتبا في معادنها وذهبها . وذكر الهمداني في صفة جزيرة العرب وياقوت في معجم البلدان وغيرهما كثيرا من مناجم الذهب بعضها في اليمن والبعض الآخر في اليمامة .منها معدن [نحب] في ديار بني كلاب ، ومعدن [بيشا] ومعدن [قضاعة] في اليمن وا ذهب خولان] الوارد ذكره في التوراة باسم حويلة. في اليمامة وكثير من المعادن خصص لها الهمداني فصلا .سماه (معادن اليمامة) وهي معدن الحسن ،وهو معدن ذهب غزير ومعدن [الحفير] بناحية [عماية] وهو معدن ذهب غزير

أيضا ومعدن [الضبيب] عن يسار [هضب القليب] ومعدن [الثنية] ثنية ابن عاصم الباهلي ومعدن [الوسجة] ثم معدن [شمال الفضة والصفر] ومعدن (نيس) ومعدن (العقيق) ومعدن (المحجة) ومعدن (العمق) بين (افيعيه) ومعدن (الهجيرة) ومعدن (بني سليم) ومعادن كثيرة أخرى.

وقول العرب « معدن كذا » يراد به معدن الذهب الا اذا عرفوه بالفضة أو الصفر أو غيرهما . وفي بلاد العرب سوى مناجم الذهب مناجم الجواهر الاخرى كمعدن الفضة في [الرضاض] الذي لا نظير له وفي [نقم] معدنا فصوص [البقران] ويبلغ المثلث منها مالا كثيرا وهو ان يكون وجهه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق اسود والبقران ألوان ومعدنه بجبل (أنس) و(السعوانية) من سعوان واد جنب صنعاء وفيه أيضا فص أسود بعرق أبيض ومعدن (بشهارة وعبشان) من بلاد (حاشد) ، والبلور يوجد في مواضع فيها وأشياء أخرى يطول شرحها وهذه الاشياء لا يوجد لها نظير الا في بلاد الهند والهندي بعرق واحد وليس بثلاثة ، دع مغاوص اللؤلؤ بالبحرين

الاسداد

الاسداد هي جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الاودية لحجز السيول ورفع المياه لري الاراضي كما يفعل أهل التمدن الحديث في بناء الخزانات وانما عمد العرب الى بناء الاسداد لقلة المياه في بلادهم مع رغبتهم في احياء زراعتهم فكثرت بكثرة الاودية حتى تجاوزت المئة وكانوا يسمون كل أسد باسم خاص من أكبر هذه الاسداد سد [مأرب] و[ربوان] و [شحران] ..و(لحج) الخ

الحضارة

أهل اليمن حضر من أقدم أزمانهم فهم أهل مدن وقصور ورياش لبسوا الحز واقترشوا الحرير واقتنوا آنية الذهب والفضة واغترسوا الحدائق .قال [أغاثر سيدس] وللسبأيين في منازلهم مايفوق التصديق من الآنية والماعون على اختلاف أشكالها من الفضة والذهب، وعندهم الاسرة والموائد من الفضة، والرياش من أفخر الانسجة وأغلاها ،وقصورهم قائمة على الاساطين المحلاة بالذهب أو المنزلة بالفضة ، يعلقون على أفاريز منازلهم وأبوابها صفائح الذهب مرصعة بالجواهر ويبالغون في تزيين

قصورهم أموالا طائلة الكثرة ما يدخلون في زينتها من الذهب والفضة والعاج والحجارة الكريمة

وذكر الهمداني في وصف قصر [كوكبان] في القرن الرابع الهجري انه كان موزر الخارج بالفضة وما فوقها حجارة بيضاء ، وداخله مرمر ناصع والجزع وصنوف الجواهر

تاريخ البلاد العربية الحديث

قد لخصنا تاريخ البلاد العربية القديم على قدر ما يسمح به المقال والآن نبين حالتها الحاضرة وسبب انحطاطها فنقول :

ان ملوك اليمن اعتنقوا قديما الديانة اليهودية ونشروها في بلادهم فلما تنصر امبراطرة الرومان البيزانطيين ونشروا ديانتهم في سورية ومصر وأرادوا ان يوسعوا نفوذهم بواسطة ديانتهم النصرانية أرسلوا الى الحبشة قسوسا نصرتها وأرادوا ان يمدوا نفوذهم الى بلاد العرب فنزلوا في عدن ونصروا أهاليها ثم تخطوا الى [نجران] و[حضرموت] ونصروهما وبنوا في نجران مزارا أو حجا عرف [بكعبة نجران] فيه القسيسون والرهبان. وآلت حكومة [حمير] اليهودية في أوائل القرن السادس الميلاد الى ملك منهم اسمه [ذرنواس] كان شديد التعصب لليهودية فنزا أهالي نجران فحصرهم ثم انه ظفر بهم فخدّهم الاخاديد وعرض عليهم اليهودية فامتنعوا فأحرقهم بالنار وأحرق الانجيل وهدم بيعتهم ثم انصرف الى اليمن . فلما بلغت هذه الاخبار ملك الروم أرسل الى ملك الحبشة وأمره أن يغزو أهالي اليمن وينتقم من اليهود فجهز لهم سبعين ألفا فخرجوا الى اليمن و بعد معارك يطول شرحها انتصر الاحباش النصارى على اليهود وأفنوهم ، وانفلت (سيف بن ذي يزن) وتوجه الى كسرى وهو من الاسرة المالكة فاستنجد كسرى فأمده بالرجال في المراكب وخرجوا في (ضفار) فلما سمع الاحباش بقدوم سيف بالفرس قابلوهم فوقعت معارك انهزمت فيها الاحباش فأفنوهم وأفنوا كل من تنصر من أهل اليمن ثم مات سيف بن ذي يزن وخلفه والٍ من قبل كسرى أنو شروان

وفي هذه المدة ظهرت الديانة الاسلامية وأسلم الوالي الفارسي وأهل اليمن الا

قليلا منهم بقي على اليهودية الى الآن فلما تولى عمر بن الخطاب (ض) خلافة وابتدأ يجهز لغزو الروم والفرس أمر عماله في البلاد العربية أن يسوقوا كل من يقدر على حمل السلاح وكل من يحسن الخطابة والكتابة فصاروا يسوقون الامداد ات متتابعة الى عهد دولة بني أمية ، من أجل ذلك وما تقدمه من حروب الاحباش والفرس خلت البلاد العربية من اليد العاملة وأهملت الزراعة وبناء السدود ، فهذا هو سبب الانحطاط

فبلاد العرب الآن تراجع اليها شيء من القوة حسب التناسل ، وعدد أهل الجزيرة الآن لا يقل عن ١٤ مليونا ولا يهمل العلم والتعليم في الجزيرة وتتنافس الامراء فيما بينهم أهل أمر الزراعة والصناعة

ويوجد الآن في الجزيرة خمس حكومات مستقلة في الحجاز ونجد واليمن وعسير ومسقط ، وبين أمراء هذه البلاد شيء من التنافس فلو قيض الله لقادة أفكار العرب ان يسعوا في التوفيق بينهم على شرط ان يكون كل مستقلا في محله ويوحدوا سياستهم وجنديتهم كما هو حاصل في الولايات المتحدة أو في ألمانية وينشروا المعارف في بلادهم ويعنوا بالزراعة مع اعادة السدود كما كانت سابقا ويبحثوا عن المناجم ويعنوا بزراعة القهوة التي لا يوجد مثلها في البلاد الاخرى فانها تجلب الربح العظيم للبلاد كالقطن بالنسبة لمصر . وفي بلاد اليمن يزرع أنواع الحبوب والنخيل والفواكه

والحاصل ان البلاد العربية يمكن ان تسترجع قوتها عن قريب اذا قيض الله لها حكومة صالحة ولا يقوم بهذا الا السوريين فان سورية عند العرب هي العين التي يبصرون بها وسورية من الاراضي المقدسة والعرب يحترمون أهالي سورية ويجلونهم . ولو عنى السوريون بخدمة الجزيرة فنظموا هيأة لارشاد الامة العربية بالنصح للتوفيق بين الامراء وازالة سوء التفاهم والحسد (لان وقتنا هذا وقت عمل وليس وقت مفاخرة وحسد) لوجدوا آذانا صاغية من أهالي البلاد لان العرب صاروا يشعرون بما هو محيط بهم ولو اجتهد السوريون لمد السكة الحديدية من المدينة الى صنعاء لارتباط البلاد والامن وتسهيل التجارة والانتقال لتم المقصود ؟

عبد الله المغيرة

تقرير لجنة مشيخة الازهر الشريف*

المؤلفة لفحص مشروع تعميم التعليم الاولى

(٧) توجد تحت مراقبة الازهر الشريف وبعض المعاهد الاخري كتاتيب أساس التعليم فيها حفظ القرآن وتسمى تلك الكتاتيب التحضيريات لانها تؤهل البنين للانتظام في تلك المعاهد الدينية و يبلغ متوسط تلامذة تلك الكتاتيب ٢٥٠٠ وقد صرفت مشيخة الازهر في العام الماضي مكافأة سنوية لالف تلميذ من الكتاتيب التابعة للازهر . و بلغ مجموع تلامذة التحضيريات التابعة لمشيخة معهد الاسكندرية ١١٠١ في بعض السنين وفي استيلاء المشروع على تلك النسبة من مجموع ابناء الامة استيلاء على تلك التحضيريات التابعة للمعاهد او محولها وصد الذين يريدون تعليم ابنائهم القرآن الكريم من العلماء وغيرهم

(٨) ان جميع الفوائد الخلقية والعقلية والتهذيبية والسياسية والاجتماعية الخ الخ التي أفاضت لجنة الوزارة في بيانها وترتيبها على تعليم الطفل هى بنفسها مترتبة بدرجة مضاعفة جدا اذا كان أساس التعليم في تلك المدارس الاولية هو حفظ القرآن الكريم أو على لاقل حفظ نصفه وتعتقد اللجنة بحق انه اذا بذلت الحكومة مجهودها في هذا المشروع جعلة نصب عينيه حفظ القرآن الكريم والعناية بتعليم الديانة الاسلامية لابناء المسلمين تكون قد نبتت الجيل المستقبل نباتا حسنا ورفعت الامة المصرية الى مكانها اللائق بها بين الشعوب الاسلامية وأهدت اليها من حيث أنها شعب اسلامي روحا عالية في حياتها الادبية والاجتماعية بما تغرسه في نفوس الابناء من المثل الاعلى للتهذيب الاسلامى ولاجل ان تكون اللجنة غير مظنون بها انها مدفوعة في هذا القول بمحض الميل الدينى من غير نظر الى الاصلاح تستلفت اللجنة نظر الحكومة الى أن الاحداث المجرمين الذين تتزايد نسبتهم كل سنة حسب الاحصاء الرسمي لا يكاد يوجد بينهم حدث ممن تعلموا في مدارس القرآن

*) تابع لما نشر في ص ٣٦٢ من الجزء السابع

واستظهروا جانبا منه فكيف اذا نفهم الى ذلك منهم الوسائل الاصلاحية التي يقتضيها المشروع

ولا يفوت اللجنة أن تنوه هنا بأنه يوجد عدد غير قليل من رجال البلاد المعدودين لم يتعلموا الا التعليم الاولي في تلك المكاتب المعهودة وقد أفادهم حفظ القرآن في فاتحة حياتهم تهذيبا في الاخلاق وتنويرا في العقل وتثقيفا في الحكم [انظر آخر الفقرة ١٥ من تقرير لجنة الوزارة] (١) حتى صارت الحكومة

(١) نص الفقرة ١٥ « رأي اللورد كرومر في الخطر السياسي » وقد أعرب اللورد كرومر باجلى بيان عن الخطر السياسي الذي ينجم من ترك غمار الشعب بلا تعليم فقال في كتابه « مصر الحديثة » الجزء الثاني صفحة ٥٣٤ مايأتي :

« من المهم جدا من جميع الوجوه أن تبذل الحكومة جهدا متواصلا لوضع التعليم في مصر على أساس مكين ..... فانه من الخرق بل من الخطر أن توجد هوة سحيقة بين تعليم الطبقات العليا وتعليم طبقات الدنيا في بلاد شرقية تسير حكومتها بارشاد أمة من أمم الغرب الديمقراطية ..... ولا نقصد بذلك حط منزلة التعليم العالي أو الوقوف في طريقه . ولكنا نقول اذا كان لابد من ارخاء العنان له من غير أن تمس الحكومة باذى فلا مناص من إزالة غشاوة الجهل من غمار الشعب حتى يتمشى خطوة خطوة مع ارتقاء مدارك الذين سيقبضون على أزمة أموره . وليس من الحكمة أو العدالة في شيء ان يترك الشعب أعزل من تربية عقلية تحميه من وساوس أدعياء السياسة المتطفلين على موائدها الذين هم مع نقص تعلمهم لا يفترون عن القاء الهواجس والخزعبلات في آذانه التي لا ترد قول قائل . وليس ثمة في أوائل هذا القرن العشرين علاج عام ناجع يقي غائلة الأدعياء الا تعليم من يقعون فريسة لحبائلهم من أمي الامة تعليما يمكنهم على الاقل من ادراك مايصدر من أولئك الدجالين من البهتان الذي كثيرا مايسترونه بطلاء بلاغتهم وسفسطتهم السياسية »

ولنا في تاريخ روسية الحديث مثال وعبرة لما نجم عن هذه الحال من الاخطار التي أنزلت بتلك البلاد فواجع تئن الآن منها أنينا .

نعم ان التعليم البسيط قد لا يمكن انفلاح القروي من الوقوف على كنه المسائل السياسية العويصة والاحاطة بها . ولكنه قد يكفي كما قال اللورد برايس (Lord Bryce) يصف مارتاه من تاثيره في الولايات المتحدة بامريكة « لتثقيف قوة الحكم عنده حتى يستطيع تمييز الرجل العظيم من الدجال » (*)

(*) من كتاب « الجمهورية الامريكية » (The American Commonwealth) الجزء الثاني صفحة ٢٥٢ .

والبلاد تعتمد عليهم في كثير من شؤونها الادبية والاجتماعية خصوصا في فض الخصومات وحل المشكلات وهذا أكبر ماينتظره رجال الاصلاح من نتيجة ذلك المشروع فكيف اذا عنى بتعميم تلك المكاتب في انحاء القطر وزيد في تنظيمها واصلاحها مع المحافظة على جعل أساس التعليم فيها هو حفظ القرآن الكريم كما هو الآن

(ه) ان بذل الحكومة المصرية عنايتها في تعميم تعليم الشعب وتربيته على مبادئه الاسلامية بما في ذلك من حفظ القرآن الكريم الذي اعتاده من ثلثة عشر قرنا يدرأ عن الشعب أخطارا اجتماعية واضرارا جمة أقلها تلك الفوضى الاخلاقية التي ينزع اليها النشء واتساع مسافة الخلف بينهم وبين آبائهم المحافظين على مبادئهم الدينية وبذلك يقع الانشقاق في الاسرات ويترتب عليه الاضرار الاجتماعية التي لاحظتها لجنة الوزارة [في الفقرة ١٧] (١) وليس هناك خلف أشق للعصا وأضر على الهيئة الاجتماعية من نشء يخرج على أمته وينسلخ من دينه بما يسمى الآن التعليم الحر أو حرية العقيدة ومما يثمره التعليم الاولي على أساس تلك المبادئ الاسلامية القضاء على حركة الجرائم والجنايات التي ضجت التقارير الرسمية من فشوها وزيادتها كل عام أو تخفيض نسبتها تخفيضا كبيرا على الاقل وتلك فائدة كبرى طالما بذلت الحكومة مجهودات جمة للحصول عليها وهانحن أولاء نرى الناس الذين يحفظون شيئا من القرآن يتناهون ويتواعظون في أسواقهم ومعاملاتهم الاجتماعية والادبية بقولهم هذا حرام وهذا حلال وقال الله وقال الرسول فاذا بطل هذا ببطلان حفظ القرآن

(١) نص الفقرة ١٧ « الانشقاق في الأسر » ومن النتائج الوخيمة التي نشأت من عدم تكافؤ أفراد الأمة في التعليم الانقسام الذي يشاهد في الأسر المصرية . فان الاميين من الآباء الموسرين كثيرا ما يرسلون أبناءهم الى المدارس الابتدائية والثانوية فتكون العاقبة أن الأبناء لا يمضي عليهم زمن طويل بها حتى تنزع نفوسهم الى ازدراء أهليهم الجهلة وحتى يبطروا في عيشتهم المنزلية البعيدة عن النظام ويطرحوا عن عواتقهم مالابائهم عليهم من السلطان والنفوذ ويدب فيهم روح السخط والاستياء والعقوق . ولا مراء في أن ضعف النفوذ الأبوي على شبان البلاد بهذه المثابة يعود على الأمة بالاضرار الاجتماعية الجمة . ولكن ما الحيلة والواجب يقضي بان يبذل الآباء كل وسع في تعليم أبنائهم أرقى تعليم يستطيعونه ؟ فلم يبق إذن من الوسائل التي تكفل درء هذا الشر الا أن يعمم التعليم حتى لا يصل الفرق بين الأبناء والآباء الى الحد الذي وصفناه

من الكافة ضاعت الامانة وفسد الامن وفاض الغش والنفاق بين الافراد بعضهم مع بعض و بين الافراد وحكومتهم ووقعت الحكومة في سائر فروعها الادارية والاقتصادية والسياسية في مشكلات من الامور لا تتناهى فكل مايقال عن فوائد تعميم تعليم الشعب لايكون صحيحا وافيا بالغرض الا بشرط كون التعليم على المبادئ الاسلامية بذلك قضت طبيعة الشعب المصري الذي له ثلاثة عشر قرنا في الاسلام وعلى دلت التجربة في تربيته

(١٠) ان من القواعد الهامة التي تترتب على جعل حفظ القرآن أساسيا في التعليم الاولى تمرين النشء على النطق الصحيح وضبط الالفاظ العربية تمرينا فعليا فهو من جهة أخرى خدمة كبرى للغة العربية ولا سيما انها لغة البلاد الرسمية

(١١) نص قانون الازهر والمعاهد الدينية (بالمادة ١٣٩) على ان المجلس الاعلى للازهر والمعاهد الدينية هو المختص بوضع لائحة نظام ادارة المكاتب التحضيرية التابعة للمعاهد الدينية « والكتاتيب » والمشروع يقضي صريحاً بأخذ هذا الحق جملة من سلطة المعاهد الدينية ورفع يدها عن تلك المكاتب الدينية بمحوها أو صبغها بصبغه أخرى

(١٢) وتختم اللجنه قولها بابداء النتيجة التي تراها في الموضوع وهو ان يجعل من مواد التعليم الاساسية في هذه المدارس حفظ القرآن الكريم وترى اللجنة لضمان حراسة هذا الشعار الاسلامي في تلك المدارس الاوليه وجوب اشتراك رياسة المعاهد الدينية في وضع منهج الدراسة لها ومراقبة سير التعليم فيها ولا غضاضة في ذلك على الوزارة فقد جاء في تقرير لجنتها أن حكومة بلجيكة بعد طرق شتى رأت أن الاوفق جعل التعليم الديني في مدارسها اجباريا تحت مراقبة الكنيسة ومعلوم ان تعليم الديانة في القطر المصري يبتدئ للبنين في حفظ القرآن الكريم

وتنوه اللجنة هنا بمنهج التعليم الذي أقره المجلس العالي للمعاهد الدينية بجلسة ٢٥ مارس سنة ١٩٠٥ للتحضيرات التابعة لمعهد الاسكندرية ومقدار أثره الجليل في مدة وجيزه وأقبال الشعب عليه حتى طلب أصحاب المدارس الاهلية في تلك المدينة الاندماج في نظام تلك التحضيرات ودخلوا طوعا تحت مراقبة مشيخة المعهد وأتت تلك التحضيرات بالنتيجة الهامة ولم تكن فائدتها قاصرة على مجرد التأهيل للالتحاق بالمعهد بل نفعت الذين اقتصروا عليها واشتغلوا بأشغال عمومية وذلك لما تعلمه تلك

التحضيرات مع حفظ القرآن الكريم من المواد الهامة النافعة في الحياة العملية كالخط والحساب والجغرافيا واللغة العربية وقواعد الصحة وعلم الاشياء وقد نصحت مشيخة المعهد كثيرا في تقاريرها الرسمية ان يحذو أصحاب المكاتب والمدارس الاهلية في انحاء القطر المصري على هذا المنهج الذي دلت التجربة على نجاحه فضلا عن ملاءمته لطبيعة الشعب المصري وميول الآباء ،ونادت المشيخة المذكورة أولي الشأن الذين يعنون بمصلحة التربية والتعليم ان يأخذوا بيد هـذا النوع من التعليم ويقضوا على الامية والجهل حتى ينهضوا بالبلاد الى ماتستحقه من الرقي والكمال

وتبدي اللجنة بمناسبة هذا الموضوع ملاحظتها على وزارة الاوقاف في تلك المبالغ الهائلة التي تدفعها سنويا الى وزارة المعارف العمومية لتدير لها كتاتيبها ومعلوم ان تلك المبالغ انما هي من ريع الاوقاف المرصودة على حفظ القرآن الكريم ولـكن وزارة المعارف لم تعر ذلك التفاتا لما ان اختصاصها هو احياء المعارف العمومية وليس لها اختصاص بالشؤون الدينية اختصاص المكلف بالشيء المسؤول عنه بدليل ان أكثر ماصنعته في منهج الدراسة الذي وضعته لتلك المكاتب سنة ١٩١٦ فيما يختص بمادة القرآن قولها عند مقرر كل سنة (يحفظ من القرآن مايمكن)، (الاستمرار على حفظ ما يمكن من القرآن) بينما هي تبسط القول في التشديد والعناية بالمواد الاخرى

واذا كان هذا تساهل منهج الدراسة في القرآن فكيف يكون تساهل المعلمين فيه، وهل يمكن بعد ذلك القول بأنه يوجد في تلك المكاتب من يحفظ جزءا واحدا من القرآن فضلا عن حفظ جميعه الذي وقفت عليه تلك الاوف

هذا ما عن لنا والله يوفق الامة الى ما فيه الخير والصلاح وتفضلوا يا صاحب الفضيلة بقبول فائق احترامنا توقيع أعضاء اللجنة

محمد أحمد الطوخي محمود أبو دقيقه محمد علي خلف الحسيني

يوسف أحمد نصر الدجوي محمد عبد السلام القباني

(تم)

الرحلة السورية الثانية

— ٢ —

لما عقدت الهدنة بين دول الاحلاف والدولة العثمانية مني نفسه كل من له اهل في سورية وكل من يهتم بشؤونها الاقتصادية والسياسية أن يسافر اليها في أول فرصة وصاروا ينتظرون الاذن بالسفر اليها وعودة البواخر التي تنقل الركاب وعروض التجارة الى سابق عهدها

و بعد طول الانتظار وقع الاذن مقيدا بشروط عسيرة ومقيدا بقيود ثقيلة زمامها بأيدي السلطة العسكرية المتصرفة في الشؤون السياسية والاقتصادية في العالم تصرفا مطلقا والمراقبة على مواصلات البر والبحر فكان مثلي لا يطمع ان يكون من السابقين الى رؤية وطنه والقيام بشيء من خدمته أو مواساة أهله فيه وعشيرته، بل تعذر على ايصال ثلاثة (طرود) من الاقمشة الى فقراء اهل بلدتي (القلمون) الذين ذهب الجوع والعري في ايام الحرب بثلثيهم ، فانني بعد أن ابتعت القماش ظللت عدة أشهر أسعى الى ارساله باذن من السلطة الفرنسية التي أعطيت الاشراف عل المواصلات والنقل في البحر مع بقاء السلطة العليا في البر والبحر للسلطة الانكليزية بحق القيادة العليا للجيوش المحاربة في سورية الجنوبية (فلسطين) والشمالية ، ثم بواسطة لجنة المجاعة التي أرسلت بمساعدة السلطة الانكليزية كثيرا من المواد الغذائية والاقمشة و بعد اعطائي الطرود للجمعية بأشهر تمكنت هي من ارسالها الى وكيلها في بيروت فبقيت فيها اشهرا ثم أرسل بعضها الى طرابلس ففقد بعضه ولم يصل باقيها الا بعد وصولي اليها في خريف العام الماضي ، فكان ما أردت أن يكسى به الفقراء في شتاء سنة ١٩١٩ كساء لهم في شتاء السنة التي بعدها

احتلت جيوش الاحلاف جميع البلاد السورية وطفقوا يمهدون السبل لتوطيد نفوذهم وسلطانهم فيها على قواعد معاهدة سنة ١٩١٦ — الانكليز في الجنوب

*) تابع لما نشر في الجزء السابع ص ٣٠٧

والفرنسيس في الغرب الشمالي والعرب لا يجاوزون في الشرق منه . ولكن مراقبة المواصلات بين سورية وبين مصر وسائر الاقطار كانت مشتركة بين الفرنسيس محتلي المنطقة الغربية والانكليز لمحتلين للمنطقة الجنوبية وحدهم والمشاركين للعرب والفرنسيس في احتلال المنطقتين الاخريين، ولم يكن للعرب من هذه المراقبة شيء فلم يكن لي أن أزور البلاد بنفوذهم . بل كتب الي علي رضا باشا حاكم المنطقة الشرقية العسكري كتابا ذكر فيه انهم ينتظرون قدومي كانتظار الظمآن للماء وانه طلبني وهو يتعجب من عدم استجابتي . فكتبت اليه انه لم يبلغني ما ذكر من طلبهم اياي وان أمر سفري ليس بيدي ... ثم اخبرني بعد لقائه في الشام انه طلبني خمس مرات ...

انني لم أطمع في الاذن لي بزيارة سورية الا بعد استفتاء اللجنة الاميركانية أهل سورية في شكل الحكومة التي يرضونها لبلادهم والدولة التي يختارونها لمساعدتهم

وعلة هذا ظاهرة لا تحتاج الى بيان ، فلما سنحت لي الفرصة بعد هذا الاستفتاء واظهار الشعب لرأيه سعيت الى اخذ الجواز بالسفر الى الشام من طريق سيناء وفلسطين فتيسر لي مع المساعدات أخذ هذا الجواز في مدة ثمانية عشر يوما بعد أخذ عهد كتابي عليّ بأمور سلبية ترجع الى أمر واحد وهو عدم القيام بتهييج سياسي

السفر من القاهرة

سافرت من القاهرة مساء الجمعة السابع عشر من شهر ذي الحجة ختام سنة ١٣٣٧ [الموافق ١٢ ستمبر ايلول سنة ١٩١٩] ولما جئت محطة السكة الحديدية وجدت فيها صديقي رفيق بك العظم جاء لتوديعي فيمن جاء من الاصدقاء فأخبرني انه قد جاءت برقية من دمشق تفيد ان الامير فيصلا (ملك سورية اليوم) قد سافر من الشام عن طريق حيفا ليسافر منها الى اوربة فساءني ذلك جد الاستياء لأن لقا الامير في ذلك الوقت كان هو المرجح الاول لسفري الى دمشق مباشرة دون بيروت وطرابلس ، ولعله لو اخبرني بذلك قبل شروعي في السفر لارجأته ولكن ابطال العمل بعد الشروع فيه مفسد للعزيمة مضعف للارادة ، وقد

قال تعالى لرسوله (فاذا عزمت فتوكل على الله) وقال عز وجل (لا تبطلوا أعمالكم)

ركبت القطار السريع فسار باسم الله في الساعة ٦ والدقيقة ١٥ فوصل الى محطة القنطرة الساعة ١٠ والدقيقة ١٠ أي بعد اربع ساعات تقريبا وهنالك نقل الحمالون متاعنا الى حيث تنظر الجوازات و بعد التوقيع عليها ينقل المسافرون ومتاعهم في سيارات نقل تجتاز الجسر الذي وضع هنالك على ترعة السويس الى موقف قطار سيناء وفلسطين في الضفة الشرقية ، وقد علمت ان خط مصر اتصل بعد ذلك بخط فلسطين فاستراح المسافرون من ذلك النقل المزعج . وصلت الى محطة فلسطين فاذا بديع افندى الحوراني ضابط قلم المخابرات ينتظرني فيها لاجل مساعدتي فتولى هو اخذ تذكرة السفر لى بالدرجة الاولى ووضعي في مركبة ليس فيها زحام ، وهو نجل ابراهيم الحوراني العالم الاديب البيروتي الشهير فما رأيته فيه من المروءة والادب يجري فيه على عرق راسخ ووراثة ثقفت بالتربية والتعليم ، وعلمت منه انه كان يتوقع حضوري يوم الخميس في القطار الذي يقوم من القاهرة الساعة ١١ قبل الظهر

لم يكن السفر في الدرجه الاولى من قطارات هذه السكة بالامر اليسير ، وكنت علمت ذلك مما كتبه سليم افندي سركيس الكاتب الشهير في جريدة الاهرام عن رحلته قبلى الى الشام ، فانه ذكر انه اخذ تذكرة للركوب في الدرجة الاولى فأركبوه في الدرجه الثالثه لحاجه الضباط الانكليز الى الدرجه الاولى والثانية لذلك سعيت الى توصية من السلطة العسكرية الانكليزية بأن أركب في الدرجة الاولى فعلا فنلتها ونفذها الحوراني أحسن الله مكافأته . وثمن هذه التذكرة ٢٨٢ قرشا مصريا صحيحاً يركب بها المسافر الى نهاية الخط وهو مدينة حيفا

سافر بنا القطار الساعة ١١ والدقيقة ٣٥ وكان سيره بطيئا ووقوفه كثيرا وعلمنا في الصباح انه تأخر ساعتين عن موعده . وفي ضحوة النهار (السبت) وقف تجاه مدينة غزة الشهيرة التي أحدثت فيها الحرب خرابا عظيما ووصل الى [اللد] الساعة ٨ والدقيقة ١٥ وسار منها الساعة ٩ و بضع دقائق فوصل الى حيفا الساعة ١٢ والدقيقة ١٥ نهارا . فاذا كان القطار تأخر بنا ساعتين كما قيل تكون مسافة سينا وفلسطين الى

حيفا تسع ساعات وثلث ساعة . وهذا الخط قد أنشأته السلطه العسكرية في أثناء الحرب بسرعة عجيبة اقتضتها الضرورة فلم يكن متقنا وقد علمت انه يحتاج الى اصلاح يكون به الخط أقوم وأقصر

قطعنا نصف نهار يطوي بنا القطار اغوار سورية الجنوبية (فلسطين) وانجادها فلم نر شيئا من أرضها يدل على العناية الفنية في إنشاء البساتين والكروم الا ما في مزارع اليهود الصهيونيين. ورأينا مامررنا به من الزيتون خاليا من الحب لان موسمه في السنة الماضية كان عظيما

السفر من حيفا بسكة الحديد الحجازية

انتقلنا عقب وصولنا الى حيفا من قطار سينا وفلسطين الى قطار سكة الحديد الحجازية ومركباته أحسن من مركبات ذاك وأخذ بعض الحمالين لي تذكرة السفر منها الى [معان] في الدرجة الاولى بمئة قرش وستة قروش مصرية صحيحة وتحرك القطار الساعة ١٢ والدقيقة ٣٥ فوصلنا الى طبرية (س ٣ ق ١٥) وبعد تجاوزها صار سيره في أودية يهبطها وجبال يتسلقها وكان يقف مرارا لسوء الوقود وخلل الآلات وليس في مركباته مصابيح فكنا أول الليل في ظلام ثم طلع القمر فأنسنا به ووصل القطار الى معان (س ١٢ ق ٣٠) فكانت المسافة ١٢ ساعة وقد قيل لنا انه تأخر عن موعده ساعتين كسابقه

وفي محطة معان مطعم كبير للمسافرين والقطار مكث فيها ريثما يتعشى من شاء من المسافرين ويأخذ القطار طعامه وشرابه من الفحم والماء وقد مكثنا نصف ساعة أو أكثر تعشينا فيها ثم استأنفنا السير الى دمشق فبلغناها (س ٢ وق ٢٠) أي قبل الفجر بقليل

دمشق وفنادقها

بعد وصولنا الى محطة دمشق بعض دقائق كنا في فندق (فيكتوريا) وهو أقرب الفنادق الى المحطة وأشهرها وأغلاها أجرة فلم أجد فيه غير حجرة في الدور الاول لا يتخللها الهواء ولا النور ، أبيتها فوعدت بتبديلها في النهار وسألت الخدم عن حمام الفندق فقيل انه ليس فيه حمام ولا رشاش ماء (دوش) ولا حنفية ماء

لغسل اليدين والرأس فغسلت رأسي في طشت الحجرة وتوضأت وصليت المغرب والعشاء جمع تأخير ونمت ما بقي من الليل

ولما أصبحت استنجزت الوعد بتغيير الحجرة فلم أجد حجرة ضحيه ل قيل لي ان بعض النازلين فيها سيسافرون فتخلو حجرهم ، ولما حضر طعام الغداء والعشاء وجدت الماء على المائدة غير مثلوج فسألت : الا يوجد في الشام ثلج ؟ قيل بلى ان فيها ثلجا وجليدا طبيعيا صناعيا ولكن صاحب الفندق منع استعماله اقتصادا فعزمت على الخروج من هذا الفندق بعد رؤية أشهر الفنادق الكبرى واختيار أمثلها ولكنني لم أستطع الخروج في اليوم الاول لان بعض من رآني أخبر غيره بأنني جئت الشام ونزلت في [فيكتوريا] فجاء كثير من الوجهاء لزيارتي وفي اليوم الثاني كان الزائرون أكثر ولكنني انتهزت فرصة طفت فيها على الفنادق القريبة فرأيت أمثلها فندق الشرق (أو الخوام) الملاصق لفندق فيكتوريا فانتقلت اليه، وفضلته بوجود مكان فيه للاستحمام ووجود الماء في بعض مراحيضه ووجود باحة خلوية في وسطها بركة ماء ووجود الماء المثلوج فيه . وأي المزايا خير من مزايا الماء والهواء ؟ نعم ان فندق فيكتوريا — ومثله فندق [دمسكوس بلاس] أدفأ في الشتاء من فندق الخوام ، والاول أنظف ولكن القيود فيه أشد وأثقل

الزيارات وردها وأحاديثها

زارني من لا أحصي من رجال الحكومة والعلماء والادباء والوجهاء فمنهم من عرفتهم بشخوصهم أو مناصبهم ومنهم من لم أعرف وما كان رد لزيارة لكل منهم ممكنا وليس عند أهل الشام من التسامح والتساهل في هذا الامر ماعند أهل مصر وأهل بيروت، فاكتفيت برد لزيارة الى الحاكم العسكري العام والقاضي والمفتي و بعض العلماء والوجهاء الذين عرفتهم كمحمد فوزي باشا العظم وعبد القادر باشا المؤيد واعتذرت للآخرين في الجرائد مع الشكر لهم. وأما خواص اخواننا وأصدقائنا فقد جمعتنا بهم المآدب والسمار في مجالس حافلة من دورهم العامرة كدار الاستاذ الشيخ كامل قصاب ودار البيطار ودار المؤيدي وغيرها ، وكان جل حديثنا في تلك المجالس البحث في أهم المسائل الدينية والعلمية والاجتماعية وقد عودني الناس من أول العهد

بدخولي في الحياة العلمية الى اليوم ان يسألوني عن المشكلات الدينية ولا سيما المسائل التي يتعارض فيها الدين مع العلوم والفنون وشؤون العمران . وقد كان حظي من هذا في رحلتي هذه على ما أعهد في سائر البلاد ولكن أكثر مباحث الناس معي في هذه الرحلة كان في المسائل السياسية ما هو واقع منها وما يتوقع

معاهدة سنة ١٩١٦

اتفق ان أعلن كل من دولتي انكلترة وفرنسة عقب وصولي إلى الشام انهما اتفقتا نهائيا على تنفيذ معاهدة (سايكس و بيكو) المعروفة بمعاهدة سنة ١٩١٦ وان انكلترة ستخرج جنودها من المنطقتين الشرقية والغربية من سورية وتترك الاولى للجيش العربي الحجازي والثانية للجيش الفرنسي ، وما كان حملها للامير فيصل على السفر الى أوربة في هذه المرة الا تمهيدا لهذا العمل

وكان أهل سورية عامة يظنون قبل هذا الاعلان أن الدولتين الحليفتين قد عدلتا عن تنفيذ تلك المعاهدة لما رأوه من التنازع بين رجالها في النفوذ أيام وجود اللجنة الاميركية في سورية وسعي كل منهما في كل منطقة من المناطق الثلاث لكسب أصوات الاهالي في طلب انتدابهم لمساعدة البلاد أي لاستعمارها بهذا الاسم الجديد الذي وضع في قاموس السياسة بعد العلم بنفور الناس كافة من الاسماء الاخرى التي ابتذلت وزال انخداع الناس بها كانخداع الحماية والاحتلال الموقت ، فلما أعلنت الدولتان أنفقهما كبر وقعه وعظم صدعه في قلوب الجماهير الذين خدعوا بذلك التنازع ، وظنوا ان انكلترة تفضل العرب على فرنسة فكان كل من زارني منهم يسألني عن رأيي في هذا الحدث الجديد في السياسة الانكليزية فكنت أقول : انكم ترونه جديدا وأراه غير جديد ، أن السياسة الانكليزية ثابتة وما كان لعاقل ان يظن انها تفضل العرب على فرنسة ، وانما عرض لفرنسة أمل جديد أحدثه اجماع السوريين في بلادهم وفي مهاجرهم كلها على وحدة سورية وعدم تقسيمها الى ثلاث مناطق مختلفة الادارة والسلطة فحسبت انه يمكنها جعل هذا وسيلة لاعطائهم سورية كلها

باب التاريخ

استقلال سورية والعراق

انتهت الحرب العامة الطامة باحتلال جنود الاحلاف من العرب والانكليز والفرنسيس لسورية وجعلها ثلاث مناطق :جنوبية وهي متصرفية القدس الممتازة ، ومتصرفيتي نابلس وعكا من ولاية بيروت « واطلقوا عليها اسم فلسطين ».وشرقية وهي ولايتا الشام وحلب ماعدا سواحلها ثم أضيفت اليها متصرفيـة الزور الممتازة . وغربية وهي بقية ولاية بيروت ومتصرفية لبنان الممتازة، واسكندرونة ، واطنه

ولما كانت القيادة العليا لجيوش هؤلاء الاحلاف في سورية للانكليز احتلوا المنطقة الجنوبية وحدهم، وشاركوا العرب في احتلال المنطقة الشرقية، والفرنسيس في هذه المنطقة الغربية والشمالية ولـكنهم تركوا لـكل منهما ادارة منطقتـه فلم يكونوا يتدخلون في امرها إلا عند الحاجة لما للقيادة العليا من حق الاشراف . ثم لما اتفقوا مع فرنسة على تنفيذ معاهدة سنة ١٩١٦ المشهورة نهائيا اجلوا جنودهم من هاتين المنطقتين وتركوا للجيش العربي الذي يقوده الامير فيصل السيطرة التامـة في منطقته وللجيش الفرنسي السيطرة التامة في منطقته

وكانوا قبيل اعلان هذا الاتفاق واجلاء الجنود الذي ترتب عليه قد طلبوا الامير فيصلا الى اوربة لاجل الاتفاق معه على تنفيذ معاهدة سنة ١٩١٦ فمكث بضعة اشهر في انـكلترة وفرنسة ثم عاد الى سورية ليوقف زعماء البـلاد وممثليها على نتيجة ماوقف عليه و يستشيرهم في ما يجب أن يكون عليه حكمها و ينتهي اليه مصيرها ليعود الى أوروبة و يقرره مع حلفائه و بعد مباحثات طويلة سرية وجهرية استقر الرأي على اعلان استقلال القطرين السوري والعراقي وأن يتولى ذلك المؤتمر الذي سبق تأسيسه لكل منهما في ما بينهما بالتعاون

فأما المؤتمر العراقي فأعضاؤه في دمشق حيث تأسس وأما المؤتمر السوري فكان أعضاؤه المنتخبون من المناطق الثلاث قد تفرقوا في البلاد بعد اجتماعهم

الاول لمقابلة اللجنة الامريكية واعلامها برأي الامة السورية في امر حكمها وهو الاستقلال التام الناجز ورفض كل حماية ووصاية اجنبية وترجيح طلب المساعدة الفنية التي لاتمس الاستقلال من الولايات الامريكية المتحدة . ثم اجتمع اكثرهم مرة ثانية للحفاوة بالامير فيصل عند عودته المرة الاولى من أوربة مبشرا البلاد بأنه تقرر فيها مبدئيا أن تكون البلاد مستقلة استقلالا تاما وراغبا اليهم أن يوكلوه في تقرير مصيرها وكالة مطلقة . فتقرر جمع المؤتمر ليوقفه الامير على مايعلم من كنه الحالة العامة و يترك له حق تقرير مايراه باسم الامة السورية

كان لحزب الاستقلال العربي أجمل السعي لهذا المشروع الجليل وكان في هذه الاثناء يعقد الاجتماعات كل ليلة للبحث في مقدمات اعلان الاستقلال وعمل المؤتمر وما يعده له من الوسائل وفي تأليف الحكومة الاولى التي سيقررها و يعلنها .

ولما اجتمع أكثر أعضاء المؤتمر قرر ان يعقد جلساته في النادي العربي وحضر الامير فيصل جلسته الاولى ومعه أركان حكومته وألقى الخطاب التالي على مندوبي الامة ومن حضر الجلسة من كبار رجال العاصمة وغيرهم

خطاب سمو الامير

«أيها السادة !

«في الوقت الذى قرب فيه حل المسألة التركية حلا نهائيا في مؤتمر الصلح رأيت أن أدعوكم مرة أخرى لتقرير مصير البلاد حسب رغائب الاهلين الذين رأوا فيكم الكفاءة للنيابة عنهم في مثل هذا الوقت العصيب

«فقد وعد مؤتمر السلم أن ينظر في رغبة الشعوب بل حتم على نفسه بأن يقرر مستقبل كل أمة حسب ارادتها ورغائبها تحقيقا للمبادئ السامية التي خاض لأجلها الحلفاء غمار الحرب العظمى

«فالرئيس ولسن ذكر في خطابه في (مون فرنون) في ٤ تموز سنة ١٩١٨ المادة الآتية: —

« كل مسألة أرضية كانت أو سياسية او اقتصادية أو دولية يجب أن تحسم على موجب الاساسات المستندة الى حرية قبول الشعب ذي العلاقة رأساً بتلك المسألة لا الى القواعد النفعية المادية او المصالح التي يتطلبها شعب أو أمة أخرى لاجل تأمين نفوذها الخارجي أو سيادتها »

« وقد ذكر جميع رؤساء الحكومات المتحالفة اقوالا لا تقل في معاني استقلال الشعوب عن أقوال الرئيس ولسن في هذا الصدد، ونشرت حليفتانا انكلترا وفرنسا منشورا في ٧ تشرين ١٩١٨ اكدتا فيه استقلال بلاد العرب المنشود

ايها السادة — لما كانت هذه الحرب حرب حرية واستقلال، حربا جاهدت فيها الامم ذبّا عن كيانها السياسي، دخل فيها صاحب الجلالة والدي المعظم في صفوف الحلفاء بعد ان استوثق من العرب في الجزيرة وفي سورية وفي العراق فقاتلوا قتالا شهد لهم فيه اعاظم رجال أوربا السياسيين والعسكريين وأثنوا على شجاعتهم وبسالتهم غاية الثناء، ولا بد ان يحفظ التاريخ أعمالهم الجليلة في إبان الحرب التي استهمت فيها الحجازي والسوري والعراقي. واني واثق بأن الامة العربية ستنال من المغنم ما ناله غيرها من حلفائنا الذين نالوا الظفر على الاعداء

« ان هذا الظفر لم يكن عسكريا فقط بل هو سياسي قبل كل شيء لانه ظفر الحق على القوة والحرية على الاستبداد فقد انتشرت اليوم فكرة الاستقلال بين الشعوب ونقشت على أفئدتهم فلن تزول بعد الآن.

«استحق العرب حريتهم واستقلالهم بفضل الدم الطاهر الذي سفكوه وبفضل ماقاسوه من أنواع العذاب والقهر. فالامة العربية لا تقبل اليوم ان تستعبد كما اني اعتقد انه ليس هنالك أمة تريد استعبادها. فرحلاتي الرسمية العديدة الى أوربا والاحاديث والكتابات التي جرت بيني وبين ساستها لم تبق في نفسي مجالا للشبهة والتردد في نوايا حكوماتها الحسنة.

«أيها السادة — اننا لا نطلب من أوربا أن تمنحنا ما ليس لنا به حق بل نطلب منها ان تصدق على حقنا الصريح الذي اعترفت لنا به كأمة حية ترتقد حياة حرة واستقلالا تاما، ونود ان نعيش مع سائر الامم المتمدنة على غاية من الولاء والمحبة الخالصة، فسياستنا في المستقبل ستكون سياسة صلح وسلم مبنية على الثقة المتقابلة والمنافع المتبادلة، وبكلمة واحدة سياسة تتفق مع مصالح الامة ومنفعة السلم العام. فالعرب لا يستنكفون عن تبادل المنافع بينهم وبين الامم المتمدنة ولا يرفضون صداقة من يريد صداقتهم على شريطة أن لا يمس ذلك بكرامتهم ولا يخل باستقلالهم السياسي التام

أيها السادة — ان « وظيفتكم اليوم عظيمة ومهمتكم كبيرة، فأوربا تنظر الينا عن كثب وستحكم لنا أو علينا بالنسبة الى الخطة السياسية التي سنسير عليها والاعمال التي سنقوم بها فى المستقبل فدولتنا الجديدة التي قام أساسها على وطنية أبنائها الكرام هي في حاجة اليوم الى تقرير شكلها أولا ووضع دستور لها يعين لكل منا — آمرنا ومأمورنا — حقوقه ووظائفه في حياتنا المستقبلة التي أرجو ان يكون ملؤها الجد والعمل والاقدام.

«وقبل أن أختم كلامي في هذه الجلسة الخالدة أريد أن أذكركم باخوانكم العراقيين الذين جاهدوا معكم وأبلوا بلاء حسنا في سبيل الوطن وبالواجب

الذي يتحتم علينا في أمر التضامن والتعاضد لنعيش حياة سعيدة قوية واقرؤكم السلام العربي الخالص متمنيا لكم التوفيق والنجاح في مساعيكم الوطنية والسلام عليكم . » اه

و بعد ان انتهت الخطبة حيا الامير المؤتمر وحثه على العمل بما تقضي به الحال من الجد والنشاط ثم انصرف بين التصفيق والهتاف وكان خبر افتتاح المؤتمر قد انتشر في انحاء العاصمة فادركت الامة ان ساعة تقرير المصير قد أزفت فقامت مظاهرة عظيمة امام المؤتمر طالبة الوحدة والاستقلال التام . وقد أرسل المتظاهرون باسم الامة كتابا الى المؤتمر تلاه الكاتب العام على الأعضاء وجاء فيه ما خلاصته :

«ان الأمة صاحبة الكلمة الاولى في تقرير مصيرها تطلب من المؤتمر الذي يمثلها في هذه الساعة العصيبة ان يعلن استقلال البلاد بحدودها الطبيعية استقلالا تاما وان يأخذ على عاتقه تبعة الدفاع عنها و يشرف على تاليف حكومة دمقراطية مسؤلة امامه ريثما تتم الانتخابات المقبلة لمجلس النواب واذا شاء ان يعلن سمو لامير فيصل المعظم ملكا على البلاد فليعلنه ملكا دستوريا دمقراطيا عادلا — الى غير ذلك من المطالب والاقتراحات» .

ثم ان الاعضاء انتخبوا الرئيس الدائم وأعضاء ديوان الرياسة للمؤتمر وكانت الجلسة الاولى برياسة رئيس موقت فكان الرئيس هاشم بك الاتاسي . ثم ألفت لجنة لوضع رد على خطاب الامير . ولم يحضر كاتب هذه السطور الجلسة الاولى لذ كان قبلها بايام زار مدينة بيروت وفي أثناء زيارته لها انتخبه أهلها نائبا عنهم في المؤتمر انتخابا قانونيا وعاد الى العاصمة مع أكثر مندوبي بيروت في يوم الاحد ١٧ جمادى الآخرة وحضر الجلسة التي عقدت في مسائه فقرئت فيها مضبطة انتخابه وقبلت واشترك في المناقشة في الرد على خطاب الامير وتقريره وهذا نصه :

رد المؤتمر على خطاب الامير

«ياسمو الامير المعظم ! « بكل فخر وابتهاج سمع المؤتمر السوري العام الممثل للامة السورية خطاب سموكم الملكي الذي شرحتم به الغاية النبيلة وأبنتم موقف البلاد تجاه الازمات الحاضرة وأعربتم عن حسن نية الحلفاء وأقطاب السياسة إزاء استقلال البلاد العربية عامة وسورية خاصة استنادا الى عهودهم ووعودهم

« ان الامة العربية في الاوطان والمهاجر ياسمو الامير لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي، ولم ترق دم شهدائها الاحرار، وتثر على الحكومة التركية الا طلبا للاستقلال التام والحياة الحرة بصفتها أمة ذات كيان سياسي ومدنية خالدة وقومية خاصة لها الحق في ان تحكم نفسها بنفسها . وقد دخلت الحرب العامة في جانب الحلفاء استنادا الى عهودهم المقطوعة لجلالة الملك والدكم المعظم وللوعود الرسمية السياسية التي جاهر بها أقطاب سياستهم، واقتناعا بتحقيق مبادئ الرئيس وامن السامية المقررة لحرية الشعوب واستقلالها وحفظ مصالحها واعطائها الحق في تقرير مصيرها كما تفضلتم في خطاب سموكم العالي . وان ماقام به جلالة والدكم المعظم وما قمتم به سموكم من الاعمال الجليلة كان أعظم عامل في الظفر وانتصار القضية العربية مما أوجب ابتهاج العرب عامة والسوريين منهم خاصة الذين جاهدوا معكم حق الجهاد في سبيل الوصول الى هذه الغاية المقدسة غاية الحرية والاستقلال التام

«لذلك كان الواجب الاول المتحتم على هذا المؤتمر الذي يتكلم بلسان الامة ويعبر عن عواطفها وآمالها ترتيل آيات الشكر والثناء على جهاد جلالة والدكم المحمود وجهاد سموكم وتكرار الدعاء بتوفيق جلالته وسموكم وسمو اخوتكم وآل بيتكم الكريم الذين اشتركوا معكم في سبيل استقلال البلاد وتحريرها وكانوا معكم أكبر عون لهذه الامة في تحقيق آمالها ورغائبها

«على ان وقوفكم وقفة الابطال في ميادين الحرب لم يكن أعظم من وقوفكم موقف الدفاع عن قضيتنا الحقة في ميادين السياسة الخارجية الذي خلد لكم في بطون التاريخ أفضل الاثر

«إن تنويه سموكم بالظفر الذي تم للعالم وانه لم يكن عسكريا فقط بل هو سياسي قبل كل شيء لانه ظفر الحق على القوة والحرية على الاستبداد قد أثلج صدور أعضاء المؤتمر الذين اجتمعوا في هذه العاصمة بصفتهم ممثلي الامة ليقتطفوا من حدائق الحرية ثمرة جهادها المقدس وقد زادنا اطمئنانا تصريح سموكم بأن اختباراتكم ومفاوضاتكم مع رجال السياسية لم تبق مجالا للشك في حسن نية الحلفاء ولا سيما نحو بلادنا المحبوبة

«ان الامة ياسمو الامير لتعتمد في قضيتها الاستقلالية على حقها الصريح بالحياة

واثقة بأن الحق يؤخذ ولا يعطى كما صرحتم بذلك مرارا . على اننا كأمة حية مدنية تريد حياة واستقلالا تاما وتود ان تعيش مع سائر الدول على غاية من الولاء والمحبة الخالصة ستسعى لان تكون سياستها في المستقبل سياسة صلح وسلام مبنية على الثقة المتقابلة والمنافع المتبادلة التي لا تمس باستقلالنا التام

«ان المؤتمر السوري العام يقدر ياسمو الامير مهمته الخطيرة حق قدرها وهو يرى ان موقف البلاد السورية من الوجهة الاحتلالية الموقتة التي قضت بها الظروف الحربية قد آن ان تنتهي وفقا لآمال البلاد وانقاذاً لها من مشاكلها الحاضرة فقد مضى نحو عام ونصف والبلاد لاتزال تئن تحت ثقل الاحتلال العسكري الذي الحق بها اضرارا جمة وأوقف سير مصالحها الاقتصادية والادارية وأوقع ريبة في نفوس أبنائها فاندفع الشعب وقام بثورات عديدة في المناطق المحتلة مطالبا باستقلال بلاده ووحدتها

«لذلك ولما نشاهده يوميا من عزم لامة الا كيد على المطالبة بحقها ووحدتها والعمل للوصول الى هذه الغاية بكل الوسائل الممكنة واستناداً الى حقنا الشرعي بالحياة الحرة ودماء شهدائنا الاحرار وجهادنا الطويل والعهود التي قطعها الحلفاء لنا والمبادئ السامية التي أعلنوها ، وقد أجمعنا بصفتنا ممثلي الامة السورية في جميع انحاء القطر السوري بمثيلا قانونيا وقررنا باجماع الرأي استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية استقلالا تاما لاشائبة فيه مبنيا على الاساس النيابي المدني وقد اخترنا باجماع الآراء سموكم ملكا دستوريا على البلاد السورية نظرا لما امتزتم به من الصفات وما قمتم به من الاعمال الخالدة لمصلحة الوطن وما عرفتم به من حبكم للحرية والدستور واخلاصكم للبلاد والامة وضربنا موعداً لمبايعة سموكم رسميا نهار غد الاثنين في ٨ آذار الساعة الثالثة بعد الظهر واعلنا انحلال الحكومات الاحتلالية العسكرية على ان تقوم مقامها حكومة وطنية ملكية مدنية مسؤولة وتدار مقاطعات البلاد على الطريقة اللامركزية

«هذا واننا نحتفظ باسم الامة بصداقة الحلفاء محترمين مصالحهم ومصالح الاجانب كل الاحترام ولنا الثقة التامة بأن عملنا هذا سيقابله الحلفاء بكل ارتياح لما نعهد فيهم

من شرف الغيرة فيوافقون على استقلال التام واجلاء جنودهم عن المنطقتين الغربية والجنوبية فيقوم بحفظ النظام فيهما الجند الوطني والادارة المستقلة وتتمكن الامة السورية بالاحتفاظ بصداقة الحلفاء من ان تبلغ أقصى درجات الرقي وتكون عاملا في المجتمع الدولي المتمدن

ولما كانت الحكومة التي قررنا تأليفها هي حكومة نيابية مدنية مسؤولية تجاه الامة فقد قررنا ابقاء مجلسنا هذا لسن القانون الاساسي والسهر على مراقبة استقلال البلاد والاسس التي وضعها علنيا باسم الامة الى ان تتمكن الحكومة من جمع مجلس النواب

وقبل ان نختم عريضتنا نعلن بكل شكر وثناء الخدم التي قام بها اخواننا العراقيون في سبيل النهضة العربية ولا نزل نؤيد طلبنا السابق باستقلال العراق التام ورفع الحواجز السياسية والاقتصادية بينه وبين سورية ونعضد مطالبه الاستقلالية بكل ذلك معرضين شعائر الطاعة والاخلاص الخ

اعلان الاستقلال

وقرار المؤتمر التاريخي فيه

هذا هو نص القرار التاريخي الذي وضعه المؤتمر الوطني العام باعلان وحدة سوريا واستقلالها التام وتلاه عزة افندي دروزة كاتب المؤتمر على الشعب من شرفة البلدية :

ان المؤتمر السوري العام الذي يمثل الامة السورية العربية في مناطقها الثلاث الداخلية والساحلية والجنوبية (الفلسطينية) تمثيلا تاما يضع في جلسته العامة المنعقدة نهار الاحد المصادف لتاريخ ١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٣٨ بليل الاثنين التالي الموافق ٧ آذار سنة ١٩٢٠ القرار التالي

«ان الامة العربية ذات المجد القديم والمدنية الزاهرة لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي ولم ترق دم شهدائها الاحرار وتثر على حكومة الاتراك الا طلبا للاستقلال التام والحياة الحرة بصفتها أمة ذات

وجود مستقل وقومية خاصة لها الحق في أن تحكم نفسها بنفسها أسوة بالشعوب الاخرى التي لاتزيد عنها مدنية ورقيا وقد اشتركت في الحرب العامة مع الحلفاء استنادا على ماجهروا به من الوعود الخاصة والعامة في مجالسهم الرسمية وعلى لسان ساستهم وحكوماتهم وما قطعوه خاصة من العهود لجلالة الملك حسين بشأن استقلال البلاد العربية وما جهر به الدكتور ولسن من المبادئ السامية المماثلة بحرية الشعوب الكبيرة والصغيرة واستقلالها على مبدأ المساواة في الحقوق وانكار سياسة الفتح والاستعمار والغاء المعاهدات السرية المجحفة بحقوق الامم واعطاء الشعوب المحررة حق تعيين مصيرها التي وافق عليها الحلفاء رسميا كما جاء في تصريحات المسيو بريان رئيس وزراء فرنسا بتاريخ ٣ نوفمبر سنة ١٩١٥ امام مجلس النواب واللورد غراي وزير خارجية بريطانيا العظمى في ٢٣ اكتوبر سنة ١٩١٦ أمام لجنة الشؤون الخارجية وتصريح الحلفا في جوابهم على مذكرة الدول الوسطى التي رفعها لمسيو بريان بواسطة السفير الامريكي في باريس وجواب الحلفاء على مذكرة الرئيس ولسن في ٣٠ كانون ثاني سنة ٩١٧ وتصريح مسيو ريبو رئيس نظار فرنسا بتاريخ ٢٢ مايس سنة ١٩١٧ أمام مجلس النواب وبيان مجلس النواب الافرنسي ليلة ٤ — ٥ حزيران ١٩١٧ وبيان مجلس الشيوخ في ٦ منه أيضا وما جاء في خطاب المستر لويد جورج في غلاسكو بتاريخ ٢٩ حزيران سنة ١٩١٧

« وقد كان ماقام به جلالة الملك حسين المعظم من الاعمال العظيمة في جانب الحلفاء هو الباعث الاكبر لتحرير الامة العربية وانقاذها من ربقة الحكم التركي فخلد لجلالته في التاريخ العربي أجل الآثار وأفضلها وقد أبلى أنجاله الامراء الكرام مع الامة العربية في جانب الحلفاء البلاء الحسن مدة ثلاث سنوات حاربوا في خلالها الحرب النظامية التي شهد لهم بها أقطاب السياسة وقواد الجند من الحلفاء أنفسهم وسائر العالم المتمدن وضحوا العدد الكبير من أبنائهم الذين التحقوا بالحركة العربية من انحاء سورية والحجاز والعراق فضلا عما قام به السوريون خاصة في بلادهم من الاعمال التي سهلت انتصار الحلفاء وما أصابهم من الاضطهاد والتعذيب والقتل والنفي والتعذيب تلك الاعمال التي كان لها الاثر الاكبر في انكسار الترك

وجلائهم عن سورية وانتصر قضية الحلفاء انتصارا باهراً حقق آمال العرب بوجه عام والسوريين منهم بوجه خاص فرفعوا لاعلام العربية وأسسوا الحكومات الوطنية في أنحاء البلاد قبل أن يدخل الحلفاء هذه الديار

ولما قضت التدابير العسكرية بجعل البلاد السورية ثلاث مناطق أعلن الحلفاء رسميا أن لامطمع لهم في البلاد وأنهم لم يقصدوا من مواصلتهم تلك الحروب في الشرق سوى تحرير الشعوب من سلطة الترك تحريرا نهائيا واكدوا أن تقسيم المناطق لم يكن الا تدبيرا عسكريا مؤقتا لاتأثير له في مصير البلاد واستقلالها ووحدتها ، ثم انهم قرروا بعد ذلك رسميا الفقرة الاولى من المادة الثانية والعشرين من معاهدة الصلح مع المانيا فاعترفوا فيها باستقلالنا تأييدا لما وعدوا به من اعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها وأرسلوا اللجنة الاميركية للوقوف على رغائب الشعب فتجلت لها هذه الرغبة في طلب الاستقلال التام والوحدة السورية التامة

«وقد مضى عام ونصف عام والبلاد لاتزال رازحة تحت الاحتلال والتقسيم العسكري الذي أنشأ عنها اضرارا عظيمة وأوقف سير أعمالها ومصالحها الاقتصادية والادارية وأوقع الريبة في نفوس أبنائها من أمر مصيرها فاندفع الشعب في كثير من أنحاء البلاد وقام بثورات أهلية منتقضا على الحكم العسكري الغريب ومطالبا باستقلال بلاده ووحدتها

فنحن أعضاء هذا المؤتمر بصفتنا الممثلين للامة السورية في جميع أنحاء القطر السوري تمثيلا صحيحا نتكلم بلسانها ونجهر بارادتها رأينا وجوب الخروج من هذا الموقف الحرج واستنادا على حقنا الطبيعي الشرعي في الحياة الحرة وعلى دماء شهدائنا المراقة وجهادنا المديد في هذا السبيل المقدس ، وعلى العهود والوعود والمبادىء السامية السالفة الذكر وعلى مشاهداتنا كل يوم من عزم الامة الثابت الاكيد على المطالبة بحقها ووحدتها وانوصول الى ذلك بكل الوسائل — قد أعلنا باجماع الرأي استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين استقلالا تاما لاشائبة فيه على الاساس النيابي على ان تراعى أماني اللبنانيين الوطنية في كيفية ادارة مقاطعتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب بشرط ان يكون بمعزل عن كل تأثير أجنبي

ورفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطن هجرة لهم — وقد اختارة سمو الامير فيصل ابن جلالة الملك حسين الذي واصل جهاده في سبيل تحرير البلاد وجعل الامة ترى فيه رجلها العظيم ملكا دستورياً على سورية بلقب صاحب الجلالة [الملك فيصل الاول] واعلن انتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة في المناطق الثلاث على أن يقوم مقامها حكومة ملكية نيابية مسؤولة تجاه هذا المجلس في كل مايتعلق بأساس استقلال البلاد التام الى أن تتمكن الحكومة من جمع مجلسها النيابي على ان تدار هذه البلاد على طريقة اللامركزية .

ولما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربي من حكم الترك وكانت الاسباب المستند اليها اعلان استقلال سورية هي التي يستند اليها في اعلان استقلال القطر العراقي — وبما ان بين القطرين صلات و روابط تاريخية ولغوية واقتصادية وجنسية وكل واحد من القطرين لايستغني عن الاخر فنحن نطلب استقلال القطر العراقي استقلالا تاماً على ان يتكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسي اقتصادي

هذا واننا باسم الامة السورية التي أنابتنا عنها تحتفظ بصداقة الحلفاء الكرام محترمين مصالحهم ومصالح جميع الدول كل الاحترام وان لها الثقة التامة بأن يتقبل الحلفاء الكرام وسائر الدول المتمدنة عملنا هذا المستند الى الحق الشرعي والطبيعي في الحياة بما تتحققه فيهم من نبالة القصد وشرف الغاية فيعترفوا بهذا الاستقلال و يجلوا جنودهم عن المنطقتين الغربية والجنوبية فيقوم الجند الوطني والادارة الوطنية بحفظ النظام والادارة فيهما مع المحافظة على الصداقة المتبادلة حتى تتمكن الامة السورية العربية من الوصول الى غاية الرقي وتكون عضوا عاملا في العالم المتمدن . وعلى الحكومات السورية التي تتألف استنادا على هذا الاساس تنفيذ هذا القرار

اعلان استقلال العراق

واتحاده بسورية – انتخاب جلالة الملك عبدالله ملكا عليه وسمو الامير زيد نائبا للملك فيه

هذا هو نص القرار الذي وضعه المؤتمر العراقي العام باعلان استقلال العراق واتحاده بسورية سياسيا واقتصاديا وقد تلي هذا القرار على الشعب السوري من شرفة البلدية يوم اعلان استقلال سورية كما تقدم :

قرر المؤتمر العربي العراقي العام الذي يمثل الشعب العراقي تمثيلا تاما في جلسته المنعقدة في دمشق الشام بتاريخ ٨ اذار ١٩٢٠ و ١٨ جمادى الاولى سنة ١٣٣٨ اعلان القرار الآتي :

باسم الشعب العربي العراقي

خاضت الامة العربية نار غمار الحرب الماضية في جانب الحلفاء لرفع نير الاجانب عن عاتقها واسترجاع سالف مجدها واستئناف مهمتها الطبيعية في تمدين الشرق وتحقيق آمالها القومية بالوحدة والاستقلال التام أسوة بغيرها من الشعوب التي نالت استقلالها وهي دونها حضارة ورقيا . وكان الحلفاء الكرام قد قطعوا لها العهود على الاخذ بنصرتها في هذا السبيل وأعلنوا بلسان رؤساء حكوماتهم ومجالس نوابهم ان لا غاية لهم من الحرب الا استقلال الشعوب وترك الخيار لها في بث مصيرها وتعيين شكل حكوماتها فأبرمت بريطانية العظمى مع جلالة الملك الحسين تلك المعاهدة المعروفة التي اعترفت فيها باستقلال العرب من جبال طوروس وشمالي ولاية الموصل الى خليج فارس والاوقيانوس الهندي والبحر الاحمر، وأيد الرئيس ولسن ذلك بما أعلنه من لمبادئ السامية التي وافق عليها الحلفاء قاطبة واتخذوها أساسا للصلح الدائم كما جاء في بيان اللورد غراي وزير خارجيه نكلترة مام لجنة الامور الخارجيه في ٢٣ تشرين الاول ٩١٦ وتصريح المسيو بريان رئيس وزارة فرنسه في ٣ تشرين الثاني ٩١٥ وردود الحلفاء على مذكرة الدول الوسطى التي أرسلت على يد

السفير الاميركي في باريس وجوابهم على مذكرة الرئيس ولسن في ٢٢ ايار ١٩١٧ وبيان مجلس النواب الفرنسي في ٥ حزيران ١٩١٧ وبيان مجلس الشيوخ في ٦ منه وتصريح المستر لويد جورج في غلاسكو في ٩ حزيران ١٩١٧ وما شاكل ذلك من البيانات القائلة بتحرير الشعوب الكبيرة والصغيرة استقلالها وترك الخيار لها في بت مصيرها والغاء المعاهدات السرية المجحفة بحقوقها

وقد كان لجلالة الملك الحسين الاول وأنجاله أصحاب السمو الأمراء العظام الفضل الاكبر في تحرير الامة العربية واقاذها من نير العبودية والذل واحراز النصر المشترك على الاعداء في الشرق فأبلوا في الحرب أحسن بلاء ورقوا الامة من عصر الى نصر ثلاث سنوات متواصلة أراقوا فيها دماء زهرة أبناء العراق وسورية والحجاز وكانوا موضع اعجاب الحلفاء والاعداء على السواء . ذلك فضلا عما تحملته الامة في الاقطار العربية المختلفة من المصائب والاهوال وما قامت به من جليل الاعمال تأييدا لقضيتها وانتصارا لجلالة الملك وحلفائه الكرام

وقد أسفر هذا الجهد المشترك المتواصل عن اندحار الاعداء وجلائهم عن العراق ودخول الجيوش البريطانية اليه بصفة حلفاء ومحررين فاعلنوا حينئذ ان لا مطمع لهم في البلاد ولا غاية الا استقلال لامة وترك الخيار لها في بت مصيرها وتعيين شكل حكومتها

على ان الحرب العظمى قد وضعت أوزارها منذ نحو عام ونصف عام والبلاد لاتزال تئن تحت رزء الاحتلال الاجنبي الذي الحق بها اضراراً جسيمة مادية وأدبية وأوقف سير أعمالها ومصالحها الاقتصادية والادارية بشكل كاد يزلزل موقعها السياسي فعيل صبر الشعب من هذه الحال وانتقض في أماكن مختلفة على الحكم العسكري الاجنبي مطالبا باستقلاله التام

فنحن أعضاء هذا المؤتمر الذي يمثل الشعب العربي العراقي تمثيلا قانونيا صحيحا رأينا الآن ان نجهر بارادته ونخرج البلاد من هذا الموقف الحرج والحال المبهم المضطرب فاستفادا الى حق الامة الطبيعي بالحياة الحرة والاستقلال التام والى المبادئ السامية التي أعلنها الحلفاء العظام أكثر من سبعين مرة في خلال الحرب الماضية والى الرغائب التي أعربت عنها الامة العربية العراقية في ٦ ربيع ثاني سنة ١٣٣٧ بوثائق رسمية

وقعها الامراء والرؤساء والزعماء والمفكرون وسائر طبقات الشعب والى ما شاهدناه ونشاهده كل يوم من عزم العرب العراقيين على نيل استقلالهم التام والتوسل بكل الوسائل الممكنة التي تؤدي اليه وبصفتنا ممثلي الشعب المكلفين بالاعراب عن ارادته أعلنا الآن إجماع الآراء استقلال البلاد العراقية المسلوخة عن تركيا بحدودها المعروفة من شمالي ولاية الموصل الى خليج فارس استقلالا تاما لاشائبة فيه وأيدنا استقلال سوريا التام وأعلنا اتحاد العراق بها اتحادا سياسيا واقتصاديا ونادينا بحضرة صاحب السمو الملكي الامير عبدالله ملكا دستوريا بلقب صاحب الجلالة ملك العراق وعهدنا في نيابة الملك الى صاحب السمو الملكي الامير زيد المعظم وأعلنا انتهاء الحكم الاحتلالي العسكري الحاضر على ان تقوم مقامه حكومة وطنية مسؤولة امام الشعب

واننا باسم الامة العربية العراقية التي أنابتنا عنها وعهدت الينا بتقرير مصيرها نعلن محافظتنا على صداقة الحلفاء الكرام وعزمنا على احترام مصالحهم ومصالح جميع الدول الاجنبية في بلادنا راجين منهم ان يعترفوا بهذا الاستقلال ويجلو من بلادنا العراقية فيحل محلهم فيها الجند الوطني والادارة الوطنية فتتمكن دولتنا حينئذ من ان تكون عاملا من عوامل الرقي في العالم المتمدن

هذا رأي الحكومة العراقية التي تتشكل عاجلا مكلفة بتنفيذ قرارنا هذا تحريرا في ٨ آذار سنة ١٩٢٠ و١٨ جمادى الاولى سنة ١٣٣٨

رزء إسلامي عظيم — وفاة الدكتور صدقي

في أوائل شهر شعبان من هذه السنة ١٣٣٨ فقد الاسلام رجلا من أفضل رجاله دينا وتقوى، وأقوى أنصاره حجة، وأخلصهم نية، صديقنا الصفي الوفي ووليّنا وطبيب أسرتنا، الدكتور محمد توفيق صدقي المعروف عند قراء المنار في مشارق الارض ومغاربها بمقالاته الكثيرة المفيدة من دينية وعلمية تغمده الله برحمته، وحشره مع الذين أنعم عليهم من أهل كرامته، وأكثر في هذه الايام المصابة بالقحط في الرجال من أمثاله

توفاه الله بمصر وكاتب هذه السطور (منشئ المنار) في دمشق واتفق ان منع البريد بين القطرين بعد وفاته فلم أعلم بها الا بعد زهاء خمسة أسابيع فعظم علي وقع المصاب وعلى كل من علم به من اخواننا أهل العلم والدين في الشام ولم أستطع كتابة تأبين وتأخر ترجمة له في شهر رمضان لاشتغالي بأعمال رياسة المؤتمر السوري وقراءة درس في الجامع الكبير الاموي والتهاب عرض لي في اللوزتين كان كلما خف ألمه يعود الى التشنج والازدياد برفع الصوت في كل من الدرس وضبط نظام جلسات المؤتمر وتلخيص مذاكراته وطلب الاصوات على اقتراحاته حتى اضطررت الى ترك الدرس في أفضل أوقاته وهي العشر الاخير من رمضان ، مع مشقة الصيام ، وقلة المنام ، وصرف وقت من الليل والنهار فيما لا مندوحة عنه من لقاء الناس ، حتى انني لم أقرأ في رمضان هذا العام أكثر من ثلاث ختمات من القرآن على انني قرأت في رمضان العام الماضي أكثر من عشر ختمات

ومن غريب الاتفاق ان كانت وفاته قريبة العهد بوفاة تربه وصنوه في النشأة العلمية والدينية الطبيب عبده ابراهيم الذي عد موته نذيرا له بالموت بمثل مرضه ، وقرب اللحاق به : كتب الي وكيلي وابن عمي السيد عبد الرحمن عاصم انه لما علم بمرضه عاده وسأله عن حاله فقال انني محموم فاذا كانت هي هذه الحمى تيفوسيه فأنا ميت بها لا محالة وكثيرا ما كان ينعى نفسه في السنة التي عاشها بعد صنوه عبده ابراهيم حتى انه في حالة صحته كان يقول : لا أدري من يربي ولدي عمر ، وكان شرع في كتابة مقال في العقائد وأخره لينقحه وينشره في المنار فأعطى ما كتبه الى اهله وعهد اليهم بأن يرسلوه الي اذا هو مات ويبلغوني عنه اذنه لي بتصحيحه كعادته فيما يقبل في حياته من التنقيح في المعنى الا ما يقتنع بصحته أو يوافق نظره . فأرسلوا ما كتبه الى الادارة بعد وفاته وقد نشر في هذا الجزء . وذكر لابن عمي انه عهد اليه بتحرير المجلة الطبية التي أنشأتها جمعية الاطباء بمصر وقال له : مازال المنار يرفعني حتى جعلني كاتبا

وسنكتب له ترجمة علمية بعد مراجعة مجلدات المنار التي نشرت فيها مقالاته ومناظراته الدينية لبعض علماء مصر والهند ان شاء الله تعالى

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ٢٩ ق سنة ١٣٣٨ـ٢١ الاسد (ص ٩) سنة ١٢٩٨ هش ١٤ اغسطس سنة ١٩٢٠

تفسير القرآن الحكيم

﴿ على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه ﴾

(١١٣) أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتٰبَ مُفَصَّلاً ؟ والَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ ٱلْكِتٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فلا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمٰتِهِ وهُوَ ٱلسَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين الله تعالى في السياق الذي قبل هذا أن الذين اقترحوا على رسوله الآيات الكونية وأقسموا بأنهم يؤمنون بها اذا جاءتهم كاذبون في دعواهم وأيمانهم كما ثبت فيما مضت به سنة الله في أمثالهم من أعداء الرسل المعاندين وهم شياطين الانس والجن الذين يغرون الجاهلين بزخرف أقوالهم فيصرفونهم بها عن الحق

ويزينون لهم الباطل فتميل اليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ويرضونه لموافقته لأهوائهم فيحملهم على اقتراف السيئات وارتكاب المنكرات. ثم قفى عليه بهاتين الآيتين المبينتين لآية الله الكبرى التي هي أقوى دلالة على رسالة نبيه من جميع ما اقترحوا ومما لم يقترحوا من الآيات الكونية ، وهي القرآن الحكيم ، وكون منزلها هو الذي يجب الرجوع اليه في الحكم في أمر الرسالة وغيره واتباع حكمه فيها دون شياطين الانس والجن المبطلين المضلين فقال آمراً لرسوله أن يقول لهم :

﴿ أفغير الله أبتغي حكما ﴾ الحكم (بفتحتين كالجبل) هو من يتحاكم الناس اليه باختيارهم ويرضون بحكمه وينفذونه ، أي أأطلب حكما غير الله تعالى يحكم بيني وبينكم في هذا الأمر أو غيره ﴿ وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا ﴾ أي والحال انه هو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا فيه كل ما يصح به الحكم — فانزاله مشتملا على الحكم التفصيلي للعقائد والشرائع وغيرها على لسان رجل منكم أمي مثل السواد الاعظم منكم هو أكبر دليل وأوضح آية على انه من عند الله تعالى لا من عنده هو (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) جاوز الاربعين من السنين ولم يصدر عني فيه شيء من مثله في علومه ولا في إخباره بالغيب ولا في أسلوبه ولا في فصاحته وبلاغته (أفلا تعقلون) أن مثل هذا لا يكون الا بوحي من العليم الحكيم ؟ ثم ان ما فصل فيه من سنن الله تعالى في طباع البشر وأخلاقهم وارتباط أعمالهم بما استقر في أنفسهم من الآراء والأفكار والاخلاق والعادات الموضح بقصص من قبلنا من الأمم برهان علمي على صحة ما حكم به في طليكم الآية الكونية وزعمكم أنكم تؤمنون بها، وقد تقدم توجيهه في تفسير السياق الاخير في طلبها وفي أمثاله، كما تقدم بيان كون القرآن أدل على صحة الرسالة وصدق الرسول من جميع الآيات التي جاء بها الرسل عليهم السلام، وهو في مواضع من التفسير والمنار ومن أقربها ما جاء في تفسير الآية ٣٧ من هذه السورة (ص ٣٨٧ ج ٧)

﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق ﴾ أي والذين أعطيناهم علم الكتب المنزلة من قبله كعلماء اليهود والنصارى يعلمون ان هذا الكتاب منزل عليك من ربك بالحق . وبيان هذا من وجهين (أحدهما) ان العالم بالشيء

يميز بين ما كان منه وما لم يكن، فمن ألف كتابا في علم الطب كان الاطباء أعلم الناس بكونه طبيبا، ومن ألف كتابا في النحو كان النحاة أعلم الناس بكونه نحويا، كذلك المؤمنون بالوحي العالمون بما أنزل الله على أنبيائهم منه يعلمون ان هذا القرآن من جنس ذلك الوحي وفي أعلى مراتب الكمال منه وان أوسع البشر علما لا يستطيع ان يأتي بمثله فكيف يستطيعه رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب قبله شيئا (٢٩:٤٨ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذاً لارتاب المبطلون) ولذلك قال تعالى في آية أخرى (٢٦:١٩٧ أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل)

(ثانيهما) ان في الكتب الاخيرة كالتوراة والانجيل بشارات بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم تكن تخفى على علمائهما في زمنه (ص) وقد بينا بعضها في غير هذا الموضع، وقال تعالى (٢:١٤٦ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) وقد اعترف المنصفون من أولئك العلماء بذلك وآمنوا وكتم بعضهم الحق وأنكروه بغيا وحسدا كما بيناه في محله من التفسير . والخطاب في قوله تعالى ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ للنبي (ص) والمراد غيره ، على حد قولهم « اياك أعني واسمعي ياجارة » وقيل لكل مخاطب ، أي فلا تكونن من الشاكين في ذلك . على ان نهي النبي (ص) عن الشك في كون أهل الكتاب يعلمون انه منزل بالحق مقرونا بإخباره به لا يقتضي جواز شكه فيه بعد هذا الاخبار، فان كان يشك فيه قبله فلا ضرر

﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ الكلمة تطلق على الجملة والطائفة من القول في معنى واحد أو غرض واحد طال أو قصر ، فاذا ألقى أفراد خطبا أو كتبوا مقالات في موضوع ما قيل في كل خطبة وكل مقالة: هذه كلمة فلان ، وروي ان العرب كانت تسمى القصيدة من الشعر كلمة لان القصيدة تقال في غرض واحد وان اشتملت على معاني كثيرة ، وتسمى جملة « لا إله الا الله » كلمة التوحيد ، ومن هنا قال بعض المفسرين ان المراد بالكلمة في هذه الآية القرآن، وهو جائز لغة ولكنه غير ظاهر معنى، وانما الظاهر المتبادر بقرينة السياق ان الكلمة هنا من قبيل قوله تعالى (١١:١١٨ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقوله

(٧: ١٣٦ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه) أي وتمت كلمة ربك أيها الرسول فيما وعدك به من نصرك وما أوعد به هؤلاء المستهزئين بالقرآن المقترحين للآيات وأمثالهم وأقتالهم من معاندي قومك المستكبرين عن الايمان بك كما تمت من قبل في الرسل واعدائهم من قبلك وهي قوله تعالى (٣٧: ١٧١ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ١٧٢ إنهم لهم المنصورون ١٧٣ وان جندنا لهم الغالبون) ومافي معناها من عام كقوله تعالى (٤٠: ٥١ انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) وخاص كقوله لرسوله عليه الصلاة والسلام (١٥: ٩٥ انا كفيناك المستهزئين) اما تمامها صدقا فهو وقوع مضمونها من حيث كونها خبرا، واما تمامها عدلا فمن حيث كونها جزاء للكافرين المعاندين للحق بما يستحقون، وللمؤمنين المهتدين بما يستحقون، وان كانوا بمقتضى الفضل يزادون، واذا كانت هذه الآية نزلت بمكة قبل نصر الله تعالى نبيه على طغاة قومه في بدر وغيرها فالفعل الماضي فيها « تمت » بمعنى المستقبل فهو لتحقق وقوعه كأنه وقع، وهذا من ضروب المبالغة البليغة. وفيه وجه آخر وهو ان المراد بالخبر هنا لازمه وهو تأكيد ما تضمنته هذه الآيات من تسلية النبي (ص) عن كفر هؤلاء المعاندين وايذائهم له ولاصحابه وايئاس الطامعين من المسلمين في ايمانهم بإيقاعهم الآيات المقترحة كأنه يقول كما أن سنتي مضت بأن يكون للرسل أعداء من شياطين الانس والجن قد تمت كلمتي بنصر المرسلين، وخذلان هؤلاء الاعداء الطغاة المفسدين،

﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ كما أنه لا تبديل لسننه (٣٣: ٦٢ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) والتبديل التغيير بالبدل، وهذه الجملة تعليل لما قبلها، والمعنى ان كلمة الله تعالى في نصرك أيها الرسول وخذلان أعدائك قد تمت وأصبح نفوذها حتما لا مرد له لان كلمات الله التي هي من أفرادها لا مبدل لها اذ لا يستطيع أحد من خلقه — وكل ماعداه فهو من خلقه — أن يزيل كلمة من كلماته بكلمة أخرى تخالفها أو يمنع صدقها على من وردت فيهم، كان يجعل الوعد وعيدا أو الوعيد وعدا أو يصرفهما عن الموعود بالثواب أو الموعد بالعقاب الى غيرهما أو يحول دون وقوعهما البتة

فان قيل ان بعض المتكلمين جوز تخلف الوعيد دون الوعد لانه فضل واحسان، قلنا لم يجوّز أحد من محققي أهل الحق تخلف الوعيد مطلقا بل صرحوا بأن من أصول العقيدة أن نعود الوعيد في الكفار وفي طائفة من عصاة المؤمنين حق ، وانما قيل يتخلف شمول الوعيد لجميع العصاة الذي يدل عليه اطلاق بعض النصوص، وانا مع تسليم هذا القول ان نقول ان هذا ليس بتخلف فيقال انه تبديل لكلمات الله سبحانه وتكذيب لها لانه تعالى لم يرد بتلك الاطلاقات الشمول العام لجميع أفراد من وردت فيهم تلك النصوص لانه بين في نصوص أخرى أنه يعفو عن بعض الذنوب ويغفر لمن يشاء من مقترفيها ويعذب من يشاء وهو يعلم من أراد المغفرة لهم ومن أراد تعذيبهم ولا يبدّل كلامه في أحد منهما ، وأبهم ذلك علينا لنرجوه دائما ولا يوقعنا العمل الصالح في الغرور والأمن من عذابه فنقصر، ونخافه دائما ولا يوقعنا ارتكاب الذنب في اليأس من رحمته فنهلك ، وقد أحسن أبو الحسن الشاذلي في قوله في هذا المقام :

وقد أبهمت الامر علينا لنرجو ونخاف فأمّن خوفنا ولا تخيب رجاءنا

فان قيل: أليس الشفعاء يؤثرون في إرادته تعالى فيحملونه على العفو عن المشفوع لهم والمغفرة لهم ؟ قلنا كلا ان المخلوق لا يقدر على التأثير في صفات الخالق الازلية الكاملة ، وقد نطقت الآيات بأن الشفاعة لله جميعا ليس لاحد من دونه ولي ولا شفيع ولا يستطيع أحد ان يشفع عنده الا باذنه ، وهو لا يأذن الا لمن تعلقت مشيئته وعلمه في الازل بالاذن لهم (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) فكون ذلك إظهار كرامة وجاه لهم عنده لا إحداث تأثير للحادث في صفات القديم وسلطان له عليها ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ؛ وقد تقدم تحقيق هذه المسألة مرارا

فان قيل : ألا يدل قوله «لا مبدل لكلماته» على استحالة التحريف أو التبديل في الكتب الالهية أي في لفظها وعبارتها ، كاستحالة التبديل في صدقها ونفوذها ؟ قلنا انما ورد السياق والنص في صدقها وعدلها لا في لفظها ، وقد أثبت الله في كتابه تحريف أهل الكتاب قبلنا لكلامه ونسيانهم حظا منه، وما كفل تعالى حفظ كتاب من كتبه بنصه الا هذا القرآن المجيد الذي قال فيه (١٥ : ٩ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وظهر صدق كفالته بتسخير الالوف الكثيرة في كل عصر لحفظه عن ظهر قلب ،

ولكتابة النسخ التي لا تحصى منه في كل عصر من زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الى هذا العصر ، وناهيك بما طبع من ألوف الالوف من نسخه في عهد وجود الطباعة بمنتهى الدقة والتصحيح . ولم يتفق مثل ذلك لكتاب إلهي ولا غير إلهي، فأهل الكتاب لم يحفظوا كتب رسلهم في الصدور ولا في السطور ، وسيأتي بسط هذا في موضعه ان شاء الله تعالى

وقد ختمت هذه الآية بقوله تعالى ﴿ وهو السميع العليم ﴾ لانه تذييل للسياق الاخير كله لا لهذه الآية فقط وهو سياق محاجة المشركين المعاندين مقترحي الآيات وفيه ذكر اقتراحهم وايمانهم الكاذبة وذكر سائر أعداء الرسل أمثالهم من شياطين الانس والجن وخداعهم للناس بزخرف القول وصغى قلوب منكري البعث والجزاء اليه وضلالهم به — فهو يقول انه تعالى سميع لتلك الاقوال الخادعة منهم، عليم بما في قلوبهم من ذلك الصغى والميل وغيره من مقاصدهم ونياتهم، وبما يقترفون من السيئات بكفرهم وغرورهم

---

(١١٥) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ

وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ

هذه الآيات سياق جديد في بيان ضلال جميع الامم في عهد بعثة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام وغلبة الشرك عليهم في اثر بيان ضلال مشركي العرب ومن على شاكلتهم في عقائدهم واقامة حجج الاسلام عليهم ووصل ذلك ببيان مسألة اعتقادية عملية من أكبر أصول الشرك وهي مسألة الذبائح لغير الله تعالى. قال عز وجل

﴿ وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ﴾ هذه جملة معطوفة على ماقبلها متممة له فانه بين فيما قبلها وحي شياطين الانس والجن الذي يلقونه لغرور الناس به وصغى قلوب منكري الآخرة له وافتتانهم به، ومايقابل ذلك من هداية وحي الله المفصل لكل ما يحتاج الناس اليه من أمر دينهم الذي يترتب عليه صلاح دنياهم، فهو تعالى يقول لرسوله لاتبتغ أنت ومن اتبعك حكما غير الذي أنزل اليك الكتاب مفصلا فهذا الكتاب هو الهداية التامة الكاملة ، فادع اليه الناس كافة ، وان تطع أكثر أهل الارض يضلوك عن سبيل الله التي بينها لك فيه ، لانهم ضالون متبعون لوحي الشياطين ، ﴿ ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون ﴾ أي ما يتبعون في عقائدهم وآدابهم وأعمالهم الا الظن الذي ترجحه لهم أهواؤهم وما هم فيها إلا يخرصون خرصا في ترجيح بعضها على بعض كما يخرص أهل الحرث ثمرات النخيل والاعناب وغيرها ويقدرون ماتأتي به من التمر والزبيب ، فلا شيء منها مبني على علم صحيح ، ولا ثابت بدلائل تنتهي الى اليقين

وهذا الحكم القطعي بضلال أكثر أهل الارض في ذلك العصر تؤيده تواريخ الامم كلها فقد اتفقت على ان أهل الكتاب كانوا قد تركوا هداية أنبيائهم وضلوا ضلالا بعيدا وكذلك أمم الوثنية التي كانت أبعد عهدا عن هداية رسلهم، وهذا من اعلام نبرته (ص) وهو أمي لم يكن يعلم من أحوال الامم الا شيئا يسيرا من شؤون المجاورين لبلاد العرب

﴿ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي ان ربك الذي ربك وعلمك أيها الرسول بما انزل اليك الكتاب مفصلا وبين لك فيه مالم تكن تعلم من الحق، ومن شؤون الخلق، هو أعلم منك ومن سائر خلقه بمن يضل عن سبيله القويم، وهو أعلم بالمهتدين السالكين صراطه المستقيم، اذ الضلال ما يصد عن سبيله ويبعد السالك عنه، والاهتداء ما يجذبه اليه ويقربه منه، فكيف لايكون أعلم به من نفسه، وأصدق في الحكم عليه من حسه، وهو فوق ذلك محيط بكل شيء علما؟

ومن مباحث اللغة ان البصريين والكوفيين من النحاة اضطربوا في اعراب قوله تعالى «أعلم من يضل» لمجيئه على خلاف المعهود الشائع من اقتران معمول اسم التفضيل بالباء كقوله تعالى في مثل هذه الآية من سورة القلم (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) فكان أبعد اعرابهم له عن التكلف ان الباء حذفت منه اكتفاء باقترانها بمقابله المتصل به وهو قوله «أعلم بالمهتدين» ومخالفة المعهود في اساليب اللغة لايكاد يقع في كلام بلغاء أهلها الا لنكتة يقصدونها به، وكلام رب البلغاء ومنطقهم باللغات أولى بذلك. والنكت منها لفظي كالاختصار والتفنن في الاسلوب ومنها معنوي وهو أعلى. وقد يكون من نكت مخالفة المعهود الكثير تنبيه الذهن للتأمل كمن يريد ايقاف سالك الطريق في مكان منه يحمله به على الوقوف فيه لفائدة له في ذلك الوقوف كما أرى الله تعالى نبيه موسى النار في الشجرة بجانب الطور فحمل أهله على المكث فيه لما علمنا من حكمة ذلك. وقد بينا هذا النوع من النكت من قبلُ وجعلنا منه عطف المرفوع على المنصوب في قوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) أي وكذا الصابئون أو والصابئون كذلك خص هؤلاء باخراجهم عن نسق من قبلهم في الاعراب لان الناس لم يكونوا يعرفون أنهم بقايا أهل كتاب [1] وقد يكون حذف الباء في قوله «ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله» للتنبيه الى التأمل والتفكر في كون الله تعالى أعلم بأحوالهم لانها هي المقصودة هنا بالذات بدليل سابق الكلام ولاحقه اذ هو فيهم، وما ذكر العلم

(١) يراجع تحقيق هذا البحث في تفسير آية ٥:٧٢ من جزء التفسير السادس

بالمهتدين الالاجل التكملة والمقابلة ولذلك عطف على ماقبله عطف جملة لا عطف مفرد، فتأمل. ولو جازت الاضافة هنا نحو: أفضل من حج واعتمر — لكان الكلام احتباكا تقديره هو أعلم من يضل ومن يهتدي وهو أعلم بالضالين وبالمهتدين، فحذف من كل من المتقابلين ما أثبت نظيره في الآخر، وليس المانع من جواز الاضافة هنا كون صلة من فعلاً مضارعا لا ماضيا كالمثال الذي اوردناه ونظائره، بل المانع هو أن المضاف في مثل هذا الكلام من جنس المضاف اليه وهو ممتنع في الآية لانه تعالى لا جنس له ولو اقترن الموصول هنا بالجار فقيل هو أعلم ممن يضل عن سبيله لجزمنا بالاحتباك

بعد أن بين تعالى لرسوله (ص) أن أكثر أهل الارض يُضلون مَن اطاعهم لأنهم ضالون خراصون، وأنه هو أعلم بالضالين والمهتدين، رتب على ذلك أمر أتباع هذا الرسول بمخالفة الضالين من قومهم وغير قومهم في مسألة الذبائح وبترك جميع الآثام فقال ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين ﴾ أي اذا كان أمر أكثر الناس على مابينته لكم فكلوا مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح دون غيره مما يصرح به — بعد آيتين من السياق — ان كنتم بآياته التي جاءتكم بالهدى والعلم مؤمنين، وبما يخالفها من ضلال الشرك والكفر وجهل أهله مكذبين، وحكمة الاهتمام بهذه المسألة وقرنها بمسائل العقائد هو أن مشركي العرب وغيرهم من أهل الملل جعلوا الذبائح من أمور العبادات، بل نظموها في سلك أصول الدين والاعتقادات، فصاروا يتعبدون بذبح الذبائح لآلهتهم ومن قدسوا من رجال دينهم، ويهلون لهم بها عند ذبحها كما يأتي، وهذا شرك بالله لانه عبادة توجه الى غيره سواء أسمي ذلك الغير إلهـا أو معبوداً أم لا. وقد غفل عن هذا بعض كبار المفسرين فلم يهتد اليه بذكائه وعلمه ولم يروه عن غيره فاستشكل هو ومن تبعه المسألة وقالوا ان المشركين لم يكونوا يحرمون ما ذكر اسم الله عليه ولا يمتنعون من أكله ولكنهم كانوا يأكلون الميتة أيضا فكيف نازعهم في المتفق عليه وسكت عن المختلف فيه؟ وأجابوا عن

السؤال باحتمال انهم كانوا يحرمون المذكاة وبجواز ان يكون المراد بما ذكر اسم الله عليه الاقتصار على المذكى دون غيره فيكون بمعنى تحريم الميتة ، وكل من الوجهين باطل ولا محل له هنا كما علمت . وقد بينا من قبل ان سبب غفلة أذكياء المفسرين عن أمثال هذه المسائل اقتصارهم في أخذ التفسير على الروايات المأثورة ومدلول الالفاظ في اللغة أو في عرف الفقهاء والاصوليين والمتكلمين الذي حدث بعد نزول القرآن بزمن طويل ، ولا يغني شيء من ذلك عن الاستعانة على فهم الآيات الواردة في شؤون البشر بمعرفة الملل والنحل وتاريخ أهلها وما كانوا عليه في عصر التنزيل . وقد كان من أثر تقصير المفسرين وعلماء العقائد والاحكام في أهم ما يتوقف عليه فهم المراد من أمثال هذه الآيات أن وقع كثير من المسلمين فيما كان عليه أولئك الضالون من مشركي العرب وغيرهم حتى الذبح لبعض الصالحين وتسييب السوائب لهم كعجل البدوي المشهور أمره في أرياف مصر ، ولما سرت هذه الضلالة الى المسلمين ذكر الفقهاء حكمها ومتى تكون كفرا كما سيأتي ، وجملة القول أن مسألة الذبائح من مسائل العبادات التي كان يتقرب بها الى الله تعالى ثم صاروا في عهد الوثنية يتقربون بها الى غيره وذلك شرك صريح ، وهذا هو الوجه لذكرها في هذه السورة بين مسائل الكفر والايمان والشرك والتوحيد

﴿ وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ تقول العرب «مالك أن لا تفعل كذا» وهو من موجز الكلام بالحذف والتقدير ، وتقدير الكلام هنا وأي شيء ثبت لكم من الفائدة في ترك الاكل مما ذكر اسم الله عليه ؟ وكلمة « في » تحذف قبل أنْ وأنّ قياسا . وقيل ان معنى الجملة : وأي شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ وان هذا معروف في كلامهم . والتقدير الاول أظهر وأبعد عن التكلف . والاستفهام هنا للانكار أي لا فائدة لكم البتة في عدم الاكل مما ذكر اسم الله وحده عليه دون ما أهل به لغيره كما يفعله المشركون من قومكم ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴾ أي والحال انه فصل لكم ما حرم عليكم وبينه بقوله لنبيه الآتي في هذه السورة (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير — فانه رجس — أو فسقا أهل لغير الله به) أي ذكر اسم

غيره عليه عند ذبحه كاسماء الاصنام أو الانبياء والصالحين الذين وضعت الاصنام والتماثيل ذكرى لهم . والتفصيل والتبيين واحد فهو فصل بعض الاشياء وإبانتها من بعض آخر يتصل بها اتصالا حسيا أو معنويا — كالامور التي يشتبه بعضها ببعض حتى تعد كانها شيء واحد في الجنس اذا أزالت مابه الاشتباه بينها بما يمتاز به بعضها عن بعض وجعلتها أنواعا تكون قد فصلت كل نوع من الجنس وأبنته من الآخر . وتكرير الفصل هو التفصيل. وقوله ﴿ الا مااضطررتم اليه﴾ استثناء مما حرمه فمتى وقعت الضرورة بأن لم يوجد من الطعام عند شدة الجوع الا المحرم زال التحريم، وهذه قاعدة عامة في يسر الشريعة الاسلامية. والضرورة تقدر بقدرها فيباح للمضطر ما تزول به الضرورة ويتقى الهلاك، وقد تقدم ذلك في تفسير آية التحريم المفصلة في أوائل سورة المائدة . ولعل بعض المؤمنين كانوا يأكلون مما يذبح المشركون على النصب ويهلون به لغير الله قبل نزول هذه الآيات بل مثل هذا من الامور المعتادة التي لا يتركها أكثر الناس الا بعد التصريح بتحريمها عليهم، وانما يفطن لقبحها خواص أهل البصيرة فيتنزهون عنها قبل أن تحرم عليهم ، ولذلك بينت بما ترى من الاسهاب والاطناب

قرأ أهل الكوفة غير حفص «فَصل» بفتح الفاء و« حُرم » بضم الحاء ، وقرأ أهل المدينة وحفص و يعقوب وسهل الفعلين بفتح أولهما وقرأهما الباقون بضم أولهما ولا فرق بين هذه القراءات في المعنى وانما هي توسعة في اللفظ

﴿ وان كثيراً ليضلون باهوائهم بغير علم ﴾ قرأ الجمهور يضلون (بضم الياء) وقرأه ابن كثير وأبو عمرو و يعقوب بفتح الياء والاولى أبلغ وفائدة القراءتين بيان وقوع الامرين بالايجاز العجيب ، والمعنى أن كثيراً من الناس يضلون غيرهم كما ضلوا في أكل ما أهل به لغير الله بذكر اسم ذلك الغير من نبي أوصالح أووثن وضع لتعظيمه والتذكير به ، كما أن كثيراً منهم يَضل في ذلك من تلقاء نفسه أو باضلال غيره ولا يتصدى لاضلال أحد فيه للعجز عن الاضلال أو لفقد الداعية ، وكل من ذلك الضلال والاضلال واقع باهواء أهله لا بعلم مقتبس من الوحي، ولا مستنبط بحجج العقل ومهب هذه الاهواء ما كان سبب الوثنية وأصلها وهو انه كان في القوم الذين

ارسل الله اليهم نبيه نوحاً عليه السلام رجال صالحون على دين الفطرة القديم فلما ماتوا وضعوا لهم أنصابا تمثلهم ليتذكروهم بها ويقتدوا بهم ثم صاروا يكرمونها لاجلهم، ثم جاء من بعدهم أناس جهلوا حكمة وضعهم لها وانما حفظوا عنهم تعظيمها وتكريمها والتبرك بها تدينا وتوسلا الى الله تعالى، فكان ذلك عبادة لها، وتسلسل في الامم بعدهم، فعلى هذا الاصل الذى بنيت عليه الوثنية — كما في البخاري عن ابن عباس — يبني المضلون شبهاتهم على جميع أنواع العبادة التي عبدوا بها غير الله تعالى كالتوسل بها ودعائها وطلب الشفاعة منها والطواف حولها والتمسح باركانها وذبح القرابين باسمها، وكل ذلك شرك في العبادة شبهته تعظيم المقربين من الله تعالى للتقرب بهم اليه، ومثل التقرب بهم التقرب بما وضع للتذكير بهم من صورة وتمثال وقبر وغير ذلك، وقد راجت هذه الشبهات الوثنية في اهل الكتب الالهية، بالاهواء الجهلية، وأولوا لاجلها النصوص القطعية، وأجاز بعض متنحلي العلم الديني منهم لانفسهم وأتباعهم من ذلك ما يعدونه كفرا وشركا من غيرهم، اما بانكار تسميته عبادة أو بدعوى أن العبادة التي يتوجه بها إلى غير الله تعالى لاجل جعله واسطة ووسيلة اليه لا تعد شركا به، وما الشرك في العبادة الا هذا، ولو وجهت العبادة الى هؤلاء الوسطاء لذواتهم طلبا للنفع أو رفع الضر منهم أنفسهم — وهذا واقع أيضاً — لكانت توحيدا لعبادة هؤلاء لا إشراكا لهم مع الله عز وجل (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) والمخلص لله من خلصت عبادته من التوجه الى غيره معه والحنيف من كان مائلاً عن غيره اليه . وتقدم توضيح هذه المعاني مرارا

﴿ إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ هذا التذييل التفات عن خطاب المؤمنين كافة الى خطاب الرسول خاصة ، أي ان ربك الذي بين هذه الهداية على لسانك هو أعلم بالمعتدين الذين يتجاوزون ما أحله لهم إلى ما حرمه عليهم ، أو يتجاوزون حد الضرورة عند وقوعها اتباعا لاهوائهم، وتقدم تفصيل القول في الاعتداء العام والخاص في تفسير قوله تعالى من سورة المائدة (٥ : ٩٠ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين) وهذا الاخبار يتضمن الانذار

والوعيد أي فهو يجازيهم على اعتدائهم

وقد استنبط بعضهم من الآية تحريم القول في الدين بمجرد التقليد وعصبية المذاهب لان ذلك من اتباع الاهواء بغير علم اذ المقلد غير عالم بما قلد فيه وذلك بديهي في العقل ومتفق عليه في النقل . قال الرازي : دلت هذه الآية على أن القول في الدين بمجرد التقليد قول بمحض الهوى والشهوة والآية دلت على ان ذلك حرام

﴿ وذروا ظاهر الاثم وباطنه ﴾ الاثم في اللغة القبيح الضار وفي الشرع كل ما حرمه الله تعالى وهو لم يحرم على العباد إلا ماكان ضارا للافراد في أنفسهم أو أموالهم أو عقولهم أو أعراضهم أو دينهم، أو ضارا بالجماعات في مصالحهم السياسية والاجتماعية والظاهر منه ما فعل علناً والباطن مافعل سرا ، أو الظاهر ماظهر قبحه أو ضرره للعامة وان فعل سرا والباطن مايخفى ذلك فيه إلا عن بعض الخاصة و إن فعل جهرا ، أو الظاهر ما تعلق باعمال الجوارح ، والباطن ماتعلق باعمال القلوب كالنيات والكبر والحسد والتفكير في تدبير المكايد الضارة والشرور ، ويجوز الجمع بين هذه الوجوه . ومما يقتضيه السياق مما يدخل في عموم باطن الاثم على بعض الوجوه ماأهل به لغير الله فهو مما يخفى على غير العلماء بحقيقة التوحيد ومنه الاعتداء في أكل المحرم الذي يباح للمضطر بان يتجاوز فيه حد الضرورة وذلك قوله تعالى (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم) وهذه الآية من جوامع الكلم والاصول الكلية في تحريم الآثام حتى قال ابن الانباري: إن المراد بهذا التعبير ترك الاثم من جميع جهاته أي جميع أنواع الظهور والبطون فيه . وقد خص بعض المفسرين الظاهر بزنا السفاح الذي يكون في المواخير والباطن باتخاذ الاخدان والصديقات في السر ، وكانوا في الجاهلية يستقبحون زنا السر ، ويستقبحون السفاح بالجهر ، وخص بعضهم الظاهر بنكاح الامهات والاخوات وأزواج الآباء والباطن بالزنا . والتخصيص بغير مخصص باطل

﴿ إن الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ تقدم شرح كلمة الاقتراف في تفسير الآية الثالثة من هذا الجزء ومعنى الجملة: ان الذين يكتسبون

جنس الاثم سواء أكان ظاهرا أم باطنا سيلقون جزاء إثمهم بقدر ما كانوا يبالغون في افساد فطرتهم وتدسية أنفسهم بالاصرار عليه ومعاودته المرة بعد المرة كما يدل عليه فعل الكون وصيغة المضارع الدالة على الاستمرار، واما الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون، فاولئك يتوب الله عليهم ويمحو تأثير الاثم من قلوبهم بالحسنات المضادة لها (ان الحسنات يذهبن السيئات) فتعود أنفسهم زكية طاهرة، وتلقى ربها سليمة بارة،

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق ﴾ أمر الله تعالى بالاكل مما ذكر اسمه عليه في مقام بيان ضلال المشركين واضلالهم باكل ما ذكر اسم غيره عليه ثم صرح بالمفهوم المراد من ذلك الامر، ولم يكتف بدلالة السياق على القصر، لشدة العناية بهذا الامر الذي هو من أظهر أعمال الشرك، أي ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح عند تزكيته والحال انه لفسق أهل به لغيره كما قال في آية المحرمات (أو فسقا أهل لغير الله به) فالآية لا تدل على تحريم كل مالم يذكر اسم الله عليه من الذبائح فضلا عن غيرها من الاطعمة خلافا لمن قال بهذا وذاك، لانها خاصة بتلك القرابين الدينية وأمثالها بقرينة السياق كما تقدم شرحه وبدليل تقييد النهي بالجملة الحالية كما حققه السعد التفتازاني، ويؤيده قوله ﴿ وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون ﴾ أي وإن شياطين الانس والجن الذين يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ليوحون الى أوليائهم بالوسوسة والتلقين الخادع الخفي ما يجادلونكم به من الشبهات في هذه المسألة. وان أطعتموهم فيها فجاريتموهم في هذه العبادة الوثنية الباطلة انكم لمشركون مثلهم فان التعبد بالذبح لغير الله شرك كدعاء غير الله وسائر ما يتوجه به من العبادات لغيره وان كان لاجل التوسل بذلك الغير اليه ليقرب المتوسل اليه زلفى ويشفع له عنده كما يفعل أهل الوثنية. ومن المعلوم أن أولياء الشياطين لم يجادلوا أحدا من المؤمنين فيما لم يذكر اسم الله ولا اسم غيره عليه من الذبائح المعتادة التي لا يقصد بها العبادة، وأن

من يأكل هذه الذبائح لا يكون مشركا . وكذلك من يأكل الميتة لا يكون مشركا بل يكون عاصيا ان لم يكن مضطرا وإن كان قد وقع الجدال فى هذه

قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في المعني بقوله (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم) فقال بعضهم عني بذلك شياطين فارس ومن على دينهم من المجوس الى أوليائهم من مردة مشركي قريش يوحون اليهم زخرف القول ليصل الى نبي الله وأصحابه في أكل الميتة . وروى بسنده عن عكرمة في تحريم الميتة قال: قال أوحت فارس الى أوليائها من قريش ان خاصموا محمدا وقولوا له : ان ما ذبحت فهو حلال وما ذبح الله فهو حرام. وفى رواية عنه: كتبت فارس الى مشركي قريش ان محمدا وأصحابه يزعمون انهم يتبعون أمر الله فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكله محمد وأصحابه وأما ما ذبحوا هم فيأكلون ، وذكر انه وقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فنزلت الآية في ذلك . ثم ذكر عن بعض آخر انهم أولوا الآية بوسوسة شياطين الجن لمشركي قريش ماقالوه للمسلمين في روايات أخرى كرواية ابن عباس انهم قالوا لهم : ماقتل ربكم فلا تأكلون وماقتلتم أنتم تأكلونه. فأنزل الله الآية في ذلك أي في أثناء السورة ورجح ابن جرير شمول الآية للقولين في وحي الشياطين لان هذا من فروع قوله تعالى قبله (شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) ثم ذكر خلافهم في المحرم بهذه الاية المراد بما لم يذكر اسم الله عليه فروى عن ابن جريج انه قال: قلت لعطاء ماقوله « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ قال يأمر بذكر اسم الله عليه » قال ينهى عن ذبائح كانت في الجاهلية على الاوثان. ثم ذكر روايات أخرى ورجح شمول الآية لما ذبح للاصنام والالهة وما مات أو ذبحه من لا تحل ذبيحته من المشركين دون المسلمين وأهل الكتاب قال : وذبائح أهل الكتاب ذكية سموا عليها أم لم يسموا لانهم أهل توحيد وأصحاب كتب لله يدينون بأحكامها يذبحون الذبائح بأديانهم كما يذبح المسلم بدينه سمى الله على ذبيحته أم لم يسمه الا ان يكون من ترك تسمية الله على ذبيحته على الدينونة بالتعطيل أو بعبادة شيء سوى الله فيحرم حينئذ أكل ذبيحته اه ملخصا

وقال الرازي في المسألة الاولى من مسائل الاية : « نقل عن عطاء انه قال كل

مالم يذكر اسم الله عليه من طعام وشراب فهو حرام تمسكا بعموم هذه الاية . وأما سائر الفقهاء فانهم أجمعوا على تخصيص هذا العموم بالذبح . ثم اختلفوا فقال مالك كل ما ذبح ولم يذكر عليه اسم الله فهو حرام سواء ترك ذلك الذكر عمدا أو نسيانا وهو قول ابن سيرين وطائفة من المتكلمين . وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى ان ترك الذكر عمدا حرم وان ترك نسيانا حل . وقال الشافعي رحمه الله تعالى يحل متروك التسمية سواء كان عمدا أو خطأ اذا كان الذابح أهلا للذبح. وقد ذكرنا هذه المسألة على الاستقصاء في تفسير قوله (الا ماذكيتم) فلا فائدة في الاعادة

«قال الشافعي رحمه الله هذا النهي مخصوص بما اذا ذبح على اسم النصب . ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى (وانه لفسق) وأجمع المسلمون على انه لا يفسق آكل ذبيحة المسلم الذي ترك التسمية (وثانيها) قوله تعالى (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم) وهذه المناظرة انما كانت في مسألة الميتة : روي ان ناسا من المشركين قالوا للمسلمين ما يقتله الصقر والكلب تأكلونه وما يقتله الله فلا تأكلونه. وعن ابن عباس انهم قالوا تأكلون ما تقتلونه ولا تأكلون ما يقتله الله . فهذه المناظرة مخصوصة بأكل الميتة (وثالثها) قوله تعالى (وان أطعتموهم أنكم لمشركون) وهذا مخصوص بما ذبح على النصب ، يعني لو رضيتم بهذه الذبيحة التي ذبحت على اسم إلاهية الاوثان فقد رضيتم بالاهيتها وذلك يوجب الشرك

« قال الشافعي رحمه الله تعالى : فأول هذه الآية وان كان عاما بحسب هذه الصيغة الا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة علمنا ان المراد من ذلك العموم هو هذا الخصوص . ومما يؤكد هذا المعنى انه تعالى قال (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق) فقد صار هذا النهي مخصوصا بما اذا كان هذا الاكل فسقا . ثم طلبنا في كتاب الله تعالى انه متى يصير فسقا فرأينا هذا الفسق مفسرا في آية أخرى وهو قوله تعالى (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به) فصار الفسق في هذه الاية مفسرا بما أهل به لغير الله واذا كان كذلك كان قوله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) مخصوصاً بما أهل به لغير الله اه

وقد سبق البحث فيما أهل به لغير الله وفي الذبائح والتسمية عليها في تفسير آية المائدة فتراجع في الجزء السادس من التفسير (ص ١٣٦ و ١٧٥ منه)

وقد عد بعض الفقهاء مما يذبح لغير الله ويتناوله التحريم ما ذبح عند قدوم السلطان أو غيره من كبراء الدنيا تكريما له اذا ذكر اسمه عليه عند ذبحه. والتحقيق في هذا المقام أن كل ما يذبح بباعث ديني فهو عبادة والعبادة لا تكون الا لله تعالى فلا ولا يذكر غير اسمه عليه . وما كان لاجل التكريم بالمبالغة في الضيافة فلا يدخل في هذا الباب . ولا يذكر المسلم اسم السلطان أو غيره من الضيوف المكرمين عند الذبح كما يذكر اسم الله تعالى أو كما يهل من يذبحون للاصنام أو للأنبياء والصالحين بأسمائهم عند الذبح . وانما يذكر من يذكره لبيان أن هذا لاجل ضيافته .وقد ذكر هذه المسألة صاحب (الروضة الندية) و بين وجه الخلاف منها وجاء في سياق الكلام بفوائد تتعلق بالمقام فقال :

« وأما الذبح للسلطان وهل هو داخل في عموم ما أهل به لغير الله أم لا فقد أجاب الماتن [1] رحمه الله في بحث له على ذلك بما لفظه: اعلم ان الاصل الحل كما صرحت به العمومات القرآنية والحديثية فلا يحكم بتحريم فرد من الافراد أو نوع من الانواع الا بدليل ينقل ذلك الاصل المعلوم من الشريعة المطهرة مثل تحريم ماذبح على النصب والميتة والمتردية والنطيحة والموقوذة وما أهل به لغير الله ولحم الخنزير وكل شيء خرج من ذلك الاصل بدليل من الكتاب أو السنة المطهرة كتحريم كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير وتحريم الحمر الانسية . وقد ذهب جماعة من أهل العلم الى ان أصول التحريم الكتاب والسنة والاجماع والقياس أو وقوع الامر بالقتل أو النهي عنه أو الاستخباث أو التحريم على الامم السالفة اذا لم ينسخ فلا بد للقائل بتحريم فرد من الافراد أو نوع من الانواع من اندراجه تحت أصل من هذه الاصول فان تعذر عليه ذلك فليس له ان يتقول على الله مالم يقل فان من حرم ما أحل الله كمن حلل ماحرم الله لافرق بينهما وفي ذلك من الاثم ما لا يخفى على عارف ، ولا شك

(١) هو الامام الشوكاني صاحب الدرر البهية

أن البراءة الاصلية بمجردها كافية على ماهو الحق فكيف اذا انضم اليها من العمومات مثل قوله تعالى (قل لاأجد فيما أوحي الي محرما) الآية وقوله (أحل لكم الطيبات) وقوله (والطيبات من الرزق) وقوله (كلوا من طيبات ما رزقناكم) وقوله (هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا) وقوله (يحل لهم الطيبات)

«والحاصل ان الواجب وقف التحريم على المنصوص على حرمته والتحليل على ما عداه وقد صرح بذلك حديث سلمان عند الترمذي ان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال« الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ماحرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه » وأخرج أبو داود عن ابن عباس موقوفا: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا فبعث الله تعالى نبيه وأنزل كتابه فأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وماحرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو ، وتلا (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما) وأخرج الترمذي وأبو داود من حديث قبيصة ابن هلب قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وقد قال له رجل : ان من الطعام طعاما أتحرج منه فقال«ضارعت النصرانية لايختلجن في نفسك شيء»

«اذا تقرر هذا فمسئلة السؤال أعني ماذبح من الانعام لقدوم السلطان والاستدلال على تحريم ذلك بقوله تعالى(وما أهل به لغير الله) فاسد فان الاهلال رفع الصوت للصنم ونحوه وذلك قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزى. كذا قال الزمخشري في الكشاف. والذابح عند قدوم السلطان لايقول عند ذبحه «باسم السلطان» ولوفرض وقوع ذلك كان محرما بلا نزاع ولكنه يقول باسم الله وقد استدل على ذلك بما رواه أحمد ومسلم والنسائي من حديث أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه سمع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول « لعن الله من ذبح لغير الله » الحديث وليس ذلك الاستدلال بصحيح فان الذبح لغير الله كما بينه شراح هذا الحديث من العلماء ان يذبح باسم غير الله كمن ذبح للصنم أو للصليب أو لموسى أو لعيسى أو للكعبة أو نحو ذلك فكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلما أو يهوديا أو نصرانيا كما نص على ذلك الشافعي وأصحابه . قال النووي في شرح مسلم فان

قصد الذابح مع ذلك تعظيم المذبوح له - وكان غير الله تعالى - والعبادة[1] له كان ذلك كفرا فان كان الذابح مسلما قبل ذلك صار بالذبح مرتدا انتهى

«وهذا اذا كان الذبح باسم أمر من تلك الامور لا اذا كان لله وقصد به الاكرام لمن يجوز اكرامه فانه لا وجه لتحريم الذبيحة ههنا كما سلف . وذكر الشيخ ابراهيم المروزي من أصحاب الشافعي ان ما يذبح عند استقبال السلطان تقربا اليه أفتى أهل بخارى بتحريمه لانه مما أهل به لغير الله ، قال الرافعي : هذا انما يذبحونه استبشارا بقدومه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود ومثل هذا لا يوجب التحريم انتهى وهذا هو الصواب . وفي روضة الامام النووي: من ذبح للكعبة تعظيما لها لكونها بيت الله أو لرسول الله لانه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهذا لا يمنع الذبيحة بل تحل[2] قال ومن هذا القبيل الذبح الذي يذبح عند استقبال السلطان استبشارًا بقدومه فانه نازل منزلة الذبح لعقيقة الولادة انتهى وقد أشعر أول كلامه ان من ذبح للسلطان تعظيما له لكونه سلطان الاسلام كان ذلك جائزا مثل الذبح له لاجل الاستبشار بقدومه اذ لا فرق بين ذلك و بين الذبح للكعبة تعظيما لها لكونها بيت الله. وذكر الدوّاري ان من ذبح للجن وقصد به التقرب الى الله تعالى ليصرف عنه شرهم فهو حلال وان قصد الذبح لهم فهو حرام انتهى وهذا يستفاد منه حل ما ذبح لاكرام السلطان بالاولى وذلك هو الحق لما أسلفناه من ان الاصل الحل وان الادلة العامة قد دلت عليه وعدم وجود ناقل عن ذلك الاصل ولا مخصص لذلك العموم والله أعلم» انتهى كلام الشوكاني وفيه دليل على التفرقة بين ما يذبح للتقرب الى غير الله تعالى و بين ما يذبح لغيره من الاستبشار ونحوه كالذبح للعقيقة والوليمة والضيافة ونحوها فالاول يحرم والثاني يحل

«قل ابن حجر المكي في الزواجر «وجعل أصحابنا مما يحرّم الذبيحة ان يقول

---

(١) أي وان لم يسم ذلك عبادة

(٢) المنار : ظاهر هذا مخالف لما نقل قريبا عن شرحه لصحيح مسلم فان لم يمكن ردهذا الى ذاك فليرد برمته لان ذلك هو الاصل الموافق للنصوص الصريحة وهو المعتمد عند الشافعية كما يأتي قريبا عن زواجر ابن حجر والروض لشيخ الاسلام زكريا

باسم الله واسم محمد أو محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بجر اسم الثاني — أو محمد ان عرف النحو فيما يظهر، أو ان يذبح كتابي لكنيسة أو لصليب أو لموسى أو لعيسى ومسلم للكعبة أو لمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أو تقربا لسلطان أو غيره أو للجن فهذا كله يحرم المذبوح وهو كبيرة قال ومعنى ما أهل به لغير الله ماذبح للطواغيت والاصنام قاله جمع، وقال آخرون يعني ماذكر عليه غير اسم الله، قال الفخر الرازي وهذا القول أولى لانه أشد مطابقة للفظ الآية . قال العلماء لو ذبح مسلم ذبيحة وقصد بذبحه التقرب بها الى غير الله تعالى صار مرتدا وذبيحته ذبيحة مرتد » انتهى كلام الزواجر » وقال صاحب الروض «ان المسلم اذا ذبح للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كفر انتهى قال الشوكاني في الدر النضيد وهذا القائل من أئمة الشافعية واذا كان الذبح لسيد الرسل صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كفراً عنده فكيف الذبح لسائر الاموات انتهى

« قال الشيخ الفاضل مفتي الديار النجدية عبد الرحمن بن حسن بن محمد ابن عبد الوهاب بن سليمان بن علي في كتابه [فتح المجيد شرح كتاب التوحيد] في باب ما جاء في الذبح لغير الله : قال شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله في كتابه [اقتضاء الصراط المستقيم] في الكلام على قوله تعالى (وما أهل به لغير الله) الظاهر أنه ما ذبح لغير الله مثل أن يقال هذا ذبيحة لكذا واذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم وقال فيه باسم المسيح ونحوه كما أن ما ذبحناه متقربين به الى الله كان ازكي وأعظم مما ذبحنا للحم وقلنا عليه باسم الله فاذا حرم ماقيل فيه باسم المسيح أو الزهرة فلأن يحرم ماقيل فيه لاجل المسيح أو الزهرة وقصد به ذلك أولى فأن العبادة لغير الله أعظم كفرا من الاستعانة بغير الله، وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقربا اليه بحرم وان قال فيه باسم الله كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الامة الذين قد يتقربون الى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك وان كان هؤلاء مرتدين لاتباح ذبيحتهم بحال لكونه يجتمع في الذبيحة مانعان الاول أنه مما أهل لغير الله به » والثاني انها ذبيحة مرتد. ومن هذا الباب مايفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن ولهذا روي عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم انه نهى عن ذبائح الجن انتهى. قال الزمخشري : كانوا اذا اشتروا دارا أو بنوها أو استخرجوا عينا ذبحوا

ذبيحة خوفا أن تصيبهم الجن فأضيفت اليهم الذبائح لذلك انتهى كلام فتح المجيد. وقد نقل الشوكاني أيضا العبارة المتقدمة لشيخ الاسلام في [رسالته الدر النضيد] واستدل به على تحريم ماذبح لغير الله تعالى سواء لفظ به الذابح عند الذبح أو لم يلفظ وهذا هو الحق »

(تنبيه) السنة الثابتة في التسمية على الطعام والذبح والصيد « هي بسم الله» فقط ومن زاد الرحمن الرحيم فليس له حجة

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئله المشتركين خاصة اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف أو يعبر بما شاء من الالقاب ان شاء . وأننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالباً وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه ، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ القرآن كلام الله لا كلام جبريل ولا محمد عليهما السلام ﴾

(س ١) من الشيخ محمد عريقات وامام مسجد عز الدين في (برنبال) غربية

حضرة صاحب الفضيلة مولانا رشيد الامة ومرشدها الاوحد

أعرض على فضيلتكم مسألة علمية أرجو التكرم بافادتي بالقول الفصل فيها ولكم جزيل الثواب

وهي مسألة المنزل من القرآن هو اللفظ والمعنى أو المعنى فقط وعبر باللفظ محمد عليه السلام أو جبريل كما ذكره الباجوري على الجوهرة عند قول الناظم (ونزه القرآن أي كلامه الخ) مع ترجيحه للقول الاول الذي هو اللفظ والمعنى معبرا عنه بالراجح مع أنهم ذكروا في الاصول من شروط الترجيح التساوي في القوة فلا ترجيح بين

القطعي والظني بل يقدم القطعي اتفاقا. والمتبادر لي أن من المعلوم من الدين بالضرورة أن القرآن كلام الله حقيقة وانه المعجز الاكبر المتحدى به حقيقة كما لا يخفى هذا ونصوص القرآن والسنة الناطقة بنزول القرآن بلفظه ومعناه كثيرة جدا لا تخفى على فضيلتكم كقوله تعالى (ولو جعلناه قرانا أعجميا لقالوا الخ) وقوله (إنا أنزلناه قرآنا عربيا) ومثلها كثير في القرآن وقوله (لا تحرك به لسانك) الخ وقوله(انا سنلقي عليك قولا ثقيلا) الخ وقوله (الله نزل أحسن الحديث الخ) وقوله (إن هذا الا قول البشر سأصليه سقر) الخ وقوله (فانما يسرناه بلسانك) الخ وقوله (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) وقوله (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) وقوله (وانه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الامين *على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين* ثم قال بعدها — ولو نزلناه على بعض الاعجمين *فقرأه عليهم ما كانوا مؤمنين — الخ وقوله (انه لقول فصل *وما هو بالهزل) وقوله(انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون* وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) وتتبع الآيات يطول ذكره ولا يخفى على فضيلتكم ، ومن السنة حديث متواتر ألا وهو قوله عليه السلام « أنزل القرآن على سبعة أحرف » فهل يعد ذلك القول بالقول الثاني والثالث كفراً كما هو ظني أم لا؟ وهل القول بهما الآن يعد كفراً قطعا كما هو اعتقادي أم لا ؟ أرجو التكرم بالقول الشافي ، والجواب الكافي بالمنار الاغر في أقرب فرصة لا برحتم ملجأ للسائلين ، ونورا مبينا للمستضيئين ، آمين .

(الامضاء)

[المنار]ورد هذا السؤال منذ سنة ونصف وطال الامد على نشره والجواب عنه فأعاده صاحبه بالعبارة الآتية في أوائل هذا العام اذ كنا في سورية وهذا نصه :

فضيلة امام العصر الوحيد ، مولانا الاستاذ السيد محمد رشيد ، نفع الله به الأمة، وكشف به كل غمة آمين

هل القرآن كلام الله أو كلام محمد أو كلام جبريل ؟ واذا كان المقطوع به المعلوم من الدين بالضرورة أن القرآن كلام الله تعالى فما الداعي للخلاف الذي ذكره السيوطي في الاتقان بان المنزل من القران هو اللفظ والمعنى أو المعنى فقط وعبر عنه محمد عليه السلام باللفظ العربي أو المعنى فقط أيضا وعبر عنه جبريل باللفظ

العربي ، وكذا ذكره الباجوري على الجوهرة مرجحا الأول والأمير على الجوهرة أيضا والخضري في مقدمة التفسير والألوسي في تفسير (نزل به الروح الأمين على قلبك) الاية فهل هذا الخلاف له أصل مقبول معقول منقول أو انه مدسوس على أهل الملة ؟ وكيف يكون له أصل مع أن اعتقاد ظاهره كفر ؟ هذه مسالة من أهم أصول الدين ولا تقليد في الاصول فما بقي الا أن تقوموا بتحقيق الحق وازالة حجب الحيرة عنها وتتكرموا بافادتنا بالمنار أو بالبريد ولكم الشكر لا برحتم عضد الحق ونوال السائلين امين

(ج) ان الذي ندين الله تعالى به عن علم يقيني راسخ هو ان هذا القرآن العربي المكتوب في المصاحب المقروء بالالسنة باللغة العربية هو كلام الله تعالى المعجز للبشر ولغير البشر من الخلق وانه ليس لجبريل روح القدس منه الا تبليغه عن الله عز وجل لخاتم الرسل عليه الصلاة والسلام كما ان الرسول (ص) ليس له منه إلا تبليغه عن الله تعالى لمن أرسل اليهم . فجبريل عليه السلام تلقاه من الله عز وجل بالصفة التي تليق به تعالى ولا يعلمها من خلقه الا جبريل ، ومحمد (ص) تلقاه من جبريل بالوحي الذي لا يعرف كنهه الا الرسل الذين تلقوا مثله عن جبريل . والصحابة سمعوه من النبي (ص) كما سمعه منهم التابعون ومن تبعهم الى عصرنا هذا وكما يسمعه بعضنا من بعض بأصواتنا البشرية لا فرق بين قراءتنا له وقراءة من قبلنا الا بما نعلمه من التفاوت في التجويد وحسن الاداء

وانه ليعسر تعريف الكلام بحد جامع مانع تعرف به حقيقته منه كما يعسر تحديد مثله من الحقائق المعلومة بالضرورة . ومما يحسن ان يقال في تعريفه في الجملة انه صفة من صفات العالم وشأن من شؤونه يتمثل به علمه في نفسه وفي الخارج ، وما يتمثل به العلم في الخارج من الكلام يصل به الى غير صاحبه فيعلم به من يصل اليه من علم ذي الكلام ما تمثل له بصوت وحرف أو بكتابة ورسم أو بغير ذلك . فالانسان منا يتكلم في نفسه فيهيئ فيها ما يريد ان يقوله لزيد أو عمرو ، وينظم الشعر ثم ينطق به أو يكتبه ثم يقرأه ، وربما كتب شيئا ولم يقرأه . واذ نطق بالكلام المتمثل في نفسه رسم نطقه في الهواء بصورة أو صفة غير التي يرسم بها في الصحف فمن سمعه أدرك بسمعه مما رسم في الهواء عين ما هو مرسوم في لوح نفسه بصورة أخرى وكذلك

من رآه في الصحيفة يدرك مما رسم فيها غيره ما قام بنفس المتكلم وتمثل فيها من ذلك

وقد اخترع البشر في العصر الاخير وسائل لاداء الكلام وتبليغه لم يكن يعرفها ولا يعقلها أهل العصور السابقة كالتلغراف السلكي والتلغراف الهوائي أو اللاسلكي وكل منهما مظهر من مظاهر الكلام النفسي ووسائل اداته ويسمي كلاما حقيقيا لا مجازيا . وينسب كل كلام الى من صدر عنه وكان مجلى كلامه النفسي، فالجملة من كلام زيد من الناس يتناقلها الناس بالسنتهم وأقلامهم وبآلات التلغراف والتلفون وكل منهم يقول إنها كلام زيد . فالكلام ما يتمثل به علم العالم لنفسه أو لغيره واختلاف صفة التمثيل للنفس ولغير النفس لا تمنع اطلاق اسم الكلام على كل منهما حقيقة ، فمن يرى في القرطاس * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * يقول : إن هذا كلام امرئ القيس ، ومن يسمع ذلك من لسان أي انسان يقول ذلك . ولم يقل أحد من العرب في هذا القول الذي كتب وعلق على الكعبة ثم كتب في الصحف وقرأه الناس إن لفظه المرسوم في الصحيفة هو كلام الرسام وإن الذي أنشد على الناس منه هو كلام المنشد وإن معناه لامرئ القيس فقط أو ان ما تمثل من هذا النظم في نفس امرئ القيس هو شعره وما نقرأه في الكتب أو من حفظنا لمعلقته هو كلامنا ، ولا إن هذا كلامه مجازاً وذلك كلامه حقيقة ، بل اجمعوا على أن هذه القصيدة كلامه وأنه ليس لرواتها بالقول والكتابة حظ منها الا النقل لكلام غيرهم

واذا قدر البشر على تمثيل كلامهم النفسي بعدة مظاهر لايختلف مدلولها عن مدلول ما في انفسهم فالله تعالى اقدر منهم على ابلاغ كلامه النفسي لرسله من الملائكة والناس بما يليق باستعداد كل منهم فلا غرو من ان يكون لوحيه للملائكة صفة غير صفة وحيه للرسل من البشر فيما يكلمهم به بغير واسطة الملك وان يكون لما يسمعه النبي من الملك صفة غير صفة ما يسمعه الملك من الرب سبحانه وتعالى ، ولكن الكلام واحد في جميع مظاهره لايختلف باختلاف طرق أداته وتبليغه كما نعرفه في الكلام المسموع بالاذان والمقروء في المصحف والمأخوذ من آلة التلغراف السلكي أو الهوائي ومثله المرسوم في الهواء أو ما تكيف به الهواء ، وبهذا المثال يظهر للمتأمل أن تجلي كلام الله تعالى في الالسنة والصحف والهواء وآلات التلغراف وفي اللوح المحفوظ وفي أنفس

الملائكة والبشر لا يخرجه عن كونه كلامه تعالى ولا يقتضي ان تكون صفة الكلام النفسية له تبارك وتعالى مشابهة لصفة الكلام في أنفس البشر أو غيرهم من خلقه تعالى ، ولا أن يكون تكليمه الملائكة ولموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كتكليم بعضنا لبعض ولكن مؤداه واحد فالذي نقرأه أو نكتبه في المصاحف هو عين ما نزل به الروح الامين على قلب محمد (ص) فتلقاه عنه بهذه اللغة العربية وهذا الاسلوب المعجز الذي يعجز عليه الصلاة والسلام كغيره من البشر عن مثله بمقتضى ملكته العربية، ولذلك نرى أسلوبه غير أسلوب الحديث ونظمه غير نظمه بل يكثر في الحديث من الالفاظ المترادفة والصيغ المفردة غير ما في القران كلفظ «عرفة» وهو لم يذكر في القرآن الا بلفظ «عرفات» ولفظ الصوم وانما ذكر في القرآن لفظ « الصيام »

ولو كان ما تلقاه النبي (ص) من كلام الله تعالى هو معاني القرآن دون عبارته لكان القرآن كلامه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لا كلام الله تعالى ، لان الكلام هو العبارة التي تتجلى فيها المعاني من علم المتكلم ، ومن أخذ عن غيره علما من العلوم ففهم منه القواعد والمسائل ثم كتب في ذلك كتابا فان ما في الكتاب من الكلام ينسب الى كاتبه لا الى استاذه الذي تلقى عنه تلك المعاني التي دونها في كتابه ، والقرآن كلام الله تعالى نسب اليه في آيات كثيرة كقوله (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وفي أحاديث متعددة وأجمع على ذلك المسلمون وانما اختلف المتكلمون منهم في نظريات فلسفية في تعريف الكلام النفسي واللفظي وفي كونه من الصفات التي تقوم بذات الله تعالى أو التي لا تقوم بها تولد منها شبهات يصادم بعضها بعضا وكل ما خالف منها ما فهمه جمهور السلف الصالح من نصوص الكتاب والسنة فهو مردود على أهله بالنقل القطعي الذي لا مصادم له من البرهان العقلي .

وأول من أحدث هذه النظريات في الاسلام الجعد بن درهم وجهم بن صفوان ونصرت المعتزلة نظريات جهم وانخدع ببعضها كثير من أهل السنة وكان الامام أبو الحسن الاشعري من نظار المعتزلة ثم رجع الى مذهب أهل السنة ولكنه لم يترك

نظرياتهم المخالفة للسلف كلها دفعة واحدة ومذهبه في مسألة الكلام الالهي لم يكن عين مذهب السلف ولا غيره من مذهب المعتزلة والجهمية وقد تبعه فيها كثير من كبار النظار كالقاضي أبي بكر الباقلاني وأشهر المصنفين في الكلام من أتباعه وله عبارة في ذلك اتخذوها أصلا وفرعوا عليها ، لذلك صار ينقلها علماء العقائد والمفسرون وشراح الاحاديث في كتبهم ، ولا شك في كون بعض تلك البدع تعد خروجاً من الملة وكون بعضها يستلزم ذلك ولكن التحقيق عند علماء الاصول والكلام ان لازم المذهب ليس بمذهب ، وان أكثر أصحاب تلك النظريات المخالفة لظواهر نصوص الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح لم يقولوا بها الا عن شبهات عرضت لهم أو لغيرهم من المنكرين للاسلام فأرادوا أن يقيموا حجة الاسلام بما قالوه بحسب اجتهادهم مع اذعانهم لاحكامه وعملهم به فكيف يقدم أحد على تكفيرهم مع ذلك.

وقد رجع أشهر محققي المتكلمين من الاشاعرة في مسألة الكلام والقرآن والصفات الى مذهب السلف في أواخر أعمارهم ومنهم من ارجع كلام مخالفي السلف من أئمتهم الى وفاق واليك ما قاله في مسألة الكلام علامتهم العضد صاحب كتاب المواقف الشهير ونقله عنه في شرحه له السيد الجرجاني قال :

« واعلم أن للمصنف مقالة مفردة في تحقيق كلام الله تعالى على وفق ما أشار اليه في خطبة الكتاب ومحصولها أن لفظ المعنى يطلق تارة على مدلول اللفظ وأخرى على الامر القائم بالغير ، فالشيخ الاشعري لما قال الكلام هو المعنى النفسي فهم الاصحاب منه أن مراده مدلول اللفظ وحده وهو القديم عنده ، وأما العبارات فانما تسمى كلاماً مجازا لدلالتها على ماهو كلام حقيقي حتى صرحوا بان الالفاظ حادثة على مذهبه أيضاً ، لكنها ليست كلامه حقيقة. وهذا الذي فهموه من كلام الشيخ له لوازم كثيرة فاسدة كعدم اكفار من أنكر كلامية ما بين دفتي المصحف مع أنه علم من الدين ضرورة كونه كلام الله تعالى حقيقة ، وكعدم المعارضة والتحدي بكلام الله الحقيقي ، وكعدم كون المقروء والمحفوظ كلامه حقيقة - إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتفطن في الاحكام الدينية فوجب حمل كلام الشيخ على أنه أراد به المعنى الثاني فيكون الكلام النفسي عنده أمرا شاملا للفظ والمعنى جميعاً قائما بذات الله تعالى وهو

مكتوب في المصاحف مقروء بالالسن محفوظ في الصدور ، وهو غير الكتابة والقراءة والحفظ الحادثة . وما يقال من أن الحروف والالفاظ مترتبة متعاقبة فجوابه أن ذلك الترتب انما هو في التلفظ بسبب عدم مساعدة الآلة فالتلفظ حادث والادلة الدالة على الحدوث يجب حملها على حدوث اللفظ دون حدوث الملفوظ جمعاً بين الادلة. وهذا الذي ذكرناه وان كان مخالفاً لما عليه متأخرو أصحابنا الا أنه بعد التأمل تعرف حقيقته. تم كلامه

(قال السيد) « وهذا المحمل لكلام الشيخ (أي الاشعري) مما اختاره الشيخ محمد الشهرستاني في كتابه المسمى بنهاية الاقدام ولا شبهة في انه اقرب الى الاحكام الظاهرية المنسوبة الى قواعد الملة اه فالسيد الجرجاني قد ارتضاه أيضاً »

وقول السيد في مقدمة العبارة « على وفق ما أشار اليه في خطبة الكتاب » يعني به قول صاحب المواقف في الكلام على رسالة النبي (ص) من الخطبة مانصه « وانزل معه كتابا عربيا مبينا ، فأكمل لعباده دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الاسلام دينا ، كتابا كريما ، وقرآنا قديما ، ذا غايات ومواقف ، محفوظا في القلوب مقروءا بالالسن مكتوبا في المصاحف ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يتطرق اليه نسخ ولا تحريف في أصله او وصفه »

قال السيد الشارح في شرح ماقبل الجملتين الاخيرتين من هذه الاوصاف والنعوت : وصف القرآن بالقدم ثم صرح بما يدل على انه هذه العبارة المنظومة كما هو مذهب السلف حيث قال ان الحفظ والقراءة والكتابة حادثة لكن متعلقها اعني المحفوظ والمقروء والمكتوب قديم ، وما يتوهم من ان ترتب الكلمات والحروف وعروض الانتهاء والوقوف مما يدل على الحدوث فباطل لان ذلك لقصور في آلات القراءة . واما ما اشتهر عن الشيخ ابي الحسن الاشعري من ان القديم معنى قائم بذاته قد عبر عنه بهذه العبارات الحادثة فقد قيل انه غلط من الناقل منشأه اشتراك لفظ « المعنى » بين مايقابل اللفظ وبين مايقوم بغيره . وسيزداد ذلك وضوحا فيما بعد ان شاء الله تعالى » اه

ونقول اذا كان ماذكره « العلامة العضد » ووافقه عليه « السيد السند » هو مراد الشيخ الاشعري من عبارته المشهورة - التي لايبعد ظاهرها الذي تمسك به

جمهور أتباعه عن نظريات أصحابه القدماء من المعتزلة وغيرهم — فبها ونعمت والا فهي مردودة عليه وعلى كل من خالف السلف الصالح من أتباعه وغيرهم عملا بقوله (ص) في الحديث المتفق عليه « من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » ولا يغترن أحد بتلك النظريات التي بنى عليها الجهمية والمعتزلة وبعض الاشاعرة والكلابية وغيرهم أقوالهم في الكلام النفسي واللفظي وجعل بعضه حقيقيا وبعضه مجازيا ووصف بعضه بالقديم وبعضه بالحادث أو تسميته مخلوقا — فكل ذلك مبني على الهرب من وصف الخالق بصفات المخلوقين لئلا يكونوا مشبهين له بخلقه ، ومذهب السلف مبني على وصفه تعالى بكل ماوصف به نفسه ووصفه به رسوله (ص) واسناد ما اسنده اليه كلامه وكلام رسوله مع الجزم بالتنزيه وكونه ليس كمثله شيء كما نزه نفسه وقامت البراهين العقلية على تنزيهه ولاتنافي بين الامرين ولاتناقض. على ان الاشاعرة قد اجمعوا بعد تفلسف بعضهم في الكلام النفسي واللفظي بما تفلسفوا به على ماهو معلوم من الدين بالضرورة من ان مابين دفتي المصحف كلام الله تعالى حقيقة ليس للنبي (ص) فيه كسب وانما هو مبلغ له عن ربه عز وجل كما أمره بقوله (ياأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته)

وجملة القول ان ما نزل به الروح الامين من كلام الله تعالى على قلب محمد (ص) هو هذا القرآن العربي ذو الاسلوب الذى علا جميع اساليب العرب فبلغه (ص) كما تلقاه ووعاه بدون أدنى تصرف فيه ولو تصرف فيه ادنى تصرف لذكر مضمون الامر دون التلفظ بفعل الامر الذي خوطب به في مثل قوله تعالى (قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي أنما الهكم اله واحد) وقوله عز وجل (قل انما امرت أن اعبد رب هذه البلدة التي حرمها) فلم يذكر لفظ « قل » في مثل هذه الآيات وهو كثير — ولو تصرف فيه ادنى تصرف لما ذكر في أثناء بعض السور ما ألقي اليه على طريقة الاستطراد الذي اقتضته الحال في وقت تبليغ السورة فكان كالاجنبي منها كقوله تعالى في سورة القيامة في سياق الكلام عن حال الانسان وشأنه في القيامة (لاتحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه * فاذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم ان علينا بيانه) فهذه الآيات اجنبية عما قبلها وعما بعدها خوطب

بها النبي (ص) في اثناء وحي السورة اليه لانه انشأ يقرأ بلسانه ما كان يلقى اليه قبل ان يتم وحيه خوفا ان ينسى شيئاً منه فخوطب بهذه الآيات على طريقة الالتفات الاستطرادي ليطمئن و يعلم ان الله تعالى عصمه من نسيان شئ من القرآن ، وهو في معنى قوله تعالى في سورة طه (ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه) ولو كان الذي ألقي اليه المعنى دون العبارة لكان تدبره واطالة الفكر فيه مع السكوت هو الذي يثبته في ذهنه بحسب العادة لا تحريك اللسان بالعبارة المكتسبة التي يؤديه هو بها فتحريك لسانه قبل نهي الله تعالى اياه عنه دليل على أنه كان يلقي اليه المعنى في العبارة المخصوصة فحرك لسانه بقراءة العبارة لئلا ينسى شيئاً منها فنهاه تعالى عن ذلك واخبره انه ضمن له العصمة من ضياع شيء منه

وقد صح في التفسير المأثور أن المراد بقوله تعالى « قرآنه » مصدر قرأ اي قراءته : اخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عباس في تفسير الآية قال : كان رسول الله (ص) يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة ان يتفلت منه يريد ان يحفظه فأنزل الله (لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه) قال يقول ان علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرؤه (فاذا قرأناه) يقول اذا انزلناه عليك (فاتبع قرآنه) فاسمع له وانصت (ثم ان علينا بيانه) ان نبينه بلسانك ، وفي لفظ علينا ان تقرأه ، فكان رسول الله بعد ذلك اذا اتاه جبريل أطرق — وفي لفظ استمع — فاذا ذهب قرأ كما وعده الله عز وجل. وفي رواية: قرأ كما أقرأه. ولو لم يرد في المسألة الا هذه الآية وتفسيرها المأثور في الصحيح لكفى بها إثباتا لكون النبي (ص) ليس له من عبارة القرآن الا حفظها كما اوحيت اليه وتبليغها كما حفظها معصوما من الخطأ والنسيان فيها ، فكيف والآيات الكريمة والاحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة ومنها ما ذكره السائل في سؤاله الاول

وانا لا نرى فائدة ما في شرح تلك النظريات والشبهات الباطلة التي ترتب عليها ذلك القول الباطل الذي جزم السائل بكون كفرا ولكننا نذكر السائل والقارئ بان أهل الحق يتحامون التكفير ما أمكن ويشترطون في تكفير المخالف للنصوص أن لا يكون مجتهدا متأولا ، وانا ننقل هنا نبذة نافعة في هذه المسألة من كتاب (موافقة صريح

المعقول لصحيح المنقول) لشيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية ، قال في أثناء شرح مسألة الكلام الالهي واقوال الفرق فيها وعبارة الاشعري التي تقدم تأويل صاحب المواقف لها ونصر القاضي ابي بكر الباقلاني الشهير له فيما فهمه هو والجمهور منها مانصه:

«وقال الشيخ أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي في كتابه الذي سماه [الفصول في الاصول] عن الائمة الفحول] وذكر اثنى عشر اماما — الشافعي ومالك والثوري وأحمد وابن عيينه وابن المبارك والاوزاعي والليث بن سعد واسحق بن راهويه والبخاري وابو زرعة وابو حاتم قال فيه: سمعت الامام ابا منصور محمد بن احمد يقول سمعت الامام ابا بكر عبد الله بن احمد يقول سمعت الشيخ أبا حامد الاسفرايني يقول: مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الامصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر، والقرآن حمله جبريل مسموعا من الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل والصحابة سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي نتلوه نحن بألسنتنا وفيما بين الدفتين وما في صدورنا مسموعا ومكتوبا ومحفوظا ومنقوشا وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر عليه لعائن الله والملائكة والناس أجمعين

«قال الشيخ أبو الحسن وكان الشيخ أبو حامد (أي الاسفرايني) شديد الانكار على الباقلاني وأصحاب الكلام قال ولم تزل الائمة الشافعية يأنفون ويستنكفون أن يُنسبوا الى الاشعري ويتبرؤن مما بنى الاشعري مذهبه عليه، وينهون أصحابهم وأحبابهم عن الحوم حواليه؛ على ما سمعت (من) عدة من المشايخ والائمة منهم الحافظ المؤتمن بن احمد ابن علي الساجي يقول سمعنا جماعة من المشايخ الثقات قالوا كان الشيخ أبو حامد أحمد ابن أبي طاهر الاسفرايني امام الائمة الذي طبق الارض علما وأصحابا اذا سعى الى الجمعة من قطيعته الى جامع المنصور يدخل الرباط المعروف بالزوري المحاذي للجامع ويقبل على من حضر ويقول اشهدوا عليّ بأن القرآن كلام الله غير مخلوق كما قال ابن حنبل لا كما يقوله الباقلاني. وتكرر ذلك منه جمعا فقيل له في ذلك فقال حتى ينتشر في الناس وفي أهل الصلاح ويشيع الخبر في أهل البلاد أني بريء مما هم عليه يعني الاشعرية وبريء من مذهب أبي بكر البقلاني فان جماعة من المتفقهة الغرباء

يدخلون على الباقلاني خفيـة و يقرؤن عليـه فيفتنون بمذهبه فاذا رجعوا الى بلادهم أظهروا بدعتهم لامحالة فيظن ظان أنهم منى تعلموه وانا ما قتلته وانا بريء من مذهب الباقلاني وعقيدته *

«قال الشيخ أبو الحسن وسمعت شيخي الامام أبا منصور الفقيه الاصبهاني يقول سمعت شيخنا الامام أبا بكر لزاذقاني يقول كنت في درس الشيخ أبي حامد الاسفرايني وكان ينهى أصحابه عن الكلام وعن الدخول على الباقلاني فبلغـه أن نفرا من أصحابه يدخلون عليه خفية لقراءة الكلام فظن اني معهم ومنهم وذكر قصة قال فى آخرها ان الشيخ أبا حامد قال لى يابني قد بلغنى أنك تدخل عل هذا الرجل يعنى الباقلاني فاياك واياه فانه مبتدع يدعو الناس الى الضلالة والا فلا تحضر مجلسى فقلت أنا عائذ بالله مما قيل وتائب اليه واشهدوا علىّ اني لا أدخل اليه * قال أبو الحسن وسمعت الفقيه الامام أبا منصور سعد بن علي العجلي يقول سمعت عدة من المشايخ والائمة ببغداد — أظن الشيخ أبا أسحق الشيرازى أحدهم — قالوا كان أبو بكر الباقلاني يخرج الى الحمام متبرقعا خوفا من الشيخ أبي حامد الاسفرايني * قال ابو الحسن ومعروف شدة الشيخ أبي حامد على أهل الكلام حتى ميز أصول فقه الشافعي من أصول فقه الاشعري وعلقه عنه أبو بكر الزاذقاني وهو عندي و به اقتدى الشيخ أبو اسحق في كتابه (اللمع والتبصرة) حتى لو وافق قول الاشعري وجها لاصحابنا ميزه وقال هو قول بعض أصحابنا و به قالت الاشعرية ولم يعدهم من أصحاب الشافعي استنكفوا منهم ومن مذهبهم في أصول الفقه فضلا عن أصول الدين

(قلت) «هذا المنقول عن الشيخ أبي حامد وأمثاله من أئمة أصحاب الشافعي أصحاب الوجوه معروف في كتبهم المصنفة في أصول الفقه وغيرها وقد ذكر ذلك الشيخ أبو حامد والقاضي أبو الطيب وأبو اسحق الشيرازي وغير واحد بينوا مخالفة الشافعي وغيره من الائمة لقول ابن كلاب والاشعرى في مسئلة الكلام التي امتاز بها ابن كلاب والاشعري عن غيرهما والافسائر المسائل ليس لابن كلاب والاشعرى بها اختصاص بل ما قالاه قاله غيرهما اما من أهل السنة واما من غيرهم بخلاف ماقاله ابن كلاب في مسئلة الكلام واتبعه عليه الاشعري فانه لم يسبق ابن كلاب الى ذلك أحد

ولا وافقه عليه أحد من رؤوس الطوائف وأصله في ذلك هي مسئلة الصفات الاختيارية ونحوها من الامور المتعلقة بمشيئته وقدرته هل تقوم بذاته أم لا. وكان السلف والائمة يثبتون مايقوم بذاته من الصفات والافعال مطلقا والجهمية من المعتزلة وغيرهم تنكر ذلك مطلقا فوافق ابن كلاب السلف والائمة في اثبات الصفات ووافق الجهمية في نفي قيام الافعال به ومايتعلق بمشيئته وقدرته ولهذا وغيره تكلم الناس فيمن اتبعه كالقلانسي والاشعري ونحوهما بأن في أقوالهم بقايا من الاعتزال وهذه البقايا أصلها هو الاستدلال على حدوث العالم بطريقة الحركات فان هذا الاصل هو الذي أوقع المعتزلة في نفي الصفات والافعال. وقد ذكر الاشعري في رسالته الى أهل الثغر بباب الابواب أنه طريق مبتدع في دين الرسل محرم عندهم وكذلك غير الاشعري كالخطابي وأمثاله يذكرون ذلك لكن مع هذا قد وافق ابن كلاب فيما يضاهيه «وهذا الذي نقلوه من انكار ابي حامد وغيره على القاضي أبي بكر بن الباقلاني هو بسبب هذا الاصل وجرى له بسبب ذلك أمور أخرى وقام عليه الشيخ أبو حامد والشيخ أبو عبد الله بن حامد وغيرهما من العلماء من أهل العراق وخراسان والشام وأهل الحجاز ومصر مع ما كان فيه من الفضائل العظيمة والمحاسن الكثيرة والرد على الزنادقة والملحدين وأهل البدع حتى انه لم يكن في المنتسبين الى ابن كلاب والاشعري أجل منه ولا أحسن تصنيفا وبسببه انتشر هذا القول، وكان منتسبا الى الامام احمد وأهل السنة حتى كان يكتب في بعض اجوبته محمد بن الطيب الحنبلي وكان بينه وبين ابي الحسن التميمي وأهل بيته من التميميين من الموالاة والمصافاة ماهو معروف كما تقدم ذكر ذلك ولهذا غلب على التميميين موافقته في اصوله ولما صنف ابو بكر البيهقي كتابه في مناقب الامام احمد وابو بكر البيهقي موافق لابن الباقلاني في أصوله ذكر ابو بكر اعتقاد احمد الذي صنفه أبو الفضل عبد الواحد بن أبي الحسن التميمي وهو مشابه لاصول القاضي أبي بكر وقد حكى عنه أنه كان اذا درس مسئلة الكلام على أصول ابن كلاب والاشعري يقول هذا الذي ذكره أبو الحسن أشرحه لكم وأنا لم تتبين لي هذه المسئلة فكان يحكي عنه الوقف فيها اذ له في عدة من المسائل قولان وأكثر كما تنطق بذلك كتبه ومع هذا

تكلم فيه أهل العلم وفي طريقته التي أصلها هذه المسئلة بما يطول وصفه كما تكلم من قبل هؤلاء في ابن كلاب ومن وافقه حتى ذكر أبو اسمعيل الانصاري قال: سمعت أحمد بن أبي رافع وخلقا يذكرون شدة أبي حامد يعني الاسفرايني على ابن الباقلاني قال وأنا بلغت رسالة أبي سعد الى ابنه سالم ببغداد ؟ ان كنت تريد ان ترجع الى هراة فلا تقرب الباقلاني. قال: وسمعت الحسين بن أبي أمامة المالكي يقول سمعت أبي يقول لعن الله أبا ذر فانه أول من حمل الكلام الى الحرم وأول من بثه في المغاربة

قال ابن تيمية (قلت) أبو ذر فيه من العلم والدين والمعرفة بالحديث والسنة وانتصابه لرواية البخاري عن شيوخه الثلاثة وغير ذلك من المحاسن والفضائل ما هو معروف به وكان قد قدم الى بغداد من هراة فاخذ طريقة ابن الباقلاني وحملها الى الحرم فتكلم فيه وفي طريقته من تكلم كابي نصر السجزي وأبي القاسم سعد بن علي الزنجاني وأمثالهما من أكابر أهل العلم والدين بما ليس هذا موضعه وهو ممن يرجح طريقة الثقفي والضبعي على طريقة ابن خزيمة وامثاله من أهل الحديث . وأهل المغرب كانوا يحجون فيجتمعون به و يأخذون عنه الحديث وهذه الطريقة ويدلهم على أصلها فيرحل منهم من يرحل الى المشرق كما رحل أبو الوليد الباجي فأخذ طريقة أبي جعفر السمناني الحنفي صاحب القاضي ابي بكر ورحل بعده القاضي أبو بكر بن العربي فأخذ طريقة أبي المعالي[1] في الارشاد

«ثم انه مامن هؤلاء الا من له في الاسلام مساع مشكورة ، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الالحاد والبدع والانتصار لكثير من أهل السنة والدين مالا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيه بصدق وعدل وانصاف، لكن لما التبس عليهم هذا الاصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة وهم فضلاء عقلاء احتاجوا الى طرده والتزام لوازمه فلزمهم بسبب ذلك من الاقوال ما أنكرها المسلمون من أهل العلم والدين وصار الناس بسبب ذلك منهم من يعظمهم لما لهم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الامور أوسطها. وهذا

(١) هو امام الحرمين شيخ أبي حامد الغزالي شيخ ابن العربي

ليس مخصوصا بهؤلاء بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين والله تعالى يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات، ويتجاوز لهم عن السيئات، (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم)

« ولا ريب ان من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخطأ في بعض ذلك فالله يغفر له خطأه تحقيقا للدعاء الذي استجابه الله لنبيه والمؤمنين حيث قالوا (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) ومن اتبع ظنه وهواه فأخذ يشنع على من خالفه بما وقع فيه من خطأ ظنه صوابا بعد اجتهاده وهي من البدع المخالفة للسنة فانه يلزمه نظير ذلك أو أعظم أو أصغر فيمن يعظمه هو من أصحابه فقلّ من يسلم من مثل ذلك في المتأخرين لكثرة الاشتباه والاضطراب وبعد الناس عن نور النبوة وشمس الرسالة الذي به يحصل الهدى والصواب، ويزول عن القلوب الشك والارتياب، ولهذا تجد كثيرا من المتأخرين من علماء الطوائف يتناقضون في مثل هذه الاصول ولوازمها فيقولون القول الموافق للسنة وينفون ما هو من لوازمه غير ظانين أنه ينافيه ويقولون بملزومات القول المنافي الذي ينافي ما أثبتوه من السنة وربما كفروا من خالفهم في القول المنافي وملزوماته فيكون مضمون قولهم أن يقولوا قولا ويكفروا من يقوله !! وهذا يوجد لكثير منهم في الحال الواحد لعدم تفطنه لتناقض القولين ويوجد في الحالين لاختلاف نظره واجتهاده . وسبب ذلك ما أوقعه اهل الالحاد والضلال من الالفاظ المجملة التي يظن الظان انه لا يدخل فيها الا الحق والباطل، فمن لم ينقب عنها أو يستفصل المتكلم بها كما كان السلف والائمة يفعلونه صار متناقضا أو مبتدعا ضالا من حيث لا يشعر، وكثير ممن تكلم بالالفاظ المجملة المبتدعة كلفظ الجسم والجوهر والعرض وحلول الحوادث ونحو ذلك كانوا يظنون أنهم ينصرون الاسلام بهذه الطريقة وانهم بذلك يثبتون معرفة الله وتصديق رسله، فوقع من الخطأ والضلال ما أوجب ذلك. وهذه حال أهل البدع كالخوارج وامثالهم فان البدعة لا تكون حقا محضا موافقا للسنة اذ لو كانت كذلك لم تكن باطلا. ولا تكون باطلا محضا لا حق فيه اذ لو كانت كذلك لم تخف على الناس، ولكن تشتمل على حق وباطل فيكون صاحبها قد لبس الحق بالباطل، اما مخطئا غالطا واما متعمدا

لنفاق فيه والحاد كما قال تعالى (ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم) فأخبر ان المنافقين لوخرجوا في جيش المسلمين مازادوهم الا خبالا ولكانوا يسعون بينهم مسرعين يطلبون لهم الفتنة وفي المؤمنين من يقبل منهم ويستجيب لهم إما لظن مخطئ أولنوع من الهوى اولمجموعهما، فان المؤمن انما يدخل عليه الشيطان بنوع من الظن واتباع هواه

«ولهذا جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ان الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات» ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات وقد أمر المؤمنين أن يقولوا في صلاتهم (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فالمغضوب عليهم عرفوا الحق ولم يعملوا به والضالون عبدوا الله بلا علم، ولهذا نزه الله نبيه عن الامرين بقوله (والنجم اذا هوى * ماضل صاحبكم وماغوى) وقال تعالى (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولي الايدي والابصار) اه كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وهو فصل الخطاب في هذا الباب

ترجمة الطبيب محمد توفيق صدقي

نعي الينا صديقنا الصفي الوفي الطبيب النطاسي محمد توفيق صدقي، ونحن في دمشق الشام بعيدين عن إدارة المنار واشتغال عنها بأعمال المؤتمر السوري الذي اختارنا لرياسته هنالك فكتبنا للمنار نبذة وجيزة في تأبينه نشرت في الجزء الثامن منه ووعدنا بكتابة ترجمة مفصلة له. وبعد عودتنا الى مصر اطلعنا على ترجمة تاريخية له في العدد السادس من المجلة الطبية الذى صدر في شهر مايو سنة ١٩٢٠ فرأينا ان ننقلها في المنار ثم نقفي عليها بما نعلم من ترجمة العلمية الاصلاحية وهذا نص ما نشر في المجلة الطبية

المرحوم الدكتور محمد توفيق صدقي

«ننعي اليوم الى أهل الادب والطب سواء رجلا من أندر الرجال وعالما من العلماء الذين قضوا حياتهم في مزج الطب بالعلم الشرعي وتطبيق المبادئ الاسلامية

على أصول العلم الحديث الا وهو المغفور له الدكتور محمد توفيق صدقي الطبيب بمصلحة السجون بالقاهرة . ولد المرحوم في ٢٤ شوال سنة ١٢٩٨ هجرية الموافق ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ فلما بلغ أشده [1] دخل المكتب فاستظهر القرآن الكريم وذلك هو السر في ميله الى الابحاث الدينية وتطبيقها على مباديء العلوم العصرية وفي انطلاق لسانه وجري قلمه ، فمن حفظ القرآن ، فقد وضع يده على أعنة البيان ، ثم دخل المدرسة الابتدائية ونال اجازتها سنة ١٨٩٦ ثم دخل المدارس الثانوية ونال اجازتها عام ١٩٠٠ ثم دخل مدرسة الطب ونال اجازتها عام ١٩٠٤ وكان متقدما على اقرانه فاستحق أن تشكره وزارة المعارف على اجتهاده بمكتوب خاص مؤرخ في ٢ يوليو سنة ١٩٠٤ فلما أن أتم دروسه وتخلص من عناء الامتحانات انطلق كالجواد المصلي في ابحاثه ، موليا وجهه شطر مائشبعت به نفسه وامتلأ بحبه عقله وقلبه ، وكان مجال الكتابة أمامه فسيحا فكان يكتب تارة في المجلات العلمية كالمنار . وتارة في الجرائد السيارة كالمؤيد واللواء والشعب والعلم وغيرها من أمهات الصحف اليومية ، يضرب في كل مبحث بسهم صائب حتى بلغ ما كتبه من المقالات والرسائل عددا كبيرا عدا المؤلفات الممتعة فمن مقالاته :

١ — تحريم الخنزير ونجاسة الكلب — ٢ مقالات الدين في نظر العقل الصحيح — ٣ الناسخ والمنسوخ — ٤ الاسلام هو القرآن وحده — ٥ تاريخ المصاحف — ٦ كلمة في الرق في الاسلام — ٧ رسالة الخلاصة البرهانية على صحة الديانة الاسلامية — ٨ ماء النيل ومضاره — ٩ الربا ورأيي فيه — ١٠ الطلاق في الاسلام — ١١ بحث في تعدد الزوجات — ١٢ الماديون والالهيون فلسفة صحيحة — ١٣ الاصلاح الاسلامي في جملة مقالات — ١٤ القرآن والعلم — ١٥ خوارق العادات في الاسلام — ١٦ حجاب المرأة في الاسلام — ١٧ نظرة في السموات والارض — ١٨ القرابين والضحايا في الاعياد — ١٩ سن الزواج بالفتيات . وكثير غيرها من المقالات الخاصة بالديانات . ومن كتبه كتاب ١ — دين الله في كتب انبيائه — ٢ الجزء الاول والثاني من دروس سنن الكائنات ألفه

(١) المنار : لعل كاتب الترجمة ظن ان الاشد بمعنى التميز والصواب انه من سن ١٨ — ٣٠

لمدرسة دار الدعوة والارشاد . وبالجملة فقد كان فقيدنا كاتبا متفننا يمزج العلم بالدين في أكثر كتاباته .

«وأما ماتقلب فيه من الوظائف فانه عقب ان نال اجازة الطب في عام ١٩٠٤ تعين طبيبا بمستشفى قصر العيني ثم انتقل منه الى وظيفة طبيب في سجن طره في سنة ١٩٠٥ ورقي طبيب درجة أولى في سنة ١٩١١ وأنعم عليه بالنيشان المجيدي الخامس سنة ١٩١٣ ثم نقل الى سجن مصر ثم الى اصلاحية الاحداث عام ١٩١٤ ثم مرض بالتيفوس وكان مرضه شديد الوطأة عليه لم يمهله الا أسبوعا حتى فارق الحياة الدنيا منتقلا الى جوار ربه في يوم الاربعاء ٢١ من شهر ابريل سنة ١٩٢٠ الموافق اليوم الثاني من شهر شعبان المعظم سنة ١٣٣٨ . فرحمه الله وغفر ذنوبه » اه

(المنار) اننا نستغفر الله تعالى كل يوم مرارا أي نساله أن يغفر ذنوبنا ونعتقد ان كل بشر محتاج الى مغفرة الله تعالى وعفوه واننا على هذا الاستغفار والاعتقاد قد استغربنا من المجلة الدعاء لهذا المترجم بالمغفرة بعد الرحمة دون غيره ممن ذكرت خبر وفاتهم في هذا العدد من الاطباء وهم أربعة ختمت الكلام في تراجمهم الوجيزة بالدعاء لهم بالرحمة الواسعة ، والدعاء بالمغفرة للمترجمين غير معهود في الجرائد والصحف فكان هذا وما ذكر قبله من التخصيص سببين للاستغراب ، والمتبادر لنا ان القلم جرى بهذا التخصيص بغير قصد فليس تعريضا بأن المترجم كان من المعروفين بارتكاب الذنوب بل هو معروف بالصلاح والتقوى وممتاز بين الاطباء وغيرهم من أهل العصر بذلك .

سيرة الفقيد العلمية والاصلاحية وشيء من سيرة تربه الطبيب عبده ابراهيم

لا يعنى المنار بترجمة احد من الموتى الا اذا كان في ترجمته عبرة في الاصلاح الديني أو الاجتماعي فهو لا يحفل بترجمة ارباب المناصب والمظاهر الدينية ولا الدنيوية اذا خلت من هذه العبرة ، وقد يهتم بسيرة من ليس له مظهر كبير إذا كانت مشتملة على ما يفيد القراء منها . وصديقنا الطبيب محمد توفيق صدقي لم يكن من أصحاب المناصب الدنيوية ولا من الخاملين المغمورين بل كان رحمه الله تعالى من طبقة الوسط التي هي خير الطبقات ، واهل الطبقة العليا في المناصب والمظاهر الدنيوية

يقل ان يوجد فيها رجل من أولي الفضيلة والاصلاح ؛ وأقل هؤلاء من ارتقى الى المناصب العالية بسيرته الاصلاحية كشيخنا الاستاذ الامام

كان الفقيد يقرأ المنار منذ كان تلميذا في المدرسة الخديوية وقراءة المنار هي التي بعثت ما في فطرته من الاستعداد للبحث والنظر والاستدلال في العلم والدين كما كان يقول . وكان صديقه ورفيقه في المدرسة عبده ابراهيم على شاكلته في هذا الاستعداد ولكنه لم يوفق للكتابة كصنوه الروحي وتر به صاحب الترجمة فلم يكن له آثار تكون له ترجمة اصلاحية خاصة ولكنه كان مصلحا في آدابه واخلاقه ومناظراته وسيرته في أهله ووطنه. ومن البر بهذين الاخوين الروحيين ان نمزج سيرة أحدهما بسيرة الآخر:

كان أول ما كتبه محمد توفيق صدقي من المباحث الدينية العلمية مقالات (الدين في نظر العقل الصحيح) التي نشرت في المجلد الثامن من المنار (ص ٣٣٠ و ٤١٧ و ٦٩٣ و ١٣٢ و ٧٧١) وقد علقنا عليها بعد الانتهاء من نشرها هذه الجملة في (ص ٧٨٢ و٧٨٣ م ٨):

﴿ المنار ﴾ السبب في كتابة هذه المقالات هو أن كاتبها كان يحب البحث عن كل مايعرض له من الشبهات على الدين وهو تلميذ في مدرسة الطب ولهذه الشبهات مصدران التعليم الجديد ودعاة النصرانية الذين يعرضون لتلاميذ المدارس بأبلغ مما يتصدون لغيرهم وكان له رفيق في المدرسة اسمه عبده افندي ابراهيم عرفناهما منذ سنين اذ كانا يرجعان الينا في بعض مباحثهما ويعرضان علينا أهم مايشتبه عليهما كمسألة الروح والبعث وغير ذلك . وكنت أظن أنه لايوجد في مصر من يطلب العلوم الدينية لاجل الاقتناع والاذعان ، والقدرة على الاقناع والبيان ، الا هذان التلميذان ، وأحدهما مسلم والاخر قبطي ، كانا يأخذان المسألة من مسائل الاعتقاد فيدققان فيها النظر ويتناصفان في المناظرة الى ان يتفقا على أن الحق فيها كذا. فما خرجا من المدرسة الا وقد خرج المسلم من شكوكه في دينه ودخل القبطي في الاسلام البرهاني الصحيح — فهو المسلم عن بصيرة تامة وفهم لبراهين الدين وحكمه ثبتنا الله واياه — وهذه المقالات هي صورة اعتقادهما الذي هداهما اليه

ربهما بعد اطالة النظر والاستدلال عدة سنين. وأكثر ما فيها من المسائل في الالوهية والنبوة وفهم القرآن مقتبس من رسالة التوحيد للاستاذ الامام ومن التفسير المقتبس عنه في المنار ومن مقالات أخرى في المنار لا تقليدا بل اقتناعا بالنظر والاستدلال. ولا كاتب مسائل كثيرة هداه اليها البحث والتنقيب ومراجعة كتب المسلمين والافرنج لاسيما في رد شبهاتهم كما رأيت وهو يدعو من خالفه في شيء مما كتبه الى المناظرة بشرط ان يكون الحكم بينهما الدليل القطعي وماهو الا العقل والقرآن والسنة المتواترة لان مقام مقام تأييد الاعتقاد، وهو لا يكون بأخبار الآحاد، ولا بتقليد الاباء والاجداد

وكأني ببعض الشيوخ المقلدين وقد أنكروا عليه بعض المسائل التي انفرد بها أو وافق بعض العلماء المخالفين للجمهور كمسألة ابن السبيل ومسألة النسخ فالهين اللين منهم يعذره والجامد المتعصب يغلظ عليه وان كان قد خرج بهذه الطريقة من الشك الى اليقين، وخرج صاحبه من النصرانية ودخل في الاسلام، وإن تقاليدهم لتقصر عن ذلك، ولو راجعهم في شبهاتهم لما رجع الا بالجحود والالحاد « ومن يضلل الله فما له من هاد » اه مانشرناه يومئذ في المنار (سنة ١٣٢٣)

هذا مانشر في المنار من مبدأ سيرة هذين الفرقدين منذ ١٥ حولا وانني أزيده ايضاحا مما علمته منهما في ذلك العهد

كان كل منهما قد عرض له الشك في دينه فلم يكونا موقنين ولا مكذبين، والشك هو الذي حملها على البحث والنظر على قاعدة ابي حامد الغزالي: من لم يشك لم ينظر الخ ولكن ما كل من يشك ويتحير يبحث وينظر. وما كل من يبحث وينظر يجد ويخلص ويثبت حتى يعلم ويوقن، وانما ذلك شان أصحاب الفطر السليمة، والانفس الكريمة، وما أكثر من كان حول هذين التلميذين في مدرسة الطب من التلاميذ الشاكين الراضين بشكهم وحيرتهم التاركين للنظر والاستدلال حتى انتهى بهم ذلك الى التعطيل والالحاد. ويحسبون أنهم في ذلك على علم، وانما هم في غمرة من الجهل

بدأ ذانك التلميذان الفاضلان بحثهما فيما عرض لهما من الشبهات على اصول الدين المطلق الالوهية وهي الألوهية والرسالة والبعث ثم جعلا من وقتهما مواعيد معينة للبحث في كل أصل من هذه الاصول فبدءا في مسألة وجود الخالق وتوحيده

وصفاته وكانا يراجعان في ذلك بعض كتب الكلام و بعض مباحثه في غير كتبه الخاصة كتفسير الرازي و يرجعان الى كاتب هذه الترجمة و (صاحب المنار) فما يشكل عليهما فهمه أو تستعصي شبهته فانتهى بهما البحث والنظر الى الايمان اليقيني بوجود الله تعالى ووحدانيته واتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن كل نقص . ثم شرعا في النظر والاستدلال على بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام فرسالة خاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكون القرآن كلام الله تعالى وعلى البحث والجزاء فثبت عندهما كل ماذكر في زمن طويل

ومما اتذكره من شبهاتهما وشذوذهما في اثناء البحث في مسالة الروح والبعث أنهما كانا قبل أن اقنعتهما بوجود ارواح للبشر مستقلة في وجودها قد اقتنعا بعقيدة البعث الجسدي فكان هذا من أغرب ما عرض لهما من الشذوذ

و بعد ان صح ايمانها نظرا واستدلالا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر بقي لهما شبهات مشكلة في بعض آيات القرآن لمخالفة بعض المباحث العلمية والتاريخية لها فزالت بالتدريج . واذكر أن المرحوم عبده ابراهيم جاءني مرة وجلس الي في مكتبي ثم أخرج المصحف الشريف من جيبه وقال لي انني مستشكل في آيات معدودات وضعت عليها علامات ولكن استشكالي فيها علمي غير مشكك لي في كون القرآن كلام الله تعالى فاحببت عرضها عليك رجاء إزالة الاشكال. ثم طفق يتلوها علي وكلما تلا آية عرفت وجه استشكاله اياها ففسرتها له بما يزيل اشكاله و يقنعه، حتى اذا ما اتمها قال بصوت مؤثر منبعث من اعماق قلبه

﴿اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمد ارسول الله﴾

واخبرني انه غير عازم على اثبات اسلامه في المحكمة الشرعية، لانه مؤمن مسلم لله لا لاجل شيء من المعاملات الدنيوية ، ثم كان يخبرني بامتعاض والديه وذوي القربى من اسلامه ومناشدتهم اياه ان يظل كما عاله عن الناس، و بقي ذلك عدة سنين وكان بعد ان صار طبيبا موظفا يفيض على والدته وأهل بيته من راتبه و يواسيهم و يحسن من معاملتهم فوق ما يحسنون من معاملته، وانه كان يقول لوالديه ان الله تعالى امرني في القرآن بان أصاحبكما بالمعروف ولا اطيعكما في امر الدين بقوله (وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) ثم انه بعد ذلك أظهر اسلامه وتزوج فتاة مسلمة ورزق منها اولادا كان يحسن تربيتهما وتعليمهما

وقد شرع بعد اطمئنانه بالاسلام في حفظ القرآن ومطالبة نفسه بالعمل به والتخلق باخلاقه وآدابه ، ولم أر من احد من اصدقائي ولا من تلاميذي ولا غيرهم مثله في ذلك. وقد جاءني مرة متألما شاكيا من نفسه فقال انني مؤمن ايمانا يقينيا ليس فيه زلزال ولا اضطراب ولكنني اقرأ صفات المؤمنين في القرآن فلا اراني متصفا بها كلها فكيف

يوجد الشيء وتتخلف عنه آثاره؟ انني لفي حيرة وغم من التفكر في هذا الامر وأرجو ان اجد عندك ما تزول به هذه الحيرة . فاجبته جوابا مفصلا ارضاه وكشف غمته، خلاصته ان ما يتبع الايمان من صفات الكمال لا يحصل كله دفعة عقب الاسلام وانما ينطبع الكثير منها في النفس بالعمل الذى شرعه الاسلام من العبادات والآداب والمعاملات (قلت له) فطالب نفسك بذلك تترب عليه تربية اسلامية جديدة يساعدك عليها ما وهبك الله من سلامة الفطرة وحسن النية

هذا وان هذين الرجلين كانا يعملان بما يعلمان من احكام الاسلام وفضائله، وقد شرعا بعد الفراغ من مباحث العقائد يبحثان في الاحكام العملية مما جريا عليه من الاستقلال في الاستدلال، ويرجعان الي فيما يعرض لهما من اشكال، واذكر من ذلك انهما فهما من آية الوضوء في سورة المائدة أنه واجب لكل صلاة فكانا يتوضآن لكل صلاة على ما في ذلك من المشقة الى ان اقنعتهما بان ذلك غير واجب وان المتوضيء يصلي بوضوئه ما لم ينتقض بالحدث . وكنت احيانا احيلهما في بعض المسائل على مراجعة بعض الكتب فاقتنيا كثيرا من الكتب الدينية وكان المترجم اكثرهما اقتناء للكتب ومطالعة لها ومراجعة فيها، حتى انه اشترى مسند الامام احمد وناهيك بصعوبة المراجعة فيه على غير المحدث

﴿ مقالات صاحب الترجمة وكتبه والرد عليه ﴾

مسألة ابوة آدم للبشر

أول ما كتبه صاحب الترجمة في أصول الدين باستقلاله الذى مرن عليه مقالات (الدين في نظر العقل الصحيح) كما قلنا آنفا وكنت اصحح له العبارة وأراجعه فيما أخطأ به من المسائل فيصحح ما اقتنع به دون غيره، وقد انكر غير واحد عليه في هذه المقالات ما ذهب اليه من القول بان آدم ليس ابا لجميع البشر وقد قال ذلك في رد شبهة مذهب (داروين) في أصول الانواع ، وكونه غير منافٍ لاصل قطعي في الاسلام

وهذه المسألة كان الاستاذ الامام قد قررها في تفسير أول سورة النساء في الجامع الازهر ولكن لم تكن نشرت في المنار عند ما كتب صاحب الترجمة ما كتبه فيها ولا أذكر الآن أنه سمعها منه ولكن يغلب على ظني انني ذكرتها له بعد ان كتب ما كتبه ولا أذكر تفصيلا في ذلك وانما أعلم انني كنت أبحث معه في بعض المسائل غير المنقحة وتقدم ذكر ذلك

لما راجعنا قراء المنار في تخطئته في هذه المسألة قولا وكتابة أجبناهم في باب الانتقاد على المنار (ص ٩٢٠ م ٨) من وجهين أحدهما انه ليس من شأن أصحاب الصحف ان يقرنوا

رأيهم بكل ما ينشرونه لغيرهم وثانيهما أن الكاتب ذكر ماذكره في المسألة على تقدير ثبوت مذهب دارون ثبوتا قطعيا وهو غير ثابت عنده الآن بل هو يقول انه نظريات ظنية وانه اذا ثبت لا ينقض شيئا من نصوص القرآن بل يمكن ان يؤخذ من القرآن ما يوافقه ،

ثم كتبنا نبذة أخرى في باب الانتقاد على المنار (ص ٩٤٧ م ٨) أجبنا فيها عما كتبه بعض المنتقدين في الرد على صاحب الترجمة بقوله تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) وبعض الاحاديث ، وقلنا في آخر هذا الجواب ما نصه « ولا تنس اننا نؤمن بأن آدم خلق من التراب كما ورد بلا تأويل ، وانما التأويل لالزام المعترض على الدين ، أو اقناع المرتابين »

ثم ان صاحب الترجمة كتب في المجلد الرابع عشر من المنار مقالا عنوانه (كيف خلق الانسان) بعد مقالات نشرها في بعض الصحف اليومية رد فيها على مذهب دارون رداً شديداً قال فيه انه أورد عليه في بعض تلك المقالات « احتمالات تقوض أهم أركانه ، وتدك أكبر أسس برهانه ، حتى ان كبيرا من أعظم أنصاره في الشرق لم يقدر على الرد علينا — يعني الدكتور شبلي شميل — (قال) وقد سألني بعض الاخوان قائلا اذا كنت تشك في صحة مذهب دارون فكيف تفسر لنا علميا خلق الانسان من طين » ثم سرد تلك الاحتمالات واتبعها بجواب هذا السؤال (يراجع مقاله في ص ٣٠٣ م ١٤)

﴿ استطراد وجيز ﴾ صرحنا غير مرة في المنار بأن مذهبنا في العقائد وأصول الدين وكذا فروعه هو مذهب جمهور السلف الصالح وان ماننذكره أو ننشره لنا أو لغيرنا من تفسير أو تأويل مخالف لمذهب السلف فغرضنا منه إما دفع شبهة عن الدين ، وإما تقريب مسألة من مسائله لعقول بعض المرتابين ، لان من يخالف مذهب السلف في بعض المسائل غير القطعية المعلومة من الدين بالضرورة عن اجتهاد وتأول لا يعد مرتدا ولا متبعا غير سبيل المؤمنين من بعد ما تبين له الحق ، وقد نشرنا في فتوى الكلام الالهي وكون القرآن بعبارته منه التي يراها القارئ قبل هذه الترجمة كلاما نفيسا في عذر من أخطأ من العلماء المتأولين بحسن النية وقصد خدمة الدين لشيخ الاسلام ابن تيمية (جزاه الله عن هذه الامة خيرا) لم نر لاحد من العلماء الاعلام مثله

في تحقيقه وحسنه ، ونحن نعتقد أن الاستاذ الامام والطبيب محمد توفيق صدقي من طبقة أولئك العلماء الذين كانوا ينصرون الاسلام، ويدافعون عنه بمنتهى الاخلاص، ويحرصون على اثبات دعوته ، واقناع المنكرين عليه بحقيته، ويردون الشبه عنه تارة بالدليل ، وأخرى بالتأويل المعقول ، وانهم ممن يشملهم الحديث الصحيح الذي يثبت لمن اجتهد فأخطأ أجر الاجتهاد ، ولمن اجتهد فأصاب أجر الاجتهاد وأجر اصابة الحق، لانه غير خاص بالمجتهد المطلق الذي له مذهب خاص في جميع مسائل الخلاف ونقول فيهما ما أرشدنا شيخ الاسلام الى أن نقوله في مثل الشيخ الاشعري والقاضي الباقلاني وغيرهم من العلماء المخلصين وهما منهم على ما بينهما من التفاوت في العلم (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم) ونسأل الله تعالى ان يجعلنا من المجتهدين المثابين ، ويحشرنا في زمرتهم يوم الدين

ويذكر القراء أيضا ان بعض الازهريين قد نسبوا الينا منذ سنتين مسألة انكار كون آدم أبا لجميع البشر وكفرونا بذلك في مقالات نشروها في الجرائد ولم يشركوا معنا في هذا الانكار والتكفير الاستاذ الامام ولا الطبيب محمد توفيق صدقي رحمهما الله تعالى فدل ذلك على انهم قالوا على ما قالوه اتباعا للهوى غفر الله لنا ولهم

مسألة الاسلام هو القرءان وحده

أكبر شذوذ وقع للمترجم رحمه الله تعالى وحاول اثباته والدفاع عنه هو ما عرض له من الشبهة على كون السنة ليست من أصول الدين والاقتناع مدة من الزمن بأن الاسلام هو القرآن وحده فمن عمل به كان مسلما ولا يحتاج الى معرفة السنة لانها كانت شريعة موقتة. ولما عرض له ذلك واقتنع به هو وصديقه الطبيب عبده ابراهيم (عفا الله عنهما) جاءاني كعادتهما وعرضاه علي وانبرى صاحب الترجمة لبيان ما قام عنده من الادلة عليه فاوردت عليه اعتراضات كان يشتغل بالبحث فيها زمنا . واني كنت أعلم أن هذا الرأي كان عرض لغيره من الباحثين المستقلين القليلي البضاعة في علم أصول الاسلام وانه رأي منتشر في كثير من الامصار التي يسكنها المسلمون، وأعلم ايضا ان كثيرا من المباحث الكبيرة التي تختلف فيها الانظار لا تتمحص الا بالكتابة والمناظرة فلهذين السببين

ولتوفير الوقت علي في تمحيص المسألة لصاحب الترجمة وصديقه بالمشافهة اقترحت عليه أن يكتب رأيه هذا لينشر في المنار ، ويعرض على علماء مصر وسائر الاقطار ، وبينت له مافي الكتابة من خروج المسائل العلمية من حيز الاجمال الى حيز التفصيل ، فكتب مقال (الاسلام هو القرآن وحده) ونشرناه في المجلد التاسع من المنار (ص ٥١٥ — ٥٢٤) وعلقنا عليه تعليقا وجيزا اشرنا فيه الى سبق بعض الباحثين له فيه والى ما سبق من مذاكراتي فيه معه ومع تر به وقرينه الطبيب عبده ابراهيم ، والى المراد بكتابته من عرضه على العلماء والباحثين ، ثم قلنا « فنحن ندعو علماء الازهر وغيرهم الى بيان الحق في هذه المسألة بالدلائل ، ودفع ماعرض دونه من الشبهات ، فان المحافظة على الدين في هذه العصر لاتكون بالنظر في شبهات الفلسفة اليونانية ، اوشذوذ الفرق الاسلامية التي انقرضت مذاهبها ، وانما تكون باقناع المتعلمين من أهله بحقية الدين ودفع ما يعرض لهم من الشبهات على أصوله وفروعه الثابتة ، واهونها ما يعرض للمعتقدين المستمسكين ككاتب هذه المقالة فانني اعرفه سليم العقيدة مؤمنا بالالوهية والرسالة على وفق ماعليه جماعة المسلمين ، مؤديا للفريضة . وانما كان إقناع مثله اهون على علماء الدين لانه يعد النص الشرعي حجة فلا يحتاج مناظره الى اقناعه بالالوهية والرسالة ليحتج عليه بنصوص الوحي » اه المراد من التعليق ، وقد كتب هو ايضا في اواخر المقالة « فهذه افكاري في هذه المواضيع اعرضها على عقلاء المسلمين وعلمائهم وارجو ممن يعتقد انني في ضلال ان يرشدني الى الحق والا كان عند الله آثما »

رد الشيخ طه البشري على الدكتور

أول من تصدى للرد على هذه المقالة الشيخ طه البشري من علماء الازهر وهو نجل المرحوم الشيخ سليم البشري الذي كان شيخ الجامع الازهر ورئيس المعاهد العلمية الدينية بمصر في ذلك العهد . فكتب في ذلك مقالا عنوانه (اصول الاسلام : الكتاب ، السنة ، الاجماع ، القياس) نشر في المجلد التاسع نفسه (من ص ٦٩٩ — ٧١١) ومقالا عنوانه (الدين والعقل) نشر في (ص ٧٧١ — ٧٨١ م ٩)

ورد صاحب الترجمة على هذا الرد في رسالة عنوانها (الاسلام هو القرآن وحده — رد الرد) نشرت في ذلك المجلد نفسه (من ٩٠٦ — ٩٢٥) وعلقنا عليها تعليقا عنوانه

في رؤس الصحائف (الاسلام هو القرآن والسنة) (من ص ٩٢٥ — ٩٣٠) فكان هذا التعليق مبينا له الخطأ الاكبر الذي وقع فيه وحاملا له على الرجوع عنه فكتب قولة مختصرة عنوانها (اصول الاسلام — كلمة انصاف واعتراف) نشرت في (ص ١٤٠) من المجلد العاشر صرح فيها بانه ارتكب الشطط وان الصواب ظهر له مما كتبه استاذه صاحب المنار ثم قال « فانا اعترف بخطأي هذا على رؤوس الاشهاد واستغفر الله مما قلته أو كتبته في ذلك وأسأله الصيانة عن الوقوع في مثل هذا الخطأ مرة أخرى . واصرح بأن اعتقادي الذي ظهر لي من هذا البحث بعد طول التفكر والتدبر هو : أن الاسلام هو القرآن وما اجمع عليه السلف والخلف من المسلمين عملا واعتقادا انه دين واجب، و بعبارة اخرى ان اصلي الاسلام اللذين عليهما بني هما الكتاب والسنة النبوية بمعناها عند السلف اي طريقته صلى الله عليه وسلم التي جرى عليها العمل في الدين » وأستثنى من ذلك السنن القولية غير المجمع عليها وما كان له علاقة شديدة بالاحوال الدنيوية (أي التي فوّضها النبي (ص) الى الناس) وعد منها بعض الحدود ومقادير زكاة المال والفطر والاصناف التي تؤخذ منها ولكن بعض ما استثناه مجمع عليه وهو انما ينكر كونه من أصول الدين القطعية لا كونه منه مطلقا

ثم جاء رد مطول مفصل على مقالة (الاسلام هو القرءان وحده) بقلم الشيخ صالح اليافعي من علماء العرب المقيمين في (حيدر آباد الدكن) في الهند موضوعه (السنن والاحاديث النبوية) نشر في المجلد الحادي عشر من المنار (ص ١٤١ و ٢١٤ و ٣٧١ و ٤٥٤ و ٥٢١) فرد المترجم على مباحث منه في ٣ مقالات عنوانها (كلمات في التواتر والنسخ وأخبار الآحاد والسنة) نشرت في هذا المجلد (راجع م ١١ ص ٥٩٤ و ٦٨٨ و ٧٧١)

ثم رد الاستاذ اليافعي على هذا الرد في مقالات نشرت في المجلد الثاني عشر (م ١٢ : ص ١٢٥ و ٢٠١ و ٢٨٩ و ٣٧١ و ٤٤١ و ٥٢١) وقال في خاتمة هذا الرد عبارة تدل على اهتمام العلماء في الهند بهذه المناظرة وطلب منا الحكم فيها فقال:

« هذا جواب ما كتبه الدكتور الفاضل بغاية الاختصار وأنا أرجو حضرة شيخ الاسلام ان يطبع ذلك في المنار الاغر ولو دفعات متفرقة فانه قد رغب فيه كثير من

قراء المنار ، ومن ينظره بعين الاعتبار ، وألتمس من حضرته ان يصلح ما فيه الخطأ والزلل لاني كتبته بعجلة بعد ان كنت أردت الاعراض عن الجواب ، ولكن ارضاء لله ورسوله (ص) ثم للاخوان الكرام الذين رغبوا في ذلك كتبت ذلك ارتجالا وألتمس من شيخ الاسلام ان يذكر ملخص رأيه . وكذلك ألتمس من علماء الاسلام حفظهم الله وأيد بهم الدين ان يتكلموا ولو بالتصويب والتخطئة فان الزمان كما ترون أهله أول ما يبادرون الى حب الخلاف ولو لأضعف الشبهات »

واننا اجابة للدعوة كتبنا مقالا في ذلك عنوانه (النسخ وأخبار الآحاد) نشر في (ص ٦٩٣ — ٦٩٩) من ذلك المجلد (١٢) و به انتهت هذه المناظرة الطويلة التي شغلت عدة أجزاء من أربعة مجلدات من المنار في أربع سنين ، ثم أوضحنا مسألة السنة وافادة بعض أخبار الآحاد اليقين الشرعي اللغوي وحررنا معنى اليقين والظن في المنار بما لم نطلع على مثله لاحد ولله الحمد

ونقول ان هذه المناظرة الطويلة كانت سببا لاشتغال كثير من قرائها بعلم السنة وأصول الدين ، وقد سرى ذلك منهم الى غيرهم فصار للسنة من الانصار في مصر وغيرها ما لم يكن لها من قبل ، ولا يزال عددهم في نماء وازدياد ولله الحمد

رد صاحب الترجمة على المبشرين

أشرنا في أول هذه الترجمة الى ان دعاة النصرانية كانوا أحد الاسباب الباعثة للمترجم الى البحث في الدين . الذي انتهى به الى الانتقال من الشك الى اليقين ، ثم الى الدفاع عن الاسلام — كما انتهى هذا البحث بتربه الدكتور عبده ابراهيم الى الاسلام البرهاني الاذعاني ، والصلاح والاصلاح النفسي والاجتماعي - وقد كان أهم ما كتبه المترجم بقصد الدفاع عن الاسلام الرد على أولئك الدعاة الذي حفزته اليه مناظراته معهم واطلاعه على كتبهم ، وقد استعد لذلك بقراءة كثير من الكتب الانكليزية لطائفة العقليين من الافرنج وللملاحدة الذين ردوا على النصرانية . ومقالات الفقيد في الرد على المبشرين لا يغني عنها أكبر الكتب المصنفة في الرد عليهم ككتاب اظهار الحق ، وقد جرد بعضها من المنار وطبع في كتب مستقلة وأقواها وأوسعها ما نشر في المجلدين الخامس عشر والسادس عشر من المنار كمقالة (القرابين

والضحايا في الاسلام) ومقالة (الدين كله من القرآن) ومقالات (بشائر عيسى ومحمد في العهدين) وتراجع في ص ٢٨١ و٣٥٢ و٤٢٧ و٤٩٤ و٥٨٦ و ٦٥١ و٧٤٥ م ١٥ ورسالة (نظريتي في قصة صلب المسيح وقيامته) وتراجع في ١١٣ و ١٩٣ — ٢١٦م١٦ و(نظرة في كتب العهدين وعقائد النصرانية) في المجلد السادس عشر أيضا.

وقد هاجت بعض مقالات هذه الرسالة المبشرين فتوسلوا الى لورد كتشنر بأن يوعز الى الحكومة المصرية بالغاء المنار ومنع صدوره منعا أبديا وبمحاكمة منشئه والدكتور محمد توفيق صدقي وقد كلمني في ذلك النائب العمومي في ذلك العهد عبد الخالق ثروت باشا وعهد الي بأن أقابل رئيس الوزراء (محمد سعيد باشا) أنا وصاحب الترجمة فقابلناه وكلمنا في المسألة ونهى المترجم أن يعود الى كتابة مثل تلك المقالة المستنكرة في شدة طعنها، وكلمنا في وجوب تخفيف لهجة المنار في الرد كما يراه القارئ في آخر المجلد السادس عشر (ص ٩٥٨)

ولما أنشأنا مدرسة دار الدعوة والارشاد عهدنا الى صاحب الترجمة بالقاء دروس سنن الكائنات وحفظ الصحة فيها معتقدين انه لا يوجد في مصر طبيب ولا عالم عصري يقدر على أداء هذه الدروس بشرط برنامج المدرسة غيره فقام بالامر خير قيام ونفح هو ما كتبه بعض طلبة المدرسة من تلك الدروس ونشرت في المنار ثم طبع بعضها في جزئين

وجملة القول ان الطبيب محمد توفيق صدقي رحمه الله تعالى كان ركنا من أركان العلم والاصلاح في مصر ولم نجد صديقا لنا ولا تلميذا في مصر ولا غيرها خدم المنار وكان له مساعدة ثمينة في تحريره غيره . وقد كان محسنا شكورا يذكر دائما منة المنار وصاحبه عليه. ونحن نعترف بأن منته علينا أكبر فقد كان فوق اخلاصه في صداقته ومساعدته القلمية للمنار طبيب بيتنا وفضله كبير على أولادنا فرحمه الله تعالى وجزاه أفضل الجزاء عنا وعن نفسه ودينه وأمته

باب المراسلة والمناظرة

﴿ الرد على جريدة القبلة ﴾

جاءتنا رسالة لاحد علماء نجد في الرد على مانشر في جريدة القبلة من الطعن في دين المنتسبين بالوهابية من أهل تلك البلاد ، وفي هذه الرسالة أن لصاحبها رسالة أخرى في الرد على تلك الجريدة نشرت قبلها ، وقد اقترح علينا نشر هذه الرسالة فحال دون ذلك عدة موانع أهمها شدة عبارتها في التشنيع على المردود عليه وكوننا نرى أن التمادي في هذه الردود ضرره أكبر من نفعه. ولكننا نذكر منها عبارة في الرد على ما جاء في المنشور الذي نشر في تلك الجريدة وسبق لنا نقله عنها في الجزء الخامس من هذا المجلد (٢١) من قوله « فتبجحهم بقولهم ان العالم سيبعث شاء المولى أو لم يشأ » وقوله انهم تظاهروا بهذه الشناعة « وأباحوا دماء من لم يجب دعاتهم على اعتقادها وأمثالها وبدءوهم بالقتال واستحلوا أموالهم وأنفسهم فكيف لا يقال والحالة هذه بقتالهم » هذه عبارة المنشور بحروفها

واننا عند ما اطلعنا على هذه التهمة دهشنا لان اعتقاد وقوع كل شيء في العالم بمشيئة الله تعالى وان ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن من المسائل الاجماعية التي لم تدخل في باب من أبواب الخلاف التي بولغ فيها بين الوهابية وخصومهم . ورأينا هذه الرسالة قد أنشئت للرد على هذه التهمة بعد مقدمة وجيزة فيما كان من قيام الشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله تعالى بتجديد الدين في بلاد نجد وغيرها وارجاع الجماهير من العرب الذين كانوا على جاهلية شر من الجاهلية الاولى الى الكتاب والسنة قولا واعتقادا وعملا ،

قال الكاتب في الرد على قول المنشور « فتبجحهم بقولهم : ان العالم سيبعث » — بعد تصحيحه بأنهم يقولون « ان الله سيبعث العالم » لا ان العالم سيبعث بصيغة الفعل المجهول — مانصه: « نعم اننا نتبجح بذلك ونعتقده وندين الله به إيمانا بالله وباليوم الآخر وتصديقا لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به من ذلك عن ربه ، ولا ينكر ذلك ويشك فيه الا كافر معاند». ثم أورد عشر آيات من القرآن الكريم في اثبات

الاستشهاد والحجة وذكر ان الآيات في ذلك كثيرة

ثم قال « وأما قوله عنا اننا نقول شاء المولى أولم يشأ — فهذا من الكذب: والبهتان ... وقول الزور (ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) وبعد تشنيع القول على قائله شرع يناقشه في عبارته فقال في قوله « ان العالم سيبعث » انه يوهم ببنائه للمجهول ان الباعث للعالم غير الله تعالى شاء المولى ذلك أولم يشأه والله سبحانه وتعالى لا غالب له ولامكره ولا إله غيره ولا رب سواه (ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا) الخ ما أورده من الآيات في ذلك وفيما روي عن السلف في تفسيرها ، ثم شرع يناقشه فيما رد به على هذه التهمة الباطلة وأورد في أثناء ذلك آيات كثيرة في قيام الساعة والبعث

ثم انتقل من ذلك الى تفنيد قوله « وأباحوا دماء من لم يجب دعاتهم على اعتقادها وأمثالها » فقال ان هذا من الزور والبهتان ، وكذب أيضا قوله: انهم بدأوهم بالقتال فقال بل هم الذين بدءونا وزحفوا علينا بالجنود الهائلة العظيمة والكيد الشديد، والعدد والعدة التي ما عليها من مزيد ، واستحلوا دماء المسلمين الذين كانوا في بلدة (تربه) وأموالهم واستباحوا نساءهم وأكثروا في البلد الفساد (فصب عليهم ربك سوط ربك عذاب) بشرذمة قليلة من سرايا المسلمين ، (فغلبوا هنالك) الخ ما أورده في وصف تلك المعركة

نكتفي بهذه الجملة من رسالة الرد ونعتذر للكاتب عن نشرها كلها بأنه يزيد نار الخلاف والتفرق اشتعالا بما فيه من شدة الطعن ونحن نريد إطفاء هذه النار واصلاح ذات البين وانما لخصنا منها ما لخصنا ليعلم اصحاب جريدة القبلة ان ما نقل اليهم في ذلك كذب وتقول على النجديين حتى لا يثقوا بعد بهذه النقول و يتبينوا اذا جاءهم فاسق بأمثال هذه الانباء كما أمر الله تعالى

واننا نرجو من الفريقين الكف عن طعن بعضهم في بعض كما اقترحنا عليهم من قبل والاكتفاء في مسائل الخلاف بالحجة والبرهان (عسى الله أن يجعل بينكم و بين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم)

الرحلة السورية الثانية

٣

مخمصة الحرب وسوء أثرها

لم أسمع من أهل دمشق من أخبار الجوع والعرى ابان مخمصة الحرب الا قليلا من كثير ماسمعت من أهل لبنان والساحل، فدمشق كجزيرة في بحر عظيم من الجنات والبساتين. واجنادها ورساتيقها ذات خصب عظيم، ولم يكن للترك من السلطات على اهراء غلالها في حوران وجبل الدروز ما كان لهم على غلال لواء طرابلس وحمص وحماه بل كانوا يشترون القمح من الدروز بالثمن الغالي ويدفعون ثمنه من الذهب الاحمر لا من ورق النقد الذي ما كان يروج الا بثلث قيمته أو ربعها ـ فلهذا لم يكن شدخناق المجاعة على أهل دمشق محكماً كخناق لبنان وبيروت وسائر السواحل لذلك كان أكثر من مات فيها جوعا من الذين هاجروا اليها لا من أهلها، على أن الكثير منهم قد باعوا أثاث بيوتهم وجميع ما يملكون وبذلوه في ثمن القوت

وأما ماجرى في السواحل وجنوب لبنان ولاسيما قضائي المتن وكسروان منه فهو فوق ما كانت تشرحه الجرائد في مصر ويظنه أكثر أهلها من المبالغات التي يقصد بها الطعن في حكومة الترك، فالحق أن كل ماوصفته كان دون الذي وقع. وقد ثبت عندي أن بعض الناس كانوا يأكلون كل مايجدونه في المزابل والطرق رطباً يمضغ أو يابساً يكسر. وأخبرني في بيروت من رأى بعض الاولاد الصغار رأوا رجلا قاء في الطريق فتسابقوا الى قيئه وتخاطفوه فأكلوه. وثبت عندي أكل الناس الجيف حتى ماقيل من أكل بعض النساء لحوم أولادهن والعياذ بالله تعالى

وأخبرني كثيرون في بيروت وطرابلس ان الناس كانوا يرون الموتى في الشوارع والاسواق والمشرفين على الموت من شدة الجوع ولا يبالون بهم ولا يرثون لأنين المستغيثين منهم، فقد قست القلوب وكزت الايدي حتى من الذين كانت تتضاعف ثروتهم من الاحتكار الذي ضاعف البلاء وعظم به الشقاء، فقد كان هؤلاء وغيرهم من الموسرين تستطاب لهم الالوان المتعددة، وكانوا يقيمون المآدب للولاة وقواد الجيش الذين صبوا كل هذا العذاب على الامة والبلاد حتى

الطاغوت جمال باشا . وأما حفاوتهم بأنور باشا ومن زار البلاد السورية معه فلم يسبق لها نظير في أيام الرخاء . وكان الحكام ورؤساء البلديات يهتمون بنقل جثث الموتى والمشرفين على الموت من الطرقات التي يمر فيها انور باشا أو جمال باشا أووالي بيروت لئلا يتألم شعوره الحجري برؤية ذلك وأنى تتألم الصخور؟

وقد قيل لي ان بعض الوجهاء قال لانور باشا على مائدة جمعت اخر ألوان الطعام من خبز الحوارى (١) واللحوم والحلوى والفاكهة : اننا في ظل عدل الدولة العلية ورحمتها نتمتع بكل هذه الطيبات، أوماهذا معناه!!

ثبت في آيات القرآن الحكيم أن الشدائد تمحص المؤمنين وتمحق الكافرين وقد ثبت أن شدائد هذه الحرب مازادت أكثر الناس في كل البلاد الافساداً وفسقاوفجوراً . وكان الاغنياء والفقراء في ذلك سواءالا من عصم الله ـ الاغنياء ازدادواقسوة وبخلا واسرافا في الشهوات وكفراً بنعم الله واعراضاً عن شكرها ، والفقراء استباحوا جميع الفواحش وتركوا جميع الفرائض مع الاعتراض على الله عزوجل ،حتى أنهم تركوا فريضة الصيام مع فقد الطعام فلم يكن المسلمون (جنسية) ينوون الصيام في رمضان وان كانوا في شك أو ظن راجح بأنهم لايجدون في النهار ما يأكلون ،ومهما يصب أحدهم من لماج هو ادنى ما يؤكل) كان يلتقمه ولوقبيل غروب الشمس، ولم يكن الباعث على ذلك عدم الطاقة على احتمال الجوع بل مراغمة الشارع ومعاندة الخالق سبحانه وكانوا يصرحون بذلك ، واكثر مانقل منه نقل عن النساء اللواتي هن أشد اذعانا للدين وخضوعاً لشعوره وأكثر محافظة على الصيام ـ كانت احداهن تقول : لا أصوم له ولا أصلي له وقد فعل بي وكذا كذا ، والاخرى تقول ليرجع لي ولدي من القبر أو من العسكر أصم له . ومثل هذا كثير. فأمثال هؤلاء ليسوا من المؤمنين الشاكرين الصابرين فتمحصهم الشدائد وتطهرهم بل من الكافرين بدين الله ونعمه كلها أو احدهما فزادتهم رجساً الى رجسهم. ومحقتهم بل محقت أممهم بهم

وقد بغضت اليهم سيرة الحكومة السوءى فيهم خدمة العسكرية ولولا ذلك لفضلوها على تلك بباعة القاتلة التي كان سببها مصادرة اموال الغذائية لاجل الجند أو باسم الجند . وكأين من أسرة كبيرة انقرض جميع أفرادها الا من دخل الجندية منهم سلموا أوسلم بعضهم وقد حدثونا عن اسرة كبيرة في ميناء

(١) الحواري بضم الحاء وتشديد الواو لباب الدقيق الابيض

طرابلس كانت مؤلفة من ٢٧ نسمة دخل الجندية سبعة شبان منهم فسلموا كلهم وهلك العشرون من كبار وصغار وما هلكوا الا جوعا . وأمثال هذه الحكايات كثيرة ،

وميتة الجوع شر من ميتة القتل في الحرب فان اكثر الذين يقتلون في حروب هذا الزمان تزهق أرواحهم في طرفة عين بغير ألم يذكر وانما الذي يذكر تألم الجرحى وتشويههم على شدة العناية بمعالجتهم . وأما موتى الجوع فلا يموتون الا بعد آلام بدنية ونفسية شديدة طويلة الأمد فيهزلون ويضوون أولا من قلة الغذاء ثم فقده حتى اذا ما وهت قواهم الحيوية وضعف تماسك عضل ابدانهم دب فيها الورم كما يدب في جثث الموتى ، ومنهم من يصاب قبل ذلك بالكلب أو مايشبهه ومن يعتريهم الجنون والعياذ بالله تعالى ، ولا فائدة الآن في اطالة وصف هذا الرجز الأليم

فائدة الدين في الشدائد

من أعظم فوائد التدين في هذه الحياة الدنيا انه يخفف آلامها ، ويهون على النفس مصائبها ، وذلك ثابت بالنظر والتجربة معاً . ويعرفه المتدينون والملاحدة المعطلون جميعاً ، وقد سمعنا بآذاننا بعض المعطلة الذين أصيبوا بالامراض المزمنة ونحوها من المصائب العظيمة يتمنون لو كانوا مؤمنين ليكون لهم بعض العزاء والسلوى باحتساب الاجر عند الله تعالى ورجاء النعيم في الدار الآخرة ، فانهم يعرفون هذه الفائدة من فوائد الدين بالنظر العقلي والعلم بغرائز البشر وبما يشاهدون من صبر المؤمنين وجزع المعطلين

وليست هذه الفائدة لمن يدينون دين الحق الخالص من شوائب الشرك خاصة بل هي عامة يجدها في نفسه كل من يؤمن بان للعالم الها وان بعد هذه الحياة الفانية حياة دائمة يثيب الخالق فيها المؤمنين الشاكرين ويعذب الكافرين المجرمين ، وانما اعني ايمان الاذعان . ذا السلطان الاعلى على العقل الوجدان ، وان كان تقليديا قائما على غريزة الفطرة . غير مؤيد بالبرهان والحجة . ولا شك في ان الذين فقدوا هذه الفائدة اللازمة للدين في أثناء المحصة وغيرها من مصائب الحرب ليسوا على شيء من الايمان الاذعاني البرهاني ولا الفطري ؟ وكل ما كانوا عليه من الدين لا يعدوا التقاليد الجافة التي لا منشأ لها في النفس غير التعود بمحاكاة الاهل والاقربين ومجاراة المعاشرين . وما يوافق منها احكام الاسلام عند المنتحلين لاسمه فانما يوافقها في صورته ، لا في روحه وحقيقته . ألم تر

أنهم كانوا يعللون تركهم للصلاة والصيام بما يدل انهم يظنون في الله غير الحق ظن السوء وان الله تنزه وتعالى محتاج الى صلاتهم وصيامهم فهم لا يبذلون له مايحتاج اليه منهم الا اذا بذل لهم مايحتاجون اليه منه جزاء وفاقا : (ان تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر — وان تشكروا يرضه لكم * ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم * فلولا اذا جاء هم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون)

مهانة هذه الامة ودناءتها

الا ان اعضل ادواء هذه الامة هو السفالة والمهانة والخمود والضعة — وما شئت فاذكر من الكلم المقابل لعلو الهمة والعزة والرفعة . فالمؤمن ضعيف في ايمانه . والكافر دنيء في كفره . والباذل مراء في بذله . والبخيل غبي في بخله . والعفيف خامل في عفته . والشهواني سافل في تمتعه . والقنوع عاجز في قناعته . والمشتغل بالعلم مقلد في علمه . والصالح بليد في صلاحه . حتى ان محب الجاه والعظمة فيها ذليل في عجبه وكبريائه فلا تجد شعبا من شعوبها ولا حزبا من احزابها ولا جمعية من جمعياتها بل لا تكاد ترى فردا من افرادها ذا مقصد عال كبير يبذل في سبيله النفس والنفيس بعزيمة قوية وادارة ثابتة وحكمة راسخة . لا يثنيه عن السعي له حيف وقع ، ولا خوف من خطر يتوقع ، الا ماقام به الشعب المصري بعد أربعين سنة من نبات النواة التي ألقاها في ارضه مصلح الشرق وحكيمه في هذا العصر السيد جمال الدين الافغاني وتعاهده بعده خليفته الاستاذ الامام (طيب الله ثراهما)

وأما الشعوب العثمانية فقد مسخ الحكم التركي أخلاقها وافكارها بسوء الادارة وفساد التربية والتعليم في المدارس ، وزادهم اختلاف أساليب التربية والتعليم في المدارس الاجنبية فسادا ولا سيما في سورية حيث تكثر هذه المدارس ، وتفصيل القول في بيان هذا الامر من الجهتين الاجتماعية والدينية لم يأت اوانه انما اذكر في هذا الفصل كلمة وجيزة فيما كان من افساد الاخلاق والآداب برزايا الحرب ومحنتها وجرائر السلطة العسكرية وقسوتها :

اشتعلت نيران الحرب فاستباحت الدول المتقاتلة لانفسها ابطال الشرائع والقوانين في زمنها وجعل الحكم الفصل لامراء العسكر وقواد الجيوش لا في ميدان القتال فقط ولا على الجنود خاصة بل وسعت حدود سلطتهم حتى شملت كل مايحتاجون اليه للحرب من اموال الناس وأقواتهم ومواشيهم ودوابهم ومركباتهم

وأنفسهم ، وأي شيء لا يحتاجون اليه وهم بشر حاجهم حاج البشر وهم الذين يقدرون الحاجة ويحكمون وينفذون لا استئناف لحكمهم ولا راد لامرهم ؟ وانما كانت تتفاوت تصرفاتهم في غصب اموال الناس ومتاعهم باسم الشراء وتقدير الأثمان ودفعها أو تأجيلها بتفاوت تربيتهم الدينية والنظامية وتختلف باختلاف احوال من يتصرفون فيهم من أبناء جنسهم أو الخاضعين لحكمهم من غيرهم ، واغرب ما نقل الينا من اخبار جور ضباط الترك في سورية انهم كانوا يأخذون من البزازين مايصلح للجند من نسيج القطن والصوف وما لا يصلح لهم حتى ما هو خاص بالنساء من الحرير والشفوف والمناديل والقفافيز و الجوارب الحريرية والاعطار

هلعت أفئدة البشر من كل الامم في أول العهد بالحرب واستيقظ الشعور الديني في قلوب طال نومه فيها كأنه ميت لا أثر له في شيء من اعمال الحياة وحدثنا من كان بباريس من المصريين ان الكنائس صارت في ذلك العهد تضيق على رحبها بالمصلين الخاشعين لله بعد ان كانوا يلمون بها الملم السائح الراغب في رؤية الآثار وتعرف الاطوار فلا يرون فيها حتى في اوقات الصلاة من ايام الآحاد الا بعض العجائز والاطفال

ومما عرفنا من اخبار بلادنا السورية ممن فر الى مصر في أثناء الحرب ومما كان يصل الى الجرائد الافرنجية والمصرية أن مصائب الحرب أزلت ما كان بين الملل والطوائف من نفور وضغن . واشعرت قلوبهم عواطف التراحم والتعاون ، فكان صاحب الرغيف يقسمه بينه وبين الفاقد لمثله من صاحب أو جار قريب أو بعيد ولا يضن بمقاسمة الجائع المجهول له ذا القربى والرحم ،

فلما طال الامد ورأى الناس مارأوا من سوء تصرف القواد الجبارين ، والحكام الظالمين والاغنياء المترفين ، دبت اليهم عدوى القدوة السيئة فقست القلوب وتحجرت العواطف ، واشتد الجشع ، وقوي الطمع ، وضريت الشهوة ، وعظمت الفتنة

افترص رؤساء الجند والحكومة اعلان الاحكام العرفية وتعطيل الشريعة والقانون بها فاحتكروا الاقوات ، وشاركوا في استغلال الامة كبار التجار ، وتذرع كل منهم بذلك لانتهاك الاعراض وافتراع الابكار . فكان من هانت عليهم اعراضهم يستشفعون بنسائهم وبناتهم الى اولئك الرؤساء (كالقائد العام للفيلق الرابع في سورية ومتصرف لبنان) لاخذ وثائق بشواحن القمح وغيره من الاغذية ، فكانت اعراض النساء عروض تجارة وأبضاعهن بضائع

ربح ، وكانت الحرة تموت ولا تأكل بثديها وفاقا للمثل العربي . وبين هذه وأولئك نساء نشأن مصونات محصنات لا لدين راسخ ولا لشرف باذخ ، بل لفقد الداعية وعدم الاصطلاء بنار الفتنة. فلما ذقن ألم الجوع الديقوع الدهقوع وفقدن ما يتبلغن به من اللماج والعلهز (١) وعلمن ان سعة العيش على طرف الثمام وحبل الذراع منهن . اذا ارخصن ما أغلته العفة من شرفهن . ووجدن أن الشرف في هذا الزمن غير الشرف الذي تروى أخباره عن السلف . فالناس يعظمون الفاسقين ويتقربون الى الفاسقات . ويحتقرون الصالحين والصالحات . فطوعت لهن انفسهن واسلست لهن ما كان صعب المقادة من اقتراف الفاحشة فأطعنها واجمات . ولم يلبثن ان استمر أن المرعى فانقلبن مسافحات متهتكات. فويل للمترفين المسرفين في الشهوات، الفاسقين المفسدين للمحصنات

كان اولئك الكبراء يبذلون للحسناء ما تحب وكان من دونهم من الموسرين والجنود يفيضون من فضل رزقهم في هذه السبيل كل بحسب حاله . وكان بدء اغواء الكثيرات من العذارى والمحصنات أنهن طلبن من بعض الرؤساء شيئا من مال الاعاشة الذي كان يباع رخيصا من قبل الحكومة أو طلبن الصدقة والاحسان من بعض الاغنياء فراودوهن عن أنفسهن فتمنعن المرة بعد المرة طوعت لهن أنفسهن أن يجتلبن القوت الضروري بما جاب به غيرهن الثروة والزينة على أن يكون ضرورة تقدر بقدرها . ولما بذل العزيز المصون هان وابتذل فصار يعرض عند الحاجة. ثم لمجرد التمتع أو الربح. ففشا بذلك الفجور والعهر وصارت النساء تتبع جنود الاجانب حيثما عسكرت في البلاد السورية بعد جلاء الجند العثماني منها . وكن من قبل يستخفين في كل أرض يمر فيها الجند وان كان وطنيا .

ومن الجنود الاجانب من لقومهم صلة دين ومذهب أو ولاء سابق أو لاحق مع بعض الشعوب فكان الضباط منهم يدمرون على أهل بيوت كبرائهم فيتلقون بالحفاوة والترحاب . ولا يقفل في وجه أحد منهم باب بل تغلق عليهم الابواب. وجرى على ذلك كثير من افراد الجند وتعدى بعضهم بيوت الاولياء المغبوطين الى بيوت غيرهم . فارتفعت الاصوات بالشكوى منهم . وصارت الابواب توصد في النهار كالليل اتقاء لشرهم .

(١) اللماج بالفتح أدنى ما يؤكل والعلهز بالكسر القراد والضخم ودويبات بالدم ويخفف فيتبلغ به في المجاعة

لما رأى المسلمون من أهل البلاد . استشراء الفسق والفساد ، وما تجدد من عوالم الاعواء والافساد. شعروا بالخطر الذي ينذرهم ويهدرهم فأنشأوا يثوبون الى رشدهم وكان من تأثير سنة رد الفعل فيهم أن بعض الشباب الذين أغوتهم تربية مدارس الدولة فلم يكونوا يصومون ولا يصلون وزادتهم أيام الحرب ثم أيام الهدنة والاحتلال بعداً عن الهدى والتقوى قد صاموا رمضان الماضي وصاروا يصلون. وتركوا مجالس الفسق بعد أن صار مباحا وسببا من اسباب الزلفى والحظوة عند الواقفين على أبواب الرزق والجاه — فهذه آية بينة على أن ماطرأ على الامة من الامراض الروحية والاجتماعية لم يكن قاتلا لها بل هي أمراض عارضة لكل منها سير ينتهي بانتهاء أجله المقدر له اذا تدورك بالعلاج قبل أن يكون المريض حرضاً او يكون من الهالكين

ان هذه الحرب لم تفسد اخلاق الضعفاء من البشر وحدهم بل أفسدت أخلاق جميع من صلي نارها من الامم والشعوب وألقت من العداوة والبغضاء والحقد والحسد بينها أضعاف ما كان قبلها . وما سبب ذلك الا ظهور رذائل التعاليم المادية فيها ، وأكبر هذه الرذائل وأشدها ضرراً استعباد الاقوياء للضعفاء وطمعهم فيهم . وهذه رذيلة يكرهها كل أحد من غيره . بقدر مايحبها كل قوي لنفسه . فالشكوى منها ومن آثارها السيئة ومصائبها التي تولدت منها عامة . ولكن اساطين السياسية المادية يحاولون ازالة أعراض المرض مع الاصرار والثبات على العلل والاسباب الموجبة لبقاء المرض نفسه فلا يترك أحد منهم شيئا من طمعه في بلاء المستضعفين ومحاولة الاستعلاء على العالمين

لقد كانت معاهدات الصلح شراً على البشر من أهوال الحرب وكل ما يشكو منه الغرب والشرق من الشقاء فمثاره هذه المعاهدات التي انفرد بها أفراد من أساطين ساسة الاستعمار وانصار رجال المال فمجلس العشرة الواضعين لمعاهدة الصلح الكبرى في فرسايل كان أصل مصائب البشر كلهم في هذا العصر، وكان مجلس الاربعة الوزراء في سائر المعاهدات. ولو وضعت برأي مجالس النواب لما اتفق أكثر أعضائها على ما اودعته من مواد القهر والانتقام من المغلوبين والاستعباد والاستذلال للضعفاء أو أن عدوا من الاصدقاء الموالين ، فلسنا وحدنا نتألم من سوء عاقبة الحرب بل يشكو آلامها معنا القاهر والمقهور. والواتر والموتور. والى الله ترجع الامور.

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

المنار

١٣١٥

يبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق

مصر. سلخ ذي الحجة ١٣٣٨ـ٢٠ السنبلة (ص٣) سنة ١٢٩٨ هش ١٣ سبتمبر ١٩٢٠

تفسير القرآن الحكيم

«على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه»

(١٢١) أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

وجه اتصال هاتين الآيتين بما قبلهما انه جاء في الآيات التي قبلهما ان أكثر أهل الارض ضالون متبعون للظن والخرص ، وان كثيرا منهم يضلون غيرهم بأهوائهم بغير علم ، وان الشياطين المتمردين العاتين عن أمر ربهم يوحون الى أوليائهم ما يجادلون به المؤمنين ليضلوهم ويحملوهم على اقتراف الآثام التي نهت تلك الآيات عن ظاهرها

وباطنها، بل ليحملوهم على الشرك أيضا بالذبح لغير الله تعالى والتوسل به اليه وذلك عبادة له معه ، فلما بين الله تعالى ما ذكر ضرب له مثلا يتبين به الفرق بين المؤمنين المهتدين، والكافرين الضالين ، للتنفير من طاعتهم، والحذر من غوايتهم ، وبيان ان سببه مازين للكافرين من أعمالهم، فلم يميزوا بين النور والظلمات ، وسنة الله في مكر أكابر المجرمين السيئات ، فقال :

﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ ﴾ قرأ جمهور القراء ميتًا بسكون الياء ونافع ويعقوب بتشديدها والتشديد أصل التخفيف الذي حذفت فيه الياء الثانية المنقلبة عن الواو في التشديد. والاستفهام للانكار، وهمزة الاستفهام داخلة على جملة محذوفة للعلم بها من السياق (وهو من لطائف الايجاز) عطف عليها قوله « ومن كان ميتا » والتقدير أأنتم أيها المؤمنون كاولئك الشياطين؟ أو كاوليائهم الذين يجادلونكم بما أوحوه اليهم من زخرف القول الذي غروهم به، ومن كان ميتا بالكفر والجهل فأحييناه بالايمان وجعلنا له نورا يمشي به في الناس وهو نور القرآن وما فيه من العلم الالهي والهداية بالآيات الى العلم النظري كمن مثله أي صفته ونعته الذي يمثل حاله هو انه خابط في ظلمات الجهل والتقليد الاعمى وفساد الفطرة ليس بخارج منها لانها قد أحاطت به وألفتها نفسه فلم يعد يشعر بالحاجة الى الخروج منها الى النور بل ربما يشعر بالتألم منه فهو بازاء النور المعنوي كالخفاش بازاء النور الحسي ؟ وهذا التقدير للجملة الاستفهامية المحذوفة هو الذي ارتضاه بعض المدققين في العربية ، ويمكن ان يقدر ما هو أقرب الى المعنى الذي يصل الآية بما قبلها مباشرة وهو قوله تعالى (وان أطعتموهم انكم لمشركون) بأن يقال ان تقدير الكلام : أطاعة هؤلاء المتبعين لوحي الشياطين، كطاعة وحي الله تعالى وهو النور المبين ، ومن كان ميتا بالكفر والشرك فأحييناه بالايمان، وكان متمسكا في ظلمات الجهل والغباوة وتقليد أهل الضلال فجعلنا له نورا من آيات القرآن ، المؤيدة بالحجة والبرهان ، يمشي به في الناس على بصيرة من أمره في دينه وآدابه ومعاملاته للناس ، كمن مثله المبين لحقيقة حاله كمثل السائر في ظلمات بعضها فوق بعض ـ ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر؟ وفسر بعضهم النور بالدين والاسلام

والمصداق واحد. والعبرة في هذا المثل أن يطالب المسلم نفسه بان يكون حيًّا عالمًا على بصيرة في دينه وأعماله وحسن سيرته في الناس ، وقدوة لهم في الفضائل والخيرات ، وحجة على فضل دينه على جميع الاديان ، وعلو آدابه على جميع الآداب

هذا المثل عام يشمل كل من ينطبق عليه في زمن التنزيل وغيره ، وعليه عامة أهل التفسير. وروي انه نزل في رجلين بأعيانهما والمراد والله أعلم انه نزل في ضمن السورة صادقا عليهما ظاهرا فيهما اتم الظهور فان السورة نزلت جملة واحدة كما تقدم ومن استثنى منها بعض آيات لم يذكروا هذه الآية منها والا لكان شموله من باب قاعدة : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، على انهم اختلفوا في الرجلين واختلافهما يرجح ماقلناه من ارادة صدق المثل عليهما فروي عن ابن عباس وزيد بن اسلم والضحاك ان الاول صاحب النور عمر بن الخطاب (رض) وعن عكرمة ان الاول عمار بن ياسر كذا في كتب التفسير بالمأثور وذكر الرازي قولين آخرين عزا أحدهما الى ابن عباس وهو أن الاول حمزة (رض) عم النبي (ص) والثاني أنه النبي (ص) نفسه وعزاه الى مقاتل ، وهذا اضعف الاقوال واوهاها فان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لا يقال انه كان قبل النبوة ميتا وان ورد في سورة الضحى انه كان ضالا فهداه الله اي كان لا يعرف المخرج من الحيرة التي كان فيها من أمر اصلاح الناس وهدايتهم ولا الكتاب ولا الايمان التفصيلي الذي أوحي اليه بعد ذلك. وقد اتفق أصحاب هذه الاقوال على أن الرجل الثاني في المثل هو أبو جهل لعنه الله تعالى. قال الرازي في الرواية الاولى ان اباجهل رمى النبي (ص) بفرث (وهو ما في الكرش) وحمزة يومئذ لم يؤمن فأخبر بذلك عند قدومه من صيد له والقوس بيده فعمد الى ابي جهل وتوخاه بالقوس وجعل يضرب رأسه فقال ابو جهل: اما ترى ماجاء به؟ سفه عقولنا وسب آلهتنا . فقال حمزة انتم أسفه الناس ، تعبدون الحجارة من دون الله . اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله . وقال في الثانية ان ابا جهل قال : زاحمنا بنو عبد مناف بالشرف حتى اذا صرنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يوحى اليه ، والله لا نؤمن به الا أن يأتينا وحي كما يأتيه . وقصة إلقاء فرث الجزور على النبي (ص) وهو ساجد مشهورة وكذا قول ابي جهل في بني عبد مناف ولم يكن شيء منهما سببا لنزول هذه الآية

﴿كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ اي مثل هذا التزيين الذي تضمنه المثل في الجملة السابقة وهو تزيين نور الهدى والدين لمن أحياه الله تلك الحياة المعنوية العالية وتزيين ظلمات الضلال والكفر لموتى القلوب قد زين للكافرين ما كانوا يعملونه من الآثام كعداوة النبي (ص) وذبح القرابين لغير الله تعالى وتحريم ما لم يحرمه واحلال ما حرمه عليهم بمثل تلك الشبهات التي تقدم شرحها في تفسير الآيات السابقة، وقد بني فعل التزيين هنا للمفعول لان المشبه به حسن وقبيح فالاول تزيين عمل المؤمن للمؤمن والثاني تزيين عمل الكافر للكافر، وانما لم يذكر في المشبه الا النوع الثاني لان السياق له وانما ذكر الاول في المثل لمشار اليه في التشبيه لبيان قبح الضد بمقابلته بحسن ضده، والذي يزين للكافرين أعمالهم القبيحة هو الشيطان بوسوسته كما قال في خطابه للباري تعالى (١٥: ٣٩ لأزينن لهم في الارض) وسائر شياطين الانس والجن كما تقدم في تفسير الآية ١١١ وان كان كل ما يجري في الكون يسند الى الله تعالى باعتبار الخلق والتقدير واقامته نظام الكون بسنن ارتباط الاسباب بالمسببات. وتقدم اسناد تزيين الاعمال الى الشيطان في الآية ٤٣ من هذه السورة. وقد حققنا في تفسير قوله تعالى (٣: ١٣ زين للناس حب الشهوات) ما يسند من التزيين الى الله تعالى وما يسند منه الى الشيطان وما يبنى فعله للمجهول بالشواهد من الآيات الكثيرة الواردة في ذلك. فليراجع في الجزء الثالث من التفسير (ص ٢٣٨) ومنه يعلم ضعف استدلال بعض المفسرين والمتكلمين بالآية على مذاهبهم

﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ اختلف المفسرون في وجه التشبيه هنا فاستنبطه بعضهم من قرينة الحال التي نزلت فيها السورة وهي بيان حال أهل مكة في كفرهم وعداوتهم للنبي (ص) باغراء أكابرهم المستكبرين، وتقديره: وكما جعلنا في مكة اكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية من قرى الامم اكابر مجرميها ليمكروا فيها فليس هؤلاء الاكابر ببدع من الاكابر المجرمين بل ذلك شأن الاكابر المترفين المتكبرين في كل أمة، واستنبطه بعضهم من عبارة الآية التي قبل هذه الآية فجعل القرينة له لفظية فقال في التقدير: وكما زين للكافرين ما كانوا

يعملون كذلك جعلنا في كل قرية الخ وجمع بعضهم بين القرينتين اللفظية والحالية المعنوية فعلى هـذا يكون التقدير هكذا : وكما ان أعمال أهل مكة مزينة لهم جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها فزين لهـم بحسب سنتنا في البشر سوء أعمالهم في عداوة الرسل ومقاومة الاصلاح اتباعا للهوى واستكباراً في الارض

ولفظ أكابر جمع أكبر ، وفسره مجاهد وقتادة بالعظماء أي الرؤساء اشارة الى أنه جمع كبير، قال ابن جرير ولو قيل هو جمع كبير فجمع أكابر لكان صواباً. واستدل بما سمع عن العرب من قولهم الاكابرة والاصاغرة والاكابر والاصاغر بغير الهاء .قال: وكذلك تفعل العرب بما جاء من النعوت على أفعل اذا أخرجوها الى الاسماء مثل جمعهم الاحمر والاسود الاحامر والاحامرة والاساود والاساودة ومنه قول الشاعر

ان الاحامرة الثلاثة أهلكت مالي وكنت بهن قدما مولعا

وذكر البيت الثاني الذي بين الشاعر فيه الاحامرة وهي اللحم والخمر والزعفران من الطيب وقد اختلفوا في روايته وهو الاعشى .

والمجرمون أصحاب الجرم أو فاعلو الاجرام وهو مافيه الفساد والضرر من الاعمال. والقرية البلد الجامع للناس ويستعمل في التنزيل بمعنى العاصمة في عرف هذا العصر أي المدينة الجامعة التي يقيم فيها زعماء الشعب وأولو أمره . وكذا بمعنى الشعب أو الامة ويعـبر عنها أهـل هذا العصر بالبلد فيقولون : ثروة البلد ومصلحة البلد ، أي الامـة ، و: المعاهـدات بين البلدين تقتضي كذا ـ أي بين الامتين أو الدولتين . و « جعلوا » متعدية لمفعول واحد عند بعضهم ولمفعولين عند الاكثرين واختلفوا في اعرابها فلخص البيضاوي أشهر الاقوال بقوله : أي كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيهـا . وجعلنا بمعنى صيرنا ومفعولاه «اكابر مجرميها» على تقـديم المفعول الثاني — أو «في كل كل قرية أكابر» ومجرميها بدل، ويجوز ان يكون مضافا اليه ان فسر الجعل بالتمكين وافعل التفضيل اذا أضيف جاز فيه الافراد والمطابقة ولذلك قرئ (اي في الشواذ) « اكبر مجرميها» اه ورجح الرازي أن المعنى : جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر.

والمكر صرف المرء غيره عما يريده الى غيره بضرب من الحيلة في الفعل والخلابة

في القول ، والاكثر فيه ان يكون الصرف عن الحق الى الباطل وعن الخير الى الشر لان الحق والخير قلما يحتاج الى اخفائهما .

ونقول في العبرة بالآية بما يناسب حال هذا العصر ان سنة الله تعالى في الاجتماع البشري قد مضت بأن يكون في كل عاصمة لشعب او أمة أو كل قرية وبلدة أكابر مجرمين ، او مجرميها أكابر ليمكروا فيها ، أو بأن يكون أكابرها المجرمون ماكرين فيها .

وكذلك شأن اكثر أكابر الامم والشعوب ولاسيما في الازمنة التي تكثر فيها المطامع ويعظم حب الرياسة والكبرياء: يمكرون بالناس من أفراد أمتهم وجماعاتها ليحفظوا رياستهم ويعززوا كبرياءهم ويثمروا مطامعهم فيها ، ويمكر الرؤساء والساسة منهم بغيرهم من الامم والدول لارضاء مطامع أمتهم وتعزيز نفوذ حكومتهم في تلك الامم والدول. وقد عظم هذا المكر في هذا العصر فصار قطب رحى السياسة في الدول ، وعظم الافك بعظمه لانه أعظم أركانه ، وقد كتبنا مقالا في بيان ذلك وشرح علله وأسبابه عنوانه (دولة الكلام المبطلة الظالمة) نشر في الجزء الخامس من مجلد المنار الحادي والعشرين فليراجعه من شاء .

وهذا العموم في الآية صحيح واقع يعرفه أهل البصيرة والعلم بشؤون الاجتماع والعمران اذا كان المعنى المراد منها ان كل قرية يوجد فيها من الاكابر المجرمين من يمكر فيها أو ان أكابر المجرمين في كل قرية جعلوا ماكرين، ولا تظهر صحة العموم في القرى ولا اكابر جميعا بجعل جميع الاكابر مجرمين في جميع القرى أو بجعل جميع المجرمين فيها أكابر أهلها بحيث يكون الاجرام هو سبب كونهم أكابرها بل يظهر هذا في القرى التي استحقت الهلاك بحسب سنة الاجتماع المبينة في قوله تعالى في سورة الاسراء (١٧: ١٦ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ولاسيما على القول الراجح بأن معناه أمرنا مترفيها بما أرسل به الرسل من التوحيد وعبادة الله وحده والصلاح والاصلاح والعدل ففسقوا عن أمر ربهم وظلموا وأفسدوا فحق عليها القول الذي أوحاه الله الى الرسل بمثل قوله (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين) فدمرناها تدميرا . وكذا على القول بأن معنى « أمرنا مترفيها » كثرناهم لان

كثرتهم وقلة الصالحين المتقين لا تتحقق عادة الا اذا كان جمهور الاكابر منهم ،

وقد راجعنا بعد كتابة ما تقدم تفسير الحافظ ابن كثير فألفيناه قد استشهد بآية الاسراء في تفسير الآية التي نحن بصدد تفسيرها وقال : قيل معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم ، وقيل أمرناهم أمرا قدريا كما قال هنا « ليمكروا فيها » وقوله تعالى (أكابر مجرميها ليمكروا فيها) قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : سلطنا شرارهم فعصوا فيها فاذا فعلوا ذلك أهلكناهم . اه . والمراد بالامر القدري ويعبر عنه بعضهم بأمر التكوين ما اقتضته سنة الله تعالى في نظام الخلق وتكوينه كما قال (إنا كل شيء خلقناه بقدر) أي بنظام مقدر لا أنفاء و بحكمة بالغة لا جزافا .

ثم نعود الى بحث العموم في الآية فنقول : لو كانت العبارة نصا في أن جميع أكابر كل قرية مجرمون ما كرون لوجب جعلها من باب العموم المراد به الخصوص بأن يراد بأكابر المجرمين الذين يقاومون دعوة الاصلاح ويعادون المصلحين من الرسل وورثتهم . لينطبق على الواقع ، والا فان أكابر أهل مكة لم يكونوا كلهم ماكرين بالنبي (ص) والمؤمنين ، وانما كان أكثرهم كذلك

وعلل المفسرون تخصيص الاكابر بأنهم اقدر على المكر واستتباع الناس . ومن قال منهم بأن المعنى جعلنا مجرميها أكابر فلا يحتاج الى هـذا التعليل ، واللام في « ليمكروا » يجب أن تكون على هذا القول لام العاقبة فان المجرمين اذا صاروا أكابر بلد وزعماءه لا يمكنهم أن يحافظوا على مكانتهم فيه الا بالمكر والخداع . وانما يظهر التعليل على القول بان الاكابر المجرمين فيها أو أكابر مجرميها قد جعلوا ماكرين ، وانما يكونون كذلك لأنهم مجرمون ، كما علم مما تقدم

﴿ وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ هذا بيان حقيقة أخرى من طبائع الاجتماع الانساني متممة لما قبلها وهي تتضمن الوعيد لاكابر مجرمي مكة الماكرين ، والوعيد والتسلية للنبي (ص) والمؤمنين ، وذلك بالايجاز الذي يستنبطه الاذكياء من أمثال هذه القواعد العامة ، وسيصرح به في الآيات التالية . أي وما يمكر اولئك الاكابر المجرمون الذين يعادون الرسل في عصرهم ودعاة الاصلاح من ورثتهم بعدهم الا بانفسهم ، وكذا سائر من يعادون الحق والعدل والصلاح ، لبقاء ما هم عليه من الفسق والفساد ،

لان عاقبة هذا المكر السيئ تحيق بهم في الدنيا والآخرة — أما في الآخرة فالامر ظاهر والنصوص واضحة، وأما في الدنيا فبما ثبت في الآيات من نصر المرسلين، وهلاك الكافرين المعاندين لهم، ومن علو الحق على الباطل ودمغه له، ومن هلاك القرى الظالمة المفسدة، وبما أيد ذلك من الاختبار حتى صار من قواعد علم الاجتماع أن تنازع البقاء ينتهي ببقاء الامثل والاصلح وفاقا للمثل الذي ضربه الله تعالى للحق والباطل «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض» فالذين كانوا يمكرون السيئات لمقاومة اصلاح الرسل وغيرهم حرصا على رياستهم وفسقهم وفسادهم، لم يكونوا يشعرون بأن عاقبة مكرهم تحيق بهم لجهلهم بسنن الله تعالى في خلقه، وأما أكابر المجرمين في هذا العصر فهم قلما يقاومون بمكرهم اصلاحا يرضي الله تعالى كاصلاح الرسل وورثتهم لانه لا يكاد يوجد فيقاوموه، وانما يمكرون بأمثالهم من المعارضين لهم من أمتهم في الامور الداخلية، ومن خصومها في السياسة الخارجية والمطامع الاجنبية، فمكرهم في الغالب باطل يصادم باطلا، وان كان بعضه يسمى حقا عرفيا أو سياسيا، فان وجد في بعض هذا الصدام حق صحيح ووجد من يؤيده وينصره، فلا بد ان تكون العاقبة له، وتحقيق معنى الحق والباطل دقيق جدا، وقد حررنا فيه مقالا خاصا عنوانه (الحق والباطل والقوة) بينا فيه حقيقته وأنواعه — كالحق في الفلسفة والنظريات العقلية، والحق في الوجود وسنن الكون، والحق في السنن الاجتماعية، والحق في القوانين والمواضعات العرفية، والحق في الدين والشريعة الالهية وبينا بالبرهان الصحيح ان الحق الصحيح يغلب الباطل في كل شيء. ومعنى وعد الله بنصر المؤمنين وصدقه بشرطه، وحال المسلمين في هذا العصر مع الامم الغالبة لهم، وقد نشرنا هذا المقال في المجلد التاسع من المنار (ص٥٢ — ٦٥) فليراجعه من شاء

---

(١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ، اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)

فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَٰمِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ، كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

الآية الاولى من هذه الآيات معطوفة هي وما في حيزها على آخر أمثالها من طوائف الآيات التي تصف أحوال المشركين وعقائدهم وأعمالهم ومقاومتهم للاسلام وصدهم عنه وعن الرسول الداعي اليه مبدوءا أولها بالحكاية عنهم بضمير الغيبة ثم قد يتخللها آيات بضمير الخطاب على طريقة الالتفات، ويتضمن بعضها ما يتضمن من الحقائق في أصول الايمان وسنن الاجتماع وطبائع الامم، وأقرب هذه الطوائف الآيات المبدوءة بضمير الغيبة في الحكاية عنهم الآية التي افتتح بها هذا الجزء (الثامن) وهي قوله تعالى (١١٠ ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله) المبطلة لما حكاه عنهم قبلها بقوله (وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) الى آخر الآيتين اللتين ختم بهما الجزء السابق (السابع) وقد تضمنت هذه الطائفة من الآيات — من أول الجزء الى هنا — احتجاجا على المشركين بآية القرآن التي هي أقوى حجة على الرسالة من جميع آيات الرسل، وحقائق في طباع البشر وشؤون الكفار في جميع الامم، وإثبات ضلال أكثر أهل الارض، وتخصيص مسألة الذبائح لغير الله من ضلالهم بالذكر لانها من اكبرها، ووحي الشياطين لاوليائهم في المجادلة فيها، وتلا ذلك ضرب المثل للمؤمنين والكافرين، وبيان قاعدة الاجتماع البشري في الامم الضالة بمكر زعمائها المجرمين، وهذه القاعدة تنطبق أتم الانطباق على جمهرة اكابر مكة. وبذلك يكون التناسب والاتصال بين هذه الآيات وبين ماقبلها من وجهين — وجه عام يتعلق بالاسلوب في الطوائف الكثيرة من آيات

كل سياق، ووجه خاص يتعلق ببيان كون مجرمي مكة الماكرين المبين حالهم في الآية الاولى ليسوا الا بعض افراد العام في الآية التي قبلها ، وهو المقصود أولا بالذات من الاعتبار بتلك القاعدة، ويليها بيان سنة الله في المستعدين للايمان والهدى وغير المستعدين مع ظهور الحق في نفسه وهو صراط الرب وجزاء سالكه عند الله تعالى. قال عز وجل

﴿ واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ أي واذا جاءت أولئك المشركين - الذين (اقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) - آية بينة من القرآن تتضمن حجة عقلية ظاهرة الدلالة على صدق الرسول (ص) فيما جاء به عن ربه من التوحيد والهدى قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الى الامم قبلنا. قال هذا أكابرهم المجرمون، ورؤساؤهم الماكرون، وتبعهم عليه الغوغاء المقلدون، قال ابن جرير فيه: يعنون حتى يعطيهم الله من المعجزات مثل الذي اعطى موسى من فلق البحر وعيسى من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص. وقال ابن كثير: أي حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي الى الرسل كقوله جل وعلا (٢٥: ٢٣ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) الآية . فالقول الاول معناه انهم لا يؤمنون بما جاء به محمد (ص) الا اذا أوتوا على يديه من الآيات الكونية التي يؤيده الله بها مثل ما أوتي أولئك الرسل عليهم السلام . ومعنى القول الآخر انهم لا يكونون مؤمنين بالرسالة مطلقا الا اذا صاروا رسلا يوحى اليهم، وهذا أقرب الى قوله تعالى في الرد عليهم ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وان كان كل من المعنيين واقعا منهم. ومنه قوله تعالى (٢: ١١٨ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) الخ. قرأ «رسالته» (بالافراد) ابن كثير وحفص عن نافع باعتبار انها جنس واحد ، وقرأها الباقون رسالاته (بالجمع) باعتبار تعدد الرسل . وهذه الجملة من كلام الله تعالى رد عليهم وبيان لجهالتهم ، ينتظره السامع والقارئ بعد حكاية ما تقدم من قولهم ، والوقف قبله تام لانه آخر قولهم المحكي عنهم

قال الحافظ ابن كثير: أي هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى (٤٣: ٣٠ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك؟) الآية. يعنون : لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير

جليل مبجل في أعينهم من القريتين أي مكة والطائف . وذلك أنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسدا وعنادا واستكبارا كقوله تعالى مخبرا عنه (٢١: ٣٦ واذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك الا هزوا: أهذا الذي يذكر آلهتكم؟ وهم بذكر الرحمن هم كافرون) وقال تعالى (٢٥: ٤١ واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا: أهذا الذي بعث الله رسولا) وزاد ابن كثير انهم كانوا مع ذلك معترفين بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه، وانهم كانوا يسمونه الامين، واستشهد على ذلك بشهادة أبي سفيان لهرقل بصدقه والثناء عليه يوم كان أشد أولئك الاكابر مجاهرة بعداوته ومكرا به، كأنه يعني ان ما يعلمون من فضائله الذاتية والنسبية والبيتية ينبغي ان يكون مقنعا لهم بأنه أولى من جميع أولئك الاكابر الحاسدين له بالرسالة وبكل كرامة صحيحة من الحكم العدل العليم الخبير، ولكن حسد الاكابر و بغيهم، وتقليد من دونهم لهم بتأثير مكرهم، قد كانا هما الباعثين لهم على تلك الاقوال فيه، والافعال في عداوته ومعاندته

وقوله تعالى « الله أعلم حيث يجعل رسالته » حجة لاهل الحق على أن الرسالة فضل من الله تعالى يختص به من شاء من خلقه ،لا ينالها احد بكسب ، ولا يتوسل اليها بسبب ولا نسب، كما قال (٢: ٥ مايود الذين كفروا — الى قوله — والله يختص برحمته من يشاء) الآية، وعلى أنه تعالى لا يختص بهذه الرحمة العظيمة، والمنقبة الكريمة، الا من كان أهلا لها بما اهله هو من سلامة الفطرة، وعلو الهمة ، وزكاء النفس ، وطهارة القلب، وحب الخير والحق. وكان أذكياء العرب في الجاهلية على شركهم بالله تعالى يعلمون ان الصادقين محبي الحق وفاعلي الخير من الفضلاء اهل لكرامته تعالى وعنايته كما يؤخذ من استنباط أم المؤمنين خديجة في حديث أم المؤمنين عائشة في بدء الوحي فانه (ص) لما قال لخديجة رضوان الله عليها « لقد خشيت على نفسي » قالت له: كلا فوالله لا يخزيك الله أبدا : انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، هذا لفظ مسلم

وذكر الرازي أن في قوله تعالى (الله اعلم حيث يجعل رسالته) فيه تنبيها على دقيقة حقيقة بالذكر، وهي ان أقل ما لا بد منه في حصول النبوة والرسالة البراءة من المكر والغدر والغل

والحسد، (وقولهم) «لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله» عين المكر والغدر والحسد فكيف يعقل حصول النبوة والرسالة مع هذه الصفات. اهـ وذكر (الرازي) قبل ذلك ان هذه الآية نزلت في قول الوليد بن المغيرة: والله لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أحق بها من محمد فاني أكثر منه مالا وولدا. ومن المعهود أن يصل الغرور ببعض المغرورين بالمال والقوة الى اعتقاد مثل هذا وانتحاله لانفسهم — وان كانت الرواية في كون هذا القول كان سببا للنزول لم تصح وقيلت في سبب نزول غيرها — كما أنه عهد منهم أن يقولوا مثل هذا القول كبرا وعنادا يكابرون بهما أنفسهم ، وخداعا وغرورا يغشون بهما غيرهم، ولا يهتدي لمثل استنباط خديجة (رض) الا لافراد من الفضلاء المنصفين ، وقد سبق في غير موضع من تفسير هذه السورة تحقيق القول في طالب المشركين للآيات الكونية وفي كبريائهم وحسدهم وغرورهم، وكونها هي العلل الحقيقية لكفرهم وجحودهم

وبعد ان رد الله تعالى على أولئك المستكبرين المغرورين ما تضمنه قولهم من دعوى الاستعداد لمنصب الرسالة اقتضت الحال ان يبين لكل من السامع والقارئ ما يسائل به نفسه عن جزائهم وذلك قوله تعالى :

﴿ سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ هذا الوعيد صريح في كون قائلي ذلك القول « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله » من المجرمين الماكرين الذين مضت سنة الله تعالى بأن يكونوا أكابر وزعماء في كل قرية دب فيها الفساد وكان أهلها مقاومين للاصلاح، وفيما ذهبنا اليه من عود مكرهم عليهم بعقاب الله تعالى اياهم في الدنيا والآخرة ، وقد قصر الحافظ ابن كثير في اقتصاره على ذكر عقابهم في الآخرة .

الصغار كالصغر (بالتحريك) في الامور المعنوية كالصغر (بوزن العنب) في الاشياء الحسية كما قال الراغب، وقد فسروه هنا بالذلة والهوان، جزاءا على الكبر والطغيان ، وفسر الراغب الصاغر بالراضي بالمنزلة الدنية وهو يطابق المعنى اللغوي ، والتحقيق في تفسير (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ان المراد بالصغار خضوعهم لاحكامنا، ونقل ابن جرير عن بعض أهل التفسير المأثور أن إعطاءهم اياها هو الصغار أي لانه طاعة وخضوع لغيرهم. وهناك قولان آخران لهم أحدهما ما رواه عن الضحاك

ان معناه أن تأخذها وأنت جالس وهو قائم، وثانيهما أن يمشوا بها وينقلوها الى العامل، وليس هـذا ولا ذاك بمعنى الصغار في اللغة وانما أراد قائلوهما انه يتحقق بهما ولم يريدوا أن اللفظ يدل عليه بوضعه اللغوي

ومعنى كون هذا الصغار يصيبهم عند الله انه يحصل لهم في الآخرة اذ كل مافيها يطلق عليه انه عند الله باعتبار انه ليس لاحد من الخلق هنالك تصرف مّا ولا تأثير، لا كالدنيا التي صرّف الله فيها الناس أنواعا من التصرف. أو معناه أنه مما اقتضاه حكمه وعدله وسبق به تقديره فان ما هو ثابت عند الله في حكمه القدري التكويني الذي دبر به نظام الخلق، وما ثبت في حكمه الشرعي التكليفي الذي أقام به العدل والحق، يطلق عليه — أي على كل منهما انه عنده . قال تعالى في أهل الافك (٢٤: ١٣ فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) ثم قال فيه (٢٤: ١٥ وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) وعلى القول الثاني يصح ان يحصل هذا الجزاء لهم بالصغار على استكبارهم عن الحق في دار الدنيا قبل الآخرة. وعلى القول الاول يتعين ان يكون في الاخرة، وحينئذ يكون المراد بالعذاب الشديد ما يصيبهم في الدنيا أو في الدنيا والآخرة جميعا. قال تعالى (٣٩: ٢٥ كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ٢٦ فأذاقهم الله الخزي في الحيـاة الدنيا ولَعـذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) وقال في عاد قوم هود بعد ما ذكر من استكبارهم وجحودهم (٤١: ١٥ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون) وعذاب الامم في الدنيا بذنوبها مطرد ولا يطرد عذاب الافراد وإن كانوا من المجرمين الماكرين ، ولكن أكابر مجرمي مكة الذين تصـدوا لايذاء النبي (ص) والكيد له قد عذبوا في الدنيا كالخمسة المستهزئين الذين قيل ان السياق السابق في طلب الآيات الذي يعـد هذا السياق تابعا له نزل فيهـم لانهم رؤساء المجرمين وقتل من قتل منهم في بدر كما هو معروف في السيرة النبوية .

واذ قد بين تعالى عاقبة المجرمين الماكرين الذين حرموا الاستعداد للاسلام بعد بيان حالهم ، قفى عليه بالمقابلة بينهم وبين المستعدين له، ثم ببيان ظهور هدايته ، واستقامة محجته ، وبجزاء المهتدين به على حسب سنته في كتابه ، فقال

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ﴾ هذا وصف لحال المستعد لهداية الاسلام بسلامة فطرته وطهارة نفسه من الخلقين الصادين عن اجابة دعوة الحق وهما الكبرياء والحسد بتحليها — أي نفسه — بالهاديين الى الحق والرشاد. وهما استقلال الفكر الصادّ عن تقليد الآباء والاجداد وقوة الارادة الصارفة عن اتباع الرؤساء أو مجاراة الانداد، فمن كان كذلك كان أهلا بارادة الله تعالى وتقديره لقبول دعوة الاسلام الذي هو دين الفطرة ومهذبها، فاذا ألقيت اليه وجد لها في صدره انشراحا واتساعا بما يشعر به قلبه من السرور وداعية القبول، وذلك انه لا يجد مانعا من النظر الصحيح فيما ألقي اليه فيتأمله فتظهر له آيته، وتتضح له دلالته فتتوجه اليه ارادته، ويذعن له قلبه فتتبعه جوارحه، وهذا هو النور الذي يفيض عليه من القرآن أو الذي يسير فيه باتباعه له، فهذه الآية مقابلة لآية المثل الذي ضرب به الله تعالى في هذا السياق للمؤمنين والكافرين، وما العهد بها ببعيد، وفي معناها قوله تعالى (٣٩ : ٢٢ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين)

﴿ ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ﴾ قرأ ابن كثير ضيقا بتخفيف الياء والباقون بتشديدها فهو كميت وميت وهين وهين ولين ولين. وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم « حرجا » بكسر الراء على الصفة المشبهة والباقون بفتحها على الوصف بالمصدر. وقرأ ابن كثير (يصعّد) بسكون الصاد مضارع صعد الثلاثي (كفرح يفرح) وأبو بكر عن عاصم يصّاعد بالالف وتشديد الصاد وأصله يتصاعد أي يحاول الصعود المرّة بعد المرة، والباقون (يصعد) بتشديد الصاد والعين وأصله يتصعد أي يتكلف الصعود ويحاول منه مالا يستطيع

وهذا وصف الكافر غير مستعد لقبول الاسلام بما أفسد من فطرته بالشرك وأعماله وبما تدنست به نفسه من رذيلتي الكبر والحسد اللذين يصرفان المدنس بهما عن التأمل فيما يدعى اليه والحرص على استبانة الحق والباطل فيه، ويشغلانه بما يكون من شأنه مع الداعي له الى الشيء، فيعز على المستكبر والحاسد ان يكون تابعا لغيره، وهو يرى نفسه أجدر بالامامة منها بالقدوة، أو بما سلبه استقلال الفكر وصحة النظر

من التقليد الاعمى لاصم ، أو ما حرمه حرية التصرف وهو ضعف الارادة عن مخالفة الجمهور ، فهو اذا عرضت عليه الدعوة يجد صدره ضيقا حرجا أو ذا حرج شديد وهو تأكيد للضيق لانه بمعناه ، وقيل بل هو أضيق الضيق ، وجعله الراغب وغيره مشتقا من الحرجة التي هي الشجر الكثير الملتف بعضه ببعض بحيث لا يتسع للزيادة . وروي ان عمر سأل أعرابيا من مدلج عن الحرجة فقال هي الشجرة تكون بين الاشجار لا تصل اليها راعية ولا وحشية . فقال عمر . كذلك قلب المنافق لا يصل اليه شيء من الخير . ذكره الحافظ ابن كثير ، وفي لسان العرب عن الفراء قال : الحرج فيما فسرها هو الموضع الكثير الشجر الذي لا تصل اليه الراعية ، قال وكذلك صدر الكافر لا تصل اليه الحكمة اه وهذا يتفق مع ما قبله فان الحرج بالتحريك جمع حرجة وهي الشجر منه . وأطلق كل منهما على المكان ذي الشجر الكثير الملتف . والمعنى انه يجد صدره شديد الضيق لا يتسع لقبول شيء جديد مناف لما استحوذ على قلبه وفكره من التقاليد ، أو لما يزلزل كبرياءه ويصادم حسده من الخضوع والاتباع لمن يرى نفسه أولى منه بالرياسة والامامة ، فيكون استثقاله لاجابة الدعوة وشعوره بالعجز عنها كشعوره بالعجز عن الصعود بجسمه في جو السماء لاجل الوصول اليها أو التصاعد فيها بالتدريج أو التصعد أي التكلف له ، وصعود السماء يضرب به المثل فيما لا يستطاع أو ما يشق على النفس حتى كأنه غير مستطاع . وروي عن مجاهد والسدي تفسير الضيق الحرج بالشاك ، وعن عطاء الخراساني بما ليس فيه للخير منفذ ، وعن سعيد بن جبير قال : لا يجد فيه مسلكا ولا مصعدا .

﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ أي مثل جعل الصدر ضيقا حرجا بالاسلام وعلى هذا النحو في سنة الله فيه وتقديره له بما ذكرنا من أسبابه يجعل الله الرجس على الذين يعرضون عن الايمان فيظهر في أعمالهم وتصرفهم ولا سيما مع أهل الدعوة فيكون معظمها قبيحا سيئا في ذاته أو فيما بعث عليه من قصد ونية ، فان الرجس يطلق في اللغة على كل ما يسوء أو يستقذر حساً أو عقلا وعرفا . وقد اطلنا في شرح معناه في تفسير آية الخمر من سورة المائدة (٥ : ٩٣) فهو يفسر في كل كلام بما يناسب المقام ، وقد روي عن ابن عباس تفسيره هنا بالشيطان ، وعن

مجاهد بكل ما لاخير فيه، وعن عبدالرحمن بن زيد بن اسلم بالعذاب، وقال الزجاج هو اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة ،وقال تعالى في سورة يونس (١٠: ١٠٠ وما كان لنفس أن تؤمن الا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) وكأن الجعل في الآيتين ضمن معني الالقاء، أي على ذلك النحو في أسباب جعل الصدر ضيقا حرجا بأصل الاسلام يقع بتقدير الله تعالى كل سوء وشر على الذين لا يؤمنون بأن يكون لازما لهم، وتلقى تبعته عليهم، لان الايمان الذي اجتنبوه هو الذي يصدعنه، ويطهر الانفس منه، ولاجل هذا لم يقل: كذلك يجعل الله الرجس عليهم، أو على الكافرين

واعلم ايها القارىء أن هذه الآية كانت معترك أهل الكلام والقدرية والجبرية والمعتزلة والاشعرية ـ فالقدرية الذين ينكرون أن خلق الخلق وقع بتقدير سابق من الله تعالى ونظام ثابت بسنن حكيمة يقولون إن الآية ظاهرة في أن الله تعالى اذا أراد هداية امرئ يخلق في صدره انشراحا للاسلام فيكون قبوله له بخلق الله، وهذا الخلق يحصل أنفا أي جديدا غير مرتب على تقدير سابق، والجبرية منهم ومن غيرهم يقول اذا كان الامر كذلك فاسلام المرء ليس باختياره ولا كسبه بل بفعل الله تعالى وحده، ومن الاشعرية من يقول له فيه كسب ينسب اليه ولكنه مخلوق لله لا تأثير له في نفسه، وحاصل القولين واحد، ويقولون مثل هذا فيمن يريد أن يضله فيخلق له من ضيق الصدر والحرج ما يثبت به على كفره ويمتنع من قبول الايمان. وللمعتزلة تأويلات في الآية حاولوا فيها تطبيقها على مذهبهم في كون إيمان المرء وكفره من فعله المستقل فجعلها بعضهم خاصة بهداية المؤمن في الآخرة الى طريق الجنة وضلال الكافر عنه. وبعضهم من قبيل ما يعبرون عنه بمنح الالطاف والتوفيق المسهل لمن اراد الله هدايته أن يهتدي بفعله وكسبه، وعدم منح ذلك لمن لا يريد منه ذلك فيبقى على كفره بارادته واختياره ، وهذا أقرب ماقالوه الى مذهب أهل السنة

وانما وقع حذاق النظر في أمثال هذا الخلاف لاتخاذ مذاهبهم اصولا مسلمة ومحاولة حمل نصوص كتاب الله تعالى وأخبار رسوله (ص) عليها لتصحيحها وابطال مذاهب خصومهم المخالفة لها، فهم ينظرون في كل آية تتعلق بقواعد هذه المذاهب مفردة على حدتها ولا يعرضونها على سائر الآيات التي في موضوعها ليكونوا مؤمنين

وعاملين بالكتاب كله غير جاعليه عضين . ومن استعرض عقله عند تحقيق كل عقيدة أومسألة مجموع ماورد فيها يتجلى له الحق وانه لامجال للاختلاف في كتاب الله سبحانه (ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ففي الكتاب ان الله تعالى خلق كل شيء بقدر لا أنفا جديدا غير مرتبط بنظام سابق ، وفيه أن كل شيء بارادته ومشيئته، وان مشيئته مقرونة بحكمته التي اقتضت النظام والتقدير، وتنزه بهاعن الأنف والجزاف والتفاوت والخلل،وفيه أن إيمان العبد المكلف وكل عمل له يقع بفعله واختياره وان الله تعالى هو الذي خلقه فاعلا بالارادة والاختيار، وبهذا لا يكون فعله وكسبه منافيا لخلق الله ومشيئته، ولاجاعلا له مستقلادونه تعالى مستغنيا عن توفيقه وإمداده في كل حين حتى يقال إنه جعل خالقا لعمله، فالفرق بين الفعلين عظيم، وبهذا الجمع بين نصوص الوحي ، تظهر حجة الله البالغة على الخلق .

والتوفيق عناية خاصة من الله تعالى يتفضل بها على بعض عباده وهوأعلم حيث يضع توفيقه، كماهو أعلم حيث يجعل رسالته، فيجمع لمن تفضل عليه به بين ماجعله في مقدوره وتناول كسبه ، وبين ماليس كذلك مما فيه الخير والمصلحة له، فيتفق له الامران ، والخذلان ضده أوعدمه فهو أمر سلبي لا يظلم الله العبد المخذول شيئاً ، وقد يفسر الشيء تفسيرا سلبياً تكون حقيقته ايجابية،وتفسيراً إيجابيا تكون حقيقته سلبية. قال المحقق ابن القيم في بيان مشهد التوفيق والخذلان من كتابه (مدارج السالكين) : وقد أجمع العارفون الله بأن التوفيق هو أن لايكلك الله الى نفسك ، والخذلان هو أن يخلي بينك و بين نفسك اه وهذا تعريف بالرسم واضح المعنى فيما قلناه ، فمعنى أن لايكلك الى نفسك هو أن يمنحك فوق كل مافي قدرتك وما تتوجه اليه ارادتك مماتعلم من الخير لنفسك - مايتوقف عليه النجاح واصابة الخير مما ليس في مقدورك ولا يصل اليه اجتهادك وحدك ، و بعض ذلك نفسي و بعضه خارجي، فمعنى التوفيق ايجابي. وقولهم في تفسير الخذلان « أن يكلك الى نفسك» معناه أن لا يمنحك شيئاً من العناية الخاصة فيما يصل اليه كسبك ولا في تسخير مالا يصل اليه، واذاً لاتنال من الخير الا بقدر قدرتك على ما تعلم وتريد من أسبابه، وقدرتك لاتصل الى كل ماتعلم أن فيه الخير لك، وعلمك غير محيط بما فيه ذلك الخير،فانت تجهل كثيراً؟

وما أوتيت من العلم إلا قليلا ، وكثيراً ما نظن الجهل علما ، والشر خيراً .

وقد جاء ابن القيم بعد ذلك بتفسير ايجابي فقال: والتوفيق ارادة الله من نفسه أن يفعل بعبده مايصلح به العبد بان يجعله قديراً على فعل مايرضيه مريدا له محبا له ، مؤثرا له على غيره ، ويبغض اليه مايسخطه ويكرهه اليه ، وهذا مجرد فعله والعبد محل له . قال الله تعالى (٤٩: ٧ ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله، لا يمنعه أهله، ولا يضعه عند غير أهله» — الى آخر ماقال وأجاد.

﴿ فصل في الرد على الجبرية والقدرية بسنن الله وآياته ﴾

سبق لنا الرد على الجبرية والقدرية وابطال نظرياتهم وتأويلاتهم باثبات سنن الله تعالى وأقر به ما في تفسير (١٠٧ كذلك زينا لكل أمة عملهم (ص٦٦٩ ج٧) رددنا فيه على الفخر الرازي إمام هذه النزعة، وفارس هذه الحلبة ، ثم اننا رأيناه قد عاد في تفسير هذه الآية الى بسط القول في تلك المسألة، والرد على المعتزلة ، فاستحسنا أن ننقل أقوى كلامه ونقفي عليه بقول وجيز فيه قال :

« ولنختم تفسير هذه الآية بما روي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال تذاكرنا في أمر القدرية عند ابن عمر فقال: لعنت القدرية على لسان سبعين نبيا منهم نبينا صلى الله عليه وسلم فاذا كان يوم القيامة نادى مناد وقد جمع الناس بحيث يسمع الكل أين خصماء الله؟ فتقوم القدرية. وقد أورد القاضي هذا الحديث في تفسيره وقال هذا الحديث من أقوى ما يدل على أن القدرية هم الذين ينسبون أفعال العباد الى الله تعالى قضاء وقدرا وخلقا لان الذين يقولون هذا القول هم خصماء الله لانهم يقولون لله: أي ذنب لنا حتى تعاقبنا وأنت الذي خلقته فينا وأردته منا وقضيته علينا؟ ولم تخلقنا الا له وما يسرت لنا غيره، فهؤلاء لابد وان يكونوا خصماء الله بسبب هذه الحجة، أما الذين قالوا ان الله مكن وأزاح العلة وانما أتي العبد من قبل نفسه فكلامه موافق لما يعامل به من انزال العقوبة فلا يكونوا خصماء الله بل يكونون منقادين لله.

هذا كلام القاضي وهو عجيب جدا وذلك لانه يقال له يبعد منك أنك ماعرفت من مذاهب خصومك انه ليس للعبد على الله حجة ولا استحقاق بوجه من الوجوه وان كل مايفعله الرب في العبد فهو حكمة وصواب وليس للعبد على ربه اعتراض ولا مناظرة فكيف يصير الانسان الذي هذا دينه واعتقاده خصما لله تعالى. أما الذين يكونون خصماء لله فهم المعتزلة وتقريره من وجوه

(الاول) انه يدعي عليه وجوب الثواب والعوض ويقول لو لم تعطني ذلك لخرجت عن الالهية وصرت معزولا عن الربوبية وصرت من جملة السفهاء[1] فهذا الذي مذهبه واعتقاده ذلك هو الخصم لله تعالى

(والثاني) أن من واظب على الكفر سبعين سنة ثم انه في آخر زمن حياته قال لا إله الا الله محمد رسول الله عن القلب ثم مات ثم ان رب العالمين أعطاه النعم الفائقة والدرجات الزائدة ألف ألف سنة ثم أراد أن يقطع تلك النعم عنه لحظة واحدة فذلك العبد يقول أيها الاله اياك ثم اياك أن تترك ذلك لحظة واحدة فانك ان تركته لحظة واحدة صرت معزولا عن الالهية والحاصل ان اقدام ذلك العبد على ذلك الايمان لحظة واحدة أوجب على الاله ايصال تلك النعم مدة لا آخر لها ولا طريق له البتة الى الخلاص عن هذه العهدة فهذا هو الخصومة أما من يقول انه لاحق لاحد من الملائكة والانبياء على الله تعالى وكل مايوصل اليهم من الثواب فهو تفضل واحسان من الله تعالى فهذا لايكون خصما

(والوجه الثالث في تقرير هذه الخصومة) ما حكي أن الشيخ أبا الحسن الاشعري لما فارق مجلس استاذه أبي علي الجبائي وترك مذهبه وكثر اعتراضه على أقاويله عظمت الوحشة بينهما فاتفق أن يوما من الايام عقد الجبائي مجلس التذكير وحضر عنده عالم من الناس وذهب الشيخ أبو الحسن الى ذلك المجلس وجلس في بعض الجوانب مختفيا عن الجبائي وقال لبعض من حضر هناك من العجائز إني أعلمك مسألة فاذكريها لهذا الشيخ، قولي له كان لي ثلاثة من البنين واحد كان في غاية الدين والزهد والثاني كان في غاية الكفر والفسق والثالث كان صبيا لم يبلغ فماتوا على هذه الصفات فأخبرني

أيها الشيخ عن أحوالهم فقال الجبائي أما الزاهد ففي درجات الجنة وأما الكافر ففي دركات النار وأما الصبي فمن أهل السلامة. قال قولي له لو أن الصبي أراد أن يذهب الى تلك الدرجات العالية التي حصل فيها أخوه لزاهد هل يمكن منه ؟ فقال الجبائي لا لان الله يقول له انما وصل الى تلك الدرجات العالية بسبب انه أتعب نفسه في العلم والعمل وأنت فليس معك ذاك. فقال أبو الحسن قولي له لو أن الصبي حينئذ يقول يارب العالمين ليس الذنب لي لانك أمتني قبل البلوغ ولو امهلتني فربما زدت على أخي الزاهد في الزهد والدين. فقال الجبائي يقول الله له علمت انك لو عشت لطغيت وكفرت وكنت تستوجب النار فقبل أن تصل الى تلك الحالة راعيت مصلحتك وامتك حتى تنجو من العقاب. فقال أبو الحسن قولي له لو أن الاخ الكافر الفاسق رفع رأسه من الدرك الاسفل من النار فقال يارب العالمين ويا أحكم الحاكمين ويا أرحم الراحمين كما علمت من ذلك الاخ الصغير انه لو بلغ كفر علمت مني ذلك فلم راعيت مصلحته وما راعيت مصلحتي؟ قال الراوي فلما وصل الكلام الى هذا الموضع انقطع الجبائي فلما نظر رأى أبا الحسن فعلم أن هذه المسألة منه لا من العجوز

«ثم أن ابا الحسين البصري جاء بعد أربعة أدوار أو أكثر من بعد الجبائي فأراد أن يجيب عن هذا السؤال فقال نحن لا نرضى في حق هؤلاء الاخوة الثلاثة بهذا الجواب الذي ذكرتم بل لنا ههنا جوابان آخران سوى ما ذكرتم، ثم قال وهو مبني على مسالة اختلف شيوخنا فيها وهي انه هل يجب على الله أن يكلف العبد أم لا ؟ فقال البصريون التكليف محض التفضل والاحسان وهو غير واجب على الله تعالى. وقال البغداديون انه واجب على الله تعالى ، قال فان فرعنا على قول البصريين فلله تعالى أن يقول لذلك الصبي اني طولت عمر الاخ الزاهد وكلفته على سبيل التفضل ولم يلزم من كوني متفضلا على أخيك الزاهد بهذا الفضل ان اكون متفضلا عليك بمثله. وأما ان فرعنا على قول البغداديين فالجواب أن يقال ان اطالة عمر أخيك وتوجيه التكليف عليه كان احسانا في حقه ولم يلزم منه عود مفسدة الى الغير فلا جرم فعلته. واما اطالة عمرك وتوجيه التكليف عليك كان يلزم منه عود مفسدة الى غيرك فلهذا السبب ما فعلت ذلك في حقك فظهر الفرق. هذا تلخيص

كلام ابي الحسين البصري سعيا منه في تخليص شيخه المتقدم عن سؤال الاشعري بل سعيا منه في تخليص الـه عن سؤال العبد

« وأقول قبل الخوض في الجواب عن كلام ابي الحسين صحة هذه المناظرة الدقيقة بين العبد و بين الله (تعالى) انما لزمت على قول المعتزلة وأما على قول اصحابنا رحمهم الله فلا مناظرة البتة بين العبد و بين الرب، وليس للعبد أن يقول لربه لم فعلت كذا أو ما فعلت كذا فثبت أن خصماء الله هم المعتزلة لا أهل السنة وذلك يقوي غرضنا ويحصل مقصودنا

« ثم نقول أما الجواب الاول وهو أن اطالة العمر وتوجيه التكليف تفضل فيجوز أن يخص به بعض دون بعض. فنقول هذا الكلام مدفوع لانه تعالى لما أوصل التفضل الى أحدهما فالامتناع من ايصاله الى الثاني قبيح من الله تعالى لان الايصال الى هذا الثاني ليس فعلا شاقا على الله تعالى ولا يوجب دخول نقصان في ملكه بوجه من الوجوه وهذا الثاني يحتاج الى ذلك التفضل، ومثل هذا الامتناع قبيح في الشاهد ألا ترى أن من منع غيره من النظر في مرآته المنصوبة على الجدار لعامة الناس قبح ذلك منه لانه منع من النفع من غير اندفاع ضرر اليه ولا وصول نفع اليه، فان كان حكم العقل بالتحسين والتقبيح مقبولا فليكن مقبولا ههنا، وان لم يكن مقبولا لم يكن مقبولا البتة في شيء من المواضع وتبطل كلية مذهبكم فثبت أن هذا الجواب فاسد. وأما الجواب الثاني فهو أيضا فاسد وذلك لان قولنا تكليفه يتضمن مفسدة ليس معناه أن هذا التكليف يوجب لذاته حصول تلك المفسدة والا لزم أن تحصل هذه المفسدة أبداً في حق الكل وانه باطل، بل معناه ان الله تعالى علم أنه اذا كلف هذا الشخص فان انسانا آخر يختار من قبل نفسه فعلا قبيحا فان اقتضى هذا القدر أن يترك الله تكليفه فكذلك قد علم من ذلك الكافر أنه اذا كلفه فانه يختار الكفر عند ذلك التكليف فوجب أن يترك تكليفه وذلك يوجب قبح تكليف من علم الله من حاله انه يكفر وان لم يجب ههنا لم يجب هناك. واما القول بانه يجب عليه تعالى ترك التكليف اذا علم أن غيره يختار فعلا قبيحا عند ذلك التكليف ولا يجب عليه تركه اذا علم تعالى ان ذلك الشخص يختار القبيح عند ذلك التكليف فهذا محض التحكم. فثبت أن الجواب الذي استخرجه أبو الحسين بلطيف فكره ودقيق نظره بعد أربعة أدوار ضعيف وظهر أن خصماء الله هم المعتزلة لا أصحابنا والله أعلم اهـ كلام الرازي

﴿ العبرة في هذا المراء والرد على أهله ﴾

أبدأ ما أريد من بيان العبرة في هذا الكلام باستغفار الله تعالى من نقله ولومع حسن النية لما فيه من سوء التعبير والبعد عن الادب مع الخالق العظيم العزيز الحكيم، وبالاستعاذة بالله تعالى من عصبية المذاهب التي توقع صاحبها في مثل هذا وفيما هو شر منه، ثم أفصل ماقصدت بيانه في مسائل :

(١) ان نظريات متكلمي المعتزلة والاشاعرة في مثل هذه المسألة ونظريات من سبقهم الى ابتداع الكلام وهم الجهمية مخالفة لما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم ومن تبعهم من علماء الامصار كأئمة الفقهاء الأربعة وان ابتلي بها كثير من المنتمين اليهم، فلم يكونوا جبرية ولاقدرية ولامنكرين لشيء مما وصف الله تعالى به نفسه أو اسنده اليه من الصفات والافعال بضروب من التأويلات ، ولم يبن احد منهم عقيدته على استحالة التسلسل والحوادث التي لا أول لها، ولاعلى انكار حسن الاشياء وقبحها في نفسها أو انكار امتناع التكليف بما لاحسن فيه لذاته عند العقل ، وما كانوا يتنابزون بالالقاب ، ولا يتمارون و يتجادلون لاثبات المذاهب والآراء ، و يضللون المخالف لهم بلوازم يستنبطونها من المقال، ولا يشوهون رأيه بالتعبير عنه بعبارات تنافي الآداب، وقد أحسن العلماء الذين قالوا بعدم الاعتداد بنقل المخالف ، فالقول في نقل المخاصم المماري ، بل الذي يجعل مخالفه خصما للخالق، تعالى الله عن كل ذلك

(٢) مسألة الوجوب على الله تبارك وتعالى وتبرؤ الاشاعرة منها وقول المعتزلة بها، مذهب السلف الصالح هو الحق في المسألة وما كانوا ينكرون الوجوب ولا يقولون به على اطلاقه وانما مذهبهم انه لا يجب على الله تعالى الا ما أوجبه وكتبه على نفسه وما هو مقتضى صفاته ومتعلقها ، فكما وجب له تعالى في حكم العقل الاتصاف بصفات الكمال وجب أن يترتب على تلك الصفات ما يسمونه متعلقاتها كالعدل والحكمة والرحمة (و٦: ٥٤ كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم) وانه لايجب عليه سبحانه شيء بحكم غيره اذ لاسلطان فوق سلطانه فيوجب عليه و يجعله مسئولا بل ولا مثله بل لا يوجد شيء في السماء

ولا في الارض الا وهو ساجد له خاضع لسلطانه (ان استطعتم أن تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان) ولكن الاشاعرة ينقلون عن المعتزلة القول بانه يجب على الله كذا وكذا ويحتجون عليهم بقوله تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون) فيدل نقلهم على أنهم يوجبون عليه تعالى ايجاب من يكون مكلفا مسؤلا وهم لا يقولون بذلك . ثم يحتجون بهذه الآية عليهم بأن له تعالى ان يعذب المؤمنين الصالحين حتى الملائكة والنبيين ، وان ينعم الشياطين والمجرمين، والآية انما تنفي أن يكون لاحد من الخلق سلطان على الرب عز وجل يحاسبه به ويسأله عن شيء، وتثبت له وحده السلطان الأعلى على كل فاعل مختار من المكلفين كسائر خلقه فهو به يحاسبهم ويسألهم عما فعلوا بنعمه التي انعم بها عليهم وعما كلفهم اياه. ولا يدخل في هذا الاثبات انه يجوز عليه تعالى أن يجعل المسلمين كالمجرمين والمتقين كالفجار، بل هذا محال عليه سبحانه كما يدل عليه العقل الذي وهبه ، والكتاب الذي انزله (٦٨ : ٣٥ افنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ٣٦ ما لكم كيف تحكمون؟ ٣٨ : ٢٧ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض؟ أم نجعل المتقين كالفجار) ؟ واننا ننقل عبارة لعالم مستقل في هذا الوجوب ليعرف الفرق بينه وبين كلام المتعصبين ، على انه شديد الانكار على المخالفين

قال الشيخ المقبلي في كتابه (العلم الشامخ في ايثار الحق على الآباء والمشايخ) : واعلم ان المعتزلة اختلفوا فيما بينهم في معنى الوجوب على الله تعالى فقالت البصرية معناه في حق غيره وهو في حقه أحق وأولى . فان قلت فمن لوازم الوجوب والقبح الثواب والعقاب وذلك لا يعقل في حق البارئ تعالى . قلت هما من لوازم التكليف ، والتكليف عندهم طلب البارئ تعالى الفعل المتصف بالحكم من المكلف مع مشقة تلحق المكلف ومع ارادة المكلِّف تعالى . وقولنا « طلب » ليس من عباراتهم انما يقولون إعلام البارئ المكلف شأن الفعل الموصوف الخ والذي ذكرناه أولى فالتكليف غير معقول في حق البارئ تعالى والتكليف انما يكون من البارئ تعالى ولا يصح من غيره ، لان التكليف مصلحة خالصة ، أي جلب منفعة أو دفع مضرة، ولوازمه عندهم الثواب الدائم ، والعقاب الدائم ، والعالم بكل مصلحة وكل مفسدة

والقادر على الوفاء كما يريد هو الباري تعالى. وهذا كله صريح في كتبهم شهير لمن له أدنى معرفة فيها . وانما التجاسر على الرواية وعدم المبالاة هو الذي كثر الشقاق ، وسلى عن الوفاق ، ولا يخلو مذهب من عدم انصاف الخصم وان اختلفوا قلة وكثرة. الخ ما قال وفيه الترغيب في أخذ المذاهب من كتبها لا من أقوال الخصوم لاهلها

ثم قال : وحاصل مذهبهم ان المدح والذم من لوازم التحسين والتقبيح، والثواب والعقاب من توابع التكليف ، والبصرية يوجبون الثواب ويحسنون العقاب فقط ، وللباري تعالى أن يسقطه عقلا ، ولزوم الثواب وحسن العقاب هما المحسنان للتكليف عندهم كما مضى ، ومعنى الاستحقاق عندهم انه يحسن لا انه يجب . والبغدادية يقولون يجب الثواب وجوب جود بمعنى ان صفات الكمال تقتضي توفر دواعي الحكيم الى فعله وماخلص الداعي اليه وجب ان يفعله الحكيم. ومع هذا يطلقون ان الثواب تفضل ، أي ليس له جهة وجوب في نفسه . فاعرف مذهبهم فكم غلط عليهم اخوانهم البصريون فضلا عن غيرهم . ويكفي في حسن التكليف عندهم سابقة الانعام . ويقولون بوجوب العقاب ولا يجوزون العفو عقلا لانه لطف للمكلفين واللطف واجب عندهم ، فمذهب الفريقين في الثواب والعقاب متعاكس »

وقد أطال المقبلي في بيان مذهب المعتزلة في مبحث التحسين والتقبيح وأرجع كلام البغدادية منهم الى كلام البصرية . وأيضا في الرد على الرازي في هذا المبحث وفروعه ولا سيما زعمه انه لا يمكن التخلص من مذهب القدرية الا بالقول بالجبر أو بالتزام التخصيص من غير مخصص وهو ما يكرره في تفسيره . ثم انتقل منه الى مبحث خلق الافعال ورد فيه على الاشعرية في القول بتكليف ما لا يطاق ونفي التحسين والتقبيح مطلقا أي حتى الشرعيين لان ما أمر به الشرع ليس فيه حسن ذاتي عندهم وانما حسنه انه أمر به ولو نهى عنه لكان قبيحا ، وفي الجبر وغير ذلك .

(٣) المناظرة بين الاشعري وشيخه الجبائي مشهورة في كتب الكلام والتراجم للاشاعرة ويذكرون أنها وقعت بين الشيخين مشافهة ولم يذكروا ماذكر الرازي من توسط العجوز بينهما وقد أوردها المقبلي بالاختصار ثم قال

«فهذه الحكاية هوس وادنى المعتزلة فضلا عن شيخهم يقول من جواب الله

على الصغير: فضلي اتفضل به على من اشاء كما كان جواب الله على أهل الكتاب في حديث تفضيل هذه الامة. وهذا جواب على أصل المعتزلة لان التكليف تفضل عند البصرية منهم ابو علي وغيره، ومن قال منهم - وهم البغدادية - ان التكليف واجب فهو عندهم وجوب جود لا يعترض على تاركه، وايضا فهو مصلحة و يشترط في كل مصلحة خلوها عن المفسدة ولو كانت المفسدة في غير ذلك المكلف عندهم كما ذلك كله مشهور من مذاهبهم، وعلى الجملة فلا اعتراض على الله تعالى ساقط اجماعاً — أما عندهم فلأن الاعتراض مطلقا انما يكون لمخالفة ما ينبغي في نفس الامر، وهذا لا معنى له عند الاشعري انما معناه فينا [1] انا خالفنا القادر الذي جعل مخالفته علامة عقوبته لا لانه منعم متفضل حقيق بأن يمتثل امره فان هذا معنى التحسين الذي نفوه ولكن لخوف ضرره الذي نصب الوعيد علامة له فكلنا عبد العصا [1] واما عند المعتزلة فلان الله سبحانه حكيم واجب الحكمة فكل جزئي نراه ندخله في الكلية، ان عرفنا الحكمة فيه علما او ظنا ففضل من الله، والا فنحن في سعة رددناه الى حكمة أحكم الحاكمين، وعلم أرحم الراحمين، فكيف يتمشى الاعتراض؟ اما عند الاشاعرة فلانه كالاعتراض على الجبابرة الذين لا يعرفون غير القطع والسيف، واما عند المعتزلة فلانه من اعتراض الجاهلين على احكم الحاكمين. اه المراد منه و يتلوه التشنيع على الاشعري واصحابه في سياق رد طويل في أصل المسألة، والتعجب من نقل كبار علمائهم لهذه المناظرة التي سماها خرافة

وغرضنا من نقل كلامه اقناع القارئ بأن لا يطمع في معرفة الحق الخالص في هذه المسائل من متعصب لمذهب من المذاهب فيها الا أن يكون مذهب السلف الصالح لاننا نقطع بأن ما كانوا عليه من علم وعمل بالدين هو الاسلام الذي جاء به خاتم النبيين (ص) ولانه ليس مذهب رجل واحد تألفت له عصبية تنصره وتعد كلامه أصلا في الدين تقبل ما وافقه من نصوص الكتاب والسنة وترد ما خالفه بتأويل أو باحتمال وجود تأويل

(٤) لما ظهر الجدل الذي سمي علم الكلام عده علماء السلف كالشافعي واحمد بدعة سيئة ونهوا عنه ثم كان كثير من المنتمين اليهم من كبار المتكلمين — فاكثر المعتزلة

(١) أي عند الاشعري

والمرجئة من الحنفية والزيدية، واكثر الاشاعرة من الشافعية والمالكية، ولكن المخلصين منهم كانوا يرجعون الى مذهب السلف في أواخر أعمارهم كما صرحنا به مرارا، وأكبر انصار مذهب السلف في القرون الوسطى واقواهم حجة شيخا الاسلام احمد تقي الدين بن تيمية وشمس الدين محمد بن قيم الجوزية ومن أوسع كتب الاخير في هذا الموضوع الذي نخوض فيه أفضل مسائله كتاب (مفتاح دار السعادة) وكتاب (شفاء العليل. في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)

(٥) كلمة الاعتدال الوسطى في الخلاف بين القدرية والجبرية. قال المحقق ابن القيم في شفاء الغليل «اعلم ان الرب سبحانه فاعل غير منفعل والعبد فعل منفعل، وهو في فاعليته منفعل للفاعل الذي لا ينفعل بوجه. فالجبرية شهدت كونه منفعلا يجري عليه الحكم بمنزلة الآلة والمحل، وجعلوا حركته بمنزلة حركات الاشجار، ولم يجعلوه فاعلا الا على سبيل المجاز، فقام وقعد وأكل وشرب وصلى وصام عندهم بمنزلة: مرض وألم ومات ونحو ذلك مما هو فيه منفعل محض. والقدرية شهدت كونه فاعلا محضا غير منفعل في فعله. وكل من الطائفتين نظر بعين عوراء. وأهل العلم والاعتدال أعطوا كلا المقامين حقه ولم يبطلوا أحد الامرين بالآخر فاستقام لهم نظرهم ومناظرتهم واستقر عندهم الشرع والقدر في نصاب، وشهدوا وقوع الثواب والعقاب على من هو أولى به» وأفاض في تفصيل ذلك والشواهد عليه من آيات القرآن الحكيم

وما ذكر من نوط خطأ الغلاة بنظر بعضهم الى أحد وجهي الشيء أو جزئه ونظر الآخرين الى الآخر يرجع الى ماقلناه من الاخذ ببعض النصوص والغلو فيه وترك البعض الآخر في الحقيقة الواحدة. غلت القدرية في مسألة الحكمة في الخلق والتكوين، والامر والتشريع، وغلت الجبرية في مسألة المشيئة والارادة، فهؤلاء جوزوا أن تخلو المشيئة عن الحكمة، وأولئك قيدوا مشيئة الرب بما تصل اليه أفهامهم من الحكمة، وان كان كل منهما يؤمن بالصفتين كلتيهما، ونزاعهم الطويل العريض في مسألة الحسن والقبح والتحسين والتقبيح مبني على ذلك فالغلاة في اثباتها قالوا ان في كل فعل يقع التكليف به فعلا أو تركا حسنا أو قبحا ذاتيا يعرف

بالعقل ويأتي الشرع بالامر كاشفا لحسن المأمور به وبالنهي كاشفا لقبح المنهي عنه ولا يكون شيء حسنا بمجرد الامر ولا قبيحا بمجرد النهي، والغلاة في نفيها قالوا لا حسن ولا قبح ذاتيا في شيء من الاشياء يكون مناط التكليف وسببه وسبب ما يترتب عليه من ثواب وعقاب وانما ذلك بالشرع وحده، فالعدل والصدق والصلاة والصيام لا حسن فيها لذاتها بل الامر بها هو الذي جعلها حسنة، وكذلك الظلم والكذب والسكر لا قبح فيها لذاتها بهذا المعنى بل عرف قبحها بالشرع وانه يجوز أن يأمر الرب بما نهى عنه وينهى عما أمر به ولو فعل ذلك لكان الجور والكذب حسنا والعدل والصدق قبيحا وكذلك العبادات كلها، لانه يفعل مايشاء ويحكم بما يريد، والقول الاول أقرب الى المعقول والمنقول ولكن وقع كثير من القائلين به في الافراط والغلو. فالقول الوسط الذي عليه المعتدلون الجامع بين النصوص ان صفات الله تعالى لا تعارض بينها فلا تتعلق مشيئته تعالى بما ينافي حكمته وعدله ورحمته، وحكمته لا تقتضي تقييد مشيئته بما نفهمه ونعقله نحن منها بحيث نوجب عليه بعض الاوامر أو الافعال ونحظر عليه بعضها. وانما نعتقد أن كل ما يأمر به فهو حسن، وانه لا يأمر الا بما هو حسن ولا ينهى الا عما هو قبيح كما قال (١٦:٩٠ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) وقال (٧:٢٧ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون؟) وهذا احتجاج على المشركين والمراد فيه بالفحشاء والفاحشة معناها اللغوي وهو ماعظم قبحه، ولاجله نهى عنه، وحسن العدل والاحسان وايتاء ذي القربى متفق عليه بين العقلاء ولاجله أمر به. ولكن الامر بالشيء قد يكون لما في نفس ذلك الشيء من الحسن والمنفعة وقد يكون ابتلاء للعبد لاجل القيام به لمحض الامتثال والطاعة، وهذه مصلحة ومنفعة حسنة ولكن حسنها ليس في ذاتها بل في شيء خارج عنها، ومنه أمر ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده وجميع الافعال التي يسميها الفقهاء تعبدية. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى في تعليل الامر باقامتها فحسنها ذاتي لها لانها سبب لذلك من حيث هي مناجاة لله تعالى وذكر ومراقبة له ولكن فيها مالا يدرك الفعل حسنه في ذاته كعدد

الركعات والركوع والسجود فيها ، وان جوز أن يكون له حكمة عند الله تعالى فوق مجرد تعبدنا به، وقدشبه الغزالي هذه الحكمة بحكمة الطبيب في تفاوت مقاديراجزاء الدواء المركب من عدة أجزاء وما ينبغي المريض من التسليم له بذلك وان لم يعرفه. والخمر والميسر فيهما اثم كبير وا كبره انهما يسهلان للشيطان ايقاع العداوة والبغضاء بين السكارى والمقامرين بعضهم مع بعض ومع غيرهم ويصدان عن ذكر الله وعن الصلاة وهذه قبائح ذاتية فيهما

وجملة القول إن الله تعالى خالق كل شيء وانه يخلق بقدر ونظام وحكمة وسنن لا أنفا ولا جزافا ولا عبثا ، وانه حكيم في خلقه وأمره لم يشرع لعباده شيئا عبثا كما انه لم يخلقهم عبثا، وانه خلق الانسان قادرا مريدا فاعلا بالاختيار يرجح بحسب علمه النظري وشعوره الوجداني بعض الاعمال على بعض ويحكم على نفسه فيقدر على تكلف مايؤلمه ولا يلائم هواه ولذته، وان أفعاله تسند اليه ويوصف بها لانها تقوم به وتصدر عنه باختياره لا لانه محلها ، وتنسب الى مشيئة الله تعالى من حيث انه هو الخالق له بهذه الصفات والمعطي له هذا التصرف والاختيار ، والهادي له الى السنن والاسباب ، والخالق لما يتعلق به عمله من الاشياء ، ولكنه تعالى لا يوصف بتلك الاعمال الاختيارية ولا تسند اليه اسناد الفعل الى من قام به بحيث يشتق له الوصف منه، فيقال أكل زيد فهو آكل وصلى عمرو فهو مصلّ وسرق بكر فهو سارق ، ولا يقال شيء من ذلك في الباري تعالى .

ولا يخلق الله تعالى شيئا قبيحا ولا شرا، بل هو (الذي أحسن كل شيء خلقه * صُنعَ الله الذي أتقن كل شيء) فالخير كله بيديه والشر ليس اليه كما ورد، وإنما يطلق الشر والقبيح على بعض الاعمال التي تقع من المكلفين أو عليهم ، ويوصف بهما بعض الاشياء التي تضرهم أو تسوءهم، فما يترتب عليه ألم أو ضرر لهم من أعمالهم أو من حوادث الكون يسمونه شرا بالنسبة الى من يضره وان كان خيرا بالنسبة الى غيره، فمن هدم المطر أو فيضان النيل داره يعده شرا له وان كان خيرا لمن لا يحصى من الناس، وكثيرا ما يعد الانسان الشيء شرا له لقصر نظره أو بالنسبة الى مبدئه ويكون خيرا في الواقع أو في الغاية قال تعالى (٢٤ : ١١ ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم

لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم) وقال عز وجل (٢:٢١٦ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وقال فيمن يكرهون نساءهم (فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) وأعظم هذا الخير ولادة الاولاد النجباء . ولكن جميع ما يسميه الناس شرا من أعمالهم أو من حوادث الكون يقع بقدر الله ووفاق سننه في نظام الكون وربط أسبابه بمسبباته . وقد رد المحقق ابن القيم على الجبرية نفاة الحسن والقبح في الاشياء في كتابه مفتاح السعادة من ٦٣ وجها فليراجعه من شاء

(٦) مسألة سؤال العباد ربهم عن أفعاله وأحكامه . قد أثبت الله تعالى لنا في كتابه وعلى لسان رسوله (ص) ان عباده يسألونه يوم القيامة عن الجزاء وحكمته فيجيبهم كما سألوا الرسل في الدنيا عن أمور كثيرة من أفعال الله تعالى وأحكامه فأجيبوا ، وان الكفار يحتجون في الآخرة فيقيم عليهم الحجة . ومما حكاه عن المسلمين في الدنيا قوله تعالى (٤:٧٦ ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم — الى قوله — وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب) الآية . وقال في بيان حكمة إرسال الرسل (٤ : ١٦٣ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) وقال في كفار هذه الامة (٢٠ : ١٣٤ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) قال قبل هذا (٢٠ : ١٢٢ ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ١٢٣ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ١٢٤ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ١٢٥ وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) وفي الحديث الصحيح ان الله تعالى أعطى كلا من أهل التوراة وأهل الانجيل من الاجر على العمل بكتابيهم قيراطا قيراطا وأعطى أهل القرآن على العمل به قيراطين قيراطين وضرب (ص) لذلك مثل من استأجر عمالا بأجرة معينة على عمل كثير وعمالا بأجرة أكثر على عمل قليل وذكر أن المؤمنين المأجورين من أهل الكتابين

يسألون ربهم عن ذلك في الآخرة . قال « فقال أهل الكتابين: أي رب أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطا قيراطا ونحن كنا أكثر عملا منهم. قال الله عز وجل: هل ظلمتكم من أجركم شيئا؟ قالوا لا. قال فهو فضلي أوتيه من أشاء » أخرجه البخاري في أبواب مواقيت الصلاة وكتاب التوحيد وغيرهما. وهذا المعنى في آخر سورة الحديد من كتاب الله تعالى (٥٧: ٢٧ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ـ الى قوله ـ والله ذو الفضل العظيم) والحديث يدل على ان الله تعالى أطلع رسوله فيما أظهره عليه من الغيب على ما يكون من سؤال مؤمني أهل الكتابين ربهم عن سبب تفضيل هذه الامة عليهم وإجابته تعالى اياهم ، وجواب الرب سبحانه لاهل الكتابين مبني على اتصافه عز وجل بالعدل والفضل وتنزهه عن الظلم ، ومن العدل اعطاء الحق لمستحقه، وحق من يعبد الله تعالى وحده من عباده ولا يشرك به شيئا ان يثيبهم الجنة ولا يعذبهم عذاب من أشرك في النار. وقد ثبت في الصحيحين وسنن النسائي ان معاذا (رض) قال : بينا انا رديف رسول الله (ص) ليس بيني و بينه الا آخرة الرحل فقال « يا معاذ » قلت لبيك رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ثم قال « يامعاذ » قلت لبيك رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ثم قال « يا معاذ » قلت لبيك رسول الله وسعديك قال « هل تدري ماحق الله على عباده » قلت الله ورسوله أعلم ، قال « حق الله على عباده ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » ثم سار ساعة ثم قال « يامعاذ بن جبل » قلت لبيك رسول الله وسعديك . قال « هل تدري ما حق العباد على الله اذا فعلوه »؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال « حق العباد على الله أن لا يعذبهم » رواه عنه البخاري في بضعة كتب من الصحيح ومسلم في كتاب الايمان. وهذه النصوص التي أوردناها من الآيات والاحاديث حجة على الرازي ومن قال بقوله من الاشعرية وغيرهم من اطلاق عدم سؤال العباد ربهم عن شيء وعدم ثبوت أي حق عليه تعالى، وحجة لسلف الامة الصالح وهم أهل السنة حقا من اثبات كل ما أثبته الله تعالى ورسوله (ص) وهو ما تقدم بيانه

(٧) يمكن رد نظريات الشيخ الاشعري ونظريات شيخه الجبائي معا من وجوه أخرى على مذهب السلف الذي هو الاخذ بظواهر النصوص من ان الثواب

بالايمان والعمل وان الاحكام الشرعية مبنية على الحكمة ومعللة بما يرجع الى درء المفاسد وجلب المصالح والمنافع الدنيوية والاخروية وكون الدنيا مزرعة وكذا على مذهب المعتزلة على ما حرره الشيخ المقبلي نقلا عن كتبهم، فنذكر بعض ما يخطر من ذلك بالبال، ليكون نموذجا لمن يبني عقيدته على قواعد الحجة والبرهان، ويعرف الحق بنفسه لا بآراء الرجال، فنقول

ذكر التاج السبكي في ترجمة الشيخ انه قال للجبائي «ما قولك في ثلاثة: مؤمن وكافر وصبي؟ فقال المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الهالكات والصبي من أهل النجاة. فقال الشيخ فان أراد الصبي أن يمر من أهل الدرجات هل يمكن؟ قال الجبائي لا، يقال له إن المؤمن انما نال هذه الدرجة بالطاعة وليس لك مثلها: قال الشيخ فان قال التقصير ليس مني فلو أحييتني كنت عملت من الطاعات كعمل المؤمن، قال الجبائي يقول له الله كنت اعلم أنك لو بقيت لعصيت ولعوقبت فراعيت مصلحتك وأمتك قبل أن تنتهي الى سن التكليف. قال الشيخ: فلو قال الكافر يارب علمت حاله كما علمت حالي فهلا راعيت مصلحتي مثله؟ فانقطع الجبائي»

فاما جواب الجبائي الاول في المؤمن الطائع والكافر الفاسق فهو الحق الذي بينه الله في كتابه بقوله في جزاء المؤمنين الكاملين (٨ : ٤ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) وقوله في جزاء الفريقين (٢٠ : ٧٣ انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ٧٤ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) فهذه الآيات من النصوص في المسألة بلفظ الدرجات وترتيب الجزاء على الوصف دليل على كونه علة له، كما قاله المفسرون من الاشاعرة وغيرهم. والنصوص في ترتيب الجزاء على الايمان والكفر مع الاعمال كثيرة جداً

وكذلك جوابه الاول عن مسألة الصبي فانه لا يستحق الدرجات التي نالها المؤمن الذي عمل الصالحات بحسب وعد الله الحق وجزائه العدل. وأما جوابه الثاني فهو خطأ نشأ عن غفلته عن فساد السؤال في نفسه وذلك أن عدم حياة الصبي الى أن يبلغ ويعمل ما يعمل مسألة عدمية لا وجه لسؤال الخالق عنها ولا يأتي فيها مسألة الاصلح في مذهب المعتزلة لانهم يقولون أن أفعاله وأحكامه تعالى يجب بمقتضى

الحكمة أن لاتخلو عن مصلحة وأن تكون من حيث هي صادرة عنه تعالى حسنة وخيرا ولا تقتضي قواعدهم هذا في لامور العدمية السلبية بأن يقال مثلا انما لم يخلق من صاب فلان مئة رجل لكذا من الحكم والمصالح ولم يجعل عمر فلان الف سنة لكذا وكذا

وأما النظر في المسألة من جهة القدر والسنن فيقال فيه بالاختصار ان الله تعالى جلت حكمته قد مضت سنته في نظام أمور الخلق أن يكون لطول العمر أسباب من روعيت فيه صغيرا ممن يقوم بامر تربيته وراعاها في أعماله التي يستقل بها من أول النشأة طال عمره بتقدير الله تعالى ، كما أن لاختيار الايمان على الكفر وضده واختيار الطاعة على العصيان وضده أسبابا بحسب السنن والاقدار كما أوضحناه مرارا في تفسير الآيات المتعلقة به ، وكل تلك الاقدار والسنن الالهية مبنية على منتهى الحكمة والحق والعدل ، وفوق ذلك مالم تصل اليه بصائر غلاة القدرية من الجود والفضل ، فلو سأل صبي ربه يوم القيامة لم لم يطل عمره عساه يعمل مايستحق به الدرجات العلى ، فالمعقول أن يبين الله له تعالى ماخفي عنه من سننه وتقديره لاسباب الموت والحياة وكون سننه لاتتغير ولا تتبدل وأن اطالته لعمر فلان دون فلان لم يكن خلقا أنفا جديدا كما تزعم القدرية النفاة حتى يرد فيه السؤال : لم خص فلان بكذا وحرم منه فلان وهو مثله ؟

ففي الحقيقة أن مسألة اطالة أعمار بعض الناس دون بعض ليس من الجود الخاص الذي يختص الله تعالى بعض العباد تفضيلا له على غيره وعناية به كما فضل بعض الرسل على بعض ، وكما فضل هذه الامة المحمدية على الامم بايتائها كفلين من الاجر ، ولا على نحو ما ذكرناه في الكلام في التوفيق حتى يكون المحروم منها مخذولا ، وانما طول الاعمار وقصرها جار على وفق المقادير المطردة والسنن العامة ولذلك كانت عامة في المؤمن والكافر والبر والفاجر ، فهي كمسألة الرزق في سعته وضيقه قال تعالى فيها (١٧ : ٢٠ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ٢١ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) أما كون الآخرة أكبر درجات فمن المعلوم من الدين بالضرورة ان كل ما في الآخرة من درجات النعيم والكرامة فهو أعظم وارقى مما في الدنيا . وأما كونها اكبر تفضيلا فلان التفضيل فيها يتفاوت تفاوتا أعظم مما في الدنيا بما لا يقدر قدره ، ولانه

قسمان احدهما أجر على الاعمال يضاعف لعامة المؤمنين الصالحين عشرة أضعاف ، وثانيهما فضل لاحدّ له، لاجزاء على عمل يكافئه، وبهذا الجواب الذي بيناه لايبقى مجال لقول الكافر وسؤاله

وأما جواب ابي الحسين البصري على قاعدة أصحابه معتزلة البصرة فله وجه وان كان الحق في المسألة ماذكرناه. ورد الرازي عليه بمحل بديهي البطلان، اذ زعم ان ايصال التفضل الى أحد الناس يقتضي ايصاله الى كل أحد ويقبح تركه لانه ليس شاقا على الله ولا يوجب دخول نقصان في ملكه، وانه قبيح في الشاهد فيجب ان يكون قبيحا في الغائب ، وضرب له في الشاهد مثل المرآة ، ولولا تعصب المذهب لما كان هذا العالم الكبير والذكي النحرير يقول مثل هـذه الاقوال في المسألة، والقوم يقولون بأن التفضل غير واجب اذ الواجب لا يسمى تفضلا ويقولون ان وجوب التكليف وجوب جود لانه كمال لاوجوب الزام واجبار ، فهو تحكم عليهم في مذهبهم وعلل ذلك بأنه ليس شاقا على الله تعالى ولا يوجب نقصا في ملكه، وهذا التعليل باطل في مذهبه ومذهب الخصم، ومثل المرآة غير منطبق وهو من قياس الخالق على المخلوق ويالله من قياس مع الفارق الذي كمثله فارق

وهذا القول يعد هينا في جنب ما ذكره في الوجهين الاول والثاني من وجوه جعل المعتزلة خصوما لله تبارك وتعالى فانه صور فيهما مسألة اثبات وجوب الثواب والعوض بصورة مشوهة يتبرأ منها ويكفر قائلها كل معتزلي وهي ان القائل بهذا الوجوب يقول لو به كيت وكيت ، وهذا من الباطل وقول الزور وان كان يعني به انه من لوازم ذلك الاعتقاد ولا يعني به ان أحدا ينطق بمؤاخذة ربه وتهديده وعزله من الالوهية وشتمه ، لانه يعلم ان بعضهم يقول ان هذا وجوب جود وتفضل وبعضهم يقول انه مقتضى صفات الكمال الواجبة له، فهل يجوز ان يستنبط من اثبات الفضل والاحسان وغيرهما من صفات الكمال التي لايعقل معناها الا بحصول متعلقاتها مثل هذا التنقيص الفظيع، والكفر المشوه الشنيع؟

وجملة القول ان كلا من الفريقين قصد تنزيه الله تعالى عما لايليق به، ووصفه بالكمال الذي لايعقل معنى الالوهية والربوبيـة بدونه ؛ فبالغ بعضهم في الاثبات

وبعضهم في النفي والوسط بين ذلك . وقول الرازي وأمثاله من غلاة الاشعرية في هذا المقام أبعد عن الصواب وعن مذهب السلف ويمكن أن يستنبط من لوازم رأيهم مثل ما استنبطوا من رأي خصومهم من التشنيع أو أشد ، بل وجد من فعل ذلك، والحق ان هذه ليست لوازم مقصودة لمذهب هؤلاء ولا هؤلاء والجمهور على أن لازم المذهب ليس بمذهب وان كان لا يظهر على اطلاقه (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم)

(٨) ان الحديث الذي بني عليه هذا المراء بما قاله القاضي عبد الجبار المعتزلي في الاشعرية وقابله الرازي الاشعري بافظع من قوله في المعتزلة هو من الاحاديث التي اخترعها بعض هؤلاء المتعصبين لينبز بها بعضهم بعضا . وعبارته مولدة ليست عربية فصيحة . وقد اخرج أوله الدارقطني في العلل من حديث علي « لعنت القدرية على لسان سبعين نبيا » قال الشيخ محمد الحوت الكبير في كتابه الذي خرج به احاديث الجامع الصغير الضعيفة قال ابن الجوزي حديث لا يصح فيه الحارث كذاب قال ابن المديني وكذا فيه محمد بن عثمان . ورواه الطبراني وفيه محمد ابن الفضل متروك وأورده الذهبي من عدة طرق وقال هذه احاديث لا تثبت اه والظاهر انه يعني بالحارث الحارث بن عبد الله الاعور الهمداني صاحب علي كرم الله وجهه وقد روى عنه الشعبي وقال انه كذاب وكذبه آخرون ووثقه بعضهم والقول المعتدل فيه انه ضعيف. وأكثر هؤلاء المتكلمين ليسوا من أهل الحديث بل ينقلون كل ما يرونه في الكتب كالعوام. ونكتفي في هذا الفصل لاستطرادي بهذا القدر ونعود الى تفسير سائر الآيات

﴿ وهذا صراط ربك مستقيما ﴾ أي وهذا الاسلام الذي يشرح الله له صدر من يرد هدايته، هو صراط ربك ايها الرسول الذي بعثك به، وبين لك في هذه الآيات أو هذه السورة أصوله وعقائده بالحجج النيرات، والآيات البينات ، حال كونه مستقيما في نظر العقل الصحيح ومقتضى الفطرة السليمة من فساد الافراط والتفريط ، فلا اعوجاج فيه ولا التواء، وانما هو السبيل السواء ، ومن عرفه تبين له اعوجاج ما عداه من السبل، التي عليها سائر اهل الملل و النحل ، ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾ أي قد بينا الآيات والحجج المثبتة لحقيقته واصوله الراسخة ، ومحاسن فروعه المثمرة

النافعة، لقوم يتذكرون مابلغوه منها فوعوه، كلما عرضت الحاجة اليه، فيزدادون بها يقينا ورسوخا في الايمان، ويدرءون مايورد عليهم من الشبهات والاوهام، كما يزدادون اذعانا وموعظة، تبعثهم على الاعمال الصالحة، ولذلك خصوا بالذكر دون غيرهم. وتفسيرنا للمشار اليه بقوله « وهذا صراط ربك » بالاسلام هو الموافق لقواعد العربية لانه أقرب مذكور يصح أن يكون هو المراد، وهو المروي عن ابن عباس، ومن خالفه فقد تكلف وتعسف. وقوله « مستقيما » منصوب على الحال والعامل فيها ما في اسم الاشارة أو التنبيه من معنى الفعل

﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ أي لهؤلاء القوم المتذكرين السالكين صراط ربهم المستقيم، دون غيرهم من متبعي سبل الشياطين، — دار السلام عند ربهم بسلوكهم صراطه الموصل اليها، وهو ما كانوا يعملونه كما صرح به في آخر الآية. فهذا بيان جزاء المؤمنين الصالحين، في مقابل مابين قبله من جزاء المجرمين، بقوله (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) ودار السلام هي الجنة دار الجزاء للمؤمنين المتقين اضيفت الى اسم الله «السلام» كما رواه ابن جرير عن السدي وعزاه بعض المفسرين الى الحسن وابن زيد أيضا، وقيل إن السلام مصدر سلم كالسلامة. والاضافة على التفسير الاول للتشريف وكذا للايذان بسلامة تلك الدار من العيوب، وسلامة أهلها من جميع المنغصات والكروب، خلافا لمن زعم أن إفادة هذا المعنى خاصة بجعل السلام مصدرا كالسلامة وقوله « عند ربهم » تقدم معناه في تفسير مقابله الذي ذكر آنفا ﴿وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾ الضمير راجع الى ربهم أو السلام على القول بانه هو الله تعالى. ووليهم متولي أمورهم وكافيهم كل أمر يعنيهم، بسبب ماكانو يعملونه بباعث الايمان به والاذعان لما جاء به رسوله من أعمال الصلاح المزكية لانفسهم، والاصلاح المفيدة لكل من يعيش معهم، وهذه الولاية الالهية للمتذكرين من المؤمنين الصالحين تشمل ولاية الدنيا والآخرة. والآية نافية للقول بالجبر، ومبطلة للقول بانكار القدر، بصراحتها بنوط الجزاء بالعمل، فاسناد العمل اليهم ينفي الجبر، ونوط الجزاء به يثبت القدر الذي هو جعل شيء مرتباً على شيء آخر مقدرا بقدره، وليس خلقا أنفا، أي مبتدأ ومستأنفا، والله أعلم وأحكم.

استقلال مصر

وحقوق انكلترة فيها

على اثر انتهاء الحرب الكبرى واعلان الهدنة سعى سعد باشا زغلول الزعيم الكبير الشهير مع بعض أصدقائه الى نائب ملك الانكليز بمصر السر ريجلند ونجت طالبين منه الغاء الحكومة العرفية ورفع المراقبة عن الصحف فناقشهم مناقشة صرحوا له في خلالها بعزمهم على السعي لاعتراف حكومته وغيرها باستقلال البلاد المصرية وحرية المصريين . ثم ان سعد باشا ألف وفدا لأجل القيام بهذا السعي بمصر وأوربة وكل مكان يمكن السعي النافع فيه وأخذ الوفد وثائق بتوكيل الامة له بذلك من أعضاء الجمعية التشريعية وغيرها من الجماعات وأفراد الزعماء. ثم نشر الوفد منشورات بين فيها مراده وبلغ معتمدي الدول العظمى ورئيس جمهورية الولايات المتحدة ذلك، وتبرع أغنياء الشعب بعشرات بل مئات الالوف من الجنيهات له للاستعانة بها على السعي الذي انتدب له، وكان من أمر الوفد وما ترتب على تأليفه وأعماله ومعاملاته ما بيناه في مقالة عنوانها (التطور السياسي والديني والاجتماعي بمصر نشرت في الجزء الخامس من هذا المجلد (ص — ٢٧٤) فليراجعها غير الواقف على ذلك من غير أهل هذا البلاد. ونقفي عليه بانه لما صدر أمر الحكومة الانكليزية العليا بالاذن للزعماء الاربعة (وهم الباشوات سعد وحمد الباسل ومحمد محمود واسماعيل صدقي) ولمن شاء من أعضاء الوفد وغيرهم بالسفر الى حيث شاؤا من أوربة سافر الاربعة الى فرنسة وتبعهم آخرون من مصر الى باريس ،وأرادوا رفع قضية مصر الى مؤتمر الصلح فلم يسمع لهم قولا ولم تكن الجرائد الفرنسية تنشر لهم مايريدون نشره ولكنهم ثبتوا على جهادهم حتى أسمعوا الصم قضيتهم

ثم ان الحكومة البريطانية ارتأت أن ترسل الى مصر وفداً يرأسه اللورد ملنر لاجل مذاكرة كبراء المصريين والوقوف على آرائهم في ادارة بلادهم والاتفاق معهم على وضع نظام لاستقلال اداري واسع مع بقاء الحماية البريطانية: فلم يكد هذا النبأ يصل الى مصر حتى بث أنصار الوفد المصري الدعوة في طول البلاد وعرضها الى رفض قبول هذا الوفد ووجوب مقاطعة الامة له وعدم مذاكرته والبحث معه واعلامه بأن الامة مجمعة على تفويض أمرها الى الوفد المصري الذي

يرأسه سعد باشا زغلول. ولم يصرف ذلك الحكومة البريطانية عن ارسال لجنة ملنر الى مصر ولكن المصريين نجحوا في مقاطعتها وكان يوجد في البلاد افراد يرون أن البحث معها مفيد وان مقاطعتها ضارة ولكنهم لم يستطيعوا مخالفة الاكثرية الساحقة فاقامت اللجنة مدة طويلة لم يراجعها أحد من الجماعات والافراد في شيء ولكن اللورد ملنر استحسن أن يفتح باب المذاكرة مع أفراد من الكبراء بزيارته اياهم في بيوتهم والحديث معهم بصفة غير رسمية ولا مبنية على الاعتراف بالحماية ، فزار شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية وبعض الكبراء فلم يسمع من احد الا كلمة واحدة وهي تفويض الوفد المصري بطلب الاستقلال التام فلا بد من مراجعته في ذلك

ثم عاد وفد ملنر الى انكلترة وراسل سعد باشا في أمر الاتفاق على المسألة المصرية فاشترط سعد باشا أن تكون المذاكرة مبنية على قاعدة استقلال مصر استقلالا تاما ورفع الحماية عنها مع ضمان مصالح انكلترة فيها فاتفقا على ذلك وجاء الوفد (لندن) عاصمة انكلترة فقوبل بالترحاب من لجنة ملنر ومن الحكومة وبعد عقد جلسات كثيرة سرية بين اللجنتين وضعت قواعد للاتفاق لم يقبلها الوفد المصري لأنها لا تضمن الاستقلال التام المطلق الذي وكلته البلاد بطلبه ولم يرفضها لان فيها استقلالا تاما لكنه مقيد بمعاهدة تضمن لأنكترة حقوقاً عظيمة تقيد مصر بقيود ثقيلة وتسكت عن الحاق السودان بمصر. فارتأى الوفد ان يرسل اربعة مندوبين لاستشارة الامة والاستنارة برأيها في مشروع هذه المعاهدة ، فان قبل الرأي العام أن تكون هذه القواعد أساسا لوضع المعاهدة بين الحكومتين استأنف الوفد المذاكرة مع لجنة ملنر لوضعها على انه يشترط لقبولها نهائيا موافقة مجلس الامة البريطانية (البرلمان) عليها من قبل انكلترة وموافقة مجلس منتخب من الامة المصرية عليها من قبل مصر

استقبلت الامة المصرية مندوبي وفدها في الاسكندرية والقاهرة بحفاوة عظيمة ، وقد نشروا عليها ماجاؤا به من قواعد الاتفاق ووقفوا على الرأي العام فيها بالمذاكرات الشفوية مع الجماعات التي تمثل طبقات الامة ومع الافراد الكثيرين من الافراد المشهورين وبما نشر في الجرائد واننا نبدأ بنشر بلاغ المندوبين وما أوضحوه به ثم نقفي عليه ببيان رأي الامة فيه

بلاغ من مندوبي الوفد المصري

في قواعد الاتفاق بين انكلترة ومصر

في الطور الحاضر للمسالة المصرية قد يكون من مقتضيات التقاليد ومن الاكثر مناسبة لمهمة أعضاء الوفد المنتدبين الى مصر أن لا تنشر بنصوصها القواعد التي اعتبرت أساسات للاتفاق المرغوب فيه بين بريطانيا العظمى و بين مصر قبل أن تاخذ هذه القواعد نهائيا شكل معاهدة رسمية ممضاة من معتمدي الحكومتين على الطريقة العادية — ولكن الحالة النفسية للرأي العام المصري من حيث تعطشه للوقوف على نصوص تلك القواعد والرغبة في جعل مهمة الأعضاء المندوبين من قبل الوفد أقل صعوبة وأكثر انتاجا — كل ذلك يجعل نشر تلك النصوص برمتها وعلى حالها أمرا ضروريا كما يجعل تكرير البيان للمهمة المذكورة آنفا أمرا غير عديم الفائدة حتى يقر في النفوس ان الغرض المقصود ليس هو أخذ رأي الأمة نهائيا في هذا الاتفاق اذ محل ذلك هو ان يكون بعد امضاء المعاهدة لا قبله وامام الجمعية الوطنية التي تنتخب خصيصا لهذا الغرض . بل المقصود هو ان يستنير الوفد برأي موكليه حتى يعلم ما اذا كان الرأي العام موافقاً على ان هذه القواعد في مجموعها تصلح أساسا للمعاهدة

١ — مذكرة بقواعد الاتفاق

١ — لاجل ان يبنى استقلال مصر على أساس متين دائم يلزم تحديد العلاقات ما بين بريطانيا العظمى ومصر تحديدا دقيقيا ويجب تعديل ما تتمتع به الدول ذوات الامتياز في مصر من المزايا وأحوال الاعفاء وجعلها أقل ضررا بمصالح البلاد

٢ — ولا يمكن تحقيق هذين الغرضين بغير مفاوضات جديدة تحصل للغرض الاول من ممثلين معتمدين من الحكومة البريطانية وآخرين معتمدين من الحكومة المصرية ومفاوضات تحصل للغرض الثاني بين الحكومة البريطانية وحكومات الدول ذوات الامتيازات وجمع هذه المفاوضات ترمي الى الوصول الى اتفاقات معينة على القواعد الآتية :

٣ — أولا — تعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا العظمى تعترف بريطانيا العظمى بموجبها باستقلال مصر كدولة ملكية دستورية ذات هيئات نيابية وتمنح مصر بريطانيا العظمى الحقوق التي تلزم لصيانة مصالحها الخاصة ولتمكينها من تقديم الضمانات التي يجب أن تعطى للدول الاجنبية لتحقيق تخلي تلك الدول عن الحقوق المخولة لها بمقتضى الامتيازات

— ثانيا — تبرم بموجب هذه المعاهدة نفسها محالفة بين بريطانيا العظمى ومصر تتعهد بمقتضاها بريطانيا العظمى أن تعضد مصر في الدفاع عن سلامة أرضها وتتعهد مصر أنها في حالة الحرب حتى ولو لم يكن هناك مساس بسلامة أرضها أن تقدم داخل حدود بلادها كل المساعدة التي في وسعها الى بريطانيا العظمى ومن ضمنها استعمال مالها من الموانى وميادين الطيران ووسائل المواصلات للاغراض الحربية

٤ — وتشمل هذه المعاهدة أحكاما للاغراض الآتية :

— أولا — تتمتع مصر بحق التمثيل في البلاد الاجنبية وعند عدم وجود ممثل مصري معتمد من حكومته تعهد الحكومة المصرية بمصالحها الى الممثل البريطاني وتتعهد مصر بأن لا تتخذ في البلاد الاجنبية خطة لا تتفق مع المحالفة أو توجد صعوبات لبريطانيا العظمى . وتتعهد كذلك بأن لا تعقد مع دولة أجنبية أي اتفاق ضار بالمصالح البريطانية

— ثانيا — تمنح مصر بريطانيا العظمى حق ابقاء قوة عسكرية في الارض المصرية لحماية مواصلاتها الامبراطورية وتعين المعاهدة المكان الذي تعسكر فيه هذه القوة وتسوي ما تستتبعه من المسائل التي تحتاج الى التسوية ولا يعتبر وجود هذه القوة بأي وجه من الوجوه احتلالا عسكريا للبلاد كما انه لا يمس حقوق حكومة مصر

— ثالثا — تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية مستشارا ماليا يعهد اليه في الوقت اللازم بالاختصاصات المالية التي لاعضاء صندوق الدين ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته في جميع المسائل الاخرى التي قد ترغب في استشارته فيها

— رابعا — تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية موظفا في وزارة الحقانية

يتمتع بحق الاتصال بالوزير ويجب احاطته بجميع المسائل المتعلقة بادارة القضاء فيما له مساس بالاجانب ويكون أيضا تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته في أي أمر مرتبط بتأييد القانون والنظام

ـ خامسا ـ نظراً لما في النية من نقل الحقوق التي تستعملها الى الآن الحكومات الاجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التداخل بواسطة ممثلها في مصر لتمنع ان يطبق على الاجانب أي قانون مصري يستدعي الآن موافقة الدول الاجنبية وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها أن لا تستعمل هذا الحق الا حيث يكون مفعول القانون مجحفا بالاجانب

صيغة أخرى لهذه المادة

نظرا لما في النية من نقل الحقوق التي تستعملها الآن الحكومات الاجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التدخل بواسطة ممثلها في مصر لتمنع أن ينفذ على الاجانب أي قانون مصري يستدعي الآن موافقة الدول الاجنبية وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها بأن لا تستعمل هذا الحق الا في حالة القوانين التي تتضمن تمييزا مجحفا بالاجانب في مادة فرض الضرائب أو لا تتفق مع مبادئ التشريع المشتركة بين جميع الدول ذوات الامتياز

ـ سادسا ـ نظرا للعلاقات الخاصة التي تنشأ عن المحالفة بين بريطانيا العظمى ومصر يمنح الممثل البريطاني مركزا استثنائيا في مصر ويخول حق التقدم على جميع الممثلين الآخرين

ـ سابعا ـ الضباط والموظفون الاداريون من بريطانيين وغيرهم من الاجانب الذين دخلوا خدمة الحكومة المصرية قبل العمل بالمعاهدة يجوز انتهاء خدمتهم بناء على رغبتهم أو رغبة الحكومة المصرية في أي وقت خلال سنتين بعد العمل بالمعاهدة وتحدد المعاهدة المعاش أو التعويض الذي يمنح للموظفين الذين يتركون الخدمة بموجب هذا النص زيادة على ماهو مخول لهم بمقتضى القانون الحالي

وفي حالة عدم استعمال الحق المخول بهذا الاتفاق تبقى أحكام التوظف الحالية بغير مساس

٥ — تعرض هذه المعاهدة على جمعية وطنية للتصديق عليها ولكن لا يعمل بها الا بعد انفاذ الاتفاقات مع الدول الاجنبية على ابطال محاكمها القنصلية وانفاذ الاوامر العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة

٦ — يعهد أيضاً الى الجمعية الوطنية بمهمة وضع قانون نظامي جديد تسير حكومة مصر في المستقبل بمقتضى أحكامه ويتضمن هذا النظام أحكاماً تقضي بجعل لوزراء مسئولين امام الهيئة التشريعية وتقضي أيضا بحرية الاديان لجميع الاشخاص وبالحماية الواجبة لحقوق الاجانب

٧ — تحصل التعديلات اللازم ادخالها على نظام الامتيازات باتفاقات تعقد بين بريطانيا العظمى والدول المختلفة ذوات الامتيازات وتقضي هذه الاتفاقات بابطال المحاكم القنصلية الاجنبية حتى يتيسر تعديل نظام المحاكم المختلطة وتوسيع اختصاصها في سريان التشريع الذي تسنه الهيئة التشريعية المصرية (ومنه التشريع الذي يفرض الضرائب) على جميع الاجانب في مصر

٨ — تنص هذه الاتفاقات على ان تنتقل الى الحكومة البريطانية الحقوق التي كانت تستعملها الحكومات الاجنبية المختلفة بمقتضى نظام الامتيازات

وتشمل أيضاً أحكاما تقضي بما يأتي :—

أولا — لا يسوغ العمل على التمييز اجحف برعايا أية دولة وافقت على ابطال محاكمها القنصلية ويتمتع هؤلاء الرعايا في مصر بنفس المعاملة التي يتمتع بها الرعايا البريطانيون

ثانيا — يؤسس قانون الجنسية المصرية على قاعدة النسب فيتمتع الاولاد الذين يولدون في مصر لاجنبي بجنسية أبيهم ولا يحق اعتبارهم رعايا مصريين

ثالثا — تخول مصر موظفي قنصليات الدول الاجنبية نفس النظام الذي يتمتع به القناصل الاجانب في انجلترا

رابعاً — المعاهدات والاتفاقات الحالية التي اشتركت مصر في التعاقد عليها في مسائل التجارة والملاحة ومنها اتفاقات البريد والتلغراف تبقى نافذة المفعول أما في المسائل التي ينالها مساس من جراء ابطال المحاكم القنصلية فتعمل مصر بالمعاهدات النافذة المفعول بين بريطانيا العظمى والدول الاجنبية صاحبة الشأن

مثل معاهدات تسليم المجرمين وتسليم البحارة الفارين وكذلك المعاهدات التي لها صبغة سياسية سواء أكانت معقودة بين أطراف عدة أم بين طرفين. مثال ذلك اتفاقات التحكيم والاتفاقات المختلفة المتعلقة بسير الحروب وذلك ريثما تعقد اتفاقات خاصة تكون مصر طرفاً فيها

خامسا — تضمن حرية بقاء المدارس وتعلم لغة الدولة الاجنبية صاحبة الشأن بشرط أن تخضع هذه المدارس من جميع الوجوه للقوانين السارية بوجه عام على المدارس الاوروبية في مصر

سادسا — تضمن أيضاً حرية ابقاء أو انشاء معاهد دينية وخيرية كالمستشفيات الخ

وتنص المعاهدات أيضاً على التغييرات اللازمة في صندوق الدين وعلى ابعاد العنصر الدولي من مجلس الصحة في الاسكندرية

٩ — التشريع الذي تستلزمه الاتفاقات السالفة الذكر بين بريطانيا العظمى والدول الاجنبية يعمل به بمقتضى اوامر عالية تصدرها الحكومة المصرية. وفي الوقت نفسه يصدر أمر عال يقضي باعتبار جميع الاجراآت التشريعية والادارية والقضائية التي اتخذت بمقتضى الاحكام العرفية صحيحة

١٠ — تقضي الاوامر العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة على تخويل هذه المحاكم كل الاختصاص الذي كان الى الآن مخولا للمحاكم القنصلية الاجنبية ويترك اختصاص المحاكم الاهلية بغير مساس به

١١ — بعد العمل بالمعاهدة المشار اليها في البند الثالث تبلغ بريطانيا العظمى نصها الى الدول الاجنبية وتعضد الطلب الذي تقدمه مصر للدخول كعضو في جمعية الامم

٢ — مسألة السودان

اما مسألة السودان فلم تطرح تحت البحث ولكن الوفد قد حصل على تأكيدات تضمن الطمأنينة على مياه النيل لري الاراضي المصرية المزروعة الآن والقابلة للزراعة في المستقبل

٣ — مهمة اعضاء الوفد المنتدبين

وأما مهمة أعضاء الوفد المنتدبين فبيانها أنه لما وصلت المفاوضات بين الوفد وبين لجنة اللورد ملنر الى أن قدمت اللجنة هذه القواعد على انها نهائية

في الاساسات التى بنيت عليها رأى الوفد أخذاً بالاحوط واستمساكا برأي الوكالة على اطلاقه أن لا يبت في الموضوع برفضه أو بقبوله . بل رأى أن الحكمة تدعو الى عرض الامر على البلاد فاذا قبلت البلاد ان هذه القواعد صالحة أساسا للمعاهدة دخلت المسألة في دورها النهائى ووضعت معاهدة على القواعد المذكورة وعرضت على الجمعية الوطنية التى هي صاحبة الرأي الأعلى في الامر ولها دون غيرها الكلمة الاخيرة في الموضوع فبعد أن تدرس تفاصيل المعاهدة وصيغتها تقرر بقبولها أو برفضها

٤ — الخطة

أما الخطة التى سيتبعها الاعضاء والمندوبون في الاستشارة برأي الامة فهى الاجتماع بأعضاء الهيئات ذات الصفة النيابية وبالرجال أولي الرأي وشرح أساسات المشروع لهم وسماع رأيهم فيها . كما أنهم مستعدون لاعطاء جميع المعلومات ولقبول جميع الاراء بالكتابة أو بالمشافهة . نرجو أن يسدد الله آراء أولي الرأي لمصلحة البلاد

تحريراً في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٨ و٩ سبتمبر سنة ١٩٢٠

محمد محمود . احمد لطفي السيد . عبد اللطيف المكباتي . على ماهر .

ويصا واصف . حافظ عفيفي . مصطفى النحاس

شرح مشروع الاتفاق

الذي نشره مندوبو الوفد الاربعة على الامة في الجرائد

عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً كبيراً في الساعة السادسة بعد ظهر يوم الجمعة ٢٧ الحجة بمنزل حضرة صاحب السعادة سعد زغلول باشا لسماع الايضاحات التي يقولها مندوبو الوفد وقد حضر هذا الاجتماع اكثر من مائة عضو وتصدر الاجتماع أعضاء الوفد ثم بدأ الاستاذ لطفي بك السيد الكلام فبلغ اللجنة تحية رئيس وأعضاء الوفد الباقين في أوربا وقال أن هيئة الوفد باسرها تشكر للامة الكريمة ما أبدته من شريف العواطف نحو خدامها ثم أخذ يتلو المشروع ويشرحه بعد أن أعلن ان الغرض من هذا الشرح توضيح ما يكون غامضا من النصوص ولكل من حضرات الاعضاء أن يوجه ما شاء من الاسئلة لاجل الاستيضاح اما الاقتراحات فتؤجل لفرصة أخرى

المفاوضات الجديدة

فلما وصل الى البند الثاني الخاص بضرورة اجراء مفاوضات جديدة بين ممثلين معتمدين من الحكومة البريطانية وآخرين معتمدين من الحكومة المصرية سئل فيما عساه ان تكون فائدة المناقشات الحاضرة ما دام الوفد سيكون اجنبياً عن المفاوضات الآتية فأجاب بأن ممثلي الحكومتين سيضعون المعاهدات على أساسات لاتخرج عن هذا الاتفاق وان القواعد الدولية تقضي بأن مندوبي الحكومات هم الذين يوقعون المعاهدات ومع كل فان الوفد سيبقى قريبا من المفاوضات الجديدة ولا يجري شئ الا بعلمه

مساعدة مصر لانجلترا في حالة الحرب

ولما وصل الى الفقرة الثانية من البند الثالث الخاصة بما تقوم به مصر في حالة الحرب مع انجلترا سئل عن مهمة الجيش المصري في هذه الحالة فقال انه لا يكلف الاشتراك في الحرب مع بريطانيا خارج الحدود المصرية بمعنى ان مساعدته لاتتعدى الحدود المصرية

نوع المحالفة بين مصر وانجلترا

ثم أخذ يشرح المحالفة التي تبرم بين مصر وانجلترا قائلا انها تعد محالفة دفاعيه من قبل انجلترا نحو مصر لانها ستقتصر على الاشتراك في الدفاع عن أراضي مصر اذا هوجمت وهذا الدفاع عن مصر حيوي بالنسبة لانجلترا لانها لاترضى ان تتسلط عليها دولة أجنبية

وفي مقابل ذلك يجب على مصر حتى نخرج من شبهة كل تبعية ان تقدم المقابل والا كان لانفراد انجلترا بالدفاع معنى آخر وهذا المقابل هو تقديم المساعدة لانجلترا في حالة الحرب الا ان جيشنا لايخرج من بلادنا للمحاربة من أجلها وهذه المساعدة طبيعية لان كل حليف مطالب بمد يد المعونة لحليفه كما كان الحال بين فرنسا وروسيا. وقد فسر حالة الحرب التي تشترك فيها مصر لتقديم المساعدات بالحروب النظامية التي تعلن طبقاً للاصول الدولية المعروفة فلا ينطبق هذا على حصول ثورات في أية جهة

التمثيل السياسي في الخارج

ثم انتقل الى حق تمثيل مصر في البلاد الاجنبية فشرحه بأن له مظهرين حق السفارة وهو يتعلق بالمسائل السياسية وحق ارسال قناصل ووظيفتهم غير سياسية أي يكون لمصر معتمدون سياسيون وقناصل أيضا

ولمصر ان توجد لها ممثلين في كل جهة فاذا لم تجد حاجة لتعيين ممثلين لها من المصريين في جهة ما فعليها أن توكل ذلك الى معتمدي انجلترا لا الى معتمدي أية دولة أخرى

عقد الاتفاقات

ثم شرح المادة الخاصة بأن مصر لاتتخذ خطة تخالف المحالفة وانها لاتوجد صعوبات لبريطانيا العظمى فقال ان المراد عدم عقد محالفة مع اعداء انجلترا وعدم دس الدسائس لها

القوة العسكرية

ثم انتقل البحث الى حق ابقاء قوة عسكرية لضمان المواصلات للامبراطورية فقال ان لانجلترا مصالح عديدة في الشرق الاقصى والشرق الادنى فمن الواجب على مصر بصفتها حليفة ان تساعد انجلترا بالسماح لها بابقاء جنود في نقطة لحماية طرق المواصلات والمفهوم من روح المفاوضات انها ستكون في منطقة القنال وانها على العموم ان تكون في مدينة ولا بالقرب من مدينة

المستشار المالي

وهنا وقف حضرة علي بك ماهر ليتم الشرح فتلا المادة الخاصة باختصاصات المستشار المالي وقال انها ستكون هي نفس اختصاصات صندوق الدين الخالي بعد سنة ١٩٠٤ ولما سئل عن دائرة استشارة الحكومة له أجاب بأن الحكومة غير ملزمة باستشارته وليس له ان يعرض هذا الاستشارة من تلقاء نفسه وانما يكون تحت تصرف الحكومة وسيكون للبرلمان السلطة العليا في ذلك

ثم أخذ يوضح سبب وضع هذا النص في المشروع فقال : كان الوفد أعلن

قبل سفره انه يقبل بقاء صندوق الدين وانه لايعارض في حلول انجلترا محله اذا قبلت الدول ذلك وكان في نيتنا ان يقال ان مصر تقبل تعيين موظف رسمي مراقبا أو مندوبا للدين العمومي وان وظيفته تنتهي بانتهاء مأمورية صندوق الدين وانه لا يتدخل في شؤوننا الداخلية

وقد حصل تشدد في سلطة المستشار وصممنا على أن لايتعدى اختصاصه وظيفة صندوق الدين الحالي وكنا لانتردد في قطع المفاوضات اذا تجاوز الامر ذلك الى التدخل في الشئون الداخلية للبلاد، فقالوا مادامت الامور المالية تقتضي كفاءة فنية فهل لايجوز ان تستشيروه؟ فقلنا لادا عي للنص على ذلك ولكنهم طلبوا أن ينص على جواز الاستشارة فلم يوضع النص على اطلاقه بل خفف وجعل «في الاحوال التي قد ترغب الحكومة المصرية استشارته فيها» ثم أخذ الكثيرون في السؤال عن نهاية وظيفة المستشار فاجاب بان متى سددت مصر ديونها أو حولتها بواسطة عقد قرض أهلي لايكون هناك محل لبقاء المستشار

الموظف الانجليزي في الحقانية

ثم قال ان الانجليز طلبوا ضمانات بخصوص تطبيق القوانين على الاجانب فعرض عليهم ان يكون النائب العمومي لدى المحاكم المختلطة انجليزيا فقالوا ان وظيفة النائب لاتجعله في اتصال يومي مع الوزير واقترحوا ان يكون في وزارة الحقانية موظف انجليزي له حق الاتصال بالوزير أي يكون له الحق في مقابلته بدون وساطة موظف آخر وبهذه المناسبة جاء ذكر المشروع الذي وضعه المستر هيرست فقال مندوبو الوفد ان المشروع على افتراض استمرار الحماية وانه سيعدل تعديلا يوافق روح الاتفاقية وان الوفد ألف لجنة لدرس هذا المشروع وابداء رأيها في طريقة تعديله

وسئل علي بك عن معنى ادارة القضاء وهل يتداخل الموظف الانجليزي في تعيين القضاة فاجاب سلباً

سريان القوانين على الاجانب

ثم تلا الصيغتين الخاصتين بالحق المخول لممثل انجلترا لمنع تطبيق القوانين على

الاجانب وقال ان الصيغة الثانية أحكم من الاولى وقال انهم كانوا يريدون أن يتولوا أمر البوليس فعارض الوفد في ذلك فعادوا واقترحوا انشاء [قره قولات] أجنبية كما كان الحال قبل الاحتلال فعارضنا أيضا وانتهى الامر بوضع النص السابق لضمان حقوق الاجانب

ممثل انجلترا

ثم تلا المادة الخاصة بممثل انجلترا فحدثت مناقشة في المركز الاستثنائي الذي سيكون للممثل فقال مندوبو الوفد ان هذا النص ليس له مرمى سياسي وان في الاستطاعة الاتفاق على حذفه . اما اسم الممثل لانجلترا فلم يتفق عليه وعلى كل حال فان يسمى نائب ملك ولا مندوبا ساميا وانما يسمى التسمية العادية المعروفة في القانون الدولي لمن يعينون ممثلين لدى الدول المستقلة

الموظفون الذين يستغنى عنهم

وهنا قام حضرة عبد اللطيف بك المكباتي لاتمام الشرح فتناول مسألة الموظفين الذين سيستغنى عنهم وقال أن لجنة ستتألف للنظر في ذلك

الجمعية الوطنية وتعليق تنفيذ المعاهدة

ثم تلا المادة الخامسة الخاصة بعرض المعاهدة على الجمعية الوطنية للتصديق عليها فقال ان وظيفة الجمعية المذكورة ستكون النظر في المعاهدة وتقرير قبولها أو رفضها ثم وضع القانون النظامي للبلاد

اما تعليق تنفيذ المعاهدة على قبول الدول فقد قيل لنا ان الحكومة الانجليزية شرعت تفاوض الدول في ذلك من زمن وان بعضها قبل وهم ينتظرون أن ينتهي الامر لغاية شهر نوفمبر وقيل ايضا اذا تأخرت دولة أو دولتان فيمكننا ان نصرف النظر عنهما ولذلك سابقة فان فرنسا عند انشاء المحاكم المختلطة بقيت مدة دون أن توافق عليها وظلت قضاياها تنظر أمام المحاكم القنصلية ولما رأت نفسها في عزلة رأت أخيراً أن توافق على ذلك النظام والامل أن تتم هذه المفاوضات قبل انتهاء الاجراءات اللازمة لدخول المعاهدة في دور التنفيذ

مجلس الصحة

ولما سئل عن معنى ابعاد العنصر الدولي من مجلس الصحة في الاسكندرية قال ان معناه ان يكون المجلس مصرياً فقط

الاجراءات التي اتخذت بمقتضى الاحكام العرفية

ثم انتقلت المناقشة الى النص الذى يقول بصدور أمر عال يقضى باعتبار جميع الاجراءات التشريعية والقضائية التي اتخذت بمقتضى الاحكام العرفية صحيحة

فقام الاستاذ لطفي بك السيد وقال

العادة أنه متى وجدت الاحكام العرفية وأزيلت فيجب أن يعفى عما مضى في خلالها وقد حدث أن جميع الدول قررت أن المسائل التي صدرت تحت الاحكام العرفية يسدل عليها ستار تاريخي فلا تقبل المحاكم النظر في الدعاوي التي ترفع بسببها

فهذا النص يفيد أنه لا يترتب للافراد حقوق على الموظفين الذين طبقوا هذا الاحكام

وضرب المكباتي بك مثلا على هذه الاجراءات بأن السلطة اذا صادرت أملاك واحد لأجل اتفاقه مع الاعداء ثم اشترى شخص هذه الاملاك فان الشراء يكون صحيحاً ويظل صحيحاً

وقال حضرة مصطفى بك النحاس

المراد بالاجراءات ما أصدره القائد العام بمقتضى الاحكام العرفية لا غير ذلك

وسأل سائل اذا صدر الآن مشروع قانون ولكنه لم ينفذ الى أن تعقد المعاهدة وتجتمع الجمعية الوطنية فهل يكون في مقدرة البرلمان الجديد أن يلغيه فاجيب بالايجاب

تبليغ المعاهدة للدول

ثم استمر لطفي بك يشرح بقية النصوص حتى وصل الى النص الخاص بأن انجلترا تبلغ الدول نص المعاهدة فقيل له: لماذا يكون التبليغ بواسطة انجلترا لا بواسطة مصر؟ فأجاب ان بين انجلترا وبين الدول عقداً يقضي بأن مصر في حالة حماية وهذا الاتفاق يلغي الحماية فيجب أن يكون التبليغ من قبلها ومع ذلك فليس هناك مايمنع مصر أن تبلغ الدول من جهتها هذه المعاهدة

مسألة السودان

ثم انتقل الى الكلام في مسألة السودان فقال كان المفهوم بيننا جميعاً والذي أخذه الوفد على عاتقه امام الامة أن السودان جزء غير منفصل عن مصر ولا يمكن أن ينفصل عنها وان استقلال مصر يتمشى على السودان وكان لدينا ادلة كثيرة أهمها أن معاهدة السودان باطلة لانها تشبه العقد الذي يعقد بين الوصي ومحجوره ويجر منفعة لهذا الوصي وقد كان صاحب الحق في عقد المعاهدة هو سلطان تركيا ولم تكن الدول اعترفت بالاتفاقية التي عقدت في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وان كانت الامتيازات الاجنبية لم تنفذ في السودان . وبالجملة كان مركزنا حسناً امام القانون ولكننا علمنا أن نظرية الانجليز تتلخص فيما يأتي

ان تركيا صدقت أخيراً على معاهدة سان ريمو وفيها أن تركيا تعترف بالحماية الانجليزية وتنزل عن حقوق سلطانها على قناة السويس وتعترف بالمعاهدة التي عقدت بين مصر وانجلترا سنة ١٨٩٩ فيكون صاحب الحق الاصلي قد أجاز المعاهدة كما أن الدول سجلت هذا ولم تعترض عليه واصبحت المسألة دولية فرغ منها الكلام . ويكون من الصعب جدا الكلام في السودان باعتباره جزءا من مصر

هذا الذي فهمناه عن نظرية الانجليز وقد قال لنا اللورد ملنر صراحة يجب ان يكون مفهوماً بيننا ان استقلال مصر لا ينسحب على السودان فهو مستقل في ذاته عن مصر على حسب أحكام الجنسية وسيقول لنا غداً اخرجوا أنتم والانجليز لاننا لا نريد حماية أما فيما يتعلق بالماء فنرى حقا وعدلا أن يكون لمصر كل الضمانات التي تطمئنها على ري أرضها المزروعة والتي ستزرع في المستقبل أيا كانت مساحتها و لمصر حق الاولية اذا لم يكف الماء القطرين جميعاً

هذا ما قيل لنا فلم نشأ ان ندخل في التفاصيل لاعتبارين — اولهما لان الدخول فيها اقرار للمعاهدة ونوع من التنازل عن نصف السودان مع ان الامة لم تتنازل كما ان فيه شبهة مجاوزة لحدود توكيلنا — ثانيهما ان الدخول في مسألة الضمانات مسألة فنية تتناول كثيراً من الاحصاءات والمقابلات والابحاث لذلك تركنا المسألة من غير بحث وأما التأكيدات بخصوص المياه فهي بين أيدينا من حيث انها تأكيدات وضمانات على أولوية مصر في الماء على كل ماعداها ولانجلترا مصلحة في بقاء الاولوية لمصر لانها الزبون الاكبر لنا

ثم حدثت مناقشة واستفهامات أجاب عليها بان سكوت مصر عن السودان في المعاهدة يعد رضاء بالحالة الحاضرة وان المناقشة في مسألة الضمانات لا تأتي الا بعد أن نسلم بمعاهدة سنة ١٨٩٩ والذي حصل انهم اقترحوا علينا أن نتناقش معهم في ذلك فرفضنا للاعتبارات التي وضحتها لكم

النص على الغاء الحماية

وكان الدكتور محجوب بك ثابت قد سأل عن السبب في عدم النص على الغاء الحماية ثم وقف فتح الله بركات باشا وتكلم في هذه النقطة بتوسع فأجاب لطفي بك على هذه الاستيضاحات بقوله: يجب أن يكون مفهوماً اننا لاندافع عن المشروع وانما نعرضه عرضاً وما سأقوله الآن داخل في تفسير المشروع

تسألون لماذا لم ينص على الغاء الحماية وجوابي على ذلك انه لا يتفق وجود الاستقلال والحماية على بلد فالبلد اما أن يكون مستقلاً أو محميا. ومع ذلك فاني لا أرى النص على الغاء الحماية أمراً زائداً عن الضرورة وأعتقد انه ليس مستحيلا ادخال هذا النص عند تحرير المعاهدة فهذه هي المبادئ المتفق عليها فهم يقصدون باستقلالنا أن تكون لنا السيادة في الداخل والسيادة في الخارج وهذا موجود في المعاهدة

الاستئناس برأي الامة وامتناع الوفد من ابداء رأيه

ثم دارت المناقشة حول موضوع ابداء الآراء فأجاب لطفي بك اننا شرحنا لكم الموضوع ونحن مستعدون أن نعطيكم ما تريدون من استعلامات فوق هذا كما أننا سنتقبل كل الآراء التي تبدى لنا كتابة أو تكليما ونحن على استعداد لمقابلة من يشاء ولا نريد أن نقنع احداً برأي ما. وأما أخذ رأي الامة بمعناه العام فليس هذا وقته فلاخذ الرأي طريقتان معروفتان احداهما الاستفتاء العام بأن نسأل كل شخص على حدة والثاني أن تكون للبلاد جمعية نيابية لها الحق في أن تتكلم باسم الامة وكلا الطريقتين ليس الآن محل العمل بهما

فليست المسألة أخذ رأي الامة وانما الوفد يريد أن يستأنس بريكم، برأي موكليه ليخلي ذمته وضميره وليتجنب أن يكون مجاوزاً حدود توكيله

وأما أخذ رأي الامة فيكون في الجمعية الوطنية عند عرض المشروع عليها اذا تم ذلك

وعلى هذا فان ماسنعمله الآن أن نستأنس برأي الجماعات والافراد كالجمعية التشريعية بأن نستشيرها على دفعة أو دفعتين أو ثلاث ثم نستأنس برأي الهيئات النيابية الأخرى ورأي نقابة المحامين والأطباء والمعلمين والمهندسين وغيرهم

وهنا وقف الاستاذ حسين بك هلال وطلب أن يبدي أعضاء الوفد رأيهم

قائلا أن الوكيل اذا عرض عليه صلح لا يأبى أن يخبر موكله برأيه في هذا الصلح

فأجاب لطفي بك ان هذا مفهوم في القضايا المدنية والتجارية وأما القضايا السياسية فلا ورأي الوفد لا يفيدك شيئاً

ثم اقترح فتح الله بركات باشا أن يحدد الوفد ميعاداً كل يوم أو يومين لتلقي اقتراحات الافراد والهيئات فوافق الوفد على هذا الاقتراح وسيعلن عن هذا الميعاد قريباً

الثناء على الوفد وما يجب على الامة

ثم وقف الاستاذ توفيق بك دوس فقال اني باسم اللجنة المركزية أرد على تحية رجال الوفد بالشكر والثناء كما أشكر لكم جميعاً ما قمتم به من جهاد وتضحيات بالنيابة عن الامة واني أهنئكم برجوعكم الى أوطانكم سالمين كما أهنئكم بأنكم رجعتم وانتم تحملون نتيجة ذلك الجهاد العظيم . ولا شك أن الامة تقدر مركزكم كل التقدير فقد كنتم تتفاوضون ولا سلاح لكم الا سلاح الحق فانه وان لم يكن قوياً أمس فبحمد الله وحمد ثباتكم بحمد الله وحمد ثبات الامة وتأييدها لكم أصبح هذا السلاح أقوى من كل سلاح آخر . وأشكر لكم المجهود الذي بذلتموه في شرح المشروع ولا شك أن اخواني سيبحثون هذا الشرح كل بما يقدر عليه مع تقدير الظروف المحيطة بنا فلا يجعل للاوهام سبيلا الى درجة تضيع معها مصلحتنا ويجب أن نفهم أن الاماني والآمال شيء وما يمكن أن نصل اليه شيء آخر

هذا رأيي الخاص أنا وحدي أتحمل مسئوليته

يجب أن ننظر الى الحقائق بعين أقل ما أقول فيها بعين الخبرة واليقظة بعين لا تبهرها الآمال فيضيع معها نور الحق . يجب أن يدلي كل منا بحجته حتى يتكون لديكم منا رأي تحملونه وتستعينون به على الوصول الى أقصى ما يمكن الوصول اليه على أساس هذا المشروع أو باضافة ما يمكن اضافته اليه

ولا أشك لحظة في أن كل مصري يقدر لكم مجهودكم العظيم مهما وصلنا الى أية درجة وصلنا اليها وستحفظ لكم مصر صفحة بيضاء في تاريخها وعسى الله أن يوفق الامة لان تسير وراءكم في الطريق الذي يمكنها من أن تنال كل حقها يوما ما

وكانت الساعة في ذلك الوقت قد تجاوزت التاسعة فأعلن سعادة ابراهيم سعيد باشا وكيل اللجنة المركزية انتهاء الجلسة» اه ما نشرته اللجنة

[رأي المنار الاجمالي] أظهر المصريون الكفاءة والاستعداد للاستقلال التام بتأليف وفدهم - وبجمع كلمتهم على تأييده - وبامداده بالمال الكثير للقيام بالوسائل والسعي

له و بما اتخذه الوفد من طرق بث دعوته و إظهار حق البلاد في أوربة – و بما كان من البحث والمذاكرة مع لجنة لورد ملنر المندوبة من الحكومة البريطانية للاتفاق معه – و بالتكافل التام بين الوفد والامة بثقة الامة به وتفويضها اليه الامر الذي وكلته به و بالتزامه هو الوقوف عند حدود الوكالة وعدم تعديها في شيء – و بارساله المندوبين للاستنارة برأي الامة في المشروع الاخير الذي قدمته لجنة لورد ملنر اذ كان الاستقلال التام فيه مقيداً وخاصاً بمصر والامة طلبته و وكلت الوفد بطلبه مطلقاً من كل قيد وشاملا لمصر والسودان – و بما كان من حسن استقبال الامة لمندوبي الوفد وتأييد ثقتها به لهم – و بما شرع أرباب الاقلام يشرحونه في الصحف من نقد مشروع الاتفاق و بيان غثه وسمينه واظهار عجره وبجره ومحاسنه ومساويه وفوائده وغوائله بما يدل على النظر الثاقب والعلم الواسع باصول القوانين وشؤون السياسة واطوارها

لو قبل المصريون مشروع الاتفاق الذي جاء به مندوبو وفدهم على علاته لاعتقد العالم المدني في كل قطر أنهم لا يفهمون السياسة ولا يستطيعون القيام باعباء الاستقلال السياسي ، ولو ردوه البتة بغير بحث ولا حجة الا انه غير ما طلبوا لأثبتوا للعالم السياسي أنهم لما يعرفوا حال العصر الذي يعيشون فيه، وأن مثلهم كمثل الطفل الذي اذا طلب من والديه القمر لا يعذرهما بالعجز عن تناوله من أفق السماء ووضعه في يده. وانما اللائق بمقام أمة بلغت رشدها واستحقت التصرف بأمرها هو أن يوجد فيها الطرفان والوسط لكل أمر عام ولكل مسألة من شأنها أن تختلف فيها الآراء والانظار ، وهذا هو الذي ظهرت بوادره من الامة المصرية الرشيدة – فمن أفرادها وجماعاتها من يرفض مشروع الاتفاق البتة ولا يقبل الا الاستقلال التام المطلق من كل قيد لمصر والسودان معاً ، وهذا ضروري لا بد منه – ومنهم من تهلل واستبشر بالمشروع على علاته وعده نجاحا وتوفيقا فوق ما كان ينتظر من الدولة البريطانية التي أصبحت وأمست بعد هذه الحرب ذات النفوذ الاعلى في عالم السياسة والقوة في الحرب والسيادة في البحار والسعة في المال ، وقد تقررت حمايتها لمصر في معاهدة الصلح الكبرى مع المانية ثم في معاهدة الصلح مع الدولة العثمانية صاحبة السيادة السابقة على مصر والسودان وهذا لا بد منه أيضاً

وأما رأي السواد الاعظم من افراد المصريين وجماعاتهم فهو أن القواعد التي عرضتها لجنة لورد ملنر على الوفد المصري لتكون اساسا لمعاهدة الاتفاق لا تقبل على

علاتها ولا تطوى على غرها وتلف وترمى في وجه لجنة لورد ملنر أو وجه حكومته، بل يصح أن تكون أساسا للاتفاق بشروط توضح بعض المبهم وتبين المجمل الذى قد يكون الاختلاف في تأويله منافيا للمراد من الاتفاق، وزيادة ما يضمن لاحد الفريقين سلامة استقلاله، بحيث يكون مطلب كل من الحكومتين المتفقتين محدودا جليا ـ موافقا لمصلحة كل منهما وهو أن تكون مصر دولة مستقلة بنفسها كسائر الدول وان تحفظ مصالح انكلترة فيها بحيث تستفيد من هذا الاستقلال ولا يكون سببا لضررها في سلم ولا حرب، وأهم ذلك حفظ مواصلاتها البحرية والجوية بين أوربة والهند والمبادلة العادلة في المحالفة

وهذا الرأي هو الوسط المعتدل المعقول الذى يرجى له القبول، والرأي الاول خير منه للبلاد لو كان ممكنا وهو المقصد الاسمى للامة الذى ترجو أن يزيدها الاتفاق مع الدولة البريطانية قربا منه، ويخشى أن يزيدها رفضه بعدا عنه، مع وقوع في مشكلات وكوارث لا يعلم أحد عاقبة الاصطلاء بنارها

لا يمكن أن يتفق جميع أفراد أمة كبيرة على مشروع عام كبير مثل هذا. فالاختلاف في مثله من السنن المطردة في الامم. وانما يظهر الرشد والارتقاء وضدهما في الاختلاف وبه تتمحص الآراء والافكار، فما أبعد الفرق بين قوم يختلفون في مصالح وطنهم نحو الذي ذكرنا من اختلاف المصريين وقوم يختلفون كاختلاف قوم آخرين كانوا يدعون أنهم أذكى من المصريين أذهانا وأوسع عرفانا وأرقى أخلاقا واجتماعا وأصدق وطنية وأقوى عزيمة فكان من أمر اختلافهم في أمر وطنهم وأمتهم أن ألف أعرضهم دعوى ثلاثة أحزاب في بلد واحد لجعل وطنهم تحت سيطرة الاجانب وكانت المباراة بينها فى تفضيل بعض الاجانب على بعض ولو استشاروا دهماء الامة لوجدوا سوادها الاعظم يؤثر الحرية والاستقلال

واذا كان الاجماع في أمثال هذا المشروع متعذرا فالرأي العام الذي يصح ان يسمى رأي الامة هو رأي أكثر العقلاء الباحثين الذين يمثلون طبقاتها المختلفة من علماء الشرع والقوانين وأرباب الفنون وكتاب الصحف والادباء والماليين وزعماء الزراع والصناع وغيرهم. وهذا الذي يسمى الرأي العام هو معيار ارتقاء الامة فاذا كان صوابا موافقا للمصلحة فهو برهان على رشد الامة. ولا يشترط في رشدها وارتقائها الاجتماعي أن يكون اكثر أفرادها كذلك فان أكثر افراد جميع الامم الراقية

الشهيرة يجهلون المصالح العامة و يفوضون امرها الى الزعماء الذين يقنعونهم بكفاءتهم وحسب الدهماء من سواد الطبقات أن يحسنوا اختيار الرجال للامور العامة ، ولم يتفق للامة المصرية ان أحسنت الاختيار في هذا الشأن كما أحسنته في اختيار الوفد المصري ولا سيما رئيسه الحر المخلص المستقل الرأي المنصف الرجاع الى ما يظهر له أنه الحق بكل ارتياح كما جربناه بنفسنا في مذاكراتنا له وسماعنا مناظراته لغيرنا من أهل العلم والرأي

واذا كان العلم بالمصلحة محصوراً في أفراد قلائل في الامة فهي غير رشيدة ولكن يرجى لها الرشد بسعي هؤلاء الافراد اذا كانوا من أولي الغيرة والاخلاص في خدمتها والتفاني في سبيل تربيتها وتعليمها ما تكون به رشيدة . فمن يطعن فيما سميناه رأي الامة العام فهو طاعن في رشدها . نكتفي بهذا التعليق الآن اذ لا يتسع هذا الجزء للشرح والاطناب في هذا الموضوع وموعدنا الجزء الآتي ان شاء الله تعالى

﴿ خاتمة المجلد الحادي والعشرين ﴾

باسم الله وحمده نختتم المجلد الحادي والعشرين لمجلتنا (المنار) وقد صدر الجزء الاول منه بتاريخ ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣٣٧ وهذا الجزء الاخير منه وان كان قد بدئ بتحريره في أواخر شهر ذي الحجة سنة ١٣٣٨ وجعل تاريخه آخر أيام هذا الشهر الذي ينتهي به هذا العام — لا يصدر الا في أواخر شهر صفر من سنة ١٣٣٩ فعلى هذا يكون هذا المجلد المؤلف من عشرة أجزاء قد صدر في مدة ٢٣ شهرا، ونكون قد أضعنا من عمر المنار سنة كاملة في زمن الحرب وسنة أخرى في عهدي الهدنة والصلح اللذين كانت فتنهما و بلاياهما أعظم من فتن ما قبلهما

اما السنة الاولى فقد تعمدنا إدماجها في سني الحرب و بينا أن سبب ذلك مالي اقتصادي ، واما السنة الاخرى وهي الاخيرة فقد كان سبب إضاعتها رحلتنا الى سورية ومكثنا فيها سنة كاملة مضطرين غير مختارين واهتمامنا بعد العودة في اصلاح ما اختل من أمر المطبعة في بضع سنين فقد سافرت الى سورية في السابع عشر من شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٣٣٧ ناويا أن أقيم فيها شهرا واحدا ، وعدت اليها في ١٩ ذي الحجة سنة ١٣٣٨ فكان من المقضي عليّ أن أقيم فيها سنة كاملة كنت في اكثر أيامها عاجزا عن العودة الى مصر، وكان هذا العجز في أوائل هذه السنة وفي آخرها باسباب

لا أملك دفعها مع السعي اليه (وسأبين ذلك في الرحلة السورية ان شاء الله تعالى)

ولما خرجت من القاهرة كان الجزء الخامس من المنار المؤرخ في غاية ذي العقدة من تلك السنة قد طبع معظمه ومادة الجزء السادس موجودة معدة للطبع ولكنهما صدرا بعد عدة أشهر من بدء سفري مطبوعين طبعا رديئا جدا كثيري الغلط، وبعد أشهر اخرى صدر الجزء السابع فكان أحسن طبعا وهو مفتتح بمقالة كتبتها في بيروت في شهر المحرم سنة ١٣٣٨ وأرسلتها الى مصر في منتصف ربيع الاول مع أحد المسافرين اليها فهذه الثلاثة الاجزاء هي كل ماصدر من المنار وأرسل الى سورية وانا فيها في مدة سنة كاملة. ولما عدت وجدت الجزء الثامن قد طبع أيضا وبدئ بطبع الجزء التاسع الذي كنت كتبت له التفسير وغيره في الشام منذ عدة أشهر وأرسلته الى مصر في البريد

وبعد استراحة بضعة أيام عزمت على اصدار الجزئين التاسع والعاشر معا في شهر المحرم من سنة ١٣٣٩ واصدار الجزء الاول من المجلد الثاني والعشرين فيه أيضا وشرعت في تحريره وفي تجديد ماخلق أو بلي من أدوات المطبعة وشراء حروف جديدة لها وتكثير العمال فيها فعرض موانع حالت دون انجاز العمل (منها) الاضطرار الى اتمام كتابين كان قد طبع اكثرهما، والى الشروع في طبع كتاب ديني عهد الى المطبعة بطبعه في أثناء سفري ولم يتيسر لها الشروع فيه لما يحتاج اليه طبعه من النظام والتصحيح والمقابلة على النسخ القديمة (ومنها) وهو أهمها ان بعض العمال قد خرجوا من المطبعة باغراء سماسرة السوء

وقد سبب اختلال أمر المطبعة في أثناء الحرب وامتداده الى هذه الاشهر من أواخر هذه السنة انها كانت كالمعلقة لا عمل فيها يبعث ربحه على العناية ولا يمكن اقفالها وتعطيلها لان المنار يطبع فيها وكانت النفقة عليه اضعاف مايأتي من المشتركين فيه لما بيناه في السنين السابقة، وهو علة عدم ارجاعه الى حجمه الاول ولا سيما مع بقاء غلاء الورق

ذلك عهد قد انقضى بارزائه وخسائره ونحمد الله على السلامة من غوائله، ثم على الدخول في عهد جديد نرجو أن يكون خيراً مما سبقه من سني الرخاء والسعة، وان كان العالم كله لا يزال يشكو غلاء كل شيء من مواد المعيشة والصناعة والزراعة، وما يتبع ذلك من غلاء الاجور واعتصاب العمال، فاننا نقرأ في وجه هذه العسرة العامة (ان مع العسر يسرا * ان مع العسر يسرا * فاذا فرغت فانصب * والى ربك فارغب)

فما من نوع من أنواع هذا العسر الا وينهزم امـ ـن يتبعانه، فقد كان ثمن ورق الطبع زاد في زمن الحرب على ما كان عليه قبلها ـا أو أكثر وهو على غلائه اليوم حتى فى معامله في أوربة قلما يزيد على خمسة أضعـ ـ . ولدينا في المطبعة الآن كتب كثيرة قد عهد الينا بطبعها منها الصغير والوسط والكبير الذي يزيد على عشر مجلدات ، فالدواعي متوفرة على توسيع عمل المطبعـة واتقانها واتقـان طبع المنار واصداره في أوقاته

وسنعيد المنار كل جزء من أجزاء المجلد الثاني والعشرين الى حجمه الاول فيكون عشرة كراريس وقد ابتعنا له ورقاً من أجود الورق، وسيكون معظمه من الحرف الجديد الذى تكون به مادته أوسع، وسنعنى بهذه المادة ان شاء الله تعالى

الدعوة الى الانتقاد على المنـار

اننا ندعو جميع من يطلع على المنار من علماء الدين وغيرهم من أهل العلم والرأي ان يكتبوا الينا بما يرون فيه من الخطإ في المسائل الدينية وغيرها اومانرى في مصلحة أمتنا وأوطاننا التى نعيش فيها . ونعد المنتقدين بنشر كل ما يرسل الينا من نقد مع بيان رأينا فيه بشرط أن يكون النقد مختصرا مؤيدا بالدليل نزيه العبارة كما فصلنا ذلك في المجلد السابع عشر وما قبله من المجلدات فيراجع في فواتحها أو في خواتمها

ونذكر عامة قراء المنـار بأن يطالبوا كل من يسمعون منه انتقادا في المنار بكتابته وارساله الى صاحبه لينشره فيه فيطلع قراؤه عليه وعلى ما يقرن به من قبول أورد ويأخذوا بما يرونه الحق ، والا خيف أن يبقى من لا يعرفون ذلك الخطأ على ضلالهم ، وهـذا لا يرضي من هو واثق من صحة انتقاده مخلص فيه . وليعـلموا أن كل منتقد يأبى أن يكتب انتقاده ويرسله الينا فهو فاسق مغتاب ، أو جاهل مرتاب ، دعاه الحسد أو حـ الشهرة الكاذبة الى الطعن فاستجاب، ومن كان هكذا فهو مأزور وان فرض انه أصاب : وأما من اجتهد وهو حسن النية فأخطأ فله أجر، ومن اجتهد كذلك وأصاب فله أجران . كما ورد في الحديث ، فنسأل الله تعالى ان يجعلنا من المجتهدين المخلصين ، وان يوفقنا للصواب ويثيبنا أفضل ما أثاب المتقين وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

Author
Title al-Manār
AP

For Reference

Not to be taken from this room

NO.705